مجمع القرآن الكريم بالشارقة

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ الثَّامِنُ والأَرْبَعُونَ

سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّامِنُ والأَرْبعُونَ

سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مجمَعِ القُرآنِ الكريمِ بالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ يسٓ

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾

[يس: 51]

العلاقةُ بين مُعاجلةِ الصَّيحة وسُرعتِها، وبين بعثِ النّاسِ من قُبورِهم

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا دلَّ قولُه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ على الموتِ قطعًا أعقبَه بالبعثِ، ولذلك عبَّرَ فيه بالنَّفخ فإنَّه معروفٌ في إفاضةِ الرّوحِ؛ فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾[1].

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه ﷻ بما يلقَونَ في الأولى أخبرَ بما يلقَونَ في الثّانية إذا بُعِثوا، فقالَ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصُّورِ﴾: (صور) الصّورُ: القَرْنُ[3]، ويُقالُ: هو جمعُ صورةٍ، وتُجمعُ الكلمة على (صوْرٍ) بوزن: (بوقٍ)، وتُجمَع أيضًا على (صوَرٍ) بوزنِ: (عُمَرَ)، و(عِنَبٍ)، إذ يُنفَخُ بهذا القرنِ في صوَرِ المَوتَى فيجعلُ اللّه سبحانَه ذلك سببًا لعَودِ الصّوَرِ والأرواحِ إلى أجسامِها[4]، وعلى ما سبقَ فالصّورُ هنا: هو القَرْنُ الَّذي يُنْفَخُ فيه، وهو البوقُ، واللّه أَعلمُ بحقيقته، والنّافخُ فيه: إسرافيلُ عليه السلام[5].

2) ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: (جدث) الجدَثُ: القبرُ، والجمعُ: أجدُثٌ وأجداثٌ، وتُبدَلُ ثاؤه فاءً، فيُقالُ: جَدَفٌ وأجدافٌ، كما يقال: ثوم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 141.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 581.
(3) الجوهري، الصحاح: (صور).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صور).
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 3/ 1273.

وفوم، وثمَّ وفمَّ[1]، والجدَثُ: القبرُ، ومعناه المحوَريُّ: نَبْثُ التُّرابِ وإخراجُه بقوَّةٍ من قطعةٍ عريضةٍ منَ الأرضِ[2].

3) ﴿يَنسِلُونَ﴾: (نسل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى سَلِّ شَيْءٍ وانْسِلالِه، والنَّسْلُ: الوَلَدُ[3]، والنَّسْل: يدُلُّ على انسلالِ شيءٍ بسُرعة وانفِصالٍ عنه، ونسَلَ الشَّيءُ نُسولًا: خرَجَ وسقَط[4]، والنَّسَلانُ: مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراع، وبه سُمّيت مشيةُ الذِّئبِ إذا أسرعَ[5]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: 96][6]، والمُرادُ بالنَّسلِ في الآيةِ: المشيُ السَّريعُ.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

خروجُ الأمواتِ منَ القُبورِ أحياءً يُسارِعونَ للوُقوفِ في المحشرِ

ونُفِخَ في الصّورِ نفخةٌ ثانيةٌ للبعثِ يومَ القيامةِ، فإذا هم يخرجونَ منَ القُبورِ مُسرِعينَ إلى ربِّهم، وهذا من قُدرةِ اللّهِ الشّاملةِ، والحكمةِ الكاملةِ؛ حيثُ كان صوتٌ واحدٌ يُحيي تارةً، ويُميتُ أُخرَى، كأنَّه رُكِّبَ فيه منَ الأسرارِ أنَّه يكسبُ الشَّيءَ ضدَّ ما هو عليه من حياةٍ أو موتٍ، أو غشيٍ أو إفاقةٍ[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآيةِ:

النَّفخةُ الثّانيةُ للبعثِ والإحياءِ بعد الموتِ

جاءتِ الآيةُ على طريقِ الوصلِ بالواو لعطفِها على قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾؛ لاشتراكِهما في الخبريَّةِ، وفي الجهةِ الجامعةِ، وهي كونُ الكلامِ في أحداثِ يوم القيامةِ وما بعدَه، فالنَّفخُ

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (جدث).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي، (جدث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسل).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات: (نسل).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (نسل).
(6) الراغب، المفردات: (نسل).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 454، 455، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 39، 40، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 142.

في الصّورِ لَفْقٌ للصَّيحة التي تكونُ للموتِ، ومُتعلِّقٌ بها، ومضمومٌ إليها؛ لأنَّ النَّفخَ يكونُ بعد الصَّيحة، وفيه تصريحٌ بأنَّ هذه النَّفخةَ غيرُ الصَّيحةِ؛ لِما يقتَضيه العطفُ من معنى المُغايرةِ بين المعطوفَين، ثمَّ إنَّه لـمّا كانت الصَّيحةُ بمعنى الموتِ ذكر ما يُقابلُها على سبيلِ التَّضادِّ، وهو النَّفخُ لأجلِ الإحياءِ والخروجِ من القبورِ، وهذه النَّفخةُ الثّانيةُ التي في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: 68]؛ لتكونَ الجهةُ الجامعةُ بينَهما بطريقِ الجامعِ الوهميِّ، فعطفَ النَّفخ في الصّور على ذكرِ الصَّيحة التي هي النَّفخةُ الأولى، ليُفيدَ الجمعُ بينهما من مُقتدرٍ واحد، فسبحان مَن جعلَ نفختَين يقعُ عندهما أمران مُتضادّان، الإماتةُ والإحياءُ، فجعل صوتًا واحدًا يورِثُ تزلزلًا وتفريقًا في الأجساد وصوتًا آخرَ يورِثُ حياةَ الأمواتِ فيجمعُها ويخرجُها، حيث كان صوتٌ واحدٌ يُحيي تارةً ويُميتُ أخرى، ففيه إيذانٌ بأنَّ المُؤثِّر هو اللهُ، وأنَّه وحدَه القادرُ على هذا، وأنَّ الصَّوتَ أو النَّفخَ علامةٌ ليس غيرُ، والحاصِلُ أنَّ النَّفختَين يورِثان تزلزُلًا وانتقالًا للأجساد، فعند الاجتماع تتفرَّقُ وعند الافتراقِ تجتمعُ بفعلِ اللهِ القادرِ المُقتَدرِ(1).

وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الواوَ اعتراضيَّةٌ، وهذا الاعتراضُ واقعٌ بين جملة: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وجملة: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا﴾ [يس: 66]، والمقصودُ: وعظُهم بالبعثِ الذي أنكروه وبما وراءَه(2).

سرُّ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتَضَى الظّاهِرِ:

بيانُ أنَّ تحقُّقَ وُقوعِ النَّفخِ للنُّشورِ هو بقدرِ الله المقدور

لـمّا كان نفخُ الصّورِ ليوم البعثِ في المُستقبلِ كان في التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ من قَبيلِ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتَضى الظّاهرِ، وفائدتُه الإيذانُ بتحقُّقِ وقوعِ النَّفخِ في الصّورِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 291، وابن عادل، اللباب: 16/ 240.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 36.

علَّةُ إيثارِ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

النَّفخُ لا يتوقَّفُ في نفسِ الأمرِ على نافخٍ فهو بأمرِ الله تعالى

عُبِّر بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِه: ﴿وَنُفِخَ﴾ لأنَّ المقصودَ بيانُ وقوعِ النَّفخِ وحصولِه؛ أي: إيذانُ المُخاطَبين بما يقعُ منَ الأحداثِ بعد الموتِ، وليس المقصودُ بيانَ مَن النّافخِ؛ أي: أنَّ النَّفخَ لا يتوقَّفُ في نفسِ الأمرِ على نافخٍ مُعيَّنٍ ليكونَ عنه ما يُريدُ سبحانَه من إحياءِ الأمواتِ وبعثِهم، بل مَن أذنَ له اللّهُ كائنًا مَن كان يكونُ من نفخِه ما ذُكرَ، وإن كنّا نعلَمُ أنَّ المأذونَ له إسرافيلُ عليه السلام(1).

فائدةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِذَا﴾:

في وقتِ النَّفخِ يحيى النّاسُ ويخرُجونَ منَ الأجداثِ مُباشرةً

تُفيدُ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا﴾ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وهو المُناسِبُ لمعنى المُفاجأةِ في (إذا)، والمعنى يترتَّبُ على النَّفخِ في الصّورِ ويعقبُه مُفاجأتُهم في خروجِهم سراعًا منَ الأجداثِ إلى ربِّهم، ليُفيدَ أنَّه في وقتِ النَّفخِ يحيى النّاسُ ويخرُجونَ منَ الأجداثِ مُباشرةً.

دلالةُ (إذا) في السّياقِ:

النَّفخُ في الصّورِ يكونُ غمًّا على الكافرين ورحمةً للمُؤمنين

(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ للمُفاجأة؛ بمعنى: حصولِ مضمونِ الجملةِ التي بعدَها سريعًا وبدونِ تهيُّؤٍ(2)، لتُفيدَ (إذا) المُفاجأةَ بجميعِ ما تضمَّنَته الجملةُ التي بعدَها، والمعنى: ونُفِخَ في الصّورِ فإذا هم في ذلك الوقتِ ينسِلونَ منَ الأجداثِ إلى ربِّهم؛ ليُفيدَ مُفاجأتَهم بإحيائِهم وسماعِهم صوتَ النَّفخِ وهم في قُبورِهم، ومُفاجأتهم بالخروجِ من قُبورِهم وسرعةِ مشيِهم إلى ربِّهم، لأجلِ الحسابِ، فتتعدَّدُ المُفاجآتُ غمًّا وهمًّا على الكافرين، ورحمةً وفرحًا للمُؤمنين.

دلالةُ الضَّميرِ ﴿هُم﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

النّاسُ برُمَّتِهم يخرجون منَ الأجداثِ إلى ربِّهم ينسِلون

الضَّميرُ ﴿هُم﴾ عائدٌ إلى ما عادت إليه الضَّمائرُ السّابقةُ، فالمُرادُ الكفّارُ الذين يُنكِرون البعثَ، ويجوزُ أن يعودَ إلى معلومٍ من

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 142.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 36.

المقامِ؛ أي: فإذا النّاسُ كلُّهم منَ الأجداثِ إلى ربِّهم ينسِلون[1]، وهذا هو الظّاهرُ لمجيءِ ﴿هُم﴾ في قولِه: ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنى جميع النّاسِ، بحسبِ ما سيأتي، فإذا كان المُرادُ معنى العموم في ﴿هُم﴾ يدخلُ في المذكور الكفّارُ المُكذِّبون بالبعثِ دخولًا أوَّليًّا بمعونةِ السّياقِ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تـنـوُّع فـوائـدِ تـقـديـمِ الـجـارِّ والمـجـرورِ لفظًا ومعنًى

قُدِّمَ ﴿مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ و﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ على الفعلِ ﴿يَنسِلُونَ﴾، وأصلُ الكلامِ: فإذا هم ينسِلونَ منَ الأجداثِ إلى ربِّهم، وفوائدُ التَّقديم في الموضِعَين خمسةٌ: الأولى: الاهتمامُ بابتداء الغايةِ وانتهائِها؛ أي: بابتداءِ موضعِ خروجِهم وانتهاءِ غايتِهم في الخروجِ، والثّانيةُ: التَّخصيصُ بمعنَى الحصرِ؛ أي: ليس لهم موضعٌ آخرُ يخرُجون منه سوى منَ الأجداثِ وإذا خرَجوا ليس لهم موضعٌ آخرُ ينتَهونَ إليه سوى أن يخرُجوا إلى ربِّهم لأجلِ الحسابِ، والثّالثةُ: هي أنَّه لـمّا ذكر ابتداءَ الغايةِ وأعقبَه بانتهائِها أفضى الكلامُ إلى ذكرِ فعلٍ يدلُّ على الخروجِ، والرّابعةُ: هي أنَّه لـمّا ذكرَ ابتداء الغاية وأعقبَه بانتهائها مباشرةً أشعرَ بأنَّ الخروجَ يكون سريعًا، فكان لفظُ: ﴿يَنسِلُونَ﴾ أحقَّ بالذِّكر لِمُقتَضَى البلاغةِ نظمًا ومعنًى، والخامسةُ: لـمّا تقدَّم الجارُّ والمجرورُ في الموضِعَين كان في تأخيرِ الفعلِ: ﴿يَنسِلُونَ﴾ رعايةٌ للفاصلةِ ورُؤوسِ الآيِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾:

الإشـــارةُ إلى الخروجِ بسُرعةٍ إلـــى الـحـشـرِ للوُقوفِ بين يدَيِ الله تعالى

لـمّا كان الجدَثُ بمعنى نَبْثِ التُّرابِ وإخراجِه بقوَّةٍ من قطعةٍ عريضةٍ منَ الأرضِ[2] عبَّرَ بالأجداثِ في قولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ للإشارةِ إلى الخروجِ من هذا الموضعِ بسرعةٍ إلى الحشرِ يومَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 36.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جدث).

القيامةِ، ولفظُ (الأجداثِ) الواردُ في ثلاثةِ مواضعَ في الاستعمالِ القرآنيِّ مقصورٌ على هذا المعنى، أحدُها في الآيةِ المذكورةِ، والثاني: في قولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: 7]، والثالث: في قولِه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: 43].

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

التَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ مُناسبٌ لجمعِ الأجسادِ وبعثِها

قد يُقالُ: لِمَ قال اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ مع أنَّ الموضعَ موضعُ هيبةٍ؟ وقد تقدَّم ذكرُ الكافرِ، ولفظُ الرَّبِّ يدلُّ على الرَّحمةِ والإحسانِ، فلو قيلَ بدلَ الرَّبِّ المُضافِ إليهم لفظٌ دالٌّ على الهيبةِ، هل يكونُ أليقَ بالمقامِ أم لا؟.

والجوابُ: هو أنَّ هذا اللَّفظَ أليَقُ بالمقامِ، وأبلَغُ في النَّظمِ، وأحسَنُ ما يكونُ؛ لأنَّ مَن أساء واضطرَّ إلى التَّوجُّه إلى مَن أحسنَ إليه يكونُ ذلك أشدَّ ألَمًا وأكثرَ ندَمًا من غيرِه[1]، ففيه تبكيتٌ لهم وتوبيخٌ على سوءِ أفعالِهم وقُبحِ كفرِهم، والتَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ أيضًا مُناسبٌ لجمعِ الأجسادِ وبعثِها.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿يَنسِلُونَ﴾:

النّاسُ يمشونَ سِراعًا ليس لهم حيلةٌ سوى النَّسلِ إلى ربِّهم

لـمّا كان المُسيءُ إذا أراد أن يذهبَ إلى موضعِ مُحاسبتِه وعقابِه يُقدِّمُ رجلًا ويُؤخِّرُ أُخرى خوفًا وهلَعًا كان في التَّعبيرِ بـ﴿يَنسِلُونَ﴾ تنبيهًا على كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى ونُفوذِ إرادتِه حيثُ يُنفَخُ في الصّورِ، ويعدون عَدوًا إلى موضعِ الحشرِ، بمعنى: أنَّهم يمشونَ إلى موضعِ الحشرِ خاضِعينَ مُجبَرين[2] ليس لهم حيلةٌ سِوَى النَّسلِ.

مِن عجائبِ القيامةِ سُرعةُ المشيِ بعد الهجعةِ في القبورِ

لـمّا كان لفظُ (نسَلَ) يدُلُّ على خروجٍ من ضيقٍ إلى سعةٍ مع سرعةٍ في المشيِ ناسبَ أن يُعبَّر بلفظِ: ﴿يَنسِلُونَ﴾ دونَ غيرِه في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 291.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 293.

هذا السّياقِ؛ للإيذانِ بأنَّهم يخرجون أحياءً منَ الأجداثِ الضَّيِّقة يمشون بسرعةٍ ونشاطٍ إلى ربِّهم[1]، وفيه معنى عجيبٌ؛ إذ أخبرَ اللّه تعالى عن سرعة مشيهم مباشرةً وبغتةً بعد تلك الرَّقدةِ الطَّويلة في القبور؛ ليُفيدَ أنَّ ما يقعُ في يوم الحشر على خلافِ ما كان يجري في الحياة الدُّنيا.

توجيهُ التَّشابُه اللَّفظيّ بين هذه الآية وآيةِ سورةِ الزُّمر(68):

إحياءُ الاجسادِ والقيامُ والنَّسلُ كلُّها تقعُ في زمانِ النَّفخِ في الصّورِ

قالَ اللّه تَعالَى في هذه الآيةِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: 68]، والقيامُ غيرُ النَّسَلانِ، وقولُه في الموضعَين ﴿فَإِذَا هُم﴾ يقتضي أن يكونا معًا، وبيانُه أن يُقالَ: الجمعُ والتَّركيبُ والإحياءُ للأجسادِ والقيامُ والعَدْوُ كلُّها تقعُ في زمانٍ واحدٍ هو زمانُ النَّفخِ في الصّورِ كما يدلُّ عليه (إذا) التي للمُفاجأة، بمعنى: أنَّ الأمورَ المُتعاقبةَ التي لا يتخلَّلُ بينها زمانٌ ومُهلةٌ تُجعَلُ كأنَّها واقعةٌ في زمانٍ واحدٍ؛ للإيذانِ بكمالِ قُدرتِه سبحانَه في ذلك اليوم العظيم.

ثمَّ إنَّ الإنسانَ لا ينسلُ في مشيِه إلّا قائمًا؛ بمعنى: أنَّ قيامَهم ينظرون لا يُنافي المشيَ السَّريع، بل هو مُؤكِّدٌ له ومُعينٌ عليه؛ لأنَّ الماشيَ قائمٌ، كما أنَّ المشيَ لا يُنافي النَّظرَ أيضًا[2].

والمعنى: ونُفِخَ في الصّورِ نفخةٌ ثانيةٌ للبعثِ والنُّشورِ والخروجِ، فإذا هم جميعًا يُسرِعونَ للقاءِ ربِّهم للحسابِ والجزاءِ[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأجداثُ والقُبورُ:

القبرُ أعمُّ منَ الجدَثِ في الاستعمالِ

القبرُ مَدفَنُ الميِّتِ ومَقرُّه، وأمّا الجدَثُ فهو وإن كان بمعنَى القبرِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 527، وابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 196، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 2359.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 291، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 540.

(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 46.

لكنَّه خُصِّصَ في الاستعمال القرآنيِّ بما يكونُ منه خروجُ النّاسِ سراعًا إلى الحشرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧﴾ [القمر: 7]، وقولِه: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: 43]، فجميعُها تُفيدُ أنَّ الجدَثَ هو موضعُ اضطجاعِ الميِّتِ الذي يُحييه اللّه تعالى فيه، ثمَّ يخرجُ منه إلى الحشرِ سريعًا، فالقبرُ أعمُّ منَ الجدَثِ؛ لأنَّه يتناولُ موضعَ الميِّتِ من بعدِ الدَّفنِ إلى وقتِ الحشرِ، ومن هنا ناسبَ اختيارُ لفظِ (الأجداثِ) في الآيةِ لسرعةِ خُروجِهم من قُبورِهم إلى الحشرِ.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾ [يس: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سؤالُ المُنكِرِ عند بَعثِه عمَّن بعثَه من مرقَدِه

لـمّا تشوَّفَتِ النَّفسُ إلى سماعِ ما يقولون إذا عاينوا ما كانوا يُنكِرون استأنَف فقالَ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[1]، ولأنَّ الكفّار يعتقِدون في الدّار الدُّنيا أنَّهم لا يُبعثون من قُبورِهم، فلمّا خرَجوا منَ الأجداثِ مُسرعين وعاينوا ما كذَّبوا به في محشَرِهم قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ﴾[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرۡقَدِنَاۜۗ﴾: (رقد) أصلٌ يدُلُّ على النَّومِ[3]؛ و(الرُّقادُ والرُّقودُ): النَّومُ باللَّيلِ، أو هو المُستَطابُ منَ النَّومِ القليلِ[4]، و(المرقدُ) يحتملُ أن يكون مصدرًا ميميًّا، وأن يكونَ اسمَ مكانٍ للقبرِ؛ أي: المضجَع، وسُمّي القبرُ مَرقدًا؛ لأنَّ النَّومَ أخو الموتِ[5]، و(أرقَدَه): أنامَه، و(أرقَدَ بالمكانِ): أقامَ به[6]، و(الرَّقدةُ) أيضًا: همدةُ ما بينَ الدُّنيا والآخرةِ[7]، والمَرقَدُ في الآيةِ: مكانُ الرُّقادِ، وقد أطلَقوا الرُّقادَ على الموتِ والاضطجاعِ في القُبورِ تشبيهًا بحالةِ الرّاقدِ[8].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 142.
(2) ابن كثير، تفسيرالقرآن العظيم: 6/ 517.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقد).
(4) الراغب، المفردات: (رقد).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (رقد).
(6) الجوهري، الصحاح: (رقد).
(7) الخليل، العين: (رقد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 37.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ الكافرون عند خُروجِهم منَ الأجداث: يا قومَنا انظُروا هلاكَنا وتعجَّبوا منه، مَن بعَثَنا من قُبورِنا بعد موتِنا؟ حينَئذٍ يُجيبُهم المُؤمنون فيقولون لهم: هذا هو البعثُ الذي وعَدَ به الرَّحمنُ، وقد صدقَ رسلُه فيما أخبرونا به(1).

تعجُّبُ الكافرين مـن أهـوالِ البعثِ؛ لأنَّهم كانوا لا يتوقَّعون نُشورًا

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الفصلِ في الآيةِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ على طريقِ الفصلِ؛ لأنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا سألَ: فماذا يكونُ حالُ المُشركين عندَ النَّفخِ في الصّورِ وقبلَ أن ينسِلوا؟ فأُجيبَ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾.

تنبيهُ السّامعين على ما يقولُه الكافرون حين يُنفَخُ في الصّورِ وجهٌ للعظةِ والاعتبارِ

ومُناسبةُ مجيءِ الجملةِ استئنافًا تنبيهُ السّامعينَ على ما يقولُه الكافرون حين يُنفَخُ في الصّورِ، فيعتَبروا، وفيه إيجازٌ بتكثيرِ المعنى وتقليلِ اللَّفظِ، كما أنَّه لمّا كان المقصودُ ذكرَ الأحداثِ وبيانَ تسلسُلِها ناسبَ عدمَ انقطاعِ الكلامِ بذكرِ السُّؤالِ(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

الإيذانُ بأنَّ الفعلَ مُتحقِّقُ الوقوعِ لا محالةَ

أوثرَ حكايةُ قولِ الكافرين بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿قَالُواْ﴾ مع كونِه لم يقَعْ بعدُ؛ إتباعًا لحكايةِ ما قبلَه بصيغةِ المُضيِّ؛ لبيانِ أنَّه مُتحقِّقُ الوقوعِ(3).

دلالةُ الضَّميرِ في جملة: ﴿قَالُواْ﴾:

قولُهم بالويل مُناسبٌ لِما يشهدونَه من هَولٍ

لمّا كان الضَّميرُ يعودُ إلى ما قبلَه بما اتَّصفَ به دلَّ على أنَّ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 457، 458، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 581، 582، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 20.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 252.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 37.

الضَّميرَ في: ﴿قَالُواْ﴾ عائدٌ إلى الكافرين بما اتَّصفوا به منَ الإعراضِ عن آياتِ اللّه، وتكذيبِهم بالبعثِ والذين ينسِلون منَ الأجداثِ في وقتِ النَّفخِ في الصّورِ، فيكونُ دعاؤُهم بالويلِ مُستحقًّا لهم؛ أي: يُنادونَ الويل بما عملوا وقدَّموا.

دلالةُ لفظِ (ويل) في السّياقِ:

الويلُ آهةٌ تُعبِّر عمّا في النُّفوسِ مِنَ الحسرةِ والألمِ

الويلُ كلمةٌ يقولُها الواقعُ في مُصيبةٍ، أو المُتحسِّرُ للدَّلالة على سوءِ الحالِ، وإنَّما قالوا ذلك؛ لأنَّهم عايَنوا ما أُعِدَّ لهم منَ العذابِ عندَما بُعِثوا[1].

نكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾:

الصّياحُ بالويلِ كان صادرًا من كلِّ واحدٍ، وعبَّر بالجمعِ عن جميعِهم

لـمّا جاء لفظُ: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ بالإضافةِ إلى ضمير الجمعِ، أفادَ أنَّ جميعَهم قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾، ولـمّا كان كلُّ واحدٍ في حينِه مشغولًا بنفسِه كان المعنى أنَّ كلَّ واحدٍ قال يا ويلي، فعبِّرَ بصيغةِ الجمعِ للإشعارِ بأنَّ جميعَ الكافرينَ المُكذِّبين يقولُ هذا القولَ.

اختصاصُ الويلِ بهم دليلٌ على فظاعةِ الحالِ

وفي إضافةِ الويلِ إلى الضَّميرِ (نا) إفادةُ الاختصاصِ؛ بمعنى: اختصاصِ الويلِ بهم دونَ غيرِهم.

بلاغةُ المجازِ في النِّداءِ:

بيانُ الحالةِ العجيبةِ التي يكونُ عليها الكافرونَ يومَ الحشرِ

لـمّا كان الأصلُ في النِّداء الذي هو بمعنى طلبِ الإقبالِ للعاقلِ كان نداءُ الويلِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ على طريقِ المجازِ؛ لتنزيلِه منزلةَ العقلاءِ؛ أي: منزلةَ مَن يسمَعُ فيُنادَى ليحضُرَ، فنادَوا بالهلاكِ لـمّا عايَنوا أهوالَ القيامةِ وما فيها منَ الشِّدَّةِ العظيمةِ، فيكونُ نداؤُهم الويلَ بتقدير: يا ويلُ أقبِل واحضُرْ، فهذا وقتُ إقبالِكَ وأوانُ حُضورِكَ، ففي النِّداءِ معنى التَّأسُّفِ والتَّندُّمِ على ما تقدَّمَ والخوفِ والهلَعِ ممّا يرَون منَ الأهوالِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 37.

وأجاز بعضُ النُّحاة والمُفسِّرين أن يكون المُنادى محذوفًا بتقديرِ: يا قومُ ويلَنا[1]، وعلى هذا الوجهِ لا مجازَ في النِّداءِ، ونكتةُ حذفِ المُنادى في هذا الأسلوبِ بيانُ عظمةِ الهلاكِ الذي يرَونَه، وغلبتِه بين الكافرين، بحيثُ يُنادَى له كلُّ قوم، فكلُّ مَن يُعاينُ ذلك الهلاكَ يُنادي الويلَ، والمعنى: ليس بحضرتِنا اليومَ شيءٌ يُنادِمُنا إلّا الويلُ، وعلى كِلا الوجهَين في النِّداء يتولَّدُ منه التَّعجُّبُ ممّا يرَون، فكأنَّ التَّقدير على الوجهِ الأوَّل: يا عجَبًا احضُرْ، يا ويلُ احضُرْ، وعلى الوجهِ الثّاني: يا قومُ عجبًا وويلًا لنا، ويُفيدُ حرفُ النِّداء أيضًا تنبيهَ كلِّ مَن يسمعُ النِّداءَ على عِظَمِ ما هم فيه.

دلالةُ الاستفهامِ في السّياقِ:

الاستفهامُ يحتملُ أن يكونَ حقيقيًّا، وأن يكونَ على المجازِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ عن الذي بعثَهم من مرقدِهم، وهو سؤالٌ حقيقيٌّ، ولا يخلو منَ التَّعجُّبِ؛ أي: إنَّهم جهلوا الباعثَ مع علمِهم بأنَّه تعالى هو الباعثُ؛ لعِظَمِ هولِ الموقفِ وكمالِ حيرتِهم وفرطِ دهشتِهم وحسرتِهم، ويحتملُ أن يكون السُّؤالُ ليس على حقيقتِه[2]، فيكونُ مجازًا عن إظهارِ التَّحسُّرِ والغمِّ الذي أصابَهم منَ البعث وما عايَنوه من هولِ الموقفِ، فكأنَّهم كانوا يتمنَّونَ أن لا يُبعَثوا.

توجيهُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

لـمّا كان المرقدُ اسمَ مكانٍ منَ الرُّقودِ - وهو النَّومُ القليلُ الذي فيه سكونٌ واستطابةٌ - أفادَ أنَّ لفظَ: ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ بمعنى الموضعِ الذي يكونُ في قُبورِهم، ويحتملُ أن يكونَ ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ مصدرًا ميميًّا بمعنى: رُقادِنا، وعبَّر بالمرقدِ الذي هو اسمُ مكانٍ على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ[3]، بتشبيهِ مضجَعِهم في قُبورِهم بالمكانِ الذي ناموا فيه وسكَنوا، إشعارًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 457، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 142.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 162.
(3) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 458.

اختلاطُ عقولِ الكافرين واضطرابُها لهولِ الفزعِ الأكبرِ

بهَولِ ما يرَونَ؛ أي: إنَّهم لـمّا عايَنوا عذابَ الآخرةِ، صارَ عذابُ القبرِ لهم كالرُّقادِ في جنبِ ما عايَنوه من عذابِ الآخرةِ[1].

وعلى القول: إنَّ المرقدَ مصدرٌ ميميٌّ يكونُ الكلامُ من قَبيلِ تشبيهِ رُقادِهم في قُبورِهم بنَومِهم في مضاجِعِهم، وتكونُ الاستعارةُ أصليَّةً[2]، أو تكونُ الاستعارةُ من وجهٍ آخرَ، وذلك بأن شُبِّهَ موتُهم بالنَّومِ بجامعِ عدَمِ ظُهورِ الأفعالِ الاختياريَّة لتعطُّلِ الحواسِّ وانقطاعِ تعلُّقِ الرّوح بالبدنِ؛ فإنَّ كلًّا منَ النّائم والميِّتِ لا يظهرُ فيه فعلٌ، ونكتةُ العدولِ إلى الاستعارةِ هو أنَّ النَّومَ أظهَرُ في تعطُّلِ الحواسِّ منَ الموتِ، والاستيقاظُ أظهرُ وأوضحُ للعيانِ من الإحياءِ بعد الموت؛ لتكرُّرِ النَّوم واليقظة عليهم من قبلُ، فهم يعلمون حالَ النّائم؛ لتكرُّرِه عليهم، وليس كذلك الموتُ والحياةُ[3].

أو يكون الكلامُ على الحقيقةِ، بمعنى: أنَّهم ينامونَ بين النَّفخةِ الأولى والثّانية؛ أي: يرفعُ اللّه تعالى عنهم العذابَ بينَ النَّفختَين، فيرقُدونَ فإذا بُعِثوا بعد النَّفخةِ الأخيرةِ وعاينوا القيامةَ دعَوا بالوَيلِ، فالرَّقدة بين النَّفختَين[4] كما ذكره بعضُ المُفسِّرين، أو ظنّوا - لاختلاطِ عقولِهم بما شاهدوا منَ الهولِ، وما داخلَهُم منَ الفزعِ - أنَّهم كانوا نيامًا، أو شكّوا في أنَّهم كانوا نيامًا فنُبِّهوا، أو كانوا موتَى لكمال تحيُّرِهم حيثُ لم يبقَ لهم إدراكٌ، وكان الغالبُ على ظنِّهم هو البعثَ، فجمَعوا بين الأمرَين، فذكَروا البعثَ والمرقدَ[5]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ المرقدُ على الحقيقةِ، ولا مجازَ فيه[6].

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 528، والثعلبي، الكشف والبيان: 22/ 283، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 367.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 74.

(3) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 93، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 161.

(4) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 20/ 523، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 17.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 292، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 270، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 172.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 31.

سببُ إيثارِ مجيءِ لفظِ: ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ بالإفرادِ:

على القولِ: إنَّ المرقدَ اسمُ مكانٍ فقد جيءِ بلفظ: ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ بصيغةِ الإفرادِ مع أنَّ الكلام على صيغة جمعِ المُتكلِّمين؛ أي: كان الظّاهرُ أن يُقالَ: (من مراقدِنا)، لكنَّه عُدِلَ إلى المفردِ للإشعار بأنَّهم على تكاثُرِهم وتباعُدِهم كانوا في القيامِ منَ المرقد كنفسٍ واحدةٍ[1]؛ أي: في الوصفِ الذي يُبعَثون به، وفي الحالِ الذي يكونون عليه، وفي نفسِ الزَّمانِ والمكانِ.

النّاسُ على تكاثُرِهم كانوا في القيامِ منَ المرقدِ كنفسٍ واحدةٍ

تنوُّعُ المعنى لتنوُّعِ الوقفِ والابتداءِ:

الوقفُ على: ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وقفٌ حسَنٌ[2]، أو هو تامٌّ عند الأكثر[3]، ثمَّ يبتدئُ القارئُ بقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فيكونُ ﴿هَٰذَا﴾ اسمَ إشارةٍ يعودُ على البعثِ منَ المرقدِ، وهو مبتدأ وخبرُه: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وقد وقفَ عليه حفصٌ عن عاصم وسكتَ سكتةً خفيفةً، ويجوزُ الوقوفُ على: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾، فيكونُ اسمُ الإشارةِ في محلِّ جرٍّ صفةً لـ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، ويكونُ ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبرًا لمُبتدإٍ محذوفٍ تقديرُه: هذا، أو يكونُ ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأً وخبرُه محذوفٌ، وتقديرُ الكلامِ: ما وعدَ الرَّحمنُ وصدَّقَ المُرسلون حقٌّ[4].

كلُّ وقفٍ مذكورٍ عندَ القرّاءِ يستندُ إلى معنًى مأثورٍ

بديعُ التَّجاذُبِ في الآيةِ:

في الآيةِ فنٌّ بديعيٌّ لطيفٌ، وهو التَّجاذُبُ في لفظِ: ﴿هَٰذَا﴾؛ لأنَّ اسمَ الإشارة يحتملُ أن يكونَ من تمامِ السّابق، ويحتملُ أن يكون منَ اللّاحقِ[5]، ويجري في كلِّ ما يكون من قبيل وقف التَّعانُق، فإذا وُقِفَ على ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وجبَ وصلُ ﴿هَٰذَا﴾ بما بعدَه، وإذا وُصِلَ الكلامُ

الوقفُ المُشيرُ إلى التَّعانُقِ فيه تجاذبٌ في المعنى

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 143.

(2) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والبتدا: 2/ 854.

(3) الأشموني، منار الهدى: 2/ 190.

(4) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والبتدا: 2/ 854، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 162.

(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 246، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 162.

بـ﴿هَٰذَا﴾، وجبَ الوقفُ عليه، والمعنى يصحُّ على الوجهين، وعلى الوجه الأوَّلِ؛ أي: أن يكونَ صفةً لـ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ هو الأقوى في المعنى، ويُؤيِّدُه أنَّ الوقفَ على اسم الإشارة وقفٌ حسَنٌ.

بلاغةُ العدول بطريقِ الأسلوبِ الحكيمِ:

البقاءُ في القُبورِ كنوم النّائم، ثمَّ يستيقظُ الميّتُ مُسرعًا إلى ربِّه

كان الظّاهرُ أن يكون جوابُ سؤالِ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ بتعيينِ الفاعلِ، وذكرِ اسم الباعثِ بأن يُقالَ: (اللّه) أو (الرَّحمنُ)، لكنَّه عدَلَ عن الجوابِ المُطابقِ إلى قولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، على طريقِ الأسلوبِ الحكيم[1]، ليُفيدَ معنيَي تعيينِ الباعثِ، وصدقِ الواعدِ، بمعنى: بعثَكُم الرَّحمن الذي وعدَكُم البعثَ، وأنبأكُم به الرُّسلُ، والظّاهرُ أنَّ هذا الجوابَ من المؤمنين أو من الملائكة[2]، فجيءَ به على طريقةٍ سيئَتْ بها قلوبُهم، ونُعيَتْ إليهم أحوالُهم، وذكَروا كفرَهم وتكذيبَهم، وأخبروا بوقوعِ ما أُنذِروا به تبكيتًا لهم وتوبيخًا وتقريعًا، مع بيانِ الذي بعثَهم من مرقدِهم، وكأنَّه قيل لهم: ليس بالبعثِ الذي عرفتُموه وهو بعثُ النّائم من مَرقَدِه، حتَّى يهمَّكم السُّؤالُ عن الباعثِ، فإنَّ الذي يُهمُّكم هو السُّؤالُ عن نفسِ البعثِ ماذا هو دونَ الباعثِ، والذي بعثَكُم هو الرَّحمنُ الذي وعدَكُم ذلك في كتُبِه وأرسلَ إليكم الرُّسُلَ فصدَقوكم فيه[3]، فأفادَ العدولُ إلى الأسلوبِ الحكيم إشعارَهم بتكذيبهم وتصويرَ حالِ كُفرِهم ليكونَ أهولَ، وفي التَّفريعِ على ما تقدَّم أدخلَ[4].

وذهب بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ هذا من كلامِ الكافرين وجوابِهم

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 67، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 246.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 533، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 582، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 172.

(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 368، والزمخشري، الكشاف: 4/ 21، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 172.

(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 67.

لأنفسِهم، حيثُ يتذكَّرون ما سمِعوه منَ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فيُجيبونَ به أنفسَهم أو بعضَهم بعضًا، فيكون إقرارًا منهم حين لم ينفَعْهم الإقرارُ، كما في قولِه تعالى فيما أخبرَ به عن قول الكافرين يوم القيامةِ: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾ [الصّافات: 20][1]، فيكونُ الخبرُ مستعملًا في لازم الفائدةِ، وهو أنَّهم علِموا سببَ ما تعجَّبوا منه فبطلَ العجَبُ، فيجوزُ أن يكونوا يقولون ذلك كما يتكلَّمُ المُتحسِّرُ بينه وبين نفسِه، وأن يقولَه بعضُهم لبعضٍ كلٌّ يظُنُّ أنَّ صاحبَه لم يتفطَّنْ للسَّببِ فيُريدُ أن يُعلِمَه به[2].

نكتةُ التَّعبير باسمِ الإشارةِ: ﴿هَٰذَا﴾:

تمييزُ البعثِ منَ الأجداثِ، والإشعارُ بوقوعِه يقينًا

عبَّر باسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ لتمييزِ المُشارِ إليه - وهو البعثُ منَ الأجداثِ - أكملَ تمييزٍ، وجاء بصيغةِ الإشارةِ إلى القريبِ للإشعارِ بتحقُّقِ البعثِ وتيقُّنِهم منه؛ لأنَّه إشارةٌ إلى الحالةِ المرئيَّةِ لجميعِهم وهي حالةُ خروجِهم منَ الأرضِ[3].

دلالةُ كونِ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً أو موصولةً:

وَعدُ الرَّحمنِ وصِدقُ المُرسَلين، أمرٌ واقعٌ بيقينٍ

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أن تكونَ مصدريَّةً، والمعنى: هذا وعدُ الرَّحمنِ وصِدقُ المُرسلينَ، على تسميةِ الموعودِ والمصدوقِ فيه بالوعدِ والصِّدقِ، فتكونُ الإشارةُ إلى نفسِ حدَثِ البعثِ، وتحتملُ أن تكونَ موصولةً بمعنى (الذي)، والتَّقديرُ: هذا الذي وعدَ الرَّحمنُ وصدَقَ المُرسَلون، فتكونُ الإشارةُ إلى أثرِ البعثِ؛ أي: قيامِهم منَ القُبورِ ينسِلون، يدعونَ بالويلِ على أنفُسِهم، وإذا كانت ﴿مَا﴾ اسمًا موصولًا فالعائدُ في جملة: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ محذوفٌ؛ أي: وعدَه الرَّحمن، أو وعدَ به الرَّحمنُ، وأمّا

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 291، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 17، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 172.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 38.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 38.

العائدُ في جملةِ: ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فتقديرُه: وصدَّقَه المُرسلون، بمعنى: والذي صدقَ فيه المُرسلون(1).

سببُ إيثارِ التَّعبير بالوعدِ في السّياقِ:

وعدُ الرَّحمنِ تبكيتٌ وقهرٌ للمُنكرين للبعثِ في نهايةِ الزَّمانِ

جيءَ بصيغةِ الوعدِ في قولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، للإشارة إلى ما استهزأ به الكافرون في قولِهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، ففيه تبكيتٌ لهم، فكأنَّه قد قيلَ لهم في الجوابِ: هذا هو الوعدُ الحقُّ الذي كنتم به تستهزِئون وتُكذِّبون.

نكتةُ إسنادِ الوعدِ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

عذابُ البرزخِ بالنِّسبةِ إلى عذابِ الآخرةِ هيِّنٌ

فائدةُ الخبر في قولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هي تقريرُ أنَّ اللّٰه صادقُ الوعدِ لا يُخلِفُه، ويُشير إلى أنَّ الوعدَ الذي كان رسول اللّٰه ﷺ يُنذرِكُم به هو وعدُ الرَّحمن، ولم يكُنْ وعدًا من عند نفسِه، ففيه توبيخٌ لهم على تكذيبِهم رسولَ اللّٰه ﷺ وزيادةٌ في التَّبكيتِ.

نكتةُ التَّعبير بوصفِ الرَّحمانيَّةِ:

صفةُ الرَّحمن لا تقتَضي إهمالَ الظّالم، ناهيكَ عن صفةِ القهرِ والانتقامِ

عبَّر بوصفِ الرَّحمانيَّة الدّالِّ على عُموم الرَّحمةِ في قولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ للإشعارِ بأنَّه إذا كان بعثُكم والهولُ الذي صاحبَه بوصفِ رحمانيَّتِه سبحانَه فكيف إذا عاملَكُم بعدلِه ووفّاكُم الحسابَ؛ أي: إذا كان هذا الهولُ الذي ترونَه في بدايةِ أمرِ القيامةِ وهو بوصفِ الرَّحمانيَّةِ فكيف ما بعدَه؟.

وفيه إشعارٌ آخرُ بأنَّ صفةَ الرَّحمن لا تقتَضي إهمالَ الظّالم، فكيف إذا انضمَّ إليها صفةُ القهرِ والانتقام(2)..

وفيه إشارةٌ كذلك إلى أنَّ رحمتَه مُقتضيةٌ ولا بدَّ للبعثِ؛ ليُنصِفَ المظلومَ من ظالمِه ويُجازيَ كلًّا بعملِه من غير حَيفٍ، وقد رحمَنا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 20، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 74.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 161.

بإرسالِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ إلينا بذلك، وطالَما أنذَرونا حلولَه وحذَّرونا صُعوبتَه وطولَه[1].

وفي الإخبارِ بوصفِ الرَّحمانيَّةِ أيضًا تنبيهٌ لجميعِ النّاسِ بأنَّه في ذلك اليومِ العظيمِ سيرَونَ من رحمتِه ما لا يخطرُ على الظُّنونِ، ولا حسبَ به الحاسبون[2]، وعلى القولِ: إنَّ الكلامَ منَ الكافرين يُجيبونَ به أنفُسَهم يكونُ في التَّعبيرِ بوصفِ الرَّحمانيَّةِ إقرارٌ به بعد أن قالوا من قبلُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ٦٠﴾ [الفرقان: 60]، ولطمعِ الخلاصِ عمّا ظهرَ لهم من طولِ الحسابِ وشدَّةِ العذابِ[3].

بديعُ الاحتباكِ في السّياقِ المُحكَمِ:

وعدُ الرَّحمنِ حقٌّ، ووعدُ المُرسلين صِدقٌ، والثّاني منَ الأوَّلِ

في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ احتباكٌ، ويُسمَّى حذفَ المُقابلِ أيضًا؛ أي: حُذِفَ منَ الأوَّلِ ما أُثبِتَ نظيرُه في الثّاني، وحُذِفَ منَ الثّاني ما أُثبِتَ نظيرُه في الأوَّلِ، وبيانُه: أنَّه لـمّا قال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كان على تقديرِ: هذا ما وعدَ الرَّحمنُ فصدَقَ في وعدِه، ولـمّا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ كان على تقديرِ: وصدَقَ المُرسلون فيما وعَدوا به، أو فيما بلَّغوه من وعدِ اللّٰه.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

لا يوصَفُ بأنَّه صادقٌ إلّا مَن يصدُقُ، ويتحرَّى الصِّدقَ

لـمّا نسبَ فعلَ الصِّدقِ إلى ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أفادَ أنَّهم صدَقوا في قولِهم، ومَن صدَقَ في قولِه يوصَفُ بأنَّه صادقٌ، ويُفيدُ الإخبارُ بصدقِهم اعتقادَ المُتكلِّم صدقَهم؛ فإنَّ الإخبارَ عن شخصٍ بأنَّه صدقَ في أمرٍ ما يُفيدُ أنَّ المتكلِّمَ قد اعتقَدَ صدقَه، فيكونُ تقريرًا لاعتقادِ المؤمنين صدقَ المُرسلين وردًّا على الكافرينِ في وصفِهم المُرسلينَ بأنَّهم كاذِبون.

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 356.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 697.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 161.

ونكتةُ الرَّدِّ عليهم يومَ القيامة - مع أنَّه لا ينفعُ الإيمانُ حينَئذٍ - أن يكونَ زيادةً في تبكيتِهم وندمِهم، فهو نوعٌ من العذابِ.

وعلى القولِ: إنَّ الجوابَ من الكافرين لأنفسِهم يكونُ الإخبارُ عن صدقِ المُرسلين على سبيلِ التَّندُّمِ والتَّحسُّرِ، ولاتَ ساعةَ مندمٍ.

فائدةُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ للاستغراقِ، فاللَّفظُ يتَناوَلُ جميعَ المُرسلين، ليُفيدَ أنَّه ما من رسولٍ إلّا وبلَّغَ بيوم البعثِ، وما يكونُ بعدَه من أحوالِ القيامةِ.

مناسبةُ مجيءِ لفظِ: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بصيغةِ الجمعِ:

مَن يُكذِّبِ الرَّسولَ الخاتمَ فكأنَّه كذَّب جميعَ المُرسلين

جُمِعَ لفظُ: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مع أنَّ المَحكيَّ كلامُ المُشركين الذين يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استهزاءً وتكذيبًا؛ للإشعارِ بأنَّ مَن يُكَذِّبُ رسولَ اللّه ﷺ فكأنَّه قد كذَّب جميعَ المُرسلين؛ لأنَّ جميعَهم أبلَغوا قومَهم بهذا الوعدِ، أو أنَّ المشركين لمّا أحالوا أن يُرسِلَ اللّه بشرًا رسولًا كان كأنّما كذَّبوا جميع المُرسلين، وإن كان قولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من قولِ الكافرين فيكونُ القولُ قد صدَرَ عن جميعِ الكُفّارِ المبعوثينَ من جميع الأُممِ، فعلمت كلُّ أمَّةٍ خطأَها في تكذيبِ رسولِها وخطأَ غيرِها في تكذيبِ رُسُلِهم، فنطقوا جميعًا بما يُفصِحُ عن الخطأَينِ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّقودُ والنَّومُ:

الرُّقودُ هو النَّومُ القليلُ الذي يكون فيه سكونٌ واستِطابةٌ، والنَّومُ أعَمُّ منه

الفرقُ بينهما أنَّ الرُّقودَ هو النَّومُ القليل الذي يكون فيه سكونٌ واستِطابةٌ، ويكون الرّاقدُ على حالِ المُضطجعِ أو المُستلقي على موضع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 38.

رُقودِه[1]، وأمّا النَّومُ فقد يكون طويلًا أو قصيرًا، وقد يكونُ فيه سكونٌ وطُمأنينةٌ، وقد يكون فيه اضطرابٌ، وقد ينامُ الإنسانُ واقفًا أو قاعدًا أو مُستلقيًا، فالنَّومُ أعمُّ منَ الرُّقودِ، والتَّعبيرُ بالمرقدِ في الآية لشعورِهم بأنَّهم لم يلبَثوا في قُبورِهم إلا قليلًا.

(1) الراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رقد).

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾

[يس: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمّا كان الإخبارُ بالنَّفخِ لا ينفي التَّعدُّدَ قال مُحقِّرًا لأمرِ البعثِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه مُظهرًا للعناية بتأكيدِ كونِ النَّفخةِ واحدةً، فلا يُكرَّرُ استِدعاؤُهم للحضورِ، بل النَّفخُ الواحدُ يُخرِجُهم منَ الأجداثِ ويسيرُ بهم ويُحضِرُهم للحسابِ[1].

العلاقةُ بين كونِ النَّفخةِ الواحدةِ تُخرِجُهم منَ الأجداثِ وتُحضِرُهم للحسابِ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُحْضَرُونَ﴾: (حضر) أصلٌ يدلُّ على إيرادِ الشَّيءِ ووُرودِه ومُشاهدتِه[2]، والحضورُ: نقيضُ المغيبِ والغيبةِ، وأحضَرَ الشَّيءَ وأحضَرَه إيّاه[3]، والإحضارُ: جَعلُ الشَّيءِ حاضرًا، وهو في الآيةِ: إحضارٌ للحسابِ والجزاءِ والعقابِ[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ سبحانَه: ما كانت تلك النَّفخةُ المذكورةُ إلّا نفخةً واحدةً، فإذا هم قد أُحضِروا مُجتمِعينَ لدينا دونَ أن يتخَلَّفَ منهم أحدٌ[5].

جميعُ الخلقِ يُحضَرونَ عندَ اللهِ ﷻ بصيحةٍ واحدةٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الفصلِ في الآيةِ:

جاء بجملةِ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ على طريقِ الفصل

الصَّيحةُ يوم الحشرِ واحدةٌ، تتقرَّرُ ولا تتكرَّرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حضر).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 12، و30/ 151.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 459، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 430، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 697.

لتُفيدَ تأكيدَ قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الآيةَ؛ لأنَّه لـمّا عبَّر بالنَّفخِ كان الظّاهرُ أن يكون نفخةً واحدةً، لدلالةِ الفعلِ ﴿وَنُفِخَ﴾ على المعنى المُطلقِ، فجاءت جملةُ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لتُفيدَ تأكيدَ كونِ الصَّيحةِ واحدةً لا تتكرَّرُ، وإنَّما أكَّد مضمونَ جملةِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وقرَّرَ معناها لأنَّ أمر إحياءِ النّاسِ جميعًا منذ آدمَ إلى آخرِ إنسانٍ في الدُّنيا واستِدعائِهم إلى الحشرِ وإحضارِهم كلِّهم أمرٌ عظيم، لكنَّه هيِّنٌ عند اللّه، فصيحةٌ واحدةٌ تكفي لذلك.

بلاغةُ الفَذْلكةِ في الآيةِ:

إجمالُ الكلامِ بعد تفصيلِه ليكونَ بمثابةِ جملةِ التَّذييلِ

لـمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّه إذا نُفِخَ في الصّورِ فإنَّ جميع النّاس إلى ربِّهم ينسلون جاء قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ إجمالًا لِما سبقَ ونتيجةً لِما تحقَّقَ، بمعنى: أنَّ الصَّيحةَ أحيَتْهم وجعلَتْهُم يخرُجونَ منَ الأجداثِ مُسرعين، وجمعَتْهم في أرضِ المحشَرِ، فيكونُ الكلامُ من قَبيلِ الفَذْلكةِ[1] بطريقةِ الإجمالِ بعد التَّفصيلِ، فيكونُ بمثابة جملة التَّذييل في جريِ الكلام مجرَى المثَل في حكايتِه والتَّمثُّلِ به، مع تضمُّنِه تقريرَ ما تقدَّم وتأكيدَه كما مرَّ في بيان مُناسبةِ الفصلِ في الآيةِ.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي و﴿إِلَّا﴾:

توبيخُ الكافرين على إنكارِهم الحقَّ، وإصرارِهم على الخطأ

لـمّا كان أسلوبُ القصرِ بالنَّفيِ و﴿إِلَّا﴾ يُسلَكُ مع مخاطَبٍ مُخطئٍ في اعتقادِه وهو مُصِرٌّ على خطئِه ويُنكِرُ ذلك عبَّرَ بقولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ للإيذانِ بأنَّ الكافرين الذين تندَّموا يوم القيامةِ كانوا مُنكرين للبعثِ، وكانوا مُصرّين على إنكارِهم مع تذكيرِ الرَّسولِ ﷺ لهم وتبليغِهم، ففيه ردٌّ على استبعادِهم البعثَ، وفي التَّعبيرِ بهذا الأسلوبِ توبيخٌ لهم؛ لِما يُفيدُه منَ الإشعارِ بأنَّكم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 39.

قد وُعِدتُم بهذه الصَّيحةِ وبُلِّغتم بها لكنَّكم أنكرتُموها واستبعدتُم وقوعَ البعثِ، وأصرَرْتُم على خطئِكم، ولم تتذكَّروا وتتَّعِظوا.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿كَانَتۡ﴾:

الكينونةُ دلالةٌ على أنَّ الصَّيحةَ أمرٌ ثابتٌ مقطوعٌ به

عُبِّرَ بلفظِ ﴿كَانَتۡ﴾ دونَ أن يُقالَ: (إنْ هي إلّا صيحةٌ واحدةٌ)؛ لأنَّه لمّا كان الكلامُ في بيان تصويرِ حالةِ الحشرِ، وما يقولُه الكافرون يومَ القيامةِ، وكان في بيانِ مُحصَّلِ ما حدَثَ ناسبَ أن يُعبَّرَ بلفظِ (كانَ)، ويُفيدُ التَّعبيرُ بالكونِ أيضًا الإشعارَ بأنَّ ما بُلِّغتُم به من أمرِ الصَّيحةِ كان أمرًا ثابتًا راسِخًا مقطوعًا به.

نكتةُ إلحاقِ تاءِ التَّأنيثِ بالفعلِ:

النَّفخةُ الأخيرةُ في الصّورِ هي الصَّيحةُ في السّياقِ المذكورِ

أُلحِقَتْ تاءُ التَّأنيث بالفعلِ في قولِه: ﴿كَانَتۡ﴾ للإشارة إلى أنَّ اسمَ (كان) مُؤنَّثٌ، فيعودُ إلى المفهومِ من قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ أي: إن كانتِ النَّفخةُ إلّا صيحةً واحدةً، ليُفيدَ أنَّ النَّفخةَ الأخيرةَ التي هي علَمٌ للإحياءِ والبعثِ يومَ القيامةِ هي الصَّيحةُ.

دلالةُ الاستثناءِ في سياقِ الآيةِ:

البعثُ والحشرُ يومَ القيامةِ يحصُلانِ بقدرةِ اللهِ النّافذةِ

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ على طريقِ الاستثناءِ المُفرَّغِ أفادَ الاستثناءَ من أعمِّ العامِّ؛ بمعنى: ما كانت النَّفخةُ شيئًا منَ الأشياءِ إلّا صيحةً واحدةً[1]، ولمّا كان الخبرُ هو محطَّ الفائدةِ وكان مُقيَّدًا بوصفِ ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ كان المقصودُ ومحطُّ النَّظرِ من الاستثناءِ وصفَ الصَّيحةِ بالواحدةِ، بعد العلمِ بوُقوعِها في قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ أي: ما كانت تلك النَّفخةُ إلّا صيحةً واحدةً، ليُفيدَ الاستثناءُ مع وصفِ الصَّيحةِ بالواحدةِ أنَّه لا يُكرَّرُ استِدعاؤُهم للحضورِ، بل النَّفخُ الواحدُ يُخرِجُهم منَ القُبورِ ويسيرُ بهم ويُحضِرُهم للحسابِ، فنكتةُ التَّعبيرِ بالاستثناءِ المُفرَّغِ المنوطِ

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 368، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 293.

بوصفِ الصَّيحةِ بالواحدةِ تهوينُ أمرِ البعثِ والحشرِ يوم القيامةِ؛ لأنَّهما يحصُلان بقدرةِ اللّه العظيمةِ الكاملةِ النّافذةِ، فلا واسطةَ ولا أسبابَ ينوطانِ بها كما يُشاهدُه النّاسُ عند بعثِهم وحشرِهم(1).

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالصَّيحةِ:

هناك صيحةٌ أماتتِ النّاسَ، وصيحةٌ أخرى أحيَتْهم وجمعَتْهم في المحشرِ

لـمّا قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ كان الظّاهرُ أن يُقالَ: (إن كانت إلّا نفخةٌ واحدةٌ)، لكنَّه عدَلَ عن هذا التَّعبيرِ إلى قولِه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ لبيانِ سهولةِ الأمرِ ويُسرِه عندَ اللّه تعالى، فكان لفظُ الصَّيحةِ أنفعَ للمقامِ؛ لأنَّ الصَّيحةَ صوتٌ والنَّفخَ فعلٌ، والصَّوتُ أسرَعُ وأخَفُّ، كما أنَّ في ذكرِ الصَّيحةِ إشارةً إلى عِظَمِ شأنِها، وأنَّها بقدرِ اللّه، لُمقابلتِها بالصَّيحةِ في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، فصيحةٌ عظيمةٌ أخذَتْهم فأماتَتْهم، وصيحةٌ عظيمةٌ أُخرَى أحيَتْهم وجمعَتْهم في المحشرِ.

فائدةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾:

في موقفِ القيامةِ لا شيءَ يعدلُ رهبةَ مشهدِ حُضورِ النّاسِ أمامَ اللّه تعالى

تُفيدُ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وهو الُمناسبُ لمعنى الُمفاجأةِ في (إذا)، والمعنى يترتَّبُ على الصَّيحةِ الواحدةِ، ويعقبُها من غيرِ مُهلةٍ ما حضورُ جميعِ النّاسِ للحسابِ لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، ليُفيدَ أنَّه عقبَ الصَّيحةِ الأخيرةَ يُحضَرون جميعًا عند اللّه تعالى لأجلِ الحسابِ.

دلالةُ (إذا) في السّياقِ الكريمِ:

مُباغتةُ النّاس بإحضارِهم في موقفِ الحسابِ مُباشرةً بعد الصَّيحةِ

(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ للمُفاجأة، بمعنى: حصولِ مضمونِ الجملةِ التي بعدَها سريعًا وبغتةً وبدونِ تهيُّؤ؛ لتفيدَ (إذا) الفُجائيَّةُ مباغتةَ النّاسِ بسرعةِ الحضورِ وهم ينسلون عندَ اللّه تعالى، والمعنى: بمُجرَّدِ وقوعِ الصَّيحةِ باغتَهم الأمرُ وأُحضِروا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 163 - 164، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 39.

موقفَ الحسابِ بسرعةٍ لم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، ومن غيرِ لُبثٍ ولو طرفةَ عينٍ[1].

سرُّ إعادةِ حرفِ المُفاجأةِ ﴿فَإِذَا﴾:

إعادةُ حرفِ المُفاجأة إيماءٌ إلى حصولِ ما ذُكر في لمحِ البصرِ

لـمّا كان قولُه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ على معنى التَّأكيدِ لقولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ - بحسبِ ما تقدَّمَ في مُناسبةِ الفصلِ في الآيةِ - كان التَّفريعُ بالفاءِ، في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، بمنزلةِ العطفِ على قولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، فكأنَّ التَّقديرَ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، و﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وإعادةُ حرفِ المُفاجأةِ إيماءٌ إلى حصولِ مضمونِ الجملتَينِ المُقترنتَينِ بحرفِ المُفاجأةِ في مثلِ لمحِ البصرِ، حتَّى كان كلاهما مُفاجَأً في وقتٍ واحدٍ[2].

دلالةُ الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾ في السّياقِ:

بيانُ أنْ لا أحدَ يُستثنَى منَ الحشرِ والحسابِ

يدُلُّ الضَّميرُ ﴿هُمْ﴾ في قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، على عمومِ النّاسِ، بقرينةِ لفظِ: ﴿جَمِيعٌ﴾، والمعنى: فإذا النّاسُ جميعٌ لدينا مُحضَرونَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿جَمِيعٌ﴾:

لا تخلُّفَ لأيِّ أحدٍ منَ النّاسِ عن الحشرِ يومَ يُحشَرُ النّاسُ

لـمّا كان لفظُ ﴿جَمِيعٌ﴾ بمعنى: (مجموع)، مُفيدًا معنى الشُّمولِ والدَّلالةِ على الاجتماعِ أفادَ أنَّ قولَه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾ بمعنى: فإذا هم مجموعونَ مجتَمِعونَ عند اللّه، فيُفيدُ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿جَمِيعٌ﴾ النَّصَّ على عدمِ تخلُّفِ أيِّ أحدٍ منَ النّاسِ يومَ الحشرِ واجتماعِهم عند اللّه، وإن كانوا في الدُّنيا وفي قُبورِهم مُتفرِّقين.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿لَّدَيْنَا﴾:

عُبِّرَ بلفظِ (لدَى) دونَ (عندَ) لمُناسبةِ المقامِ، وبيانُه: أنَّه لـمّا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 172، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 39.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 39.

كان الظَّرفُ (لدَى) لا يُستعمَلُ إلّا للحاضرِ القريبِ، وكان الظَّرفُ (عندَ) يُستعملُ لِما يكونُ عند الشَّيءِ، سواءٌ أكان قريبًا أم بعيدًا عنه، إذ يُقالُ: (عندي مالٌ) وإن كان غائبًا، ولا يقالُ: (لديَّ مالٌ)، إلّا إذا كان حاضرًا[1]. فلمّا كان الأمرُ كذلك كان التَّعبيرُ بـ﴿لَّدَيْنَا﴾ أنسَبَ بمقامِ حضورِ جميعِ النّاسِ لدَيه تعالى.

(لـدَى) لا تُستعملُ إلّا للحاضرِ القريبِ، وهي دالَّةٌ على الحضورِ الفعليِّ لدَيه

فائدةُ تقديمِ الظَّرفِ: ﴿لَّدَيْنَا﴾:

أفادَ تقديمُ الظَّرفِ: ﴿لَّدَيْنَا﴾ على عاملِه: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ الاهتمامَ والعنايةَ بالمُقدَّم، للتَّنبيه إلى عظمةِ الحضورِ لدَى اللّه، وأفادَ التَّقديمُ أيضًا التَّخصيصَ، والمعنى: هم جميعٌ لدَينا وليس لدَى غيرنا مُحضَرون، ويحتملُ أن يكونَ ﴿لَّدَيْنَا﴾ ظرفًا لـ﴿جَمِيعٌ﴾، والمعنى: فإذا هم مُجتمعون لدَينا، ففيه تخويفٌ وترهيبٌ كذلك.

ترهيبُ العبادِ من هَولِ الحضورِ عند اللهِ للجزاءِ والحسابِ

نكتةُ الإضافةِ إلى نونِ العظَمةِ:

أُضيفَ الظَّرفُ ﴿لَّدَيْنَا﴾ إلى نونِ العظمةِ للإشعارِ بأنَّه لا يكونُ مثلُ هذا الجمعِ للعباد وحضورِهم إلّا عند اللّه تعالى، وبأنَّ اجتماعَ العبادِ في هذا الموقفِ من مُقتَضَى عظمةِ اللّه ﷻ، وفي الإضافةِ تخويفٌ للعباد من ذلك الموقفِ المهيبِ.

لا تجتمعُ البشريَّةُ قاطبةً إلّا عند الله في عرَصاتِ القيامةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول:

عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قوله: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾؛ لأنَّه ليس المقصودُ في السّياقِ بيانَ الفاعلِ، بل بيانَ حضورِ العباد واجتماعِهم لدَيه ﷻ، ولتصويرِ الحالةِ وما فيها من الرَّهبةِ، وأفاد التَّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول أيضًا أنَّ هذا الأمرَ لابدَّ منه، ولا يُمكنُ التَّخلُّفُ عنه[2]، وأنَّ إحضارَهم لا يكونُ باختيارِهم.

إحضارُ النّاس للحشرِ لا يكونُ باختيارِهم، بل بأمرِ الله وإرادتِه

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، تح، المبارك، ص: 209.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 144.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ [يس: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين الـصَّـيـحـةِ وإحضارِ العباد للحساب، وبينَ عـدلِ الـلـه في الجزاءِ بالعمل

لـمّا كان إحضارُ النّاس إلى الحشرِ بسببِ إظهار العدل وإظهار جميع صفات الكمال قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ الآيَةَ[1]؛ أي: لـمّا أخبَر عن إحضارِ النّاس جميعًا للحشرِ بيَّنَ ما يكونُ في ذلك اليومِ منَ الحسابِ بالعدلِ، فجاءَتْ هذه الآيةُ[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

ميـزانُ الـعـدلِ يـومَ القيامةِ لا ظُـلْـمَ فيـه ولا جـزاءَ إلّا من جنسِ العملِ

في يومِ القيامةِ لا تُبخَسُ نفسٌ جزاءَ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، ولا يُحمَلُ عليها وِزرُ غيرِها، بل توفَّى كلُّ نفس أجر ما عملت من صالح، ولا تُعاقَبُ إلّا بما اكتَسَبَت من طالحٍ، جزاءً وِفاقًا لِما عمِلَتْ في الدُّنيا[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سببُ الإخبارِ بهذه الآيةِ:

الـتَّرغـيـبُ في الـحـرصِ على الـحـسـنـاتِ، واجـتـنـابِ السَّيِّئاتِ

أخبرَ اللّه تعالى في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ الآيةَ، وقولِه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ [يس: 55] عمّا يُقالُ للنّاسِ يوم الجزاءِ وما يلقاه أصحابُ الجنَّة، وفي مثل هذه الحكاية زيادةُ تصويرٍ للموعود منَ الثَّواب والعقاب، وتمكينٌ له في النُّفوس، وترغيبٌ في الحرصِ على الحسناتِ وعلى ما تُثمِرُه واجتنابِ السَّيِّئاتِ، وما تورِثُه[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 144.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 293.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 21.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 21، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270.

فائدةُ الفاءِ في سياقِ الآيةِ:

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، وبيانُه: أنَّه لـمّا أخبرَ اللهُ تعالى بأنَّهم ﴿جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾، والجمعُ للفصلِ والحسابِ، أفادَ أنَّهم إذا جُمِعوا لم يُجمَعوا إلّا للفصلِ بالعدلِ، فلا ظُلمَ عند الجمعِ للعدلِ، فصارَ عدَمُ الظُّلمِ مُترتِّبًا على الإحضارِ للعدلِ؛ أي: عدَمُ الظُّلمِ يقتَضي الإحضارَ للحسابِ ويستَعقِبُه من غيرِ مُهلةٍ[1] دلَّ مجيءُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ على ترتُّبِ ظُهورِ الجزاءِ العادلِ لكلِّ نفسٍ بعد البعثِ منَ القُبورِ، وأنَّه يكونُ بعدَه من غيرِ مُهلةٍ.

إذا جُمِعَ النّاسُ لم يُجمَعوا إلّا للفصلِ بالعدلِ مُباشرةً دونَ إمهالٍ

فائدةُ (أل) في لفظِ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرفٌ، وتعريفُه للعهدِ الحضوريِّ، ويُرادُ باليوم يومُ الجزاء، وفائدةُ ذكرِه التَّنويهُ بأنَّ ذلك اليومَ هو اليومُ الذي يظهرُ فيه العدلُ لجميعِ النّاسِ، وإلّا فإنَّ نفيَ الظُّلم ثابتٌ ومُستمرٌّ، وليس مخصوصًا بذلك اليوم، كما أنَّ في مجيءِ (أل) التي هي للعهدِ الحضوريِّ تصويرًا للحالة في ذلك اليوم وتقريرًا للمعنى في نفوسِ المُخاطَبينَ.

يومُ الحشرِ هو اليومُ الذي يظهرُ فيه العدلُ بلا تمايُزٍ

دلالةُ ﴿لَا﴾ في سياقِ الآيةِ:

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ بـ﴿لَا﴾ النّافيةِ في قولِه: ﴿لَا تُظۡلَمُ﴾؛ لتُفيدَ تأكيدَ نفيِ الظُّلمِ عن أيِّ نفسٍ في ذلك اليومِ؛ أي: يوم الجزاءِ، فدخولُ ﴿لَا﴾ على الفعلِ المضارعِ ههُنا أفادَ الحالَ كقولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصافات: 92]، و﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النمل: 20].

نفيُ الظُّلمِ حقيقةٌ ماثِلةٌ سوف تشهدُها البشريَّةُ قاطِبةً

دلالةُ نفيِ الظُّلمِ:

لـمّا كان الظُّلمُ بمعنى وضعِ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه بالنُّقصانِ أو بالزِّيادةِ أو المنعِ، وفيه تجاوُزٌ للحقِّ فيما قلَّ أو كثُرَ؛ كان المقصودُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 293، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 540.

كلُّ نفسٍ توضَعُ يـوم الحـساب عـلى مـا كـانت عليه في الدُّنيا

نفيَ وضعِ النَّفسِ في غير موضعِها فيما قلَّ أو كثُر، ونفيَ نقصِ ما استوجَبَتْه من ثوابٍ أو عقابٍ، ونفيَ حملِ نفسٍ لذنبِ غيرِها قليلًا أو كثيرًا؛ أي: فاليومَ لا توضَعُ نفسٌ في غير موضعِها، ولا تُنقَصُ عمّا استوجَبَتْه، ولكنْ توضَعُ على ما كانت عليه في الدُّنيا، فيشملُ انتفاءَ الظُّلمِ للمُؤمنين والكافرين(1).

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

حرَّمَ الله الظُّلمَ على نفسِه وعلى البشرِ كلِّهم

عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِه: ﴿لَا تُظۡلَمُ﴾، للإشعارِ بأنَّه لا أحدَ يظلمُ أيَّ نفسٍ في ذلك اليومِ العظيمِ؛ إذ لا يقضي إلا الحَكَمُ العَدْلُ.

نكتةُ إفرادِ لفظِ: ﴿نَفۡسٌ﴾:

عــــدَمُ ظُـلـمِ المؤمنين لا يُنافي زيـادةَ أجورِهم تفضُّلًا بل يلائِمُه

في قولِه تعالى: ﴿لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـٔٗا﴾ عبَّرَ بلفظِ ﴿نَفۡسٌ﴾ بصيغةِ الإفرادِ دون أن يُقالَ: (نفوسٌ) بصيغةِ الجمعِ؛ لأنَّه لـمّا كان لفظُ: ﴿نَفۡسٌ﴾ مُفيدًا لعمومِ الأنفُسِ كما تقدَّمَ لمجيئِه في سياقِ النَّفي كان التَّعبيرُ بالمُفردِ أبلَغَ؛ لأنَّ استِغراقَ المُفردِ شمِلَ عدَمَ ظُلمِ أيِّ كافرٍ فردًا فردًا بعدمِ زيادةِ عذابِهم، وعدمِ ظُلمِ أيِّ مُؤمنٍ فردًا فردًا بعدمِ نُقصانِ ثوابِهم، كما أنَّ عدَمَ ظُلمِ المُؤمنين لا يُنافي زيادةَ أُجورِهم تفضُّلًا بل يُلائِمُه(2).

دلالةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿نَفۡسٌ﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾:

جـزاءُ الكافرينَ عــلى حـسـبِ سيِّئاتِهم جزاءٌ عادلٌ

لـمّا جاءت كلِمَتا: ﴿نَفۡسٌ﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرتَينِ في سياقِ النَّفي أفادَتا العُمومَ؛ بمعنى: انتفاءِ أيِّ ظُلمٍ عن كلِّ نفسٍ؛ ليعُمَّ انتفاءَ كلِّ ذلك عن كلِّ نفسٍ، وانتفاءَ كلِّ شيءٍ من حقيقةِ الظُّلمِ، وذلك يعُمُّ جميعَ الأنفُسِ المُؤمنةِ والكافرةِ، فيكونُ التَّعبيرُ بطريقةِ العمومِ أدلَّ

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 529، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 6053، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 369.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 164.

على المعنى وأبلغَ في نفيِ الظُّلم، وهو المناسبُ لإحضارِ الجميعِ في المحشرِ، ويدخلُ في العمومِ أنفُسُ المُعاقبينَ دخولًا أوَّليًّا[1]؛ أي: إنَّ جزاءَهم على حسبِ سيِّئاتِهم جزاءٌ عادِلٌ، وإذ قد كان تقديرُه منَ اللهِ تعالى - وهو العليمُ بكلِّ شيءٍ - كانت حقيقةُ العدلِ مُحقَّقةً في مقدارِ جزائِهم[2].

بلاغةُ الكنايةِ في سياقِ الآيةِ:

تكونُ المُحاسبةُ أمينةً، وكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ

في التَّعبيرِ بلفظِ (النَّفسِ) بصيغةِ المُفردِ في قولِه: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ كنايةٌ عن أنَّ الحسابَ يكونُ لكلِّ فردٍ، وليس على المجموعِ، وذلكم وجهٌ ظاهرٌ للعدلِ.

بلاغةُ التَّعريضِ في سياقِ الآيةِ المُحكمِ:

الكافرون سيلقَونَ جزاءً قاسيًا، لكنَّه عادلٌ لا ظُلمَ فيه

لـمّا كان نفيُ الظُّلم في قولِه تعالى: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ مُشعِرًا بأنَّ الجزاءَ ممّا يُخالُ أنَّه مُتجاوِزٌ مُعادلةَ الجريمةِ أفادَ الكلامُ على سبيلِ التَّعريضِ بأنَّ الكافرينَ سيلقَونَ جزاءً قاسيًا لكنَّه عادِلٌ لا ظُلمَ فيه[3].

فائدةُ العطفِ بالواوِ في السّياقِ:

ظهورُ العدلِ في جزاءِ القيامةِ بأن تُجازَى كلُّ نفسٍ بما عمِلَت

لـمّا كان نفيُ الظُّلمِ يُفيدُ أنَّه لا ينقصُ عملُ كلِّ نفسٍ ولا يزيدُ شيءٌ عليه صرَّحَ بلازمِه وهو أن يكون جزاءُ كلِّ نفسٍ ما عملَتْ؛ لئلّا يقعَ في الوهمِ أنَّ المنفيَّ ظُلمُه نفوسٌ مخصوصةٌ أو نفسٌ واحدةٌ، فقال عاطِفًا بالواو: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فنفَى الظُّلمَ في المعطوفِ عليه وأثبتَ العدلَ في المعطوفِ تقريرًا للعدلِ في الحسابِ، ومُناسبةُ الوصلِ بالواو اشتراكُ الجملتَين في الخبريَّة، وفي الجهةِ الجامعةِ، وهي ظُهورُ العدلِ في الجزاءِ يوم القيامةِ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 74.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 74، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 40.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 40.

تلوينُ الصّيغ مُفيدٌ في التَّشويقِ ولفتِ الانتباهِ بين الحينِ والآخرِ

بلاغةُ الالتفاتِ في سياقِ الآيةِ:

لمّا كان قولُه: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ كلامًا يُخبرُ به عن انتفاءِ الظُّلم لأيِّ نفسٍ في أيِّ شيءٍ وكان قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على جهةِ الخطابِ كان الكلامُ على سبيلِ الالتفاتِ؛ لأنَّه خطابٌ عامٌّ لأهلِ المحشرِ، ونكتةُ الالتفاتِ هي تعميمُ الخطابِ لجميعِ أهلِ المحشرِ، ويكونُ مجملًا، وتفصيلُه في قولِه: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: 55] إلى قولِه: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس: 59]، مع ما في الالتفاتِ من حُسنِ تطريةٍ لنشاطِ السّامعِ، وكثرةِ إيقاظٍ للإصغاءِ إلى الكلامِ[1].

لا جزاءَ للمرءِ في الآخرةِ إلّا بما عملَ في الدُّنيا

فائدةُ ﴿مَا﴾ في سياقِ الآيةِ:

لمّا كان ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اسمًا موصولًا دالًّا على عُمومِ ما تتناوَلُه صلةُ الموصولِ أفادَ أنَّ المُرادَ العملُ من خيرٍ أو شرٍّ، والمُرادُ تُجزَونَ جزاءَ العملِ الذي كنتم تعملون.

بيانُ الارتباطِ بين الجزاءِ والعملِ وكأنَّهما شيءٌ واحدٌ

نكتةُ تعديةِ الفعلِ إلى ﴿مَا﴾:

تعدَّى الفعلُ المنفيُّ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ إلى معمولِه بنفسِه فقال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وكان الظّاهرُ أن يُقالَ: (ولا تجزون إلّا بما كنتم تعملون)، أو (ولا تجزون إلّا على ما كنتم تعملون)؛ لأنَّ الجزاءَ لا يكونُ بعينِ العملِ، بل بما يُقابلُه، أو بسببِه، فتكونُ الباءُ للمُقابلةِ أو للسَّببيَّة.

ونكتةُ مجيءِ الفعلِ مُتعدّيًا إلى المفعولِ بنفسِه هو الإشعارُ بأنَّ الجزاءَ في ذلك اليوم بمعنى تحصيلِ الشَّيءِ وتحقُّقِه، وليس على معنى الوعدِ بالمُقابلةِ؛ لأنَّه قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ فهو حكايةُ ما يحصلُ في اليومِ الموعودِ، فضلًا عن أنَّه لمّا جعلَ العملَ عينَ الجزاءِ كان على

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 259، والزركشي، البرهان: 3/ 348، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 164.

وجهِ المُبالغةِ إلى عدمِ الزّيادةِ، وذلك لأنَّ الشَّيءَ لا يزيدُ على عينِه، وهذا يوجِبُ اليأسَ العظيمَ للكافرين.

وفيه فائدةٌ أُخرَى وهي أنَّ الاسمَ الموصولَ ﴿مَا﴾ لـمّا كان بمعنى العملِ الذي يُقصَدُ به الجنسُ، أفادَ أنَّ التَّقديرَ: ولا تُجزَونَ إلّا جنسَ العملِ؛ أي: إن كان حسَنًا فجزاؤكم حسَنٌ، وإن كان سيِّئًا فجزاؤُكم سيِّءٌ، فتُجزَونَ ما تعملون منَ السَّيِّئةِ والحسنةِ[1]، وأيضًا لـمّا كان تقديرُ الكلامِ من حيثُ المعنى: (ولا تُجزَونَ إلّا جزاءَ ما كنتم تعملون) كان في تعديةِ الفعلِ إلى ﴿مَا﴾ تنبيهٌ على قوَّةِ التَّلازُمِ والارتباطِ بين الجزاءِ والعملِ، فكأنَّهما شيءٌ واحدٌ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِه:

سببُ الجزاءِ بالحسنةِ أو السَّيِّئةِ هو العملُ المُقدَّمُ في الدُّنيا

عُبِّرَ بالموصولِ وصلتِه في قولِه: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لِما يُفيدُه الاسمُ الموصولُ من معنى العمومِ كما تقدَّمَ، وللإشعارِ بأنَّ صلةَ الموصولِ معلومةُ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليه عند المُخاطَبين؛ بمعنى: أنَّ المُخاطَبين يعلمونَ بأعمالِهم السّابقةِ وهم شاهِدون عليها.

ويُفيدُ التَّعبيرُ بالموصولِ وصلتِه أيضًا الإيماءَ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ؛ بمعنى: سببُ جزائِكم بالحسنةِ أو السَّيِّئةِ هو ما كنتم تعملون.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿كُنتُمۡ﴾:

العملُ في الدُّنيا انعكاسٌ للجبِلَّةِ المغروسةِ في الإنسانِ

عُبِّرَ بفعلِ الكينونةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ أعمالَكم كانت ديدَنًا لكم بما رُكِزَ في جبِلّاتِكم[3].

نكتةُ حذفِ العائدِ في السّياقِ:

حُذِفُ العائدُ على الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ للعلمِ به بقرينةِ السّياقِ، ولتقريرِ معنى العمومِ في العملِ، فيتناوَلُ جميعَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 293.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 172.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 145، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 356.

الحسابُ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً منَ الأعمال إلّا أحصاها

بيانُ أنَّ الصّالح لا ينقُصُ ثوابُه، وأنَّ الطّالحَ لا يزيدُ عقابُه

الأعمالِ صغيرِها وكبيرِها، وسرِّها وعلانيَتِها، حسَنِها وسيِّئِها، كما أنَّ في حذفِ العائدِ رعايةً للفاصلةِ ورُؤوسِ الآيِ.

دلالةُ التَّشابُهِ اللَّفظيِّ بين هذه الآيةِ وغيرِها:

جاء في القرآنِ المجيد أنَّه تعالى يزيدُ المؤمنين من فضلِه أضعافًا مُضاعفةً، كما في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء: 173]، وقولِه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: 30]، ولمّا كان قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على معنى العُمومِ للكافرين والمُؤمنين - كما تقدَّم - كان في ظاهرِه أنَّه يُنافي زيادةَ فضلِه عليهم.

والجوابُ: أنَّ المعنى أنَّ الصّالحَ لا ينقصُ ثوابُه والطّالحَ لا يزيدُ عقابُه؛ لأنَّ الحكمةَ تأبى ما هو على صورةِ الظُّلمِ، أمّا زيادةُ الثَّوابِ ونقصُ العقابِ فليس كذلك.

وأيضًا أنَّه لمّا كان المُرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّكم لا تُجزَوْنَ إلّا من جنسِ عملِكُم إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، كانت زيادةُ الفضلِ منَ الخيرِ فلا مُنافاةَ بين الجزاءِ على العملِ وزيادةِ الفضلِ للمُؤمنينَ[1].

أو يُقالُ: إنَّ الفضلَ لا يدخلُ في الجزاءِ؛ لأنَّ معنى الجزاءِ هو المُكافأةُ، والفضلُ زيادةٌ، فلا مُنافاةَ بينَهما، والمعنى: يجزي اللّه المؤمنينَ على أعمالِهم ثمَّ يزيدُهم من فضلِه، ليظهرَ بالفضلِ رِضاه عليهم، فيزدادوا نعيمًا.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الجزاءُ والمُكافأةُ والمُقابلةُ:

الجزاءُ: بمعنى مُقابلةِ شيءٍ بشيءٍ خيرًا أو شرًّا على جهةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 33.

الجزاءُ أعمُّ منَ المُكافأةِ والمُقابلةِ، وجميعُها منَ المفرداتِ الفِصاحِ

الكفايةِ والاستحقاقِ، ويتبعُه تحصيلُ المجزيِّ به، وقد يكونُ في الجزاءِ بالخيرِ زيادةٌ على جهةِ الفضلِ، وأمّا المُكافأةُ: فهي مُقابلةُ نعمةٍ بنعمةٍ هي كُفؤُها؛ بمعنى: تُساويها وتُقابِلُها، ونعمةُ اللّٰه لا كُفءَ لها، ولهذا لا يُستعملُ لفظُ (المُكافأة) في حقِّ اللّٰه تعالى[1]، فلا يُقالُ: (كافأكَ اللّٰه على عملِك).

وأمّا المُقابلةُ: فهي المُساواةُ بين شيئينِ كمُقابلةِ الكتابِ بالكتابِ، وفيها معنى القَبولِ منَ الطَّرفَينِ[2]، ولهذا لم يستعملِ القرآنُ الكريمُ لفظَ المُقابلةِ في معنى الجزاءِ؛ لأنَّه يتضمَّنُ الرِّضا والقَبولَ على جهةِ الاستحسانِ منَ المُجازي والمُجازَى، والكافرُ المُعاقَبُ لا يستحسِنُ عقابَه، واستعملَ الجزاءَ في الآيةِ لتضمُّنِه مُقابلةَ الأعمالِ خيرًا كانت أو شرًّا بما تستحقُّ من ثوابٍ أو عقابٍ على جهةِ الكفايةِ والاستحقاقِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جزا، كفأ).

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغويَّة، ص: 50، والراغب، المفردات: (جزا، كفأ)، والكفوي، الكليات، ص: 356.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ [يس: 55]

تنويه المخاطبين بشأن أصحاب الجنَّة

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قَرَّرَ أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأَجْمَلَ فيه، شَرَعَ في تفصيله، وذَكَرَ تعالَى أَهْوالَ يَوْمِ القيامَةِ، وأَعْقَبَه بِحالِ السُّعَداءِ والأَشْقياءِ[1]، فذكر جزاء فريقَي الجنة والسَّعير، وبدأ بذِكْرِ جزاء أهل الجنَّة السّعداء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾[2]؛ تنويهًا بشأنهم.

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شُغُلٖ﴾: (شغل) أصلٌ يدُلُّ على خلافِ الفراغ[3]، الشَّغْلُ والشُّغْلُ: العارض الَّذي يُذْهِلُ الإنسانَ[4]، وهما لُغَتانِ؛ شَغَلْتُ الرَّجلَ أشغَله شُغْلًا وشَغَلًا فهو مشغول وأنا شاغل، وجَمْعُ شُغل أشغال، والمَشْغَلَة: الشَّيء يَشْغَلُك[5]، والمقصود بالشّغل في الآية: الشُّغلُ بنعيم الجنَّة وما فيها، فيصرِفُه اللّٰه تعالى عن مَنظرِ المُزعجاتِ؛ لأَنَّ مُشاهدتها لا تَخلو من انقباضِ النُّفوس[6].

2) ﴿فَٰكِهُونَ﴾: (فكه) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على طيبٍ واستطابة[7]، ومنه الفاكِهَةُ لِأَنَّها تُستَطابُ وتُستَطرَفُ، والفُكاهة بالضَّم: المُزاحُ، والفَكاهَةُ بالفتح: مَصْدَرُ فَكِهَ الرجلُ بالكسر، فهو فَكِهٌ، إذا كان طيِّبَ النفس مَزّاحًا، والفَكِهُ أيضًا: الأَشِرُ البَطِرُ، وتَفَكَّهتُ بالشَّيء:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 76.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 145.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شغل).
(4) الراغب، المفردات: (شغل).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (شغل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 41.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فكه).

تمتَّعت به[1]، والمراد بالفاكِه في الآيةِ: وصْفٌ من فَكِهَ كفَرِحَ، إذا طابت نَفْسُهُ وسُرَّ[2]، أي: ناعِمونَ فَرِحونَ مَسرورونَ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهــل الـجـنَّـة مـشـغـولـون بنعيمها فرحون مسرورون

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه بفضلِه وكرمِه للمؤمنينَ: إنَّ أهلَ الجنَّةِ في هذا اليَومِ مُشتَغِلونَ بما هم مُنغَمِسونَ فيه مِنَ اللَّذائذِ والنِّعَمِ، بلا هَمٍّ يُصيبُهم، ولا تعَبٍ يَلحَقُهم، وإنَّما هم مُتلَذِّذونَ فَرِحونَ مَسرورونَ[3].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من إكرام اللّه تعالى لأهل الجنة التعجيلَ بهم إليها؛ وإلى نعيمها، قبل أن يُبعث إلى النار أهلُها، وأن أهلَ الجنة غيرُ حاضرين ذلك المحضر[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

عاقبة المؤمنين الجنَّة وعاقبة الكافرين النّار

جاءت الجملة على طريق الفصل، فتَحْتَمِلُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنَّ سائلًا سأل: فما حالُ المؤمنين الذين وُعدوا بالجنَّة، وما حال الكافرين الذين وُعدوا بالنّار؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾، ويكون قوله ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾من تمام الجواب، كما تَحْتَمِل أن تكون عَطْفَ بيانٍ، لمجيء الجملة تفصيلًا لما أُجمل في قوله ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ [يس: 54][5].

فائدة ﴿إِنَّ﴾:

تفيد ﴿إِنَّ﴾ في قولِه ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ تأكيدَ مضمون الجملة،

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (فكه).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 41، و27/ 45.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 461 - 463، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 458، 459.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 41.

(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 171.

لتقريرِ المعنى في نفوس المخاطَبين، ولكمالِ العناية فيما يكون عليه أهل الجنَّة من كونهم في شغل فاكِهينَ مُتَنَعِّمينَ[1].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾:

من لازم شيئًا صار صاحبًا له

لمّا كان الصّاحب للشّيء على معنى ملازمتِه له، فإنَّ كلَّ شيءٍ لازمَ شيئًا استصحبَه[2]، أفاد التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ ملازمةَ المؤمنين للجنَّة وطولَ لُبْثِهم فيها بحيث يخلدون فيها، وعبّر بصيغة الجمع؛ للإيماء إلى اجتماعِهم فيها ممّا يزيد تَنَعُّمَهم وفكاهتَهم.

دلالة لفظ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

أهل الجنَّة جميعًا مستغرقون بأنواع النعيم

يدلُّ لفظ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ على جميع المؤمنين الذين يدخلون الجنَّة، فيشمل الذّكور والإناث، ولمّا كان لفظ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾على معنى العموم بقرينة الإضافة، أفاد أنَّ ما أخبر عنهم في قوله ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ يشمل جميع المؤمنين، فجميع أهل الجنَّة من الذُّكور والإناث في شُغُلٍ فاكهون.

فائدة إضافة الأصحاب إلى الجنة:

الجنَّة محلُّ كرامة المؤمنين

الإضافة في قولِه ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ على معنى الاختصاص، بمعنى أنَّهم مختصّون بالجنَّة معروفون بها، وفي التّعريف بالإضافة فوائد: الأولى تشريفُ الأصحاب ومدحُهم بإضافتِهم إلى الجنَّة التي شرّفها اللّه وعظّمها، الثانية التّنويه بالجنَّة، لأنَّها محلُّ كرامتِهم، الثالثة الإغناء عن تفصيل ذكرِهم، فذكرَ الأصحابَ؛ ليشملَ كلَّ من يكون في الجنَّة، الرابعة تحريض السّامعين على الاقتداء بهم في أعمالِهم، ليكونوا من أصحاب الجنَّة[3].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 166.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صحب).

(3) السكاكي، مفتاح العلوم، تح، زرزور، ص: 186، والتفتازاني، المطول، ص: 233 - 234.

فائدة (أل) في قولِه ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾:

(أل) في قولِه ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ للعهد، بمعنى الجنَّة المعهودة عند السّامعين، وهي التي تكون جزاء المؤمنين يوم القيامة.

فائدة (أل) في ﴿ٱلْيَوْمَ﴾:

(أل) في قوله ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للعهد الحضوري، بمعنى يوم البعثِ[1].

سبب إيثار ذكر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾:

جيء بظرف الزّمان ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للتّنويه بِذَلِكَ اليَوْمِ لعظم ما يقع فيه من الحوادث، فهو يَوْمُ الفَضْلِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ[2].

معنى الظرفية بـ ﴿فِي﴾:

تنعّم أصحاب الجنَّة وانغماسُهم في فكاهتِهم

لمّا كان لفظ ﴿فِي﴾ يفيد الظّرفيّة المجازيَّة، أفاد أنَّهم مغموسون في الشغل الذي هم فيه أي في كونِهم فاكهين فيه؛ لتكون الظّرفية مجازيَّة، فجعل تلبّسهم بالشّغل كأنَّهم مظروفون فيه، أَيْ أَحاطَ بِهِمْ شُغُلٌ حتَّى صار شغلُهم في الفكاهة كالظّرف لهم، مبالغةً في تنعّمهم[3].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿شُغُلٍ﴾:

لمّا كان الاشتغال في الدنيا مما يَضرُّ أهلَها ويؤذي، أخبر أنَّ شغل أهل الجنة مما لا يضرُّهم ولا يؤذيهم، ولهذا أعقبه بقولِه ﴿فَٰكِهُونَ﴾[4].

دلالة لفظ ﴿شُغُلٍ﴾:

المؤمنون مشغولون بكمالِ المسرَّة والبهجة في الجنَّة

الشّغل هو الشّأنُ الذي يصدُّ المرءَ ويشغلُه عمّا سواهُ من شؤونه؛ لكونِه أهمَّ عنده من الكُلِّ، إمّا لإيجابه كمالَ المسرة والبهجةِ، وإمّا لكمالِ المساءةِ والغمِّ، والمرادُ هاهنا هو الأولُ[5]، بقرينة السّياق واقتران اللفظ بكلمة ﴿فَٰكِهُونَ﴾ كما سيأتي.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 41.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 41.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 529.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173.

سرُّ تنكير لفظ ﴿شُغُلٍ﴾:

ملذّات أصحاب الجنَّة لا يُـدرَك كُنْهُها ولا يضبط القلم وصفَها

لمّا جاء لفظ ﴿شُغُلٍ﴾ نكرةً في سياق الامتنان أفاد العمومَ؛ ليفيد أنَّ أصحاب الجنَّة مستغرقون في شغلٍ ملذٍّ محبوب مرغوب فيه، فهم مشغولون في جميع أوقاتِهم بِاللَّذَّةِ والسُّرورِ، كما أفاد التّنكيرُ الإبهامَ المُؤْذِنَ بتعظيم الشّغل الذي هم فيه من البهجة والسّرور، ليفيد ارتفاعِ الشّغل الذي هم فيه عن رتبةِ البيانِ، أي شغل لا يُدرَك كُنْهُه ولا يضبط القلم وصفَه، ولا يعرفه حقَّ المعرفةِ إلّا من كان متنعّمًا فيه، والمراد بالشّغل ما هم فيه من فنون الملاذّ التي تلهيهم عمّا عداها بالكلية[1].

بلاغة الكناية في التعبير بالشغل:

لا ألمَ لأصحاب الجنَّة ولا ضُرّ ولا يبالون بأهل النّار

لمّا كان قوله ﴿فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ مفيدًا استغراقَهم في الشغل الملذِّ يتنعّمون فيه، أفاد بلازمه عَنْ عُدْمِهِمُ الأَلَمَ فَلا أَلَمَ عِنْدَهُمْ ينشغلون فيه ولا أذى ولا ضُرّ، ليفيدَ كذلكَ شغلَهم عن أهل النّارِ، فلا يهمُّهم أمرُهم ولا يُبالون بهم كيلا يدخلَ عليهم تنغيصٌ في نعيمهم[2].

التّوجيه النّحوي في قوله ﴿فِي شُغُلٍ﴾:

أصحابُ الجنَّة في شغلٍ عظيم الشَّأنِ متنعمون بنعيمٍ مقيم

يَحْتَمِل أن يكون ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِي شُغُلٍ﴾ متعلّقًا بالخبر، فيكون من تقديم معمول الخبر عليه، كما يحتمل أن يكون ﴿فِي شُغُلٍ﴾ خبرًا أوّل لـ﴿إِنَّ﴾ و﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبرًا ثانيًا[3]، ليفيد الإخبار عن أصحاب الجنَّة أنهم مستقرّون في شغل، وأيُّ شغلٍ، فهم في شغل عظيمِ الشَّأنِ متنعمون بنعيمٍ مقيم فائزون بملك كبيرٍ وأنَّهم فاكهون[4].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 165.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 294، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173.

(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1084، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 358.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173.

مناسبة تقديم الجار والمجرور:

على القول بأنَّ ﴿فِي شُغُلٖ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿فَٰكِهُونَ﴾ وليس خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾؛ يفيد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿فِي شُغُلٖ﴾ الاهتمامَ بالشّغل الذي يكون فيه أصحاب الجنَّة، كما يفيد الحصر، بمعنى أنَّه لمّا حَصَر شغلَهم في كونِهم فاكهين؛ أفادَ أنَّهم ليس لهم شغلٌ إلّا في التفكّه، وأنّهم في شُغُلٍ عن التَّفَكُّرِ في يوم القيامةِ وأَهْوالِه، وهم في شغل عن الويلِ والثّبور الذي يصيب الكافرين، وهم في شغلٍ عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرِهِم إلَى النّارِ، وما هُمْ فيهِ مِنْ أَليمِ العَذابِ، وإنْ كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم، فلا يصيبُ أصحابَ الجنَّة همٌّ ولا غمٌّ وهم فاكهون، كما أنَّ في التّقديم مراعاةً لرؤوس الآية والفاصلة.

أصحاب الجنَّة ليس لهم شغلٌ إلّا في التفكّه والتّنعّم

دلالة لفظ ﴿فَٰكِهُونَ﴾:

لمّا كان لفظ (فَكِهَ) يدلُّ على طيبٍ واسْتِطابَةٍ، ومنه الفاكهة؛ أفاد التّعبير بلفظ ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أنَّهم ملتذّون متنعّمون طيّبة أنفسُهم، ويدخل في اللفظ تنعُّمُهم بأكل الفاكهة، وما يُستطاب ويُستحلى من الكلام، ومنه المُزاح المُؤْنِس الذي تطيب به الأنفس[1].

تنعّمُ أصحاب الجنَّة بالمُزاح المؤنس الذي تطيب به الأنفس

نكتةُ التعبير بـ ﴿فَٰكِهُونَ﴾:

جاء لفظ ﴿فَٰكِهُونَ﴾ متمّمًا لبيان سلامة أصحاب الجنَّة وتصريحًا بما أشارت به قرينة الكلام من أنَّ شغلَهم بالخير لا بالشّر، وموضع الكلمة في الآية أقضى لحقِّ بلاغة الكلام ومناسبة المقام، فلا يوجد أيُّ كلمة مناسبة لمقام الكلمة مع أختِها سوى هذه الكلمة، فبها تمَّ المعنى المقصود مع سلامة النَّظْم وحسن الفاصلة، فإنه لمّا كان الشّغل بمعنى ما يُشغِل المرءَ عمّا سواه؛ كان الاقتصار على قوله ﴿فِي شُغُلٍ﴾ قد يُفهم منه أنَّهم في شغل أعظم لتفكّرهم

شغلُ أصحاب الجنَّة لا تعبَ فيه ولا وصبَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فكه).

في اليوم العظيم وأهواله، فيكون تعبيرًا عن انشغالِهم بالهول الذي يصيب النّاس في ذلك اليوم؛ فإنَّ من تصيبه فتنة عظيمة ثمَّ يُعرض عليه أمرٌ من أموره أو يُخْبَر بخسرانٍ وقَع في ماله، يقول: أنا مشغول عن هذا بأهمَّ منه، فلمّا قال: ﴿فَٰكِهُونَ﴾، أفادَ أنَّهم مشغولون عنه باللَّذَّة والسُّرور، لا بالويل والثبور، كما أفادَ أنَّه ليس بشغلٍ فيه تعبٌ[1].

توجيه القراءات القرآنية في ﴿فَٰكِهُونَ﴾:

ديمومة نعيم أصحاب الجنَّة

قرأ جمهور القرّاء ﴿فَٰكِهُونَ﴾ بالألف بعد الفاء، وقرأ أبو جعفر ﴿فَكِهُونَ﴾ بغير ألفِ بعد الفاء، وتوجيه القراءتين أنَّه على قراءة الجمهور يحتمل أن يكون بمعنى (ذو فاكهة، أو أصحاب فاكهة) مثل تامر أي ذو تمر، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم الفاعل بمعنى تلبّسهم بالفكاهة، وعلى قراءة أبي جعفر يكون ﴿فَكِهُونَ﴾ صيغة مبالغة من (فَكِهَ) للمبالغة في فرحِهم وتنعُّمِهم[2]، وعلى القراءتين يفيد اللفظ بصيغة اسم الفاعل أو المبالغة دوامَ فكاهتِهم في الجنَّة.

لازم الفائدة في الآية:

أصحاب الجنَّة في فرح وسرور، وأصحاب النّار في حسرةٍ وثبور

لمّا أخبر اللّه تعالى عن حال أصحاب الجنَّة أفاد بلازمِه أنَّ أصحاب الجحيم في حسرةٍ صارخون باقون[3]، ليكون تعريفًا بحالِ أصحاب الجحيم وما يكونون عليه في مقابل ما يلقاه أصحاب الجنَّة، زيادةً في توبيخِهم، ولإدخال النّدامة والحسرةِ عليهم على ما فرّطوا فيه من طلب الفوز في الآخرة، وما فاتَهم من النّعيم.

مناسبة التّعبير بالجملة الاسميَّة:

تنزيلُ المترقَّب المتوقَّع منزلة الواقع

التَّعبيرُ عن حالِ أصحاب الجنّة بالجملةِ الاسميةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قبل تحققُّها ووقوعِها، لتنزيل المترقَّب

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 370، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 356.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 459، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 75، وابن الجزري، النشر: 2/ 354.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173.

المتوقَّعِ منزلة الواقع؛ للإيذان بسرعةِ تحقُّق مضمون الجملة ووقوعِها، ولزيادةِ مساءة المخاطَبين من أهل الكفرِ بذلك، ولإفادة دوامِهم فيها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّحبة والاجتماع:

الصُّحبةُ تفيد الملازمة وطولَ اللُّبْث مع المصاحِب، وأمّا الاجتماع فهو من الجمع بمعنى ضمّ شيءٍ إلى شيءٍ بتقريب بعضِه من بعضٍ؛ لما بينهما من التّجانس، فقد يحصل الاجتماع ولا يتضمّن لقاء بين المجتمعين، فالمُصاحَبَةُ والاصْطِحابُ أبلغُ من الاجتماع؛ لأجل أنَّ المصاحبة تقتضي طولَ اللُّبْث واللّقاء، فكلّ اصْطِحابٍ اجتماع، وليس كلّ اجتماع اصطحابًا[2]، ولهذا أفاد التّعبيرُ بأصحاب الجنَّة الإشعار بطول لبثهم فيها وملازمتهم لها، وصحبة الجنَّة تقتضي الاجتماع بمن فيها.

الصحبةُ فيها اجتماع وطول ملازمة، والاجتماع لا يعني الصحبةَ وطول ملازمة

الشّغل والعمل:

الشّغل هو العارض الذي يُذهِل الإنسانَ، فهو على خلاف الفراغ، وقد يكون الإنسان مشغولًا في فكرِه وعقلِه من غير أن تشتغل جوارحه، كما في قولِهم شغله شاغل، وأمّا العمل فهو الفعل الذي يكون من الإنسان بقصدٍ، فيكون ببذل الجهد والحركة، ولِهذا أخبر اللّه تعالى عن أصحاب الجنَّة بأنَّهم في شغلٍ، ولم يقل: هم في عملٍ؛ لِما في لفظ العمل من معنى بذل الجهد بقصدٍ لتحصيل شيءٍ[3].

الشّغل ما يَشْغَل الإنسان عن أمرٍ آخر، والعمل فيه بذل الجهد

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جمع، صحب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي (شغل، عمل).

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سـرور النّفس بصحبة القرين الملائم لها

لما كانتِ النَّفْسُ لا يتمُّ سرورُها إلّا بالقَرين الملائم، أَتْبَعَه بذِكْر اجتماعِهم مع أزواجِهم في الجنَّة، فقال تعالى: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظِلَٰلٍ﴾: (ظلّ) أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيره، تَقولُ: أَظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ولا تقولُ العرَبُ: ظَلَّ يَظَلُّ إلّا لكلِّ عَمَل بالنَّهار[3]، وقالوا: ظِلُّ الجَنَّة، ولا يُقالُ فَيؤها؛ لأنَّ الشَّمس لا تُعاقِب ظلَّها فيكونُ هنالكَ فَيْءٌ، إنَّما هي أبدًا ظِلٌّ؛ ولذلك قالَ ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: 35]؛ أَراد وظِلُّها دائمٌ أيضًا[4]، والمقصودُ بـ﴿ظِلَٰلٍ﴾ في الآية: ما يُظِلُّ الإنسانَ ويَقيهِ من الحرِّ، أَي ظِلُّ الجنّات.

2) ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: (أرك) أصلُ الأُروكِ: الإقامةُ على رَعْيِ الأراك، ثم تُجوِّزَ به في غيره من الإقامات[5]، يُقال: أَرَكَتِ الإبلُ بمكان كذا، إذا لزِمَتْه فلم تَبْرَحْ، وأرك الرَّجل بالمكان، أي أقام به، وأرَكَ الجُرح أُروكًا: سَكَن ورَمُه وتماءل[6]، والأَريْكة: حَجَلَةٌ على سرير، وتسميتُها بذلك: إمّا لكونِها في الأرض مُتَّخَذَةً مِنْ أَراك، أو مِنْ كونها مكانًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 146.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(3) الخليل، العين: (ظل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).
(5) الراغب، المفردات: (أرك).
(6) الجوهري، الصحاح: (أرك).

للإقامة من قولهم: أَرَك بالمكان أُروكًا[1]، والمراد بالأرائك هنا: جمعُ أريكةٍ، وهي: الأَسِرَّة المُزيَّنَة، أو: هي الأَسِرَّةُ في حَجَلة (البيت الصغير في وسط البيت الكبير).

3) ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾: (وكأ) أَصلُ الكلمةِ من الإيكاءِ، وهو: الشَدُّ والرَّبْطُ، ومنه سُمّي القُعودُ اتِّكاءً؛ لأنّ صاحِبَهُ يَتَشَدَّدُ به ويَتَقَوَّى به[2]، والاتِّكاءُ: الاعْتِمادُ على الشَّيْءِ، مصدرُ الفعل اتَّكأ، يُقال: اتَّكَأَ على العَصا، يَتَّكِئُ، اتِّكاءً، فهو مُتَّكِئٌ، أيْ: اعْتَمَدَ عليها، وكُلُّ مَن اعْتَمَدَ على شَيْءٍ فقد اتَّكأَ عليه[3]، ويأْتي بمعنى: الجُلوس مع التَّمَكُّنِ، والمَيْل في القُعودِ، يُقالُ: اتَّكأَ: إذا أَسْنَدَ ظَهْرَهُ أو جَنْبَهُ إلى شَيْءٍ، ومِن مَعانيه أيضًا: الاضْطِجاعُ[4]، والمقصود بالاتِّكاءِ في الآيةِ: هيئةٌ بين الاضطجاعِ والجلوسِ، وهو اضطجاعٌ على جَنْبٍ دون وضعِ الرَّأس والكتفِ على الفراشِ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من تمام نعيم أهل الجنة أنهم هم مع أزواجِهم يَتمتَّعونَ في ظِلالِ الجنَّةِ على السُّرُرِ الّتي أُرخيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، وهم مُتَّكِئونَ عليها في راحةٍ وطُمأنينةٍ ولَذَّةٍ[6].

الاتِّــكــاءُ على الأرائــكِ دليـلٌ على الاطمئنان وراحةِ البالِ

وترشد الآية الكريمة إلى أنَّ جزاءهم من جنس عملهم؛ لمّا كانوا يلزمون المساجد، ويَغضّون الأبصار، ويدأبون في الأعمال قائمين بين يدي الله في أغلب الأحوال[7].

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 485، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 46.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وكأ).
(3) ابن الأثير، النهاية: (وكأ)، والكفوي، الكليات، ص: 38.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وكأ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 42.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 583، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 697.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 146.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

زوجات المؤمنين من أهل الإيمان يشاركنهم في الظِّلالِ والاِتِّكاءِ عَلَى الأَرائِكِ

جاء قوله تعالى ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ الآيةَ؛ على طريق الفصل لتكون الجملةُ تفسيرًا وبيانًا لقوله ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾[1]، فيكون قوله ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ تفسيرًا للإجمال المذكور في لفظ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، ويحتمل أنَّ الآية جاءت على الفصل بطريق الاستئناف البيانيِّ، فكأنَّ سائلًا سأل: ما هو الشغل الذي يكون فيه أصحاب الجنَّة؟ فقال: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾؛ ليفيد أنَّ الأزواج شاركنَهم في الظِّلالِ والاِتِّكاءِ عَلَى الأَرائِك، وهذا من حيث المنطوق، كما أفاد أنَّهن شاركنهم في التَّفَكُّهِ والشُّغُلِ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى[2]، لعَوْدِ الضّمير إلى الاسم الظّاهر بما اتّصف به، فالجملة مُستأنَفَةٌ مَسوقَةٌ لِبَيانِ كَيْفيَّةِ شُغُلِهِمْ وتَفَكُّهِهِمْ وتَكْميلِها بِما يَزيدُهُمْ سُرورًا وبَهْجَةً؛ مِنْ كَوْنِ أَزْواجِهِمْ مَعَهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الاتِّكاءِ عَلَى الأَرائِك[3].

دلالة الضّمير في قوله ﴿هُمۡ﴾:

الاجتماع بالأزواج من النّعيم والفكاهة الدّائمة

يعود الضّمير ﴿هُمۡ﴾ إلى ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بما اتّصفوا به من كونِهم في شغلٍ فاكِهينَ، فيكون المعنى: أصحابُ الجنَّة الذين هم في شغلٍ فاكهون مع أزواجِهم على الأرائك متّكئون، ففيه بيانٌ لنوعٍ من أنواعِ الشّغل الذي هم فيه، وأنَّ اجتماعَهم مع أزواجِهم من الفكاهة، ولمّا كان المراد من أصحاب الجنَّة التّعميمَ ليشمل الذّكورَ والإناثَ كان التّصريح بذكر الرّجال والأزواج؛ تنبيهًا على أصالتِهم وشرافتِهم[4]، وللإشارة إلى أنَّ الاجتماع بالأزواج من النّعيم والفكاهة الدّائمة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 42.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 76.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 431.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 166.

فائدة عطف الأزواج:

أفادَ العطفُ في قولِه ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ التّشريكَ بين الرّجال المؤمنين وأزواجِهم في الأمور الثلاثة وما بعدها، أي في كونِهم في ظلال على الأرائك مُتَّكئِينَ، وفيما ذكر من النعيم بعده؛ ليفيد العطفُ مشاركتَهم في النّعيم من غير خَصوصيَّة لأحدهما على الآخر.

التّشريك في النعيم بين الرّجال المؤمنين وأزواجِهم

دلالة لفظ ﴿وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾:

المراد من الأزواج ما يدلُّ عليه ظاهر اللفظ، أي الأَزْواجُ اللّاتي أُعِدَّتْ لَهُمْ في الجَنَّةِ، فيشمل نساء المؤمنين اللّاتي كنَّ لهم في الدّنيا والحور العين[1]، ولمّا جاء الكلامُ بطريق الجملة الاسميَّة المفيدُ معنى الدّوام والثّبوت؛ أفادَ أنَّ جميع من في الجنَّة متزوّجون؛ ليدلَّ على أنَّ الرّجال والنّساء غير المتزوّجين يكونون مع أزواجٍ لهم في الجنّة[2].

جميع من في الجنَّة متزوّجون

فائدة ذكر الأزواج:

لمّا عَطَف الأزواجَ على الضّمير ﴿هُمۡ﴾ في قولِه﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾، وكان العطف على معنى الاجتماع، أفاد اجتماعَهم مع أزواجِهم؛ ليفيد بطريق الإشارة إلى عَدَمِ الوَحْدَةِ الموحشة في الجنَّة، والجمع بين المؤمنين وأَزْواجِهنَّ إتمامٌ لسرورهم[3].

لا وحدةَ موحشة في الجنَّة

فائدة الظرفية ﴿فِي﴾:

عبّر بالظّرفية للإشعار بأنَّ الظّلال صارت ظرفًا لهم، فهم منغمسون فيها، والظّلال محيطة بهم، ولم يقل (تحت الظّلال) كما هو ظاهر ما يكون في الدّنيا؛ للإشعار بأنَّ ظلَّ الجنَّة ليس كظلِّ الدّنيا.

ظلُّ الجنَّة ليس كظلِّ الدّنيا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 538، والماوردي، النكت والعيون: 5/ 25، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 17.

(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير، ص: 12، و/ 370، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 42.

(3) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 370، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 357.

نكتةُ التّعبير بصيغة الجمع:

عبّر بصيغة الجمع في قوله ﴿ظِلَٰلٍ﴾ الذي هو جمع (ظِلّ)[1]؛ للإشعار بتقلُّبِهم في الجنَّة من ظلّ إلى ظلٍّ، ولمّا كان الجمع على معنى التّغاير بين الأفراد المجموعة؛ أفادَ أنَّ كلَّ ظلٍّ يختلف عن الظّلِّ الآخر، فهم وأزواجُهم يتقلّبون من ظلٍّ إلى آخر، بحيث يكون كلُّ ظلٍّ مختلفًا عن الآخر، فالظلُّ متعدد للشخص الواحد؛ زيادةً في التنعّم والتفكّه، ويَحْتَمِل أن يكون الجمع باعتبار ما لكلِّ واحد من أصحاب الجنَّة من ذلك[2]؛ فيكون لكلِّ مؤمن وزوجِه ظلٌّ خاصٌّ به، والتوجيه الأوّل أظهر لدلالتِه على تنوّع النّعيم وكمالِه المناسب للسّياق.

كُلُّ ظِلٍّ في الجنَّة يختلف عن الظّلِّ الآخر زيادةً في التّنعّم والتّفكُّه

دلالة لفظ ﴿ظِلَٰلٍ﴾:

الظِلّ هو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس، ولمّا كانت الجنَّة لا شمسَ فيها[3] أفاد أنَّ المرادَ الحاصلُ من السّاتر عن الشّمس، ليفيدَ ذِكْرُ الظِّلِّ أمرين، **أحدهما**: نفيُ أذى الحرِّ والبرد ونحوهما، و**الثاني**: أنَّه لمّا جاء لفظ الظّلال على معنى التنّعم؛ أفاد أنَّ الظلّ بنفسِه موضِعٌ للتنعّم والتفكُّه.

ظِلالُ الجنَّة تفيد انتفاءَ الأذى، والتَّنعُّمَ بالظِّلالِ نفسِها

فائدة تنكير ﴿ظِلَٰلٍ﴾:

أفاد تنكير لفظ ﴿ظِلَٰلٍ﴾ تعظيمَ شأنِ ظلال الجنَّة وفخامة شأنِها، فهي ظلال واسعةٌ ممدودة، وهي ليست كظلالِ الدّنيا ولا تشبهها إلّا في الاسم.

توجيه القراءات القرآنية في ﴿ظِلَٰلٍ﴾:

قرأ الجمهور ﴿ظِلَٰلٍ﴾ بكسرِ الظّاء مع الألف، فهو جمعُ ظِلٍّ، والمعنى هم وأزوجهم في ظلال الجنّات، أي: في فَيءِ الجنّات، وقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ ﴿ظُلَلٍ﴾ بِضَمِّ الظّاءِ وفَتْحِ اللّامِ من غير

المؤمنون في ظلال الجنّات مع تنوع أحوالها

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1085.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 34.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 538، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 35.

ألف جَمْعُ (ظُلَّةَ) وهيَ ما يَظِلُّ كالقِباب، والمعنى: هم وأزواجهم في قبابٍ، فلا يضْحَوْن لشَمسٍ كما يَضْحَى لها أهلُ الدُّنيا، وإذا كانوا في قبابٍ كانوا في ظِلٍّ، فمآل القراءتين واحد[1].

تقديمُ موضعِ الجلوس قبل ذكر هيئة الجلوس زيادةٌ في التّكريم

نكتة تقديم ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾:

قدِّم ذكر ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ على قولِه ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾؛ لأنَّ ذكر الموضع الذي تكون فيه الأرائك يكون قبل ذكر هيئة جلوسِهم عليها، على جهة التّكريم والتّشريف، فذكر أوّلًا الموضع المهيَّأ للأرائك التي يتّكئون عليه اتكاءً على كمال الراحة والطمأنينة واللَّذّة على ما هو المعتاد في النّزهات ومواضع الاستراحات.

فائدة ﴿عَلَى﴾:

لمّا كان حرف ﴿عَلَى﴾ للاستعلاء، أفادَ التّعبيرُ به في قولِه ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ تمكُّنَهُم من الأرائك وثباتَهُم عليها واستعلاءهم فيها؛ بحيث يرون الذي يقابلهم.

جمال المنظر في الجنّة من التنعّم فيها

دلالة لفظ ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾:

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جَمْعُ أَريكَة، وهيَ السَّريرُ المنجَّدُ المزيَّن بالثياب والسُّتورِ ويكون عَلَيْهِ الفَرْشُ، ولا تكونُ أَريكةً حتى تكونَ عليها حَجلةٌ، فيكون اسم الأريكة لمجموع السّرير والحَجَلَةِ، فالسّرير تَحْتَ الحَجَلاتِ فَيكونُ مَرْئيًّا هوَ وما فَوْقَهُ[2].

إطالة مكث المؤمنين واستراحتهم وقوّتهم وقدرتهم

نكتة التّعبير بلفظ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾:

الاتكاء هيئةٌ بين الاضطجاع والجلوس، وهو المَيْلُ على جَنْبٍ دون وضع الرّأس والكتف على الفراش، مع الاعتماد على ما يريح الاعتماد عليه، وهوَ جُلوسُ المُتَطَلِّبِ لِلرّاحَةِ والإطالَةِ وهوَ جِلْسَةُ أَهْلِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 538، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 310، وابن الجزري، النشر: 2/ 355، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 166.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 42.

الرَّفاهيَةِ، ففي التّعبير بلفظ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ إشارةٌ إلى غاية راحتهم وتنعّمهم ونهاية كرامتهم، وإنَّما يَكونُ الاتِّكاءُ إذا أُريدَ إطالَةُ المُكْث والاِسْتِراحَةِ، وفيه إشارةٌ كذلك إلى قوّتِهم وقدرتِهم؛ لِأَنَّ المَريضَ لا يَقْدِرُ عَلَى الاِتِّكاءِ، وإنَّما يَكونُ مُضْطَجِعًا أَوْ مُسْتَلْقيًا[1]، ففي قولِه دليلٌ على راحةِ البالِ.

دلالة التركيب في ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾:

أصحاب الجنَّة متنعّمون براحة البال

من دلالات قولِه ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الإيماءُ إلى كمال تمتّع أصحاب الجنَّة ونعيمهم؛ فإنَّ التَّمَتُّعَ لا يَكمُل إلا مع العلوِّ المُمَكِّنِ من زيادةِ العلم الموجِبِ لارتياحِ النَّفسِ وبهجةِ العينِ بانفساحِ البصرِ عندَ مدِّ النَّظرِ[2]، وفيه دليلٌ على راحةِ البالِ وأنَّ الشغل المذكور هو شغلُ سرورٍ وتنعّمٍ بما تكون به راحتُهم واستراحتهم.

التوجيه النّحوي لموضع الخبر في الآية:

تنوّع التّوجيه توسّع في المعنى

﴿هُمْ﴾ مبتدأ و(أَزواجُهُم) عطف عليه، ويبقى التّوجيه لموضع الخبر، والظّاهر أنْ يكون للمبتدإ وما عطف عليه خبران، هما: ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، والجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلِّقًا بـ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ قدِّمَ عليه للاهتمام بالموضع، فيكون على نسق تقديم الخبرالأوّل ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ على الخبر الثّاني ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، أي بتقديم الموضع الذي يكونون فيه على الهيئة، وهي الاتّكاء، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرور رعايةً للفاصلة، وأجاز بعض النّحاة والمفسّرين أن يكون الخبر ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ و﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ في موضع نصب حال من المبتدإ وما عطف عليه، وقوله﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ متعلِّقًا بالخبر، قُدِّم عليه للاهتمام بالمقدَّم ولمراعاة الفاصلة كما تقدَّم، وهناك

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 530، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 147، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 357، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 262، 23/ 43.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 147، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 357.

وجه لطيف وهو أن يكون الخبر﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ وتكون الجملة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ من الخبر المقدَّم والمبتدإ المؤخّر مُستَأْنَفَة استئنافًا نحويًّا أو بيانيًّا، بأن يقالَ: ما شأنُهم في حالة كونِهم في ظلالٍ؟ فأجيب بالجملة المستأنفة، وفي الآية أوجهٌ أخرى[1]، لعلَّ المذكورَ أوضحُها وأقربُها إلى المعنى ولا تكلُّف فيها.

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1085، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 75.

﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾ [يس: 57]

لأهل الجنَّة كلُّ ما يشتهون وما يطلبون

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّن ما لأصحاب الجنَّة من الشّغل والبهجةِ فيها، وما لهُم فيها من مجالسِ الأُنسِ ومحافلِ القدسِ، ذَكَر ما يتمتّعون به فيها من المآكلِ والمشارب، وما يَتلذّذون به من الملاذِّ الجسمانيةِ والرّوحانية[1]، وذَكَر ما في الجنَّة من السّرور باجتماع المؤمنين مع أزواجهم، وذَكَر المكان الذي يعبّر عن راحتِهم وأُنْسِهم - ناسب أن يُعقِبه بذِكْر ما يدفعُ جَميعَ حوائجهم في الجنَّة[2]، ولمّا قدَّمَ المعاني التي توجِب أكلَ الفاكهة من الكونِ في الظّلال والاتّكاء على الأرائك؛ أتى بها فقال: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدَّعُونَ﴾: (دعو/ دعا) أصلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشَّيءَ إلَيكَ بصَوتٍ وكلامٍ يَكونُ مِنْكَ[4]، والادِّعاءُ: التَّمنّي، يُقال: فُلانٌ في خَيْرِ ما ادَّعى أي ما تمنَّى، وتَقولُ العَرَبُ: ادَّعِ عليَّ ما شئتَ[5]، ويَدَّعون في الآية يجوزُ أَنْ يكونَ مُتصرِّفًا من الدُّعاءِ أو من الادِّعاء، أي: ما يدّعونَ إليه، أو ما يدَّعونَ في أنفُسهم أنَّه لهم بإلهامٍ إلهيٍّ، وصيغَ له وزنُ الافْتِعالِ للمُبالغةِ، فوَزْنُ يَدَّعون يَفْتَعِلون، أصله يَدْتَعِيونَ؛ نُقِلَتْ حركةُ الياءِ إلى العين طلبًا للتَّخفيف؛ لأنَّ الضَّمَّ على الياءِ ثقيلٌ بعد حذفِ حركةِ العينِ، فبقيتِ الياءُ ساكنةً وبعدها واوُ الجماعةِ؛ لأنَّه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 173.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 148.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دعا).

مفيد معنى الإسنادِ إلى الجمعِ[1]، والمقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾: ما يتمنَّونَ ويشتهون، وهو راجعٌ إلى معنى الدُّعاء، أَي: ما يدَّعيه أهلُ الجَنَّةِ يأتِيهم[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّفَكُّه في الجنَّة لا يكونُ لدفعِ الجوعِ وإنَّما يكونُ للتَّلَذُّذِ

لأهلِ الجنَّةِ فيها فواكِهُ كَثيرةٌ مِن جميعِ أنواعِها، يأكُلونَ منها ما لذَّ وطابَ، ممّا تقرّ به أعينهم، وتسرّ به نفوسهم، كما هو شأن المُترَفين المنعَّمين في الدُّنيا، ولهم فوق ذلك كلُّ ما يَتَمنَّون وتشتاق إليه نفوسهم.

وترشدُ الآية إلى أنه لا جوعَ في الجنة؛ لأنَّ التَّفَكُّهَ لا يكونُ لدفعِ الجوعِ، وإنَّما يكونُ للتَّلَذُّذِ[3]، وأنَّ كلَّ أكل أهل الجنة يأكلونه على سبيل التَّفَكُّه لا على سبيل الحاجة والضَّرورة، فكلُّ مايأكلونه هو للتفكُّه؛ لأنه ليس هناك حاجة ولا ضرورة[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

تفصيل بيان ما لأهل الجنَّة للحثِّ على طلبِها والعمل على دخولِها

جاء قوله ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ الآيةَ على طريق الفصل لتكون الجملةُ تكملةً للتّفسير والبيان لقولِه ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾، فإنَّه بعد أن ذكر البيان الأوّل في قولِه ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ جاء بالبيان الثاني على سبيل التّكميل، فيكون قوله ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ تفسيرًا آخرَ للإجمال المذكور في قوله ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، ويَحْتَمِل أن تكون الآية تكميلًا للاستئناف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 43.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 507، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دعا).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 466، والشربيني، السراج المنير: 3/ 357، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 22، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 203.

البيانيِّ، فإنَّه لمّا كان قوله ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ في جواب سؤال مقدَّر؛ أتبعه بتكميل الجواب فقال ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ الآيةَ.

معنى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾:

الفـاكـهـةُ في الجنَّة لا تُقطع ولا تُـمـنـع إتمامًا للنّعمة وللمسرَّة

اللّام في قولِه ﴿لَهُمۡ﴾ في الموضعين من قولِه ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ للمِلْك، بمعنى أنَّ الفاكهة مِلكٌ لأصحاب الجنَّة، وكلّ ما يَدَّعون مِلكٌ لهم كذلك، وإذا كانت الفاكهة ملكًا لهم تصرّفوا بها كما يشاؤون، ولا تُقطعُ عنهم ولا يُمنعون منها، إتمامًا للنّعمة والمسرَّة، فهي كما وصفها اللّه تعالى ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣﴾ [الواقعة: 32 - 33].

ومثله القول في ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾، تعبيرًا عن حرّيَّتِهم في تصرّفهم في ما يدّعون.

دلالة الضّمير في قوله ﴿لَهُمۡ﴾:

التنعّم بالفاكهة يكون مع الأزواج لكمالِ المسرَّة

يعود الضّمير في قولِه ﴿لَهُمۡ﴾ إلى أصحاب الجنَّة بما وصفوا به من كونِهم في شغلٍ فاكِهينَ، وكونِهم مع أزواجِهم في ظلالٍ على الأرائكمُتَّكِئينَ، أي يأكلون الفاكهة وهم متنعّمون مع الأزواج، ففي التّعبير إشارةٌ إلى كمال المسرّة.

فائدة تقديم المسند على المسند إليه:

فـاكـهـة الجنَّة نوع خاصٌّ بمن يدخلها

قُدِّمَ المسند ﴿لَهُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿فَٰكِهَةٞ﴾ في قولِه ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾؛ لإفادة الاهتمام بالمقدَّم تكريمًا وتشريفًا لأصحاب الجنَّة، ولأجل التّخصيص، بمعنى أنّ الفاكهة لهم خاصة بهم دون غيرهم.

مناسبة إيثار ذكر الفاكهة:

تُؤكل للتَّلذُّذ لا للشّبع ولا لسدِّ الجوعِ

أوثِر ذِكْرُ الفاكهة في قولِه ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾؛ لأنَّها تُؤكل للتلذّذ لا للشِّبع ولا لسدِّ الجوع، فذكرها أَدَلُّ عَلَى التَّنَعُّم، وخُصَّتَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّها عَزِيزَةُ النَّوالِ لِلنّاسِ في الدُّنْيا، ولِأَنَّها اسْتَجْلَبَها ذِكْرُ الاتِّكاءِ لِأَنَّ شَأْنَ المُتَّكِئِينَ أَنْ يَشْتَغِلوا بِتَناوُلِ الفَواكِهِ[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 43.

فائدة تنكير ﴿فَٰكِهَةٌ﴾:

تكثيرُ فاكهة الجنَّة وكمالُها

جاء لفظ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ نكرةً لإفادة الكمال[1]، بمعنى أنَّ فاكهة الجنَّة على كمال الفاكهة وتمامِها، وفي التّنكير معنى التّكثير، بمعنى فاكهة كثيرة، ولمّا جاء اللفظ في سياق الامتنان أفاد العموم، ليشمل جميع أنواع الفاكهة.

نكتة عدم ذكر الأكل من الفاكهة:

فاكهة الجنَّة بين أيدي المؤمنين يأكلون منها متى شاؤوا

لمّا كان الظّاهر أن يقال: لهم فيها فاكهة يأكلون منها، كان في عدم ذكر الأكل والاكتفاء بقولِه ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، إشارةٌ إلَى كَوْنِ زِمامِ الِاخْتيارِ بيَدِهِمْ وكَوْنِهِمْ مالِكينَ للفاكهةِ، وقادِرينَ على تناولها في أي وقت شاؤوا وأنَّها بين أيديهم[2].

دلالة الجملة الاسمية:

أفاد التّعبيرُ بالجملة الاسمية في قولِه ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ثبوتَ مضمون الجملة ودوامها، بمعنى أنَّ الفاكهةَ لا تنقطع أبدًا ولا مانع لهم من تناولها ولا يتوقف ذلك على غير إرادتِهم لها[3].

بلاغة الكناية في الآية:

لاجوعَ في الجنَّة وفيها المتعة واللذة التي لا تنقطع

في قوله ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ كناية عن أنَّهم لا يجوعون في الجنَّة؛ لأنَّ التَّفكُّه لا يكون لدفع الجوع[4]، وتشير إلى النعيم والراحة التي يتمتع بها أهل الجنة؛ إذ الفاكهة هنا ليست مجرَّدَ طعام، بل فيها المتعة واللَّذَّة التي لا تنقطع، مما يبيِّن حالة الرَّغَدِ والسُّرورِ الدائم في الجنة.

فائدة العطف في الآية:

كلُّ ما يطلبه أصحاب الجنَّة يأتيهم حالَ إرادتِهم له

جاءت جملة ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ معطوفةً بالواو؛ ليكون الكلام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 375.
(4) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 375.

على سبيل التّرقّي في العطاء والإحسان، لما تَضَمَّنَتْه من معنى عموم الطّلب والدّعاء وعموم الإجابة، وبيانه أنَّه لمّا ذكر ما يكون لأصحاب الجنَّة من أنواع النّعيم؛ جاءت جملة ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ في مقام جملة التّذييل؛ لتُفيدَ أنَّ كلَّ ما يَدَّعون به وما يطلبونه وما يتمنّونه يأتي إليهم ويكون مِلْكًا لهم حالَ إرادتِهم له.

فائدة تقديم المسند على المسند إليه:

قُدِّمَ المسند ﴿وَلَهُم﴾ على المسند إليه ﴿مَّا﴾ في قولِه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ للاهتمام بالمقدَّم تشريفًا لهم وتكريمًا، ولأجلِ إفادة التّخصيص والحَصْر، بمعنى: لأصحابِ الجنَّة ما يدّعون دون غيرِهم.

دلالة ﴿مَّا﴾:

الموصولة والموصوفة لتوسيع المعنى وتكثيره

الظّاهر أنَّ ﴿مَّا﴾ في قولِه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ موصولةٌ تفيد العموم، بمعنى: لهم كلُّ ما يدّعون، ويكون العائد في قولِه ﴿يَدَّعُونَ﴾ محذوفًا لتأكيد عموم ﴿مَّا﴾، ولرعاية الفاصلة ومناسبة رؤوس الآي، وتقدير الكلام: ولهم ما يدّعونه.

وأجاز بعض المفسّرين والنّحاة أن تكون ﴿مَّا﴾ نكرةً موصوفةً[1] بمعنى (شيء)، أي: ولهم شيءٌ يدّعونه، ففيه تعظيم لما يدّعونه وتكثير له.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿يَدَّعُونَ﴾:

شمول لفظ (يَدَّعونَ) لمعانٍ متعدّدة للمبالغة في التّكريم والتّشريف

عبّر بلفظ ﴿يَدَّعُونَ﴾ للإشعار بكمال تكريمِهم في الجنَّة، فإنَّ اللفظ يَحْتَمِل معانيَ، **أحدها**: أن يكون بمعنى الدّعاء، لأنَّ ﴿يَدَّعُونَ﴾ بصيغة (يفتعلون) من الدّعاء، أي ما يدعو به أهل الجنَّة لأنفسِهم هو لهم أي يأتيهم؛ ونكتة التّعبير بصيغة (الافتعال) الإشعارُ بالمبالغة في إجابة كلِّ ما يدعون به.

---

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1085، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 278، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 168 - 169.

الثاني: أن يكون بمعنى ما يصحُّ أن يُطلَبَ ويُدّعى، أي: كُلُّ ما يَصِحُّ أَنْ يُطْلَبَ فَهوَ حاصِلٌ لَهُمْ قَبْلَ الطَّلَبِ، فلا يحتاجون إلى الطّلب، بل يكفي أنْ يدّعوا فيكون حاصلًا لهم.

الثالث: أن يكون بمعنى الطَّلَبِ، أي: ولهم فيها ما يطلبون، وقَدْ طَبَعَهُمْ عَلَى ألّا يَدَّعيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلّا ما يَجْمُلُ ويَحْسُنُ أَنْ يَدَّعيَهُ، وذَلِكَ لِأَنَّ الطَّلَبَ مِنَ اللهِ أَيْضًا فيهِ لَذَّةٌ، فَلَوْ قَطَعَ اللهُ الأَسْبابَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ لَما كانَ يَطيبُ لَهُمْ، فَأَبْقَى أَشْياءَ يُعْطيهِمْ إيّاها عِنْدَ الطَّلَبِ؛ ليَكونَ لَهُمْ عِنْدَ الطَّلَبِ لَذَّةٌ وعِنْدَ العَطاءِ كذلك.

الرّابع: أن يكون بمعنى يتداعون، أي: يطلب أحدهما من الآخر، ففيه إشارة إلى التّواصل بينهم مع المحبَّة والمودَّة، فيفيدُ أنَّ كُلَّ ما يَصِحُّ أَنْ يَدْعوَ أَحَدٌ صاحِبَهُ إلَيْهِ أَوْ يَطْلُبُهُ أَحَدٌ مِنْ صاحِبِهِ فَهوَ حاصِلٌ لَهُمْ.

الخامس: أن يكون بمعنى يتمنَّون، على معنى رجاء الحصول، وهو جارٍ في العربيَّة، من قولهم: ادَّعِ علَيَّ ما شئتَ، بمعنى تَمَنَّ عليَّ، وفلان في خير ما ادّعى، أي: في خير ما تمنَّى، بمعنى أن يقول: ليت لي كذا، وهو قريب من المعنى الأوّل؛ لأنَّ التمنّي بمعنى الدّعاء.

ولا مانع من اجتماع أكثر من معنى للفظ ﴿يَدَّعُونَ﴾ في هذه الآية، والسّياق يعين عليه؛ لأنَّ الكلامَ في سياق الامتنان وتكثير النّعم مع حصول الطّلب تكريمًا وتشريفًا لأصحاب الجنَّة[1].

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 292، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 508، والزمخشري، الكشاف: 4/ 22، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 295، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271.

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سَـــلامُ ربِّ الــعــالــمين لأصحاب الجنَّة إيــذانٌ بـالرِّضا والــتّــكــريـم والقَبول

لمّا أخبر اللّه تعالى بأنَّ لأصحاب الجنَّة ما يدّعون؛ فسَّر الذي يدّعونه وبيَّنه بغاية الاشتياق إليه، وأعقبه بأفضل إحسانٍ وتكريم وعنايةٍ لجميع أصحاب الجنَّة، إشعارًا برضاه تعالى عنهم وبقَبوله سُكْناهُم في الجنَّة[1].

ولّما بَيَّنَ كَمالَ حالِهِمْ قالَ: سَلامٌ عَلَيْهِمْ، وهَذا كَما في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصافات: 79] و﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ [الصّافّاتِ: 181]؛ فَيَكونُ اللّهُ تَعالَى أحْسَنَ إلَى عِبادِهِ المُؤْمِنينَ كَما أحْسَنَ إلَى عِبادِهِ المُرْسَلينَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السَّلام من الله تــعـالى كَـرامـةٌ وعِـنـايـةٌ بأهلِ الجَنَّةِ

ولهم نَعيمٌ آخَرُ بالسَّلامِ عليهم مِن رَبٍّ رَحيم بهم، يقولُه قولًا فيسمعونه، ويَحْتَمِل أن يكون بواسطة الملائكة، وهذا السلام أمانٌ من كلِّ مكروه، ونَيْلٌ لكلِّ محبوب، وذلك منتهى درجات النعيم الروحي والجسماني الذي تصبو إليه النفوس في دنياها وآخرتها[3].

وترشدُ الآية الكريمة إلى حصولِ السلامة التامة لأهل الجنة من جميع الوجوه وأكملِها وأتمِّها، وحصولِ التحية لهم، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، وإلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه المنزلة برحمة اللّه[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 296، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 149.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 296.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 583، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 23، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698، وابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 203.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

سلام الله يشمل جميع أهل الجنَّة

جاءت الآية على طريق الاستئناف، وقُطِعَتْ عن العطف على ما قبلها؛ للاهتمام بمضمونِها وهو الدّلالة على الكرامة والعناية لأهل الجنَّة؛ إذ يوجَّه إليهم سلام اللّٰه تعالى[1]، ولتكون بسبب القطع بمنزلة جملة التّذييل لما قبلها، بمعنى أنَّ سلام اللّٰه إليهم يشمل جميع أهل الجنَّة، وهو أعظم من النّعم المذكورة التي يتنعّمون بها، مبالغةً لهم في التّكريم والتّشريف، فهو مُنى أهلِ الجنَّة وأَكْمَلُ النّعيم، وهوَ آخِرُها الَّذي لا شَيْءَ فَوْقَهُ سوى النّظر إلى وجهه الكريم[2].

التّوجيه النّحوي لقولِه ﴿سَلَٰمٌ﴾:

من يدخل دارًا كريمة لا يطيب تنعّمه فيها إن لم يكن فيها سلامٌ من صاحبِها

الظّاهر أنَّ لفظ ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر لمبتدإ محذوف، بتقدير هو سلامٌ، فإنَّه لمّا قطع الكلام عن الأوّل واستأنف كلامًا آخر، جيءَ بالاسم النّكرة ﴿سَلَٰمٌ﴾ مصدَّرًا به الكلامُ مرفوعًا؛ لِلدَّلالةِ على الدَّوام والتَّحقُّق؛ لِأنَّ هذا القَولَ صادِرٌ عن رَبٍّ رَحيم في مَقامِ التَّعظيم، وكان جَديرًا بأنْ يُفخَّمَ أَمْرُه ويُعظَّمَ قَدْرُه، ويَكونَ جُملةً مُستَقِلَّةً مَفصولةً عمّا سَبَقَ، وهذا من الحذف الذي هو قِلادةُ الجيدِ وقاعدةُ التّجويد، وترى أنَّك تَروم أنْ تَنْسى هذا المبتدأ، وتُباعِدَه عن وهْمك، وتَجتهدُ أن لا يدورَ في خَلَدِكَ، ولا يَعْرِضَ لخاطرك، وتَراكَ كأنَّك تَتوقّاه تَوَقّيَ الشّيءِ تكره مكانه[3]، فأفاد مجيءُ الاسم مرفوعًا المدح والتّشريف والتّعظيم، فإنَّ من يدخل دارًا كريمة لا يطيب تنعُّمُه فيها إن لم يكن فيها سلام من صاحبِها، ويَحتمِل أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدلًا من ﴿مَّا﴾ - في الآية قبلها - سواء أكانت اسمًا موصولًا أو موصوفة، ويكون من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 44.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 296.

(3) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح، شاكر، ص: 151.

قبيل بدل الكلِّ من الكلِّ، بمعنى أنَّ ما يدّعونه هو سلام، أو يكون بدل البعض من الكلِّ بمعنى أنَّ السلام بعضٌ ممّا يدّعون، ولمّا كان بدلًا من ﴿مَّا﴾ كان في المعنى كالْمُبْتَدَأِ الَّذي خَبَرُهُ جارٌّ ومَجْرورٌ، أي ولهم سلامٌ[1]، ويَحتمِل أنه صفةٌ لـ ﴿مَّا﴾، وهذا إذا جَعَلْتَها نكرةً موصوفةً، أمّا إذا جَعَلْتَها بمعنى الذي أو مصدرية؛ تَعَذَّر ذلك لتخالُفهما تعريفًا وتنكيرًا، ويمكن أنه خبرُ مبتدأ مضمَرٍ، أي: هو سلامٌ، أو أنه مبتدأٌ خبرُه الناصبُ لـ ﴿قَوْلًا﴾ أي: سلامٌ يُقال لهم قولًا، وقيل: تقديرُه: سلامٌ عليكم، ويمكن: أنه مبتدأٌ، وخبرُه ﴿مِّن رَّبٍّ﴾، و﴿قَوْلًا﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لمضمونِ الجملةِ، وهو مع عاملِه معترضٌ بين المبتدأ والخبر[2].

مناسبة التّعبير بالجملة الاسميَّة:

عبّر بالجملة الاسمية في قولِه ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ للإيذانِ بثبوت السّلام لأهل الجنَّة، فإنَّ التّعبير بالسلام بصيغة الجملة الاسميَّة أبلغ وأثبت.

سبب إيثار مجيء القول مصدرًا:

عبّر بصيغة المصدر المنصوب في قولِه ﴿قَوْلًا﴾ تأكيدًا وتقريرًا لمعنى أنَّ السلام يكون بقول من ربٍّ رحيم، أي يخاطبهم الله بالسّلام من غير واسطة كما هو الظّاهر[3]، مبالغةً في تعظيمهم وذلك متمنّاهم، ويَحتمِل أن يكون بواسطة الملائكة كما يأتي.

فائدة تنكير ﴿قَوْلًا﴾:

جاء لفظ ﴿قَوْلًا﴾ نكرة لتعظيم القول الذي يُقال، وهو سلام الله الذي يتلقّاه المؤمنون في الجنَّة خطابًا من الله تعالى إليهم.

نكتةُ تقييد القول بكونه من الله:

قيّد القول بكونه ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم يَتَلَقَّوْن السّلام

كونهم يَتَلَقَّوْن السّلام قولًا حقيقيًّا مسموعًا من رب رحيم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 296.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 297.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 371.

قولًا حقيقيًّا مسموعًا من رب رحيم[1]؛ إشعارًا بأنَّ السلامَ هو بإحسانِه تعالى عليهم ورحمتِه بهم، وبأنَّ هذا السلام ليس كغيرِه من أنواع السلّام، فهو من ربٍّ كريم موصوف بالسّلام وفي دارٍ هي دار السّلام.

معنى ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ابتدائيَّة، فالظّاهر أنَّ السّلام صادر ومبتدأ من ربٍّ رحيم من غير واسطةٍ، ويحتمل أن يكون بواسطة الملائكة، فيكون المعنى سلام مبلَّغٌ من ربٍّ رحيم[2].

مناسبةُ إيثار التّعبير بوصف الرّبوبيّة:

المؤمنون عبدوا ربَّهم في الدّنيا فأكرمهم بالسّلام في الآخرة

عبّر بوصف الرّبوبيَّة في قوله ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ للإشعار بأنَّ السَّلام صادر من المحسن بالنِّعم المربّي للمؤمنين، وفيه إشعار بدوام النّعمة والكرامة ودوام تربيتِه سبحانه لهم، واختيرَ في التَّعبيرِ عنِ الذّاتِ العَليَّةِ بوَصفِ الرَّبِّ؛ لِشِدَّةِ مُناسَبتِه لِلإكرامِ والرِّضا عنهم بذِكرِ أنَّهم عَبَدوه في الدُّنيا، فاعتَرَفوا برُبوبيَّتِه[3].

عِلَّة تنكير لفظ ﴿رَّبٍّ﴾:

جاء لفظ ﴿رَّبٍّ﴾ نكرةً منوَّنًا لتعظيم اللفظ، ولِأجْلِ ذلك عُدِلَ عن إضافةِ ﴿رَّبٍّ﴾ إلى ضَميرِ (هم).

فائدة تنكير ﴿رَّحِيمٍ﴾:

أفاد تنكير لفظ ﴿رَّحِيمٍ﴾ تعظيم رحمتِه تعالى بالمؤمنين، ولمّا جاء اللفظ صفةً لـ﴿رَّبٍّ﴾ أفاد أنَّ سلامَه تعالى برحمتِه.

توجيه المتشابه اللفظي:

السلام تعظيم وإكرامٌ فلا يناسبه أن يكون معه عتابٌ

جاء في هذه السورة ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 367.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 371، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 296.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 44.

﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وجاء في سورة فصلت قوله خطابًا للمؤمنين: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصّلت: 31 - 32]، فيقال: لمَ عبَّر بالسّلام في سورة يس، وبالنُّزُلِ في سورة فصّلت؟ ولِمَ قال في سورة يس ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وقال في فصّلت ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: 32] ؟.

والجوابُ أنَّ هنالك فرقًا بين السياقين؛ لأنَّ الذي في سورة فصّلت بيانٌ لما يُستقبَل به المؤمنون في الجنَّة، لأنَّ النُّزُلَ ما يُرْزَقُ النَّزيلُ أَوَّلًا، فَإِنَّ النَّزيلَ إذا أُكْرِمَ أَوَّلًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُكْرَمٌ وإذا أُخِلَّ بِإِكْرامِهِ في الأَوَّلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُهانٌ دائِمًا، ثمَّ إنَّه قد يُرزَقُ ثمَّ يناقشُه ويحاسبُه، فلمّا قال﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: 32] أفادَ أنَّه في مأمنٍ في الجنَّة، بعظيم المنَّة[1]، وأمّا الذي في سورة يس: فإنَّ السّلام جاء في ختام ما ذكر من النّعم والإحسان والإكرام، فيكون بمنزلة أعظم خاتمةٍ يختمُ لهم بها بعد التنعّم مع أزواجِهم في ظلال الجنّات والجلوس فيها على الأرائك وتنعّمهم بالفاكهة وما يدّعون، والسَّلامُ يُظْهِرُ مَزيَّةَ تَعْظيمِهِ للمسلَّم عليه وإحسانِه إليه، فناسب أن يقول ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ دون ذكر المغفرة؛ لِأَنَّ السلام تعظيم وإكرامٌ غاية الإكرام، فلا يناسبه العتاب بالذنوب المنبئَ بها الوصف بالمغفرة، كما أنَّ السلامَ إكرامٌ من المسلِّم فناسبه مجيء الوصفين ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 297.

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من عادات القرآن المقارنة بين حال أهل الجنَّة وحال أهل النّار

لمّا أجمل اللّه تعالى الكلام في قولِه ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾ [يس: 54][1] وفصّل هذا الإجمالَ بذكر حال أهل الجنَّة وجزائِهم؛ أَعْقَبَه بذِكْر حالِ الفريق الآخر، فذكرَ حالَ أهل النّار وجزاءَهم، وأيضًا فإنَّ المجرمين يرون منزلةَ المؤمن ورفعتَه، ونُزولَ دَرَكِهم وضَعَتَه فيتحسَّرون، فيقال لهم: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾: أصلُ (ميز) يدُلُّ على انفصالِ شَيءٍ من شَيءٍ[3]، المَيْزُ والتَّمْييزُ: الفصل بين المتشابهات[4]، يُقالُ: مِزْتُ الشَّيءَ أَميزُهُ مَيْزًا: عَزَلْتُهُ وفَرَزْتُه، وكَذلِكَ مَيَّزْتُه تَمْييزًا فانْمازَ بَعْضُه من بعض[5]، وامتاز القوم: تَنَحَّى بعضهم عن بعض[6]، و(امْتازَ) في الآية مُطاوِعُ مازه، إذا أفردهُ عمّا كانَ مُختلطًا معه[7]، ومعناه: انفَصِلوا وانفَرِدوا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سياسة العزل للمجرمين ستُطبَّق في الآخرة بنحو تام وشامل

يُبيِّنُ اللّه تعالى جزاءَ المجرمينَ وما يُقالُ لهم، إذ يُقالُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: تميَّزوا اليومَ - أيُّها الكافِرونَ - عن المؤمنينَ، واخرُجوا مِن جُملتِهم مُنفَرِدينَ عنهم في موقِفِ الحَشرِ[8].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 74.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 297.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ميز).
(4) الراغب، المفردات: (ميز).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ميز).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (ميز).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 45.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 469، 470، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 46.

وترشدُ الآيةُ إلى توبيخِ المجرمين وتقريعِهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يُدخِلَهم الله النار، وأن المجرمين يُهانون يوم القيامة بحيث يُميَّزون من المؤمنين بلفظ الطَّرْدِ، وأن الله يميز بين المجرمين والأبرار يوم القيامة كما مَيَّز بينهم في الدنيا؛ فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء، وأنه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المناسبَ لهذا العمل؛ فها هنا لما أُمروا بالانفراد وطُرِدوا، ناسبَ أن يذكر سبب ذلك حيث قال: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

بيان سوء حال المجرمين بعد بيان حسن حال المؤمنين

جاءت الآية عطفًا على الجملة السّابقةِ المَسوقةِ لبيان أحوالِ أهل الجنَّة، لا على أنَّ المقصودَ عطْفُ فعل الأمر بخصوصه حتى يُتمحَّلَ له مُشاكِلٌ يصِحُّ عطفُه عليه؛ بل على أنَّه عطفُ قصَّةِ سوءِ حال هؤلاءِ وكيفيَّةِ عقابِهم، على قصَّةِ حُسن حال أصحاب الجنَّة ووصف ثوابِهم[2]، فالجهةُ الجامعة بيانُ حالِ كلِّ فريق يوم القيامة، ويَحْتَمِل أن تكون الجملة عطفًا على قوله ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾، والتّقدير: سلامٌ يقال لأصحاب الجنَّة قولًا، ويقال للمجرمين: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فيكون الكلام من توزيع الخطابين على مخاطَبين في مقام واحدٍ، وهو يوم البعث[3].

مناسبة مجيء الكلام بصيغة الإنشاء:

كمال التّباين بين حال المؤمنين وحال المجرمين يوم القيامة

جاء قوله تعالى ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ بأسلوب الأمر، مغايرًا لأسلوب الإخبار عند ذكر حال أصحاب الجنَّة وذكر جزائِهم، وكأنَّ تغييرَ السَّبكِ لتخييل كمالِ التَّباينِ بين الفريقينِ وحاليهما[4].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698، وابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 203.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 174.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 459، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 45.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 174.

نكتة خطاب المجرمين بالأمر بالامتياز:

إهانة المجرمين بالامتياز على حِدَةٍ ولتهيئتِهم لأنْ يُساق بهم إلى النّار

لمّا كان امتياز أحد الفريقين يُعلمُ منه امتياز الآخر، كان العدول إلى أمر المجرمين بالامتياز دون المؤمنين لِما في الأمر به في موقفِ الحشر يوم القيامة من التّهويل والتّعنيف[1]، ولمّا تعلَّق الأمر بوصفهم بالإجرام، أفادَ أنَّ ميزَهم لأجلِ تهيئتهم لأن يُساق بهم إلى النّار وليس لشيءٍ آخر، كما أنَّ الخطاب بصيغة الأمر مضمَّنٌ معنى الإهانة والصَّغار وتعجيل الوعيد؛ لما يُؤْذِن به الأمر من الإسراع ولِقرينةِ السّياق، ومثله قوله تعالى لأهل النّار: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

دلالة صيغة الأمر:

الأمر بالامتياز للمبالغة في الإسراع بحصول فصل المجرمين على حدَةٍ

الظّاهر أنَّ صيغة الأمر في قولِه تعالى ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ على ظاهرِها، أي تفيدُ أَمْرَ المجرمين بالامتثال للامتياز، وهو أمرٌ لا قدرة لهم على مخالفتِه يوم القيامة، فهذا الأمرُ أمر تكوين[2]، وإنّما وجّه الأمر إلى المجرمين بأن يمتازوا مبالغةً في الإسراع بحصول المَيْزِ، فيكون المَيْزُ بصوغ الأمر من مادَّة المطاوعة (امتاز)، فَإِنَّ قَوْلَكَ: لِتَنْكَسِرَ الزُّجاجَةُ، أَشَدُّ في الإِسْراعِ بِحُصولِ الكَسْرِ فيها مِنْ أَنْ تَقولَ: اكْسِروا الزُّجاجَةَ[3]، وتقدَّم أنَّ في الأمر بالمَيْز تهويلًا وتعنيفًا وإهانةً وتعجيلًا بالوعيد وإعلامًا لهم من أوّل الحشرِ بأنَّ مصيرَهم إلى النّار؛ فيزداد المجرمون غمًّا على غمٍّ، كما أنَّ في الكلامِ إشارةً إلى أنَّ جزاءَهم من جنس عملِهم، فإنَّهم لمّا كانوا يمتازون عن المؤمنين ويقاطعونهم في الدنيا؛ ترفُّعًا واستكبارًا، أُمِروا بالمَيْز عنهم في المحشر تبكيتًا لهم وتوبيخًا.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 38.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 358.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 45.

غرضُ التّعبير بلفظ ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾:

الامتياز يكون بتحرّك المجرمين وانفرادِهم وانفصالِهم ليُسارَ بهم إلى النّار

لمّا كان (امتاز) من أَمَزْت الشّيءَ من الشَّيءِ أَميزُه، إذا عَزَلْتَه وفَصَلْتَه عن مُخالِطِه، على جهة التّفريق والتّنحّي[1]، وكان لفظ (امتازَ) مطاوعَ (مازَه) إذا أَفْرَدَهُ عَمّا كانَ مُخْتَلِطًا مَعَهُ، - كان التّعبير بلفظ ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ يفيد الأمر بانفرادِهم وعزلِهم وفصلِهم عن المؤمنين على جهة تنحّي المجرمين عنهم بأن يكونوا على حِدَةٍ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة، بمعنى أنَّ المجرمين هم الذين يتحرّكون لينفردوا وينفصلوا، ليُسارَ بهم إلى النّار، فهذا يوم الفصل؛ لِأَنَّ المَحشرَ يجمعُ البرَّ والفاجرَ، فالعالَم مختلطون فيه، ولهذا سمّي بيوم الجمع، فالفصل بعد الجمع.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنَّ الأمر بالمَيْز موجَّه إلى المجرمين بأن يمتاز بعضُهم من بعضٍ، فعن الضحاك: لكلِّ كافر بيتٌ من النار يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى[2]، أي في آخر أمرهم بعد خطاب ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108][3].

بلاغة التّعريض بذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

تنبيه الكافرين إلى أنَّ اليوم الموعود حقٌّ وسيندمون فيه أشدَّ النّدم

تكريرُ كلمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ خمس مرّات في هذه الحكاية؛ للتّعريض بالمخاطبين فيه، وهم الكفّار الذين كانوا يكذّبون بوقوع ذلك اليوم، مع تأكيد ذكره على أسماعِهم، بِقَوْلِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ [يس: 54]، وقَوْلِه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ﴾ [يس: 55]، وقَوْلِه: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[4]، فكأنَّه قال

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ميز).

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 531، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 509، والزمخشري، الكشاف: 4/ 22، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 171.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 45.

هذا اليوم الذي جَحَدْتُموه قد حَضَر، تقريعًا لهم ولزيادة التّنديم والتّوبيخ، كما أنَّ في إعادة ذِكْرِ اليوم جَرْيًا على النّمط من زيادةِ التَّهويل لذلك الموقف[1].

نكتة حذف يا النّداء:

حذف حرف النّداء في قولِه ﴿أَيُّهَا﴾ للدلالة على أنهم في القبضة، لا مانع من غاية التصرف فيهم لكل ما يُراد لأنه لا حائلَ دونهم[2].

بلاغة المجاز في النّداء:

التّعنيف حين وقوع الوعيد بصيغة الخطاب أشدُّ توبيخًا ومهانةً للمخاطَب

جاء النّداء في قولِه ﴿أَيُّهَا﴾ على معنى التّعنيف والتّبكيت، وليس على طلب الإقبال، فالتّعنيف حين وقوع الوعيد بصيغة الخطابِ أشدُّ توبيخًا وذلَّةً ومهانةً للمخاطب، ولمّا كان أصل النّداء برفع الصّوت أفاد بلازِمِه الإشهار بالمنادى به؛ ليفيد إشهارَهم أمام جميع العالم يوم البعثِ بوصف الإجرام.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

المجرمون معروف إجرامُهم مكشوفون عند جميع أهل المحشر

(أل) في قولِه ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اسم موصول بمعنى الذي، وتقدير الكلام: وامتازوا اليومَ أيها الذين أجرموا، وفائدة التعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه بيانُ أنَّ إجرامَهم معلوم عند جميع الحاضرين يوم المحشر، فهم معروفون بوصف الإجرام حينَ المَيْزِ عن المؤمنين، كما قال تعالى ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: 41][3]، كما أنَّ في التّعبير بالاسم الموصول إيماءً إلى سبب الحُكْم، أي إنَّ سبب مَيْزِهم وعَزْلِهم عن المؤمنين هو إجرامُهم[4].

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

وعبّر بالإجرام دون أن يقال: (أيّها الكافرون)؛ لمناسبته للفظ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 150.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 358.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 45.

التناسب التآلفي بين الألفاظ ناسب فيه التعبير بالإجرام مع الميْز

الميَز، فإنَّ أصل الجُرْم هو القطع، فناسب الميز الذي هو بمعنى الانفصال والعزل الذي هو بمعنى القطع، كما أنَّ وصفهم بالإجرام يفيد ارتكابَهم الذّنوب العظيمة والآثام الغليظة، وحَمّلَهم لها(1)، ففيه تذكير لهم بما فعلوه في الدّنيا بمعنى أنَّهم لايساقون إلى النّار بسبب كفرِهم فقط، بل بما ارتكبوه من الآثام العظيمة، ولا ذنب أعظم من الكفر.

دلالة التّعبير بصيغة اسم الفاعل:

العراقة في الإجرام توجب النّدم والحسرة يوم القيامة

عبّر بصيغة اسم الفاعل في قوله ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم قد ارتكبوا جُرْمًا كثيرًا، حتَّى صاروا عريقين في الإجرام، وصار الوصف ملازمًا لهم(2).

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 150.

﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: 60]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمِا قَبْلَها:

ما امتاز المجرمون وسيقوا إلى النّار إلّا بعد إقامة الحجّة عليهم

لمّا أمرهم بالامتياز فامتازوا في الحال وأسرّوا النّدامةَ، وأصابَهم من الحسرة ما تعجز عنه العقول وتذوب منه النّفوس -قال تعالى- موبِّخًا لهم في تلك الحال بهذا المقال معلّلًا حكمه عليهم بأنَّه لم يتركهم هَملًا، بل نَصَبَ لهم الأدلَّة وأَرسل لهم الرّسل وأنزل عليهم كُتبًا، ما هو كافٍ لهم في النَّجاة[1]، وخاطبهم اللّه تعالى توقيفًا لهم وتوبيخًا على عهده إليهم ومخالفتهم عَهْدَه[2]، وقال لهم على جهةِ التَّوبيخ والتَّقريع: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ الآيةَ[3].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡهَدۡ﴾: أصلُ (عهد) يدلُّ على الِاحتِفاظِ بِالشَّيءِ وإحداث العَهْدِ بِهِ، والعَهْد يطلق على أَشياء مُختلفَة: فَمنها الحِفظُ ورعايةُ الحُرْمَة، ومِنْها الوصيّة؛ وإنَّما سُمّيَت بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ العَهْدَ مِمّا يَنْبَغي الِاحْتِفاظُ بِهِ[4]، والعهد كذلك: الميثاق، ومِنه قَوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91][5].

والمقصودُ بالعَهْدِ في الآيةِ: الوصيَّةُ، ووصيَّة اللّه بني آدم بألّا يَعبُدوا الشَّيطانَ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 151 - 152.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 459.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 77.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عهد).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 46.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يعاتب الله الكفّار سلفًا في الدُّنيا قبل أن يُعاقبوا في الآخرة

يقولُ اللّهُ تعالى - على جهة التوبيخ -: ألم أوصِكم - يا بني آدَمَ- على ألسِنةِ رُسُلي ألّا تَعبُدوا الشَّيطانَ فتُطيعوه فيما أمَرَكم به؛ مِن الكُفرِ والشِّركِ بي، ومَعصيتي؟، إنَّ الشَّيطانَ لكم عدوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى تأكيد عداوة الشيطان للإنسان، وإلى إثبات رحمة اللّه ﷻ بالخلق إذ لم يجعل إخلاصَهم له موكولًا إلى عقولهم، بل عهد بذلك إليهم على ألسنة الرسل؛ لأن اللّه لو جعل الإخلاص موكولًا إلى العقول لاختلفت العقول في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأن الأهواء لا تنضبط، فجعل اللّه ﷻ ذلك مما تكفَّل به هو نفسه لعباده؛ ففيه إثبات رحمة اللّه ﷻ بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

المجرمون جاءتهم الدّلائل على توحيد الله واجتناب طاعة الشّيطان

جاءت الآية على طريق الاستئناف البياني، إذ لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تَعالَى حالَ المُؤْمِنينَ والمُجْرِمينَ كانَ لِقائِلٍ أنْ يَقولَ: إنَّ الإنْسانَ كانَ ظَلومًا جَهولًا، والجَهْلُ مِنَ الأعْذارِ، بيَّن اللّه تعالى أنَّ ذَلِكَ عِنْدَ عَدَمِ الإنْذارِ، وقَدْ سَبَقَ إيضاحُ السُّبُلِ بِإيضاحِ الرُّسُلِ، وعَهِدْنا إلَيْكُمْ وتَلَوْنا عَلَيْكُمْ ما يَنْبَغي أنْ تَفْعَلوهُ وما لا يَنْبَغي، فقال تعالى﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الآيةَ[3]؛ لتقرير أنَّهم خالفوا العهد الذي أُخِذ عليهم ونقضوه بأفعالهم، فاستحقّوا العذاب، أو يقال: ماذا يقال لهم بعد أن امتازوا عن المؤمنين ليُسار بهم إلى النّار؟ فقيل:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 470، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 584.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 203، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 389.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 297.

يقال لهم تذكيرًا بالدّلائل التي جاءتهم: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾.

سرُّ النّداء بـ(يا):

التذكيرُ بالعهد المتروك اقتضى التّعبير بنداء البعيد

عبّر بأداة النّداء (يا) الدالَّة على بعدِ المخاطَبِ؛ لأنَّ المقامَ مقام تذكير بالعهد الذي ضيّعوه وتركوه ولم يتمسّكوا به، فاقتضى التّعبير بأداة البعد، كما أنَّ في النّداء بـ(يا) تنبيهًا على علوّ مرتبة بني آدم وتعظيم منزلتِهم، لتخصيصهم بالخطاب، مع أنَّ الخطاب يدخل فيه الجنُّ كذلك، ففيه تفضيل للإنس على الجنِّ[1].

نكتة النّداء بعنوان بني آدم:

تذكير النّاس بعدم نسيان العداء القديم بين أبيهم والشيطان

لمّا كان المقام مقامَ توبيخٍ وتقريع على عبادتِهم الشّيطان، وطاعتهم وانقيادِهم له؛ اقتضى تذكيرَهُم بالعداء القديم بين أبيهم آدم والشّيطان، وأنَّهم أبناء الذي جعله الشّيطان عدوًّا له، فخوطبوا بقوله ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ دون يا أيها النّاس، مع أنَّه مكافئ له في إفادة العموم - ليكون النّداء بـ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ توطئةً بديعةً للنّهي الوارد في الآية عن عبادة الشّيطان[2]، كما أنَّ في التَّعبير بهذا العنوان تذكيرًا لهم بأنَّ أباكم آدم كان على التّوحيد، ولكنَّكم نَقضتُمُ العهدَ الذي أخذه اللّه عليكم بتوحيده وعبادتِه وحده.

بلاغة الاستفهام المجازي:

إفادة الاستفهام المجازي معنى إقرار المجرمين والإنكار عليهم

الاستفهامُ في قوله تعالى ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ﴾ مجازيٌّ للتّقرير والإنكار: فأمّا التّقرير فيُقصَد منه تقريرُ العهد وتثبيته والإشهاد عليهم، ومجيءُ الكلام بصيغة الاستفهام المجازي أبلغُ في هذا السّياق من الإخبار به، فبدلًا من أن يقال: (قد عهدت إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشّيطان إنَّه لكم عدوّ مبين وأن اعبدوني، فلم تمتثلوا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 46.

وعبدتّم الشّيطان ولم تعبدوني)؛ جاء الكلام بصيغة الاستفهام المجازي، لأنَّه أبلغ في تقرير ثبوت العهد والإشهاد عليهم وإلزامِهم الحجَّةَ، ليكون إقرارُهم إظهارًا للحجَّة عليهم، وأمّا الإنكار فإنَّه لمّا جاء الاستفهام على معنى التَّبكيت والتّقريع؛ آذَنَ بأنَّهم لم يتمسّكوا بالعهد ولم يعملوا به، ففيه إنكار عليهم، ولمّا كانت وصايةُ اللّه لبني آدَمُ بألّا يَعْبُدوا الشَّيْطانَ هي ممّا تقرَّر واشتهر في الأمم بما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ في العُصورِ الماضيَةِ، كان ممّا لايَسَعُ إنْكارُهُ، وبِهَذا الِاعْتِبارِ صَحَّ الإنْكارُ عَلَيْهِمْ في حالِهِمُ الشَّبِيهَةِ بِحالِ مَنْ يَجْحَدُ هَذا العَهْدَ، فالاستفهام لإنكار النّفي وتقرير المنفيِّ[1].

نكتة التّعبير بقوله ﴿أَعۡهَدۡ﴾:

لمّا كان العهدُ هو الوصيَّةَ العظيمةَ التي فيها خير ومنفعة للأنام، وكان العهد في قولِه ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ﴾ هو الوصيَّة التي أوصى اللّه بها عباده على ألسنة أنبيائه ورسلِه عليهم الصلاة والسلامُ[2]؛ أَفاد التّعبير به وجوب حفظِ العباد لهذا العهد ومراعاتهم له حالًا بعد حالٍ وأنَّه خيرٌ ومنفعةٌ لهم[3]، فإنَّ أصلَ العهد قائمٌ على الإلزام والالتزام، أي إلزام اللّه لعباده بحفظِه ومراعاته، والتزام العباد بالوفاء بما وصّاهم اللّه به.

عهد الله هو الوصيَّة التي أوصى الله بها عباده على ألسنة أنبيائه

براعة التّعبير بصيغة المتكلّم المفرد:

عُبّر بصيغة المتكلّم المفرد في الفعل المضارع ﴿أَعۡهَدۡ﴾ دون أن يقال (ألم نعهد إليكم)؛ لأنَّ الكلام في سياق ما يقال للنّاس في يوم القيامة ممّا كان عليهم من وجوب توحيد اللّه تعالى واجتناب الشّرك به، فناسبه التكلّم بضمير الواحد دون ضمير الجمع الدالِّ على العظمة، ولكلِّ كلمة مقامُها وسياقها.

مناسبة ضمير المتكلّم للمفرد لسياق الآية

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 172، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 46.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 22.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات (عهد)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 175.

فصاحة لفظ ﴿أَعۡهَدۡ﴾ ومناسبته للمعنى:

ثقل نطق كلمة (أَعـهَـد) لثِقَلِ العَهْدِ وقوّتِه

في قوله ﴿أَعۡهَدۡ﴾ وإن تقاربَ مخرج الحرفين العين والهاء لأنَّهما من حروف الحلق، إلّا أنَّ تَواليَهُما لَمْ يُحدِثْ ثِقَلًا في النُّطْقِ بالكَلِمَةِ يُنافِي الفَصاحَةَ بِموجَبِ تَنافُرِ الحُروفِ؛ لِأَنَّ انْتِقالَ النُّطْقِ في مَخْرَجِ العَيْنِ مِنْ وسَطِ الحَلْقِ إلَى مَخْرَجِ الهاءِ مِنْ أَقْصَى الحَلْقِ خَفَّفَ النُّطْقَ بِهِما، وكَذَلِكَ الانْتِقالُ مِنْ سُكونٍ إلَى حَرَكَةٍ زادَ ذَلِكَ خِفَّةً[1]، فالثّقل الذي في الكلمة غير منافٍ لفصاحة الكلمة، وهو يعبّر عن ثقل العهد وقوّته، ولاسيّما مع اقتران الهمزة بالحرفين، فيكون اللفظ من قبيل مناسبة توالي الأصوات للمعنى.

فائدة تعدية الفعل بـ(إلى):

الأدلّـة العقليّة من العهد الذي أخـذه الله على بني آدم

يدلُّ العهد في قوله ﴿أَعۡهَدۡ﴾ على ما وصل إلى بني آدم من البيّنات عن طريق الأنبياء والرّسل، بقرينة تعدية الفعل بحرف الجرِّ ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ الذي هو لنهاية الغاية، فيكون المراد بالعهد الأدلَّةَ السّمعيَّة التي وصلت إليهم عن طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن جملتها قوله تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة: 168] وغيرهما من الآياتِ الكريمةِ الواردةِ في هَذا المعنى، ويدخل في العهد الميثاقُ الذي أخذه اللّه تعالى على بني آدم، ويدخل فيه كذلك ما ركَزَه فيهم من الأدلَّة العقلية، لظهورها ووضوحِها[2]، ولمّا عُدّيَ العهد بـ(إلى) أفاد معنى الأمر به[3]؛ ليفيد أنَّ هذا العهد كان على سبيل الأمر بحفظِه والقيام بأمرِه، والمعنى: ألم آمركم وأوصِ إليكم أن لا تعبدوا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 46.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 23، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 175.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 172.

الشّيطان[1]، وفي التّعدية ب(إلى) إشارة إلى علوِّ اللّه تعالى وكمالِه وعلوِّ العهد ورفعتِه[2].

دلالة الضّمير في ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾:

لمّا كان الكلام في سياق خطاب المجرمين يوم البعث، دلَّ على أنَّ المراد بالضّمير غير المؤمنين من بني آدم.

فائدة ﴿أَن﴾ التفسيرية:

العهد يقتضي وجوب الوفاء به والأخذ به بقوّة وحزم

لمّا كان العهد بمعنى القول دون حروفِه؛ لأنَّ العهد وصيَّةٌ، كانت ﴿أَن﴾ تفسيريّة بمعنى (أي)، بمعنى أنّها فسّرت الإجمال في لفظ﴿أَعۡهَدۡ﴾[3]، وتقدير الكلام: ألم أقل لكم أن لا تعبدوا الشّيطان؛ ليُشعرَ الكلامُ أنَّ العهد قد بلَغكم كما يَبلُغُ القولُ السّمعَ، وإنّما عبّر بالعهد دون القول لفائدتين، إحداهما: قوّة العهد ولزومه ولما يفيده من معنى الأمر به ووجوب حفظه والوفاء به، الثانية: لِما تفيده ﴿أَن﴾ من تفسير الجملة المجملة قبلها؛ ليدلَّ مجموع المفسَّر والمفسِّر على المبالغة في تأكيد العهد وتقريره، لما فيه من معنى التّكرار، كما أنَّه لمّا كان العهد مُجمَلًا وفيه أوامر ونواهٍ؛ فَسَّره بما يجمع كلّ الأوامر والنّواهي فقال ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾.

نكتة نسبة العبادة إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾:

الانقيادُ للشّيطان ولتزيينه وإغوائه عبادةٌ له

في قولِه تعالى ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أسند عبادة الشّيطان إلى بني آدم، وإن كانوا هم لا يقصدون الشيطان بعبادتهم؛ لأنَّهم لمّا كانوا يطيعونه فيما يغويهم به ويزيّنه لهم وينقادون لإغوائِه جعل طاعته عبادة له[4]، كما أنَّه لمّا كان الإنسان بطبعِه السّليم ينفر من

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 517، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 18، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 373.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 152.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 251، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 47، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 218.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 532، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 459.

أن ينسب له عبادة الشيطان، لاتِّفاق العقلاء على أنَّه لا يأمرُ إلّا بالشّرِّ[1]؛ كان في التّعبير بها تقبيح لطاعتِه وتنفير من اتّباعِه.

دلالة عبادة الشّيطان:

الكفر وعموم المعاصي من إغواء الشّيطان

يَحْتَمِل أن يكون المرادُ من عبادة الشّيطان المنهيِّ عنها في قولِه تعالى: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ طاعتَهُ في معصية الله وإغواءَهُ العباد إلى عموم المعاصي، فيدخل فيه الكفر وغيره من أنواع المعاصي الأخرى، وهذا الذي ذهب إليه جمهور المفسّرين[2] ويَحْتَمِل أن يكون المراد عبادة آلهةٍ غير الله دعاهم إليها الشّيطان، فيكون قوله ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ بمعنى لاتطيعوه في الشّرك[3]، ولا تعبدوا الآلهة؛ لأنهم عبدوها بأمره فكأنَّهم عبدوه[4]، ليكون الكلامُ على طريق المجاز العقلي، بالتجوّز في النسّبة؛ لأنَّ الشّيطان كان هو السبب والدّاعي إلى عبادة آلهةٍ من دون الله، فهو مجاز عقلي علاقته السَّببيَّة[5]، وفيه إشارة إلى أنَّ كلَّ من يعبد غير الله تعالى كان إشراكُه بإغواء الشّيطان له.

فائدة تصدير الجملة بـ(إنَّ):

حثُّ المخاطبين على اجتناب عبادة الشّيطان بطريق بيان السّبب والعلَّة

لمّا جاءت (إنَّ) في صدر جملة سبقها كلامٌ أفادت تعليلَ حكم ما قبلها، ولمّا كان حكم ما قبلها هو النّهي عن عبادة الشّيطان في قوله ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أفادت أنَّ سبب النّهي عن عبادتِه أو سبب وجوب الانتهاء عن المنهيِّ عنه هو أنَّه لكم عدوٌّ مبين[6]، ففيه حَثُّ المخاطَبين على اجتناب عبادة الشّيطان بطريق بيان السّبب والعلَّة، للإذعان والتّسليم للنّهي.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 298.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 471، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 18، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 373.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 510.

(4) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2365.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 39.

(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271.

معنى التأكيد بـ(إنَّ):

مَنْ يتّبع غواية الشّيطان كمن يعتقد صداقتَه

أفاد التأكيد بـ(إنَّ) تقريرَ عداوة الشّيطان وظهورِها لبني آدم، ولمّا كان من يتّبع غوايتَه كمن يعتقد صداقتَه، أوثِرَ التأكيدُ، أي: لعدمِ جَرْيِهم على مقتضى العلم، فَهُمْ والمنكرون عداوتَه سواء[1].

دلالة الضّمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾:

مَنْ لم يتّخذِ الشّيطانَ عدوًّا سيجرّه إلى طاعتِه وعبادتِه

يعود الضّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾، ولمّا ورد لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ على سبيل النّهي عن عبادتِه دلَّ على أنَّ المعنى: إنَّ الشّيطان الذي نهيتكم عن عبادتِه عدوٌّ مبين لكم؛ ليفيد بلازمِه أنَّ من لم يتّخذه عدوًّا سيجرّه إلى طاعتِه وعبادتِه.

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور:

الشيطان يسعى إلى إغواء بني آدم وحريص على ضرّهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ﴿لَكُمۡ﴾ على متعلَّقه ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ للتّخصيص، بمعنى أنَّ عداوتَه محصورة بكم، أي هو عدوٌّ مبينٌ لكم وليس لغيرِكم؛ ليفيد سعيَه إلى إغواء بني آدمَ وحرصَه على ضرِّهم كما يضرُّ الشّخصُ عدوَّه، وأفاد التّقديم تنبيهَ المخاطبين إلى أنَّ الشَّيطان ليس له همٌّ ولا اهتمام سوى أن يغويَكم حتّى تطيعوه فيما يزيّنه لكم، كما أنَّ في تقديم ﴿لَكُمۡ﴾ رعايةً للفاصلة ومناسبة رؤوس الآي.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿عَدُوّٞ﴾:

العدوُّ نقيض الصّديق

أخبر عن الشّيطان بلفظ ﴿عَدُوّٞ﴾ للإشعار بتجاوزه ما حُدَّ له، وبظلمِه وأنَّه يتربّص الضّرر بكم، والعدوُّ نقيض الصّديق[2].

براعة التّعبير بصيغة المبالغة:

لا يأتي من الشّيطانِ إلّا العداوةُ والضُّرُّ

عبّر في وصف الشّيطان بصيغة المبالغة ﴿عَدُوّٞ﴾؛ للمبالغة في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 153، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 358، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 40.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عدو).

عداوتِه لبني آدم، وللإشعار بأنَّها صارت وصفًا ثابتًا له، فلا يأتي منه إلّا العداوة والضُّرّ.

فصاحةُ التّعبير بصيغة اسم الفاعل:

عداوة الشّيطان بيّنة واضحة وهو يُظهر عداوته بتزيينه وإغوائِه

صيغة اسم الفاعل في قولِه ﴿مُّبِينٌ﴾ من أبان، فتَحْتَمِل الصيغةُ أن تكون بمعنى بانَ للمبالغة في الوضوح، فعَداوَتُه بيّنة واضحة لا يطويها ولا يخفيها، ووَجْهُ وُضوحِها أَنَّ المَرْءَ إذا راقَبَ عَواقِبَ الأَعْمالِ الَّتي توَسْوِسُها لَهُ نَفْسُهُ واتَّهَمَها وعَرَضَها عَلَى وصايا الأَنْبياءِ والحُكَماءِ وجَدَها عَواقِبَ نَحِسَةً، فَوَضَحَ لَهُ أَنَّها مِنَ الشَّيْطانِ بِالوَسْوَسَةِ وأَنَّ الَّذي وسْوَسَ بِها عَدوٌّ لَهُ لِأَنَّهُ لَوْ كانَ ودودًا لَما أَوْقَعَهُ في المهالك والكوارث[1]، وتَحْتَمِل أن تكون على بابِها ليكون المعنى أنَّه مُبين عداوتَه لكم، أي مُظهِرُها، وذلك بما يظهره من غَوايتِه لبني آدم بتزيينه الشّهوات، وقد أظهر عداوته بإبائه السجود لآدم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميَّة:

أفاد التّعبير بالجملة الاسميّة ثبوت مضمون الجملة، بمعنى أنَّ عداوة الشّيطان ثابتة مستمرّة، وليست مؤقّتةً.

مناسبة تتابع التأكيدات:

تتابعت التأكيدات في قوله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وهي الجملة الاسميَّة و(إنَّ) وتقديم الجارِّ والمجرور على عاملِه وما تفيده صيغة المبالغة من معنى تأكيد عداوة الشّيطان ومداومته عليها والتّوصيف بظهور عداوتِه، فهذه المؤكّدات اللّفظيَّةَ والمعنويَّةَ تفيد المبالغةَ في تحقيق عداوة الشّيطان لبني آدم، وسَعْيَه لإغوائهم وإلحاق الضُّرِّ بهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 175.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العهد والميثاق:

الوصيَّة تأكيد للعهد وتقرير للوفاء به، فالعهد يكون قبل الوصيَّة

الفرق بينهما هو أنَّ العهد هو الوصيَّة العظيمة، أو الموثق الذي من شأنِه أن يُراعى ويُتَعَهَّد ويُلتزم به حفظًا ووفاءً، ويدخل فيه القول والقرار واليَمين والوَصيَّة والضَّمان والحِفْظ والزَّمان والأَمر، وأمّا الميثاق فهو توكيد العهد من قولك: أوثقتُ الشيء إذا أحكمتَ شدَّه[1]، فعبِّرَ بالعهد دون الوصيَّة في الآية للإيذان بوجوب مراعاته والوفاء به، والوصيَّة تكون بمراعاة العهد، ولمّا كان الكلام عن العهد الأوّل الذي شمل بني آدم كلَّهم ناسبه التّعبير بالعهد؛ لأنَّ العهد قبل الوصيَّة بالوفاء به، بمعنى أنَّه يعهد ثمَّ يوصي بالوفاء به، والعهدُ أبلغ من الأمر؛ لأن العهد إليه كأنه متضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك؛ فإن الله قد أخذ علينا الميثاق ألا نعبد إلا إياه وألا نعبد الشيطان لأنه عدوٌ.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 57، والكفوي، الكليات: 1/ 640.

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

عبادة الله تقتضي اجتناب عبادة الشيطان

لما بَكَّتَهُم بالتَّذكير بما ارتكبوا مع النهي عن عبادة العدوِّ تقديمًا لدرء المفاسد، وبَّخَهُم بالتَّذكير بما ضيَّعوا مع أخذ العهود من واجب الأمر بعبادة الوليِّ فقال: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[1]، ولمّا نهى عن عبادة الشّيطان صرَّح بما توضَّح من النّهي فقال ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

كلُّ مَن عَبَد غيرَ اللهِ فإنَّما يعبُدُ الشَّيطانَ

ألم أعهَدْ إليكم - يا بني آدَمَ - بعِبادتي وحْدي وطاعتي وامتِثالِ ما أُمِرتُم به، واجتِنابِ ما نُهيتُم عنه؛ فإنَّ توحيدي وطاعتي ومَعصيةَ الشَّيطانِ: طَريقٌ مُستقيمٌ، وهو دينُ الإسلامِ القَويمُ، الذي يوصلكم إلى عزِّ الدنيا، وسعادة الآخرة[2].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ العبادة تُطلَق على معنيين: أحدهما التعبد، والثاني المتعبَّد به، فالتَّعبُّدُ يعني التذلُّلَ لله ﷻ، وهي بهذا المعنى فعلُ العبد يعني صلاته وصيامه وحَجَّه وزكاتَه، وما أشبه ذلك، وتُطلَق العبادة على المتعبَّد به، وهي بهذا المعنى كلُّ اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال؛ فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحيَّة[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 153.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 470، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 510، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 47.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 203.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

جاءت جملة ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ معطوفةً على﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾؛ لاشْتِراكِهما في كونهما جملتين إنشائيّتين وفي الجهة الجامعة، وهي العهد إلى بني آدم بتوحيد اللّه واجتناب الإشراك به سبحانه.

فائدة العطف بالواو:

عهد الله واحد يتضمّن الأمر بعبادة الله وحده والنّهي عن عبادة الشيطان

لمّا كان العطف بالواو على معنى التّشريك في الحكم وهو الأمر بإيفاء العهد في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أفاد عطف (أَنِ اعبُدوني) على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أنَّ الكلام بتقدير: ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن اعبدوني؛ ليفيد أنَّ الأمر بعبادة اللّه داخلٌ في ضمن العهد[1]، فالعهد واحدٌ، وتضمَّنَ النّهيَ عن عبادة الشّيطان والأمرَ بعبادة اللّه، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الجملتين مفسِّرتان لعهدَيْن: عهد النّهي عن عبادة الشّيطان، وعهد الأمر بعبادة اللّه تعالى[2]، ومقتضى العدول عن صيغة القَصْر - كما سيأتي - يفيد أنَّه عهد واحد لجميع بني آدم، وتضمّن الأوامر والنّواهي، ويؤيّد أنَّه عهد واحد مجيءُ اسم الإشارة بصيغة المفرد في قوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، فـ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن[3].

نكتة العدول عن الإيجاز إلى الإطناب:

عموم أهل الضّلالة تَنَكّبوا عبادة الله

عُدِلَ عن الإتيان بصيغة القَصْر بأن يقال: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا إلّا اللّه) أو (أن لا تعبدوا إلّا إيّاي) إلى الإطناب في قولِه: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ

(1) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 363.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 23.

﴿ٱعۡبُدُونِيۚ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تذكير وتوبيخ وإشهاد عليهم، فناسبه الإطناب بالتّصريح بالنّهي والأمر، كما أنَّ في الإتيانِ بجملتَي النّهي والأمر زيادةَ فائدةٍ؛ لأنَّ مِن أهلِ الضَّلالةِ الدَّهريّينَ والمعطِّلينَ وغير الدينيين، فهمْ وإنْ لم يَعبُدوا الشَّيطانَ على الحقيقة ولكنَّهم لم يَعبُدوا اللّهَ، فكانوا خاسئِينَ بالعهدِ[1].

عِلَّةُ تقديم النّهي على الأمر:

التّخلية عن الشّرك والمعاصي مقدَّمة على التّحلية بالتّوحيد والطاعات

تَقديمُ النَّهيِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ على الأمْرِ في ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ مفيدٌ أنَّ حقَّ التَّخليةِ عن الشّرك والمعاصي التَّقديمُ على التَّحليةِ بالتّوحيد والطاعات[2]، ولكن من دون مهلةٍ زمنيَّة، كما هو واضحٌ ومقرَّر، وليتّصل به قوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، لأنَّ اجتياز الصّراط يقتضي عملًا؛ فناسبه أن يعقب الأمر بعبادته سبحانه بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، ترغيبًا في سرعة الامتثال لعبادة اللّه والمداومة عليها.

بديع الطّباق في العبادة:

توبيخ من يعبد الشّيطان ومدحُ من يعبد الله

في قوله تعالى ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ و﴿ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ طباق سلبيٌّ جمع فيه ما أجمله في العهد، وهو جمع بين متضادين مع مراعاة التقابل؛ ليفيد تنبيه المخاطب إلى الفرق بين العبادتين، فإحداهما عبادة العدوّ المبين، والأخرى عبادة اللّه الواحد الأحد، ففي الطّباق إيماءٌ إلى توبيخ من يعبد الشّيطان بأن يطيعه في الشّرك والمعاصي ومدحِ من يعبد اللّه بأن يطيعه في أوامره ونواهيه.

مناسبة الاستئناف في الآية:

جاءت جملة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ مستأنفة، لبيان المقتضي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 157.

الطّريق إلى الله معبَّد واضح مستقيم

للعهد أي سبب النّهي عن عبادة الشّيطان والأمر بعبادة اللّه وحده(1)، وفي الجملة معنى التّذييل؛ لتفيد كلّيّة المعنى وعُمومَهُ، ولتكون بمنزلة المَثَل في جريانه في الكلام، والمعنى: هذا الذي أمر به ونهى عنه طريق معبّد واضح لا لُبْسَ فيه ولا خفاء، وكأنه قيل: لا تعبدوا الشيطان وخُصّوني بالعبادة، لأنَّ صراطي بليغ في استقامته(2).

نكتة التّعبير باسم الإشارة:

صراط الله المستقيم قريب من كلِّ إنسان

عبّر بـ﴿هَٰذَا﴾ للإشارة إلى ما عُهِدَ إلى بني آدم، فيكون إشارة إلى العهد المفهوم من جملتي: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾(3)، أي هذا المذكور من النّهي عن عبادة الشّيطان والأمر بعبادتي؛ صراطٌ مستقيمٌ، وأجاز بعض المفسّرين أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ إشارةً إلى الأمر بعبادة اللّه وحده، فيكون إشارة إلى الشّق الثاني من العهد(4)، وجاء بلفظ الإشارة للقريب للتّنبيه إلى أنَّ ما عهد إليهم لكمالِ وضوحِه كأنَّه محسوس قريب بين أيديهم، ففيه تفخيم لما أنزل اللّه تعالى من الآيات والبيّنات، كما أنَّ المقام يقتضي هذا القرب، فالمتحدَّث عنه هو الصّراط المستقيم، وكمال النّعمة قرب الصّراط من الذين يبغون السّير فيه، كما جاء اسم الإشارة للقريب في قولِه تعالى﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9]؛ لأنَّ كمال النّعمة في قرب الهادي وهو القرآن من المهدي، وهم المؤمنون(5).

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 76.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 271، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 157، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 173، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 336.

بلاغة التّعقيب بالصراط المستقيم:

طريق الشّيطان طريق الضّلال والضّياع

على القول بأنَّ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى الأمر بعبادة اللّه، فإنَّه عِنْدَ المَنْعِ مِنْ عِبادَةِ الشَّيْطانِ قالَ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وعند الحَمْلِ على عبادة اللّه تعالى قال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ ليفيد بالأوّل ما حذفه من الثّاني ويفيد بالثّاني ما حذفه من الأول، فذكر أنَّ الشّيطان لكم عدوٌّ مبين وحذف منه مادلَّ عليه بالثّاني أي إنَّ طريقه طريق الضّلال والضّياع وهو ضيّق معوجٌّ، وهذا الأسلوب البلاغي يعتمد على حذف كلمة أو جملة في موضع معين، مع وجود قرينة تدلُّ على المحذوف؛ مما يجعل الكلام أكثر إيجازًا وبلاغة، وذكر أنَّ عبادة اللّه هي الصّراط المستقيم، وحذف منه ما يقابل الأول أي إنَّ اللّه تعالى هو وليُّكم ونافعكم، والخير لكم في اتّباع هذا الصّراط.

وقال الرّازي في بيان المناسبة: "عِنْدَ المَنْعِ مِنْ عِبادَةِ الشَّيْطانِ قالَ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وعند الحمل على عبادة اللّه تعالى قال ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ لِأَنَّ العَداوَةَ أَبْلَغُ المَوانِعِ مِنَ الاتِّباعِ، وعِنْدَ الأَمْرِ بِعِبادَةِ الرَّحْمَنِ لَمْ يَقُلْ: إنَّهُ لَكُمْ حَبِيبٌ؛ لِأَنَّ المَحَبَّةَ لا توجِبُ مُتابَعَةَ المَحْبوبِ، بَلْ رُبَّما يورِثُ ذَلِكَ الاتِّكالَ عَلَى المَحَبَّةِ، بَلْ ذَكَرَ ما هوَ أَبْلَغُ الأَشْياءِ في الحَمْلِ عَلَى العِبادَةِ وذَلِكَ كَوْنُهُ طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا، وذَلِكَ لِأَنَّ الإنْسانَ في دارِ الدُّنْيا في مَنْزِلٍ قَفْرٍ مَخوفٍ، وهوَ مُتَوَجِّهٌ إلَى دارٍ إقامَةٍ فيها إخْوانُهُ، والنّازِلُ في بادِيَةٍ خالِيَةٍ يَخافُ عَلَى روحِهِ ومالِهِ ولا يَكونُ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَحَبَّ مِنْ طَريقٍ قَريبٍ آمِنٍ، فَلَمّا قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ كانَ ذَلِكَ سَبَبًا حاثًّا عَلَى السُّلوكِ"[1].

من دلالات التّعبير بقوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾:

الدّنيا دار عبور إلى الآخرة وليست دار مقام

لمّا ذكر اللّه تعالى الصّراط بعد الأمر بعبادته سبحانه؛ آذَنَ بأنَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 300.

الإنسان مجتازٌ لا مقام له في الدّنيا، وأنَّه لا بدَّ له من طريق يسلكه، فلو كان في دار إقامةٍ لما كان لذكر الصّراط المستقيم معنى، لِأَنَّهُ لَوْ كانَ في دارِ إقامَةٍ لقالَ: وماذا أَفْعَلُ بِالطَّريقِ وأَنا مِنَ المُقيمينَ(1).

نكتة وصف الصّراط بالاستقامة:

الصّراط المستقيم أَخْصَرُ طريقٍ للوصول إلى الحقِّ

لمّا كان الصّراطُ هو الطّريق المستقيم(2) أفاد وصفُ الصّراط بقوله ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ المبالغةَ في استقامتِه؛ للتّصريح بما عُلِمَ ضمنًا من لفظ الصّراط، ففيه إيذانٌ ببلوغِه الغايةَ في الاعتدال ويسرِ السّيرِ فيه، وكونِه أخصرَ طريق للوصول إلى الحقِّ.

فائدة تنكير الصراط ووصفه:

جاء اللفظان ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بصيغة التّنكير للمبالغة في التّفخيم والتّعظيم، فهو صراطٌ بليغٌ في استقامته جامعٌ لكلِّ ما يجبُ أنْ يكونَ عليه واصلٌ لمرتبة يقصرُ عنها التّوصيفُ والتَّعريفُ، أي لايُعرفُ كنهُه في بابِ الاستقامة ولا صراطَ أقومُ منه(3).

سببُ العدول عن الحصر بطريق التّعريف إلى التّنكير:

مـنْ يسلكُ غيرَ صـــراط الـلـه يقعُ في مزالقِ الـــضَّـــلالِ، ويـــتردَّى في المهاوي

قد يقال: لمَ جاء المسندُ نكرةً في قوله تعالى﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، ولم يأتِ معرفةً، فيكون المسند والمسندُ إليه معرفتين، وتكون الجملة بطريق الحَصْر؛ فيقال: (هذا الصّراط المستقيم)، ليفيد أنَّه ليس هناك صراط مستقيم غيره؟ وجوابه: أنَّه لمّا كان اسم الإشارة يعود إلى ما عهد إلى بني آدم، أي من النّهي عن عبادة الشّيطان والأمر بعبادته ﷻ؛ أفاد أنَّه صراط واحد مستقيم ولاصراطَ غيره، كما أنَّ المبالغة في تعظيم الصراط بسبب تنكير المسند وصفته في قولِه: ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أفادت الحصر مع

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 300.

(2) الراغب، المفردات: (صرط).

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 174، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 40، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 191.

المبالغة فيه، فأفاد تنكير، المسند الجَمْعَ بين الحَصْرِ وبيانِ أنَّه صراطٌ بليغ في استقامته، جامعٌ لكلِّ ما يجب أن يكون عليه، واصلٌ لمرتبةٍ يَقْصُر عنها التَّوصيفُ والتَّعريفُ[1]؛ ليفيد أنَّ منْ يسلكُ غيرَه يقعُ في مزالقِ الضَّلالِ، ويتردَّى في مهاوي الرَّدَى والهَلاك.

(1) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 248، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 174، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 40.

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾

[يس: 62]

توبيخ من لم يتّعظ بمن أوقعهم الشّيطان في مزالق الضّلال

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كان تقدير الكلام في الآية السابقة: فاتَّبعتم الشّيطان وسلكتم سبيلَه مع اعوجاجه، وتركتُم سبيلي مع ظهور استقامته؛ عَطَفَ عليه قوله ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾؛ توبيخًا لهم على سلوك طريق الضّلال[1].

وبعد أن نبَّههم إلى أنَّهم نقضوا العهدُ وبَّخَهم على عدم اتِّعاظهم بغيرهم ممن أوقعهم الشيطان في المهالك، وكانت عاقبتهم ما يرون من سوء المنقلب في الدنيا والآخرة فقال﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾[2].

وأيضًا لمّا ذكر أنَّ إفراد اللّه تعالى بالعبادة هو الصّراط المستقيم؛ أَتْبَعَهُ بذِكْرِ من أضلَّ النّاس عن هذا الصّراط المستقيم؛ للمبالغة في إيضاح عداوة الشّيطان لبني آدم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جِبِلّٗا﴾: (جبل) أصلٌ يدُلُّ على تجمُّع الشَّيءِ في ارتفاع، فالجَبَلُ مَعْروفٌ، والجَبَلُ: الجَماعَةُ العَظيمَةُ الكَثيرَةُ، والجِبِلَّةُ: الخَليقَةُ، والجِبِلُّ: الجَماعَةُ الكَثيرَةُ، وجُبُلًّا أَيْضًا، وهو مُشتقٌّ من الجَبْلِ بسكونِ الباءِ، و﴿جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ بمعنى: خلقًا كثيرًا حتَّى إنَّهم لكثرتهم كالجَبَل العظيم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 153.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 26.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جبل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 46.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّحذيرُ مِن الشَّيطانِ وإغوائِه؛ فهو يَسعى لإضلالِ بني آدمَ

استئنافٌ مَسوقٌ لتشديد التوبيخ والتقريع، ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثْرَ بيانِ نقضهم للعهد؛ ولقد صدَّ الشَّيطان منكم خلقًا كثيرًا عن طاعتي وإفرادي بالألوهيَّة فاتَّخذوا من دوني آلهة يعبدونها، أفلم تَعقِلوا عداوةَ الشَّيطانِ لكم، وإضلالَه مَن أطاعَه مِن الأُمَمِ السّابقةِ، وما حلَّ بهم - بسَبَبِ ذلك - مِن العذابِ والهلاكِ، فتُطيعوني، وتَترُكوا طاعةَ الشَّيطانِ؟![1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى: بيانِ عداوة الشيطان لبني آدم؛ حيث أضلَّ منهم خلقًا كثيرًا عظيمًا، والتحذيرِ من الشيطان وإغوائه؛ لأنه لا يمكن أن يسعى لهداية الخلق أو لهداية بني آدم، وإنما يسعى لإضلالهم، وإلى أنَّ مَن اتَّبَعَ الشيطانَ في إغوائه وإضلاله فهو غير عاقل، وإلى أن مَن ساء تَصرُّفُه صَحَّ أن يُنفى عنه العقل وإن كان عاقلًا عقل إدراك، وإلى توبيخِ ولوم مَنْ تَبِعَ الشيطان في إضلاله لكونه غير عاقل[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

جنايات المجرمين بنقض العهد وبعدم الاتّعاظ بعقوبات الأمم الماضية

جاءت جملة ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ على طريق الوصل بواو الاستئناف ليكون الكلام مَشوبًا بالعطف في المعنى على ما قبله؛ لأنَّه في مقام بيان سبب النّهي عن عبادة الشّيطان، والاستئناف في هذه الجملة مَسوقٌ لتَشديدِ التَّوبيخ، وتأكيدِ التَّقريع؛ ببَيانِ أنَّ جناياتِهم ليستْ بنَقْضِ العهْدِ فقطْ، بلْ به وبعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 472، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 155، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 26، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 224.

مِن العُقوباتِ النّازلةِ على الأُمَمِ الخاليةِ بسَببِ طاعتِهم للشَّيطانِ[1]، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الواو عاطفةٌ، والجملة معطوفة على ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾؛ ليكون من عطف العلّة على المعلول، وهو النّهي عن عبادة الشّيطان، وبيانه أنَّه لمّا ذَكَر أنَّ الشيطان عدوٌّ مبينٌ لبني آدم؛ ساق الدّليل بطريق البرهان التّجريبي على عداوتِه الواضحة المقتضي وجوبَ الامتثال للنّهي عن عبادة ما يأمرهم بعبادتِهم، حيث أثبت له الإضلال بدَليلِ التَّجْرِبَةِ لخلقٍ كثير وجمٍّ غفير، ففيه إثبات لعداوته تفصيلًا بعد أن ذكرها إجمالًا، والمعنى: إنَّ عَداوَتَهُ واضِحَةٌ وُضوحَ الصِّراطِ المُسْتَقيم؛ لِأَنَّها تَقَرَّرَتْ بَيْنَ النّاسِ وشَهِدَتْ بِها العُصورُ والأَجْيالُ، فَإنَّهُ لَمْ يَزَلْ يُضِلُّ النّاسَ إضْلالًا تَواتَرَ أَمْرُهُ وتَعَذَّرَ إنْكارُهُ[2].

فائدة تتابع التأكيد:

تنزيل الضّالين منزلة المنكرين لعداوة الشيطان لمتابعتهم وانقيادِهم له

أكّد الكلام باللّام الواقعة في جواب قسم محذوف و(قَدْ) في قوله ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ﴾، فكأنّه قال: واللّه لقد أضلَّ منكم جِبِلًّا كثيرًا[3]، وفائدة تتابع التأكيد الإشعارُ بأنَّ إضلالَه الكثير من النّاس لا يكاد أن يصدَّق به، لما يبعد ارتكابه في العادة من ظهور عداوتِه ووضوح فساده وضُرِّه، كما أنهم لمّا لم تكن أعمالهم على مقتضى علمهم ولم يجروا على ما هو واضحٌ وبيّنٌ من عداوة الشّيطان لهم؛ جُعلوا كالمنكرين، فتتابع التأكيد في الجملة[4].

دلالة ضمير الفاعل:

التّعجيب من كثرة إضلال الشيطان لبني آدم مع أنَّ عداوته واضحةٌ بيّنة

يعود الضّمير في قولِه ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ﴾ إلى قوله ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ بما اتّصف به من كونه عدوًّا مبينًا لبني آدم، فيكون المعنى: ولقد أضلَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 175.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 175، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 48.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 175، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 433.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 154، والشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 248.

الشيطان الذي هو عدوٌّ مبين لكم خلقًا كثيرًا، ففيه معنى التّعجيب من ضلالِهم بسببه مع علمِهم بعداوتِه ووضوحِها لهم، وفي الكلام توبيخ وتقريع لهم كذلك.

نكتة إسناد الإضلال إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾:

أسند الإضلال إلى الضّمير العائد إلى الشّيطان في قولِه ﴿أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا﴾؛ لأنَّه المباشر للإغواء، للتّنبيه إلى أنَّ باستطاعة بني آدم أن يجتنبوا إضلالَه بطاعة اللّه وتوحيده[1].

سبب إيثار ذكر الإضلال:

مبدأ الشّر والضُّرِّ هو الضَّلال عن الصراط المستقيم

في قولِه ﴿أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا﴾ أوثِرَ ذِكْرُ إضلال الشّيطان دون غيره ممّا يفعله عدوّ اللّه لبني آدم ممّا تظهر به عداوته؛ للإشعار بأنَّ كلَّ ما يأتي من عداوة الشيطان هو بسبب إضلاله لبني آدم، وأنَّ مبدأ الشّر والضُّرِّ هو الضلال عن الصراط المستقيم، كما أنَّه لمّا ذكر الصّراط المستقيم ناسبه أن يذكر ضدَّه وهو الضلال عن الصّراط، والمعنى أضلَّ جِبِلًّا كثيرًا عن الصّراط المستقيم، ولهذا لم يقل: (ولقد أهلك) أو (أغوى)، فلكلِّ كلمة مع أختها مقام.

عِلَّةُ التّعبير بصيغة الماضي:

ضلال الشّيطان سابق لإضلالِه بني آدم

عبّر بصيغة الماضي في قولِه ﴿أَضَلَّ﴾ للإيذان بوقوع الإضلال وظهورِه؛ ليكون الكلام على وجه الاستدلال بالمتَحَقّق الوقوع على عداوةِ الشّيطان وكفره، وأفاد التّعبير بصيغة (أفعل) التي تفيد تعدية الفعل اللّازم(ضلَّ) أنَّه قد ضلَّ قبل أن يقوم بإضلال بني آدم، وذلك حين أبى أن يسجد لآدم عليه السلام.

معنى (مِنْ):

(مِنْ) في قولِه ﴿مِنكُمۡ﴾ للتّبعيض، بمعنى أضلَّ من بعضِكم،

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 40.

ففيه إيذانٌ بأنَّ الشّيطان لا يستطيع أن يُضِلَّ جميعَ بني آدم، وأنَّ أهل الحقِّ باقون.

دلالة ضمير الخطاب:

كلَّما تأخر الزّمان زادت جنايات بني آدم

ضمير الخطاب في قوله ﴿مِنكُمۡ﴾ يعود إلى متأخِّري بني آدم، بقرينة قوله ﴿جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾؛ لأنَّ الجِبلَّ الكثير كان بعد قرون كثيرة من نزول آدم إلى الأرض، ويدخل فيهم كُفّارُ مكَّةَ دخولًا أوّليًّا، وخُصّوا بزيادة التَّوبيخ والتَّقريع لِتَضاعُفِ جناياتهم، ليُفيدَ تَضاعُفَ جنايات بني آدم كلَّما تأخَّر الزّمان، والمبادرة إلى سلوك الصّراط المستقيم[1].

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور:

تحذير بني آدم من إضلال الشّيطان لهم وسعيه لإغوائِهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾ على المفعول به في قولِه ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم ولإفادة الحَصْر، بمعنى ولقد أضلَّ منكم يا بني آدم جبلًّا كثيرًا، وليس من غيرِكم، كما أنَّ في التّقديم تحذيرًا لبني آدم من إضلال الشّيطان لهم وسعيه لإغوائِهم، فهو يعيش لإضلالِهم وتزيين المعصية لهم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿جِبِلّٗا﴾:

عِظَمُ الأمم الضّالة وقوَّتُها لا يَدلّان على أنَّهم على الحقِّ المبين

لمّا كان الجِبِلُّ هو الجماعة العظيمة، أفاد التّعبير بقوله ﴿جِبِلّٗا﴾ أنَّ الشيطان أضلَّ أُممًا كبارًا عظامًا كانوا كالجبال في قوَّتِهم واجتماعِهم وتماسكِهم وصعوبة انقيادِهم، ومع ذلك فكان يَتلعَّبُ بهم تلعُّبًا، فسبحان مَن أَقْدَرَهُ على ذلك وإلا فهو أضعف كيدًا وأحقر أمرًا[2]، وفيه إشعار بأنَّ عِظَمَ الأمم الضّالة وقوَّتَها وصلابتَها لا يدلّان لزومًا على أنَّهم على الصّراط المستقيم وأنَّهم على الحقِّ المبين، ومن نُكَت التّعبير بأنَّه أضلَّ جبلًّا كثيرًا الإشعارُ بعظيم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 175.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 154، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 359.

عداوتِه وشدَّة كيده وإصرارِه على الإضلال، وأنَّ اجتماع الأمم لا ينفعها إن لم يكونوا على الصّراط المستقيم.

غرضُ تنكير لفظ ﴿جِبِلًّا﴾:

جاء لفظ ﴿جِبِلًّا﴾ نكرةً منوّنةً للتّفخيم والتّنويع، والمعنى أضّل منكم أممًا عظيمةً متنوّعة.

وجهُ الوصف بقولِه ﴿كَثِيرًاۖ﴾:

لمّا كان الجِبِلُّ بمعنى الجماعة العظيمة في العدد والعُدَّة، أفاد التقييدُ بالصّفة ﴿كَثِيرًاۖ﴾؛ تأكيدَ الكثرة تأكيدًا معنويًّا.

بلاغة الاستفهام المجازي:

من لم يعقل الدّلائل المشاهدة على توحيد الله كان كمن لا عقلَ له لعدم انتفاعِه منه

جاءت جملة ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ بطريق الاستفهام الإنكاري، عطفًا على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ؛ أي: أكنتُم تشاهدونَ آثارَ عقوباتِهم فلم تكونوا تعقلون أنَّها لضَلالِهم وطاعتهم الشيّطان، فالإنكار مُنْصَبٌّ على أنَّهم لم يعقلوا أنَّ العقوبات كانت بسبب ضلالِهم، ويَحْتَمِل أن يكون الإنكارُ منصبًّا على نفي أيِّ عقلٍ لهم، وهو الظّاهر، فإنَّ من لم يعقل الدّلائل المشاهدة كان كمن لا عقلَ له لعدم انتفاعِه منه، أي: فلم تكونوا تعقلون شيئًا أصلًا حتَّى ترتدعوا عمّا كانوا عليه كيلا يَحيقَ بكم العقابُ، إذْ لَوْ كانوا يَعْقِلونَ لَتَفَطَّنوا إلَى إيقاعِ الشَّيْطانِ بِهِمْ في مَهاوِي الهَلاكِ، ويتولَّد من الإنكار عليهم تقريعُهم وتوبيخُهم على تركِهمُ الانتفاعَ من عقولِهم واتّباعِهمُ الشّيطانَ وطاعتهم له(1).

نكتة تضمين الجملة كلمة ﴿تَكُونُواْ﴾:

الامتثال لعبادة الله وحده هو أمرٌ واضحٌ لمن له أدنى عقلٍ

لم يقل (أفلا تعقلون) كما هو وارد في كثير من الآيات، وعبَّر بقولِه ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ لما يقتضيه المقام من كون الانتهاء عن

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 78، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 167، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 423، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 49.

عبادة ما يأمر به الشّيطان والامتثال لعبادة اللّه وحده هو أمرٌ واضحٌ لمن له أَدنى عقلٍ، وقد قامت الأدلَّة الظّاهرة عليه، فزيادة فعل الكون؛ لِلْإيماءِ إِلَى أَنَّ العَقْلَ لَمْ يَتَكَوَّنْ فيهِمْ ولا هُمْ كائنون به[1]، فالمعنى على نفي أيِّ عقلٍ لهم أصلًا.

براعةُ التّعبير بصيغة المضارع:

عبّر بصيغة المضارع في قولِه ﴿تَعۡقِلُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ ترك انتفاعِهم من عقلِهم مستمرٌّ متجدّد، وفيه كذلك تصوير لحالة نفي انتفاعِهم منه في الماضي، ليحذر العقلاء من هذه الحالة القبيحة المهلكة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 49.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾ [يس: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مآل أهل الضّلال هو جهنّم

لمّا ذَكَر إضلالَ الشيطان بَيَّنَ مآل أهلِ الضلال[1]، ولمّا أَنْكَرَ على أهل الضّلالِ أن يفعلوا فِعْلَ مَنْ لا عقلَ له؛ قال متمِّمًا للخِزْيِ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

عذابُ جهنَّم عاقبةُ كلِّ مُسْتَهْزِئٍ كذّاب

تقول خَزَنةُ جهنَّم للكفّار: هذه جَهنَّمُ الَّتي كنتُم توعدون بها على ألسنة الرسل والمبلِّغين عنهم إذا أنتم اتبعتم وساوس الشيطان، وعصيتم الرّحمن، وعبدتم من دونه الأصنام والأوثان، واجترحتم الفسوق والعصيان[3].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى بيان صفة النار، وأنها -والعياذ بالله- كلُّها ظلمةٌ وكلُّها سَوادٌ؛ لأنها من الجُهْمة، أي: الظُّلمة والسَّواد، وإلى تقرير هؤلاء وإظهار خَطَئِهم في تكذيبهم، وإلى صِدْق وعْدِ الله ﷻ؛ حيث صَدَق وعْدَه بما وعد به هؤلاء المكذبين حتى شاهدوا ما وُعِدوا به عيانًا[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

طاعة الشّيطان ليس لها سبيل إلّا إلى جهنَّم

جاءت جملة ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ على طريق الفصل، بطريق الاستئناف الابتدائي؛ لمجابهتِهم بالمصيرِ الهائلِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 301.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 155.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 472، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 47، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 585، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 26.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة يس: 1/ 224.

الَّذي يَصيرون إليه بسبب كفرِهم وطاعتِهم الشّيطان، ويَحْتَمِل أن تكون استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّهم لمّا رأوا جهنَّم ووقفوا عليها، قالوا: ما هذا الذي نراه؟! فعند ذلك قيل لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الآيةَ(1)، لأنَّ الكلام على طريق التّوبيخ والتّقريع.

نكتة التّعبير باسم الإشارة:

مآل الكافرين إلى جهنَّم قريب وهو واقع لامحالةَ

في قوله﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ انتقالٌ إلى ما يكون عليه حال الكافرين يوم القيامة، فيكون اسم الإشارة الذي هو للمشار إليه القريب المؤنَّث يومئ إلى أنَّهم بلغوا جهنَّم، وأنَّه وقفهم على شفيرها، فشاهدوها قريبةً منهم، فقالوا ما هذا الذي نراه، فقيل لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾، ففي الكلام طيٌّ زمنيٌّ للإشعار بأنَّ هذا المآل قريب منهم وأنَّه واقع لامحالةَ، وفيه من التّخويف والتّرهيب ما فيه!

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿جَهَنَّمُ﴾:

جهنَّم كلُّها ظلمةٌ وسواد وعذابها غليظ وعمقها سحيق

عبَّرَ بلفظ ﴿جَهَنَّمُ﴾ لبيانِ صفةِ النارِ، وأنَّها بعيدة القعر عميقة جدًّا، وكلُّها ظُلْمَةٌ وسَوادٌ؛ لأنَّها مِن الجُهمةِ، أي: الظُّلمةِ والسَّوادِ، أو من الجهومة بمعنى الغلظة للإيذان بغلظ أمرِها في العذاب(2)، ولا يمتنع الجمع بين هذه المعاني، فعمقها سحيق، وعذابها غليظ، وكلُّها سواد وظلمة، نعوذ باللّه منها وممّا يوصل إليها.

مناسبة مجيء تركيب ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾:

الوعد بجهنَّم للكافرين المجرمين حقٌّ

لمّا كان قوله ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ يقال للكافرين وهم على شفير جهنَّم، كان التّعبير به ليس لأجل تعريفِهم بمضمون الخبر، لأنَّ القول يقال لهم وهم يرون جهنَّم قريبةً منهم، فلا يقصد للتّركيب الإسنادي فائدةُ الخبر، وإنَّما جيء به تمهيدًا لتوصيف جهنَّم

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنَّة: 8/ 533.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 9/ 132، وابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 226، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهم).

بالموصول وصلتِه، أي بقولِه ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[1]، ففيه تنبيه لمن يكونون في الدّنيا بأنَّ الوعد بجهنَّم للكافرين المجرمين حقٌّ، وليبادروا إلى طاعة الله واجتناب طاعة الشّيطان.

عِلَّةُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

من يكذّب بجهنّم يستحقُّها

جاء الكلام على طريق التّعبير بالموصول وصلته في قولِه ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾؛ للإيذان بأنّهم كانوا على علم بمضمون الصّلة أي بالوعد بجهنَّم لمن كذَّب وكفر، فرأوا ذلك عيانًا، ولإحضار الصّلة في أذهان المخاطبين توبيخًا وتقريعًا لهم، وللتّعريض باستحقاقِهم جهنّم بما كذّبوا به.

بلاغة الإيجاز:

في قولِه تعالى ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ إيجازٌ بالحذف، وتقديرُ الكلام: التي كنتم توعدون بها في الدنيا، فكنتم بها تكذبون[2]، فحذف للعلم بالمحذوف بقرينة السّياق.

إيثار التّعبير بلفظ ﴿تُوعَدُونَ﴾:

مَنْ وفّى العهد اقتضى الوعد بالثّواب ومن لم يوفِّه اقتضى الوعد بالعقاب

لم يقل (هذه جهنَّم التي كنتم بها تكذّبون) كما جاء في قوله تعالى﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣﴾ [الرحمن: 43] أو قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 14]، فأوثِرَ التّعبير بلفظ الوعد لمناسبتِه للفظ العهد الذي جاء في قوله تعالى ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، فإنَّ العهد يقتضي الوعد لزومًا؛ فإن وفّى العهد اقتضى الوعد بالثّواب وإن لم يوفِّه اقتضى الوعد بالعقاب، كما أنَّ أصل العهد هو الوعد المؤكَّد بقَسَمٍ أو التزام[3]، فلمّا قال ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 176.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 543، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 6061، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 512.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 580.

﴿تُوعَدُونَ﴾ أفاد أنَّكم حُذِّرتُم منها فكذّبتم بها ولم تَفوا بالعهد، وفيه معنى التَّنديم على تكذيبِهم بالوعد وتوبيخِهم عليه.

نكتة حذف الموعود به:

إفادة الحذف عموم ما وعد به بنو آدم يوم القيامة

لم يقل: (هذه جهنّم التي كنتم بها توعدون)؛ لأنَّ الوعد يكون بأمر ما، فحذف الجارّ والمجرور (بها)، لإفادة عموم ما وُعدوا به، من البعثِ والحشرِ وأحوال يوم القيامة، ويدخل الوعد بجهنَّم دخولًا أوّليًّا لمجيئها في السّياق، أو يقال: لمّا ذُكرت ﴿جَهَنَّمُ﴾ استُغنيَ عن ذكر الموعود به لظهوره من السياق.

وجهُ التّعبير بصيغة المبني للمفعول:

الوعد بالقيامة وبأحوالِها ممّا لايمكن التّكذيب به كائنًا من كان القائل به

عبّر بصيغة المبني للمفعول في قوله ﴿تُوعَدُونَ﴾؛ لأنَّه لما كان المحذور الإيعاد بجهنَّم، وليس تعيين الذي وعد بها؛ عبّر بهذه الصّيغة[1]، وليفيد أنَّ الوعد بالقيامة وبأحوالِها ممّا لايمكن التّكذيب به كائنًا من كان القائل به، لظهورِه بدليل العقل والنّقل.

فائدة التّعبير بتركيب ﴿كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾:

استحقاق الكافرين لجهنَّم لمداومتِهم على تكذيب الوعد مع تكرُّره وتقريرِه

عبّر بصيغة الماضي للفظ الكون المقترن بالمضارع في قوله ﴿كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾؛ ليشير هذا التّركيب إلى تكرّر الوعد بوقوع يوم القيامة واستمرارِه وتجدّده وقتًا فوقتًا[2]، كما يشير التّعبير إلى مداومتِهم على التّكذيب بالوعد وتكذيبِهم بجهنَّم، ففيه تقريع لهم وإيذانٌ باستحقاقِهم لجهنَّم لمداومتِهم على تكذيب الوعد بوقوع يوم القيامة مع تكرُّره وتقريرِه، وتقدَّم في عنوان بلاغة الإيجاز أنَّ تقدير الكلام: هذه جهنَّمُ التي كنتم توعدون بها في الدنيا، فكنتم بها تكذبون.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 155.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 176.

﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤﴾ [يس: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ليس بعد الوقوف على شفير جهنَّم إلّا دخولها والاحتراق فيها

لمّا أوقفهم على شفير جهنَّم وقيل لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أُكمل الكلام بالأمر بدخولِهم النّار، أي ويقال لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾: أصلُ (صلى) النّارُ وما أَشْبَهَها مِنَ الحُمَّى[1]، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بِالنّارِ، وصَلَيْتُ اللَّحْمَ، بالتَّخفيفِ، على وجْهِ الصَّلاح مَعْناهُ شَوَيْته، فأمّا أَصْلَيْتُه وصَلَّيْتُه فعَلَى وجْهِ الفَسادِ والإحْراق[2]، وتصلّاها: قاسَى حرَّها، وأَصْلاهُ النّارَ وصَلّاهُ إيّاها وفيها وعليها: أَدْخَلَه إيّاها وأَثْواه فيها، قال الآلوسي: وقال بعض المُحقّقين: إنَّ أصل الصَّلْيِ القُرْبُ من النار، وقد استُعمل هنا في الدخول مجازًا، والصِّلاءُ: يقال للوَقود وللشِّواءِ[3]، والصّلي في الآية معناه: الاصطلاء بالنّار والقرب منها، والمراد به هنا: الاحتراق بها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهل الشِّرك يُدفعون إلى جهنَّم بما كسبت أيديهم

يُقال لهم: ادخُلوها اليومَ وباشِروا نارَها، وقاسوا حَرَّها؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا، وتكذيبكم، بعد أن نُبِّهْتُم فلم تنتبهوا، وأوقِظْتُم فلم تستيقظوا[5].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى بيان أنَّ هؤلاء المكذبين يُؤمرون أمرَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلى).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صلى).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلى).
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 755.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 472، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 460.

إهانة وإذلال ليصلوا النار، وإلى أنَّ إثبات الأسباب أمر معلوم بالشرع والعقل والحس، وأنها تؤثر بخلق الله ﷻ التأثيرَ فيها؛ ولهذا إذا شاء الله ألا تؤثر لم تؤثر، وإلى كمال عدل الله ﷻ؛ لأنكم بدخولكم النار فلم تُظلموا، بل أنتم الذين فعلتم ذلك بأنفسكم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

تعـدّد مواقف الخزي والنّدامة للكافرين يوم القيامة

جاءت الآية على طريق الفصل لأنَّه من تتمَّة ما يقال لهم، أي يقال لهم عند الوقوف على شفير جهنَّم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، فيؤمرون بالدّخول، ويقال لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، للأمر بالدّخول، ليفيد الفصل تعدّد موقفِهم يوم القيامة، ليفيد حسرتَهم وتندّمهم على تكذيبِهم بالوعد.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾:

صليُ جهنَّم هو الإلقاء فيها مع مقاساة شدَّة حرّها وفنون عذابِها

عبّر بقولِه ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾؛ دون (ادخلوها)؛ لأنَّ صَلْيَهُمُ النّارَ بمعنى إلقائِهم فيها من فوق ودخولهم على وجه إحاطتِها بهم واحتراقهم فيها ومقاساة شدَّة حرّها وفنون عذابِها[2]، فدخول جهنَّم متحقّق بلفظ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾، ولمّا كان الصَّلْيُ يفيد معنى اللّزوم دلَّ على لزوم العذاب لهم وأنَّهم ملازمون لها[3].

عِلّةُ التّعبير بصيغة الأمر:

الدّخول إلى جهنَّمَ يستلزم الاحتراق بنارِها

الأمر في قولِه ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ يُقصد منه الإهانة والتّحقير، فالأمر مجازيٌّ على سبيل التّهكُّم والتّنكيل بهم، لزيادة التّهويل والتّعنيف، مثل قولِه تعالى ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدّخان: 49]، فلا يقصد بالأمر وجوب الامتثال، لأنَّه ليس لهم إلّا

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 228-229.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (صلا)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176.

(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 200، والكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2365.

الدّخول في جهنَّم والاكتواء بحرّها والاحتراق بنارِها، ويَحْتَمِل أن يكون اللفظُ مُكَنًّى به عن الدّخول إلى جهنَّم؛ لأنَّ الدّخول إليها يستلزم الاحتراق بنارِها[1].

دلالة الضّمير في قوله ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾:

يعود الضّمير إلى ﴿جَهَنَّمُ﴾ بما اتَّصفت به، أي اصْلَوْا جهنَّم التي كنتم توعدون، ليفيد تحقّق ما وُعدوا به، بدخولِهم فيها والاصطلاء بنارِها.

فائدة ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

(أل) في قوله ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للحضور، والمعنى الإصلاء في هذا اليوم الحاضر، أي يوم القيامة؛ ليفيد حضور العذاب واشتغالهم به دومًا، بمعنى: ليكنْ شغلُكم الشّاغلُ هو العذابَ والاصطلاء بالنّار، كما كان أصحاب الجنَّة في شغل، وشتّان بين الشغلين[2]، كما أريد بذكر اليوم جوابُ ما كانوا يَقولون في الحياةِ الدُّنيا مِن استبطاءِ الوعدِ والتَّكذيبِ؛ إذ يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾ [يس: 48]، ففي ذكره إيذانٌ بتحقيق الوعد، وفي ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تهويل لما يكون فيه؛ ممّا يوجب شدَّة ندامتهم وحسرتهم في ذلك اليوم، يعني إنَّ ايّام لذّاتِكم قد مضت واليوم وقتُ عذابِكم[3].

أيّامُ لذّاتِ الكافرين في الدّنيا قد مضت ويوم القيامة ليس لهم إلّا العذاب

معنى الباء في الآية:

الباء في قوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ سببيَّة، أو للمقابلة[4]، والمعنى: اصْلَوْها بسبب كفركم، وإنَّما ذُكِر السبب لأنَّه جعل دخولَهم جهنَّم وذوقَهم من نارِها جزاءً على كفرِهم.

دخولُ جهنَّم وذوقُ عذابها جزاءُ نقضِ عهدِ الله والتّكذيب بوعدِه

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 542، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 359.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 254، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 49.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 176.

بلاغة التّعبير بالمصدر المُؤَوَّل:

المبالغةُ في وصفِهم بالكفر، كأنَّهم قد جُبِلوا عليه

(ما) في قوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مصدريَّة، والتّقدير: بكونِكم تكفرون[1]، وعبّر بصيغة المصدر المؤوّل للإشعار بأنَّ سبب اصطلائِهم بالنّار هو نفس كونهم يكفرون دون وصف زائد عليه، ففي التّعبير بالمصدر المؤوّل تحصين للكلامِ من الإشكال، وتخليص له من شوائب الإجمال، مبالغةً في وصفِهم بالكفر، أي صار الكفر من طبيعتِهم، وكأنَّهم قد جُبِلوا عليه[2].

غرضُ التَّعبير بتركيب ﴿كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾:

تكرُّر كفرِهم بالله في الدّنيا ومُداوَمَتُهم عليه وتجدُّده منهم

عبّر بصيغة الماضي للفظ الكون المقترن بالمضارع في قوله ﴿كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ ليشير هذا التّركيب إلى تكرّر كفرِهم بالله في الدّنيا واستمرارِه، ومداومتِهم عليه، وتجدُّدِه منهم حالًا فحالًا.

مناسبة التّعبير بلفظ الكفر:

إرسال الرّسل وإنزال الكتب نعمةٌ على بني آدم، وتكذيبهم كفر بالنّعمة

المراد بالكفر في قولِه تعالى ﴿كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ كفرهم بالله تعالى وبما أنزل به، وفي التّعبير باللفظ إشعارٌ لطيف، وهو أنَّه لمّا كان الكفرُ والكُفرانُ يُنْبِئُ عَنْ نِعْمَةٍ يُكْفَرُ بها، وحَياءُ الكَفورِ مِنَ المُنْعِمِ مِنْ أَشَدِّ الآلامِ[3]، عبّر بالكفر للإشعار بأنَّ إرسال الرّسل وإنزال الكتب وتذكيرهم بالتّوحيد وبيوم القيامة؛ كان نعمةً عليهم، وأنَّهم بتكذيبهم كفروا بهذه النّعمة، كما أفاد تنديمهم وتوبيخهم على كفرانِهم النّعم.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأحكام يوم القيامة بالبيّنة والدلائل الدّامغة

لمّا كان كأنَّه قيل: هل يحكم اللّه تعالى في الكافرين يوم القيامةِ بعلمه، أو يجري الأمر على قاعدة الدنيا في العمل بالبيِّنة؟ بيَّنَ أنَّه على أظهر من قواعد الدنيا، فقال مهوِّلًا لليوم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآيةَ(1).

وأيضًا لما سمعوا قَوْلَهُ تعالَى﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أرادوا أنْ يُنْكِروا كُفْرَهُمْ، فَيَخْتِمُ اللّهُ عَلَى أَفْواهِهِمْ فَلا يَقْدِرونَ عَلَى الإنْكارِ، ويُنْطِقُ اللّهُ غَيْرَ لِسانِهِمْ مِنَ الجَوارِحِ فَيَعْتَرِفونَ بِذُنوبِهِم، فقال تعالى﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآية، أو يقال: لَمّا قالَ اللّهُ تَعالَى لَهُمْ ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوابٌ، فَسَكَتوا وخَرِسوا وتَكَلَّمَتْ أَعْضاؤُهُمْ غَيْرَ اللِّسانِ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَخۡتِمُ﴾: (ختم) أصلٌ يدُلُّ على بُلوغِ آخرِ الشَّيْءِ، يُقالُ: ختمتُ العَمَلَ، وخَتَم القارِئُ السّورَةَ، فأمّا الخَتْمُ، وهو الطَّبْعُ على الشَّيءِ، فذلكَ من الباب أيضًا؛ لأنَّ الطَّبْعَ على الشَّيءِ لا يكونُ إلّا بعد بُلوغِ آخره في الأحرازِ، والخاتَمُ مُشتقٌّ منه؛ لأنَّ به يُختمُ، والخَتْم عَلَى القَلْب: أن لا يَفهَم شيئًا ولا يَخرُج منه شيءٌ كأنَّه طَبْعٌ، وفي التَّنزيلِ العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، هو كقوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 93]، فلا تَعقِلُ ولا تعي شيئًا؛ ويأتي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156.

(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 374، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.

الختم بمعنى التَّغطيةِ على الشَّيءِ والاستيثاقُ والاستيثاقِ من أنْ لا يدخله شَيْءٌ، ومعنى الختم في الآية: الطَّبعُ والمَنْعُ، أي: نَطبَعُ، ونمنَعُهم مِن الكلام[1].

2) ﴿وَتَشْهَدُ﴾: (شهد) أَصْلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[2]، لا يَخرجُ شيءٌ مِنْ فُروعِهِ عَنِ الَّذي ذَكرناهُ، من ذلكَ الشَّهادةُ، يجمعُ الأُصولَ الَّتي ذَكرناها من الحُضورِ، والعِلْمِ، والإعلامِ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، والشّاهِدُ والشَّهيدُ: الحاضِر، وهو المُؤَيِّدُ والمُصدِّقُ لدَعوى مُدَّعٍ، والمَشهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ[3]، والمقصودُ بالشَّهادة في الآية: الإخبارُ بالأمر الواقع كما وقع، أي: تَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا من الذُّنوبِ والآثام.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما كان عَونًا على المعاصي يصير شاهِدًا يوم القيامة

يقول الله تعالى: اليومَ نَطبَعُ على أفواهِهم، ونمنَعُهم مِنَ الكَلام، وتُكَلِّمُنا أيديهم بما عَمِلَته، وتَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثام[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الله يَختِم على أفواه المكذِّبين يوم القيامة فلا يتكلَّمون، وإلى بيان قدرة الله؛ إذ من خلاف العادة أن تتكلم الأيدي والأرجل، وإلى أنَّ الإنسان يمكن أن يشهد بعضُه على بعض؛ لأن الرجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عمل، وإلى أنَّ العبرة في العمل بما كان فيه من كسب، لا مجرد العمل؛ لأن مجرد

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ختم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 472، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 585، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698.

العمل قد لا يكون كسبًا كما لو صدر من جاهل، أو صدر من ساهٍ، أو نائم، أو ما أشبه ذلك[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

من براعة بلاغة القرآن أن تأتي الآية تذييلًا لما قبلها وتمهيدًا لما بعدها

جاءت جملة ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، لتكون خاتمة لبيان أحوال المعاد، وكالتخلُّص إلى ذكر أحوال المكذِّبين من قوم رسول اللّه ﷺ، وتقريعهم وتوبيخهم، فالجملة بمنزلة التّذييل لما قبلها والتّمهيد لما بعدها[2]، وتَحْتَمِل أن تكون استئنافًا بيانيًّا، وبيانه أنَّه لمّا جعل سبب دخولِهم النّار وصَلْيِهم فيها هو كُفْرُهُم؛ كان كأنَّه قيل: هل يَجْحَدُ المجرمون بكفرِهم أم يُقِرّون به، وبما فعلوا من المعاصي يوم القيامة؟ فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

دلالة ظرفية ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

في ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تَنويهٌ بحُصولِ هذا الحالِ العجيبِ فيه، وهو انتقالُ النُّطقِ مِن مَوضعِه المعتادِ - وهو الذي يكون بالأفواه - إلى الأيدي والأرجُلِ، فإنَّ تهويلَ الوقت وتفخيمَه لِعظَمِ ما يقع فيه[3].

بلاغة الاستعارة في الختم:

الختم على الأفواه بمنعها من الكلام بأيِّ طريقةٍ كانت

في قوله تعالى ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ استعارة تبعيَّة، فالختم على الأفواه بمعنى المنع من الكلام بإحداث هيئةٍ تمنعهم من النّطق، أو أن يفعل بأفواههم ما لا يمكِنهم معه أن يتكلَّموا بألسنتهم[4]، وبيانُ الاستعارة أنَّه شبَّه مَنْعَهُم من الكلام بالختم، اعتبارًا بما يحصل

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 233-234.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(4) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 374، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 177.

من المنع بالختم على الكتب والأبواب، بجامع عدم تسرّب شيءٍ أو الزّيادة عليه؛ للإيذانِ بمنعهم من النّطق.

نكتة التّعبير بالختم على الأفواه:

الختم ملازم للكفّار، ففي الآخرة يُختم على أفواههم

جُعِل الخَتْمُ على الأفواه دون الألسنة في قوله ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الختم يكون على الشّيء بتمامِه وبعد بلوغ آخره، ولمّا كان اللسان في الفم وهو منه، كان الختم على الأفواه منعًا للألسنة عن النّطق وكان أحكم في المنع، كما أنَّ التّعبير بـ﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ينبئ عن مبالغة واستحكام في التّعبير وبيان القصد، ومنه قولهم: (تَكلَّمَ بملْءِ فيهِ) حين يريدون المبالغة في الكلام، فلمّا قال ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أفادَ المبالغة في منعهم من الكلام[1]، ومن لطائف التّعبير بالختم أنّه لم يرد في القرآن إلّا وهو ملازم للكفّار، ففي الدنيا ختم على قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7] وفي الآخرة يُختم على أفواههم، كما في قوله﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، فلمّا ختم على قلوبِهم وأفواهِهم فلم يَبْقَ إلا قولهم بسائر أعضائهم[2].

فائدة الإسناد إلى نون العظمة:

أسند الفعل ﴿نَخۡتِمُ﴾ إلى نون العظمة؛ للإيذان بِعِظَمِ أمرِ الختم ومَنْعِ المجرمين من النّطق، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا اللّه الواحد الأحد.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾:

عبّر بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ للإشعار بأنَّ الختم على أفواهِهم متمكّن منهم، فيسكتون ولا يستطيعون النّطق.

سرّ إسناد الختم إلى الله تعالى:

أسنَد اللّه تعالى الختم إليه فقال: ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وأسند الكلام

---

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل1/ 94.

(2) البسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 460، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 453، واسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 134، 7/ 424 - 425.

كلام الأيدي وشهادة الأرجل يوم القيامة باختيارها لتظهر الحجّة من أنفسهم

والشهادة إلى الأيدي والأرجل، فقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾، وسرُّه هو أنَّه لو قال: (ونُنطِقُ أيديَهم ونُشهِدُ أرجلَهم) لكان فيه احتمال أن يكون نطق الأيدي وشهادة الأرجل جبرًا وقهرًا، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فلمّا أسند الكلام إلى الأيدي والشّهادة إلى الأرجل في قوله ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ دلَّ على أنَّ الأمر باختيارها بعد ما يُقْدِرُها اللّهُ تَعالَى عَلَى الكَلامِ ليَكونَ أَدَلَّ عَلَى صُدورِ الذَّنْبِ مِنْهُمْ[1]، وإن قيل فما جواب قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: 21]، ففيه تصريح بالنّطق من غير اختيار؟ وجوابه أنَّه إنّما أخبر عن الجلود وهي لا تتكلَّم لأنَّ الكلام من الأفواه، فكانت شهادة الجلود بإنطاق اللّه إيّاها لأنَّها غير مهيّئة للنّطق، ففيه إظهار لقدرة اللّه المطلقة، أو يقال: شهادة جلودِهم عليهم وإن لم تكن بالاختيار لكنّها مطابقة للواقع، وله نظير في الدّنيا حيثُ إذا عوتب شخص على إقراره يقول: ما أقررت عن اختيار، بل لدواعٍ وأسبابٍ، مع أنَّه مؤاخَذٌ بإقرارِه لكونِه مطابقًا لنفسِ الأمر[2].

بلاغة التّعريض بالكفار:

في قولِه تعالى ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ تعريضٌ بالكافرين بأنَّهم لو خُلّوا بينهم وبين الكلام بألسنتِهم؛ لاجترؤوا على الكذب يوم القيامةِ كذلك، كما كان ديدنهم في الدنيا[3].

معنى الواو في المعطوفات:

الواو في قوله ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ تفيد التشريك في الحكم بمعنى أنَّ هذه الأمور تقع كلها في ذلك اليوم وفي وقت واحدٍ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 177 - 178.

(3) البقاعي نظم الدرر: 16/ 156.

مناسبة ترتيب المعطوفات:

في قوله تعالى ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ بدأ بالختم على الأفواه؛ لأنَّ في الختم عليها منعًا للكافر من أن يلغطَ بالكلامِ الكذب حال تكلُّم الأيدي وشهادة الأرجل عليه لئلا يُسمَعَ قولها، وكما هو دأب أهل العناد عند الخصام[1]، ثم ذكر تكلّم الأيدي لأنَّها الفاعلة للمعاصي والآثام غالبًا، ثمَّ ذكر شهادة الأرجل لأنَّ الشهادة تكون آخر الادلّة، كما أنَّه بدأ بأعلى البدن وانتهى بأسفله.

نسب الكلام للأيدي لأنَّها الفاعلة للمعاصي غالبا والشّهادة للأرجل لأنَّها آخر الأدلَّة

بديع الجمع بين الختم والتكلُّم:

في قوله ﴿نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ جمع بين الختم على الأفواه وتكلُّم الأيدي على سبيل الطّباق، فإنَّ الختم بمعنى المنع من التكلُّم[2].

نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

عبِّر بصيغة المضارع في الأفعال ﴿نَخۡتِمُ﴾ و﴿وَتُكَلِّمُنَآ﴾ و﴿وَتَشۡهَدُ﴾ لتصوير الحالة، ليكون أبلغ في التّهويل لما يكون عليه حال الكافرين والمجرمين.

دلالة الكلام والشّهادة بين الحقيقة والمجاز:

لمّا كان الكلام هو اللفظ المفيد المعبِّر عن المقصود، دلَّ على أنَّ المراد من تكلّم الأيدي في قوله ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ هو الكلام الحقيقي، فتعبّر الأيدي عن المعاني المقصودة بطريق النّطق بوضوح تامٍّ، ولمّا كانت الشّهادة تكون باللفظ المفصِح عن المراد دلَّ على أنَّ الشهادة في قوله ﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ تكون بإنطاق اللّه إيّاها - فيكون المرادُ في اللفظين النُّطقَ بالمقال، ويَحْتَمِل أن يكون التّعبير في اللفظين بطريق الاستعارة التّبعيَّة، بتشبيه ما يظهر من

الأيدي تتكلم قولًا مفيدًا مسموعًا يوم القيامة ومثلها الأرجل

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 157.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 41.

آثار المعاصي عليها ودلالتِها على أفعالِها بالتكلّم والشهادة بجامع الظّهور - فيكون المرادُ النّطقَ بدلالة الحال، فجُعِلَتِ الدلالةُ الحالية بمنزلة المقالية مجازًا[1]، كما يَحْتَمِل أن يكون بطريق الكناية عن ظهور الأمر ووضوحِه، بحيث لا يُسمعَ معه إنكار، وليس ثَم كلامٌ ولا شهادةٌ بالنّطق واللفظ، كما يقول القائل: الحيطان تبكي على صاحب الدار، كنايةً عن ظهور الحزن[2].

سبب إيثار جعل الكلام للأيدي والشّهادة للأرجل:

قولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرِه شَهادةٌ

في قوله تعالى﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ جعل الكلامَ للأيدي والشهادة للأرجل، دون العكس؛ لأنَّ الأيدي هي العاملة والفاعلة غالبًا، فالأفعال تُسنَدُ إلى الأيدي، وما يسند للأيدي يسند للذّات على طريق المجاز المرسل بذكر الجزء وإرادة الكلِّ؛ كما قال تعالى ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ [يس: 35] أيْ ما عَمِلوهُ، وقالَ ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: 195] أيْ ولا تُلْقوا بِأَنْفُسِكُمْ إلى التّهلكةِ، والفاعل مُقِرٌّ على نفسِه بالكلام، فناسبه أن يكون الكلام للأيدي؛ ليكون من قَبيل إقرار الفاعل، والغالب في الرِّجْل أن تكون حاضرةً، كما أنَّ الشّاهدَ عَلَى العامِلِ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ غَيْرَهُ، فَجَعَلَ الأَرْجُلَ مِنْ جُمْلَةِ الشُّهودِ؛ لِبُعْدِ إضافَةِ الأَفْعالِ إِلَيْها، ولأنّها لمّا كانت حاضرةً كان الأنسبُ أن تكون الشّهادة لها، فقولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيره شَهادةٌ، فَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَمّا صَدَرَ مِنَ الأَيْدي بِالقَوْلِ، وعَمّا صَدَرَ مِنَ الأَرْجُلِ بِالشَّهادَةِ، فناسب كلُّ لفظ ما أسند إليه[3].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272، والشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 249، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 176.

(2) البسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 460.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 49، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 474.

وذهب البِقاعيُّ وغيره إلى أنَّ الكلام على الاحتباك وبيانه: أنَّه لمّا أَثبت الكلامَ للأيدي أولًا لأنَّها كانت مباشرة، دلَّ على حذفه من حيِّز الأرجل ثانيًا، ولمّا أثبت الشهادة للأرجل ثانيًا لأنَّها كانت حاضرةً، دلَّ على حذفها من حيِّز الأيدي أولًا، بقرينةِ أنَّ قولَ المباشر إقرارٌ وقولَ الحاضر شهادةٌ، وتقدير الكلام: وتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ فَتَشْهَدُ، وتشهدُ أَرْجُلُهُمْ فتتكلَّم[1].

دلالة العموم في تكلّم الأيدي وشهادة الأرجل:

لمّا جاء قوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ معلَّقًا بلفظ العموم (ما) في قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ أفاد أنَّ التكلُّم والشهادة على العموم، بمعنى أنَّ كُلّ عُضْو يَنْطِق بما صَدَرَ مِنْ أفاعيله وأفاعيل صاحبه، لا أنَّ كلَّ واحدٍ من الأعضاء يخبر بجنايته المعهودة فقط، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ كلّ عضو يُخبِر بجنايتِه فقط، فالأيدي تتكلَّم عن جنايتها والأرجل تشهد بما كسبت، والقول بعموم التكلُّم والشهادة أبلغ في التّفظيع[2].

كُلّ عُضْو من أعضاء الإنسان يَنْطِق يوم القيامة بِما صَدَرَ مِنْه ومن صاحبه

فائدة نطق الأعضاء:

فائدة نطق الأعضاء في قوله:﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ هو ليعلم أنَّ ما كان عونًا على المعاصي صار شاهدًا عليه، فلا ينبغي لأحد أنْ يصحب أحدًا إلا للّه تعالى؛ لئلّا يُفتضح يوم القيامةِ بسبب صحبته[3].

سبب إيثار أن يكون الكلام والشّهادة من المجرمين أنفسِهم:

في قوله تعالى ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾، قد يقال لِمَ كان الإقرار بالذّنوب والشهادة عليها من المجرمين أنفسِهم وليس من

الإقرار بالإجرام من أنفس الكافرين أدعى لاستحقاق العذاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 453، وإسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 134، 7/ 424 - 425، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 42.

(3) العليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 5/ 494.

النّاس الذين رأوهم وشهدوا عليهم في الدّنيا؟ وجوابه: أنَّه لمّا كان من يشهد عليهم هم المقرّبين من المؤمنين وهؤلاء أعداء للمجرمين، كانت شهادة العدوّ على العدوّ غير مقبولة، وإن كان من يشهد عليهم الكفّارَ والمجرمين فهؤلاء شهادتُهم غير مقبولة لفسقِهم وكفرِهم[1]؟ كما أنَّ في كلام الأيدي وشهادة الأرجل تسجيلًا عليهم من أنفسِهم، فيكون أدعى لاستحقاقِهم عذاب جهنَّم.

دلالة إقرار الجوارح وشهادتِها:

إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان

في قولِه تعالى﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ إيذانٌ بأنَّ أعضاءهم التي كانت عونًا لهم على المعاصي صارت شاهدة عليهم، وذلك أنَّ إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان[2].

بلاغة الالتفات من الخطاب:

ذكر أحوال الكافرين القبيحة يقتضي الإعراض عنهم وعدم مخاطبتِهم

الضّمائر في قوله ﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ و﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿أَرۡجُلُهُم﴾ تعود إلى الذين خوطبوا في قوله ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ وقوله ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، فعدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريقة الالتفات؛ للإيذانِ بأنَّ ذكر أحوالِهم القبيحة اقتضى أن يُعرضَ عنهم ولا يُخاطَبوا ويحكيَ أحوالَهم الفظيعة لغيرِهم، ففي الالتفات إلى الغيبة إيذانٌ بالإعراض لتناهي الغضب، كما أنَّ في الالتفات إيماءً إلى أنَّ ذلك من مُقتضياتِ الختْم؛ فإنَّما الخطاب لتلقّي الجواب، وقد انقطع جوابُهم بالكليَّة بسبب الختم على أفواهِهم، فلا يناسب السّياق سوى الالتفات[3].

لازم فائدة الخبر:

فائدةُ الخبر هي الإعلامُ بأنَّه تعالى يختم على أفواههم وتتكلم

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 302.

(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 11.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.

أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون في الدنيا، ولازِمُ الخبر في مواجهتِهم بهذا الإعلامِ هو تأييسُهم من الإنكار، أي لا يَنفَعُهم إنكارُ ما اطَّلَعوا عليه مِن صَحائفِ أعمالِهم[1].

توجيه المتشابه اللفظي:

تفاوت أحوال الكافرين يوم القيامةِ من نطقهم في وقتٍ ومكانٍ وعدمه

قد يقال: ما وجه الجمع بين قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وبيّن قولِه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: 24]، وجوابه أن لاتعارض بين الآيتين؛ لأنَّ آيةَ (يس) في أحوالِ المشركينَ، وآيةَ سورةِ (النّورِ) في أحوالِ المنافقين[2]، أو يقال: إنَّهم يجحدون ويُخاصمون يوم القيامة فيشهد عليهم جيرانُهم وأهاليهم وعشائرُهم فيحلفون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 23] فحينئذٍ يُختم على أفواهِهم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فذلك قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[3].

وجاء عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّه سُئِلَ عمّا ظاهره التّعارض فيما أخبر الله عن المشركين يوم القيامة في قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: 85]، ونطقهم في قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: 23]، والختم على أفواههم في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؟ فقال: (إنَّه ذو ألوانٍ؛ مَرَّةً يَنْطِقون، ومَرَّةً يُخْتَمُ عليهم)، فيوم القيامةِ يومٌ طويلٌ ذو مواطِنَ مُختلِفةٍ، فيَنطِقون في وقتٍ ومكانٍ ويقرّون، ولا يَنطِقون في آخَرَ ويختم على أفواههم، أو يقال: المشركون يوم القيامة صنفان، معترفون ومنكرون، فأمّا المعترفون فلا خَتْمَ على أفواهِهم، وأمّا المنكرون فيُخْتَمُ على أفواههم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 50.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 3/ 583، والزمخشري، الكشاف: 4/ 24، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176.

وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم على كفرِهم وإجرامِهم، وهذا بحسب تفاوت كُفْرِهم وعُتوِّهم[1].

توجيه تعلُّق الجارِّ والمجرور في الآية:

يتعلَّق الجارُّ والمجرور في قولِه ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بالفعلين ﴿وَتُكَلِّمُنَآ﴾ و﴿وَتَشۡهَدُ﴾ على التّنازع، والتقدير: تكلّمنا أيديهم بما كانوا يكسبون، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، وسبب إيثار تعليق الفعلين بمتعلَّقٍ واحد هو الإشعار بأنَّ غرضَهم من عمل أيديهم وأرجلهم واحد هو كسب السّيئات.

الإشعار بأنَّ غرضَهم من عمل أيديهم وأرجلهم كسب السّيئات

دلالة العموم للاسم الموصول:

في قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أفاد التّعبير بالاسم الموصول (ما) العموم، ليستغرق الشّرك وأنواع المعاصي.

براعةُ التّعبير بتركيب ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

عبّر بصيغة الماضي في لفظ ﴿كَانُواْ﴾ المقترن بالفعل المضارع ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ للإفادة أنَّ كسبَهم الشرك والمعاصي في الدنيا كان مجبولًا فيهم، كما يشير التّركيب إلى تكرّر كسبِهم الشرك والمعاصي في الدّنيا ومداومتِهم عليه وتجدّده منهم حالًا فحالًا.

تكرُّر كسبِهم الشرك والمعاصي ومداومتهم عليه وتجدّده منهم

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

لّما كان الكسب يقال لِما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظّ، كَكَسْبِ المال[2] كان التّعبير بلفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ للدّلالة على ما فعلوه من الشّرك والآثام والقبائح، ومنها تَكْذيبُهُمُ الرَّسولَ ﷺ وما أَلْحَقوا بِهِ من الأَذَى؛ ليكون الكلامُ على سبيل الاستعارة التّهكّميَّة، تبكيتًا لهم، وتحذيرًا من اتّباع طريقِهم، فقد كانوا يظنّون ما يفعلونه خيرًا لهم، لكنّهم سيرونه يوم القيامةِ شرًّا لهم وضرًّا

التّهكّم بالكافرين من عادات القرآن

(1) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 248، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 177.
(2) الراغب، المفردات: (كسب).

عليهم، كما أنَّه لمّا كان الكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره[1] أفاد شمول الكسبِ لما قدَّموه لأنفسِهم أو لغيرِهم من السيّئاتِ والآثام.

غرضُ حذف المفعول:

تعميمُ جميع ما يكسبون

لمّا كان قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بتقدير (يكسبونه) أفاد الكلامُ حذف العائد إلى الاسم الموصول، ونُكتَتُه تعميمُ الفعل بمعنى جميع ما يكسبون، كما أنَّ في حذف المفعول رعايةً لِلفاصلة القرآنيَّة.

(1) الراغب، المفردات: (كسب).

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾ [يس: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحذير الكافرين من أن يُطمسَ على أعينهم في الدّنيا قبل الختم على أفواههم في الآخرة

لَمّا أخبر اللّه تعالى عَمّا يكون عليه حال الكافرين يوم القيامة من الختم على ألسنتهم، أتبعه بذكر ما يمكن أن يكون عليه حالُهم في الدّنيا؛ لأنَّ المقصود توبيخُهم وتقريعهم، فقال تعالى ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾، أي: لا تتعجبوا بما نختم على أفواههم في القيامة، ولو شئنا الآن لطمسنا على أعينهم، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف لم يستطيعوا، ولو نشاء لمسخناهم مسخًا يجمدهم مكانهم لفعلنا[1].

وأيضًا لمّا أتمّ بضَرْبِ المَثَل وما بعده الدلالة على مضمون ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: 11] وما علّلت به من إحياء الموتى، ودلَّ على ذلك بما تركه كالشمس ليس فيه لُبسٌ، وذكر ما في فريقي المتبعين والمتنعين يوم البعث، وختم بالختم على الأفواه بعد البعث، أتبعه آية الختم بالطَّمسِ والمسخ قبل الموت تهديدًا، فقال تعالى ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾[2].

وأيضًا لَمّا ذَكَرَ اللّهُ إلْجاءَهُمْ إلَى الاعْتِرافِ بِالشِّرْكِ بَعْدَ إنْكارِهِ يَوْمَ القِيامَةِ؛ كانَ ذَلِكَ مُثيرًا لِأَنْ يَهْجِسَ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ أَنْ يَتَمَنَّوْا لَوْ سَلَكَ اللّهُ بِهِمْ في الدُّنْيا مِثْلَ هَذا الإلْجاءِ فَأَلْجَأَهُمْ إلَى الإقْرارِ بِوَحْدانيَّتِهِ وإلَى تَصْديقِ رَسولِهِ واتِّباعِ دينِهِ، فَأَفادَ اللّهُ أَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَتْ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 85.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 157 - 158.

مشيئته بِذَلِكَ في الدُّنْيا لَفعَلَ؛ إيماءً إلَى أَنَّ مشيئتَه تعالَى تُجْري تَعَلُّقاتِها عَلَى وفْقِ عِلْمِه تَعالَى وحِكْمَتِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَطَمَسْنَا﴾: (صمس) أصلُ الطَّمْسِ يَدُلُّ على مَحْوِ الشَّيْءِ ومَسْحِه، يُقالُ: طَمَسْتُ الخَطَّ، وطَمَسْتُ الأَثَرَ، والشَّيْءُ طامِسٌ أَيْضًا، وقد طَمَسَ هو بِنَفْسِه[2]، ويأتي بمعنى ذَهاب ضوء الشَّيء، يُقالُ: طَمَسَ النَّجمُ: ذَهَبَ ضوؤه، والقمرُ مثلُه[3]، ويُقال: عَين طمس، والمطموس هو الَّذي لا يرى شق عينه ولا يتبين جفنه، كما تطمس الرّيح الأثرَ[4]، والمُراد مِن الطَّمْسِ في الآيةِ: مَسْخُ شواهدِ العَينِ بحيث لايكون بين جفنَيْه شقٌّ، أو بإزالةِ سوادها وبياضها أوِ اختلاطهما وهو العمى[5].

2) ﴿فَٱسْتَبَقُواْ﴾: (سبق) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على التَّقْديم؛ يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقًا[6]، والسَّبْقُ: القُدْمةُ في الجَرْي وفي كُلِّ شَيءٍ؛ تَقولُ: لَهُ في كُلِّ أَمْرٍ سُبْقةٌ وسابِقةٌ وسَبْقٌ، والجَمْعُ الأَسْباق والسَّوابقُ[7]، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ، قال: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ويتجوَّز به في غيره من التَّقدُّم، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفَضْلِ والتَّبريزِ، وعلى ذلك: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المتقدِّمون إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصّالحة[8]، والسَّبَق، بِالتَّحْريكِ: الخَطَرُ (الرّهان) الَّذي يوضع بَيْنَ أَهْلِ السِّباق[9]، والمراد من الاستباقِ في الآية: افْتِعالٌ من السَّبْقِ، والافْتِعالُ دالٌّ على التَّكلُّفِ والاجتهادِ في الفِعْلِ، أَيْ: فبادَروا[10].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمس).
(3) الخليل، العين: (طمس).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 512.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 52.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: سبق).
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سبق).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 78.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّه تعالى قادرٌ على إذهاب الأبصار، كما هو قادرٌ على إذهاب البصائر

هذه الآية والتي بعدها مَسوقتانِ لبيان أنَّ الكافرين في هذه الدُّنيا تحت سلطان اللّه تعالى، إذ يخبر سبحانه بأنَّه: لو نشاء لعاقبناهم على كفرهم، فطَمَسْنا على أعينَهم بأَن نُزيل معالمها فتصبح ممسوحة، أَو نحبس ضوءَها فلا تبصر، فصيرناهم عميًا، فابتدروا بعد ذلك الطَّريق الَّذي اعتادوا سلوكه قبل الطَّمس ليسلكوه فلا يستطيعون ولا يهتدون له، فكيف يبصرون وقد طُمست أَبصارهم، وأُزيلت معالمها، أَو حبس ضَوؤُها فلا تنكشف لهم المرئيّاتُ، ولا يُبصِرون طريقًا، ولا يهتدون له، لو نشاءُ ذلك لفعلناه، لكنَّنا لم نفعل لنفسح لهم مجال التَّوبة[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى إثبات مشيئة اللّه؛ إذ كلُّ شيء مُعلَّقٌ بمشيئة اللّه فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن اللّه لا يشاء مشيئةً مجرَّدة، بل مشيئتُه تابعة لحكمَتِه، وإلى بيان تمام قدرة اللّه، فهذه الأعين مبصرةٌ لو شاء اللّه لطَمَسَها وصارت كأنْ لم تكن، وإلى كمال بلاغة القرآن؛ فقد أتى بهذا السياق الذي فيه توسع؛ لأنه أبلَغُ في التأثير، ولأنه يكون له نسق جيد تهفو إليه الأسماع وتَلَذّ بسماعه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

تهديد المكذّبين بالبعث بأن يجعلهم الله في الدّنيا عميًا لايهتدون طريقًا

جاءت جملة ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ معطوفة بالواو على ما تقدَّم، وهو من باب عطف القصّة على القصَّة، فبعدما ذكر ما يحدث لأهل الشّرك يوم القيامة من أهوال يوم القيامة ومنها الخَتْمُ على أفواهِهم؛ أَعْقَبَه بذِكْرِ ما يمكن

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 386، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 50، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 382.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 236 - 237.

أن يحدث لهم في الدّنيا من الطَّمْس على أعينهم، فلا يبصرون الصّراط الذي اعتادوا سلوكَه، فيكون الكلام تهديدًا لهم على كفرهم، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الجملة معطوفةٌ على قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يس: 48][1]، ومناسبةُ الوصل بين الجملتين اشتراكُهما في كونهما خبريّتين وفي الجهة الجامعة، وهي أنَّه لمّا أخبر عن تكذيبِهم بالبعثِ هدَّدهم بأن يجعلهم عميًا لا يهتدون طريقًا.

فائدة الخبر في الآية:

تأخّر العقوبة في الدّنيا للكافرين جريٌّ على سَنَنِ الرّحمة والحكمة في الإمهال

ليسَ مساقُ الجملة الشّرطية في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ الآيةَ، ومثلها في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ - الآيةَ؛ لمجرد بيانِ قدرتِهِ تعالَى على ما ذُكر من عقوبة الطَّمسِ والمسخ، بل لتهديد الكافرين وترهيبهم وتقريعهم[2]، لبيان أنَّهم بما هم عليه من الكفر ونقضِ العهد وعدم الاتِّعاظِ بما شاهدوا من آثارِ دمارِ أمثالهم أحقّاء بأنْ يُفعلَ بهم في الدُّنيا تلك العقوبة، كما فُعل بهم في الآخرةِ عقوبةُ الختمِ وأنَّ المانع من ذلك ليس إلّا عدمَ تعلُّقِ المشيئة الإلهيَّةِ به، كأنَّه قيل: لو نشاء عقوبتَهم بما ذُكر من الطَّمسِ والمسخ جريًا على موجب جناياتهم المستدعيةِ لها لفعلناها، ولكنّا لم نشأها جريًا على سَنَنِ الرَّحمةِ والحكمة الدّاعيتينِ إلى إمهالهم[3].

نكتةُ التّعبير بحرف الامتناع:

في كلِّ مشيئةٍ لله تعالى حكمةٌ

لَمّا كانَتْ (لَوْ) حرف امتناع لامتناع، بمعنى أنَّها تقتضي امتناع الجزاء لامتناع الشّرط، أفاد قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ امتناعَ الطّمس على أعينهم لعدم تعلُّق مشيئته ﷻ بالطّمس، والمَعْنَى:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 51.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 513.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ لَكِنّا لَمْ نَشَأْ ذَلِكَ فَتَرَكْناهُمْ عَلَى شَأْنِهِمْ؛ اسْتِدْراجًا وتَمْيِيزًا بَيْنَ الخَبيثِ والطَّيِّب، ففي التّعبير بحرف الامتناع (لَو) إيذانٌ بأنَّ لله في امتناع مشيئته صُنعًا وحكمةً؛ إذ لو لم يكن له فيما يختارون من الأفعال والأعمال صنع، لم يكن لتوعُّدِهم على الطّمس على أعينهم معنىً، فدَلَّ أن له صنعًا في ذلك وحكمةً[1].

سبب إيثار التّعبير بصيغة المضارع:

تحذير الكافرين بأنَّ الطّمس على أعينهم متوقَّع في كلِّ حينٍ

أوثِرَ التّعبيرُ بصيغة المضارع الدالِّ على الحال والاستقبال - وإن كان المعنى على المضيِّ أي على معنى (لو شئنا) - لإفادة أن عدمَ الطَّمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فيما مضى وقتًا فوقتًا[2]، كما أنَّ في التّعبير بالمضارع تنبيهًا للمخاطبين بأنَّ الأمرَ متوقَّعٌ كل حين، فقد يكون هذا الطّمس واقعًا في المستقبل، لأنّا لا نعلم مشيئة الله إلى بعد وقوع الأمر، فيكون الكلامُ أبلَغَ في التهديد[3].

فائدة إسناد الفعل إلى نون العظمة:

التّعبير بنون العظمة لمعاني السّياق

أُسنِد الفعلان ﴿نَشَآءُ﴾ و﴿لَطَمَسۡنَا﴾ إلى الله تعالى بصيغة نون العظمة لتعظيم المشيئة والطّمس، بمعنى أنَّ المشيئة هي مشيئة الله الواحد الأحد، ولو طمس على أعينهم فإنَّ طَمْسَه عظيم ولا يَقْدِر عليه أحدٌ سواه ﷻ، والإسناد إلى نون العظمة مناسب لمجيء الآية على معنى التّهديد والوعيد والتّحذير، لما فيها من التّعظيم والتّفخيم.

نكتةُ حذف مفعول المشيئة:

الحذفُ جارٍ على الأسلوب البليغ في الكلام

حذف مفعول الفعل ﴿نَشَآءُ﴾ في قوله ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ وتقدير الكلام: ولو نشاء أنْ نطمسَ على أعينهم لطمسنا، والحذف هنا جارٍ على الأسلوب البليغ في حذف فعل المشيئة إذا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 534.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 178.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 361.

وقع شرطًا وكانَ مفعولُها مضمونَ الجزاء[1]، ففيه إيجاز في الكلام لظهور المراد.

دلالة التّعبير بـ﴿لَطَمَسۡنَا﴾ بين الحقيقة والمجاز:

عبّر بالطّمس دون العَمَى؛ لأنَّ الطّمس هو مَسْخُ شَواهِدِ العَيْنِ بحيث لا يبدو لها جفنٌ ولا شَقٌّ، والمطموس هو الَّذي لا يُرى شَقُّ عينه ولا يتبيَّن جَفْنُه، فيفيد القطعَ بأنَّه لا يبصر طريقًا ولا يهتدي سبيلًا، فيكون التّعبير بالطّمسِ عن عدم الإبصار على الحقيقة وهو أبلغ من التّعبير بالعمى، كما أنَّ الطّمس فيه تقبيحٌ للصّورة وتشويهٌ للوجه؛ لأنَّ طَمْسَ أعينِهم يكون بجعلِ جلود وجوههم متَّصلةً حتى كأنَّه لم تكن فيها عين قط[2] وليس كذلك العمى - فالكلام على التّهديد والتّحذير من وقوع الطّمس عليهم - كما أنَّ في التّعبير بالطّمسِ تعظيمًا لقدرة اللّه التي لا يحدُّها أمرٌ، ويَحتمِل أن يكون اللفظ على الاستعارة، حيث شبَّه عمى البصر بالطّمس بجامع التّغطية الحسّية، وحَذَفَ المشبَّه وذكر المشبَّه به على طريق الاستعارة التّصريحية التّبعيَّة؛ لتهويل ما قد يصيبهم من العمى لو شاء اللّه الانتقام منهم، حتَّى كأنَّ آلات البصر فيهم تُمسخُ وتسوَّى فلا يُرى لها أثرٌ[3].

مـطـمـوس العينين لا يبصر طريقًا ولا يهتدي سبيلًا

عِلَّةُ تعدية الفعل المتعدّي بحرف الجر:

الفعل طمس في قوله ﴿لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ يتعدّى إلى المفعول بنفسه، ونكتة تعديته بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ هي الدّلالة عَلَى تَمَكُّنِ الطَّمْسِ في أعينهم وإحاطته بها.

نكتة التّعبير بصيغة الجمع في الأعين:

عبّر بصيغة الجمع في قولِه ﴿أَعۡيُنِهِمۡ﴾ على معنى الاستغراق، بدلالة السّياق؛ لإفادة أنَّ الطمس إن وقع فيكون على عَيْنَيَ كلِّ فردٍ

الـطـمـس إن وقع فيكون على عَـيْـنَـيْ كـلِّ فـردٍ من المكذّبين

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 461.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 341.

منهم، وليس على عينٍ واحدٍ بحيث يكون الطمس على مجموع أعين الكافرين المكذّبين، ولهذا أتبعه بقولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ نفيًا لأيِّ إبصار منهم، ولا يكون ذلك إلّا مع معنى الاستغراق للفظ﴿أَعۡيُنِهِمۡ﴾.

دلالة الضمير في ﴿أَعۡيُنِهِمۡ﴾:

الضّمير في ﴿أَعۡيُنِهِمۡ﴾ يُراد به كفارُ قريش[1] ومن يجري مجراهم في الكفر والتّكذيب.

معنى الفاء:

الطّمسَ نوع من العذاب، فإن وقع يكن فجأة على المكذّبين من غير تَرقُّبٍ منهم

تفيد الفاء في قوله ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ التّرتيب والتّعقيب، بمعنى أنْ لو شاء اللّه تعالى وطمس على أعينهم، فإنَّ الطّمسَ يقع فجأة عليهم من غير ترقّب منهم، فإذا حاولوا وابتدروا الطّريق المعتادة لهم فإنَّهم لا يبصرونها ولا يبصرون غيرها، وقد يقال: إنَّ الفاء للتّفريع، ويكون سبب مجيء ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ مفرَّعًا على الطّمس على أعينهم؛ هو أنَّه لما كان الذي يُهدَّدُ بقارعةٍ تصيبه يبادر بالهرب إذا فوجِئَ بمصيبة كبيرةٍ خوفًا من غيرِها لما نالَه من الدّهش ومسَّه من عظيم الانزعاج والوَجَل، تفرَّع عن ذلك وتسبّب عنه قوله ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾[2].

دلالة لفظ ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾:

لمّا كان الفعل ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ بصيغة افتعل، أفاد معنى التكلّف والاجتهاد في سبقِهم وسَيْرِهم وابتدارِهم الطّريقَ المستقيمة المعتادة المعهودة عندهم.

فائدة (أل) في ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

الطّمس أشدُّ من العمى في عدم الإبصار والاهتداء إلى الطّريق

(أل) في قوله ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ للعهد، والمعنى الطّريق المستقيم الذي اعتادوا سلوكَه، وفي التّعبير باللفظ تنبيهان: **أحدهما**: هو أنَّه إذا كان حالُهم في الطّريق المعتادة لهم في سيرهم هو عدم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 461.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 156.

إبصارِهم لها؛ فإنَّ حالَهم في الطّريق غير المعتادة وغير المعهودة لهم في سيرهم أولى بعدم الإبصار[1]، **والثاني**: بيانُ قوة الطّمس وشدّته وتأثيره في الإدراك، بمعنى أنَّ حالهم أبلغ في عدم الإبصار من العُمْيان؛ فإنَّ العميان يهتدون الطّريق الذي اعتادوه وأَلِفوه في سيرهم وتحصيل مقاصدِهم[2].

سبب إيثار تعدية الفعل بنفسِه:

بالطّمس يمتنع إبصار الطريق من أوّله إلى نهايتِه

تعدّى الفعل اللّازم إلى المفعول بنفسِه في قوله ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾، والأصل في الفعل استبق أن يتعدَّى بحرف الجر (إلى)، وسبب تعدّيه بنفسِه: إمّا أن يكون بطريق نَزْعِ الخافض، أو بتضمين الفعل ﴿فَٱسْتَبَقُواْ﴾ معنى ابتدروا، والتّقدير فابتدروا الصّراط[3]؛ ليُفيدَ التّضمينُ معنيين، **أحدهما**: سيرهم إلى الصّراط، **والثاني**: مبادرتهم له، وعلى الوجهين في تأويل التّعدية فإنَّ الكلام يفيد أنَّ مفاجأتَهُم بالطّمس سببٌ لاستباقِهم الصّراط وإسراعِهم، وفي تعدية الفعل إلى الصّراط وجهان آخران غير أنَّهما ضعيفان[4].

ولعلَّ النّكتة في حذف (إلى) هو الدلالة على امتناع إبصارِهم الصراط من أوّله إلى نهايتِه، ليفيد عماهم من حين الطّمس، وبيانه: أنَّه لمّا كان حرف الجرِّ (إلى) لانتهاء الغاية، كان ذكره يفيد أنَّ الذين يطمس اللّه أعينهم قد يُتوهّم أنَّه مايزال لديهم بصيص من ضياء يبصرون به الطّريق وإن لم يستطيعوا أن يبصروا نهايته، فلمّا حُذِفَ حرف الجرِّ (إلى) أفاد انعدام الرّؤية عندهم من أوّل الطّمسِ تمامًا، والمعنى: لو نشاء لطمسنا على أعينهم فبادروا في أول الطمسِ إلى الطريق المألوفة التي تردّدوا عليها كثيرًا؛ لتحصيل

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 178.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 25.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 25، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 178.

مقاصِدِهم - كما كانوا يستبقون إليه - لم يقدروا على ذلك، وتعايا عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلًا عن غيره، فَهُمْ بين البقاء في أماكنهم وبين أن يسيروا عُمْيًا يتخبّطون في سيرهم ولا يهتدون سبيلًا[1].

معنى الفاء في قوله ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

الفاء في قوله ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ تفيد الترتّبَ والسَّببيَّةَ، بمعنى: يترتَّبُ على الطَّمسِ على أعينهم ويتسبَّب عنه إنكارُ إبصارِهم للطّريق والتّعجيب من حالِهم.

بلاغة الاستفهام المجازي:

التّعجيب مِن حال مَن يكفر بالله تعالى ويكذِّب رسوله ﷺ

اسم الاستفهام (أَنَّى) يحتمل أن يكون بمعنى (كيف)[2]، كما يحتمل أن يكون بمعنى (من أين)[3] وهو على الوجهين استفهام مجازيٌّ، لقصد التّهويل والمبالغة في إنكار حال إبصارِهم ومكانه، فإن كان اسم الاستفهام (أَنَّى) بمعنى (كيف)؛ كان التقدير: كيف يبصرون وقد طمسنا على أعينهم؟! فلمّا أنكر حال إبصارِهم لَزِم منه إنكارُ الإبصار نفسِه، وإن كان بمعنى (من أين)؛ كان التّقدير: من أين يبصرون؟! ويحتمل أن يكون اللفظ على المعنيين جميعًا، فيكون الإنكار أبلغَ وأشدَّ، وأفاد الإنكار على الوجهين نفيَ إبصارِهم، بمعنى أنَّهم لايبصرون أيَّ شيءٍ، ويتولَّد من الاستفهام الإنكاري التّعجيبُ والتّهديد لمن يكفر بالله ويكذب رسوله ﷺ.

سرُّ التّعبير بقوله ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ دون (فأنَّى يَهتدونَ):

الطمس على الأعين سبب في عدم الإبصار، وهو سبب في عدم الاهتداء

قد يُسألُ فيقال: الجملة الفعلية إذا أريد أن يرتَّب عليها مستبعد الوقوع، جيء في الكلام بمسبَّبها لا بنقيض سببها، فتقول: زيد أعمى فكيف يهتدي الطّريق، ولا تقول زيد أعمى فكيف يبصر، فيكون قوله:

---

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 375، والزمخشري، الكشاف: 4/ 25.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 110، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 80.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 49.

﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ كالتّكرار؟ وجوابه هو أنَّ الطمس على الأعين سبب في عدم الإبصار، وعدم الإبصار سبب في عدم الاهتداء، فقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾، مسبَّبٌ عن الطّمس، وهو - أي انتفاء الإبصار - سبب لعدم الاهتداء الذي يترتّب هو عليه، لكن يبقى السؤال: لمَ عَدَلَ عن ذكر المسبَّب الثاني وهو الاهتداء، إلى ذكر المسبَّبِ الأول وهو انتفاء الإبصار؟ فيُجاب عنه: بأنّه لو قيل: فأنّى يهتدون؛ لتُوُهِّمَ أنَّ لهم إبصارًا لكنّه ضعيف لا يوصلهم إلى الاهتداء، فأفاد ذِكْرُ المسبَّب الأوّل أنَّهم لا يبصرون شيئًا ألبتَّة لا قليلا ولا كثيرا؛ فيستلزم أنَّهم لا يهتدون ألبتَّة من باب أحرى[1]، فيكون سرُّ التّعبير بنفي الإبصار مقرّرًا لنكتة تعدية الفعل ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ﴾ إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ بنفسِه، أي في نفي أيِّ إبصار واهتداءٍ من أوّلِ الطّمس.

سبب حذف مفعول الإبصار:

حذف مفعول ﴿يُبۡصِرُونَ﴾ لإفادة العموم، فيكون معنى ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ إنكارَ أن يبصروا أيَّ شيءٍ، بمعنى لا يبصرون الصّراط ولا غيره، وقد يكون حذف المفعول على معنى تنزيل الفعل المتعدّي منزلة الفعل اللازم، فيكون معنى ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ لا يتأتى منهم إبصارٌ أصلًا.

نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

عبّر بصيغة المضارع في قوله ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾؛ لإفادة نفي استمرار إبصارِهم بسبب الطّمس وتجدّده حالًا فحالًا.

بلاغة التّمثيل في الآية:

الطّمس على القلوب ليس ببعيد عن الطّمس على الأعين

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ الآيةَ، يُستشَفُّ منه تمثيل لما يمكن أن يفعله الله بهم من عمه القلوب، فكما أنَّه تعالى لو يشاء لطمس على أعينهم فلا يبصرون طريقًا ولا يهتدون

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 355.

سبيلًا، كذلك لو يشاء لطمس على أعين قلوبِهم وختم عليها فأعماها، فلايبصرون الهدى، ففيه تشبيه المعقول بالمحسوس للإيضاح والبيان، كما أنّه يشير إلى أنَّه ما يزال في أمرهم فسحة في التّوبة والسّير على طريق الهداية؛ لأنَّه يفيد أنَّ الطّمس على أعين القلوب لم يحدث بعد[1]، ويَحْتَمِل أن يكون التّمثيل على العكس لأنَّ الضّمائر في الآية تعود إلى الكافرين الضّالّين عن الهدى الذين لا ينتفعون بتذكير، والمعنى على التّمثيل: كما أَعْمَينا قلوبَهم وخَتَمْنا عليها، لو نشاء طَمَسنا على أعينهم فأعمينا أبصارهم الظاهرة[2]؛ تهديدًا لما قد يكونون عليه، والمقصود هو أنَّهم في قبضة الله القادر عليهم فليحذروا تنكيلَه بهم.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 534.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 513، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 21.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾ [يس: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سلب القوّة بالكلّيّة أشدُّ من الطّمس على الأعين

لمّا كان الطّمسُ على الأعين مع القدرة على الحركة، ذكر العقوبة الأشدَّ التي لا يكون معها حركةٌ فقال ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾، أي: سَلبنا قوّتَهم الكلّيَّة، فلا يهتدون إلى الصراط بوجْهٍ من الوجوه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾: (مسخ) أصلٌ يدُلُّ على تَشويهٍ وقِلَّةِ طَعْمِ الشَّيءِ(2)، والمَسْخُ: تحويلُ صورةٍ إلى ما هو أقبحُ منها، يُقالُ: مَسَخَهُ اللّه قردًا، والمسيخُ من النّاسِ: الَّذي لا مَلاحةَ لَهُ، ومِنَ الطعام: الَّذي لا مِلْحَ فيهِ، ومن الفَواكِهِ ما لا طَعْمَ لهُ، وقد مَسُخَ مَساخَةً(3)، والمسخ ضربان: مسخٌ خاصٌّ يحصل في الفينة بعد الفينة وهو مسخُ الخَلْقِ ومسخٌ قد يحصل في كلِّ زمان وهو مسخ الخُلُقِ، وذلك أن يصير الإنسان مُتخلِّقًا بخُلُق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات؛ نحو أن يصير في شدَّة الحرص كالكلب، وفي الشَّره كالخنزير، وفي الغمارة كالثَّور، قال: وعلى هذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: 60]، والمسخُ في الآية بمعنى تشويه صورتِهم، بإقعاد هؤلاء المشركين على أرجلهم، أو بمسخ خلقتِهم حجارةً(4).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، والبسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 461.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسخ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (مسخ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 547، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 515.

2) ﴿مُضِيًّا﴾: (مضى) أصلٌ يدُلُّ على نَفاذٍ ومُرورٍ[1]، مَضَى الشَّيءُ يَمْضي مُضيًّا ومَضاء ومُضوًّا: خَلا وذَهَبَ؛ الأخيرة على البَدَلِ، ومَضَى بِسَبيله: ماتَ، ومَضَى في الأَمر مَضاء: نَفَذَ، وأَمْضَى الأَمرَ: أَنفذه، ومَضَى السيفُ مَضاءً: قَطَعَ[2]، والمقصودُ بالمُضيِّ في الآيةِ: الذَّهابُ والسَّيْرُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكُفّارَ في أماكِنِهم الّتي هم فيها؛ فبدَّلْنا خِلقَتَهم، وحوَّلْنا صورَتَهم، وأبطَلْنا قوَّتَهم؛ فلا يَستَطيعونَ الذَّهابَ أمامَهم، ولا الرُّجوعَ خَلْفَهم[3].

إذا مسخ الله الكافر على مكانتِه انتهت حياتُه

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى كمال قدرة اللّه، وإلى أن اللّه لو شاء لأثبت هؤلاء الكفار في مكانهم بحيث لا يستطيعون الذهاب ولا الرجوع، وترشد إلى التحذير من عقوبة اللّه في الدنيا بالمسخ ونحوه[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

تخويف الكافرين من العقوبة الكاملة المهلكةِ في الدّنيا

جاءت الآية على طريق الوصل بالواو عطفًا على جملة: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾؛ لاشتراكِهما في كونهما جملتين شرطيّتين، وفي الجهة الجامعة وهي التّخويف والتّرهيب من العقوبة المهلكةِ.

فائدة العطف بالواو في بداية الآية الكريمة:

مسخ الكافرين على مكانتِهم يقطع حركتهم مع تشويه صورتِهم

جاء العطف في قولِه ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ على سبيل التّدريج والتّرقّي في العقوبة؛ فإنَّه لمّا خوَّفهم بعقوبة الطّمس

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مضي).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مضي).
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 386، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 50، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 434.
(4) العثيمين، تفسير سورة يس، ص: 238، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 389.

ترقّى في الكلام فخوّفهم بعقوبةٍ أشدَّ وأظهر فذكر عقوبة المسخ؛ لأنَّ الطّمس على أعينهم أهون من المسخ في مكانتِهم، ليَكونَ الكَلامُ على التّدريج، وبيانه: أنَّ من أعماه اللّه تعالى قَدْ يَهْتَدي إلَى الطَّريقِ بأمارات عقلية أَوْ حِسّيَّةٍ غَيْرِ حِسِّ البَصَرِ كالأَصْواتِ والمَشْيِ بِحِسِّ اللَّمْسِ، فارْتَقَى وقالَ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾؛ ليفيد أنَّ المسخ على مكانتِهم يقطع حركتهم مع تشويه صورتِهم[1]، ولمّا كان العطف على معنى المغاير بين المعطوفين أفاد أنَّ عقوبة الطّمس غير عقوبة المسخ، كما أنَّ الطّمس لا يستلزم المسخ ولا المسخ يستلزم الطّمس[2].

مناسبة تعليق العقوبة بالمشيئة:

عدم تعلّق مشيئة اللّه بالعقوبة هو الذي يمنع من وقوعِها

لمّا علّق عقوبة الطّمس على أعينهم والمسخ على مكانتهم بمشيئته تعالى، أفاد أنَّهم يستحقّون عقوبة الطّمس على أعينهم وعقوبة المسخ على مكانتِهم، لانغماسِهم في الباطل، وأنَّ الذي يمنع من وقوعِ أيٍّ من العقوبتين هو عدم تعلّق مشيئته ﷻ بعقوبتِهم، وليس صلاحَ أعمالِهم أو توبتَهم، ففيه تحذير شديد وتخويف لما يفيده تعليق العقوبة بمشيئة اللّه من معنى ترقّب العذاب.

فائدة التّعبير بـ(لَو):

مَنْعُ العذاب استدراجٌ للمعاندين أو رجاء إيمانهم

لّما كانَتْ (لَوْ) حرفًا يفيد امتناع الجزاء لامتناع الشّرط، أفاد قوله ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ امتناعَ مسخِهم لعدم تعلُّق مشيئته ﷻ به، والمَعْنَى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾، أي: فعاقبناهم عقوبةً أشدَّ من الطّمس، لَكِنّا لَمْ نَشَأْ ذَلِكَ، أي هم أحقّاء بأن يُفعل بهم ذلك لكنّا لم نشأ، ولم نفعل؛ لشمولِ الرَّحمة لهم واقتضاءِ الحكمة إمهالَهم، كأن يكون استدراجًا للمعاندين وترغيبًا للتّائبين، أو رجاءَ أن يتولد منهم مَنْ يكونُ من المؤمنينَ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 304.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 420.

ففي التّعبير بحرف الامتناع (لَو) إيذانٌ بأنَّ للّه حكمةً في عدم إنزال عقوبة الطّمس أو المسخ بمن هم أحقّاء بها؛ بسبب أعمالِهم القبيحة الشّنيعة[1].

سبب إيثار التّعبير بمضارع المشيئة:

تنبيهُ المخاطبين بأنَّ مَسْخَهم متوقَّعٌ في كلِّ وقتٍ

أوثِرَ التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿نَشَآءُ﴾ الدالِّ على الحال والاستقبال - وإنْ كان المعنى على المضيِّ، أي على معنى (لو شئنا) - كما تقدَّم في الآية السابقة؛ لإفادة أن عدمَ مَسْخِهم لاستمرار انتفاء المشيئة فيما مضى وقتًا فوقتًا[2]، كما أنَّ في التّعبير بالمضارع تنبيهًا للمخاطبين بأنَّ مَسْخَهم متوقَّعٌ في كلِّ وقتٍ، فلا يأمنوا من عذاب اللّه وعقوبتِه، فيكون التّعبير بصيغة المضارع أشدَّ تخويفًا وتهديدًا.

فائدة إسناد الفعل إلى نون العظمة:

الإشعار بأنَّ مسخ الكفار متناسب مع التهديد

أُسنِد الفعلان ﴿نَشَآءُ﴾ و﴿لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ إلى اللّه تعالى بصيغة نون العظمة؛ لتعظيم المشيئة ومسخِهم على مكانتِهم، وللإشعار بأنَّ هذا الأمر من مقتضى عظمة اللّه تعالى ووحدانيَّتِه، والإسناد إلى نون العظمة مناسب لعظمة التّهديد والوعيد.

عِلَّةُ حذفِ مفعول المشيئة:

الإيجاز البليغ

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿نَشَآءُ﴾ في قوله ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾، وتقدير الكلام: ولو نشاء مَسْخَهم لمسخناهم على مكانتِهم، والحذف هنا جارٍ على الإيجاز البليغ في حذف فعل المشيئة كما تقدَّم في قوله ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾[3].

نكتة التّعبير بالمسخ:

منَّة اللّه على النّاس في تصويرِهم بالصّورة الجميلة الحسنة

لمّا كان المسخ هو تغيير الصّورة بتشويهها إلى صورة قبيحة، أفاد

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 534، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 88.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 178.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 176.

أنَّ المرادَ بالمسخِ في قوله ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ تغييرُ صوَرِهم إلى صورة بشعةٍ قبيحة، فيشمل أيَّ نوع من أنواع التبديل بما يكون مآلُه تغييرَ صورتِهم إلى صورةٍ قبيحة، مع بقاء الإدراك، لخصوص المسخ هنا بتقييده بنفي الاستطاعة كما يأتي، ولمّا عبَّر بالمسخِ الذي يدلُّ على تشويه صورة حسنةٍ، أفاد بلازمِه المِنَّةَ عليهم بما هم عليه من الصورة الحسنة التي أكرم الله الإنسانَ بها؛ حثًّا لهم على التّوبة وشكر المنعم، ولمّا كان الكلام على سبيل التّرقّي في العقوبة أفاد أنَّ المسخَ أقبحُ من الطّمس وأشدُّ تشويهًا وضُرًّا.

مناسبة تعدية الفعل بـ﴿عَلَىٰ﴾:

المسخ على المكانة يفيد الجمع بين قبح الصّورة وانتفاء القوى

لمّا تعلَّق الفعل ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أفاد أمرين، **أحدهما**: أنَّ المسخَ مُستحكِمٌ في مكانتِهم مستعلٍ عليه متمكّن فيه، و**الثاني**: أنَّ المراد من المسخ تغيير صورتِهم بحيث يكون منها إبطالُ قواهم فيجمَدون في مكانتِهم لايقدرون على مفارقتها، فيجمعون بين قبح الصّورة وانتفاء قواهم، ولهذا فرَّع عليه قولَه﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾(1).

ولما كان المقصود المفاجأة بهذه المصائب بيانًا لأنه سبحانه لا كلفة عليه في شيء من ذلك، قال: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، أي: المكان الذي كان قبل المسخ كل شخص منه شاغلًا له بجلوس أو قيام أو غيره في ذلك الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه.

نكتة التّعبير بـ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾:

المكانة أخصُّ من المكان

عبّر بقوله ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ دون المكان، أي لم يقل: (لمسخناهم في مكانِهم)؛ لأنَّ المكانة أخصُّ من المكان، فهي الموضع الذي يكون كلُّ شخص قبل المسخِ شاغلًا له بقعود أو قيام أو غيره، أي في ذلك

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 25، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 179، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177.

الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه[1]، والمكان أعمُّ منه فيشمل ما حوله ممّا هو قريب منه، ولمّا كان المقصود المفاجأة بهذه المصائب عبّر بالمكانة دون المكان؛ لأنَّ الرّهبة تكون أشدَّ بفجأة العقوبة، في الموضعِ الذي لا يستطيعون أيَّ حركةٍ فيه، ولمّا كان لفظ المكانة يأتي بمعنى المنزلة الرفيعة[2] كان في التّعبير إيماءٌ إلى أنَّه لو شاء اللّه ومسخهم فإنَّه يمسخهم على مكانتِهم أي في موضعِهم الذي هم فيه، وإن كانوا في رفعةٍ ومنزلةٍ بين قومِهم.

معنى الفاء:

تفيد الفاء في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ التّفريعَ على ما قبلها مع التّعقيب، بمعنى أنَّه تعالى لو مسخَهم يتفرَّعُ على مسخهم ويعقبه مباشرةً من غير مهلةٍ عدمُ قدرتِهم على المُضيِّ والرّجوع، فيكون المسخ سببًا في انتفاء استطاعتِهم وعدم قدرتِهم على التصرّف.

نكتة التّعبير بالاستطاعة:

المرادُ من المسخ علـى المكـانـة إقعادُ المشركين على أرجلهم في مواضعهم

عبّر بنفي الاستطاعة في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾؛ ليسير إلى نفي قدرتِهم وإن عالجوا الأمر واجتهدوا في أن يتحرّكوا، ويفيد التّعبير عن نفي استطاعتِهم بقاءَ إدراكِهم وثباتَ عقولِهم، فيكون المراد من المسخ إقعادَ المشركين على أرجلهم في منازلهم ومواضعهم التي يكونون عليها، فيكون بمنزلة الشّلل بل أشدَّ منه، وليس المرادُ مسخهم حجارةً أو غير ذلك، كما ورد في بعض التّفاسير[3].

فائدة تنكير ﴿مُضِيّٗا﴾:

لمّا جاء المصدر ﴿مُضِيّٗا﴾ نكرةً في سياق النّفي، أفاد نفي أيِّ مضيٍّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 159، وأبو السعود، وإرشاد العقل السليم: 7/ 177، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 334.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مكن).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 547، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 21، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 461.

لهم لو شاء الله أن يمسخهم على مكانتِهم، بمعنى نفي حركتِهم إلى أيِّ جهةٍ من الجهات في حالِ المضيِّ إلى الأمام.

نكتة العدول عن مقابلة المصدر بالمصدر:

كان مقتضى المقابلة أن يقال: مضيًّا ولارجوعًا، ليكون من عطف المصدر على المصدر، ولكن عدل إلى ﴿يَرْجِعُونَ﴾، فوضع الفعل موضع المصدر لرعاية الفاصلة[1].

دلالة المقابلة بين المضي والرّجوع:

تنوّع المعنى بطريق المقابلة بين المضيّ والرّجوع

يَحْتَمِل أن يكون نفي المُضيِّ والرّجوع في قوله ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لنفي مطلق الحركة؛ أي لا يستطيعون تصرّفًا في أيِّ حركةٍ، أي لا ذهابًا ولا مجيئًا، بمعنى: عدم قدرتِهم على أن يبرحوا بإقبالٍ أو إدبارٍ أو غدوٍّ أو رواح، ويحتمل أن يكون المضيِّ بمعنى الذهاب في الأرض لقضاء الحاجات؛ لأنَّ المعتاد في التصرّفات والعادات اليوميَّة هو الذهاب إلى جهة الأمام، ويكون الرّجوع بمعنى العَوْد من حيث جاء أي الرّجوع إلى الخلف[2].

معنى العطف بالواو:

تنوّع توجيه العطف توسيع للمعنى وتكثير له

تَحتمِل الواو في قوله ﴿وَلَا﴾ أن تكون عاطفةً لـ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ على ﴿مُضِيًّا﴾ كما تقدَّم، كما تَحتمِل أن يكون التّعبير على مقتضى الظّاهر، بأن يكون الفعل ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ معطوفًا على ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ﴾، وليس على ﴿مُضِيًّا﴾، فيكون نفي الاستطاعة منصبًّا فقط على المضيِّ الذي هو الأهم والأرغب في حياتِهم وتصرّفاتِهم، والمعنى: لا يستطيعون مضيًّا وكذلك لا يرجعون، أي فما مضوا ولا رجعوا[3]، كما تَحتمِل أن يكون ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ معطوفًا على جملة

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 110، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177، والقنوجي، فتح البيان: 11/ 315.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 53.

الشّرط في قوله ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾، أي: لو مسخوا لا يرجعون إلى حالتِهم التي كانوا عليها قبل المسخ، ولا يتجدّد لهم الرّجوع بوجهٍ من الوجوه، للإيذان بأنَّ المسخ لو وقع فإنّه حقٌّ لا مرية فيه، وأنَّه ليس خيالًا أو سحرًا، بل ثباتُها لا يُمكِنُ أحدًا مِن الخَلْقِ رفْعُه، ولا تغييرُه بنوعِ تغييرٍ، ولو قيل: (ولا رُجوعًا) لم يُفِدْ هذا المعنى النَّفيسَ[1].

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ بالإفراد، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿عَلَىٰ مَكَانَٰتِهِمۡ﴾ على الجمع[2]؛ و(مَكانات) جمع (مَكانَة)، وقراءة الجمع على اعتبار أنَّ الممسوخين جماعةٌ، فلكلٍّ واحد مكانةٌ، فَدَلَّ الجمع على تعدّد مكاناتِهم[3].

نكتة التّعبير بمضارع الرجوع:

نفي استطاعة رجوعهم

في قوله تعالى ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾، كان الظّاهر أن يقال فما استطاعوا مضيًّا ولا رجوعًا، فعُدِلَ إلى الفعل المضارع ﴿يَرۡجِعُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم حتّى لو حاولوا الرّجوع مرارًا وتَكْرارًا لسهولتِه عليهم فما يستطيعون، فيدلُّ على إلى استمرار النفي نظرًا إلى التّعبير بصيغة المضارع، كما أنَّ فيه مراعاةً للفاصلة ورؤوس الآي[4].

غرضُ تقديم المضيّ على الرّجوع:

الـرّجــوعُ إلى المنزل أهونُ على النّفس من المضيّ لألفة الطّريق

قَدَّمَ المُضيَّ عَلَى الرُّجوعِ، في قوله ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ لأنَّ الرّجوعَ أهونُ على النّفس من المضيِّ، فالمضيُّ لا ينبئُ عن سلوك طريق من قبلُ، وهو الأصل لأنَّ قضاء الحاجات

---

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 258، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 160، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 193.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 310، وابن الجزري، النشر: 2/ 355.

(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 376، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 45.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 272، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177.

يكون بالمضيِّ قُدُمًا، وأمّا الرّجوع فينبئُ عن سلوك ذلك الطّريق لأنَّه موضع العودة، ولا شَكَّ أَنَّ سُلوكَ طَريقٍ قَدْ رُئِيَ مَرَّةً أَهْوَنُ من سلوك طريق لم يُرَ، فَهُمْ لا يستطيعون مُضيًّا ولا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، وهوَ الرُّجوعُ الَّذي هو أهون من المُضيِّ، فعلى القول بأنَّ ﴿مُضِيًّا﴾ معطوف على ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يكون العطفُ تأسيسًا لا تأكيدًا، كما هو كذلك على الوجهين الآخرين[1].

بلاغة التّمثيل في الآية:

قدرةُ الله على مسخ قلوبهم وعدم الانتفاع بها

في قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ الآية، يُستشَّفُ منه تمثيلٌ لما يمكن أن يفعله اللّه بهم من مسخ القلوب، فكما أنَّه تعالى لو يشاء لحَوَّلَ ظاهرَ خِلْقَتِهم ولَمَسَخَهُم على مكانتِهم فما استطاعوا مُضيًّا ولا يرجعون، كذلك لو يشاء لَمَسَخَ قلوبَهم وحوَّلها عن مكانِها فلا ينتفعون بها كما لم ينتفعوا بأجسامِهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُضيّ والذَّهاب:

المُضيُّ السّير بعزمٍ إلى جهةٍ مقصودةٍ، والذّهابُ الانتقال من مكانٍ إلى آخرَ

الفرق بينهما هو أَنَّ المضيَّ بمعنى السّير في نفاذ وقوّة وعزم، ومنه مضى في الأمر أي سارَ بسرعةٍ من غير توقُّفٍ، ومنه كذلك مضى السّيف أي نفذ في جسم الضريبة، ويكون من غيرِ انثناءٍ ولا تعريجٍ[3]، ومنه قوله تعالى ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: 65]، فالمضيُّ يكون لغايةٍ مقصودة، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ٦٠﴾ [الكهف: 60]، فالمضيُّ يكون في نفاذٍ وعزمٍ، ومن يَمضي إنّما يَمضي لحاجةٍ أو أمر يقصده، وأمّا الذّهاب فهو بمعنى السّير والانتقال من مكانٍ إلى آخر، بأن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 304، والبسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 462.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 534.
(3) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مضى)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/ 96 - 97.

يكون ذهابُه في اتّجاه معيَّن، ومنه المَذْهَبُ الذي يعبّر عن وجهة نظرٍ أو موقفٍ، وعبّر في الآية بقوله ﴿مُضِيًّا﴾ دون أن يقال (فما استطاعوا ذهابًا)؛ لأنَّ المضيَّ يوصف به من كان ذا نفاذٍ وقوّةٍ وسرعةٍ وله غايةٌ مقصودة في سيره، فمن كان له غاية مقصودة في سيره كان أشدَّ نفاذًا في سيره، ليفيد أنَّهم لا يستطيعون المضيَّ مع قوّتهم ونفاذِهم في سيرِهم وسعيهم وحرصهم في تحصيل مقصدِهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨﴾ [يس: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَـنْ لـم يـأتِ بـالـواجـب في وقت الإمكانِ لم يأت به في وقتِ الإزمان

لَمّا ذَكَرَ تَعالَى الطَّمْسَ والمَسْخَ عَلَى تَقْديرِ المُشَبَّهِ، ذَكَرَ تَعالَى دَليلًا عَلَى باهِرِ قُدْرَتِهِ وغريب حكمته في صُنْعِه بما يشاهدونه في تَنْكيسِ المُعَمَّرِ، وتغيير خِلْقته من قوَّةٍ إلى ضعف، وأَنَّ ذَلِكَ لا يَفْعَلُهُ إلّا هوَ تَعالَى، فقال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾[1].

وأيضًا لَمّا ذكر إمهالَهم بالعقوبة وأملى لهم؛ أَعْقَبه بإنذارِهم والوعيدِ لهم، أي إن لم نطمس على وجوهِهم ولم نمسخهم على مكانتهم؛ فسيرون سُنَّتَنا فيهم بتنكيسِهم بالذِّلَّة بعد تعميرِهم وبقائِهم في الدّنيا[2].

وأيضًا: حين قطع الأعذار بسَبْقِ الإنذار وذلك في قوله ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ شرع في قَطْعِ عُذْرٍ آخرَ للكافر وهو أن يقول: لم يكن لُبْثُنا في الدنيا إلا يسيرًا، ولو عمَّرتنا لما وجدتَ منّا تقصيرًا، فقال الله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ ليفيد أنَّكم كلَّما دخلتم في السِّنِّ ضَعُفْتُم وقد عُمِّرْتُم ما تمكَّنتم فيه من النَّظر والعمل، ومَنْ لم يأتِ بالواجب في وقت الإمكانِ لم يأت به في وقتِ الإزمان[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾: أصلُ (عمر) يَدُلُّ عَلَى بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ[4]، ومنه: العَمْرُ والعُمُرُ: اسم لمدَّة عِمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمارَةُ بدنِهِ بروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 79، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 160-161.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 54.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 544.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمر).

يقتضي ذلك، فإنَّ البقاء ضدَّ الفناء، ولفضل البقاء على العمر وصف اللّه به، وقلَّما وصف بالعمر، والتَّعْميرُ: إعطاء العمر بالفعل، أو بالقول على سبيل الدُّعاء[1]، ومعنى نعَمِّرْهُ بالتَّضعيفِ: نجعله باقيًا مُدَّةً زائدةً على المُدَّةِ المُتعارَفةِ في أعمارِ الأجيال[2].

2) ﴿نُنَكِّسْهُ﴾: أصلُ (نكس) يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ[3]، النُّكْسُ بالضَّم: عَوْدُ المريض بعد النَقَه، وقد نُكِسَ الرَّجل نُكْسًا، ونُكِس المريضُ مَعْناهُ قد عاودته العِلَّةُ[4]، ويُقال: تَعْسًا له ونَكسًا، وقد يُفتح هاهنا للازدواج، أو لأنَّه لغة[5]، والنَّكْسُ: قلبُكَ شَيْئًا عَلَى رأْسِهِ تَنْكُسهُ، والجميع الأَنْكاس[6]، ويُطلقُ النُّكسُ مجازًا على الرُّجوعِ من حالٍ حَسَنَةٍ إلى سيِّئَةٍ، وهو في الآية دالٌّ على الردِّ إلى الضَّعْفِ في الجسم والإدراك والفَهْم، فصار بدلَ القوّة ضَعْفًا، وبدلَ الشبابِ هَرَمًا[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَما يتقدَّمُ به العُمُرُ: ومَن نُطِلْ في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه، فنَجعَلْه ضَعيفًا بعدَ أنْ كان قَويًّا؛ أفلا يَعقِلونَ قُدرةَ اللّهِ في تَصريفِ خَلقِه كما يَشاءُ، ومِن ذلك قُدرتُه على بَعثِهم؟![8].

الدُّنيا دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار

وترشد الآية الكريمة إلى بيان حال الإنسان وأنه ينتقل من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ، وأن الإنسان إذا تقادمت به السِّنُّ فإنه يرجع إلى الوراء، وإلى أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم فُرَصَ العُمُرِ وقوَّتَه وشبابَهُ قبل

(1) الراغب، المفردات: (عمر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 277.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (نكس).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نكس).
(6) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (نكس).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 548، والواحدي، التفسير الوجيز، ص: 903.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 479، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 588.

أن يُنَكَّسَ إلى الخلف، وإلى الحثِّ على التعقُّل والتفكُّر وحُسْنِ التصرُّف حتى يكون الإنسان من العقلاء، وإلى التنديد بهؤلاء المكذبين، وإلى أنَّ العقل غيرُ الذكاء؛ لأن الإنسان قد يكون ذكيًّا ولكنه ليس بعاقل؛ ومن المعلوم أن هؤلاء عندهم من عقل الإدراك والذكاء الشيء الكثير[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

مِنْ دلائلِ قدرةِ اللهِ الباهرةِ أنَّ مَنْ يُعَمِّره يُنَكِّسهُ في الخَلْقِ

جاء قوله تعالى ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ الآيةَ، عطفًا على جملة ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ وما بعدها، لاشتراكِهما في كونهما جملتين شرطيَّتين وفي الجهة الجامعة، وهي مجيء الجملة المعطوفة دليلًا على المعطوف عليه، أي تكون دليلًا على قدرة الله الباهرة وما في خَلْقِه وصُنْعِه من الحكمة العجيبة الظّاهرة، فيكون الكلامُ من عطف العلَّة على المعلول؛ لأنَّ جملة ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ كالشّاهد لذلك[2]، أو أن تكون الجملة عطفًا على الجملة الشرطية كما تقدَّم؛ لتُفيدَ إمهالَ الكافرين والإملاءَ لهم، فتكون مخصوصةً بالكافرين مثل الجملتين الشّرطيّتين المصدّرتين بـ(لَو)، لتفيد إنْذارَهَمْ بعاقِبَةٍ غَيْرِ مَحْمودَةٍ، ووَعيدَهُمْ بِحُلولِها بِهِمْ، أَيْ إنْ كُنّا لَمْ نَمْسَخْهُمْ ولَمْ نَطْمِسْ عَلَى عُيونِهِمْ، فَقَدْ أَبْقَيْناهُمْ لِيَكونوا مَغْلوبِينَ أَذِلَّةً[3].

سبب إيثار التّعبير بأسلوب الشّرط:

التّعمير لا يكون لكلِّ إنسانٍ ومن يعمّره الله مآله لتنكيسه

لمّا كان الشّرط على معنى تعليق الجزاء بالشّرط واقترانه به بمعنى أنَّ الشّرط سببٌ لوقوع الجزاء، وأنَّه بمجرَّد وقوع الشّرط

(1) العثيمين، تفسير سورة يس، ص: 241 - 242.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 54.

بتمامِه يتحقّق الجزاء - أوثِرَ التّعبيرُ بأسلوب الشّرط في قوله ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾؛ للإشعار بأنَّ التّعمير لا يكون لكلِّ إنسانٍ، وأمّا إنْ عَمَّره اللّه تعالى فإنَّ التَّعمير سبب للتّنكيس بمعنى أنَّ تنكيسه متحقّق وواقع.

وأفاد اسم الشّرط (مَنْ) العمومَ، فيدخل فيه كلُّ عاقلٍ، ولمّا كان الكلام على معنى العموم أفادت الجملة معنى الكلّيَّة، بمعنى أنَّ كلَّ من يعمّره اللّه فالتّنكيس متحقّق فيه، وإن كان التّنكيس متفاوتًا من معمَّرٍ إلى آخرَ.

دلالة لفظ ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾:

التّعمير بمعنى طــول الـعـمـر وامـتـدادُه إلى الهرم

عبّر بـ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾ دون أيِّ لفظٍ آخر يدلُّ على طول العمر، لما يفيده اللفظ من معنى مدِّ العمر وإطالة الحياةِ وامتداد الزّمن إلى الهرم، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ لفظ ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾ من التّعمير بمعنى الإبقاء، ويكون المراد به المشركين، أي مَنْ نُبْقيهِ مِنْهُمْ ولا نَسْتَأْصِلُهُ نجعله ذليلًا مهانًا[1].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾:

لم يعبّر بلفظ الخَلْق، فيقل: (من نخلقه ننكّسه في الخلق)؛ لأنَّه لمّا قال ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾ أفاد أنَّ المراد بعد بَدْءِ العُمرِ ومدِّه بالزّيادة، ولا يكون هذا إلّا بعد تمام خلقِه وبيانِه وخروجِه إلى الدّنيا من رَحِمِ الأمِّ، ليفيد أنَّ التّنكيس يكون بالرّجوع على طريق العكس إلى حيث بَدْءِ العمر.

غرض التّعبير بمضارع التعمير:

تنكيس النّاس فـي خَـلْـقِـهـم متجدِّد بتجدُّد التّعمير

عبّر بصيغة الفعل المضارع في قوله ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾؛ للإشعار بأنَّ التعمير مستمرٌّ ومتجدّد في الخَلْق حالًا فحالًا، كما أنَّ التَّعبير بصيغة المضارع في قوله ﴿نُنَكِّسۡهُ﴾ تفيد استمرار التّنكيس لمن يعمّره اللّه تعالى وتجدّده حالًا فحالًا، فالتّنكيس مقيَّدٌ بالتّعمير.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 54.

نكتة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

الله وحده هو القادر على تعمير الخَلْق وتنكيسِهم

أُسنِدَ الفعلان ﴿نُّعَمِّرۡهُ﴾ و﴿نُنَكِّسۡهُ﴾ إلى ضمير العظمة؛ للإشعار بأنَّ تعمير الخَلْق بإطالة عُمُرِهم وعِمارة بدنِهم وعقولهم وإدراكِهم لا يكون إلّا بمقتضى عظمة اللّه تعالى الخالق القادر، ومثله تنكيسُ الخلق وإضعافُه لا يكون إلّا بمقتضى عظمتِه سبحانه، بمعنى أنَّه لا يقدر على تعمير الخلق وتنكيسه إلّا اللّه الواحد الأحد.

بلاغة الاستعارة في التنكيس:

الإنسانُ بالتّعمير يتزايد في خلقِه وقوّته وبالتَّنكيس يتزايدُ ضعفُه

في قوله تعالى ﴿نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾، استعارة للفظ ﴿نُنَكِّسۡهُ﴾ وبيان الاستعارة أنَّه لمّا كان النّكسُ هو قَلْبَ الشيءِ عَلى رأْسِه، وجَعْلَ أعلاه أسفلَهُ، بحيث يكون على العكس، شبّه تناقُصَ بنية الإنسان وقوّته وتزايدَ ضَعْفِه بعد أن وصل إلى تمام قوّته وإدراكِه؛ بالشّيء المنكوس، بجامع تغيير الحالة وعكسِها بما فيها من معنى الخيبة والخسران، ثمَّ حذف المشبَّه وذكر المشبَّه به بصيغة الفعل مع قرينة دالَّة على المراد وهي قوله ﴿فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾، على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، فيكون معنى ﴿نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ نقلبْه في خَلْقِه ليكونَ على عكسِ ما خلقناه أوَّلًا نازلًا في المدارج التي أصعدناه فيها، فلمّا كان بالتّعمير لا يزال يتزايد في خلقِه وقوّته وإدراكِه، فإنَّه في التَّنكيس لا يزال يتزايدُ ضَعْفُه وتتناقصُ قوَّتُه، وتُنتقص بنيتُه، ويتغيَّر شكلُه وصورتُه حتَّى يعودَ إلى حالةٍ شبيهةٍ بحال الصبيِّ في ضعف الجسدِ وقلَّةِ العقلِ والخلوِّ عن الفهمِ والإدراكِ، فلا يقدر على شيء ولا يعلم شيئًا[1]، وأصلُ التّشبيه في هذه الاستعارة من تشبيه التنكيس المعنويِّ بالتنكيس الحسّيِّ، واستعيرالحسّيُّ له للبيان والإيضاح[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 161، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 181.

مآل القراءتين في المعنى واحد

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ عاصم وحمزة: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ أي بِضَمِّ النّونِ الأولَى وفَتْحِ الثّانيَةِ وكَسْرِ الكافِ وتَشْديدِها، وقَرَأَ الباقونَ: ﴿نَنكُسْهُ﴾ بِفَتْحِ النّونِ الأولَى، وإِسْكانِ الثّانيَةِ وضَمِّ الكافِ المُخَفَّفَةِ، وتوجيه القراءاتين هو أنَّه: على قراءة عاصم وحمزة يكون الفعل على صيغة (فَعَّل) فيفيد تكثير التّنكيس والمبالغة فيه، كما تفيد صيغة التّفعيل التّدريجَ في التّنكيس والنّزولَ في مدارجِه، وتفاوتَ النّاس فيه[1]، وعلى قراءة الجمهور: ﴿نَنكُسْهُ﴾ يكون الفعل على الأصل، وفيه معنى التّخفيف في النُّكْس شيئًا فشيئًا، فلا يكون دفعةً واحدةً، فمآل القراءتين في المعنى واحد.

سبب إيثار تقييد التّنكيس بالجارِّ والمجرور:

التّنكيس يجري في البدن والفهم والإدراك

قيّد الفعل ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾، للإشعار بأنَّ المرادَ من قوله ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ التّعميرُ في الخَلْق، وكأنَّ التّقدير: ومن نعمّره في الخلق ننكّسه في الخلق، فحذف من الأوّل لدلالة الثّاني عليه، وإنّما حذف الجارّ والمجرور من ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾، فحذف من الأوّل على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لما يشوبه لفظ ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ من معنى العِمارَة في الخلق، ولئلّا يُظنَّ أنَّ المرادَ أنَّ المعمَّرَ له خَلْقٌ أنشأه وأبدعَه[2]، ولمّا قيّد التّنكيس بكونه ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أفاد أنَّ التّنكيس يجري في البدن والفهم والإدراك، ممّا يدخل في الخلق، أي في أطوار الخلقةِ، وليس في شيءٍ آخر.

فائدة (أل) في ﴿ٱلْخَلْقِ﴾:

(أل) في قوله ﴿ٱلْخَلْقِ﴾ عِوَضٌ عن المضاف إليه، والتّقدير ننكّسه في خَلْقِه[3].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 355، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 181.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 161.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 361.

بلاغة الإيجاز في الآية:

وجازةُ التّعبير عن حالِ الإنسان من صغرِه إلى هرمِه

في قوله تعالى ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ سبع كلمات ملفوظة، فيها استعراضٌ لحالِ الإنسانِ وسنين عمره في جسده ووظائفِه وفي عقلِه وفهمه؛ فأفادت هذه الآية أنَّه تعالى يخلق الإنسانَ عَلَى ضَعْفٍ في جَسَدٍ وخُلوٍّ مِنْ عَقْلٍ وعِلْم، ثُمَّ يجعله يَتَزايَدُ في جسده وعقلِه وعلمِه، ويَنْتَقِلُ مِنْ حالٍ إلَى حالٍ، إلَى أنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وتُسْتَكْمَلَ قوَّتُه، ويَعْقِل ويَعْلَمَ ما لَهُ وما عَلَيْهِ، فَإذا عمّرَه نَكَّسَهُ في الخَلْقِ، فَيَتَناقَصُ حَتَّى يَرْجِعَ في حالٍ شَبيهَةٍ بِحالِ الصِّبا في ضَعْفِ جَسَدِهِ وقِلَّةِ عَقْلِهِ وخُلوِّهِ مِنَ الفَهْمِ، فيَستحيلُ إلى ضعفٍ بعدَ قوَّةٍ، وإلى نَقصٍ بعدَ تَمامٍ[1].

بلاغة الاستفهام المجازيِّ:

الإنكار على عدم استعمال العقل في قياس الشاهد على الغائب

جاءت جملة ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ على طريق الاستفهام الإنكاريِّ، فالجملة معطوفة على مقدَّر يقتضيه المقام، والتّقدير: أيرَون ذلك فلا يعقلون أنَّ من قدَر على ذلك قادر على أن يَطْمِسَ على أعينِهم ويَمْسَخَهُم على مكانَتِهم، وأنَّه لمّا لم يفعل هذا فلأنَّ الأمر موكول إلى مشيئته ﷻ[2]، فالإنكار مُنْصَبٌّ على عدم تَأَمُّلِهِمْ في عَظيم قُدْرَةِ اللَّهِ تعالَى الدّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَوْ شاءَ لَطَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ولَوْ شاءَ لَمَسَخَهُمْ عَلَى مَكانَتِهِمْ[3]، وهو منصبٌّ كذلك على عدم استعمال عقولِهم في قياس الظّاهر المشهود المحسوس المألوف على الغائب غير المألوف عندهم.

فائدة حذف المفعول به:

حذف المفعول بين إرادة العموم وتنزيل الفعل منزلة اللّازم

حذف مفعول الفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ لإفادة العموم، بمعنى لا يعقلون

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 79.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 177.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 55.

أنَّ القادر على ذلك قادر على الطّمس والمسخ، ولا يعقلون أنَّ القادر على ذلك قادر على البعث يوم القيامة ويدخل فيه كلُّ ما يجري في هذا المعنى، ويَحْتَمِل أن يكون حذف المفعول لتنزيل الفعل المنفيِّ منزلة اللّازم، بمعنى انتفاء عقولِهم تمامًا لعدم الانتفاع منها فيما هو مهمٌّ وصالح لهم في حياتِهم وبعد مماتِهم.

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب، وابن عامر بخلف عنه: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ الباقون بالياء ﴿يَعۡقِلُونَ﴾[1]، فعلى القراءة بتاء الخطاب يكون جريًا على الخطاب قبله، وليدخل في الوعظ والتّذكير كلُّ من يصلح له الخطاب، وعلى القراءة بياء الغَيْبَة يكون الكلام على التّعريض للمتحدَّث عنهم، أي كانوا أَحْرياءَ أَنْ يَعْقِلوا مَغْزاها ويتفهَّموا مَعْناها[2]، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم ليسوا أهلًا لأن يُخاطَبوا لسوء أعمالِهم وقُبْحِ أفعالِهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّكْسُ والقَلْبُ:

التّنكيس قلب الشّيء على العكس والقلبُ صرف الشّيء عن وجهِه إلى وجهٍ آخر

الفرق بينهما هو أنَّ قلب الشّيء بمعنى تصريفه وتحويله عن وجهه، أي صرف الشّيء عن وجه إلى وجه، كقلب الثّوب، ومنه: قلَّبَ الشّيءَ حوّلَه ظهرًا لبطنٍ، وأمّا التّنكيس فهو قلب الشّيء منكوسًا بمعنى أن يكون الأمر على العكس، وعبّر في الآية بلفظ التّنكيس ﴿نُنَكِّسۡهُ﴾ دون القلب؛ لأنَّه التّنكيس على معنى العكس، فيبدأ من حيث انتهى التّعمير وينتهي من حيث بدأ، وفي التّنكيس معنى الضّعف والعجز والخسران، وهو المناسب لتنكيس الإنسان المعبّر عن ضعف بدنِه وعقلِه، ومنه النّكس من السّهام وهو أضعفها،

(1) الأزهري، معاني القراءات: 1/ 350، وابن الجزري، النشر: 2/ 257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 55.

والنِّكْسُ أَيضًا الرَّجُلُ الضَّعيفُ، ونُكِس المَريضُ: مَعْناهُ قَدْ عاوَدَتْه العِلَّةُ بَعْدَ النَّقَهِ[1]، وليس كذلك القلب لأنَّه بمعنى صرف الشّيء وتحويله ظهرًا لبطن، وقد يكون القلب على الباطن أفضل من الظّاهر كما هو ظاهر.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نكس).

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾ [يس: 69]

تقرير أصول الإيمان من التّوحيد والإيمان بيوم القيامة وبالرّسل

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أتمَّ سبحانَه الدليلَ على آية ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾ [يس: 7] وأنَّ التَّكذيب كان بالأصلين التَّوحيدِ والحشرِ، وبيَّنهما غايةَ البيان - رجع إلى تثبيت الأصل الثالث وهو أمر الرسول والتنزيل فقال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لَمّا تَصدَّى القُرْآنُ لِإبْطالِ تَكْذيبِهِمْ بِوَعيدٍ بِالجَزاءِ يَوْمَ الحَشْرِ بِما تَعاقَبَ مِنَ الكَلامِ عَلَى ذَلِكَ؛ عادَ هُنا إلَى طَعْنِهِمْ في أَلْفاظِ القُرْآنِ وتكذيبِهم بها، كما جاء في قوله تعالى في هذه السّورة ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ [يس: 46]، إذ تدخل فيها آيات القرآن دخولًا أوّليًّا، ومن تكذيبهم ما جاء في الخطاب ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ [الأنبياء: 5]، فَقَوْلُهم ﴿بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ [الأنبياء: 5] يَقْتَضي لا مَحالَةَ أنَّهُمْ يَقولونَ: القُرْآنُ شِعْرٌ، فجاء قوله تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ الآيةَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشِّعۡرَ﴾: أصلُ (شعر) يَدُلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ، فالإشعارُ: الإعلامُ، والشِّعار: العَلامة[3]، والشُّعورُ يُطلَقُ على العِلْمِ بالأشياءِ الخَفيَّةِ، ومنهُ سُمّيَ الشّاعِرُ شاعرًا[4]، والشِّعر: القريض المَحْدود بعلامات لا يُجاوزها، وقائله شاعرٌ لِأَنَّهُ يَشعُر ما لا يَشْعُر غيره، أي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 162.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 56.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 278.

يعلم، وجمعُه الشُّعراء، ويُقال شَعَرتُ لفلانٍ، أَي قلتُ لَهُ شِعرًا[1]، و﴿ٱلشِّعۡرَ﴾ في الآية مراد به: الكَلامُ المَوزونُ المُقفَّى المقصود الذي له مَعانٍ مُناسبة.

المَعنى الإجْماليُّ:

لمّا جاءَهم رسول اللّه ﷺ بالقرآن زعموا أنَّه شاعر، وأَن القرآن الَّذي أيَّده اللّه به شعر، فأنزل اللّه هذه الآية لإبطال ما زعموه من الأَمرين؛ فإنَّ نَفْيَ تعليم الشعر لمحمَّد ﷺ يستتبع نفيَ أن يكون القرآن شعرًا، وأَن الذي جاء به شاعرٌ، فقال سبحانه: وما عَلَّمْنا محمدًا ﷺ الشِّعر قبل أن يقول ما قال، حتَّى يصحّ زعمكم أنَّ محمَّدًا ﷺ شاعر وما جاء به شِعر، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فنَظْمُ الشِّعرِ مُمتنعٌ عليه، وليس القرآن من قبيل الشِّعر لا وزنًا ولا غرضًا ولا تكوينًا، وما القُرآنُ إلّا ذِكرٌ للنّاسِ، وقرآنٌ واضِحٌ مُظهِرٌ للحَقِّ، موضِّحٌ للنّاسِ كُلَّ ما يَحتاجون إلى بيانِه[2].

نـفـيُ تـعـلـيـم الـشِّـعـر عـن الـنَّـبـي ﷺ نفيٌ أن يكون القرآن شعرًا

وترشدُ الآيةُ إلى البُعْد عن الشُّبَه؛ إذ ينبغي للإنسان أن يبتعد عن كل ما يوجب الشبهة حوله، فمقام النبوة الذي ادُّعي فيه أنه شعر، ينبغي أن يبتعد الإنسان عمّا يوجب هذه الشبهة[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

تَـلاحُـمُ أصـولِ الإيـمــان، فلا يـكـفي الإيـمـان بواحدٍ منها

جاءت جملة ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ مَعْطوفَةً عَلَى جملة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾ [يس: 48]؛ ليكون الكلام من عطف القصَّة على القصَّة، وعَطَفَ غرضَ إثباتِ الرّسالة

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (شعر).

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 519، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 698، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 384 - 385.

(3) العثيمين، تفسير سورة يس، ص: 253.

والقرآن على غرض إثبات التّوحيد والبعث، إذ بيَّن هنا الرّسالة إثر بيان التّوحيد بقوله:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وإثر بيان الحشر بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، فاجتمعت الأصول الثلاثة في هذه السّورة[1]، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ الجملة مُسْتَأْنَفَةً اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا، وتكونُ الواوُ لِلِاسْتِئْنافِ، للرَّدِّ على ما يقوله في حقِّ رسول اللّه ﷺ وفي القرآن؛ ولِذَلِكَ اقْتَصَرَ هُنا عَلَى تَنْزِيهِ القُرْآنِ عَنْ أَنْ يَكونَ شِعْرًا والنَّبيِّ ﷺ عَنْ أَنْ يَكونَ شاعِرًا، دون التَّعَرُّض لتنزيهه عَنْ أَنْ يَكونَ ساحِرًا، أَوْ أَنْ يَكونَ مَجْنونًا؛ لِأَنَّ الغَرَضَ الرَّدُّ عَلَى إعْراضِهِمْ عَنِ القُرْآنِ وتكذيبِهم له.

بديع حسن التّخلّص في الآية:

الانـتـقـال من معنى إلى آخر بـأسـلـوب لا قطع فيـه، ولا استئناف

في هذه الآية والتي بعدها حُسْنُ التخلّص من ذكر المعاد وأحوال البعث إلى الحديثِ عن الرّسول ﷺ، وبيانِ وصْفِ القرآن والإنذار مع الانسجام في المعنى والمناسبة بين الآيات؛ فقد انتقل من معنى إلى آخر له علاقة، بأسلوب لا قطع فيه، ولا استئناف، ولا يشعر به السامع، ففيه من البلاغة ما يقضي بالعجب من حسن موقعه[2].

نكتة النّفي بِ(ما):

لّما كان النفي في مثل قولِه: ما فعلتُ هو جوابَ (لقد فعلتَ)[3]، أفاد أنَّ قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ هو ردٌّ على قولهم: لقد تعلَّمَ الشّعر، فيكون الكلام على إبطال قولِهم وإنكارِه والردِّ عليهم بالدّليل.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 304، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 183.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 49.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

مناسبة إسناد الفعل إلى الله تعالى:

القرآن بنفسه دليل على أن لا أحدَ يستطيع الإتيان به، وأنَّه من عند الله

أُسنِد الفعلُ المنفيُّ في قوله ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ إلى اللّه تعالى تعظيمًا لشأن رسول اللّه ﷺ، وتنويهًا بأنَّه لم ينزل عليه سوى القرآن، أي ما علّمناه الشّعر بتعليم القرآن، ليفيد أنَّ القرآن الذي أنزله اللّه عليه ليس شعرًا لأنَّه لا يشبهه، وقد يقال: لمَ لم يقل: ما علّمناه الشّعر وما علّمه أحدٌ؟ والجواب هو أنَّه أراد أنَّ القرآن بنفسِه دليل على أن لا أحدَ يستطيع الإتيان به، وأنّه لا يكون إلّا من عند اللّه تعالى، فإذا كان الذي يقوله ليس بشعر فليس هو سوى قرآن مبين.

دلالة عود الضّمير في ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾:

تعظيم شأنِ رسول الله ﷺ وتكريمه بتنزيهه عن الشّعر

يعود الضّمير إلى غير مذكور، ويُقصَدُ به رسول اللّه ﷺ؛ بقرينة السّياق، وسببُ عدم ذكر الاسم الظّاهر والاكتفاء بالضّمير تعظيمُ شأن رسول اللّه ﷺ من أن يُذكَرَ اسمُه الشّريف في نفي الشّعر عنه، فكيف في إثباته له ﷺ!

معنى (أل) في ﴿ٱلشِّعْرَ﴾:

القرآن لا يماثل الشّعر لفظًا ولا معنىً

(أل) في ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ للجنس؛ ليشمل اللفظ كلَّ أنواع الشعر، وأفاد تقييد نفي التّعليم بالشّعر في قوله ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أنَّ القرآن لا يماثل الشّعر لفظًا ولا معنىً، فإنَّ القرآن ليس مُقفًّى ولا مَوْزونًا، كما أنَّ أكثر الشّعر خيالات لا حقيقةَ لها، والشاعر يتوخّى في شعره التَّخيُّلات المنفّرة والمرغّبة وغير ذلك، والقرآن ليس كذلك لأنَّه أحكام وتشريعات ونظام حياة.

فائدة النفي في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾:

خصوصيَّة رسول الله ﷺ في أن جعل تشريفَه بنفي الشّعر عنه

لمّا نفى اللّه تعالى أن يكون قد علّم رسولَ اللّه ﷺ الشِّعرَ، ونفى أن يتأتّى له الشِّعْرُ أفاد أنَّ الأمر خاصٌّ به ﷺ؛ لأنَّ الكلام في بيان مباينة القرآن للشّعر، وأنَّ الذي نزل عليه ﷺ هو القرآن المبين، فلا يكون نفيُ النّظم وتَعلُّمُ الشّعرعن النّبيِّ ﷺ عَيْبًا للشّعر، كما لم يكن

قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ [العنكبوت: 48] عيبًا للخطِّ وتعلّم الكتابة[1].

بلاغة الرّدِّ بطريق الكناية:

نفيُ تعليم الرسول الكريم الشّعرَ نفيٌ للشاعريّةِ عنه وعن القرآن

لّما كان قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ ردًّا وإبطالًا لما كان الكفّار يقولونه في حقِّه ﷺ من أَنَّه شاعر، وأنَّ ما يقوله هو شعر، وكان الظاهر في الردِّ أن يقال: ما هو بشاعر وأنَّ ما يتلوه عليكم ليس بشعر، فعَدَل عن هذا إلى قوله ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾؛ ليكون الرّدُّ بطريق الكنايةِ المُضَمَّنِ الدليل على المطلوب، وبيانه: أنَّه لّما كان رسول اللّه ﷺ يتلو القرآن بين النّاس وقت النّزول وهو حقيقة لا يمكن نكرانُها، عمدوا إلى الطّعن فيه، بكونِه شاعرًا وأنَّ ما يقوله هو الشّعر، فلمّا أراد نفي كونه شاعرًا نفى أن يكون ﷺ قد علَّمه الشّعر، فنفى اللّازم وأُريد نفيُ الملزوم بطريق الكناية التي هي أبلغ من التصريح؛ لأنَّه أوفى الدّليل على كونه ﷺ ليس بشاعرٍ، كما أنَّه لّما نفى تعليمه الشّعر أفادَ أنَّ القُرآنَ ليسَ بشعرٍ[2].

فائدة عطف نفي الانبغاء:

التّرقي في الرّدِّ على المشركين وإبطال قولِهم

فائدة العطف في قوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ هو من تمام الدّليل، ولأجل التّرقّي في الرّدِّ عليهم وإبطال قولِهم، والمعنى: هو ليس بشاعر لأنَّنا لم نعلّمه الشعر، وهو ليس بشاعر لأنَّ الشّعر لا ينبغي له.

نكتة التّعبير بالفعل المنفيّ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾:

ما يصحُّ من الرسول ﷺ الشعرُ، ولا يتسهّل له قَرْضُه

البغي الطلب، ويأتي منه المطاوعة، فيقال بغيتُه فانبغى بمعنى طلبتُه فانطلب، وهوَ يُشْعر بِالطَّلَبِ المُلِحِّ، ثُمَّ غَلَبَ في مَعْنَى يَتَأَتَّى

---

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 65.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 84، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 56.

ويَسْتَقِيمُ، فَتُنوسيَ مِنْهُ مَعْنَى المُطاوَعَةِ وصارَ يَنْبَغي بِمَعْنَى يَتَأَتَّى[1]، ونكتة التّعبير بـ﴿يَنۢبَغِي﴾ أنَّ هذا اللفظ مثلُ قولهم: النار ينبغي أنْ تحرقَ الثَّوبَ، أي هي مسخَّرة للإحراق، فلمّا نفى الانبغاء في قوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ - بعود الضّمير إلى رسول اللّه ﷺ؛ ليطابق الضّمير في ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ - أفاد أنَّه ما يصحّ لرسول اللّه محمَّدٍ ﷺ الشعر، ولا يَتَسخَّرُ ولا يتسهَّل ولا يتأتَّى له إنْ أراد قَرْضَه[2]، فحتَّى لو بَغاهُ - على الفرضِ والتّقدير - لم ينبغِ له، لأنَّ جِبِلَّتَهُ منافيةٌ لذلك غايةَ المنافاةِ، أي جعلناه بحيث لو طلبه وأراد قَرْضَ الشعر لم يتأتَّ له، ولم يكن لسانه يجرى به على قصد قول الشّعر صحيحًا سليمًا؛ لتكون الحجَّةُ أثبتَ وشبهةُ المرتابين فى حقّيَّةِ رسالته أَدحضَ، فإنَّه لو كان شاعرًا لدخلت الشبهة على كثير من الناس في أنَّ ما جاء به يقوله من عند نفسه؛ لأَنَّه شاعر صناعته نظم الكلام، ليفيد قوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أنَّ رسول اللّه ﷺ ما كان يُحْسِنُ الشّعر مع تمييزه بين جيد الشعر ورديئه[3]، ويحتمل أن يكون ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ بمعنى ما يليق به ولا يصلح له[4].

وفي قوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ لطيفة أخرى، وهي أنَّ ما كانوا يعدّونه فخرًا لهم من تعلُّم الشّعر وقوله، لا يليق برسول اللّه ﷺ ولا بجلالة مرتبتِه ومنصبِه، ولا يفرح به وهو نقيصة له، بل كماله ﷺ في عدم تعلّم الشّعر أو قولِه، فيكون هذا الأمر من خَصوصيّاته ﷺ.

وذهب ابن الحاجب إلى أنَّ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ بمعنى: لا يستقيم عقلًا كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾ [مريم: 92]؛ لأنَّه لو كان ممَّن يقول الشعر لتطرَّقت التُّهمة عند كثير من الناس في أنَّ ما جاء به من قبل نفسه لتقويه عليه بقوة الشعر، كما جعله أُمّيًّا لذلك، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّه إذا انتفت الريبة لم يبق إلا المعاندة، فيحقَّ القول عليهم[5]، وفيه إشارةٌ إلى اتصال هذا الآية بما بعدها.

دلالة الضّمير المستتر في ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾:

يعود الضّمير الذي هو فاعل الفعل ﴿يَنۢبَغِي﴾ إلى ﴿ٱلشِّعۡرَ﴾، والمعنى ما ينبغي الشّعر له؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 63.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 293، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 431.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 305.
(5) ابن الحاجب، أمالي ابن الحاجب: 1/ 265.

ليفيد نفي أيِّ ملابسة للشعر له ﷺ، أي في قولِه أو في تعلُّمه، ويَحْتَمِل أن يعود الضّمير إلى المصدر المنفهم من ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾، والتّقدير: وما ينبغي تعلُّم الشّعر له، فإذا لم يتعلّمه لم يَقُلْه، فمآل الوجهين واحد، أي لا يتأهّل له ﷺ ولا يتيسَّر تعلّمُ الشّعر ولا قولُه، ولمّا كان الكلام في سياق إثبات أنَّ القرآن من عند الله تعالى أفاد أنَّ عَجْزَهُ ﷺ عن تعلُّم الشّعر وعن أن يكون شاعرًا؛ آيةٌ على أنَّ القرآن من عند الله، كما جعل أُمّيَّتَه وعدمَ تعلُّمِه الخطَّ آيةً من آيات رسالتِه.

رســول الله ﷺ لا يتأهّل له الشّعرُ ولا يتيسَّر له تعلّمًا ولا قولًا

وجه عود الضّمير في ﴿لَهُۥٓ﴾:

الظّاهر أنَّ الضّمير في ﴿لَهُۥٓ﴾ يعود إلى رسول الله ﷺ؛ ليكون مطابقًا للضّمير في قوله ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، وأجاز بعض المفسّرين أن يعود الضمير في ﴿لَهُۥٓ﴾ إلى القرآن، والمعنى وما ينبغي الشعر للقرآن، لدلالة مجاورة لفظ القرآن للضّمير في ﴿لَهُۥٓ﴾[1].

تأكيد انتفاء الشعر عن الرسول ﷺ أو القرآن

سبب تخصيص الشّعر بنفي التّعليم:

قد يقال: لِمَ خُصَّ الشِّعْرُ بِنَفْيِ التَّعْلِيم، ونفى أن يكون الشّعر منبغيًا لرسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾، مَعَ أَنَّ الكُفّارَ كانوا يَنْسُبونَ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أَشْياءَ مِنْ جُمْلَتِها السِّحْرُ، ولَمْ يَقُلْ وما عَلَّمْناهُ السِّحْرَ، وكَذَلِك كانوا يَنْسُبونَهُ إِلَى الكِهانَةِ، ولَمْ يَقُلْ وما عَلَّمْناهُ الكِهانَةَ؟.

نفي الشّعر عن الرسولِ ﷺ يستلزمُ نفي الكهانة والسّحر عنه

وجوابه أن يقال: إنَّ الكفّار كانوا ينسبون رسول الله ﷺ إلى الكهانة عندما كان يُخبر عن الغيوب ويكون كما قال، وكانوا ينسبون رسول الله ﷺ إلى السّحر عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير، أو عندما كانوا يرون تأثير القرآن في السّامعين، وأمّا الشّعر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلو القرآن عليهم، وإنّما كان يتحدّاهم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 462، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 81، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 185.

بأن يأتوا بمثل القرآن، ولم يقل لهم إن كنتم في شكٍّ من رسالتي فأَنْطِقوا الشّجر أو فأَخْبِروا بالغيوب، فلمّا تحدّاهم بأن يأتوا بمثل كلام القرآن وكان الشعرُ كلامًا أيضًا، وكانوا ينسبون كلام القرآن إلى الشّعر، خُصَّ الشّعر بنفي التّعليم[1]، كما أنَّه لمّا نُفيَ أن يكون الشّعر متأتّيًا لرسول اللّه ﷺ أو أن يليق به؛ لِما جُبِلَ عليه من عدم تعلُّق قدرته ﷺ بتعلّم الشّعر أو قوله قصدًا؛ كان نفيُ الكهانة والسّحر عنه ﷺ أولى وأظهر[2]، فإنَّ التّخيّلاتِ والكذبَ في الشّعر أَقلُّ بكثير ممّا يكون في الكهانة والسّحر.

مناسبة الفصل في قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾:

تأكيد أنَّ القرآن مباينٌ للشِّعر ولكلام المخلوقين

جاءت جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها كالنتيجة لما تقدَّمها، ففي الكلام إطنابٌ، وبيانه: أنَّه تعالى لمّا نفى أن يكون قد علّمه الشّعر، أفاد أنَّه ليس بشاعر، وأنَّه لا يقول الشّعر؛ لأنَّه لا يتسهّل له ولا يصحُّ منه، فينتج من هذا أنَّ الذي أنزله اللّه عليه ويتلوه على النّاس ليس من جنس الشّعر، أي ما هو إلّا ذكرٌ وقرآن مبين، ويمكن أن تكون هذه الجملة في مَعْرِض التّعليل لما قبلها، بمعنى أنَّه لمّا نفى عن رسول اللّه ﷺ الشّعر، ونفى أن يكون الشّعر منبغيًا له؛ أثبت ما ينبغي له، فقال كالتعليل لما قبله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾، فكأنَّ المعنى: ما ينبغي له إلّا الذِّكْرُ والقرآن المبين[3]، ويحتمل كذلك أن يكون الفصل على طريق الاستئناف البيانيِّ، وبيانه: أنَّه لمّا نفى أن يكون ما يقوله الشّعر، كان كأنَّ سائلًا سأل: فما هذا الذي أتى به محمَّد ﷺ؟ فأجيب: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾[4]، وعلى الأوجه الثلاثة لبيان سبب الفصل في هذه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 304.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 185.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 167.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 65.

الجملة فإنَّ الجملة تذييليَّة تؤكِّد منطوقَ ما قبلها ومفهومَه[1]، من أنَّ اللّه تعالى ما علَّمه الشّعر وإنّما علَّمه القرآن، وأنَّ القرآن مباينٌ للشّعر ولكلام المخلوقين.

دلالة القصر بالنّفي و﴿إِلَّا﴾:

إظهارُ قبحِ صنيع الكفار بين ارتكاب الخطأ وإصرارِهم عليه

جاء قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ على أسلوب القصر بـ﴿إِنۡ﴾ و﴿إِلَّا﴾؛ لإيذان المخاطبين من الكافرين بأنَّهم مخطئون في نسبة القرآن إلى الشّعر، وأنَّهم مخطئون في إصرارِهم على إنكار أن يكون القرآن من عند اللّه تعالى وأنَّه ليس بشعرٍ، فجمعوا لقبحِهم بين ارتكاب الخطإ وإصرارِهم عليه[2]، كما أنَّه لمّا كان هذا الأسلوب يفيد تأكيد مضمونِه أفاد تأكيد أنَّ الذي أنزله اللّه تعالى على رسوله ﷺ هو ذكرٌ وقرآن مبين.

براعة قَصْرِ القَلْب:

علَّم الله رسولَه ﷺ القرآن المبين وليس الشّعر

لمّا كان القَصْرُ في قوله تعالى ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ جاء عقب قوله ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ أفاد أنَّ القَصْرَ على القَلْبِ، أي ليس الذي علّمناه إيّاه إلّا ذكرًا وقرآنًا مبينًا، وما هو بِشِعْرٍ، والمراد من تعليم اللّه الوحيُ عن طريق جبريل عليه السلام، كما قال تعالى﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم: 4 - 5][3].

دلالة الضّمير ﴿هُوَ﴾:

وَحْيُ الله قرآنٌ مبينٌ يُتلى في المساجد وغيرها وليس شعرًا

يعود الضّمير إلى المتلوّ، أي الذي يتلوه عليكم رسول اللّه ﷺ أو الموحى إليه، وهو عَوْدٌ إلى غير مذكور، والقرينة على عَوْدِه إلى المتلوِّ أو الموحى إليه - وهو القرآن - هو السّياق، لأنَّه لمّا نفى أن يكون رسول اللّه ﷺ شاعرًا؛ لأنَّه تعالى لم يعلّمه الشّعر وما ينبغي له الشّعر،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 186.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، تح، زرزور، ص: 294 - 295.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 65.

أفاد أنَّ ما يتلوه عليهم ليس بشعر، وتقدير الكلام: إنِ المتلوُّ عليكم إلّا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ[1]، فالكلام في بيان أنَّ ما يتلوه رسول اللّه ﷺ ذكر وقرآن مبين، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ الضّمير يعود إلى القرآن[2]، فيكون التّقدير: إن القرآن إلّا ذكر وقرآن مبين، فاضطرَّ هذا التّقدير إلى تأويل (قُرآن) بالمقروء[3]، لئلّا يكون من الإخبار عن الشّيء بنفسِه، والتّقدير: إنِ القرآنُ إلّا ذكرٌ ومقروء مبين، والمعنى: إنْ هو إلّا ذكرٌ وكتابٌ سماويٌّ يُتلى في المعابد ويقرأ في المحاريب وغيرها للعمل به[4]، ويَحتمِل أن يُقال: إنَّ الإخبار عن القرآن بأنَّه (قُرآن مُّبين) فيه زيادة في المعنى بسبب وصفه بـ﴿مُّبِينٌ﴾[5].

الغرضُ من قوله ﴿ذِكۡرٌ﴾:

أوصاف القرآن لا توجد في الشّعر

يَحْتَمِلُ أن يكون المراد بلفظ ﴿ذِكۡرٌ﴾ معناه، فيكون التّعبير بالمصدر على جهة المبالغة في تذكيره للنّاس بما نسوه أو جهلوه[6]، ويَحتمِل أن يكون بمعنى العِظَة أي: إنَّ ما أوحي إلى رسول اللّه ﷺ عِظةٌ لمن تدبَّره، فليس فيه إلّا النّفع والخير وليس الشّعر كذلك، والمعنى: ما هو إلا ذكر من اللّه يوعظ به الإنس والجن[7]، ويحتمل أن يكون ﴿ذِكۡرٌ﴾ بمعنى شرفٌ ورفعةٌ في ذكرِكم، أي مَنْ عَمِل به ارتَفَع ذِكْرُه بين النّاس وعند اللّه تعالى، أو هو شرف لكم أيّها المخاطبون لأنَّه بلسانِكم[8].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 55.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 27، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 432، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 48.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 65.
(4) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 378، والزمخشري، الكشاف: 4/ 27، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 186.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 65.
(7) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 22، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 311، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 186.
(8) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 378، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 167.

دلالة وصف القرآن بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

القرآن ظاهرٌ إعجازُه ومبينٌ مرادَه ببلاغة معجزة

يحتمل أن يكون الوصف بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّبِينٌ﴾ على معنى الصّفة المشبّهة على وجه المبالغة في وضوحِه، ويكون ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى بائن وواضحٌ، أي إنَّ القرآن ظاهرٌ إعجازُه وظاهر على كونِه من عند اللّه، وأنَّه ليس بشعرٍ وليس من كلام البشر، وهو ظاهر في معانيه[1]، ويحتمل أن يكون الوصف على أصلِه من كونه اسم فاعل من (أَبانَ) بمعنى أنَّه مبين المرادَ بفصاحةٍ وبلاغةٍ[2]، ومبينٌ بنفسِه إعجازَه بكونِه من عند اللّه تعالى وأنَّه ليس بشعرٍ، ويكون حذف مفعول اسم الفاعل لإرادة العموم.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 363، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 186.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [يس: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سببُ تنزيل القرآن هو إنذارُ الأحياء وإحقاقُ القولِ على الكافرين

لمّا ذكر الله تعالى أنَّ المنزَّل على رسول الله ﷺ ما هو إلّا ذكرٌ وقرآن مبين، بيَّن سبب تنزيله وتعليمه لرسوله عن طريق الوحي فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَحِقَّ﴾: (حقّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على إحْكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1]، فالحَقُّ: الثّابتُ، يُقالُ: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ ووَجَبَ، وضِدُّه: الباطِلُ[2]، ويأتي الحَقُّ بِمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ، ويُطلَق على الواجِبِ واللّازم، فيُقال: يَحِقُّ عليك أن تَفْعَلَ كذا، أيْ: يَجِبُ[3]، ويُستَعْمَلُ بمعنى المُؤَكَّدِ المُتَيَقَّنِ، والحَقيقَةُ: اليَقينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[4]، والمرادُ بالحقِّ الوجوب والثبات، أي: ويَثْبُتَ القول بالعذاب، ويجب على الكافرين[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

القُرآنُ الكريم حُجَّةٌ على الكافِرينَ

ليُنْذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، يَفهَمُ ويَعقِلُ آياتِ اللّهِ، ويَنتفِعُ بها، وليَحِقَّ العَذابُ على الكافِرينَ باللّهِ، المُعرِضينَ عن القُرآنِ بعدَ أن قامت به حُجَّةُ اللّهِ عليهم[6].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الذي ينتفعُ بهذا القرآن ويزكو،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 521، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 384.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 481، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 169، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 699.

هو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية، وإلى أنَّ من كان ميت القلب - والعياذ بالله- فإنه لا ينتفع بالقرآن، وإلى أنَّ الكافر لا ينتفع بالقرآن وإنما يكون حجةً عليه، وهكذا كل من كان فيه خَصْلة من خصال الكفر فإنه يضعف انتفاعه بالقرآن وانتذاره به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى اللّام:

سبب الإنذار بالقرآن هو كونه مبينًا ظاهرًا واضحًا لجميع النّاس

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ هي لام التّعليل[2] لبيان سبب تعليم الله تعالى رسولَه القرآن، ومناسبة مجيء لام التّعليل بعد الإخبار عن كونه ذكرًا وكونه قرآنًا مبينًا، أنَّه لولا أنَّه كذلك لما صحَّ الإنذار به، فسبب الإنذار هو لكون القرآن مبينًا، ليفيد أنَّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾[3]، أو يكون التّعليل في ﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾، باعْتِبارِ ما اتَّصَلَ بِهِ، فإنَّه لمّا نفى كون المنزّل شعرًا، وأثبت كونَه ذكرًا وقرآنًا مبينًا؛ كان الكلام بمعنى: ما علّمناه إلّا ذكرًا وقرآنًا مبينًا ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾[4].

نكتة التّعبير بالإنذار:

تخويف النّاسِ من أمرٍ مكروه خوفًا عليهم من أن يقعوا فيه

لما كان الإنذار هو الإعلامَ عن شيءٍ مخوفٍ أو مكروه يجب التّوقّي منه لجواز أن يقع، وكان يفيد أنَّ المنذِرَ يعلمه، ويحذّرُ المنذَر منه[5] أفاد قوله تعالى ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أنَّ الإنذار لتخويف كلِّ من يعقل الخطابَ من أمرٍ مكروه ينبغي أن يحذر منه؛ خوفًا عليه من أن يقع فيه، وأفادَ أنَّ المنذِر يعلم بهذا الأمر.

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 699، والعثيمين، تفسير سورة يس، ص: 256.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 168.

(3) ابن عطيَّة، المحررالوجيز: 4/ 462، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 186.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.

(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نذر).

فائدة حذف متعلّق الفعل:

تعميم المبالغة في الإنذار والتّخويف

حُذف متعلِّق الفعل ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الذي يبيِّن المنذَر منه؛ لإفادة العموم، بمعنى لينذر من كان حيًّا بالعذاب لمن كذّب وكفر وبالعقاب يوم القيامة، ولينذرهم بيوم الحشر ويوم التّلاقي وينذرهم النّار، ففي الحذف تعميم للمبالغة في الإنذار والتّخويف.

وجه عود الضّمير في ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

الرسول الكريم، أو القرآن هو المنذِرُ لجميع النّاس

يَحتمِلُ الضّميرُ المستترُ في قوله ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أن يعود إلى الرّسول ﷺ بما اتّصف به فيكون هو المنذِرَ، والمعنى: لينذِرَ الرّسولُ الذي علَّمناه القرآن المبين، وهذا هو الظّاهر، وقد جاء وصفه ﷺ بالنّذارة في قوله ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر: 89]، ويَحتمِلُ أن يعود إلى أقرب مذكور وهو القرآن، بمعنى لينذر القرآن المبين.

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب: ﴿لِّتُنذِرَ﴾، وقرأ الباقون بالياء: ﴿لِّيُنذِرَ﴾[1]، وتوجيه القراءتين: أنَّ من قرأ ﴿لِّتُنذِرَ﴾ كون الضّمير المستتر عائدًا إلى النّبيِّ ﷺ، ويكون الكلام على الالتفات من ضمير الغَيْبَة في ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ إلى ضمير الخطاب؛ لاستدرار أسماع المخاطَبين وتنشيطِهم، وللإشارة إلى أنَّ الإنذار بطريق الخطاب أبلغ وأكثر تأثيرًا، ومن قرأ بضمير الغَيْبَة ﴿لِّيُنذِرَ﴾ فيَحتمل أن يكون الضّمير عائدًا إلى النّبيِّ ﷺ، وهو الظّاهر، ويَحتمل أن يعود إلى القرآن كما تقدَّم.

مناسبة التّعبير بالموصول وصلته:

عموم رسالة رسول الله ﷺ شاملٌ جميع النّاس

عبّر بصيغة الاسم الموصول مع صلتِه في قولِه ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾؛ لما يفيده الاسم الموصول من معنى العموم، ليدلَّ على عموم

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 312، وابن الجزري، النشر: 2/ 355.

رسالتِه ﷺ، فيدخل فيه العرب وغيرُهم، وليفيد أنَّ الإنذار يتعلَّق بكلِّ من يعقل ما يُخاطَب به.

براعة الاستعارة في لفظ الحَيِّ:

العاقل الفاهم المتأمّل هو الذي ينتفع بالإنذار

في قوله تعالى ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ استعارة في لفظ ﴿حَيًّا﴾، وبيان الاستعارة أنَّه لمّا كان المراد من الإنذار من ينتفع منه؛ بدلالة قوله ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ كان المراد من قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ العاقل المتأمّل الذي ينتفع به فيؤمن، فخُصّصَ الإنذار بالعاقل لأنَّه المنتفع منه وإن كان القرآن عامًّا لكافَّة النّاس، فشبَّه العاقل أو الفاهم الذي ينتفع من الإنذار بالحيِّ، لأنَّ العقل أو الفهم كالحياة[1]، وحذف المشبَّه وذكر المشبَّه به، على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، أو يقال: أراد بالحيِّ المؤمن، لمقابلته بالكافرين، والمعنى: لتنذر من كان مؤمنًا، أي من يبقى على الإيمان وختم عليه به[2]، ووجه تشبيه المؤمن بالحيِّ أنَّ الإيمان هو الحياة الحقيقيَّة[3]، ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّه يجوز أن يكون قوله ﴿حَيًّا﴾ على المجاز المرسل، بأنْ ذَكَر الحياةَ وأراد كمالَها وغايتها أي الانتفاع منها[4].

بلاغة التّعريض في كلمة: ﴿حَيًّا﴾:

المُعرِضُ عن إنذار الرسول الكريم وعن القرآن في عداد الموتى

في قوله تعالى ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ تعريضٌ بمن يُعرِض عن دلائل القرآن المجيد، ويكذّب رسول اللّه ﷺ، ويُعرِض عمّا أنذر به - بأنَّه كالميّت لعدم انتفاعِه بعقله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ [النَّمل: 80]،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 27، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 462، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 81.

(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 187.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 186، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 48.

فيؤول المعنى إلى: أنَّ من انتفع فآمن باللّه ورسوله حيٌّ، ومن لم ينتفع فكَفَر وسَقطتْ حجَّتُه ولم يتأمّل؛ فهو في عداد الموتى(1).

لطيفةُ العطف بإحقاق الحق:

من لم ينتفع بالإنذار فعاقبته إحقاق كلمة العذاب عليه

أفاد العطف في قوله ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ على أنَّ الفعل معطوف على ﴿لِّيُنذِرَ﴾، ولمّا كان المراد من حقِّ القول على الكافرين ما يؤولون إليه في عاقبة تكذيبهم، كانت اللام النّائب عنها حرف العطف الواو هي لام العاقبة، فتكون اللام في ﴿لِّيُنذِرَ﴾ للتّعليل واللّام التي نابت عنها واو العطف في ﴿وَيَحِقَّ﴾ لام العاقبة، مثلها في قوله:﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8]، فتكون اللام مستعارةً من معنى التّعليل إلى معنى العاقبة على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة(2)، وهذا من بديع التصرّف في اللّام في سياق واحدٍ.

نكتة التّعبير بقوله ﴿وَيَحِقَّ﴾:

وجوبُ العذاب على الكافرين وصِدْقُه

لّما عدّي الفعل ﴿وَيَحِقَّ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أفاد أنَّه بمعنى يثبت ويجب(3)، ليدلَّ على ثبوت القول ووجوبه، وأشعر اللفظ بحقّيَّة وجوب العذاب على الكافرين وصدقِه.

دلالة لفظ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾:

القول بمعنى ثبوت الوعيد على الكافرين

يدلُّ القول في قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على الكلام الذي جاء بالوعيد والعذاب على من كذّبوا بالقرآن، ولم ينتفعوا بإنذار رسول اللّه ﷺ، فوجوبُ القول وثبوتُه بناءً على الوعيد(4)، كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: 13] وقال ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: 84 - 85].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.

معنى ﴿عَلَى﴾:

لا مفرَّ من وقوع العــذاب على الكفار

يفيد حرف الجرِّ﴿عَلَى﴾ في قوله ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على تمكّن ثبوت كلمة العذاب ووجوبها على الكافرين، بحيث تكون محيطةً بهم، فلا مفرَّ من وقوع العذاب عليهم.

بديع الاحتباك في الآية:

ازْدِيادُ حَياة من امـتـثـل الـذِّكْـر وفوزُه، والميتُ لا يَنْتَفِعُ بِالإنْذارِ

في قوله تعالى ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ احتباك - حذف مقابليٌّ - إذ حذف من الأول ما ذكره في الثاني وحذف من الثاني ما ذكره في الأول، وتقدير الكلام: لِتُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا فَيَزْدادَ حَياةً بِامْتِثالِ الذِّكْرِ فَيَفوزَ، ومَنْ كانَ مَيِّتًا فَلا يَنْتَفِعُ بِالإنْذارِ فَيَحِقَّ عَلَيْهِ القَوْلُ(1).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 66.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفكُّرُ في نِعَمِ الله يبعث على الإيمان

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّ رسولَه ﷺ منذرٌ لجميع النّاس، وأنَّ الكافرين لم ينتفعوا به، فحقَّ القولُ عليهم؛ بيَّن قدرتَه العظيمة ونعمَه الجليلة عليهم الَّتي توجب الإذعانَ للإنذار والتَّسليم للمنعِم وعبادتِه وتوحيدِه، لكنَّهم قابلوا النعَمَ بالكفران والجحد، وأعرضوا عن شُكرِ المُنعِم وعبادتِه وتوحيده، فقال تعالى مقرِّرًا قدرتَه ونعمه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾.

ومن أوجه التَّناسُبِ بين الآيتين: أنَّ اللّه سُبحانَهُ لمّا أخبر بإعماء أفكارهم، وهدَّد بطمس أبصارهم، ومسخهِم على مقاعدهم وقرارهم، وأعلم بأنَّ رسولَه ﷺ منذرٌ بكتابه؛ ذكَّرهم بقدرتِه وعظيم إنعامِه وببدائع صنعتِه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾[1].

ومنها أيضًا: أنَّهُ بَعْدَ أنِ انقَضى إبْطالُ مَعاقِدِ شِركِ المُشرِكينَ؛ أَخَذَ الكَلامُ يَتَطَرَّقُ إلى غرضٍ آخرَ، وهو تذكيرُهم بِنِعَمِ اللّه تَعالى عَلَيهم وكَيفَ قابَلوها بِكُفرانِ النِّعمَةِ، وأَعرَضوا عَن شُكرِ المُنعِمِ وعِبادَتِه، فالكلامُ على هذا؛ فيهِ انتقالٌ من غرضٍ إلى غرضٍ؛ لتقريرِ قدرةِ اللّه العظيمةِ ونِعَمِهِ الباهرة الدّائمة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنۡعَٰمٗا﴾: (نعم) تدلُّ تصريفاتُه على ترفُّهٍ، وطيبِ عَيشٍ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 171 - 172، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 438.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 67.

لِما فيه مِن الخَيرِ والنِّعمة، ومنه النِّعْمَةُ: ما يُنعِمُ اللّه تعالى على عَبدِهِ به من مالٍ وعيشٍ[1]، والأنعامُ: جَمْعُ نَعَم، وهي: البهائمُ، وأكثَر ما يُطلَقُ هذا الاسمُ على الإبلِ، وهو جَمْعٌ لا واحدَ له من لَفْظِه[2]، وسُمّيت البهائِمُ أنعامًا؛ لكَثرةِ نِعَم اللّه تعالى فيها على خَلْقِه مِنَ النُّموِّ وعُموم الانتفاع[3]، والمُراد بالأَنعام في الآية: الإبلُ، والبَقَرُ، والغَنَمُ، والمَعِزُ، وأَشْهَرُ الأَنعامِ عند العَرَبِ: الإبلُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُلُّ عاقلٍ مَدينٌ لِمَن أنعَمَ عليه أنْ يَشكُرَهُ بحَسَبِ ما تقتَضيه الحالُ

يقولُ تعالى مذكِّرًا المشركينَ ببعضِ النِّعَم الَّتي أسبَغها عليهم: أوَلم يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنّا خلقْنا لهم أنعامًا كثيرةً مِنَ الإبلِ والبَقَرِ والغنَم يصرِّفونها، كما شاؤوا بالقهر والغلبة، فهي ذليلةٌ منقادةٌ لهم، فالجارية الصَّغيرة إن شاءت؛ أناخت البعيرَ البازل الكبيرَ، وإن شاءت؛ ساقَتْهُ، وصرَّفته كما تُريد[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

ليس بعدَ ذِكرِ أدلَّة التَّوحيد إلّا الإيمان، فمن أصرَّ على كفره؛ فلعنادِه وتكبُّره

في قولهِ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ تصدَّر الاستفهامُ، وجاء بعده حرفُ العطف (الواو)، والجملةُ على تقديرِ تقديم العطف على الاستفهام، وإنَّما قُدِّم الاستفهامُ؛ لأنَّ له الصدارةَ في الكلام، فالواو عاطفة لجملة منفيَّة مقدَّرة مستتبعة للمعطوفِ، وتقديرُ الكلام: ألم يلاحظوا، ولم يَرَوا أنّا خَلَقنا لَهُم مِمّا عَمِلَت أيدينا أنعامًا[5]، ومناسبةُ الوصل: هي أنَّه لمّا ذُكِر كفرُهم باللّه تعالى وإصرارُهم عليه؛ أُعقب بذكر الأدلَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/ 28.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نعم).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 592، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 33، والسعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 699.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 187، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 187.

على توحيدِهِ تعالى وقدرتِهِ على الحشرِ؛ ليفيدَ أنَّ المنكِرَ ليس له إلّا الإيمانُ بعد ذكر هذه الأدلَّة الظّاهرة، وإن لم يؤمن بالله تعالى؛ فإنَّ الحاملَ لَهُ على الكفرِ والإصرارِ عليه هو التَّعنُّت والتَّكبُّرُ والعنادُ.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازي:

تنوُّعُ توجيهِ الاستفهام بين التَّقريريِّ والإنكاريِّ

يحتمل الاستفهامُ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا﴾ أن يكون تقريريًّا، إن حُمِلَ هذا التَّركيب على أنَّ همزةَ الاستفهام مقدَّمةٌ من تأخير، وهذا هو الظّاهر في الآية، وتقديرُ الكلام: (وألم يروا)، فلمّا دخلت همزةُ الاستفهام على حرف النَّفي (لَمْ)؛ أفاد نفيُ النَّفي الإثباتَ، فيكون الكلامُ استفهامًا قُصِدَ بهِ الإثبات[1]، والضَّمير في ﴿يَرَوْاْ﴾ يعود إلى الكافرين من قريش ومَن يجري على طريقتِهم، والمعنى على التَّقرير: قد رأى الذين كفروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعامًا، ويتولَّد من مجيءِ الاستفهام بمعنى التَّقرير والإثبات تقريرُ الامتنانِ والتَّفضُّلِ عليهم لإيجاب الشُّكر على إنعامِه بالإيمان به تعالى وتوحيده، كما يعقب معنى الاستفهام توبيخُهم على عدم شكرِهم هذه النِّعمةَ العظيمةَ وعدمِ انتفاعِهم بما يرون مِنَ الأدلَّة على ألوهيَّة اللّه تَعالى وتوحيدِه.

ويجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ إنكاريًّا، إنْ لم يكن هناك تقديمٌ لحرف العطفِ ولا تأخيرٌ لهمزة الاستفهام، على ما ذهب إليه الزَّمخشريُّ في مثل هذا التَّركيب، فيكون المعنى: أنَّ اللّه تعالى يُنكر عليهم إهمالَهم النَّظر العقليَّ والتَّفكُّر وعدم الانتفاع به، وينفيه عنهم، مع أنَّ الأنعامَ أمام أنظارِهم، وسببُ الإنكارِ المفيد معنى النَّفي هو أنَّهم لمّا لم ينتفعوا بعلمِهم بأنَّ اللّه تعالى هو الذي خلقها لهم؛ نُزِّل عدم الانتفاع بالعلم منزلةَ نفيه عنهم، ويتولَّد من الإنكار معنى التَّعجيبِ من عدم انتفاعِهم ممّا يرون، ويعلمون[2].

---

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 379.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 443، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 438، والقونجي، فتح البيان: 11/ 320.

نكتةُ العدول عن الخبرِ إلى الاستفهام المجازي:

الحثُّ على رؤية خَلْقِ الله تعالى فيما أنعم به على العباد

سواءٌ أكان الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا﴾ تقريريًّا أم إنكاريًّا؛ فإنَّ العدولَ عن التَّعبيرِ بالخبر إلى الاستفهام المجازيِّ فيه إيماءٌ إلى الأمر بالرُّؤية والنَّظر فيما خَلَقَ اللّهُ تعالى مِنَ الأنعام وما فيها من دقَّة الصُّنعِ وكثرةِ المنافع المشاهدة ونعمة مُلْكِهم لها وتسخيرها لهم، أي: فَلْيَروا[1].

دلالةُ الرُّؤيةِ في قولِه: ﴿يَرَوۡاْ﴾:

المعاينةُ سبب للعلمِ والإذعان

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ قلبيَّةٌ، بمعنى: العلم اليقينيِّ، وجاء التَّعبيرُ بالرُّؤية دونِ العلم؛ للإشعار بأنَّ هذا العلمَ يقينيٌّ متاخم للمعاينةِ لظهورِه ووضوحِه، ولمناسبته مقامَ المخاطَبين الذين لا تكاد الأنعامُ تغيب عن أعينِهم، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ المعاينةَ سببٌ للعلم والإذعان، فإذا كان الاستفهامُ على معنى التَّقرير؛ كان المعنى إثباتَ علمِهم، والتَّقدير: قد علموا علمًا هو كالرُّؤية في ظهورِه[2].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل:

مطلقُ النَّظرِ إلى خلق الأنعامِ؛ يُظهِر عظمة قدرةِ الله تعالى

عُبِّرَ بالمصدر المؤوَّل في قولِه تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾؛ للإيذانِ بأنَّه يكفيهم رؤيةُ نفس الخلقِ دون احتمالِ وصفٍ زائد عليه؛ تخليصًا للكلام من شوائبِ الإجمال في أذهان السّامعين، وتحصينًا له مِنَ الإشكال[3]، أي: إنَّ رؤيتَهم نفسَ خلق الأنعام تكفي في الاتِّعاظ والاعتبار، فلا يحتاج إلى رؤية وصفٍ آخرَ له أو هيئةٍ من هيئاتِه، ولا إلى تدقيقِ النَّظر والإمعانِ فيه؛ لوضوح الأمر في نفسِه، فتتجلَّى عظمةُ اللّه تعالى في خلقِه وظهور نعمه الجليلة، كما أنَّ التَّعبير بـ (أَنَّ) المصدريَّةِ أفاد توكيدَ مضمونَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 537.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 187.

(3) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/ 92.

الجملة؛ لأنَّ خلقَ اللّه تعالى للأنعام من الحقائقِ العظيمة، فناسب المضمونُ تفخيمَ الجملةِ وتأكيدَها.

مناسبةُ التَّعبير بنون العظمة:

عظمةُ القُدرةِ الإلهيَّة في الخَلْقِ

في قول اللّه تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا﴾ جاء المسندُ إليه، وهو الضَّمير (نا) بصيغة التَّعظيم، وأسند فعل الخلقِ إليه، ومثل ذلك: الإضافة في ﴿أَيۡدِينَآ﴾، ونكتةُ ذلك: الدلالةُ على إبداعِ خلقٍ عجيب وإيداعِ صنع غريب، وأنَّ هذا الخلق لا يقدِرُ عليه إلّا اللّهُ تعالى بمقتضى عظمتِه التي لا تماثِلُها عظمةٌ.

وأكَّد هذا المعنى بإسناد فعلِ الخلق مرَّتين؛ إحداهما إلى (نا) من ﴿أَنَّآ﴾، والأخرى: إلى الضَّمير (نا) المتَّصل بالفعل؛ تقويةً لهذه الدَّلالة وترشيحًا لها، لمزيد إبراز عظمةِ القُدرة الإلهيَّة في الخلقِ.

دلالةُ اللّام في ﴿لَهُم﴾:

إكرامُ اللهِ تَعالى لعبادِهِ

اللّام في ﴿لَهُم﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم﴾ تدلُّ على الاختصاص والنَّفع، والمعنى: أنّا خلقنا الأنعام لأجلِهم، وليختصّوا بالانتفاعِ بها، وفي ذلك بيانٌ لإكرامِ اللّه تعالى لبني آدمَ، ليكون ذلك حاثًّا لَهُم على شُكرِهِ بإفرادِهِ سبحانه بالعبادة.

دلالةُ (مِنْ) في ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾:

التَّفكُّرُ في بعضِ خلقِ الله تعالى كـافٍ في العلم بوحدانيَّته تعالى

(مِنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: مِن بعض ما عملت أيدينا، ليفيد سعةَ خلقِهِ تعالى، وأنَّ كلَّ ما خلقَهُ سُبحانَهُ عظيم وبديع، وليفيد أنَّ التَّفكُّرَ في بعضِ خلقِ اللّه كافٍ في العلم بوحدانيَّته ﷻ وفي قدرته على الحشرِ يومَ القيامة، كما أنَّ التَّبعيض يفيد كثرةَ نِعَم اللّه تعالى الظّاهرة عليهم.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه:

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلتِهِ في قول اللّه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ﴾؛ للإيماء بالصِّلة إلى تعظيم خلقِ اللّه تعالى للأنعام وأنَّ

الأمرَ كان بعنايتِه سبحانَهُ، وفيه إشارةٌ إلى حَصْرِ الخلق لهذه النِّعم فيه تعالى واستقلاله بها، والتَّنبيه بالصِّلةِ - ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ - إلى دقَّة خلقِ الأنعام وبديع صُنعِها.

تعظيمُ الله تعالى في خَلقِهِ وبديعِ صُنْعِهِ

بلاغةُ إضافةِ الأيدي إلى ضميرِ العظمَةِ:

في إضافة الأيدي إلى (نا) الدّالِّ على العظمةِ في قوله: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ إيذانٌ بعظمَةِ هذا الخَلْق، وفيه إشعارٌ بظهور دقَّة خلقِ الأنعام وبديع صنعها لِمَنْ له أدنى تأمُّل وتفكُّر، كما يفيد التَّركيبُ ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ أنَّ هذا العمل ممّا تولّى اللّهُ تعالى إحداثَهُ بغير واسطةٍ، ولم يقدر على تولّيه غيرهُ[1].

تفرّدُ الله تعالى في خلقِ الأنعام والاهتمام به

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّم الجارّان مع مجرورَيْهِما ﴿لَهُم﴾ و﴿مِّمَّا﴾، وهما متعلِّقان بالمفعول ﴿أَنۡعَٰمٗا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ مع أنَّ حقَّ المفعولِ ههنا التَّقدُّمُ عليهما؛ وذلك للاعتناء بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ يجعَلُ النَّفسَ مترقِّبةً لهُ، فيتمكَّنُ عندَ ورودِهِ عليها فضلَ تمكُّنٍ، ولا سيَّما إذا كان المقدَّم منبِئًا عن كونِ المؤخَّر أمرًا نافعًا خطيرًا كما في النَّظم الكريم، فإنَّ الجارَّ الأوَّل ﴿لَهُم﴾ - المُعرِبَ عن كون المؤخَّرِ من منافعهم- والآخر ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ - المفصِحَ عن كونه من الأمورِ الخطيرةِ- يزيدان النَّفسَ شوقًا إليه ورغبةً فيه، ولأنَّ في تأخيره جمعًا بينه وبين أحكامِه المتفرِّعة عليه بقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[2].

العنايةُ بالمقدَّمِ والتَّشويق إلى المؤخَّر

فائدةُ إيثارِ ذِكْرِ الأنعام:

خُصَّتِ الأنعامُ بالذِّكر في قول اللّه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾، وإن كانت الأشياءُ كلُّها من خلقِهِ وإيجاده سُبحانه؛ لأنَّ

الاعتبارُ بالأنعامِ مع دقَّة خلقِها موجِبٌ للاستكانة لخالقِها والخشيةِ منهُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 82.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178.

الأنعامَ - التي هي الإبلُ والبقرُ والغنمُ والمَعزُ - أكثرُ أموال مَنْ نزلَ فيهم القرآنُ؛ إذ منها طعامُهم وشرابُهُم ولِباسُهم وأثاثهم وخِباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضُّلُه تعالى عليهم بتذليلها لهم؛ لَما قامت لهم قائمةٌ؛ لأنَّ أرضَهم ليست بذات زَرْعٍ، وما هم بأهل صناعةٍ مشهورةٍ، ولا جزيرتهم متحضِّرةٌ متمَدِّنة، كما أنَّ ما فيها من بدائعِ الفطرةِ وكثرة المنافعِ واستمرارِها لعموم النّاس يقتضي إفرادَها بالذِّكر، فالاعتبارُ بالأنعامِ مع دقَّة خلقِها موجِبٌ للاستكانَةِ لخالقِها، والخضوع له والخشية منه[1].

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَهُمْ﴾:

إتمامُ إنعامِ الله تعالى على العباد بخلقِهِ الأنعامَ وتمليكِهم إيّاها

الفاءُ في قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّفريع[2]، والمعنى: خلقنا لهم الأنعامَ، فملَّكْناها إيّاهم، ومسوِّغُ التَّفريعِ وجودُ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾، فلا خفاءَ في التَّفريعِ على هذا المعنى كما ذكر الآلوسي[3]، والمعنى: لَم يكونوا ليَمْلِكوها لولا أنَّنا خلقناها لَهُم؛ ليكونَ خلقُها سببًا في تملُّكهم لها، فأفادت الفاءُ السَّببيَّةَ[4] مع التَّفريع، وفي هذا تذكيرٌ بالنِّعمة ووجوب شُكر المنعِم، وأنَّه الخالق لها ولكم.

ويَنْبَني على التَّفريعِ التَّرتيبُ على وجهِ التَّرقّي في الإنعام؛ لِما فيه من ذِكْر إتمام الإنعام بخلق الأنعام وتمليكها إيّاهم، فإنَّه تعالى لو خلقَها، ولم يملِّكها الإنسانَ؛ ما كان ينتفع منها[5].

دلالةُ الضَّمير في قوله: ﴿فَهُمْ﴾:

المنَّةُ بخلق الأنعام عامَّةٌ لجميع الأنام

يعود الضَّميرُ (هُمْ) في قوله تَعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ على الكافرين

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 241.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 68.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 49.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 434.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 306.

المجرمين، بقرينةِ السّياقِ؛ لتذكيرِهم بوجوب شكر النِّعم بالتَّوحيد وعبادتِه تعالى، وبالإيمان بالبعثِ وبرسالةِ رسول اللّه ﷺ، والخطابُ وإن كان في أصلِه للمشركين ولكن يدخل فيه جميعُ النّاس؛ لأنَّ المنَّةَ بخلق الأنعامِ شاملةٌ لجميع الأنامِ، وليس مخصوصًا بالمشركين.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

استـقـرارُ الملكِ أبلغُ في المِنَّة

آثَر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّةِ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ دون الجملةِ الفعليَّة، فلم يرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فملَّكناها لهم)؛ وذلك للدَّلالةِ على استقرارِ ملكيَّتِهم لها وثبوتِها استمرارِها[1]، وذلك أدخلُ في المنَّةِ وأبلغُ في النِّعْمَةِ.

ويُقوّي هذا المعنى اختيارُ حرف الجرِّ (اللّام) في قول اللّه تعالى: ﴿لَهَا مَٰلِكُونَ﴾؛ لِما في اللّامِ مِنَ الدَّلالَةِ على الاختصاص، وهذا أبلغُ في إفادةِ ملكيَّتهم لها.

فائدةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

الاهتمامُ بنِعْمَةِ الأَنْعامِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ على متعلِّقِه؛ للاهتمام بالمقدَّم والعنايةِ به، وبيانُ ذلك: أنَّه لمّا كان أصلُ الكلام: فهم مالكون لها، وكان المقصودُ الاهتمامَ بنِعْمَة الأنعامِ؛ قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على عاملِه اهتمامًا بها؛ لكونهم يتصرَّفون فيها، ويَضْبِطونها، ولزيادة استحضارِ الأنعام عندَ السّامعين قبل سماعِ متعلِّقه - وهو ﴿مَٰلِكُونَ﴾ - وليقعَ الجارُّ والمجرور ومتعلِّقهُ أمكنَ وقعٍ في نفوسِهم بالتَّقديم والتَّشويق.

كما أنَّ في تقديمِ الجارِّ والمجرور رعايةً للفاصلة؛ إذ لو جاءَ في النَّظمِ القرآنيِّ: (فهم مالكون لها)؛ لفاتَ التَّناسُبُ اللَّفظيُّ بين الآيِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178.

تقوية الاختصاصِ في ملكيَّة النّاس لِلأنعام

فائدةُ العدولِ عن الإضافة:

أفادَ العدولُ عن إضافة ﴿مَٰلِكُونَ﴾ إلى الضَّمير (ها) - بأن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (فهم مالكوها) - إلى تعديةِ اسم الفاعل للضَّمير باللّام؛ لتقوية الاختصاص[1] في ملكيَّتهم لها واختصاصِ انتفاع النّاس بها، كما أنَّه عُدِلَ عن الإضافة؛ لتوافق الفواصل وتناسُبِ رؤوسِ الآي.

تمليكُ الأنعامِ يكونُ بالتَّصرُّف فيها وضَبْطِها وتَسْيِيرِها

دلالةُ قوله: ﴿مَٰلِكُونَ﴾:

يحتملُ أن يكونَ لفظُ ﴿مَٰلِكُونَ﴾ جمعَ (مالك)؛ مأخوذٌ من التَّملُّك بمعنى: ملك التَّصرُّف فيها، والمعنى: فهم مُتصرِّفون فيها تصرُّف الملّاك، أي: خلقناها لأجلهم، فملَّكناها إيّاهم، فهم مختصّون بالانتفاع فيها، لا يُزاحَمون، فيفيد لفظ ﴿مَٰلِكُونَ﴾ أنَّ أحدًا لا يَمْنَعُهم من التَّصرُّف فيها، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَٰلِكُونَ﴾ معناه: ضابطونَ، قاهِرونَ لَها، قادرون على الإمساك بها[2]، ومنه قول الشّاعر:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاحَ ولا *** أَمْلِكُ رَأسَ البَعيرِ إن نَفَرا[3].

أي: كَبِرت فلا أضبط رأسَ البعير، ولا أمسكه؛ إنْ نفرَ من يدي، فيكون المعنى: فهُم متمكّنون من ضبطها والتَّصرُّف فيها.

والأوَّل أظهرُ؛ ليكون قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ تأسيسًا لنعمةٍ مستقلَّةٍ لا تتمَّةً لنعمةٍ سابقةٍ[4]، وعلى كلا الوجهين في معنى ﴿مَٰلِكُونَ﴾؛ فإنَّ خَلْقَ الأنعامِ من جملة النِّعَمِ الظّاهرة، بتمليكها بطريق الانتفاعِ منها، وبضَبْطِها وقهرِها.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 74.

(2) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 20/ 550، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 538، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 2372، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273.

(3) الميداني، مجمع الأمثال: 2/ 179، والزمخشري، المستقصى في أمثال العرب: 2/ 192.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 189.

بديعُ الإدماجِ:

إعْـظـامُ المـنَّـةِ بخلق الأنعام

في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ إدماجٌ؛ للامْتِنان بنِعْمَة خَلْق الأنعام وتصرُّفهم فيها في أثناء التَّذكير بوجوب رُؤية هذا الخلق العجيبِ، والتَّفكُّر فيه والاعتبار مِنْهُ(1).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 68.

﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢﴾ [يس: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تذليلُ الأنعامِ نعمةٌ عظيمةٌ سوى نِعْمَةِ تَمْليكِها

لمّا كان ملكُ الشَّيءِ لا يستلزم طواعيَّته للمالك؛ أخبرَ اللّهُ تعالى أنَّه قد ذلَّل هذه الأنعام للإنسان؛ لتكون مسخَّرةً له مستفيدًا من منافعِها، فقال سُبحانه: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا﴾: (ذلّ) تدُلُّ تصريفاتُه على خُضوعٍ واستكانة ولين[2]، والذُّلُّ: مصدر الذَّلولِ، أي: المُنْقاد من الدَّوابِّ، يقال: ذَلَّ يَذِلُّ، ودابَّةٌ ذَلولٌ: بَيِّنَة الذُّلِّ، وذلَّلتُه تَذليلًا[3]، والذُّلُّ أيضًا: ما كان عن قَهْرٍ، يُقالُ: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ: ما كان بعد تصعُّبٍ وشماس من غير قهر[4]، والذَّليلُ ضدُّ العزيزِ، وهو الذي لا يدفع عن نَفْسِه ما يكرهُه، والتَّذليلُ في الآية مراد به: جَعْلُ الشَّيءِ ذليلًا، ومعنى تَذليلِ الأنعامِ: تسخيرُها[5].

2) ﴿رَكُوبُهُمۡ﴾: (ركب) تدورُ اشتقاقاتُه على عُلوِّ شَيءٍ شيئًا[6]، يُقال: رَكِبَ الدابَّة يَرْكَبُ رُكوبًا؛ إذا عَلا عليها، فالرُّكوب هو الفعل، والرَّكوبُ - بِفَتْحِ الرَّاءِ - هو المَركوبُ مِثْلُ الحلوبِ، وهو فَعولٌ بمعنى: مفعولٍ، فلذلكَ يُطابِقُ موصوفَهُ، يُقالُ: بَعيرٌ رَكوبٌ وناقةٌ حَلوبةٌ، وجمعُه: رَكْبٌ، ورُكْبانٌ، ورُكوبٌ، والرَّكوبُ هنا بمعنى المَرْكوب، أي: الذي يركبونَ كالإبل[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلَّ).
(3) الخليل، العين: (ذلَّ).
(4) الراغب، المفردات: (ذلَّ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 69.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركب).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 483.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقول اللّٰه سبحانه: وسَخَّرْنا هذه الأنعامَ مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَم، وجعَلْناها مَقهورةً مُنقادةً لهم، فلا تمتَنِعُ منهم، فمنها ما يركَبونَ - كالإبِلِ يُسافِرونَ عليها - ومِنْها ما يأكُلونَ مِن لحمِه، وهي الأنعامُ كُلُّها[1].

من نِعَمِ الله تعالى على عباده تذليلُ الأنعامِ وتسخيرُها لهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في الآية:

جملة ﴿وَذَلَّلْنَهَا﴾ معطوفةٌ بالواو على قوله: (هُم لَها مالِكونَ)، وتقديرُ الكلام: (أولم يَرَوا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعامًا، فذلَّلناها لهم)، فيكونُ الاستفهام التَّقريريُّ أو الإنكاريُّ - على الخلاف في توجيه الاستفهام - داخلًا على جملة: ﴿وَذَلَّلْنَهَا لَهُمْ﴾ كذلك، والضَّمير في ﴿وَذَلَّلْنَهَا﴾ يعود إلى الاسم الظّاهر المتقدِّم ﴿أَنْعَمًا﴾، فيكون قد فرَّع نعمةَ الملك للأنعام وتذليلها وما فيها من منافع ومشاربَ على خلقِها، وهو المناسبُ للمعنى، ومناسبة الوصل: الامتنان بتذليلِ اللّٰهِ تعالى للأنعامِ كما هو الحال مع تمليكِها لهم.

تنوُّعُ منَّةِ الله تعالى على العباد في خلقِ الأنعام بتمليكِها وتذليلِها لهم

وعُطِفَت جملةُ (ذلَّلناها) على جملة: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَين؛ لاشتراك الجملتين في الخبريَّة، ولِما بينَهُما مِنَ التَّناسب المعنويِّ.

وذهب بعضُ المعربين إلى أنَّ جملةَ: (ذَلَّلناها لَهُم) معطوفةٌ على ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾[2]، وتقدير الكلام: أو لم يروا أنّا ذلَّلناها لهم، فتكون جملة (ذَلَّلناها) خبرًا بـ (أَنَّ).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 483، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 55، 56.
(2) الصافي، الدول في إعراب القرآن: 12/ 33، وعبد الله علوان وجماعته، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1951.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا﴾:

خضوعُ الأنعامِ وانقيادُها حاصلٌ بقهْرِ الله تعالى لها وتذليله إيّاها

عبَّر بقوله: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا﴾ دون لفظٍ آخرَ؛ للإشعار بخضوعِ الأنعام لهم؛ لِما في اللَّفظ من معنى الخضوعِ والانقياد والاستكانة واللّين والسُّهولة؛ لأنَّ الذُّلَّ ضدُّ الصُّعوبة، ولمّا كانَ الذلُّ لا يكون إلّا عن قهرٍ[1]، كان في قولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّ خضوعها وانقيادَها بسلاسةٍ حاصلٌ بقهر الله تَعالى لها وتذليلِه إيّاها، ومعنى تَذْليلِ الأَنْعام هو تسهيلُ ترويضِها وانقيادِها لاستعمالِها والانتفاع مِنْهُ، بمعنى أَنَّه تعالى جعلَ مهانتَها لِلإنْسانِ في جِبِلَّتِها بِحَيْثُ لا تُقْدِمُ عَلى مُدافَعَةِ ما يُريدُ مِنْها، فمع أنَّه يدفع بعضُها بعضًا عن نفسِه، وتدافع عن نفسِها بقوَّة من أمثالِها لكنَّ الله تعالى ذلَّلها للإنسان، فإذا زجرَها، أَو أَمَرَها؛ ذَلَّتْ لَهُ، وانقادت مَعَ كَراهيَّتِها ما يُريدُهُ مِنْها، حَتّى يَقودَ الصَّبيُّ الجَمَلَ العَظيمَ، ويَضْرِبَهُ، ويَصْرِفَهُ كَيْفَ شاءَ لا يَخْرُجُ مِنْ طاعَتِه، فلا تستعصي على الإنسان ما يُريدُهُ من سَيرٍ أَو حَملٍ أَو حَلبٍ، أَو أَخذِ نَسلٍ أَو ذَبحٍ، فيكون تسخيرها وانقيادها منَّةً عظيمةً أخرى تضاف إلى منَّة تمليكها لهم وتمكينِهم من التَّصرُّف بها، وإلّا فمَن كان يقدر عليها لولا تذليلُهُ تعالى وتسخيره إيّاها لهم، ولولا ذلك؛ لما أطاقوها لِقواها وعظم أجسامِها، ولهذا ألزم اللهُ سبحانه الرّاكب أن يَشْكُر هذه النِّعمة، ويُسَبِّح بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزخرف: 13][2]، فيكون العطف في قوله: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ﴾ على معنى التَّأسيس لنعمةٍ على حيالِها، وليس على معنى التَّأكيد والتَّقرير[3]، والتَّأسيس في مقامِ تكثيرِ النِّعَمِ الموجب إلى المبادرةِ إلى الشُّكر أبلغُ في المعنى.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذلَّ).

(2) النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 379، والزمخشري، الكشاف: 4/ 28.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 69.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾؛ ليكونَ على وزانِ ﴿خَلَقْنَا﴾، وليُفيدَ أنَّ تذليلَها للأنام مقترنٌ بخلقِها، فهو من طبعِها وخِلقَتِها، فيكون تذليلُها وصفًا ملازمًا لها، فيفيد التَّعبير بالماضي معنى الثُّبوتِ، فإنَّه وإن دلَّ على الوقوعِ في الماضي، ولكن لا دلالةَ له على الانقطاعِ؛ لأنَّ تذليلَها للإنسانِ صار بِطَبْعِها.

تذليلُ الأنعامِ للأنامِ مقترنٌ بخلقِها؛ إذ هو مِن طبعِها وجبلَّتِها

دِلالةُ صيغة (فعَّل):

عُبِّرَ بصيغةِ (فعّل)، وهي دالَّةٌ على التَّكثير في قوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾؛ لإرادةِ المبالغةِ في إثباتِ تذليل الله تعالى للأنعام وتسخيرِها وانقيادِها للإنسانِ، كما أنَّ في الصّيغة تكثيرًا للمنَّة وتفخيمًا وتعظيمًا لها.

تَكْثيرُ منَّةِ الله تعالى وتَفْخيمُها

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾ دون المصدر:

عُدِلَ عن أن يقالَ: (وإذلالُها لهم)، إلى قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾؛ لأنَّه لو قيل: (إذلالها)؛ لأفادَ أنَّ الأنعام لا تنقادُ بطبعِها، وأنَّها ذُلِّلَتْ على غير إرادتِها، وهو خلافُ المقصودِ؛ لأنَّه تعالى هو الذي خلقَها مذلَّلةً بطبعِها منقادةً مسخَّرةً للإنسان، فلا يكون منها إلّا الانقياد.

الأنعامُ لا يكون منها إلّا الانقياد

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ تدلُّ على الاختصاصِ المقرونِ بمعنى النَّفع، أي: إنَّ تذليلَها مختصٌّ بالنّاس، ولذا لا نرى فيها تسخيرًا وانقيادًا فيما بينها أو مع سائرِ الحيوان، وهذا مِن لطائف بلاغة القرآن.

تذليلُ الأنعامِ مختصٌّ بالإنسان

دلالةُ الضَّمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

يعود الضَّمير (هُمْ) في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾ إلى ما عاد إليه الضَّمير في قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، بما اتَّصف به من كونِهم مالكين للأنعام،

تَذليلُ الأنعامِ نعمةٌ مستقلَّة عن تصرُّفِهم فيها

أي: ذلَّلنا الأنعام للَّذين مَلكوها، فتكون إعادةُ الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمۡ﴾ إلى ما قبلَهُ بما اتَّصف به تقريرًا لكونِ التَّذليل نعمةً عظيمةً أخرى تُضاف إلى نِعمةِ تصرُّفِهم في الأنعام.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَمِنۡهَا﴾:

من صورِ تذليلِ الأنعام ركوبُها وأكلُ لحمِها والانتفاعُ منها

الفاءُ في قوله: ﴿فَمِنۡهَا﴾ للتَّفريع على تذليلِ اللّه تعالى الأنعام للنّاس، ففيها تفصيلُ الإجمال في قوله: ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا﴾، ولتفريع أحكام التَّذليلِ عليهِ وتفصيلها، والمعنى: فبعضٌ منها للرُّكوب، وبعضٌ منها يأكلون لحمَهُ، ففي التَّفريع والتَّفصيل بيانٌ لمنفعة التَّذليل؛ إذ لولا التَّذليلُ لَما وُجدت واحدةٌ مِنَ المَنْفَعتين، ولَكانت منفعةُ الأكلِ قليلةَ الوجود[1].

دلالةُ (مِنْ) بين التَّبعيض والابتداء:

الأكــلُ مِن جميعِ الأنعام، والرُّكوب للإبلِ خاصَّة

(مِنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ - في موضِعَيْها - يجوزُ أن تكونَ للتَّبعيض، بمعنى: أنَّ بعضَها مركوبٌ لهم، وبعضَها يأكلونَ من لَحمِهِ، ويحتمل أن تكونَ (مِنْ) ابتدائيَّة[2]، والمعنى: أنَّ منشأَ الرُّكوب والأكل حاصلٌ منها، فمنها يبتدئُ، ويكونُ.

والظّاهر أن تكونَ الأولى للتَّبعيض والأخرى للابتداءِ، وهو المناسبُ للمعنى والسّياق، والمعنى: أنَّ بعضَها مركوبٌ لهم؛ لأنَّ الإبلَ مِنَ الأنعام هي التي تُركَبُ، ومنشأ أَكْلِهم منها كلِّها؛ لأنَّ جميعَ الأنعام ممّا يُؤكَلُ لحمُهُ، وليس فيها شيءٌ مستثنًى من هذا الأصلِ، فيكون المرادُ مِنَ المركوبِ أفرادَ الأنعام الَّتي من شأنِها أن تُركَبَ، وهي الإبلُ، والمرادُ مِن المأكول أجزاءُ تلك الأنعام كلِّها؛ لأنَّ جميعَ أجزائِها تُؤكَل، فناسبَ أن تكونَ الأولى للتَّبعيض والأخرى للابتداءِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 306.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 190.

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخير:

تنوُّعُ الإنعامِ بالأنعامِ

قُدِّمَ المسندُ على المسندِ إليهِ في قولِه: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، وذلك لتوجيهِ المخاطَبين إلى تنوُّعِ الإنْعام بالأَنْعام، فبعضُها مركوبٌ، وبعضُها مأكولٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة (فعول) في: ﴿رَكُوبُهُمۡ﴾:

تذكيرُ النّاسِ بنعمةِ المركوبِ العامِّ نفعُه الكثيرِ استعمالُه

لمّا كان ﴿رَكُوبُهُمۡ﴾ مصدرًا بمعنى: مركوب، كان على معنى اسم المفعول، فهو فَعولٌ بمعنى مفعول، مثل (حَلوب) بمعنى (مَحلوب)، ونكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المصدرِ المبالغةُ في ظهورِ نعمةِ تذليلِها بالرُّكوب، وللإشْعار بنعمة الحمل عليها عندَ الرُّكوب.

والمرادُ بالمركوب مِنَ الأنعامِ الإبلُ؛ لأنَّها أعظمُ مركوباتِهم؛ لعموم منافعها ولكثرتها[1].

سببُ إعادةِ الجارِّ والمجرور:

تكثيرُ المنَّةِ في خلقِ الأنعامِ

أُعيدَ الجارُّ والمجرورُ في قوله: (مِنها)؛ للإشعار باستقلال كلٍّ من النِّعمتين بنفسه[2]، فنعمةُ الرُّكوب غيرُ نعمة الأكل منها، وفي إعادة الجارِّ أيضًا تكثيرٌ للمنَّة الَّتي تستحقُّ دوام الشُّكر.

ثُمَّ إنَّه لمّا كانت دلالةُ (مِنْ) الأولى غيرَ دلالةِ (مِنْ) الأخرى؛ إذ الأولى للتَّبعيض، والأخرى للابتداء؛ ناسب ذلك إعادةَ الجارِّ؛ لئلّا يُعطفَ مع تغايُرِ المعاني من غير قرينَةٍ دالَّةٍ.

سببُ العدولِ عن التَّعبير بالاسم إلى الفعل:

براعةُ النَّظمِ القرآنيِّ في التَّصرُّف بالألفاظِ

لمّا قال تعالى: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾؛ كان الظّاهر أن يكونَ قَسيمُه على وِزانِه في التَّعبير بالاسْم، فيرِد في النَّظم القرآنيِّ: (ومنها أَكْلُهم)، لكنْ عُدِلَ عن هذا إلى قوله: ﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارعِ؛ لأنَّ الأكلَ عامٌّ في الأنعامِ جميعِها، والأكل منها كثيرٌ سهلٌ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 173.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 173.

مستمرٌّ متجدِّدٌ حالًا فحالًا في جميع الأوقاتِ والأزمانِ، فيتناول الأكل من ذاتِ لحومها، والأكل من أثمانِها وأثمانِ ألبانِها وغيرها؛ إذا باعوها، بخلاف الرُّكوب، فإنَّ صلاحَهُ لذلك ثابتٌ دائمٌ، كما أنَّ في تنويعِ الأسلوبِ رعايةً للفاصلة ومناسبةً لرؤوس الآي[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 173، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 50، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 387.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـــوارُدُ الـنِّـعَـم مـوجِـبٌ المـبـادرة إلى شكرِ المنعِم

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى عظمةَ نفع الرُّكوب والأكل من الأنعام، وكانت منافعُها من غيرِ ذلك كثيرة؛ ذكر غيرَها مِنَ الفوائد العظيمة العامَّة، فقال: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾، فأعقبه بذكرِ أنواع ما جَعل لهم مِنَ الأنعام، وأنعمَ عليهم؛ ليتأدَّى بذلك المبادرة إلى شُكرِه تعالى[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَٰفِعُ﴾: (نفع) أَصلُ النَّفعِ: الخَيرُ، وضدُّه: الضَّرُّ، يُقالُ: نَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفْعًا، أي: قَدَّمَ له خيرًا[2]، والنَّفع: ما يُستَعانُ بهِ في الوُصولِ للخَيرِ[3]، أو هو: ما يَتَوصَّل به الإنسانُ إلى مَطلوبِه مِن جَلب مَصلَحَةٍ أو دَفعِ مَضَرَّةٍ، والانتِفاعُ: الاستِفادَةُ[4]، والنّافِعُ: المُفيدُ، وكُلُّ ما يُستَفادُ مِنَ الشَّيءِ، فهو مَنفَعَةٌ، والمَنافِعُ: جمعُ مَنفعةٍ، على وزنِ مَفعَلَةٍ، فيَحتملُ أن يكونَ مصدرًا ميميًّا قُصِدَ منه قوَّةُ النَّفعِ، أو أن يكونَ اسمَ مكانٍ دالًّا على كثرةِ ما فيهِ من النَّفع، ولفظ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في الآية معناهُ: حُصولُ ما يُلائمُ ممّا يُستعان به في الخير[5].

2) ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾: (شرب) تدلُّ تصريفاتُه على تناول كلِّ مائع، ماءً كان أو غيرَه[6]، تقولُ: شَرِبْتُ الماءَ أَشْرَبُهُ شرْبًا، وهو المَصْدَرُ، والشَّرابُ: اسمٌ لما يُشرَبُ، وجمعُه: أَشْرِبَةٌ[7]، والمَشْرَب: الوجهُ الذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 306، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 173.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(3) الراغب، المفردات: (نفع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 344، و17/ 257.
(6) الراغب، المفردات: (شرب).
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (شرب).

يُشرَب منه، ويكون مَوْضِعًا ومصدرًا، والمَشْرَبُ أيضًا: الشُّرْبُ نفسُهُ[1]، والمقصودُ بالمَشارِب في الآية: جمعُ مَشْرَب، وهو مصدرٌ ميميٌّ بمعنى: الشُّرْبِ، أُريدَ به المفعولُ، أي: مَشروباتٌ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

تعدُّد منافع الأنعام وكثرتُها

ولهم فيها منافعُ كثيرة، فيَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا مِن أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ويَنتَفِعونَ بنَسْلِها، والحَملِ عليها والحِراثةِ بها، والتَّغذّي منها والتَّزيُّنِ بها، وبَيْعِها، وغيرِ ذلك مِن المنافِعِ، ولهم فيها أيضًا مَشارِبُ، فيَشرَبونَ مِن أنواعِ ألبانِها[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في الآية:

ذِكْرُ المِنَنِ المفرَّعة على خلق الأنعام

عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ على قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، فتكون جملةُ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ داخلةً في حيِّزِ الاستفهامِ التَّقريريِّ أو الإنكاريِّ كذلك، فيكون المذكورُ ثلاثَ مِنَنٍ مفرَّعة على خلق الأنعام.

وعُطِفَتِ الجملتان؛ لِما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الخبريَّةِ - بالنَّظر إلى ما بعد الاستفهام - ولِما بينهما من المناسبةِ، وحسَّن الوصلَ اشتراكُهما في الاسميَّةِ.

دلالةُ تَكْرِيرِ (لَهُم):

التَّنويهُ بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم

كُرِّرَ الجارُّ والمجرورُ (لَهُم) في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾؛ إذ قد تقدَّم في قوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾؛ وذلك لتذكيرِ الأنامِ بهذه المنِنِ، وللتَّنويه بما تفضَّل اللّه تعالى عليهم، وللإشعارِ بأنَّ كلَّ نعمةٍ منها تقتضي الشُّكرَ على وجهِ الاستقلالِ.

(1) الخليل، العين: (شرب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 69.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 56، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 592، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 699.

شكرُ المنعم واجبٌ على النّاس جميعًا

دلالةُ الضَّميرِ في (لَهُم):

لمّا كان الانتفاعُ بخلقِ الأنعام في ركوبِها والأكل منها غيرَ مختصٍّ بقوم دون قوم؛ كان الضَّميرُ في (لَهُم) على معنى العموم لجميع الأنام، ويدخل فيه الكافرون دخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم في معرِض التَّقرير والتَّوبيخ أو الإنكار والتَّوبيخ.

تفصيلُ النِّعم الكامنَةِ في خَلْقِ الأنعامِ

دلالةُ (في) في قوله: ﴿فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾؛ لقصدِ المبالغة في التَّفضُّل بنعمة خَلْقِ الأنعام، فكأنَّ الأنعام صارت ظرفًا محيطة بالمنافع والمشارب، مبالغةً في تفصيلِ نِعْمَةِ خلقِ الأنعام.

فوائدُ الأنعامِ بين المُتْعةِ والمَنْفَعة

دلالةُ الضَّمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

لمّا كان الضَّميرُ في قوله: ﴿فِيهَا﴾ راجعًا إلى الأنعام بما اتَّصفت به من كونِها تُركَبُ، ويؤكَلُ منها؛ أفاد أنَّ المعنى: ولكم في الأنعام الَّتي هي مَرْكوبُكم، ومنها تأكلون، منافعُ ومشاربُ، أي: إنَّ المنافعَ والمشاربَ نِعَمٌ أخرى سوى نعمة المركوبِ والمأكول منها.

منافعُ الأنعامِ متكاثرةٌ متنوِّعة

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

لمّا كان النَّفعُ صادقًا على كلِّ ما يُستعان به في الوصولِ إلى الخير والفائدة - وكلُّ ما يتوصَّل به إلى الخير فهو خيرٌ - كان النَّفع بمعنى الخيرِ، وضدُّه: الضُّرُّ، فجاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ للإشعار بفائدتِها، وأنَّ الخيرَ كامنٌ فيها، أي: فيما يُنالُ، أو فيما يعود منها، ولمّا عُطِفتِ المنافع والمشارب على نعمة الرُّكوب والأكل منها؛ دخلَ في المنافعِ الحرثُ والسَّقيُ بالثّيران، والانتفاعُ بالجلود والأصواف والأوبار، والزَّبد والجبن وغيرها، كما أنَّ أثمانَها تُشترى بها مطالبُ الحياةِ المتنوِّعةُ، وتُقدَّمُ مهورًا ودياتٍ كذلك.

أَهَمّيَّةُ المشارِبِ عندَ العرَبِ

نكتةُ عطفِ المشارب على المنافع:

عُطِفتِ ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾ على ﴿مَنَٰفِعُ﴾ مع أنَّ المشاربَ داخلةٌ في جملةِ المنافع؛ ليكون ذلك إطنابًا بعطف الخاصِّ على العام؛ تنبيهًا على شرفِ ذلك الفرد الخاصِّ؛ لذكرِهِ مرَّتين، إحداهما: كان مندرجًا تحت لفظ العموم، والأُخرى: على سبيل الانفرادِ والاستقلالِ، وذلك لما للمشاربِ من أهمّيَّةٍ واعتناءٍ عِنْدَ العرب.

فائدةُ جمعِ ﴿مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ بصيغة منتهى الجموع:

مِن نِعَمِ الله تعالى على العباد تنوُّعُ مشارِبِ الأنعامِ وتغايرُ طُعومِها وفوائدِها

جُمِعَ لفظُ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ بصيغة منتهى الجموع؛ لإرادةِ المبالغة فيما يُنتفَعُ بِهِ من الأنعام غير الرُّكوب والأكل، أي: إنَّها منافِعُ متتاليَةٌ لا تنقطِعُ، وجُمِعَ لفظ ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾ باعتبار أصنافِهِ وأنواعِهِ؛ إذ هي متعدِّدة، فما يُشْرَبُ مِنَ الغنَم يُغايِر ما يُشْرَبُ مِنَ البقرِ، وهكذا سائر الأنعامِ.

دلالةُ صيغة ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾:

عظمةُ قدرةِ الله تَعالى في جعل اللَّبن متنوِّعًا

لفظ ﴿وَمَشَارِبُۚ﴾ جمعٌ، مفرده: مشرَبٌ، وهو إمّا أن يكونَ مصدرًا ميميًّا بمعنى اسم المفعولِ؛ لقصد المبالغةِ في المعنى، أي: ولكم فيها المشروباتُ من ألبانِها، وإمّا أن يكونَ اسمَ مكانٍ لموضع الحَلْبِ، فيكون مجازًا مرسلًا بعلاقة المحلّيَّة؛ إذ ذُكِرَ المحلُّ، وأُريدَ الحالُّ[1]؛ تنبيهًا على عظمة العبرةِ في خلق الأنعام الدالَّة على توحيد اللّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النّحل: 66]، ففيه تنبيهٌ وعظةٌ إلى أنَّ هذا الموضعَ خرَجَ منه اللَّبن من بين فرثٍ ودمٍ خالصًا سائغًا للشّاربين، وتفيد صيغةُ الجمعِ أنَّ أصنافَ لبن الأنعامِ متعدِّدة.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور (لَهُم) و﴿فِيهَا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 28، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 833، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 69.

التَّشويقُ إلى ذِكْرِ المَنافِع والمشارب

﴿فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾؛ لتقرير تخصيصِ الأنام - ومنهم الكافرون - بهذه النِّعمة الجسيمة، كما أنَّهُ لمّا تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المسند إليه؛ كان فيه زيادةُ استحضارٍ للأنعام عند المخاطَبين قبل سماع متعلِّقه، ليقعَ تقديم ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا﴾ أمكنَ وقعٍ بالتَّقديم تشويقًا إلى ذكر المنافع والمشارب لعظمة هاتين النِّعمتين(1).

فائدةُ تنكيرِ ﴿مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾:

كلُّ نوعٍ مِنَ الأنعام مشتَمِل على المنافع والمشارب

جاء اللَّفظان ﴿مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ نَكِرَتَين؛ لتفخيم المنافع والمشارب، وللإشعار بأنَّ كلَّ نوعٍ مِنَ الأنعام يأتي منه المنافع والمشارب، فلا يُقصَد من الأنعام فردٌ معيَّن في الإفادة من منفعته ومشربِهِ(2)، كما أفادَ مجيءُ الاسمين مُنكَّرين المبالغةَ والكثرة في المنافعِ والمشاربِ لوقوعهما في سياق الامتنانِ.

بلاغةُ الاستفهام المجازيِّ:

الاستفهامُ المجازيُّ يتضمَّنُ الأمرَ بشُكرِ المُنعِم

جاء قوله: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ على طريق الاستفهام المجازيِّ، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ، فتكون الفاءُ للتَّفريع على التَّذكير والامتنان عليهم؛ ليفيد الاستفهامُ الإنكارَ على عدم شكرِهم لهذه النِّعم العظيمة، ويتولَّد من الإنكارِ التَّعجيبُ(3) من حالِهم في عدم الشُّكر مع توارد النِّعم الجسيمة عليهم وانتفاعِهم بها، ويَحتَمِل أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا؛ ليفيدَ تقريرَ عدم شكرِهم، مع توالي النِّعم وتنوُّعها، ويتولَّد من التَّقرير توبيخُهم على عدم شكرِهم هذه النِّعمَ العظيمة بتوحيدِ اللّٰه تعالى والإخلاص له في العبادة(4)، فالفاء عاطفةٌ لمقدَّر من السّياق، وتقديرُ الكلام: أَيُشاهدون هذه النِّعَمَ، أو أيتنَعَّمون بها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 69.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 69.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 191.

فلا يشكرونَ المنعمَ بها[1]؟ وعلى الوجهين: فإنَّ الاستفهام المجازيَّ يشتَمِلُ على الأمر بالشُّكر، والمعنى: اشكروا المُنعِم[2].

نكتةُ مجيءِ قوله: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ بعد ذكر النِّعَم:

في شكرِ المنعم استدامةٌ لأنواعِ النِّعمة واستزادةٌ مِنْها

لمّا جاء الاستفهامُ المفيد الإنكارَ على عدم شكرِهم أو تقريرَ عدم شكرِهم - على الخلاف في توجيه الاستفهام - بعد ذِكْرِ نعمة خلق الأنعام؛ أفاد ذلك حثَّهم على شُكْرِ المُنْعِم، ويدخُلُ فيه الأمرُ به؛ لتوبيخِهم على عدم الشُّكر، كما أفاد أنَّ في شُكْرِ المنعم استدامةً لأنواع النِّعمة من هذه الأنعام واستزادةً مِنْها؛ إذِ الشُّكْر قيدٌ للنِّعَم الموجودةِ، وصيدٌ للنِّعم المفقودَةِ.

نكتةُ التَّعبير بالفعْلِ المُضارع:

أصلُ شكرِ الله المنعِم على العباد يكون بتوحيده واتِّباعِ أوامره

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ المفيد التَّجدُّد والاستمرار؛ للإيذانِ بوجوب تكرارِ شكرِهم اللّهَ تعالى على هذه النِّعَمِ المتنوِّعة المتتالية المتعاقبة على مرِّ الأزمان، فإذا كانوا يُشْرِكون باللّه تعالى، ولا يُخْلِصون لَهُ في عبادتِه؛ كان أصل الشُّكرِ مفقودًا، فكيف بتكريرِهِ وتجدُّدِه؟ ففيه تعجيبٌ من عدم شكرِهم فضلًا عن وجوب تكرُّره واستمرارِه، فمَجيء الفعل بصيغة المضارعِ أفادَ توبيخًا للمشركين على توبيخٍ، وتعجيبًا من حالِهم على تعجيبٍ.

فائدةُ حذفِ المفعول:

الواجبُ في شكرِ المنعِم أن يكونَ وصفًا لازمًا للإنسانِ

حُذِفَ مفعول ﴿يَشۡكُرُونَ﴾؛ لتنزيلِ الفعل منزلةَ اللّازم، بمعنى أمرهم أن يكونَ شكرُ اللّه تَعالى على نعمِهِ وصفًا لازمًا لهم، وأصلُ الكلام: أفلا يشكرون اللّهَ تعالى المنعمَ عليهم بها، فيؤمنوا[3]؛ "إذ لولا خلقُهُ لها وتذليله إيّاها؛ كيف أمكن التَّوسُّل إلى تحصيل هذه المنافع المهمَّة"[4].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179.

(2) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2373، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 174.

(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 364.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤﴾ [يس: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّعجيبُ من أمر المشركين بالله تعالى مع تفرُّده بالخلق والإنعام

لمّا أخبر اللّهُ تعالى عن قدرتِه العظيمةِ ونعمه الظّاهرةِ المُتوالية، وعلموا أنَّه المتفرِّدُ بها المستحقُّ وحده للعبادة، ولمّا قال: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾؛ إنكارًا لهم على عدَمِ شُكرِهم وتوبيخًا وتعجيبًا من حالِهم مع توالي النِّعَمِ؛ أَعقبه بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم كفروا بالنِّعَمِ كلِّها بدلَ شكرِها، مع علمِهم بأنَّه تعالى هو المتفرِّد بالنِّعَمِ الخالقُ لها(1).

ومن أوجهِ التَّناسُبِ بين الآيتين: أنَّ اللّه تعالى لمّا أخبرَ عن عموم نعمِه وعظمِها على الأنام - ومنهم الكافرون المجرمون - بيَّن أنَّ الكافرين خالفوا حقَّ نِعَمِ اللّهِ تعالى المتواليةِ جهلًا وعنادًا، فبدلًا مِن شكر منعمِها بتوحيدِ اللّه تعالى والإخلاص في عبادتِه، راحوا يتَّخذون من الآلهة مِن دونِه، فقال سُبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

ومن أوجهِ التَّناسُبِ أيضًا: أنَّ اللّه ﷻ لمّا ذمَّهم، ووبَّخهم، وقرَّعهم في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ لِعَدَمِ تعظيمهم المنعِمَ لِما أنعمَ عليهم؛ أعقبه بذمِّهم وتقريعِهم بما هو أَبلغُ منهُ(2)، وهو الإخبار عنِ اتِّخاذهم من دونِ اللّه تعالى آلهةً، ليكونَ الكلامُ على جهة التَّرقّي في ذمِّهم، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 273، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 439، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 70.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 191.

المَعنى الإجْماليُّ:

مع كُلِّ هذه الآياتِ والنِّعَمِ الإلهيَّة، اتَّخذ هؤلاء المشركونَ مِن دون اللّهِ تعالى آلهةً يعبدونها؛ طمعًا في نُصْرَتِهم، ودفع العذاب عنهم، وتقريبهم إلى اللّهِ زُلْفى[1].

المشركونَ يَتعلَّقون بالأباطيل لتسويغِ شِركِهم

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في الآية:

جاء قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ معطوفًا بالواو على قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾[2]، ومناسبة الوصلِ بينهما اشتراكُ مضمونِ الجملتين في ذمِّهم على اتِّخاذِهم آلهةً من دون اللّه تعالى المنعِم والمنفرِد بالخلق، مع ظهور أدلَّة الوحدانيَّة بقدرتِه تعالى الباهرة ونعمه المتظاهرة، ففي الجملتين بيانُ زيادةِ ضلالتِهم ونهايتِها، فبدلًا من أن يعبدوا اللّه تَعالى شكرًا لأنعمِه؛ أقبلوا على عبادةِ آلهةٍ مِن دون اللّه سُبحانه لا تضرُّ، ولا تنفعُ، فوضعوا الشِّركَ مكانَ الشُّكرِ، فلا أظلمَ، ولا أقبحَ منهم[3].

لا أظلمَ ولا أقبحَ من وضع الشِّرك مكانَ الشُّكرِ

ولا إشكالَ - على هذا - في عطف الخبر على الإنشاءِ، فإنَّ الجمهورَ وإن منَعوا ذلك، إلّا أنَّ الصَّحيحَ جوازُهُ، والقرآنُ الكريم طافحٌ به[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الاتِّخاذ:

لمّا كان الاتِّخاذُ بمعنى تحصيل الشَّيءِ بقوَّة؛ حرصًا عليه على جهة التَّمكُّن منه؛ أفاد قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أنَّهم حَرَصوا على اتِّخاذ آلهةٍ من دون اللّه تعالى، وتمسَّكوا بها رغبةً فيها، وطمعًا في أنْ يَتقوَّوا بها.

اتِّخاذُ الشَّيء هو التَّمسُّك به بقوَّةٍ وتمكُّنٍ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 593، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 34، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 699.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 70.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 306.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الافْتعالِ:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الافتعالِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾؛ للإشعار بأنَّهم اجتهدوا في هذا الاتِّخاذ، وكلَّفوا أنفسَهم على جهة المبالغة في الأمر؛ حرصًا منهم على عبادة آلهةٍ من دون الله تعالى، ففي التَّعبير بهذه الصّيغة تقريرٌ لذمِّهم وتوبيخِهم على حرصِهم على آلهتِهم التي لا تضرُّ، ولا تنفعُ، واجتهادِهم في عبادتِها لعلَّها تنصرُهُم!

الـحـرصُ على التَّمسُّكِ بأمرٍ ما لا يـدلُّ على أحقيَّتِه

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ بمعنى: غير، والمعنى: واتَّخذوا من غير الله آلهةً[1]، ونكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿مِن دُونِ﴾ الدّالِّ على القُربِ في المكان أو المنزلة: الإشعارُ بأنَّهم اتَّخذوا الآلهةَ على سبيل اختصاصِهم بها؛ لأنَّهم جعلوا الآلهةَ أقربَ إليهم منزلةً من الله تعالى، من حيثُ إنَّ الأقربَ إلى الشَّيء يحوزه أوَّلًا قبلَ غيره، كما أنَّ في التَّعبير بلفظ ﴿دُونِ﴾ إيماءً إلى حقارة آلهتِهم وخسَّتها، فهي من دون الله تعالى.

ودخل حرفُ الابتداء ﴿مِن﴾؛ لإفادةِ أمرين، أحدهما: حرصهم على أن يتَّخذوا من أوَّل الأمر آلهةً من دونِ الله، والآخر: أنَّ كلَّ شيءٍ دونَه تعالى، وما كان دونه؛ كان مقهورًا مربوبًا[2].

كـلُّ شيءٍ دونَ الله تعالى، وما كـان دونـه كـان مقهورًا مربوبًا

بلاغةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمر:

في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ وضعُ الظّاهر موضعَ المضمر؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يَردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (واتَّخذوا من دوننا)؛ ليكون الكلامُ على نسق ما تقدَّم في قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾، ﴿أَيْدِينَآ﴾، ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾ من الإخبارِ بضمير العظمةِ، ولكن عُدِلَ عن الإضمار إلى الإظهار بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لِما يُشعر به الاسم

اتِّخاذُ الآلهةِ من دون الله يومئُ إلى قـولِ الكفرِ والتَّصريح به

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 364.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 174.

الجليل من عظمة الألوهيَّةِ؛ إيماءً إلى أَنَّ اتِّخاذَهُم آلِهةً مِن دونِهِ جَراءَةٌ عظيمَةٌ؛ ليَكونَ ذلكَ توطِئَةً لِقولِهِ بَعدُ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، أَي: فَإِنَّهُم قالوا ما هوَ أَشَدُّ نُكرًا؛ لأَنَّ اتِّخاذَ الآلهة من دون الله يومئُ إلى قولِ الكفرِ والتَّصريح به[1]، كما أنَّه لمّا كان الكلامُ على طريق الأبلغيَّة في الذَّمِّ؛ اقتضى التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ الجامع لصفاتِ الجلالِ والكمال، ففيه تعجيبٌ من جرأتِهم، وتذكيرٌ بانفرادِه بالألوهيَّةِ ﷻ بعد تذكيرهم بقدرته الباهرة ونعمه الجليلة، أي: فإنَّ القادرَ المنعِمَ هو الله تعالى الذي اتَّخذتم من دونِهِ آلهةً.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظي:

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسم الظّاهر أو المضمر لسباقِ الكلام ولحاقِهِ

قال الله تعالى في سورة يس: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، وقال سُبحانَهُ في سورة الفرقان: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: 3]، فأُظهِرَ اسمُ الله تعالى في سورة يس، وأُضمِرَ في سورةِ الفرقانِ، حيث قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]؛ وذلك لأنَّ آيةَ الفرقان تقدَّم قبلَها اسمُهُ سُبْحانه مكنيًّا عنه بصيغة ضمير الغائبِ، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: 1 - 2]، فناسبَهُ أن يرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، فجرى التَّعبيرُ بصيغة المضمرِ على حُكْمِ ما تقدَّم، فناسب الإضمارُ للغائبِ لتَناسب الضَّمائر، ولو ورد مظهرًا؛ لَم يكن ليُناسِبَ، كما أنَّه تَقَدَّمَ ذِكْرُ انْفرادِهِ بالألوهيَّة صَريحًا في قولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: 2]، ولم يكنِ الأمر كذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 70.

في الآيتين مِنْ سورة يس؛ لأنَّ الذِّكرَ المتقدِّم إنَّما على لفظ المخبرِ عن نفسِهِ، أي: بصيغة التَّكلُّم بنون العظمة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، ثمَّ قال سُبحانَهُ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: اتَّخذوا من دون اللّه - الذي يستحقُّ وحدَهُ العبادة - أصنامًا يعبدونها، فأظهر اسمه تعالى؛ إذ كان لَم يتقدَّم ظاهرًا ليقع الإضمارُ بعده، والضَّمير الذي تقدَّم هو نونُ العظمة، وهو ضميرُ تكلُّم لا ضمير غائب، كما أنَّه لم يتقدَّم ذِكرُ انفرادِهِ بالألوهيَّة صريحًا، وليدلَّ على جُرأتِهم في إشراكِهم باللّه تعالى ما لا يستحقُّ الألوهيَّة، فقابلوا الحقَّ بباطلهم، فلم يكن ورودُ اسم اللّه تعالى هنا مضمرًا ليناسب السّياقَ لو قيل: (واتخذوا من دونه آلهةً)، فجاءت كلٌّ مِن الآيتين على ما يَجِبُ، ويُناسب[1].

دلالةُ حرفِ التَّرجّي:

من جهل الكافرين رجاؤُهم مَن لا يستطيع نصرَهم ولا نفعَهم

يفيد حرفُ التَّرجّي (لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاء المخبَر عنهم في أن يُنصَروا، أي: رجاء الذين يتَّخذون من دونِ اللّه آلهةً وطمعُهم في أن تنصرَهم هذه الآلهة.

وجاء التَّعبيرُ بـ(لَعَلَّ)؛ إشعارًا بتمسُّك الكافرين بآلهتِهم واعتقادِهم فيها قدرتَها على نصرِهم، وأنَّ الأمر ممكنُ الوقوع؛ إذ التَّرجّي لا يكون إلّا في الممكن[2]، وفي هذا تقبيحٌ لهم، ولِما يعتقدونَه.

وذهب ابنُ عاشور إلى جواز أَنْ تَكونَ (لَعَلَّ) استعارةً تمثيليَّةً مكنيَّة؛ بِأَنْ شُبِّهَ شَأنُ اللّهِ تعالى فيما أَخبَرَ عنهُمْ في قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ

(1) الإسكافي، درّة التنزيل، ص: 1087، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 374، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 70.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، تح: مازن المبارك، ص: 379.

﴿يُنصَرُونَ﴾ بِحالِ مَن يَرجو مِنَ المُخبَرِ عنهُم أَن يحصُلَ لَهُم خَبَرُ (لَعَلَّ)، وهو أن تنصرَهم آلهتهم، وذِكرُ حَرفِ (لَعَلَّ) رمزٌ لرديفِ المُشبَّه بِهِ، فَتَكونُ جملةُ: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ مُعتَرِضَةً بَينَ ﴿ءَالِهَةً﴾ وبَيْنَ صفَتِهِ، وهيَ جُملَةُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أو أن يكون التَّعبير بـ (لَعَلَّ) على معنى الاستفهام على مذهب الكوفيّين، ويكون الاستفهام على معنى الإنكارِ أو التَّهكُّم، وجملة: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ حينئذٍ معترضة كذلك[1].

دلالةُ قوله: ﴿يُنصَرُونَ﴾:

النَّصرُ شاملٌ جلبَ النَّفع ودفعَ الضُّرِّ

لمّا كان النَّصرُ بمعنى المعونةِ التي تشمل النَّفعَ والمنع من الأذى والتقوّي[2]؛ جاءَ التَّعبيرُ بالنَّصر في قوله: ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم كانوا يرجون معونتَهم في أن تنفعَهم آلهتهم وتمنعهم من وقوع الضُّرِّ عليهم، وتقوّيهم في أمورِهم؛ إذا حزبَهم أمرٌ ما.

فائدةُ حذف متعلّق ﴿يُنصَرُونَ﴾:

من جهل الكافرين شدَّةُ تمسُّكهم بآلهتِهم ورجائِهم نصرَتَها

لمّا كان النَّصرُ بمعنى النَّفعِ ودفعِ الضُّرِّ، وكان ظرفُ الزَّمان المتعلِّق بالفعل ﴿يُنصَرُونَ﴾ محذوفًا؛ أفاد أنَّهم كانوا يرجون عموم النَّفع ودفع الضُّرِّ عنهم بعبادتِهم آلهةً من دون اللّهِ؛ إذا حزبَهم أمرٌ في كلِّ وقتٍ، فيرجون نصرَهم لهم في الدُّنيا، والمعنى: لعلَّهم ينصرونهم في الدُّنيا فيما يرجون من دفع البلايا والشَّدائد، كما يرجون نصرَهم في الآخرة - وإنْ كانوا مكذِّبين بالحشرِ - كأنَّهم قالوا: إن كان هناك رجوعٌ في الآخرة، فنرجو أن تنصرَنا آلهتُنا؛ ليفيد ذلك شدَّة تمسُّكهم بآلهتِهم واعتقادِهم أَنَّها تنصرهم في جميع الأزمان.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 71.
(2) الراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي (نصر).

نكتةُ التَّعبير بصيغة الفعلِ المبنيّ للمفعولِ:

رجاءُ الكُفّارِ النَّصرَ بصَرْفِ النَّظرعن النّاصِر

جاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المبني للمفعول في قوله: ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم يرجون نصرَهم من أيِّ ناصرٍ كان[1]، وأَنَّهم إن نُصروا في الدُّنيا، سَيَنْسِبون نصرَهم إلى آلهتِهم الَّتي لا تستطيعُ نصرَهم أصلًا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 175.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥﴾ [يس: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ خيبةِ أملِ الكافرين

لمّا أخبر اللّه تعالى عن رجاء المشركين أن تَنْصُرَهُم آلهتُهم؛ أخبر عن خَيْبةِ رجائِهم في أنَّ هذه الآلهةَ لا تستطيع نصرَهم، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

ومن أوجهِ المناسبَةِ بين الآيتين: أنَّهُ لمّا كان للنَّصرِ سببان: ظاهريٌّ، وهو اجتماعُ العدد والعدَّة، وأصليٌّ باطنيٌّ، وهو الإله المجتمَع عليه؛ بيَّن غلطهم بتضييع الأملِ، وأنَّهم لم يَبْلُغوا ما أرادوا، بل حصلَ العكس، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ الآية.

المَعنى الإجماليُّ:

من لا يستطيع دفــع الـضُّـرِّ عـن نفسِه؛ لا يستطيع دفعه عن غيره

يقول اللّه تعالى: لا تستطيعُ آلهةُ المشركين أن تنصرَهم، والحالُ أنَّ هؤلاءِ المشركينَ جُندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ؛ فكيف تَنصُرُهم، وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها؟ ولا تقدر على الانتقام ممَّن أرادها بسوء؛ لأنَّها جمادٌ لا تسمَعُ، ولا تَعْقِل(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الفصل في الآية:

بـيـانُ خـيـبـةِ أمـلِ الـكـافـريـنَ وبطلان رأيهم

فُصِلَتِ الآيةُ الكريمةُ عمّا قبلها؛ لكونها استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ اللّه تعالى لمّا قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أورثَ ذلك في نفس المتلقّي سؤالًا: هل يستطيعون نصرَهم؟ وهل بلغ المشركونَ ما أرادوه من آلهتِهم الباطلةِ؟ فجاء الجوابُ في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، والجواب وإن كان معلومًا، ولكنَّه جاء ردًّا

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 593، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 174، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 195.

عليهم، وللإخبار عن خيبة أملِهم وبطلان رأيهم وقطع رجائِهم منهم، أي: لا تقدرُ آلهتُهم على نصرِهم[1].

فائدة ﴿لَا﴾:

استمرارُ نَفْيِ النَّصرِ عنهم

حرفُ النَّفي ﴿لَا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ يفيد استمرارَ النَّفي، ولا يُرادُ به نفي الحال والاستقبال فقط، أي: إنَّ عدمَ استطاعتِهم نصرَهم مستمرٌّ، وقوّى هذا المعنى التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ ليُفيدَ استمرارَ النَّفي وتجدُّدَه حالًا فحالًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الاستطاعة:

نفيُ الاستطاعةِ عن الفعل أبلغُ من نفي الفعل

لمّا كان لفظُ الاستطاعةِ في قوله: ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ بمعنى الطّوع - وهو وجودُ ما يكون به الفعل مُتَأتّيًا - وكان ضدُّ الاستطاعة العجزَ؛ أفاد قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أنَّ الآلهةَ لا يتأتّى منها القدرة على نصرِهم، لا بنفسِها ولا بغيرِها، وذلك لأنَّه ليس في استطاعتِها إحداث أيِّ فعلٍ، فهي عاجزةٌ، وإنَّما عبَّر بنفي الاستطاعة دون العجز، بأن يقال: (يعجزون عن نصرِهم)، ودون نفي النَّصر أصلًا، بأن يقال: (لا ينصرونهم)؛ لأنَّ نفيَ الاستطاعة أبلغُ من غيرِه مطلقًا؛ إذ إنَّه يفيد نفيَ القدرة والتَّأهُّل والاستعداد عن نصرِهم، فيدلُّ على القطع بنفي نصرِهم، وتجهيلهم في تدبيرِهم ورأيِهم، ويُشْعِرُ نفيُ الاستطاعةِ أيضًا بأنَّ الكافرين وإن حاولوا، وتكلَّفوا؛ فإنَّ آلهتَهم لا تستطيع نصرَهم، كما أنَّ نفي ما توهَّموه من استطاعة الآلهة أبلغ مِنَ التَّعبير بالعجز أصالةً؛ لأنَّ الكلامَ في سياق الرَّدِّ عليهم، فإنَّهم لمّا كانوا يرجون نصرَهم؛ كان نفي استطاعتِهم النَّصرَ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾ أبلغَ في الرَّدِّ على الكافرين، وأقوى تمكُّنًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 175، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179.

في نفوسِهم من أن يقال: (يعجزون عن نصرِهم) أو (هم عاجزون عن نصرِهم).

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العاقل عَن غيرِ العاقل:

بـطـلانُ اتِّـخـاذ آلـهـةٍ مـن دون الله تعالى ولو كانت الآلهةُ مِنَ العقلاء

الظّاهر أنَّ الضَّمير في قوله: ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعود إلى آلهة الكفّار من الأصنام، وفي قوله: ﴿نَصْرَهُمْ﴾ يعود إلى الكفّار أنفسِهم، والمعنى: لا تستطيع الأصنامُ نصرَ الكفّار، فأُجْري على الأصنام ضميرُ العقلاء (الواو) في قوله: ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ لأنَّهُم سَمّوا آلهتَهم بأسماء العقلاء، وعاملوها معاملتَهم، وزَعَموا لَها إدراكًا[1]، ولأنَّه أُخْبِر عنهم بفعل الاستطاعةِ الَّذي لا يكون إلّا لمن له علمٌ وإدراك؛ وللإشعارِ بأنَّ الإلهَ لا يكون إلّا عالمًا، فعلى هذا يكون التَّعبيرُ بضمير العقلاء تهكُّمًا بهم، بطريق الاستعارةِ التَّهكُّميَّة؛ لاتِّخاذِهم آلهةً يعبدونها من دونِ اللّهِ تعالى، وهي في الحقيقة جماداتٌ لا تسمع، ولا تعقل، وفيه إيماءٌ أيضًا إلى أنَّ من يتَّخذ من دون اللّه آلهةً، فهو على باطل، وإن كان إلهُهُ الذي يعبده، يسمَعُ، ويعقل، فالإلهُ الواحدُ الأحدُ هو اللّه تعالى.

دلالةُ الواو في ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾:

التَّـعـجـيـبُ من حـال الـكـافـريـن في دفاعِهم عن آلهتِهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ حاليَّةٌ، وجملةُ الحالِ بعدها تفيد التَّعجيبَ من شأنهم، والضَّمير (هُم) يعود إلى الكفّار، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ راجعٌ إلى الآلهة التي أشركوا بها، والمعنى: والحالُ أنَّ الكفّار جندٌ متحزِّبون لهذه الآلهةِ في الدُّنيا.

وفائدةُ التَّعبيرِ بواوِ الحال: هو أنَّ اللّه تعالى لمّا أخبر أنَّ الكافرين اتَّخذوا من دون اللّه آلهةً طمعًا في أن يتقوَّوا بها، ويعتضدوا بها، وأخبر أنَّ الآلهةَ لا تسطيع نصرَ الكافرين، إذا حَزَبَهُم أمرٌ؛ بيَّن أنَّ الأمرَ على عكس ما قدَّروا، وأنَّ الحالَ أنَّ الكفّارَ جندٌ لآلهتهم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 70.

محضرون، أي: مع كونِ الآلهة لا تستطيع نصرَهم، فإنَّ الكافرين يذبّون عنها، ويغضبون لها، وصاروا جندًا لها، ففيه تعجيبٌ من حالِ المشركين، وتيئيس لهم من نفعِ أصنامِهم، وبيانٌ لسفاهةِ عقولِهم، وتوبيخٌ لهم على تركِ عبادة اللّه تعالى واستبدالِها بعبادة من لا يقدر على شيءٍ.

ويحتمل أن يعود الضَّميرُ (هُم) إلى الآلهةِ، ويعود ضمير ﴿لَهُمْ﴾ إلى الكفّار، والمعنى: والآلهةُ جندٌ محضرون للكفّار، أي: يوم القيامة، بأن يقال: الكافرون اتَّخذوا الآلهةَ من دون اللّه لينصروهم عند اللّه تعالى، ويشفعوا لهم يومَ القيامةِ، والحالُ هو أنَّ الأمر على عكسِ ما توهَّموا؛ حيث إنَّ الآلهةَ يوم القيامة جندٌ معدّون للكافرين مُحضَرون لعذابِهم؛ لأنَّهم يُجعلَون وقودًا للنار، فعلى هذا الوجهِ يكون قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ تأكيدًا لقولِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، فإنَّه لمّا كانت الآلهةُ لا تستطيع نصرَهم حالَ ما تكون جندًا لهم ومحضرةً لنصرتِهم؛ دلَّ ذلك على عدم استطاعتِهم[1]؛ ليفيد الكلامُ أَنْ ليس عدمُ استطاعتِهم نصرَهم لبعدِ مكانِهم، أو تأخُّرهم في استصراخِهم، بل هم لا يستطيعون نصرَهم، والحالُ أنَّهم جندٌ محضرون لهم، أي: إنَّ اللّهَ تعالى يُحضِرُ الأَصنامَ حينَ حَشْرِ عُبّادها إلَى النّارِ ليُريَ المُشركينَ خَطَلَ رَأْيِهم وخَيبَةَ أَمَلِهم، فهذا وعيدٌ بِعذابٍ لا يجدونَ مِنهُ مَلجأً[2].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بجملةِ الحال:

ظهورُ عجز آلهةِ المشركين غايةَ الظُّهورِ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ بطريق الحال؛ لقصد المبالغةِ في الرَّدِّ على الكافرين والتَّعجيب من حالِهم، وبيان ذلك: أنَّه لمّا كانت جملة: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ حالًا من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 552 - 553، والزمخشري، الكشاف: 4/ 29، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 463، وابن كثير تفسير القرآن العظيم: 6/ 593.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 71.

ضمير الواو في ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، وكانت الحالُ على معنى اقترانها بصاحبها في الوقت؛ أفادَ المبالغة في انتفاء قدرتِهم على نصرتِهم وعجزِهم عن الذَّبِّ عنهم، فإنَّ مَنْ حَضرَ، واجتَمعَ مع كثرة العددِ والعدَّةِ، ثُمَّ عَجزَ عن النُّصرةِ، ولم يقدر عليها في ذلك الوقت، يكون ظاهر الضعفِ، بخلاف من لم يتأهَّبْ، ولم يَجمَعْ أنصارَهُ[1].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ اللّامِ توسيعٌ للمعنى وتكثيرٌ لَهُ

اللّام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ دالَّةٌ على الاختصاص[2]، والمعنى: هم مختصّون بالذَّبِّ عن آلهتِهم ينصرونهم، ويدفعون عنهم، كما يختصُّ الجندُ بنَصْرِ مَن يدفعون عنهم.

ويحتمل أن تكون اللّامُ تعليليَّةً، بمعنى: لأجل، فتكون اللّامُ دالَّةً على النَّفع[3]، أي: هم صاروا جندًا محضرين لأجلِهم، فيذبّون عنهم، ويدفعون سبَّهم وشتمهم؛ ليفيد التَّعبيرُ باللّام - على الوجهين - حرصَهم على آلهتِهم.

فائدةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

بيانُ شِدَّة تعلُّقهم بآلهتهم الباطلة

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على متعلِّقه ﴿مُّحۡضَرُونَ﴾؛ لإفادة التَّخصيص، أي: تخصيص اجتماع الكفّار وحضورِهم لأجل آلهتِهم؛ ليدفعوا عَنْهُم، على عكس تدبيرِهم، فيُفيد ذلك تقريرَ تمكُّنِهم في شركِهم وشدَّة تعلُّقهم بآلهتِهم.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿جُندٞ﴾:

تسفيهُ عقولِ الكافرين لخدمتِهم آلهتَهم التي لا تضرُّ ولا تنفعُ

جاء التَّعبيرُ بلفظ الجندِ في قوله تعالى: ﴿جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾؛ لِما يفيده اللَّفظُ مِن معنى اجتماعِ الكافرين على وصف النُّصرة مع الكثرة في العدد والعدَّةِ على سبيل التَّحزُّب والصَّلابة والغلظة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 307، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 546.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 192.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 50، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 71.

والتَّعصُّب[1]؛ للذَّبِّ عن آلهتِهم والدِّفاع عنهم ونصرتِهم، كما أفاد اللَّفظُ أنَّ الكافرين بمنزلةِ الخدَمِ لآلهتِهم الَّتي لا تضرُّ، ولا تنفعُ، ففيه تسفيهٌ وتوبيخ للمشركين وتعجيب من حالِهم، حيث كان العاقلُ خادمًا لمن لا يعقلُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة اسم المفعول ﴿مُّحۡضَرُونَ﴾:

اجتماع الكفّار وحضورِهم لنصرةِ آلهتهم

عُبِّر بصيغةِ اسم المفعول ﴿مُّحۡضَرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم يُساقون للحضور لنُصرةِ آلهتِهم، كما أنَّ في صيغة اسم المفعولِ إيذانًا بحصول الحضور حقيقةً، بخلافِ ما لو وردَ في النَّظم القرآنيِّ: (حاضرون)؛ فإنَّهُ حينئذٍ يَحتمل أن يكونوا مستعدِّين للحضور، وليسوا حاضرين حقيقةً، وفي التَّعبيرِ باسْمِ المَفْعولِ دونَ الفِعْلِ (يُحضرون)؛ للدَّلالة على استمرار الوصفِ فيهم وثباتِه.

نكتةُ تعدُّد الخبرِ:

التَّعجيبُ من حالِ الكفّارِ

تعدَّدَ الخبرُ في قوله سُبحانه: ﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾، فـ(هُم) مبتدأ، و﴿جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ خبران للمبتدأ، ونكتةُ الإخبار بخبَرَيْن إفادةُ اجتماعِ المعنيين، فإنَّ العددَ الكثير من الجُنْدِ لا ينفع في النُّصرة؛ إن لم يكونوا حاضِرين، كما أنَّ الحضورَ إن لم يكن لذي جَمْعٍ لا ينفع كذلك في الذَّبِّ والدَّفع والنُّصرة، فالتَّعجيب من اجتماعِ الكفّار وحضورِهم لنصرةِ آلهتهم، والحالُ أنَّهم عبدوهم لِتَنْصُرَهُم الآلهةُ الباطلةُ لا لِتُنْصَر.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جند).

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾ [يس: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عنايةُ الله تعالى بنبيِّه ﷺ دليلُ محبّته له

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ الكافرين اتَّخذوا من دونِ اللّه آلهةً رجاءَ نصرِتهم، وكان فيه إيماءٌ إلى قولِهم الكفرَ ومجاهرتِهم به؛ حذَّر رسولَه ﷺ من أن تُحْزِنَهُ أقوالُهم؛ لأنَّهم قالوا في شأنِ اللّه تعالى ما هو أعظمُ وأشنع، فقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الآيةَ.

ومن أوجهِ المناسبة بين الآيتينِ: أنَّ اللّه تعالى لمّا بيَّن ما بيَّن من قدرتِه الباهرة، وعظمته الظّاهرةِ، ووهَّنَ أمرَ الكافرين في الدُّنيا والآخرة، وكان قد تقدَّمَ ما لوَّح إلى أنَّهم نسبوا رسولَ اللّه ﷺ إلى الشِّعر في قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: 69]، وكذَّبوه، واستهزؤوا بالوعدِ الذي بلَّغهم به، وصرَّحوا بكفرِهم، وأعلَوا شأنَ آلهتِهم، قال تعالى مسلّيًا رسولَهُ ﷺ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الآيةَ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

عزاءٌ كريمٌ للنَّبيِّ الكريم من ربٍّ كريمٍ

يقول سبحانه: فلا يَحزُنْك - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - قولُ هؤلاءِ المُشرِكينَ لك: إنَّك شاعِرٌ، ومجنونٌ، وكاهِنٌ، إلى غيرِ ذلك ممّا يَقْدَحون به في نُبوَّتِك، ولا يَحزنك كُفْرُهم باللّهِ وباليَومِ الآخِرِ، وتكذيبُهم بآياتِ اللّهِ، فإنَّ اللّه سبحانه يعلم ما يُسِرّون وما يعلنون من كفرٍ وضلالٍ وبهتانٍ، وهو سُبْحانه محاسِبُهم ومجازيهم عليه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 176.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 485، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 57، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 955.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ﴾:

الـنَّـهـيُ عن الـحُـزْنِ بسبَبِ الكلامِ الباطِلِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ تفريعيَّةٌ، فهي تُفيد ترتُّبَ النَّهي عن الحزنِ مِن قولِهم على ما قبلَهُ، أي: إذا كان ذلك حالهم مع اللّه تعالى، ووصلوا إلى هذا الحدِّ من الإشراكِ بأنِ اتَّخذوا من دون اللّهِ آلهةً؛ فلا تحزن عليهم بسببِ قولِهم على اللّه سبحانه: إنَّ له شركاءَ - تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - وقولِهم عليك: شاعرٌ ونحو ذلك ممّا لا يليق بشأنِك.

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ فصيحةً؛ لإفصاحها عن شرطٍ مقدَّرٍ من السّياق، والمعنى: إذا سمعتَ قولَهم في اللّه تعالى: إنَّ لهُ شريكًا وولدًا، وفيكَ: إنَّكَ كاذبٌ أو شاعرٌ؛ فلا تحزن من قولِهم[1]، ومآل المعنيينِ واحدٌ.

سببُ إيثار التَّفريع بالفاء:

الكفّارُ أحقَرُ مِن أن يُحْزَنَ بسبَبِ أقوالِهِم

لمّا كانتِ الفاء مفيدةً تعليقَ النَّهي عن حزنِه ﷺ من أقوالِهم على ما قبله؛ أفاد خسرانَهم وخيبتَهم في جميع أقوالِهم الَّتي أشركوا بها، وآذوا بها رسولَ اللّه ﷺ؛ ليفيد بلازمِه أنَّهم لا يستحقّون أن يُحزنَ مِن أقوالِهم؛ تهوينًا للخَطْبِ وتسليةً لرسول اللّه ﷺ.

دلالةُ قوله: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ﴾:

قد يُرادُ بالحزنِ ما يكون في الحال أو الاستقبالِ إذا اقترن بأسبابِه

لمّا كان الحُزنُ هو الخشونةَ التي تكون في النَّفس لِما يحصل فيها من الغمِّ[2]؛ نهى اللّه تعالى رسولَه ﷺ عن الحُزن في قولِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ﴾؛ للإيماء إلى ما كان يشعُرُ به رسول اللّه ﷺ من الألم والشِّدة من قولِهم، ولمّا تعلَّق النَّهيُ عن الحزن بقول الكافرين، وكان

---

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 252، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 434، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 192، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 55.

(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حزن).

النَّهيُ على معنى الحال والاستقبال؛ أفادَ أنَّ الكافرين مستمرّونَ على مقالتِهم التي تؤذي رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين، كما أفاد أنَّ الحزنَ لا يُقصد به فواتُ شيءٍ في الماضي، بل يكون في الحال والمستقبل؛ إذا اقترن بأسبابه.

بلاغةُ الكناية:

النَّهي عن الاكتراثِ بأذى الكافرين والالتفات إليه

أُسْنِدَ النَّهيُ عن الحزن إلى قول الكافرين في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، وظاهِر المعنى: أنَّ اللّه تعالى نَهَى أن يحزنَ قولُ الكافرين النَّبيَّ ﷺ، فأُسنِدَ الحزن إلى قول الكافرين على سبيل المجاز[1]؛ لقصد المبالغةِ في شدَّة قولِهم وقسوتِه وما ينطوي عليه من الأذى، فالنَّهيُ في اللَّفظ للقول، وهو في المعنى: عن السَّبب المؤدّي إلى التَّأذّي بقولهم، وما يورِّث الحزنَ واكتسابه؛ لأنَّ الحُزْنَ لا يحصل بالاختيار[2]، فالمرادُ بالنَّهي في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لازمُه، وهو نهي النَّبيِّ ﷺ عن أن يَحْزَنَ بسبب قولِهم، ويُنتقل من هذا اللّازم إلى لازم آخر، وهو نهيه ﷺ أن يعبأ بقولِهم، وأن يكترثَ بأذاهم، وأن يلتَفِتَ إليه، فإنَّ مَن يعبأ بقولِهم، أو يكترثَ به؛ يَحْزَن بسببه، فالنَّهي في الحقيقة راجعٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، ومجيءُ الكلام بطريقِ الكنايةِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، فإنَّ النَّهيَ عن أسباب الشَّيءِ ومباديه المؤدّيةِ إليه نهيٌ عنه بالطَّريق البرهانيِّ وإبطالٌ للسَّببيَّة[3]، وفائدةُ إيثار إسناد النَّهي عن الحُزْنِ إلى القولِ ومجيء الكلام بطريقِ الكنايةِ أمران، أحدهما: بيانُ شدَّة قولِهم وقسوته وغِلَظِه في نفس رسول اللّه ﷺ، والآخر: بيانُ سببِ حزنِه ﷺ، فهو مِثْلُ إيراد النَّهي ببيِّنةٍ، فلمّا نهى القولَ عن أن يُحْزِنَ رسول اللّه ﷺ؛

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 357.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 11/ 251.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 72.

كان بمنزلةِ النَّهي عن أسبابِه، ففيه مبالغةٌ في تسلية خليلِ اللّه ﷺ وعنايةٌ بشأنِه، وذلك دليلٌ على اجتبائِه ﷺ وعظيم منزلتِه عند اللّه تعالى.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾:

مَنِ اتَّصف بالأوصاف القبيحة؛ تفوَّه بالقبيح من القول

لمّا كان الضَّمير (هُمْ) راجعًا إلى الكافرين بما اتَّصفوا به من كونِهم اتَّخذوا من دونِ اللّهِ آلهةً، ونسبتِهم القرآن إلى الشِّعر؛ كان المرادُ بـ ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ ما تُنبئُ عنه هذه الأوصاف القبيحة، فإنَّ مَنِ اتَّصف بهذه الأوصافِ لا يخلو عن التَّفوُّه بقولِهم: هؤلاءِ آلهتُنا، وأنَّهم شركاءُ للّه سبحانه في العبوديَّةِ - تعالى اللّه عن قولهم - وقولِهم عن نبيِّه ﷺ: شاعر - وحاشاه - وغير ذلك مِّما يورث الحزنَ[1].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالمصدرِ دونَ الجمعِ:

لا يحزن المؤمنُ للقول النّاشئ عنِ الكُفْرِ

عُبِّرَ بالمصدر مفردًا في قوله: ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ دون الجمعِ، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (بأقوالِهم)؛ لما تفيده إضافةُ المصدرِ من معنى العموم، ولمّا حُذِفَ مفعولُ المصدرِ؛ أفاد المبالغةَ في معنى العموم؛ ليعمَّ اللَّفظُ جميعَ الأقوال التي كان يقولها الكافرون لرسول اللّه ﷺ، فقد كانوا يشركون باللّه تعالى، ويصرِّحونَ بشركِهم، ويكذِّبون رسول اللّه ﷺ، ويهدِّدونه، ويستهزِئون به، ويستطيلون عليه ﷺ، ومرَّة قالوا: إنَّه ساحرٌ، وإنَّه كذّابٌ، وإنَّه شاعر، ومرَّة قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، ومرَّة قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: 7]، ومرَّةً قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]، ومرَّة طعنوا فيه وفيما أقامهُ مِنَ الحججِ، فمعنى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، أي: قولُهم في اللّهِ تعالى بالإلحاد والشِّرك، أو فيك بالتَّكذيب والتَّهجين[2]، فلمّا كثرت أقوالُهم القبيحةُ، وكانت جميعها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 539، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 274.

تُحزنُ رسولَ اللّه ﷺ؛ جاء التَّعبيرُ بالمصدر مفردًا لإرادة الجنسِ الشّامل لجميع أقوالِهم، وفيه إشعارٌ بأنَّ أقوالَهم كلَّها شيءٌ واحدٌ، فلا يحزنك قول أكثر من قول آخر؛ إذ الحاملُ عليها كُلِّها الكُفْرُ باللّه تعالى.

أثـرُ الـوقـفِ في بيان المعنى

دلالةُ الوقفِ على ﴿قَوْلُهُمْ﴾:

الوقفُ عند قولِه تعالى: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وقف تامٌّ عند جمهور القرّاء[1]، قالَ أبو جَعْفَرٍ النَّحاسُ: "﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾: تَمَّ الكَلامُ"[2].

وصَرَّحَ بِهَذا السَّجاوِنديُّ في "عِلَلِ الوُقوفِ" بِقَولِه: "﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[3]؛ لِئَلّا يَصيرَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مَقولَ الكُفّارِ الذي يُحْزِنُ النَّبيَّ عليه السلام"[4].

ولابْنِ عاشورٍ رَأْيٌ مُخالِفٌ لِهَذا، فقد رَأى أَنَّ الوَقفَ لا يَلزَمُ عِندَ ﴿قَوْلُهُمْ﴾، وإنَّما يَحْسُنُ، فقالَ: "والوَقفُ عِندَ قَولِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ مَعَ الابتِداءِ بِقَولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ أَحسَنُ مِنَ الوَصلِ؛ لأَنَّهُ أَوضَحُ لِلمَعنى، ولَيسَ بِمُتَعَيِّنٍ؛ إذ لا يَخْطُرُ ببالِ سامِعٍ أَنَّهُم يَقولونَ: "إنَّ اللّهَ يَعلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعلِنونَ"، ولَو قالوهُ؛ لَما كانَ مِمّا يحزنُ النَّبيَّ ﷺ، فَكيفَ يَنهى عَنِ الحُزنِ مِنهُ؟"[5].

ولكنَّ الوقفَ أولى إن لم يكن متعيِّنًا، وعدم خطور المعنى الباطلِ ببالِ أحدٍ؛ لا يُسوِّغ الوقفَ الموهِمَ.

تفويضُ الأمور إلى الله تعالى جـالـبُ الـرّاحـة والطُّمأنينة

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ على طريق

(1) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/ 856، والداني، المكتفى، ص: 175، والأشموني، منار الهدى: 1/ 333.
(2) النحاس، القطع والائتناف، ص: 584.
(3) هذا رمز للوقف اللازم.
(4) السجاوندي، علل الوقوف: 3/ 851.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 73.

الاستئنافِ البيانيِّ[1]؛ وذلك لكونِهِ جوابًا عن سؤالٍ نشأ من الجملةِ الأولى المشتملةِ على النَّهي عن الحزن، فكأنَّ سائلًا سأل: ما سببُ نهي رسول الله ﷺ عن أن يحزنَ من قول الكافرين؟ والحالُ أنَّ قولَهم ممّا يُحزِنُ؟ فأجيب: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾[2]؛ لتفيدَ (إنَّ) الَّتي صُدِّرت بها الجملة ربطَ الكلامِ بما سبقه، وبيانَ سببِ النَّهي عن الحزن من قول الكافرين، أو يكون جوابًا لسؤالٍ تقديره: يا ربِّ، فإذا كان حالُهم معك ومع نبيِّك ذلك؛ فماذا تصنعُ بهم؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، أي: نُجازيهم بجميع جناياتِهم[3].

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الكلامَ ليس على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، و(إنَّ) مُغْنِيَةٌ عَن فاءِ التَّسَبُّبِ لأجلِ التَّرتُّب[4].

دلالةُ (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ﴾:

المؤمنُ لا يُحْزِنُ رسولَ الله ﷺ بقولٍ أو فعلٍ يكرهُهُ

(إنَّ) في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملة، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكافرين يعتقدون أنَّ اللّه تعالى لا يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، أو أنَّهم بسبب قولِهم الذي يقولونه، أُقيموا مُقام مَن يعتقد أنَّ اللّه تعالى لا يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ مَن يعتقد أنَّ اللّه يعلم ما يسرُّ، وما يعلن يَنْبَغي ألّا يُحزِنَ رسولَ اللّه ﷺ بقولٍ أو فعلٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بنون العظمة:

لا أحدَ يعلم السِّرَّ والعلنَ سوى الله تعالى

عُبِّرَ بـ (نا) الدّالَّةِ على العظمة في ﴿إِنَّا﴾، وبالفاعِلِ المُستَتر - (نَحْنُ) - في قولِه: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ﴾؛ للإشعار بأنَّ علمَهُ تعالى بما يسرّون، وما يعلنون هو من مقتضى عظمتِه وأُلوهيَّتِه ﷻ، وأنَّه لا أحدَ يعلم السِّرَّ والعلنَ سوى اللّه الملك الواحد الأحد.

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179.

(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 193.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 51.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 72.

بلاغةُ الكنايةِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ كناية عن المؤاخذةِ بأقوالِهم التي تُحْزِنُ رسولَ اللّه ﷺ، وجزائِهم عليها، فإنَّ العلمَ بما ذُكِرَ مستلزمٌ للمجازاةِ قطعًا، والمعنى: إنّا نجازيهم بجميعِ جناياتهم الخافيةِ والباديةِ، فإنَّنا مُحْصون عليهم أقوالَهم وما تُسِرُّه أنفسُهم ممّا لا يَجْهَرونَ به، فنُؤاخِذُهُم بذلك كُلِّه بما يُكافئه من عقابِهم ونَصْرِك عليهم[1]، وفي الخبر تهديدٌ لكلِّ من يقول قولًا يُشْرِك فيه باللّه تعالى، أو يطعَنُ في رسولِه ﷺ يسرُّ بذلك، أو يُعْلِنُ.

علـمُ اللـهِ تعالى بما يسرُّ النّـاس وما يعلنون يقتضي مُجازاتَهم

دلالةُ مجيءِ المسنَدِ جملة فعليّة:

(نا) من ﴿إِنَّا﴾ مسند إليه - وهو ضمير دالٌّ على العظمة - وقد قُدِّمَ على المسند، وهوَ جملةٌ فعليَّةٌ في قوله: ﴿نَعۡلَمُ﴾؛ ليكونَ تقديمُ المسند إليه أدخلَ في تثبيتِ المعنى وأمنعَ للشكِّ والإنكار، وفي مجيء المسند جملة فعليَّةً تقوية للحكم وتحقيقه؛ لما فيه من تكرار النِّسبة مرَّتين، إحداهما: نسبةُ العلم إلى ضميرِ العظمَةِ (نا) من ﴿إِنَّا﴾، والآخر: نسبةُ العِلْمِ إلى الضَّمير المستتر وُجوبًا في الفِعْلِ.

تأكيدُ عموم علم الله تعالى وتحقيقُه

سرُّ تقديم عِلْمِ الله تعالى بالسِّرِّ على علمِهِ بالعَلَنِ:

قُدِّمَ علمُ اللّه تعالى بالسِّرِّ على علمِه بالعلن، في قوله: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؛ ليكون أبلغَ في بيان مجازاتِهم، فإنَّ مرتبةَ السِّرِّ متقدِّمة على مرتبةِ العلن؛ إذ ما من شيءٍ يُعلَنُ إلّا وهو أو مباديه مضمَرٌ في القلب، ولأنَّ العلمَ بما يسرّون أشدُّ دلالةً على إحاطة علم اللّه تعالى بجميع أحوالِهم، وذُكِر بعدَه الإعلانُ؛ لأنَّه محلُّ الخبر، فإنَّهم كانوا يُظْهِرون قبيحَ قولِهم، ويُصَرِّحون به، كما أنَّ في ذِكْرِ الإعلان دلالةً على استيعابِ علم اللّه تعالى لجميع

ما مِنْ شيءٍ يُعلَنُ إلّا وهو أو مباديه مُضْمَرٌ في القلبِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 193.

المعلومات بجزئيّاتِها وكلّياتِها(1)، وفي التَّقديم إيماءٌ إلى أنَّ ما يُسِرّون في ضمائِرِهم من التَّكذيب وغيرِه أشدُّ وأقسى ممّا يُعْلِنونَ بِأَلْسِنَتِهم مِنَ الأذى وغيرِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه:

سَعَةُ علمِ الله تعالى بالسِّرِّ والعلَنِ

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ اسمٌ موصول، وعُبِّرَ به معَ صلتِه؛ لِما تفيده ﴿مَا﴾ من العموم، فيكون المعنى: أنَّ اللّٰه ﷻ يعلم جميعَ ما يُسِرُّه العبادُ وجميعَ ما يُعْلِنونَهُ، وفيه زيادَةُ التَّقرير بعلمِ اللّٰه تعالى بجميعِ شُؤونِهم وأحوالِهم، ولمّا كانَ العائد إلى الموصول محذوفًا؛ أفاد المبالغة في عموم ما يسرّون، وما يُعْلِنون، وأصلُ الكلامِ: إنّا نعلمُ ما يسرّونه، وما يعلنونه(2).

فائدةُ تَكْرار ﴿مَا﴾:

بيانُ تَعَلُّقِ علمِ الله تعالى بِما يُسِرُّه العبادُ وما يُعْلِنونَهُ

كُرِّرَ الاسمُ الموصول في قولِه: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ الذي يسرّونَهُ مِنَ الإشراك والتَّكذيب نوعٌ آخرُ غيرُ الذي يُعْلِنون مِن قبيحِ القول والفعلِ، ففيه مبالغةٌ في بيان تنوُّعِ قبائح سريرتِهم وعلانيَّتِهم، وفيه إيذانٌ بأنَّ الذي في السِّرِّ وإن اختلفَ عن الذي في العلنِ، فإنَّ عِلْمَ اللّٰه تعالى متعلِّقٌ به، فلا يغيبُ عن علمِه شيءٌ.

فائدَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع:

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد ما يسرّونه، وتجدُّد ما يعلنونه، وأنَّ علمَه تعالى متعلِّقٌ بكلِّ ما يجدِّدونه في السِّرِّ والعلنِ.

بديعُ المطابقةِ في الآية:

علمُ الله تَعالى بالسِّرِّ كعلمِه بالجهرِ

في قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ طباقُ إيجابٍ بين الفعلين ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾، وإيرادُ الطِّباق في الآيةِ فيه دلالةٌ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 179، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 72.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 51.

استيعاب علم اللّه تعالى لجميع شؤونِهم، فإنَّه لمّا كان علمُه تعالى بالسرِّ مُنبِئًا عن علمِه بالعلن بطريق الأولى؛ كان ذكر قوله: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ على طريق المطابقة إيذانًا بأنَّ علمَه تعالى بالسِّرِّ كعلمِه بالجهرِ سواء بسواءٍ[1]، وهذا الوجهُ يفيدُ في سرِّ تقديم السِّرِّ على العلن كذلك، كما أنَّ في الطِّباق تنبيهًا إلى وجوب أن يكون السِّرُّ موافقًا للعلن؛ لاستوائِهما في علمِ اللّه تعالى.

بلاغةُ التَّذييل:

تقريرُ المَعْنى الخاصِّ بِحُكْمٍ عامٍّ كُلِّيٍّ

لمّا جاء قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ استئنافًا في مقام التَّعليلِ لنَهْيِ رسول اللّه ﷺ عن أن يَحْزَنَ بسبب قولِهم، وكانت الجملةُ على معنى العمومِ في علم اللّه تعالى بِما يسرّون، وما يعلنون؛ كانت الجملة بمنزلةِ التَّذييل؛ لتكونَ على معنى العُمومِ والكلّيَّة.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 193.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾ [يس: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

التَّـنـوُّع في الاستدلال من أساليب القرآن المجيد

لمّا ذكر اللّه تعالى دليلًا من الآفاق على عِظَم قُدرته ووجوب عبادته بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾؛ ذكر دليلًا مِنَ الأنفُس أبينَ مِنَ الأوَّل، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾[1].

ومن أوجهِ المناسبةِ بين الآيتين: أنَّهُ لَمّا أَبْطِلَتْ شُبَهُ المُشركينَ في إشراكِهم بِعبادَةِ اللّه وإنكارِهم البعثَ يوم القيامةِ وتَكْذيبِهم سيّدَنا مُحَمَّدًا ﷺ في إنْبائِهِ بِذَلِكَ إبطالًا كُلِّيًّا؛ عُطِفَ الكَلامُ إلى جانِبِ تَسفيهِ أَقوالٍ جُزئيَّةٍ لِزُعَماءِ المُكَذِّبينَ بِالبَعثِ تَوبيخًا لَهُم عَلى وقاحَتِهِم وكُفرِهِم بِنِعْمَةِ رَبِّهِم، فبعد أن ذكَر قُدْرَةَ اللّه تعالى على البعثِ والحَشرِ بما شاهَدوا بأَنفُسِهم أوضحَ أدلَّته؛ أتبعه بالرَّدِّ على أقوال المكذِّبين ليجمع بين الأمرَيْنِ في إثباتِ الحَشْرِ[2].

ومن أوجهِ المناسبَةِ أيضًا: أنَّهُ لمّا كان قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ تسليةً لرسولِ اللّه ﷺ؛ جاء قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ تسليةً ثانيةً لرسولِ اللّه ﷺ بتهوينِ ما يقولونَهُ بالنِّسبةِ إلى إنكارِهم الحشرَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّطۡفَةٖ﴾: (نطف) تدلُّ اشتقاقاتُه على نُدوَّةٍ وبَلَلٍ، ثُمَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 307، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 264، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 365.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 73.

يُستعارُ، ويُتوَسَّعُ فيه، والنُّطْفَةُ: الماءُ الصّافي، وليلةٌ نَطوفٌ: مَطَرَتْ حتَّى الصَّباحِ، والنِّطافُ: العَرَقُ[1]، والنُّطْفَة أيضًا: ماءُ الرَّجُلِ الذي يَتَكَوَّنُ منه الوَلَدُ، وهو المَنيُّ، وقيلَ: ماءُ الرَّجُلِ أو المَرْأَة، مأخوذٌ من النُّطْفَةِ والنُّطافَةِ: وهي القليلُ من الماءِ يبقى في دَلْوٍ أو قِرْبةٍ، والجَمعُ: نُطَفٌ، ونِطافٌ[2].

2) ﴿خَصِيمٌ﴾: (خصم) تدلُّ تصريفاتُه على المُنازَعَةِ[3]، والخَصِمُ: المختصُّ بالخُصومة[4]، والذَّكَرُ والأُنثَى فيه سَواءٌ[5]، والخَصيمُ: الذي يُخاصِمُ غيرَه، وهو أيضًا الكثيرُ المُخاصمَةِ، والجمع: خُصَماءُ، وخاصَمْتُه مُخاصَمَةً وخِصامًا، والاسم: الخُصومَةُ[6]، والمُرادُ بالخَصيم - الذي هو من صيَغِ المبالغة - في الآيةِ: كثيرُ الخِصامِ، أي: مُخاصِمٌ جَدِلٌ بالباطلِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخُصومةُ بالباطِلِ مَذمومةٌ

يَختِمُ اللّه تعالى السّورةَ الكريمةَ بإقامةِ الأدلَّةِ على كمالِ قدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ، فذكرَ الدَّليل الأوَّل، فقال: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنّا خلَقْناه مِن مَنيٍّ، ثمَّ تنقَّل في الأطوارِ شيئًا فشيئًا، حتَّى كَبِرَ، وتمَّ عقلُه، فإذا هو بالِغُ الخُصومةِ، وفي غايةِ البيانِ عَمّا يُريدُه، حتَّى إنَّه لَيُجادِلُ مَن أعطاه العَقلَ والقُدرةَ، مُنكِرًا قُدرتَه على إحيائِه ثانيةً؟[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطف).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نطف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(4) الراغب، المفردات: (خصم).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خصم).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (خصم).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 594، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 699.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

التَّأمُّلُ في مبدأِ خلقِ الإنسان يورِثُ الخضوعَ للخالقِ سُبحانه

جاء قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ معطوفًا على قوله سُبحانَهُ قبلُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ بتقدير تقديم حرفِ العطفِ على همزة الاستفهام، وإنَّما تقدَّم الاستفهامُ؛ لأنَّ له الصَّدارةَ في الكلام، ووُصِلَ بين الجملتين؛ لِما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذِ اشْتَرَكَت الجملتانِ في الإنشائيَّةِ، واتَّحدا في الجهةِ الجامِعَة، وحسَّن الوصلَ اتِّفاقُهما في المسند، وهو فعل الرُّؤية، فأسلوب الجملةِ المعطوفة يوافقُ أسلوبَ الجملة المعطوف عليها في التَّعكيس، والمعنى: أنّا كما تولَّينا إحداثَ النِّعم؛ ليكون ذريعةً إلى أن يشكروها، فجعلوها وسيلةً إلى الكفران؛ كذلك خلقنا الإنسانَ من أخسِّ الأشياء وأَمْهَنِها؛ ليخضع النّاسُ، ويتذلَّلوا حين يتفكرون في خلقِهم، فإذا الإنسانُ خصيم مبينٌ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ المجازي:

إعادةُ الخلقِ يوم القيامةِ أهونُ عند الله تعالى من ابتدائِهِ

الهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ للاستفهام، وهو استفهامٌ خارج عن أصلِ دِلالَتِه مِن إرادةِ طلبِ العِلْم بشيءٍ لَم يكُنْ معلومًا من قبلُ، إلى معنى الإنكارِ - على قول جمهور المفسِّرين - لتكون الواوُ عاطفةً لجملة منفيَّةٍ مقدَّرة مستتبعةٍ للمعطوفِ، وتقدير الكلام: أَغَفَلَ، ولَم يرَ الإنسانُ، أو أَلم يتفكَّرْ، ولم يرَ الإنسانُ، ففيه إنكارٌ على الإنسان الذي لا يفكِّر، ولا ينظر نظرًا صحيحًا، ولا ينتفع بما يراهُ من خلق اللّه تعالى له من نُطْفَةٍ، ويستتبع الإنكارَ نفيُ رؤيتِهم للأمرِ، وسبب النَّفي هو أنَّهم لَمّا لم ينتفعوا بعلمِهم بأنَّ اللّه تعالى هو الذي خلق الإنسانَ من نطفةٍ؛ نُزِّلَ عدمُ انتفاعِهم من علمِهم منزلة من لا علمَ له.

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 95، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 252.

ويتولَّد مِن الإنكار معنى التَّعجيب من إنكارِ البعثِ بالدَّليل؛ لأنَّ بعْثَ الخلقِ يوم القيامةِ أهونُ من خلق الإنسانِ من نطفةٍ[1].

ويجوزُ أن يكونَ الاستفهام تقريريًّا، إن حُمِلَ على أنَّ همزة الاستفهام مقدَّمةٌ من تأخيرٍ، وتقديرُ الكلام: (وألم يرَ الإنسانُ)، فإنَّ دخولَ همزة الاستفهامِ على النَّفي يفيد إثباتَ المعنى وتقريرَه، أي: تقرير نِعَم اللّه تعالى على الإنسان وامتنانه عليه بأن خلقَه من أخسِّ شيءٍ وأمهنه - وهو النُّطفة - فخلقَه إنسانًا مِنْطيقًا مُعْرِبًا عمّا في ضميرِه، فإذا أقرَّ بنعَم اللّه سُبحانه وقدرتِه العظيمة، فكيف لا يقرُّ بالبعث يوم القيامة، وهو أيسرُ من خلق الإنسان من نطفةٍ؟ فيكون الكلام على المُقايَسَةِ للنَّظر والاعتبار.

نكتةُ العدولِ عن الخبرِ إلى الاستفهامِ المجازيِّ:

التَّأمُّلُ في الخلق يَـبْـعَـثُ على الإيمانِ بالخالقِ

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ يجوزُ أن يكونَ إنكاريًّا أو تقريريًّا، وعلى كلا المعنيين؛ فإنَّ العدولَ عن التَّعبيرِ بالخبر إلى الاستفهام المجازيِّ فيه إيماءٌ إلى الأمر بالرُّؤية العِلْميَّة إلى خلق الإنسان من نطفةٍ، والتَّدبُّر في عِظَم الخلق وكونه أوضحَ دليل على الخالق سُبحانه وعلى قدرتِه على إحياء الموتى وحشرِهم يوم القيامة، وأبين حجَّة على عظيم إنعامِه وامتنانِه وقدرتِه على خلق الإنسان المِنْطيق المتكلِّم المخاصم من نطفة، والمعنى: فَلْيَرَ الإنسانُ[2].

دلالةُ الرُّؤيةِ في قولِه: ﴿يَرَ﴾:

التَّعجيبُ من حـال الإنـسان في عدمِ انتفاعهِ برؤية خَلْقِ الله تعالى

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قلبيَّةٌ علميَّةٌ، وعُبِّر بالرُّؤية دون العلم؛ للإشعار بأنَّ علمَ الإنسان بهذا الأمر يقينيٌّ بِمَنزلةِ المعاينةِ؛ لظهورِه لكلِّ إنسانٍ، فإذا كان الاستفهامُ على معنى

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 526، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 180، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 195.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 539.

الإنكارِ؛ كان المعنى إنكارَ انتفاعِهم بهذا العلم الظّاهر الواضح، وفيه معنى التَّعجيبِ لإنكارِهم ما هو ظاهرٌ واضحٌ للعيان، وإن كان على معنى التَّقرير؛ كان المعنى على إثبات علمِهم بِنعمِ اللّه تعالى وقدرتِه، والتَّعجيب من عدم انتفاعِهم من علمِهم بهذا مع كونه يقينيًّا كالرُّؤية بالعين في ظهورِه ووضوحِه.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَرَ﴾:

شِدَّةُ إعراضِ الإنسانِ عن النَّظرِ في الأدلَّة مع كَثْرَتِها

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَرَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ للإشعار باستمرارِ ظُهور أدلَّة الرُّؤية، وتجدُّدها حالًا فحالًا، فهي لا تختصُّ بوقتٍ دون وقتٍ، وفي هذا نعيٌ على مَن لم يتفكَّر، مَعَ تكاثُر الأدلَّة عليه، وتمكُّنه من رُؤيتِها زمنًا بعد آخرَ.

بلاغةُ الحِجاج في الآية:

من أساليب القرآنِ في الاحتجاجِ قياسُ الشّاهدِ على الغائبِ

لمّا كان الاستفهامُ على معنى الأمرِ بالرُّؤية والنَّظر، وكان الكلامُ في سياق الإنكارِ على منكري الحشر والاستدلال على وقوعِه - كما هو في الظّاهر - كان قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ على معنى الاحتجاج بالشّاهد على الغائب، وتقديرُ الكلام: فَلْيَرَ الإنسانُ، وليَنْظُرْ أنَّ مَن قَدِر على خلق الإنسان ابتداءً من نطفةٍ لَقادِرٌ على إعادته؛ لأنَّ إعادةَ الشَّيء في الشّاهد أهونُ وأيسَرُ من ابتدائه؛ إذْ قد يُحتذى، ويُصوَّر بعدما وقع البصر على الشَّيء، وأمّا ما لم يُرَ، ولم يُعايَنْ؛ فلا سبيل إلى احتذائه ولا تصويره، فاحتجَّ اللّه تعالى عليهم بالشَّيءِ الظّاهرِ الذي يعلم كلُّ إنسانٍ أنَّه كذلك من غيرِ تفكُّرٍ ولا تأمُّلٍ؛ ليُدْركوا بالبديهة أنَّه تعالى قادرٌ على إحياء الموتى وحشرِهم يوم القيامة، ففيه إشعارٌ بأنَّ في إنكارهم البعثَ منافاةً في حالِهم، فإنَّ مَن جَحَد قدرةَ اللّه تعالى على إعادة الخلقِ، الَّتي هي أهون ممّا عَمِلَهُ في بدء خلقِه؛ لم يكن جحدُهُ إلّا تناقضًا ومكابرةً[1].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 540.

العبرةُ بعمومِ اللَّفظ لا بخصوص السَّببِ

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ للعهد العلميِّ، أي: خلقنا الإنسانَ المعهودَ، وهو المعيَّن المعروف المرادُ بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، فقد جاء في سبب نزول الآية: أنَّها نزلت في العاص بن وائلٍ حينَ جاءَ بِعَظْم رَميم إلَى رَسولِ اللَّه ﷺ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ أَتُرى اللّهَ يُحْيي هَذا بَعْدَما أَرم - أَي: بَلي - ؟ فَقالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: "نَعَمْ يُميتُكَ اللّهُ، ثُمَّ يُحْييك، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ"[1]، وإنَّما كانت (أل) للعهد العلميِّ؛ لأنَّ السّياق في مقام الإنكار على مُنكر البعثِ، ويدخل في الكلام كلُّ من يكذِّب بالحشرِ، ويعتقد عدم قدرة الخالق على إعادة الخلق يوم القيامة، فالسَّببُ وإن كان خاصًّا إلّا أنَّ اللَّفظ يصلُحُ تعميمُهُ؛ لعدم إيرادِ مَن نزلت الآيةُ بسببِهِ باسمه العَلَم، ومن قواعد أهل العلم: العبرةُ بعمومِ اللَّفظ لا بخصوص السَّببِ.

وإنَّما كانت (أل) للعهد العلميِّ دون الجنسِ؛ لأَنَّ جَعْلَها لِلجِنْسِ يَقْتَضي أَنَّ جِنْسَ الإِنْسانِ يُنْكِرونَ البَعْثَ، وهو خلاف الواقعِ؛ فإنَّ من جنسِ الإنسانِ المؤمنينَ باللّهِ تعالى ورسولِه وأهل المللِ الأخرى، كما أنَّ حملَها عَلَى الاستغراق أَبْعَدُ؛ لخلوِّ آدم وعيسى عليهما السلام من الخَلْقِ من نطفةٍ، إلّا أَنْ يُرادَ الاسْتِغْراقُ العُرْفيُّ، ولَيْسَ مِثْلُ هَذا المَقامِ مِنْ مَواقِعِهِ[2].

مقتضى الإنسانيَّة الإذعانُ للتَّوحيد وللإيمانِ بالحَشْرِ

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

لم يرد في النَّظم القرآنيِّ في هذا الموضع: (أوَلم يروا) بصيغة الجمع مضمرًا، ولا: (أولم يرَ البشرُ) أو (بنو آدم)، ولكنَّه عُبِّر بلفظ الإنسان في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ لأنَّ التَّعبير به من

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك برقم (3606)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يُخرجاه، وأورده مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ينظر: ص: 174.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 74.

تمام الاستدلالِ لبيان عظمة خلقِ اللّهِ وبديع صنعِه في أَنْ جعل مِن النُّطفة المهينة هذا الإنسان الذي هو في أحسن تقويم، ففيه تذكيرٌ بالانتقال من الأخسِّ إلى الأحسنِ عن طريق الوسائط، أي: من النُّطفة إلى الصّورة والبدن والنَّفس والعقل، وفي اللَّفظ إشارةٌ إلى التَّكريم، ولأنَّ في التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إشعارًا بأنَّ مدارَ الإنكار متعلّق بأحوالهِ مِنْ حيثُ هو إنسان[1]؛ ليكون اللَّفْظُ هو مناطَ الرُّؤيةِ والنَّظر الموصل إلى الإذعان بالتَّوحيد والحشر، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ الأمرَ بالرُّؤية والنَّظر يكون لكلِّ إنسانٍ، فإنَّ عِلْمَ الإنسانِ بأحوالِ نفسه أهمُّ، وإحاطتَه بها أسهلُ وأتمٌّ، وأنَّه بمقتضى إنسانيَّتِه يُذْعِنُ للتَّوحيد وللإيمان بالحشر، وأنَّ الأمرَ ظاهر واضحٌ قريب من كلِّ فردٍ.

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ المؤُوَّل:

الاستـدلالُ بتَوْحيدِ الرُّبوبيَّة علـى تـوحيـدِ الألُوهيَّة

جاء التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل في قولِه: ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾؛ لما يفيده المصدرُ المؤوَّل من أنَّه يكفي الإنسانَ علمُهُ بأنَّه تعالى خَلَقَهُ مِن نطفةٍ؛ ليكونَ ذلك دليلًا على الحشرِ دونَ حاجتِه إلى وصفٍ زائد على علمِه بالأمر؛ لظهورِه ووضوحِه.

وعُبِّرَ بالمصدر المؤوَّل دون المصدرِ الصَّريح؛ لما في المصدر المُؤَوَّل مِن إيرادِ الفِعْلِ ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ ماضيًا، وهو يُفيد تحقُّقَ خَلْقِ اللّه تعالى للإنسانِ، فيَحْمِلُه التَّفكُّرُ في ربوبيَّة اللّه تعالى إلى إفرادِه بالألوهيَّة.

بلاغةُ تتابُعِ التَّوكيد:

تأكيدُ الحقائق العظيمة لتثبيتها في النَّفس

تتابَعَ التَّوكيد في قولِه تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾، وذلك بـ(أَنَّ)، واسميَّة الجملة، وتكرار الإسناد - لمجيءِ المسنَدِ جملة فعليَّة - وقد أفادت التَّأكيداتُ المتتابعةُ تقويةَ مضمونِ الجملة لزيادة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 52.

تقريرِها في النَّفس؛ لما اشتملَتْ عليه من الحقيقةِ العظيمةِ، ومن حقِّ الحقائق العظيمة أن تُصاغَ بأسلوب التَّقرير والتَّأكيد؛ لتكونَ أثبتَ في النَّفس وأرسَخَ[1]، كما أنَّ المقامَ مقامُ استدلالٍ، فاقتضى ذلك حشْدَ ضُروبٍ مِنَ التَّوكيدِ.

مناسبَةُ التَّعبيرِ بِنون العظَمَةِ:

بيانُ عظمةِ خلقِ الله تعالى

في قول اللّهِ تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ جاء المسنَدُ إليهِ (نا) من ﴿أَنَّا﴾ بصيغة التَّعظيم، وأُسنِدَ الفعلُ (خَلق) إلى (نا) الدّالَّةِ على العظمة؛ ليدلَّ التَّعبير بأسلوبِ العظمة على أنَّ خلق الإنسانِ بهذه الهيئة والصّورة هو إبداعٌ عجيبٌ، وأنَّه بمقتضى عظمة اللّه سُبحانَهُ.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾:

﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ ابتدائيَّةٌ، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى ابتدأ خَلْقَ الإنسانِ من نطفة، ويجوزُ أن تكون بيانيَّة؛ لبيان مبدأِ خلقِ الإنسانِ، والأوَّلُ أظهَرُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿نُّطۡفَةٖ﴾:

حثُّ الإنسانِ على استشعار التَّواضع

جاء التَّعبيرُ بالنُّطفة التي يُعبَّر بها عن ماء الرَّجل لقلَّته[2]؛ للإشارة إلى أدنى ما كان الإنسانُ عليه وأحقَره وأمهنه، ولذا وردَت منكَّرةً؛ لقصد المبالغةِ في التَّحقير، ويحتمل أن يكون المرادُ ما يخرجُ مِن صُلْبِ الرَّجل وترائبِ المرأة، وذِكْرُ النُّطْفَةِ هُنا تَمهيدٌ لِلمُفاجَأَةِ بِكَونِهِ خَصيمًا مُبينًا عَقِبَ خَلقِه، أَي: ذَلِكَ الهَيِّنُ المَنشَأُ قَد أَصبَحَ خَصيمًا عَنيدًا، وليُبنَى عَلَيه قَولُهُ بَعدُ: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾، أَي: نَسيَ خَلقَهُ الضَّعيفَ، فَتَطاوَلَ، وجاوَزَ، فكان في التَّعبير بلفظ النُّطفةِ مجاراةً لزعمِهِ في نفي القدرة على الإعادةِ، وإن كانَ اللّهُ تعالى يُحيي ما هوَ أَضعَفُ مِنَ العِظامِ، فَيُحيي الإنسانَ مِن رَمادِهِ،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 349.

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نطف).

ومِن تُرابِهِ، ومِن عَجبِ ذَنَبِهِ، بل هو قادرٌ على إحياء مَن لم يبق منه شيءٌ[1].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظي:

دقَّـةُ البـيـانِ القرآنيِّ في انتقاء الألفاظ الملائمة لسياقاتِها

قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون: 12 - 13]، وقال سبحانَهُ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾، فاختصر ذِكرَ خلقِ الإنسان في سورة يس، وبَسَطهُ في سوَرٍ أخرى، فذكر أنَّه تعالى خَلَقَ الإنسانَ من نطفةٍ بواسطة متغيِّرات كثيرة، وسببُ الاختصار في سورة يس أنَّه تعالى أراد أن يُقيمَ الحجَّةَ بخلق الإنسان من نطفةٍ مهينةٍ، هي أخسُّ شيءٍ وأقلُّه، ولهذا أعقبهُ بقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾؛ ليفيدَ أنَّ الانتقالَ من هذه الحالِ الخسيسةِ إلى حالِ الإنسان الشَّريفة العالية لا يحصلُ إلّا بتدبيرِ عليم حكيم، فلمّا لم يكن القصدُ بيانَ مراحلِ الخلق؛ لم يذكرْ تغيُّرات الخلق المذكورةِ في آياتٍ أخرى، واختصرَ في الكلام.

دلالةُ الفاء في ﴿فَإِذَا﴾:

تنوُّعُ معنى الفاءِ تكثيرٌ للمعنى وتوسيعٌ له

الفاءُ في ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ﴾ للتَّرتُّب، فيَحتمل - وهو الظّاهر - أن تكونَ بمعنى ترتُّب تحوُّل الحالِ من خَلقهِ نطفةً إلى المخاصمة بالباطل مع ظُهور الحجَّة؛ إذ المقامُ مقامُ إنكارٍ على فِعْلِهم وجحودِهم الحشرَ، وهو المناسب لأنْ يكونَ الاستفهامُ إنكاريًّا، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الفاءُ لترتُّب الإنعام والتَّرقّي فيه، والمعنى: فإذا هو - بعد أن كان نطفةً مهينةً - قادرٌ على الخصام مِنْطيق لسِنٌ مُعْرِب عمّا في ضميره، فعلى هذا الوجه لا تقبيحَ للإنسان ولا ذمَّ في وصفِه بالخصومة[2]، والمقام حينئذٍ مقامُ امتنانٍ وإنعام، وهو من مُتمِّماتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 75.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 197.

شواهدِ صحَّةِ البعثِ، وهو المناسب لأَنْ يكون الاستفهامُ تقريرًا، وعلى كِلا الوجهين، يكون ما بعد الفاءِ داخلًا في حيِّز الاستفهامِ.

بلاغةُ المجازِ المرسل:

سرعةُ نسيان الإنسان مبدأ خلقِهِ تجعله خصيمًا لربِّهِ

لمّا كانت الفاءُ في قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ لا تفيد التَّعقيب الزَّمنيَّ؛ لأنَّه لم يُرَدْ بيانُ أنَّ الإنسانَ خصيمٌ في حال خلقِه من نطفةٍ، ولكنَّ المرادَ أنَّه خصيمٌ مبينٌ؛ إذا بلغ، وعقل، فيكون لفظ ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ على طريق المجاز المرسل، أي: باعتبار ما سيكون وما يؤولُ حالُه إليه، فَأَجْرَى المُنْتَظَرَ مَجْرى الواقِعِ[1]، ونكتةُ حذف الوسائط الكثيرة بينَ كونه نطفةً وكونه إنسانًا الإشارةُ إلى سرعةِ نسيان الإنسانِ مبدأَ خلقِهِ[2]، وأجاز السَّمين الحلبيُّ أن تكونَ الفاءُ على بابِها من دلالتِها على التَّعقيب الزَّمنيِّ، باعتبارِ أنَّ لفظَ (خَلَقَ) عبارةٌ عن إيجاد الإنسان من نطفةٍ وتربيتِهِ إلى أن يبلغَ حدَّ صِفَتَي الخصيم المبين[3]، ويدلُّ عليه عَوْدُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ إلى الإنسان، والتَّقديرُ: فإذا الإنسان - الذي يعلم أنَّه مخلوق من نطفة - خصيم مبين، فعلى هذا لا مجازَ في الكلامِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إذا) الفجائيَّة:

التَّدبُّرُ في خلق الإنسان يورثُ الإقرارَ بألوهيَّة اللّه تعالى وتوحيدِه

لمّا كان خَلْقُ اللّهِ تعالى الإنسانَ من نطفةٍ يترتَّب عليه أن يكونَ الإنسانُ قائمًا بحقوقِ خالقِهِ موحِّدًا له مؤمنًا برسلِه؛ كان إنكار البعث وجحودُ الحشر يوم القيامة من قبيل حصول غير المتوقَّع عند المخاطَبين، ففيه معنى ترتُّب الشَّيء على غير ما يُظنُّ أن يترتَّبَ عليه، فاستُعير لفظ (إذا) الدالُّ على المفاجأة لهذا المعنى، بجامع حصول غير المتوقَّع، ولا مفاجأة في الحقيقةِ في إنكار المكذِّبين للبعث، ولكنَّ المعنى: أنَّه لو تدبَّر النّاظر في خلق الإنسان؛ لتوُقِّعَ منه الاعترافُ بألوهيَّة اللّه تعالى وبقدرته على إعادة الخلق، وتُرقِّب منه ذلك، فإذا سمع منه الإشراك

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 789.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 190.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 190.

والإنكار للبعثِ؛ كان كَمَن فاجأه ذلك؛ لحصول غير المتوقَّع منه، أي: إنَّ الإنْسانَ خُلِقَ ليَعبُدَ اللّهَ، ويَعلَمَ ما يَليقُ بِهِ، فَإذا لَم يَجرِ عَلى ذلِكَ، فَكَأَنَّهُ فاجَأَ بِما لَم يَكُن مُتَرَقَّبًا مِنهُ، فاستُعيرت أداةُ المفاجأة (إذا) لهذا المعنى؛ ليكونَ في الكلامِ استعارةٌ تبعيَّةٌ، فأفاد مجيء أداةِ المفاجأة أمرين، أحدهما: التَّعجيب من تطوُّرِ الإنسان وتغيُّره من أمهن حالٍ إلى أبدع حالٍ، وهي حالُ صورة الإنسان عند خصومتِه وإبانتِه في الكلام النّاشِئَتَين عن التَّعقُّل، والآخر: تعجيبٌ آخرُ من مقابلة النِّعمة - التي لا مزيدَ عليها، وهي خَلْقُهُ من أخسِّ شيءٍ وأمهنه شريفًا مكرَّمًا - بالعقوق والتَّكذيب[1]، مع ظهور الأدلَّةِ على قدرةِ اللّهِ تعالى على إعادة إحياء الموتى وحشرِهم يوم القيامة، ففيه إدماجٌ بالدَّلالة على كفرانِهِ النِّعمةَ وصرفِهِ ما أنعمَ اللّهُ تعالى به عليه في معصيتِه وجحودِه.

فالجُملَةُ في ذاتِها تَنويهٌ، وبِضَميمَةِ أداةِ المُفاجَأَةِ أُدْمِجَ التَّعجيبُ مَعَ التَّنويهِ، كما أنَّ في مجيء أداةِ المفاجأة تنبيهًا إلى سرعة انقلابِ الإنسانِ المكذِّب إلى أن يكون خصيمًا مُبينًا، فصار بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا خصيمًا مبينًا، ولَو جاء في النَّظم القرآنيِّ: (فَهوَ خَصيمٌ) أَو (فَكانَ خَصيمًا)؛ لَم يَحصُلْ هَذا المَعنى البليغ[2]، وهذا جارٍ على وجهِ أن يكونَ الاستفهامُ على الإنكار - كما هو الظّاهر - وعلى وجه أن يكونَ الكلامُ على جهةِ الامتنانِ بظهور الإنعام في خلق الإنسانِ، يكون التَّعبيرُ بـ (إذا) الفجائيَّةِ لإفادةِ عدم الانتفاع ممّا كان مُترقَّبًا في ظهور النِّعمة وتمامِها في اتِّصافِه بهذين الوصفين، أي: في كونه خصيمًا مبينًا.

بيانُ مرجعِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

التَّعجيبُ مِن حالٍ مخصوصَةٍ للإنسانِ

الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ راجعٌ إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بما اتَّصفَ به، والمعنى: فإذا الإنسان الذي خلقناه من

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 52، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 103، 23/ 74.

نطفةٍ خصيمٌ مبين، فالتَّعجيب يَتقرَّرُ بعود الضَّمير إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ بما اتَّصف به، لا إلى الإنسانِ مجرَّدًا عن هذا الوصفِ.

دِلالةُ الجُملة الاسميَّة:

تـأصُّـلُ وصف الـخـصـومـةِ في الإنسانِ

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على استقرارِ الإنسان في الخُصومةِ واستمرارِه ودوامِهِ عليها، وأنَّها صارت وصفًا ملازِمًا له لا ينفكُّ عنه بحالٍ من الأحوالِ[1].

نكتةُ إسنادِ الخصومةِ إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾:

الإنسانُ مفطورٌ عـلـى الإقـــرارِ بالتَّوحيد

لَمّا أسندَ اللّه تعالى خلْقَ الإنسان إليه، فقال: ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، ثمَّ أسند الخصومة إلى الإنسان نفسِه، فقال: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، ولم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (جعلناه خصيمًا مبينًا)؛ أفاد أنَّ فطرة الإنسان مُقِرَّةٌ بالتَّوحيد وبالحشر يوم المعاد، وأنَّ الإنسان بفعلِه وعملِه ينقلب إلى أن يكون خصيمًا مبينًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿خَصِيمٌ﴾:

المـخـاصـمـةُ فـي الـبـاطـل مـذمـومَـةٌ، وفي الحقِّ محمودةٌ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿خَصِيمٌ﴾؛ للإشعار بشدَّةِ منازعتِه وعنادِه وجدالِه، وأنَّه في جهة وشقٍّ مِنَ الحِجاج والدَّعوى[2]؛ إذ الخصيم هو الجَدِلُ البارع في الخصومة اللَّسِنُ فيها، وهي صفة ذمٍّ إن كانت بمعنى المخاصمة لأجل إنكارِ البعثِ، فيُقْصَدُ باللَّفظ المنازعةُ في الباطل، بحيث إنَّه في دعواه وجداله بعيدٌ عن الحقِّ، كما يُقْصَدُ باللَّفظ إنشاء الخصومة وتحقُّقها فعلًا.

وقد أجاز بعضُ المفسِّرين أن يكون الوصفُ مِن تمام بيانِ نعمة اللّه تعالى على الإنسانِ ببديع صُنْعه، فيكون المرادُ من لفظ الخصيم: القادرُ على الخصومةِ المتهيِّئُ لها، المُعْرِبُ عمّا في نفسِه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 180.

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خصم).

في المحاورة والمخاصمة[1]، وحينئذٍ يشمَل اللَّفظُ المؤمنَ والكافرَ، فالمؤمنُ مخاصِم لإظهار الحقِّ، والكافرُ مخاصم بالباطلِ، فهو مِنَ الكلام الجامعِ للمعنى وضدِّه[2].

دلالةُ صيغةِ (فعيل):

الإفــــراطُ في المخاصمةِ من أوصافِ الإنسانِ المذمومة

عُبِّرَ بصيغةِ فَعيل في قولِه: ﴿خَصِيمٌ﴾، وهي محتملةٌ لأن تكونَ بمعنى اسم الفاعل من الفعل: خاصَمَ، أي: مخاصِمٌ، مثل: جليس ومجالس، والمعنى: فإذا هو مخاصِمٌ مُبين، ففيه إشعارٌ بأنَّه هو البادئُ بِالخصومة الرّاغب فيها، ويحتمل أن تكونَ بمعنى اسم الفاعل من الفعل: خصم، أي: هو خاصِمٌ، بمعنى مُخْتَصِم، وعلى الوجهين فإنَّهُ يُقصد باللَّفْظِ الإفراطُ في الخصومة والمبالغة فيها.

علَّةُ إيثارِ مجيءِ لفظِ ﴿خَصِيمٌ﴾:

إبـداعُ الإنـسانِ في كونِه منطيقًا فـاهـمًا أعجبُ من إبداعِ جسمِه وصورَتِه

في مجيء لفظ ﴿خَصِيمٌ﴾ في قوله: ﴿هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ نكتةٌ على الوجهين في المعنى، فعلى القول بأنَّ لفظ ﴿خَصِيمٌ﴾ على معنى الذَّمِّ، وأنَّه داخلٌ في حيِّز الاستفهام الإنكاريِّ، فإنَّ إيثارَ التَّعبيرِ به تقبيحٌ بليغ لإنكارِه البعثَ، وهو مِن تمام الدَّليل على التَّعجيب مِنَ المكذِّب بالحشر وطغيانِه، وبيان تناقضِه لجحودِهِ قدرةَ اللّهِ تعالى على إحياء الموتى، مع اعترافِهِ بأنَّه تعالى هو الذي بدأ خلقَهُ من نطفة، وبيان مقابلة نعمة اللّه تعالى عليه - بأنْ خَلَقَهُ من نطفةٍ مهينةٍ إنسانًا شريفًا مكرَّمًا - بالجحود والإنكار والتَّكذيب[3].

وعلى القول بأنَّ الخصيمَ من تمام بيان نعمةِ اللّهِ تعالى على الإنسان في أن جَعَلَهُ خصيمًا منطيقًا متكلِّمًا؛ فإنَّ إيثارَ التَّعبيرِ به، فيه نكتةٌ؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ خَلْقَهُ الإنسانَ بأعضائِهِ

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2373، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 308، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 197.

(2) ابن عجيبة، تفسير ابن عجيبة: 3/ 8.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274.

المختلفة من جزءٍ واحدٍ؛ أَعقبه بذكرِ آيةٍ أظهرَ، وهي نطقُه وفهمُه؛ إذ إنَّ النُّطفَةَ جِسمٌ، فَإبداعُ النُّطقِ والفَهمِ أَعجَبُ وأَغرَبُ مِن إبداعِ الخَلقِ والجِسمِ، وهو يشيرُ إلى عظيمِ قدرةِ اللّه تعالى، ثُمَّ إنَّه لمّا كان لفظُ الخصيمِ يدلُّ على النُّطقِ في الخصومةِ؛ كان لقائلٍ أن يقولَ: لِمَ لَمْ يُذْكَرِ النّاطقُ مكانَ الخصيمِ؟ وجوابه أنَّ الخصيم "أَعْلى أَحْوالِ النّاطِقِ، فَإنَّ النّاطِقَ مَعَ نَفْسِهِ لا يُبَيِّنُ كَلامَهُ مِثْلَ ما يُبَيِّنُهُ، وهوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ غَيْرِهِ، والمُتَكَلِّمُ مَعَ غَيْرِهِ إذا لَم يَكُن خَصمًا، لا يُبَيِّنُ، ولا يَجْتَهِدُ مِثْلَ ما يَجْتَهِدُ إذا كانَ كَلامُهُ مَعَ خَصْمِهِ"[1]، فظهرت دقَّةُ اختيارِ اللَّفظِ ومناسبة التَّعبيرِ بهِ دون غيرِهِ من الألفاظِ.

دلالةُ لفظ ﴿مُّبِينٌ﴾:

ظُهورُ خُصومَةِ الإنسانِ ومُجاهَرَتُهُ بها

يحتمل أن يكونَ لفظ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: بيِّنٌ بيِّن، فيكون صفةً مشبَّهةً، والمعنى: فإذا هو ظاهرُ الخصومةِ واضحُها، ويجوز أن يكون بمعنى: اسم الفاعل، أي: مُبين عن نفسِه الخصومةَ بالباطل، أو مفصِحٌ عَمّا في ضَميرِهِ بِالخُصومَةِ؛ ليفيد أنَّه مجاهرٌ بها[2].

فائدةُ تعدُّدِ الخبر:

الخصيمُ المُبينُ يستطيعُ إيهامَ المُخاطَبين بباطلِه

تعدَّدَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[3]؛ ليفيدَ تنوُّعَ الوصفِ والجمعَ بينهما، فالمعنى: هو خصيمٌ، وهو مُبينٌ، وهو المناسِبُ لسياقِ الذَّمِّ والإنكارِ على المُخاصمةِ في قدرةِ اللّه تعالى على إحياءِ الموتى وحشر النّاس يوم القيامةِ، فإنَّ الخصيمَ إن لم يكُن مبينًا؛ لا تنفَعُ خصومَتُه، والمبينَ إن لم يكن خصيمًا؛ لم يكن موَفّيًا معنى الإنكار على منازعته في الباطل وبراعته فيها، والمعنى: فإذا هو منازعٌ في الباطل مفصِحٌ عمّا في ضميرِه بأنواع الحُجَجِ، ويُشْعِرُ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 308.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 12، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 52، والقنّوجي، فتح البيان: 11/ 325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 74.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 102.

الجمعُ بينَ الخَبَرَيْنِ أنَّ الخصيمَ المبينَ يستطيعُ إيهامَ المخاطَبين بباطلِه لقدرتِه على الإفصاح وإدارة القولِ وتحويرِه.

وتجدُرُ الإشارة إلى أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون صِفَةً للخبر ﴿خَصِيمٌ﴾[1]، فيكون من باب تقييدِ الموصوفِ بالصِّفة؛ للإشعار بأنَّ المقصود هو الإخبارُ عن كونِه خصيمًا، وجاءت الصِّفة مقيَّدةً للخبر على معنى ثبوتِ الوصفِ لَهُ.

❁ الفروق المعجميَّة:

الجدال والخصومة:

براعةُ التَّعبيرِ بلفظ الخصيمِ دونَ المجادلِ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ الجدالَ هو المفاوضةُ على سبيلِ المنازعة والمغالبة، وأصلُهُ من: جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ فتلَهُ، فكأنَّ المتجادلين يفتل كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيِه، والجدالُ قد يكون في الحقِّ بإيراد الأدلَّة والحجج، وقد يكون في الباطل[2]، وأمّا الخصومةُ؛ فهي بمعنى المنازعة على أمرٍ بحيث يكون المخاصمُ على شقٍّ من الآخر[3]، بعيدٍ عنه في الحسِّ أو في المعنى، ولمّا كانت الخصومةُ على معنى المنازعةِ؛ أفاد ذلك أنَّ الخصومةَ لِجاجٌ في الكلام ليستوفيَ الخصيمُ به مقصودًا من مالٍ أو نصرةِ مذهبٍ أو غيره، وتارةً تكون الخصومة ابتداءً، وتارةً تكون اعتراضًا.

وجاء التَّعبيرُ بالخصيم في قوله تعالى: ﴿هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ دون المجادِل؛ للإشعار بأنَّه على شقٍّ بعيدٍ من الحقِّ لإنكارِه البعثَ يوم القيامة، وأنَّه لا يزال ينازعُ في باطلِه ليستوفيَ مقصدَهُ من حفظِ جاهٍ أو شهوة أو هَوًى.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 234.
(2) الراغب، المفردات: (جدل).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خصم).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨﴾ [يس: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسفيهُ حججِ الكافرين الواهيةِ وأقوالهم البالية

لمّا كان قولُ اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ فيه تعجيبٌ من حال المنكِر لقدرة اللّه تعالى على إعادةِ إحياءِ الموتى بالدَّليل الكلّيِّ، وهو خلقُه تعالى الإنسانَ من نطفةٍ؛ أعقبَهُ بالإخبار عن تسفيهِ حُجَجِهم الواهية وأقوالِهم البالية الجارية على العنادِ والتَّكذيب والتَّعجيب بما ضربوه مثلًا، فقال سبحانَهُ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

ومِنْ أوجهِ المناسبةِ أيضًا: أنَّه لمّا كان قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ على معنى: نازَعَ في الإشراك بِنا وعبادة غيرنا، وخاصَمَ رُسُلَنا بما آتيناهُ مِنَ البيانِ؛ أعقبَهُ بذكر تَقْبيحِ إنكارِهم البعثَ تقبيحًا لا يُرى أعجبُ منه، ولا أبلغُ ولا أدلُّ على التَّمادي في الضَّلال والإفراط في الجحود وعقوق الأيادي والنِّعم، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَمِيمٌ﴾: (رمم) تدُلُّ اشتقاقاته على بلاءِ الشَّيءِ، يُقال: رَمَّ الشَّيْءُ؛ إذا بَلِيَ[2]، والرِّمَّةُ بالكسر: العظامُ البالية، والجمع: رِمَمٌ ورمامٌ، تقول منه: رَمَّ العظمَ يَرِمُّ بالكسر رَمَّةً، أي: بَلِيَ، فهو رميم[3]، والرُّمَّةُ من الحَبل بِضَمِّ الرّاء: ما بَقِي مِنْهُ بعد تَقَطُّعه، وجَمْعها:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رمّ).
(3) الجوهري، الصحاح: (رمم).

رِمَمٌ، ومن هذا يُقال: أعطيتُه الشَّيءَ بِرُمَّته، أَي: بجماعته[1]، والمُرادُ بالرَّميم في الآيةِ: البالي أشدُّ البلى، بزِنَةِ: فعيل، بمعنى: فاعل، مِن: رمَّ اللّازمِ، بمعنى: بَليَ، أو بمعنى: مفعول، مِن: رمَّ المتعدّي، بمعنى: أُبليَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القـادِرُ على الأعـظَـمِ قـادِرٌ عـلـى الأهـوَنِ الأدوَنِ لا مَحالةَ

إنَّ هذا الإنسانَ الجاهلَ المجادلَ بالباطلِ، لم يكتفِ بمطلق الإنكارِ، بل ضربَ لنا مثلًا هو في غاية الغرابةِ، فقد أَنْكَر قُدْرَتَنا على إحياء الموتى، وعلى بعثِ العبادِ يوم القيامة، فقال - دون أن يَفْطِنَ إلى أصل خِلْقَتِه -: مَن يُحْيي العِظام، وهي رميمٌ؟ أي: وهي باليَةٌ أشَدُّ البِلى[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

التَّعجيبُ من حـال المنكرين وجـرأتِـهـم على الله تعالى

وُصِلَ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بما قبلَهُ، وهو قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، فتكون الجملةُ داخلةً في حيِّز الإنكارِ والتَّقبيح، أي: إنَّ الجهةَ الجامعة بين الجُمْلَتَيْن هيَ الإنكارُ على المكذِّب بالحشر وتقبيحه والتَّعجيب من حالِه، ويَحْتَملُ أَنْ تكون الجملةُ معطوفَةً على ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، والجامع بينهما هو التَّعجيب من جرأتِه على اللّه تعالى ومن عنادِه وتكذيبه كذلك، والتَّقدير: ففاجأ خُصومتنا، وضرَب لنا مثلًا[3].

دلالةُ الخَبَرِ في الآيَةِ:

توبيخُ الإنْسانِ لـجَـراءَتِـه على اللهِ تعالى

الجملةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ جملةٌ خبريَّةٌ على معنى الإنكارِ مِن ضربِه المثلَ والتَّعجيب منه، وفيه توبيخٌ شديدٌ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (رمم).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 56، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 391.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 197.

لجرأتِه على اللّه تعالى، ففي الجُمْلَةِ مجازٌ مرسل مركَّبٌ، خرج فيها الخَبَرُ عَن أصلِ دلالتِه من إرادَةِ إعلامِ المُخاطَب بمَضْمونِ الجُملةِ إلى معنى التَّوبيخ والزَّجْرِ.

بلاغَةُ الاستعارَةِ:

ضَرْبُ المثل لا يقتضي صحَّةَ الممثَّل به ولا قبولَ الاحتجاجِ به

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ استعارةٌ تبعيَّة لِلَفْظِ ﴿وَضَرَبَ﴾، وهو مأخوذٌ إمّا مِن ضربِ الخاتم، بجامع التَّطبيق، فكما أنَّ ضربَهُ تطبيقُه بقالَبِه، كذلك استعمالُ الأمثال في مضاربها تطبيقُها بها، كأنَّ المَضاربَ قوالبُ تُضرَبُ الأمثالُ على شاكلتها، فيكون المعنى في الآيةِ: أنَّ المنكِر لإحياء العظامِ - وهيَ رميم - قد أوردَ مَثَلَه منطبقًا على مضاربه، وإمّا مِنْ ضربِ الطّينِ على الجدار ليلتزقَ به، بجامع الإلصاقِ، كأنَّ مَنْ يستعمل الأمثالَ يُلصِقها بمَضاربها، ويجعلُها ضربةَ لازِبٍ، لا تنفكُّ عنها لشدَّةِ تعلُّقِها بها[1]، فيكون المعنى: أنَّ المنكِر قصَدَ إنكارَ إحياءِ العظام، وأنَّه ثابتٌ لا ينفكُّ، ويحتَمِلُ أن يكون مأخوذًا من قولهم: ضربَ في الأرض، بمعنى: سارَ، وشاعَ في البلاد وعلى ألسنة النّاس[2]، أو أن يكونَ مأخوذًا من ضرب الخيام على الأرضِ، وهو نصبُها على الأرض، فتظهر للنّاظرين من بعيدٍ، كأنَّ المثَل ظاهرٌ بارزٌ للنّاس كظهور الخيام أمامَ الأعين، وعلى جميع الأوجه، فالمرادُ من ضربِ المثل بيانُ الممثَّل به وإيضاحُه، بما هو ظاهرٌ للعيان، ولمّا تعلَّق ضرْبُ المثل بالجارِّ والمجرور ﴿لَنَا﴾؛ أَفاد أنَّهَ ضَربَ المثَلَ لبيان عجزِ اللّه سُبحانه - تعالى اللّه عن قوله - عن إحياء العظام الباليةِ وذلك بتشبيهه بالمخلوقين، وأنَّ المكذِّب المُنْكِر للحشرِ قَصَدَ أنَّ الأمرَ ظاهرٌ واضحٌ، فأعقبه دفعَ شبهتِه، وكذبَ ادِّعائِه بالجملة الاعتراضيَّة ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 114، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 72.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 2/ 271.

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لَنَا﴾:

النَّهيُ عن ضَرْبِ الأمثالِ الباطِلَةِ

اللّام في ﴿لَنَا﴾ يجوز أن تكون تعليليَّةً، بمعنى: لأجل، أي: ضرب لأجلنا مثلًا في عدمِ قدرتِنا على إحياء العظامِ، وهي رميمٌ، والمعنى: جعل قدرتنا كقدرتِهم، فشبَّهَنا بالمخلوقين في هذا الأمرِ، ونسي خلْقَهُ العجيب وبَدْأَهُ الغريب، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللّامُ للاختصاصِ، بمعنى: أنَّه ضرب مثلًا ممّا هو مختصٌّ بنا، وهو قُدْرَتُنا على إحياءِ العظام - وهيَ رميم - أو يكون الاختصاصُ بمعنى أنَّ ضَرْبَ الأمثالِ مختصٌّ بنا، ففيه إيذانٌ بالنَّهي عن ضرب مِثْلِ هذا المَثَلِ وتأكيد لإنكارِه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل: 74].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

عِـظَـمُ جَـراءةِ الكافِرِ على الله تعالى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَنَا﴾ على المفعول به ﴿مَثَلٗا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾؛ لبيان عظيمِ قُبْحِ ضربِه المثلَ للّهِ تعالى، ولتقديمِ سببِ إنكار ضربِ المثل اهتمامًا بشأنِه واعتناءً به، وقرَّر هذا المعنى مجيءُ الضَّميرِ بضمير العظمة (نا)؛ ليفيد جراءتَهُ على ضرب المثلِ للّه العظيم جَلَّ جَلَالُهُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (المثل):

المـــرادُ بـالمـثَـلِ الأمْــرُ الـغريبُ العجيبُ

لفظُ المَثَل يطلق على الحال الغريبة الشَّأن؛ لأنَّها بحيث تُمَثَّلُ للنّاس، وتوضَّحُ، وتُشبَّه، ولفظ المثل في قولِه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾ ليس من ضُروبِ الأمثال التي تُطلَبُ؛ لأنَّ ضَرْبَ هذا المثل جاء في سياق الإنكارِ والتَّقبيح، وإنَّما هو مستعارٌ لأمر عجيبٍ؛ لكونِه مشابهًا للمثل في الغرابة، وبيانُ كونِه كذلك: هو أنَّه لمّا كان إنكارُ قدرةِ اللّه تعالى على إحياءِ الموتى أمرًا عجيبًا شبيهًا بالمثل في غرابتِه، سُمّي هذا الإنكارُ مثلًا، بمعنى: أورد قصَّةً عجيبةً شبيهةً بالمثلِ في إنكارِه قدرةَ اللّه تعالى على إحياء الموتى، أي: لِما فيه من تشبيه اللّه تعالى

بخَلْقِهِ بوصفه بالعجز عمّا عجزوا عنه، أو أن يكونَ المثَلُ بمعنى تمثيلِ الحالِ عند المنكِر، أي: أورد قصَّةً عجيبةً في زعمِه، واستبعدَها، وعدَّها من قبيلِ المَثَلِ، وأنكرَها أشدَّ الإنكارِ، وهي إحياؤُنا العظامَ، وهي رميم، وجعلَ لنا مَثَلًا ونظيرًا مِنَ الخلقِ، وقاسَ قُدرتنا على عَجْزِ قُدرتهم؛ إذ أحالَ إحياءَنا العِظام بعد أَنْ بَلِيَت[1].

دلالةُ تَنكير ﴿مَثَلًا﴾:

تحريمُ ضربِ الأمثالِ الباطلةِ لله تعالى

لَمّا كان سياقُ الكلام سياقَ إنكارٍ من ضربِ المثل ومن ضاربِه، وتعجيبٍ من حالِه؛ كان تنكيرُ لفظ ﴿مَثَلًا﴾ مفيدًا تحقيرَ المثل الذي ضربَهُ المقتضي تكذيبَه، ويحتَمِلُ أن يكون التَّنكير للتَّهويل، أي: تهويل ضرْبِ المثلِ للّه تعالى؛ لأنَّ الأمثال لا تُضْرَب للّه سبحانه؛ لأنَّه يقتضي أنَّ الذي يضرب المثل أعلمُ مِنَ اللّه تعالى وأحكم منه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل: 74].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾:

الحثُّ على المبادرة إلى بيان غباءِ المُنْكرين قبل استيفاء الرَّدِّ عليهم

الواو في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ عاطفةً، وجملةُ: (نَسيَ خَلقَهُ) معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾، فتكون داخلةً في حيِّز الإنكارِ والتَّعجيب من حالِه، ويجوزُ أن تكون حاليَّة[2]، فتفيد معنى التَّعجيبِ كذلك، أي: ضرب لنا مثلًا، والحالُ أنَّه قد نسي خلقَه، ويحتمل كذلك أن تكون جملة ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ معترضةً بينَ قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾ وقوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾[3]، وفائدة الاعتراضِ: الإشارةُ إلى غفلة ضاربِ المثلِ وشدَّة غبائِه، وإبطالُ الإنكارِ ودفعُ الاستبعادِ قبلَ الجواب عن الشُّبهة، والمعنى: كيف

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 526، والزمخشري، الكشاف: 4/ 30، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 349.

يَسْتَبْعِدُ إحياءَ العِظام مع أنَّ جوابَه من نفسِه حاضرٌ، وهو قريبٌ منه؛ ليُفيد سفاهة عقله وضَعْفَ شبهته، فتكون الجملةُ الاعتراضيَّة دالَّةً على رفع التَّوهُّم وإزالة اللَّبسِ[1] عن المخاطَبين بدفع استبعادِه وقوعَ الحشر بأمرٍ هو أقربُ إليه من أيِّ شيءٍ، وهو خلقُ اللّه تعالى إيّاه من نطفةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَنَسِيَ﴾:

التَّعجيبُ من حالِ المنكِر في إيراده الشُّبَهَ الواهيةَ

النِّسيانُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ بمعنى الذُّهول والغفلة عن ذكرِ مبدأِ خَلقِهِ من نطفةٍ، ويَحْتَمِلُ أن يكون بمعنى التَّرك، أي: تَرْكَ النَّظرَ والاستدلالَ بخلق اللّه تعالى إيّاه من نطفة على قدرةِ اللّهِ سُبحانَهُ على إحياءِ الأموات[2].

وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ لفظَ ﴿وَنَسِيَ﴾ مستعارٌ لانتفاء العلم من أصلِه[3]، فيكونُ استعارة تصريحيَّةً تبعيَّة بجامع الذُّهول عن الأمرِ، فعُبِّرَ بالنِّسيان لعدم الاهتداءِ إلى كيفيَّة الخلق الأوَّل، أي: لم يهتدِ إلى أنَّ خَلْقَهُ من نطفةٍ أعجبُ من إعادة خلقِه وأبينُ دلالةً على قدرتِنا على إحياء العظامِ، وهي رميمٌ، والتَّعبير بلفظ ﴿وَنَسِيَ﴾ يفيد أنَّه بمجرَّد النَّظرِ اليسير في خلقِه يعلم أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على إحياء العظامِ، وهي رميمٌ، ويذعن بالأمرِ، ففي التَّعبيرِ بلفظ النِّسيانِ تعجيبٌ مِن حالِ المنكِر كيفَ يُتْعِبُ نفسَهُ في الباطل وإيراد الشُّبَهِ الواهيَةِ، ولا يلتفت إلى خلقِهِ الذي يتنبَّه له بأدنى نظرٍ؛ ليقتَضيَ ذلك أنَّ نسيانَهُ حاصلٌ على طريق المكابرة والاستبعادِ لما لا يُستبعَد ممّا هو قريبٌ منه.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿خَلْقَهُۥ﴾:

دعوةُ العبادِ إلى التَّأمُّلِ والنَّظَرِ

الإضافةُ في قوله: ﴿خَلْقَهُۥ﴾ من قبيلِ إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه،

(1) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/ 616 وما بعدها.
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 5/ 33، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 526.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 75.

والتَّقديرُ: ونسي خلقَنا إيّاه[1]، ونكتةُ حذفِ فاعل المصدرِ: أنَّ المقامَ مقامُ استدلالٍ على أنَّه تعالى هو الفاعلُ، فلا يَحْسُن إظهاره؛ ليَصِلَ النّاظر بنفسِه إلى فاعل الخلقِ، فيكون أشدَّ إقرارًا وإذعانًا، كما أنَّ التَّعبيرَ بالنِّسيان يفيد غفلتَه عن الفاعلِ وذهولِه عنه.

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ﴾:

سعيُ المنكرين المكذِّبين إلى إثبات شُبهاتِهم بتَفْصيلِها وبيانِها

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، واقعًا جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ ضربهِ المثلَ، كأنَّه قيل: أيَّ مَثَلٍ ضربَ؟ أو ماذا قال في مَثَله؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾؛ ليكون تفصيلًا للإجْمال الذي قبله[2]، ويحتملُ أن يكون فصل الجملةِ؛ لكونها بيانًا لقولِه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾[3]، وعلى الوجهين فإنَّ مجيءَ التَّفصيل بعد الإجمال أو البيان بعده؛ يفيد سعيَ المنكرِ إلى إثبات شبهتِه وبيانها للمخاطَبين.

نكتةُ التَّعبير بالقول:

سَعْيُ أهلِ الباطلِ في نَشْرِ باطِلِهم

ذُكِرَ لفظُ القول في جملةِ الاستفهام من قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ بذكر القولِ على سبيلِ التَّصريح والإشهارِ به، وكأنَّه كان يتوهَّم أنَّه لا أحدَ يُجيبُه، فقصد أن يكون قولُهُ صريحًا؛ ليكون كالمثل في سَيْرِه واشتهاره على الألسنة؛ إشعارًا بتكبُّره ولَدَدِه وسَعْيِه إلى نشر التَّكذيبِ والكفر.

بلاغةُ الاستفهام الإنكاريِّ:

إنكارُ وقوعِ البعثِ يوم القيامة من أشدِّ أنواع الكفرِ

جملةُ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ استفهاميَّةٌ، وقد خرج الاستفهامُ عن أصلِ دلالته من طلبِ العلم بشيءٍ لم يكُن معلومًا مِنْ قبلُ، إلى معنى الإنكار، وهو إنكارٌ وقوعيٌّ، أي: لإنكار أن يكونَ إحياءُ العظام - وهي رميمٌ - ممّا يوصَفُ اللّه تعالى بكونه قادرًا عليه ومن أن يقَع، بمعنى

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 113.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 440.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 75.

إحالةِ أن يكونَ اللّه تعالى موصوفًا به وإحالة وقوعِه(1)، فاسْتَبْعَد المنكِرُ وقوعَ الحشرِ عن طريق ذِكرِ الشُّبهة، وهي نفيُ قدرةِ اللّه تعالى على إحياء العِظام بَعْدَ البلى(2)، ففي الكلامِ بيانٌ لشدَّةِ كُفْرِ المنكِر وتكذيبِه، وأنَّه بلغ مِنَ الكفر مبلغًا عظيمًا.

دلالةُ الاستفهامِ بلفظ ﴿مَن﴾:

مِن شُبَهِ الكافرين تشبيهُ قدرةِ الله تعالى بقدرة المخلوقين

جاء الاستفهامُ بـ ﴿مَن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ وهو اسمٌ يدلُّ على العمومِ؛ وذلك لتعميم الإنكارِ، فيدخل فيه إنكارُ أن يكونَ اللّه تعالى يحيي العظامَ، ونكتةُ التَّعبير بلفظ العموم دون أن يقولَ المنكِر مثلًا: (اللّه لا يحيي العظام، وهي رميمٌ): الطَّعنُ في قدرة اللّه تعالى وإيراد الشُّبهة في إحيائِه الموتى، وذلك بتشبيهِ اللّه تعالى بخلقه في العجز، وفي أنَّهم غيرُ موصوفين بالقدرة على إحياء العظام، وهي رميمٌ، والمعنى على قول الكافرِ المكذِّب بالحشر: لا أحدَ يحيي العظامَ، وهي رميمٌ.

مناسبةُ إيرادِ المسند جملةً فعليَّةً:

جاء التَّعبيرُ بالمسند جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾؛ لتقويةِ حكم إنكارِه إحياءَ العظام؛ ليفيدَ اجتهاد المُنْكِر في تقريرِ شُبهتِه.

دلالةُ الواوِ:

الحالُ واردةٌ لبيان الواقع لا قَيْدًا مُخْرِجًا لِما عداه

الواو في قوله: ﴿وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ حاليَّةٌ، والجملة بعدَها: حالٌ من المفعول به ﴿ٱلۡعِظَٰمَ﴾، ولمّا كان الحالُ على معنى اقترانِه بصاحبِه؛ أفاد الكلامُ إنكارَ أن يحيي أيُّ أحدٍ العظامَ في حال كونِها باليةً، وليست الحالُ هنا للتَّقييد بل هي حالٌ للبيانِ والإيضاح، ولهذا جاءت جملةً اسميَّةً لإرادَةِ الثُّبوت واللُّزوم، بمعنى: أنَّ المنكِر لَم يقصد نفيَ إحياء اللّه تعالى العظامَ بِقَيْدِ رمِّها وفتاتِها، أي: إن لَم تكن قد رُمَّت؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 308، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274.
(2) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 20/ 555، والزمخشري، الكشاف: 4/ 31.

فإنَّه يعترف بقدرةِ اللّهِ تعالى على إحيائِها، بل قَصَدَ بِذِكْر الحال زيادةَ تأكيدِ الإنكار وبيانَ الشُّبهة في أوضح طريق، فالحالُ هنا بيانٌ لواقعِ ما تنتقل العظامُ إليه، ويصاحبُها في الغالب، وليست قيدًا مُخْرِجًا لما عداه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالحالِ دون الصِّفةِ:

الحـالُ جامعٌ لـلـمَـعْـنَـيَـيْنِ، والـوَصْـفُ يُـرادُ بـه الإخـبـارُ عَن معنًى واحدٍ

جاء جملةُ ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ في موضع الحالِ، ولم تُصغ في موضع الصِّفة بأن يقال: (من يحيي العظام الرَّميم)؛ لأنَّ المنكِر قَصَدَ الإخبارَ عن إنكار إحياءِ العظام، والإخبارَ عن إنكارِ إحياء العظام في حالِ كونها رميمًا، ففيه ترقٍّ في الإنكار، فكأنَّه قصد إنكارَ إحياء العظام أصلًا، ثمَّ ترقّى في الإنكار، فقال: فكيف إذا كانت العظام رميمًا؟ كما أنَّه لمّا كان الحالُ على معنى الزَّوالِ والانتقالِ وعدم الثَّباتِ؛ قُصِدَ بمجيئِه زوالُ العظام وعدمُ إعادتِها، فالمُنْكِر أراد تقريرَ شبهتِه بإيرادِ الجملةِ حاليَّةً، بخلاف ما لو جاءَ الكلامُ بطريق الصِّفة؛ فإنَّه سيكون قد قصد الإخبار عن أمرٍ واحدٍ، وهو إنكار إحياءِ العظام الرَّميم، ويُلمَحُ منه ثباتُ العظام الرَّميم وعدمُ زوالِها، وهو خلافُ المقصود من إيراد الشُّبهةِ، فمَجيءُ الكلام بصيغة الحالِ أبلغُ في الإنكار وإيراد الشُّبهة، ومثله في قصد التَّعبيرِ بمَعْنَيَيْنِ ما ذكرَهُ علماءُ البلاغة فيما لوقيل: (جاء زيد راكبًا) و(جاء زيد الرّاكب)؛ فإنَّه في الأوَّل قصد الإخبار بالمجيء وبالرُّكوب، وفي الثّاني: قصد الإخبار بالمجيءِ فقط[1].

نكتةُ ذِكْرِ ﴿ٱلْعِظَامَ﴾:

تـقـريـرُ أهـلِ الباطِلِ لِشُبَهِهِم

لمّا كانت ﴿ٱلْعِظَامَ﴾ أصلبَ شيءٍ وأبعدَه عن قبولِ الحياة، ولا سيَّما إذا بَلِيَتْ، وأَرِمَتْ، فكان التَّعبيرُ بها أدلَّ على استبعادِ إحيائِها؛ تعزيزًا لتقرير شبهتِه الواهية.

---

(1) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 551.

سببُ مجيء ﴿رَمِيمٌ﴾ مجرَّدةً عن تاء التَّأنيث:

لِحَذْفِ التّاء من (رميم) أوجهٌ متعدِّدة في العربيَّة

لمّا كان الرَّميم اسمًا لِما بَلِيَ من العظام غير صفةٍ، كالرِّمَّة والرُّفات؛ كان اسمًا بالغلبةِ، فجاء مجرَّدًا مِن تاءِ التَّأنيث مع أنَّه وقع خبرًا للضَّمير المؤنَّثِ (هيَ)[1]، وقد يكون حَذْفُ التّاء لكونِه معدولًا عن (فاعلةٍ)، وما كانَ مَعْدولًا عَنْ وجْهِهِ ووَزْنِه؛ كانَ مَصْروفًا عَن إعرابِه[2]، أو لأنَّ صيغة (فَعيل) في قوله: ﴿رَمِيمٌ﴾ ممّا يستوي فيها المذكَّر والمؤنَّث[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَمِيمٌ﴾:

تفنُّنُ المنكرين للبعثِ في إيراد الشُّبه الواهيَةِ الباطِلة

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿رَمِيمٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؛ لأنَّ العظامَ الرَّميم هي التي تكون في غاية البِلَى؛ بحيث تَفَتَّتَتْ أَجزاؤها، وسُحِقَتْ، وتطايرَتْ بالرّياحِ، وإذا نُفِخَ فيها؛ لم يُسمَعْ لها دويٌّ[4]، ولمّا كان المُنْكِر للحشرِ قَصَدَ تقريرَ إنكاره وإظهارَ شبهته، باعتبار أنَّ العظامَ؛ إذا بَلِيَت، ويَبِسَت، تَفَتَّتَتْ، وصارت تُرابًا يمرُّ مع الرّياح؛ كان إنكارُ إحيائِها أشدَّ ظهورًا من إيراد شُبْهَةِ العظام نفسِها.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 31، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 179.

(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 22/ 310، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 29، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274.

(3) وابن منظور، لسان العرب: (رم)، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 440.

(4) الراغب، المفردات: (رمم).

﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾

[يس: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

ردُّ الشُّبهاتِ يكون بأوضحِ دليلٍ وأبينه

لَمّا جاء الكلامُ مُبيِّنًا إنكارَ الكافر المكذِّبِ لقدرة اللّه تعالى على إحياء العظام، وهي رميمٌ، وكان هذا الموطنُ مِمّا يتشوَّفُ فيه السّامعُ إلى الجوابِ؛ جاء قوله تعالى مُستَأنَفًا لخطاب من لا يفهم هذه المجادلة حقَّ فهمِها؛ رادًّا عليه الشُّبهةَ أبلغَ ردٍّ وأبينَه، فقال تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَهَآ﴾: (نشأ) تدُلُّ تصريفاتُه على الإيجاد والابتداء والإحداث، يُقالُ: نشأ، وأنشأ؛ إذا خرج، وابتدأ، وأنشأ يفعل كذا، ويقول كذا؛ إذا ابتدأ يفعل ويقولُ[1]، ومِن هذا الأصلِ عُبِّرَ به عن بَدْءِ الشَّيءِ لأوَّلِ أمره مِن عَدَمٍ، كما قالوا: أنشأ دارًا، أي: بناها، أو من أثناء كانت موجودة، ولكن لم يكن له وجود مُتعَيَّن فيها، قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: 61]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 98][2]، وأنشأ اللّهُ الخلقَ: ابتدأ خلقهم[3]، والمرادُ بالإنشاء في الآية: ابتداءُ الشَّيء، وخلقُهُ على غيرِ مثال سابقٍ.

المَعنى الإجماليُّ:

أقوى ما يَسوقُ الحُجَجَ، ويُبيِّنُها هو كلامُ اللهِ تعالى

قُلْ - يا أيُّها الرَّسولُ - لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: الذي يُحيي العِظامَ، هو الذي خلَقَها أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تكُنْ شيئًا، فالَّذي قدرَ على ابتِداءِ

(1) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (نشأ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نشأ).

خَلقِها لن يَعجِزَ عن إعادتِها مرَّةً أُخرى، واللّٰهُ عَليمٌ بجَميعِ خَلقِه، فيَعلَمُ كيف يُحييهم، وكيف يُميتُهم، ويَعلَمُ أين تفرَّقت عِظامُهم، وتفَتَّتَتْ أجسادُهم، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه كائِنًا ما كان(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

المبادرةُ إلى ردِّ الشُّبهاتِ والطُّعوناتِ

فُصِلَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ عن قولِه قبلُ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ لما بينهما من شبه كمال الاتِّصالِ؛ إذ جملةُ الجوابِ جاءت على طريق المقاولة، فتكونُ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ السُّؤالَ لمّا ورَدَ؛ أورثَ في نفس السّامعِ سُؤالًا آخرَ، حاصلُه: فماذا قال اللّٰه تعالى في جوابِه والرَّدِّ على شبهتِه؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأَمْرِ:

ردُّ الشُّبهاتِ يكون بالتَّصريحِ بالجوابِ عنها

عُبِّرَ بفعل الأمر في قولِه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا﴾ ليكون الجوابُ على معنى التَّبكيت للمنكِرِ وإسكاتِه، وللتَّذكير بما نَسِيَهُ من بدء خلقِه وفطرته الدّالَّة على أنَّ اللّٰه تعالى يُحْيي العِظام، وهيَ رميمٌ، كما أنَّ في الجوابِ إرشادًا إلى طريقة الاستدلالِ والاستشهادِ على أنَّ اللّٰه تعالى يُحْيي العظامَ، وهي رميمٌ(2)، وأفاد لفظُ القولِ التَّصريحَ بالجواب وإشهارَه؛ لظهورِ الأمر ووضوحِه.

سَبَبُ إيثارِ إعادة فعلِ الإحياء:

مجابهةُ الشُّبهة بالحقِّ والوضوح

أُعيدَ فعل الإحياء في قوله: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا﴾ نصًّا على المرادِ؛ ليكونَ على وفق السُّؤال، ودفعًا للتَّعنُّت والمكابرة والاستبعاد، أي: هذا الذي تَسْتَبْعِدُه مِن أمر إحياءِ العظامِ، وهي رميمٌ، هو حقٌّ لا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 488، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 594، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 440.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 198.

شُبهةَ فيه، كما أنَّ في إعادة الفعلِ دلالةً على الاهتمامِ بأمرِ إحياء الموتى يوم القيامةِ[1].

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿يُحۡيِيهَا﴾:

من أساليب القرآنِ في الحجاج إيراد الدَّليل بطريق الأولويّة

يعود الضَّميرُ في قوله: ﴿يُحۡيِيهَا﴾ على العظام بما اتَّصفت به، أي: العظام الرَّميم، والتَّقدير: يُحْيي العظامَ الرَّميمَ الذي أنشاها؛ ليكون الرَّدُّ على الشُّبهة أوضحَ وأظهر؛ لأنَّه إذا كان قادِرًا على إحيائها، وهي رميمٌ، قد صارَت كالتُّراب، واختلطت بهِ، فإحياءُ العظام التي لم تَبلَ، ولم تتفتَّتْ من باب أَوْلى وأحرى.

مناسبةُ إيرادِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر:

المُنْكِرُ إن تأمَّل الدَّليلَ على إحياء الله تعالى الموتى؛ ارتدع عنِ الإنكارِ

لمّا كان السُّؤالُ في قولِه: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ على طريق الإنكارِ والتَّكذيب؛ كان الظّاهر أن يكون الجوابُ بتقديم المسند إليهِ على المسندِ لردِّ الإنكار، ولمّا جاء الجوابُ بتقديم المسندِ على المسند إليهِ؛ كان الكلامُ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ وذلك لأنَّهُ قَدْ أُقيم السّائلُ مقام خالي الذِّهن عمّا يُلْقي إليه المجيبُ، ونُزِّل المنكِر منزلةَ غير المنكِر، كأنَّه لوضوح أنَّه تعالى الذي يحيي العِظام، وهيَ رميمٌ، وظهورِ الأمرِ عند جميعِ المُخاطَبين؛ لَمْ يُحْتَجْ إلى تقوية الحكم، بمعنى: أنَّ المُنْكِر إن تأمَّل الدَّليلَ ارْتَدَعَ عن الإنكار؛ ولهذا لم يقدَّم المسند إليه المفيد تقوّيَ الحكمِ وتحقيقَه، فقال تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الجَوابُ صالِحًا لِأَن يكون إبطالًا لِلنَّفْيِ المُرادِ مِنَ الاستِفهامِ الإنكاريِّ وإقامةً للدَّليل، كَأَنَّهُ قيلَ: بَلْ يُحييها الذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 179.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 76.

بلاغةُ الجوابِ بالأسلوب الحكيم:

السُّؤال عن إحياءِ الموتى ينبغي أن يكون استعلامًا لا إنكارًا؛ لظهورِ الدَّليلِ فيه

لمّا أُقيم السّائلُ المنكِرُ مقامَ غير المنكر، وجاء الجوابُ على خلاف المتوقَّع، وذلك بتقديم المسند على المسندِ إليه في قوله: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾؛ أشعر الجوابُ بأنَّه جاء على الأسلوب الحكيم؛ لأنَّ السّائل في قوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ ذكره على طريقِ الإنكارِ المقتضي لِنَفْي أن يحيي العظام أيُّ أحدٍ، فالسّائل لم ينتظر جوابًا، فلمّا جاء الجوابُ على ما هو ظاهِرُ السُّؤال، وأُغفِلَ إنكارُه، وجاء على طِبْقِ موقع الذِّكر، فكأنَّه سأل عمَّن يَصْدُرُ منه فعلُ الإحياء، فأجيب: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ﴾، فلمّا كان الأمرُ كذلك؛ كان الكلامُ على طريق الأسلوب الحكيم، وذلك لحَمْلِ استفهام القائلِ على خلاف مرادِه؛ إذ إنَّه لمّا قال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾؛ لَمْ يَكُنْ قاصِدًا تطلُّبَ تَعْيينِ المُحْيِي، وإنَّما أَرادَ الاسْتِحالَةَ، فَأُجيبَ جَوابَ مَنْ هوَ مُتَطَلِّبٌ عِلْمًا، فَقيلَ لَهُ: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾[1]؛ ليفيد الجوابُ على طريقِ الأسلوبِ الحكيم توبيخَ السّائلِ وتقريعَهُ على إنكارِه وتعجيبِه، بمعنى: كان ينبغي أن يكونَ سؤالُكَ سؤالَ مُسْتَعْلِمٍ لا سؤالَ مُنْكِرٍ مُتَعَجِّبٍ؛ لِظُهورِ الأمر بالدَّليل والبرهانِ، ولهذا جاء بالموصولِ وصِلَتِه.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه:

لا أحدَ قادرٌ على إحياء العظام وهي رميمٌ سوى الذي أنشأها أوَّل مرَّةٍ

لَمّا أُسْنِدَ فعلُ الإحياء إلى الموصول في قوله: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾؛ كان المرادُ بيانَ إمكانِ الإحياء بسببِ ما يدلُّ عليه الموصول وصلتُه؛ ليفيدَ التَّعبيرُ بالموصول وصلته بيانَ وجهِ بناء الخبر، أَيْ: يُحْييها؛ لأنَّه أنشأها أوَّل مرَّة، فَهوَ قادِرٌ عَلى إِنْشائِها ثاني مرَّة، كَما أَنْشَأَها أوَّل مَرَّةٍ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: 27]، كما أنَّه لمّا علَّق إحياءَ العظامِ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 75.

الذي أَنْشأها أوَّل مرَّةٍ؛ أفاد أنَّه لا أحدَ قادِرٌ على إحْيائِها سِوى الذي أنشأها أوَّل مرَّةٍ، وهو اللّهُ ﷻ.

دلالةُ جملةِ الصِّلة:

إقرارُ الكُفّارِ بابتداءِ الله تعالى خَلْقَهُم

لمّا كانت الصِّلةُ معلومةَ الانتساب إلى مُشارٍ إليه عند المخاطَبين؛ أفادت الصِّلةُ في قولِه: ﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنَّ مضمونَها معلومٌ عند السّامعين عند أدنى تأمُّلٍ أو تفكيرٍ، فأُقيم معنى أنَّه تعالى هو الذي أنشأ العظامَ والخلقَ أوَّل مرَّةٍ مقام الأمرِ الحاضر في أذهانِهم.

براعَةُ الاستدلالِ بإيثار التَّعبيرِ بالمَوْصولِ وصلتِه:

إيرادُ القياس الجليِّ في الرَّدِّ على شبهة المنكرين

لمّا جاء التَّعبيرُ في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالموصول وصلتِه لِلإيماء إلى وجه بناءِ الخبر؛ كان التَّعبيرُ به إيذانًا بالقياس الجليِّ، وهو أنَّ اللّه تعالى خلقَ العظام وأحياها أوَّل مرَّةٍ، وكلُّ من أنشَأَ شيئًا أوَّلًا قادرٌ على إنشائِه وإحيائِه ثانيًا، فينتج عَنْهُ أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على إحيائِها بقواها بعدَ فنائِها، أو يقال: مَن قدر على الإنشاء ابتداءً؛ فهو على الإعادةِ أَقْدَرُ وأَبْيَنُ، فكان الدَّليلُ على إعادة إحياء الموتى أظهرَ من دليلِ ابتداءِ الخلقِ مع وضوحِ الدَّليلين وبيانِهما، وفي الكلام إشارةٌ إلى وجوب اعتبار القياسِ السَّليم الصَّحيح؛ لأنَّه تعالى أَلْزَمَهُم قياسَ النَّشأة الثّانية على الأولى[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَنشَأَهَآ﴾:

إحياءُ العظام يوم القيامة يكونُ على وفق ما كانت عليه في الدُّنيا

جاء التَّعبيرُ بلفظ الإنشاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾؛ لِما في الإنشاء من معنى خَلْقِها وارتفاعِها وتربيتِها بِقواها وقوامِها، ففيه إيذانٌ بأنَّ إحياءَها يوم القيامة على وفْق ما كانت عليه في الدُّنيا، كما أنَّ في لفظ ﴿أَنشَأَهَآ﴾ إشعارًا بعلمِه تعالى بالعظامِ في حالِ نَشأتِها، وبما تكونُ عليه بعد الموت.

---

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/ 494، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 254، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 199.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَهُوَ﴾:

الواو في ﴿وَهُوَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ استئنافيَّةٌ؛ لتكون الجملةُ بعدها تذييلًا للكلام الذي تقدَّمها، ويحتمل أن تكون عاطفةً؛ لِتَعْطِفَ جملةَ: (هوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَليمٌ) على جملة الصِّلة: ﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾[1].

تنوُّعُ معنى الواو توسيعٌ للمَعْنى

بلاغةُ جملة التَّذييل:

على القول بأنَّ الواوَ استئنافيَّة؛ فإنَّ جملة: (هوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَليمٌ) تكون تذييليَّةً اعتراضيَّةً، وبيانُ الفائدةِ منها هو أنَّ اللّه تعالى لمّا أخبر أنَّه قادرٌ على إحياء العظام وإعادتِها بقواها بطريق الاستدلال بالقياس الجليِّ؛ ذيَّل الكلامَ بجملة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتقرير مضمون القياس وتأكيده، فإنَّ مَن كان واسِعَ العِلْم محيطًا علمُهُ بكلِّ خلقٍ؛ كان إحياؤُه للعظام - التي أنشأها أوَّل مرَّةٍ - على التَّمام والكمال، بإعادة قواها وضمِّ ما انْفَصَل، وجمع ما اتَّصل ممّا اجتمع، وتفرَّق، ولمّا كانت جملة التَّذييل على معنى العموم والكلّيَّة؛ أفادت عمومَ المعنى مع تقرير المَعْنى الذي تقدَّمها[2]، بمعنى: أنَّ عِلْمَهُ تعالى محيطٌ بكلِّ وسائل الخلقِ التي لا نعلمُها، كالخَلْقِ مِنْ نُطْفَةٍ، والخَلْقِ مِنْ ذَرَّةٍ، والخَلْقِ مِنْ أَجْزاءِ النَّباتِ المُغْلَقَةِ كَسوسِ الفولِ وسوسِ الخَشَبِ، فَتِلْكَ أَعْجَبُ مِنْ تَكوينِ الإنسانِ من عِظامِه، بمعنى: مَن كان بكلِّ شيءٍ عليمًا؛ فإنَّ قدرتَه على إحياء الموتى على أتمِّ وجهٍ وأكمله، فكانت جملة التَّذييل من تمامِ الاستدلال على قُدْرَةِ اللّه تعالى على إحياء العِظام، وهيَ رميمٌ.

مَن كان عليمًا بخلقِه؛ كان إحياؤُه للعظام على التَّمام والكمالِ

فائدةُ العطف على جملة الصِّلة:

لمّا كانت جملةُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ من تمام الاستدلال على

الدَّلالةُ على أنَّ وجهَ بِناءِ الخبَرِ هو مجموعُ الجُمْلَتَيْنِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 76.

قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى؛ ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ جملةَ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ معطوفةٌ على جملة الصِّلة: ﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾[1]، أي: إنَّ وجهَ بناء الخبرِ هو مجموعُ الجملتين، بمعنى: يُحْيِيها الذي أنشأها أوَّل مرَّةٍ، والذي هو بكلِّ خلقٍ عليمٌ، وعُدِلَ في الجملة المعطوفَةِ إلى الاسميَّة؛ للتَّنبيهِ على أنَّ علمَهُ تعالى بما ذُكِرَ أمرٌ مستمرٌّ ثابتٌ، والجهة الجامعة بين المعطوف والمعطوف عليه هو أنَّ كلًّا منهما له مدخَلٌ في الإحياء، والدَّليل يَتمُّ بمجموعِهما[2].

سببُ إيثارِ التَّعبير بقوله: ﴿بِكُلِّ خَلۡقٍ﴾:

بيانُ عظمةِ الله تعالى في إعادةِ الـخـلـقِ كما بدأَهُم

أوثرَ التَّعبيرُ بلفظِ العموم المضاف إلى المصدرِ في قوله: ﴿بِكُلِّ خَلۡقٍ﴾ لمناسبة المقام، فأفاد المبالغةَ في علمِه تعالى بجميع خلقِه، وبكلِّ تفاصيل كيفيّات الخلقِ والإيجاد إنشاءً وإحاطةً بها، ولمّا كان المصدر مفيدًا معنى الحاصل منه، أي: المخلوق؛ أفاد قولُه: ﴿بِكُلِّ خَلۡقٍ﴾ إحاطةَ علمِه تعالى بجميعِ الأجزاءِ المُتَفَتِّتة المتبدِّدةِ لكلِّ شخصٍ من الأشخاصِ، أصولِها وفروعها وطريق تمييزها بضمِّ بعضِها إلى بعضٍ، فيعيدُ كلًّا من ذلك على النَّمطِ السّابقِ مع القوى التي كانتْ قبلُ[3].

❁ الفروق المعجميَّة:

الخلق والإنشاء:

الإنـشـاءُ إذا اجـتـمـعَ مع الـخـلـق يـأتي بعده، وإذا انفردَ جـاء بـمـعـنى الخلقِ وتسويتِه مع تربيتِه إلى اكتمالِه

الفرقُ بينهما هو أنَّ النُّشوء بمعنى حدوث الشَّيءِ من جنسه مبتدَأً صغيرًا آخذًا في الارتفاع والانتصاب، ولهذا فُسِّرَ الإنشاءُ بمعنى إيجاد الشيءِ وتربيتِه مع مراعاتِه ومتابعتِه إلى أن يربو، ويرتفع، فالنُّشوء يشمل أصلَ الوجود ومرحلة النُّمو إلى قرب تمام

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 199.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 199.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 181، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 199.

القوى، بدليل تفسيرهم أنَّه نشأ في بني فلانٍ، بأنَّه كَبِر، وشبَّ، وأمّا الخلقُ؛ فهو إبداعُ الشَّيء وإيجاده من غير أصل ولا احتذاء، فالخلقُ تهيئة مادَّة ما؛ لتكون كائنًا سويًّا بشرًا أو حيوانًا أو نباتًا أو نهرًا[1]، فالإنشاءُ إذا اجتمع مع الخلق يأتي بعده، وإذا انفرد؛ جاء بمعنى الخلقِ وتسويتِه مع تربيتِه وبثِّ قواه وارتفاعِها إلى أن يكتمل، ولهذا عبَّر اللّٰه تعالى بـ ﴿أَنشَأَهَآ﴾ دون (خلقها) في قوله: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾؛ للإشعار بأنَّه تعالى يعيد خلقَها يوم القيامة، ويجعلها جسدًا كاملًا تامًّا ببَدَنِهِ وقواهُ، كما كان في الدُّنيا، ولهذا اختلف التَّعبيرُ عند بيان خلق الإنسان، فذكر خَلْقَهُ عند ذِكْرِ بداياتِ التَّكوين، ثمَّ ذكر النَّشأة عند بيان تمام الخلق بالجسد والقوى، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 12 - 14].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلق، نشأ).

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾ [يس: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تواردُ الأدلَّة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى لِعِظَمِ الأمر وأهمّيَّته

لمّا أقام اللّهُ تعالى الدَّليلَ على قدرتِه على إحيائِه الموتى يوم القيامة، وكان الدَّليلُ على معنى إبطال إنكارِهم واستبعادِهم وعنادِهم؛ قرَّر هذا المعنى، وأكَّده بإقامة دليلٍ آخر مشاهَدٍ، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ الآية[1].

ومن أوجه المناسبة أيضًا: أنَّه لمّا كان مآلُ مثَلِ المكذِّب بالحشرِ - الذي علَّق الإنكار فيه بالرَّميم - استبعادَ تمييزِ الشَّيء - إذا صار ترابًا واختلط بالتُّراب - عن غيره من التُّراب؛ وصف سُبحانَهُ نفسَهُ بإخراجِ الشَّيء الذي هو أَخْفى ما يكونُ من ضدِّه، وذلك بتمييز النّار من الخشَبِ الذي فيه الماءُ ظاهرٌ بأيدي العَجَزَةِ من خلقه، فقال معيدًا الاسمَ الموصول؛ تنبيهًا على التَّذكير بالموصوف، وهو اللّه تعالى؛ ليُستحضَرَ ما له من صفاتِ الكمال، فيُبادرَ إلى الخضوعِ له مَن كان حيًّا: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ الآية[2].

ومن أوجه التَّناسُب كذلك: أنَّ اللّه تعالى لمّا ذَكَر ما هو أغرَبُ من خلقِ الإنسانِ من النُّطفة، وهو إبرازُ الشَّيءِ من ضدِّه، وذلك أبدعُ شيءٍ، وهو اقتداح النّار من الشَّيء الأخضر، والحالُ أنَّ الماء يُطفِئُ النّارَ، ومع ذلك خرجتِ النّار ممّا هو مشتملٌ على الماء، فقال تعالى مظهرًا الحجَّة والدَّليل: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾الآية[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 309.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 181.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 84.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُوقِدُونَ﴾: (وقد) تدُلُّ اشتقاقاتُه على اشتعالِ نارٍ، يقال: وقَدَتِ النّارُ تَقِدُ، واتَّقدتْ، وتَوقَّدتْ، وأَوقَدتُها أنا[1]، والوَقودُ يُقالُ للحَطَب المجعول للوُقودِ[2]، وهو أيضًا: ما تَرى من لهبها؛ لأَنَّه اسمٌ، والوُقود المصدرُ[3]، ويُقالُ: أَوْقَدَ النّار، كما يُقالُ: وقَد النّار، والمَعْنى واحدٌ، والوُقودُ: فِعْلُ النّارِ؛ إذا وقَدَتْ، والإيقادُ: إشعالُ النّارِ، وهو المراد بالآية[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ تعالى قادرٌ على إخراج الضِّدِّ من ضدِّه

قل - أيُّها الرَّسول الكريم - لهؤلاء المُنْكِرين للبَعْثِ: يُحْيي الأجسادَ البالية اللّه تعالى الذي أنشأها أوَّل مرَّةٍ، والذي جعل لكم - بفضله ورحمته وقُدرته - مِن الشَّجر الأخضر الرَّطب نارًا، فإذا أنتم من هذا الشَّجر الأخضر توقدون النّار، وتنتفعون بها في كثيرٍ من أحوال حياتكم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الفصل في الآية:

مِـن أساليب القرآنِ الجمع بين الدَّليل العقليِّ والحسّيِّ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بين الجُمْلَتَيْنِ مِن كمالِ الاتِّصال؛ إذ الجملةُ الثّانية وارِدَةٌ بدلًا مِنَ الأولى؛ إذ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ بدلٌ من الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ولمّا كان البدلُ ليس على نيَّة إلغاء المبدل منه وسقوطِه، بل على معنى أنَّ البدل قائمٌ بنفسه

(1) الراغب، المفردات: (وقد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وقد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 77.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 489، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 528، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 57.

منسوبٌ إليه الحكم كنسبتِه إلى المبدل منه؛ كانت مناسبة مجيءِ البدلِ وعدم العطف على الصِّلةِ بأن يقالَ: (يحييها الذي أنشأها أوّل مرَّةٍ، وجعل لكم من الشَّجر الأخضر نارًا)؛ وذلك للإيذان بتفاوت الدَّليلين في كيفيَّةِ الدِّلالةِ، فلكلِّ دليل مناسبتُه[1]، ولِلجمع بين الدَّليل العقليِّ في المبدل منه في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾، والدَّليل المشاهد الحاضر في البدَلِ في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، ففيه إشعارٌ بأنَّه يكفي المخاطبَ المنكِرَ المستبعدَ إحياء الموتى أحدُ الدَّليلين، وليدلَّ مجموعُ البدل والمبدل منه على فضلِ توكيدٍ وتبيين وتقريرٍ لا يكون في ذِكْرِ أحدِهما.

ونكتةُ تقديم الدَّليل العقليِّ على المشاهَدِ: كونُ المبدل منه أظهرَ وأشهر[2]؛ لعمومِه في جميع الأمكنة والأوقات ولِظهورِه لكلِّ عاقل.

فائدةُ صِلَةِ الموْصول:

إيـرادُ الدَّلـيل المشاهَد المعلوم عند المُخاطَبين أوضـح في الاستدلالِ وأَبْيَنُ

لَمّا كانتِ الصِّلةُ تكونُ معلومةَ الانتساب إلى مشارٍ إليه عند المخاطَبين؛ كان مضمون الصِّلة في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ حاضرًا في أذهانهم مشاهَدًا بأعينِهم؛ لأنَّهم يستعملونَهُ، ويَنْتَفِعون منهُ في حياتِهم، فيكون الاستدلالُ بِمَضْمون الصِّلةِ أظهرَ لِمَنْ يصدُّ عن إعمالِ عقلِه، ويكابر، ويُعانِد.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿جَعَلَ﴾:

عجيبُ صنعِ الله تعالى في جعلِه مِـنَ الـشَّجـر الأخضر الطَّريِّ نـارًا ينتفع منها النّاسُ

عُبِّرَ بلفظ الجَعْلِ دون الخلقِ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾؛ للإشعار بأنَّ جعلَهُ من الشَّجر الأخضر نارًا ممّا لا مثيلَ لَهُ؛ إشعارًا بعجيبِ صُنْعِه وبديع خلقِه ممّا يشاهدون[3]، فمَن قدر على الأمر البديع العجيبِ، وهو إحداثُ النّار

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 2/ 263، والرضي، شرح كافية ابن الحاجب: 2/ 394.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.

من الشَّجر الذي فيه الرُّطوبةُ، فهو قادرٌ على إحياء الموتى، والمعنى: لا تُنْكِروا إحياءَ العِظام وإيجادَ حرارة فيها، ولا تَسْتَبْعِدوا الأمر، فإنَّ النّارَ في الشَّجرِ الأخضرِ الذي يقطُرُ منه الماء أعجبُ وأغربُ[1].

تَرْغيبُ المُخاطَبين فـي الإيـمـانِ بالحشْرِ

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُم﴾:

اللّامُ في ﴿لَكُم﴾ من قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ تفيد الاختصاص، بمعنى: جعل لأجلكم ولِمنفعتِكم[2]، ففيه عَطْفُ قلوبِ المخاطَبين؛ تَرْغيبًا في الإيمانِ بالحَشْرِ.

العِنايَةُ بالمُقَدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤَخَّرِ

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على المفعولِ به في الموضعين في قولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾، ومناسبةُ التَّقديم: الاعتناءُ بالمقدَّم؛ إذِ الأهمُّ جعلُ النّار لنفعِهم، وكونُها من الشَّجر الأخضر؛ ليدلَّ على صحَّة البعثِ الذي هو سياقُ الكلام، كما أنَّ في التَّقديم تشويقًا إلى المؤخَّرِ، وهو النّارُ التي منها يوقدون[3].

إعـادةُ الإحيـاء هـو إعـادةٌ إلى الكيفيَّةِ الأولى للخلقِ

براعةُ الطِّباقِ الخَفيِّ:

في قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ استدلالٌ بطريق الطِّباق الخفيِّ، وهو المسمَّى: المعنويَّ أيضًا؛ وحقيقتُه: الجمع بين أمرٍ وما يتعلَّق بمقابِلِه[4]، وبيانُ ذلك: أنَّ الشَّجرَ الأخضرَ خضرتُه إنَّما تكون مِنَ الماء، والماء يُطفئُ النّار، والنّار تأكلُ الحطبَ والخشبَ، فمَن قدر على إحداث النّارِ مِنَ الشَّجر الأخضر مع ما فيه من المائيَّة المضادَّة لها بكيفيَّتها - إذ الماء رَطْبٌ وبارد والنّار حارَّة ويابسة - لقادرٌ على البعثِ وإعادة الغضاضة والحياة فيما كان غضًّا، فيبسَ، وبَلِيَ، فليس في إعادة الإحياءِ اجتماعٌ للمضادِّ في الكيفيَّة بل فيه

(1) البسيلي، نكت وتنبيهات: 3/ 470.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 200.
(4) بسيوني فيود، علم البديع، ص: 141.

إعادةُ الكيفيَّةِ الأولى، فالأمر أهوَنُ عليه[1]، ومن وجوه الاستدلالِ في إيراد الطِّباق: أنَّ إيجادَ شيءٍ وهو النّار ممّا يُنافيه، وينافره، وهو الشَّجرُ الرَّطب؛ لا بدَّ له من قوّةٍ من خارج تغلِبُ على المُتنافِرَيْن المُتنافيَيْن بفعلِ ذلك الشَّيء، فيكون الأمرُ بقدرةِ اللّٰه تعالى[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلشَّجَرِ﴾:

تنوُّعُ دلالاتِ (أل) توسيعٌ للمعنى وتكثيرٌ لَهُ

(أل) في ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ يجوزُ أن تكونَ للعهد، فيكون المرادُ بهذا شجرًا معيَّنًا معهودًا عند المخاطَبين وقتَ نزول الخطابِ، وهو شجر المَرْخِ والعَفار - وهو من شجر الباديةِ في أرضِ الحجازِ - فيأتي مَن أراد قدح نارٍ، وليس معه زِناد، فيأخذ منه عودَيْنِ أَخْضَرَين رطبين يَقْطُر منهما الماء، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولَّد النّار من بَيْنِهما بإذنِ اللّٰه تعالى كالزِّناد، ويَحْتَمِلُ أن تكون (أل) للجنس، فيكون المعنى أنَّه يمكنُ استحداثُ النّار من جميع الشَّجر الأخضر[3].

دلالةُ الصِّفةِ في قوله: ﴿ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ﴾:

الاستدلالُ بقدرة اللّٰه تعالى على إحداث أمرٍ من مُتَنافيَيْن على إعادة إحياء الموتى

يدلُّ لفظ ﴿ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ على معنى الرَّطب[4]، وجاء التَّعبير بـ ﴿ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ دون الرَّطب؛ لِما يفيدُه الوصفُ بالأخضر - وهو وصفٌ لازمٌ للشَّجر؛ إذْ نشأة الشَّجر لا تكون إلّا بخُضرتِه - من الدَّلالة على تمام الاستدلالِ على قدرةِ اللّٰه تعالى إحداثَ أمرٍ من مُتَنافيَيْن، وهو كونُ الشَّجر الذي جعل اللّٰهُ تعالى منه النّارَ موصوفًا بكونِه رطبًا غضًّا نديًّا نَضِرًا، بخلاف ما لو قيل: (الشجر الرَّطب)؛ لأنَّ الشَّجر قد يكون رطبًا، ولا يكون أخضرَ ولا غضًّا نديًّا ولا نَضِرًا، كما أفاد الوصفُ بـ ﴿ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ مناسبةَ مقابلتِه مع موصوفِه لِلَفْظ ﴿نَارًا﴾

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 542، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 201.
(2) ناصح الدين ابن الحنبلي، استخراج الجدال من القرآن الكريم، ص: 92.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 54، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 196.
(4) النّسفي، التيسير في التّفسير: 12/ 382.

على طريق التَّضادِّ، فكان ذكرُ الوصف ﴿ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ أدلَّ على إعادة الغضاضةِ والطَّراوة والنَّضارة إلى ما كان غضًّا، فيَبِسَ، وبَلِيَ، وأنسبَ لبلاغة النَّظم ومعناهُ، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ.

توجيهُ مَجيءِ الصِّفة بصيغَةِ التَّذْكير:

التَّذكيرُ أنسَبُ لقوَّة القَدْحِ التي تُخرِجُ النّار

جاءت الصِّفةُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ بصيغة المذكَّرِ، ولم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (الشَّجر الخُضْر)؛ لأنَّ الشَّجَرَ جمعٌ، وهو يؤنَّث، ويذكَّر[1]، ويجوز أن يكون قد حُمِلَ الوصف ﴿ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ على لفظ ﴿ٱلشَّجَرِ﴾، وهو مذكَّرٌ لفظًا، وإن كان معناه مؤنَّثًا؛ لأنَّهُ جمعُ شجرةٍ، كثمر وثمرة[2]، فروعيَ اللَّفْظُ لمناسبة القوَّةِ الحاصلةِ مِنَ القَدْحِ التي يخرج منها النّار.

دلالَةُ تَنْكيرِ ﴿نَارٗا﴾:

تَقريرُ عظمَةِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَه

جاء لفظُ ﴿نَارٗا﴾ مُنَكَّرًا لإفادة النَّوع، أي: نوعًا غريبًا من النّار، لأجل حُدوثِها من الشَّجَرِ الأخضر الرَّطب[3]، فهي نارٌ ليست كسائر النّيرانِ؛ ففي هذا تقريرٌ عظيمٌ لِقدرةِ اللّه تعالى.

دلالةُ جملة: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾:

التَّعجيبُ من عدَمِ التَّنبُّهِ للأدلَّة الظّاهرة على إحياءِ الموتى

لمّا كان قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾ يُفْهَم منه لزومًا أنَّه تعالى جعلَ مِنَ الشَّجرِ الأخضر نارًا؛ ليوقدَ النّاسُ منه ما يحتاجونه في معاشِهم؛ كان قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ تصريحًا بما عُلِم لزومًا، فيكون المذكورُ بعد (إذا) ليس مفاجئًا للمخاطَبِ، وعلى هذا فتكون فائدةُ مجيءِ قولِه: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ على طريق المفاجأةِ في الظّاهر: هو التَّعجيب من انتفاعِهم من إيقاد النّارِ من الشَّجر الأخضر، واستمرارِهم عليه

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 354.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 464، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 439.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 200.

من دون التَّنبُّهِ إلى كونِه دليلًا يُشاهِدونَهُ عيانًا، ويلمسونه بأيديهم على قُدرةِ اللّهِ تعالى على إعادة الموتى وإحيائِهم.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَإِذَآ﴾:

بيانُ التَّرتُّب والسَّببيَّة

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ تُفيدُ التَّرتُّبَ والسَّببيَّة[1]، بمعنى: أنَّ ما جعلَهُ اللّهُ تعالى هو سببٌ لإيقادكم النّارَ منه وانتفاعِكم به، وقد أفادت الفاءُ كذلك ترتُّبَ الإيقادِ على ما جعله اللّه تعالى سببًا فيه، فلولا ما قدَّره اللّه تعالى؛ لَمَا انتفعتُم بهذا، ولا استطعتم إيقاد النّار من الشَّجر الأخضر.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إذا) الفجائيَّة:

التَّعجيبُ من حال استحداثِ النّار من الشَّجر ومِن إلهام الله تعالى النّاسَ إليه

لمّا كان التَّعبيرُ بـ (إذا) الفجائيَّة يفيد أنَّ الخطابَ غير متوقَّعٍ للمخاطَب، وأنَّه خوطِبَ بغير ما يترقَّب ليَلْزَم منه تعجيبُه من الحالِ، ولمّا جاءت (إذا) بعد الفاء المفيدةِ للتَّرتُّب والسَّببيَّة والتَّعقيب؛ عُبِّرَ بـ (إذا) الفجائيَّة في قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾؛ للتَّعجيب من إيقادهم النّارَ من الشَّجر الأخضر الرَّطب، وأنَّ هذا التَّعجيبَ معاقبٌ لإيقاد النّار من الشَّجر الأخضر؛ ليُنْتَقَل منه إلى التَّعجيب من قدرةِ اللّه تعالى، والتَّعجيب من إنكارِهم لإحياءِ الموتى، وجملة: ﴿أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ تنويهٌ بانتفاعِهم من الإيقادِ.

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المفاجأةَ المستفادةَ من قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ دالَّةٌ على عجيب إلْهامِ اللّهِ تَعالى البَشَرَ لاستِعْمالِ الاقْتِداحِ بِالشَّجَرِ الأَخْضَرِ واهتِدائِهِم إلى خاصّيَّتِهِ[2].

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿مِّنۡهُ﴾:

تقريرُ محَلِّ الاستدلال على صِحَّة البَعْث

الضَّميرُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ عائد إلى ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ بما اتَّصفَ به، فيكون عائدًا إلى الموصوف

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 201.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 77.

وصفتِه وما تعلَّق به، والمعنى: فإذا أنتُم من الشَّجر الأَخضَرِ الذي جعلَ لكم منه النّارَ، ففي عود الضَّمير تقريرٌ لِموضع الاستدلالِ على صحَّة البعث يومَ القيامةِ.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

الاهْتِمامُ بِمَوْضعِ الاسْتِدْلالِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنۡهُ﴾ على عاملِه ﴿تُوقِدُونَ﴾؛ للاهتمام بموضع الاستدلال على صحَّة البعثِ، ولما في التَّقديم مِن مراعاةِ الفاصلة وتناسب أوخر الآي؛ إذ لو جاء في النَّظمِ القرآنيِّ: (فإذا أنتم توقدونَ مِنْهُ)؛ لفاتَ التَّناسُبُ الصَّوتيُّ.

فائِدَةُ مجيءِ المُسْنَدِ جملةً فعليَّة:

جاءَ المسنَدُ جملةً فعليَّةً في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾؛ لتقويةِ الحُكْم وتحقيقِه، بمعنى تقرير إيقادِكم النّارَ من الشَّجر الأخضر، أي: لا تشكّون في أنَّها نارٌ تخرج من الشَّجر الأخضر، ووجه التَّقوية والتَّأكيد: ما في الجملةِ من تكرار النِّسبةِ؛ فإنَّ فعل الإيقادِ مُسندٌ إلى الضَّمير المنفصل ﴿أَنتُم﴾، وأُسنِدَ فعلُ الإيقادِ أيضًا إلى واو الجماعةِ، فكان في تكرارِ النِّسبة تقويةٌ لمضمونِ الجملةِ، وجيء بالفعل ﴿تُوقِدُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة تكرُّر ذلك واستمرارِه[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 77.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من أساليب القرآنِ في الاحتجاجِ التَّرقّي في الاستدلال

لمّا تبيَّن الاستدلالُ بخلقِ أشياءَ على إحياء العظام وغيرها، وإمكانِ خلقِ أمثالِها؛ ارتُقيَ إلى الاستدلال بخلقِ مخلوقاتٍ عظيمةٍ على إمكانِ خلقِ ما دونَها؛ ليكون استدلالًا على الأدنى بالأعلى، فقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ الآيةَ(1).

ومن أوجه المناسبةِ بينَهما أيضًا: أنَّ اللهَ تعالى لمّا ذكر خلقَه الإنسانَ من نطفةٍ وقدرتَه على إعادة الموتى واستحداثِ النّار من الشَّجر الأخضر؛ أعقبه بذِكْر ما هو أبدعُ وأغرب وأعظم ممّا تقدَّم، وهو إنشاءُ السَّماوات والأرض مِنَ العَدَم إلى الوجود، فقال سُبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾(2).

ومن أوجه التَّناسُبِ كذلك: أنَّه لمّا اسْتُدِلَّ على إحياء الموتى بما تقدَّم ممّا هو متعلِّقٌ بنفسِ المخاطَبِ حينَ ذُكِرَتِ النُّطفةُ والعظام والشَّجر الأخضر الذي ينتفعونَ منه في إيقاد النّارِ؛ انتقلَ إلى دليلٍ خارج عن نفس المخاطَبِ ممّا هو أكبرُ منه، فانتُقِلَ من دليل جليٍّ إلى أجلى منه؛ ليكونَ على الأرتب في الاستدلالِ، فجاءت هذه الآية(3).

المَعنى الإجماليُّ:

خَلْقُ المخلوقاتِ من أقوى الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على عِلمِ خالِقِها وحِكمتِه

أوليس الذي خلَقَ السَّماواتِ السَّبْعَ والأرضَ بقادرٍ على أن يُعيدَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 181، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 78.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 586، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 85.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 359.

خَلْقَ النّاسِ يَومَ القيامةِ؟ فاللّهُ الذي لم يَعجز عن خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ - وهي أعظَمُ مِن خَلقِ النّاسِ - لَنْ يَعجِزَ عن إحياءِ النّاسِ بعدَ مَوتِهم، بلى؛ فاللّهُ الذي خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على أن يَبعَثَهم يومَ القيامةِ أحياءً، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَهُ، الواسِعُ العِلمِ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في الآيةِ:

تتابعُ الاستدلالِ على قدرةِ الله تعالى على إحياءِ الموتى يوم القيامَةِ

وُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ بما قبله؛ لأنَّ الجملةَ على تقدير تقديمِ العطفِ على الاستفهام، والواوُ عاطفة لِما قبلها، وقُدِّمَ الاستفهامُ؛ لأنَّ له الصدراةَ في الكلام، فعُطِفَت الجملةُ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ، أي: أليسَ الذي أنشأ العظامَ أوَّلَ مرَّةٍ، وليس الذي جعلَ لهم مِنَ الشَّجرِ الأَخضر نارًا، وليسَ الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلقَ مثلَهم، فمناسبة الوصل تتابُعُ الاستدلالِ على قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى يوم القيامةِ.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

الاستدلالُ بالدَّليلِ الظّاهرِ على إعادة الموتى

لمّا كان السّياقُ على طريقِ الاستدلالِ على إحياء الموتى يوم البعثِ؛ جاء الاستفهامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾ مرادًا به التَّقريرُ، وجيء به كذلك؛ لتوقيف المُنْكِرين على دليلٍ ظاهرٍ واضحٍ للعيان والعقول، تدلُّ صحَّتُه على صحَّةِ بَعْثِ الأجساد مِنَ القبورِ وإعادة المَوْتى بحيثُ لا يسعُ المخاطَب إلّا الإقرار به لِوُضوحِه؛ فَإِنَّ البَديهَةَ قاضيَةٌ بِأَنَّ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ هوَ عَلى خَلْقِ ناسٍ بَعْدَ المَوْتِ أَقْدَرُ[2]، وذهب بعضُ المفسِّرين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 490، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 595.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 529، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 78.

إلى أنَّ الاستفهامَ إنكاريٌّ موجَّهٌ إلى متعلِّق الخبر؛ ليفيدَ الإنكارَ على منكري قدرةِ اللّه تعالى على إحياء الموتى، ويتولَّد من هذا الإنكارِ تقريرُ ما بعد النَّفي؛ لأنَّ همزةَ الإنكارِ داخلةٌ على حرف النَّفي (لَيسَ)، والمقصودُ: تقريرُ أنَّ الذي خلق السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، ويُعيدَهُم أحياءً يوم القيامة[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِه:

خلقُ السَّماواتِ والأرض أعظمُ مِن إحياءِ المَوْتى

أوثرَ التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾؛ لبيان سببِ بناءِ الخبرِ والإيذانِ بعلّيَّته؛ لِكون جملة الصِّلة معلومةَ الانتسابِ إلى مشارٍ إليه معلوم عند المخاطَبين، فأقيمت الحجَّةُ عليهم بما هم مُقرّون به، أي: لأنَّ اللّهَ تعالى خلقَ السَّماوات والأرض - وهذا الأمرُ معلومٌ ظاهرٌ للعيانِ، والمخاطَبون مقِرّون به - فهو قادرٌ على أن يَخْلُقَ مثلَهم.

وذُكِرَتِ السَّماواتُ والأرضُ في جملة الصِّلة؛ لأنَّ خلقَهما أكبر من خلقِ النّاس، بمعنى أنَّ إحياءَ الأمواتِ يوم القيامةِ لا يبلغ أمرُه مِقدار أَمرِ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ بالنِّسبةِ إلى قدرةِ اللّه تعالى، كما يُفيد الاستدلالُ بجملة الصِّلةِ أنَّ الخلق الأوَّل لمخلوقات عظيمة - السماوات والأرض - يدلُّ على إمكان الخلقِ الثّاني بإعادة النّاس إلى الحياة، فلمّا كان المقامُ مقامَ استدلالٍ بالصِّلة وبناء الخبر عليها؛ أوثِرَ التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه على الاسم الجليل (اللّه).

وفي التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ وصلتِه تعريضٌ بعظمَةِ قدرةِ اللّه تعالى، وتفخيمِ خلقِ السَّماوات والأرض[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 440، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 441، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 55.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

دلالةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

آثارُ قدرةِ اللهِ تعالى في السَّماواتِ أكثرُ وأظهرُ ممّا في الأرضِ

قدِّمَ لفظُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأنَّ آثارَ قُدرَةِ اللّه تعالى في السَّماوات أكثرُ وأهَمُّ وأظهرُ ممّا في الأرضِ، ولأنَّ السَّماواتِ مِنَ العالَم العُلْويِّ، فكان غريبًا للسّامعِ بعيدًا عَنْهُ، فكانَتِ القُدرةُ على خلقِها أتَمَّ وأَعْظَمَ.

دلالةُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾:

الباءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ لتوكيدِ نسبةِ خبر (ليس) إلى اسمها، بمعنى: توكيد اتِّصاف الذي خلق السَّماوات والأرضَ بكونِهِ قادرًا على أن يخلقَ مثلَهم، والمقامُ يقتضي التَّوكيد والتَّقريرَ.

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾:

نُكِّرَ لفظ (قادر) في قولِ اللّه تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ لإفادةِ تفخيم هذا الوصفِ الجليلِ وتعظيمه، والمعنى: أنَّ قدرةَ الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ليسَت كَقُدْرَةِ سائرِ الخلقِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ للقراءاتِ القرآنيَّةِ

قرأ الجُمْهورُ ﴿بِقَٰدِرٍ﴾، وقَرَأَ رويسٌ عن يَعْقوبَ ﴿يَقۡدِرُ﴾ بصيغة الفعل المضارع[1]، فعلى قراءةِ الجمهور يكون الخبرُ وصفًا على معنى تأكيدِ اتِّصاف اللّهِ تعالى بهذا الوصف الجليل، وعلى روايةِ رَوَيْس تُفيدُ صيغةُ المُضارِعِ اسْتِمْرارَ اتِّصاف اللّه تعالى بقدرته على أن يخلقَ مثلَهم؛ ليُشْعِر بقُدرتِه على إحيائِهم يوم القيامة، كما تُفيد قِراءة ﴿يَقۡدِرُ﴾ تقوّيَ حُكم الخبر في اتِّصافِه بالاسم وتحقيقِه لمجيءِ الخبرِ جملة فعليَّةً، والمعنى: الذي خلق السَّماوات والأرضَ هو يقدر على أن يخلقَ مثلَهم، وأنَّه لا يتأتّى خلقُ مثلِهم وإعادتهم إلّا بقدرته تعالى.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 355.

بيانُ القدرةِ الكاملة المطلقةِ لله تعالى

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿عَلَىٰٓ﴾ يدلُّ على الاستعلاء والتَّمكُّن؛ أفاد قول اللّه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾ تمكُّنَ قدرة اللّه سُبحانه على أن يُعيدَهم، ويُحيِيَهُم يومَ القيامة، كما يُفيد اللَّفظ استعلاءَ قدرةِ اللّه سبحانَهُ على قدرةِ جميع الخلقِ، فَلِلّهِ تعالى القُدرةُ الكاملةُ المطلقةُ.

قُدْرَةُ اللّه سبحانه على إحياءِ الخَلْقِ بعد مماتِهم

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل:

جاء التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل دون المصدر الصَّريح في قول اللّه تعالى: ﴿أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه تعالى قادرٌ على أن يخلقَ مثلَ خلقِهم، ولمّا اقترن الفعلُ المضارعُ بـ ﴿أَن﴾ المصدريَّة؛ أفاد أنَّ الكلام على معنى المستقبل، أي: على خلقِهم بعدَ مماتِهم.

في اختلافِ مَرْجِعِ الضَّمير تنويعُ المعنى وتَوْسيعُه

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿مِثۡلَهُمۚ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿مِثۡلَهُمۚ﴾ واردًا على وجهِ المقابلةِ لخلقِ اللّه تعالى السَّماوات والأرض؛ كان المرادُ مثلَ المخاطَبين في الصِّغر بالإضافة إليهما، فالضَّمير يعود إلى النّاس بقرينة السّياقِ، ويدخل في المعنى المنكرُ للبعثِ ومَن كان على شاكلته، والمعنى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يخلقَ يوم القيامةِ أجسادًا على مثلِ صورِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا(1).

وذهب بعضُ أهل العلم بالتَّفسير إلى أنَّ الضَّمير يعود إلى السَّماوات والأرض، ويكون التَّعبيرُ بضمير العقلاءِ على اعتبار تضمُّن السَّماوات والأرض مَن يعقِلُ مِنَ الملائكة والإنس والجنِّ، كما أنَّ السّياقَ لمّا كان في الاستدلالِ على المنكرين للبعثِ؛ ناسبهُ التَّعبيرُ بضمير العقلاء(2).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 23/ 78.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 464، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 60، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 85.

بلاغةُ الالتفاتِ فِي الآيَةِ:

الإيـذانُ بِبُعْدِ المُـجادِلين بالباطلِ عنِ الله تعالى

لمّا كان الكلامُ على معنى العدولِ من الخطابِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا﴾، إلى الغيبة في قوله: ﴿مِثۡلَهُمۚ﴾؛ كان الكلام على طريق الالتفاتِ؛ إذ كان مقتضى الظّاهر: (على أن يخلق مثلكُم)، ونكتةُ لفتِ الكلامِ إلى الغيبة الإيذانُ بأنَّهم صاروا بهذا الجَدَلِ أهلًا للبُعدِ والازدراءِ والاحتقار، وأنّه قَد غُضِبَ عليهم، فلا يستحقّون الخطابَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بِحرف الجواب ﴿بَلَىٰ﴾:

تَقْريرُ قُدرةِ الله تعالى على خَلْقِ مِثْلِهم

لمّا كان الاستفهامُ المقترنُ بالنَّفي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾ على معنى أنَّ المخاطَبين المنكرين للبعثِ ينفون قدرةَ اللّهِ تعالى على إعادتِهم إلى الحياةِ يوم القيامة؛ جاء الجوابُ عن ذلك، فقال سُبحانَهُ: ﴿بَلَىٰ﴾، ففيه تصريحٌ بما أفاده الاستفهامُ الإنكاريُّ مِن تقرير ما بعدَ النَّفي من قدرة اللّه سُبحانَهُ على خلقِ مثلِهم.

نكتةُ عدم تعيينِ قائلِ الجوابِ:

الإشـعـارُ بظُهورِ الجواب ووُضوحِهِ

لم يُعيَّن قائلُ الجوابِ للإيذانِ بتعيُّنِ ﴿بَلَىٰ﴾ للجواب، وأنَّه لا جواب سِواه؛ فإنَّه لمّا كان الجوابُ محتملًا لإثبات قدرةِ اللّه تعالى ونفيها؛ عُبِّرَ بـ ﴿بَلَىٰ﴾ لِما يفيدُه حرفُ الجوابِ من نَقْضِ النَّفي المقرونِ بالاستفهام وإبطالِه؛ إشعارًا بوضوح الدَّليل، ولكونِه حقيقةً معيَّنةً نطق بها المنكرون، أم لم ينطقوا(1).

بلاغةُ الإيجازِ:

تَـرْكُ التَّصريحِ اكتفاءً بظُهور المعنى

حُذِفَ متعلِّق حرف الجواب ﴿بَلَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ﴾؛ إيجازًا

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 49، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 203.

للاقتصادِ في اللَّفظ مع ظهور المعنى، والتَّقديرُ: بلى هو قادرٌ على ذلك، ودلَّ على المحذوفِ سياق الكلامِ، وفي الاقتصار على حرف الجواب: إشعارٌ بأنَّ الكلامَ لظهورِهِ لا يحتاج معهُ إلى ذكر المتعلِّق.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

تنوُّعُ معنى الواو تكثير للمعنى وتوسيعٌ له

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يحتَمِل أن تكون استئنافيَّةً؛ لتكونَ الجملةُ تذييليَّةً؛ لعموم المعنى وكلِّيَّتِه، وهو تذييل غيرُ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لعدم استقلالِهِ، ولاحتياجِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشف عن تمام المرادِ منهُ، ويجوز أن تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً، فالجملةُ بنزلةِ التَّذييل كذلك[1].

كما يَحْتَمِل أن تكون الواوُ عاطفةً الجملةَ بعدها على ما يفيدُه الإيجابُ، والمعنى: بَلَى، هو قادرٌ على ذلكَ، وهو الخلّاق العليم[2].

مناسبةُ الجمع بينَ الوَصْفَيْن:

إحياءُ الخَلْقِ يومَ القيامة مِن آثارِ اسمَيهِ تعالى الخلّاق والعليمِ

أخبرَ اللّه تعالى عن نفسِه بالوَصفَيْن: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لمناسبة السّياق، وذلك ليفيد أنَّ خلقَهُ السَّماواتِ والأرضَ وإعادةَ خلقِ العبادِ يوم القيامةِ مِن مُقْتَضى وصفِه تعالى بالخلّاق، ولمّا أعقبه بوصف العليم؛ أفاد أنَّه تعالى عليمٌ بمخلوقاته الكثيرة المتنوِّعة خبيرٌ بها، فيعلم الخلق الأوَّل والآخَر، وهو بكلِّ شيءٍ عليم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة:

اللّه تعالى كثير المخلوقات والمعلوماتِ كمًّا وكيفًا

أفاد التَّعبيرُ بصيغة المبالغةِ في الوصفين في قوله تعالى: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثرةَ مخلوقاته وتنوُّعَها ودقَّتَها، وأنَّه تعالى واسعُ العلم بأحوالها ودقائق ترتيبها[3]، ونكتةُ مجيءِ الوصفين بصيغة المبالغة: هو أنَّ الكلامَ جاء في سياق ذكرِ كثرة المخلوقات وتنوُّعها، مثل خلقه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 79.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 529، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 79.

تعالى الإنسانَ من نطفةٍ، وجعْلِهِ من الشَّجرِ الأخضرِ نارًا وخلقِه السَّماواتِ والأرضَ، فأفاد قوله سُبحانه: ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أنَّه تعالى كثيرُ المخلوقاتِ كثيرِ المعلومات.

ولمّا جاء الوصفان مُطْلَقين من غير قيدٍ؛ دلَّ على أنَّه تعالى كثيرُ المخلوقات والمعلومات كمًّا وكيفًا[1]، فلا يُعْجِزه خلقٌ عن خلقٍ، وهو عليمٌ بخلقِه خبيرٌ بهم، ففيه إشعارٌ بعلمِهِ وقدرتِه تعالى على إعادة خلقِ الأموات وإحيائهم.

مناسبةُ تقديم ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾:

قدَّم وصف ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لمناسبتِه لما قبله، فإنَّ الكلامَ على قدرةِ اللّه تعالى على خلقِه وعظيم آثارِها.

دلالةُ (أل) في قوله: ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

(أل) في الوصفَين الجليلَين: ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ، بمعنى: كمال الوصفِ في الاسمين الكريمَين، أي: إنَّ اللّه تعالى كاملُ الخلقِ وكامل العلم، ولا منتهى لكمالِ هذين الوصفَين الجليلَيْن.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعظيمُ شأنِ الله تعالى؛ فإنَّه إذا أراد شيئًا؛ قال له كن فيكون

لمّا تقرَّر أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على أن يخلقَ مثلَهم بإحيائِهم يوم البعثِ؛ نتجَ منه أنَّه تعالى إذا أرادَ شيئًا؛ قال له: كن، فيكون، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(1).

المَعْنى الإجماليُّ:

اللهُ سبحانه غالبٌ على كلِّ أمر يريده

إنَّما شأنُهُ تعالى في إيجاد الشَّيءِ أن يقول له مرَّةً واحِدةً بلا تَكرارٍ: كُنْ؛ فيكونُ في الحالِ كما أراد اللّهُ سُبحانه بلا تأخيرٍ؛ فإعادةُ إحياءِ الموتى أمرٌ هيِّنٌ ويَسيرٌ على اللّهِ تعالى(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ في الآية:

النَّتيجةُ الواضحةُ الباهرة للمقدِّمات الصَّحيحة الظّاهرة

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّها بمنزلةِ النَّتيجة له، فإنَّه تعالى لمّا بيَّن بالأدلَّة النَّفسيَّة والآفاقيَّة أنَّه قادرٌ على ابتداء الخلقِ وإعادته؛ جاءت الجملة فذلكةً للاستدلال وفَصْلًا للمَقالِ، فَلِذلِكَ فُصِلَتْ عَمّا قَبْلَها، كَما تُفْصَلُ جُملَةُ النَّتيجَةِ عَن جُملَتي القياسِ، فَقَد نَتَجَ مِمّا تَقَدَّمَ أَنَّهُ تَعالى إذا أَرادَ شَيْئًا؛ تَعَلَّقَت قُدرَتُهُ بِإيجادِهِ(3).

بلاغةُ القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾:

ظهورُ أنَّ إحياء الموتى حاصلٌ بقدرة الله تعالى

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريق القصر: ﴿إِنَّمَآ﴾، وفيه إيذانٌ بأنَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 184، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 79.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 596، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 184، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 700.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 184/ ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 79.

ما بعد ﴿إِنَّمَآ﴾ ممّا له في نفسه اختصاصٌ بالموصوف المذكور، وأنَّه ممّا لا يصحُّ أن ينكرَهُ المخاطَبُ، ولا ينبغي أن يُصرَّ على خطئه - إن كان منكرًا - لوضوح الأدلَّة، والمعنى: اختصاص الوصف في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ به ﷻ، فلا ينبغي للمخاطَبين أن ينكروهُ، بل عليهم أن يتلقَّوه بالقبول؛ لأنَّ الأمر جليٌّ في نفسِه[1]؛ إذ إنَّه أَمْرُ اللّهِ الذي خلق الإنسان من نطفة، وجعل من الشَّجر الأخضر نارًا، والذي خلق السَّماوات والأرضَ.

دلالةُ مجيء الكلام بطريق القصر:

قـطـعُ شُـبَـهِ الـمُـنـكـريـنَ وتوهينُها

القصرُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾ من قصر الصِّفة على الموصوف، وهو قصر إضافيٌّ؛ واردٌ في سياق الرَّدِّ على المنكرين لقدرة اللّه تعالى على إحياءِ الموتى وإيجادِهم، فهو من قبيلِ قَصرِ القَلبِ؛ لِقَلبِ اعتقادِ المنكرين للبعثِ أنَّه يَحتاجُ إلَى جَمعِ مادَّةٍ وتَكييفِها ومزاولة عمل واستعمال آلةٍ ومُضيِّ مُدَّةٍ لإتمامِ إعادة الخلقِ، ففي القصر قطعٌ لما قد وقع من الشُّبهة في قول المنكر للبعثِ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، أي: بسبب نَظَرِهِ الباطلِ في قياس قدرةِ اللّهِ تعالى على قدرةِ الخَلقِ[2].

دلالةُ لفظ ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ الأمر توسيعٌ للمعنَى وتكثيرٌ لَهُ

الأمر في قوله: ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾ مفردُ: أمور، أي: شأنُه تعالى في الإيجادِ، وإنَّما عُبِّر بلفظِ الأمر الذي هو بمعنى الشَّأن؛ للإشعار بأنَّ هذا شأن اللّه تعالى إذا أراد أن يُعيد خلقَهم، فالتَّعبيرُ بالأمر مناسبٌ لإِنْكارِهِم قُدْرَتَهُ عَلى إحْياءِ العظام، وهي رميمٌ، وجوِّز فيه أن يكونَ المرادُ منه الأمرَ القوليَّ، فيوافق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ﴾ [النحل: 40]، ويرادُ به القولُ النّافذ[3].

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 275، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 367، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 79.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 55.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾:

في العدول إلى الضَّمير إحالةٌ إلى وجهِ الاستِدلالِ

الضَّمير في ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى اللّه تعالى بما اتَّصَفَ به ممّا ذُكِر من أوصافِه الجليلة الجميلةِ في الآيات السّابقة، أي: أَمْرُ اللّهِ الواحد الأحد الذي يحيي العظام، وهي رميمٌ، والذي خلقَ الخلائق الكثيرة المتنوِّعة، العليمُ بِها وبدقائِقِها، إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، ففي العدول إلى التَّعبير بالضَّمير دون ذكرِ الاسمِ الجليل (اللّه) إحالةٌ إلى وجهِ الاستدلالِ.

دلالةُ ﴿إِذَآ﴾:

عظيمُ شأنِ اللّه تعالى بأنَّه إذا أراد شيئًا؛ فإنَّه يقع لا محالة

عُبِّرَ بأداة الشَّرط ﴿إِذَآ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ للإيذان بأنَّ ما بعدَها مُتَحقِّق الوقوع المؤذن بتحقُّق المشروط، بمعنى أنَّه إذا أراد شيئًا؛ فإنَّه يقع لا محالةَ، ولهذا عُدِلَ عن صيغة المضارع إلى الماضي في قوله: ﴿أَرَادَ﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به الفعل الماضي من تحقُّق وقوعِه نظرًا إلى صيغة اللَّفظ، ولمّا كان ﴿إِذَآ﴾ ظرفَ زمانٍ؛ فإنَّ المعنى: إنَّما أمرُهُ حينَ إرادَته شيئًا أن يقولَ له: كُنْ فيكون.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَيۡـًٔا﴾:

شمولُ قُدرةِ اللهِ تَعالى وعُمومُها

لمّا كان لفظُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ أعمَّ الموجودات، فيدخل فيه كلُّ موجودٍ؛ عُبِّرَ باللَّفظ الأعمِّ؛ للإيذانِ بأنَّ اللّه تعالى إذا أراد أَن يخلقَ أيَّ شيءٍ صغيرًا كان أو كبيرًا؛ فإنَّه يوجِدُه، فلا تعجز قدرتُه عن إيجادِ أيِّ شيءٍ، ويدخل فيه إعادةُ الخلق يوم القيامة دخولًا أوَّليًّا.

وإنَّما كان المرادُ بالشَّيء في الآية الموجودَ، وليس ما يتناول الموجودَ والمعدوم؛ لأنَّ قرينةَ السّياق تقتضي ذلك في قولِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فسياقُ الكلامِ في الإيجاد والحصولِ.

دلالةُ تَنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾:

الدَّلالةُ على عُموم الأشياءِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لإفادةِ العموم؛ إذ تقدَّمتِ النَّكرةَ أداةُ الشَّرط ﴿إِذَآ﴾، والنَّكرة في سياق الشَّرط تدلُّ على العموم، والمعنى: إذا أرادَ أيَّ شيءٍ؛ فإنَّهُ يكونُ.

دِلالةُ الأَمْرِ في ﴿كُن﴾:

لا زمنَ في الحدوث إذا توجَّهت الإرادة إلى الإيجادِ

الأمرُ في قوله: ﴿كُن﴾ أمرُ تكوينٍ وإيجاد[1]، بقرينة قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾، ويقصد بالتَّكوين الإنشاء من العدم إلى الوجود، والتَّعبير عن الإيجاد بـ ﴿كُن﴾ إيماءٌ إلى أنَّه يكونُ في أسرعِ لحظةٍ، كما يفيد لفظ ﴿كُن﴾ أنَّ المُتوجَّهَ إليه الإيجادُ طائعٌ لِما يُرادُ[2].

بلاغةُ تركيبِ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بين الاستعارة والحقيقة:

ما يُنسَبُ إلى اللهِ ﷻ يجبُ حَمْلُه على الحقيقَةِ

يحتَمِلُ أن يكونَ في قول اللّه تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة لقدرتِهِ تعالى، فيما أرادَه بأمرِ الآمرِ المُطاعِ في سرعةِ حصولِ المأمورِ به وسرعة نفاذ أمرِهِ ومشيئته، من غيرِ توقُّفٍ على شيءٍ ما[3]، وإنَّما كان هذا التَّوجيه؛ لأنَّ القولَ عنده غيرُ واقعٍ بالشَّيء؛ لأنَّ الشيء إن كان معدومًا؛ فخطابُه غيرُ جائز، وإن كان موجودًا؛ فهو مستغنٍ عن التَّكوُّن بوجوده، وبيان الاستعارة التَّمثيليَّة هو أنَّه لمّا اشتمل تركيب ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ على صورةِ أمرٍ وخبرٍ عن الكونِ، أو على صورة أمرٍ وجوابٍ في اللَّفظِ كان مجموع الكلام تمثيلًا لِسرعة الخلق والإيجاد، فكأنَّه قال: إذا أردنا تكوين شيءٍ؛ تكوَّن، ليدلَّ على تيسيرِ كون الأشياءِ عليه ووجودِها[4]، وهذا الوجهُ

---

(1) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/ 467.

(2) الدسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 2/ 413.

(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 367، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 203.

(4) أبو القاسم الزّجاجي، اللامات، ص: 139، وناظر الجيش، تمهيد القواعد شرح تسهيل الفوائد: 8/ 4250.

- القول بالاستعارة التَّمثيليَّةِ - فيه نظرٌ، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ هناك قولًا لفظيًّا، هو لفظُ ﴿كُن﴾، ونسب الآلوسي هذا الوجهَ إلى معظم السَّلف، باعتبار أنَّه لا يقاس ما هو شأنٌ للّهِ تعالى على ما يكون عند الخلقِ، فإنَّ شؤونَ اللّه تعالى وراء ما تصل إليه الأفهامُ(1)، وما قيل مِن أنَّ توجيهَ القولِ بـ ﴿كُن﴾ إلى المعدوم غير جائز، فليس بلازم؛ لأنَّ ما هو معلومٌ عند اللّه تعالى كونُه بمنزلةِ الحاضر(2)، فيكون توجيهُ الخطابِ إلى مَن يعلمُ اللّهُ تعالى إيجادَه بمنزلةِ خطابِ الموجودِ، وهذا هو القولُ الصَّوابُ.

توجيهُ القِراءات القرآنيَّة:

التَّكاملُ الدَّلاليُّ لـلـــقـــراءات القرآنيَّةِ

قرأ الجمهورُ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ برفع ﴿فَيَكُونُ﴾، ووجه هذه القراءةِ: أنَّ جملةَ ﴿فَيَكُونُ﴾ ليسَت داخلة في مقول القول، وليسَت جوابًا للأمر، بل هي جملةٌ مستقلَّة مستأنفة، والتَّقدير: فهو يكونُ؛ لتفيدَ الجُملة الإخبارَ عن سُرعة نفاذِ الأمر وحصولِه.

وقرأ ابنُ عامر والكسائيُّ ﴿فَيَكُونَ﴾ بالنَّصب(3)، وبيانُ وجهِ هذه القراءةِ: أنَّ الكلامَ جاء على صورة الأمر وجوابِه؛ ليكون تمثيلًا لسُرعة النَّفاذ والحصول، وليس المرادُ أنَّ الجوابَ، وهو الكون والحصول لا يكون إلّا عند قولِ ﴿كُن﴾؛ لوجوب تخالف الأمر والجواب، فلا يقال: (قم تقم)، فلمّا توافق الأمر والجوابُ في الفعل والفاعل؛ دلَّ على أنَّ المرادَ هو التَّمثيل لسرعة الحصول على صورة الأمر وجوابه، ويَحتمل على هذا الوجه أن تكون الفاء عاطفةً لجملة ﴿فَيَكُونَ﴾ على ﴿يَقُولَ﴾، أي: أنْ يقولَ، فيكونَ(4).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 55.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/ 173، وابن الجزري، النشر: 2/ 220.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 220، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 55، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 79.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 441.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾:

تَرَتُّبُ الأشياء على إرادَةِ الله تَعالى وأَمْرِه

الفاء في الأصل تدلُّ على التَّرتيب مع التَّعقيب من غير مهلةٍ، والتَّعقيب في قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾، إنَّما نشأ من العبارةِ، وإلّا فلا تأخيرَ ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائهِ سبحانه، والتَّقدير: فهو يكون، أي: من غير معاقبةٍ أصلًا[1]، ونكتةُ التَّعبيرِ بالفاء: الإشعار بأنَّ الشَّيء لا يكون إلّا بقولِه وأمرِه، فهو مترتِّب على إرادتِه تعالى وعلى أمرِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع:

استِحْضارُ الصّورة البديعةِ الدّالَّة على قدرة الله تعالى الباهِرَة

في التَّعبير بالفعل المضارع ﴿فَيَكُونُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استحضارٌ للصّورة البديعة الدالَّة على قدرتِه الباهرة النّافذة عند توجُّه الأمر الإلهيِّ في إيجادِ الشَّيء وحصولِه.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، تح: مازن المبارك، ص: 223، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 441.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾

[يس: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ختْمُ السّورةِ بتنزيه الله تعالى عن كلِّ سوء مناسبٌ لجميع ما أنكره المنكرون

لَمّا تَقَرَّرَتِ وحدانيَّةُ اللّه تعالى وقدرتُه على إحياء العظام، وهي رميمٌ، وأنْكرهما الكافرون، وضربوا الأمثالَ بأَنْ قاسوا الخلقَ على الخالقِ في عدم قدرته تعالى على إحياء العظام، وهي رميمٌ، وردَّ اللّه سُبحانَهُ عليهم بأنَّ أمرَه إذا أراد شيئًا أن يقولَ له: كن فيكون، من غير مهلةٍ ولا تعقيب؛ تسبَّب عنه تنزيهُهُ تعالى عن قولِهم وكفرِهم، وتقريرُ إعادةِ إحيائهم يوم القيامةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1].

ومن أوجه المناسبةِ بينهما: أنَّ اللّهَ تعالى لمّا بيَّن الأدلَّةَ الباهرة المتنوِّعة على وحدانيَّته وعظيم قدرته على خلق الأنام وإحيائِهم بعد المماتِ، ولم يتَّعظ الكافرون بهذه الأدلَّةِ؛ تسبَّب عنه ختمُ السّورة بتنزيهِ تعالى عن الشَّريك وإنكار صفاتِهِ العليا وقدرتِهِ على إحياء الموتى؛ ليكون تمامُ السّورة كفايةً للمؤمنين وعظةً للكافرين، فقال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكُوتُ﴾: (ملك) تدُلُّ تصريفاتُه على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّة، يُقالُ: أَمْلَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ، وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيءَ: قوَّيتُه، والأَصلُ هذا، ثمَّ قيلَ: ملَك الإنسانُ الشَّيءَ يملكه مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يده فيه قويَّةٌ صحيحةٌ[2]، والملكوتُ: مُحرَّكة من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 311، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 184.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ملك).

المُلْك، كرَهَبوتٍ مِن الرَّهبة، مُختصٌّ بمُلْكِ اللّه ﷻ، ويُقالُ للملكوت: مَلْكَوَةٌ مثل تَرقوَةٍ، بمعنى: العِزِّ والسُّلطان[1]، والمَلَكوتُ في الآية: مُبالغةٌ في المُلْكِ المُقترن بالتَّصرُّفِ في مُختلَفِ الأنواعِ والعَوالمِ؛ لذلكَ جاءَ بعدَهُ كل شَيۡءٖ[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بيدِ اللهِ تعالى ملكوتُ كلِّ شيءٍ، ومردُّ النّاس ومصيرهم إليه سُبْحانَه

فتَنَزَّهَ اللّهُ سُبحانَهُ الذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ وخَزائِنُهُ: عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وعَجزٍ وجَهلٍ، فهو يَتصرَّفُ في كلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ، وإلى اللّهِ تعالى تُرَدّونَ، وتَصيرونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾:

ما فُصِّل من شؤون الله تعالى العظيمة موجبٌ لتنزُّهه وتنزيهه عن صفات النَّقص كلها

الفاءُ في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾ فصيحةٌ؛ لإفصاحِها عن شرطٍ مقدَّر، وتقدير الكلام: إذا ظَهَرَ كُلُّ ما سَمِعْتُم مِنَ الأدلَّة عَلى عَظيم قُدْرَةِ اللّه وتَفَرُّدِهِ بالإلهيَّة، وأَنَّهُ يُعيدُكُم بَعْدَ المَوْت، فَيَنشأُ تَنزيهُهُ عَنْ أَقوالِهِم في شَأنِهِ المُفْضيَةِ إلى نَقصِ عَظمَتِهِ؛ لأَنَّ بيَدِهِ المُلكَ الأَتَمَّ لِكُلِّ مَوْجودٍ[4]، ويَحتملُ أَن تُفيدَ الفاءُ السَّببيَّةَ[5]، أي: التَّرتُّب على طريق أنَّ ما قبلَها موجبٌ لما بعدَها، بمعنى: أنَّ ما فُصِّل من شؤونِ اللّه تعالى العظيمة موجبٌ لتنزُّهه وتنزيهِه عن سماتِ النَّقص بأسرِها أكملَ إيجابٍ[6]، ويفيد بلازِمِهِ أنَّ ما ضربوه من المثلِ ينافي ألوهيَّةَ اللّه تعالى.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ملك).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 111.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 491، والزجاج، معاني القرآن: 4/ 296، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 60.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 80.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 205.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.

التَّوجيهُ النَّحويُّ للمَصْدَر(سُبحانَ):

الأمـرُ بِتَسْبيحِ عَـظـيـمِ المـلـكِ سُبْحانه

لَمّا كان لفظ (سُبحان) مصدرًا، وكان اللَّفظُ قد جاء مترتِّبًا على ما قبله؛ أفاد أنَّ المعنى: فسبّحوا مَن إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون، تسبيحَ الذي بيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ، ففيه وجهُ بناءِ هذه الآيةِ على ما قَبْلَها.

دِلالةُ لفظ ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾:

لـفظُ التَّسبيحِ يفيد التَّنزيهَ عن كلِّ سوء

لَمّا كان التَّسبيحُ بمعنى التَّنزيه، وجاء لفظُ التَّسبيح مطلقًا في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾[1]؛ أفاد أنَّ المرادَ تنزيهُ اللّه تعالى عن كلِّ سوءٍ وعن كلِّ ما لا يليق به، ويدخل فيه ما ظنَّه الكافرون به تعالى من عدم قدرته على إحياء الموتى دخولًا أوّليًّا، ولَمّا جاء لفظ التَّسبيح ردًّا على ما أضافه الكافرون إلى اللّه تعالى ممّا لا يليق بالإله سبحانَهُ؛ أفاد لفظُ التَّسبيح التَّعجيبَ من أن يقولوا فيه ما قالوا، فلفظُ التَّسبيح مفيدٌ تنزيهَ اللّه تعالى عمّا وصفه به المُشْرِكونَ وتعجيبًا من أن يقولوا فيه ما قالوا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه:

التَّنبيهُ على عِلّيَّة تـسـبـيـحِ الـلـهِ تَعالى

أُضيفَ المصدرُ إلى الموصولِ وصلتِهِ في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، ولم يرد في النَّظم القرآنيِّ: (فسبحان اللّه)، مع أنَّه أوجزُ؛ للإيماءِ إلى عِلِّيَّة تسبيح اللّه تعالى وتنزيهِه، والمعنى: سبِّحوه؛ لأنَّ بيدِه ملكوتَ كلِّ شيءٍ، ولأنَّكم إليه ترجعون، كما أنَّ التَّعبيرَ بالموصول وصلتِه تقريرٌ لوجه بنائِه على ما قبلَهُ، والمعنى: لَمّا كان أمرُه تعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون؛ أفادَ أنَّ بقدرتهِ تعالى ظهورَ كلِّ شيء وبقاءَه، فلا يحدُث شيءٌ - قلَّ أو كثر - إلّا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى من المخلوقاتِ شيءٌ إلّا بإبقائه، فمنه ظهورُ ما يحدث، وإليه مصيرُ ما يخلق[3].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 464.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 32، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 275.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 226.

دلالةُ تقديم المسندِ على المسنَدِ إليه:

قُدِّمَ المسندُ على المسندِ إليه في قولِه: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لإفادة الحصرِ والاختصاصِ، والمعنى: بيدِه تعالى وتصرُّفِه خاصَّةً ملكوتُ كلِّ شيءٍ لا بيدِ غيرِه وقدرتِه.

دِلالةُ لفظِ ﴿مَلَكُوتُ﴾:

إحـيـاءُ الـموتى يـوم الـقـيـامـة مـن الـمـلـكـوتِ، ولا يـغـيـب عن مـلـكـوتِ الـلـه تعالى شيءٌ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿مَلَكُوتُ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ ملكَهُ تعالى تامٌّ بليغٌ واسعٌ لا نقصَ فيه بوجهٍ، وأنَّ سلطانَه في ملكِه قاهرٌ، فهو المُلْكُ المُقْتَرِنُ بِالتَّصَرُّفِ في مُخْتَلَفِ الأَنْواعِ والعَوالِم[1]، والمَلَكوتُ بمعنى المُلكِ - بضمِّ الميم لا بكسرِها - أي: المخلوقاتِ المملوكةِ، وزيادة الواو والتّاء للمبالغة في الملك[2]، أي: الملك القويُّ الواسع الدّالُّ على ألوهيَّة اللّه تعالى وربوبيَّته، وفي التَّعبير بالملكوت إيماءٌ إلى أنَّ إحياء الموتى يوم القيامة من الملكوتِ، فلا يغيب عنه مخلوقٌ، ثُمَّ لمّا كان لفظُ الملكوتِ يُطلَقُ في مقامِ بيانِ عجائبِ مخلوقاتِه تعالى؛ أفادَ التَّنبيهَ إلى عجائب قدرةِ اللّه تعالى في ملكِه الواسع، فما أنكروهُ، وتعجَّبوا منه - من إحياءِ اللّه تعالى العظام، وهي رميمٌ - هو أقلُّ عجبًا وقدرةً ممّا في عجائب ملكوتِه، فيكون في الكلام إشعارٌ بتقرير الأدلَّة السّابقة على البعثِ يوم القيامة.

فائدةُ تركيب ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

لا أحدَ خارجٌ عن قدرةِ الله تعالى وسلطانِه

التَّركيبُ الإضافيُّ في قوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هو أعمُّ العامِّ لاستغراقِه جميع المخلوقاتِ؛ إذْ لفظُ ﴿كُلِّ﴾ لفظ عامٌّ، ولمّا أُضيف إلى ما يصحُّ إطلاقُه على أيِّ موجودٍ؛ أفاد العمومَ الشّامل لجميع المخلوقات، فكان تركيبُ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أعمَّ العامِّ، ومناسبةُ التَّعبير بهذا التَّركيب الإيذانُ بأنَّه لا أحدَ خارجٌ من قَبْضَةِ قُدرتِه وسُلطانِه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 178، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 152، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 111.

(2) النّحاس، معاني القرآن: 2/ 449.

فائدةُ العطف:

تنوُّعُ معنى الواو تكثيرٌ للمعنى

أفادت الواوُ في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عطف الجملة الفعليَّة على الجملة الاسميَّة في قوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فَجملة: (وَإلَيْه تُرْجَعونَ) من تمام صلةِ الموصول؛ ليُفيد تعليلَ ثبوتِ تَنْزيهِه تَعالى ووجوبِه على العبادِ، أي: سبِّحوه؛ لأنَّه تعالى هو الذي بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، والذي إليه تُرجَعون، فالعطفُ من عطف الجملة الخبريَّة على مثلِها.

ويَحتمل أن تكونَ جملةُ: (إلَيهِ تُرجَعونَ) معطوفةً على جملة ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾ من عطف الجملة الخبريَّة على الإنشائيَّة، ويختلف المعنى على معنى الفاء، فعلى القولِ بأنَّ الفاء في ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾ هي الفصيحةُ، تكون جملة: (إلَيه تُرجَعونَ) داخلةً في حيِّز ما شَمِلَتْهُ الفَصيحةُ، والمَعْنى: قَدِ اتَّضَحَ أَنَّكُم صائِرونَ إلَيهِ غَيرَ خارِجينَ مِن قَبضَةِ مُلكِه، وذَلِكَ بِإعادَةِ خَلقِكُم بَعدَ المَوتِ(1)، وعلى القول بأنَّ الفاءَ للتَّرتُّب؛ فالمعنى: أنَّ ما فُصِّل مِن أوصاف اللّٰه تعالى الجليلة وشؤونِه العظيمة موجبٌ لتنزيهِه تعالى، ولأن يكونَ إليه رجوعُكم يومَ القيامة.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

التَّـقـديـمُ بين إفـادةِ الاهتمامِ وإفادةِ الحَصْرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على الفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ للاهتمام بالمقدَّم، والقصدُ: تحقيقُ أنَّ رجوعَكم إليه، وإنَّما قلنا: إنَّ التَّقديم للاهتمام لا لحصر الرُّجوع إليه تعالى؛ لأنَّ الكلامَ في سياق الرَّدِّ على الكافرين المنكرين الرُّجوعَ يومَ القيامة أصلًا، فلم يكونوا يزعمون أنَّهم سيرجعون إلى غيرِه تعالى؛ ليكون التَّقديمُ مفيدًا الحصرَ.

وذهب بعضُ أهل العلم بالتَّفسيرِ إلى أنَّ التَّقديمَ لإفادة الحصر، والمعنى: إليه تُرجَعونَ لا إلى غيرِه(2)، ففيه تقويةٌ لإثباتِ الحشرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 80.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 185، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 182.

وتوحيدِه تعالى المناسب للمقام، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرور رعايةً للفاصلة وتناسُبِ رؤوس الآي.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

لـيــسَ بـعـد الــرُّجــوع إلى الله تـعـالى إلّا الحساب

يختلف بيانُ مرجع الضَّمير بحسب دلالةِ العطفِ في قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فعلى القولِ بأنَّ المعطوفَ من تمام صلةِ الموصول، فالضَّميرُ في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ يعود إلى الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ بما اتَّصف به من صلتِهِ، والمعنى: وإلى الذي بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ تُرجَعون، فعلى هذا الوجهِ: يكون في عود الضَّمير وعدٌ للمقرَّبين ووعيدٌ للمنكرين.

وعلى القول بأنَّ الجملةَ معطوفةٌ على الجملة الإنشائيَّة ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾، فالضَّميرُ يعود إلى الاسم الموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، والمعنى: وإلى الَّذي خلق السماوات والأرضَ، والقادرِ على أن يخلقَ مثلكم، والذي أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، ترجعون، وعلى هذا الوجهِ يكون في عود الضَّمير تقريرٌ للاستِدْلال وبيانٌ لصحَّة وقوع البعثِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعل المضارع:

ترهيبُ الكافرينَ وتَــرْغــيــبُ المُؤْمنين

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ من قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لتصويرِ الحالِ، ترهيبًا للمنكرين وترغيبًا للمؤمنين؛ إذ الرُّجوعُ إلى اللّٰه تعالى يعقبه إثابةُ أهل الإيمانِ، وعقوبة أهل الكفرانِ.

بلاغَةُ الكنايَةِ:

الـرُّجــوعُ إلى الـلـه تـعـالى يَقْتَضي الجزاءَ والحِساب

لمّا قال اللّٰه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ - أي: يوم القيامة - أفاد بلازمِه الإخبارَ عن أنَّه تعالى سيحاسبكم، ويجازي المحسنَ على إحسانِه، ويعاقب المسيءَ على إساءَته، فليس المرادُ مجرَّدَ الرُّجوع إليه تعالى من غيرِ حسابٍ ولا جزاء، بل المرادُ الوعدُ للمقرّين باللّٰه

وبقدرتِه على البعثِ، والوعيد للمنكرين وحدانيَّةَ اللّه تعالى وقدرتَه على إحياء الموتى[1].

توجيهُ القراءات القُرآنيَّة:

التَّكامُلُ الدَّلالي للقراءات القرآنيَّةِ

قرأ الجمهور ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ببناء الفعل للمفعولِ، وقرأ يعقوب: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ ببنائه للفاعل[2]، فعلى قراءةِ الجمهور - بصيغة المبني للمفعول - للإشعارِ بغاية صَغارِهم وقهرِهم؛ لأنَّ الرُّجوعَ يكونُ قهرًا وبأسهل أمرٍ، وعلى قراءة يعقوب - بالبناء للفاعل - يفيد أنَّ انقيادهم في الرُّجوع من شدَّة سهولتِهِ عليه، كأنَّه ناشِئٌ عن فعلهم بأنفسهم اختيارًا منهم[3].

فالحجّةُ لمن ضَمَّ: أنّه أراد: تُرَدّون، على اعتبارِ أنّ اللّه أرجعهم قَسْرًا فلا يستطيعون فَكاكًا، والحجّة لمن فَتَحَ: أنّه أراد: تَصيرون[4]، أي: سيصير رجوعكم إلينا، وستأتوننا بأنفسكم، كأنّكم مضبوطون على ذلك، أي: سواءٌ أردتم الرّجوعَ إلى اللّه أم لم تريدوه فإنّكم إليه راجعون على كلّ حال[5].

(1) النّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 383، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 275.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 208.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 185.
(4) ابن خالَوَيْهِ، الحُجّة، ص: 249، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 669، وابن الجزريّ، النشر: 2/ 343، والبنّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 439.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

التّعريف العامّ بالسورة:

سورة الصّافّات كلّها مكّيّة بالاتّفاق[1]، وهي السّورة السّابعة والثّلاثون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، جاءت بين سورتيّ (يس) و(ص)، وأمّا ترتيبها النّزوليُّ: فَهيَ السّادِسَةُ والخَمسونَ في تعدادِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَت بَعدَ سورَةِ الأنعام، وقَبلَ سورَةِ لُقمانَ[2]، وعدد آياتها مئة وإحدى وثمانون آيَة في البَصْريّ وعند أبي جعفر المدني، ومئة واثنتان وثمانون آية في عدِّ الباقينَ[3].

فضائل سورة الصّافّات:

عند البحث والتّحقيق في آثار فضلها نجد أنّها تدخل في السّور المئين، التي قال فيها النّبيّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلْتُ بالمُفصَّلِ"[4].

اسم السّورة وسببُ التّسمية:

سورةُ الصّافّات لـم يثبت لها اسم آخر

يقول ابن عاشور: "اسمُها المَشهورُ المُتَّفَقُ عَلَيْهِ (الصّافّاتُ)، وبِذَلِك سُمّيَتْ في كُتُبِ التَّفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ وفي المَصاحِفِ كُلِّها، ولَمْ يَثْبُت شَيءٌ عَن النبيّ ﷺ في تَسمِيَتِها، ووَجهُ تَسميَتِها باسِمِ (الصّافّاتِ): وُقوعُ هَذا اللَّفظِ فيها بِالمَعنَى الَّذي أُريدَ بِهِ أنَّه وصفُ المَلائكةِ"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 465، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 81، ودروزة، التّفسير الحديث: 3/ 20.
(3) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 212.
(4) الإمام أحمد، المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ، المعجم الكبير، برقم: (187)، والبيهقيّ، شُعب الإيمان، برقم: (352).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 81.

وورد في الإتقان أنّ هناك من سمّاها "سورة الذّبيح"، ثمّ عقّب السّيوطيّ قائلًا: "وَذَلِكَ يَحْتاجُ إِلَى مُسْتَنَدٍ مِنَ الأَثَرِ"[1]، وذكر البقاعيُّ تسميتَها بـ "سورة الزّينة" دونَ أن يذكر مستندًا أيضًا لهذه التّسميَة[2]، لكنّه حاول الرّبط بين تسميتِها باسمها المشتَهر وبين مقصودها، فقال: "ومقصودُها: الاستدلال على آخر (يس) من التّنزّه عن النّقائص، اللّازمُ منه ردّ العبادِ للفصل بينهم بالعدل، اللّازمُ منه الوحدانيّة مطلقًا في الإلهيّة وغيرها، وذلك هو المعنى الذي أشار إليه تسميتها بالصّافّات؛ لأنّ الصّفّ يلزم منه الوحدة في الحشر باجتماع التّفرّق، وفي المعنى باتّحاد الكلمة"[3].

وقال المهايميّ: "سُمّيت بها لاشتمالها على الآية التي هي فيها على صفات الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم، فينتفي بذلك إلهيّةُ ما دونهم، فيدلّ على توحيد الله، وهو من أعظم مقاصد القرآن"[4].

ويمكن أن يُضاف إلى ما ذكره المهايميّ على وجاهة رأيه، بأنّ تسميتَها بـ "سورة الصّافّات" إنّما جاء مرتبطًا مع محورها العامّ الذي يجمع آياتِها، والذي يقوم على تقرير أنّ سنّة الله ماضية في نُصرة دينه وحفظِ دعوته ودعاته إذا تحقّق فيهم الإخلاصُ، وقدّموا التّضحيات، ولهذا فلربّما كانت تسميتُها بسورة الصّافّات وهم الملائكة في أبهى صور الخضوع والاستسلام، رغم اتّهام المشركين لهم بأنّهم بنات الله، فكانت تسميتُها بذلك على اعتبار أنّ الاستسلام المطلق لله والخضوع له هو الذي يضمن تحقّق وعدِه بنُصرة دينِه وحفظِه على مدى الأزمان.

المحور العام للسّورة:

بيان سنّة الله الماضية في نصرة دينه وحفظ دعوته ودعاته

هذه السّورة الكريمة تشارك أخواتها من السّور المكّيّة في تناولها

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 199.
(2) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 408.
(3) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 409.
(4) المهايمي، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 3/ 98.

لقضايا التّوحيد والوحي والبعث، فالمحور العام لسورة الصافات هو الدعوة للتوحيد والاعتراف بعظمة اللّه من خلال سرد قصص الأنبياء وبيان آثار الإيمان والكفر.

موضوعات السّورة وخصائصها:

إنّ موضوع هذه السّورةِ لا يخرج عن موضوعات السّور المكّيّة في بيان أصول الاعتقاد، ويمكن إجمال موضوعات السّورة في الآتي:

مَـدارُ الـسّـورة حــولَ تفصيل قضايا العقيدة الكبرى، لا سيّما الرّسالة

أوّلًا: عرضت السّورة لقضيّة التّوحيد منذ الآيات الأولى، فجوابُ القَسَم للأمور التي استهلّت السّورة بالقَسَم بها كان يتعلّق بالوحدانيّة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ [الصافات: 1 - 4].

ثانيًا: تناولت موضوعَ البعث والرّسالة مِرارًا ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: 12 - 18].

ثالثًا: ذكرت السّورةُ نماذج دعويّةً لكوكبة من الأنبياء، وهم يعرضون الهدايات على أقوامهم؛ ليُحقّقوا لهم سعادةَ الدّاريْن، ولكنّهم لم يتلقّوا إلّا التّكذيب والإنكار، فأنجاهمُ اللّهُ من أقوامهم، وحفظَ هذا الدّينَ وأتباعَه المُخلِصين والمحسنين، ففيها تقريرُ سنّة اللّه الماضية في نُصرة دينه وحِفظ دعوته ودعاته إذا تحقّق فيهم الإخلاصُ، وقدّموا التّضحياتِ، واتّصفوا بالإحسان، فالسّورةُ جاءت لتربط بين صلاح الدّين وبين صلاح النّفوس، وسلّطتِ الضّوء على حفظ اللّه تعالى لهم من كيد خصومهم.

رابعًا: تناولت السّورة ردّ شبهاتِ الكافرين وأباطيلهم، ووَهَّنَتْ حُجَجَهم، وقطعت أسانيدَهم الفكريّةَ والعقديّة، فعن اعتقادهم

بنفع الجنّ وضرّهم قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 8 - 10]، وعن فريتهم على الله بالشّريك واصطفاءِ الملائكة إناثًا قال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: 149 - 153].

خامسًا: خُتِمت السّورةُ بالإشارة إلى ما بُدئت به من وصف الملائكة بأنّهم الصّافّون المُسبّحون، وبيانِ نُصرة اللهِ لأنبيائه وأوليائه في الدّنيا والآخرة، ومدحِ المرسلين وسلام الله عليهم، وتنزيه الله عن أوصاف المشركين، وثنائه على نفسه، وحمدِه لذاته بأنّه ربّ العِزّة وربّ العالَمين[1].

الخصائص الموضوعيّة لسورة الصّافّات:

تميّزت سورةُ الصّافّات بخصائصَ أفردتَها عن غيرها من السّور

أوّلًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بمجموعة القَسَم الخاصّ بها، فقد أقسم بالملائكة حالَ كونِهم متّصفين بهذه الصّفات، وكان جوابُ القَسَم متعلّقًا بوحدانيّة الله تعالى كما تقدّم.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورةُ بالحديث عن شجرة الزّقّوم، بوصفها تخرج في أصل الجحيم، وأنّ طلعها كأنّه رؤوسُ الشّياطين.

ثالثًا: تميّزت السّورةُ بقِصّة الفداء لإسماعيل عليه السلام، وتضحياتِ الأب والابن، وتفصيلِ قصّة يونس بعدَ الحوت وإرسالِه إلى مئة ألفٍ أو يزيدون، وهكذا فهي وإن شاركت مثيلاتِها من السّور المكّيّة في عرض ذات الموضوعات، والمشاهدِ القَصَصيّة لهؤلاء الأنبياء، إلّا أنّ لها بصمتَها الخاصّة في عرضها.

رابعًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بذِكْر مشاهدَ حواريّةٍ بين

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 23/ 61 - 62.

الكافرين في جهنّم من ناحية، وبين المؤمنين أنفسِهم في الجنّة من ناحية أخرى، فعن تبرُّؤ الكافرين من بعضهم قال: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: 22 - 27]... ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الصافات: 34].

وعن حوار المؤمنين في الجنّة قال: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: 50 - 57].

الخصائص الأسلوبيّة لسورة الصّافّات:

الأنساق التّعبيريّة في سورة الصّافات فريدةٌ في إيقاعها وجَرْسها

أوّلًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بأنساقٍ تعبيريّة فريدة؛ منها: المُقسَم به والمُقسَم عليه في أوّل السّورة الكريمة، ومنها أيضًا: أنساق أخرى نذكر بعضها تمثيلًا: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: 140 - 141]، ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: 94]، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات: 67]، ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾، ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: 47]، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: 103]، ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾، ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

ثانيًا: تكرّرت بعضُ الكلمات في فواصلها بشكلٍ لافت للنّظر، فكلمة ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وردت نحو خمسِ مرّات[1]، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ بنفس

(1) الآيات: 40، 74، 128، 160، 169.

العدد كذلك[1]، وبنفس العدد أيضًا كلمة ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾[2]، وكلمة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾[3]، ولا شكّ أنّ هذا التّكرارَ مرتبطٌ بمحورها القائم على بيان سنّة اللّه تعالى في حفظ دينه، إنِ استفرغ العبادُ جهدَهم فيه.

ثالثًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بذِكْرها ألفاظًا فريدةً في جَذْرها اللّغويّ لم تَرِد في غيرها من السّور، وهي ﴿أَبَقَ﴾ [الصافات: 140]، و﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات: 141]، وقوله: ﴿يَزِفُّونَ ٩٤﴾ [الصافات: 94]، وقوله: ﴿لَشَوۡبٗا﴾ [الصافات: 67]، وقوله: ﴿لَّازِبٍ﴾ في الآية ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾، و﴿غَوۡلٞ﴾ [الصافات: 47]، و﴿وَتَلَّهُۥ﴾ [الصافات: 103] و﴿لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: 103]، ولا شكّ أنّ هذا كلَّه مرتبطٌ بمحور السّورة الكريمة في بيان سنّة اللّه تعالى في حفظ الدّعوات، إن حَفِظَها أهلُها واستقاموا عليها.

مناسبة سورة الصّافّات للسّورة التي قبلها:

سورةُ الصّافّات متّصلةٌ تمامًا بسورة (يس) مضمونًا وأسلوبًا

جاءت سورة (الصّافّات) متمِّمَةً ومفصِّلةً لما جاء في (يس)؛ لذا قال السّيوطيّ: "أقول هذه السّورة (الصّافّات) بعد (يس)، كـ (الأعراف) بعد (الأنعام)، وكـ(الشّعراء) بعد (الفرقان)، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم"[4]، وممّا ذُكِر في وجوه اتّصالهما:

أوّلًا: إنّ في الصّافّات تفصيلَ أحوالِ القرون الغابرة التي أُشيرَ إليها إجمالًا في السّورة السّابقة في قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾ [يس: 31].

ثانيًا: إنّ فيها تفصيلَ أحوالِ المؤمنين، وأحوالِ أعدائهم الكافرين يومَ القيامة، ممّا أُشير إليه إجمالًا في السّورة قبلَها.

(1) الآيات: 29، 81، 111، 122، 132.
(2) الآيات: 80، 105، 110، 121، 131.
(3) الآيات: 37، 123، 133، 139، 171، 181.
(4) السّيوطيّ، تناسق الدّرر، ص: 127.

ثالثًا: المشاكلة بين أوّلها وآخِر سابقتها، ذاك أنّه ذُكِر فيما قبلَها قدرتُه تعالى على المَعاد وإحياء الموتى، وعلّل ذلك بأنّه مُنشئهم، وأنّه إذا تعلّقت إرادتُه بشيء كان، وذَكَر هنا ما هو كالدّليل على ذلك، وهو وحدانيّتُه تعالى، إذ لا يتمّ ما تعلّقت به الإرادةُ إيجادًا وإعدامًا إلّا إذا كان المريدُ واحدًا، كما يُشير إلى ذلك قولُه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22][1].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 41، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 23/ 60 - 61.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣
إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾ [الصافات: 1 - 5]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في القَسَم على الوحدانيّة توكيدٌ للانفراد بالمُلْك المطلَق

نُقل عن أبي جعفر بن الزبير قوله: "لما تضمّنت سورةُ يس من جليل التّنبيه وعظيمِ الإرشاد، وما يهتدي الموفّقُ باعتبار بعضه، ويشتغل المُعتبِرُ به في تحصيل مطلوبه وفَرْضه، ويشهد بأن الملك بجملته لواحد، وإن رَغِم أنفُ المعانِد والجاحد؛ أتبعها تعالى بالقَسَم على وحدانيّته، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾"[1].

الزَّواجرُ حِصْنُ النُّفوسِ

مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى على القولِ: إنَّ المرادَ بالصّافّاتِ الجماعاتُ مِنَ الملائكةِ والمُصلّينَ والمجاهدينَ المُكمِّلينَ أنفسَهم بالاصطفافِ في الطّاعةِ: أن التّكميلَ للنَّفسِ والغيرِ إنَّما يتمُّ معَ الهيبةِ والزَّجرِ، فقالَ تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾[2].

تـلاوةُ القـرآنِ مِـنْ نِـعَمِ اللهِ العظيمةِ

ومناسبةُ الثّالثةِ للثّانيةِ: أنَّهُ لَمّا كانتِ الإفاضةُ مُسبَّبةً عن حُسْنِ التَّلقّي المُسبَّبِ عن تفريغِ البالِ المُسبَّب عن هيبةِ المُفيدِ، وكانَ فيضُ التِّلاوةِ أعظمَ الفيضِ؛ قالَ تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ استدلالًا على قولهم وفعلهم، وتمهيدًا لعُذْرهم، وتشريفًا لقَدْرهم، وتكميلًا لغيرهم[3].

توحيدُ اللهِ تعالى غايةُ المرادِ

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الرّابعةِ لِما قبلَها: فهي أنَّهُ بعدَ القَسَمِ بالمذكوراتِ، جيءَ بالمُقسَمِ عليهِ الَّذي هو مَناطُ الفائدةِ، وهو توحيدُهُ ﷻ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 191.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 187 - 189.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 189 - 190.

انتظامُ الخَلْقِ دليلٌ على وحدانيَّةِ الخالِقِ

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الخامسةِ للرّابعةِ: فهي أنَّهُ ﷺ لمّا أخبرَ بأنَّهُ واحدٌ؛ ذكرَ عَقيبَهُ ما هو كالدَّليلِ اليقينيِّ على ذلكَ، وهو أنَّهُ ربُّ السّماواتِ والأرضِ وما بينَهما وربُّ المشارقِ؛ لأنَّ النَّظرَ في انتظامِ العالَمِ يَدُلُّ على كونِ الإلهِ واحدًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: (صفف) أصلٌ يدلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ، وتساوٍ بينَ شيئَينِ في المَقَرِّ[2]، ومِنْ ذلكَ الصَّفُّ، وهو واحدُ الصُّفوفِ[3]، يقالُ: وقَفا صفًّا، إذا وقفَ كلُّ واحدٍ إلى جنبِ الآخرِ[4]. فالصَّفُّ: أن تجعل الشّيءَ على خطٍّ مستوٍ، كالنّاس والأشجار ونحوِ ذلك، والمعنى صفًّا بعد صفّ، فلا يُراد به واحدًا أبدًا. أو بمعنى الصّافِّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصّف: 4][5]. والمرادُ بالصّافّاتِ هنا: الملائكةُ على الأظهرِ[6]، أو الأفلاكُ، أو العلماءُ، أو الغُزاةُ المجاهدونَ في سبيلِ اللّهِ، أو المُصلّون من المسلمين، أو الطّير لصَفّ أجنحتِها[7].

2) ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾: (زجر) أصلٌ يدلُّ على الانتهارِ[8] والطَّردِ بصوتٍ، ثمَّ يُستعمَلُ في الطَّردِ تارةً وإنْ لم يكنْ بصوتٍ، وفي الصَّوتِ أخرى[9]. والمرادُ بالزّاجراتِ: الملائكةُ على الأظهرِ؛ لأنَّها تَزْجُرُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفف).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صفف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفف).
(5) الرّاغب، المفردات: (صف)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صفف).
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5، والرّاغب، المفردات: (صفف).
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صفف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر).
(9) الرّاغب، المفردات: (زجر).

العُصاةَ[1]، أو تزجرُ السَّحابَ[2]، أو تزجرُ الشَّياطينَ عن الوسوسةِ والإغواءِ، وعنِ استراقِ السَّمعِ[3].

3) ﴿فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ﴾: (تلو) أصلٌ يدلُّ على الإتباعِ[4]، ومِنْ ذلكَ تلاوةُ القرآنِ؛ لأنَّ القارئَ يُتبِعُ كلَّ كلمةٍ أُختَها[5]. والمرادُ بالتّالياتِ هنا: الملائكةُ على الأظهرِ؛ لأنَّها تتلو كتابَ اللّهِ، أو كلُّ مَنْ يتلو القرآنَ[6].

4) ﴿ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾: (شرق) أصلٌ يدلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ[7]، يقالُ: شَرَقَتِ الشَّمسُ شُروقًا، إذا طَلَعَتْ، وأشرقَتْ، إذا أضاءَتْ[8]. والمرادُ بالمشارقِ هنا: مطالعُ الشَّمسِ[9] كما هو الظّاهرُ، أو مشارقُ الكواكبِ؛ لأنَّ لكلِّ كوكبٍ مَشْرِقًا ومَغْرِبًا[10].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ربُّ العالَمينَ واحدٌ لا شريكَ لهُ

يُقرِّرُ اللّهُ تعالى وحدانيَّتَهُ وربوبيَّتَهُ، فيأتي القسمُ - على الأظهرِ - بالملائكةِ الجامعينَ بينَ صفاتِ الاصطفافِ للعبادةِ، وزَجْرِ العُصاةِ والشَّياطينِ والسَّحابِ، وتلاوةِ الذِّكرِ، ليفيد القسم بأنَّ إلهَ النّاسِ واحدٌ لا شريكَ لهُ، ومدللاً على ذلكَ بأنَّهُ الخالقُ والمالكُ للسَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما مِنْ جميعِ العوالمِ والأجناسِ، وخالقُ مطالعِ الشَّمسِ ومالكُها؛ إذ ذلكَ مختصٌّ بهِ، لا يكونُ لغيرِهِ[11].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183.
(2) الرّاغب، المفردات: (زجر).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (تلو).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 62.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شرق).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.
(10) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 316.
(11) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 42.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الافتتاحِ بالقَسَمِ:

توحيدُ اللهِ تعالى ممّا لا ينبغي أنْ يُشَكَّ فيهِ

الواوُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ للقَسَمِ[1]، وقد أقسمَ ﷻ بالصّافّاتِ والزّاجراتِ والتّالياتِ، وفي افتتاحِ الآيةِ بالقَسَمِ تأكيدٌ للمُقسَمِ عليهِ مزيدَ تأكيدٍ؛ لأنَّهُ مُقتضَى إنكارِهم الوحدانيَّةَ، كما هو المألوفُ في كلامِ العربِ[2]، مِنْ تأكيدِ خبرِهم المُهِمِّ بالقَسَمِ ونحوِهِ[3]. وإنَّما أقسمَ ﷻ على توحيدِهِ؛ لأنَّهُ قرَّرَهُ بالدَّلائلِ اليقينيَّةِ في مواضعَ أُخرى مِنَ القرآنِ، فلا يُعترَضُ بأنَّ القَسَمَ لا فائدةَ فيهِ معَ المُنكِرينَ[4].

سرُّ القَسَمِ بالمذكوراتِ:

عِظَمُ شأنِ الملائكةِ عندَ اللهِ

الظّاهرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أنَّهُ سبحانَهُ يُقسِمُ بذواتِ بعضِ مخلوقاتِهِ، وهي الصّافّاتُ والزّاجراتُ والتّالياتُ، وفي القَسَمِ بها تنبيهٌ على شرفِ ذواتِها وكمالِ حقائقِها، لا سيَّما إذا فسَّرْناها بالملائكةِ[5]، وإظهارٌ لِعظَمِ شأنِها وكِبَرِ فوائدِها، وتنبيهٌ إلى الاعتبارِ بصفتِها[6]؛ فهي دالَّةٌ على عظيمِ قدرةِ الخالقِ[7]، وحثٌّ على تعظيمِها، واعتقادِ حُرْمتِها ومكانتِها عندَ اللّهِ.

القَسَمُ بالعظيمِ عظيمٌ

ويحتملُ على بُعْدٍ أنْ يكونَ في الكلامِ محذوفٌ، والقَسَمُ في الحقيقةِ باللّهِ، والمعنى: وربِّ الصّافاتِ... إلخ[8]، ومع ما في ذلكَ من تعظيمٌ لذاتِهِ تعالى، لكنّه خلافُ الظّاهرِ، وفيهِ تقديرٌ لا حاجةَ إليهِ.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 291، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 442.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 83.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 215.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 316.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 316.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 200.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 83.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 61.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالصَّفِّ:

تفاوتُ مراتبِ الملائكةِ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالصّافّاتِ الملائكةُ الصّافّونَ في مقامِ العبوديَّةِ، وفي التَّعبيرِ بهذا الوصفِ إشارةٌ إلى أنَّ الملائكةَ الصّافّينَ مراتبُ[1]؛ فمَنْ كانَ أعلى رتبةً يكونُ صفُّهُ قريبًا إلى المحلِّ الَّذي ألهمَهُ اللّهُ تعالى أنَّهُ محلُّ القُرْبِ، ومَنْ كانَ دونَهُ يكونُ صفُّهُ قريبًا إلى الصَّفِّ الأوَّلِ، وهكذا إلى أنْ تتمَّ الصُّفوفُ[2].

الملائكةُ يفعلونَ ما يُؤمَرونَ

ويجوزُ أنْ يكونَ الصَّفُّ كنايةً عنِ استعدادِ الملائكةِ لامتثالِ ما يُلقَى إليهِم مِنْ أمرِ اللّهِ ﷻ[3]؛ لأنَّ مِنْ شأنِ المأمورينَ أنْ يتهيَّؤوا بالاصطفافِ.

دِقَّةُ ترتيبِ الأفلاكِ مِنْ معجزاتِ الخلّاقِ

ويحتملُ أنْ يرادَ بالصّافّاتِ الأفلاكُ المُرتَّبةُ[4]، أي: يكونُ بعضُها فوقَ بعضٍ، وهذا ليسَ بصفٍّ حقيقةً؛ إذِ الصَّفُّ ترتُّبُ الجمعِ في خطٍّ مستقيمٍ، بل هو واردٌ على التَّشبيهِ بالصُّفوفِ المرصوصةِ، فيكونُ الصَّفُّ استعارةً[5]، وفيهِ إشارةٌ إلى دِقَّةِ ترتيبِ الخالقِ ﷻ للأفلاكِ، ولذلكَ أقسمَ بها على الأمرِ العظيمِ، وهو توحيدُهُ.

حرصُ العلماءِ العاملينَ على الجماعةِ في الطّاعاتِ

ويحتملُ أنْ يرادَ بالصّافّاتِ نفوسُ العلماءِ الصّافّينَ في العباداتِ[6]، والصَّفُّ إمّا حقيقةٌ إنْ أُريدَ بالعبادةِ الصَّلاةُ، وأُريدَ بالصَّفِّ الصَّفُّ في الجماعاتِ، أو مجازٌ إنْ أُريدَ بها مُطلَقُ العبادةِ[7]، وأيًّا ما كانَ ففي القَسَمِ بذلكَ تنبيهٌ على شرفِ الاجتماعِ للعباداتِ والطّاعاتِ، والتَّزاحمِ في صفوفِها.

ويحتملُ أن يرادَ بالصّافّاتِ نفوسُ الغُزاةِ الَّذينَ يجاهدونَ في

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 83.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5.
(7) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.

سبيلِ اللّهِ، حقيقةً، أي: أنَّ مِنْ شأنِهم الاصطفافَ، أو مجازًا باعتبارِ ما كانَ[1] إنْ كانَ الحديثُ عن جهادٍ مضَى، وفي الكلامِ تنويهٌ بشأنِ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ، الَّذي هو ذِروةُ سَنامِ الإسلامِ.

نُكْتَةُ تأنيثِ الصِّفاتِ:

الملائكةُ أصنافٌ مختلفةٌ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالصّافّاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ الملائكةُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾ [الصّافات: 165]، فكانَ الظّاهرُ أنْ تُجمعَ جمعَ المُذكَّرَ السّالمِ، كما في الآيةِ المذكورةِ، فتأنيثُهُ هنا على أنَّهُ جمعُ صافَّةٍ، أي: طائفةٍ صافَّةٍ، أو جماعةٍ صافَّةٍ[2]، ليَدُلَّ على أنَّ المرادَ أصنافٌ مِنَ الملائكةِ لا آحادٌ منهُم[3]، فهذهِ الصِّفةُ لطوائفَ مخصوصةٍ لا لكلِّهم؛ لأنَّ بعضَهم يُدبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ[4]. ومِثْلُ ذلكَ يقالُ في الزّاجراتِ والتّالياتِ. وكذا الأمرُ إنْ حُمِلَتِ الصّافّاتُ على الأفلاكِ المُرتَّبةِ كالصُّفوفِ المرصوصةِ؛ فجمعُ الصّافّاتِ على بابِهِ[5]، وليسَ فيهِ عدولٌ عن الظّاهرِ.

الجماعةُ في الإسلامِ حبلُ اللهِ ومكمنُ نَصْرِه

وإنْ حُمِلَتِ الصّافّاتُ على نفوسِ العلماءِ الصّافّينَ في العباداتِ، أو على نفوسِ الغُزاةِ المجاهدينَ؛ فقد عُدِلَ عن جمعِ المُذكَّرِ السّالمِ إلى جمعِ المُؤنَّثِ؛ للدّلالةِ على أنَّ الموصوفَ هو الجماعةُ، أو الطّائفةُ كما تقدَّمَ[6].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

مَنْ أدامَ الخِدمةَ فازَ بالكراماتِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ مجموعًا في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾؛ للدّلالةِ على الثَّباتِ والاستمرارِ، وأنَّ هذا الوصفَ قد صارَ راسخًا في

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 552، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 187 - 188، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 83.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.

(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.

(6) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.

الموصوفِ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ القَسَمِ المُتضمِّنِ تعظيمَ المُقسَمِ بهِ؛ فإنَّ رسوخَ الوصفِ فيهِ مِنْ دواعي تعظيمِهِ وتشريفِهِ، تفضُّلًا منهُ ﷻ، لا سيَّما إنْ كانَ المرادُ الدَّوامَ على العبادةِ أو الجهادِ.

نُكتةُ الإيجازِ:

علّةُ الحذفِ ظهورُ المعنى في السّياقِ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أنْ يكونَ مِنْ قبيلِ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ؛ لدلالةِ السّياقِ عليهِ، والمعنى: والصّافّاتِ أنفُسَها[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ المتعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ، أي: والفاعلاتِ للصُّفوفِ، على أنَّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ مِنْ غيرِ قصدٍ إلى المفعولِ[2].

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ:

جيءَ بالمصدرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ للتَّأكيدِ، أي: صفًّا بديعًا[3]، وفي التَّأكيدِ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ تعظيمِ الموصوفِ بهذهِ الصِّفةِ الجليلةِ.

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ:

التّفاوتُ بينَ الصِّفاتِ أو بينَ الموصوفاتِ

تحتملُ الأشياءُ الثَّلاثةُ المُقسَمُ بها في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أنْ تكونَ صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ، والعطفُ لتنزيلِ تغايرِ الصِّفاتِ منزلةَ تغايرِ الذَّواتِ[4]. ويحتملُ أنْ تكونَ أشياءَ ثلاثةً متباينةً[5].

والفاءُ إذا جاءَتْ عاطفةً في الصِّفاتِ: إمّا أنْ تدلَّ على ترتُّبِ معانيها في الوجودِ، وإمّا على ترتُّبِها في التَّفاوتِ مِنْ بعضِ الوجوهِ، كقولِكَ: خذِ الأفضلَ فالأكملَ، وإمّا على ترتُّبِ موصوفاتِها في ذلكَ. فإنْ كانَ الموصوفُ واحدًا فالفاءُ للدّلالةِ على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 209.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 443.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 212.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 313.

ترتُّبِ الصِّفاتِ في التَّفاضلِ، وإنْ كانَ مُتعدِّدًا فهي للدّلالةِ على ترتُّبِ الموصوفاتِ فيه. بيانُ ذلكَ: أنَّكَ إذا وصفتَ بهذهِ الأوصافِ الملائكةَ، وجعلتَهم جامعينَ لها؛ فعطفُها بالفاءِ يفيدُ ترتُّبًا لها في الفضلِ: إمّا أنْ يكونَ الفضلُ للصَّفِّ، ثمَّ للزَّجْرِ، ثمَّ للتِّلاوةِ؛ لأنَّ الاصطفافَ مُقدِّمةٌ لها ووسيلةٌ، والوسيلةُ دونَ المُتوسَّلِ إليهِ، وأنَّ تلاوةَ الذِّكرِ أفضلُ مِنَ الزَّجْرِ، باعتبارِ ما فيها مِنْ إصلاحِ المخلوقاتِ، وإمّا على العكسِ. وكذلكَ إن أردتَ العلماءَ والغُزاةَ، وإنْ وصفتَ بالصِّفةِ الأولى طوائفَ، وبالثّانيةِ والثّالثةَ طوائفَ أُخَرَ؛ فقد أفادَتْ ترتُّبَ الموصوفاتِ في الفضلِ، يعني: أنَّ الطَّوائفَ الصّافّاتِ ذواتُ فضلٍ، والزّاجراتُ أفضلُ، والتّالياتُ أكثرُ فضلًا، أو على العكسِ[1]. وإيثارُ الفاءِ على الواوِ لقصدِ التَّرتيبِ والتَّفاضلِ، طردًا أو عكسًا كما سبقَ[2].

بلاغةُ الإيجازِ في الزّاجراتِ:

دائرةُ المزجورينَ واسعةٌ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ أنْ يكونَ مِنْ قبيلِ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ، فإذا كانَ الموصوفُ هو الملائكةَ - كما هو الظّاهرُ - فالمعنى: فالزّاجرتِ لِما نيطَ بها زَجْرُهُ، ومِنْ جملةِ ذلكَ: زَجْرُ العبادِ عن المعاصي بالمواعظِ، وزَجْرُ الشَّياطينِ عنِ الوسوسةِ والإغواءِ، وعنِ استراقِ السَّمعِ[3]، ففي الحَذْفِ توسيعٌ لدائرةِ المزجورينَ، وإنْ كانَ الموصوفُ هو العلماءَ فالمعنى: أنَّهم يزجرونَ أهلَ المعاصي[4].

مدارُ الإفادةِ حصولُ الزَّجْرِ

ويحتملُ أنْ يكونَ المتعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ، أي: فالفاعلاتِ للزَّجْرِ، على أنَّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ مِنْ غيرِ قصدٍ إلى المفعولِ[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 33 - 34، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 83.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 200.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 64.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 443.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 64.

نُكْتةُ تعريفِ الزّاجراتِ:

الظّاهرُ أنَّ التَّعريفَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ أفرادَهُ(1)، على الاختلافِ في المقصودِ بها، فيفيدُ أنَّ جميعَ الأفرادِ مُعظَّمةٌ بالقَسَمِ.

بلاغةُ اسمِ الفاعلِ:

فـازَ بـالـرِّضـوانِ مَـنْ أدامَ الزَّجْرَ عن الهوى

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ مجموعًا في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾؛ للدّلالةِ على الثَّباتِ والاستمرارِ، وأنَّ هذا الوصفَ قد تمكَّنَ في الموصوفِ، ولذلكَ عظَّمَهُ اللّٰهُ تعالى بالإقسامِ به؛ تنويهًا بشأنِهِ وعُلوِّ درجتِهِ، لا سيَّما إنْ كانَ المرادُ الدَّوامَ على الزَّجْرِ عن المعاصي والوسوسةِ والإغواءِ ونحوِ ذلكَ، فهذا شأنُ الأنبياءِ وورثتِهِم.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ:

عِظَمُ شأنِ الزَّجْرِ عن المعاصي

جيءَ بالمصدرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ للتَّأكيدِ، أي: زجرًا بليغًا(2)، وفي التَّأكيدِ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ تعظيمِ الموصوفِ بهذهِ الصِّفةِ الجليلةِ؛ إذ يشيرُ المصدرُ إلى تحقُّقِ اتِّصافِهِ بها.

نُكْتةُ تعريفِ التّالياتِ:

الذِّكرُ بَرَكةٌ لكلِّ تالٍ لهُ

الظّاهرُ أنَّ التَّعريفَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ أفرادَهُ، فيُفيدُ أنَّ جميعَ الأفرادِ التّاليةِ للذِّكرِ مُقسَمٌ بها(3)، ومُستحِقَّةٌ للتَّعظيمِ والتَّشريفِ، وهي أفرادُ الملائكةِ التّاليةُ للذِّكرِ، أو كلُّ مَنْ يتلوهُ.

بلاغةُ اسمِ الفاعلِ:

الإكـثـارُ مِـنَ الـتِّـلاوةِ شـأنُ المُخلَصينَ

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ مجموعًا في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾؛ للدّلالةِ على الثَّباتِ والاستمرارِ، وأنَّ هذا الوصفَ عريقٌ في الموصوفِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 34.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 116، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 183.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 34.

ولذلكَ استحقَّ التَّعظيمَ والتَّشريفَ، لا سيَّما إنْ كانَ المرادُ الدَّوامَ على تلاوةِ آياتِ اللّهِ تعالى، فذلكَ لا يكونُ إلّا ممَّنْ خَلَصَتْ نفسُهُ للّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالتّالياتِ:

عنايةُ أهلِ الكمالِ بتلاوةِ القرآنِ

عُبِّرَ بالتّالياتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ لدلالةِ التِّلاوةِ على المواظبةِ، واختصاصِها بكُتُبِ اللّهِ المُنزَلةِ، ففي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى مواظبةِ الموصوفِ بهذا الوصفِ على قراءةِ القرآنِ، كما هو شأنُ الكُمَّلِ مِنْ أهلِ الإيمانِ.

وجْهُ التَّعبيرِ بالذِّكرِ:

القرآنُ تذكيرٌ باللّهِ واليومِ الآخِرِ، ورفعٌ لشأنِ المؤمنينَ

عُبِّرَ بالذِّكرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ لأنَّهُ مصدرُ (ذَكَرَ)، إذا تلفَّظَ، ومصدرُ (ذَكَرَ)، إذا خَطَرَ ببالِهِ شيءٌ؛ فالذِّكرُ هو الكلامُ الموحَى بهِ؛ ليُتلَى ويُكرَّرَ، وفيهِ التَّذكيرُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ، والتَّنويهُ بشأنِ أُمَّةِ الإسلامِ في الآخِرينَ[1].

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾:

الوحدانيَّةُ أجلَى الحقائقِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ جوابُ القَسَمِ[2]، وهو مَحَطُّ العنايةِ، ومقصودُ الكلامِ، وما قبلَهُ تمهيدٌ لهُ، ولا غَرْوَ في ذلكَ؛ فالآيةُ تُقرِّرُ حقيقةَ التَّوحيدِ الَّتي هي أهمُّ الحقائقِ وأجلاها، فاللّهُ ﷻ واحدٌ مِنْ جميعِ الجهاتِ الَّتي ينظرُ فيها المُتفكِّرونَ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

وحدانيَّةُ اللّهِ تعالى حقيقةٌ ثابتةٌ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾؛ لدلالتِها على الثَّباتِ والدَّوامِ، ووحدانيَّةُ اللّهِ تعالى حقيقةٌ يقينيَّةٌ ثابتةٌ، لا تقبلُ التَّغييرَ والتَّبديلَ، ولا يعتريها شكٌّ أو نقضٌ سائرَ الأزمانِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 85، 14/ 16.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 90.

بلاغةُ توالي المؤكِّداتِ:

شدَّةُ إنكارِ كفّارِ مكَّةَ لوحدانيَّةِ اللهِ

أُكِّدَ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ بعدَّةِ مُؤكِّداتٍ، وهي: القَسَمُ، و﴿إِنَّ﴾، والجملةُ الاسميَّةُ، ولامُ الابتداءِ المُزحلَقةُ إلى الخبرِ؛ لزيادةِ تحقيقِ وحدانيَّتِه ﷻ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ - وهم كفّارُ مكَّةَ - يُنكِرونَها أشدَّ إنكارٍ[1]، فقد رَسَخَ في نفوسِهم القولُ بتعدُّدِ الآلهةِ، ومقامُ الإنكارِ خليقٌ بالتَّأكيدِ بحسَبِ درجةِ الإنكارِ.

كفّارُ مكَّةَ يكابرونَ ما تُقِرُّ بِهِ نفوسُهم

والخطابُ في قولِه تعالى شأنُه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾؛ أنسبُ بإقامةِ الحُجَّةِ على المشركينَ، والعنايةِ بتقريرِ وحدانيَّتِه تعالى؛ إذ فيهِ إيقاظٌ للمشركينَ، ومواجهةٌ لهُم بأمرٍ يعلمونَ صِدْقَهُ في قرارةِ أنفُسِهم، ولكنَّهم يُظهِرونَ خلافَهُ كِبْرًا وعنادًا.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿إِلَٰهَكُمْ﴾:

إعراضُ المشركينَ عن معبودِهم الحقيقيِّ

أُضيفَ لفظ الإلهِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾؛ لزيادةِ تقريرِ المشركينَ بأمرٍ لا يجدونَ لهُ مَدْفعًا، وهو أنَّ إلهَهم واحدٌ؛ لأنَّهُ ربُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما وربُّ المشارقِ، وفي الإضافةِ إشعارٌ بأنَّهُ لا إلهَ لهُم غيرُ الإلهِ الموصوفِ بهذهِ الصِّفةِ، وفيها أيضًا تذكيرٌ لهُم بالمُنعِمِ عليهِم، الَّذي لا ينبغي أنْ يَصرِفوا العبادةَ لغيرِه.

سرُّ التَّعبيرِ بالأُلوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

اللهُ هو المُستحِقُّ للعبادةِ

عُبِّرَ بالأُلوهيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ دونَ الرُّبوبيَّةِ؛ لدلالةِ لفظِ الإلهِ على العبادةِ الَّتي ينبغي صرفُها لِمَنْ يستحقُّها، وهو اللّهُ ﷻ. فضلًا عن المناسبة بين لفظي الأُلوهيّة والوحدانيّة، والتّلازم الذي تكرّر كثيرًا في غير موضع من القرآن الكريم.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 215.

دلالةُ اللّامِ:

اللّامُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿لَوَٰحِدٌ﴾ هي لامُ الابتداءِ المُزحلَقةُ إلى الخبرِ، والغرضُ منها التَّوكيدُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿لَوَٰحِدٌ﴾:

توحيدُ اللهِ مَناطُ التَّأكيدِ

جيءَ بصفةِ (واحدٌ) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾؛ لأنَّها مَناطُ التَّأكيدِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ قد علِموا أنَّ لهُم إلهًا، ولكنَّهم جعلوهُ عدَّةَ آلهةٍ، فأبطلَ ﷻ اعتقادَهم بإثباتِ أنَّهُ واحدٌ غيرُ مُتعدِّدٍ، وهذا إنَّما يقتضي نفيَ الإلَهيَّةِ عن المُتعدِّدينَ، وأمّا اقتضاؤُهُ تعيينَ الإلهيَّةِ للّهِ تعالى فذلكَ حاصلٌ بأنَّهم لا يُنكِرونَ أنَّ اللّهَ تعالى هو الرَّبُّ العظيمُ، ولكنَّهم جعلوا لهُ شُرَكاءَ، فحصلَ التَّعدُّدُ في مفهومِ الإلهِ، فإذا بطلَ التَّعدُّدُ تعيَّنَ انحصارُ الإلهيَّةِ في ربٍّ واحدٍ، هو اللّهُ تعالى(1).

علّةُ الفصلِ في ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإلهُ الواحدُ هو المُتفرِّدُ بالخلقِ والإيجادِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ الإلهِ الواحدِ بأنَّهُ ربُّ السَّماواتِ والأرضِ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ خصائصِهِ تعالى؛ فإنَّ المشركينَ معَ غُلوِّهم في الشِّركِ لم يتجرَّؤوا على ادِّعاءِ الخالقيَّةِ لأصنامِهم، ولا التَّصرُّفِ في العوالمِ العُلويَّةِ، فكانَ تفرُّدُهُ تعالى بالخالقيَّةِ أفحمَ حُجَّةٍ عليهِم في بطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ(2).

بلاغةُ الإيجازِ:

حذفُ المبتدأِ جارٍ في الاستعمالِ

قولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: هو ربُّ السَّماواتِ والأرضِ، وقد جرَى حذفُهُ على طريقةِ الاستعمالِ العربيِّ في حذفِ المسندِ إليهِ مِنَ الكلامِ الواردِ بعدَ تقدُّمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.

حديثٍ عنهُ[1]، وفي ذلكَ إيجازٌ يلائمُ الاختصارَ الَّذي قامَ عليهِ معظمُ آياتِ هذهِ السّورةِ، وإيماءٌ إلى سُرعةِ تعيُّنِ الإلهِ الواحدِ سبحانَهُ. ويحتملُ أنْ يكونَ خبرًا ثانيًا، وأنْ يكونَ بدلًا مِنْ ﴿لَوَٰحِدٌ﴾[2]، وعليهِ فلا حذفَ.

بلاغةُ الإدماجِ:

خصائصُ الإلهِ الواحدِ تُميِّزُهُ عن غيرِه

قولُه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ مَسوقٌ لبيانِ الإلهِ الواحدِ، وفيهِ إدماجُ الاستدلالِ على تعيينِه، بذِكْرِ ما هو مِنْ خصائصِه المُقتضي تفرُّدَهُ بالإلَهيَّةِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

العاقلُ لا يَصرفُ العبادةَ لغيرِ الخالقِ المُنعِمِ

الظّاهرُ هاهنا أنْ يُقالَ: (إلهُ السَّماواتِ والأرضِ)... إلخ؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الإلهِ في قولِه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾، لكنْ عُبِّرَ بالرُّبوبيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لدلالةِ لفظِ الرَّبِّ على أنَّهُ ﷻ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما ومالكُهُ[4]، ومُربّيه، ومُبلِّغُهُ إلى كمالاتِه[5]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ الاستدلالِ على وحدانيَّتِه تعالى؛ إذ هذا الوصفُ مُختصٌّ بِهِ سبحانَهُ، فيستلزمُ اختصاصَهُ بالألوهيَّةِ، فضلًا عمّا في وصفِ الرَّبِّ مِنَ الإشارةِ إلى إنعامِه ﷻ على عبادِهِ بالنِّعَمِ الَّتي لا تتناهَى، ومنها خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما ممّا يدورُ عليهِ مصالحُ العبادِ، والعاقلُ لا يصرفُ العبادةَ لغيرِ الخالقِ المُنعِمِ.

غرضُ إضافةِ لفظِ الرّبّ:

السَّماواتُ والأرضُ وما بينَهما مِلْكٌ للهِ

أُضيفَ الرَّبُّ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿رَّبُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 219.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 63، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 217.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ إضافةَ المالكِ إلى المملوكِ، الّتي لا ينازعُ فيها عاقلٌ؛ للدّلالةِ على أنَّ مَنْ كانَ شأنُهُ كذلكَ فهو الحَريُّ بالإفرادِ بالألوهيَّةِ والعبادةِ.

لا شيءَ خارجٌ عن سلطانِ الرُّبوبيَّةِ

نُكتةُ عطفِ ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتأكيدِ شمولِ ربوبيَّتِهِ ﷻ لكلِّ ما يحيطُ بالعبادِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ على المُخاطَبينَ، والاستدلالِ على وحدانيَّةِ الباري ﷻ.

اللهُ خالقُ العوالمِ كلِّها

دلالةُ (ما):

جيءَ باسمِ الموصولِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لأنَّهُ مِنْ ألفاظِ العمومِ، فيناسبُ مقصودَ الكلامِ، مِنْ حيثُ إنَّ شمولَ رُبوبيَّتِهِ تعالى للسَّماواتِ والأرضِ وجميعِ ما بينَهما مِنَ العوالمِ المشهودةِ للنّاسِ بأجرامِها وسُكّانِها والموجوداتِ فيها؛ دليلٌ ظاهرٌ على تفرُّدِهِ ﷻ بالألوهيَّةِ[1].

ظهورُ آثارِ الرُّبوبيَّةِ في المشارقِ

بلاغةُ تكريرِ الرَّبِّ:

أعادَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ الرَّبِّ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ إذ لم يُقَلْ: (ربُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما والمشارقِ)؛ للتَّنبيهِ على غايةِ ظهورِ آثارِ الرُّبوبيَّةِ في المشارقِ، وتجدُّدِها كلَّ يومٍ[2].

مَنْ خضعَ لسلطانِهِ كلُّ شيءٍ فهو حَريٌّ بالعبادةِ وإفرادِ الألوهيّةِ

غرضُ الإضافةِ:

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى المشارقِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ إضافةَ المالكِ إلى المملوكِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَنْ كانَتِ المشارقُ مخلوقةً لهُ، وتحتَ سلطانِهِ وقدرتِهِ؛ فهو الحَريُّ بالإفرادِ بالأُلوهيَّةِ والعبادةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184.

نُكتةُ تخصيصِ المشارقِ بالذِّكرِ:

شأنُ المشارقِ عجيبٌ

تخصيصُ المشارقِ بالذِّكرِ مِنْ بينِ ما هو بينَ السَّماواتِ والأرضِ في قولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ لأنَّها مطالعُ الأنوارِ، والعيونُ بها أكلَفُ[1]، ولأنَّها أحوالٌ مشهودةٌ كلَّ يومٍ[2]، ففي إفرادِها بالذِّكرِ تنبيهٌ على عِظَمِ شأنِها، حتَّى كأنَّها جنسٌ مختلفٌ عن جنسِها الَّذي تندرجُ فيهِ، وهذا مِنْ قبيلِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ.

بلاغةُ حذفِ المغاربِ:

المشارقُ أكثرُ نفعًا مِنَ المغاربِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ أنَّ في ذِكْرِ المشارقِ غُنيةً عن ذِكْرِ المغاربِ؛ إذ مساواتُها لها مفهومةٌ عندَ كلِّ عاقلٍ[3]، ولأنَّ المغاربَ تختلفُ بحسَبِ المشارقِ[4]، فذِكْرُ المشارقِ يستلزمُ ذكرَها، ولأنَّ الشُّروقَ أقوى حالًا مِنَ الغُروبِ، وأكثرُ نفعًا، فذِكْرُ المشارقِ تنبيهٌ على كثرةِ إحسانِ اللّهِ تعالى لعبادِهِ[5].

علَّةُ جمعِ ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

المشارقُ كثيرةٌ مُتعدِّدةٌ

جُمِعَتِ المشارقُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ للدّلالةِ على تعدُّدِها وكثرتِها باعتبارِ اختلافِ مَطْلَعِ الشَّمسِ خلالَ السَّنةِ الشَّمسيَّةِ؛ فإنَّها ثلاثُ مئةٍ وستّونَ مَشْرِقًا، وبحسَبِها تختلفُ المغاربُ[6]، وهذا الاختلافُ والتَّنوُّعُ آيةٌ مِنْ آياتِ اللّهِ تعالى، حيثُ يُسيِّرُ الشَّمسَ على وفْقِ نظامٍ دقيقٍ لا يختلُّ، وكذلكَ الأمرُ إنْ أُريدَ مشارقُ الكواكبِ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 465.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 86.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 465.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 5.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 316 - 317.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

تقدَّمَ أنَّ المُرادَ بالمشارقِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مطالعُ الشَّمسِ على الأظهرِ، وهي ثلاثُ مئةٍ وستّونَ مَشْرِقًا، وكذلكَ المغاربُ، تُشرِقُ الشَّمسُ كلَّ يوم في مَشْرِقٍ، وتغربُ في مَغْرِبٍ، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾ [الرّحمن: 17] بالتَّثنيةِ، فالمرادُ بهِ: مَشْرِقا الصَّيفِ والشِّتاءِ ومغرباهما، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشّعراء: 28] بالإفرادِ فالمرادُ بهِ: الجِهةُ؛ فالمَشْرِقُ جِهةٌ، والمَغْرِبُ جِهةٌ[1]، وبذلكَ أفادَتْ كلُّ آيةٍ فائدةً جديدةً، واندفعَ ما قد يُتوهَّمُ مِنَ التَّعارضِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّجْرُ والوَعْظُ والنُّصْحُ:

الدّاعيةُ إلى اللهِ حريصٌ على تطبيقِ شرعِ اللهِ

الزَّجْرُ في الأصلِ: الدَّفْعُ عن الشَّيءِ بتسلُّطٍ وصياحٍ، ثمَّ استُعمِلَ في الحَثِّ على الشَّيءِ، وفي المنعِ والنَّهيِ، وإنْ لم يكنْ صياحٌ[2].

والوعظُ: زَجْرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، أو هو التَّذكيرُ بالخيرِ فيما يَرِقُّ لهُ القلبُ[3]. والنُّصحُ: تحرّي فعلٍ، أو قولٍ فيهِ صلاحُ صاحبِهِ.

وقد عُبِّرَ بالزَّجْرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾؛ لأنَّ في التَّعبيرِ بهِ دلالةً على أنَّهُ لا يُترَكُ للمَزْجورِ تباطؤٌ في الإتيانِ بالمطلوبِ منهُ[4]، وعلى أنَّ الزّاجرَ حريصٌ غايةَ الحِرْصِ على تحقُّقِ المطلوبِ، فإنْ كانَ الموصوفُ هو الملائكةَ - كما هو الظّاهرُ - أو العلماءَ؛ دلَّ الوصفُ بالزّاجراتِ على أنَّهم يقومونَ برسالةِ الدَّعوةِ إلى اللهِ ضمنَ المنهجِ الرَّبّانيِّ، وينصحونَ ويُرشدونَ، ويأمرونَ بالمعروفِ، ويَنهَوْنَ عن المُنكَرِ، فمَنْ أصرَّ مِنَ المسلمينَ على ارتكابِ المعاصي زَجَروهُ عن معاصيهِ.

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 117، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184.

(2) الرّاغب، المفردات: (زجر)، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 64، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 41.

(3) الرّاغب، المفردات: (زجر)، (وعظ)، (نصح).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 84.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ [الصّافات: 6 - 10]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الـقـدرةُ قرينـةُ الرُّبوبيَّة

بعدَما أخبرَ تعالى عن ربوبيَّتِه للسَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وربوبيَّتِه للمشارقِ؛ أخبرَ عن قدرتِه في تزيينِ السَّماءِ بالكواكبِ، وحراستِها مِنَ الشَّياطين(1).

ومن المناسبة أنَّ المشارقَ تقتضي الفَيْضَ والإظهارَ، فأُتبِعَتْ بذِكْرِ ما مِنْ شأنِه الشُّروقُ والغُروبُ، وهو الكواكبُ(2)، ومنها أنَّ هذهِ الآياتِ تتنزَّلُ منزلةَ الدَّليلِ على أنَّهُ ربُّ السَّماواتِ(3).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَّا﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِه، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ، وتزيينُ الشَّيءِ: تحسينُهُ(4)، والزّينةُ ثلاثٌ: زينةٌ نفسيَّةٌ، كالعلمِ والاعتقاداتِ الحسنةِ، وزينةٌ بدنيَّةٌ، كالقوَّةِ وطولِ القامةِ، وزينةٌ خارجيَّةٌ، كالمالِ والجاهِ(5). والمرادُ بالتَّزيينِ هنا: التَّحسينُ والتَّجميلُ.

2) ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾: (كبب) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ وتجمُّعٍ(6)،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زين).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبب).

وكوكبُ الشّيءِ: معظَمُهُ[1]، والكواكبُ: النُّجومُ البادِيةُ[2]، ولعلَّها سُمّيَتْ بذلكَ؛ لأنَّها تَظْهَرُ للرّائي مجتمعةً في كَبِدِ السَّماءِ. والمرادُ بها هنا: النُّجومُ الَّتي تلمعُ في اللَّيلِ ما عدا الشَّمسَ والقمرَ[3].

3) ﴿شَيْطَٰنٍ﴾: (شطن) أصلٌ يدلُّ على البُعْدِ[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بِئْرٌ شَطونٌ، أي: بعيدةُ القَعْرِ[5]، والشَّيطانُ مِنْ هذا الأصلِ على الصَّحيحِ، والنّونُ فيهِ أصليَّةٌ[6]، سُمّيَ بذلكَ لبُعدِهِ عن الحَقِّ وعن رحمةِ اللهِ. وجوّزَ أنْ يكونَ مِنْ بابِ (شاطَ) إذا احترقَ، فالشَّيطانُ مخلوقٌ مِنَ النّارِ، والنّونُ فيهِ على هذا زائدةٌ[7]، ويُطلَقُ الشَّيطانُ على كلِّ عاتٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والحيواناتِ[8]. والمُرادُ هنا: شياطينُ الجِنِّ؛ لأنَّهم هم الَّذينَ كانوا يسترِقونَ السَّمْعَ.

4) ﴿مَّارِدٍ﴾: (مرد) أصلٌ يدلُّ على تجريدِ الشَّيءِ مِنْ قِشْرِهِ، أو ما يعلوهُ مِنْ شَعَرِهِ[9]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: شجرةٌ مرداءُ، أي: لا ورقَ لها، وشابٌّ أمردُ[10]، أي: لا شَعَرَ لهُ، والماردُ والمريدُ مِنْ شياطينِ الجِنِّ والإنسِ: المُتَعرّي مِنَ الخيرِ، الخارجُ عن الحقِّ[11]. والمرادُ هنا: الخارجُ عن الطّاعةِ مِنْ شياطينِ الجِنِّ[12].

5) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾: (سمع) أصلٌ يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ[13]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذُنِ بها تُدرَكُ الأصواتُ[14]. والمرادُ بنفيِ التَّسمُّعِ هنا: نفيُ السَّمعِ[15].

6) ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: (الملأ) الأشرافُ، سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبَةً، والعُيونَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (كبب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كبب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطن).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شطن).
(6) الخليل، العين: (شطن).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شطن).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرد).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مرد).
(11) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مرد).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(14) الرّاغب، المفردات: (سمع).
(15) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 320.

جلالةً[1]، أو هو جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، ويقالُ: مالأْتُهُ، إذا عاوَنتُهُ وصِرتُ مِنْ مَلَئِهِ، أي: جَمْعِهِ[2]. والمُرادُ بـ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الملائكةُ؛ لأنَّهم يسكنونَ السَّماواتِ[3].

7) ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: (قذف) أصلٌ يدلُّ على الرَّمْيِ والطَّرْحِ[4]، أو على الرَّمْيِ البعيدِ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَلْدَةٌ قَذوفٌ، أي: بعيدةٌ[6]، واستُعيرَ القَذْفُ للشَّتْمِ والعَيْبِ[7]. والمرادُ بهِ هنا: الرَّجْمُ[8].

8) ﴿جَانِبٍ﴾: (جنب) أصلٌ يدلُّ على النّاحيةِ، والجَنْبُ: الجارحةُ، ويُستعارُ للنّاحيةِ الَّتي تَليها، كاستعارةِ سائرِ الجوارحِ لذلكَ، نحو اليمينِ والشِّمالِ لجهتِهما وناحيتِهما[9]، وجانبُ الشَّيءِ: جَنْبُهُ[10]. ومعنى ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: مِنْ كلِّ مكانٍ[11].

9) ﴿دُحُورًاۖ﴾: (دحر) أصلٌ يدلُّ على الطَّرْدِ والإبعادِ[12] والدَّفْعِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْرًا ودُحورًا، وهو داحِرٌ ودَحورٌ[13]. والمرادُ بالدَّحْرِ هنا: الدَّفْعُ والإبعادُ[14]، والطَّرْدُ معَ إهانةٍ وإذلالٍ.

10) ﴿وَاصِبٌ﴾: (وصب) أصلٌ يدلُّ على دوامِ الشَّيءِ[15]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: واصبَ على الأمرِ، وواظبَ عليهِ، وداومَ عليهِ، كلُّها بمعنًى[16]. والمرادُ بالواصبِ هنا: الدّائِمُ الثّابتُ[17].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ملأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قذف).
(6) الرّاغب، المفردات: (قذف).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قذف).
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(9) الرّاغب، المفردات: (جنب).
(10) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جنب).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 17.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (دحر).
(13) الزّبيديّ، تاج العروس: (دحر).
(14) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 16.
(15) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصب).
(16) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وصب).
(17) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 17، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.

11) ﴿خَطِفَ﴾: (خطف) أصلٌ يدلُّ على استلابِ الشَّيءِ في خِفَّةٍ وسُرعةٍ[1]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَرْقٌ خاطِفٌ لنورِ الأبصارِ، والشَّيطانُ يَخْطِفُ السَّمْعَ، إذا استرقَهُ[2]، ويقالُ: بازٌ مُخطِفٌ، أي: يختطفُ ما يصيدُهُ[3]، والخاطفُ أيضًا: الذِّئبُ؛ لاستلابِهِ الفريسةَ[4]. والمرادُ بالخَطْفِ هنا: الاختلاسُ، أي: اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مُسارَقةً[5].

12) ﴿شِهَابٌ﴾: (شهب) أصلٌ يدلُّ على اختلاطِ البياضِ بالسَّوادِ[6]، والشِّهابُ: الشُّعلةُ السّاطعةُ مِنَ النّارِ الموقَدةِ، أو العارضُ مِنَ الجَوِّ. والمرادُ بِه هنا: ما يُسَمَّى بالنَّيْزكِ في اصطلاحِ علمِ الهيئةِ[7]، وهو ما يُرى كأنَّهُ كوكبٌ منقضٌّ مِنَ السَّماءِ[8].

13) ﴿ثَاقِبٌ﴾: (ثقب) أصلٌ يدلُّ على خَرْقِ الشَّيءِ[9]، والثّاقبُ: المُضيءُ الَّذي يَثْقُبُ بنورِهِ وإضاءَتِهِ ما يقعُ عليهِ[10]. والمرادُ بِهِ هنا: الخارقُ الَّذي يتركُ ثقبًا في الجسمِ الَّذي يُصيبُهُ[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

السَّماءُ الدُّنيا محروسةٌ محفوظةٌ مِنِ استراقِ الشَّياطين

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن دليلٍ مِنْ دلائلِ قُدرتِهِ ورُبوبيَّتِهِ، فيقولُ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ للنّاظرينَ إليها مِنْ أهلِ الأرضِ ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ المضيئةِ، ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾ مُتمرِّدٍ عاتٍ في الشَّرِّ والفسادِ، وهؤلاءِ الشَّياطينُ لا يسَّمَّعونَ إلى الملائكةِ إذا تكلَّموا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خطف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خطف).
(3) الرّاغب، المفردات: (خطف).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (خطف).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهب).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شهب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 70.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقب).
(10) الرّاغب، المفردات: (ثقب).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.

بما يوحيهِ اللّهُ تعالى ويقضيهِ، ويُرمَوْنَ مِنْ كلِّ جهةٍ يقصدونَ السَّماءَ منها، مطرودينَ مُبعَدينَ معَ ذلٍّ وهَوانٍ، هذا عذابُهم في الدُّنيا، ولهُم في الآخرةِ عذابٌ دائمٌ مُستمِرٌّ، ثمَّ استثنَى مِنْ عدمِ السَّماعِ مَنِ اختلسَ شيئًا مِنْ كلامِ الملائكةِ، وأخبرَ بأنَّهُ يُدرِكُهُ الشِّهابُ فيُحرِقُهُ، أو يُضعِفُهُ بحيثُ لا يَقْوَى على التَّسمُّعِ مرَّةً أخرى[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا﴾:

بديعُ خَلْقِ اللهِ ﷻ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ لَطائفِ صُنْعِهِ تعالى، وبَديعِ خَلْقِهِ[2]، وهو بمنزلةِ الدَّليلِ على رُبوبيَّتِهِ ﷻ للسَّماواتِ[3].

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

تزيينُ السَّماءِ بالكواكبِ حقيقةٌ قطعيَّةٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ مِنَ الثَّباتِ والاستقرارِ، وأنَّ هذا التَّزيينَ العجيبَ الشَّأنِ أمرٌ ثابتٌ مُتقرِّرٌ، وهو حقيقةٌ قطعيَّةٌ لا تقبلُ التَّشكيكَ، وهو حُجَّةٌ على النّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

بلاغةُ التَّأكيدِ:

العاقلُ لا يُكابِرُ المحسوسَ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على كونِ تزيينِ السَّماءِ بالكواكبِ أمرًا مُتيقَّنًا، لا ينبغي أنْ يمتريَ فيهِ عاقلٌ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ إقامةِ الدَّليلِ على رُبوبيَّتِهِ ﷻ، وللإيذانِ بأنَّ فعلَ المشركينَ - وهو الإعراضُ عنِ الإيمانِ والتَّوحيدِ - فعلُ مَنْ يُنكِرُ ما للنُّجومِ مِنَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 6.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

الزّينةِ[1]، ويكابرُ بذلك حِسَّه، ويُعانِدُ عقلَهُ الَّذي يهديه إلى أنَّ اللّهَ ﷻ هو الإلهُ الواحدُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظَمةِ:

تزيينُ السَّماءِ مِنْ خصائصِ أفعالِ الرَّبِّ

أُسنِدَ الحرفُ (إنّ) وفعلُ التَّزيينُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾؛ لتعظيم شأنِ التَّزيين؛ لأنَّه فعلُ العظيم سبحانَهُ، وفعلُ العظيم عظيمٌ، أي: زيَّنّا بعظَمتِنا الَّتي لا تُدانى[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهُ مِنْ خصائصِ أفعالِ الرَّبِّ الَّتي لا يستطيعُها أحدٌ سواهُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالتَّزيينِ:

السَّماءُ تملأُ العيونَ هيبةً وجمالًا

في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ السَّماءِ بالعروسِ الَّتي تُزيَّنُ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ به، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِه - وهو التَّزيينُ - على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهُ سبحانَهُ قد جعلَ السَّماءَ مَسْرَحًا لأنظارِ العبادِ، يملؤُها هيبةً وجمالًا، ولم يُخْلِ مقامَ الاستدلالِ على القدرةِ والرُّبوبيَّةِ مِنَ التَّلويحِ بالإنعامِ والإحسانِ.

وجهُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

وجوبُ عبادةِ مَنْ قدرتُهُ سابقةٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ تزيينَ السَّماءِ قد مضَى وتحقَّقَ، وقد شاهدَهُ النّاسُ منذُ القِدَمِ، بل هو سابقٌ على وجودِهم، ووجودِ الأوثانِ الَّتي يعبدونَها، فلا ينبغي أنْ يكونَ للشَّكِّ والإنكارِ إلى قلوبِهم سبيلٌ، وإنَّما سبيلُهم الإقرارُ والإذعانُ بربوبيَّةِ الخالقِ سبحانَهُ، وصرفُ العبادةِ إلى مُستحِقِّها.

سرُّ ذكرِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ دونَ الأرضِ:

ورد في قوله ﷻ: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ ذكر السَّماواتِ، معَ تقدُّمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.

ذِكْرِ السَّماواتِ والأرضِ في قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ ثبوتَ ربوبيَّتِه تعالى للسَّماءِ يقتضي ثبوتَها للأرضِ بطريقِ الأَوْلى[1]؛ لأنَّ النّاسَ يعيشونَ عليها، ويرونَ دلائلَ الرُّبوبيَّةِ فيها آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، وأمّا السَّماءُ فقد يغفلونَ عنها لبُعدِها عنهُم، فاقتضَى ذلكَ التَّنبيهَ عليها، ولأنَّ الحديثَ عنِ استراقِ الشَّياطينِ للسَّمْعِ ورَمْيِهم بالشُّهُبِ، وهو مُتعلِّقٌ بالسَّماءِ.

محلُّ استراقِ السَّمْعِ هو السَّماءُ

علَّةُ وصفِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

وُصِفَتِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وخُصَّتْ بالذِّكرِ دونَ باقي السَّماواتِ؛ لأنَّها الَّتي تُباشَرُ بأبصارِ المُخاطَبينَ دونَ باقي السَّماواتِ، وزينةُ النُّجومِ ظاهرةٌ فيها[2]، فتكونُ جديرةً بالتَّدبُّرِ والاعتبارِ، ومَنْ تركَهما فقد تعامَى عنِ الحقائقِ، واستوجبَ الذَّمَّ والتَّقبيحَ، وأيضًا فالحفظُ مِنَ الشَّياطينِ إنَّما هو فيها وحدَها[3]، فيكونُ ذِكْرُها للتَّخلُّصِ إلى ذِكْرِ رَجْمِ الشَّياطينِ ووعيدِهم.

دُنُوُّ العِبْرةِ مِنْ أبصارِ المشركينَ

دلالةُ الباءِ:

الباءُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: زيَّنّا السَّماءَ بسببِ زينةِ الكواكبِ[4]، وهذا على قراءةِ الإضافةِ ﴿بِزِينَةِ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، أو بسببِ زينةٍ هي الكواكبُ، وهذا على قراءةِ تنكيرِ الزِّينةِ؛ وِفاقَ ما سيأتي بيانُه.

الكواكبُ سببُ تزيينِ السَّماءِ

سرُّ التَّصريحِ بالزِّينةِ:

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (زيَّنّا السَّماءَ بالكواكبِ) دونَ لفظِ الزِّينةِ؛

تكثيرُ المعاني بذِكْرِ ما يُفهَمُ مِنَ السِّياقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 193.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

لأنَّهُ مفهومٌ مِنَ الفعلِ، لكنْ أُقحِمَ هذا اللَّفظُ للتَّأكيدِ، فقيلَ: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، فكأنَّهُ قيلَ: (زيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا بالكواكبِ تزيينًا)، فالزّينةُ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ في المعنى، ولكنْ حوِّلَ التَّعليقُ، فجُعِلَتِ الزّينةُ هي المُتعلِّقَ بـ ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لتُفيدَ معنى التَّعليلِ بواسطةِ الباءِ، ومعنى الإضافةِ في تركيبٍ واحدٍ على طريقةِ الإيجازِ[1]. وهذا على قراءةِ الإضافةِ، وأمّا على قراءةِ تنكيرِ الزّينةِ فتفيدُ معنى التَّعليلِ ومعنى البدليَّةِ، وفي التَّصريحِ بالزّينةِ أيضًا مبالغةٌ في كونِ الكواكبِ مُزيِّنةً للسَّماءِ؛ إذ جُعِلَتْ زينةً لها، كأنَّ حقائقَها قد قُلِبَتْ إلى ذلكَ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾:

انتشارُ الزّينةِ في السَّماءِ أنسبُ بمقامِ الاحتجاجِ وإظهارِ دلائلِ الرُّبوبيَّةِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لأفرادِهِ؛ إذِ المرادُ بها الكُريّاتُ السَّماويَّةُ الَّتي تلمعُ في اللَّيلِ ما عدا الشَّمسَ والقمرَ؛ لحكمةٍ، وهي أنْ تكونَ زينةً للسَّماءِ في اللَّيلِ[2]، وفي الجنسيَّةِ إشارةٌ إلى كثرةِ الزّينةِ وظهورِها بحيثُ لا تخفَى على أحدٍ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ على الكافرينَ، ولَفْتِ نظرِهم إلى دلائلِ ربوبيَّتِهِ ﷻ.

نُكتةُ جمعِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾:

الكواكبُ أصنافٌ مُتعدِّدةٌ متنوِّعةٌ

جيءَ بلفظِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ مجموعًا؛ للتَّنبيهِ على تعدُّدِ الكواكبِ المُزيِّنةِ للسَّماءِ الدُّنيا وتنوُّعِها؛ فمنها العظيمُ، ومنها ما هو دونَهُ، ومنها الكواكبُ السَّيّارةُ، ومنها الثَّوابتُ، ومنها قِطَعٌ تدورُ حولَ الشَّمسِ[3]، وهي أيضًا أشكالٌ مُتعدِّدةٌ، ولأنَّ الجمعَ أنسبُ بملاءَمةِ الفواصلِ؛ لما فيهِ مِنَ المدِّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

توجيهُ القراءاتِ وبلاغتها:

التَّفنُّنُ في التَّعبيرِ مع اتِّحادِ المعنى

قرأ حفصٌ وحمزةُ: ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتَّنوينِ وجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾. وقرأ شعبةُ بالتَّنوينِ ونصبِ ﴿ٱلْكَوَاكِبَ﴾. وقرأ الباقونَ: ﴿بِزِينَةِ﴾ بغيرِ تنوينٍ[1].

أمّا القراءةُ الأولى: فهي على أنَّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بدلٌ مِنَ الزّينة[2]؛ لأنَّ الكواكبَ هي الزّينةُ[3]، فإنَّ الكواكبَ بأنفُسِها وأوضاعِ بعضِها مِنْ بعضٍ زينةٌ[4]، وفي سلوكِ طريقةِ البدلِ تشويقٌ للمُبدَلِ، وتقريرٌ لهُ عندَ ورودِهِ على النَّفسِ، أو على أنَّها عطفُ بيانٍ للزّينةِ[5]. وأمّا القراءةُ الثّانيةُ: ففيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ الزّينةُ مصدرًا، وفاعلُهُ محذوفٌ، تقديرُهُ: بأنْ زيَّنَ اللّهُ الكواكبَ في كونِها مضيئةً حسنةً في أنفُسِها. والثّاني: أنَّ الزّينةَ اسمٌ لما يُزانُ بهِ، فتكونُ الكواكبُ منصوبةً بإضمارِ (أعني)، أو تكونُ بدلًا مِنْ ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بدلَ اشتمالٍ، أي: زيَّنّا كواكبَها، أو مِنْ محلِّ ﴿بِزِينَةٍ﴾[6]. وأمّا القراءةُ الثّالثةُ: فهي على إضافةِ الزّينةِ إلى الكواكبِ[7]، وفي هذهِ الإضافةِ تفصيلٌ يأتي.

بلاغةُ تنكيرِ الزّينةِ:

زينـةُ الكـواكبِ شأنُها عظيمٌ

تنكيرُ الزّينةِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على قراءةِ التَّنوينِ؛ لتعظيم شأنِ الزّينةِ وتفخيمِهِ، أي: بزينةٍ أيِّ زينةٍ، زينةٍ عجيبةٍ بديعةٍ[8]، وذلكَ لما في الكواكبِ مِنْ حُسْنِ الانتظامِ والتَّوزُّعِ، وجمالِ الإضاءةِ والإنارةِ، فهي كالدُّرَرِ المنثورةِ على أديمِ السَّماءِ.

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/ 356.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 34.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 64.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 117.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 291.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 184، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 66.

ما زُيّنَت السّماءُ إلّا لحُسْنِها في أنفُسِها

الإضافةُ بمعنى (مِنْ) أو اللّامِ

كثرةُ منافعِ الكواكبِ

دلالةُ إضافةِ الزّينةِ إلى ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾:

الزّينةُ في الأصلِ مصدرٌ، واسمٌ لِما يُزانُ بهِ الشَّيءُ، ويحتملُهما قولُهُ تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾؛ فإنْ أُريدَ المصدرُ فعلى إضافتِهِ إلى الفاعلِ، أي: بأنْ زانَتْها الكواكبُ، أو على إضافتِهِ إلى المفعولِ، أي: بأنْ زانَ اللهُ الكواكبَ وحسَّنَها؛ لأنَّها إنَّما زيَّنَتِ السَّماءَ لِحُسْنِها في أنفُسِها.

وإنْ أردتَ الاسمَ فللإضافةِ وجهانِ: أنْ تقعَ الكواكبُ بيانًا للزّينةِ؛ لأنَّ الزّينةَ مُبهَمةٌ في الكواكبِ وغيرِها ممّا يُزانُ به، فتكونُ الإضافةُ بمعنى (مِنْ)، وأنْ يرادَ ما زُيِّنَتْ بهِ الكواكبُ، مِنْ ضوئِها، وأشكالِها المختلفةِ، ومطالِعِها ومَسايرِها، فتكونُ الإضافةُ لاميَّةً[1]. ولا يَخفَى أنَّ هذا التَّفصيلَ على قراءةِ الجمهورِ بإضافةِ الزّينةِ إلى الكواكبِ، لا على تنوينِ الزّينةِ.

بلاغةُ الإدماجِ:

أُدمِجَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ وما بعدَهُ؛ الامتنانُ على النّاسِ بأنْ جُعِلَ لهُم في السَّماءِ زينةُ الكواكبِ، تروقُ أنظارَهم؛ فإنَّ محاسنَ المناظرِ لذَّةٌ للنّاظرينَ، والامتنانُ على المسلمينَ بأنْ جُعِلَ في تلكَ الكواكبِ حفظٌ مِنْ تلقّي الشَّياطينِ للسَّمْعِ فيما قضَى اللهُ أمرَهُ في العالَمِ العُلويِّ؛ لقطعِ سبيلِ اطِّلاعِ الكُهّانِ على بعضِ ما سيحدثُ في الأرضِ، فلا يَفتِنوا النّاسَ في الإسلامِ كما فَتَنوهم في الجاهليَّةِ، وليكونَ ذلكَ تشريفًا للنَّبيِّ ﷺ بأنْ قُطِعَتْ وسيلةٌ مِنْ وسائلِ الكهانةِ عندَ إرسالِهِ، وللإشارةِ إلى أنَّ في الكواكبِ منفعةً عظيمةً دينيَّةً، وهي قطعُ دابرِ الشَّكِّ في الوَحْيِ، كما أنَّ فيها منفعةً دنيويَّةً، وهي الزّينةُ والاهتداءُ بها في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ[2].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 34، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 318، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 259.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 87.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

تشابهَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ معَ قولِه: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5]؛ ففي كلٍّ منهما حديثٌ عن تزيينِ السَّماءِ الدُّنيا بالكواكبِ، وفي كلٍّ منهما تصديرٌ للكلامِ بالتَّأكيدِ معَ اختلافِ نوعِ المُؤكِّداتِ، فهذهِ الآيةُ قد أُكِّدَتْ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ، وتلكَ أُكِّدَتْ باللّامِ الواقعةِ في جوابِ القَسَمِ (وقد)، والجملةُ هنا اسميَّةٌ، وهناكَ فعليَّةٌ، وقد جُعِلَتِ الكواكبُ هنا زينةً، وشُبِّهَتْ هناكَ بالمصابيحِ؛ ليناسِبَ بين شدّة ظهور نور المصابيح وما ورد قبلَه من الأمر بتكرار النّظر مرّة بعد مرّة في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: 3 - 4].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَحِفۡظٗا﴾:

عظمةُ خَلْقِ الكواكبِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَحِفۡظٗا﴾ معطوفٌ ومنصوبٌ، فلا بدَّ لهُ مِنْ معطوفٍ عليهِ، ومِنْ ناصبٍ، فإمّا أنْ يُعطفَ على ﴿بِزِينَةٍ﴾ مِنْ حيثُ المعنى؛ لأنَّهُ في الحقيقةِ مفعولٌ لهُ لقولِهِ: ﴿زَيَّنَّا﴾، والتَّقديرُ: (خلَقْنا الكواكبَ زينةً وحفظًا)، وإمّا أنْ يُقدَّرَ النّاصبُ ويُؤخَّرَ، وهو (زيَّنّاها)؛ ليفيدَ الاهتمامَ بالمُقدَّمِ، أو يُقدَّمَ بأنْ يقالَ: (وحَفِظْناها حفظًا)، فيكونُ (حفظاً) مفعولًا مطلقًا؛ ليفيدَ التَّوكيدَ، والدّلالةَ على أنَّ الحفظَ أهمُّ مِنَ التَّزيينِ[1]، أو هو مفعولٌ مِنْ أجلِهِ بزيادةِ الواوِ[2]. وأيًّا ما كانَ ففي العطفِ إشعارٌ بعظَمةِ خَلْقِ الكواكبِ؛ لأنَّ كونَ الشَّيءِ الواحدِ لأغراضٍ مُتعدِّدةٍ أدلُّ على القدرةِ، وأظهرُ في العظَمةِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 119.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 195.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿وَحِفۡظٗا﴾:

عظَمةُ الحفظِ مِنِ استراقِ الشَّياطينِ للسَّمْعِ

تنكيرُ ﴿وَحِفۡظٗا﴾ للتَّعظيمِ، أي: وحفظًا عظيمًا بديعَ الشَّأنِ؛ لأنَّهُ حفظٌ مِنَ الشَّياطينِ المعروفينَ بتمرُّدِهم وسرعةِ تحرُّكِهم، وكثرةِ اضطرابِهم، وصيانةٌ لأخبارِ الملأِ الأعلى مِنْ أنْ تُختلَسَ ويُستمعَ إليها، وإشارةٌ إلى حمايةِ الوَحْيِ النّازلِ مِنَ السَّماءِ مِنَ النَّقْصِ والخللِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلِّ﴾:

الجنُّ معزولونَ جميعًا عن السَّمعِ

جيءَ بلفظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾؛ للتَّنصيصِ على العمومِ، وأنَّ الحفظَ مِنِ استراقِ السَّمعِ لجميعِ الشَّياطينِ إلّا ما شاءَ اللّه؛ فالجنُّ جميعًا معزولونَ عن السَّمعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالشَّيطانِ:

الشَّيطانُ بعيدٌ عن الحقِّ والخيرِ

عُبِّرَ بلفظِ الشَّيطانِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾؛ لدلالةِ هذا اللَّفظِ بحسَبِ الاشتقاقِ على البُعدِ عن الخيرِ، أو على الاحتراقِ، فيكونُ فيه تنبيهٌ على علَّةِ الحفظِ والرَّجْمِ، وهي كونُ استراقِ السَّمعِ صادرًا مِنْ كلِّ بعيدٍ عن الخيرِ مُحترِقٍ[1]، مُفسِدٍ، مُثيرٍ للشَّرِّ.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾:

شدَّةُ شكيمةِ الشَّيطانِ في الشَّرِّ

نُكِّرَ ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ بوساطةِ إضافتِهِ إلى لفظِ العمومِ ﴿كُلِّ﴾، وليُتوصَّلَ إلى وصفِهِ بـ ﴿مَّارِدٖ﴾؛ إذ هو وصفٌ نكرةٌ، ولأنَّ في تنكيرِهِ تهويلًا لِما فيهِ مِنْ تهييجِ الشُّرورِ، ومِنَ البُعدِ عن الخيرِ.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿مَّارِدٖ﴾:

وُصِفَ الشَّيطانُ في قولِهِ تعالى: ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ بكونِهِ ماردًا؛

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 195.

للمبالغةِ في الدّلالةِ على عُتوِّهِ وخروجِهِ مِنَ الطّاعةِ[1] على وجهٍ لا يخالطُهُ شيءٌ منها، فهو مُتعرٍّ مِنَ الخيراتِ، مُتجرِّدٌ للشَّرِّ، كما يقالُ: شجرٌ أمردُ، إذا تعرَّى مِنَ الوَرَقِ[2]، وللإشارةِ إلى أنَّ ما يصيبُ إخوانَهُ مِنَ الرَّجْمِ بالشُّهُبِ، لا يَعِظُهُ عن تجديدِ محاولةِ الاستراقِ؛ لِما جُبِلَ عليهِ طبعُهُ الشَّيطانيُّ مِنَ المداومةِ على تلكَ السَّجايا الخبيثةِ، كما لا ينزجرُ الفَراشُ عن التَّهافتِ حولَ المصباحِ بما يصيبُ أطرافَ أجنحتِهِ مِنْ مسِّ النّارِ[3].

الشَّيطانُ عَريٌّ عن كلِّ خيرٍ

نُكتةُ إيثارِ ﴿مَّارِدٖ﴾ على (مَرِيدٍ):

عُبِّرَ بـ ﴿مَّارِدٖ﴾ دونَ (مريدٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾، معَ أنَّ المريدَ أبلغُ - فهو الشَّديدُ المَرادَةِ - مراعاةً للفواصلِ[4]، وللقصدِ إلى التَّعميمِ في الحفظِ مِنْ كلِّ عاتٍ، سواءٌ كانَ بالغًا في العُتوِّ أو لا[5].

السَّماءُ محفوظةٌ مِنْ كلِّ عاتٍ

علَّةُ فصلِ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ كلامٌ منقطعٌ مبتدَأٌ؛ اقتصاصًا لِما عليهِ حالُ المُسترِقةِ للسَّمعِ[6]؛ فإنَّهُ تعالى لمّا ذكرَ أنَّ الكواكبَ خُلِقَتْ للتَّزيينِ، وأنَّ الحفظَ هو المقصودُ بالذّاتِ؛ أتَى بما عليهِ حالُ المُسترِقِ[7].

ردُّ كيدِ المارِدِ في نَحْرِهِ

وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّهُ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وجملةِ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾، قُصِدَ منهُ وصفُ قصَّةِ طَرْدِ الشَّياطينِ. ويجوزُ على تقديرِ قولِهِ: ﴿وَحِفۡظٗا﴾ مصدرًا نائبًا مَنابَ فعلِهِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بيانًا لكيفيَّةِ الحفظِ[8].

منعُ استراقِ السَّمْعِ حفظٌ للسَّماءِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 91.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 195.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 121.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91.

علّةُ جمعِ ضميرِ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾:

الضَّميرُ في ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ لـ ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾ باعتبارِ المعنى؛ لأنَّه في معنى الشَّياطين[1]، وإلّا فالظّاهرُ إفرادُ الضَّميرِ؛ لأنَّه راجعٌ إلى ﴿كُلِّ﴾، وهو لفظٌ مفردٌ[2].

علّةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

قَهْرُ الشَّياطينِ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عدمَ تسمُّعِهم إلى الملأِ الأعلى أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ إشعارٌ بتجدُّدِ نعمةِ حفظِ السَّماءِ، وقَهْرِ مَرَدَةِ الشَّياطينِ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وبلاغتها:

قراءةُ التَّخفيفِ لنفيِ السَّماعِ، وقراءةُ التَّشديدِ لنفيِ الاستماعِ مبالغةً

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وحفصٌ بتشديدِ السّينِ والميم، وقرأ الباقونَ بتخفيفِهما ﴿يَسۡمَعُونَ﴾[3]. أمّا قراءةُ التَّشديدُ فأصلُها: لا يتسمَّعونَ، فقُلِبَتِ التّاءُ سينًا توصُّلًا إلى الإدغام[4]، وهي تدلُّ على المبالغةِ في نفيِ السَّماعِ؛ لأنَّ معنى ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بالتَّشديدِ: أنَّهم يجتهدونَ ويتكلَّفونَ الاستماعَ، ومعَ ذلكَ لا يقدرونَ عليهِ؛ فإنَّ صيغةَ التَّفعُّلِ تدلُّ على معنى التَّكلُّفِ والتَّطلُّبِ والاجتهادِ[5].

وأمّا قراءةُ التَّخفيفِ فتدلُّ على انتفاءِ سماعِهم دونَ استماعِهم[6]، وظاهرُ الأحاديثِ أنَّهم يستمعونَ حتَّى الآنَ، لكنَّهم لا يسمعونَ، وإنْ سمعَ منهم أحدٌ شيئًا أدركَتْهُ الشُّهُبُ، لأنَّ السَّماءَ قد مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا مِنْ وقتِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وكانَ الرَّجْمُ في الجاهليَّةِ أخفَّ[7].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 222.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 356.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 67.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 223.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 11، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 35.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466.

ويمكنُ الجمعُ بينَ القراءتينِ بأنَّ ثمرةَ التَّسمُّعِ السَّمْعُ، فلمّا انتفَى السَّمْعُ الَّذي هو الثَّمرةُ، انتفَى التَّسمُّعُ مبالغةً؛ لعدمِ حصولِ مقصودِهِ، أو المرادُ نفيُ التَّسمُّعِ المباشِرِ، وهو الَّذي يتهيَّأُ لَهُ إذا بلغَ المكانَ الَّذي تصلُ إليهِ أصواتُ الملأِ الأعلى، أي: أنَّهم يُدحَرونَ قبلَ وصولِهم المكانَ المطلوبَ[1]، أو يكونُ بينَ القراءتينِ تكاملٌ في أداءِ المعنى المرادِ، فقراءةُ التَّشديدِ دلَّتْ على أنَّ الشَّياطينَ غالبًا لا يستطيعونَ أنْ يقتربوا إلى الملأِ الأعلى ليتسمَّعوا، وقراءةُ التَّخفيفِ دلَّتْ على أنَّهُ إذا اقتربَ بعضُهم لا يُمكَّنونَ مِنَ السَّماعِ.

نُكتةُ تعديةِ السَّماعِ بـ ﴿إِلَى﴾:

تضمينُ السَّماعِ معنى الإصغاءِ مبالغةً وتهويلًا لِما يمنعُهم عنهُ

فعلُ (سمعَ) لهُ استعمالاتٌ؛ فهو يتعدَّى إلى غيرِ المسموعِ بنفسِه، كـ (سمعتُ زيدًا يتحدَّثُ)، ويتعدَّى بـ (إلى) للمسموعِ، كـ (سمعتُ إلى حديثِهِ)، وإلى غيرِه، كـ (سمعتُ إليهِ يتحدَّثُ)، وهو يفيدُ الإصغاءَ معَ الإدراكِ[2]، فتَعْديةُ السَّماعِ هنا بـ ﴿إِلَى﴾ لتضمُّنِه معنى الإصغاءِ؛ مبالغةً وتهويلًا لِما يمنعُهم عن السَّماعِ. ووجهُ المبالغةِ: أنَّهُ يَلزمُ مِنْ نفيِ الإصغاءِ نفيُ الإدراكِ بالطَّريقِ الأولى على سبيلِ الكنايةِ، وهي أبلغُ. ووجهُ التَّهويلِ: أنَّهم إذا كانوا معَ إصغائِهم لا يسمعونَ دلَّ ذلكَ على مانعٍ عظيمٍ، ودهشةٍ تُذهِلُهم عن الإدراكِ. ويدلُّ على تضمُّنِه معنى الإصغاءِ قراءةُ التَّشديدِ؛ إذ التَّسمُّعُ هو طلبُ السَّماعِ، وطلبُ السَّماعِ يكونُ بالإصغاءِ[3].

تضمينُ السَّماعِ معنى الانتهاءِ

ويحتملُ أنْ يكونَ حرفُ ﴿إِلَى﴾ مُشيرًا إلى تضمينِ السَّماعِ معنى الانتهاءِ، أي: لا ينتهونَ فيسمعونَ، أي: لا يتركُهم الرَّميُ بالشُّهُبِ مُنتهينَ إلى الملأِ الأعلى انتهاءَ الطّالبِ إلى المكانِ المطلوبِ، بل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 260، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 223.

تدحَرُهم الشُّهُبُ قبلَ وصولِهم، فلا يتلقَّفونَ مِنْ علم ما يجري في الملأِ الأعلى إلّا أشياءَ مخطوفةً غيرَ مُتبيَّنةٍ، وذلكَ أبعدُ لهُم مِنْ أنْ يَسمعوا؛ لأنَّهم لا ينتهونَ فلا يسمعونَ[1].

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ للعهدِ؛ إذِ المرادُ بِه الملائكةُ[2]، بدليلِ وصفِه بالأعلى.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالملأِ:

تشريفُ جمعِ الملائكةِ

عُبِّرَ بالملأِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على تشريفِ الملائكةِ وعُلوِّ شأنِهم وقدْرِهم؛ لأنَّ الملأ هو الجمعُ العظيمُ الشَّريفُ[3].

بلاغةُ وصفِ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

الملائكةُ أشرفُ ممَّنْ دونَهم

وُصِفَ ﴿ٱلۡمَلَإِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ في قولِ الباري جلَّ وعزَّ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على تمييزِهم من الملأِ الأدنى، وهم أهلُ الأرضِ[4]، ولتشريفِهم بما تدلُّ عليهِ الصِّفةُ مِنْ عُلوِّهم على غيرِهم[5]، إلّا مَنْ فضَّلَهُ اللّهُ عليهِم، فيُفيدُ الكلامُ عُلوَّ درجتِهم مكانًا ومكانةً[6].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾:

طَردُ الشَّياطينِ وردُّهم خاسئينَ

عُطِفَ القَذْفُ على عدمِ التَّسمُّعِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ﴾؛ للدّلالةِ على مزيدِ الحفظِ للسَّماءِ، ومزيدِ قَهْرِ الشَّياطينِ؛ إذ لا يقتصرُ الحفظُ على منعِهم مِنَ التَّسمُّعِ، بل يتعدَّى إلى رَجْمِهم بالشُّهُبِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 466، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 444.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 196.

ويحتملُ أنْ يكونَ العطفُ مِنْ قبيلِ عطفِ العلَّةِ على المعلولِ، والتَّقديرُ: لا يسَّمَّعونَ إلى الملأِ الأعلى؛ لأنَّهم يُطرَدونَ طَرْدًا قويًّا، ويُقذَفونَ مِنْ كلِّ جانبٍ[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

قذفُ الشَّياطينِ على الاستمرارِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ القَذْفِ واستمرارِه كلَّما تجدَّدَ منهُم محاولةُ استراقِ السَّمْعِ، وفي ذلكَ تيئيسٌ لهُم مِنْ مصادفةِ وقتٍ يتوقَّفُ فيهِ الطَّرْدُ والقَذْفُ، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ للمِنَّةِ بحفظِ السَّماءِ ببيانِ استمراريَّتِه.

سرُّ البناءِ للمفعولِ:

شدَّةُ هَلَعِ الشَّياطينِ المُسترِقينَ للسَّمْعِ

بُنيَ ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ المقصودَ الأظهرَ قذفُهم، لا تعيينُ قاذفِهم، معَ أنَّهُ أدلُّ على القدرةِ الإلهيَّةِ[2]؛ إذ يشيرُ البناءُ للمفعولِ إلى تهويلِ الأمرِ، وأنَّ الشَّياطينَ في حالِ خوفٍ وهَلَعٍ شديدَينِ، لا يدرونَ مِنْ أينَ يُقذَفونَ، ولا مَنْ يقذفُهم.

الملائكةُ حُرّاسُ السَّماءِ

ويحتملُ أنْ يكونَ البناءُ للمفعولِ؛ لأنَّ القاذفَ معلومٌ، وهم الملائكةُ الموكَّلونَ بالحفظِ، كما أشارَ إليهِ قولُهُ ﷻ: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾ [الجنّ: 8][3].

دلالةُ ﴿مِن﴾:

ابتداءُ قَذْفِ المُسترِقينَ للسَّمْعِ مِنْ كلِّ جانبٍ

الظّاهرُ أنَّ ﴿مِن﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ للابتداءِ المكانيِّ، فتُفيدُ أنَّ ابتداءَ قَذْفِ الشَّياطينِ المُسترِقينَ للسَّمْعِ يكونُ مِنْ جميعِ الجوانبِ، أي: أنَّ كلَّ شيطانٍ قصدَ جهةً قُذِفَ منها.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلِّ﴾:

جيءَ بلفظِ ﴿كُلِّ﴾ الدّالِّ على العمومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 224.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 92.

لا جانبَ في السَّماءِ آمِنٌ لمُسترِقِ السَّمْعِ

﴿كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ للدّلالةِ على عمومِ جهاتِ القَذْفِ، وأنَّ كلَّ جهةٍ صعدوا للاستراقِ منها تصيرُ مصدرًا للرَّجْمِ والقَذْفِ[1]، وفي ذلكَ تهويلٌ للخَطْبِ وتفظيعٌ؛ إذ لا توجدُ جهةٌ آمنةٌ. وليسَ المرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ يُرمَى مِنْ كلِّ جانبٍ، بل هو على التَّوزيعِ، أي: كلُّ مَنْ صعدَ مِنْ جانبٍ رُميَ منهُ[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿جَانِبٍ﴾:

كلُّ جهاتِ السَّماءِ منيعةٌ

نُكِّرَ ﴿جَانِبٍ﴾ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ بوساطةِ إضافتِهِ إلى لفظِ العموم ﴿كُلِّ﴾، أي: مِنْ جميعِ جوانبِ السَّماءِ مِنْ أيِّ جهةٍ صعدوا للاستراقِ منها[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالجانبِ:

تناغمُ فواصلِ الآياتِ

عُبِّرَ بالجانبِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ذلك أنّ الجانبَ أدلُّ على الشُّمولِ؛ لأنَّهُ النّاحيةُ والفِناءُ، والجَنْبُ: القطعةُ العظيمةُ مِنَ الشَّيءِ، تكونُ مُعْظَمَهُ أو كثيرًا منهُ[4]، وأمّا لفظ الجهةُ - مثلاً - فيُرادُ به بعضُ الأطرافِ، أو ما هو في حُكمِ البعضِ[5]، وبناءً على ذلكَ يكونُ إيثارُ لفظِ الجانبِ أنسبَ لسَعَةِ القذفِ وإحاطتِهِ؛ فلا يُفلتُ منهُ أحدٌ.

بلاغةُ موقعِ ﴿دُحُورًاۖ﴾:

قُبحُ حالِ المُسترِقينَ المقذوفينَ

في انتصابِ قولِهِ تعالى: ﴿دُحُورًاۖ﴾ وجوهٌ؛ **الأوَّلُ:** أنَّهُ مصدرٌ منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: يُدْحَرون دُحورًا، ودلَّ على الفعلِ المحذوفِ قولُهُ تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾[6]، وفي ذلكَ

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 118.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 69.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.

(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنب).

(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 295.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.

إيجازٌ حسنٌ، وتأكيدٌ للدُّحور. **والثّاني**: أنَّهُ مفعولٌ مطلقٌ لـ (يُقذَفونَ)، كـ (قعدتُ جُلوسًا). فيُقامُ ﴿دُحُورٗاۖ﴾ مُقامَ (قَذْفًا)[1]، والغرضُ مِنْ ذلكَ التَّأكيدُ. **والثّالثُ**: أنَّهُ مفعولٌ لأجلِه، والتَّقديرُ: ويقْذَفونَ للدُّحورِ، ثمَّ حُذِفَ اللّامُ[2]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في جعلِ دُحورِهم علَّةً للقذفِ. **والرّابعُ**: أنَّهُ حالٌ بمعنى: مدحورينَ[3]، أو ذوي دُحورٍ[4]، فتُفيدُ الحالُ اقترانَ الدُّحورِ بالقَذْفِ، وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِهم.

نُكْتةُ تنكيرِ ﴿دُحُورٗاۖ﴾:

تنكيرُ ﴿دُحُورٗاۖ﴾ للتَّعظيم، أي: دُحورًا أيَّ دُحورٍ، دُحورًا عظيمَ الشَّأنِ، يَردُّهم مطرودينَ صاغرينَ مُبعَدينَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالدُّحورِ:

الـذُّلُّ والـهَـوانُ لاحِـقـانِ بـالمُـسـترِقـينَ للسَّمْعِ

عُبِّرَ بالدُّحورِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿دُحُورٗاۖ﴾؛ لِما تدلُّ عليه هذه الكلمةُ مِنَ الطَّرْدِ والإبعادِ المقترنَينِ بالذُّلِّ والهَوانِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ كلَّ مَنْ يحاولُ معرفةَ الغيبِ، والاطِّلاعَ على ما يُقضَى في الملأِ الأعلى؛ تلبيسًا على الخَلقِ، وطلبًا للمكانةِ بينَهم؛ فهو جَديرٌ بالذِّلَّةِ والقَذْفِ إلى ما هو غايةٌ في السُّفولِ.

سرُّ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

لـزومُ الـعـذابِ لـلـشَّـيـاطـينِ المدحورينَ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ تعذيبَ المقذوفينَ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، كما هو شأنُ عذابِ الآخرةِ.

بلاغةُ الاعتراضِ:

المُـسـترِقـونَ للسَّمْعِ مُهانونَ في الدُّنيا والآخرةِ

جملةُ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ مُعترِضةٌ بينَ الجُملةِ المشتملةِ على المُستثنَى منهُ - وهي جملةُ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ - وبينَ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 261.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 293.

الاستثناء[1]، وفائدةُ الاعتراضِ تأكيدُ ما يلحقُ بالمُسترقِينَ للسَّمْعِ مِنْ عذابِ القَذْفِ المُهينِ في الدُّنيا، والعذابِ الدّائمِ في الآخرةِ. ويحتملُ أنْ تكونَ الجملةُ معطوفةً على ما قبلَها؛ لبيانِ أنَّ عقوبتَهم ليسَتْ في الدُّنيا فقطْ، بل هي في الآخرةِ أيضًا.

استحقاقُ المدحورينَ للعذابِ

دلالةُ اللّامِ في ﴿وَلَهُمۡ﴾:

عُبِّرَ باللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عذابَ المُسترِقينَ للسَّمْعِ مُستحَقٌّ لهُم بسببِ إقدامِهم على هذا الفعلِ الشَّنيعِ، وفي التَّعبيرِ بها تهكُّمٌ بهِم أيضًا؛ لأنَّ اللّامَ يُعبَّرُ بها غالبًا عن النّافعِ[2]، فنُزِّلَ العذابُ منزلةَ النّافعِ تهكُّمًا بهِم.

المُسترِقونَ للسَّمْعِ في حَسْرةٍ وثُبورٍ

غرضُ تقديمِ ﴿وَلَهُمۡ﴾:

قُدِّمَ ﴿وَلَهُمۡ﴾ على ﴿عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وذلكَ ممّا يُقوّي التَّهكُّمَ بهِم؛ إذ يُفيدُ التَّقديمُ أنَّ لهُم أمرًا مُستحَقًّا نافعًا، فيتطلَّعونَ لمعرفتِهِ، فإذا هو العذابُ الدّائمُ، فتُصيبُهُمُ الحَسْرةُ بعدَ رجاءِ النَّفعِ، وممّا يُرسّخ معنى التّهكّم ما يُلمَحُ من التَّقديمِ بتخصيصهم بهذا العذاب، فضلًا عمّا فيه من مراعاةٍ للفاصلةِ.

عذابُ المُسترِقينَ للسَّمْعِ عظيمٌ هائلٌ

نُكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٞ﴾:

تنكيرُ ﴿عَذَابٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ لتعظيمِ شأنِ عذابِ المُسترقينَ للسَّمْعِ وتهويلِهِ، أي: ولهُم عذابٌ أيُّ عذابٍ، عذابٌ لا يَعلَمُ كُنْهَهُ إلّا المُعذِّبُ بِهِ ﷻ، وللدّلالةِ على أنَّهُ نوعٌ آخرُ مِنَ العذابِ غيرُ الرَّميِ بالشُّهُبِ المُحرِقةِ لهُم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 261.

براعةُ الوصفِ بـ ﴿وَاصِبٌ﴾:

عذابُ الآخرةِ لا انقطاعَ لهُ

وُصِفَ العذابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ بكونِهِ واصبًا؛ لأنَّ الواصبِ - على الأظهرِ - هو الدّائمُ، ففي وصفِ العذابِ بهِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا العذابَ العظيمَ مُسلَّطٌ عليهِم على الدَّوامِ، وهو عذابُ الآخرةِ الَّذي لا انقطاعَ لهُ[1]، ولا يُفتَّرُ عنهُم، وهم فيهِ مُبلِسونَ، وفي ذلكَ تيئيسٌ لهُم مِنَ الخلاصِ، ومزيدُ تخسيرٍ لهُم وتحسيرٍ.

فائدة التّعبير باسمِ الفاعلِ:

الـواصـبُ دالٌّ عـلـى الـدَّوامِ صيغةً ومعنًى

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَاصِبٌ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ، فيكونُ وصفُ ﴿وَاصِبٌ﴾ دالًّا على الدَّوامِ صيغةً ومعنًى.

نُكتةُ الاستثناءِ:

اختبارُ اللهِ لبعضِ عبادِهِ باستراقِ الشَّياطينِ للسَّمْعِ

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ استثناءٌ مِنْ قولِهِ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾[2]، أي: لا يسَّمَّعونَ إلّا الشَّيطانَ الَّذي خطِفَ الخَطْفةَ[3]. ونُكتةُ هذا الاستثناءِ: بيانُ أنَّهُ ﷻ قد يشاءُ أنْ يسمعَ بعضُهم في بعضِ الأحايينِ شيئًا ممّا يُقضَى في السَّماءِ؛ فتنةً واختبارًا للعبادِ[4]، ثمَّ تتبعُهُ الشُّهُبُ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى وجوبِ الإعراضِ عن كلامِ الكَهَنةِ والمُنجِّمينَ، وكلِّ مَنْ يدَّعي معرفةَ الغيبِ.

دلالةُ ﴿مَنۡ﴾:

احتمالُ الموصوليَّةِ والشَّرطيَّةِ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ﴾ فيهِ وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّهُ مرفوعُ المحلِّ بدلًا مِنْ ضميرِ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ وهو أحسنُ؛ لأنَّ الاستثناءَ منفيٌّ. والثّاني: أنَّهُ منصوبٌ على أصلِ الاستثناءِ. والمعنى:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 17، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 118.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 225.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.

أنَّ الشَّياطينَ لا يسمعونَ الملائكةَ إلّا مَنْ خَطِفَ[1]. وعلى هذا تكونُ ﴿مَنۡ﴾ موصولةً، وفي التَّعبيرِ بها إيجازٌ؛ إذ لو قيلَ: إلّا الَّذي، أو إلّا الشَّيطانَ الَّذي خَطِفَ الخَطْفةَ؛ لكانَ في الكلامِ تطويلٌ.

ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَنۡ﴾ شرطيَّةً، وجوابُها ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾، أو موصولةً، وخبرُها ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾، وهو استثناءٌ منقطعٌ[2]، فلا تكونُ ﴿مَنۡ﴾ مرتبطةً بما قبلَها، بل هي استئنافُ كلامٍ جديدٍ. وأيًّا كان المعنى ففي استعمال ﴿مَنۡ﴾ دلالة على العموم، ونأيًا عن التّخصيص.

سرُّ التَّعبيرِ بالخَطْفِ:

المُسترِقونَ للسَّمْعِ في خوفٍ وترقُّبٍ

عُبِّرَ بالخَطْفِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾؛ لدلالتِه على الخِفَّةِ والسُّرعةِ في اختلاسِهم كلامَ الملائكةِ[3]، وهو هنا مستعارٌ للإسراعِ بسماعِ ما يستطيعونَ سماعَهُ مِنْ كلامٍ غيرِ تامٍّ[4]، وفيهِ إشارةٌ إلى شدَّةِ خوفِ الشَّياطينِ وحَذرِهم في التَّسمُّعِ، ولذلكَ يكتفونَ بالكلامِ غيرِ التّامِّ، ويَهربونَ بهِ.

علَّةُ إفرادِ الضَّميرِ:

أُفرِدَ الضَّميرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ﴾، ولم يُقَلْ: (خَطِفوا)؛ رعايةً للفظِ ﴿مَنۡ﴾، وتنبيهًا على قلَّةِ مَنْ يتَّفقُ لهُ أنْ يسمعَ في بعضِ الأحايينِ[5].

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي:

قلَّةُ الاعتدادِ باستماعِ الشَّياطينِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ﴾، ولم يُقَلْ: (إلّا مَنْ يَخْطِفُ الخَطْفةَ فيتبعُهُ)؛ إشارةً إلى قِلَّةِ مَنْ يتأتّى لهُ الاستماعُ، حتَّى كأنَّ الاستماعَ قد وقعَ مرَّةً واحدةً

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 294.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 294.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 445.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.

مِنْ شيطانٍ واحدٍ، فأتبعَهُ شهابٌ ثاقبٌ، ولو عُبِّرَ بالمضارعِ الدّالِّ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ لظُنَّ أنَّ الاستماعَ يحصلُ كثيرًا، وذلكَ لا يلائمُ مقامَ الكلامِ عن حفظِ السَّماءِ، بل الملائمُ للمقامِ هو قلَّةُ الاعتدادِ بما يتأتَّى للشَّياطينِ مِنْ ذلكَ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡخَطۡفَةَ﴾:

اســـــــتراقُ الشَّياطينِ يكونُ لكلامِ الملائكةِ

المرادُ بالخَطْفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مُسارَقةً، ولذلكَ عُرِّفَتْ تعريفَ العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها أمرٌ مُعيَّنٌ معهودٌ، لا مُطلَقُ الخَطْفةِ، وهي مفعولٌ مُطلَقٌ، والأصلُ فيها التَّنكيرُ بأنْ يقالَ: (إلّا مَنْ خَطِفَ خَطْفةً)، ولكنَّها عُرِّفَتْ للنُّكتةِ المذكورةِ[1]. ويحتملُ أنْ يكونَ تعريفُها للجنسِ[2].

نُكتةُ إفرادِ ﴿ٱلۡخَطۡفَةَ﴾:

قليلُ الاستماعِ يـســتــوجــبُ العقابَ

أُفرِدَتِ ﴿ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾؛ لأنَّها المرَّةُ مِنَ الخَطْفِ، فهي مفعولٌ مُطلَقٌ لـ ﴿خَطِفَ﴾ لبيانِ عددِ مرّاتِ المصدرِ، أي: خَطْفةً واحدةً[3]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى قلَّةِ الاستماعِ[4]، وأنَّ القليلَ منهُ يستوجبُ الإتباعَ بالشِّهابِ الثّاقبِ.

دلالةُ الفاءِ:

الرَّمْيُ بالشُّهُبِ نتيجةُ الاستماعِ

الظّاهرُ أنَّ الفاءَ في قولِ الباري جلَّ وتباركَ: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تفيدُ ترتُّبَ الإتباعِ على الخَطْفِ، وما فيها مِنَ التَّعقيبِ يدلُّ على أنَّ الإتباعَ يكونُ عندَ حصولِ الخَطْفِ، وعلى إثْرِهِ، بحيثُ لا يتخلَّفُ عنهُ، ولا يطولُ الفصلُ بينَهما.

سرُّ التَّعبيرِ بالإتباعِ:

إدراكُ الشِّهابِ للخاطفِ

عُبِّرَ بالإتباعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 226.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.

اللَّحاقِ والإصابةِ، يقالُ: أتبعَهُ، إذا مضَى في أثَرِهِ ولَحِقَهُ[1]، ولدلالتِهِ على قوَّةِ انقضاضِ الكواكبِ في أثَرِ الخاطفِ؛ لأنَّ (تَبِعَ) يتعدَّى بدونِ الهمزةِ، أي: تَبِعَهُ بغايةِ ما يكونُ مِنَ السُّرعةِ، حتَّى كأنَّهُ يسوقُ نفسَهُ ويُتبِعُها لهُ، كأنَّ اللّهَ سبحانَهُ هيَّأ الشُّهُبَ لئَلّا تنقضَّ إلّا في أثَرِ مَنْ سَمِعَ منهُم حينَ سماعِهِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشِّهابِ:

تشبيهُ النَّيزكِ بقَبَسِ النّارِ

المرادُ بالشِّهابِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ ما يُسمَّى بالنَّيْزَكِ في اصطلاحِ علمِ الهيئةِ، وفي التَّعبيرِ بالشِّهابِ هنا استعارةٌ لطيفةٌ، بتشبيهِ النَّيْزَكِ بقَبَسِ النّارِ، وهو الشُّعلةُ السّاطعةُ[3]، وفيهِ إيماءٌ إلى حَرْقِ الشَّيطانِ المُسترِقِ للسَّمْعِ.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿شِهَابٞ﴾:

قوَّةُ الشُّهُبِ وسُرعتُها

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿شِهَابٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ للإفرادِ، أي: فأتبعَهُ فَرْدٌ مِنْ أفرادِ الشُّهُبِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على قوَّةِ الشُّهُبِ وسُرعتِها؛ إذ يكفي واحدٌ منها لملاحقةِ الشَّيطانِ المارِدِ المُسترِقِ للسَّمْعِ.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿ثَاقِبٞ﴾:

الشِّهابُ شديدُ الإنارةِ

وُصِفَ الشِّهابُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ بكونِهِ ثاقبًا؛ للدّلالةِ على شدَّةِ إضاءتِهِ وإنارتِهِ وتوقُّدِهِ[4]، حتَّى كأنَّهُ يَثْقُبُ الهواءَ بنورِهِ[5]، وهو يتركُ ثقبًا في الجسمِ الَّذي يُصيبُهُ[6]، ففي التَّعبيرِ بالثّاقبِ استعارةٌ لطيفةٌ، بتشبيهِ شدَّةِ الضَّوءِ بالثَّقْبِ[7]. ومِنْ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 118.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 198.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 91، 93.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 18.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 93.
(7) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 229.

لطيفِ حكمةِ اللّهِ تعالى أنَّهُ جعلَ عذابَ الشَّيطانِ المخلوقِ مِنْ نارٍ شهابًا فيهِ نارٌ وإحراقٌ، فالشِّهابُ يَحْرِقُ الشَّيطانَ المُسترِقَ للسَّمْعِ فيقتلُهُ، أو يُضعِفُهُ بحيثُ يُصبحُ غيرَ قادرٍ على محاولةِ استراقِ السَّمْعِ مرَّةً أخرى[1].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ [الحجر: 18]؛ ففي كلٍّ منهما بيانُ أنَّ مَنْ يسترقُ السَّمْعَ مِنَ الشَّياطينِ يُرجَمُ بالشِّهابِ. وقد عُبِّرَ عنِ اختلاسِ السَّمْعِ في هذهِ الآيةِ بالخَطْفِ؛ للدّلالةِ على سرعتِهِ، وعُبِّرَ عنهُ في آيةِ الحِجْرِ بالاستراقِ؛ للدّلالةِ على أنَّهُ يكونُ بخُفْيةٍ مِنَ المُتحدِّثِ، كأنَّ المُستمِعَ يسرقُ مِنَ المُتكلِّمِ كلامَهُ الَّذي يُخفيهِ عنهُ. ووُصِفَ الشِّهابُ هنا بكونِهِ ثاقبًا؛ للدّلالةِ على كونِهِ شديدَ الإضاءةِ، خارقًا للجسمِ الَّذي يُصيبُهُ، ووُصِفَ هناكَ بكونِهِ مُبينًا؛ للدّلالةِ على كونِهِ ظاهرًا للعَيانِ عندَ هُبوطِهِ مِنَ السَّماءِ بسرعةٍ، وذلكَ أبلغُ في إقامةِ الحجَّةِ، وأنسبُ بإظهارِ المِنَّةِ، وكلٌّ مِنَ الوصفينِ مناسبٌ لفاصلةِ الآيةِ الَّتي وردَ فيها.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّينةُ والحِلْيةُ:

الكـواكـبُ زينـةٌ ظاهرةٌ لكلِّ أحدٍ

الحِلْيةُ: هي الزّينةُ الخارجيَّةُ الظّاهرةُ، وهي مادّيَّةٌ، وأكثرُها مِنَ الذَّهبِ والفضَّةِ ونحوِ ذلكَ. والزّينةُ: لفظٌ عامٌّ يشملُ الزّينةَ الخارجيَّةَ، كالثّيابِ والحُليِّ، وكالنَّباتِ المُزيِّنِ للأرضِ، والنُّجومِ والكواكبِ المُزيِّنةِ للسَّماءِ، ويشملُ الزّينةَ الباطنةَ الَّتي تُدركُها العقولُ، كالعِلْمِ والاعتقاداتِ الحسنةِ[2]. وقد عُبِّرَ بالزّينةِ في الآيةِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 199، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 210.

لأنَّ المرادَ بها الزّينةُ الخارجيَّةُ الظّاهرةُ لكلِّ أحدٍ، أي: العموم، كما هو شأنُ الكواكبِ المُزيِّنةِ للسَّماءِ، ولتناسبِها معَ فعلِ التَّزيينِ.

النُّجومُ والكواكبُ:

الكوكبُ أنسبُ بالتَّزيينِ وأوفقُ للفاصلةِ

النَّجْمُ: جِرْمٌ سماويٌّ مُتوقِّدٌ مُنيرٌ. والكوكبُ: جِرْمٌ سماويٌّ مُظلِمٌ في الأصلِ، لكنَّهُ يعكسُ نورَ الشَّمسِ والنُّجوم، فصارَ مُنيرًا أيضًا[1]. وقدِ استُعمِلَ الكوكبُ هنا؛ لأنَّ الغالبَ في القرآنِ التَّعبيرُ بهِ عندَ الحديثِ عن تزيينِ السَّماءِ، ولأنَّهُ الأنسبُ بالفاصلةِ.

الإلقاءُ، والرَّميُ، والقَذْفُ، والرَّجْمُ، والطَّرْحُ، والنَّبْذ:

الشُّهُبُ تنقضُّ على مُسترِقي السَّمْعِ

الرَّمْيُ هو الأصلُ، وهو يُطلَقُ على الرَّمْي بالمعاني والأعيانِ، وعلى كلِّ حالاتِ الرَّمْي، فيدخلُ ضمنَ معناهُ العامِّ الإلقاءُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ؛ فالإلقاءُ يعني: طَرْحَ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي تريدُهُ، وحيثُ تراهُ، أو حيثُ تُحِبُّ. والرَّجْمُ أشدُّ معاني الرَّمْي؛ إذ هو في الأصلِ الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعارُ في أشدِّ حالاتِ الشَّتْم. والقَذْفُ: هو رَمْيُ الشَّيءِ مِنْ بُعْدٍ، ويُستعارُ لرَمْي الإنسانِ بالتُّهَم البعيدةِ عن سُلوكِهِ وأخلاقِه. والطَّرْحُ والنَّبْذُ كلاهما يعني: إلقاءَ الشَّيءِ وإبعادَهُ؛ لِقلَّةِ الاعتدادِ بهِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ النَّبْذَ أشدُّ مِنَ الطَّرْحِ.

وقد عُبِّرَ بالقَذفِ لدِلالتِهِ على الرَّمْي مِنْ بُعْدٍ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على أنَّ الشُّهُبَ تنقضُّ على مُسترِقي السَّمْعِ انقضاضًا، حتَّى ترميَ بهِم، فيكونُ طَرْدُ الشَّياطينِ طَرْدًا قويًّا[2].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 738.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 197.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ
لَّازِبِۭ ١١ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣
وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥
أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧
قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨﴾ [الصافات: 11 - 18]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

افتتحَ ﷻ هذهِ السّورةَ بإثباتِ ما يدلُّ على وجودِهِ ووحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ، وهو خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وخَلْقُ المشارقِ، ثمَّ أثبتَ في هذهِ الآياتِ وما بعدَها الحَشْرَ والنَّشْرَ، وقيامَ السّاعةِ، ببيانِ أنَّ مَنْ خلقَ هذهِ العوالمَ الَّتي هي أصعبُ في الخلقِ مِنَ النّاسِ؛ فهو قادرٌ على إحيائِهم بعدَ موتِهم بطريقِ الأولى[1].

تقريرُ البَعْثِ والقيامةِ بعدَ تقريرِ الرُّبوبيّةِ والوحدانيَّةِ

ولمّا قرَّرَ ﷻ الدَّليلَ القاطعَ على إثباتِ إمكانِ البَعْثِ والقيامةِ؛ حكَى عن المُنكِرينَ أشياءَ، مِنَ الآيةِ (12) إلى الآيةِ (17)، ووصفَهم بأوصافٍ تُبيِّنُ سببَ تكذيبِهم بالبعثِ والنُّشورِ[2].

ذكرُ شُبُهاتِ المُنكِرينَ بعدَ تقريرِ البَعْثِ والنُّشورِ

ولمّا بالغَ المشركونَ في إنكارِ البعثِ بعدَ قيامِ البراهينِ في هذهِ السّورةِ وغيرِها على وقوعِهِ؛ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بأنْ يُجيبَهم بالوقوعِ[3].

ذِكْرُ وقوعِ البعثِ بعدَ الإخبارِ بإنكارِهِ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾: (فتي) أصلٌ يدلُّ على تبيينِ حُكمٍ[4]، ومِنَ ذلكَ: الإفتاءُ، وهو جوابُ السّائلِ عمّا يُشكِلُ عليهِ، والمُفتي: هو مَنْ يُزيلُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 321، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 199.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 324، 325.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 205.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتي).

إشكالَ المسائلِ، ويوضِّحُ الأحكامَ، ويقالُ: استفتيتُهُ فأفتاني بكذا[1]. والمرادُ بالاستفتاءِ هنا: الاستخبارُ عن أمرٍ حدثَ[2]، وطلبُ الإجابةِ عن المسؤولِ عنهُ.

2) ﴿أَشَدُّ﴾: (شدّد) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الشِّدَّةُ، وهي الصَّلابةُ، والنَّجْدةُ، وثباتُ القلبِ، والمجاعةُ، ويقالُ: رجلٌ شديدٌ، أي: شجاعٌ[4]، وشدَّ اللّٰهُ مُلْكَهُ، وشدَّدَهُ: قوّاهُ[5]. ومعنى ﴿أَشَدُّ﴾ هنا: أقوى، أو أصعبُ[6].

3) ﴿لَّازِبٍ﴾: (لزب) أصلٌ يدلُّ على ثبوتِ شيءٍ ولُزومِهِ[7]، ومِنْ ذلكَ: اللّازبُ، وهو الثّابتُ الشَّديدُ الثُّبوتِ[8]، ويُعبَّرُ بهِ أيضًا عن الواجبِ، فيُقالُ: ضربةُ لازبٍ[9]، والمرادُ بالطّينِ اللّازبِ هنا: الطّينُ اللّاصقُ[10] المتماسكُ الَّذي فيهِ قوَّةُ الالتصاقِ بالأشياءِ.

4) ﴿عَجِبْتَ﴾: (عجب) أصلٌ يدلُّ على كِبْرٍ واستكبارٍ للشَّيءِ[11]، يقالُ لِمَنْ تَروقُهُ نفسُهُ: فلانٌ مُعجَبٌ بنفسِهِ، والعَجَبُ والتَّعجُّبُ: حالةٌ تَعرِضُ للإنسانِ عندَ الجهلِ بسببِ الشَّيءِ[12]. وقولُهُ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ معناهُ: أنَّ حالَهم حَريَّةٌ بالتَّعجُّبِ[13].

5) ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، ومِنْ ذلكَ: تسخيرُ اللّٰهِ ﷻ الشَّيءَ، وذلكَ إذا ذلَّلَهُ لأمرِهِ وإرادتِهِ[14]، والسُّخريةُ: الاستهزاءُ[15]. ومعنى ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: ويستهزؤونَ[16].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فتي).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدد).
(4) الخليل، العين: (شدد).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (شدد).
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 45.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لزب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (لزب).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (لزب).
(10) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 119.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجب).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 96.
(14) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(15) الرّاغب، المفردات: (سخر).
(16) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 45.

6) ﴿دَاخِرُونَ﴾: (دخر) أصلٌ يدلُّ على الذُّلِّ والصَّغارِ[1]، ودَخَرَ الرجلُ، بِالفَتْحِ، يَدْخَرُ دُخُوراً، فَهُوَ دَاخِرٌ، ودَخِرَ دَخَراً: ذَلَّ وصَغُرَ يَصْغُرُ صَغاراً، وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ، شَاءَ أَو أَبى صاغِراً قَمِيئاً. والدَّخَرُ: التَّحَيُّرُ[2]. والدُّخُورُ: الصَّغَارُ وَالذُّلُّ، ومنهُ يقالُ: أَدْخَرْتُهُ فَدَخَرَ، أي: أذلَلْتُه فذَلَّ[3]. والمرادُ بالدّاخرينَ: الصّاغرونَ الأذِلّاءُ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إقامةُ الحُجَّةِ على مُنكري البعثِ

يأمرُ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يسألَ المشركينَ تبكيتًا لهُم، فيقولُ: فاسألْ يا محمَّدُ هؤلاءِ المشركينَ الَّذي يُنكِرونَ البعثَ والنُّشورَ: أهُمْ أقوى أو أصعبُ خلقًا؟ أم مَنْ خلَقْنا مِنَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، والنُّجومِ والكواكبِ، والشَّياطينِ والشُّهُبِ؟! إنّا خلَقْنا هؤلاءِ المُكذِّبينَ مِنْ طينٍ لاصِقٍ متماسكٍ[5].

أحوالُ المُنكِرينَ وشُبَهُهم في إنكارِ البعثِ

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَهُ نبيَّهُ ببعضِ أحوالِ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، فيقولُ: بل عجبتَ يا محمَّدُ مِنْ تكذيبِ هؤلاءِ المُنكِرينَ للبعثِ، وهم مِنْ شدَّةِ تكذيبِهم يسخرونَ ممّا تقولُ لهُم، وإذا وُعِظوا بموعظةٍ لا يتَّعظونَ بها، وإذا رأَوْا حُجَّةً مِنْ حُجَجِ اللهِ عليهم يسخرونَ منها، وقالوا: ما هذا إلّا سِحْرٌ ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، لا شكَّ في كونِهِ سِحْرًا، ويزيدونَ في إنكارِ البعثِ، فيقولونَ: أنُبْعَثُ بعدَ موتِنا وصيرورتِنا ترابًا وعظامًا؟! ويُبْعَثُ آباؤُنا الأقدمونَ أيضًا؟![6].

صَغارُ المشركينَ يومَ الحَشْرِ

ثمَّ أمرَهُ تعالى أنْ يُجيبَهم بوقوعِهِ، فقالَ: قلْ لهُم نعم، أنتم

(1) الخليل، العين: (دخر)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دخر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (دخر).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 19، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 7، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 445.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 19، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 8.

مبعوثونَ بعدَ موتِكم ومصيرِكم تُرابًا وعظامًا، وأنتم في هذا الحشرِ صاغرونَ أذِلّاءُ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ:

خلقُ السّماواتِ والأرضِ أكبرُ مِنْ خلقِ النّاسِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فصيحةٌ، تُفصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا كانَ لنا مِنَ المخلوقاتِ ما سمعتَ، أو إذا عرفتَ ما مرَّ؛ فاستخبِرْ(2)، أو تفريعٌ على قولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ باعتبارِ ما يقتضيهِ مِنْ عظيمِ القدرةِ على الإنشاءِ، أي: فسَلْهم عن إنكارِهمُ البعثَ بعدَ أنْ يصيروا عِظامًا ورُفاتًا، أخَلْقُهم حينَئذٍ أشدُّ علينا أم خَلْقُ تلكَ المخلوقاتِ العظيمةِ؟(3).

دلالةُ الأمرِ بالاستفتاءِ:

الأمرُ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّه الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، بل مقامُ تبكيتِ المشركينَ يقتضيهِ ويستدعيه.

علمُ المشركينَ حُجَّةٌ عليهم

والاستفتاءُ في الأصلِ: طلبُ الفَتْوَى، وهي إخبارٌ عن أمرٍ يَخفَى عن غيرِ الخواصِّ في غرضٍ ما، وهي: إمّا إخبارٌ عن علمٍ مُختصٍّ بهِ المُخبِرُ، وإمّا إخبارٌ عن رأيٍ يُطلَبُ مِنْ ذي رأيٍ موثوقٍ بهِ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاسألْهم عن رأيِهم، فلمّا كانَ المسؤولُ عنهُ أمرًا محتاجًا إلى إعمالِ نظرٍ؛ أُطلِقَ على الاستفهامِ عنهُ فعلُ الاستفتاءِ(4). وأيضًا الاستفتاءُ سؤالُ مَنْ يُجعَلُ قولُهُ حُجَّةً، وكذلكَ هي أقوالُهم؛ لأنَّهم لا يمكنُهم أنْ يقولوا إلّا أنَّ خلقَ مَنْ سواهم مِنَ الملائكةِ والجنِّ والسَّماواتِ والأرضِ والمشارقِ وغيرِ ذلكَ هو أشدُّ مِنْ خَلْقِ هؤلاءِ المُخاطَبينَ(5).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24 - 25، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 8.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 73.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 94.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 94.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 467.

نُكتةُ التّعبير بصيغةِ الاستفعالِ:

طلبُ جوابِ المشركينَ عن السُّؤالِ المذكورِ

السّينُ والتّاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ للطَّلبِ، وهي تُفيدُ طلبَ الإفتاءِ، أي: طلبَ الإجابةِ على السُّؤالِ المذكورِ؛ لأنَّهُ سؤالٌ مُهِمٌّ فيهِ دليلٌ على رُبوبيَّةِ اللّٰهِ تعالى ووحدانيَّتِه.

مرجعُ الضَّمائرِ في ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾:

النَّبيُّ هو المأمورُ بسؤالِ مشركي مكَّةَ

ضميرُ الخِطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وأمّا ضميرُ الغَيبةِ فهو عائدٌ إلى غيرِ مذكورٍ؛ للعِلْمِ بهِ مِنْ دلالةِ المقامِ، وهم الَّذينَ أحالوا إعادةَ الخَلْقِ بعدَ المماتِ[1]، وهم مشركو مكَّةَ[2]، وإنْ لوحِظَ ارتباطُ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾ يكونُ التفاتًا[3].

بلاغةُ الاستفهامِ:

تقريرُ المشركينَ وتوبيخُهم

الهمزةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ خرجَتْ عن موضوعِها الأصليِّ - وهو الاستفهامُ - إلى تقريرِ ما هو ثابتٌ معلومٌ[4]؛ لأنَّ هذا الأمرَ المسؤولَ عنهُ مُقرَّرٌ مُعيَّنٌ، لم يَحتجْ إلى أنْ يُستفهمَ عنهُ، لكنْ أُجريَتِ الهمزةُ على الاستفهامِ ظاهرًا؛ ليُجعَلَ المُقَرَّرُ غيرَ مُقرَّرٍ، فيَصِحَّ دخولُ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ عليهِ، والفائدةُ الإنكارُ على المشركينَ وتوبيخُهم[5].

غرضُ تقديمِ ﴿أَهُمۡ﴾:

المُقرَّرُ بهِ هو ما يَلي الهمزةَ

قُدِّمَ ﴿أَهُمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾؛ لأنَّ تقديمَهُ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، ولأنَّ المرادَ تقريرُ المشركينَ بأنَّ خلقَهم أهوَنُ مِنْ خَلْقِ غيرِهم، فقُدِّمَ ما هو مَناطُ التَّقريرِ؛ إذِ المُقرَّرُ بهِ هو ما يَلي الهمزةَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 94.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 229.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 36.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 125.

خلقَ الإنسانُ ضعيفًا

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَشَدُّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ يحتمل أنْ يكونَ معناهُ: أقوى وأمتنَ بِنْيةً، مِنْ قولِهم: شديدُ الخَلْقِ(1)، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ خلقَ الإنسانِ ضعيفٌ إذا ما قورِنَ بغيرِهِ مِنَ المخلوقاتِ المذكورةِ.

كلُّ خَلْقٍ فهو على الله هيّن

ويحتملُ أنْ يكونَ معناهُ: أصعبَ، فيُفيدُ الرَّدَّ لإنكارِهم البعثَ، ببيانِ أنَّ مَنْ هانَ عليهِ خَلْقُ هذهِ الخلائقِ العظيمةِ، ولم يَصعُبْ عليهِ اختراعُها؛ كانَ خَلْقُ البشرِ عليهِ أهوَنَ(2).

بلاغةُ التَّمييزِ:

الإنسانُ دونَ السَّماواتِ والأرضِ مِنْ جهةِ الخَلْقِ يقينًا

جيءَ بأسلوبِ التَّمييزِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الإجمالِ والتَّفصيلِ المُفيدَينِ للتَّشويقِ للمميِّزِ، وتقرُّرِهِ عندَ ورودِهِ على النَّفسِ، ولِما فيهِ مِنَ الاختصارِ الملائمِ لِما بُنِيَتْ عليهِ الآياتُ مِنَ الإيجازِ؛ إذ لم يُقَلْ: (أخلقُهم أشدُّ أم خلقُ مَنْ خلَقْنا).

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَلْقًا﴾:

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿خَلْقًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: أيُّهم أشدُّ مِنْ جهةِ إحكامِ الصَّنعةِ وقوَّتِها وعِظَمِها.

معنى ﴿أَم﴾:

خلقُ اللهِ تعالى أشدُّ مِنْ كلِّ خلقٍ

﴿أَم﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ متَّصلةٌ، عطفَتْ ﴿مَّنْ﴾ على (هم)، وهي الَّتي تُسمَّى المعادِلةَ، عادلَتْ في هذا الاستفهامِ التَّقريريِّ في الأشدّيَّةِ بينَهم وبينَ مَنْ خُلِقَ مِنْ غيرِهم مِنَ الأممِ والجنِّ والملائكةِ والأفلاكِ والأرَضينَ(3).

نُكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

مقامُ السُّؤالِ مقامُ إيجازٍ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ للاختصارِ؛

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 93، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 295.

لأنَّ تعريفَهُ عهديٌّ أُشيرَ بِه - على الأظهرِ - إلى ما تقدَّمَ، مِنَ الملائكةِ والسَّماءِ والأرضِ وما بينَهما، والمشارقِ والكواكبِ والشُّهُبِ الثَّواقبِ، والشَّياطينِ المَرَدةِ[1]، فيكونُ فعلُ ﴿خَلَقۡنَآۚ﴾ مطلقًا محمولًا على هذا المُقيَّدِ[2]، ومقامُ السُّؤالِ مقامُ إيجازٍ؛ ليَعيَ المسؤولُ السُّؤالَ ويجيبَ عنهُ.

نُكْتَةُ تغليبِ العاقلِ:

العُقَلاءُ أشرفُ مِنْ غيرِهم

قولُهُ تعالى: ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ يشملُ الملائكةَ والسَّماءَ والأرضَ وما بينَهما، والمشارقَ والكواكبَ والشُّهُبَ الثَّواقبَ، والشَّياطينَ المَرَدةَ، وقد عُبِّرَ فيهِ بـ ﴿مَّنۡ﴾ الَّتي تُستعمَلُ للدّلالةِ على العاقلِ؛ تغليبًا للعُقَلاءِ على غيرِهم[3]؛ لأنَّهم أشرفُ[4].

براعةُ صيغةِ الماضي:

تقريرُ المشركينَ بما يعلمونَ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿خَلَقۡنَآۚ﴾، وقولِه: ﴿خَلَقۡنَٰهُم﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا الخَلْقَ قد وقعَ وتحقَّقَ، وهم يشاهدونَهُ على الدَّوامِ، ويعلمونَ أنَّ خلقَهم دونَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ وما ذُكِرَ سابقًا مِنْ حيثُ القوَّةُ أو الصُّعوبةُ، ولذلكَ قُرِّروا بهذا السُّؤالِ؛ ليُجيبوا بما هم مُعترِفونَ به.

بلاغةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

خَلْقُ العظيمِ عظيمٌ

عُبِّرَ بضميرِ العَظَمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقۡنَآۚ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الخَلْقِ بأنَّهُ فعلُ القديرِ العظيمِ ﷻ[5]، وفي ذلكَ تقويةٌ لمقامِ الاستدلالِ على البعثِ والقيامةِ، وتعظيمٌ للمِنَّةِ عليهِم بنعمةِ خلقِهم وإيجادِهم، وخَلْقِ ما حولَهم ممّا ينتفعونَ به.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 73.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 126.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 229.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.

نُكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الخَلْقِ:

كلُّ الموجوداتِ مخلوقةٌ للهِ تعالى

اقْتُصِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقۡنَآۚ﴾ على الفاعلِ، ولم يُذكَرْ مُتعلَّقُ الخَلْقِ؛ اكتفاءً ببيانِ ما تقدَّمَهُ، وكأنَّهُ قيلَ: أم مَنْ خلقْنا مِنْ غرائبِ المصنوعاتِ وعجائبِها[1]، وللإعلامِ بأنَّه لا شيءَ مِنَ الموجوداتِ إلّا وهو خَلْقُهُ ﷻ[2].

سرُّ حذفِ جوابِ المشركينَ:

الحقُّ أبلجُ

لم يُذكَرْ في الآيةِ أنَّ المشركينَ أقرّوا أنَّ خَلْقَ هذهِ الأشياءِ أشدُّ، أو أصعبُ مِنْ خلقِهم؛ لأنَّ ظهورَ ذلكَ كالمعلومِ بالضَّرورةِ، فلا حاجةَ للتَّنصيصِ عليهِ[3]، وهذا مِنَ الإيجازاتِ البديعةِ في القرآنِ الكريمِ.

نُكتةُ فصلِ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم﴾:

مَنْ خُلِقَ مِنْ طينٍ هانَ بَعْثُهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ في موضعِ التَّعليلِ لِما يتولَّدُ مِنْ معنى الاستفهامِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾، بأنَّهم أضعفُ خَلْقًا مِنْ خَلْقِ السَّماواتِ وعوالِمِها؛ احتجاجًا عليهم بأنَّ تَأتّيَ خَلْقِهم بعدَ الفَناءِ أهوَنُ مِنْ تَأتّي المخلوقاتِ العظيمةِ المذكورةِ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِنْ طينٍ، فكيفَ يُحيلونَ البَعْثَ؟![4].

غرضُ التَّأكيدِ بـ (إنّ):

مَنْ أنكرَ البعثَ فكأنَّما أنكرَ الخَلْقَ

أُكِّدَ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ؛ للدّلالةِ على أنَّ خلقَهم مِنْ طينٍ أمرٌ مُقرَّرٌ معلومٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، فينبغي عليهِم أنْ يَبْنوا عليهِ أنَّ بعثَهم أمرٌ يسيرٌ، وللتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهمُ البَعْثَ لاستبعادِهم تمييزَ التُّرابِ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 93.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 199.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 322.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 126، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.

مِنَ التُّرابِ؛ يَلْزَمُ منهُ إنكارُ ابتداءِ الخَلْقِ[1]، ولذلكَ خوطِبوا خطابَ المُنْكِرِ للخلقِ، وإنْ لم يكونوا كذلكَ.

نكتةُ إيقاعِ الخَلْقِ مِنْ طينٍ على جميعِ النّاسِ:

أبـو الـبَـشَـرِ مخلوقٌ مِنْ طينٍ

أُضيفَ الخَلْقُ مِنْ طينٍ إلى جميعِ النّاسِ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ مِنْ حيثُ إنَّ الأبَ - وهو آدمُ عليه السلام - مخلوقٌ منهُ[2]، فيكونُ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم﴾ إمّا مجازٌ في الإسنادِ والإيقاعِ، أو مجازٌ في الحذفِ، أي: خلَقْنا أباهم[3]، فإذا كانَ أصلُهم قد خُلِقَ مِنْ ترابٍ فكيفَ يُنكِرونَ إمكانَ إعادةِ كلِّ آدميٍّ مِنْ ترابٍ؟![4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

أصـلُ نـشـأةِ الإنسانِ مَهينٌ

تنكيرُ ﴿طِينٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: مِنْ نوعٍ مِنْ أنواعِ الطّينِ، بدليلِ وصفِهِ بكونِهِ لازبًا، أو للتَّحقيرِ، أي: مِنْ طينٍ مَهينٍ[5]، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ الاستدلالِ على البعثِ؛ إذ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِهم مِنْ هذهِ المادَّةِ الضَّعيفةِ، فهو قادرٌ على بَعْثِهم بعدَ الفَناءِ، وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى كَسْرِ جماحِ الكِبْرِ في نفوسِهم، بتذكيرِهم بأنَّهم مخلوقونَ ممّا هو غايةٌ في السُّفولِ[6]، ويوطَأُ بالأقدامِ.

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿لَّازِبٍ﴾:

شـدَّةُ ضَـعْـفِ أصلِ الإنسانِ

وُصِفَ الطّينُ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ بكونِهِ لازبًا؛ لمزيدِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بضَعْفِ أصلِ نشأتِهم؛ إذِ المعنى: خلَقْناهم مِنْ طينٍ شديدِ اختلاطُ بعضِهِ ببعضٍ، بحيثُ التصقَ وضَمُرَ[7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 467.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 231.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 200.

بلاغةُ اسمِ الفاعلِ:

رسوخُ الطّينِ في الاتّصافِ باللُّزوبةِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ لُزوبَ الطّينِ الَّذي خُلِقوا منهُ أمرٌ ثابتٌ، وأنَّ الطّينَ راسخٌ في اتّصافِهِ بهذهِ الصِّفةِ؛ وذلكَ يلائمُ مقامَ تهوينِ شأنِ البَعْثِ.

دلالةُ ﴿بَلۡ﴾:

المشركونَ لا ينفعُ فيهم التَّقريرُ

﴿بَلۡ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾ إضرابٌ عن الأمرِ بالاستفتاءِ، أي: لا تَسْتَفْتِهم؛ فإنَّهم معاندونَ مكابرونَ، لا ينفعُ فيهم الاستفتاءُ، ولا يتعجَّبونَ مِنْ قدرةِ اللّهِ على خَلْقِ هذهِ المذكوراتِ، وعلى قدرتِهِ على بَعْثِكم؛ لأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، وإنَّما يتعجَّبُ مِثْلُكَ ممَّنْ لهُ إنصافٌ ونظرٌ صحيحٌ[1]، أو هي إضرابٌ عن مُقدَّرٍ دلَّ عليهِ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾، أي: (هم لا يُقِرّونَ بل... إلخ)[2]، أو هي إضرابٌ انتقاليٌّ مِنَ التَّقريرِ التَّوبيخيِّ إلى بيانِ أنَّ حالَهم عجيبٌ[3].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿عَجِبۡتَ﴾ وبلاغتها:

حالُ المشركينَ مَعَ الحقِّ محلُّ استنكارٍ واستعظامٍ

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿عَجِبۡتُ﴾ بضمِّ التّاءِ، وقرأ الباقونَ بفتحِها[4]. أمّا قراءةُ الضَّمِّ فهي بمعنى: بل عَظُمَ عندي اتّخاذُهم لي شريكًا، وتكذيبُهم بآياتي[5]، أو بمعنى: بلغَ مِنْ عِظَمِ آياتي وكثرةِ خلائقي أنّي عَجِبْتُ منها، فكيفَ بعبادي؟ وهؤلاءِ بجهلِهم وعنادِهم يسخرونَ مِنْ آياتي، أو عَجِبْتُ مِنْ أنْ يُنكِروا البَعْثَ ممَّنْ هذهِ أفعالُهُ، وهم يسخرونَ ممَّنْ يصفُ اللّهَ بالقدرةِ عليهِ[6]. وليسَ المرادُ بعجبِ اللّهِ حقيقةَ العَجبِ المُستلزِمةَ المفاجأةَ بأمرٍ غيرِ مُترقَّبٍ؛ لأنَّهُ سبحانَهُ لا تخفَى عليهِ خافيةٌ،

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 129، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 231.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 356.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 22.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.

بل المرادُ التَّعجيبُ، أو الكنايةُ عن لازمِهِ، وهو استعظامُ الأمرِ المُتعجَّبِ منهُ[1].

وأمّا قراءةُ الفتحِ فهي بمعنى: بل عَجِبْتَ أنتَ يا محمَّدُ مِنِ اتِّخاذِهم لي شريكًا، وتكذيبِهم بآياتي[2]، أو بمعنى: بل عَجِبْتَ مِنْ قدرةِ اللّهِ على هذهِ الخلائقِ العظيمة، وهم يسخرونَ منكَ ومِنْ تعجُّبِكَ، وممّا تُريهم مِنْ آثارِ قدرةِ اللّهِ، أو مِنْ إنكارِهم البَعْثَ، وهم يسخرونَ مِنْ أمرِ البَعْثِ[3].

حالُ المشركينَ غايةٌ في العجبِ

الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿عَجِبْتَ﴾ على قراءةِ الفتحِ؛ للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ مَنْ يقبلُهُ[4]، فيُفيدُ الكلامُ على هذا الاحتمالِ أنَّ حالَ المشركينَ العجيبَ قد اشتهرَ، حتَّى صحَّ أنْ يُخاطَبَ به كلُّ مَنْ يتأتَّى منهُ فهمُ الخطابِ.

بلاغةُ صيغةِ الماضي:

حالُ المشركينَ حَريَّةٌ بالتَّعجُّبِ

يحتملُ أنْ يكونَ الفعلُ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿عَجِبْتَ﴾ مُستعمَلًا في معنى الأمرِ، وهو مِن استعمالِ الخبرِ في معنى الطَّلبِ للمبالغةِ، والمعنى: اعجَبْ لهُم. ويجوزُ أنْ يكونَ العجبُ قد حصلَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ لمّا رأى إعراضَهم وقِلَّةَ إنصافِهم، فيكونُ الخبرُ مُستعمَلًا في حقيقتِهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ على تقديرِ همزةِ الاستفهامِ، أي: بل أعَجِبْتَ. والمعنى على الجميعِ: أنَّ حالَهم جديرةٌ بالتَّعجُّبِ[5].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾:

الاستهزاءُ بالحقِّ شيمةُ أهلِ الجهلِ والعنادِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ للحالِ، أي: عَجِبْتَ منهُم في حالِ سُخريتِهم[6]، وأيًّا ما كانَ فالكلامُ ظاهرُ الدّلالةِ على أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 22.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 37.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 263.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 95.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 296، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97.

موقفَهم مِنَ الحقِّ هو الاستهزاءُ والسُّخريةُ؛ فالاستهزاءُ بالحقِّ شيمةُ أهلِ الجهلِ والعنادِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

المشركونَ أُشْرِبوا حُبَّ الاستهزاءِ بالحقِّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾؛ لإفادةِ تجدُّدِ السُّخريةِ مِنَ المشركينَ كلَّما جاءَتْهم حُجَّةٌ، وأنَّهم لا يَرْعَوونَ عن ذلكَ[1]؛ لأنَّ نفوسَهم قد ضَريَتْ بمعاداةِ الحقِّ، وقلوبَهم قد ختمَ عليها الكِبْرُ والعنادُ، فلا يصلُ إليها نورُ الحقِّ، إلّا مَنْ شاءَ اللّهُ تعالى لهُ الهدايةَ بعدَ ذلكَ، وتداركَهُ بلُطْفِهِ ورحمتِهِ.

دلالةُ الواوِ:

عدمُ التَّذكُّرِ مِنْ قبائحِ المشركينَ

الواوُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ونُكتةُ العطفِ: بيانُ أنَّ شأنَهم معَ الحقِّ هو الاستهزاءُ والسُّخريةُ، وأنَّهم لا يتَّعظونَ بما يُذكَّرونَ بهِ، فهو حكايةٌ لقبيحةٍ أُخرى مِنْ قبائحِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

فَرْطُ كِبْرِ المشركينَ وعنادِهم علَّةُ إعراضِهم

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ عدمَ تذكُّرِهم مُترتِّبٌ على تذكيرِهم دائمًا، لا يتخلَّفُ عنهُ، فكلَّما ذُكِّروا أعرضوا، ولم يَذْكُروا، ولا يُتوقَّعُ منهُم غيرُ ذلكَ؛ وهذا لفَرْطِ كِبْرِهم وعنادِهم، إلّا مَنْ شاءَ اللّهُ هدايتَهُ بعدَ ذلكَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

إعراضُ المشركينَ عادةٌ لهُمْ استحقّوا بسببِها الذَّمَّ

عُبِّرَ بـ (إذا) دونَ (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾، معَ أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ هنا أنَّ ترتُّبَ عدمِ تذكُّرِهم على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

تذكيرِهم أمرٌ مقطوعٌ بهِ؛ لأنَّ عدمَ الاتِّعاظِ دَيْدَنُهم وشأنُهم[1]، ولذلكَ استحقّوا الذَّمَّ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالتَّذكيرِ:

العاقلُ يجعلُ الحقَّ نُصْبَ عينيهِ

عُبِّرَ بالتَّذكيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُكِّرُواْ﴾؛ للدّلالةِ على حرصِ النَّبيِّ ﷺ على حملِ المشركينَ على النَّظرِ في دلائلِ الحقِّ؛ ليتَّعظوا بها، وينتفعوا بها، ويجعلوا الحقَّ نُصْبَ أعيُنِهم، بحيثُ لا يغيبُ عنها، ويذكُروا ما يغفلونَ عنهُ مِنْ قدرةِ اللّهِ تعالى عليهِم، ومِنْ تنظيرِ حالِهم بحالِ الأممِ الَّتي أهلكَها اللّهُ[3].

بلاغةُ صيغةِ الماضي:

النَّبيُّ يُؤدّي حقَّ البلاغِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فيُناسبُها إيرادُ صيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ ﷺ يُؤدّي حقَّ البلاغِ والتَّذكيرِ، ولا يصرفُهُ عن ذلكَ صارفٌ.

سرُّ البناءِ للمفعولِ في الفعلِ ﴿ذُكِّرُواْ﴾:

المشركونَ لا ينفعُهم وعظُ الواعظينَ

بُنيَ ﴿ذُكِّرُواْ﴾ للمفعولِ؛ للعِلْمِ بالفاعلِ، وهو النَّبيُّ ﷺ؛ إذ هو المُتولّي أمرَ الدَّعوةِ إلى اللّهِ ﷻ، أو لإرادةِ التَّعميمِ، وعدمِ تعلُّقِ الغرضِ بذِكْرِ الفاعلِ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ إصرارِهم على الكفرِ والإعراضِ، بحيثُ لا يتَّعظونَ بالوعظِ مِنْ أيِّ واعظٍ كانَ[4].

نكتةُ إطلاقِ التَّذكيرِ:

إعراضُ المشركينَ عن كلِّ عِظَةٍ

أُطلِقَ التَّذكيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُكِّرُواْ﴾، ولم يُذكَرْ لهُ مُتعلَّقٌ مُعيَّنٌ؛ إمّا لإرادةِ العمومِ، وأنَّهم إذا وُعِظوا بشيءٍ لا يتَّعظونَ بهِ أيًّا كانَ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

ويدخلُ في هذا دخولًا أوّليًّا وعظُهم بما يدلُّ على ثبوتِ الحشرِ، وفي هذا ذَمٌّ شديدٌ لهُم بقسوةِ القلبِ، وأنَّ الوعظَ لا يعرفُ إلى قلوبِهم طريقًا، أو للعِلْمِ بالمُذكَّرِ بِهِ مِنَ السّياقِ، أي: أنَّهم إذا ذُكِرَ لهُم ما يَدُلُّ على صحَّةِ الحشرِ؛ لا ينتفعونَ بهِ؛ لبلادتِهم وقِلَّةِ فكرِهم(1).

بلاغةُ المضارعِ المنفيِّ:

الوعظُ لا يعرفُ إلى قلوبِ المشركينَ سبيلًا

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ ذِكْرِ المشركينَ أمرٌ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ؛ لأنَّهُ دَيْدَنُهم وعادتُهم(2)، وبمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ، وذلكَ أنَّ المضارعَ يدلُّ على الاستمرارِ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ.

براعةُ الكنايةِ:

التَّذكيرُ وعدمُهُ سواءٌ عندَ المشركينَ

نَفيُ الذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾ كنايةٌ عن عدمِ نفعِ التَّذكيرِ في حقِّ المشركينَ؛ إذِ التَّذكيرُ لا ينفكُّ عنهُ الذِّكرُ، كما لا ينفكُّ الانكسارُ عن الكَسْرِ(3)، وعدمُ الانتفاعِ بسببِ فَرْطِ تعصُّبِهم وعنادِهم، فأُطلِقَ عدمُ الذِّكرِ على أثَرِ الفعلِ، أي: لا يحصلُ فيهِم أثرُ تَذَكُّرِ ما يُذكَّرونَ بهِ، وإنْ كانوا قد ذَكَروا ذلكَ(4).

سرُّ التَّعبيرِ بالذِّكرِ دونَ التَّذكُّرِ:

المشركونَ بعيدونَ عن التَّذكُّرِ مراحلَ

قيلَ: ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (لا يتذكَّرونَ)، معَ أنَّهُ أنسبُ بـ ﴿ذُكِّرُواْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الأخفَّ لا يحصلُ منهُم، فالأشدُّ مِنْ بابِ أولى.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ﴾:

إعراضُ المشركينَ عن كلِّ دلائلِ الحقِّ

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ معطوفٌ على ما

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 75.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 97.

قبلَهُ[1]، ونُكتةُ هذا العطفِ: أنَّهُ لمّا ذُكِرَ إعراضُ المشركينَ عنِ المسموعِ؛ أُتبِعَهُ إعراضُهم عن المرئيِّ[2]، فأفادَ الكلامُ إعراضَهم عن جميعِ دلائلِ الحقِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ:

العنادُ رانَ على قلوبِ المشركينَ

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ ترتُّبَ سُخريتِهم على رؤيةِ دلائلِ الحقِّ أمرٌ دائمٌ، فكلَّما أبصروا شيئًا منها تعامَوْا عنهُ، بحيثُ لا يُرجَى منهُم الاعتبارُ والاستبصارُ؛ لأنَّ العِنادَ قد رانَ على قلوبِهم، وطمسَ على بصائرِهم، وجعلَ على أبصارِهم غِشاوةً، إلّا مَنْ شاءَ اللّهُ لهُ الهدايةَ بعدَ ذلكَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

التَّعامي عن دلائلِ الحقِّ شأنُ المشركينَ

عُبِّرَ بـ (إذا) دونَ (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معَ أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ هنا أنَّ ترتُّبَ سُخريتَهم على رؤيةِ الآياتِ أمرٌ مقطوعٌ بهِ؛ لأنَّ عدمَ الاستبصارِ والاعتبارِ عادتُهم وشأنُهم، ولذلكَ استحقّوا الذَّمَّ والتَّوبيخَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي:

رؤيةُ المشركينَ دلائلَ الحقِّ ثابتةٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فيُناسبُها إيرادُ صيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ رؤيتَهم لدلائلِ الحقِّ ثابتةٌ؛ إذ لا حائلَ بينَهم وبينَها، وهي في غايةِ الظُّهورِ، إلّا أنَّهم يمرّونَ عليها وهم عنها مُعرِضونَ.

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 255.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ءَايَةٗ﴾:

تأييدُ النَّبيِّ بالعلاماتِ الدّالَّةِ على صِدْقِهِ

عُبِّرَ عن خوارقِ العاداتِ الَّتي جاءَ بها نبيُّنا ﷺ بالآياتِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾؛ لما يُشيرُ إليهِ لفظُ الآيةِ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ مِنْ كونِها علامةً دالَّةً على صِدْقِهِ ﷺ فيما جاءَهم بِهِ مِنْ عندِ ربِّهِ[1]، ومِنْ جملةِ ذلكَ: إثباتُ الحشرِ والقيامةِ كما هو مُقتضَى السّياقِ.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ءَايَةٗ﴾:

تكذيبُ المشركينَ بجميعِ الآياتِ

تنكيرُ ﴿ءَايَةٗ﴾ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ للعمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ الشَّرطِ تعُمُّ، أي: وإذا رأَوْا أيَّ علامةٍ مِنَ العلاماتِ الدّالَّةِ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ يستسخرونَ.

فائدةُ صيغةِ الاستفعالِ:

إفراطُ المشركينَ في التَّكذيبِ والسُّخريَةِ

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على مبالغةِ المشركينَ في السُّخريةِ؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تدلُّ على الطَّلبِ والتَّكلُّفِ، ولا طلبَ هنا، فيُرادُ لازمُهُ، وهو المبالغةُ في السُّخريةِ والاستهزاءِ؛ لأنَّ ما فُعِلَ بالطَّلبِ يقعُ على وجهِ المبالغةِ، أو للتَّنبيهِ على اجتماعِهم على السُّخريةِ، وأنَّهم كانوا يطلبُ بعضُهم مِنْ بعضٍ أنْ يسخرَ منها[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم؛ إذ يتعاونونَ على الإثمِ والعُدوانِ، وعلى ما فيهِ هلاكُهم، وعلى هذا الاحتمالِ تكونُ الصّيغةُ للطَّلبِ على حقيقتِها[3].

دلالةُ صيغةِ المضارِعِ:

ضَراوةُ المشركينَ في التَّكذيبِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ سخريةَ المشركينَ مُستمِرَّةٌ مُتجدِّدةٌ، فكلَّما أبصروا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.

علامةً مِنْ علاماتِ الحقِّ جدَّدوا لها استهزاءً وسُخريةً وتكذيبًا[1]، وفي ذلكَ مِنْ بيانِ ضراوتِهم في الكفرِ والتَّكذيبِ والعنادِ ما لا يخفى.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

الكفرُ باللهِ أصلُ كلِّ القبائحِ

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ معطوفٌ على ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾[2]، فيُفيدُ العطفُ أنَّهم جمعوا بينَ السُّخريةِ ونعتِ الآيةِ بأنَّها سِحْرٌ عندَ رؤيتِها، أو معطوفٌ على ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾، فيُفيدُ وصفَهم للبعثِ بأنَّهُ سِحْرٌ[3]، وأيًّا ما كانَ فهو حكايةٌ لقبيحةٍ أُخرى مِنْ قبائحِهم المُتفرِّعةِ عن كفرِهم باللّهِ، وتكذيبِهم بالحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي:

قُبْحُ إنكارِ الآياتِ والبعثِ

جيءَ بفعلِ القولِ على صيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ القولِ المذكورِ في حقِّ الآياتِ، أو البعثِ ووقوعِهِ[4]، وفيهِ تنبيهٌ على قُبْحِ هذا القولِ وشناعتِهِ وإنْ صدرَ مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ الآياتِ ودلائلَ صحَّةِ البعثِ مِنَ الظُّهورِ والوضوحِ بمكانٍ هو في غايةِ البُعدِ عن الشُّكوكِ[5].

بلاغةُ القصرِ:

الحقُّ باطلٌ مَحْضٌ عندَ المشركينَ

القَصْرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، فقد قَصَروا المُشارَ إليهِ - وهو الآيةُ أو البعثُ - على الاتِّصافِ بكونِهِ سِحْرًا مُبينًا، لا يتجاوزُهُ إلى صفةٍ أُخرى، وهذا القَصْرُ يُشيرُ إلى ما في نفوسِهم مِنَ الكِبْرِ والعنادِ والتَّمسُّكِ بالباطلِ، وأنَّ احتمالَ حقّيَّةِ الآيةِ أو البعثِ لا يخطرُ لهُم ببالٍ، ولو طَيْفَ خيالٍ.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 235.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 203.

علّةُ تذكيرِ المُشارِ إليهِ:

الحقُّ ماثلٌ بصورةِ الكذبِ عندَ المشركين

إنْ كانَ المُشارُ إليهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ هو البعثَ؛ فتذكيرُ اسمِ الإشارةِ ظاهرٌ[1]، وإنْ كانَ الآيةَ والمعجزةَ فالتَّذكيرُ بتأويلِ: ما يرونَهُ[2]، وأيًّا ما كانَ فالتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للمبالغةِ في تعيينِ المُكذَّبِ بهِ، بتنزيلِهِ منزلةَ المحسوسِ الحاضرِ.

نُكتةُ الإشارةِ للقريبِ:

احتقارُ المشركينَ للحقِّ وأهلِهِ

جيءَ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ للتَّنبيهِ على احتقارِ المشركينَ للمُشارِ إليه، وهو الآيةُ أو البعثُ؛ إذ تكذيبُ الحقِّ والسُّخرية منهُ يُعبِّرانِ عمّا في نفوسِ المُكذِّبينَ مِنَ الاحتقارِ لهُ ولأتباعِهِ، وهذا هو شأنُ أعداءِ الحقِّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يلجؤونَ إلى ذلكَ عندَ إفلاسِهم ويأسِهم مِنْ دفعِ الحقِّ بالبراهينِ والحُجَجِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالسِّحْرِ:

تشويهُ أهلِ الباطلِ صورةَ الحقِّ وأهلِهِ

عُبِّرَ بالسِّحْرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ لبيانِ شدَّةِ تلبيسِ المشركينَ على الحقِّ وأهلِهِ، وتشويهِهم للحقائقِ القطعيَّةِ اليقينيَّةِ، بإبرازِها في صورةِ أمورٍ وهميَّةٍ مُستقبَحةٍ، تقترنُ عادةً بالشَّرِّ والفسادِ، وغرضُهم مِنْ هذا الصَّنيعِ صدُّ النّاسِ عن اتِّباعِها، والالتحاقِ بِرَكْبِ المؤمنينَ بها، وإظهارُ المؤمنينَ في صورةِ مَنْ ينخدعُ بالسِّحْرِ والتَّمويهِ، والمعنى: إنَّ هذا إلّا خيالٌ وأمورٌ مُمَوَّهةٌ، لا حقائقَ لها[3].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿سِحۡرٞ﴾:

إدراجُ المشركينَ للحقِّ في جملةِ السِّحْرِ

تنكيرُ ﴿سِحۡرٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ للإفرادِ، والمعنى: إنَّ هذا إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ السِّحْرِ، أو للنَّوعيَّةِ، أي: إنَّ هذا إلّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204.

نوعٌ مِنْ أنواعِ السِّحْرِ، وأيًّا ما كانَ فالمشركونَ يرونَ المُشارَ إليهِ - وهو الآيةُ أو البعثُ - مُندرِجًا في جملةِ السِّحْرِ، بحيثُ لا يمتازُ عنهُ بشيءٍ يجعلُهُ خارجًا عنْ جنسِهِ وحقيقتِهِ.

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

اختلالُ ميزانِ الحقِّ والباطلِ عندَ المشركينَ

وُصِفَ السِّحْرُ بكونِهِ مُبينًا في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ وُثوقِ المشركينَ بكونِ ما جاءَهم بِهِ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الآياتِ أو الإخبارِ بالبعثِ سِحْرًا، والمعنى: أنَّ كونَهُ سِحْرًا أمرٌ بيِّنٌ لا شُبْهةَ فيهِ لأحدٍ، ولا امتراءَ[1]، والكافرُ إذا خُتِمَ على سَمْعِهِ وقلبِهِ، وجُعِلَ على بصرِهِ غشاوةٌ؛ يرَى الباطلَ في صورةِ الحقِّ، ويرَى الحقَّ في صورةِ الباطلِ، ولا يُفرِّقُ بينَ المعجزةِ والسِّحْرِ.

بلاغةُ فصلِ ﴿أَءِذَا﴾:

قُصورُ نظرِ المشركينَ وغرقُهم في غفلتِهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّ تركَ العطفِ بالواوِ أنسبُ بتصديرِ الجملةِ بالاستفهامِ، ولأنَّهُ مَسوقٌ لبيانِ سببِ استبعادِهم للبعثِ والنُّشورِ بعدَ بيانِ استهزائِهم بالآياتِ وإنكارِهم للبعثِ، وهو سببٌ ناشئٌ عن غفلةٍ وقُصورِ نظرٍ.

بلاغةُ الاستفهامِ:

المشركونَ مكابرونَ معاندونَ

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ للإنكارِ والسُّخريةِ[2]، وفيهِ دلالةٌ على الاستبعادِ، وليسَ هو سؤالَ باحثٍ عن الحقِّ، طالبٍ لهُ؛ لأنَّ عادةَ المشركينَ هي العنادُ والمكابرةُ.

نُكتةُ تقديمِ (إذا):

شدَّةُ إنكارِ المشركينَ للبعثِ

العاملُ في (إذا) في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مُقدَّرٌ يدلُّ عليهِ ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، والتَّقديرُ: (أَنُبْعَثُ إذا مِتْنا...

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 325، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 446.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 119، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 71.

إلخ)، وليسَ العاملُ ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ نفسَهُ؛ لأنَّ ما بعدَ (إنَّ) واللّامِ لا يعملُ فيما قبلَهُ، وتقديمُ (إذا) في الكلامِ بحسَبِ الظّاهرِ؛ لتقويةِ الإنكارِ للبعثِ بتوجيهِهِ إلى حالةٍ تُنافيهِ غايةَ المنافاةِ[1]، وللإشعارِ بأنَّ البعثَ في هذهِ الحالةِ - وهي حالةُ كونِهم أمواتًا وترابًا - أشدُّ إنكارًا. وهذا إذا كانَتْ (إذا) ظرفًا غيرَ مُتضمِّنٍ لمعنى الشَّرطِ، فإنْ جُعِلَتْ شرطيَّةً كانَ جوابُها عاملًا فيها، أي: أءِذا مِتْنا بُعِثْنا؟![2].

غرضُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

المشركونَ لا يُنكِرونَ الموتَ

إذا جُعِلَتْ (إذا) شرطيَّةً فالتَّعبيرُ بها دونَ (إنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾؛ لأنَّها تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ أنَّ المشركينَ جازمونَ بكونِهم سيموتونَ، ويصيرونَ ترابًا؛ لأنَّ إنكارَهم كانَ للبعثِ والنُّشورِ، لا للموتِ؛ إذ كانوا يقولونَ: إنَّ الدَّهرَ يُهلِكُهم.

دلالةُ صيغةِ الماضي:

الموتُ حقيقةٌ لا شكَّ فيها

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فيناسبُها إيرادُ صيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ نظرًا إلى اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ، والمشركونَ هنا قاطعونَ بموتِهم وصيرورتِهم ترابًا. وإنْ كانَتْ (إذا) ظرفًا غيرَ مُتضمِّنٍ لمعنى الشَّرطِ، فالتَّعبيرُ بالماضي للدّلالةِ على أنَّ حصولَ الموتِ والبِلى أمرٌ مقطوعٌ بهِ لِما تقدَّمَ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَكُنَّا﴾:

التَّلاشي القويُّ سببُ إنكارِ المشركينَ للبعثِ

في عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ على قولِهِ: ﴿مِتۡنَا﴾ تنصيصٌ على ما هو موجِبٌ عندَهم لشدَّةِ الإنكارِ، وهو التَّلاشي

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 298.

القويُّ بكونِهم ترابًا وعظامًا، كأنَّهم جعلوا كلَّ واحدٍ مِنَ الموتِ والكونِ ترابًا وعظامًا، جعلوهُ مانعًا مِنَ البعثِ[1].

نُكتةُ تقديمِ التُّرابِ على العظامِ:

التُّرابُ أبعدُ عن الحياةِ مِنَ العظامِ

قُدِّمَ التُّرابُ على العظامِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾؛ لأنَّه أدلُّ على مُرادِهم؛ لأنَّهُ أبعدُ عن الحياةِ[2]، أو لأنَّهُ منقلبٌ مِنَ الأجزاءِ الباديةِ[3]، أو لأنَّ كونَهم ترابًا معلومٌ بطريقِ العقلِ، وكونَهم عظامًا مُشاهَدٌ معلومٌ بطريقِ الحِسِّ؛ فكانَ الثّاني أشدَّ وقعًا في الاستبعادِ عندَ العامَّة، فلذلكَ أُخِّرَ[4].

نُكتةُ تنكيرِ التُّرابِ والعظامِ:

حقارةُ شأنِ التُّرابِ والعظامِ

تنكيرُ ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ للتَّحقيرِ، أي: ترابًا وعظامًا حقيرَيِ الشَّأنِ، لا يُبالَى بهما، وذلكَ يلائمُ مقامَ استبعادِ البعثِ وإنكارِهِ.

نُكتةُ تكريرِ الاستفهامِ:

شدَّةُ شكيمةِ المشركينَ في إنكارِ البعثِ

تكريرُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ على قراءةِ مَنْ قرأ بِهِ - وهم الجمهورُ - زيادةٌ في الإنكارِ، وتأكيدٌ لهُ[5]، ومبالغةٌ فيهِ، وإشعارٌ بأنَّ البعثَ مُستنكَرٌ في نفسِهِ؛ لإعادةِ همزةِ الإنكارِ معَهُ، وهو في هذهِ الحالةِ - وهي حالةُ موتِهم وصيرورتِهم ترابًا وعظامًا - أشدُّ استنكارًا[6].

نُكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ:

نفوسُ المشركينَ تأبَى الاعترافَ بالبعثِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ، واللّامِ، وإعادةِ أداةِ الإنكارِ - وهي الهمزةُ على قراءةِ مَنْ قرأ بها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 107.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204، واطفَيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 418.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 237.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.

في الموضعينِ - تقويةً للإنكارِ، وتأييدًا لهُ، وتقديمُ الهمزةِ لاقتضائِها الصَّدارةَ، لا لأنَّ المرادَ إنكارُ التَّأكيدِ كما قد يُتوهَّمُ مِنْ ظاهرِ الكلامِ[1]، وفي تكثيرِ المُؤكِّداتِ إشارةٌ إلى أنَّ نفوسَ المشركينَ تقذفُ البعثَ عنها، وتأبَى أنْ يكونَ مُعتقَدًا لها، ولذلكَ حُشِدَتْ لها هذهِ المُؤكِّداتُ.

نُكْتةُ العدولِ عن الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ:

الاسميَّةُ أنسبُ بزيادةِ الإنكارِ

أصلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾: أنُبْعَثُ إذا مِتْنا؟! فبدَّلوا الفعليَّةَ بالاسميَّةِ، وقدَّموا الظَّرفَ، وكرَّروا الهمزةَ؛ مبالغةً في الإنكارِ، لتكريرِ حرفِ الإنكارِ وتصديرِهِ والاسميَّةِ، وإشعارًا بأنَّ البعثَ مُستنكَرٌ في نفسِهِ، وهو في هذهِ الحالةِ أشدُّ استنكارًا[2].

توجيهُ القراءاتِ وبلاغتها:

ترقّي المشركينَ في استبعادِ البعثِ

قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وقالونُ والأصبهاني: ﴿أَوْ ءَابَآؤُنَا﴾ بإسكانِ الواوِ، وقرأ الباقونَ: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ بفتحِها[3]. أمّا القراءةُ الأولى: فهي على أنَّ ﴿أَوْ﴾ حرفُ العطفِ المفيدُ للتَّرديدِ والتَّقسيمِ[4]، أي: أيُبْعَثُ واحدٌ منّا؟![5] ووجهُ العطفِ بـ ﴿أَوْ﴾ هو جَعْلُهم الآباءَ الأوَّلينَ قِسْمًا آخرَ، فكانَ عطفُهُ ارتقاءً في إظهارِ استحالةِ بعثِ هذا القِسْمِ[6]. وأمّا القراءةُ الثّانيةُ: فهي على أنَّ الواوَ واوُ العطفِ، والهمزةُ همزةُ استفهامٍ، فهما حرفانِ، وقُدِّمَتْ همزةُ الاستفهامِ على حرفِ العطفِ جريًا على الاستعمالِ الكثيرِ[7]، و(آباؤُنا) معطوفٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها، أو على الضَّميرِ المستترِ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 186، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 236.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 119.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.

والمعنى: أَيُبْعَثُ أيضًا آباؤُنا؟! وتكريرُ الاستفهامِ الإنكاريِّ لزيادةِ الاستبعادِ[1]. فجمعت القراءتان لمشركي مكة بين الإنكار والسخرية من الأقدار.

نُكْتةُ ذِكْرِ الآباءِ:

بَعْثُ الآباءِ أولى بالاستبعادِ عندَ المشركينَ

ذِكْرُ الآباءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لأنَّهم في زعمِ المشركينَ قد طالَتْ عصورُ فنائِهم، فتكونُ إعادةُ حياتِهم أوغلَ في الاستحالةِ[2]، والمشركونَ بذلكَ يترقَّوْنَ درجةً في الإنكارِ والاستبعادِ.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾:

المـــشـــركـــونَ يستدلّونَ بحالِ آبائِهم

الإضافةُ في ﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ للاختصاصِ، فتفيدُ أنَّ المشركينَ يستبعِدونَ بعثَ آبائِهم المختصِّينَ بهِم؛ لأنَّهم أدرى بأحوالِهم وشؤونِهم وبمُدَّةِ موتِهم.

نُكْتةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

غُلوُّ المشركينَ في إنكارِ البعثِ

وَصَفَ المشركونَ آباءَهم بالأوَّلينَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لزيادةِ الاستبعادِ، أي: أَيُبْعَثُ آباؤُنا الأقدمونَ الَّذينَ طالَ مُكْثُهم في الأرضِ، وانمحقَتْ أجزاؤُهم، بحيثُ لم يبقَ لهُم أثرٌ ما، ومرَّتِ الدُّهورِ ولم يُبْعَثْ أحدٌ منهُم يومًا منَ الأيّامِ؟![3].

نُكْتةُ فصلِ ﴿قُلْ﴾:

مقامُ المُحاوَراتِ مقامُ فصلٍ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ جارٍ على طريقةِ الاستعمالِ في حكايةِ المُحاوَراتِ[4]؛ إذ يُفصَلُ قولُ كلِّ مُحاورٍ عن قولِ مُحاورِهِ.

دلالةُ فعلِ الأمرِ:

تبكيتُ المشركينَ بوقوعِ الحَشْرِ

الأمرُ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 204.
(2) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 8/ 418، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 98.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 205.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.

ولا صارفَ عنهُ، بل مقامُ تبكيتِ المُكذِّبينَ يستدعي الإجابةَ بهذا الجوابِ[1]، وفي ذِكْرِ الأمرِ أيضًا تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ بالتَّبليغِ، وليواجهَهم بما يُبكِّتُهم؛ ليكونَ ذلكَ في مقابلةِ تكذيبِهم لهُ.

بلاغةُ الاقتصارِ على ﴿نَعَمۡ﴾:

البعثُ لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليهِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ﴾ لطافةٌ لا تخفى؛ وذلكَ بالاقتصارِ على ﴿نَعَمۡ﴾ في الجوابِ، مِنْ غيرِ إقامةِ دليلٍ للمُنكِرينَ؛ لأنَّهُ قد تقدَّمَ البرهانُ عليهِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ الآية، ولأنَّ المُخبِرَ عُلِمَ صدقُهُ بمعجزاتِهِ الواقعةِ في الخارجِ، الَّتي دلَّ عليها قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ﴾، واستهزاؤُهم بها وتسميتُهم لها سِحْرًا لا يضرُّ طالبَ الحقِّ، ولذا أمرَهُ سبحانَهُ بقولِه: ﴿نَعَمۡ﴾ دونَ زيادةٍ، والّا لم يكنْ جوابًا شافيًا[2].

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ:

غايةُ السُّؤالِ عن البعثِ أنْ يكونَ مِنْ جاهلٍ لا مِنْ معاندٍ

الاستفهامُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ إنكاريٌّ كما سبقَ، ولذلكَ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ﴾ جوابًا لهُ على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، بصرفِ قَصْدِهم مِنَ الاستفهامِ الإنكاريِّ إلى الاستفهامِ الحقيقيِّ، فجُعِلوا كالسّائلينَ حقيقةً: أَيُبْعَثونَ؟ فقيلَ لهُم: نعمْ؛ تقريرًا للبعثِ المُستفهَمِ عنهُ، أي: نَعَمْ تُبْعَثونَ[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ هذا السُّؤالَ غايتُهُ أنْ يكونَ سؤالَ جاهلٍ طالبٍ للعِلْمِ، لا سؤالَ مكابرٍ معاندٍ.

بلاغةُ الجملةِ الحاليّةِ:

بعثُ المشركينَ مُتلبِّسٌ بالذُّلِّ والصَّغارِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، والعاملُ فيها محذوفٌ، والتَّقديرُ: نعم تُبْعَثونَ وأنتم داخرونَ[4]، ونُكتةُ الحالِ بيانُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 187.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 96.

تلبُّسِ بعثِهم بذلِّهم وصَغارِهم، فلا يُكتفَى بوقوعِ ما ينكرونَ، بل يصحبُهُ ما فيهِ خِزْيُهم وبَهْتُهم.

بلاغةُ الإطنابِ:

تهديدُ المُنكِرينَ للبعثِ بسوءِ العاقبةِ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ زيادةٌ على الجوابِ؛ إذِ الظّاهرُ أنْ يُكتفَى بـ ﴿نَعَمۡ﴾، وإنَّما زيدَ على الجوابِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إطنابٍ؛ للتَّشديدِ في الوعيدِ، والمبالغةِ في التَّهديدِ للمُخاطَبينَ[1]. ومِنْ عجيبِ بلاغةِ هذهِ الآيةِ أنَّهُ لم يُذكَرْ فيها دليلٌ للمُنكِرين كما تقدَّمَ، واقتُصِرَ على ﴿نَعَمۡ﴾، وزيدَ فيها تهديدُهم بالذُّلِّ والصَّغارِ، كأنَّهُ قيلَ: لا تطلبُوا دليلًا على البعثِ؛ فالأدلَّةُ كثيرةٌ، واحذروا ما ينتظرُكم عندَ وقوعِهِ.

بلاغةُ التَّغليبِ:

الخطابُ للمُنكِرينَ وآبائِهم

الخطابُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ لهُم ولآبائِهم بطريقِ التَّغليبِ[2]، أو الخطابُ لِمَنْ عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّهم يموتونَ على الكفرِ، أو هو مُقيَّدٌ، أي: وأنتم داخرونَ إنْ بَقيتُم على هذهِ الحالةِ[3].

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ:

قَرْعُ العصا للمُنكِرين

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (داخرينَ)؛ لِما تدلُّ عليهِ الاسميَّةُ مِنْ أنَّ كونَهم داخرينَ أمرٌ ثابتٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ فيهِ، إنْ بَقوا على ما هم عليهِ مِنَ التَّكذيبِ، وفي ذلكَ تهويلٌ للخَطْبِ، وتفظيعٌ لهُ، عسَى أنْ يرتدعوا عمّا هم عليهِ مِنَ التَّكذيبِ والعنادِ.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالدُّخورِ:

الكرامةُ يومَ القيامةِ لأهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ

عُبِّرَ بالدُّخورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على ما

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 238.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 187، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 238.

يصيبُ المُخاطَبينَ عندَ البعثِ مِنَ الصَّغارِ والذِّلَّةِ والاستكانة[1]؛ لأنَّهم يرونَ ما أنكروهُ واقعًا[2]، أي: تُبْعَثونَ بَعْثَ إهانةٍ مُؤذِنةٍ بترقُّبِ العقابِ، لا بَعْثَ كرامةٍ[3]؛ لأنَّ الكرامةَ حينَئذٍ خاصَّةٌ بأهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ، الَّذينَ عَمَرَ قلوبَهم الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ.

دلالة استعمال اسمِ الفاعلِ ﴿دَٰخِرُونَ﴾:

رُسوخُ المعاندينَ في الذُّلِّ والصَّغارِ يومَ القيامةِ

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿دَٰخِرُونَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ رُسوخِ المُخاطَبينَ في الذُّلِّ والصَّغارِ، حتَّى صارَ ذلكَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا تنفكُّ عنهُم، ولا غَرْوَ في ذلكَ؛ إذ يستقبلونَ اليومَ الَّذي كانوا يُنكِرونَهُ، وهم على هذا الحالِ الفظيعِ، المُؤذِنِ بطولِ الوَيْلِ والثُّبورِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستفتاءُ والسُّؤالُ:

البعثُ قضيَّةٌ مُشكِلةٌ

الاستفتاءُ: طَلَبُ جوابٍ عمّا يُشكِلُ على المُستفتي[4]. والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤدّي إليها. وقد عُبِّرَ بالاستفتاءِ هنا؛ لأنَّ المرادَ بهِ الاستخبارُ عن أمرٍ حدثَ[5]، وطَلَبُ الإجابةِ عن المسؤولِ عنهُ، وهو تعيينُ الأشدِّ خَلْقًا، وفي التَّعبيرِ بهِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ قضيَّةَ البعثِ لكثرةِ الكلامِ فيها قد صارَتْ بمنزلةِ الشَّيءِ المُشكِلِ، الَّذي يُطلَبُ بيانُ إزالةِ الإشكالِ المُتعلِّقِ بهِ، وإنْ لم يكنِ البعثُ مُشكِلًا في نفسِهِ لظهورِ أدلَّتِهِ.

السُّخريةُ والاستهزاءُ:

الاستهزاءُ والسُّخريةُ كلٌّ منهما فيهِ استخفافٌ وهَمْزٌ، والفرقُ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 72.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فتي).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 6، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 262.

المـــشـــركـــونَ يطلبونَ قَهْرَ أهلِ الحقِّ

بينَهما: أنَّ الإنسانَ يُستهزَأُ بِهِ مِنْ غيرِ أنْ يَسبِقَ منهُ فعلٌ يُستهزَأُ بِهِ مِنْ أجلِهِ، وأمّا السُّخريَةُ فتدلُّ على فعلٍ يَسبِقُ مِنَ المسخورِ منهُ[1]. وقد عُبِّرَ بالسُّخريةِ هنا؛ لأنَّها وقعَتْ في مقابلةِ الإخبارِ بالحقِّ، ولدلالتِها بحسَبِ أصلِ معناها على الذُّلِّ والقَهْرِ، وكأنَّ السّاخرَ يبغي قَهْرَ المسخورِ منهُ وإذلالَهُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١
۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ٢٤﴾

[الصافات: 19 - 24]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذِكْرُ بعضِ أحوالِ البعثِ بعدَ الإخبارِ بوقوعِهِ

لمّا بيَّنَ تعالى ما يدلُّ على إمكانِ البعثِ، ثمَّ أردفَهُ بما يدلُّ على وقوعِهِ؛ ذكرَ في هذهِ الآياتِ بعضَ تفاصيلِ أحوالِ القيامةِ[1]، فالكلامُ تخلُّصٌ منَ الإنذارِ بحصولِ البعثِ، إلى الإخبارِ عمّا يحلُّ بهِم عَقِبَهُ إذا ثَبَتوا على إنكارِهم لهُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾: الوَيْلُ: حُلولُ الشَّرِّ[3]، والقبحُ والتَّعْسُ، وقد يُستعمَلُ في التَّحسُّرِ، وفي العذابِ[4]. ومَنْ قال اللّه تعالى فيه (ويل) فقدِ استحقّ مقرًّا من النّارِ، وثبت ذلك له[5]. والمرادُ بهِ هنا: سوءُ الحالِ[6].

2) ﴿ٱلدِّينِ﴾: (دين) أصلٌ يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ[7]، ومِنْ ذلكَ: الدّينُ، وهو الطّاعةُ، ويُطلَقُ على الجزاءِ أيضًا[8]، وعلى الشَّريعةِ[9]. والمرادُ بيومِ الدّينِ: يومُ الجزاءِ[10]، وهو يومُ القيامةِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 325.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.
(3) الخليل، العين: (ويل).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (ويل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ويل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر).
(8) الخليل، العين: (دين).
(9) الرّاغب، المفردات: (دين).
(10) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 39، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 96.

3) ﴿ٱلْفَصْلِ﴾: (فصل) أصلٌ يدلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانتِهِ عنهُ[1]، حتَّى يكونَ بينَهما فُرْجةٌ[2]، ومنهُ المفاصلُ مِنْ أعضاءِ البدنِ، والواحدُ: مَفْصِلٌ[3]، والفصلُ: تمييزُ الحقِّ مِنَ الباطلِ[4]، والمرادُ بيومِ الفصلِ: يومُ القضاءِ والفرقِ بينَ فِرَقِ الهدى والضَّلالةِ[5]، وهو يومُ القيامةِ.

4) ﴿ٱحْشُرُواْ﴾: الحَشْرُ: الجَمْعُ[6]، والمَحْشِرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليهِ القومُ[7]، والحَشْرُ أيضًا: إخراجُ الجماعةِ عن مَقَرِّهم، وإزعاجُهم عنهُ إلى الحربِ ونحوِها، ويقالُ ذلكَ في الإنسانِ وغيرِهِ، كقولِكَ: حَشَرَتِ السَّنَةُ مالَ بني فلانٍ، أي: أزالَتْهُ عنهُم[8]. والمرادُ بالحَشْرِ هنا: جمعُ المُتفرِّقينَ إلى مكانٍ واحدٍ[9].

5) ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: (زوج) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ شيءٍ لشيءٍ[10]، فيقالُ لكلِّ واحدٍ مِنَ القرينينِ مِنَ الذَّكرِ والأنثى في الحيواناتِ المتزاوجةِ: زوجٌ، ولكلِّ قرينَينِ فيها وفي غيرِها: زوجٌ، كالخُفِّ والنَّعْلِ، ولكلِّ ما يقترنُ بآخرَ مماثلًا لهُ أو مُضادًّا: زوجٌ. والمرادُ بـ (أزواجِهم): أقرانُهم المقتدونَ بهِم في أفعالِهم[11]، أو حلائلُهم المشركاتُ، أو المقارنونَ لهُم مِنَ الشَّياطينِ[12].

6) ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: (جحم) أصلٌ يدلُّ على الحرارةِ وشدَّتِها[13]، ومِنْ ذلكَ: الجحيمُ، وهي شدَّةُ توقُّدِ النّارِ[14]، واسمٌ مِنْ أسماءِ النّارِ[15]، وطبقةٌ مِنْ طبقاتِها، وهو المرادُ هنا[16].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فصل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: (فصل).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حشر).
(7) الخليل، العين: (حشر).
(8) الرّاغب، المفردات: (حشر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زوج).
(11) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زوج).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحم).
(14) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جحم).
(15) الجوهريّ، الصّحاح: (جحم).
(16) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 469.

7) ﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾: (وقف) أصلٌ يدلُّ على تمكُّثٍ في شيءٍ[1]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: وقَفْتُ القومَ أقِفُهم وقْفًا[2]، ووقَفْتُ الدّابَّةَ أقِفُها وُقوفًا ووَقْفًا[3]. والمرادُ بالوقفِ هنا: الحَبْسُ[4]، وإيقافُ السَّيرِ بهِم[5].

8) ﴿مَّسۡـُٔولُونَ﴾: السُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ أو ما يُؤدّي إلى المعرفةِ، واستدعاءُ مالٍ أو ما يُؤدّي إلى المالِ، ويقالُ: تساءَلوا، إذا سألَ بعضُهم بعضًا[6]. والمرادُ بالسُّؤالِ هنا: سؤالُهم عن عقائدِهم وأعمالِهم[7]، أو ما فسَّرَتْهُ الآيةُ الَّتي بعدَها، وهي قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ [الصّافّات: 25][8].

المَعنى الإجماليُّ:

خيبةُ المشركينَ يومَ القيامةِ وسوءُ حالِهم ومآلِهم

يُخبِرُ ﷻ عن كيفيَّةِ حصولِ البعثِ، وعن بعضِ أحوالِ المشركينَ المُنكِرينَ بعدَ حصولِه، فيقولُ: فإنَّما هي نفخةٌ واحدةٌ في الصّورِ، وهي النَّفخةُ الثّانيةُ، فإذا هم أحياءٌ ينظرونَ إلى ما كانوا يوعَدونَ بِهِ مِنْ قيامِ السّاعةِ، ولمّا رأَوْا ما كانوا يُنكِرونَهُ قالوا في حسرةٍ وندمٍ: يا هلاكَنا، هذا يومُ الجزاءِ الَّذي وُعِدْنا بهِ، ثمَّ قالَ اللّٰهُ لهُم أو الملائكةُ، أو قالَ بعضُهم لبعضٍ: هذا يومُ الفصلِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وبينَ الخلقِ الَّذي كنتم في الدُّنيا تستبعدونَهُ، وتُكذِّبونَ بهِ.

ثمَّ يأمرُ اللّٰهُ تعالى الملائكةَ أنْ تُميِّزَ الكفّارَ مِنَ المؤمنينَ في الموقفِ في المحشرِ، فيقولُ: اجمعوا الَّذينَ كفروا وأمثالَهم مِنْ أهلِ الشِّركِ، أو أزواجَهم الكافراتِ، أو أقرانَهم مِنَ الشَّياطينِ، وما كانوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(2) الرّاغب، المفردات: (وقف).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقف).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 329.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 102.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (سأل).
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 8.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 102.

يعبدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، اجمعوهم في مكانٍ واحدٍ، ودُلّوهم على طريقِ النّارِ ليسيروا فيه، وقِفوهم حتّى يُسألوا عن أعمالِهم وأقوالِهم الَّتي صدرَتْ عنهُم في الدُّنيا، أو حتَّى يُسألوا عن سببِ عدمِ تناصرِهم في هذا اليومِ العظيمِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله ﴿فَإِنَّمَا﴾:

إنَّ أجلَ اللهِ لآتٍ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فصيحةٌ واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانَ ذلكَ فإنَّما هي زجرةٌ واحدةٌ[2]، وفي الحذفِ إشارةٌ إلى سرعةِ حصولِ البعثِ، بِطَيِّ ما يكونُ قبلَ الكلامِ الدّالِّ على الوقوعِ.

البعثُ مُتيقَّنٌ لكونِهِ هيِّنًا

ويحتملُ أنْ تكونَ الفاءُ سببيَّةً، سبَّبَ عن تحتُّمِ الوعدِ ما يدلُّ على كونِهِ هيِّنًا، فقالَ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾، أي: يكونُ ذلكَ بسببِ أنَّهم يُزجَرونَ فيقومونَ[3].

البعثُ وشيكُ الحصولِ

ويحتملُ أنْ تكونَ تفريعيَّةً؛ فرَّعَ على إثباتِ البعثِ الحاصلِ بقولِه: ﴿نَعَمْ﴾؛ أنَّ بَعْثَهم وشيكُ الحصولِ، لا يقتضي معالجةً ولا زمنًا، إنْ هي إلّا إعادةٌ تنتظرُ زجرةً واحدةً[4].

ما يحصلُ بنفخةٍ لا يُستصعَبُ

ويحتملُ أنْ تكونَ تعليلًا لنَهيٍ مُقدَّرٍ، أي: (لا تَستصعِبوهُ؛ فإنَّما هي زجرةٌ... إلخ)[5]. ويحتملُ أنْ تكونَ تفسيرًا وتفصيلًا للبعثِ[6].

بلاغةُ الالتفاتِ:

مقامُ الغضبِ يستدعي الإعراضَ وتعميمَ الوعيدِ

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ إمّا مِنَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 25، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 8.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 326.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 205.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 99.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 187، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 264.

تتمَّةِ المَقولِ، وإمّا ابتداءُ كلامٍ مِنَ اللّهِ ﷻ[1]. وعلى الاحتمالِ الأوَّلِ يكونُ في الكلامِ التفاتٌ مِنَ الخطابِ في ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّ المقامَ مُؤذِنٌ بالغضبِ، فصُرِفَ الكلامُ عن خطابِهم؛ جعلًا لهُم بمحلِّ البُعدِ عن ساحةِ القُرْبِ والحضورِ، وليكونَ الكلامُ شاملًا لهُم ولغيرِهم[2].

مرجعُ الضَّميرِ ﴿هِيَ﴾:

تعظيمُ شأنِ البعثِ

تحتملُ ﴿هِيَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ألّا ترجعَ إلى شيءٍ، بل هي ضميرُ القصَّةِ، وهو مُبْهَمٌ، يوضِّحُه ويُفسِّرُهُ ما بعدَهُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[3]، ونُكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ القصَّةِ: تشويقُ السّامعِ إلى معرفةِ المُفسِّرِ؛ ليتمكَّنَ عندَ ورودِهِ عليهِ فضلَ تمكُّنٍ، وذلكَ يلائمُ مقامَ التَّنصيصِ على كونِ البعثِ يسيرًا هيِّنًا في ميزانِ قدرةِ اللّهِ، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ لشأنِ البَعثةِ؛ لأنَّ ضميرَ القصَّةِ يُستعمَلُ فيما إذا كانَ مضمونُ الجملةِ شيئًا عظيمًا يُعتَنَى بهِ[4].

البَعثةُ زجرةٌ واحدةٌ

وتحتملُ أنْ تكونَ راجعةً إلى شيءٍ يدلُّ عليهِ السّياقُ، وهو البعثةُ المفهومةُ مِنْ قولِهِ: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، إي: فإنَّما البَعثةُ زَجْرةٌ[5].

بلاغةُ الإخبارِ بالزَّجْرة:

الإخبارُ عن المُسبَّبِ بالسَّببِ

إذا جُعِلَتْ ﴿هِيَ﴾ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ راجعةً إلى البَعثةِ المفهومةِ مِنَ السّياقِ؛ فقد بولِغَ في الإخبارِ عنها بأنَّها زَجْرةٌ، ووجهُ المبالغةِ: أنَّهُ لمّا كانَتْ بَعثتُهم ناشئةً عن الزَّجْرةِ جُعِلَتْ إيّاها مجازًا[6]، فأخبرَ بالسَّببِ عن المُسبَّبِ؛ لبيانِ قوَّةِ السَّببيَّةِ بينَهما.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 264، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 206.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(4) التّفتازانيّ، المطوّل: 1/ 559.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 96، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 299.

بلاغةُ المجازِ في الزَّجْرةِ:

الزَّجْرةُ مستعارةٌ للنَّفخةِ

المرادُ بالزَّجْرةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ النَّفخةُ الثّانيةُ في الصّورِ، وفي التَّعبيرِ عنها بالزَّجْرةِ مجازٌ؛ لأنَّها مأخوذةٌ مِنْ زَجَرَ الرّاعي غَنَمَهُ، إذا صاحَ عليها[1]، فتكونُ استعارةً[2].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿زَجۡرَةٞ﴾:

تقليلُ شأنِ النَّفخةِ في الصّورِ

تنكيرُ ﴿زَجۡرَةٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ للتَّحقيرِ، أي: فإنَّما هي زَجْرةٌ حقيرةُ الشَّأنِ، والغرضُ مِنْ ذلكَ تهوينُ شأنِ البعثِ؛ لاستنزالِ طائرِ كِبْرِ المشركينَ وعنادِهم، ومقابلةِ استعظامِهم لبعثِهم وبَعْثِ آبائِهم الأوَّلينَ باستحقارِ شأنِ هذا البعثِ، وبيانِ أنَّهُ هباءٌ في جانبِ قدرةِ الخالقِ ﷻ.

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿وَٰحِدَةٞ﴾:

العظيمُ في جنبِ قُدرةِ اللهِ حقيرٌ

وُصِفَتِ الزَّجْرةُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ بأنَّها واحدةٌ؛ لتأكيدِ ما تفيدُهُ صيغةُ الفَعْلَةِ مِنْ معنى المرَّةِ؛ لدفعِ توهُّمِ أنْ يكونَ المرادُ مِنَ الزَّجْرةِ الجنسَ دونَ الوجودِ؛ لأنَّ وزنَ (الفَعْلَةِ) يجيءُ لمعنى المصدرِ دونَ المَرَّةِ[3]، ولدفعِ توهُّمِ تكرارِها، ولتوكيدِ عدمِ الحاجةِ في بَعْثِ الموتى إلى أكثرَ مِنْ زَجْرةٍ واحدةٍ، وفي ذلكَ مِنَ المبالغةِ في تحقيرِ أمرِ البعثِ في جنبِ عظَمةِ اللّهِ تعالى وقدرتِه ما لا يخفى[4].

بلاغةُ القصرِ:

البَعثةُ ليسَتْ شيئًا إلّا زَجْرةً واحدةً

القَصْرُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ قصرُ موصوفٍ - وهو البَعثةُ المفهومةُ مِنَ السّياقِ - على صفةٍ، وهي الزَّجْرةُ الواحدةُ، والغرضُ مِنْ هذا القَصرِ المبالغةُ في تهوينِ أمرِ البَعثةِ، بإظهارِ أنَّها ليسَتْ شيئًا إلّا زَجْرةً واحدةً.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 7.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 265.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 205.

براعةُ التّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ:

كونُ البَعثِ زَجْرةً أمرٌ قطعيٌّ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ قَصْرَ البَعثةِ على كونِها زَجْرةً واحدةً أمرٌ ثابتٌ لا شكَّ فيهِ، فحقُّهُ أنْ يُخبَرَ عنهُ كما يُخبَرُ عن الحقائقِ القطعيَّةِ اليقينيَّةِ.

معنى الفاءِ:

القيامُ مُسبَّبٌ عن الزَّجْرة

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ للسَّببيَّةِ[1]، وهي دالَّةٌ على التَّرتيبِ بلا مُهلةٍ[2]، فتُفيدُ أنَّ النَّظرَ يتسبَّبُ عنِ الزَّجْرةِ، ويَعْقُبُها دونَ تَوانٍ.

دلالةُ (إذا):

سرعةُ حصول النَّظرِ بعدَ الزَّجْرة

(إذا) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ للمفاجأةِ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بها: الدّلالةُ على سرعةِ حصولِ النَّظرِ، بعدَ الزَّجْرةِ بلا توقُّفٍ[3].

نُكتةُ تقديمِ الضّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

نظرُ المبعوثين حاصلٌ يقينًا

قُدِّمَ المبتدأ على الجملة الفعليّة في قولِهِ تعالى: ﴿هُمۡ يَنظُرُونَ﴾؛ لإفادة تقوّي الحكم، وهو النَّظرُ؛ لأنَّ ﴿هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ يتضمَّنُ الإخبارَ عنهُم بأنَّهم ينظرونَ، وفي ﴿يَنظُرُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى ﴿هُمۡ﴾، فيُفيدُ نسبةَ النَّظرِ إليهِم مرَّةً أُخرى، فكأنَّهُ قيلَ مرَّتينِ: هم ينظرونَ، هم ينظرونَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنَّظرِ:

الحقائقُ تَظهرُ عَيانًا يومَ القيامةِ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ أنْ يكونَ مِنَ النَّظرِ بالأبصارِ، أي: ينظرونَ ما هم فيهِ، فيَتَّضحُ لهُم صِدْقُ ما كانوا يُكذِّبونَ به مِنَ البعثِ[4]، أو ينظرونَ ما يحدثُ بهم، أو ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 8.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 239.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 326.

ويحتملُ أنْ يكونَ بمعنى الانتظارِ، أي: ينتظرونَ ما يُفعَلُ بهِم[1]، فيُفيدُ الكلامُ تهويلَ ذلكَ المشهدِ العظيمِ، ببيانِ أنَّ المصيرَ مجهولٌ، وأنَّ الكلَّ ينتظرُ ما يأمرُ بهِ مالكُ يومِ الدّينِ الواحدُ القهّارِ. والأوَّلُ هو الظّاهرُ.

المُلْكُ يومَ القيامةِ للهِ الواحدِ القهّارِ

بلاغةُ الكنايةِ:

في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ النَّظرَ كنايةٌ عنِ الحياةِ الكاملةِ؛ لأنَّ النَّظرَ لا يكونُ إلّا معَ تمامِ الحياةِ[2]، فكأنَّهُ قيلَ: فإذا هم أحياءٌ.

النَّظرُ يكونُ معَ تمامِ الحياةِ

سرُّ تخصيصِ النَّظرِ بالذِّكرِ:

خُصَّ النَّظرُ مِنْ بينِ بقيَّةِ الحواسِّ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لأنَّهُ لا يكونُ إلّا معَ كمالِ الحياةِ، وأمّا السَّمعُ فقد يكونُ للموتى[3]، ولمزيدِ اختصاصِ النَّظرِ بالمقامِ، وهو التَّعريضُ بما اعتراهُم مِنَ البَهتِ لمشاهدةِ الحَشْرِ[4].

يومُ القيامةِ يومُ رؤيةِ الأهوالِ والحقائقِ

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تصويرِ هذا المشهدِ البديعِ العجيبِ[5]، وهو قيامُ الأمواتِ مِنْ قبورِهم أحياءً ينظرونَ، كما كانوا ينظرونَ في حالِ الحياةِ في الدُّنيا، وفي ذلكَ مِنَ المبالغةِ في تصويرِ قدرتِهِ تعالى ما لا تُحيطُ بهِ العبارةُ.

تصويرُ مشهدِ الإحياءِ بعدَ الموتِ

دلالةُ الواوِ في ﴿وَقَالُواْ﴾:

يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ للحالِ، أي: قائلينَ:

نظرُ المُنكرينَ بعدَ البعثِ مصحوبٌ بالتَّحسُّرِ والخوفِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 206.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 16/ 206.

يا ويلَنا[1]، وفائدةُ الحالِ بيانُ أنَّ نظرَهم مصحوبٌ بالتَّحسُّرِ والفَزَعِ الشَّديدِ.

استعقابُ الزَّجرةِ النَّظرَ والتَّحسُّرَ

ويجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿يَنظُرُونَ﴾[2]، فيُفيدُ الكلامُ أنَّ ما يترتَّبُ على الزَّجرةِ أمرانِ، هما: النَّظرُ وقولُهمُ الكلامَ المذكورَ هنا.

تعيينُ فاعلِ ﴿وَقَالُواْ﴾:

المُنكِرون أهلُ الوَيلِ يومَ الحَشْرِ

ضميرُ الفاعلِ في قولِه ﷻ: ﴿وَقَالُواْ﴾ للمبعوثينَ المُنكِرينَ للبعثِ[3]، أي: يقولُ جميعُهم: يا ويلَنا، يقولُه كلُّ أحدٍ عنهُ وعن أصحابِهِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي:

نداءُ المُنكِرينَ للوَيلِ مُتيقَّنٌ

جيءَ بصيغةِ المُضيِّ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا﴾، معَ أنَّ هذا القولَ سيقعُ في المستقبلِ عندَ قيامِ السّاعةِ، ولم يقعْ بعدُ؛ إعلامًا بتحقُّقِ الأمرِ تحقُّقَ ما مضَى وكانَ[5]؛ لأنَّ المُخبِرَ هو اللهُ ﷻ الَّذي لا خلافَ في إخبارِهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالوَيْلِ:

المُنكِرون للبَعثِ في ثُبورٍ عظيمٍ

عُبِّرَ بالوَيْلِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾؛ لِما في هذهِ الكلمةِ مِنَ الدّلالةِ على سوءِ الحالِ؛ لأنَّها تقالُ عادةً وقتَ الهَلَكةِ[6]، فيكونُ الإتيانُ بها هنا ملائمًا لمقامِ التَّعبيرِ عمّا يُصيبُ المُنكِرينَ للبعثِ مِنَ الحَسْرةِ عندَ رؤيةِ أنفسِهم قد بُعِثوا، وعادوا أحياءً كما كانوا في الدُّنيا، فيُصبحُ شكُّهم يقينًا، ويعلمونَ صِدْقَ كلِّ ما أخبرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، ومِنْ جملةِ ذلكَ إخبارُهُ بما أُعِدَّ لهُم مِنَ العذابِ، فيوقنونَ أنَّهم على شَفا جُرُفٍ هارٍ مِنْ جهنَّمَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 206، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 239، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 206، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 120.

نُكتةُ إضافةِ الويلِ إلى ضميرِ المنكرينَ:

الهلاكُ مختصٌّ بالمُنكِرين

إضافةُ الوَيْلِ إلى ضميرِ المُنكِرينَ للبعثِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾؛ لبيانِ أنَّ الهلاكَ مختصٌّ بهِم لكفرِهم وتكذيبِهم، وأمّا المؤمنونَ بالبعثِ العاملونَ للصّالحاتِ فهُم في أمانٍ.

تعيينُ قائلِ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾:

مَـــنْ أيـقـنَ بالعذابِ المُخلَّدِ طلبَ الهلاكَ

يحتملُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ وقولُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مِنْ كلامِ الكفرةِ[1]، وبناءً على ذلكَ يكونُ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ استئنافًا جاريًا مَجْرَى التَّعليلِ لنداءِ الهلاكِ، أي: وإنَّما نادَيْنا الهلاكَ؛ لأنَّ هذا اليومَ يومُ الجزاءِ[2]، ولذلكَ فُصِلَتِ الجملةُ عمّا قبلَها، ولم تُعطَفْ عليهِ، و﴿تُكَذِّبُونَ﴾ واردٌ على طريقِ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الخطابِ، أو على أنَّهُ ممّا قالَهُ بعضُهم لبعضٍ[3].

العذابُ النَّفسيُّ قـريـنُ الـعـذابِ الجسديِّ

ويحتملُ أنْ تكونَ الجملتانِ مِنْ كلامِ الملائكةِ لهُم[4]، أو مِنْ كلامِ اللهِ، والكلامُ واردٌ على سبيلِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ، والتَّخسيرِ والتَّحسيرِ، فهو مِنْ جملةِ العقابِ النَّفسيِّ الَّذي يكونُ لهُم؛ إذ عقابُهم لا يقتصرُ على العقابِ الجسديِّ، و﴿تُكَذِّبُونَ﴾ حينَئذٍ على ظاهرِهِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مِنْ كلامِ الكفرةِ، و﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مِنْ كلامِ الملائكةِ أو مِنْ كلامِ اللهِ جوابًا لهُم عن قولِهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[5]، و﴿تُكَذِّبُونَ﴾ حينَئذٍ على ظاهرِهِ أيضًا، والمرادُ بهذا الجوابِ التَّوبيخُ والتَّقريعُ والتَّعريضُ بالوعيدِ[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، 39، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 120.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 239، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 299.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، 39، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 120.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 38، 39، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 120.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.

لا تنفعُ الوَلْوَلةُ يومَ القيامةِ

ويحتملُ على بُعْدٍ أنْ يكونَ ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ فقطْ مِنْ كلامِ الكفرةِ، وما بعدَهُ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى أو كلامِ الملائكةِ لهُم، والمرادُ: بيانُ أنَّهُ لا تنفعُهم الوَلْوَلةُ والحَسْرةُ[1].

بلاغةُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ:

ما كانَ بعيدًا صارَ قريبًا

الإشارةُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إلى اليومِ المُشاهَدِ[2]، والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للقريبِ تنبيهٌ على حضورِ اليومِ، وأنَّهُ قريبٌ منهُم قُرْبَ المُلابِسِ، بعدَما كانوا يُكذِّبونَ بهِ في الدُّنيا، ويرونَهُ بعيدًا مُستبعَدًا، وها هي نفوسُهم تتقطَّعُ فيهِ حَسْرةً وأسًى على هذا التَّكذيبِ والاستبعادِ، كأنَّهم يقولونَ: هذا اليومُ الواقعُ هو الَّذي كنّا لهُ مُستبعِدينَ فيما مضَى. ونظيرُ ذلكَ أنَّ مَنْ خوِّفَ بشيءٍ ولم يلتفتْ إليهِ، ثمَّ عاينَهُ بعدَ ذلكَ؛ فإنَّهُ يقولُ: هذا يومُ الواقعةِ الفلانيَّةِ. وأيضًا اللّهُ تعالى قالَ في سورةِ الفاتحةِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4]، فبيَّنَ أنَّهُ لا مالكَ في ذلكَ اليومِ إلّا اللّهُ، فقولُهم هنا: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا هو اليومُ الَّذي لا حُكمَ فيهِ لأحدٍ إلّا للّهِ، وإنَّما ذكروهُ لِما حصلَ في قلوبِهم مِنَ الخوفِ الشَّديدِ[3].

نُكتةُ إضافةِ اليومِ إلى ﴿ٱلدِّينِ﴾:

الإضافةُ لأدنَى مُلابَسةٍ

إضافةُ اليومِ إلى ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ لأدنَى مُلابَسةٍ، أي: أقلِّ ارتباطٍ، وهو وقوعُ الجزاءِ في هذا اليومِ.

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

الحسابُ الأعظمُ حسابُ يومِ القيامةِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بهِ الحسابُ والجزاءُ المعهودُ الَّذي يكونُ يومَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 100.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 326.

القيامةِ، بحيثُ لا يتبادرُ الذِّهنُ إلى غيرِهِ؛ إذ هو الحسابُ الأكبرُ الأعظمُ الَّذي لا يُدانيهِ حسابٌ آخرُ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ:

مخالطةُ اليقينِ قلوبَ المُنكِرينَ يومَ القيامةِ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾؛ لدلالتِها على الثَّباتِ المناسبِ للمقامِ؛ إذِ المقامُ مقامُ اعترافٍ بالحقِّ، ومقامُ حسرةٍ وندامةٍ على التَّفريطِ في جنبِ اللّهِ، وعلى التَّكذيبِ بيومِ الحَشْرِ. وتدلُّ الجملةُ أيضًا على أنَّهُ قدِ انقلبَ شكُّ المُكذِّبينَ في الدُّنيا إلى يقينٍ راسخٍ ثابتٍ بعدَ معاينةِ ما كانوا بهِ يُكذِّبونَ، وليسَ الخبرُ كالمعاينةِ. هذا إنْ كانَتِ الجملةُ مِنْ مَقولِهم كما هو الظّاهرُ.

تقريعُ المُبْطِلينَ بتقريرِ الحقائقِ

وإنْ كانَتْ مِنْ مَقولِ الملائكةِ أو اللّهِ لهُم فالكلامُ واردٌ على جهةِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ بالإخبارِ بهذهِ الحقيقةِ، فيُلائمُهُ أيضًا الثَّباتُ المُفادُ بالاسميَّةِ.

نُكتةُ فصلِ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

يومُ القيامةِ يومُ جزاءٍ وفصلٍ بينَ العبادِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ؛ للإخبارِ عن يومِ القيامةِ بأنَّهُ يومُ الفصلِ بعدَ الإخبارِ عنهُ بأنَّهُ يومُ الدّينِ. وهذا إنْ كانَ الكلامُ مِنْ مَقولِ الكفرةِ. وأمّا إنْ كانَ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى أو الملائكةِ فالاستئنافُ أظهرُ؛ لاختلافِ القائلِ المُستدعي فصلَ الكلامينِ وتمييزَهما من بعضِهما.

نكتةُ تكريرِ اسمِ الإشارةِ واليومِ:

شـدَّةُ فـزَعِ المُكذِّبينَ يومَ القيامةِ

إنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مِنْ كلامِ الكفرةِ؛ فتكريرُ اسمِ الإشارةِ واليومِ للتَّأكيدِ، والدّلالةِ على ما داخلَهم مِنَ الهَوْلِ والفَزَعِ، بحيثُ صاروا يُردِّدونَ ما يدلُّ على سببِ هَوْلِهم وفزَعِهم، ولزيادةِ التَّحسُّرِ على ما فاتَهم مِنَ التَّصديقِ النّافعِ بهذا اليومِ[1]، ولبيانِ استقلاليَّةِ اتِّصافِ يومِ القيامةِ بكلٍّ مِنَ الوصفينِ، ولو لم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 207.

يُكرَّرَ وقيلَ: (هذا يومُ الدّينِ والفصلِ)... إلخ؛ لربّما ظُنَّ أنَّ الوصفَ الثّانيَ غيرُ مقصودٍ، وإنَّما هو تابعٌ للأوَّلِ. وأمّا إنْ كانَ مِنْ كلامِ اللّٰهِ أو مِنْ كلامِ الملائكةِ فكلٌّ مِن اسمِ الإشارةِ واليومِ تأسيسٌ لا تأكيدٌ.

بلاغةُ إضافةِ اليومِ إلى ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾:

تلبُّسُ يومِ القيامةِ بالفصلِ بينَ الخلائقِ

إضافةُ اليومِ إلى ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ لأدنَى مُلابَسةٍ، أي: أقلِّ ارتباطٍ، وهو وقوعُ الفصلِ بينَ الخلائقِ وبينَ الحقِّ والباطلِ في هذا اليومِ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾:

الفصلُ الأعظمُ ما يكونُ يومَ القيامةِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بهِ الفصلُ المعهودُ بينَ الخلائقِ، وبينَ الحقِّ والباطلِ، الَّذي يكونُ يومَ القيامةِ، بحيثُ لا يتبادرُ الذِّهنُ إلى غيرِهِ؛ إذ هو الفصلُ الأعظمُ الَّذي لا يُدانيهِ فصلٌ آخرُ.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

مُكذِّبُ الحقِّ مذمومٌ

جيءَ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ للتَّوصُّلِ إلى ذمِّ الكفرةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ[1]، وهو تكذيبُهم بيومِ الفصلِ الَّذي لا ينبغي أنْ يَشُكَّ في حقّيَّتِهِ ووقوعِهِ عاقلٌ، وللتَّنبيهِ على علَّةِ ما هم فيهِ مِنَ الخوفِ والفزَعِ ومقاساةِ الشَّدائدِ والأهوالِ؛ إذِ الأمنُ يومئذٍ خاصٌّ بأهلِ الإيمانِ والتَّصديقِ، ولا يظلمُ ربُّكَ أحدًا.

نُكتةُ إدخالِ فعلِ الكونِ الماضي على المضارعِ:

التَّكذيبُ جِبلَّةٌ في الكافرينَ

أُدخِلَ فعلُ الكونِ الماضي على المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (كذَّبتم)؛ للدّلالةِ على رُسوخِ التَّكذيبِ في الكفرةِ، وأنَّهُ كانَ فيهم طَبْعًا وجِبِلَّةً[2]، وأنَّهم كانوا مُستمرّينَ عليهِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 96.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 207.

مُجدِّدينَ لهُ، كما هو مُقتضَى صيغةِ المضارعِ في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وكأنَّ التَّكذيبَ لم يُفارِقْهم يومًا واحدًا في حياتِهم، إلى أنْ ماتوا عليهِ.

معنى الباءِ:

الكفرةُ مُلتبِسونَ بالتَّكذيبِ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ للمُلابَسةِ، فتُفيدُ أنَّهم جعلوا مُعتقَدَهم بيومِ الحشرِ مُلتبِسًا بالتَّكذيبِ والجحودِ.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾:

التَّكذيبُ بيومِ الفصلِ جُرْمٌ عظيمٌ

قُدِّمَ شِبهُ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والإشارةِ إلى عظيمِ تكذيبِ الكفرةِ بيومِ الفصلِ[1]، ولمراعاةِ الفاصلةِ.

نُكتةُ فصلِ ﴿ٱحۡشُرُواْ﴾:

الانتقالُ لحالٍ آخرَ مِنْ أحوالِ الكفرةِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ موجَّهٌ لمُخاطَبٍ جديدٍ، ومَسوقٌ لغرضٍ آخرَ، وهو بيانُ حشرِ الكفرةِ وأزواجِهم ومعبوديهم، فلا يَصلُحُ للتَّعلُّقِ بشيءٍ ممّا قبلَهُ.

تعيينُ المُخاطِبِ والمُخاطَبِ:

الملائكةُ مأمورونَ بحشرِ الكفرةِ ومعبوديهم

الظّاهرُ أنَّ الآمرَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هو اللهُ تعالى صاحبُ الأمرِ والنَّهيِ والسُّلطانِ المُطلَقِ في ذلكَ اليومِ العظيمِ، والمأمورَ هم الملائكةُ الموكَّلونَ بالحسابِ والجزاءِ[2].

نُكتةُ الإيجازِ بحذفِ القولِ:

التَّعجيلُ بمَساءةِ المشركينَ

في قولِ الباري ﷻ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إيجازٌ بحذفِ القولِ؛ لأنَّ ﴿ٱحۡشُرُواْ﴾ أمرٌ، وهو يقتضي آمِرًا، أي: ناطقًا بهِ، فهذا مَقولٌ لقولٍ محذوفٍ[3]، والتَّقديرُ: (قلنا احشُروا)، أو بحذفِ النِّداءِ؛ إذ المُنادَى هو الملائكةُ على الظّاهرِ، والتَّقديرُ: (يا ملائكةُ احشُروا). ونُكتةُ هذا الإيجازِ: بيانُ سرعةِ إذلالِ المشركينَ، مِنْ غيرِ تنفيسٍ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 207.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 207.

دلالةُ الأمرِ بالحشرِ:

سوءُ المصيرِ مآلُ المشركينَ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل سياقُ العظَمةِ والكبرياءِ والغضبِ يقتضيهِ، فيُفيدُ الكلامُ أنَّهُ ينبغي على الملائكةِ حشرُ الظّالمينَ ومَنْ عُطِفَ عليهم مِنْ أماكنِهم المختلفةِ إلى موقفٍ واحدٍ. والغرضُ مِنْ هذا الأمرِ تهيئةُ المشركينَ للسَّيرِ إلى مصيرِهم البائسِ الَّذي ينتظرُهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالحشرِ:

إذلالُ المشركينَ بجمعِهم بعدَ تفرُّقِهم

عُبِّرَ بالحشرِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لدلالتِه على جمعِ الكفرةِ المُتفرِّقينَ إلى مكانٍ واحدٍ[1]، معَ كُرْهٍ وذُلٍّ وصَغارٍ[2]؛ لأنَّهُ حاصلٌ لهُم بفعلِ غيرِهم، ولو أُريدَ تكريمُهم بعضَ التَّكريمِ لأُمِروا بالاجتماعِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

الكفرةُ مُستحِقّونَ لِما أُعِدَّ لهُم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ ظلمَ الكفرةِ واقعٌ مُتيقَّنٌ؛ لأنَّهم أصرّوا عليهِ في حياتِهم الدُّنيا، وماتوا عليهِ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ استحقاقِهم لِما أُعِدَّ لهُم يومَ القيامةِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الكفرُ وبالٌ على صاحبِهِ يومَ القيامةِ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لذمِّ المشركينَ بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وهو ظلمُهم المرادُ بهِ الكفرُ، وللتَّنبيهِ على علَّةِ حشرِهم وإذلالِهم، وهي الكفرُ[3]، وللإشارةِ أيضًا إلى اشتهارِهم بهذا الوصفِ، حتَّى كأنَّ كلَّ أحدٍ يعلمُ اتِّصافَهم بهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 208.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 208.

معنى الواوِ في ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾:

اقترانُ أهلِ السّوءِ مِنْ جملةِ العذابِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ بمعنى (معَ)، والأزواجُ مفعولٌ معَهُ، أي: معَ أزواجِهم، أو للعطفِ، والأزواجُ معطوفٌ على الاسمِ الموصولِ[1]. وفي المعيَّةِ زيادةُ فائدةٍ، وهي بيانُ الاقترانِ في الحشرِ بينَهم وبينَ أزواجِهم.

بلاغةُ ذِكْرِ الأزواجِ:

الطُّيورُ على أشكالِها تقعُ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالأزواجِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ القُرَناءُ والأشباهُ، وذلكَ بأنْ يُضَمَّ عندَ الأمرِ بالحشرِ كلُّ شكلٍ وصاحبٍ مِنَ الكفرةِ إلى شكلِهِ وصاحبِهِ[2]؛ فعابدُ الصَّنمِ معَ عَبَدَةِ الصَّنمِ، وعابدُ الكوكبِ معَ عَبَدَتِهِ... إلخ[3]؛ ليُبكِّتَ بعضُهم بعضًا، ويلعنَ بعضُهم بعضًا، ويشتمَ بعضُهم بعضًا[4]، وليكونَ عقابُهم واقعًا عليهِم حالَ الاجتماعِ، كما كانَتْ عبادتُهم لِما دونَ اللّهِ في الدُّنيا على هيئةِ الاجتماعِ أيضًا.

كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ

وإنْ كانَ المرادُ بالأزواجِ الحلائلَ فالمقصودُ الأزواجُ الموافقاتُ لهُم في الإشراكِ، وذِكْرُهنَّ إبلاغٌ في الوعيدِ والإنذارِ؛ لئَلّا يَظنّوا أنَّ النِّساءَ المشركاتِ لا تَبِعَةَ عليهنَّ[5]؛ فكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ.

معنى الواوِ في ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾:

المعبودُ الباطلُ محشورٌ أيضًا

الواوُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ للعطفِ، وفي هذا العطفِ مبالغةٌ في بيانِ أنَّ الحشرَ يشملُ العابدَ والمعبودَ الباطلَ، ولا يقتصرُ على العابدينَ، وذلكَ يُنبئُ عن كمالِ اقتدارِهِ ﷻ، وعمومِ سَخَطِهِ على الشِّركِ وأهلِهِ.

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 299.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 468.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 8.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 208.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 101.

سرُّ حشرِ المعبودينَ مِنْ دونِ اللهِ:

غَمُّ المشركينَ يومَ القيامةِ سرمديٌّ

يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ على حشرِ المعبودينَ مِنْ دونِ اللّهِ تعالى، وحشرُهم زيادةٌ في تحسيرِ العَبَدَةِ وتخجيلِهم[1]؛ لأنَّهم كلَّما رأوْا معبوديهم معَهم في النّارِ عَلِموا أنَّ سببَ عذابِهم السَّرمديِّ هو هؤلاءِ، فيزدادونَ حسرةً وندامةً على ما فاتَ منهُم مِنَ المَيْلِ عن الحقِّ الثّابتِ بأبهرِ الآياتِ، إلى الأباطيلِ الَّتي ليسَ لهُم للعُكوفِ عليها دليلٌ غيرُ التَّقليدِ للآباءِ[2].

دلالةُ الموصولِ:

المُحسِنونَ مُبعَدونَ عن النّارِ

لفظُ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهو عامٌّ في كلِّ معبودٍ، حتَّى الملائكةُ والمسيحُ وعزيرٌ، لكنَّهُ خُصَّ منه البعضُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101][3]، فهؤلاءِ لا يُحشَرونَ معَ عَبَدَتِهم، وهذا إنْ أُريدَ بـ (ما) ما يشملُ العاقلَ وغيرَهُ، وإنْ أُريدَ بها غيرُ العقلاءِ فقط فلا تخصيصَ[4].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

قلَّةُ شأنِ المعبودينَ مِنْ دونِ اللهِ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؛ لإظهارِ التَّهاونِ بالمعبودينَ مِنْ دونِ الباري ﷻ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ الكبرياءِ، وبيانِ تفرُّدِهِ سبحانَهُ بالمُلْكِ في ذلكَ اليومِ العظيمِ.

نُكتةُ دخولِ فعلِ الكونِ الماضي على المضارعِ:

مواظبةُ الكفرةِ على عبادةِ الأصنامِ

أُدخِلَ فعلُ الكونِ الماضي على المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (وما عَبَدوا)؛ للدّلالةِ على أنَّ الكفرةَ كانوا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 78.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 241.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 8، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 265.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 103.

مواظبينَ على عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ[1]، مُستمرّينَ عليها، مُجدِّدينَ لها، حتَّى صارَتْ كالجِبِلَّةِ فيهِم؛ رجاءَ أنْ يكونَ فيها نفعٌ لهُم، ففي تذكيرِهم بذلكَ في هذا المقامِ زيادةٌ لحسرتِهم حينَ يرونَ هذهِ الأصنامَ محشورةً معهم، لا تملكُ لهُم ضَرًّا ولا نفعًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن دُونِ﴾:

سَفَهُ رأيِ عَبَدَةِ الأوثانِ

عُبِّرَ بـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ إلى سُفولِ رتبةِ معبوداتِهم[2] عن أدنى رتبةٍ مِنْ رُتَبِ المُستجمِعِ لصفاتِ الكمالِ ﷻ، أو للدّلالةِ على إشراكِهم باللّهِ تعالى؛ لأنَّ معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معَ اللّهِ؛ لأنَّ كلمةَ ﴿دُونِ﴾ تُؤذِنُ بالحيلولةِ؛ لأنَّها بمعنى وراءَ، فإذا قالوا: عَبَدَهُ مِنْ دونِ اللّهِ، فالمعنى: أنَّهُ جعلَهُ بعضَ حائلٍ عن اللّهِ، أي: أشركَهُ معَ اللّهِ؛ لأنَّ الإشراكَ يستلزمُ الإعراضَ عن اللّهِ في أوقاتِ الاشتغالِ بعبادةِ ذلكَ الشَّريكِ، أو للتَّنبيهِ على أنَّهم عَبَدوا الأوثانَ المتَّصفةَ بالخِسَّةِ والضَّعفِ والهَوانِ، مُتجاوِزينَ عبادةَ اللّهِ تعالى. وأيًّا ما كانَ، ففي هذا التَّعبيرِ مِنْ تسفيهِ عقولِهم وآرائِهم ما لا يَخفَى.

معنى ﴿مِن﴾:

أشـدُّ صـوَرِ ظُـلـمِ النَّفسِ الإعـراضُ الكلِّيُّ عـن المستحِقِّ للعبادةِ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صِلةٌ لتأكيدِ نفي عبادةِ اللّهِ تعالى بالكليّة، أي: لم تقع منهم أدنى عبادةٍ للّه تعالى، وتمحّضت عبادتُهم خالصةً لمعبوداتهم التي اتخذوها باطلًا.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

شناعةُ ظلمِ مَنْ عبدَ غيرَ اللهِ

جيءَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لزيادةِ التَّوبيخِ لعَبَدةِ الأوثانِ، حيثُ تركوا عبادةَ مَنْ يستحقُّ العبادةَ، وأشركوا بِهِ ما لم يُنَزِّلْ بِهِ سلطانًا، أي: مِنْ دونِ الَّذي تفرَّدَ بنُعوتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 208.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 208.

العظَمةِ، وصفاتِ الكمالِ والجلالِ[1]، وهم بذلكَ واضعونَ للعبادةِ في غيرِ محلِّها، ولذلكَ وُصِفوا بالظُّلم.

دلالةُ الفاءِ:

خُسرانُ المشركينَ ظاهرٌ مُحتَّمٌ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ للعطفِ، وهي تفيدُ التَّعقيبَ، وفيها إشارةٌ إلى سرعةِ الأمرِ بالمشركينَ ومَنْ معَهم إلى النّارِ عَقِبَ ذلكَ الحشرِ[2]؛ لأنَّ خُسْرانَهم ظاهرٌ، وحُجَّتَهم داحضةٌ عندَ ربِّهم؛ إذِ المشركونَ لا يُرجَى لهُم فلاحٌ، ولا يُؤْذَنُ لهُم فيَعتذرونَ.

دلالةُ الأمرِ بالهدايةِ:

سوءُ مآلِ المشركينَ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، فيُفيدُ الكلامُ أنَّهُ يجبُ على الملائكةِ هدايةُ المشركينَ ومَنْ معَهم إلى صراطِ الجحيم. والغرضُ مِنَ الأمرِ بالهدايةِ دلالةُ المشركينَ على مصيرِهم ومآلِهم؛ ليكونَ ذلكَ أعظمَ في نكدِهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في الهدايةِ:

مَنْ فرَّطَ بهدايةِ الخيرِ استوجبَ هدايةَ الشَّرِّ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ معناهُ في الأصلِ: فعرِّفوهم طريقَ النّارِ حتَّى يسلكوها، وفي التَّعبيرِ عن التَّعريفِ بالهدايةِ تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهُم[3]. ووجهُ التَّهكُّمِ: أنَّ الهدايةَ بالمعنى اللُّغويِّ هي التَّعريفُ والدّلالةُ بلُطْفٍ، ولذلكَ تُستعمَلُ في الخيرِ، واستعمالُها في الشَّرِّ هنا واردٌ على سبيلِ التَّهكُّمِ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 102.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 39.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 242، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 102.

دلالةُ ﴿إِلَىٰ﴾:

غايةُ سعي المشركينَ عذابُ الحريقِ

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ يدلُّ على الغايةِ، فيُفيدُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أنَّ غايةَ كلِّ ما سبقَ مِنَ الحشرِ والهدايةِ بلوغُ المشركينَ محلَّ إقامتِهم السَّرمديَّ، وهو النّارُ، ويا لَخسارةِ مَنْ كانَتْ نهايةُ سعيِهِ عذابَ الحريقِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في الصِّراطِ:

المشركونَ في طريقِ العذابِ والهلاكِ

الصِّراطُ في الأصلِ هو الطَّريقُ الَّذي لا اعوجاجَ فيهِ، وفي التَّعبيرِ بهِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تهكُّمٌ بالمشركينَ[1]؛ إذ إطلاقُهُ يوهِمُ أنَّهم يسيرونَ إلى خيرٍ مُذلَّلٍ طريقُهُ، والواقعُ أنَّهم يسيرونَ إلى هلاكِهم وخُسْرانِهم.

نُكتةُ الإضافةِ:

كثرةُ حسرةِ المشركينَ وعويلِهم

في إضافةِ الصِّراطِ إلى الجحيمِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بيانُ أنَّ المشركينَ يسيرونَ يومَ القيامةِ في طريقٍ عُرِفَ واشتهرَ بأنَّهُ يقودُ إلى الجحيمِ، وفي ذلكَ فَتٌّ في عَضُدِهم، وزيادةٌ لحسرتِهم وعويلِهم؛ إذ يوقنونَ أنَّهُ سيُؤدّي بهِم إليها[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالجحيمِ:

نارُ الآخرةِ شديدةُ التَّوقُّدِ بعيدةُ القَعْرِ

عُبِّرَ بالجحيمِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ دونَ غيرِها مِنْ أسماءِ نارِ الآخرةِ؛ للدّلالةِ على شدَّةِ توقُّدِ النّارِ، وبُعْدِ قَعْرِها، وتراكمِ بعضِها فوقَ بعضٍ، واشتمالِها على داخليها وتضايقِها، وفيهِ تهكُّمٌ بهِم في كونِهم على غيرِ ما كانوا عليهِ في الدُّنيا مِنَ التَّناصرِ والتَّعاضدِ[3].

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 265، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 206.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 209.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 209.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾:

شأنُ نارِ الآخرةِ عظيمٌ

الجحيمُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ علَمٌ بالغلَبةِ على نارِ الآخرةِ، فيكونُ التَّعريفُ فيها للدّلالةِ على كمالِ الجنسِ في المُعرَّفِ، وأنَّهُ فائقٌ في جنسِهِ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾:

كثرةُ أهوالِ يومِ القيامةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، والواوُ لمُطلَقِ الجمعِ، ولا تقتضي ترتيبًا، فلا يَرِدُ أنَّ وقوفَهم للسُّؤالِ مُقدَّمٌ على سَوْقِهم في طريقِ الجحيمِ، وظاهرُ النَّظمِ عكسُهُ. ونُكتةُ مخالفةِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ للتَّرتيبِ الواقعيِّ: التَّنبيهُ على شدَّةِ هَوْلِ الهدايةِ إلى الجحيمِ[1]، ولذلكَ قُدِّمَتْ في الذِّكرِ. ويحتملُ أنْ يكونَ لهم مواقفُ مُتعدِّدةٌ[2]، والتَّرتيبُ حينَئذٍ على ظاهرِهِ، ويكونُ في الكلامِ تنبيهٌ على كثرةِ أهوالِ يومِ القيامةِ؛ إذ لا يخلو موقفٌ منها مِنْ هَوْلٍ.

دلالةُ صيغةِ الأمرِ:

وجوبُ وقفِ المشركينَ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، فيُفيدُ الكلامُ أنَّهُ يجبُ على الملائكةِ وقفُ المشركينَ للسُّؤالِ، والغرضُ مِنْ ذلكَ: توبيخُهم[3] وسؤالُهم، بحسبِ ما يدلُّ عليهِ سياقُ الكلامِ.

نُكتةُ فصلِ ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾:

وَقْفُ المشركينَ لسؤالِهم وتوبيخِهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ تعليليٌّ لهُ[4]، كأنَّهُ لمّا أُمِرَ الملائكةُ بوقفِهم، سألوا: لمَ نَقِفُهم؟ فأُجيبَ: بأنَّ وقفَهم لأجلِ أنْ يُسألوا سؤالَ توبيخٍ وتبكيتٍ.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 242.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 8، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 266.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 469، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 97.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 210.

نُكتةُ توالي المؤكِّداتِ:

المـجـرمـون موقوفونَ يقينًا يومَ القيامةِ

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للدّلالةِ على أنَّهُ أمرٌ ثابتٌ مُتحقِّقٌ يقينًا لا يُشَكُّ فيهِ؛ لأنَّ إخبارَ اللّهِ تعالى واقعٌ لا محالة، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في تهويلِ الخَطْبِ وتفظيعِه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ:

طولُ العذابِ النَّفسيِّ للمشركينَ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على ثباتِ هذا الأمرِ وتحقُّقِه، وذلكَ يمدُّ مقامَ التَّهويلِ، فالصّيغةُ توحي برُسوخِ الأمرِ.

نُكتةُ حذفِ المسؤولِ عنهُ:

العبدُ مسؤولٌ عن كلِّ شيءٍ يومَ القيامةِ

حُذِفَ المسؤولُ عنهُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾، وجيءَ بهذهِ الجملةِ المُطلَقةِ الجامعةِ؛ لجمعِ الهمومِ على المشركينَ؛ لتذهبَ أوهامُهم كلَّ مذهبٍ، فلا تبقَى حسرةٌ إلّا حضرَتْهُم، ولا مصيبةٌ إلّا علَتْ قلوبَهم، فإنَّ المكلَّفَ كلَّهُ ضعفٌ، وموقفُ السُّؤالِ عليه أعظمُ حسرةٍ[1]. وقد ذَكرَ جمهورُ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ أنَّهم يُسألونَ عن عقائدِهم وأعمالِهم، ويوقَفونَ على قُبْحِها[2]، وجوَّزَ بعضُهم أنْ يكونَ السُّؤالُ ما ذُكِرَ بعدَ ذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ [الصّافات: 25]، أي: أنَّهم يُسألونَ توبيخًا لهُم[3].

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الزَّجْرةُ والصَّيحةُ:

الزَّجرةُ أنسبُ بمقامِ إظهارِ القدرةِ والعظمةِ

الزَّجْرةُ في اللُّغةِ: الصَّيحةُ الَّتي يُزجَرُ بها، كزَجْرِ النَّعَمِ والإبلِ عندَ الحثِّ[4]، والصَّيحةُ: الصَّوتُ العالي[5]، وقدِ اختيرَتِ الزَّجْرةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 210.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 469.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 329، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 102.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 326.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صيح).

هنا، وعُبِّرَ بها عن النَّفخِ في الصّورِ؛ لأنَّها معَ دلالتِها على عُلوِّ الصَّوتِ تدلُّ على زَجْرِ الموتى عن الرُّقودِ في القبورِ، وتحثُّهم على القيامِ منها، والحضورِ في موقفِ القيامةِ[1]، فهي أنسبُ بمقامِ إظهارِ القدرةِ والعظَمةِ.

يومُ الدّينِ ويومُ الفصلِ:

المؤمنونَ أهلُ الإحسانِ، والمشركونَ أهلُ الإساءةِ

يومُ الدّينِ ويومُ الفصلِ اسمانِ ليومِ القيامةِ، يدلُّ الأوَّلُ منهما على المجازاةِ على الأعمالِ[2]، ويدلُّ الثّاني على الفرقِ بينَ الخَلْقِ، وعلى التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ[3]، وقدِ اختارَ المشركونَ التَّعبيرَ بيومِ الدّينِ؛ لخوفِهم مِنْ سوءِ الجزاءِ، أو لأنَّهم كانوا في الدُّنيا يُخبَرونَ بالبعثِ والجزاءِ، فلمّا رأوا البعثَ أيقَنوا بالجزاءِ بعدَهُ، واختيرَ في الجملةِ الثّانيةِ يومُ الفصلِ تقريعًا لهُم؛ لأنَّهم يحسبونَ أنَّهم مُحسِنونَ، فأُخبِروا بأنَّ هذا اليومَ يومُ الفصلِ بينَ المُحسِنِ والمُسيءِ، فاليومَ يظهرُ أنَّهم أهلُ الإساءةِ، وأنَّ المؤمنينَ الموحِّدينَ الَّذينَ كانوا يستهزؤونَ بهم هم أهلُ الإحسانِ والإكرامِ. وهذا على أنَّ الجملةَ الثّانيةَ مِنْ كلامِ اللهِ أو مِنْ كلامِ الملائكةِ، بحسب ما هو الظّاهرُ[4].

السَّبيلُ، والصِّراطُ، والطَّريقُ:

طريقُ المشركينَ إلى جهنَّمَ مستقيمٌ قاصدٌ

الطَّريقُ: ما يُسلَكُ مطلَقًا. والسَّبيلُ: ما هو معتادُ السُّلوكِ، ولذلكَ يُستعمَلُ كثيرًا في الطَّريقِ الَّذي فيهِ سهولةٌ، وتكثرُ إضافتُهُ في القرآنِ إلى لفظِ الجلالةِ؛ إشارةً إلى سهولةِ الوصولِ إليهِ سبحانَهُ. والصِّراطُ: ما لا اعوجاجَ فيهِ يمنةً ويسرةً[5]. وقدِ اختيرَ هنا لدلالتِهِ على أنَّ طريقَ المشركينَ إلى جهنَّمَ مُمهَّدٌ، لا اعوجاجَ فيهِ، بل هو معلومُ النِّهايةِ، يُزاد على ذلكَ ما سبقَ مِنْ نكتةِ التَّهكُّمِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 326، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 72.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 39، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 39.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 40، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 77.
(5) محمد محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 281، 284.

﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦﴾

[الصافات: 25 - 26]

۞ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقال من مشهد الإيقاف للمساءلة إلى ما فيه من التقريع والتبكيت

لمّا طلبَ المولى تعالى إيقافَهم للسُّؤالِ عمّا أجرَموا، وكذَّبوا، وخلَطوا الباطلَ بالحقِّ، وكانَ مِن الطَّبيعيِّ أنْ يُثارَ المُخاطَبونَ لسَماعِ السُّؤالِ، وتَشرئِبَّ الأذهانُ مُصغيةً له؛ بيَّنَ النَّظمُ طبيعةَ السُّؤالِ الَّذي يَنتظرُهم، وكشفَ عن ذلك الأمرِ المُجمَلِ بالتَّفصيل، ولمّا كان السُّؤالُ مُنبئًا عن عَجزِهم في ذلك اليوم عنِ التَّناصُرِ فيما بينَهم؛ أوضحَ النَّظمُ حقيقةَ موقفِهم من السُّؤالِ ببيانِ عَجْزِهم واستسلامِهم لأمرِ اللّه؛ إذ لا يُمكِنُهم دفعُ ما هُم فيه من مِحَنٍ وآلام[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنَاصَرُونَ﴾: (نصر) يدلُّ على إتيانِ الخيرِ، ونصرَ اللّهُ المُسلمينَ: آتاهُم الظَّفرَ على عدوِّهم، وهو المعونةُ والتَّأييدُ[2]، وليس النَّصرُ أيَّ خيرٍ أو أيَّ معونةٍ، بل معونةٌ للمظلوم[3]، فهو ضدُّ الخِذلان، وأصلُها الزّيادةُ والإمدادُ بالقوَّة، كما تَمُدُّ النَّواصِرُ الأوديةَ والتِّلاعَ بالماء، وكما يَمُدُّ الغيثُ الأرضَ، وتتَّجهُ الزّيادة بحرفِ الجرِّ، فـ(نصرَ على) بمعنى: أعانَ وغلبَ، ومنه قولُه سبحانه: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: 14]، و(نصرَ مِن) بمعنى: خلَّصَ، وأنقذَ، ومنه قولُه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 329، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 210، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 102.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

(3) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (نصر).

تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ [هود: 30][1]، ومعنى التناصر في الآية: الإعانة والإنقاذ.

2) ﴿مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾: (سلم) يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافية، فالسَّلامة: هي "التَّعرّي من الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنة، قال تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: 89]؛ أي: مُتعَرٍّ مِنَ الدَّغَلِ، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظّاهر"، وسُمّيَتِ الجنَّةُ دارَ السَّلام، فلا نقصَ فيها[2]، والسِّلْمُ ضدُّ الحَرْبِ، ومن ذلك: "أسلمَ الشَّيءَ إليه: دفعَهُ إليه، وقريبٌ منه معنى الانقياد؛ لأنَّه تسليمُ نَفْسٍ، ومنه تسليمُ النَّفْسِ للّه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: 83]، أي: استسلمَ، وانقادَ[3]، ومعنى ﴿مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ في الآية: مُنقادونَ خاضِعونَ دونَ مُنازعةٍ ولا مُدافعةٍ[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

أمــامَ الـخـالـقِ الـقـاهِـر تنتفي الغلبةُ والتَّناصُر

حُشِرَ الظّالمونَ وأزواجُهم معَ آلهتِهم الَّتي يَعبُدونها من دونِ اللّه، فصدرَ الأمرُ بأخْذِهم إلى سواءِ الجحيم، وقبلَ إنفاذِ العذابِ فيهم أوقِفوا للمُساءلة، فما الَّذي جعلَكُم في هذا اليوم عاجِزينَ عن التَّناصُرِ فيما بينَكم، مع أنَّكم كُنتم تَزعُمونَ في الدُّنيا أنَّكم جميعٌ مُنتصِرٌ؟ ثمَّ أضربَ النَّظمُ عمّا تقدَّم بعدَ وُجومِهم عن الجواب وعَجزِهم عن الحراك، فأخبرَ عن حالِهم بأنَّهم ليسوا في هذا اليوم بقادرينَ على شيءٍ، بل هم خاضِعونَ مُنقادونَ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصل: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سلم).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 329، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 78.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ وغرضه البلاغي:

التَّعجيبُ والتَّعجيزُ والتَّقريع جزاءُ التَّكبُّرِ والشُّعور بالعزَّة والغلبة

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالحرفِ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، وهو دالٌّ على الاستفهام التَّعجيبي ممّا آلَ إليه أمرُ هؤلاءِ الظّالمين، أي: ماذا أصابَكُم حتَّى صِرتُم لا تَتناصرون؟[1] وفي ذلك تعجيزٌ لهم حينَ يُقابَلُ حالُهُم بما كانوا عليهِ منَ التَّكبُّرِ والشُّعورِ بالعِزَّةِ والغلَبة، فقد قالوا: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾ [القمر: 44][2]، فصارَ الاستفهامُ تقريعًا وتوبيخًا؛ إذ ادَّعَوا ما ليسوا أهلًا له[3]، ومِنَ المعلوم أنَّ (ما الاستفهاميَّةَ) يُطلَبُ بها بيانُ الأمرِ المُبهَم المجهول الحقيقة، وإن كان معلومًا للسّائلِ إلّا أنَّه يُنزِّلُ السّائلُ منزلَةَ مَن لا يعلَمُ الحقيقةَ؛ لغرضِ إظهارِ عَجزِهم مع بيانِ سوءِ مَوقفِهم وحالِهم الَّذي يتطلَّبُ التَّناصُرَ والتآزُرَ، وفي ذلك التعجيب من التفاوت الشديد بين ادعائهم العزّة وبين واقعهم من الخذلان[4].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى الخطاب:

خطابُ التَّوبيخ والتَّهكُّمِ دليلُ شِدَّةِ المواجَهة

التَفتَ النَّظمُ عن الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 24]، إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾، عند الحديثِ مَعَ المشركينَ، وذلك لمناسبةِ المُخاطبة هنا مع مقصَدِ التَّقريعِ والتَّوبيخ، فما وُقِّفوا إلّا ليُسألوا، وللمُخاطبةِ بالسُّؤالِ أثرُها البالغُ في التَّقريع والتَّوبيخ ما لا يكونُ بالحديث عنهم، وهُم غائبونَ[5].

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمۡ﴾:

الخِذلانُ مختصٌّ بالظّالمينَ دون غيرهم

جُرَّ الضَّميرُ في قولِه: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ باللّام، وكلٌّ مِنَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 102.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 469.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 210.

الجارِّ والمجرورِ مُتعلِّقٌ بمحذوف خبر، والتَّقديرُ: (ما الَّذي استقرَّ لكم)، وهي لامُ الاختصاص، وتدلُّ على أمرٍ اختصَّ بالظّالمينَ أوقعَهم في تلك الحالِ، أي: أيُّ شيءٍ اختصَّ بكم؟[1] وأيُّ شيءٍ حصلَ لكم[2]، فهو مانعٌ خاصٌّ بهؤلاءِ الظّالمين، وفي ذلك تقريعٌ لهم أنْ مُنِعوا - وهم أصحابُ المَنَعةِ - بأمرٍ خاصٍّ بهم دونَ غيرهم.

تعيين مرجع الضمير في شبهِ الجُملة ﴿لَكُمْ﴾:

أشدُّ الخَيبةِ ادِّعاءُ الذَّليلِ العِزَّةَ

عادَ الضَّميرُ في شبهِ الجُملة ﴿لَكُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ إلى الَّذينَ حُشِروا، ووُقِفوا للمُساءلة، وهُم الظّالمونَ وأزواجُهم وما يعبدونَ، وفي ذلك العودِ إلى الجميع - الَّذين كانوا مُتناصرينَ في الدُّنيا على الضَّلال معَ عَجزِهم اليومَ عن ذلك - بيانُ خَيبتِهم وفشلِ مَسعاهُم، وإظهارُ ظنِّهم العزَّةَ وواقعُهم الذُّلُّ والهَوان[3]، والنَّظمُ الاستفهاميُّ آثرَ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على ثبوتِ ما يلزَمُهُ منَ التَّعجيبِ والعَجْزِ والهَوان وسوءِ الحالةِ الَّتي آلوا إليها.

فائدة النفي بأداة ﴿لَا﴾:

الظالمون يوم القيامة لا يتناصرون

جاءَ النَّفيُ في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بـ ﴿لَا﴾ النّافية الدّالَّة على نفي الحال والاستقبال معًا، دون أن يُقال: (ما لكم غير متناصرين) ونحو ذلك، لبيان الحال والفعل الذي هم عليه، فهو نفي للفعل بأكمله، فلا تناصر فيما بينهم، مع نفي عموم أنواع النُّصرةِ بينهم حالًا ومآلًا، وفي ذلك إشارةٌ إلى تمام عَجْزِهم عن فعلِ أيِّ شيءٍ مع الحاجةِ الماسَّة، فما الَّذي جعلَكُم في هذا اليوم عاجزينَ عن التَّناصُرِ فيما بينكم؟[4]

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 210.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 78.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ المُضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ الدالِّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، ممّا يُثبِتُ عَجْزَهم عن التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ على سبيلِ الاستمرار، كما أفادَتْ صيغةُ (التَّفاعُل) الموضوعةُ للدَّلالة على المُشاركةِ؛ لبيانِ أنَّهم عاجزونَ عن النُّصرةِ في حالِ التَّشارُكِ، فهُم عاجزونَ عن نُصرةِ أنفسِهم في حالِ الانفراد من باب الأَوْلى، وفي ذلك إشارةٌ إلى بُطلان أيَّةِ مُحاولةٍ للانتصارِ مَعَ تصويرِهم لأنفسِهم نُصرةَ بعضِهم بعضًا، وأنَّهم أولو الجدِّ والشَّكيمةِ والنَّخوةِ والحَميَّةِ[1].

عجزُ مُدَّعي التَّناصُرِ عن النُّصرة مُنتهى الخِذلانِ والخَسرة

توجيهُ القراءاتِ في ﴿تَنَاصَرُونَ﴾ وبلاغتها:

جاءَتْ جملةُ: ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بقراءتين مُختلفتَين، فقرأها الجمهورُ بتخفيفِ التّاء وحذفِ إحدى التّاءين، والأصلُ: تَتَناصَرونَ، في حين قرأ البزّيُّ عن ابنِ كثير بخلف عنه وأبو جعفر بتشديدِ التّاء ﴿لَا تّنَاصَرُونَ﴾، وذلك بإدغامِ إحدى التّاءينِ في الأخرى[2]، وكأنَّ في قراءة التَّخفيف إشارةً إلى عجلةِ النُّصرةِ حتّى تخفَّفَ النَّصرُ مِنَ التّاءِ الأولى، في حين كانَ في قراءةِ التَّشديدِ إشارةٌ إلى التَّمكُّثِ وإعمالِ الحيلةِ[3]، ويمكنُ القولُ بأنَّ التَّخفيفَ يشيرُ إلى نفيِ أقلِّ درجاتِ التَّناصُرِ فيما بينَهم، في حين يُشيرُ التَّشديدُ إلى صعوبةِ التَّناصُرِ فيما بينَهُم وتعسُّرِه عليهِم.

لا عجلةَ بالنَّصر بدت من الظالمين ولا تمكُّث

دلالةُ جملةِ الحالِ ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾:

وقعتْ جملةُ النَّفيِ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ حاليَّةً؛ للدَّلالة على محلِّ الاستفهامِ في جملةِ: ﴿مَا لَكُمۡ﴾؟[4] أي: فأيُّ شيءٍ

حالُ الظالمين مَحلُّ تعجيب، وتَجبُّرُهم يستوجبُ التَّقريع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 210.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 234، والقاضي، شرح طيبة النشر: 2/ 93.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 210.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.

حصلَ لكُم، وشغلَكُم، وألهاكم عن حالِ كونِكم لا تناصرونَ؟[1] فالسُّؤالُ ليسَ عن عموم حالِهم، ولكنْ لأجلِ حالٍ خاصَّةٍ، وهي عدمُ التَّناصُرِ معَ شدَّة الحاجةِ والضّيق، فالمسؤولُ عنهُ في الحقيقةِ هو عدمُ التَّناصُر، لكنْ جُعِل حالًا؛ لبيان أنَّ عدمَ التَّناصُرِ من عَجَبِهِ انتقلَ السُّؤالُ إليهم، فصاروا هم محلَّ العجَبِ، فلم يقلِ النَّظمُ: (لِمَ لا تتناصرون؟)؛ لأنَّ غرابةَ عدمِ التَّناصُرِ وعجبَه جعلتِ السُّؤالَ يتوجَّهُ إلى غرابتِهم أنفسَهُم حالَ عدمِ التَّناصُر.

فائدةُ الإضرابِ بـ﴿بَلۡ﴾:

الظالمون يومئذٍ عاجزون عن مجرد الجواب

آثرَ النَّظمُ الجليلُ الإضرابَ عن الجوابِ بـ: (أنَّهم لا يتناصَرونَ)[2] إلى التَّعبيرِ بـ﴿بَلۡ﴾ الإضرابيَّة، لإبطالِ إمكانِ التَّناصُرِ بينَهم، فكانَ بيانُ حقيقةِ الموقِف والحالِ أبينَ من الجوابِ في التَّعبير؛ إذ يلزمُ من الاستسلامِ أنَّهم عاجزونَ عن النُّصرة، بل هم عاجزونَ عن الجوابِ أيضًا، وفي ذلك تهكُّمٌ بهم بعدَ استفهامِ التَّعجيز[3]؛ إذ ليسوا غيرَ مُتناصرينَ فحسبُ، بل هم مُستسلِمونَ لا يَجدونَ حيلةً أصلًا.

نكتةُ الالتفاتِ مِنَ الخطابِ إلى الغيبة:

الإبعادُ أمارةُ زيادةِ الغَيظ من الظالمين

التفتَ النَّظمُ عن أسلوبِ الخطابِ للظّالمينَ الواقعِ بالسُّؤال: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ إلى التَّحدُّثِ عنهم بأسلوبِ الغَيبة، فقال: ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾، فلم يقل: (بلْ أنتم اليومَ مُستسلمون)، ونكتةُ ذلك هي بلوغُ هؤلاءِ الظّالمين درجةً من العَجزِ التّامِّ حتى أُبعِدوا عن الخطاب، وتمَّ الالتفاتُ عنهم وإحلالُهم مَحَلَّ الغَيبةِ المُؤذِنة بالإبعاد[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى مزيدِ الغيظِ عليهم[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 210.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 244.

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّمير ﴿هُمۡ﴾:

العجزُ والاستسلامُ مخصوصٌ بالظّالمين

عبَّرَ النَّظمُ عن الظّالمينَ العاجزينَ عنِ التَّناصُرِ والانتصارِ لأنفُسِهم بالضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾، ونكتةُ ذلك التَّخصيصُ للاستسلامِ بهم بمعونةِ أداةِ الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾، ومن المعلوم أنَّ الضَّميرَ عندما يعودُ إلى الذَّوات الموصوفةِ بالظُّلم والتَّكذيبِ يُرادُ به تعليلُ حُكمِ الخبر، أي: الاستسلام[1]، فيكونُ ذكرُ المسنَد إليه دالًّا على علَّةِ حُكمِ الخبر، وليكونَ الخبرُ نتيجةً لتلك العلَّة.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

يومُ الحساب لحظاتُ ضيقٍ ونَدامةٍ

جاءَ التَّعبيرُ في الآيةِ بلفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾؛ ليَدلَّ على أنَّ هذا الحكمَ ثابتٌ لهم في يوم الجزاء، بكلِّ ما فيهِ من الضّيق وشدَّة الحاجة إلى دفع العذابِ والانتصار، خاصَّةً مِن قوم يدَّعونَ الغلبةَ والنُّصرةَ، وفي ذكرِ لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ إشارةٌ إلى النِّكايةِ بهم[2]، وتحديدُ زمنِ الاستسلام بيوم الحساب؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ به، ويَستبعدونَه، فيكون الاستسلامُ فيه مُعلَّلًا بالتَّكذيب في ذلك اليوم، وليكونَ درسًا للمُكذِّبين بذلك اليوم أنَّه يومُ الاستسلام.

دلالةُ تعريفِ الظَّرف وتقديمِه ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

تعيينُ يومِ الحساب مَدعاةٌ للعِظةِ والاعتبار

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ مُعرَّفًا في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على العهدِ، فهو اليومُ المُخصَّص المُعيَّنُ الموعودُ الَّذي يُكذِّبُ به المُستكبرون، وتعريفُهُ يدعو إلى استحضارِ الجَزاءِ على الأعمال، وأنَّه واقعٌ - لا محالةَ - فشأنُهُ في التَّعيُّن كسائرِ الأيّام المعهودةِ المتعيِّنة، وأفادَ تقديمُهُ على ﴿مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾

(1) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 242.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.

تخصيصَ ذلك اليومِ بالاستسلام؛ لأنَّهم كانوا مُعاندين لوقوعِهِ طيلةَ حياتهم، فكانوا يتناصرونَ في الدُّنيا على الباطل؛ حتَّى رَأوا ذلك اليومَ، فاستسلموا، وانقادوا.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ جَمْعًا ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾:

الاستسلامُ مُلازمٌ للظالمين يومَ القيامةِ لا يزولُ عنهم

عبَّر النَّظمُ بلفظِ ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾، في قولهِ تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾، وهو اسمُ فاعلٍ مجموع؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ وصفِ الاستسلامِ فيهم، كأنَّ الأصلَ فيهم الاستسلامُ لا التَّناصُرُ ودفْعُ الشَّدائدِ، فهو استسلامٌ ثابتٌ عريقٌ فيهم، ليس له زوالٌ، وفي التَّعبيرِ عنهُ بصيغةِ الجمع دلالةٌ على عكسِ مفهومِ (التَّناصُر)، وهو التَّداعي بينَهم إلى الانقيادِ والاستسلام[1]، فصاروا بهذا التَّعبيرِ أقربَ إلى التَّعاوُنِ على الخُضوع ومحاولةِ الانقياد، وإبطالِ أيَّةِ مُحاولةٍ للاعتراض، كما دلَّتْ صيغةُ (الاستفعالِ) على المُبالغةِ في إعلانِ الاستسلامِ، فهم يَطلُبونَهُ بكلِّ حِرصٍ وجدٍّ ومُثابرةٍ، والنَّظمُ اختارَ اللَّفظَ المشتقَّ من (الاستسلام) دونَ الخضوعِ والانقياد؛ لما توحيهِ من دلالةِ (الإسلام)، الَّذي كانوا يَرفضونهُ في الدُّنيا، فلمّا رَأوا ما يوعدونَ ذلك اليومَ؛ لم يَكتفوا بالإسلامِ، بل صاروا إلى الاستسلامِ الكلّيِّ.

بلاغةُ المجازِ في ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾:

الاستسلامُ انقيادٌ بذِلَّةٍ وضَعْفٍ

جاءَ التَّعبيرُ عن حالِ الكفّارِ يومَ الدّينِ بالخبرِ الواردِ في قولِهِ: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾، وأصلُ الاستسلامِ هو طَلَبُ السَّلامة[2]، وليس ذلك بمقصودِ الآيةِ، فقد كانوا متكبِّرينَ يَدَّعونَ الغلَبة، فعُبِّرَ بـ(الاستسلامِ)، وأُريدَ به لازمُهُ عُرْفًا، أي: الانقياد[3]، فهُم اليومَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 8.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.

مُنقادونَ لا حيلةَ لهم[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ذلَّتِهم يومَ الدّينِ وخِزيهم، وفي لفظِ (الاستسلام) ما يوحي بالمُحارَبةِ للّه تعالى ورسولِه في الدُّنيا، وعندَ وقوعِ ذلك اليوم الحقِّ أعلنوا عن استسلامِهم في تلك الحربِ خاسرينَ، ولذا يَحتمِلُ أَنْ يكونَ قولُه: ﴿هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ كنايةً عن الخَسارةِ في تلك المُحارَبةِ والمَعركةِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستسلام والانقياد والخضوع:

الخضوعُ استجابةٌ، والانقيادُ إكراهٌ معَ إمكانِ الامتناعِ، والاستسلامُ خضوعٌ تامٌّ

يجتمعُ (الاستسلامُ والانقيادُ) في الخضوعِ؛ إذِ الخضوعُ استجابةٌ وتطامُنٌ[2]، ثمَّ تفترقُ الثَّلاثةُ، فالانقيادُ خضوعٌ مع إمكانِ الامتناعِ[3]، ومنهُ انقادَ السَّجينُ؛ أي: إنَّه لم يُحدِثْ أيَّةَ مُعارَضةٍ ولا مُحاولةِ حِراك، وهو خضوعٌ باعتبارِ الإكراهِ فيه[4]، فليس خضوعًا برغبةٍ ولا اختيارٍ، وأمّا الاستسلامُ؛ فهو خضوعٌ أيضًا، لكنَّه استجابةٌ وتركٌ للمواجهة، يقال: استسلمَ العدوُّ، بمعنى: تركَ سِلاحَهُ، وأوقفَ الحربَ مضطرًّا، وهو خضوعٌ تامٌّ طلبًا للسَّلامة، ولأجلِ هذا حسُنَ اختيارُ لفظِ ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾ في الآيةِ؛ لدلالتها على بُطلان أيَّةِ محاولةٍ للتَّناصُرِ والإباءِ.

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 38.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خضع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نقد).
(4) بيت الله بيات، معجم الفروق اللغوية بترتيب وزيادة، ص: 220.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾ [الصّافات: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

محاولةُ التَّنصُّلِ بعدَ تحقُّقِ العَذاب مسلك المراوغين

بعدَ أن سُئِلوا سؤالَ توبيخٍ وتعجيبٍ من عَدَمِ تناصُرِهم، ولم يُجيبوا[1]، وبعدَ أنْ تحقَّقَ استسلامُهم وتمامُ عَجزِهم عنِ الخَلاص؛ أردفَتِ الآيةُ ذلك بسُؤالِ بعضِهم بعضًا وتخاصُمِهم فيما بينَهم[2]، فلم يَكتفوا بالاستسلامِ وعدمِ التَّناصُر، بل ثارَ بينَهم دواعي التَّنازُع والاختصام، وفيه بيان الانتقال من حال الاستسلام التّام، إلى محاولةِ إلقاء التُّهمة والتخلص من ألم الصّدمة، فالحكاية تحكي ألم النفوس، وقهر الصدور.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقۡبَلَ﴾: (قبل) يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ، وسُمّيتِ القِبلةُ قِبلةً؛ لإقبالِ النّاس عليها في صَلاتِهم، وتقولُ: لَقيتُه قِبَلًا، أي: مواجهةً[3]، ودلَّت (قِبَل) على الاتِّجاه، ومنه قولُه سُبحانه: ﴿قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 177]، أي: جِهتَهُما، وأقْبَلَ على الشَّيءِ ضدُّ أدْبَرَ[4]، ومعنى (أقْبَلَ) في الآيةِ: قصدَ، وتوجَّهَ.

2) ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: (سأل) يدلُّ على السُّؤالِ، وهو استدعاءُ معرفةٍ أوْ مالٍ، يقولُ تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾ [الكهف: 83][5]، ويُطلَقُ السُّؤالُ على طلَبِ معرفةٍ، كما يُطلَقُ على التَّحقُّقِ، كقوله سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، ويُطلَقُ على المُطالبة، كقوله:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 51.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).
(5) الراغب، المفردات: (سأل).

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ﴾ [طه: 132]، وعلى المُحاسَبة، كقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: 19]، ومعنى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في الآية: يَستوضِحونَ، ويُحاسِبونَ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد الاستسلامِ يأتي التَّلاوُمُ

يَعرِض اللّهُ ﷻ ما دارَ بينَ الظّالمين من سؤالٍ تطوَّرَ إلى جِدالٍ بينهم يومَ القيامة، فيذكرُ أنَّه توجَّهَ بعضُهم إلى بعضٍ بالسُّؤالِ واللّائمة سؤالَ تحميلٍ للمَسؤوليَّة ولمحاولةِ التَّخلُّص من العَذاب[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها في ﴿وَأَقْبَلَ﴾:

تبادُلُ المَلامةِ محاولةٌ للتّنصُّلِ من التَّبِعةِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تحتمل أن تكون للعطف، فهي عطفٌ للجملةِ على جملة الإخبار باستسلام الظّالمينَ يومَ الدّين بالواوِ، ويدلُّ العطفُ هنا على تعلُّق هذا بذاك، أي: إنَّ هؤلاءِ الظّالمينَ بعدَ أنِ انسدَّتْ أمامَهم الحلولُ؛ عادَ بعضُهم على بعضٍ باللّائمة[2]، وهو ما يشيرُ إلى محاولةِ التَّملُّصِ من المسؤوليَّة وتحميلِها للآخرينَ، وبينَ الاستسلامِ المُنبِئ عن الخسارةِ والضَّعفِ وبينَ حالةِ الجدالِ بينهم تناسبٌ يدلُّ على أنَّهم لم يكتفوا بالاستسلام، بل ثارَتْ بينهم الاختلافاتُ والمُنازعاتُ بعدَ أنْ كانوا يَتناصَرونَ في الباطلِ.

وتحتمل أن تكون استئنافيّةً[3]، بذكر مشهد جديدٍ في إقبال بعض الظالمين على بعض، ولا يُلغي الاستئناف الارتباط بين الآيات.

وجهُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَأَقْبَلَ﴾:

يومُ الدّينِ لا ينفعُ تلاوُمُ الظّالمينَ

عبَّرَ النَّظمُ بالفعل الماضي في قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ مع أنَّ هذا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 103.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 260.

ممّا سيقعُ في القيامة؛ تنبيهًا على تحقُّقِ وقوعِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم سيُقبلونَ - لا محالةَ - على أسيادِهم للتَّنصُّلِ من التَّبِعات، بعد أنْ كانوا يُقبِلونَ عليهم اتِّباعًا واغترارًا، وهو أمرٌ تُحذِّر منه الآية(1)، وتُنشئ في المخاطَبين معنى الحذر من المتابعة فيما فيه الهلاك الحقيقي، بتصوير مشهدٍ قطعي الوقوع في المستقبل الأخروي، لعلَّ عاقلًا يرعوي عن غيِّ صاحبه، فيُرشده إلى ما فيه نجاته.

بلاغةُ الاستعارةِ في (أقبل):

بعدَ تأكيدِ العقابِ بدأ التَّهمُّمُ باللَّومِ والعِتاب

تضمَّنَ التَّعبيرُ في قولِه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شبَّه الاتِّجاهَ إلى الآخرين بقصدِ المُعاتبةِ بالإقبالِ من مكانٍ آخرَ، فهو يُقبِلُ على جهةٍ مُعيَّنة، وهو مجيءُ مُقبِلٍ مواجِهٍ غيرِ مُتختِّلٍ ولا خائفٍ(2)، وتكمُنُ بلاغةُ الاستعارةِ هنا في ذلك التَّهمُّمِ بالجدالِ وإلقاءِ اللَّومِ على الآخرينَ حرصًا على الجدالِ واهتمامًا بشأنِه، بخلافِ ما كان سابقًا من المُلايَنةِ والموافَقة.

وجهُ التَّعبيرِ بالتَّبعيض:

صورةُ الشِّقاقِ الانقسامُ بعدَ اتِّحاد، والتَّنازعُ بعدَ اتِّفاق

جاءَ التَّعبيرُ في الآيةِ بالتَّبعيضِ في قولِه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ جزءًا من الظّالمينَ يُجادِلُ بعضًا آخرَ(3)، أي: إنَّ فريقَ الظّالمين قد انقسموا بعدَما كانوا جميعًا، واختلفوا، وقد كانوا أزواجًا، وفي ذلك دلالةٌ على نشوبِ النِّزاعِ والتَّضارُب بينهم عن مَسؤوليَّة ما حدث، وفي إسنادِ الإقبالِ للبعضِ دلالةٌ على أنَّ جزءًا من الظّالمينَ كانوا يَرَونَ أنَّ ضلالَهم مُسبَّبٌ عن بعضٍ آخرَ، فأقبلوا يُلقونَ اللَّومَ عليهم، وفي ذلك إرشادٌ إلى أتباعِ الظّالمينَ أنْ يَكفّوا عن تبعيَّتِهم، ويختاروا الحقَّ والحقيقةَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 244.

ودلَّ لفظ (بعض) المستعمل في الآية مرّتين، على الإبهام والعموم والإجمال، فلم يُعيِّن من يكون بعضهم الأوّل المقبل، ولا الآخر المُقبَل عليه، ليصلح الإبهام في نشره على الجميع.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾:

كلُّهم ظالمون وإنْ تبادلوا الملَام

تضمَّنَ لفظ ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ ضميرَ الجمعِ الغائب، ويعودُ هذا الضَّميرُ إلى المذكورينَ سَلَفًا، وهم الظّالمون[1]، وفي الإحالةِ إلى هؤلاءِ الظّالمين إشارةٌ إلى اجتماعهم على هذا الوصفِ، وإنَّما فصَّلَ النَّظمُ المُقبلينَ، ولم يقل: (وأقبَلوا يَتَساءَلونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ جُزءًا منهم مُقبِلونَ، وجزءًا آخرَ مُقبَلٌ عليهم، للفرقِ بينَ الأتباعِ والمَتبوعينَ، وأنَّ هنالك ضالّين ومُضلّينَ.

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾:

إقبالُ بعض الظالمين على بعضهم إقبالَ محاسبةٍ وضديَّة

عدَّى النَّظمُ الإقبالَ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ للدَّلالةِ على نوعِ الإقبال الحاصلِ بينَهم؛ إذ يدلُّ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ هنا على الاستعلاءِ المجازيِّ؛ إذِ الإقبالُ لا يكونُ على الشَّيءِ بل إليه، أي: إنَّ كلَّ طرفٍ منهم يُقبِلُ مُلقيًا اللَّومَ ومُحمِّلًا التَّبعةَ للآخر، كأنَّه شيءٌ ثقيلٌ يُلقَى مِن عُلوٍّ على الآخر، ممّا يشيرُ إلى أنَّه إقبالُ مُحاسبةٍ ومواجهةٍ وضدّيَّةٍ، ونلمحُ في الإقبال إلى الشَّيء دلالةَ الإتيانِ فقط، في حين أنَّ الإقبالَ على الشَّيء يكونُ عن اهتمامٍ واجتهادٍ وحرصٍ.

وجهُ إعادةِ لفظِ ﴿بَعۡضٍ﴾:

وقتُ وقوعِ الهَلَكةِ يَتنصَّلُ الجميعُ مِنَ التَّبعةِ

أُعيدَ لفظُ ﴿بَعۡضٍ﴾ في قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ للدَّلالةِ على حرصِ الفريقينِ على التَّساؤُلِ والتَّجادُلِ في إلقاءِ اللَّومِ أوِ التَّنصُّلِ من المسؤوليَّةِ، ولتصويرِ حالةِ التَّنازُعِ والاختلافِ والانقسامِ، حتى صاروا فريقينِ بعدَ أن كانوا يَصدُرونَ عن رأيٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.

واحدٍ وموقفٍ ثابتٍ، ولإظهارِ شدَّةِ الإقبالِ والحِرصِ على السُّؤالِ حتى إنَّ بعضَهم قد صارَ مُقبلًا على الآخَرِ بكلّيَّتِهِ.

سرُّ اختيارِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

استحكامُ الجِدالِ وجهٌ لرديِّ الحالِ وسوءِ المآل

عبَّرَ النَّظمُ بلفظِ الفعلِ المُضارِعِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ السُّؤالِ تلوَ السُّؤالِ على سبيلِ الاستمرارِ، كما وردَ بصيغةِ (التَّفاعُل) الّتي تدلُّ على المُشاركةِ في السُّؤالِ من الأطرافِ؛ إذ الجميعُ يسألُ والجميعُ يُجيبُ[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تصويرِ مشهدِ الجِدالِ المُستحكِمِ بينَ الأطرافِ، والإلحاحِ في المُساءَلةِ، والصّيغةُ توحي بشدَّةِ المُنازَعةِ وقوَّةِ المُساءَلةِ مع عُنفِ الكلامِ وقوَّةِ الاتِّهامِ.

دلالةُ جملةِ الحالِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

المساءَلةُ شُغلُ الظّالمينَ الشّاغِلُ، والنَّجاةُ همُّهم العاجلُ

جاءَتْ جملةُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حالًا مِن المُقبلينَ في قولِهِ: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[2]، وتدلُّ جملةُ الحالِ هنا على أنَّ إقبالَ هؤلاءِ الظّالمينَ كانَ إقبالَ مواجَهةٍ بينَهم بالسُّؤالِ، فلم يكُن إقبالُهم عليهم للمواساةِ ولا للتَّناصُرِ، ولكنَّه إقبالٌ للمُساءَلةِ والمُخاصَمةِ، ممّا يشيرُ إلى أنَّ المساءلةَ كانتْ شُغلَهم الشّاغلَ، وفي تقييدِ الإقبالِ بالتَّساؤُلِ تصويرٌ للحرصِ الشَّديدِ عليه، حتى إنَّهم في حالِ الإقبالِ يَتساءلونَ، ولا يصبرونَ إلى تحقُّقِ اللِّقاءِ، بل يبتدرونَ السُّؤالَ عندَ الإقبالِ والاتِّجاهِ.

بلاغةُ المجازِ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

غايةُ المُخاصَمةِ التَّنفيسُ والتَّخلّي عن المُساءَلَةِ

عبَّرتِ الآيةُ عن إلقاءِ اللَّومِ والعِتابِ بـ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ إذ ليس المقصودُ بالتَّساؤلِ حقيقتَهُ، وهو الاستفهامُ بل هو لازمُ السُّؤالِ، فذُكِرَ التَّساؤلُ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 329.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1089.

وقُصِدَ لازِمُهُ، وهو اللَّومُ[1] والعِتابُ والتَّقريعُ والتَّسخُّط[2]، فهو سؤالُ مُخاصَمةٍ[3]، وليس سؤالَ استفسار، ما يُنبِّئُ عن غرضِ هؤلاء، وهو التَّنفيسُ عن أنفُسِهم بإلقاء اللَّوم على الآخَرين، ومحاولةِ التَّنصُّلِ من المسؤوليَّة بإلقاء التَّبِعةِ على الآخرينَ، وإنَّما عبَّر عن التَّلاوُم والتَّخاصُم بالسُّؤالِ؛ لأنَّهما الغايةُ مِنَ السُّؤالِ والاستفهام، فقد كانَ لومُهم وتخاصُمُهم بصورةِ السُّؤالِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإقبال والقُدوم والمجيء والإتيان:

القدومُ للسَّبق، والمجيءُ للقصد، والإتيان للوصول، والإقبالُ للمواجَهة

بين (الإقبال) و(القدوم) و(المجيء) و(الإتيان) فروقٌ لطيفةٌ؛ إذ الإقبالُ مواجَهةٌ[4]، وتقدُّمٌ ومقابلةٌ بالوَجهِ لِما نُقبِلُ عليه، ومنه الاتِّجاه إليه، وإذا كان المجيءُ هو قصد مكانٍ معيَّنٍ والحضورِ إليه[5]، فإنَّ القدومَ هو سبقٌ إلى مكانٍ مقصودٍ[6]، يقول تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ [الفرقان: 23]، و(الإتيانُ) ليس مجرَّدَ قدوم وحسب، بل هو وصولٌ[7]، يقول سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، أي: تحقَّق، ولأجل هذه الفروقِ تتَّضحُ خصوصيَّةُ لفظ (الإقبال) في الدَّلالة على المواجهة بالسُّؤال والعتابِ في الآية.

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 4/ 396، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 539.
(2) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 4/ 469.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 38، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 329.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(5) الراغب، المفردات: (قبل) و(جاء).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قدم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتى).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ
مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا
طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا
كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾ [الصافات: 28 - 32]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من عمومِ إجمالِ التساؤلِ إلى تفصيله

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ أنّ الظّالمينَ قد أقبلَ بعضُهم على بعضٍ يَتساءلونَ بينَهم؛ جاءتِ الآياتُ تكشفُ عن حقيقةِ ذلك التَّساؤُلِ[1] الدّائرِ بينَهم، أهو تساؤلٌ واستفهام أم إلقاءُ لومٍ وتعنيفٌ وجدال؟، فهو انتقالٌ من الإجمال إلى التّفصيل، ومن وصفِ عموم التساؤل إلى تفصيل مضمونه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾: (يمن) أصلٌ يدلُّ على البركة والخير[2]، ومنه قولُهُ سُبحانه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١﴾ [الواقعة: 91]، وهو ضدُّ الشُّؤْم، واليمينُ القوَّةُ، وتُطلَقُ على اليدِ اليُمنى، أي: الجارحة[3]، الّتي بها القوَّةُ والعَوْنُ والدَّفْعُ والإمساكُ وأداءُ الأعمالِ[4]، ومنه إطلاقُ اليمينِ على الحَلِف؛ لأنَّ العربَ يَمُدّونَ أيديَهم اليُمنى للقسَمِ[5]، كما تُطلَقُ اليمينُ على ضدِّ الشِّمال، واليمين جهة الخير؛ وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿سُلۡطَٰنِۭۖ﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والقهرِ، والتَّسلُّطُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (يمن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (يمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن).

هو القهرُ، والسَّلاطةُ هي التَّمكُّنُ مِنَ القَهْر، يُقال: سلَّطتُه، فتسلَّطَ، يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 90](1)، والسَّليطُ الشَّديدُ، يقالُ: حافرٌ سَلِطٌ وسليطٌ؛ أي: شديدٌ، وسُمّيت الحجَّةُ سُلطانًا(2)، وذلك لقوّةِ تأثيرِها ولتجلّيها، ومعنى السلطان في الآية: القهْر والقوَّة.

3) ﴿طَٰغِينَ﴾: (طغي) أصل يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ في العِصيان، يقولُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ﴾ [الحاقة: 11]؛ إذ جاءَ بماءٍ كثيرٍ خارجٍ عن مِقدارهِ الطَّبيعيِّ، والطُّغيانُ: هو الاعتداءُ في حدودِ الأشياءِ ومَقاديرِها(3)، والطّاغيةُ: الجبّارُ العنيدُ، والطّاغوتُ: هو كلُّ مُتعدٍّ وكلُّ معبودٍ مِن دونِ الله(4)، فهو تجاوزُ الحدِّ في غِلَظٍ وتَخَطٍّ للحقِّ وعُدوانٍ(5)، ومعنى ﴿طَٰغِينَ﴾ في الآية، أي: مُتجاوزينَ للحقِّ مُعانِدين بجَبروتٍ وخُشونةٍ.

4) ﴿فَحَقَّ﴾: (حقق) أصل يدلُّ على معنى: ثبتَ، ووجبَ، يقولُ سُبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [القصص: 63]، أي: ثَبَتَ(6)، وأصلُ الحقِّ: المطابقةُ والموافقة، ويُقالُ للفعلِ والقولِ الواقعِ بحسَبِ ما يجِبُ، وقدْرِ ما يجبُ في الوقتِ الَّذي يجبُ، نحوُ: فِعلُك حَقٌّ، وقولُك حقٌّ(7)، وحقَّ الشيْءُ يَحِقُّ حَقًّا، أي: وجَبَ وُجوبًا، وحَقَّ عَلَيْك أنْ تفعل: وجب عَلَيْك(8)، ومعنى ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ في الآيةِ: وجبَ، وتأكَّدَ، وثبتَ.

5) ﴿لَذَآئِقُونَ﴾: (ذوق) يدلُّ على وجود الطَّعْم بالفَم، وأصلُهُ فيما يقِلُّ تناولُهُ دون ما يَكثُرُ(9)، وذَواقُه ومَذاقُه طيِّب، أي: طَعْمُهُ، يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، وأُطلِقَ في القرآنِ على الإحساسِ بالعَذاب؛ لأنَّ الإحساسَ بالقليلِ منه شديدٌ، فكيفَ بكثيرِه(10)؟ وعلى الإحساسِ بالنِّعمة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات: (سلط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سلط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (طغي).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (طغى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طغى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(7) الراغب، المفردات: (حقّ).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، تهذيب اللغة: (حق).
(9) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ذوق).
(10) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (ذوق).

﴿ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ [يونس: 21][1]، ويُطلقُ على اختبارِ الشَّيءِ من جِهَةِ تَطعُّم[2]، ثمَّ يعُمُّ التجريبَ والاختبارَ، يُقال: ذُقتُ فلانًا؛ أي: استذَقْتُ فلانًا؛ إذا خبَرْتَه، فلَم تَحمَدْ مَخْبَرتَهُ[3]، ومعنى ﴿لَذَآئِقُونَ﴾؛ أي: نَطعَمُ العذابَ، وننالُه لا مَحالةَ.

6) ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾: اختار ابنُ فارس أنَّ أصلَ (الغواية) الغَيايةُ، أي: غِشيانُ الغبرة والظُّلمة، كأنَّ ذا الغيِّ قد غَشيَهُ ما لا يَرى معه سبيلَ حقٍّ[4]، و(غوي) يدلُّ على الانجذابِ إلى ما يؤدّي إلى الفَساد، والانهماكُ في الهَوى والباطل، خلافُ الرَّشَدِ، ومَن غَوي؛ فقد حُجِبَ عن الرَّشَد، يقولُ سُبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: 2]، وفي الغيِّ انجذابٌ وتأثُّرٌ بالهوى يورِثُ الضَّلال، فهو ضلالٌ معَ تسبُّبٍ[5]، ومعنى ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾: فأيَّدناكُم في ضَلالِكم؛ لأنَّنا كنّا مَحجوبينَ عنِ الرَّشَد، مُنجذبينَ إلى الباطلِ مثلكم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان مُلاوَمَة الظالمين بعضهم بعضًا بسبب صَنيعهم في الدنيا

تُبيِّن الآيات الكريمة حال الظّالمين في إقبال بعضهم على بعضٍ في المُلاومة والتعنيف، فردَّ بعضُهم اللَّومَ على الآخَرين قائلينَ لهم: أنتم السَّببُ في ضلالِنا بتزيينِكم لنا الباطلَ أنَّه الخيرُ والحقُّ، وبتسلُّطِكم علينا، فاتَّبعناكُم، وأجابَهم أولئك بأنَّ التَّبعةَ عليكم أنفسكم دونَنا؛ إذ كنتم قومًا ضالّينَ في حقيقةِ حالِكم، وما ألزمناكُم بشيءٍ ممّا كنتم تعبدونَ، أو تَعتقِدونَ، فقد سبقَ منكم إباءُ الحقِّ وإيثارُ الكُفر، قد تأكَّد علينا لزومُ العذابِ جميعًا، فلا معنى للتَّنصُّلِ من

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(3) ابن دريد، تهذيب اللغة: (قذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غوي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.

المَسؤوليَّة، وقد كنّا في ضلالةٍ وغيٍّ، فدعوناكم إلى ما نحنُ عليه، ولبَّيتمُ الدَّعوةَ، حتى وجبَ علينا العذابُ والعِقاب، وقامتِ الحُجَّةُ على الطَّرَفين[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ في ظِلالِ الأهوالِ

وقعتِ الآيةُ مفصولةً عمّا قبلها في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا﴾؛ إذ لمّا اشتملتِ الآيةُ السّابقةُ على ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، فكأنَّه قيلَ: عن ماذا؟ فأجيبَ بقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾[2]، فالآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ تساؤُلِهم[3]، والعلاقةُ بينَ الجُملتينِ هي شبهُ كمالِ الاتِّصال، وهو نوعٌ من الإجمالِ الَّذي يَعقبُهُ التَّفصيل، وتكمُنُ بلاغتُهُ في الإغماضِ الَّذي يُثيرُ الاستفهامَ عن مضمونِ هذا التَّساؤُلِ في ظلالِ هَوْلِ العَذابِ المَوعود.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿قَالُوٓاْ﴾:

تمكُّنُ الجدالِ من الظالمين للتَّخلُّص من التَّبعة

عبَّر النَّظمُ بالفعلِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ المُخاطَبة بينهم، وأنَّه كلامٌ نطَقَ به هؤلاءِ مُجاهِرينَ، ولم يُسِرّوهُ في صدورِهم، ممّا يشيرُ إلى تمكُّنِ الجدالِ بينَهم، ومحاولةِ أيَّةِ وسيلةٍ للخلاصِ من النَّتيجةِ الحتميَّة، وفي إسنادِهِ إلى ضميرِ الجمعِ دلالةٌ على اشتراكِهم في المَوقفِ نفسِه، وهو تحميلُ الآخَرينَ تبِعةَ أعمالِهم، وهو ما يشيرُ أيضًا إلى الرَّغبةِ المُلحَّةِ في التَّخلُّص منَ التَّبِعات.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ):

تأكيدُ الكلامِ لتوقُّعِ التَّشكيك في كلامهم

استعملَ النَّظمُ الأداةَ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ﴾

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 8، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 11، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 53، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 188.

التي تدلُّ على التَّأكيد، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى توقُّعِ هؤلاءِ القائلينَ أنْ يُنكِرَ غيرُهم ما يقولونَه لهم، فالأمرُ جلَلٌ، والتَّبِعةُ الَّتي سيُلقيها هؤلاءِ على الفريقِ الآخَرِ ثقيلةٌ، ولا يُستبعَدُ أنْ يُكذِّبوهم في دَعْواهم[1]، ويُسوِّغونَ لأنفُسِهم ما كانوا يفعلونَ؛ لذلك جاءَ التَّأكيدُ بـ(إنَّ).

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّكُمْ﴾:

المُجاهرةُ بالخطابِ دلالةٌ على عُنفِ السُّؤالِ

أوردَ النَّظمُ ضميرَ الجمعِ المخاطَبِ منصوبًا بـ(إن) ومرفوعًا بـ(كان) في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾، ليعودَ إلى الظّالمِينَ المذكورينَ سابقًا، والمقصودُ بهم هنا السّادةُ الَّذين اتَّبعَهم أتباعُهم في الصَّدِّ عن الحقِّ، وفي عَوْدِ الضَّمير إليهم إثباتٌ لظُلمِهم، وتأكيدٌ لسَبْقِهم في مُضادَّة الحقِّ، فأنتم الظّالمونَ ابتداءً، ونحن تبعٌ لكم، أي: كنّا أتباعًا مُتأثِّرينَ بكم، وفي توجيهِ الكلامِ بلفظِ الخطاب ما يشيرُ إلى عُنفِ المواجَهةِ، الَّتي كانوا لا يُقدِمونَ عليها في الدُّنيا معَ سادتِهم.

دلالةُ فعلِ الكينونةِ الماضي:

مُداومةُ الإضلالِ في الدُّنيا تُظهِرُ مَسؤوليَّةَ الظّالمينَ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ الكينونةِ الماضي في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾، ويدلُّ ذلك على أنَّ إضلالَهم كانَ في الزَّمنِ الماضي قبلَ الوقوعِ في العَذاب، أي: في الدُّنيا[2]، وأنَّه لم يكُن حدثًا عابرًا، بل كانَ مُطَّردًا راسِخًا فيهم وديدنًا لهم[3]، وهو ما يبرزُ مَسؤوليَّةَ الظّالمين في إضلالِ أتباعِهم ومُحاولاتهم المُتكرِّرةِ في ذلك.

بلاغةُ حشدِ المُؤكِّدات:

مُحاولةُ الأتباعِ إلصاقَ المسؤوليَّةِ بالمتبوعينَ

حُشِدَتِ المؤكِّداتُ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ عن طريقِ استعمالِ أداةِ التَّوكيد، وفعلِ الكينونةِ الدّالِّ على الاطِّرادِ والرُّسوخِ في الفعلِ، والفعلِ المُضارعِ المفيدِ للتَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وفي ذلك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 188.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.

دلالةٌ واضحةٌ على المُحاولة المُستميتةِ من الأتباع لإلصاقِ المسؤوليَّةِ بالظّالمين الَّذين أثَّروا فيهم بالضَّلالة، كما يحملُ معنى التَّوبيخ[1].

سرُّ إيثارِ فعلِ الإتيانِ:

قصدُ الإضلالِ ومحاولاتُ إيقاعِه دليلُ الضُّلوعِ في المسؤوليَّة

آثرتِ الآيةُ فعلَ الإتيانِ في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا﴾؛ لما في الإتيانِ من التَّحرُّكِ من موضعٍ إلى مَوضِعٍ[2]، ففيه تحرُّكٌ وقصدٌ، فقد قصدَ الظّالمون إضلالَ أتباعِهم، ولم يقِفوا عند القصدِ، بل تجاوزوهُ إلى التَّحرُّكِ والمحاولةِ تلوَ المحاولة، بما يدلُّ عليه المضارعُ من التَّجدُّد الاستمراريِّ، وفي كلِّ ذلك إظهارٌ للتَّأثيرِ الكبير للظّالمينَ في أتباعِهم[3]، كما يوحي فعلُ الإتيانِ القدومَ عليهم بكلِّ سهولةٍ ودونَ تكلُّفٍ وصعوبةٍ، إذ كانوا يُقدمونَ عليهم، فيُضلّونهم من دونِ مُكابدةٍ أوْ تعَبٍ.

بلاغة التعبير بصيغة المضارع:

عند وقوع المصائب الماحقة تخرج المعاذير الواهية

جاء التعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا﴾، الذي يدلّ على التجدّد، وفي ذلك دلالة واضحة في بيان إصرار المتبوعين وعنادهم في إضلال متبوعيهم، حيث إنّهم على الدّوام يأتون الأتباع، وهو ما يتعانق مع دلالة ذكر (كانوا)، كما يحمل معنى التوبيخ[4]؛ ففيه تحميلُهم المسؤوليةَ عن ضلالهم، وما هم بحامليها.

نكتةُ تعديةِ الإتيانِ بـ ﴿عَنِ﴾:

إتيانُ الصّدِّ أدلُّ على الإضلالِ

تعدّى فعلُ الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ بـ﴿عَنِ﴾ معَ أنَّه يتعدَّى في الأصلِ بالحرفِ (مِن)، وذلك لدلالةِ ﴿عَنِ﴾ على المُجاوزةِ[5]، ونكتةُ هذه التَّعديةِ هنا هي تضمينُ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 245.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 245.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/ 46.

فعلِ الإتيانِ معنى (الصَّدِّ) تضمينًا بيانيًّا[1]، أي: تأتونَنا صادّينَ عنِ اليمينِ والحقِّ والخيرِ، فأفصحَ الحرفُ عن تفسيرِ الإتيانِ بأنَّه إتيانُ صدٍّ ومنعٍ من الإسلام، وهذا مبنيٌّ على تفسيرِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ بالخير والحقِّ؛ إذ جهةُ اليمينِ تُطلَقُ، ويرادُ بها اليُمْنُ والبركةُ والخيرُ والكرمُ والعطاءُ.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ مُعرَّفًا:

طريقُ اللهِ كلُّه خيرٌ وسَعادةٌ وبركةٌ

يدلُّ تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ في الآيةِ على يمينٍ مَعهودةٍ، وهي جهةُ الخيرِ والسَّعادة[2]، وفي تعريفِها إشارةٌ إلى الأسَفِ على ما صُدّوا عنه حتَّى ضيَّعوه؛ إذِ اتَّبعوا الظّالمين، وتأثَّروا بهم[3]، كما تُطلَقُ اليمينُ على القوَّةِ والقَهْر، وعلى القَسَم والحِلْف، فيكونُ الآتونَ لهم أقوياءَ مهَرة في الإقناع، معَ قهرٍ لهم على اتِّباعِهم، أوْ يأتونَهم، وقد أقسَموا لهم بالأيمانِ على صِدقِهم مع أنَّهم ضالّون مُضِلّونَ.

دلالةُ الحاليَّةِ في ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾:

ضياعُ الخَيراتِ، والأسفُ على ما فات

عبَّرتِ الآيةُ بشِبْهِ الجُملة: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الواقعة حالًا؛ بناءً على تفسيرِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ بالقوَّة والقَهْرِ أو بالقسمِ والحِلف، أي: تأتوننا حالَ كونِكم قاهِرينَ لنا، أو تأتونَنا مُقسِمينَ حالِفينَ لنا باتِّباعَكم الحقَّ، وأمّا على التَّضمينِ البيانيِّ؛ فإنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّقانِ بالصُّدودِ، الَّذي تضمَّنَهُ الإتيانُ، أي: صادّينَ لنا عن جهةِ اليمينِ الَّتي هي كنايةٌ عن البركةِ والكرَم، وفي ذِكر هذهِ الحالِ إشارةٌ إلى لَوْمِهم إيّاهم، فلم يورثْهُم اتِّباعُهم إلّا خَسارًا، ولم يَجلبوا لهم إلّا سوءَ العذاب[4]، وفيه تأسُّفٌ أيضًا عمّا فاتَهم مِنَ الخيرِ العظيم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.

بلاغةُ الاستعارةِ والكِنايةِ في لفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾:

شدَّةُ الخيبةِ وثقلُ الملامةِ ملمحان لأهلِ الخسرةِ والنَّدامة

كُنّيَ بلفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الموضوعِ للجهةِ والقَسَم عن مَعنيَين[1]، وأنسَبُهما أنَّ اليمينَ كنايةٌ عن الخيرِ والبركةِ والكرَم[2]؛ لاشتهارِ استعمالِ اليمينِ فيها عندَ العَرَب[3]، وتفضيلِهم جهةَ اليمينِ على جهةِ اليَسار[4]، حتّى صارَ للخير جهةٌ هي اليمينُ، فيكونُ من ذكرِ الجهةِ وإرادةِ لازمِها، والمرادُ باليمينِ - الَّذي هو الخيرُ هنا - الإسلامُ والإيمانُ بالله تعالى، فتكون هنالك استعارة؛ لأنَّ صدَّهم لهم عن اليمينِ كان مُتمثِّلًا بالصَّدِّ عن الدّينِ الحقِّ، الَّذي هو الإسلامُ، وفي تسميتِهم للدّين باليمين اعترافٌ منهم بأنَّهم مُنِعوا من اتِّباع الخيرِ والبركةِ، وحُرِموا من سببِ النَّجاة يومَ الحساب، أو كُنّيَ بلفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ عن لازمِهِ الَّذي هو القوَّةُ والقهرُ.

دلالةُ الإخبارِ بالجُملة ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾:

السُّخط على الظّالمين تأميلٌ في تخفيفِ العذابِ المُهين

أقبل بعضُ الظّالمين على بعض يتساءلون، ويلومونهم بأنَّهم كانوا يأتونَهم عن اليمين، وليسَ الغرضُ من هذا السُّؤالِ الدّالِّ على اللَّوم والتَّعنيف إعلامَ الظّالمينَ بما فعَلوا، ولكنْ ما يلزمُ عنه من تحميلِهم المسؤوليَّةَ عمّا حاقَ بالجميع يومَ القيامة من العذاب، ولتوهُّم منهم أنَّ هذا الإلقاء سيخفِّفُ عنهم شيئًا من العذاب[5]، فصار مرادُهم: فهل أنتم مغنون عنّا شيئًا؟ أو حاملونَ عنّا جزءًا من العذاب؟[6] وفي استعمالِ السُّؤالِ في لازمِهِ إشارةٌ إلى إلجائهم إلى الاعترافِ بما صَنعوا، فالسُّؤالُ هنا للتَّقرير، ونلحظُ في الجملةِ دلالةً على أنَّهم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 98.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 137.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

يدَّعونَ قبولَهم للإيمانِ وشروعَهم فيه، لولا أنَّهم كانوا يأتونَهم صادّينَ لهم عنهُ.

توجيهُ الفصلِ بلفظِ ﴿قَالُوٓاْ﴾:

الجهرُ بنفي الإيمانِ سَعيٌ للتَّبرئةِ مِنَ التُّهَم

فُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالُوٓاْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ عمّا سبقَها؛ إذ هو فصلٌ جارٍ على عادةِ القرآنِ في الحوارات، مِن توقُّعِ السّامعِ لموقفِ الطَّرفِ الآخرِ من هذا الادِّعاء، هل سيؤكِّدونَه، ويتحمَّلونَ المسؤوليَّة كاملةً؟ أوْ يتنصَّلونَ منها؟ أو أنَّ أصحابَ الادِّعاءِ مُشترِكون في المسؤوليَّة؟ فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، فلذا اختيرَ الفصلُ[1]، كأنَّه قيلَ: بِمَ أجابَ هؤلاءِ بعدَ هذا السُّؤالِ التَّقريريِّ واللَّومِ على الإضلالِ مع الاتِّهام؟ قيل: ﴿قَالُواْ بَل﴾[2]، فبدلًا منَ الإقرارِ بالتُّهمةِ الموجَّهةِ لهم في الكلامِ السّابقِ دَفَعوها، ومنَعوها بالقولِ والكلامِ الصَّريح.

دلالةُ الإضرابِ بـ ﴿بَل﴾:

هولُ مَشهَدِ الحِسابِ دافعٌ إلى الإنكارِ والاتِّهامِ

ابتدأتْ جملةُ الجوابِ بالأداةِ ﴿بَل﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وهي للإضرابِ عن الادِّعاءِ المذكورِ[3]، فليسَ الأمرُ، كما ذكرْتُم[4]؛ إذْ لم نَمنعْكُم، ونَصُدَّكُم من الإيمان[5]، ودلَّتْ ﴿بَل﴾ على إبطالِ قولِهم[6]، وأشارتْ إلى إنكارِ إضلالِهم إيّاهم[7]، وهو ما يُشعر بمحاولةِ الظّالمِينَ دفْعَ ما لزِقَ بهم من التُّهمة، فأفادَ الحرفُ ﴿بَل﴾ إبطالًا واتِّهامًا معًا، وكما أنَّ الغرضَ من السُّؤالِ الاتِّهامُ والإلجاءُ إلى الاعترافِ مع اللَّومِ جاءَ الجوابُ مُشتملًا على الإنكارِ مع الاتِّهامِ لهم بعدَمِ الإيمانِ والتَّصديقِ بالحقِّ من تلقاءِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 247.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 470.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 247.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.

نفوسِهم، فلو كنتُم مؤمنينَ ومصدِّقينَ حقًّا؛ لما كان لإضلالِنا مِن أثرٍ فيكم.

سرُّ النَّفيِ بـ﴿لَّمۡ﴾:

إبـاؤُهـم للحقِّ سابِقٌ، وفعلُهم للإيمانِ ماحِقٌ

عبَّرتِ الآيةُ عن نَفْيِ الإيمانِ بـ ﴿لَّمۡ﴾ الجازمةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ الإيمانَ لم يكُن منهم في الماضي على تطاوُلِ المدَّة واستمرارِها[1]، فلَم يحدُثْ منكم الإيمانُ قبلَ تواصُلِنا معكم، حتى يُقالَ: إنّا صَدَدْناكم عن الخيرِ بعدَ أنِ اتَّصفتُم به، فـ"لم يَدخُلِ الإيمانُ قلوبَكم في وقتٍ من الأوقاتِ"[2]، فكيف نتحمَّلُ تَبِعَةَ ذلك عنكُم؟ وبذلك أفادَ النَّفيُ أنَّ عدمَ إيمانِهم كان أصيلًا في نفوسِهم، فلم يكُن منكم إيمانٌ أصلًا، حتى نُتَّهَمَ بإزالتِهِ أوِ التَّشكيكِ فيه أو نفْيِهِ عنكُم.

وجْهُ نفيِ فِعلِ الكَوْنِ:

أبَـوا الإيـمـانَ، فـحُـرِمـوا نِـعَـمَ المنّانِ

نفتِ الآيةُ الفعلَ ﴿تَكُونُواْ﴾ من قوله: ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ دون أنْ يقال: (بل لم تؤمنوا)، ووجهُ ذلك هو أنَّ نفيَ الكونِ هنا مُشعِرٌ بأنَّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن شأنِهم[3]، فقد تجدَّدَ عدمُ كونِهم مؤمنينَ بدلالةِ صوغِ الفعلِ مُضارعًا، وهو ما يُشيرُ إلى اختيارِهم عدمَ الإيمان، وإبائِهم الحقَّ، وإيثارِهم الكُفرَ[4]، فأعرَضوا عنه مع تمكُّنِهم من الإيمان[5]، أي: إنَّ كفرَهم نابعٌ من ذواتهم، وليس بمُؤثِّرٍ خارجي عنها[6]، فهُم مسؤولونَ عن مآلِهم دون نظرٍ إلى صدِّ الظّالمينَ لهم عن الحقِّ.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 164.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.

التّطبُّعُ بعدمِ الإيمانِ موصِلٌ إلى الإمعانِ في الغيِّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالـ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ دلالةً وصيغةً:

آثرَتِ الآيةُ لفظَ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لأمرٍ في دلالتِه وفي صيغتِه؛ فأمّا دلالتُه؛ فالإيمانُ تصديقٌ وإقرارٌ باطنيٌّ لا يَتحكَّم فيه الآخَرون، وإنْ نطقَ اللِّسانُ بغيره اضطرارًا، فالإقرارُ في الأخير هو قرارٌ شخصيٌّ، يقول ﷺ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، فلا يُتصوَّر إذًا في الإيمان إغراءٌ أو صدٌّ أو منعٌ عنهُ، وأمّا عن صوغِ اللَّفظ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ باسم الفاعل مَسبوقًا بالنَّفي؛ فيدلُّ على أنَّهم لم يكونوا عريقينَ في هذا الوصفِ، فلذلك تابعوا الظّالمينَ فيما أمروهُم به؛ لأنَّه كانَ في طَبْعِهم عدمُ الإيمان[1]، ويدلُّ كلُّ ما ذُكِرَ على عدَم تحمُّلِ الظّالمينَ تبعةَ أتباعِهم، وعلى بطلانِ ادِّعاء الأتباعِ أنَّهم صُدّوا عن الخيرِ، وفي نفي الإيمانِ في الجواب قرينةٌ على إرادةِ الاستعارةِ بلفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾؛ إذ الإيمانُ يمينٌ محضٌ وبركةٌ عظيمةٌ.

وجهُ حذفِ مُتعلّقِ الإيمانِ:

سلبُ الإيمانِ بالكلّيّةِ أبلغُ في تفنيدِ الاتّهام

حُذِفَ مُتعلِّقُ الإيمانِ في قوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، مع أنَّه واضحٌ في السّياقِ، وهو الإيمانُ بالله واليوم الآخِر لإرادةِ العُموم، ولأنَّ حذفَ المتعلِّقِ يجعلُ الفعلَ المتعدّي بمنزلةِ اللّازم[2]، فالنَّفيُ هنا مُسلَّطٌ على الإيمانِ نفسِه، فهؤلاء ليس من طبعِهم الإيمانُ، وما كان منهم إيمانٌ قطُّ، وهذه الجملةُ أفادتِ الاتِّهامَ بسَلْبِ الإيمان من قلوبِهم أوَّلًا، فلم يكُنْ في قُلوبِهم إيمانٌ ولا تصديقٌ أصلًا.

توجيهُ العطفِ بـ(الواو) في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

تأكيدُ نفي الإيمانِ إبطالٌ لما يدَّعون

عُطِفتْ جملةُ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ على جملةِ: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ لتفيدَ جوابًا آخَرَ على ادِّعاء الأتباعِ صدَّهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.
(2) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 117.

عن الخيرِ والإيمانِ بالقوَّةِ والقَهْرِ، ففي العطفِ تأكيدٌ لنفيِ صُدورِ الإيمانِ من هؤلاءِ[1]، وفيه إرخاءُ العِنانِ في الجواب؛ حتى يُبطِلوا الادِّعاءَ من أصلِه[2]، فقد نفَوا أيَّ سُلطانٍ لهم على قرارِهم الإيمانَ؛ لأنَّه أمرٌ قلبيٌّ لا نَستطيعُ تغييرَهُ؛ إنْ لامسَ قلوبَكُم.

نكتةُ النَّفي بـ (ما):

مَنْ سَلِبَ السُّلطان، مُنِعَ الصَّدَّ عن الإحسان

عبَّرتِ الآيةُ بحرف النَّفي (ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم﴾؛ لنفيِ أيِّ سُلطانٍ للظّالمينَ على هؤلاء، ونكتةُ النَّفي بـ (ما) هي ردُّ الكلامِ السّابقِ[3]، ومقابلةُ الادِّعاءِ السّابقِ بالنَّفي، وجوابُ الإثباتِ بالنَّفي، (فأنتم تدَّعون أنَّنا صَدَدْناكم عنِ الخَير، ولكنْ لم يكُن لنا عليكُم سُلطانٌ، فكيفَ نصدُّهُم عن الخيرِ إذًا؟!)، فهي دالَّةٌ على العموم، شاملةٌ لكلِّ سلطان يُجبر الأتباع على ترك الإيمان، سواء أكان سلطانًا ماديًّا، أم معنويًّا، وبه يتأكّد النّفي والردّ على الأتباع.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الكَينونةِ الماضي:

نفيُ التَّسلُّطِ تامٌّ ثابتٌ يُناسِبُ بُطلانَ الادِّعاءِ

جاءَ التَّعبيرُ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ بفعلِ الكَوْنِ الماضي، أي: فما كانَ وما ثبتَ[4]، ويدلُّ ذلك على نفيِ أيِّ ضغطٍ عليهم، فلم يثبت أبدًا أنْ تسلَّطْنا عليكم في قرارِكم بالإيمانِ أوِ الكفر، وهو ما يشيرُ إلى مزيدِ تأكيدٍ لإبطالِهم ادِّعاءَ الصَّدِّ عن الخيرِ، ونلحظُ في نفيِ فعلِ الكَوْنِ دلالةً على أنَّ ذلك الأمرَ ليس في المَقدورِ؛ إذ الإيمانُ أمرٌ قلبيٌّ ونظريٌّ لا يمكن المنعُ منه.

معنى اللّامِ في ﴿لَنَا﴾:

سُلطانُ الظّالمينَ لا يتعلَّقُ بإيمانِ المدّعين

تدلُّ اللّام في ﴿لَنَا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ على الاختصاصِ والتَّملُّك، فما كانَ السُّلطانُ مَملوكًا لنا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 247.

(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 166.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

عليكم، وما اختصَّت بنا من قوَّة؛ فإنَّه لم يكن واقعًا عليكم ولا مُؤثِّرًا فيكم، فنفتِ الآيةُ التَّعلُّقَ بينَ سُلطةِ الظّالمين وإيمانِ هؤلاءِ الأتباعِ أوْ كُفرهم، وهي إشارةٌ إلى محاولةِ التَّبرُّؤ التّامِّ من أيِّ تأثيرٍ على الأتباع، فلماذا يتحمَّل الظّالمونَ عن أتباعِهم شيئًا لم يَتَسَبَّبوا فيه؟ وفي نفيِ السُّلطانِ إقرارٌ بالعَجزِ عن التَّأثير القلبيِّ في الأشخاص؛ إذ جلُّ ما يُؤثِّرُ السّادةُ في الأتباعِ التَّأثيرَ العمليَّ.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿لَنَا﴾:

المبالغة في تبرئة النفس تعكس شديد الخوف

في شبهِ الجُملةِ ﴿لَنَا﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ ضميرٌ يرجِعُ إلى المتكلِّمينَ الَّذين يدفعونَ عن أنفسِهم مَسؤوليَّةَ الصَّدِّ عن الحقِّ والإيمانِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى نفيِ تعلُّقِ سلطانِ القهْرِ بأنفسِ هؤلاء الظّالمينَ؛ مُبالغةً في تبرئةِ أنفسِهم.

فائدةُ تقديمِ الخبرِ ﴿لَنَا﴾:

تـأكـيـدُ نـفـيِ الـسُّـلـطـان مبالغةٌ في دفعِ دعوى التَّسلُّط

قُدِّمَتْ شبهُ الجملةِ الواقعة خبرًا على اسم كان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾، وفي تقديم الخبرِ في سياقِ النَّفي نفيٌ للخبرِ عن المذكورينَ وإثباتٌ له لغيرهم[1]، وفائدتُهُ هنا هو نفيُ السُّلطانِ عن أنفسِهم خاصَّة، فإنْ كان لغيرنا سلطانٌ عليكم؛ فليسَ لنا، ففيه تعريضٌ بوجود سلطان الهوى والإجرام في قلوب الأتباع، وفي ذلك مزيدُ مُبالغةٍ في دفع دعوى التَّسلُّط.

وأفادَ هذا التَّقديمُ أنَّ سلطانَ الإيمانِ هو قرارٌ شخصيٌّ وأمرٌ راجعٌ إلى النَّفس، فيكون في التَّقديم كنايةٌ عن إرادةِ الاتِّهامِ لهم أنفسِهم بعدمِ الرَّغبةِ في الإيمان؛ إذ ليس للإيمانِ من سُلطانٍ إلّا النَّفسُ وحدَها.

دلالة حرف الاستعلاء في ﴿لَنَا عَلَيۡكُم﴾:

دلَّ الحرفُ (على) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم﴾ على

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 142.

نفيُ الاستعلاءِ دَحْضٌ للإجبارِ والتَّأمُّر

الاستعلاءِ، وهو استعلاءٌ معنويٌّ[1]، أي: إنَّ الظّالمينَ قد نفَوا أيَّ استعلاءٍ على هؤلاءِ الأتباعِ بسُلطانٍ يُلجِئُهم إلى الكُفرِ بالحقِّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تبرئةِ أنفُسِهم من التَّسلُّطِ الَّذي يناسبُ لفظَ الاستعلاءِ والإجبارِ، فيكونُ مُنسجِمًا مع قولِ المُتَّهمينَ لهم سابقًا: ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ المُشعِرِ بالقوَّة والقَهْرِ والسُّلطانِ عليهم.

عَوْدُ الضَّمير في ﴿عَلَيۡكُم﴾:

المقامُ يقتضي التَّصريحَ بالمُخاطَبين

في الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُم﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ ضميرٌ يعودُ هنا على أصحابِ الادِّعاء، فنفَوا أيَّ استعلاءٍ لهم عليهم، أو تحكُّم بهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى شعور الأتباعِ بنوعِ تسلُّطٍ، فنفاهُ الظّالمونَ هنا، ومنَ المُلاحظِ كثرةُ الضَّمائرِ التَّخاطُبيَّةِ في السّياقِ الجدليِّ؛ لأنَّ مقامَ الخصومةِ يَستدعي التَّصريحَ بالمُخاطَبينَ بشكلٍ مُباشرٍ خاصَّةً مع الشُّعورِ بالخَيبةِ الجماعيَّةِ للمُتجادلينَ.

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُم﴾:

نفيُ السُّلطان عن المُدَّعي خاصَّةً

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡكُم﴾ على متعلِّقه ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾، ووجهُ تقديمِهِ هنا هو نفيُ السُّلطانِ عليه خاصَّةً، فإنْ كان لنا سُلطانٌ؛ فليسَ عليكم، وإنْ كان لغيرنا عليكم سلطانٌ؛ فليس لنا عليكم مِن سُلطانٍ، وفي ذلك أيضًا اهتمامٌ بصاحبِ الدَّعوى وردٌّ لدعواهُ خاصَّةً.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾:

النَّفيُ التّامُّ للسُّلطانِ براءةٌ تامَّةٌ مِنَ الادِّعاء

عبَّر النَّظمُ بالحرفِ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾، وهو حرفٌ زائدٌ يدلُّ على الاستغراقِ والتَّوكيد[2]، فقد أكَّدت ﴿مِّن﴾ الاستغراقيَّةُ النَّفيَ، حتى صار نفيًا عريقًا ونفيًا تامًّا[3]، فلا

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 42.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

وجودَ لسلطانٍ قطُّ مهما قلَّ وخفَّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تمامِ التَّأكيد على براءتِهم مِنَ المَسؤوليَّة عن كُفر الأتباعِ أوْ صدِّهم عن الخيرِ، فلو لم يَرِدْ حرفُ الاستغراقِ في النَّظم؛ لاحتملَ النَّفيَ الجزئيَّ للسُّلطانِ عليهم، فلا تتمُّ البراءةُ الكليَّةُ من عدَمِ إيمانِهم.

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿سُلۡطَٰنٍۭ﴾:

دفعُ قليلِ القهرِ نفيٌ لأكثرِه

نُكِّرَ لفظُ ﴿سُلۡطَٰنٍۭ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقيرِ والتَّهوينِ، ونُفيتِ النَّكرةُ تحقيقًا لإرادة العموم، فأيُّ سلطانٍ مهما قلَّ، وحقُر؛ فليسَ لنا عليكم منهُ شيءٌ، وفي ذلك إشارةٌ إلى انتفاءِ القهر والغلَبة، أو الإكراهِ على رَفْضِ الإيمانِ[1].

بلاغة استعمال أسلوب النفي:

تحميل الأتباع مسؤولية الكفر ديدنُ الأسياد

استعمل الظالمون أسلوب النفي في قولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ﴾، لتحميل الأتباع المسؤولية كاملةً؛ كأنّهم قالوا: إنّكم فعلتم ما فعلتم بأنفسكم، ولم نفعل بكم شيئًا[2]، فما لنا مِن قوَّةٍ نقهرُكُم بها على مُتابعتِنا[3]، أوْ نَسلبُكم بها تَمكُّنَكم واختيارَكم[4]، وهو يشيرُ إلى دفع ادِّعاءِ الأتباع وإبطالِه بإبطال أيِّ سلطانٍ عليهم.

وجهُ العطفِ بحرف الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾:

الطُّغيانُ علَّةُ الزَّيغِ وسبيلُ الكُفران

عُطِفتْ جملةُ: ﴿كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾ على جملة: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ﴾ بحرفِ ﴿بَلۡ﴾، الدّالِّ على الإضرابِ الانتقاليِّ[5]؛ لتأكيدِ المعنى السّابق[6]، فلمّا انتفى أيُّ سلطانٍ عليهم؛ فقد ثبتَ أنَّ الاتِّباع كان اختيارًا، فإنَّما تَبِعْتمونا باختيارِكم[7]، فقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 4/ 397.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 39.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/ 223.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

كنتم قومًا طاغينَ، فصرَّحتِ الجملةُ المُبتدئةُ بـ﴿بَلۡ﴾، بما ألمحتْ به الجملةُ التي سبقَتْها، فقد نَفَوا عنهم الإيمانَ الاختياريَّ أوَّلًا، وسَلَبوا عن أنفسِهم التَّأثيرَ في كُفرهم ثانيًا، وعادوا ليثبتوا لهم الطُّغيانَ ومُجاوزةَ الحقِّ في كُفرِهم بالله، فلا فرقَ بيننا أصلًا؛ لأنَّ اتِّهامَهم أفادَ طُغيانَ المُضلّينَ الَّذين لم يَكتفوا بضلالِهم، بل قهروا غيرَهم عليه، فصرَّحوا بأنَّهم مُشتركونَ في الطُّغيان.

دلالةُ فعلِ الكينونةِ الماضي:

تأصُّلُ الطُّغيانِ صادٌّ عن الإيمانِ والإحسان

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الطُّغيانَ سابقٌ فيهم متأصِّلٌ كالجِبِلَّة والطَّبعِ فيهم[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى دعم مَوقفِ الظّالمين من أتباعِهم، فالطُّغيانُ سابقٌ لإغراءِ السّادةِ.

وجهُ إيرادِ ﴿قَوۡمٗا﴾ نكرةً:

طغيانٌ كالطَّبع لا يتخلَّف، ولا يُستغرَب

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿قَوۡمٗا﴾ في قوله: ﴿كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الطُّغيانَ أصيلٌ فيهم مُصاحِبٌ لقوميَّتِهم، كأنَّه مُقوِّمٌ من مقوِّماتِها، وما كان سجيَّةً وشأنًا من شؤونِهم لا يتخلَّف[2]، وفي تنكيرِ لفظ ﴿قَوۡمٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الطُّغيان وصفٌ لهم كوصفِ الأقوامِ الطّاغية، فالطُّغيانُ إذًا لا يُستغربُ منهم، ومَن كان كذلك؛ فلا حاجةَ لسلطانٍ يَقهَرُهُم عليه.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿طَٰغِينَ﴾:

الصَّدُّ عن الحقِّ اختيارٌ منهم راسخٌ كالطَّبع

صيغ لفظُ ﴿طَٰغِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ وصفِ الطُّغيان فيهم، فليس بالأمرِ العابِرِ ولا المُؤقَّتِ، لكنَّه دائمٌ ثابتٌ، ممّا يشيرُ إلى أنَّه يقعُ باختيارهم، فقد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

كُنتُم قومًا مُختارينَ للطُّغيان[1]، ويشير أيضًا إلى أنَّ عدمَ إيمانِهم بالحقِّ أمرٌ لا يُحتاجُ فيه إلى كبيرِ جُهْدٍ أو إلزام وسلطانٍ[2]، فالعلَّةُ في عدم إيمانِكم ليستْ خارجيَّةً عنكم، وإنَّما وصفٌ قام بكم، ألا وهو الطُّغيانُ.

وجهُ العطفِ بـ (الفاء):

عدالـةُ الحـقِّ توجبُ الاعترافَ بـاسـتـحـقـاقِ العقاب

عُطِفَتِ الجملةُ الواردة في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾ على ما سبقَها بـ (الفاء)، وهو عطفُ تفريعٍ على صريحِ ما تقدَّم[3]، دالَّةٌ على التَّسبُّب؛ إذ لمّا تأكَّد أنَّ المتخاصمينَ طاغونَ بطَبْعِهم، وأنَّهم صدّوا عن الحقِّ جميعًا باختيارهم؛ فرَّع عليه اعترافَهم جميعًا باستحقاقِ العَذاب[4]، وأفادَ العطفُ بـ(الفاء) أنَّ الحُكمَ يتأخَّرُ عن علَّتِه؛ إذ عدمُ الإيمان وثبوتُ الطُّغيان أدَّيا إلى تلك النَّتيجةِ، وهي استحقاقُ العَذابِ.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ (حقَّ) ماضيًا:

تحقُّقُ العذابِ وعدٌ ولنْ يُخلِفَ اللهُ وعدَهُ

عبَّرتِ الآيةُ بفعلِ (حقَّ) في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾، ويدلُّ على الثُّبوتِ واللُّزوم، أي: إنَّ العذابَ قد تأكَّدَ عليهم[5]، وفي صوغِهِ بصيغةِ الماضي دلالةٌ على ثبوتِهِ كأنَّه واقعٌ - لا محالةَ - فهو أمرٌ ثابتٌ مقرَّرٌ عند ربِّ العالمين، وفي ذلك إشارةٌ إلى عدم جَدوى أيِّ جهد لدفعِ شيءٍ ثابتٍ، ويفيدُ فعلُ (حقَّ) أنَّ ذلك الحكمَ فيهم قديمٌ أزليٌّ، لكنَّه لم يتقرَّر عليهم إلّا بعد أنْ طغَوا، وآثروا الكفرَ على الإيمان، فَلَزِمَهُم، أي: تعلَّقَ بهم تعلُّقَ لزومٍ بعدَ أنْ كان حُكمًا ثابتًا لكمالِ علمِهِ بأحوالِهم المُستقبَلة.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221 - 222.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

معنى (على):

الإلحاحُ إلى إطباقِ العذابِ دليلٌ على شِدَّتِه

تعدَّى الفعلُ (حقّ) بالحرف (على) في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ المعنويِّ، أي: إنَّ العذابَ لازمٌ[1] وواقعٌ عليهم، كأنَّه ينزلُ عليهم، ويَعلوهُم، وفي ذلك إشارةٌ إلى قطع الرَّجاء في الانفلاتِ منه، فإنَّه واقعٌ - لا محالةَ - لا ينفلتُ منه أحدٌ منهم، فضلًا عن الدَّلالةِ على شدَّتِه، والإلماحِ إلى إطباقِه عليهم.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الاعتراف بالاستحقاق دعوةٌ للاستسلامِ لحُكمِ الله

جرَّ الحرفُ (على) ضميرَ الجمعِ للمتكلِّمينَ في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا﴾ العائدَ إلى المُتخاصِمينَ جميعًا[2]؛ إذ إنَّهم بينَ راغبٍ عن الحقِّ وصادٍّ عن الخير، فكان منهم الكفرُ الَّذي أورثَهم العذابَ؛ لذلك جاءتِ الآيةُ اعترافًا من المُتخاصِمينَ وخُضوعًا واستسلامًا للحُكمِ الثّابتِ فيهم.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الإقرارُ باستحقاقِ العذابِ اعترافٌ بالطُّغيانِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡنَا﴾ على الفاعلِ في قولِه: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾؛ ليدُلَّ على الاهتمام بمَنْ حقَّ عليه القولُ، وهم المُتخاصِمونَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى إقرارِهم باستحقاقِهم العذابَ لما فيهم من الطُّغيانِ والكُفْر[3].

بلاغة الالتفات وغرضه:

الاعتراف بظلم الجميعِ والرضوخ لحكم الجليل

التفت النظم من الخطاب في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ﴾ وما قبله من خطاب الأتباع، إلى التكلم في قوله ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا﴾، وتكمن بلاغة الالتفات في التنصيص على المعني بذوق العذاب، وأنّهم المتخاصمون جميعًا[4]، وهو أشبه بالاعتراف الصريح وتقبّل الوضع.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

إرادةُ الله ماضيةٌ، وعقوبةُ مَن حادَ عن سبيلِهِ ساريةٌ

نكتةُ إيثارِ (القول) في الآية:

آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿قَوْلُ﴾ في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾؛ لدلالتِهِ على إرادةِ اللّه ﷻ(1)، فالقولُ يتضمَّنُ إرادةَ اللّه الأزليَّة الَّتي تقضي بمُعاقبةِ مَن حادَ عن سبيل اللّه، وعبَّر عنها سُبحانه في آياتٍ كثيرةٍ، منها قولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: 85](2)، وهنالك مجازٌ مُرسَلٌ في القولِ المُنبِئ عن الإرادةِ، والعلاقةُ بينهما التَّعبيرُ بالمسبَّبِ وإرادةِ السَّبب، كما أنَّ في إسناد الحقِّ إلى القولِ مجازًا عقليًّا علاقتُهُ مصدريَّةٌ، وفي المجازينِ تصويرٌ لعظمةِ الإرادةِ الَّتي لا تتخلَّف عن عُقوبةِ الظّالمين.

خالقُ الكونِ ومُدبِّرُه لن ينتفيَ عن الخلْقِ عَدْلُه

توجيهُ إضافةِ القولِ إلى الرَّبِّ:

أُضيفَ (القول) إلى لفظ (الرَّبِّ) في قولِه: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، وفي هذه الإضافةِ دلالةٌ على استحضارِ مَعاني المُلك في ربِّ العالَمين، فهو الخالقُ المُبدِئُ المُدبِّر، فمِن شأنه سُبحانَهُ أنْ يُجازيَ عبيدَهُ مُطيعَهم ومُسيئَهُم بعَدْلِه، والإقرارِ والاستسلامِ لحُكم اللّه ﷻ(3)، واستحضارِ معاني الإحسانِ، فهو قولُ الَّذي قابَلْنا إحسانَهُ إلينا وتربيتَهُ لنا بالكُفرانِ(4)، وهو ما يشيرُ إلى شُعورهم بالحياءِ والنَّدمِ.

مِن صفاتِ العذابِ لزومُهُ وشدَّةُ الشُّعورِ بهِ

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾:

عبَّرت الآيةُ بلفظِ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، ووجهُ التَّعبير بذلك هو أنَّ الذَّوقَ هو أشدُّ الحواسِّ تأثُّرًا، فذِكْرُ (الذَّوق) إشارةٌ إلى عظيمِ الألمِ الذي سيشعرونَ به، ففي ذلك تنبيهٌ على لزومِ العذابِ لهم، يَبدأُ بالذَّوقِ، والذَّوقُ يُنبئُ عمّا هو أكبرُ منه، كما أنَّ في اللَّفظِ استعارةً مكنيَّةً؛ إذ شُبِّهَ العذابُ بطعامٍ يُذاقُ، ويُؤَكِّلُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 349.

(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 140.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.

منه، ثمَّ حُذِفَ، وبقي من لوازمه (ذائِقونَ)، وفيه شيءٌ من التَّهكُّم بهم والاستخفافِ بمكانتِهم.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ المجموعِ:

جميعُ الظّالمينَ وأتباعِهم مُعذَّبون

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المَجموعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذَوْقَ العذابِ لازمٌ لهم - لا محالةَ - وأنَّهُ أمرٌ ثابتٌ لا رجعةَ فيه؛ لِما علِمَهُ تعالى من حالِهم واستحقاقِهم للعقوبةِ[1]، وعلى لزومِ العذابِ للجميعِ دونَ استثناءٍ[2]، وللإشعارِ بالاشتراكِ جميعًا في العذابِ دونَ تمييزٍ بينَ الظّالمينَ وأتباعِهم ما دام الجميعُ قد طغَى، وكفَرَ.

سرُّ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾:

في إضمارِ المُذاقِ تهويلٌ ومَزيدُ تَفزيع

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ من قولِه: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، وهو معلومٌ عند الجميعِ، وقد ذُكِرَ في السّياقِ في قولِه ﷻ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23][3]، ولعلَّ السِّرَّ في حذفِه هو أنَّ في ذكرِه الفزعَ وكتْمَ أنفاسِ الحَسرةِ؛ لذلك سكتوا عن ذِكْرِه.

بلاغةُ حَشْدِ المؤكِّداتِ:

الإقرارُ بالعذابِ إبطالٌ للَّوْمِ وتسليمٌ لِلهَوْلِ

حَشَدَتِ الآيةُ مؤكِّداتٍ عديدةً في قولِه: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، وهي (إنَّ) واللّامِ والجملةُ الاسميَّة، وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على صُعوبةِ تقبُّلِ النَّتيجةِ، وهي العَذابُ، لذلك تضافرتِ المؤكِّداتُ؛ ليتحقَّقَ أنَّ العذابَ أمرٌ مقضيٌّ لا محيصَ عنه، وأنَّه قد ترتَّب على أسبابِه بما اختاره كلُّ واحدٍ من المتخاصمينَ، وإشارةٌ إلى إبطالِ اللَّوْمِ بينهم وتوجيهِه إلى النَّفسِ[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.

(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 140.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.

المُتكلِّمُ أخصُّ من المخاطَب الحاضِر

بلاغةُ الالتفاتِ:

عبَّر النَّظمُ في قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بأسلوبِ الالتفاتِ من المُخاطَبِ إلى المُتكلِّم، وتكمنُ بلاغةُ ذلك في التَّنصيصِ على المعنيِّ بذوقِ العَذاب، وأنَّهم المتخاصِمونَ جميعًا[1]، وهو أشبهُ بالاعترافِ الصَّريحِ والإقرارِ المُباشِر.

التَّخفيفُ من العِتاب وتقبُّلُ التَّسويغ بالغواية

بلاغةُ الاعتراضِ:

يمكنُ اعتبارُ جملة: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ مُعترِضةً بينَ تأكيدِ طُغيانِ الأتباعِ وتأكيدِ السّادةِ أنَّهم أغوَوا أتباعَهُم[2]، وتكمنُ بلاغةُ هذا الاعتراضِ في التَّوطئةِ لذكر تأثيرِ السّادةِ في أتباعِهم؛ فإذا تأكَّد أنَّ الجميعَ في العذاب، وأنَّه قد حقَّ عليهم بما كان منهم من طُغيانٍ وعدمِ إيمان، فلا جَدوى من العتابِ واللَّوم، فإذا خفَّ اللَّومُ؛ تقدَّمَ السّادةُ بذكر تأثيرهم في الأتباعِ بغير ما تصوَّروه.

تفريعُ الإغواءِ على الكُفرِ وسَبْقِ الطُّغيان

وجهُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾:

عطفَ النَّظمُ قوله: ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾ على جملةِ: ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ﴾ بحرفِ (الفاء)، وهو عطفُ تفريعٍ على مضمونِ ردِّ الظّالمينَ على أتباعِهم؛ ابتداءً من قولهم: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: فإذا لم تكونوا مؤمنينَ، ولم يكن لنا عليكُم سلطانٌ في اختيارِكم الكفرَ، وأنَّكم كنتُم طاغينَ؛ فما كان منّا إلّا الإغواءُ[3].

عمَلُ الظّالمينَ التَّزيينُ زيادةً في غوايةِ المتَّبعين

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (أغوينا) مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ بلفظِ (أغوينا) في قوله: ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ لأمرٍ في مادَّتِه وفي صيغتِه؛ فأمّا مادَّةُ (أغوى)؛ فتدلُّ على الانجذابِ إلى شيءٍ معَ تغشٍّ وفسادٍ[4]، أي: إنَّ الباطلَ صارَ مزيَّنًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غوي).

للأتباعِ الَّذين قبلوه، وابتَغوه[1]، وأمّا صيغةُ (أغوى)؛ فهي تدلُّ على تعديةِ الفعلِ اللّازم بالهمزةِ، أي: إنَّ الظّالمينَ زادوا الأتباعَ إغواءً، وأيَّدوهم في غوايتهم[2]، وكان عملُ الظّالمينَ هو التَّزيينَ والتَّسويلَ حتى يَزيدوا للأتباعِ الغواية.

وجهُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ الماضي:

مَن يألَفُ الغواية يَتطبَّع بها أفعالًا

جاءَ التَّعبيرُ في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ بفعلِ الكونِ الماضي، ووجهُ التَّعبيرِ به هنا هو الدَّلالةُ على تمكُّنِ الغَواية في نفوسِهِم[3]، فقد ألِفوا الغوايةَ، وأُشربوها زمنًا حتى كانوا غاوينَ.

عودُ الضَّمير في ﴿إِنَّا﴾، و﴿كُنَّا﴾:

اعترافُ الغاوين مصيرٌ حتميٌّ لا اختيارٌ

عبَّر النَّظمُ بضميرِ الجمعِ للمتكلِّم في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ العائدِ إلى المُخاطَبينَ بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾، وفي عودِ الضَّمير إلى هؤلاء ردٌّ إلى أصلِ الادِّعاء، فهؤلاءِ الظّالمون قد أقرّوا بأنَّهم كانوا غاوينَ، لذلك زيَّنوا للأتباعِ الغواية الَّتي استحبّوها، فأبطلوا بذلك التَّسلُّطَ عليهم، وأثبتوا التَّزيينَ والدُّعاءَ إلى الغواية، ليظهرَ المُتسبِّبُ مِنَ المُعين.

تكرُّرُ ضميرِ الجمعِ المتكلِّم:

التَّأثيرُ في الأتباعِ مُمتدٌّ إلى نارِ الجحيم

تكرَّرَ في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ضميرُ الجمع، ويدلُّ ذلك على إشعارِ الظّالمينَ أتباعَهم بعظمتِهم، وهو نوعُ تأثيرٍ وإسكات، فإذا كان الجميعُ سواءً في الطُّغيان وفي استحقاقِ العذاب، إلّا أنَّ ثمَّةَ فرقًا بين السّادة والأتباع، فالسّادة هم السّابقونَ في الغَواية والمُؤثِّرون بها، ففي ذكرِ (نا) الجمع تأثيرٌ في الأتباعِ، ولو كانوا في عذابِ الجحيم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿غَٰوِينَ﴾:

غَوايةُ الظّالمينَ مُتأصِّلةٌ في أنفسِهم

عبَّر النَّظمُ بلفظِ اسمِ الفاعل في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الغواية طبعٌ فيهم[1]، فهي متأصِّلةٌ فيهم وديدَنُهم في أنفُسِهم[2]، وما كان بالطَّبع؛ فإنَّه يظهرُ في أصحابِهِ - لا محالةَ - ويُؤثِّر فيمَن حولهم، وهو إغواءُ الأتباع.

بلاغةُ حشدِ المؤكِّدات:

تأصُّلُ الغَواية سببُ كلِّ غَشاوة

ضمَّتْ جملةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مجموعةً من المؤكِّدات، وهي: (إنَّ)، وفعلُ الكينونة، والجملةُ الاسميَّة، وتظاهرُ التَّوكيداتِ هنا يشيرُ إلى أنَّ الظّالمينَ إنَّما يُسوِّغون إغواءَهم لأتباعِهم بأنَّ غوايتَهم هي الَّتي دفعَتْهم لإغواءِ الأتباع، فالغَواية فيهم متأصِّلةٌ، وما هم إلّا مُنجذبونَ للضَّلال مُتأثِّرون به، مُنقادونَ له، مغشيٌّ على أبصارِهم وقلوبِهم به.

بلاغةُ التَّعليل في ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾:

تسويغُ الإغواءِ إبعادٌ للعَتَبِ عليهم

جاءتْ جملةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مُستأنفةً عن جملةِ: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، وهو استئنافُ تعليلٍ[3]؛ إذ علَّلوا صدورَ الإغواءِ منهم بأنَّهم كانوا غاوينَ[4]، وتكمُنُ بلاغةُ التَّعليل هنا في تسويغِ الإغواءِ، فالغواية تقتضي التَّأثيرَ في الآخَرين؛ ليكونوا غاوينَ مثلَهم[5]، ولم تكنْ منهم إلّا رغبتُهم أنْ يكونَ أتباعُهم مثلَهم[6]، ومن بلاغةِ التَّعليل أيضًا إبعادُ العتَبِ عنهم، فما كان منهم إلّا التَّزيينُ[7]، فهم قد أقرّوا بأنَّهم تسبَّبوا في إغوائِهم، لكن لا بطريقِ القَهْرِ والغَلَبة[8].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(8) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 449.

براعةُ الجوابِ في جدالِ الظّالمينَ مع الأتباعِ:

إنَّ تتبُّعَ ما وردَ في جوابِ الظّالمينَ لأتباعهم يوقفُ على نُكَتٍ بلاغيَّةٍ رائقةٍ في حُسْنِ التَّخلُّص من الاتّهام بالإضلالِ، فلم يَهجموا على أتباعِهم بالجوابِ بالنَّفي، لكن ابتدؤوا جوابَهم بأنْ ردّوهم إلى أصلِ حالِهم، وهو عدمُ الإيمان، وهو ما يدفعُ إلى العَودة للنَّفس بالمَلامة، ثمَّ ثنّوا بنفْيِ أيِّ قهرٍ وتسلُّطٍ عليهم في اتِّباعِ الباطل، وزادوا للأتباع غَمْرًا في تحمُّلِ المَلامة بأنَّ الطُّغيانَ أصيلٌ فيهم، فصاروا طغاةً بعدَ عدمِ الإيمان، ثمَّ جاءَ ذِكرُ الإغواءِ للطّاغين تتمَّةً، وأنَّ السّادة لم يكن من قَصدِهم إلا أنْ يكونَ أتباعُهُم مثلَهم غاوين، فقد اختاروا لهم ما اختاروه لأنفُسِهم.

سُمُوُّ منزلةِ السّادةِ في أتباعِهم مظنَّة قوَّةِ التَّأثير

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الطُّغيان والعُتوّ والاستبداد والاضطهاد:

يجتمعُ (الطُّغيانُ والعتوُّ) في مُجاوزةِ الحدِّ، ويَفترقانِ في أنَّ الطُّغيانَ تجاوُزُ الحدِّ بمكروهٍ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف: 80][1]، في حين يدلُّ العتوُّ على شدَّةِ مُخالفةٍ وعِنادٍ[2]، وقريبٌ من العتوِّ (الاستبدادُ)، وهو التَّفرُّدُ بالرَّأيِ والاستقلالِ بالأمرِ دونَ الآخَرين[3]، وهو نوعٌ من أنواعِ العتوِّ والعِناد، وقريبٌ من الطُّغيانِ (الاضطهادُ)، وهو التَّعدّي الشَّديدُ على كلِّ حقٍّ للآخَرين، وهو نوعٌ من أنواعِ الطُّغيان، ولأجل ذلك آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿طَٰغِينَ﴾؛ لدلالتِها على أصلِ الاعتداءِ على الحقِّ، فيكون أعمَّ مطلقًا مِن غيرِه.

الاستبدادُ عتوٌّ على رأي الآخَرين، والاضطهادُ طغيانٌ على حقوقِ الآخَرين

الغواية والزَّيغ والضَّلال:

تجتمعُ (الغَوايةُ والزَّيغُ) في أنَّهما ضلالٌ عن الجادَّة، ويفترقُ

---

(1) بيات، معجم الفروق، ص: 337.

(2) بيات، معجم الفروق، ص: 337، والراغب، المفردات: (عتو).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدد).

الضَّلالُ خطأُ السَّبيل، والزَّيغُ ضلالٌ عن الاستقامةِ، والغوايةُ عَمايةٌ وفَسادٌ

(الزَّيغُ) عنِ الضَّلال في المَيلِ إلى المَكروه، فالزَّيغُ لا يكونُ إلّا ميلًا عن الحقِّ[1] وعنِ الاستقامةِ[2]، وإذا كانَ (الضَّلالُ) هو خطأ السَّبيلِ عمومًا؛ فالغوايةُ: هي انهماكٌ في الضَّلال حتى صارَ عَمَدًا، وعمَّتْ صاحبَه العمايةُ، وقصدًا سيِّئًا عن عَمْدٍ وإصرار[3]، حتى صارَ الغيُّ فَسادًا[4]، ولأجل هذه الفروقِ حسُنَ اختيارُ (الغوايةِ) في الآية؛ لتوضيحِ دَرجة عماية هؤلاء الظّالمينَ وانهماكِهم في الباطل، فليس مجرَّدَ ضلالٍ ولا زيغٍ عن الحقِّ، بل هو عمايةٌ مع القصدِ إلى مُضادَّةِ الحقِّ.

---

(1) بيات، معجم الفروق، ص: 269.

(2) الراغب، المفردات: (زيغ).

(3) داود، معجم الفروق الدلالية: 328 - 332.

(4) بيات، معجم الفروق، ص: 292.

﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٤﴾ [الصافات: 33 - 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

دفــع أوهــام الأفـهـام وبيـان القول الحقّ عن الحقِّ

بعدَ أنْ تمَّ جوابُ الظّالمينَ لأتباعِهم ودفعِهم لدعواهم، واتَّضحَ أنَّ الجميعَ في الغوايةِ سواءٌ؛ أَتْبَعَهُ تعالى ببيانِ الحُكمِ عليهم جميعًا، وما ينتظرُهم من جزاءٍ عادلٍ[1]، فقد أفصحَتْ هذه الآياتُ عن نتيجةِ الجِدالِ السّابقِ[2]، لدفعِ كلِّ ما قد يطرأ على الأفهام من احتماليّة وقوع العفو عن المعترفين بخطئهم، فالمناسبة أفادت معنًى دلاليًّا، لتصحيح أوهام الأفهام، بحيث لا تنجرف في غير مسار الحق.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾: (عذب) مِن عذُبَ الشَّيءُ، ويُطلَقُ على معانٍ مُختلفةٍ، يمكنُ ردُّها إلى معنيَين: الأوَّلُ هو المَنْعُ، فالعَذبُ هو المُمتنِعُ، وفرسٌ عذوبٌ؛ إذا باتَ لا يأكُلُ، ولا يشرَبُ، وأعذَبْتُه، وعذَّبْتُه، أي: مَنَعْتُه، ومنه العذابُ، وهو العقوبةُ تمنَعُ صاحبَها من العَودةِ إلى جُرْمِه، وماءٌ عذْبٌ، أي: يُروي، ويَمنعُ العطَشَ[3]، ومنه قولُه سبحانه: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ [الفرقان: 53]، والمعنى الثاني: هو نفاذُ الكثافةِ والقوَّة[4]، والماءُ العَذْبُ: هو ما نفذَتْ منه مُلوحتُهُ وكُدورتُهُ حتَّى طابَ[5]، يقالُ: ماءٌ عَذْبٌ؛ أي: طيِّبٌ مُستساغٌ، ومنه العَذابُ، وهو النَّكالُ والعُقوبةُ؛ لأنَّها تُفني قوَّةَ المُجرِمِ، وتُهلِكُه بإيقاعِ الآلامِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(3) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (عذب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عذب).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (عذب).

المؤدّية إلى ذلك كالضَّربِ المُبرِحِ بصوَرِه، والجَلْدِ والقَطْعِ والإجاعةِ والإعطاشِ... ومعنى ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ في الآية: هو الموجِعُ المُفني.

2) ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾: (شرك) يدلُّ على الخلط، وكلُّ شيء كان فيه القومُ سواءً؛ فهو مُشْتَرَكٌ، وهو وجودُ شيءٍ بين طرفينِ أَوْ أكثرَ، لكلِّ واحدٍ منهم نصيبٌ فيه، يقولُ ﷻ: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر: 29]، والشِّركةُ مُخالطةُ الشَّريكَين، والميراثُ شِرْكةٌ بينَ الوَرثة[1]، والمُشارَكة هي المُخالطَةُ بينَ الشَّريكين[2]، يُقال: شَرَكَهُ في الأمر يَشْرِكُهُ؛ إذا دخلَ مَعَه فيه، وأشْرَكَ فلانٌ فلانًا في البيع؛ إذا أدخلَهُ مَعَ نَفسِه فيه[3]، ومعنى ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ في الآية: أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم نصيبَهُ مِنَ العَذاب.

3) ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أصلُ لفظِ (مجرم) مِن (جرم)، أي: قطعَ، والمَجرومُ هو المَقطوعُ، ويُطلَقُ على عُذوقِ التَّمْرِ الَّتي تُقطَعُ، ومن القَطْعِ: جَرَمَ، أي: كَسَبَ؛ لأنَّ الَّذي يَحوزُهُ، فكأنَّه اقتطَعَهُ[4]، وفُلانٌ له جَريمةٌ، أي: جُرْمٌ، وهو مَصدرُ الجارِمِ الَّذي يَجرِمُ على نفسِهِ وقومِهِ شرًّا، أي: يَكسِبُهُ، ويُطلَقُ الجُرْمُ على الكَسْبِ المَكروهِ، ولا يكادُ يُقالُ في عامَّة كلامِ العرَبِ للمَحمودِ[5]، فلا يُطلَقُ إلّا على الذَّنبِ العظيم[6]، ومعنى ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في الآية: الَّذين بَلَغوا مُنتَهَى السّوءِ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كانَتْ نتيجةُ الجدالِ السّابقِ أنَّ الفريقينِ المُتسائلينِ حينئذٍ

الأتــبـــاعُ والمتَبوعونَ سواءٌ فــي الجـريـمـةِ والعِقاب

(1) الخليل، العين: (شرك).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (شرك).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).

(5) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (جرم).

(6) الكفوي، الكليات: 1/ 41.

(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.

مُشترِكونَ في العذابِ - لا محالةَ - لاشتراكِهم في الضَّلال والغَواية، هذا هو العدلُ الذي تقتضيهِ سُنَنُ الحقِّ تعالى، فإنَّ مثلَ ذلك الجزاءِ العظيمِ يُجازي اللّه كلَّ مُرتكِبٍ للجُرمِ العظيم، وإعطاءَ كلِّ عاملٍ جزاءَ ما قدَّمتْ يداه، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الفاء الفصيحة:

الـضَّـلالُ المُبين لا يَنجُمُ عنه إلّا العذابُ المُقيم

ابتدأتْ جملةُ: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ بالفاءِ، وهي فاءُ الفصيحةِ، أي: إذا تقرَّرَ ما قبلَها من جدالٍ بينَ الأطرافِ في العذابِ؛ جاءَ ذكرُ نتيجةِ ذلك الجدال، فأفصحَتِ (الفاءُ) عن شرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا كان حالُهم كما سَمِعْتم؛ فإنَّهم يومَ القيامةِ في العَذاب مُشتركون[2]، وهذا المعنى يدلُّ على التَّسبُّبِ عمّا قبلَهُ؛ إذِ الضَّلالُ المُبينُ يؤدّي إلى العذابِ المُقيم.

وجهُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ):

لا تردُّدَ في إثباتِ العذابِ لجميعِ الظّالمينَ

أكَّدَ النَّظمُ مآلَ المُتخاصِمينَ بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾، ووجهُ التَّوكيدِ هنا هو تقريرُ نتيجةِ الجدال ودفعُ ما يُتوهَّمُ أنَّ العذابَ مفروضٌ على فئةٍ دونَ أُخرى[3]، وهو ما يُزيلُ الشَّكَّ تمامًا في تحمُّلِ فئةٍ مَسؤوليَّةَ فئةٍ أُخرى.

عَوْدُ الضَّميرِ في (إنَّهم):

المُـغـوونَ مـعَ الـغـاويـنَ في العذاب

عبَّرتِ الآيةُ بالضَّميرِ (هم) في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، ليعودَ إلى الفريقَينِ المُتجادلَين[4] اللَّذينِ أقبلَ بعضُهم على بعضٍ، وتجاذَبوا الحوارَ في تحمُّلِ مسؤوليَّةِ الغواية، فهم الأتباعُ والمَتبوعون[5]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تعلُّقِ النَّتيجةِ بهم جميعًا بعدَ ذلك الجدال.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 223.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 223.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.

استحضارُ ما يَنتظِرُ الظّالمين تعميقٌ للجزاءِ والأهوالِ

دلالةُ ظرفِ الزَّمانِ (يوم):

دلَّ ظرفُ الزَّمان (يوم) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ على وقوعِ الاشتراكِ في العَذاب يومَ القيامة[1]، أي: يومَ الجزاءِ على الأعمالِ، وفي ذكرِ اليومِ استحضارٌ لما يَنتظرُ هؤلاءِ من أهوالٍ وجزاءٍ شديدٍ، وأفادَ تقديمُ الظَّرف على عامِلِه ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾ اختصاصَ ذلك اليومِ بالحُكم المَذكور، بخلافِ ما هُم عليه في الدُّنيا من اشتراكٍ في المَصالحِ والمَنافع والتَّكذيب.

طيُّ الجدالِ واستحضارِ مَشهَدِ العذابِ

دلالةُ الحذفِ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

أضافَ النَّظمُ (اليوم) إلى ظرفِ الزَّمانِ (إذْ) في قولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، معَ تنوينِ المضافِ إليه بالتَّنوينِ المسمَّى تنوينَ العِوَض؛ عِوضًا عمّا سبقَ من التَّساؤُلِ ومُراجعةِ القولِ بينَ أصحابِ الجَحيم[2]، ويدلُّ الحذفُ هنا على طيِّ صفحةِ التَّراشُقِ بالتُّهَم وإلصاقِ بعضِهم تبعةَ الغوايةِ للبعض، فقد تحصَّلتِ النَّتيجةُ وهي استحقاقُ الجميعِ للعذاب، والانتقالُ إلى حصولِ العَذاب المُشترَك.

التَّهويلُ من العذابِ والتَّيئيسُ من الخَلاص

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ على متعلِّقهما ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾، ويدلُّ ذلك على اختصاصِ الاشتراكِ بالعذابِ دونَ غيره من الأشياء؛ ردًّا على مَن اعتقدَ أنَّ العذابَ مُختصٌّ بفريقٍ دونَ آخَرَ منهم، وتيئيسٌ لهم من التَّخلُّصِ من نتيجةِ أعمالِهم، وتهويلٌ لما ينالُهم من عذابٍ.

دِلالتا الظَّرفيَّةِ والتَّعريف:

دلَّ الحرفُ ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ على

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 99.

الظَّرفيَّة، فهم واقعونَ في العَذاب[1]، وفي الظَّرفيَّةِ إشارةٌ إلى أنَّهم مَظروفونَ بالعذابِ، يُحيطُ بهم من كلِّ جانبٍ، ما يَزيدُهم هَوْلًا وشدَّةَ آلامٍ، وفي جعْلِ العذابِ مظروفًا للمشتركينَ فيه استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ شبَّه العذابَ بمحلٍّ يدخلُ فيه المعذَّبونَ، ويُحيطُ بهم، وهو تجسيدٌ للعذابِ، وكأنَّه محلٌّ يحوي المُعذَّبينَ، ويُحيطُ بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، وجاءَ لفظُ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ معرَّفًا؛ ليدلَّ على كمالِ الجنس؛ أيْ: إنَّ هؤلاءِ سيشتركونَ في العذابِ، ولكنْ أيُّ عذابٍ؟ إنَّه العذابُ الأكبرُ[2]، وفي ذلك مزيدُ تهويلٍ يُقابِلُ إجرامَهم.

التَّهويلُ والتفخيم تقريبٌ للمَشهَدِ الأليم

دلالةُ اسمِ الفاعلِ المجموعِ ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ بلفظ ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الاشتراكَ بينَ هؤلاءِ المُتخاصمينَ في العذاب أصيلٌ لا شكَّ فيه ولا تردُّد، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم له نصيبٌ ثابتٌ مِنَ العذاب، لا يُزيلُه عنه إلقاءُ تهمةٍ أو تحميلُ غيرِه تبعتَه، ولا يخلِّصُه منه غيرُه، كما كانوا مُشتركينَ في الغواية جميعًا[3]، بحسب اشتراكِ كلِّ واحدٍ منهم[4]، ومن بديعِ أسلوبِ القرآن إتيانُه بلفظِ ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾ في هذا السّياقِ الَّذي وقع فيهِ التَّخاصُمُ وإلقاءُ اللَّوم على السّادة، الذين بيَّنوا أنَّ الأتباعَ كانوا مُشتركينَ معهم في التَّكذيبِ والطُّغيان، والاشتراكُ في السَّبب يؤدّي إلى الاشتراكِ في المسبَّب، فلا فرقَ بينَ الأتباعِ والمتبوعين؛ إذ اشتركا في الدُّنيا بالضَّلال، فيشتركانِ في الآخرةِ بالعذاب.

لكلِّ مُعذَّبٍ نصيبُه المقسومُ

بلاغةُ الخبرِ:

تضمَّنتِ الآيةُ ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ الإخبارَ باشتراكِ

يومَ الفصل لا جدوى من الاعتذارِ والتَّنصُّل

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 223.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 33، والزمخشري، الكشاف: 4/ 41.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.

المُتخاصمينَ في العذابِ دونَ خلاصٍ لأحدِهم منهُ، والآيةُ لا تخبرُ بهذا بقدر ما تقصدُ إلى بيانِ عدم إيجاد أيَّةِ معذرةٍ لأحدِ الفريقين ولا تنصُّلٍ من المسؤوليَّة[1]، وتخصُّ الأتباعَ بالتَّيئيس من أيَّةِ مُحاولةٍ في ذلك[2].

بلاغةُ الفصلِ في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ﴾:

صنوفُ العذابِ والتَّبعيد جزاءُ كلِّ مجرمٍ عَنيد

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ﴾ عمّا قبلها؛ للإخبارِ بجزاءِ كلِّ مَن يفعلُ ما فعلَهُ هؤلاءِ الظّالمون، وهو استئنافٌ لتعميمِ الحُكم لعموم علّتِه، فكلُّ مَن أجرمَ؛ فهذا جزاؤُهُ، وهو أيضًا استئنافُ تهويلٍ للعذاب، وتخويفٍ منه؛ ليزعَ كلَّ مَن تُسوِّلُ له نفسُهُ أنْ يفعلَ مثلَ هؤلاءِ[3].

سرُّ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

جـزاءُ المجرمينَ واقعٌ لا شكَّ فيه

ابتدأتْ جملةُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ﴾ بالتَّوكيدِ بـ(إنَّ)، وهو توكيدٌ لثبوتِ الجزاء يدفعُ نفيَ المشركينَ لتحقُّقِ الجزاء والبَعْث والحسابِ والعذابِ؛ إذ قالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦﴾ [الصافات: 16]، ويمنعُ منَ التَّمادي في الإجرام تماديَ المُنكِرِ للجزاء[4]، فهذا هو ما ينالُهُ كلُّ مُجرمٍ مِنَ العذابِ يومَ الدّين.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّا﴾ ودلالتُهُ:

وعـيدُ العظيم واقعٌ لا مَحالةَ

جاءَ اسمُ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ ضميرَ جمعٍ؛ ليعودَ إلى الحقِّ سُبحانه، الَّذي يُجازي العبادَ على أعمالهم، فينالُ المجرمُ عقابَهُ، كما يُثاب المحسِنُ على إحسانِه، ويدلُّ الضَّميرُ هنا على حاكمٍ قهّارٍ متفرِّدٍ بالجلالِ، وزادَهُ مَهابةً أنْ جاءَ بـ(نا) لجمعِ المتكلِّمين المشعِرِ بالعظمةِ التي لا يفوتُها شيءٌ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 248.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

الاشتراك في الإجرام الدنيويّ يقود إلى الاشتراك في العذاب الأخروي

دلّت الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، على أنَّ ما حصل للأتباع والأسياد يحصل مثله في جميع المجرمين؛ لأنّ المجرمين يكونون ما بين تابعٍ ومتبوع، فتحصّل من ذلك أن يكون بينهم يوم القيامة اشتراك في الملاومة والمعاتبة والاتهام، واشتراكٌ كذلك في العذاب والعقاب؛ فكلّ فِئة مجرمة على مدى التاريخ تقوم في الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى، فينشأ عن الاشتراك في الإجرام ما يُفعل بهم يومَ القيامة، فأفادت الكاف سُنّيّة العقاب والعذاب؛ بغرض التنبيه والتحذير.

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيد:

تهويلُ العذابِ تحذيرٌ للمُجرمينَ من يوم الحساب

عبَّر النَّظمُ باسم الإشارةِ للبعيد في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ﴾، وذلك لتهويلِ شأنِ هذا الفعلِ، وهي العقوبةُ والنَّكال، فهو لِعَظم شأنه كالبعيدِ، أي: نفعل بالمجرمين مثلَ ذلك الجزاءِ العظيم[1]، وفي ذلك تهويلٌ للعذابِ وتحذيرٌ للمجرمينَ؛ ليكفّوا عن إجرامِهم؛ إذ تحوَّلَ العذابُ لفرطِ شدَّته إلى أنْ يُشبَّهَ به غيرُهُ دونَ تشبيهِهِ بغيرِهِ، وذلك أعلى درجاتِ المُبالغةِ وأعمقُ حالاتِ التَّصوير.

دلالةُ المضارعةِ والتَّعظيمِ في ﴿نَفۡعَلُ﴾:

يكرِّر العدلُ سبحانه بعظمتِهِ الجزاءَ بتكرُّرِ الإجرام

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ المُضارعِ في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ﴾ الدالِّ على تجدُّد هذا الفعل بتجدُّدِ سببِهِ، فكلَّما كان هنالك إجرامٌ؛ فَعَلْنا بالمجرمين مثلَ هذا العذاب، وقد جاءَ بضميرِ الجمع، وهو هنا يَدُلُّ على المولى الديّان، (فبعظمتِنا نُجازي الجزاءَ نفسَهُ كلَّ مُجرمٍ)، وهي إشارة إلى عموم الجزاء فلا استثناء.

معاني (الباء):

جُرَّ لفظُ (المجرمين) بحرفِ الباءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 54.

العذاب مُلازمٌ للمجرمين لا ينفكّون منه

﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الدّالِّ على (التَّعدية) للفعلِ إلى المفعولِ الثاني، وأمّا المفعولُ الأوَّلُ؛ فمحذوفٌ يدلُّ عليه السّياقُ، وهو (العذابُ)، أي: نفعلُ العذابَ بالمُجرمينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ (للملابسة) المتعلِّقة بالعذابِ، أي: العذابَ المُلتبِسَ بهم، لا ينفكّون عنه؛ إذا وقعَ بهم، وما ذلك إلّا للزومِهِ للإجرام، ويحتملُ أنْ تكون الباء (للسببيَّة)، أي: بسببِ الإجرام نفعلُ العذابَ[1].

بلاغةُ الإظهارِ بدلَ الإضمارِ في (المُجرمينَ):

تهويلُ ما ينتظرُ المجرمينَ عِظةٌ لكلِّ العالمين

آثر النّظْم الكريم إظهارَ وصف (المجرمين) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بدلَ القولِ: (نفعل بهم)، وتكمنُ بلاغةُ إظهارِهِ في تعليقِ الحُكم بالوصفِ تعميمًا وتعليلًا[2]، أي: سببُ العقوبةِ هو الإجرامُ[3]، فمَن أجرمَ؛ فقد حلَّ عليه الجزاءُ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ (المجرمين) مادَّةً وصيغةً:

دليلُ استحقاقِ العذابِ إصرارُ المجرمينَ على الذَّنب

آثرتِ الآيةُ إيرادَ الوصفِ (المجرمين) في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لدلالةِ الإجرام على عظيمِ الذَّنب[4]، كما أن انتقاء صفة الإجرام دون بقيّة الصفات بيانٌ لحقيقة أفعال المشركين في الدنيا، وأنّها قامت على الإجرام، فهو المظهر الأكبر من مظاهر الكفر، وقد تقدّم ذكرُ الطغيان والإغواء في السِّباق، فدلَّ ذلك كلُّه على أنّ الإجرام هو أخصُّ خصائص الصدِّ عن دين اللّه تعالى، والعناد على الكفر، ومجيء، واختيرَ صوغُهُ على هيئةِ اسمِ الفاعل الدالِّ على رسوخِ وصفِ الإجرام فيهم، حتَّى بلَغوا مُنتهاه والغايةَ في تجسيدِ صوَرِه[5]، وفي كلِّ ذلك إشارةٌ إلى تمامِ استحقاقِ هؤلاءِ للعذاب.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.

(4) الكفوي، الكليات: 1/ 41.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.

دلالة جمع لفظ ﴿بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وتعريفه:

استحقاق كلِّ مجرمٍ طاغٍ جزاءَ إجرامه

جاء لفظ ﴿بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ جمعا معرّفًا، للإشارة إلى الأطراف السابقة؛ فالمجرم - وإن كان تابعًا أو متبوعًا - فقد استحقّ العذاب، فجمعهم في هذا اللفظ، كما يرجع تعريفه إلى أنّهم معهودون في الخطاب، فهم مجرمون مثل إجرام هؤلاء[1]، حتى استحقّوا مثل عقابهم. وفي ذلك إشارة إلى قصد صفاتٍ وأفعالٍ ينطبق عليها الجزاء ويصحّ معها التعميم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: 35 - 36]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقال من استحقاق العذاب إلى ذكر أسبابه

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ استحقاقَ المُجرمينَ للعَذاب؛ جاءت هاتانِ الآيتانِ لتعليلِ ذلك الحُكم، وذلك ببيانِ إجرامِهم، وهو الشِّرك باللّه، والتَّكبُّرُ عن الدَّعوةِ إلى توحيدِه، والقدحُ في رسولِه ﷺ بنسبتِه إلى الشِّعرِ والجُنون[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾: (كبر) هو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر، وهو نُموُّ حجم الشَّيءِ وزيادتُه[2]، ومِنَ الكِبْرِ العظمةُ، وكُبْرُ كلِّ شيءٍ: عِظَمُه[3]، ومنه العِظَمُ المَعنويُّ في قولِه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: 9][4]، ومنهُ الرِّفعةُ والشَّرَفُ، والتَّكبُّرُ والاستكبارُ: التَّعظُّمُ، واستُعملَ في إبرازِ تحقُّقِ الصِّفةِ تمامَ التَّحقُّقِ، كما في قولِه سبحانه: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]، أو تكلُّفُ عَظَمةِ القَدْرِ وادِّعاؤُها، كما في قولِ الحقِّ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 146]، ومنه الاستكبارُ بمعنى الأنَفةِ والاستنكافِ من شيءٍ مّا، كأنَّه أعظمُ مِن هذا الشَّيءِ، يقولُ ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر: 59][5]، وهو المعنى المقصود في الآية.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 331، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 99، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 54، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كبر).
(3) الخليل، العين: (كبر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كبر).
(5) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كبر).

2) ﴿لِشَاعِرٍ﴾: (شعر) له أصلانِ: أحدُهما من الشَّعْرِ، وهو الَّذي يَنمو على الجَسَدِ، وشَعَرَتْ: أصبتُ الشَّعْرَ[1]، والشِّعارُ هو ما يُلبَسُ على الجسدِ مُلامِسًا للشَّعر، ومنه الشِّعارُ الخاصُّ بالحرب، أي: ما يُلبَسُ؛ ليُعلَمَ غيرُهُ بالحَرب[2]، فصار الشِّعارُ إعلامًا، وهو المعنى الثاني، ولأنَّ الشَّعرَ دقيقٌ أو نفاذَهُ دقيقٌ؛ صارَ الشُّعورُ هو التَّفطُّن للدَّقيق، والمشاعرُ الحواسُّ، يقول تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2][3]، والشُّعورُ: الفطنةُ والمعرفةُ، ومنه سُمّيَ الشّاعرُ الَّذي يَقرضُ الشِّعرَ (شاعرًا)؛ لِفطنَتِهِ ودقَّةِ معرفتِهِ، وأنَّهُ يَشعُرُ ما لا يَشعُرُ بِهِ غيره[4]، وهو المعنى المقصود في الآية.

3) ﴿مَّجۡنُونِۭ﴾: (جنن)؛ أي: سَتَرَ، وجنَّهُ اللَّيلُ أجنَّهُ، وجَنَّ عليه: سَتَرَهُ، وأجنَّهُ جعلَ له ما يَجِنُّهُ، والجَنانُ القلبُ؛ لكونِه مستورًا عن الحاسَّةِ، والمِجَنُّ: التِّرسُ الَّذي يَجِنُّ صاحبَهُ، ويَحميه، قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ [المجادلة: 16]، والجَنَّة ما يَسترُ أشجارُها أرضَها[5]، والجُنونُ: تغطيةُ العقلِ وتغييبُه[6]، يقولُ سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: 46]، وقيل: جنَّ؛ إذا أصابَهُ الجِنُّ، وقيل: أُصيبَ جَنانُهُ[7]، ومعنى ﴿مَّجۡنُونِۭ﴾ في الآية؛ أي: يهذي بما لا يَعقِلُ[8].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الإصـرارُ على الجُحودِ إجرامٌ يَتجاوَزُ كلَّ الحُدود

وصفَ اللّٰهُ أصحابَ العذابِ بأنَّهم المُجرمون، وبيَّن أكبرَ إجرامِهم، فقد كان حالُهُم أنَّهم إذا جاءَهم الدّاعي إلى الإيمانِ

(1) الراغب، المفردات: (شعر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (شعر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (شعر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جنّ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، (جنّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنن).
(7) الراغب، المفردات: (جنّ).
(8) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 54.

باللّه إلهًا واحدًا يَأنفونَ، ويُصرّونَ على جُحودهم للحقِّ، ويُردِّدون باستهزاءٍ وغُرورٍ، يقولون: أتدعونا إلى أنْ نُنكِرَ آلهتَنا الَّتي عليها آباؤنا، لأجلِ ما يَهذي به شاعرٌ مُفترٍ، ويعنونَ بالشّاعر المَجنون - قبَّحهم اللّه - رسولَ اللّه ﷺ[1]، فالإجرامُ كلُّه يتمثَّلُ في إنكارِ كلمتَي التَّوحيدِ: (لا إلهَ إلّا اللّه محمَّدٌ رسولُ اللّه).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إنَّ):

الاستكبارُ الأثيم والقولُ السَّقيم

ابتدأ النَّظمُ بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ﴾، وهي حرفُ توكيد، جيءَ به للاهتمام بالخبرِ، وهو كونُهم مُستكبرينَ مُستهزئين، وهي في مَعرضِ التَّعليل للحُكم السّابق، أي: مُجازاةُ المُجرمينَ بالعذاب، فأفادتِ التَّعليلَ والرَّبطَ، وأغنَتْ غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[2]، وأصلُ العبارةِ: (فإنَّهم كانوا يَستكبرونَ عن الحقِّ).

عَوْدُ الضَّميرِ (هم):

مِن شأنِ المجرمينَ التَّخلُّقُ بصفاتِ المُتكبِّرينَ

تضمَّنَ لفظُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ﴾ الضَّميرَ (هم)، العائدَ على المجرمينَ الَّذينَ ينالونَ العذابَ المهين، وهو ما يدلُّ على أنَّ لفظ (المجرمينَ) مختصٌّ بالكافِرينَ[3]، ويُشير إلى استحقاقِ هؤلاءِ للعذابِ؛ لأنَّهم مُستكبِرونَ عنِ الحقِّ مُشركون، وبالرَّسولِ مُستهزِئونَ[4].

وجهُ التَّعبيرِ بفعلِ الكَينونةِ الماضي ﴿كَانُوٓاْ﴾:

أهليَّةُ عذابِ الكُفّار لتمكُّنِهم في الاستكبارِ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ الكَينونة ﴿كَانُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم دائمًا ما يَستكبرونَ عن الحقِّ[5]، فهو

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 331.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 33.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.

وصفٌ مُتمكِّنٌ فيهم غيرُ مُنقطِعٍ، ولا يَحيدونَ عنه[1]، ممّا يجعلُهُم أهلًا للعَذاب.

علَّةُ إيثارِ ﴿إِذَا﴾:

> مِـن وجـوهِ الجحودِ تجدُّدُ الكِبْرِ بتجدُّدِ الذِّكْر

آثرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ دونَ (إنْ)، ويرجعُ سرُّ ذلك إلى دلالةِ ﴿إِذَا﴾ على المقطوعِ به والغالبِ، في حين تدلُّ (إنْ) على المُحتمِل والنّادر[2]؛ إذ استكبارُهم هو موقفٌ مُتجدِّدٌ مُتكرِّرٌ، فكلَّما قيلَ لهم ذلك؛ استكبروا.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ القول المبنيِّ للمفعول:

> يَرفُضُ المُتكبِّرُ الحقَّ مِنْ أيٍّ مَنْ بِهِ نطقَ

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، ونكتةُ ذلك التَّركيزُ على القولِ دونَ النَّظرِ إلى القائل، مع أنَّ الدّاعيَ - وهو النَّبيُّ ﷺ - معلومٌ، فحُذِفَ اللَّفظُ لعلمِهم به[3]، فهُم إذا قيلَ لهم مِن أيِّ قائلٍ كان؛ استكبروا[4]، ممّا يشير إلى أنَّ موقفَهم الرّافضَ كان لأجلِ شهادةِ التَّوحيد، مهما جاءَهم القولُ بطريقِ الدَّعوةِ والتَّلقين[5]، وأنَّهم انتفضوا، واستكبروا أن يُدعَوا بهذه الدَّعوة.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾ وتقديمها:

> الكِبْرُ تغييبٌ للعقل، فيعمَى عن نورِ الأمَل

تعدَّى الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ بـ(اللّام) في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ والأجَل، أي: إنَّ المقصودَ بالقولِ هم هؤلاءِ المُشركونَ، فهي دعوةٌ لهم، وليستْ لغيرهم، وهي دعوةٌ لأجلهم وجهدٌ لإقناعهم واهتمامٌ بهم، وقد قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على مَقولِ القول، وسرُّ تقديمِهِ هو قصدُهُم بالدَّعوةِ والاعتناءُ بهم خاصَّةً، معَ الإشارةِ إلى أنَّ المقصودَ بدَعوتِهم هو إيمانُهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

(2) السامرائي، معاني النحو: 4/ 61.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.

نكتةُ إيثارِ ﴿لَآ﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بـ﴿لَآ﴾ النّافية للجنس في قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ النَّفي بها نفيٌ ابتدائيٌّ، فتلقى الكلمة خاليةً من استحضارِ جدالٍ أوِ ادِّعاءٍ، بخلاف النَّفي بـ(ما)، فيأتي ردًّا على ادِّعاء[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ابتدائِهم بالدَّعوة، كما أنَّ ﴿لَآ﴾ نصٌّ في نفي الجنسِ على سبيلِ الاستغراق؛ تأكيدًا لنفيِ الأُلوهيَّة عن غير اللّهِ وإثباتِ الأُلوهيَّة له تعالى وحدَهُ.

وجهُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهَ﴾:

نفيُ ادِّعاءِ الألوهيَّةِ ترسيخٌ للوحدانيَّة

جاءَ لفظُ ﴿إِلَٰهَ﴾ مُنكَّرًا في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ويكمنُ وجهُ تنكيرِه في حَمْلِه على العُموم في سياقِ النَّفي المُستغرِق، فلا وجودَ للإلهِ مهما كان هذا الإلهُ المُدَّعى، ومهما كانَ نوعُهُ أوْ مقامُهُ؛ فتندرجُ فيه كلُّ آلهةِ العربِ، وكلُّ ما يُعبَدُ من آلهةٍ، ففي التَّنكيرِ تأكيدٌ لمعنى النَّفي.

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

قصرُ الألوهيَّةِ في الله سبحانَه دونَ سِواه

جاءَ الاستثناءُ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وتكمنُ بلاغتُهُ في دفعِ توهُّمِ أنْ يكونَ ما بعدَ (إلّا) داخلًا في النَّفي الَّذي سبقَها، فإذا سَبَقَتْ (لا) النّافيةُ للجنس (إلّا)؛ فقد نفَتْ كلَّ ما يُطلَقُ عليه (الإله) أنْ يكونَ حقًّا إلهًا، فيبقى النَّفيُ صادقًا على الجميع، ويُستثنى اللّه ﷻ من هذا النَّفي، فهي تفيدُ اختصاصَ الإثباتِ للّه تعالى إلهًا، فكأنَّ المعنى: اللّهُ وحدَهُ هو الإلهُ الحقُّ دونَ سِواهُ.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِهِ الأعظَم:

اللهُ تعالى هو الإلهُ الحقُّ المُتفرِّدُ بالألوهيَّة

عبَّرتِ الآيةُ عن المُستثنى باسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ وذلك للعلاقةِ بينَ معنى (الإله) ولفظ ﴿ٱللَّهُ﴾، فاسمُ الجلالةِ يَنطبِقُ عليه كمالُ وصفِ الإلهِ، ودلَّ الاستثناءُ على تفرُّدِ

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 335.

اللّه ﷻ بصفاتِ الإله، فهو الملكُ الأعلى، وهو الحقُّ المتفرِّدُ بالألوهيَّة كما بالخالقيَّة[1]، وليكونَ الاسمُ الجليلُ علَّةً لانحصارِ الألوهيَّة فيه تعالى؛ إذ المُستحِقُّ لجميعِ أوصافِ الجلالِ يشيرُ إلى علَّة النَّفي والانحصارِ فيه.

نكتةُ إيثارِ المُضارع ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

تمكُّنُ الاستكبارِ يُجدِّدُ الإنكارَ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظ ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ في قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ لدلالةِ المُضارعِ على التَّجدُّدِ والاستمرار، فدلَّ على تجدُّدِ استكبارهم؛ كلَّما بلغَتْهم الدَّعوةُ إلى الحقِّ، وهو ما يُشيرُ إلى طُغيانِهم وتجذُّرِ إعراضِهم عن الحقِّ تعاظُمًا[2]، وفي صوغِ لفظِ ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ مجموعًا إشارةٌ إلى الفريقينِ السّابقينِ في خصامِ أهلِ النّار، فهُم على الرَّغمِ من اختلاف موقعِهم إلّا أنَّ السِّمةَ الجامعةَ لهم هي الاستكبار، والإتيان بالاستكبار عند سماع كلمة التّوحيد، هو لبيان أنّ المانع من الإيمان مرض القلب، واستكبار الفؤاد.

بلاغةُ حذفِ مُتعلِّقِ: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

الاستكبارُ على الحقِّ ضررٌ جسيمٌ

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ من قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، وقد اتَّسعَ مجالُ التَّقديرِ عندَ المُفسِّرينَ، فهؤلاءِ استكبروا عن قبولِ كلمةِ التَّوحيد[3]، فتعاظَموا أنْ يَقولوها[4]، واستكبروا على مَن يدعوهُم إليها[5]، وما ذلك إلّا لبلاغةِ الحذف هنا، وهو أن يتَّسعَ المجالُ ليَتصوَّرَ المستمعُ للآيةِ أيَّ تكبُّرٍ كانَ عليه هؤلاء، بل ليركِّزَ أكثرَ على الفعلِ دون متعلِّقاته، وبه يكون الفعل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 225.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 33.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 11.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.

منزّلًا منزلة اللازم، ولعموم التقدير، فهو استكبار على الحق، وعلى رسول الحق، وعلى كلام الحق، وهو من أبشع الاستكبار وأشنعه.

دلالةُ صيغةِ (استفعل):

تَصنُّعُ الكِبْرِ يسفُّ كلَّ خيرٍ

جاءَ لفظُ: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بصيغةِ (استفعلَ)، وتُحمَلُ السّينُ والتاءُ فيها على المبالغةِ، وهو ما يمنحُ التَّكبُّرَ شدَّةً، أي: إنَّهم يتعاظمونَ عن أنْ يَقبلوا ذلك مِن رجلٍ مثلِهم، وقد تُحمَلُ السّينُ والتّاءُ على الطَّلب، أي: إنَّهم يطلبونَ الكِبْرَ، ويتصنَّعون التَّكبُّر، فيبدو عليهم الإباءُ والاشمئزازُ من هذا القول[1]، وفي كلا الاحتمالينِ هنالك إشارةٌ إلى شدَّةِ الطُّغيانِ وقبحِ المواجهةِ بذلك التَّعاظُمِ الفارغ، وصيغةُ (استفعلَ) تدلُّ على الطَّلبِ، فكأنَّهم من شدَّةِ كِبْرِهم يَطلبونَ الكِبْرَ، ويَبحثونَ عنه، وفي ذلك من المبالغةِ في التَّكبُّرِ والأنفةِ عن الحقِّ ما لا يخفى، مع أنَّ الكبرَ أمرٌ معنويٌّ لا يُطلَبُ، لكنَّهم شبَّهوهُ بأمرٍ جسمانيٍّ مطلوبٍ تجسيمًا له على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ مع حذفِهِ وإبقاءِ صيغةِ الاستفعالِ دليلًا عليه.

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

الاغـترارُ مفتاحُ الاستكبار

ابتدأتْ جملةُ: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ﴾ بالواو، وهي واوُ العطفِ التي عطفَتِ القولَ على الحالِ[2]، فيقولونَ باستهزاءٍ وغُرورٍ: كيفَ لهم أنْ يَتركوا آلهتَهم لقولِ شاعرٍ مَجنونٍ؟[3] فهو قولٌ مُقارنٌ لاستكبارِهم، ودليلٌ عليه[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى سوءِ مَوقِفِهم؛ إذ لم يَقِفوا عندَ الاستكبارِ عن الحقِّ، بل طَعَنوا في المُختار، وبينَ الاستكبارِ قَلْبًا والقولِ المذكورِ لفظًا تناسُبٌ قويٌّ؛ إذ هو مظهرٌ من مظاهرِ تجلّياتِ الاستكبار، فبينَهُما تلازُمٌ ظاهرٌ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 249.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 81.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

دلالةُ الفعلِ المُضارع (يقولونَ) مجموعًا:

من وجوهِ شدَّةِ الإصرارِ المجاهرةُ بالكُفرِ والتَّمالؤُ عليهِ

عبَّرتِ الآيةُ بفعلِ القولِ المُضارعِ المَجموعِ في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ﴾، الدالِّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، فكلَّما تجدَّدتْ دعوتُهم إلى التَّوحيدِ؛ يصدرُ منهُم هذا القولُ، بما يُشيرُ إلى تمامِ إصرارِهم على الكُفْرِ[1]، وفي مجيءِ: (يقولون) مجموعًا إشارةٌ إلى أنَّه قولٌ مُتداوَلٌ بينهم، يُجاهرونَ به، ويذكرُهُ بعضُهم لبعضٍ مستمرّينَ عليه، وفي ذلك تصويرٌ لعمَلِ الفريقينِ المُتخاصِمَينِ في العذاب، حين كانتِ الدَّعوةُ تُلقَى إليهم.

دلالةُ الاستفهامِ بـ(الهمزة):

نقل الخصومة مع الحقّ إلى أن تكون مع رسول الحقّ

جاءَ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ بالهمزة، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ لإظهارِ أنَّ ما يدعو إليه الرَّسولُ ﷺ أمرٌ منكَرٌ لا يُطمَعُ في قَبولِهم إيّاه، وهو أيضًا تحويلُ الأنظارِ منَ التَّفكُّرِ في كلمةِ التَّوحيد إلى النَّظرِ إلى صاحبِ الدَّعوة[2]، أي: قلب الخصومة بين الحق الإلهي والمشركين، إلى أن تكون بينهم وبين محمد ﷺ، كما كان شأن فرعون مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بلاغةُ حشْدِ المُؤكِّداتِ:

الإنكارُ المؤكَّدُ المَتينُ عُنوانٌ صادقٌ على المُجرمين

جاءتْ جملةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ بمؤكِّدات عديدة، هي: التَّأكيدُ بإنَّ، وباللّام، وبالجملةِ الاسميَّة؛ لبيانِ أنَّ إنكارَهم رسالةَ الرَّسولِ ﷺ أمرٌ لا رجعةَ فيه، وذلك لسدِّ المَنافذِ أمامَ التَّردُّدِ في دينِهم وصدقِ آلهتِهم؛ تنزيلًا للمُخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَشُكُّ في إنكارِهم دينَ آبائهم وكفرِهم بالحقِّ[3].

عودُ الضَّمير في (إنّا):

أنفةُ المُستكبِرين عِلَّةُ ضَلالِهم المُبين

عادَ الضَّميرُ في (إنّا) من قوله تعالى: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ﴾ إلى هؤلاءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 226.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 107.

المُستكبرين، وفي ذكرِ هذا الضَّمير شعورٌ بالعظمةِ والأنفةِ فيهم المنبئ عنها ﴿وَيَقُولُونَ﴾، كما تدلُّ على الجمعِ الَّذي يُعتقَدُ في قولِه الحقُّ والقوَّةُ، وكأنَّ هذا العملَ لا يليقُ بجَماعتِهم القويَّةِ وأنفتِهم الكاذبةِ.

معنى اللّامِ في ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾:

تركُ دينِ الآباءِ إجرامٌ في مُعتقَدِ الأبناء

جاءَ التَّعبيرُ في قوله: ﴿لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ باللّام المُزحلَقةِ[1]، الدالَّةِ على تأكيدِ موقفِهم بأنَّهم ينكرونَ انقلابَهم عن دينِ آبائهم؛ إنْ هُم اتَّبعوا هذا الشّاعرَ المجنونَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدَّةِ استنكارِهم أن يكون منهم ذلك، ودفعًا لأيِّ تردُّد في صحَّةِ دينِهم؛ إذ الانقلابُ عن دينِ الآباء إجرامٌ يقترفُهُ الأبناء، وإنْ كان ذلك الانقلابُ هو الدَّواء.

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعل ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾:

حدوثُ التَّركِ المحمودِ في تصوُّرِهم عقوقٌ وجحود

عبَّرتِ الآيةُ بلفظ: ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾، وهو اسمُ فاعل؛ للدَّلالة على تمكُّنِ حالة الإنكار لهذا الوصفِ المُشينِ في زَعْمِهم، فهُم باتِّباعهم الرَّسولَ ﷺ يكونونَ - لا محالةَ - تاركينَ لآلهتهم، وفي ذلك إشارةٌ لاستبعادِهم ذلك تمامًا.

وجه استعمال مفردة (الترك):

ترك الآلهة كنايةٌ عن عدم الدفاع والنصرة لها

واستعمال مفردة الترك لبيان تمسكهم في الحاضر، وأنَّ مقتضى اتباع كلام الرسول سيؤول بهم إلى ترك آلهة الآباء، والترك هو كناية عن عدم الدّفاع والصبر على الآلهة؛ لأنَّ تركهم الآلهة لرسول اللّٰه ﷺ، هو نبذها وإبطالها، فكان عدم الترك هو الدفاع والنصرة للآلهة.

علَّةُ جمعِ الآلهة:

اتِّباعُ الرَّسولِ ﷺ اتِّباعٌ للتَّوحيد

جاءَ لفظُ ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ في قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ مجموعًا، وعلَّة الجمعِ هنا هي استبعادُ أنْ يتركَ كلُّ صاحبِ إلهٍ إلهَهُ، فلئنْ تركَ بعضُهم آلهتَهم؛ فلن يتركَها الجميعُ، وهل يَجتمع النّاسُ على

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 265، والداني، الجنى الداني، ص: 130.

دينٍ واحدٍ؟ ففي ذلك إشارةٌ إلى استبعادِ توحُّدِ النّاس على إلهٍ واحدٍ، كما دلَّ الجمعُ على خللٍ في تصوُّرِهم لمقام الألوهيَّة، فقد اعتقدوا أنَّ الآلهةَ المتعدِّدةَ أنفعُ للنّاس مِنَ الإلهِ الواحد؛ لظنِّهم أنَّ كلَّ إلهٍ يقدِّمُ فائدةً لا يُقدِّمُها الآخَرُ، في حين أنَّ الإلهَ الحقَّ هو القادرُ على أنْ يفعلَ كلَّ شيءٍ دونَ مُعاونةٍ ومُؤازرةٍ، ففي الجمعِ تهكُّمٌ بهم؛ إذْ نطَقوا بما يدلُّ على خطَلِ مُعتقَدِهم الكاسِد.

وجهُ إضافةِ (الآلهةِ) إليهم:

غيّبوا عقولَهم فوَفَّوا لآلهتِهم ودينِ آبائِهم

أُضيفتِ (الآلهة) إلى ضميرِ المُشركينَ في قوله: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ إضافةً عهديَّةً، تدلُّ على تلك الآلهةِ المعروفةِ في زمنِ الخِطاب، ودلَّ تعيينُها على تقديسِهم لها وإيمانِهم المُطلقِ بصدقِها مَعَ اعتزازِهم بذلك الإرثِ الدّينيِّ المُعتاد، ففي اختصاصِ الآلهة بهم إشارةٌ إلى وفائِهم لآلهتهم، وحُبِّهم لما عليهِ آباؤُهم.

معنى اللّامِ في ﴿لِشَاعِرٖ﴾:

مِن عَمَى الكِبْرِ وصفُ الدّينِ الحقِّ بدعوةِ شاعِر

جاءَ التَّعبيرُ باللّام الجارَّةِ في ﴿لِشَاعِرٖ﴾ من قولِه: ﴿لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ﴾، وهي لامُ العِلَّةِ والأجْل، أي: لأجلِ دَعوةِ شاعرٍ مَجنونٍ نتركُ آلهتَنا؟[1] أوْ لاتِّباعِ شاعرٍ مَجنون[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ربطِ الكفّار بينَ تركِ دينِهم واتِّباعِ الرَّسولِ، في تقابلٍ يمنعُ من التَّردُّدِ فيما عندَهم، أوِ الإقبالَ على ما جاءَ به الرَّسول، ففي تعليقِ التَّركِ المنكَرِ باللّام الدالَّةِ على العلَّة إظهارٌ لِمَدى بحثِهم وتفكيرِهم في تعليلِ ذلك الإنكارِ وعدمِ المُتابعة للرَّسول ﷺ.

نكتةُ إيثارِ وصفِ (الشّاعر):

استدعاءُ الأوصافِ دليلُ غيابِ الإنصاف

آثرَتِ الآيةُ وصفَ (الشّاعريَّة)؛ لتعليلِ إنكارِ تركِهم دينَ آبائِهم في قولِه: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۢ﴾؛ لما يَشتغِلُ به

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 108.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 34.

أغلبُ الشُّعراءِ من حُسنِ الصَّنعةِ وجَمالِ العِبارة والبيانِ، ويكثرُ في كلامِهم الغلوُّ والكذب[1]، ففي وصفِ الرَّسولِ ﷺ بالشِّعر زيادةُ إبرازِ التَّقابُلِ بينَ دينِ الآباءِ ذوي الكلامِ الحكيم وبينَ كلامٍ يغلبُ عليهِ التَّخيُّلُ والافتراءُ، ويخلو من الحقِّ[2]، ولعلَّ ذكرَ وصفِ (الشّاعريَّة) يتناسَقُ مَعَ جوِّ السّورة، الَّتي تتكوَّنُ من مقاطعَ، تجعلُها شبيهةً بموسيقى الشِّعر وطرائقِهِ، وكان اختيارُ وصفِ (الشّاعر) في السّورة مُتناسِقًا معها، كما أنَّ فيه اعترافًا بأنَّ ما يقولُهُ هذا النَّبيُّ الكريم من كلامٍ هو طرازٌ رفيعٌ في البلاغةِ، حتَّى نسبوه للكلامِ الرّاقي، الَّذي يصدرُ من الشُّعراءِ الَّذين عندهم قدراتٌ على تخيُّلِ واقعٍ مُتوهَّم، ففي وصفِ (الشّاعريَّة) تقديرٌ لكلامِه البليغِ من جهةٍ ونسبةٌ له إلى التَّخيُّلِ والوهمِ من جهة أخرى.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿لِشَاعِرٍ﴾:

التَّمسُّكُ بالمُبطِلِ يأتي بالكلامِ المُضَلِّل

جاءَ لفظُ ﴿لِشَاعِرٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على التَّحقيرِ من شأن الرَّسول ﷺ، فهو مُجرَّدُ شاعرٍ من الشُّعراءِ، ولا يصحُّ أنْ يتركَ النّاسُ آلهتَهم لأجلِ قولِ شاعرٍ، فلا يستوي هذا مع ذاك أبدًا، وفي التَّهجُّم على مَقام الرِّسالة بهذا الوصفِ بيانٌ لشدَّةِ إجرامِهم، واستحقاقِهم ما يفعلُ اللّه بهم من عَذابٍ وعِقابٍ.

سرُّ وصفِ الشّاعر بـ(المجنون):

التَّمادي في الوصف ترسيخٌ للصَّرف

وصفُ الكُفّارِ الشّاعرَ بـ(الجنون) في قوله: ﴿لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾؛ لمزيدِ التَّنفير من الرَّسول ﷺ، فالنَّعتُ دالٌّ على الذَّمِّ والاحتراسِ عن الشّاعرِ الحكيمِ الَّذي يقول الحقَّ، ويوضِّحُ المنهجَ السَّويَّ، فلو أنَّهم اكتفَوا بوصفِ الشّاعرِ؛ لاعتقدَ بعضُهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 227.

(2) الراغب، المفردات: (شعر).

الحِكمةَ في شعرِهِ[1]، فضمّوا وصفَ الجنونِ إلى الشِّعرِ ليخلوَ الشِّعرُ من ذلك، ويغدوَ مُجرَّد آهاتٍ وزفراتٍ وتخليطٍ وهذيانٍ، ومثلُهُ لا يُسمَع كلامُه، ولا يُصغى لقولِهِ[2]، والغرضُ منَ الوصفَينِ إنكارُ نبوَّتِه وصِدقِ رسالتِهِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 99.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 54.

﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾ [الصافات: 37]

المُـبـــادرةُ إلى تحقيقِ الحقِّ وتنزيهِ صاحبِهِ

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بعدَ أنْ ذكرَ اللّهُ تعالى مَوقفَ هؤلاءِ المُستكبرينَ من عقيدةِ التَّوحيد، وقولَهم في الرَّسول ﷺ أنَّه شاعرٌ مجنونٌ، مُنكرينَ رسالتَهُ وصِدقَ نبوَّتِه؛ ردَّ عليهم قولَهم واستكبارَهم مُبيِّنًا أنَّ عقيدةَ التَّوحيد هي الحقُّ، وأنَّ الرَّسول ﷺ مُنَزَّهٌ عمّا قالوا[1]؛ إذ دعوتُه تصديقٌ لدَعْواتِ الأنبياءِ السّابقينَ الَّذينَ جاؤوا بالتَّوحيدِ ونَبْذِ الآلهةِ المُتعدِّدةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقق)، أي: ثبتَ، ووَجَبَ[2]، وحَقَّ عَلَيْك أنْ تفعلَ: وجبَ عَلَيْك، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33]، وأُخِذَ الحقُّ من مُطابقةِ الواقعِ وموافقتِهِ[3]، والحقُّ نقيضُ الباطل، ويُقال للهُدى وما جاءَ مُقتضًى للحكمةِ: حَقٌّ، لقولِهِ سُبحانه: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 147][4]، ومعنى ﴿جَآءَ بِٱلۡحَقِّ﴾: جاءَ بالهُدى والحِكمة، وأعلى دَرَجاتِ الحِكمة توحيدُ اللّهِ تعالى.

2) ﴿وَصَدَّقَ﴾: (صدق) يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، والصِّدقُ خلافُ الكَذِبِ[5]، سُمّيَ لقوَّتِهِ في نفسِه، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ، فهو باطِلٌ، وأصلُ هذا من قولِهم: شيءٌ صَدْقٌ، أي: صُلْبٌ، ورُمْحٌ صَدْقٌ، ويقالُ: صَدَقوهم القِتالَ، وفي خلافِ ذلك كَذَبوهُم، والتَّصديقُ تقويةٌ وتثبيتٌ وتأييدٌ، يقولُ تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 108.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(3) ابن دريد، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (حق).
(4) الخليل، العين: (حقق)، والراغب، المفردات: (حقّ).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

[القصص: 34]، يُقوّيني، أَوْ يُؤيِّدُ قولي، يقولُ ﷻ: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92]، ومعنى ﴿وَصَدَّقَ﴾ في الآية: أيَّدَ، ووافقَ[1].

3) ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: (رسل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على انبعاثٍ وامتداد، فأصلُ الرِّسْلِ الانبعاثُ على التُّؤَدة، يقالُ: ناقةٌ رَسْلَةٌ، أي: سهلةُ السَّيرِ[2]، ففيهِ استرسالٌ ولينٌ، والرَّسولُ هو المُنطلِقُ من طرفِ مَن أرسلَهُ برسالةٍ مُتميِّزةٍ عنه، فليس هو مُنشِئها[3]، يقول سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29]، والرِّسالةُ هي ما يَحمِلُهُ الرَّسول، والجمعُ رَسائِلُ[4]، ومعنى: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في الآية: مَن بعثَهُم اللّه تعالى إلى الأقوامِ بالحقِّ مِن عندِهِ[5]، مثلُ سيِّدنا إبراهيم وموسى وعيسى من بني إسرائيلَ، وسيِّدنا هودٍ وصالحٍ مِنَ العرَب.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اجتماعُ الحقِّ والصدق عنوانُ النبوّة

تُبيِّن الآية الكريمةُ ردَّ اللّه ﷻ على المُشركينَ تكذيبَهم بما جاءَ بِهِ مِنَ التَّوحيدِ، وقَدْحَهم في المُصطفى ﷺ بوصفِهم لهُ بالشِّعر والجُنون، فـ(محمَّدٌ) ﷺ ليسَ بالشّاعرِ ولا بالمَجنون، بل بعثَهُ اللّه بالحقِّ والهُدى والحِكمة، وليسَ ما جاء به افتراءً ولا هَذيانًا، بل وافقَ ما جاءَ به المُرسَلونَ السّابقونَ قبلَهُ مِنَ العربِ والأُمَمِ الأُخرى، وهم أَوْلى بالتَّصديقِ والاتِّباع[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾ ودلالته:

كلامُ الكافرينَ باطلٌ لا يَنهَضُ

عُطِفتْ جملةُ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ على جملةِ: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 22.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسل).
(3) الخليل، العين، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 34.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 81.

﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ بحرف العطف ﴿بَلْ﴾، الدّالِّ على الإضرابِ عمّا قيلَ معَ إبطالِه[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى بُطلانِ ما قيلَ والرَّدِّ عليه، فالآيةُ تعترضُ على المُشركينَ في وَصفِهمُ المُصطفى ﷺ بالشِّعرِ والجُنون، وتُبطِلُ ذلك[2].

سرُّ إيثارِ فعلِ (المَجيءِ) ماضيًا:

رسالةُ النَّبيِّ حقٌّ ودَعوتُه صِدقٌ

آثرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي ﴿جَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾، الدالِّ على الانتقالِ من مَحَلٍّ إلى آخرَ، فالمُصطفى قد جاءَ مُرسَلًا من عندِ الله، وأنَّه سبحانَهُ قد أرسلَهُ إلى النّاس، وفي ذلك إشارةٌ إلى أصلِ إرسالِه، وأهمّيَّةِ ما جاءَ به، ويدلُّ المجيءُ أيضًا على الحدوثِ الفعليِّ المُحقَّقِ الوقوعِ المعلومِ التَّفاصيل، وهذا ما رسَّخه صَوغُ الفعلِ ﴿جَآءَ﴾ ماضيًا؛ دلالةً على تأكُّدِ مجيئه، والفعلُ ﴿جَآءَ﴾ مستعارٌ للفعلِ (أرسلَ) بجامعِ القدومِ من جهةٍ، وقرينةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة تعلُّقُها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وعبَّر عن الإرسالِ بالمجيءِ؛ لبيانِ أنَّ حقيقةَ الرِّسالةِ جاءَتهم مُتمثِّلةً به، وليس مجرَّدَ رسالةٍ يَحملُها إليهم.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

لا يَنطِقُ الرَّسولُ ﷺ إلّا بالحقِّ

جاءَ لفظُ (الحقِّ) مجرورًا بحرفِ الباءِ في قوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ الدالِّ على المُلابَسة[3]، فقد جاء سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رسولًا من عند الله مُلابِسًا للحقِّ، وفي ذكرِ مُلابستِه للحقِّ إشارةٌ إلى أنَّه لا ينطقُ إلّا حقًّا، ولا يدعو إلّا إلى الحقِّ، ومَن كان كذلك؛ فلا يوصَفُ بالشّاعر ولا بالمجنون، وفي جعْلِ (الحقِّ) مُلابِسًا للجائي دلالةٌ على استعارةٍ مكنيَّةٍ بتشبيهِ (الحق) بشخصٍ يصطحِبُهُ معَه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 108.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 471.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 249.

ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من لوازمِهِ الفعلَ المتعدّي بالباء، فيكونُ الحقُّ بكافَّةِ صوَرِه معَهُ.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (الحقِّ) مُعرَّفًا:

ما أنزلَهُ الله حقٌّ لا باطلَ فيه، ولا يُضاهيهِ شعرٌ ولا مَنطِقُ بَشَرٍ

آثرتِ الآيةُ لفظَ (الحقّ) لشيءٍ في مادَّتِهِ وشيءٍ في صيغتِهِ، فأمّا مادَّتُهُ؛ فالحقُّ هو الثّابتُ، فلا شكَّ فيه، ولا تردُّدَ[1]، وهو الصّوابُ، فلا باطلَ فيه ولا افتراءَ[2]، وهو الحكمةُ، فلا هَذيان ولا سفَه، وهو ما يَنفي عن النَّبيِّ ﷺ وصفَ الشِّعر والافتراءِ ووصفَ الجنونِ والسَّفَهِ، وأمّا عن صيغتِهِ؛ فقد جاءَ (الحقّ) بصيغة المصدرِ؛ ليُفيدَ المبالغةَ في الوصف، وزاد لهذه الدَّلالة تعريف لفظ (الحقّ) بـ(ال الكمالِ والجنسِ، فهو الحقُّ الكاملُ في الحقّيَّة[3]، فهو أحقُّ بالقَبولِ وإنْ خالفَهُ جميعُ أهلِ الأرضِ[4]، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ المرادَ بـ(الحقِّ) هنا: التَّوحيدُ الخالصُ للّه تعالى؛ ليكونَ ردًّا على استكبارِهم عنه ورفضِهم لهُ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

مَزيدُ الكمالِ يَبعَثُ على الاتِّباعِ

عُطِفَتِ الجملة الفعليَّةُ: ﴿وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على الجملةِ الفعليَّةِ الَّتي سَبَقَتْها: ﴿جَآءَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالواو عطفَ زيادةٍ ومُقارنةٍ وتتميم، فقد جاءَ بالحقِّ في ذاتِه، وزادَ مع ذلك موافقةً لِمَنْ تقرَّرَ صدقُهم، واشتهرَ اتِّباعُ النّاسِ لهم[5]، وفي ذلك مزيدُ بعثٍ على الثِّقةِ فيه واتِّباعِه ﷺ، فقد جاءَ بما اتَّبعَهُ أكثرُ النّاس، والغرضُ منَ العطفِ أيضًا الرَّدُّ عليهم بإنكارِ نبوَّتِهِ في اتِّهامِهم له بأنَّهُ شاعرٌ مجنونٌ، فلم يُقرِّرْ لهم أنَّه نبيٌّ ورسولٌ فحسبُ، بل هو الَّذي صدَّقَ المُرسَلينَ، وصيَّرَهم صادقينَ من خلالِ تأييدِ دَعْوتِهم وموافقتِهِ لهُم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 99.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 22.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 22.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 27.

اتِّبـاعُ الـرَّسـول ﷺ هـو اتِّبـاعٌ للمُرسَلينَ

سرُّ إيثارِ لفظِ (صدَّقَ) مادَّةً وصيغةً:

آثرتِ الآيةُ الفعلَ الماضيَ (صدَّقَ) في قوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأمرٍ في مادَّتِه وفي صيغتِه، فأمّا مادَّتُهُ؛ فالصِّدقُ تقويةٌ وتأييدٌ وموافقةٌ، فقد اتَّبعَ المُرسَلينَ الَّذين كانوا أكثَرَ النّاسِ أتباعًا، وما جاءَ به هو ما جاءَ به المُرسَلونَ؛ فلا يثبتُ اتِّهامُكم له بأنَّه شاعرٌ مجنونٌ، وأمّا عن صَوغِهِ ماضيًا؛ فقد دلَّ على ثبوتِ ذلك وتَحقُّقِه، فقد كان موافقًا لهم فيما يدعونَ النّاسَ إليه[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ اتِّباعَ الرَّسول ﷺ هو اتِّباعٌ للمُرسَلين، وذلك في مُقابِلِ اتِّباعِ الآباء، وفي اختيارِ صيغةِ (فعَّلَ) الدالَّة على الجعْلِ والتَّصييرِ ما يُفيدُ أنَّ ما جاءَ به من الآياتِ جعلَ المُرسَلينَ صادقينَ في دَعوتِهم، فكانَ مُصدِّقًا لهم ومُؤمِنًا بهم، ومَن صدَّقَ الشَّيءَ، وجعلَهُ صادِقًا بما جاءَ به؛ لهو دليلٌ على صِدقِهِ وصحَّةِ ما جاءَ به خاليًا مِنَ الشِّعرِ والجُنون.

التَّوحيدُ الَّـذي تـطـابـقَ عليه المُرسَـلون حَـريٌّ بـأنْ يـتَّـبـعَـهُ المُكَلَّفون

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المَجموع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في قوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بصيغةِ اسمِ المفعولِ، ويدلُّ ذلك على رسوخِ وصفِ الإرسال فيهم، فهُم حقًّا رسلٌ من عندِ اللهِ، تكامَلَتْ فيهم صفةُ الرِّسالة، وصحَّ فيهم الاجتباء، وكانوا أكثرَ النّاس أتباعًا، وهو ما يدعو الآخرينَ لاتِّباعِهم واتِّباعِ مَن صدَّقهم، وصيغَ لفظُ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بالجمع؛ للإشارةِ إلى أنَّ دينَ المصطفى هو دينٌ اتَّفق عليه المُرسَلون[2]، وأنَّ التَّوحيدَ هو دينُ كلِّ الأنبياء[3]، فكيفَ يصحُّ قولُهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ الدالُّ على أنَّها آلهةٌ حقَّةٌ جاءَ بألوهيَّتِها الأنبياءُ والمُرسَلون؟.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في قوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مُعرَّفًا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 22.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 331.

إلحاقُ المُصطفى بالمُرسَلينَ من تمامِ وحدةِ الدّين

بلامِ العَهدِ، والمقصودُ بهم مَن بعثَهم اللّهُ ﷻ للنّاس[1]، وهمُ المعروفونَ عندَ المُخاطَبينَ، يَعرفُهم كلُّ ذي لُبٍّ في سيرتِهم واتِّباع النّاسِ لهم[2]، فما جاءَ المُصطفى إلّا بمثل ما جاءَتْ به الرُّسُلُ مِن قبلِه، فكان الإنصافُ أنْ يُلحقوهُ بالفريقِ الّذي شابهَهُ دونَ فريقِ الشُّعراءِ المَجانين[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

المُرسَلون خُصّوا بالرِّفقِ واللّين، والمبعوثونَ بالإيقاظِ والتَّنبيه

يجتمعُ (البَعْثُ) و(الإرسالُ) في التَّوجيهِ، ويفترقانِ، فأمّا (البعثُ)؛ ففيه الإثارةُ والتَّنبيهُ[4]، تقولُ: بَعثتُ البعيرَ، أي: سيَّرتُه، وبعثتُ رسولًا، أي: وجَّهتُه، وبَعَثَ النّائمَ: أيقظَهُ[5]، أمّا (الإرسالُ)؛ فهو التَّوجيهُ بِرفْقٍ وتُؤدَةٍ، ومنه التَّرسُّلُ في الكلامِ والمَشْيِ، والاسترسالُ: الطُّمأنينةُ والسُّكونُ، فالمبعوثونَ هم مَن جاءَ بالتَّوجيهِ إيقاظًا وتنبيهًا، والمُرسَلونَ هم مَن جاء بالتَّوجيهِ في رِفقٍ وتؤدةٍ وهدوءٍ، ولأجلِ هذا الفرقِ آثرتِ الآيةُ لفظَ: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ ليدلَّ على أهلِ الكمالِ والدّاعينَ إلى الخير، الَّذين يَستحقّونَ الاتِّباعَ.

(1) داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 22.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 108.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(5) الراغب، المفردات: (بعث).

﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات: 38 - 39]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الإفصاحُ عن الحُكمِ بعد الاعتراض والرَّدِّ

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ طُغيانَ الكفّارِ واستكبارَهُم عن قَبولِ الحقِّ وغرورَهم واستهزاءَهم بالرَّسولِ ﷺ؛ ردَّ اللّه عليهم مُظهرًا كمالَ رسولِهِ وتمامَ دينِه، فاتَّضحَ تسبُّبُ هؤلاءِ في العذاب، والسّامعونَ ينتظرونَ حُكمَ اللّه فيهم وما يكونُ عليه جزاؤُهم؟ فتأتي هذه الآيةُ مظهرةً موافقةَ الجزاءِ للأعمالِ، ومُؤكِّدةً تحقُّقَ العذابِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَذَآئِقُواْ﴾: (ذوق) يدلُّ على وجودِ الطَّعْمِ بالفَمِ[2]، ومَذاقُهُ طيِّبٌ، أي: طعمُهُ، يقولُ ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، وأُطلِقَ في القرآنِ على: الإحساسِ بالعذابِ[3]، وعلى الإحساسِ بالنَّعيم، ويُطلَق أيضًا على اختبارِ الشَّيءِ من جِهَةِ تَطَعُّمٍ[4]، ومعنى ﴿لَذَآئِقُواْ﴾ في الآية؛ أيْ: نائِلو العذابِ لا مَحالةَ[5].

2) ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾: (ألم) أصلٌ واحدٌ، وهو الوَجَعُ[6]، والمُؤلِمُ: الموجِعُ، والفعلُ: ألِمَ يألَمُ ألَمًا، فهو ألِمٌ، والأليمُ هو المُؤلِمُ، فعيلٌ بمعنى مفعولٍ[7]، يقولُ سُبحانه: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٧٣﴾ [الأعراف: 73]، والأليمُ من العذاب: الَّذي يبلغُ إيجاعُهُ غايةَ البلوغِ، فالعذابُ موجِعٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 109.
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ذوق).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (ذوق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذوق).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 109.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألم).
(7) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (ألم).

وإذا وُصِفَ بـ(الأليم)؛ بلغَ الغايةَ في الوَجَعِ[1]، وهو المعنى المقصود في الآيةِ.

3) ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾: (جزي) أصلٌ يدلُّ على قيامِ شيءٍ مقامَ غيرِه ومُكافأتِه إيّاه، والجزاءُ ما فيه الكفايةُ مِنَ المُقابلةِ، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ[2]، وجَزَى يَجزي جَزاءً، أي: كافأ بالإحسانِ والإساءةِ، ويُطلَقُ الجَزاءُ على القضاءِ، لكفايتِه وغِناهُ ومُقابلتِه، يقالُ: تَجازيتُ دَيني: تقاضَيْتُه، ومنهُ جَزَيْتُه حقَّه: قَضيتُه، قالَ سُبحانَه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، أي: لا تَقْضي[3]، ومعنى ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ في الآية: تُكافَؤون بما يُناسِبُ أعمالَكُم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جَـزاءُ الطُّغيانِ وعـيـدٌ شـديـدٌ وعذابٌ أكيدٌ

توعَّدَ اللّهُ تعالى هؤلاءِ المُستكبرينَ بأنَّهم سَينالونَ العقابَ الموجِعَ - لا مَحالةَ - وذلك لما بلغَهُ طُغيانُهم واستكبارُهم على الحقِّ، واستهزاؤُهم بالرَّسولِ ﷺ، فلا يُنالُ هؤلاءِ إلّا ما يُكافئُ إجرامَهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ حشدِ المُؤكِّدات:

إظـهـارُ المـعـاني بـقـصـد تـنـبـيـه الغافلين وإيقاظ الهائمين

ضمَّتْ جملةُ: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ حَشدًا مِنَ المؤكِّدات، وهي: (إنَّ)، و(اللّام)، والجملةُ الاسميَّةُ، وما ذلك إلّا لإظهارِ غضبِ اللّه الشَّديدِ عليهم[5]، كما أنَّه تأكيدٌ على ما نطَقوا باستحقاقِه مِن تذوُّقِ العِقاب، بما يقطعُ رجاءَهم في الانفلاتِ منهُ[6]، فالتَّأكيدُ ردٌّ على المُنكرينَ وتحقيقٌ لصحَّةِ الوَعيد.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ألم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزأ)، والراغب، المفردات: (جزا).
(3) الخليل، العين: (جزى)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جزأ).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 55.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 249.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 109.

شديد الغضب يبينُ في اختيارات الأساليب

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطابِ:

يظهرُ في الآية: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ التفاتٌ من الحديثِ عن الغَيبةِ إلى المواجهةِ بالخطاب، وفي ذلك مجابهةٌ لهم بغضَبِه ﷻ عليهم، وأنَّه اشتدَّ، وبلغَ مَبلغًا عظيمًا؛ نتيجة استكبارِهم وغُرورِهم وقَدحِهم في المصطفى ﷺ، ففي المواجهةِ مِنَ الغضَبِ ما ليسَ في الغَيبة[1].

حُقَّ العذابُ لِمَنْ كان الكِبْرُ دِيدَنَهُ

نوع (اللّام) ودلالتها:

تضمَّنَ قولُهُ تعالى: ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ حرفَ اللّام، وهي لامُ الابتداءِ أوِ اللامُ المزحلَقة بعدَ (إنَّ)[2]، وتدلُّ على تأكيدِ تذوُّقِ هؤلاءِ المخاطَبينَ للعذاب، وقطعِ أيِّ شكٍّ فيه، ففي ذلك إشارةٌ إلى استحقاقِهم للعذابِ؛ لما كانَ من طُغيانهم وتَكبُّرِهم عنِ الحقِّ.

الإحساسُ السَّريعُ بالعذاب يُناسِبُ شدَّةَ الحِساب

إيثارُ لفظِ (الذوق) دلالةً وصيغةً:

آثرتِ الآيةُ لفظ (ذائق) في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ لشيءٍ في مادَّتِهِ وشيءٍ في صيغتِه، فأمّا مادَّتُهُ؛ فـ(الذَّوقُ) وضعًا إحساسٌ بما يُطعَمُ، وهو إحساسٌ سريعٌ يُنبِئُ قليلُهُ عن كثيرِه، فإذا كان هؤلاءِ يذوقونَ العذابَ؛ فكيف وهو مُحيطٌ بهم؟ فتضمَّنَ لفظُ (ذائق) سرعةَ الإحساسِ والإنباءِ عمّا هو أعظمُ، كما نجدُ في لفظِ (التَّذوُّق) دلالةً على أنَّ هؤلاءِ المُعذَّبينَ سوف ينالونَ نصيبًا مِنَ العذابِ في الدُّنيا أيضًا، فيكونونَ مُتذوِّقينَ له قبلَ الدُّخول فيه عند الحسابِ، وأمّا صيغةُ اللَّفظ؛ فهو اسمُ فاعلٍ يُشيرُ إلى التَّلبُّسِ؛ لدلالةِ اسم الفاعل حقيقةً على الحال[3]، فكأنَّهم حينَ قيلَ لهم ذلك كانوا مُشرفينَ على الوقوعِ في العَذاب، ولذلك لم يقل: (إنكم لمعذبون).

يقال: فلانٌ ذاقَ العذابَ؛ إذا أدركَ شيئًا قليلًا منهُ، واللهُ تعالى

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 227، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 267.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 265.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 109.

صورةُ العذابِ دوامُ الإحساسِ، لا نقصٌ ولا زَوالٌ

قد وصفَ عذابَهم بـ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾، وهو ما يتطلَّبُ لفظًا أشدَّ من الإذاقة، لكنْ لمّا كان المقصودُ من ذكرِ (الذّوق) الإخبارَ بأنَّ إحساسَهم بذلك العذابِ في كلِّ حالٍ يكونُ كإحساسِ الذّائقِ للمَذوق؛ إذ إنَّه لا يدخلُ فيه نقصانٌ ولا زوالٌ بسببِ ذلك الاحتراقِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ذَوْقِ العَذاب:

مَرارةُ العَذابِ ودوامُهُ وشدَّةُ تأثيرِهِ تناسِبُ عِظَمَ الذَّنبِ

الذَّوقُ وجودُ الطَّعْمِ في الفم، وأصلُهُ فيما يقِلُّ تناوُلُهُ دونَ ما يَكثُرُ، واختيرَ في القرآنِ لفظُ (الذَّوق) في العذاب؛ لأنَّ ذلك - وإنْ كان في التَّعارُفِ للقليلِ - فهو مُستصلِحٌ للكثير، فخصَّه بالذِّكرِ؛ ليعُمَّ الأمرين، ثمَّ إنَّه اتَّسعَ فيه، فاستُعمِلَ لإدراكِ سائرِ المَحسوسات والحالات[2]، وفي ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ تشبيهٌ - أيضًا - بالمُرِّ ممّا يُؤكَلُ، ثمَّ حذفَ المُشبَّهَ به، وأبقى شيئًا من لوازمِه، وهو (الذَّوق)، ولا يخفى ما فيهِ منَ الشُّعورِ بالمَرارة، وذلك على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّة، والتَّعبيرُ عن إدراكِ العذابِ بالذَّوق؛ إذ إنَّه لا يدخلُهُ نقصانٌ بدوامِ المُلابسة، أوْ للإشعارِ بمرارةِ العذاب معَ إيلامِه، أوْ للتَّنبيهِ على شدَّةِ تأثيرِه؛ إذ إنَّ القوَّةَ الذّائقةَ أشدُّ الحواسِّ تأثيرًا[3].

وجهُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

تشديدُ العَذابِ لشدَّةِ الإجرامِ

عُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ بـ(ال) في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾، وهي لامُ الكمالِ والجنس، أي: إنَّه عذابٌ كاملٌ في وجَعِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدَّةِ غضَبِ اللّٰهِ عليهم لسوءِ أفعالهم وعظيمِ إجرامِهم، فما يحيقُ بهم إلّا أشدُّ العَذاب.

سرُّ وصفِ العذابِ بـ ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾:

وُصِفَ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ بأنَّه (أليم) في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 107، و20/ 280.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 193.

(3) صافي، الجدول: 4/ 270، و5/ 66.

استحقاقُ الطُّغاةِ اشتدادُ العذابِ

﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾، والعذابُ في ذاتِهِ وجعٌ؛ لأنَّه إهلاكٌ وإفناءٌ، فلمّا وُصِف بـ ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾، أي: الموجِع[1]، أي: شديدُ الإيجاعِ؛ تضاعفَ الوجعُ، وازدادَ، فيكون النَّعتُ دالًّا على التَّخصيص، وفي إسنادِ ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾ إلى ضميرِ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ مجازٌ عقليٌّ من نسبةِ الشَّيءِ إلى سببِهِ تهويلًا للعذاب ومبالغةً؛ بناءً على أنَّ ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾ فعيلٌ بمعنى فاعِل، كما يحتملُ أنَّ ﴿ٱلۡأَلِيمِ﴾ فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، فيكون دالًّا على أنَّ العذابَ من شدَّةِ الألمِ يتألَّمُ هو نفسُهُ.

توجيهُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ﴾:

لا حَيفَ يومَ الحسابِ، وجزاءُ طُغيانِهم العِقاب

عُطِفَتْ جملةُ: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ﴾ على ما قبلَها بـ(واو العطف) عطْفَ خَبَرٍ على تَوَعُّدٍ، وعطْفَ جملةٍ منفيَّةٍ على جُملةٍ مُثبتةٍ، وفعليَّةٍ على اسميَّةٍ للتَّناسُبِ بينهما؛ إذْ لمّا أنبأهم بذَوقِ العذابِ مثلَ الطَّعامِ المُرِّ، ووصفَ عذابَهم بأنَّه عذابٌ أليمٌ؛ عطفَ عليه إخبارَهم بأنَّ ذلك جزاءٌ مُقابلٌ لأعمالِهم ووفاقٌ لاستكبارِهم وكُفرِهم وقَدحِهم في رَسولِهم، فلا حَيْفَ عليهِم فيه[2]، فلَم يكُنْ إخبارُهم بدخولِ العذابِ ظُلمًا واقعًا عليهم، فكانَ العطفُ تتميمًا للمعنى، واحتراسًا عن العذابِ ظُلمًا.

نكتةُ النَّفيِ بـ (ما):

دفْعُ الاعتراضِ على أشدِّ العَذاب

عبَّرتِ الآيةُ بالنَّفيِ بـ(ما) في قولِه: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ﴾؛ رَدًّا على تَصَوُّرٍ عند هؤلاءِ المُستكبرينَ، وقد توعَّدَهم الحقُّ بسوءِ العذاب، عن استحقاقِهم كلَّ هذا العذابِ؟ ليأتيَ الجوابُ بالنَّفي بـ (ما)، أي: نَعَم، فما تُجزَونَ إلّا ما كُنتم تَعملونَ[3]، فما لَكم من جزاءٍ آخَرَ، وليس في جزائِكم ظُلمٌ ولا حَيفٌ، ولكنْ ما يُكافئُ أعمالَكم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 109.
(3) السامرائي، معاني النحو: 1/ 335.

مَنْ يَملأُ ظُلْمُهُ الآفاقَ يوجَبُ لهُ عذابُ الاستحقاقِ

دلالةُ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثرَ النَّظمُ إيرادَ الفعلِ المضارعِ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، فهذا جزاءٌ يتجدَّدُ؛ كلَّما تجدَّدَ ما تعملونَ؛ لأنَّه جزاءٌ عدلٌ، وهو مقابلٌ لما كانوا يعملونَ من الشِّرك والطُّغيان والطَّعنِ في المصطفى ﷺ، وفي ذلك إشارةٌ إلى دفعِ استغرابِ الجَزاءِ باستحضارِ قُبح العملِ المُكافئِ له، وفي صَوْغِ لفظِه مبنيًّا للمفعولِ اهتمامٌ بمَن ينالُ الجزاءَ خاصَّة، فالمُجازون يَستحقّونَ ذلك الجزاء مهما اختلفَ القاضي بذلك الجزاءِ، وإنْ كانَ مَعلومًا، وهو اللّهُ تعالى، وتسميةُ التَّعذيبِ بالجزاءِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّهَ إيقاعَ العذابِ بالجزاءِ بجامعِ الحُصولِ بعدَ فعلِ شرٍّ، وإنْ كانَ أصلُ الجزاءِ يُطلقُ في مقابلِ الخيرِ والشَّرِّ، لكنَّه بمعونةِ المقامِ اختصَّ بجزاءِ الشَّرِّ.

مَنْ يعمَلْ سوءًا؛ يُجازَ بما يَسوؤُهُ

بلاغةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

جيءَ بأداةِ الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾ بعد أداة النَّفي (ما) في قوله: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ والاختصاص، أي: فما كان لهم جزاءٌ آخرُ فوقَ هذا ولا دونَه، بل هو بما يُكافئُ أعمالَكم[1]، فما عَمِلتم ستنالونَ جزاءَهُ لا غير، وفي ذلك إشارةٌ إلى دفعِ أيِّ توهُّمٍ في المُبالغةِ فيه، كما يحملُ الاستثناءُ المفرَّغُ دلالةً على تفاوُتِ أهلِ الكُفر في عذابِهم، فهُم مُشتركونَ في عذابِ الخُلدِ، لكنْ يختلفونَ في طبيعةِ العَداوةِ للّه ورسولِه ﷺ.

استحضارُ الأعمالِ لعرضِ ما يُكافِئُها مِنَ الجَزاءِ

سرُّ إيثارِ ﴿مَا﴾ بالذِّكر:

آثرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بـ﴿مَا كُنتُمۡ﴾ الموصولةِ في قوله: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أعمالِ الكُفّار[2]، وفي إيثارِ ﴿مَا﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 99.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 450.

إشارةٌ إلى ما كانوا يقومونَ به من أعمالٍ شنيعةٍ، ومن شدَّةِ شناعتِها أُبهِمَ الحديثُ عنها، وفيه توجيهٌ إلى استحضارِ أعمالِهم ما أظهروهُ منها مِن تكذيبٍ، وما أخفَوه منها من دسائسَ ومُؤامراتٍ، وما قلَّ منها وما كثُرَ، فتلك أعمالُكم، وهذا جزاؤُهُ، والجزاءُ وفاقٌ لتلكِ الأعمالِ، وجزاءُ الَّذي يَعملونَه ليس الَّذي عمِلوه، وإنَّما ما يَستلزِمُهُ مِنَ العذاب، ويكون المعنى: ولا تُجزَوْنَ إلّا العذابَ الَّذي يُقابِلُ ما تعملونَهُ.

دلالةُ فعلِ الكَينونةِ الماضي المجموعِ:

أخلاقُ سَوْءٍ مَضَوا عليها حتّى تجرَّعوا العذابَ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مُصاغًا على هيئةِ الماضي؛ للدَّلالة على المضيِّ على تلك الحال، في إشارةٍ إلى ما فرَطَ منهم، ومضَوا عليهِ من الشِّركِ والكُفرِ والاستهزاء[1]، والآيةُ لا تقفُ عندَ ذكرِ أعمالِهم الفرديَّة، بل تشيرُ بالجمعِ إلى الأعمالِ الَّتي تواطَؤوا عليها، واشتركوا في أدائِها سادةً وأتباعًا، فنالوا جميعًا جزاءَهم وفاقًا.

إيثارُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

إصرارٌ على الصَّدِّ عن الحقِّ والتَّعالي على أهلِهِ

آثرَتِ الآيةُ لفظَ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لشيءٍ في مادَّته وشيءٍ في صيغتِهِ، فأمّا مادَّتُهُ؛ فالعمَلُ هو فعلٌ بقَصْدٍ، ودلَّ هنا على أنَّهم كانوا واعينَ بما يقومونَ به من الصَّدِّ عن الحقِّ والتَّعالي على أهلِهِ، وقد صيغَ لفظُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مُضارِعًا مسندًا إلى ضميرِ الجمع، وهو ما يدلُّ على تجدُّدِ أعمالِهم واستمرارِهم على نفسِ المنهَجِ والموقِف، واشتراكِهم فيها سادةً وأتباعًا، وكلُّ ذلك يُؤيِّدُ استحقاقَهم للعَذاب.

دلالةُ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

حذْفُ مُتعلِّقِ اللَّفظ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الفاصلة؛ ليدلّ على العناية بالفعل ذاته؛ فهو لِتنزيل المتعَدّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 228.

استحضارُ قُبْحِ الفِعال وسوءِ الآثار

مَنْزِلة الفعل اللازم، وللإيماء إلى العموم، وهو ما يدعو الكفّار إلى استحضار أعمالهم جميعها، ودرجةِ تلك الأعمال، وأثرِ تلك الأعمال في الصدّ عن الحقّ وأهله، بما يظهر مكافأة الجزاء لها، وهو ما يظهر شمول العمل لكلّ ما قام به هؤلاء الكفّار؛ فضمّ لفظ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ أعمال الأتباع والسادة جميعًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمل والفعل والصُّنع:

الـصُّـنـعُ عـمـلٌ بإتقانٍ ومهارةٍ، والـعـمَـلُ فـعلٌ بقَصْدٍ

يجمعُ بينَ (الصُّنعِ والعمَلِ والفعل) أنَّها فعلٌ وأداءٌ لشيءٍ مُعيَّنٍ، وإذا كان (الفعلُ) يتنوَّعُ إلى فعلٍ بقصدٍ وفعلٍ بغيرِ قَصْدٍ، وفعلٍ باستحضارِ ذهنٍ وفعلٍ دونَ ذلك، فإنَّ (العمَلَ) فعلٌ معَ قصدٍ واستحضارِ ذهنٍ، ومنه يتولَّدُ الجزاءُ على الفعلِ معَ قصدِهِ، ثمَّ يختلفُ (الصُّنعُ) عن العمَل في أنَّ الصُّنعَ يكونُ بحذاقةٍ وخبرةٍ، وهو ما لا يكونُ في العمل، فقد يقومُ العاملُ بعملٍ محدَّدٍ؛ لكنَّه لا يُسمّى صانِعًا إلّا إذا كان ماهرًا في أدائِهِ خبيرًا فيه، وعادةً ما تُطلقُ الصَّنائعُ على الحِرَفِ والمَهارات، في حين يُطلَق العملُ على ذلك وغيرِه ممّا يتطلَّبُ قَصْدًا[1].

وقد يصلُ الأمرُ بالصّانع أنْ يُؤدّيَ عملَهُ دونَ استحضارِ ذهنٍ لتمامِ مَهارته، فيشبهُ الفعلَ من هذه النّاحية، برغم الفارقِ الكبير بينهما في قصدِ الفعل وفي إتقانِ أدائِهِ؛ لذلك فكلُّ عملٍ فعلٌ ولا عكسَ، وكلُّ صُنْعٍ عملٌ ولا عكسَ[2].

(1) بيات، معجم الفروق: 321 - 322.
(2) بيات، معجم الفروق، ص: 323.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُ
وَهُم مُّكۡرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤
يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ۝٤٥ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦
لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ
عِينٞ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ۝٤٩﴾ [الصافات: 40 - 49]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

قرنُ ذكرِ نعيمِ الأخيارِ بذكرِ عذابِ الأشرارِ

عندَما ذكرَ اللّهُ تعالى حالَ الكُفّارِ في العذابِ، وخصومتَهم فيهِ واستحقاقَهم ذلك جزاءً لأعمالِهم؛ عقَّبهُ ببيانِ حالِ مَن هم ضدُّ أولئك، وذلك ببيانِ ثوابِهم في جنّاتِ النَّعيم[1]، كعادةِ القرآنِ في المقارنةِ بينَ مصيرِ الأشرارِ ومَصيرِ الأخيار[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: (خلص) أصلٌ مُطَّرِدٌ يدلُّ على التَّنقيةِ والتَّهذيب، خلصَ الشَّيءُ نفذَ نقيًّا من أثناءِ ما كانَ يُخالِطُهُ، أوْ يَشوبُهُ[3]، ويقال: خلَّصتُهُ، أي: نَحَّيتُهُ من كلِّ شيءٍ يَنشَبُ تخليصًا[4]، والخالصُ هو ما زالَ عنهُ شَوْبُهُ بعدَ أنْ كانَ فيه، يقولُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: 139]، أي: لهم خاصَّةً دونَ الإناث، وتخلَّصتَ مِنَ الشَّيْءِ تخلُّصًا؛ إذا سَلِمْتَ مِنْهُ، ومنه قولُهُ سُبحانه: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ [يوسف: 80][5]، والإخلاصُ: التَّبرّي عن كلِّ ما دونَ اللّهِ تعالى[6]، والمُخلِصونَ اسمُ فاعل: وهُمُ الَّذين كانت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلص).
(4) الخليل، العين: (خلص).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلص).
(6) الراغب، المفردات: (خلص).

حياتُهم للّه، والمُخلَصون اسمُ مفعولٍ، وهُمُ المُختارونَ[1]، ومعنى ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في الآية: الَّذينَ اختارَهم اللّه لولايتِهِ، ونجّاهم من عذابِ الجَحيم[2].

2) ﴿رِزۡقٞ﴾: (رزق) أصلٌ يدلُّ على ما بِهِ قَوامُ الجِسم ونَماؤُهُ، منَ الغِذاء، يقولُ سُبحانه: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: 37][3]، والرِّزقُ ما يُطعَمُ بِهِ، ويُنتفَعُ[4]، وأُطلِقَ على العَطاء[5]، يقولُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]، أي: من المالِ والجاهِ والعِلم[6]، ومعنى ﴿رِزۡقٞ﴾ في الآية: الطَّعامُ الَّذي ينالُهُ أهلُ الجنَّة[7].

3) ﴿مَّعۡلُومٞ﴾: (علم) يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به من غيرِهِ، وبه تتمُّ الدَّلالةُ والاهتداءُ[8]، ومنهُ العلامةُ، أي: السِّمةُ، والعَلَم هو الجبلُ الطَّويلُ، والجمعُ الأعلامُ، والإخبارُ بالعلامَةِ هو الإعلامُ، ومنه جاء مَعنى العِلْم، يُقالُ: تعلَّمتُ الشَّيءَ؛ إذا أخذتَ عِلمَهُ، والعِلْمُ بمعنى إدراكِ علاماتِ الأشياءِ، وهو نقيضُ الجَهْلِ، ويُطلَقُ على الشُّعورِ أيضًا، يقال: ما عَلِمْتُ بخَبرِكَ، أي: ما شَعَرْتُ بِهِ[9]، والمَعلومُ: هو ما أدْرَكَهُ عِلْمُكَ، والمَعْلومُ أيْضًا: ما كانَت لَهُ عَلامَةٌ دالَّةٌ على جودتِهِ غالبًا[10]، ومعنى ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ في الآية: أنَّه رِزْقٌ مَرغوبٌ فيه مَضمونٌ مُحدَّدٌ[11].

4) ﴿فَوَٰكِهُ﴾: أصلُها مِن (فكه)، هي جمعُ (فاكهةٍ)، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طيبٍ واستطابةٍ، ومِن ذلك الرَّجُلُ الفَكِهُ: الطيِّبُ النَّفْس، ومنه: الفاكهةُ؛ لأنَّها تُستَطابُ، وتُستطرَف، والمُفاكهَةُ هي المُزاحَةُ، وما يُستحلَى من كلام، وسُمّيتِ الحلواءُ فاكهةً لخفَّتِها على النَّفس[12]، والفاكهةُ هي الثِّمارُ كلُّها، وهي ما يُتنعَّمُ بها، ومنهُ قولُه سُبحانه:

---

(1) الخليل، العين: (خلص).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(6) الراغب، المفردات: (خلص).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(9) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (علم).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة: (علم).
(11) ابن عطية، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فكه).

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور: 18]، ومنهُ أُطلِقَ التَّفكُّهُ على الفرَحِ[1]، ومعنى ﴿فَوَٰكِهُ﴾ في الآيةِ: طيِّبُ الثِّمارِ.

5) ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾: (كرم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الشَّرفِ والتَّنزُّه، والكَرَمُ: شرَفُ الرَّجُلِ، وتكرَّمَ عن الشائِنات، أي: تنزَّهَ، وأكرمَ نفسَه عنها، ورفعَها، وضدُّهُ اللُّؤْمُ[2]، ومنَ الكرم الجودُ؛ لدلالتِه على الكثرةِ، والعربُ تقولُ: هذه البلدةُ إنَّما هي كَرْمةٌ ونَخلةٌ، يعني بذلك الكَثرة، وكَرُمَ السَّحابُ: أتَى بالغَيث، وأرضٌ مَكرُمةٌ للنَّبات؛ إذا كانت جيِّدة النَّبات[3]، والإكرامُ والتَّكريمُ: أنْ يوصَلَ إلى الإنسانِ إكرامٌ، أي: نفعٌ لا يَلحقُهُ فيه غَضاضةٌ، ومعنى: ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ في الآية: مُشرَّفونَ بأشرفِ تعامُلٍ[4].

6) ﴿سُرُرٖ﴾: مِن الجذر (سرر)، ولفظُ (سُرُر) جمعُ (سرير)، ويدلُّ على الخفيِّ والخالصِ والمُستقرِّ، فالسِّرُّ خالصُ الشَّيءِ، وسرُّ كلِّ شيءٍ جوفُهُ، والسُّرورُ هو انشراحُ الصَّدرِ، والخُلوصُ من الحُزْنِ، والسَّرّاءُ ضدُّ الضَّرّاء: النِّعمةُ؛ لأنَّ بها السُّرورَ[5]، ومن مَعنى الاستقرارِ والاطمئنانِ والدَّعَةِ جاءَ لفظُ (السّرير)، وهو الَّذي يُجلسُ عليهِ منَ السُّرورِ؛ إذ كان ذلك لأولي النِّعمةِ[6]، وهو المقصودُ بالسُّرُرِ في الآيةِ.

7) ﴿يُطَافُ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يُحفَّ بهِ[7] إلى درجةِ الغَشَيان كالطّوفانِ يَعُمُّ حدودَه[8]، والطّوافُ: المَشْيُ حولَ الشَّيْءِ، ومنه: الطّائفُ لَمَن يدورُ حولَ البُيوتِ حافِظًا، ومنهُ الخادِمُ، والطّوّافونَ الخَدَمُ[9]، ومَعنى ﴿يُطَافُ﴾ في الآيةِ: يدورُ حولَهم، ويَغشاهُم خدمةً لهُم.

8) ﴿بِكَأۡسٖ﴾: هو الإناءُ الذي يُشرَبُ فيه ما دامَ الشَّرابُ فيه، ويُطلَقُ على الإناءِ

---

(1) الخليل، العين: (فكه).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (كرم).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سر).
(6) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (سر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوف).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طوف).

مُمتلِئًا، يقال: شَرِبْتُ كأسًا، وكأسٌ طيّبةٌ، يعني بها: الشَّرابَ، يقولُ سُبحانه: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾ [الواقعة: 18][1]، وخُصَّتِ الخمرُ بالكأسِ حتى شاعَ إطلاقُ الكأسِ عَليها، ولعلَّ أقربَ أصلٍ لُغويٍّ إليها هو (كاسَ) منَ الكَيْسِ، وهو ما فيه غورٌ شديدٌ معَ شدَّةِ التَّماسُك[2]، ومعنى: ﴿بِكَأْسٍ﴾: الشَّرابُ الطَّيِّبُ، وهو خَمْرُ الجَنَّة.

9) ﴿مَّعِينٍ﴾: يمكنُ ردُّ لفظِ ﴿مَّعِينٍ﴾ إلى أصلين: الأوَّلُ هو (معن)، ويدلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ وتباعُدٍ[3]، ومَعَنَ الماءُ: جَرَى، وماءٌ مَعينٌ، وأمعَنَ الفرسُ تباعدَ في عَدْوِه، وأمعَنوا في بلدِ العَدوِّ: تباعَدوا[4]، ورجلٌ مَعْنٌ في حاجتِه: سَهْلٌ، والأصل الثاني: هو (عينٌ) منَ العَين، وهي: الجارحةُ، ومنهُ عينُ الماءِ النّابعةُ لمائِها وصفائِها، أو ظُهورِها للعَين، وأمعنَتِ الأرضُ: رويَتْ، وكلأٌ مَمْعونٌ: جَرَى فيه الماءُ، ومَعَنَ الوادي: إذا كثُرَ فيه الماءُ المَعينُ[5]، ومعنى ﴿مَّعِينٍ﴾ في الآية: جارٍ وصافٍ كماءِ النَّبْع.

10) ﴿بَيْضَآءَ﴾: مؤنَّثُ أبيضَ، من (بيض)، وأصلُهُ البَياضُ منَ الألوانِ، واشتُقَّ منهُ بَيْضَةُ الدَّجاجِ، ولدلالةِ الأبيض على النَّقاءِ قالتِ العربُ: فلانٌ أبيَضُ، وفلانة بيضاءُ لنَقاءِ العِرْضِ مِنَ الدَّنَسِ والعُيوب، ولا يَذهبونَ بِهِ إلَى بياضِ اللَّوْنِ، ولكنَّهم يُريدونَ المَدحَ بالكَرمِ ونَقاءِ العِرْضِ من العُيوبِ والأدْناس، يقولُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106]؛ تعبيرًا عن المَسرَّةِ والنَّضارةِ والبِشر[6]، ومعنى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ في الآيةِ: مُشرِقةُ اللَّونِ صافيةٌ[7].

11) ﴿لَذَّةٍ﴾: (لذذ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طيبِ طعْمٍ في الشَّيءِ[8]، ويعُمُّ كلَّ استطابةِ وقْعِ شيءٍ على الحسِّ لمُناسبتِهِ إيّاه معَ لُطفِهِ وخفَّتِه، كالشَّرابِ للُطفِهِ ونُعومتِه، يقولُ سُبحانه: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: 15]، وكمسِّ الشَّيءِ الأملَسِ، وكاستماعِ الكلامِ المُحبَّبِ، وكطيبِ النَّومِ، وضدُّ الألَمِ[9]، ومعنى ﴿لَذَّةٍ﴾ في الآية: طَيِّبَةُ المَذاقِ.

(1) الزبيدي، تاج العروس، والراغب، المفردات: (كأس).
(2) ابن سيده، المُحكَم، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كاس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (معن).
(4) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (معن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عين).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بيض).
(7) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لذذ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، والزبيدي، تاج العروس: (لذذ).

12) ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: (شرب) يدلُّ على تناوُلِ كلِّ مائعٍ، ماءً كانَ أو غيره، وهو "سَحْبُ الماءِ أوِ اللَّطيفِ إلى الجَوْفِ، أي: مصُّهُ وإنفاذُهُ إلى الأثناءِ بقوَّةٍ"[1]، يقالُ: شَرِبْتُ الماءَ أشرَبُهُ شَرْبًا، وهو المصدرُ، والشُّرْبُ الاسمُ، والشَّرب: القومُ الَّذين يَشْرَبون، والشِّرب: الحظُّ مِنَ الماءِ[2]، يقولُ تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: 21]، ومعنى ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: لِمَنْ يتناولُ تلك الكأسَ، ويَستطيبُها.

13) ﴿غَوْلٌ﴾: (غول) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خَتْلٍ وأخْذٍ مِن حيثُ لا يَدري، يقالُ: غالَهُ يَغولُهُ: أخَذَهُ من حيثُ لم يَدرِ، والغَوْلُ: إهلاكُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يَحُسُّ بهِ[3]، ويقال: غالَتْهُ الخَمْرُ تَغولُهُ غَوْلًا؛ إذا شَرِبَها، فذَهَبَتْ بعقلِهِ، ويُطلَقُ الغَوْلُ على الصُّداعِ[4]، ومعنى: ﴿غَوْلٌ﴾ في الآية: إيذاءُ العقلِ وإضرارُهُ[5].

14) ﴿يُنزَفُونَ﴾: (نزف) أصلٌ يدلُّ على نَفادِ شَيءٍ بتدرُّجٍ إلى انقطاعِهِ، مِن: نَزَفَ الماءُ مِنَ البئرِ: نزحَهُ شيئًا بعدَ شيءٍ[6]، ونَزَفَهُ الحجّام: أَخْرَجَ دَمَهُ كلَّهُ[7]، ونُزِفَ دمُهُ: خَرَجَ كلُّهُ، ونزفَ السَّكرانُ، أي: نُزِفَ عَقلُهُ[8]، ومعنى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ في الآيةِ: لا يَذهَبُ العَقلُ بالسُّكْرِ.

15) ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾: (قصر) أصلٌ يدلُّ على الحَبْسِ عنِ الغايةِ والنَّقصِ، فالقِصَرُ نقصٌ: خلافُ الطّولِ، ويقالُ: قصَّرتُ الثَّوبَ والحبلَ تَقصيرًا، ومنهُ الحَبْسُ دونَ الوُصولِ إلى الغايةِ[9]، والقَصْرُ: كفُّكَ نفسَكَ عن شيءٍ، ولذلك سُمّيَ القصرُ غايةً، يُقالُ: قُصاراهُ كذا، أي: حَدُّهُ[10]. والقُصورُ: العَجْزُ والتَّواني، وأقصرتُ عنهُ؛ إذا نَزَعْتَ عنهُ، وأنتَ قادرٌ عليهِ، وقَصَرَهُ؛ إذا حَبَسَهُ، ومعنى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ في الآية: أنَّ حورَ الجِنانِ يَكفُفْنَ أبصارَهُنَّ، ويَحبِسْنَها على أزواجِهِنَّ.

---

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غول).
(4) الخليل، العين: (غول).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 472.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نزف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نزف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزف).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصر).
(10) الخليل، العين: (قصر).

16) ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾: (طرف) أصلٌ يدلُّ على حدِّ الشَّيء وحَرْفِه، ويُستعمَلُ في الأجسامِ والأوقاتِ وغيرِها[1]، يقالُ: أشارَتْ بطَرْفِ إصْبَعِها، وطَرَفُ كلِّ شيءٍ مُنتهاه[2]، يقولُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: 114]، وطَرْفُ العَينِ: جَفْنُهُ[3]، والطَّرْفُ مفردًا مُعرَّفًا "اسمٌ جامعٌ للبَصَر، لا يُثنّى، ولا يُجمَعُ"[4]، واشتُقَّ مِنَ الطَّرْفِ فِعلُه، فالطَّرْفُ: إطباقُ الجَفْنِ على الجَفْنِ، يقال: شَخَصَ بصرُه، فما يَطْرِفُ[5]، ومعنى ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ في الآية: أجفانُ نساءِ الجَنَّةِ، يَقصُرْنَها على أزواجِهِنَّ[6].

17) ﴿عِينٌ﴾: (عين) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على عُضْوٍ به يُبصِرُ، ويَنظُرُ[7]، والعَين هي الجارحةُ، يقولُ سُبحانه: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [التوبة: 92]، ومنها اشتُقَّت معاني العَين، فالعَينُ للماءِ لشِبْهِهِ بالجارحةِ صَفاءً، وللذَّهب؛ لأنَّه أصلُ المالِ وأفضلُه، وعينُ الشَّيءِ ذاتُه؛ لأنَّه يرى بالعين، ويُعاينُ، وأعيانُ القومِ أفاضلُهم، ومن العَيْنِ العَيَنُ، وهو حُسنُ العَيْنِ، أوْ سِعَتُها وعِظَمُ سَوادِها[8]، أوْ نَفاذُ بَصَرِها[9]، يقالُ: أعْيَن وعَيْناء، والجمعُ عِينٌ، وهو المقصودُ بلفظِ ﴿عِينٌ﴾ في الآية، أي: حُسنُ أعيُنِهِنَّ ونفاذُ بَصَرِها.

18) ﴿بَيۡضٌ﴾: جمعٌ مفردُه البَيضةُ، وهي ما يَضَعُهُ الطّائر[10]، وأُخِذَ من لَونِ البَياض؛ دلالةً على النَّقاء، تقولُ العربُ: فلانٌ أبيَضُ، وفلانةٌ بيضاءُ؛ لنَقاءِ العِرْضِ مِنَ الدَّنَسِ والعُيوب، ويُكنّى بالبَيضةِ عن الصّيانةِ والرِّقَّة[11] وصفاءِ اللَّوْنِ وجَمالِه[12]، ولفظُ ﴿بَيۡضٌ﴾ في الآية: هو البَيضُ المعروفُ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طرف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طرف).
(3) الراغب، المفردات: (طرف).
(4) الخليل، العين: (طرف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (طرف).
(6) السمين، الدر المصون: 9/ 306.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(8) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عين).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (بيض).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بيض).
(12) الراغب، المفردات: (بيض).

19) ﴿مَّكۡنُونٞ﴾: جاءَ لفظُ ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ مِن أصلِ (كَنَّ)، ويدلُّ على سَتْرٍ وصَوْنٍ[1]، وكلُّ شيءٍ وقى شيئًا؛ فهو كِنُّهُ وكِنانُه، وكَنَنْتُهُ أكُنُّه كَنًّا: جعلتُهُ في كِنٍّ، واكتَنَّتِ المرأة: سَتَرَتْ وجْهَها حياءً من النّاس، والإكْنانُ: ما أضمرتَ في ضميرِك، يقولُ ﷻ: ﴿أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: 235]، والإكنانُ: إخفاءُ الشَّيءِ بالشَّيء[2]، وقولُهُ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ [الواقعة: 78]، أي: مَصونٍ[3]، ومَعنى ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ في الآيةِ: المستورُ المَصونُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ أهلِ الجنّةِ وما هم عليه من النّعيم المقيم

خاطبَ اللّه تعالى المُجرمينَ بأنّهم ذائقو العذابِ الأليم، لكنَّ عبادَ اللّه ليسوا كذلك، أولئك الَّذينَ أخلصوا للّه بالطّاعة، فأخلصَهم اللّه لعبادتِه، فلهُم رزقٌ مُتميِّزٌ مرغوبٌ، مُحدَّدٌ في وقتِه، طيِّبُ الطَّعْم، حَسَنُ المَنظَرِ، دائمٌ غيرُ مقطوعٍ ولا ممنوع، يتفكَّهونَ ممّا لذَّ، وطابَ، وهُم مُنعَّمونَ، فلا يرغبونَ في شيءٍ إلّا وجدوه في جنّاتٍ ليس فيها إلّا النَّعيمُ، يتقابلونَ جلوسًا على سُرُرِ الرّاحةِ مُتصافّينَ، لهم خدَمٌ يَطوفونَ عَلَيْهِم بإناءِ شرابٍ كثيرٍ جارٍ طيِّبٍ صافٍ، يجدُ فيه الشّاربونَ كلَّ اللَّذَّةِ، لا يحملُ أذًى، ولا تُذهِبُ عقلًا، ولا تنقطعُ، وعندَهم الحيّياتُ المُحبّاتُ جميلاتُ العُيون، أزواجٌ من الصَّفاءِ والسِّترِ والصَّونِ كالبَيْضِ يُخفيهِ الرِّيشُ في العُشِّ، فلم تمسَّهُ يدٌ، ولم تَعلُهُ غَبرةٌ.

هذا ما بشَّرَ اللّه عبادَهُ المُخلصين، إنَّه عطاءٌ مُتنوِّعٌ جزيلٌ تنشرحُ له الصُّدور، وتقرُّ به العُيون، وتَبتهجُ له النُّفوسُ، وهم على مقاعدِ الرّاحةِ مُتقابلينَ يَشربونَ، ويَتحادثونَ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كن).
(2) الخليل، العين: (كنن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كنن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 35، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 82 - 85.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ تكرارِ الاستثناءِ:

استثناء الضد من ضدِّه استدراك تعقيبي

تكرَّرَ الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بعدَ ذكرِهِ في الآيةِ السّابقة: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وليس الثاني استثناءً في الجزاءِ، لكنَّهُ استثناءُ حالٍ من حالٍ، أي: استدراكٌ؛ لأنَّه استثناءٌ مُنقطِعٌ، فحالُ الثّواني ليس كحالِ الأوَلِ، بمعنى: لكنَّ المخلصينَ لهم رزقٌ معلومٌ، فإنَّ حالَ عبادِ اللّه تامَّ الضديَّةِ لحالِ الظّالمينَ، فهو استدراكُ تعقيبٍ للكلامِ بما يُضادُّهُ(1)، والغرضُ مِنَ الاستدراك بيانُ الفرقِ بين جزاءِ الظّالمينَ وجزاءِ المُؤمنين، فالظّالمونَ يُجازَونَ بما عمِلوا جزاءً عادِلًا، وأمّا المُؤمنونَ؛ فإنَّهم يُنعَّمونَ كَرَمًا وفَضْلًا ورَحمةً وإحسانًا، وليسَ في مُقابلِ العَمَلِ.

وجهُ تعريفِ (العباد) بالإضافة:

تشريفُ المُخلَصينَ إيناسٌ لهم، وتنويهٌ بعُلوِّ مَنزلتِهم

عرَّفتِ الآيةُ هذا الصِّنف بوَصفِ (العباد) المُضاف إلى لفظِ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تنويهٌ بهم وتقريبٌ(2)، كيف لا، والموقفُ موقفُ فزَعٍ؟ وقد أُمِرَ بالظّالمين إلى العذاب، فكانَ أن ضمَّ اللّه تعالى هؤلاءِ المخلَصينَ إلى اسمِه إيناسًا لهم وتنويهًا بمنزلتهم، وتعليلًا لكونِهم عِبادًا مُكرَمين، فإنَّ اسمَ الجلالةِ دالٌّ على كلِّ الأوصافِ الكماليَّة، ومَن كان مُضافًا إليه؛ فإنَّه يكتسِبُ كلَّ إنعامٍ منه.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجَلالة:

ضمُّ العِباد المُخلَصين إلى حضرتِهِ شُمولٌ بجميلِ مِنَّتِهِ

أُظهِرَ لفظُ الجلالة في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بدلَ إضمارِهِ؛ للدَّلالة على ضمِّ هؤلاءِ العِباد إلى حَضْرته، ونسبتِهم إلى خاصَّتِه، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم هُم مَن رعى للإله الحقِّ مَقامه، في مقابلةِ آلهةِ الكفّار الَّذين أبَوا تركَ آلهتهم، فهؤلاء وحَّدوا اللّه، وأخلَصوا لهُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 110.

نكتةُ وصفِ (العباد) بالمُخلَصين:

جزاءُ الإخلاصِ حُسنُ الخَلاصِ

وَصَفتِ الآيةُ عبادَ اللّهِ بـ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، ونكتةُ هذا الوصفِ هي الإشارةُ إلى تخليصِهم مِنْ عذاب يومَئذٍ(1)، وهو ما يشيرُ إلى تميُّزِ حالِ هؤلاء من حالِ الظّالمين يومَ القيامة، وما ذلك إلّا لإخلاصِهم لرَبِّهم في الدُّنيا، فقد أخلَصوا التَّوحيدَ والعِبادةَ للّه تعالى، فأُخلِصوا، ونُجّوا من صِنْفِ الظّالمينَ.

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ دلالةً وصيغةً:

تزكيةٌ ونجاةٌ وتطمينٌ بتحقُّقِ وعدِ الله

آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لشيءٍ في مادَّتِه وصيغته، فأمّا مادَّتُه؛ فتدلُّ على التَّخليصِ والتَّنقية، وعلى التَّخلُّص، وهو النَّجاةُ، فأشارَ اللَّفظُ إلى فضلِ اللّه في تزكيتِهم واجتبائِهم في الدُّنيا، وفي تخليصِهم يومَ القيامةِ منَ الخُسرانِ والعَذاب(2)، وأمّا صيغتُهُ؛ فقد جاءت على صيغةِ (المفعول)؛ ليدلَّ على تحقُّقِ اجتبائِهم وخَلاصِهم، وهو ما يُشيرُ إلى تطمينِهم بوَعْدِ رَبِّهم أنَّه ناصِرُهم ومُنَجّيهم.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

استحضارُ تشريفِ المُخلَصينَ زيادةُ حَسرةٍ للمُشركين

عبَّرتِ الآية بلفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ مُعرَّفًا باللّام، الدّالِّ على أنَّهم صنفٌ معهودٌ عندَ المُخاطَبين، وهم الرَّسولُ ﷺ وصحبُهُ(3)، وفي ذلك دعوةٌ إلى استحضارِ حالِهم، وكيف كانوا في الدُّنيا مَحَلَّ استهزاءٍ وصدٍّ وظُلم، وأنَّهم هُمُ النّاجونَ اليومَ، وفي استحضارِهم بـ(ال) العهدية مزيدُ حسرةٍ للمُشركين.

توجيهُ القراءتين في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

لقراءةِ لفظِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ من قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

الاجتباءُ مآلُ حُسنِ البَلاء

وجهانِ؛ إذ قرأ نافعٌ وأهلُ الكوفةِ اللَّفظَ ببناءِ الفعلِ للمفعول: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، أي: إنَّهم اختارَهم اللّه لعبادتِهِ وولايتِهِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم أخلَصوا للّه دينَهم، فأخلصَهُم اللّه لولايته واجتباهُم، ونجّاهم[1]؛ إذ يلزمُ من كونِهِ مُخلَصًا أنْ يكونَ مُخلِصًا، في حينِ قرأ الباقونَ اللَّفظَ ببناءِ الفعلِ للفاعل: ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾، أي: إنَّهم أخلَصوا للّه العبادةَ والبلاءَ الحسَنَ[2]، ولا يلزمُ منهُ أنْ يكونَ مُخلَصًا، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ درجةَ المُخلَصين أعلى من درجةِ المُخلِصينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبَعيد:

من وُجوهِ الإعلاءِ التَّنويهُ بالمَنزلةِ واستحقاقُ الجَزاءِ

عبَّرتِ الآيةُ عن عبادِ اللّه بلفظِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾، وهو اسمُ الإشارةِ الموضوعُ للبعيدِ الحسّيِّ؛ لكنَّه مُستعارٌ للبُعدِ المعنويِّ، ففي ذلك إشعارٌ بعلوِّ طَبقَتِهم ومَبلَغ تميُّزهم وبُعدِ مَنزلتِهم عمَّنْ عَداهم في الفَضل[3]، وفي تعريفِ المُسنَدِ إليه باسمِ الإشارةِ تنبيهٌ على أنَّهم قد استحقّوا ما يُسنَدُ إليهم؛ لأجلِ ما أُثبتَ لهم من صفةِ المخلوصيَّة[4].

سرُّ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿لَهُمۡ﴾:

مِن وُجوهِ الاحتفاءِ إظهارُ الاستحقاقِ ومَزيدُ الحَظْوةِ

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾ الواقعُ نعتًا للخبرِ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ على الخبرِ ﴿رِزۡقٞ﴾، فانتصبَ على الحاليَّةِ منه، ويدلُّ التَّقديمُ هنا على الاحتفاءِ بالمُخلَصينَ من خلالِ اختصاصِهم بذلك دونَ غيرِهم، فهُم أهلٌ لهذا الجزاء، ولأجلِهم كان الثّوابُ الجزيلُ، ولهم خاصَّةً كلُّ الحَظْوةِ والتَّكريم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(2) مكي، الكشف: 2/ 9 - 10، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 190.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

إيثارُ لفظِ (الرِّزق) نكرةً:

تعظيمُ العَطاءِ من وُجوهِ حُسْنِ الوَفاء

جاءَ لفظُ ﴿رِزۡقٞ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ نكرةً؛ للدَّلالة على التَّعظيم(1)، فلهم رزقٌ أيُّ رِزْقٍ؟ إنَّه رِزْقٌ عظيم، يَتناسَبُ وتكريمَ المُخلَصين وكرمَ ربِّ العالَمين، وفي ذلك مزيدُ تشويقٍ لمعرفةِ هذا الرِّزق الَّذي يأتي تفصيلُهُ.

نكتةُ وصفِ الرِّزق بـ﴿مَّعۡلُومٞ﴾:

الـجـزاءُ الَّـذي تقَرُّ به العُيون يُناسِبُ ما كانوا بِهِ يَرغَبون

وُصِفَ الرِّزقُ في النَّظم بـ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه معلومٌ عندَهم مُناسِبٌ؛ ممّا كان يطمعُ فيه أهلُهُ، وكانوا يَرجونَهُ، فهم يَنالونَهُ الآن، وفي ذلك قرٌّ لأعيُنِهم وإسعادٌ لرَجائهم(2)، ونلمحُ في هذا الوصفِ أنَّ الرِّزق المعلومَ هو الرِّزقُ الَّذي وُعِدوا به في الآياتِ، ممّا لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، فهو معلومٌ لهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم آمَنوا بالغيبِ المَوعودِ حتَّى صارَ معلومًا عندَهم لا يتردَّدونَ فيه، ففيه مدحٌ لهم بقوَّةِ إيمانهم بالغيبِ ووعدِ اللهِ لهم.

الـرِّزقُ مَضمونٌ معـلومُ الـوقتِ والخَصائص

وجاءَ لفظُ ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على التَّكثيرِ والتَّنويعِ والكمال، فهو معلومٌ بكلِّ الأشكالِ المُناسبة، وهو رزقٌ معلومُ الوقتِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ [مريم: 62]، ومعلومُ الخصائص(3)، من طيبِ طعمٍ ورائحةٍ ولذَّةٍ وحُسنِ منظَرٍ(4)، وهو رزقٌ مضمونٌ معلومُ المَوعِدِ لا يتخلَّفُ عن ميعادِه، ولا ينتظرُهُ أهلُهُ(5).

سرُّ حَصْرِ الرِّزقِ بـ(الفواكه):

طعـامُ التَّفكُّهِ والـتَّـلـذُّذِ والاستغناءِ عن الـقـوتِ أمـارةُ كمالِ السَّعادة

حُصِرَ (الرِّزقُ) في (الفواكه) في قوله: ﴿رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُۚ﴾؛

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 82.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 471.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

ليكونَ المقصودَ بالذِّكر لكونِه واقعًا بدَلًا، وليدلَّ على أنَّ رزقَهُم كلَّهُ فواكِهُ[1]، فصارَ طعامُهم للتَّلذُّذِ لا للحاجةِ، وما ذلك إلّا لاستغنائِهم عن القوتِ وحِفظِ الصحَّة[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى كِفايتِهم وكمالِ سَعادتِهم بالتَّفكُّهِ والتَّلذُّذِ.

نكتةُ تنكيرِ (الفواكه) وجمعُها:

رِزْقُ المُخلَصين لا يُفقدُ ولا يُسأمُ

عبَّرتِ الآيةُ عن لفظِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ في قوله: ﴿رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُ﴾ بصيغةِ الجمعِ المنكَّر؛ ليدلَّ هنا على التَّكثيرِ والتَّنويع[3]، فهي فواكهُ كثيرةٌ لا تَنقضي، ومُتنوِّعةٌ لا يَسأمُ أهلُ الجنَّةِ منها، وفي ذلك إشارةٌ إلى تطمينِهم، فلا انقطاعَ لها، ولا سأمَ منها.

بلاغةُ الإيجازِ في لفظِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾:

جزاءُ المِحَنِ والابتلاءِ كمالُ الصِّحَّةِ ودوامُ النَّعماء

تضمَّنَ لفظُ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من قوله: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ إيجازًا بديعًا؛ إذ قُصِرَ الرِّزقُ في الفواكهِ، وفي هذا القصرِ إشارةٌ إلى تَمامِ أجسادِهم ودَوامِ صِحَّتِهم، فلا يَمرَضونَ، ولا يَعجزونَ، ولا يَهرمونَ[4]، وفيها إشارةٌ أيضًا إلى دوامِ التَّنعُّمِ الَّذي يَنالونه في الجنَّة، وإنْ كانت حياتُهم الدُّنيا حياةَ مِحَنٍ وابتلاءاتٍ[5].

دلالةُ (الواو):

إردافُ التَّكريمِ الحسّيِّ بالتَّكريمِ المعنويِّ

ابتدأتِ الجملةُ: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ بحرفِ (الواو)، ويمكنُ حملُها هنا على العَطف، أي: إنَّهم يُرزَقونَ رِزْقًا مَعلومًا، ويُلقّونَ بالحَفاوةِ والبَهجة[6]، فذكرتِ الآيةُ أوَّلًا العطاءَ الماديَّ، ثمَّ ثنَّتْ بالعطاءِ المعنويِّ[7]، ولا يمنعُ ذلك أنْ تُحملَ (الواوُ) على الحاليَّة[8]، أي: إنَّهم

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 42.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 12.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 268.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 100.
(8) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 266.

وفي رزقِهم بالفواكهِ يُرزَقونَ بالحفاوةِ والتَّبجيل، وفي ذلك إشارةٌ إلى نيلِهم درجاتٍ من التَّكريمِ والعَطاءِ المعنويِّ الَّذي لا حدودَ لهُ.

وجهُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ (هم):

الإكرامُ أعظمُ الجزاءِ للمُخلَصين

عبَّرتِ الآيةُ بالضَّميرِ الواقعِ مُبتدأً في قوله: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تميُّزِ الحُكم الَّذي يُذكَرُ بعدَه، وهو الإكرامُ لهُم، فصارَ الإكرامُ هو الأجلَّ والأهمَّ في هذا الجزاءِ، وصار ما سبقَهُ مُقدِّمةً إليه، وفيه أيضًا الإشادةُ بهؤلاءِ المُخلصينَ الَّذين استحقّوا التَّكريمَ.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ المفعول ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾:

مِنْ أفضالِهِ سُبحانه كمالُ الإكرامِ ودَوامُهُ

عبَّر النَّظمُ بلفظ ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ في قوله: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ على هيئةِ اسمِ المفعول؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الإكرامِ عليهِم[1]، فهو إكرامٌ ليس بعدَه إكرامٌ، فمَن نالَهُ؛ فقد نالَ الفضلَ الكبير، وفيه دلالةٌ أيضًا على دوامِ الإكرامِ، فهو لا يَلحَقُهُ نقصٌ وهَوانٌ[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى كمالِ إكرامِهِم.

معنى ﴿فِي﴾:

استحضارُ محلِّ الإكرامِ مِن تمامِ الإنعامِ

جُرَّ لفظُ ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بحرف ﴿فِي﴾؛ ليدلَّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى استحضارِ المَحَلِّ بعدَ بيانِ أفضلِ الكرامةِ، وأطيبِ المأكَلِ، فَلِلمقامِ مزيدُ كرامةٍ على تلك المَكرُماتِ، ويصلحُ حرفُ الجرِّ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بالرِّزقِ والإكرامِ، وهو الأَوْلى؛ ليكونَ مكانُ الرِّزقِ ومَحلُّ الحفاوةِ واحدًا.

علَّةُ جمعِ ﴿جَنَّٰتِ﴾:

مِنْ وُجوهِ المكرُماتِ التَّفرُّدُ والتَّنوُّعُ في الجنّاتِ

جُمِعَ لفظُ (الجنّات) في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ ليدلَّ ذلك على التَّوزيعِ، فلكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ المُكرَمين جنَّتُهُ ورياضُهُ، لا يُشرِكُه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 111.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.

فيها أحدٌ، وهذا من كمالِ المَكرُمةِ، ويدلُّ الجمعُ أيضًا على التَّكثير؛ فللمُخلصينَ جنّاتٌ بعدَها جنّات، كلَّما دخلوا جنَّةً؛ استشرفوا إلى ما بعدَها، وفي التَّعدُّدِ مزيدُ إكرامٍ.

نكتةُ إضافةِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

ليسَ في الجنّاتِ إلّا النَّعيمُ

عُرِّفتِ (الجنّاتُ) بإضافتِها إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وفي تعريفِها بذلك دلالةٌ على أنَّها ليسَ فيها إلّا النَّعيم[1]، فليستْ كجنّاتِ الدُّنيا فيها تعبٌ ونصَبٌ، ولا تصفو إلّا معَ عمَلٍ دؤوبٍ؛ سقايةً وتهذيبًا وحرثًا وتوضيبًا، أمّا جنّاتُ الآخرة؛ فهي للنَّعيم، فالإضافةُ هنا على معنى (لام الاختصاصِ) المُفيدةِ للحَصْرِ[2]، ونسبةُ الجنّاتِ إلى النَّعيمِ دليلٌ على استعارةٍ مكنيَّةٍ بتشبيهِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾، وهو أمرٌ معنويٌّ بذاتٍ له جنّاتٌ، ثمَّ حذفَهُ، وجعلَ الاختصاصَ قرينةً تدلُّ عليه، فيكونُ في إضافةِ الجنّاتِ للنَّعيمِ تخييلٌ وصولًا إلى كمالِ تلك الجنّاتِ جَمالًا ونَعيمًا وسُرورًا.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

كمالُ النَّعيمِ بعضٌ من أفضالِ المُنعِم

عرَّفَ النَّظمُ لفظَ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بـ(ال) الدّالَّةِ على كمالِ الجنس، أي: إنَّ نعيمَها هو أكملُ نعيمٍ، فلا يُتصوَّرُ فيها غيرُهُ[3]، ولا يُتصوَّرُ قصورُ النَّعيم فيها عن تمامِه؛ أليس المُنعِّمُ هو ربَّ العزَّة؟ وفي ذكرِ كمالِ النَّعيمِ مقابلةٌ لكمالِ الجحيمِ السّابقِ في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾:

التَّمكُّنُ في المَجلِسِ زيادةٌ في التَّنعُّم

عبَّرتِ الآيةُ بتحديدِ مَكانيٍّ آخرَ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ ليدلَّ على الاستعلاءِ والتَّمكُّنِ، فهُم جالِسونَ على

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 9.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 83.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.

سُرُرٍ[1]، وهم متمكِّنونَ على تلك السُّررِ في راحةٍ تامَّةٍ، وفي ذلك مزيدُ تنعُّم، وفي ذكرِ كَوْنِ الرِّزقِ والإكرامِ في الجنّاتِ وتحديدِ السُّرُرِ مَحَلًّا آخَرَ للإكرام؛ لبيانِ أنَّ مكانَهُم في تلك الجنّاتِ على الأسِرَّةِ، وليسَ على أرضِ الجنَّة وإنْ كانتْ مِسْكًا وغَرْسًا عظيمًا.

سرُّ جمعِ ﴿سُرُرٍ﴾ وتنكيرُهُ:

جلوسُ المُكرَمينَ ارتياحٌ ونعيمٌ

جاءَ لفظُ ﴿سُرُرٍ﴾ جمعًا منكَّرًا في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ ليدلَّ جمعُهُ على تعدُّدِ الأسِرَّةِ بتعدُّدِ أصحابِها، فلكلِّ واحدٍ سريرُهُ الخاصُّ به كالمُلوك[2]، وليدُلَّ الجمعُ على كثرتِها وتعدُّدِ استعمالِها، ومَواضِعِ وُجودِها بما تُعطي مِن راحةٍ، ويدلُّ تنكيرُ لفظِ ﴿سُرُرٍ﴾ على تفخيمِها؛ لأنَّ الجلوسَ عليها هو جلوسُ أهلِ النَّعيم[3].

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ دلالةً وصيغةً:

يُزادُ الأنسُ بالإقبالِ على الصَّديقِ ورُؤيةِ الرَّفيقِ

عبَّر النَّظمُ بلفظِ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قولِه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ للجالسينَ على السُّرُرِ، ويدلُّ معنى التَّقابُلِ هنا على المواجَهةِ، وتدلُّ صيغةُ (التَّفاعُل) على أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يلقَى الآخَرَ بوجهِهِ مُقبِلًا[4]، وفي ذلك أتمُّ الأُنس؛ لأنَّ فيه أُنْسَ الاجتماع، وأُنْسَ نظَرِ بعضِهم إلى بعضٍ، وفي رؤيةِ الحبيبِ والصَّديقِ أنسٌ للنَّفْسِ[5].

دلالةُ الحاليَّةِ في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

بصفاءِ السَّرائرِ تخلو الخواطِرُ ويَنتفي التَّدابُر

جاءَ لفظُ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالًا لأصحابِ النَّعيم أثناءَ جلوسِهم على السُّرُرِ، ودلَّ الحالُ هنا على الأُنْسِ بينهم، حتَّى قابلَ كلُّ واحدٍ مِنهم الآخَر، فلا تدابُرَ ولا تقاطُعَ،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.

كما دلَّ على السُّرورِ بالتَّلاقي، فلا كُلفةَ بينَهم، ولا يكونُ ذلك إلّا معَ خُلوِّ الخواطر وصفاءِ السَّرائر[1]، وذلك من النَّعيمِ أيضًا.

موقعُ جملةِ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٍ﴾:

من تمامِ نعيم الوهّاب المِنّةُ بلذيذِ الشَّراب

عبَّرتِ الآيةُ بجُملة: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٍ﴾ بعدَ ذكرِ استقرارِ أهلِ الجنانِ على سُرُرٍ مُتقابلين، ويمكنُ أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفة - لا محل لها من الإعراب - لبيانِ صفةِ المَشرَبِ بعدَ بيانِ صفةِ المَأكَلِ والمَسكَن[2]، فإذا ذُكِر نعيمُ الطَّعام ونعيمُ المقام وأُنسُ الخُلّان؛ تاقتِ النَّفس إلى لذيذِ الشَّراب، ويمكنُ حملُ الجُملةِ على الحاليَّةِ، أي: إنَّهم وهم على أسِرَّتِهم مُتقابلين يسارعُ الخدمُ بتلك الآنيةِ يطوفونَ حولَهم كالمُلوك[3]، كما يحتمل أن تكون الجملة صفة لـ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾[4]، لإفادة توكيد المعنى وتعظيمه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالمُضارع المبنيِّ للمفعولِ ﴿يُطَافُ﴾:

مزيدُ التَّهنّي بخدمةٍ لا تَني

عبَّرَ النَّظمُ بالفعلِ ﴿يُطَافُ﴾ في قولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ المضارعِ المبنيِّ للمفعول؛ وعلَّة كونِه فعلًا مضارعًا الدَّلالةُ على تجدُّدِ الطَّوافِ عليهم حينًا بعدَ حينٍ، لا يتوقَّفُ الخدمُ بالمَدَد، ولا يفترونَ عنِ الخِدمةِ، ويدلُّ البناءُ للمفعولِ على أنَّ المقصودَ هو الطَّوافُ لا كونُهُ من مُعيَّنٍ، فلا يُلتفتُ إلى الخادِمِ بقدرِ ما يُرفِّهُ المَخدومُ[5].

مَعنى (على):

بإدلاءِ الشَّرابِ يُكرَّمُ الأطياب

آثَرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بحرفِ (على) في قولِهِ: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ دون (بينهم) أو (فيهم)؛ وذلك لدلالةِ (على) على الاستعلاء، فقد زادتِ المعنى دلالةً خاصَّة، وهي أنَّ طوافَ الخَدَمِ بالمُكرَمين،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 42، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 100، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 229.

وهم يُدلونَ إليهم من جهةِ العُلوِّ؛ ليكونَ أشرفَ لهم وأصونَ، وفي ذلك مزيدُ إكرام[1]، ممّا يدلُّ على أنَّ الخدمَ واقِفونَ على رُؤوسِهم، والمخدومونَ جالِسونَ على أسِرَّتِهم، وهم يَقومونَ بالخدمةِ عليهم.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِم﴾:

الطّوافُ بالكؤوس تشريفٌ للنُّفوس

في لفظِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ من قولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ ضميرُ جمعِ الغائِب، العائدِ على أصحابِ الجنّات، وفي إضمارِه إحالةٌ إلى المُكرَمينَ المُنعَّمينَ بالرِّزقِ والفاكهةِ ومَجالسِ الأُنْسِ، وهي إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَتناوَلونَ ذلك بأنفُسِهم، بل يُطافُ عليهم بالكُؤوسِ، وهو دليلُ الخِدمةِ والتَّرفُّه[2].

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِم﴾:

تخصيصُهم بالسّقايةِ لمزيدِ العنايةِ والحَفاوة

قدَّمَ النَّظمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِم﴾ في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ﴾ على متعلّقِ الطَّوافِ ﴿بِكَأۡسٖ﴾؛ لزيادةِ الاهتمامِ بالمُكرَمين، فهُم المقصودونَ بالطَّوافِ والخِدمة، وما الطَّوافُ بالكأسِ الصّافيةِ إلّا لأجلِهم، وبذكرِ المُرفَّهِ تظهرُ قيمةُ الكأسِ المُقدَّمةِ إليهم ونوعيَّةُ الخِدمةِ التي تؤدَّى لهم.

معنى (الباء) في ﴿بِكَأۡسٖ﴾:

تحديدُ آلةِ السَّقيِ والإكرامِ

جاءَ لفظُ (كأس) في قولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ﴾ مجرورًا بحرفِ (الباء)، ويُحتمل أن تكونَ الباءُ هنا باءَ التَّعديةِ أوِ الآلةِ، فلا يطوفُ الخدمُ على المُكرَمين بلا مَعنًى، بل لأجْلِ سَقيِهم بكأسٍ من مَعين، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الطَّوافَ عليهم إنَّما هو لأجلِ مُهمَّة، فهُم أبدًا في خدمةٍ؛ كلَّما نقَصَتْ كأسٌ زادوها، ففي تحديدِ آلةِ السَّقي، وأنَّه يكونُ بالكأسِ، تمييزٌ لإكرامِهم، فهُم لا يَشربونَ إلّا من كأسٍ مُقدَّمةٍ لهم دونَ الغَرْفِ أوِ الشُّرْبِ بآلاتٍ أُخرى،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 100.

وإنْ كانتِ (الكأس) مَجازًا عمّا فيها، فإنَّ (الباء) للتَّوكيد، أي: يَشربونَ كأسًا.

ويُحتمل أن تكون الباء هنا للملابسة بمعنى (مع) تتعلق بحالة محذوفة عن الضمير في ﴿عَلَيۡهِم﴾ وهي حال سببية والتقدير: ملابسا الطائف عليهم كأسًا[1].

نكتةُ تنكيرِ (كأس) وإفرادِها:

كأسٌ تزيدُ الأنسَ بالجليسِ

جاءَ لفظُ (كأس) في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٍ﴾ نكرةً مُفردًا، ونكتةُ تنكيرهِ هي التَّفخيمُ، فهي كأسٌ عظيمةٌ يَحارُ العقلُ في تصوُّرِ جَمالِها وكَمالِها، وممّا زاد خصوصيَّةَ (الكأسِ) مجيءُ لفظِها مُفردًا مع أنَّ المَطوفَ عليهم كثيرونَ[2]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المرادَ بالكأسِ الآلةُ، وأمّا إنْ أُريدَ بالكأسِ (الخمرُ)؛ فإنَّ الكأسَ اسمُ جنسٍ يرادُ به الحقيقةُ، فهُم يطوفونَ عليهم بنوعٍ عجيبٍ من الخمرِ يلتذُّ به الشّاربونَ.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ (كأس):

مُتعةُ الشَّرابِ في مجالِسِ أُنسِ الأحباب

تضمَّنَ لفظُ (كأس) في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٍ﴾ مجازًا مُرسَلًا، علاقتُهُ إطلاقُ المَحلِّ على الحالِّ[3]، فقد ذُكِرَ (الكأسُ)، ولم يُقصدِ الإناء بقدرِ ما قُصِدَ الشَّرابُ، حتّى إنَّ الإناءَ لا يُعدُّ شيئًا إذا ما خلا مِن الشَّراب، فصارَ المقصودُ بالكأسِ ما حلَّ فيها، وحينئذٍ تكونُ (الباء) مَزيدةً للتَّوكيد، وليسَتْ للآلةِ أوِ التَّعدية، فهُم يَشربونَ الكأسَ نفسَها، فقد تعارفَ العربُ حتى اشتهرَ عندَهم إطلاقُ الكأسِ على الخمرِ، وما ذلك إلّا لتمتُّعِ شارِبِها بها وأُنسِها بمَجلِسِه، والكؤوسُ تدارُ عليهم، فشوَّقَهم المَولى تعالى إلى خَمرِ الجنَّة؛

(1) قباوة، التفسير المفصل، ص: 1597.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 112.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 101، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.

لِيَزدادوا بها تنعُّمًا، ولكنَّها ليستْ كخَمرِ الدُّنيا، ولا يبعُدُ أنْ يُرادَ بالكأس الآلةُ وما فيها معًا؛ إذِ الكأسُ لا يُطلَقُ على الآلةِ الفارِغَةِ من المَشروب، ويكونُ ذكرُ الآلة تحرُّزًا عن ذكرِ الخَمر، وشرفُ الكأسِ يُعطي شرَفًا لما فيه، وأنَّه يختلفُ ذلك المشروبُ عن خُمورِ الدُّنيا.

معنى ﴿مِّن﴾:

جُرَّ لفظُ ﴿مَّعِينِۭ﴾ بالحرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾؛ ليدلَّ الحرفُ ﴿مِّن﴾ على الجنسِ[1]، أي: إنَّهم يَسقونهم شرابًا من جنسِ الشَّرابِ المَعين، أوْ شرابَ نهرٍ مَعين، على إضمارِ صفةٍ لـ(كأس)[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تميُّزِ الشَّراب، وأنَّه شرابٌ ليسَ كغيرِهِ مِنَ الشَّرابِ صَفاءً وجَرَيانًا.

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿مَّعِينِۭ﴾:

شرابُ الجنَّة يجمَعُ بينَ جَريانِ الأنهار وصَفاءِ المَنابِعِ

آثَرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿مَّعِينِۭ﴾ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾، ويكمُنُ سرُّ ذلك في دلالتِهِ على معانٍ مُتعدِّدةٍ تبَعًا لأصلِ مَعناه، فيدلُّ على الجَرَيانِ والكَثرةِ، فلا تكادُ خمرُ الجنَّة تنقطِعُ لكثرتِها[3]، وهي تَجري أنهارًا[4]، ليستْ كخمرِ الدُّنيا مَعصورةً مُختزنةً[5]، وزادَهُ دلالةً مجيئُهُ على وزنِ المُبالغة (فعيل)[6]، فزادَهُ مبالغةً في دلالتَي الجَرْيِ والكَثرة، كما يدلُّ على النَّبعِ والظُّهورِ والصَّفاء، مِن (عانَ المَعينُ) باسم المفعول[7]، أي: إنَّها خمرٌ ظاهرةٌ رَقراقةٌ تنبعُ كما تنبعُ الماءُ، لا يُعالِجونها بعَصْرٍ[8]، فجمعتِ الدَّلالةُ بينَ الجريانِ والكثرةِ كالأنهار وبينَ الصَّفاءِ كماءِ المَنابِعِ[9].

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 301.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 191، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 472.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 332.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.
(9) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 84.

وجهُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّعِينِۭ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿مَّعِينِۭ﴾ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾ نكرةً؛ ليدلَّ التَّنكيرُ على التَّكثير والتَّنويع، فهي خمرٌ، لا تنفَدُ لكثرتها حتَّى جرَتْ أنهارًا في الجنَّةِ، وهي خمرٌ لا تنضُبُ؛ إذ هي قريبةُ المَأخَذِ تنبعُ كنَبْعِ الماءِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى امتلاءِ كُؤوسِهم خَمْرًا لا تنقطِعُ.

خمرُ الجنَّةِ لا تنفَدُ، ولا تَنقطِعُ

سرُّ الوصفِ بلفظِ ﴿بَيۡضَآءَ﴾:

وُصِفَ (الكأس) بلفظِ ﴿بَيۡضَآءَ﴾ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ بَيۡضَآءَ﴾؛ لرُجوعِ وصفِ الخمرةِ باللَّونِ الأبيض إلى دلالةِ البَياض على الصَّفاءِ والحُسْنِ، فلونُ خمرِ الجنَّةِ حسَنٌ مُشرِقٌ بهيٌّ[1]، وهو ما يُغري بتناوُلِها، وخمرُ الجنَّةِ صافٍ نقيٌّ، وهو ما يدعو أيضًا إلى استساغتِها والارتواءِ منها؛ لأنَّها في غايةِ اللَّطافةِ تتلألأُ نورًا[2]، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ البياضُ وصْفًا لكلٍّ مِنَ الكأسِ والخَمرةِ معًا.

بهاءُ اللَّونِ ونَقاءُ الطَّعْمِ يُغري بدوامِ التَّناوُلِ

وجهُ تأنيثِ وصْفِ (الكأسِ):

جاءَ وصفُ (الكأس) بلفظِ ﴿بَيۡضَآءَ﴾، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ في قوله: ﴿بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ بَيۡضَآءَ﴾؛ ليكونَ وصفًا مؤنَّثًا لموصوفٍ مُذكَّر، وهو (الخمر)؛ لأنَّه جرى تأنيثُ الوصفِ تبَعًا للتَّعبيرِ عن الخمرِ بلفظِ (كأس)[3]، ولا يبعدُ أنْ يكونَ البياضُ وصْفًا للكأسِ ووصْفًا للخمرةِ معًا.

الـخَـمْـرةُ في الكأسِ بيضاءُ لا مثيلَ لَها في النَّقاءِ

دلالةُ الوصفِ بالمصدرِ في ﴿لَذَّةٖ﴾:

وُصِفتِ (الخمرُ) بلفظِ ﴿لَذَّةٖ﴾ في قوله: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وهو مصدرٌ، أي: ذاتِ لَذَّة، وكانَ أصلُ العِبارة: (كأسٍ بيضاءَ ذاتِ لذَّةٍ أوْ لذيذة)، فَعَدلَ النَّظمُ عن الوصفِ إلى المصدرِ اتِّساعًا في

خمرٌ هي اللَّذَّةُ عينُها لا يَمَلُّها الشّاربُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 13.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 230.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.

الوصف؛ لإفادةِ المُبالغةِ في تمكُّنِ هذا الوصفِ[1]، فهي خمرةٌ ذاتُ لذَّةٍ هي أقصى اللَّذَّةِ حتَّى صارتِ الخمرُ نفسُها هي اللَّذَّةَ.

معنى (اللّام):

أُعِدَّتِ الخمرُ لأجلِ الشّاربينَ إكرامًا

جُرَّ لفظُ (الشاربين) باللّام في قوله: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، وهي لامُ الاختصاصِ والأجْلِ، فلأجْلِ الشّاربينَ أُعِدَّتْ هذه الخمرةُ النَّقيَّةُ الطَّيِّبةُ الطَّعْمِ الكثيرةُ الجاريةُ الرَّقراقة خصّيصًا لهُم، وفي ذلك إشارةٌ إلى كمالِ التَّكريمِ والتَّنعيمِ الَّذي ينالُهُ أصحابُ الجِنانِ.

إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ (الشاربين):

كمالُ لذَّةِ الخمرِ داعٍ لدوامِ تناوُلِها

جاءَ لفظُ (الشاربين) في قوله: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ مجموعًا؛ ليدلَّ ذلك على تمكُّنِ وصفِ الشُّربِ مِن هؤلاء، فلهم شوقٌ عظيمٌ لتناوُلِها لأجلِ كَمالِ لذَّتِها، وقد جاءَ ذكرُهم بالجمعِ؛ لاستحضارِ المُزايدةِ بينَهم في درجاتِ لذَّتِها وحُسنِ مَذاقِها، والتَّمتُّعِ بها، فلا يَصِفونها إلّا بكاملِ اللَّذَّةِ، حتى صارَتْ هي اللَّذَّةَ ذاتَها.

دلالةُ تعريفِ (الشّاربين):

خَمْرُ الجنَّةِ يَرجوها شارِبُها أشدَّ الرَّجاء

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ (الشّاربينَ) مُعرَّفًا في قوله: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ودلَّ التَّعريفُ هنا على الجنسِ، أي: إنَّ خمرَ الجنَّةِ ذاتُ لذَّةٍ يشهدُ بها كلُّ مَن عاقرَ الخمرَ، وأدمنَ شُربَها؛ فهي تُفيد الشمولَ والعمومَ، وفي ذلك إشادةٌ بشرابِ أهلِ الجنَّةِ ومزيدِ تكريمٍ لهم بأحسنِ الأطايبِ.

نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ (الشاربين):

تصويرُ تمامِ مَشهَدِ التَّنعُّمِ والتَّكريمِ في الجِنانِ

حُذِفَ مُتعلِّقُ (الشاربين) في قوله: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، مع أنَّه ظاهرٌ، وهو الخمرُ خاصَّةً؛ إذ لا يُذكرُ الشّاربُ مُنفردًا إلّا للخمرِ، والتَّقديرُ: (يشربون الخمرَ، أو منها، أوْ بها) على إرادةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 472، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.

الكأسِ، ونكتةُ ذلك إرادةُ العموم كما دلَّ عليه تقديرُ المُتعلِّق، ويحتملُ أنَّ (الشّاربينَ) لفظٌ أُريدَ بهِ اللّازمُ، فيكونُ القصدُ لذكرِ الفاعلِ خاصَّةً، أي: استحضارُ فعلِ الشَّرابِ ومُنادمةِ الخمرِ لذيذةً صافيةً بيضاءَ؛ تصويرًا لتمامِ مَشهدِ التَّنعُّمِ والتَّكريمِ في الجنان.

موقعُ جملةِ ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾:

نفيُ النَّقصِ نداءٌ بالكمالِ

جاءَتْ جملةُ: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ عقِبَ وصفِ خمرِ الجنَّة بالمَعينِ والبَيضاءِ واللَّذَّة، وهي صفاتُ كمالٍ، وقد يخطُرُ في الذِّهنِ ما في الخمرِ من مثالبَ، فجاءتِ الجملةُ لتنفيَها[1]، فهي جملةٌ نعتيَّةٌ للكأسِ، تحقِّقُ التَّحفُّظَ، وتُنادي بالكمالِ، وتفيدُ الاحتراسَ.

سرُّ إيثارِ ﴿لَا﴾ النّافيةِ للجنس:

نـفـيُ عُـيـوبِ الخمرِ تنزيهٌ لها مِنَ النَّقائص

آثرَتِ الآيةُ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ دونَ النَّفي بـ(ما)؛ لأنَّ النَّفي بـ(ما) يردُّ ردًّا على اعتراض[2]، والعربُ لم تكنْ تعترضُ على الخمرِ رغمَ ما فيها من عيوبٍ، فكانوا يُقرّونَ بعُيوبها مع أنَّهم يُعاقِرونها، ويأبَونَ تركَها؛ لذلك جاء النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ لإبعادِ تلك النَّقائص، كما أنَّ ﴿لَا﴾ موضوعةٌ لنَفْيِ الجنسِ على سبيلِ القَطْعِ دالَّةً على الاستغراقِ، وتفيدُ التَّوكيدَ والتَّحقيق، فلا يوجَدُ أيُّ غولٍ فيها، ولا مجالَ لإنكارِ كونِها خَمرًا معَ كونِها لا تشتملُ على الغَوْلِ.

معنى (في):

خَمْرُ الآخرةِ خُلْوٌ مِنَ الغَوْلِ

عبَّرتِ الآيةُ بحرفِ (في) في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة، والمقصودُ هنا هو احتواءُ الخَمرِ على الهَلاك والصُّداع، فالغَولُ مُتضمَّنٌ في الخمر، كأنَّه مظروفٌ فيها، لَصيقٌ بها لا تخلو منه، ولا تنفكُّ؛ لأنَّهُ ناتجٌ عنها، فجعلَ النّاتجَ من الشَّيءِ كأنَّه فيهِ، وإنْ كان الهلاكُ قائمًا بالشّاربِ والصُّداعُ حاصلًا عندَهُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 231.

(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 335.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿فِيهَا﴾:

خـمـرُ الـجـنَّـةِ نعيمٌ لا ضُرَّ فيه

عادَ الضَّميرُ في لفظِ ﴿فِيهَا﴾ من قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ إلى خَمْرِ الجَنَّة[1]، فهي خمرةٌ تخلو تمامًا مِنَ الضُّرِّ والإهلاك، فإنْ كانَ مِن غولٍ؛ ففي خمرِ الدُّنيا، إلّا أنَّ خمرَ الجنَّةِ نعيمٌ لا ضرَّ فيه.

سرُّ تقديم شبهِ الجُملة ﴿فِيهَا﴾:

خمرُ الجمالِ تناسِبُ تكريمَ أهلِ الجِنانِ

قُدِّمَ شبهُ الجُملة ﴿فِيهَا﴾ مِن قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ على اسم ﴿لَا﴾ النّافيةِ للجنس، وذلك لإفادةِ التَّخصيص، أي: إنَّ الغولَ مُنتفٍ عن خمرِ الجنَّة فقط دونَ ما يُعرَفُ من خمورِ الدُّنيا، فالتَّقديمُ هنا هو قصرُ قلبٍ[2] قصْرَ صفةٍ على موصوف[3]، أي: إنَّ خمرَ الجنَّة وحدَها خاليةٌ تمامًا مِنَ الغول، وفي ذلك إشارةٌ إلى تفضيلِها على غيرِها، ومناسبَتِها لتكريم أهلِ الجنَّةِ.

بلاغة استعمال لفظ ﴿غَوْلٌ﴾ نكرةً:

أسباب تحريم خـمـر الـدنـيـا غائبة عن خمر الجنّة

جاء لفظ ﴿غَوْلٌ﴾ نكرة، ويدلّ تنكيره على انتفاء جنس الغول من أصله[4]؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفي للعُموم، فليسَ فيها أدْنى شيءٍ مِنَ الضُّرِّ صداعًا أوْ غيرَهُ وفي ذلك كمالٌ لهذه الخمر فهي لذّة خالصة ولا ضرّ فيها أصلًا، ونفي الغول الذي يعتري شاربي الخمر في الدنيا، باعتباره مقدمة التحريم التي تجعل العقول مغتالة، ولذلك ففي الآية إيماء صريح بأنَّ اغتيال العقول لن يكون في الجنّة، فهي لذة خالصة سائغة لا ضرر من ورائها.

توجيهُ العطفِ بتكرارِ ﴿وَلَا﴾:

لا أذًى في خَمْرِ الـجـنَّـةِ، ولا ما يُذهِبُ العَقل

عُطِفَتْ جملةُ: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ على جملةِ الوصفِ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ بحرفِ (الواو) مَعَ تكرارِ (لا) النّافية، وهو مِن عطفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 113.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 256.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

الخاصِّ على العامِّ[1]؛ إذ بعدَ أنْ نفَتِ الجملةُ المعطوف عليها عن خمْرِ الجنَّة ما يُهلِكُ، ويضُرُّ؛ خصَّتْ من ذلك ما يُؤَثِّرُ على العقلِ، ويُغيِّبُهُ؛ لما لهُ من أثرٍ وخطَرٍ، فلذلك خصَّهُ دونَ غيرِهِ من صوَرِ الضُّرِّ[2]، وفي تَكرارِ (لا) مزيدُ تأكيدٍ على نفيِ ذلك ودوامِه[3].

سرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الفصلِ ﴿هُمۡ﴾:

إثـبـاتُ كـرامـةِ الأطيابِ، وتأكيدُ سَلامةِ الشَّراب

عبَّرتِ الآيةُ بالضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾ الواقعِ في صدرِ الجُملةِ الاسميَّة المُخبَرِ عنها بالفعلِ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾؛ لإفادةِ تقويةِ الحُكمِ معَ التَّخصيصِ، والضَّميرُ راجعٌ إلى المُكرَمينَ؛ لبيانِ أنَّ مِن إكرامِهم ألّا يَتعرَّضوا في شُرْبِ الخَمْرِ إلى ما يُهينُهُم، أوْ يُحقِّرُهم.

معنى (عن):

مَقامُ الشّاربينَ مَـحـفـوظٌ وكـرامـتُـهـم مَصونةٌ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿عَنۡهَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ للدَّلالة على السَّببيَّة[4]، فهو بمعنى الباءِ، أي: ولا هُم بسببِ شُرْبِها تنزِفُ عقولُهم، وتختلُّ أفكارُهم، كما هي خمرُ الدُّنيا، وفي ذلك إشارةٌ إلى حفظِ مَقامِ شاربيها وصَوْنِ كَرامتهم، وإنَّما عبَّر عنِ السببيَّة بـ(عن) الموضوعةِ للمُجاوزة؛ لأنَّ النَّزفَ يصدُرُ عقيبَ شُربِها؛ فكأنَّه يتجاوزُ شُربَها؛ ليصلَ إلى الشّارب، فهي سببيَّةٌ تعقيبيَّة.

نكتةُ تقديمِ متعلِّقِ الخَبر:

تميُّزُ خمرِ الجنَّة بكرامةِ أصحابِها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنۡهَا﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يُنزَفُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ خمرِ الجنَّة بذلك، فهي خمرٌ لا أثرَ لها أبدًا في نَزْفِ العقول، بخلافِ غيرِها مِن سائرِ الخُمورِ[5].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 146.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 85، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 257.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 43.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 84.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

دلالةُ المُضارعِ المبنيِّ للمفعول ﴿يُنزَفُونَ﴾:

خمرُ الدُّنيا تأثُّرٌ دونَ شعورٍ وتجدُّدُ خَبالٍ ونَدَمٍ

جاءَ الفعلُ ﴿يُنزَفُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ مُضارِعًا مبنيًّا للمفعول، ويدلُّ على أنَّ النَّزفَ يقعُ لا بإرادةِ صاحبه دونَ أنْ يشعُرَ، ويدلُّ المضارع على التَّجدُّدِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ خمْرَ الدُّنيا تُذهِبُ العقلَ شيئًا فشيئًا معَ تكرُّرِ شربِ صاحبِها[1]، ويتجدَّدُ إذهابُ العقلِ أيضًا مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، يغيبُ، فيجهَلُ صاحبُه، ثمَّ يَستفيقُ، فيَندَمُ، ثمَّ يشرَبُ بعدَها، فيذهبُ عقلُه مرَّةً أُخرى، ويفعلُ أفعالَ المَجانين، ففي تكرارِ ذلك نفورٌ من الخَمرةِ وشُربِها، والآيةُ تنفي أيَّ تأثيرٍ لخمرِ الجنَّة في العقلِ إطلاقًا.

بلاغةُ الإيجازِ في وصْفِ الخَمْر:

تَوَقّي خمرِ الدُّنيا والإقبالُ على خمرِ الآخرة

جاءَ وصفُ خمرِ الجنَّة في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ وصفًا موجَزًا بديعًا، فقد جمعَ في الجملتينِ جميعَ عُيوبِ خمرِ الدُّنيا، وأشارَ بالغَوْلِ إلى كلِّ مُفسِدٍ ومُهلِكٍ، من مغصٍ أوْ صداعٍ أوْ مرضٍ، وأشار بالنَّزفِ إلى الإسكارِ وما ينجرُّ عنه من العَربدةِ واللَّغْوِ والتَّأثيم[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يُنزَفُونَ﴾:

قُبحُ خمرٍ تُفقِدُ العقلَ، وتورِثُ الإثمَ

تضمَّنَ قولُه: ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ استعارةً تمثيليَّةً؛ إذ شُبِّهَ عقلُ الشّاربِ بماءِ البئرِ في إفراغِهِ شيئًا فشيئًا إلى نَزْحِهِ تمامًا[3]، فصارَ شاربُ الخمرِ يَفقِدُ عقلَهُ رويدًا رويدًا دونَ أنْ يَدريَ، إلى أنْ يتحوَّلَ إلى مجنونٍ يُعربِدُ، ويَلغو، ويأثم، وإذا أُفرِغَ الإنسانُ من عقلِهِ؛ سقطَتْ كرامتُهُ، وزالَتْ هيبتُهُ، وتوقَّعَ النّاسُ منه كلَّ إثمٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 268.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

توجيهُ القراءاتِ وبلاغتها:

تعدد التكريم بتعدد الإكرام

قَرَأ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بِكَسْرِ الزّايِ: ﴿يُنزِفُونَ﴾: وقَرَأ الباقونَ بِفَتْحِ الزّاي: ﴿يُنزَفُونَ﴾[1]. وحجة من كسر أنه جعله من (أنزف ينزف): إذا سكر، والمعنى: (ولا هم عن الخمر يسكرون فتزول عقولهم)، أي: تبعد عقولهم، كما تفعل خمر الدنيا، وقيل: هو من (أنزف ينزف): إذا فرغ شرابه، فالمعنى: (ولا هم عن الخمر ينفد شرابهم كما ينفد شراب الدنيا)، فالمعنى الأول من نفاد العقل، والثاني من نفاد الشراب، والأحسن أن يحمل على نفاد الشراب؛ لأن نفاد العقل قد نفاه عن خمر الجنة في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم فتذهبها، فلو حمل ﴿يُنزَفُونَ﴾ على نفاد العقل لكان المعنى مكررًا، وحمله على معنيين أولى. وحجة من فتح الزاي أنه جعله من (نزف): إذا سكر، وردَّه إلى ما لم يسمَّ فاعله، لغة مشهورة فيه، وإن كان لا يتعدَّى في الأصل، ولم يستعمل (نزف): إذا سكر، إنما استعمل بالضمِّ، على لفظ ما لم يسمَّ فاعله، وهي أفعال معروفة، أتت على لفظ ما لم يسمَّ فاعله، ولم تأت على لفظ ما سمي فاعله، فالمعنى: (ولا هم عن خمر الجنة يسكرون)، يقال: (نزف الرجل): إذا سكر، ويجوز أن يكون من (أنزف)، ردّه إلى ما لم يسمّ فاعله، ويضمر المصدر ويقيمه مقام الفاعل، فتكون القراءتان بمعنى واحد على هذا الوجه[2].

وجهُ العطفِ بـ(الواو) في ﴿وَعِندَهُمۡ﴾:

تعقيبُ النَّعيم بالنَّعيم عَطايا مِنَ الرَّبِّ الكريم

عُطِفَتْ جملةُ: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ على ما سبقَها، وهو عطفُ نعيم على نعيم؛ إذ بعدَ أنْ ذُكِرَ نعيمُ المَشرَبِ والأُنسِ بالصَّحبِ؛ ذُكِرَ عقيبَهُ نعيمُ الأُنْسِ بالزَّوْجِ[3]، وفي ذلك تتميمٌ لجوانبِ النَّعيمِ في جنّاتِ النَّعيمِ.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 357.

(2) مكّي، الكشف: 2/ 224.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 333.

علّةُ تقديمِ الخبرِ ﴿وَعِندَهُمۡ﴾:

التَّعجيلُ بإتمامِ نعيمِ أصحابِ الجِنانِ

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿وَعِندَهُمۡ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ المُتعلِّقُ بالخبرِ على المبتدأِ، وهو ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾؛ وعلَّةُ ذلك هي التَّعجيلُ بإتمامِ نعيمِهم، فهو نعيمٌ لأجلِهم، ودفْعٌ لتوهُّمِ خلوِّ نعيمِهم من هذا الأُنْسِ وتلك المُتعة، كما أفادَ التَّقديمُ تخصيصَ ذلك النَّعيم بالمُكرَمينَ.

سرُّ إيثارِ لفظِ (عند):

نعيمٌ حاضِرٌ قريبٌ

آثرتِ الآيةُ لفظ (عند) في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ دونَ (لديهم أو لَهُم)؛ لدلالةِ (عند) على حُضورِ هذا النَّعيم عندَهم، فليس شيئًا يَحوزونَهُ لَدَيهم فقط، بل هو حاضرٌ عندَهم وماثلٌ أمامَهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ جَمْعًا:

في التَّعدُّدِ تنوُّعٌ للنَّعيمِ وتجدُّدٌ

جاءَ لفظُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ جمعًا في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ إشارةً إلى الكَثرة، ومعَ تعدُّدِهِنَّ يزدادُ نعيمُ النَّظرِ إلى كلِّ واحدةٍ مِنهنَّ، والانشراحُ لقَصْرِ كلِّ واحدةٍ منهُنَّ طرفَها غنجًا وحَياءً وحُبًّا، ففي الكثرةِ تعدُّدُ النَّعيمِ وتجدُّدُهُ وتنوُّعُهُ، ونلحظُ أنَّ النَّظمَ في ذكرِ خمْرِ الجنَّةِ احترسَ عن خُمورِ الدُّنيا بنَفْيِ الغَوْلِ والنَّزْفِ، وعندَما ذكرَ نساءَ أهلِ الجنَّةِ لم يَحترِسْ؛ لأنَّ أولئك النِّساءَ قاصِراتُ الطَّرْفِ مثل النِّساءِ الصّالحاتِ في الدُّنيا في ذلك، فلا حاجةَ للاحتراسِ.

وجهُ تعريفِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ بالإضافةِ:

قَصْرُ الحياءِ والغنجِ كَمالٌ وزينةٌ للمَرأةِ

عُرِّفَ لفظُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ بالإضافةِ في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾؛ ليدلَّ على أنَّه قصرٌ متعلِّقٌ بالطَّرْفِ خاصَّة، وهو وصفُ كمالٍ وزينةٍ للمَرأةِ، وذلك بحبسِ النَّظَرِ إلى أيٍّ كان ومتى كان، وقصْرُهُ على صاحبِهِ قصْرَ حياءٍ وغنجٍ[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

دلالةُ صيغةِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾:

صيغَ لفظُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بصيغةِ فاعلٍ، وهي صيغةٌ مُتأرجحةٌ بين الصِّفة المشبَّهة واسم الفاعل، فأمّا حمْلُهُ على الصِّفة المشبَّهة؛ فهنَّ (قاصراتٌ أطرافهنَّ)، أي: إنَّ الطَّرْفَ قاصِرٌ عن الآخَرينَ، وما لا يصِحُّ، وهو وصفُ كمالٍ ودليلُ حياءٍ وعِفَّة، وأمّا حمْلُهُ على اسم الفاعل؛ فهُنَّ قد قَصَرْنَ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ، وهو مدحٌ عظيمٌ[1]، ودليلٌ على حُبِّهنَّ أزواجَهُنَّ.

وصفُ الكمالِ مدحٌ عظيمٌ ودليلُ حياءٍ وعِفَّة

دلالةُ لفظ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ مُعرَّفًا:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ مُعرَّفًا؛ ليدلَّ على أنَّه الطَّرْفُ المَعروف، والمقصودُ به العينُ هنا، مِن: طَرَفَ بعينِه؛ إذا حَرَّكَ جفنَيه، أي: إنَّهُنَّ قاصِرات الأعيُنِ[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى مُلاحظةِ الطَّرفِ، وهو يَطرُفُ بلُطفٍ، فيَزيدُهُنَّ جمالًا بِمَنْعِهِنَّ طرفَهُنَّ إلّا على أزواجِهِنَّ، وفي الآيةِ كنايةٌ عن كمالِ العَفافِ والحَياء، فلا يَمُدُدْنَ أعيُنَهُنَّ لغيرِ أزواجِهِنَّ.

لُطفُ الطَّرفِ مقصورٌ على الحبيبِ

توجيهُ الوَصفِ بـ(العين):

وُصِفَتِ (القاصرات الطَّرف) في قوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾ بـ(العين)، وهي جَمْعُ عَيناء[3]، أي: حِسانُ العُيون؛ اتِّساعًا ودقَّةَ نظَرٍ، وهو وصفٌ لجمالِ العُيون[4] مُكمِّلٌ لوصفِ القاصراتِ؛ إذْ وُصِفْنَ بالعفَّة والحياءِ أوَّلًا، ثمَّ وُصِفْنَ بحُسْنِ العُيون[5]، وقد اجتمعَ الوصفانِ في محلٍّ واحدٍ هو العُيون، وقد أفادَ الوصفُ الاحتراسَ، وذلك بأنَّ حبْسَ أطرافِهن ليس ناجمًا عن عيونٍ صغيرةٍ لا تُدرِك، وبصرٍ ضعيفٍ

جمالُ العَينِ وحياءُ الطَّرفِ يَزيدُ القاصراتِ حُسْنًا

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 306.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 306.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 86.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 14.

لا يُحيط، بل هُنَّ عيناواتٌ يُبصِرْنَ ما حولَهُنَّ، لكنَّهنَّ يمنعْنَ البصرَ، ويَحبِسْنَهُ على أزواجِهنَّ حِمايةً لحقوقِهنَّ وشدَّةِ أخلاقِهِنَّ.

المبالغةُ في التَّشبيهِ مِن تمامِ الإعجاب

سرُّ التَّشبيهِ بـ(كأنَّ):

شُبِّهتْ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ بالأداةِ (كأنَّ)، ويرجعُ سرُّ اختيارِها على غيرِها من أدواتِ التَّشبيه إلى ما تحملُهُ من المُبالغةِ في التَّشبيهِ بالوصفِ معَ التَّحقيقِ والتَّوكيد، والقصدِ إلى جعْلِ قاصراتِ الطَّرفِ هنَّ البَيضُ المَكنونُ نفسُهُ[1].

يُزانُ الجمالُ بالنَّضارةِ والصَّفاء

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيۡضٞ﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿بَيۡضٞ﴾ في قولِه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾، والمقصودُ بهِ بَيضُ النَّعامِ خاصَّةً؛ إذِ "النَّعامُ يكنُّ بيضَهُ في حُفَرٍ في الرَّملِ، ويفرشُ لها من دقيقِ ريشِهِ، وتُسمّى تلك الحُفَر: الأداحي، واحدَتُها أُدْحيَّةٌ، فيكونُ البَيضُ شديدَ لمعانِ اللَّونِ، وهو أبيضُ مَشوبٌ بياضُهُ بصُفْرَةٍ"[2]، وبها تُشبِّهُ العربُ النِّساءَ، وتُسمّيهنَّ بَيضاتِ الخُدور[3]، وهو وصف بِزَيْنِ النّضارة والصّفاء، وهو من أجمل الألوان التي تكتحل بها عيون الرجال عن مشاهدة بَشْرة النساء، ولتقع المناسبة بين لفظ ﴿بَيۡضٞ﴾ في وصف الحور، ولفظ ﴿بَيۡضَآءَ﴾ في وصف خمر الجنة، وهذا من بديع المناسبة اللفظية.

المَصونُ والمَحفوظُ أرغَبُ إلى النُّفوس

سرُّ وصفِ البَيضِ بـ ﴿مَّكۡنُونٞ﴾:

وُصِفَ البَيضُ بـ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾، ومردُّ ذلك إلى أنَّ النَّعام تبيضُ بيضَها في الفَلاة، فيكونُ مَصونًا، لا تمسُّهُ أيدي البشرِ غالبًا[4]، وتَعُدُّ لهُ الأداحي تفرشها بالرّيش[5]،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 473.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 43.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 248.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 114.

فيكونُ محصَّنًا، لا دَنَسَ يلحَقُهُ ولا غُبارَ يَرهَقُهُ[1]، وكلُّ ذلك علامَةُ الصّونِ والحِفظِ، ففي التَّشبيهِ كنايةٌ عن العَفافِ والخُلوصِ لأزواجِهِنَّ معَ كمالِ السِّترِ، فلم يلمَسْهُنَّ أحدٌ قبلَ أزواجِهِنَّ، وبهذه الكنايةِ الثّانية تبيَّنَ أنَّهُنَّ لا يَمدُدْنَ أعيُنَهنَّ لغيرِ أزواجِهِنَّ ولا أحدٌ رآهُنَّ، أوْ لَمَسَهُنَّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 232.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ [الصافات: 50 - 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

نعيمُ الجنَّةِ يدعو لإقبالِ أهلِها على بعضٍ أُنْسًا

ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ جزاءَ المُخلَصينَ في جنّاتِ النَّعيم، وأنَّهم على سُرُرٍ مُتقابِلينَ، يأنَسونَ بالجليسِ والفَرْشِ والشَّرابِ اللَّذيذِ، ومن تمامِ الأُنسِ تجاذُبُ أطرافِ الحديثِ بالطَّيِّبِ من الكَلِمِ وذكرِ السَّلامةِ وتَمامِ النِّعمة، فيُقبِلُ بعضُهم على بعضٍ يَتساءَلونَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرِينٞ﴾: أصلُ لفظِ (قرين) هو (قَرْنٌ)، وهو نتوءٌ بقوَّةٍ وشِدَّةٍ[2]، وأقرنَ له وعليه: أطاقَ، وقَوِيَ عليه[3]، ومن تَساوي قرنَي الدّابَّةِ جاءَ معنى التَّساوي، فالقَرنُ في السِّنِّ: اللِّدَةُ، وقِرنُك في الشَّجاعة، أي: مُساويكَ[4]، وقَرْنُهُ وقرينُه في الجَلادةِ وفي الصَّبْرِ، ومن مُلاحظةِ المُصاحبةِ سُمّيَ القرنُ مِنَ الزَّمانِ لمُصاحبةِ أهلِهِ زَمَنًا كقَرنَيِ الدّابَّة، ومن المُصاحبةِ والتَّساوي جاءَ معنى جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ، يقالُ: قَرَنْتُ البعيرَ بالبعيرِ: جمعتُ بينَهُما، واقترنَ الشَّيئانِ، وتقارَنا: اجتمَعا، وتقَوَّى أحدُهما بالآخَرِ[5]، ومعنى ﴿قَرِينٞ﴾ في الآيةِ: المُلازِمُ[6].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الجنَّةُ مكانُ تجاذُبِ حُلْوِ الحَديثِ

استأنسَ أهلُ الجنَّةِ في مَجلِسِهم، فتَجاذَبوا أطرافَ الحديثِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 334، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 233، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 115.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سأل).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(5) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرن).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.

وتساءَلوا؛ إذ قالَ أحدُهم: أذكُرُ أنّي كانَ لي مُلازِمٌ قريبٌ[1]، أي: صاحبٌ قد جَمَعَتْنا الصُّحبةُ في قرنٍ واحدٍ، ويُصغي أهلُ المَجلِسِ إلى هذا الحديثِ، وما كانَ مِن شأنِ هذا الصّاحبِ معَ صاحبِهم هذا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بـ(الفاء):

الأُنْسُ بالصّاحبِ أدعى للمُحادثة

عُطِفَتِ الجملةُ في قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ على ما سبقَها بالفاء، وهي فاءُ التَّعقيب، أي: إنَّهم يَشربونَ، فيتحادثونَ على الشَّرابِ كعادةِ الشّاربينَ[3]؛ "لأنَّ شأنَ المُتجالسينَ في مَسرَّةٍ أنْ يَشرعوا في الحديث، فإنَّ في الحديثِ معَ الأصحابِ والمُنتدمينَ لذَّةً"[4]، ما ليس في السُّكوتِ والوُجوم الدّاعي إلى انفضاضِ المجلس، فالمحادثةُ مِن تمامِ نعيمِ أهلِ الجنَّةِ.

سرُّ تكرارِ آيةِ الإقبالِ والتَّساؤلِ:

استحضارٌ وتقابلٌ بينَ النَّعيمِ والجَحيم

تكرَّرتْ آيةُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ لأجلِ بيانِ المُغايرةِ بينَ تساؤُلِ أصحابِ الجَحيم وتساؤُلِ أصحابِ النَّعيم، فهما يَشتركانِ في الإقبالِ للتَّساؤلِ، لكنَّهما يَختلفانِ في الباعثِ لذلك؛ إذ سؤالُ أصحابِ الجحيم للتَّبرّي مِنَ المُغوينَ وإلقاءِ اللَّوم عليهم، ومُحاولةِ النَّجاة بالنَّفسِ من هَوْلِ العذاب، وسؤالُ أصحابِ النَّعيم للشُّكرِ على النِّعمةِ بالنَّجاة من براثنِ المُغوينَ، والحاصلُ أنَّ الاتِّباعَ للغاوينَ على شِقَّين: شقٌّ أصاخَ السَّمع، وأُعجِبَ بطريقِ الكافرينَ، فاتَّبعَهم، وقَبِلَ غِوايتهم، وشقٌّ رفضَ الإغواءَ، وأصاخَ لصوتِ الأنبياء، فالغرضُ من التَّكرارِ الإشارةُ إلى الفرقِ بينَ النَّوعين.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 44 - 45، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 115.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 983.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 44.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 115.

بيانُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ بينَ الآيتين:

تعقيبُ أُنْسٍ واحتباسُ غَمٍّ

تكرَّرتْ آيةُ: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ مرَّتينِ في سياقِ الآياتِ، الأولى في جدالِ أهلِ العَذاب، والثّانية في أُنسِ أهلِ النَّعيم، مع فارقٍ في (حرفِ العَطف)؛ إذ عُطِفَ في الأولى بحرفِ (الواو)، وبحرفِ (الفاء) في الثّانية، ويرجعُ إيثارُ (الفاء) في الثّانيةِ إلى التَّعقيبِ بالأنسِ في حوارِ أهل الجنَّة؛ لأنَّه من نعيم الجنَّة، فتكاملَ النَّعيمُ بتعقيبِ الحديث والأنسِ بالجليس، في حينِ آثرتِ الآيةُ الأولى حرفَ الواو؛ لحَبسةِ الاغتمام والفزَعِ الَّذي أصابَ أصحابَ الجحيم؛ إذ لم يَتقدَّمْهُ نعيمٌ أو شقاءٌ حتى يُعطَفَ عليه بالفاء، فكانَ استئنافًا وابتداءً للتَّخلُّصِ مِنَ الأهوالِ، فكان حديثُهم عن غمٍّ وحُزنٍ، بخلافِ حديثِ أهلِ النَّعيم؛ فكان عن راحةٍ واستجمامٍ وانتعاشٍ بالشَّراب.

دلالةُ صَوْغِ الفعلِ ماضيًا:

إقبالٌ أكيدٌ لإتمامِ النَّعيم

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي (أقبلَ) في قولِه: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أمرٌ أكيدُ التَّحقُّقِ كأنَّه وقعَ فعلًا[1]، وذلك للإشعارِ بالاعتناء بالإقبالِ بينَهم على الحديث، وكيفَ لا يُقبلون عليه، وهو أعظمُ لذّاتهم الَّتي يَتعاطَوْنَها[2]، فهو مِن نَعيم العَقْلِ في الجَنَّة، وذلك بالتَّساؤُلِ عن المَعارفِ والفضائلِ وما جَرى لهم وعليهم في الدُّنيا[3]، وهو مِن إخبارِ اللّه بالغَيب، وكلُّ إخبارٍ مِنَ اللّه؛ فهو أكيدٌ لِسَعَةِ عِلْمِ اللّه سُبحانه[4]، وفي الإخبارِ عن الإقبالين والتَّساؤلين المُستقبليَّين بالماضي دلالةٌ على أنَّ ذلك الأمرَ يقعُ - لا مَحالةَ - وإنْ كان بالنِّسبة للّه تعالى أمرًا قد تحقَّقَ، وثبتَ؛ إذ لا يجري عليه زمانٌ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 233.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 88.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 10.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 115.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾:

جُرَّ لفظُ ﴿بَعۡضٍ﴾ في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدالِّ على الاستعلاء المجازيِّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مجرَّدَ الإقبالِ بالقول وحدَهُ يُلفتُ القلوبَ إلى سَماعهِ؛ لأجلِ الكلام الَّذي هو روحُ ذلك المقام[1]، وفي تصويرِ إقبالِ بعضهم على بعضٍ كنايةٌ عن الاهتمام فيما بينَهم بالحديثِ عمّا يعتملُ في عقولِهم، والرَّغبةِ الجماعيَّة في الكلامِ لأجلِ شُكرِ المُنعِم على الهدايةِ والتَّوفيق.

الإقبالُ تَساؤُلًا يَجذِبُ القلوبَ إلى الإصغاءِ

إيثارُ لفظِ ﴿بَعۡضٍ﴾ نكرةً:

آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿بَعۡضٍ﴾ نكرةً في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الجزئيَّةِ دونَ تحديد، الفرد مع الأفراد أو الجماعة مع الجماعة، وفي تنكيرِ اللَّفظ مزيدُ مبالغةٍ في إغفالِهِ؛ إذ هذا المجلِسُ لا يشقى فيه جليسٌ، ولا يعلو بعضُهم على بعضٍ، وقد تجاوَزوا القنطرة، بل مزيدُ الإقبال وأنسِ الكلام وجميلِ الادِّكار.

لا تـمـايُـزَ في مجالسِ الجَلال بل أنسٌ وكَمالٌ

دلالةُ صيغةِ (التفاعُل) المضارعيّة في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مضارعًا بصيغةِ التَّفاعُل في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على المُشاركةِ في التَّساؤُلِ، هذا يسألُ، والآخرُ يُجيب، ثمَّ يسألُ، فيجيبُ الأوَّلُ، وهو ما يشيرُ إلى متعةِ الحديثِ بتبادُلِ الأدوار، مع دلالةِ صيغةِ المضارع على التَّجدُّد الاستمراريِّ، وكم لأهلِ الجنَّةِ من حديثٍ يَنتظِرُهم؟ يأنَسون به، ويَزيدُهم رَواحًا ومُتعةً ونَعيمًا[2].

مُـتـعـةُ الـحـوارِ بـالاسـتـمـرارِ وتبادُلِ الأدوارِ

دلالةُ المجازِ والاستعارةِ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

في الفعلِ مجازٌ مُرسَلٌ أو استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ إذ لم يُقدِموا على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 233.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 473.

غرضُ الحوار والاجتماع التَّساؤُل والاستفهام

تقديمِ الاستفهامِ والسُّؤالِ، وإنَّما اجتمعوا للحديثِ والحِوار، لكنَّ النَّظمَ سمّاه تساؤلًا؛ إمّا لأنَّ أغلبَ ذلك الحوارِ المُضمَرِ كانَ تساؤُلًا عن أولئك الضالّين الَّذينَ خسِروا هذا النَّعيم، أوْ لأنَّه الغرضُ من الحوار ومآلُهُ، وإمّا لأنَّه شبَّه الحوارَ بالتَّساؤُلِ؛ لأنَّ الغرضَ منه معرفةُ ما جرى لأولئك المُغوينَ.

موقعُ جملةِ: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

تقييدُ الإقبالِ بالتَّساؤُلِ دليلُ كمالِ التَّواصُل

جاءتْ جملةُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في قولِه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ حاليَّةً؛ لبيانِ هيئةِ المُقبلينَ وتقييدِ الإقبالِ لأهلِ الجنَّةِ بعضِهم على بعضٍ، فهو مُقترِنٌ بتساؤلٍ سلِسٍ بينهم وحوارٍ ظاهرٍ بيِّنٍ، لا خفاءَ فيه ولا خوفَ، يتساءلون عن أحوالِهم في الدُّنيا سؤالَ ادِّكارٍ واعتبارٍ[1].

نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ التَّساؤُلِ:

بتجاذُبِ أطرافِ الحديثِ يتمُّ الأُنسُ وتزدادُ المُتعةُ

حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في قولِه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ونكتةُ حذفِه إرادةُ العُموم، أي: للتَّساؤلِ عن كثيرٍ من الأمور، أوْ للاهتمامِ بفِعْلِ التَّساؤُلِ والحوارِ نفسِهما دونَ المَسؤولِ عنه، فيكونُ من تنزيلِ المتعدّي منزلةَ اللّازم، فالتَّساؤُلُ في ذاتِه أمرٌ مرغوبٌ عندَهم؛ إذ به يُتجاذَبُ أطرافُ الحديث، وبه يتمُّ الأنسُ، وتزدادُ المُتعة، وقد ذكرَ طرَفًا من تساؤلِهم وحوارِهم بالحديثِ عن القرينِ السَّيِّئِ في الآياتِ بعدَها[2].

بلاغةُ الاستئنافِ:

مِن وُجوهِ نعيمِ أهلِ الجنَّةِ التَّشوُّفُ إلى سَماعِ أحاديثِهم

جاءتْ جملةُ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ استئنافًا؛ إذ لمّا ذكرَ النَّظمُ إقبالَ بعضِهم على بعضٍ؛ تشوَّفَ السّامعُ إلى سَماعِ شيءٍ من حديثِهم، فاستأنفَ بذكرِ قولِ أحدِهم للآخَرِ هذا القولَ[3]، فالجملةُ بدلُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 233.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 115.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 233.

اشتمالٍ من جملةِ: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾[1]، ودلَّ هذا الاستئنافُ على أنَّ التَّساؤلَ بينهم كانَ حِوارًا يتضمَّنُ أسئلةً، أَوْ يَجري أحيانًا مجرى التَّساؤلِ والاستفهامِ.

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ النَّكرةِ ﴿قَآئِلٌ﴾:

إصغاءٌ واهتمامٌ وأنسٌ بكلِّ مَنْ في الجِنانِ

عبَّرتِ الآيةُ باسمِ الفاعلِ المأخوذِ من لفظِ الفعلِ في قولِهِ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ القولِ منه وصُدورِه من أحدِهم، فهو يَتحدَّث حينَها، ويذكرُ قولًا يقصدُ به دلالةً ومُرادًا، وفي ذكرِ ذلك إشارةٌ إلى الإصغاءِ لقولِهِ والاهتمامِ بمُرادِه، وقد جاءَ لفظُ ﴿قَآئِلٌ﴾ نكرةً للتَّركيزِ على القولِ دونَ خصوصيَّةِ القائلِ؛ لأنَّ النَّجاةَ من الإغواءِ البشريِّ والنَّفسيِّ والشَّيطانيِّ أمرٌ جماعيٌّ، لا يخلو أحدٌ من المُكلَّفينَ منه.

فائدةُ التَّعبيرِ بشبهِ الجُملةِ ﴿مِّنْهُمْ﴾:

الشُّعورُ بالنِّعمةِ وإظهارُ الفارقِ

عبَّرتِ الآيةُ بشبهِ الجملةِ ﴿مِّنْهُمْ﴾ في قولِه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ الواقعِ وصْفًا للقائلِ النَّكرةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه من هؤلاءِ المُتسائلينَ في جنّاتِ النَّعيمِ، وفائدةُ التَّعبيرِ بذلك: هي تأكيدُ نجاتِهِ وتنعُّمِه، ما يُشيرُ إلى شعورِهِ بالنَّعيمِ، والاعتبارِ بما حدثَ له، لولا لطفُ اللّهِ به، ولإظهارِ الفارقِ بينَ القرينِ وقرينِه، كما أنَّ الغرضَ من تخصيصِ شخصيَّةِ القائلِ بأنَّه ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لإرشادِ المُخاطَبينَ إلى أهمّيَّةِ الإيمانِ والعملِ على تحدّي الغاوينَ؛ للوصولِ إلى ما وصلَ إليه هذا المُنعَّمُ وما آلَ إليه أمرُ القَرينِ.

بلاغةُ حشدِ المُؤكِّداتِ:

لولا نعمةُ اللهِ بالأمانِ؛ لاستشعَرَ الجميعُ الخُسرانَ

ضمَّتْ جملةُ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ حَشدًا من المُؤكِّداتِ، وهي: (إنَّ، واللّامُ، وفعلُ الكونِ، والجملةُ الاسميَّةُ)؛ وذلك للتَّعبيرِ عن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.

حالِ القائلِ بأنّه لم يخلصْ من شرِّ ذلك القرينِ الَّذي يتحدَّثُ عنه؛ لولا أنْ نجّاهُ اللّه منه، فهو شعورٌ عظيمٌ بمنَّةٍ عظيمةٍ[1].

دلالةُ فعلِ الكَوْنِ الماضي:

الاعتبارُ بالماضي مَظنَّة استشعارِ النِّعمة

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿كَانَ﴾ فعلًا ماضيًا في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾؛ ليدلَّ على حدثٍ مضى، أي: كانَ لي في الدُّنيا قرينٌ[2]، فهو حديثٌ عن الماضي في الدُّنيا يَستذكرُهُ القائلُ، ويريدُ أنْ يُشاركَ أصحابَهُ من أهلِ الجنَّةِ ما حدث له؛ لاستشعارِ النِّعمةِ والاعتبارِ والمقارنةِ بينَ الماضي والحاضِر، وفي التَّعبيرِ بالماضي دلالةٌ على أنَّ أهلَ الجنَّةِ يتذكَّرونَ أحوالَهم في الدُّنيا، وأنَّ الحياةَ الثّانيةَ مُرتبطةٌ بالحياةِ الأولى وعْيًا وإدراكًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمَجرورِ مُقدَّمًا ﴿لِي﴾:

استشعارُ النَّجاةِ في واقعٍ مشهودٍ صنيعٌ محمود

اختارتِ الآيةُ التَّعبيرَ بالجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾ مقدَّمًا في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾؛ ليدلَّ على اختصاصِه وتعلُّقِه به، وليشير إلى أنَّ ما يذكرُهُ حينَها هو أمرٌ شهِدَهُ بنفسِه، وعايَنَهُ من قرينِه في مُحاوراتِهما وجوانبِ مُصاحبتِهما، وقد جاءَ مُقدَّمًا على متعلِّقِه ﴿قَرِينٌ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الحديثَ متعلِّقٌ به، واستشعارِه قيمةَ النِّعمة أكثرَ من ذِكْر ذلك القرينِ.

سرُّ اختيارِ لفظِ ﴿قَرِينٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

للمُلازمةِ تأثيرٌ ظاهرٌ لولا نعمةُ الله القادر

آثرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿قَرِينٌ﴾ في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ لشيءٍ في مادَّتِه وصيغتِه، أمّا مادَّتُه؛ فـ(القرينُ) هو الملازمُ لصاحبِه، فلا يَنفصلانِ غالبًا، وأمّا صيغتُهُ؛ فـ(القرينُ) فعيلٌ بمعنى مفعول، أي: مقرونٌ، فهو ملازمٌ، والقرينُ مُساوٍ لقرينِه قوَّةً وتأثيرًا، فيؤثِّرُ أحدُهما في الآخَر، وقد صيغَ لفظُ ﴿قَرِينٌ﴾ نكرةً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 192.

لدلالتِهِ على الجنس، فهو الموصوفُ بالمُلازمة[1]، والغرضُ من اختيارِ هذا اللَّفظ بذاتِهِ الدَّلالةُ على أنَّ هذا الشخصَ كان مُلازِمًا للمتكلِّم، يعملُ على إغوائِهِ، وهو لا ينفكُّ عن ذلك الإغواءِ والإضلالِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَرين والصّاحب والرَّفيق:

القــريــنُ لـلـمُـلازمـةِ، والـرَّفـيـقُ لـلـمُـناسبةِ، والـصّـاحـب للرِّفقِ والنَّفعِ

يجتمعُ (القرينُ) و(الصّاحبُ) و(الرَّفيق) في مُطلَقِ المُلازمة، وتفترقُ، فـ(القرينُ) مِنَ القَرْن الَّذي يَستدعي المُلازمةَ والتَّأثيرَ سَلْبًا أَوْ إيجابًا، ومِنَ السَّلبِ مُلازمةُ قرينٍ دونَ أنْ ينتفعَ منهُ بشيءٍ، بخلافِ (الرفيق)؛ فهو الموافقُ المُقارِبُ[2]، فهي ملازمةٌ مع مناسبةٍ وتشابُهٍ، فصارتْ ملازمةً معَ يُسْرٍ ومُناسبة، وتميَّزَ الصّاحبُ بمُلازمةِ النَّفع، فالصَّحبُ هو الحفظُ والرِّعايةُ، يقولُ تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ [الأنبياء: 43]، أي: يُحفَظونَ، فالصّاحبُ هو المُؤَثِّرُ إيجابًا، ويكثُرُ أنْ يكونَ في الآدميّينَ خاصَّةً، يقالُ: صَحِبَ زيدٌ عمرًا، ولا يقالُ: صَحِبَ النَّجمُ النَّجمَ، ويقالُ: قِرانُ النُّجوم[3]، وفي اختيارِ لفظ ﴿قَرِينٌ﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى المُلازمة دونَ الصُّحبة، فلم تكن ملازمةً نافعةً، ودونَ الرِّفقةِ فلم تكن مناسبة بينَهما، وإنَّما كانت الإشارةُ إلى المُلازمة وتأثيرِها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفق).

(3) بيات، معجم الفروق، ص: 308.

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 52 - 53]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

كـلُّ صاحبين قرينانِ، مؤمنَيْن كانا أو كافرَيْن أو مختلفَيْن

في الآيات السابقة يحكي أحدُ المؤمنين في الجنَّة لِرفاقه حوارًا دار في الدُّنيا بينه وبين قرينٍ له كافرٍ، وتستكمل الآياتُ هنا ذلك الحوارَ، فيسأله القرينُ الكافر متعجِّبًا منه، كيف يصدِّقُ بالبعث بعد أن يموتوا، ويصيروا ترابًا وعظامًا؟.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾: (صدق) أصلٌ يَدُلُّ عَلى قوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغَيرَهُ، مِن ذلكَ الصِّدقُ: خِلافُ الكَذِبِ؛ سُمّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لَهُ، هوَ باطِلٌ، وأصلُ هذا مِن قَولِهِم شَيءٌ صَدقٌ، أي: صُلْبٌ[1]، والمُصدِّق: الَّذي يَنْسُبُ المُحدِّثَ إلى الصِّدق مُصَدِّقٌ - بِتَّخْفيفِ الصّاد - قالَ اللّه تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، وهوَ مِن تصديقِكَ صاحِبَك؛ إذا حدَّثك، وأمّا المُصَّدِّق - بتَشْديدِ الصّادِ والدّالِ - فهوَ: المُتَصدِّق، أُدغِمتِ التّاءُ في الصّادِ فَشُدِّدَتْ، قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18] - على قراءةِ جمهورِ القرّاء - أي: المُتَصدِّقين والمُتَصدِّقاتِ، وهُمُ الَّذينَ يُعطون الصَّدَقاتِ[2]، وعلى قراءة ابن كثيرٍ، وشعبةَ عن عاصم بتخفيف الصّاد على أنَّه مِنَ التَّصديق، أي: الَّذين صدَّقوا الرَّسول ﷺ، أي: آمنوا، وامتثلوا أمرَهُ، فأقرضوا اللّهَ قرضًا حسنًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 396.

2) ﴿وَعِظَامًا﴾: (عظم) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى كِبَرٍ وقوَّةٍ، فالعِظَمُ: مَصْدَرُ الشَّيْءِ العَظيم، تَقولُ: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظَمًا... وعَظَمَةُ الذِّراعِ: مُسْتَغْلَظُها[1]، والعُظْمُ: قَصَبُ الحيوانِ الَّذي عَلَيْهِ اللَّحْمُ في الإنسان والحيوان، والجمع: أعظُمٌ بضَمِّ الظّاءِ، وعِظامٌ بالكَسْرِ، وعِظامَةٌ، والهاءُ لِتَأنيثِ الجَمْعِ[2]، قال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: 14]، ومفرده: عَظْمَة، ودقَّ العظمَ: كسَرَهُ[3].

3) ﴿لَمَدِينُونَ﴾: (دين) أصلٌ واحِدٌ إلَيهِ تَرْجِعُ فُروعُهُ كُلُّها، وهوَ جِنْسٌ مِنَ الانقيادِ، والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانه دينًا[4]، أي: أذلَّهُ، واستعبدَهُ، يقال: دِنْتُهُ فَدانَ، وفي الحديث: "الكَيِّسُ مَن دانَ نفسَه، وعَمِل لما بعدَ الموتِ"[5]، والدّينُ: الجزاءُ والمكافأةُ، يُقال: "كما تَدينُ تُدانُ"، أي: كما تُجازي تُجازَى، أي: تُجازَى بِفِعلك وبحسب ما عمِلتَ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، أي: مَجْزيّون محاسَبون، ومنه (الدَّيّانُ) في صفة اللّٰه تعالى[6]، أي: المحاسِبُ المجازي، الذي يُجازي عبادَهُ بعملِهم، فيجزي المحسنين إحسانًا، والمسيئِينَ ما يستحقّونه من عقابٍ جزاءَ ذنوبِهم[7].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

القرينُ الكافرُ لم يألُ جُهدًا في تشكيكِ قرينهِ المؤمنِ في دينه وثَنْيِه عنه

يحكي النَّظمُ الكريم استنكارَ القرينِ الكافرِ قولَ قرينِهِ المؤمن، وهو يجادلُهُ في قضيَّة اليوم الآخر؛ ليثنِيَهُ عن التَّصديق بالبعث والحساب والجزاء، فيسألُهُ مستنكرًا عليه مستبعدًا ذلك، فيقول

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (عظم).
(3) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عظم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(5) الترمذي، سنن الترمذي، برقم: (2459)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، برقم: (4260)، وأحمد، المسند، برقم: (17164).
(6) الجوهري، الصحاح: (دين).
(7) ابن منده، التوحيد: 2/ 118، وابن أبي عاصم، السنة، ص: 514.

له: أأنت مُصَدِّقٌ وموقنٌ بأنَّنا سنُبعَث مرَّةً أخرى بعد أنْ نموتَ في الدُّنيا، وبعد أنْ نَبْلَى، وتَتحلَّلَ أجسامُنا، فيصيرَ اللَّحم ترابًا، ويصيرَ العظمُ مفكَّكًا مختلِطًا، ولا تبقى لنا صورتُنا المعروفة؟

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى التَّحذيرِ مِن قرناءِ السّوء وضلالهم، وألّا تدخلَ شبههم إلى قلب المؤمن، وألّا يتشرَّبها، وأن يكون قلبُهُ صافيًا خالصًا لا يدخل إليه شيء من هذه الشُّبه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ ودلالته:

يجب التَّحفُّظ مِن قُرَناء السّوء والبُعد منهم

وقعت جملةُ: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ صفةً لـ ﴿قَرِينٌ ٥١﴾ [الصافات: 51] في الأولى، وهذا "مثالٌ للتَّحفُّظ مِن قُرَناء السّوء والبُعد منهم، قال ابن عباسٍ وغيره: كان هذا القائلُ وقرينُه مِن البشر، وقالت فرقةٌ: هما اللَّذان في قوله: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ٢٨﴾ [الفرقان: 28]، وقال مجاهدٌ: كان إنسيًّا، وجِنّيًا من الشَّياطين الكفرة"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في: ﴿يَقُولُ﴾:

الكافرُ يتربَّصُ بالمؤمن الفُرَصَ؛ لِتشكيكه في عقيدتِهِ

لِفاقِدِ الإيمانِ بالبعثِ والحساب والجنَّةِ والنّار حَنَقٌ على المؤمن، فلا يزالُ يجدِّدُ عليه التَّشكيكَ، ويُشيعُهُ، ويُرَدِّده كلَّما سنحتْ له الفُرصة، فالمضارعةُ في الفعل ﴿يَقُولُ﴾ تُتَرْجِم ذلك، وتَفْضَحُه، وتَكشف ما وراءَهُ من تربُّصِ الكافرِ به، وتَعكس محاولة تشكيكِهِ في مُعتقدِهِ ما أمكنه، فـ "يقول مكذِّبًا بالبعث مستبعدًا له غايةَ الاستبعادِ مجدِّدًا لقولِه في كلِّ وقت... ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؟"[2].

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿يَقُولُ﴾ ودلالته:

قولهُ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ حكايةُ قولِ القرين الكافرِ - بالبعث والحساب وغيرها من أمور الآخرةِ - المذكورِ في قوله قَبْلَهُ:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 102.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ [الصافات: 51]، وهو الَّذي يطَّلع عليه المؤمنُ مِنَ الجَنَّة بعد ذلك، فيراهُ في سواءِ الجحيم، كما جاء بعد آية في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، قالوا: "وهو الذي بيَّن الله تعالى أمرهما في سورة الكهف: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ [الكهف: 32]، فكانا أخوَيْنِ وشريكَيْنِ، وأنفق أحدهما مالَهُ في أمر الآخرةِ، واتَّخذ الآخرُ لنفسِهِ ضياعًا، وخَدَمًا، واحتاج المؤمن إلى شيءٍ، فجاء إلى أخيه الكافرِ يسألُهُ، فقال له الكافر: ما صنعتَ بمالك؟ فأخبرَهُ أنَّه قدَّمه إلى الآخرة، فقال له الكافر: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾، يعني: (أإنَّك ممَّن يُصَدِّق بالبعث؟) وطلب منه أنْ يدخلَ في دينِه، ولم يَقضِ حاجته، فذلك قوله: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث بعد الموت؟"[1].

الكافرُ يقدِّس الدُّنيا، والمؤمن يُقدِّمُها لآخرته

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ بـ (الهمزة) في الآية:

الهمزةُ في قولِ الكافر للمؤمن: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ استفهاميَّةٌ، خارجةٌ إلى معنى الاستبعادِ والإنكارِ والتَّكذيب، وفيها دلالةُ "الكفرِ والعنادِ"[2]، و"استفهام المنكِر السّاخر"[3] "على طريق التَّوبيخ"[4]، ويَرمي به إلى زعزعةِ يقينه بالبعث وتوابعِه، ويُنكر عليه تصديقَهُ بذلك، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ، تكذيبيٌّ لتلك الأخبار الصّادقة؛ لذلك دخلت على حرفِ التَّوكيدِ في (إنك)؛ لتعمَلَ فيه عملَها، وإلّا لدخلَتْ على ضمير المخاطَب مباشرةً، هكذا: أأنت مِن المصدِّقين؟

عدمُ تأثُّرِ المؤمن ممَّن يسخر ويشكِّك في عقيدته يكون بحسب قوَّة إيمانِهِ

لطيفةُ تسليطِ الاستفهام على (إنَّ):

يفيدُ حرفُ التَّوكيد (إنّ) أنَّه مهما جهدَ الكافر في ذبذبة دين المؤمن وهَزِّ عقيدته؛ فلن يُفلح، فمَن ذاق حلاوة الإيمان بَعُدَ أنْ

مَن ذاقَ حلاوةَ الإيمانِ لا يعودُ إلى الكفر أبدًا

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 141.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 15.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 984.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.

يُؤثِّر فيه تشكيكُ مشكِّكٍ؛ ولذلك - واللّه تعالى أعلم - قَبِلَ الرَّسول ﷺ شرْطَ قريش حين اشترطوا عليه في صلح الحديبية: "أنَّ مَن جاء منكم لم نردَّهُ عليكم"[1]؛ وذلك لِثقته ﷺ أنَّ أحدًا مِمَّن آمن بالدين الحقِّ، وذاق لذَّةَ عدالتِهِ لا يعود إلى الكفر أبدًا، فقد "سُلِّط الاستفهامُ على حرف التَّوكيد لإفادة أنَّه - أي: القرين الكافر - بَلَغَه تأكُّدُ إسلام قرينه؛ فجاء يُنكر عليه ما تَحقَّق عنده، أي: إنَّ إنكارَهُ إسلامَهُ كان بعدَ تحقُّق خبَرِه، ولولا أنَّه تحقَّقه؛ لَمَا ظَنَّ به ذلك"[2].

دلالةُ مرجع الضَّمير في ﴿أَءِنَّكَ﴾:

ضميرُ الخطاب (الكاف) في قوله: ﴿أَءِنَّكَ﴾ يعود إلى المتكلِّم بهذا القول الكريم في الجنَّة، يحكي فيه خطابَ الكافرِ له في الدُّنيا، حين سأله سؤالَ المشكِّك: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بأنَّنا بعد الموت وهلاك أجسامنا نُبعَث، ونُحاسب؟.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

لأهل الكفر حِيَلُهُم لتشكيك المؤمنين في دينهم

(اللام) في قولِ الكافرِ بالبعث لقرينِهِ المؤمن به: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ لامُ التَّوكيدِ، الدّاعمة لحرْفِ التَّوكيد (إنَّ) في قوله: ﴿أَءِنَّكَ﴾، والمعنى: أهو حقًّا مؤمنٌ موقِنٌ بتلك الدَّعوى دعوى البعثِ والحسابِ؟ وذلك لما رآه الكافرُ، وعلِمَهُ من ثبات عقيدة المؤمن، فتفيد توكيد حيلته لِزَعْزَعَتِهِ عن تصديقه بالبعث والحساب.

دلالةُ اللّامِ في ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾:

أعظمُ إنكارٍ للكافر على المؤمن إيمانُهُ بالبعث والحساب

(اللامُ) في ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ لامُ العهد، وهم المؤمنون باللّه تعالى وبوعده ووعيده، وهو التَّصديقُ بالرَّسول والرِّسالة، والبعث والحساب، فهذا مكمنُ إنكارِ القرينِ الكافر، وأعظم إنكار له على

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية: 3/ 1411 برقم: (1784).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.

قرينه المؤمن هنا في الدُّنيا، ويتوجَّه إلى ذلك بخاصَّة، ولا يُزعجه كما لا يُقلقه تصديقُهُ بشيءٍ آخر قد يدعوهُ إليه قرينُهُ المؤمن.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ باسم الفاعلِ:

رسـوخُ عقيدةِ المؤمن تمكِّنُهُ من مقاومة تشكيكِ الكافر في يقينِهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغة اسمِ الفاعل في ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ على ثباتِ المؤمنِ على تصديقِهِ بالبعثِ والحسابِ والثَّواب والعقاب في الآخرة، ومداومته العملَ له، وذلك ما يَرُدُّهُ الكافر، ويرفُضه، بل ويتجاوز ذلك إلى محاولة التَّشكيكِ فيه، فبينما يَجهدُ الكافرُ جُهدَهُ في زعزعة إيمانِ المؤمن وتصديقه - بدلالة المضارعةِ في الفعل ﴿يَقُولُ﴾ - يدوم المؤمنُ على تصديقِهِ، ورسوخ يقينِهِ بدلالة الاسم ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾، وكأنَّ بينهما مطابقةً من هذا الوجْه، وذلك يُنبِّهُ المؤمنين إلى حتميَّة تأكيدِ عزمِهم وترسيخ تصديقهم أشدَّ ممّا يحاول الكفار زعزعةَ يقينِهم وردِّهم عن دينهم.

نكتةُ حَذْفِ المتعلِّق في: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾:

الـكـافـرُ يحقدُ على الدّين الحقِّ على حدِّ تَحاشيه ذكره

لم ينصَّ النَّظمُ الكريم على متعلِّق ﴿ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾، وهو "أنَّ هناك بعثًا وحسابًا، وثوابًا وعقابًا، وجنَّةً ونارًا"[1]، وذلك "ما ينبئُ عنه قولُهُ سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾"[2]، ونُكتةُ حَذْفِهِ الإشارةُ إلى حِقد القرين الكافر على الدّين الحقِّ، وأنَّه لا يودُّ ترديدَ متعلِّق التَّصديق، ولا النُّطق به أصلًا، ومن لطائف حذفِهِ إفساحُ مجالِ الإنكار، لِما يشمل إنكارَ وحدانيَّةِ اللّٰه تعالى، وإنكارَ صِدْق الرَّسول الذي بُعِثَ فيهم، وإنكارَ صِدق الشَّريعة الَّتي جاء بها، وإنكارَ صِدق الوعيدِ بالبعث، وإنكارَ ما يترتَّب عليه من حسابٍ، ثمَّ مجازاةٍ بالجنَّةِ أو النّار.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 85.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.

علّةُ فصلِ جملة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ عمّا قبلها:

تَكرارُ الاستفهامِ تفصيل بعد إجمالٍ يُقرِّرُ تجذُّرَ كفرِ القرين

فُصِلَتْ جُمْلَةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ عن جملة: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؛ إذ "جملةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، بيَّنت الإنكار المجمل بإنكارٍ مفصَّلٍ، وهو إنكارُ أنْ يُبعثَ النّاس بعد تفرُّق أجزائِهم، وتَحوُّلِها ترابًا بعد الموت، ثمَّ يجازوا"[1]، ويظهر هنا أنَّ تَكرارَ الاستفهام تفصيلًا بعد إجمالٍ يُقرِّر قضيَّةَ تأصُّل الكفر في نفس الكافر.

غرضُ الاستفهامِ بـ (الهمزة) في: ﴿أَءِذَا﴾:

مِن سوءِ أدبِ الكفّارِ إزاءَ المؤمنين تُهمتُهم باستقصارِ نظرهِم

الهمزةُ في النَّظم الكريم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ همزةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّكذيبيِّ، وكأنَّ القرينَ الكافر يُلجِئُ المؤمن، ويُلزمه الحُجَّة، ويَحتال على إثبات استبعادِ البعثِ بدليلٍ يَظنُّه منطقيًّا، هو البِلَى الذي يَصير إليه جسدُ الإنسان في القبرِ، وتلاشيه حتّى لا يبقى منهُ إلّا عظامٌ مبعثَرة مختلطة بِعظام غيره، فلا يُتَبَيَّنُ هذا من ذاك، "يقول... يريد أن يختدعَني بلطافة قيادِهِ إلى سوءِ اعتقادِهِ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، أي: بالبعث، يوبِّخني بذلك، ويَستقصِر باعي في النَّظر؛ استثارةً لِهِمَّتي، وإلهابًا لنخوتي وحَميَّتي"[2]، وهذا منه سوء أدبٍ، وذلك ديدنُ الكُفر إزاءَ أهلِ الإيمان.

الغرضُ من الإسناد في ﴿مِتْنَا﴾:

عقيدةُ الكفّارِ قائمةٌ على الإنكار المطلق لعقيدةِ التَّوحيد

من عقيدةِ القرينِ الكافرِ - كما تبيِّنُهُ جملةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ - إنكارُ اللّه تعالى، وإنكارُ البعث والحساب والثواب والعقاب؛ لذلك يَسند الموتَ إلى ضميرِ الجماعةِ في جملةِ ﴿مِتْنَا﴾، وهو بصددِ الإنكارِ المطلقِ لمسائلِ العقيدةِ، ومنها أنَّ المُحْيِيَ المُميتَ هو اللّه تعالى،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 116.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

فيتحاشى الاقترابَ مِنَ التَّفوُّهِ بما يُناقض دعواهُ، فيسند الموت إلى ضمير جماعتِهم، وقد ضَمَّ النَّظمُ الكريم الكافر القرينَ مع المؤمنِ في ضمير التَّكلُّم الجمعيِّ في جملة ﴿مِتْنَا﴾ لإيهامِهِ أنَّه يَودُّه، ويعتبِرُهُ منه كنفْسِه، وكأنَّهما طرَفٌ واحدٌ لا خصمَيْن؛ استدراجًا له وإخجالًا، عساهُ يواطِئُهُ على فكرةِ إنكارِ البعث والحساب، وتلك حيلةٌ مطويَّةٌ يتخابث بها كلُّ صاحبِ هوًى؛ ليزلفَ منها إلى اجتذاب خصمِهِ إلى فريقِهِ.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾:

العطفُ الصّالحُ لمعانٍ مختلفةِ الأزمانِ

في النَّصِّ على صيرورتِهم إلى ترابٍ وعظامٍ بعد ذِكرهِ الموت تأكيدُ إنكارِ الجزاءِ المبنيِّ على إنكارِ البعثِ"[1]، فكلاهما مستبعَدٌ عنده بهذا المنطقِ غيرِ السَّديد، والواوُ في جملة: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ واوُ العطفِ، الجامعةُ بين الموت والكون ترابًا في الاستبعاد والإنكار التَّكذيبي للبعث، وصيرورتُهم إلى ترابٍ أدخلُ في الاستبعاد لِتَحَلُّلِ الجسدِ، وتَفكُّكه، وتَفتُّته، ومن الدِّقَّة في العطف بهذه الواوِ أنَّها لا تُؤذِن برخاوةِ المدَّة الزَّمنيَّة مثل (ثم)، ولا بِتَسارُعِها مِثل (الفاء)، فجاءت تاركةً هذا وذاك لظروف تحَلُّلِ كلِّ جسمٍ في قبرِهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

تأكيدُ تمامِ البِلَى، وفكرة المشركين في استحالةِ البعثِ في الظّاهر

التَّعبيرُ بالكون الماضي في سياق الآية الكريمةِ بجملة: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾، يَدعَمُ قضيَّةَ الإنكارِ الَّتي يُلِحُّ عليها القرينُ الكافر؛ إذ يَقْطَع الكونُ الماضي بِتَحَقُّق البِلَى، والصيرورةِ إلى ترابٍ وعظامٍ؛ لذلك عَبَّرَ بِهِ القرينُ دون لفظ (صِرْنا)، أو (أصبحنا)؛ وذلك لِمَا في الصيرورةِ والإصباح من التَّقارُبِ، وهو ما لا يريدُهُ الكافر في تأكيد تشكيكِهِ من خلال التَّلويح بتباعدِ الزَّمان، وإيغالِهِ في القِدم، فالتَّعبير بالكون الماضي يؤكِّد تمامَ البِلَى، واستحالةَ البعث عنده.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 192.

يقول ابنُ عطيَّة: "وعبَّر عن قول هذا الرَّجل بالمُضيِّ مِن حيث كان أمرًا متيقَّنًا حاصلًا لا محالةَ"[1]، فـ (كنا) تعني: "كونًا راسخًا"[2].

علَّةُ ورودِ اسمِ كان ضميرَ تكلُّمٍ:

استحالةُ البعثِ بمنطق كثرةِ النّاس الذين يصيرون ترابًا وعظامًا

أسندَ النَّظمُ ضميرَ المتكلِّمين في الفعل (كنا)؛ إذ أخبرَ بكونِهم جميعًا ترابًا وعظامًا، وهو يقصد نفسَهُ ومخاطَبَهُ المصدِّقَ وغيرهما مِن النّاس؛ إلحاحًا على فكرةِ الفناءِ الَّذي لا يترتَّب عليه بَعثٌ ولا حساب بمنطقِه الفاسدِ، وفي ضمير الجماعةِ في قوله: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ إلماحٌ إلى أنَّ تلكَ الكثرةَ الكاثرة من الناس - الذين يصيرون ترابًا وعظامًا - تجعل البعثَ والحسابَ مستحيلين، وذلك صُلبُ قضيَّتِه الَّتي يجهدُ في التَّدليل عليها.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿تُرَابًا﴾ دون (فناء):

استبعادُ الكافرِ البعثَ والحساب قياسًا على قدرة البشرِ المحدودةِ

أوثرَ التَّعبيرُ بـ ﴿تُرَابًا﴾ دون (فناءً) وما إليها - لِما لِلتُّراب مِن خاصّية الحِسّيَّة؛ إذ يُبصرُهُ الرائي، ولا يتأتّى له إنكارُه، أمّا (العدم) و(الفناء)؛ فأُمورٌ معنويَّة لا تقع تحتَ البصرِ، فيكون في تصوُّرها وتصديقها تَوَقُّفٌ، وهذا ما يتحاشاه في دليلِه على تأكيد فكرتِهِ، وفي التَّعبيرِ بالتُّرابِ كنايةٌ عن خِفَّته ذَرْوًا في الهواء؛ ممّا يدعم فكرةَ الكافرِ بعدم إمكانِ البعثِ والحساب، وذلك لقياسِهِ إمكانَ ذلك بقدرة البشرِ المحدودةِ، لِعَماه عن قدرة اللّه تعالى المطلقة.

الغرضُ من تنكيرِ ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا﴾:

جهلُ القرينِ بأنَّ إعادةَ الخَلْقِ أيسرُ مِن الخلقِ أوَّلَ مرَّةٍ

في تنكيرِ ﴿تُرَابًا﴾ كنايةٌ عن تمام تَحلُّل اللَّحم، وتنكيرُ (عظامًا) يوحي بضحالتها، ويُسهم في إضفاء صفات الضَّعف والبلى عليها، ولذلك وُصِفت في موضع آخر بأنَّها ﴿نَّخِرَةً ١١﴾ [النازعات: 11]، من: نَخِرَ العظمَ؛ إذا بلي، فصارَ فارغَ الوسطِ كالقَصَبَةِ، وذلك كلُّه يَدعم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 473.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

استحالةَ البعثِ والحسابِ مِن وجهة نظرِ الكافرِ، الَّذي يقيس الأمورَ بمقياس قدرةِ البشرِ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَعِظَٰمًا﴾:

(الواو) في قولِه: ﴿وَعِظَٰمًا﴾ عاطفةٌ، تُشْرِكُ العظامَ مع التُّرابِ مصيرًا للإنسان بعد الموتِ؛ لأنَّ كونَهم ترابًا يَستلزم كونَهم عظامًا.

الغرضُ مِن عطْفِ العظامِ على التُّراب:

استحضارُ صورةِ العظامِ الباليةِ يؤكِّد به استحالةَ بعْثِ صاحبها

قد يبدو للمتلقّي غناءُ ﴿تُرَابًا﴾ عن (عظامًا)؛ لأنَّه يستلزمها، ويقتضيها، فما دام لحمُهُ قد تحلَّل، وصار ترابًا، فلا بُدَّ لِعظامِه أنْ تتفكَّك، وتتبعثر، وتتداخل، وتختلف مع عظامِ غيرِه، لكنَّه ذكر (عظاما) على استقلالِها بعد ﴿تُرَابًا﴾؛ وذلك لِفعل صورةِ العِظام المبعثرةِ في النَّفس فِعلها.

لطيفةُ تقديمِ ﴿تُرَابًا﴾ على (عظامًا):

تدرُّجُ المعاني صعودًا أو نزولًا سمةٌ قرآنيَّةٌ دقيقةٌ

قَدَّم النَّظمُ الكريمُ كونهم ﴿تُرَابًا﴾ على (عظامًا) مطابَقةً للواقع؛ إذ تَحلُّلُ بدنِ الميِّت يبدأ مِن ذوبان لحمِهِ في التُّراب واختلاطِهِ به، وصيرورته ترابًا منه، ويبقى العَظمُ أمدًا أطولَ بِحُكْم صلابتِه؛ فيتأخَّر بِلاه عن اللَّحم والعَصَب؛ لذلك جاء ذكرُهُ مؤخَّرًا في الذِّكر.

نكتةُ تَكرارِ همزةِ الاستفهام في ختم الآية:

مِنَ الكلام ما يُهيَّأ له بعناصرَ لغويَّةٍ، ولولاها؛ لَمَا تهيَّأ

جاءت (الهمزة) مكرَّرةً ثانيةً في قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وإن كانت لتأكُّد إنكارِ البعثِ المستفادِ من الهمزةِ قبلَها في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، فإنَّها إلى ذلك تُلِحُّ على معنى التَّعجُّب من ذلك المعتقد، الذي يعتقدُهُ العبدُ المؤمنُ المصدِّق بالبعث والحساب.

والذي هيَّأ لذلك التَّعجُّبِ البالغِ تعديدُ مراحل الموت والبلى والتُّراب والعظام المذكورة قبلَهُ، وما كان يتأتّى القولُ: أإنَّك لَمِنَ المصدِّقين؟ أإنّا لمدينون؟ بدون ذِكر التُّراب والعظام.

لطيفةُ بناءِ: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ على التَّقديم:

من عادةِ أهلِ الباطل احتقارُ أهلِ الحقِّ تثبيطًا لِهِمَمِهِم

بناءُ الجملةِ على تقديم الضَّمير في ﴿أَءِنَّا﴾ يدعمُ الإنكارَ، ويوغِل في التَّعجُّب بِذِكر مجازاة مَن رَمَّ، وبَلِيَ، كما أنَّ في ذِكرِ ﴿أَءِنَّا﴾ هنا محاذاةً لقوله هناك: ﴿أَءِنَّكَ﴾ في جملة: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، ومن لطائفِ تَكرارِهِ التَّأكيدُ بالإشارةِ لِقرينِه المؤمن بأنَّ كلَّ عاقلٍ جديرٌ بأنْ يُكذِّب بما أقررتَ به لِبُعْدِه، أو إلى أنَّه مُكذَّبٌ به، ولو كان مؤكَّدًا[1]، وفي ذلك تُهمةٌ لِعقلِه، واستصغارٌ لِفكرِه؛ جريًا منه على عادة أهل الباطل في احتقارِ أهلِ الحقِّ، وذلك الاحتقارُ ظاهريٌّ فقط، يحمل عليه حقدهم، ويثبِّطون به من هِمَّة المؤمنين في الثَّبات على دينهم، والذَّود عنه.

معنى (اللام) في خبر (إنَّ):

تأكيدُ القرينِ للجزاء بعد البعثِ

(اللام) المزحلقةُ في الخبرِ ﴿لَمَدِينُونَ﴾ مفيدة التَّوكيد، كأنَّه يقول: أإنّا لمدينون ومحاسبون بعد تمام بِلى أجسامنا؟ فتكون (اللام) داعمةً لِقضيَّة الإنكار، مقرِّرةً في النَّفس تلك الحقيقة، وقد استفهَم استفهامًا تقريريًّا بالنَّفي، يعتقد بذلك أنَّ العبدَ المؤمن يُقِرُّ له - بتلك الوسائل - بنفي البعث والحسابِ، ولكن هيهات!

دلالةُ التَّعبيرِ بالدِّين:

لفظُ (الدين) ومشتقّاته أوسعُ دلالةً من مرادفاتِهِ كلِّها

آثرَ النَّظمُ الكريم - في ترجمة المعنى الذي عبَّر عنه القرين الكافر في لُغَتِه هناك - استعمالَ أدقِّ كلمةٍ للتَّعبير عن المجازاة والمحاسبة والمُداينة، فقال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ لأنَّها مادَّةٌ لغويَّةٌ ثريَّةٌ، تحتمل معنى (الدِّين) ومعنى (الدَّيْن)، بما فيهما من دلالةِ الخضوعِ[2].

فعبَّر القرينُ بـ (مدينون)، أي: أإنّا لَمُحاسَبون، والدينونةُ هي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 234.

(2) الجاحظ، الرسائل: 1/ 187.

الحسابُ، أي: أنحيا بعد أن نصيرَ ترابًا وعظامًا، ثم نُحاسبُ، ونُدانُ، ونُعذَّب في النّار كما يقول محمَّد بهذا؟

دلالةُ التَّعبيرِ باسم المفعول:

الإنـكـارُ على القرين الكافر ما يفرُّ منه

صوغُ مادَّة (الدَّيْن) اسمَ مفعولٍ في الآية الكريمة: ﴿لَمَدِينُونَ﴾ متَّسِقٌ مع غرض القرينِ الكافرِ؛ إذ إنَّ اسمَ المفعول يُلمح إلى خضوعهم لغيرِهم ليجازيَهم بأعمالِهم، وهو اللّهُ تعالى الَّذي يُنكره القرينُ، ويُنكر البعثَ والمحاسبة والمداينة والمجازاةَ؛ ولذلك تَحاشَى ذِكرَهُ بصيغةِ مفعولٍ منسوبٍ إلى اللّه، فلم يقل: (أإنّا لمدينون يداينُنا اللّه تعالى)؟.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي في الآية:

المتشابهُ القرآنيُّ آيةُ الدِّقَّةِ، وأحدُ دلائل الإعجاز

جاءتِ الآيةُ الكريمة هنا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وجاءت في أوَّل السّورة الكريمة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦﴾ [الصافات: 16]؛ "لأنَّ الموضعَ الأوَّل حكايةُ كلام الكافرين، وهم في الدنيا منكرونَ للبعث، والموضع الثاني قولُ أحد الفريقين لصاحبِه عند وقوع الحسابِ والجزاء وحصوله فيه ﴿كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١﴾ [الصافات: 51] ينكرُ الجزاءَ، وما نحن فيه، فهل أنتم تطلعونني عليه: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾، قيل: كانا أخوين، وقيل كانا شريكين، وقيل: هما بطروس الكافر، ويهوذا المسلم، وقيل: القرين هو إبليس"[1].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿أَءِذَا﴾ وبلاغتها:

مـآلُ الـقـراءاتِ إلى الاستفهامِ الإنكاريِّ

اختلفَ القرّاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَءِذَا﴾ وقولِه: ﴿أَءِنَّا﴾: فقرأ نافعٌ والكسائيُّ ويعقوبُ بالاستفهام في الأوَّلِ: ﴿أَءِذَا﴾، والإخبارِ في الثّاني: ﴿إِنَّا﴾، وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو جعفر بالإخبارِ في الأوَّلِ: ﴿إِذَا﴾، والاستفهامِ في الثّاني: ﴿أَءِنَّا﴾، وقرأ الباقونَ بالاستفهامِ فيهما[2]،

(1) الكرماني، البرهان، ص: 212.
(2) القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 268.

فأما علة الاستفهام والخبر: فحجة من استفهم في الأول والثاني أنه أتى بالكلام على أصله، في التقرير والإنكار، أو التوبيخ بلفظ الاستفهام، ففيه معنى المبالغة والتوكيد، فأكَّد بالاستفهام هذه المعاني، وزاده توكيدًا بإعادة لفظ الاستفهام في الثاني، فأجراهما مجرًى واحدًا. وحجة من أخبر في أحدهما واستفهم في الآخر أنه استغنى بلفظ الاستفهام في أحدهما عن الآخر؛ إذ دلالة الأول على الثاني كدلالة الثاني على الأول، وأيضًا فإن ما بعد الاستفهام الثاني في أكثر هذه المواضع تفسير للعامل الأول، في (إذا)، التي دخل عليها حرف الاستفهام، فاستغنى عن الاستفهام في الثاني بالأول"[1]. ومُؤدَّى هذهِ القراءاتِ واحدٌ، وهو الإنكارُ.

(1) مكّي، الكشف: 2/ 21.

﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ [الصافات: 54 - 57]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا حكَى المؤمنُ في الجنَّة لأهل رفقتِهِ ما كان مِن قرينِهِ الكافر في الدُّنيا من تشكيكِهِ في البعث والحساب، وما يستلزمُهُ من الكفرِ باللّهِ تعالى ودعوته إيّاه إلى تركِ الإيمان إلى الكُفر؛ عرض المؤمنُ على أصحابِهِ في الجنَّة إن يطَّلِعوا معه على صاحبِهِ في النّار؛ لِما عَلِم من موتِهِ على الكفرِ، فاطَّلعوا، واطّلع معهم، فرآه يقاسي العذابَ الأليم في قعر جهنَّم، فوبَّخه على إصرارِهِ على الكفرِ الَّذي آلَ بهِ إلى سواء الجحيم، وحَمِد اللّه تعالى على نعمةِ هدايتِهِ إلى الإيمان، ونجاته من ذلك الجحيم وعذابه.

ينبغي للمؤمنِ أن يحمدَ اللهَ تعالى على نعمة الهدايةِ للإيمان، والنَّجاة مِنَ العذاب

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾: (طلع) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطلَعًا، والمَطلِعُ: مَوضِعُ طُلوعِها[1]، واطَّلَعَ عَلَى الشَّيْءِ، وطَلَعَ عَلَى الأمرِ يَطلُعُ طُلوعًا: عَلِمَهُ، وطالَعَهُ إيّاه، فَنَظَرَ ما عِندَهُ[2]، والمَطلِعُ: موضعُ الطُّلوعِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ [الكهف: 90]، وعنه استُعيرَ: طَلَعَ علينا فلانٌ، واطَّلَعَ، ومعنى: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾[3]، أي: هل تحبّون أن تطَّلعوا في النّار؛ لتروا ذلك القرينَ، وتعرفوا نعمةَ اللّهِ تعالى علينا فيما نحن فيه؟.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طلع).
(3) الراغب، المفردات: (طلع)، ص: 522.

2) ﴿سَوَآءِ﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ عَلى استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيئَينِ[1]، وأصلُ السَّواء من التَّماثُل، و(سواء) في القرآن على خمسة أوجه: **الأوَّل**: العدلُ، قال اللَّه: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64]، أي: عدل، وهو قوله: (لا إِلَهَ إلا اللّه)، **الثاني**: الوسط، قال: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهو المقصود في هذه الآية، وقال: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾، أي: في أحكم البين، فشبَّهه بوسط الطَّريق، وقيل: السّواء هاهنا بمعنى العدل، **الثالث**: الأمر البيِّن قال تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: 58]، **الرابع**: المعادلةُ والمماثلةُ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعالى في البَقَرة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: 6]، وفي الحج: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: 25]، وفي الرّوم: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم: 28]، وفي المُنافِقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: 6]، **الخامس**: القصدُ، كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 22][2]، وكلُّها معانٍ تؤكِّد شدَّةَ تمكُّنِ عذابِ الجحيم من القرين الكافر، وتمام افتضاحِه وخزيه فيه.

3) ﴿لَتُرْدِينِ﴾: (ردي) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى رَميٍ أو تَرامٍ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ[3]، والرَّدى: الهلاكُ، رَدِيَ بِالكَسرِ يَردى رَدًى: هَلَكَ، والرَّديُّ: الهالِكُ، وأَرْداهُ اللّهُ، وأَرْدَيْتُه، أي: أهلكتُه، وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، قالَ الزَّجّاجُ: مَعْناهُ: لتُهْلِكُني، وفيه: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: 16][4]، فالمقصودُ بقوله: ﴿لَتُرْدِينِ﴾: تورِّطُني معك في الهلاك، وتتسبَّب لي فيه.

4) ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾: (نعم) فُروعُهُ كَثيرَةٌ، وهي عَلى كَثْرَتِها راجِعَةٌ إِلَى أَصْلٍ واحِدٍ يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[5]، والنِّعْمَة: الحالةُ الحسنةُ، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ، تقال للقليلِ والكثير، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18][6]، ومعنى: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾ هنا عصمتُهُ مِنَ الضَّلال، و"هِدايَتُه، والتَّوفيق لِلإيمانِ بِالبَعثِ بَعدَ المَوتِ"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 261.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردي).
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 306، وابن منظور، لسان العرب: (ردي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(6) الراغب، المفردات: (نعم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 550.

5) ﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾: (حضر) إيرادُ الشَّيءِ، ووُرودُهُ ومُشاهَدَتُهُ، وقَد يَجيءُ ما يَبْعُدُ عَن هَذا، وإنْ كانَ الأصلُ واحِدًا، ويُقالُ المُحاضَرَةُ المُغالَبَةُ، وحاضَرْتُ الرَّجُلَ: جاثَيْتُهُ عِنْدَ سُلْطانٍ أَوْ حاكِمٍ[1]، فقد يأتي الحضورُ في القرآن بمعانٍ عديدةٍ منها: الكتابةُ والاستيطانُ والحلول والمجاورة والسَّماعُ، وأمّا معنى ﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ هنا؛ فقد جيءَ بمعنى (المُعذَّبين)[2]، فهم "الذين أُحضِروا العذابَ"[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

أصـحـابُ النُّـفـوسِ المطمئنَّة يندبون بعضَهم لمشاركة أسبابِ السَّعادة

من تمام نعيم أهلِ الجنَّة أنَّهم يتسامرون، فيقول أحدُهم: هل أنتم أيُّها الرِّفاقُ ناظرون معي إلى مصير القرينِ الكافرِ، لنرى أين استقرَّ بِهِ؟ فألقى بنَظرِهِ إلى حيثُ النّارُ وأهلها، فرأى صاحبه في وسط الجحيم، يأخذُ مكانًا متمكّنًا منها، فلقد كان داعيةً مِن دُعاة السّوء، ورأسًا مِن رؤوسِ الكُفرِ؛ فيتبرَّأ منه في الآخرة كما تبرَّأ منه في الدُّنيا غير راحم لهُ؛ إذ كان لولا رحمةُ اللّهِ بهِ، وإحسانه إليه - لو اتَّبَعه، وأخذ طريقَه معهُ - أن يكونَ قرينَه في هذا البلاء الذي يعانيه، وهذا العذابُ الَّذي يُكتوى بناره[4].

وترشدُ الآيات الكريمة إلى أنَّ التَّحدُّث بنعمة اللّه تعالى مشروعٌ ومأمورٌ بهِ؛ بشرط أن يكونَ المقصودُ به الثَّناءَ على اللّه تعالى لا الافتخارَ على عباد اللّه، وإلى أنَّ نجاةَ الإنسانِ من عذابِ اللّه من أكبرِ النِّعم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ ودلالته:

التَّراكـيـبُ الكريمةُ تتَّسِم بالوثاقةِ عبرَ سياقَيها القريب والبعيد جميعًا

جملة: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ "بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿قَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حضر).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 264.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 984.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 133.

﴿قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [الصافات: 51]؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ المحكيَّ بها هو ممّا اشتمل عليه قولُهُ الأوَّل؛ إذ هو تكملةٌ للقول الأوَّل"[1]، وهذا بالنِّسبة للسّياق الممتدِّ، أمّا السياقُ المباشر؛ ففُصِلت ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ عن جملة: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾؛ لكمالِ الانقطاعِ بينهما، فالسّابقة من قولِ القرين الكافرِ حين أنكرَ البعثَ في صورةِ استفهام ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾، واللّاحقة من كلام المؤمن في الجنَّة، وهو يخاطب رفقاءَهُ، وبذلك تتَّسع النَّظرة؛ لتستوعبَ ترابطَ التَّراكيب عبر سياقيه - القريب المباشر والبعيد الممتدِّ - جميعًا؛ لتتجلّى وثاقةُ التَّراكيب القرآنيَّة الكريمة.

وجهُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم﴾:

من ثراءِ الدَّلالات القرآنيَّة الكريمة تـعـدُّدُ مـراجعِ الضَّمير الواحد

للعلماء في ضمير قائل: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ آراءٌ كلُّها معتبرةٌ، منها: أنَّ قائلَهُ هو المؤمن المصدِّق بالبعث، يقول ذلك لأهل رفقته في الجنَّة في سياق حكايتِهِ لهم ما دار بينَهُ وبينَ قرينِهِ المُنكر للبعثِ أيّام الدُّنيا، ويدعوهم للاطِّلاع على ما يقاسيه القرينُ من عذابٍ في الآخرة، كما جاء بعده: ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ "يريد بذلك صدقَه فيما حكاه"[2]، أو أنَّ قائلَهُ هو "اللّه تعالى لأهل الجنَّة، وقيل: هو مِن قولِ الملائكةِ"[3]، "وعلى أنَّ القائلَ هو اللّه أو بعض الملائكة يكون المعنى: هل تحبّون أن تَطَّلعوا على أهل النّارِ؛ لأُريَكم ذلك القرين، فتعلموا منزلتَكم مِن منزلتِهم؟"[4]، "يدعوهم إلى كمال السُّرور بالاطِّلاع إلى النّار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطَبَتِه"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 82.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 418.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 334.

الغرضُ من الاستفهامِ في قوله: ﴿هَلۡ﴾:

من أدبِ أهلِ الجنَّةِ مع بعضِهم الطَّلبُ بغيرِ صيغةِ الأمرِ الصَّريح

﴿هَلۡ﴾ في قوله: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ استفهاميَّةٌ، مستعملةٌ في العرض والتَّحضيض، ومن بلاغة خروجِها هنا عن طلب الفَهم إليهما تحاشي أمْرِ أهلِ الجنَّة أمرًا ظاهرُهُ الإلزامُ والقهر، لو قيل: اطَّلِعوا، فالجنَّة دارُ النَّعيم، فحقَّقت ﴿هَلۡ﴾ الغاية، وتحاشَتْ أذيَّة الإلزامِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

دوامُ سعادةِ المؤمن في الجنَّة بتحقُّق وعد الله تعالى له

في التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ في سياق العرض والتَّحضيض - دون الفعلية (تطلعون) - إلماحٌ إلى لطيفةٍ رقيقة، هي رغبةُ المتكلِّم وإلحاحُهُ عليهم في الطَّلب حتى كأنَّه رآهُ واقعًا ثابتًا؛ فذلك يُسعده، ويفعمُهُ غبطةً بأنَّ موعودَ اللّٰه تعالى له قد تحقَّق، وأنَّ صبرَهُ هنالك في الدُّنيا على تكذيب الكافر قد أثْمَرَ، وأنَّ اللّٰهَ تعالى قد عوَّضه عن قرين السّوء أهلَ رفقةٍ صالحة، وأنَّه الآن صار يشاركُهم فرحتَهُ وغِبطتَهُ.

معنى الضَّمير: ﴿أَنتُم﴾، ونكتة تقديمه:

أهلُ الجنَّةِ يُكْرِم بعضهم بعضًا، ويَتَحَبَّب إليه، وقد هيَّأهم إيمانهم لذلك

في صوغ جملة التَّحضيض ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ اسميَّةً إتاحةٌ لِتقديم ضميرِ المخاطَبين ﴿أَنتُم﴾؛ وذلك لِما يُفيدُهُ التَّقديم من العناية والاهتمامِ إلى حدٍّ يُداخل خصيصةَ القصرِ، وأنَّهم هم فقط المعنيّون بالتَّحضيض على الاطِّلاع، ولعلَّ صاحب كلِّ رفقة في الجنَّة يُعنى برفقتِه، ويوليهم اهتمامَهُ وتقديره.

إيثارُ التَّعبيرِ بالاطِّلاع دونَ النَّظر:

من نعيمِ أهلِ الجنَّة اطِّلاعهم على أهل النّار

الدَّعوةُ إلى الاطِّلاع في هذا المقام أبرعُ مِنَ الدَّعوة إلى مجرَّد النَّظر؛ فالنَّظَرُ توجيهُ الناظرين لرؤية المنظورِ مطلقًا، أمّا الاطِّلاع، كأن يقال: ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾، فيفيد معنى النَّظرِ وزيادة، من تلك الزيادة التَّنويهُ برفعةِ منزلةِ المطَّلعين على المطَّلَع عَليه، فـ "الجنَّة عاليةٌ، والنّار هاويةٌ، قال: فيريهُ اللّٰهُ شريكَهُ في وسط الجحيم، من بين أهل

النّار، فإذا رآه المؤمنُ؛ عرفَهُ، فيقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾"[1]، و"اطِّلاع أهل الجنَّة على أهل النّار ومعرفة مَن فيها - مع ما بينهما من التَّباعد - غيرُ بعيدٍ، بأن يَخلُق اللّهُ تعالى فيهم حِدَّةَ نظرٍ، ويُعرِّفَهم مَن أرادوا الاطِّلاع عليه، ولعلَّهم إذا أرادوا ذلك؛ وقَفوا على الأعراف، فاطَّلَعوا على مَن أرادوا مِن أهل النّار، وقيل: إنَّ لهم طاقاتٍ في الجنَّة ينظرونَ منها مِن عُلوٍّ إلى أهل النّار"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾:

الصّيغة الصَّرفيَّة تتيح للمتكلِّم إرسالَ معانٍ مكثَّفة لا تؤدَّى إلّا بعدَّة جُمَلٍ

من خصائص النَّظم الكريم هنا صياغةُ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ؛ لأنَّ عطاءَ الاسميَّة يتَّسق مع تقديم ضميرِ ﴿أَنتُم﴾؛ إذ كلاهما يُشعرُهم بِقوَّةِ رغبةِ المتكلِّم في اطِّلاعهم معهُ، ومشاركتهم إيّاه فرحتَهُ بنجاتِهِ من التَّأثُّرِ بكفر قرينِهِ الكافرِ، ورفعة منزلتِهِ دونه، وعمق إحساسه بثبوت ذلك حتى كأنَّه قائمٌ حاصل منهم لا شكَّ فيه.

الغرضُ من حذف متعلّق ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾:

حديثُ أهلِ الجنَّة يُبنَى على اللَّمح، ويخلو من الثَّرثرة

حُذِفَ متعلِّقُ اسم الفاعل ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾، ولم يَنُصَّ على ماذا يطَّلعون؟ لأنَّ السياقَ يقود إلى المحذوف، ويوجِّه إلى الاطِّلاع إلى مصير القرين الكافرِ، الَّذي كادَ أن يرديَهُ معه إلى الجحيم، وذلك الإيجازُ النّاضح بالمحذوف يفيد أنَّ حديثَ أهل الجنَّة يُبنَى على اللَّمح، ويخلو من الثَّرثرة؛ كنايةً عن وفرة ذكائِهم، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [المؤمنون: 3]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ [مريم: 62]، كما أنَّ في طيِّ ذلك المتعلِّق "على أهل النّار لننظره فيهم؟"[3]؛ تطهيرًا للسّياق والمقام من ذِكر النّار، وتَحاشي التَّذكير بها.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 18.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 88.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾:

(الفاء) في قولِه: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ - أي: "فاطَّلع، أي: على أهل النار"[1] - تُصَوِّر سُرعةَ استجابتِهم له، وفوريَّة تحقيق رغبته بتلبية أهل رفقته في الجنَّة له، وذلك يتَّسق مع قولِه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: 71]، (والفاء) وإن كانت داخلةً على فعلٍ يتعلَّق به هو، غير أنَّ المَقام يقتضي أنَّهم شاركوه الاطِّلاع، ولكنَّه بادَر لِمحلِّ الواقعة الَّتي حكاها عن قرينِه من نفسِه هو، وبهذا تتجلَّى دقَّةُ النَّظمِ القرآنيِّ في ترجمة الخواطرِ النَّفسيَّة، وأدائها في إيصال المعنى، و(الفاء) قد تُؤذِنُ بمحذوفٍ، والتَّقدير: "فيقول أصحابُهُ: اطَّلِع أنتَ، فإنَّك أعرفُ به منا"[2] ﴿فَٱطَّلَعَ﴾.

من خصائصِ النَّظمِ الكريم المحافظةُ على أدقِّ الخواطر في إيصال المعنى

لطيفةُ الاكتفاءِ في الآية:

"في قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ اكتفاءٌ، أي: فاطَّلَع، واطَّلَعوا، فرآه، ورأوهُ في سواء الجحيم؛ إذ هو الذي عرض عليهم الاطِّلاع ليعلموا تحقيق ما حدَّثهم عن قرينه، واقتصر على ذكرِ اطِّلاعه هو دون ذكر اطِّلاع رُفقائه؛ لأنَّه ابتدأ بالاطِّلاع؛ ليُمَيِّز قرينَه، فيُريه لِرُفَقائه"[3]، وقد يكون هذا الفعل (اطَّلَع) إخبارًا عن اطِّلاع كلِّ واحدٍ منهم في نفسِه[4]، وإلى ذلك ففي الإخبارِ باطِّلاعه وحده تركيزٌ على بيان غِبطتِهِ هو، وكأنَّ إكرامَهُ وإكرامَ كلِّ مؤمن في الجنَّة يكون على انفرادهِ في موضع اعتبارٍ وتقديرٍ؛ إذ يُميِّز الإيمانُ صاحبه، ويوليه حفاوته الَّتي يستحقُّ.

لكلِّ مؤمنٍ في الجنَّةِ اعتبارُهُ المتميِّز على انفرادِهِ، وحفاوته التي ينالها وافيةً

ويدعم ذلك انفرادُ كلِّ واحدٍ من الكفّار في عذاب النّار، وشعوره بأنَّه أشدُّهم عذابًا، بل إنَّه يُعذَّب في النّار وحده، فيزيده ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 89.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 564.

الشُّعور إيلامًا، فعَنِ البَراءِ ﷺ قال: "إذا أرادَ اللّهُ ﷻ أنْ يُنَسَّى أهلَ النّارِ؛ جَعَلَ لِلرَّجُلِ مِنهُم صُندوقًا عَلى قَدْرِهِ مِنَ النّارِ... فَما يَرى أنَّ في النّارِ أحَدًا غَيْرَهُ"[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَرَءَاهُ﴾:

رؤيةُ المؤمنِ تعذيبَ الكافرِ في النّار بِرٌّ بحقِّ صبرِه واحتمالِه منه تجهيلَه وتعنيفَه

(الفاء) في قوله: ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عاطفةٌ تعقيبيَّةٌ، تَدُلُّ على ظهورِ أمر القرين الكافر في النّار، وعدم خفائهِ بالنِّسبة لهذا المؤمن، وأنَّه لم يبذل جهدًا ووقتًا في الوصول إليه، وفي ذلك بِرٌّ بحقِّه، ومبالغةٌ في إكرامِهِ؛ لِما صبر عليه، وجاهَد وتحمَّل منه تجهيلَهُ وتعنيفَهُ في الدُّنيا، وإشعارٌ له بالاغتباط بكرامة اللّه تعالى له، ونيله كرامةَ الإيمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (رآه):

أهلُ الجنانِ يُزَوَّدون بالقدرةِ على رؤيةِ خصومِ العقيدة وهم يصلون الجحيم

(الرؤيةُ) في الفعلِ (رآه) رؤيةٌ بصريَّة لا غَبَشَ فيها، مع بُعدِ ما بين المنزلتَين، وبوْنِ النُّزُلَين، فهذا في دار النَّعيم، وذلك في أعماق الجحيم، ويا بُعد ما بينهما، وذلك يكشف عن إمكاناتِ أهلِ الجنان، وما يُزَوَّدونه من أسبابِ النَّعيم، والقدرة على الاطِّلاع على خصومِهم في العقيدة والإيمان، إذ يَصلَون العذابَ هنالك في أعماق أوديةٍ يُهْوَى بِهم فيها سبعين خريفًا، والتَّعبيرُ بالماضي دلالةٌ على التَّحقُّق واليقين.

معنى ﴿فِى﴾ من قوله: ﴿فِى سَوَآءِ﴾:

تورُّطُ الكافرِ في الآخرة أسبابَ العذابِ وعدمِ فَكاكه منه

يفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿فِى﴾ في قوله: ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ معنى الظَّرفيَّة، ليُسهمَ في بيان تورُّطِ الكافرِ في وسط العذابِ ومنتصفهِ الجحيم، ممّا يقرِّر عدم فَكاكِهِ منه ألبتة؛ لِما للطَّرَف مِن احتمال الخروج والخلاص، بخلاف الوسطِ الَّذي يَبعُد معه الخلاص، وذلك المنظرُ الَّذي رآهُ العبدُ النّاجي يزيده اغتباطًا بِنعمة ربِّه تعالى

(1) البيهقي، البعث والنشور، بَابُ مَا جَاءَ فِي ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ وَسَلاسِلِهِم وأَغْلالِهِم، ص: 300، برقم: (539).

وشعورًا بعظمة فضلِهِ عليه؛ فبينما هو في أعالي الجنان ينحطُّ قرينُهُ إلى أعماق الجحيم، ويتوسَّطه، فيحيط به العذابُ مِن كلِّ الجهات إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف، والعياذ باللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سَوَآءِ﴾:

الكافرُ يُعاقَبُ بتوسُّط الجحيم عدلًا، لا ظلم فيه، ويكون أمره مفضوحًا

النَّظمُ الكريم آثرَ التَّعبيرَ بمفردة ﴿سَوَآءِ﴾ في قوله: ﴿فِي سَوَآءِ﴾ دون (وسط)؛ لِما تنشرُهُ من إيحاءاتٍ إضافيَّةٍ أخرى بارعة، زائدة على دلالات (وسط)؛ منها أنَّ ﴿سَوَآءِ﴾ تُفيد أنَّ القرين يُعاقَبُ بتوسُّط الجحيم عدلًا، لا ظلم فيه، فمِن معاني ﴿سَوَآءِ﴾ العدلُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ [آل عمران: 64]، كذلك تفيد ﴿سَوَآءِ﴾ معنى الظُّهور والبيان، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾، فتُلمِحُ إلى افتضاح وضعِ الكافرِ، إلى غيرِ ذلك ممّا لا تفيدُهُ كلمة (وسط) من دلالات.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾:

كلُّ جحيمٍ لا يُعَدُّ جحيمًا إذا قيس بالجحيم الأخرويّ

(ال) في ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ عهديَّة؛ إذ تختصُّ جحيم الآخرة في الأذهان بالذِّكر حين يُعرَّف بها، وتستحضر خطورته، ويتملَّكها الرُّعب والفزع؛ إذ ربّاهم الوحيان الشَّريفان على رهبتِهِ، والعمل للنَّجاة منه، وتعريف ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ بـ (اللام) يجعل كلَّ جحيم سواه دونَهُ بكثير، ولا يُعَدُّ جحيمًا؛ إذا قيس به، فهو ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ الأبديُّ الخالد؛ لذلك تنصرفُ أذهانُ العبادِ إليه حين يُعرَّف بـ (ال)، وقد ورد في القرآن الكريم من أسماء النّار: جهنَّم، الجَحيم، لَظى، السَّعير، الحُطَمة، الهاوية، سَقر[1]، وقد اختُصَّ الكافر في هذا المقام بتوسُّط ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لأنَّ الجحيمَ نارٌ على نارٍ، وجمرٌ على جمرٍ[2]، وما بها من الحرارة وشدَّتها، فالجاحمُ المكان الشَّديد الحرِّ، وبه سُمّيت الجحيمُ جحيمًا.

(1) اللَّبَابِيدي، معجم أسماء الأشياء، ص: 63.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 278.

الغرضُ من إضافة ﴿سَوَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾:

بيانُ تفاقُمِ العذاب على القرين الكافر

إضافةُ ﴿سَوَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ تُسهم في بيان تَفاقُم العذاب على القرين الكافر، وكلّما تفاقَم العذابُ عليه؛ أُفعِمَ المؤمن شعورًا بفضلِ اللّه تعالى عليه، وازداد اغتباطًا لتوفيقه ﷻ إيّاه إلى الإيمان به، والتّصديق باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وما تلاه ممّا هو فيه من نعيم الجنانِ، وبذلك تتجلّى للمتلقّي سَعةُ البَوْنِ بين المؤمن والكافر وجزاءيهما في الآخرة.

سرُّ الفصلِ في الآية:

المؤمنون يذكرونَ مِحَنَ الدُّنيا، فيحمدونَ اللهَ تعالى على النَّجاة منها

فُصِلَت جملة: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ عمّا قبلها؛ لاستئنافها جوابًا لسؤال تُثيرُهُ الجملةُ السابقة في نفس المتلقّي، يقول: وماذا كان رَدُّ فِعل العبدِ الصّالح المصدِّق حينما رأى قرينَهُ يتلظَّى في سواء الجحيم؟ فتُسعِفه جملة: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ شافيةً، وافية بالجواب، وتُجيب "بأنَّه حين رأى قرينَهُ أخذ يوبِّخه على ما كان يحاولُهُ منه، حتى كاد أن يُلْقيَهُ في النّار مثلَهُ، وهذا التَّوبيخُ يتضمَّن تَنْديمَهُ على محاولة إرجاعِهِ عن الإسلام"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول، ومرجع الضَّمير فيه:

المؤمنُ ينطق بأفضالِ اللهِ تعالى، ويشيعها، ويحمده عليها

يفيد فعلُ القولِ ﴿قَالَ﴾ أنَّ العبدَ المؤمن نطق بتلك الجُمل مغتبطًا، شاكرًا لربِّه ﷻ أنْ نجّاه من هذا المصيرِ الأليم ومن التَّورُّط في أسبابه، وذلك يُرشِدُ إلى النُّطق بأفضالِ اللّهِ تعالى، وإشاعتها، وعدم كتمِها، وإن لم يسمَعْها المخاطَب الكافر في سواء الجحيم؛ فإنَّ اللّه تعالى يسمعها، فالأقلامُ تجري بالمنطوق، والمضمر سرٌّ لا يراهُ إلّا اللّهُ تعالى.

معنى (التاء) في قوله: ﴿تَٱللَّهِ﴾، ونكتتها:

"القَسَمُ بالتاء من شأنِهِ أن يقع فيما جواب قسمه غريب، كما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.

القَسَمُ بالتّاء يبرع في مقامات اللّوم والتَّوبيخ وإن يكن في الآخرة

تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ [يوسف: 73]، وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57]، ومحلُّ الغرابةِ هو خَلاصُه مِن شبكة قرينه، واختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدَّة الملازمة والصُّحبة، وما حفَّه من نعمة الهداية، وما تورَّط قرينه في أوحال الغَواية"[1]، والمقام هنا مقامُ امتلاءِ النَّفس بلوم القرين الكافر، واغتباطها بتوفيق اللّه تعالى ونعمةِ العصمة من الكفر والتَّكذيب باليوم الآخر، وتلك معانٍ جليلةٌ، ذاتُ أثرٍ في النَّفس عظيم؛ لذا استُعمِلت تاء القسم دون أختيها الواو والباء.

نكتةُ القَسَمِ بالاسم الجليل (اللّه):

المـقـامُ المهيبُ يقتضي أن يكونَ بالاسم الجليل

لمّا كان المقامُ هنا مهيبًا - إذ يتعلَّق بأصل الجحيم - ذا أثرٍ عظيم في نفس العبد المؤمن؛ فقد فرض عليه أن يكونَ القَسَم بالاسم الجليل (اللّه)، وفي ذلك اتِّساقٌ لاصطفاء حرف القسم (التاء) - كما سبق القول - فتآزرَتْ تلك العناصرُ التركيبيَّة على بيان هَوْل ما رأى في ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ ممّا حلَّ بالقرينِ الكافر من صنوف العذاب المتكاثرِ الذي ينهض ببيان تفاصيله الوحيان الشَّريفان.

معنى ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾:

﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ هي المُخَفَّفة مِن الثَّقيلة، "وهي تدخل على (كاد)، كما تدخل على (كان) ونحوه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: 42]... والإرداء: الإهلاك[2]، والمعنى: "إنَّك قاربت أنْ تُفْضي بي إلى حال الرَّدَى بإلحاحك في صَرْفي عنِ الإيمان بالبعث لِفَرْط الصُّحْبةِ"[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعل (كاد) ماضيًا:

الفعل (كاد) في جملة: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ يدلُّ على مقاربة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 117.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

شـدَّةُ إغـواءِ الكفّار، ورحمةُ اللـه بتثبيت المؤمنين على الهدى

صرف القرين الكافر صاحبَهُ المؤمن - في الدُّنيا - عن طريق الحقِّ والإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، "أي: هممتُ، وأردت أن تهلكني، وتغويني؛ لو أجبتك، واتَّبعتك فيما أدعوتني، إليه وسألتني"[1]، وفي تلك المقاربةِ كنايةٌ عن عُمقِ الصُّحبَةِ الَّتي كانت بينهما، وعن طول إلحاح الكافر على صرف المؤمن عن طريقِ الإيمان، وأنَّه كاد يُرْديه، ويُهلِكُه بالكفر لولا نعمةُ ربِّه.

وجهُ مرجعِ ضمير المخاطَبِ في ﴿كِدتَّ﴾:

ازديـادُ حسرةِ القرين الكافر، أو خطابُ المؤمن اغتباطًا بنعمة ربِّهِ عليه

المخاطَبُ بقول المؤمن: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ هو القرين الكافر المذكورُ في قوله قبلُ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: 51 - 52]، وهو بحسبِ العادة لِبُعد ما بينه في النّار وبين المؤمن في الجنَّة لا يسمع هذا الخطاب، لكن ربَّما يسمع بحسب قوانين الآخرة، فيصلُهُ صوت المؤمن، وهو في سواءِ الجحيم، فَتَتَفاقَم عليه المعاناة، وتتزاحم عليه، فيزدادُ ما بين وضعيهما من بَوْن، هذا في غاية السَّعادة والغبطة، وذلك في نهاية العذابِ والحسرةِ، وقد لا تسمحُ قوانين الآخرة بتوصيل خطاب المؤمن للكافر في النّار، ويكون خطابُ المؤمن فضفضةً بذلك الكلام؛ اغتباطًا بنعمة ربِّهِ ﷻ.

معنى (اللام) ودلالتها في قوله: ﴿لَتُرْدِينِ﴾:

(اللام) في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، "هي اللّام الفارقةُ بين ﴿إِن﴾ المُخَفَّفَةِ والنّافية[2]، أي: "إنَّك قاربت أنْ تُفْضي بي إلى حال الرَّدَى بإلحاحِك في صَرْفي عنِ الإيمان بالبعث لِفَرْطِ الصُّحْبة"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة (تردين) مضارعًا:

في التَّعبيرِ بمفردةِ (الردى) دلالةٌ على الإهلاكِ وزيادة، هي تقييد

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 565.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

الإهلاك بالإيقاع من علوٍّ، فقوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾، أي: "توقعني في الرَّدى وهو الهلاك، وأصل الرَّدى: الموتُ ثمَّ شاعت استعارتُهُ لسوء الحال تشبيهًا بالموت لما شاع من اعتبارِ الموت أعظمَ ما يصاب به المرءُ"[1]، ومن براعةِ صوغِ الرَّدى مضارعًا (تردين) هنا استحضارُ الماضي كأنَّه مَعيشٌ في وقت التَّكلُّم، وتوصيف الحاضر لو كان أجاب القرين الكافر إلى مطلبِهِ؛ إذ قال له: كان يقول له: اترك دينك، واتَّبعني[2].

القـرآنُ الكريمُ يصطفي لمعانيه مـن المـفـردات أدقَّـهـا دلالـةً عليها

بلاغةُ المجازِ العقلي في الفعل (تردين):

في إسنادِ المؤمنِ فِعل الرَّدَى إلى قرينه الكافرِ في قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ إنَّ الذي يقدر على الإرداء هو اللّه تعالى، أمّا الكافُ؛ فسببٌ فيه فقط، ومع علم المؤمنِ بذلك وإيمانه بهِ أسندَهُ إلى الكافر، ولطيفةُ ذلك تنزيهُ اللّهِ تعالى عن إسنادِ الشَّرِّ إليه، كما قال الرَّسولُ ﷺ في دعاءِ استفتاحِ الصَّلاة: "والخَيرُ كُلُّهُ في يَدَيكَ، والشَّرُّ لَيسَ إلَيكَ، أنا بِكَ وإلَيكَ، تَبارَكْتَ وتَعالَيتَ، أستَغْفِرُكَ، وأتوبُ إلَيكَ"[3].

مِن أدبِ المؤمنِ تنزيهُ اللهِ تعالى بعدمِ إسنادِ ما ظاهرُهُ الشَّرُّ إليه سبحانه

براعةُ المجازِ المرسل في (الردى):

عبَّر عن السَّببِ بالمسبَّبِ؛ لأنَّ الرَّدى هو الثَّمرةُ المرَّةُ لاستجابته له؛ لو كان استجاب، وإنَّما بالأعمال بمآلاتها، وإلى ذلك فمُفْرَدَةُ الرَّدَى معبِّرةٌ، وصوْغها مضارعًا متَّسِقٌ، أو أنَّ المعنى: "واللّهِ لقد كدْتَ أن تُغوِيَني، فأنزلَ منزلتك"[4]، فذكر الفِعْلَ الأخير (الرَّدى)، وأراد سببه الأوَّل (الغَواية)؛ والثَّمرة على كلِّ حالٍ هي إيرادُه موارد الرَّدى، فالمجازُ المرسل في هذا السياق أبلغُ مِنَ الحقيقة.

الأعمالُ بمآلاتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 564.

(3) مسلم، صحيح مسلم، كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وقَصْرِهَا، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ: 1/ 535 برقم: (771).

(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 455.

الغرضُ من حذف الياءِ في ﴿لَتُرۡدِينِ﴾:

تَحاشي إيقاعِ فِعل الرَّدى على ضمير المتكلِّم وتنزيهه منه حتّى في اللّفظ

"قرأ الجمهورُ ﴿لَتُرۡدِينِ﴾ بنونٍ مكسورة في آخرهِ دون ياءِ المتكلِّم على التَّخفيف، وهو حذفٌ شائع في الاستعمالِ الفصيح، وهو لغةُ أهلِ نجدٍ، وكُتِبَ في المصاحف بدون ياءٍ، وقرَأَهُ ورشٌ عن نافع بإثبات الياءِ، ولا يُنافي رسمَ المصحفِ؛ لأنَّ كثيرًا مِن الياءات لم تُكْتب في المُصحف، وقرأ القُرّاء بإثباتها، فإنَّ كُتّاب المصحف قد حَذفوا مُدودًا كثيرة من ألِفاتٍ وياءاتٍ"[1]، وفي حذف (ياء) المفعول من الفعل ﴿لَتُرۡدِينِ﴾ مراعاةٌ لرؤوس الآي المبنيَّةِ على حرف النّونِ المسبوقة بياء المدِّ، وإلى ذلك يُحقِّق حذفُ المفعول هنا تَحاشي إيقاع فِعل الرَّدى على ضمير المتكلِّم وتنزيهه منه حتّى في اللَّفظ؛ مبالغةً في بيانِ شدَّةِ العذاب المعَبَّر عنه بالرَّدى في الفعل ﴿لَتُرۡدِينِ﴾.

غرضُ توكيدِ الخبر في: ﴿تَٱللَّهِ﴾... ﴿لَتُرۡدِينِ﴾:

قد يُراعي التَّوكيدُ حالَ المتكلِّم لا المخاطَب، وذلك في حالة عدم إنكاره

توكيدُ الخبرِ في جملة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ يعكس الحالةَ النَّفسيَّة للمتكلِّم لا للمخاطَب؛ لأنَّ المخاطَب هنا لا يَشُكُّ حينئذٍ في مضمون هذا الخبرِ، وقد عايَنَهُ، وعالجَهُ بنفسِه، فذلك التَّوكيدُ يُترجم شدَّةَ هوْلِ ما رأى المتكلِّم المؤمن مِن مصير القرين الكافر، كما يؤكِّد ما سبقت الإشارةُ إليه من طول الإلحاحِ عليهِ في نبذ الإيمان واعتناق مِلَّة الكُفر، واحتيالهِ عليه بكل حيلةٍ لِثَنْيِه عن إيمانِه، إلى درجة مقارَبة إضلالهِ وإيرادِهِ مواردَ الهلاكِ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَوۡلَا﴾:

وجوبُ اعتقادِ نسبة التَّوفيق إلى الله تعالى، والتَّبرُّؤ من نسبتها إلى النَّفس

(الواو) في قوله: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ عاطفةٌ؛ إذ قَرَنَتْ بين دلالتين قصَدَها المتكلِّم المؤمن هما: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾، و﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ المهلكين المعذَّبين، ولطيفةُ ذلك نَفْيُ توهُّم اعتقادِ المتكلِّم نسبة التَّصدّي لِمحاولات القرين الكافر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 118.

إلى نفسِه، وإثبات أنَّه التَّوفيق الإلهيُّ والعظمة الرَّحمانيَّة والنِّعمة الرَّبّانيَّة، وذلك المناسب لإتباع جملة: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ جملةَ: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾، والرَّبط بينهما بالواو العاطفة.

دلالةُ الأداة (لولا):

الاعـــتراف الصَّريح بفضل اللـه تعالى ونسبة الخير إليه

(لولا) حرفُ شرطٍ يفيد امتناعَ وقوع الجواب: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾؛ لامتناع وقوع الشَّرط ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾، أي: إنَّ نعمةَ ربّي وعصمتَه إيّاي هي الَّتي حالت دون سقوطي في شباك محاولاتك ثَنْيي عن الإيمان باللّهِ واليوم الآخر وما فيه من حساب ونعيم وعذاب، وفي ذلك اعترافٌ صريحٌ بفضل اللّه تعالى ونسبة الخير إليه ﷻ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿نِعۡمَةُ﴾، والإضافة إليها:

أعظمُ النِّعم أنْ يُعصَم العبدُ من الكفر، ويوَفَّق للإيمان، ويُكرَّم بالجنان

المقصودُ بالنِّعمة هنا معناها الأعمُّ، الشّامل للعصمة والحفظ والكرامة والإسلام، وما إليها مِن نِعَم، قال الزَّمخشريُّ: "﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ هي العصمة، والتَّوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السّوء، أو إنعام اللّه تعالى بالثَّواب، وكونه من أهل الجنَّة"[1]، وجاء إفرادُها جريًا على عادة الذِّكر الحكيم في نسبتها إلى موليها الأعلى ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: 18]، فبرغم عدم القدرةِ على إحصائِها أُفرِدَت، وفي ذلك كنايةٌ عن تنوُّعِ منافعِ النِّعمة الواحدة على العبدِ؛ إذ لا يطيق إحصاءَها؛ لِما في منافِعِها ما يعلمُهُ، وما لا يعلمُهُ، وفي إضافة ﴿نِعۡمَةُ﴾ إلى ﴿رَبِّي﴾ إشارةٌ إلى معاني التَّربية والتَّعهُّد، وفي ذلك مزيدُ امتنانٍ من العبد المؤمن الناجي من العذاب لربِّهِ الكريم ﷻ، فقد عصَمَهُ مِنَ الكفر في الدُّنيا، ووفَّقَهُ على الإيمان، ثمَّ آواهُ إلى الجنانِ والنَّعيم في الآخرة.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.

الغرضُ مِن حذف خبر (لولا):

خبر (لولا) في قول المؤمن: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ محذوفٌ، والتَّقدير: "ولولا نعمةُ ربي تَدارَكَتْني، أو أنقَذَتني ونحوه؛ لكنتُ معك في النّار"[1]، وتُلْمَحُ في حذف الخبرِ هنا إفادةُ عموم بركات ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾؛ فقد عصمتني مِنَ السُّقوط في الكفر، ومنحتني الإيمان، وقوَّتني على البقاءِ عليه، وما على ذلك، وفي حذفِ خبر (لولا) تعجيلٌ إلى نفي ما بعده ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾، وذلك لِمحلِّ خطورتِه عنده، وبيان امتنانه به.

قـد يُـبَـطِّـئُ ذِكـرُ العنصر اللُّغويِّ من الزمن المطلوب تسريعه

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَكُنتُ﴾:

(اللام) في جملة: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ رابطة لجواب لولا، مفيدة التوكيد، كأنَّه قال: ولولا نعمةُ ربي لقد كدتَ أنْ تغويني، فأنزل منزلتك[2]، ومِن عطاء هذه (اللام) دَعمُ الحالة النَّفسيَّة للمتكلِّم، وتوفيتها حقَّها من الغبطة التي يَشعر بها المتكلِّم، مِن حيث الخطورةُ التي عايَنها في سواءِ الجحيم ممّا يغيظ القرين الكافر.

توفيةُ النَّفس حقَّها مِنَ الغبطةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في (كنت):

عبَّر المؤمنُ النّاجي عن مآلهِ في الآخرة - لو كان قد أطاعَ القرين الكافر في الدُّنيا - بالكون الماضي، فقال: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾، ولم يقل: (لَأُحْضِرْتُ)؛ إشارةً إلى أَثَرِ اعتناقِ عقيدة الكفر في الدُّنيا على مصير صاحبهِ في الآخرة، أمّا التَّعبير بقوله: (لَأُحضِرْتُ)؛ فيطوي تلك المرحلةَ الَّتي حرص المتكلِّم على استدعائها؛ لكونها المنطلقَ الحقيقيَّ إلى المآل الأخير، ويُفهم من جملتَي الآيتين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أنَّ القرين الكافرَ ما أَرْداه، قائلًا: إنَّه تعالى "تفضَّل عليَّ، ورحمني، فهداني

للمقامِ والسّياق عطاءاتُهما وإشاراتُهما وإن لم يُنطَق بها

(1) الإبياري، الموسوعة القرآنية: 4/ 372.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 455.

للإيمان، وأرشدني إلى توحيده: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]"[1]، فللمقام عطاءاتُهُ وإشاراتُهُ، وإن لم يُنطَقْ بها.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، توحي بكثرتهم، وتتَّسق دلالتُها مع نصوص الذِّكر الحكيم مِن مثل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: 103] إلى آخره، فـ ﴿مِنَ﴾ هنا تنمُّ عن أنَّ المُحضَرين في العذابِ مِن الكثرةِ بحيثُ إنَّ كثرتَهم تَطْويه، فلا يكاد يظهرُ بينَهم.

المُحضَرونَ في العذابِ يوم القيامة هم الكثرةُ الكاثرة

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عهديَّةٌ، أي: ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ "الذين أُحضِروا العذابَ كما أُحضِرْتَهُ أنتَ وأمثالك"[2]، الذين رآهم المتكلِّم المؤمن مع قرينه في سواء الجحيم يعذَّبون، ويعالجون الصَّديد والحيّات، وما هنالك مِن صنوف المعاناةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالإحضارِ، وصوغِهِ اسمَ مفعول:

آثرَ المتكلِّمُ المؤمن التَّعبيرَ بمفردة (الإحضار) دون التَّعذيب، فقال: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، ولم يقل: (من المكذِّبين)؛ لأنَّ مجرَّد الإحضارِ يستلزم التَّعذيبَ، فـ "أحضر لا يُستعمل مطلقًا إلّا في الشَّرِّ"[3]، ففيه كنايةٌ عما يستلزمُهُ من عقوبات.

الفعل (أحضر) لا يُستعمل مطلقًا إلّا في الشَّرِّ، فهو يستلزمُ العذاب

الغرضُ من حذفِ متعلّقِ ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾:

الغرضُ من حذْفِ متعلِّق الإحضار - أي: لكنتُ من المحضرين في العذاب، أو "في النار مثلك"[4] - تَحاشي ذِكر النّار، وذكر ارتباطه

قد يُكتفى بذكر المتعلَّق دون متعلِّقِه؛ تحاشيًا مِن ظلال كريهة قد تفوح منه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 16.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 84.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 334.

بها ولو لفظًا؛ فاكتفى بذكر المتعلِّق دون المتعلَّق، "وفي هذه الآيةِ عِبرةٌ من الحذرِ من قرناء السّوء، ووجوب الاحتراس ممّا يَدْعون إليه، ويُزَيِّنونَهُ من المهالك"(1).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاطِّلاع والنَّظر:

الاطِّـلاع الرؤيةُ مِن عُلوٍّ، والنَّظر الرؤية مطلقًا

اطَّلَعَ عَلَى الشَّيْءِ، وطَلَعَ عَلَى الأمر يَطْلُع طُلوعًا: عَلِمَهُ، وطالَعَهُ إيّاه، فَنَظَرَ ما عِنْدَهُ(2)، والمَطْلِعُ: موضعُ الطُّلوعِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ [الكهف: 90]، وعنه استُعير: طَلَعَ علينا فلانٌ، واطَّلَعَ، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾(3)، أي: هل أنتم تحبّون أن تطّلعوا، فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النّار؟ فاطّلع المسلمُ، فرأى قرينَهُ في سواءِ الجحيم(4)، والنَّظر في الأصل تقليبُ البصرِ، وتوجيهه إلى جهةِ المنظور، فهو بمعنى الرُّؤيةِ، ثم يُستعمل في تقليب البصيرة، فيكون بمعنى التَّفكُّرِ"(5).

الإرداء والإهلاك:

الـرَّدَى الإهـلاكُ بِقيد الانـحدار، والإهلاك بلا قيد

تُفسِّرُ المعاجمُ (الرَّدَى) بالهلاك، ولا تكادُ تفرِّق بين دلالتَيهما، يقول ابن منظور: "الرَّديُّ: الهالِكُ، وأرداهُ اللّهُ، وأرْدَيْتُه، أي: أهلكتُه، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾: مَعْناهُ لتُهْلِكُني، وفيه: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه: 16]"(6)، ويُمكن التَّفريقُ بَينهما بأنَّ معنى الرَّدى: الهلاك مقيَّدًا بقيد الانحدار والسُّقوط، ويتَّضح ذلك في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه: 16]، أمّا الهلاك؛ فهو الموتُ أو الضياع مطلقًا، فالرَّدى أعمُّ والهلاك أخصُّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 119.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طلع).
(3) الراغب، المفردات: (طلع).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 513.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نظر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ردي).

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

[الصافات: 58 - 61]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من رحمة اللهِ تعالى بعبادهِ المؤمنين أنَّهم لا يموتون مرَّةً أخرى غير موتة الدُّنيا

أخبرَتِ الآياتُ السّابقة بما قاله العبدُ المؤمن لأهل رِفْقَتِهِ في الجنَّة، مِن طلب الاطِّلاع في النّار؛ للوقوف على ما آلَ إليهِ حال قرينهِ الكافرِ، ثمَّ أخبرَتْ بمخاطَبَتِهِ قرينَهُ الكافرَ بعد أنْ رآه في سواء الجحيم قائلًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ممتنًّا بذلك لربِّه الكريم، الذي عصمَهُ مِن وسوسة ذلك القرين، وأنعم عليه بالإيمانِ، والنَّجاة مِنَ النّيران، و"لمّا تمَّم ذلك الكلامَ مع الرُّجلِ الَّذي كان في الدُّنيا قرينًا له، وهو الآن من أهل النّار؛ عاد إلى مخاطَبة جُلَسائِهِ الَّذين هم من أهلِ الجنَّة، فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾"[1]، أي: أحقًّا لا نموت بعد هذا، ولا نفارق هذا النَّعيم الذي نحن فيه؟.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: (فوز) كلمتانِ مُتَضادَّتانِ، فالأولى النَّجاةُ، والأُخرى الهَلَكَةُ، فالأولى قولُهُم: فازَ يَفوزُ؛ إذا نَجا، وهو فائزٌ، وفازَ بالأمرِ؛ إذا ذَهَبَ بِهِ، وخَلَصَ... والكَلِمَةُ الأخرى قولُهم: فَوَّزَ الرَّجُلُ؛ إذا ماتَ[2]، والفَوْزُ: الظَّفر بالخير مع حصول السَّلامة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾ [البروج: 11]، والمَفازَةُ قيل: سُمّيت تفاؤلًا للفوزِ، وسُمّيت بذلك؛ إذا وُصِل بها إلى الفوزِ، فإنَّ الفقرَ كما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوز).

يكون سببًا للهلاك؛ فقد يكون سببًا للفوز، فيُسمّى بكلٍّ واحدٍ منهما حسبما يُتَصَوَّر منه، ويَعْرِض فيه[1]، فمعنى ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: أَنَّ النَّجاة من الإحضار في الجحيم، وضمانَ النَّجاة من ذَوْق الموت مرَّةً أخرى، والظَّفَرَ بِرِفْقَة أولياء الله تعالى في جنّات النَّعيم؛ لهو السَّلامةُ والسَّعادة التي لا يُقادَر قدْرُها.

2) ﴿ٱلْعَٰمِلُونَ﴾: (عمل) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، وهو عامٌّ في كُلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ، قالَ الخليلُ: عَمِلَ يَعْمَلُ عَمَلًا، فَهوَ عامِلٌ، واعتمَلَ الرَّجُلُ؛ إذا عَمِلَ بِنَفْسِهِ[2]، وعَمِلَ عَمَلًا: فَعَلَهُ، أو فعَله بنوعٍ من المشقَّة، أو فعَله بجوارحه، فهو عامِلٌ، جمعه: عَمَلَةٌ وعُمّالٌ، وعَمَّلَهُ: ولّاه عملًا، أعطاه عمالته، أَعْمَلَهُ: جعله يعمل، واستعمله: طلب إليه أنْ يعملَ له، والعملُ: المهنةُ والفعلُ، أو هو أخصُّ من الفِعل، جمع أعمال، والعامل - اسم الفاعل مِن عمِل - الَّذي يتولّى أمورَ الرَّجل في مالِه وملكِه[3]، فمعنى قولِه تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾: لِنَيْلِ مِثل هذا الفوز العظيم في الآخرة؛ فليبذُل المؤمنون، وليجتهدِ المجتهدون طاقتَهم في الحياة الدُّنيا.

المَعنى الإجْماليُّ:

طريقُ النَّجاة الإيمانُ باللهِ مع ما يتيسَّر من الصّالحات

يقول المؤمنُ لِرُفَقائه في الجنَّة: أيَدوم لنا هذا النَّعيمُ، فلا نُفارِقه بالموت، ولا يفارِقُنا، فَنُعذَّبُ؟ إذا حصلَ ذلك - وهو عندنا مَصَدَّقٌ بموجِب وعْد الله تعالى - فَقد ظفِرْنا بِالنَّجاة والسَّلامة ظَفَرًا عظيمًا، إنَّه لَيَعلم هذا يقينًا، ولكن يريد عِلمًا يثبِّت علمَهُ، ويقينًا يؤكِّد يقينَهُ"[4]، تلك الغايات الجليلةُ هي الجديرةُ بأن يَقِفَ المجتهدون عليها نيّاتِهم في عملِهم الأعمال الصّالحة، وأدائهم

(1) الراغب، المفردات: (فوز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل).
(3) رضا، معجم متن اللغة: (عمل).
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 985.

العبادات الخالصة لِرَبِّهم الواحد، وأن يَبذُلوا لِنَيْلها كلَّ طاقاتِهم، ويستفرغوا فيها جهودَهم.

وترشدُ الآياتُ إلى أنَّ الفوزَ الحقيقيَّ هو الوصول إلى دار كرامة اللّه تعالى، فيترتَّب على هذه الفائدة: أنَّ الإنسانَ مهما فاز في الدُّنيا؛ فإنَّ فوزَهُ ليس بشيءٍ بالنِّسبة إلى فوز الآخرة، وإلى أنَّ الذي ينبغي أن يعملَ له العاملُ، ويكدحَ له الكادحُ، ويتعبَ فيه التّاعبُ هو هذا النَّعيمُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ ودلالته:

لأهل الجنَّةِ مع بعضِهم لبعض حواراتٌ تترجم اغتباطَهم بفضل اللّه تعالى عليهم

فُصِلت جملةُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عن جملةِ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾؛ لِما بينهما مِن كمال الانقطاع؛ إذِ اللّاحقة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ إنشائيَّةٌ، والسابقة: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ خبريَّةٌ، والأولى من كلام العبدِ الصّالحِ، وقد تكون الثانيةُ "من كلام أهل الجنَّة بعضهم لبعض سرورًا بذلك، وقيل: هم يسألونَ الملائكةَ عنه، فيقولون: لا، فيقول أهل الجنَّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، والغريب: هذا مِن تمام كلامِ القرين"[2]، فقائلُ الكلامين - على ذلك - مختلِفٌ، فكان الفصلُ بينهما.

الغرضُ من (الهمزة) في: ﴿أَفَمَا نَحْنُ﴾:

مِنَ الأغراض البلاغيَّة للاستفهام التَّعبيرُ عن شدَّة الفرحة وعِظَم البُشرى

(الهمزة) في قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ استفهاميَّةٌ، غرضها تقريرُ المخاطَبين بتلك النِّعَم العظيمة، نعمةِ النَّجاة مِن معاناة الموت مرَّةً أخرى، ونعمةِ النَّجاة من عذاب الجحيم، الَّذي يقاسيه القرين الكافر ومَن على شاكلتِهِ، فـ "يقولونه على جهة التَّحدُّث بنعمةِ اللّهِ عليهم في أنَّهم لا يموتون،

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 138.
(2) الكرماني، غرائب التفسير: 2/ 975.

ولا يُعذَّبون؛ ليفرحوا بدوام النَّعيم لا على طريق الاستفهامِ الحقيقي؛ لأنَّهم قد علموا أنَّهم ليسوا بميِّتين ولا معذَّبين، ولكن أعادوا الكلامَ؛ ليزدادوا سرورًا بتكرارِه"[1]، وإلى ذلك ففي هذه الآية "استفهامُ تعجُّبٍ؛ يقولونها فيما بينهم فَرَحًا بذلك"[2]، "فإنَّ لِذكر الأشياء المحبوبة لذَّةً، فما ظنُّك بِذكر نعمةٍ قد انغمسوا فيها، وأيقنوا بخلودِها؟ ولعلَّ نظمَ هذا التَّذكُّر في أسلوب الاستفهام التقريريِّ؛ لِقصد أنْ يَسمع تَكَرُّر ذِكر ذلك حين يجيبه الرِّفاق بأن يقولوا: نعم ما نحنُ بميِّتين"[3].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿أَفَمَا﴾:

لا خلودَ ولا نعيمَ في الدُّنيا

(الفاء) في قوله: ﴿أَفَمَا﴾ عاطفة؛ إذ تعطفُ الاستفهامَ (أما نحن بميتين) على الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، و"الذي عَطَفَتْ عليه (الفاء) محذوفٌ، معناه: أنحن مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بِميِّتين ولا معذَّبين"[4].

نوع (ما) ودلالتها في قوله: ﴿أَفَمَا﴾:

سرورُ أهلِ الجنَّة يتضاعف بإحساسِهم بعدم تنغيصِ نعيمِهم بموت آخر

(ما) في قوله: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ نافيةٌ، حيث يريد أن يقرِّر مخاطَبَهُ بانتفاء عودةِ الموت عليهم - أهل الجنَّة - مرَّةً أخرى بعد موْتةِ الدُّنيا، وفي ذلك امتنانٌ واغتباط بنعمة اللّه تعالى عليه وعليهم بالتَّوفيقِ للإيمان والعظمة مِنَ القرين الشَّيطان، وتوبيخٌ للقرين الماثل في سواء الجحيم، واللّه تعالى أعلمُ بطريقة وصول التَّوبيخ إليه؟ ونَفَى المؤمن في الجنَّة أنْ يعاني المؤمنون موْتَةً أخرى غير موتة الدُّنيا؛ "تَبَجُّحًا، وابتهاجًا بما أتاح اللّه تعالى له من الفضل العظيم والنَّعيم المقيم، وتعريضًا للقرين بالتَّوبيخ، وجوِّز أن يكون هذا النَّفي

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 19.
(2) الكرماني، لباب التفاسير: 23/ 95.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 119.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 45.

من كلام المتسائِلين جميعًا، وأنْ يكونَ مِن تتمَّة كلام القائلِ؛ يُسمِع قرينَهُ على جهة التَّوبيخ له، واختير الأوَّل"[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ ﴿أَفَمَا نَحْنُ﴾:

آثرَ السّائلُ الفرِحُ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ دونَ الفعليَّة من مثل: (أفلَنْ نموت...)؛ وذلك لِما في الاسميَّة مِنَ الدَّلالة على دوام حياة النَّعيم التي لا تفارقهم، ولا يفارقونه، وفرقٌ بين دلالة الدَّوام بتأبيدِ (لن) - على مذهب مَن يقول به - وبين دلالةِ الدَّوام في الجملةِ الاسميَّة ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾؛ وذلك لاستصحابِ الفعلِ دلالةَ التَّجدُّد والتَّبدُّل وإن سلبتها (لن)؛ إضافةً إلى ما تتيحُهُ الجملةُ الاسميَّة من تقديم الضَّمير ﴿نَحْنُ﴾ من التَّنبيه على دلالةِ القَصْرِ، وأنَّ المؤمنين بخاصَّة دون الكافرين الجاحدين من يدومون على تلك الحالةِ السعيدةِ، بل إنَّ الكفّار في الجحيم يتمنَّون الموتَ الَّذي يسعدُ المؤمنون بعدم رجوعِهِ عليهم بعد ذلك أبدًا، فالتَّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ يقرِّر ذلك المعنى، ويثبِّته، ويمنحه صفةَ الدَّوام.

المؤمنونَ يدومونَ على حياة النَّعيم، التي لا تفارقُهم، ولا يفارقونها

نكتةُ النَّفي في قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾:

في تسليط النَّفي بـ (ما) على الضَّمير ﴿نَحْنُ﴾ تقريرُ ثِقَةِ المتكلِّم المسلم بأنَّهم هم بخاصَّة مَن يغتبطون بعدِم رجوعِ الموت عليهم مرَّةً أخرى، وهذا بمفهوم المخالفةِ يُعطي معنى قصرِ الإفرادِ، فقطع بأنَّ أهلَ الجحيم يتمنَّون الموتَ على الدَّوام، كما يسعدونَ هم بعدم رجوعِهِ عليهم أبدًا، فكأنَّه يقول: ما نحن بخاصَّة - دون هذا القرين وأمثالِهِ - بميِّتين مرَّةً أخرى.

الكفّارُ في عذابِهم يتمنَّون الموتَ، بينما يغتبطُ المؤمنونَ بعدمِ رجوعِهِ عليهم أبدًا

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِمَيِّتِينَ﴾:

(الباء) في قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ حرفٌ زائدٌ على أصلِ بِنيةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 90.

لا يوصفُ عنصرٌ لغويٌّ في القرآن بالزّيادة إلّا مقيَّدة بِقَيْد

الجملةِ الَّذي هو: أفما نحن ميِّتين، وفي زيادة حرف (الباء) دعمُ الحُكْمِ بعدم الموت مرَّةً أخرى، وتأكيدُ خلودهم في الجنَّة؛ تصديقًا بوعْد اللّه تعالى، وتقريعًا بطريق التَّعريضِ للقرين المعذَّب في سواء الجحيمِ، ولأنَّ لحرف (الباء) تلك الإضافةَ الدَّلالية المهمَّةَ لا يوصَفُ بالزيادة مطلقًا، بل بالزيادة المقيَّدة بِقَيْدِ (أصل البنية للجملة)؛ تنزيهًا لشيءٍ ورد في القرآن الكريم بالزيادة.

إيثارُ التَّعبيرِ بالموت دون الوفاةِ:

يخلو اسمُ الموتِ ممّا في اسم الوفاةِ مِنَ الدِّلالات

اصطفى النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ على لسان المؤمنِ السّائل بالموت في الخبر: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ دونَ التَّعبيرِ بالوفاةِ، ففي مادَّةِ (الوفاة) دلالاتٌ طيِّبةٌ، منها: الوفاء بالعهد، واستيفاء الحقوق، وتوفيتها أهلَها، إلى آخرِ تلك الدَّلالاتِ الممدوحةِ المرغوبةِ، والمضمونةِ بالنِّسبة لأهل الجنَّةِ.

أمّا الموتُ؛ فليس فيه تلك الإشاراتُ، بل فيه مِن ظلال الشِّدَّة والمعاناة ما يُكرَهُ، ويُحاذَر، وذلك ما يَقصد أهل الجنَّة - ومنهم المتكلِّم هنا - الاغتباطَ للنَّجاة منه.

لطيفةُ جمعِ (ميتين):

مُتعةُ المؤمنِ في الجنَّة أكملُ وأتمُّ بين أهل وُدِّه، وفيه استبشارٌ واعتزازٌ بهم

في التَّعبيرِ بصيغةِ الجمع في ﴿نَحۡنُ﴾، و(ميتين) مزيدُ اغتباطٍ وسعادةٍ برفقةِ الصّالحين؛ وذلك أنَّ مُتْعة المؤمن في الجنَّة المتنعِّم منفردًا لا تَبلُغ متعتُهُ بين أهل وُدِّه، وصُحبته من أهل الإيمان الأنقياء، كما أنَّ في صيغة الجمعِ اعتزازًا بهم وإعزازًا لهم، وتبشيرًا لهم واستبشارًا بهم.

معنى الاستثناءِ في ﴿إِلَّا﴾:

﴿إِلَّا﴾ في المؤمن: ﴿إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ منقطعةٌ؛ لأنَّ الموتةَ الأولى قد مضت، والنَّفي قبلها للموت المستقبل، والمعنى: ما نحن بميِّتين

بعد ذلك، بل هو الخلودُ الأبديُّ في رياض النَّعيم، أمّا الموتةُ الأولى؛ فقد انتَهَتْ، وصارت مِنَ الماضي، وكان لا بُدَّ منها، للانتقالِ من الحياة الدُّنيا إلى الحياةِ الأُخرى، "وعِلْمُهم بأنَّهم لا يموتون ناشئٌ مِن إخبار أنبيائِهم لهم في الدُّنيا، وإعلامهم إيّاهم بأنَّ أهلَ الجنَّة لا يموتون، أو مِن قول الملائكة ﷺ لهم حين دخول الجنَّة: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: 73]"(1).

عِلمُ أهلِ الجنَّة بعدم موتهم بإخبارِ أنبيائهم لهم

غرضُ التَّعبيرِ بـ﴿مَوْتَتَنَا﴾، والإضافة فيه:

الصّيغةُ القرآنيَّة للمفردة اللُّغويَّة متَّسقة مع الدَّلالة المقصودة منها أتمَّ الاتِّساق

عبَّر العبدُ الصالح - وهو في الجنَّة - باسم المرَّة (موتة) في قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، دون المصدرِ كما لو قيل في غير القرآنِ الكريمِ: (إلّا موتنا الأوَّل)، وذلك لِما في اسم المرَّة مِنَ الاتِّساقِ بين كونها موتةً واحدةً لا تتكرَّر عليهم أبدًا، وبين المقصودِ مِنَ الدَّلالةِ على أبديَّة البقاءِ في ذلك النَّعيمِ المقيم؛ فوافقَ اسمُ المَرَّة صيغةَ واقعِ الأمرِ حقيقةً.

وعرَّف النَّظمُ الكريمُ (موتة) بالإضافة إلى ضمير جماعة المؤمنين في قوله: ﴿مَوْتَتَنَا﴾ دون تعريفِها بـ (ال) كما لو قيلَ في غير القرآنِ الكريم: (إلّا الموتةَ الأولى)؛ وفي ذلك تمييزٌ لموتةِ المؤمنين بإضافتها إليهم دون إطلاقِها؛ لِخصوصها بما تمتازُ بهِ موتةُ المؤمنِ مِن اليُسرِ والإراحة دونَ عموم الموتات، كما جاء في الحديث الشَّريف: "إنَّ العَبدَ المُؤمِنَ إذا كانَ في قُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ وانقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا؛ جاءَهُ مَلَكٌ، فَجَلَسَ عِندَ رَأسِه، فَيَقولُ: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ إلَى مَغفِرَةٍ مِنَ اللَّه ورِضوانٍ، فَتَخرُجُ نَفسُهُ، فَتَسيلُ، كَما يَسيلُ القَطرُ مِنَ السِّقاءِ"(2).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 90.

(2) أبو داود، السنن، برقم: (4753)، وأحمد، المسند، برقم: (18557) باختلاف يسير، والنسائي، السنن الصغرى، برقم: (2001)، وابن ماجه، السنن، برقم: (1549) مختصرًا.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾، ونكتةُ الوصف بها:

الموتةُ الوحيدةُ الَّتي لا تتكرَّر في الدُّنيا

(ال) في الوصفِ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ للعهدِ الذِّهني، أي: الموتةُ المعهودةُ في أذهان النّاس جميعًا، ولا يختلفُ حولها اثنان منهم، وهي موتةُ الدُّنيا، ومفارقتهم إيّاها إلى البرزخ، أمّا توجيهُ الوَصف بـ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ فالمقصودُ بـ"الموتة الأولى: الموتةُ الوحيدةُ الَّتي لا تتكرَّر"[1]، "وتوصيفها بالأولى ليس لقصدِ مقابلةِ الثّانية، كما في قولك: حجَّ زيدٌ الحَجَّةَ الأولى، ومات، قال الإسنويُّ في التمهيد: الأوَّل في اللُّغة ابتداءُ الشَّيء، ثم قد يكون له ثانٍ، وقد لا يكونُ، كما تقول: هذا أوَّلُ ما اكتسبتُه، فقد تكتسب بعدَهُ شيئًا، وقد لا تكتسبُ، كذا ذكره جماعةٌ منهم الواحدي في تفسيره والزَّجّاج"[2].

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

شرٌّ مِن الموت الَّذي يُتمنَّى فيه الموتُ

(الواو) في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ عاطفةٌ، جمعَتْ بين جملتين مَنْفيَّتَيْنِ هما: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾، و﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، والمناسبة بينها جليَّةٌ؛ فالمتكلِّم واحدٌ على الرّاجح، وهو المؤمنُ في الجنَّة، ومهيع الكلام واحدٌ؛ فكلتا الجملتين منفيَّة، والمتحدَّث عنه فيهما يتعلَّق بالآخرة ومقدمتها باعتبار، "وعطف ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ ليتمحَّض الاستفهامُ للتَّحدُّث بالنِّعمة؛ لأنَّ المشركين أيضًا ما هم بميِّتين، ولكنَّهم معذَّبون، فحالُهم شرٌّ مِنَ الموت، وقد قيل لبعض الحكماءِ: ما شرٌّ مِن الموت؟ فقال: الذي يُتَمنَّى فيه الموتُ"[3].

دلالةُ تكرار ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾:

كَرَّرَ المتكلِّم المؤمنُ في الجنَّة أداةَ النَّفي (ما) داخلة على ضمير جماعتهم - هو ورفاقه المؤمنين - في جملة: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾،

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 860.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 124.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 119.

وكان يمكن عَطْفُ الخبرين على بعضِهما بعضًا، فيقالُ في غير القرآنِ الكريم: (فما نحن بميِّتين ولا معذَّبين)، غير أنَّه كرَّر هذا الأسلوبَ اغتباطًا بالخبرين في كلٍّ منهما على انفرادِه؛ إذ إنَّ كلًّا منهما مَكْرُمةٌ وحدَه، وفي تَعداد الأمور على استقلالها دعْمٌ لفكرتها، وإشادةٌ بقيمتها عند المتكلِّم، وإلى ذلك ففي هذا التَّكرارِ "استمرارُ النَّفي وتأكيده، واستمرار هذا النَّفي نعمةٌ جليلةٌ، وهو متضمِّن نفي زوالِ نعيمِهم المحكيِّ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١﴾ [الصافات: 41] الآيات، فإنَّ زوالَ النَّعيم نوعٌ من العذابِ، بل هو من أعظمِ أنواعِه، بل تَصوُّرُ الزَّوال عذابٌ أيضًا لا يَلَذُّ معه عَيْشٌ[1].

تضمُّنُ نفي زوالِ نعيمِ أصحابِ الجنَّة؛ إذ زوالُهُ نوعٌ مِنَ العذاب

وهذا التَّكرار "يكشف عن أمرين: أوَّلُهما: ما يجد أصحاب الجنَّة من نعيم عظيم لم يقع في تصوُّراتهم، ولم يطِفْ بخيالهم؛ فهُم يحرصونَ عليهِ أَشدَّ الحِرص، ويتمنَّون الخلودَ فيه، وقد وعدهم الله الخلودَ في جنّات النَّعيم، كما يقول سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]، وثانيهما: ما يراهُ أصحابُ الجنَّة أيضًا، مِن هذا العذاب الَّذي يلقاه أصحابُ النّار؛ فهم لِهذا يفزعون منه، ويَخشون أنْ يكون لهم نصيبٌ منه.

وقد أمَّنهم اللهُ شرَّ هذه الخواطرِ المزعجة، فكانت تحيَّتُهم من الملائكة دائمةً موصولةً، بقولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: 73] ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: 23 - 24]"[2].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾:

تأكيدُ استشعارِ منَّةِ الله عليهم

(الباء) في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ زائدةٌ على أصلِ البناء التَّركيبي للكلام؛ إذِ الأصل: وما نحن معذَّبين، فزيدتِ الباء دعمًا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 91.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 985.

لمضمون الخبرِ، وتقريرًا له، واستبشارًا واستشعارًا للمنَّة الرَّحمانيَّة ببَيانِ الفارق بين حالِهم وحال منكري البعثِ والحساب.

نكتةُ نفي المؤمنِ التَّعذيبَ عن أهل الجنَّة:

دَرْءُ الضَّرَرِ أهمُّ مِن جَلْبِ المنفعةِ

كان إنكارُ القرين الكافر للبعث بعد الموت والبِلَى في قولهِ لصاحبه المؤمن: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، أي: محاسبون مجزيّون بأعمالِنا، فجاء خبرُ المؤمن هنا دون إثباتِهِ التَّنعيم لهم في الخبر ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ اغتباطًا منه بنجاتِهِ ونجاة رفاقهِ في الجنَّة من عذاب القرين الكافر، ونفيُ التَّعذيبِ "يتضمَّن نفي الهَرَمِ واختلال القوَى الذي يوهمه نَفْيُ الموت؛ فإنَّ ذلك نوعٌ من العذاب أيضًا، وأنَّه إنَّما اختيرَ التَّعرُّض لاستمرار نفي العذابِ دون إثباتِ استمرارِ النَّعيم؛ لأنَّ نَفْيَ العذابِ أسرَعُ خُطورًا ببال مَن لم يُعذَّب عند مشاهدةِ مَن يُعذَّب، وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ درءَ الضَّررِ أهمُّ من جلب المنفعة"[(1)].

غرضُ التَّعبير بجملة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾:

مِن أدبِ المؤمنين تحاشي نسبةِ ما ظاهره الشَّرُّ إلى الله تعالى

في صوغِ جملة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ اسميَّةً لا فعليَّةً - كقول: (لن نعذب) - تأكيدٌ لدَيْمومتهم في النَّعيم، وبقائهم بمَنْجاة عن التَّعذيب أبدًا، وصيغةُ اسم المفعول في ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ تتحاشى نسبتهم التَّعذيبَ إلى اللّه تعالى، بل تتحاشى نسبةَ الأمرِ به إليه ﷻ، فَعَن رسولِ اللّه ﷺ أنَّه كان إذا قام إلى الصَّلاة؛ قال: "وَجَّهْتُ وجهيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّماواتِ والأرضَ حَنيفًا... والخَيرُ كُلُّهُ في يَدَيك، والشَّرُّ لَيسَ إليكَ"[(2)]، وذلك تمام الاتِّساق مع مقام الامتنانِ له ﷻ بنسبة تعذيبٍ يُصَبُّ على المؤمنين إليه ﷻ، ولو على سبيل اللَّفظ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 91.

(2) مسلم، صحيح مسلم، كِتَابُ صَلاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ: 1/ 525 برقم: (2011).

تصديقُ اللهِ كلامَ المؤمنين في الجنَّة، وحكايته خطابًا لرسولِ الله وأمَّته

دلالةُ موقعِ جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ عمّا قبلَها؛ لِما بينهما مِن كمال الانقطاع، فالسابقةُ منهما استفهام: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ واللّاحقة خبريَّةٌ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، والأولى مِن كلام المؤمنين أو بعضهم قطعًا في الجنَّة، والثانية من كلام اللّه تعالى؛ "تقريرًا لقولهم وتصديقًا له، وخطابًا لرسول اللّه وأمَّته، ويقوّي هذا قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، والآخرة ليست بدار عمَلٍ، ولا يناسب ذلك قول المؤمن في الآخرة إلّا على تَجَوُّز، كأنَّه يقول: لمثل هذا ينبغي أن يعملَ العاملون"[1]، وهذا ما رجَّحه ابنُ عطيَّة[2] وجمعٌ مِنَ العلماءِ؛ بناءً على عطاء السّياق الكريم.

إلهابُ التَّوكيدِ عزيمةَ مَن يتهاون في أعمالِ الآخرة

الغرضُ مِن توكيد الخبرِ في الآية:

أُكِّد الخبر في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لجلالهِ في ذاته؛ لأنَّ مِنَ الأخبار ما يؤكِّد وإن لم يوجد منكر، كما يقول ابن حجر العسقلاني: "وقد يكون التأكيد من جهة أنَّ القضيَّة في نفسها ممّا يُهتَمُّ به، وإن لم يكن هناك منكرٌ"[3]، وكذا جاء الخبرُ مؤكَّدًا ترغيبًا لنا هنا في الدُّنيا لِنخلص العمل؛ فمِنَ المؤمنين في الدُّنيا مَن يتهاون في أعمالِ الآخرة، كأنَّه يشكُّ فيها؛ فناسب التَّوكيدُ حال تكاسلِهم عن العملِ، وأنزلهم منزلةَ مَن ينكر تلك الحقيقة بأن: ﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ فيُلهب التَّوكيدُ عزيمتَهم على العمل، إضافةً إلى اقتضاءِ حال الكفار ذلك التَّوكيدَ حقيقةً.

العملُ للآخرة ميسورٌ لا مشقَّةَ فيه زائدة على طاقة العبد

وجهُ مرجعِ الإشارةِ في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾:

الإشارةُ في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ترجعُ إلى نعمةِ العِصمة مِنَ الكفر في الدُّنيا، ونعمةِ النَّجاة من الجحيم، ونعمة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 105.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 475.
(3) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.

الفوزِ بالجنانِ في الآخرةِ، أي: "لمثل هذه العاقبةِ الَّتي أعطينا نحن، وظفرنا بها، فليعملِ العاملونَ، لا لمثل ما فيه صاحبُهُ الَّذي في النار"(1)، أو أن تكونَ "الإشارةُ إلى ما أخبروا به من استمرارِ نفي الموتِ، واستمرارِ نفي التَّعذيب عنهم"(2)، ويدلُّ القُربُ في الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ على كونه خبرًا لطيفًا حبيبًا، وعلى أنَّ العملَ له ميسور لا مشقَّة زائدة فيه عن طاقة العبادِ، واللّه تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: 7].

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ﴾:

تأكيدُ الخبرِ القرآنيِّ بعدَّة تأكيدات تقرُّه؛ إذ لا يَشُكُّ فيه شاكٌّ

(اللام) في الخبرِ ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مفيدةٌ التَّوكيد، والمعنى: إنَّ هذا لهو الفوزُ العظيم، وبهذا يجتمعُ على تقرير هذا الخبر جملةُ تأكيداتٍ منها: ﴿إِنَّ﴾ في أوَّل الجملة، و(اللام) هنا، واسميَّة الجملة، وفي ذلك تقريرٌ لهذا الخبرِ الَّذي لا يَشُكُّ فيه بعدُ إلّا الجُهّال المخذولون، والعياذ باللّه.

نكتةُ بناءِ جملةِ الخبرِ على تقديم ﴿لَهُوَ﴾:

تصويرُ حُسنِ حال أهلِ الجنَّة بِحَصْرِ الفوز بما هم فيه

ممّا يدعمُ جلالَ هذا الخبر: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ويقرِّر صدقَهُ بِناؤُهُ على تقديم الضَّمير (هو)؛ إذ إنَّ تقديمَ الضَّمير يعطي دلالةَ القصرِ الحقيقيِّ التَّحقيقي ببنائه على تعريف الطَّرفين ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ﴾؛ فيقرِّر أنَّ عدمَ النَّجاة، والمعاقبة بالإقحام في سواء الجحيم هو الورطةُ العظمى والخسران المبين؛ لأنَّه ثمرةُ غضبِ الإله القهّار، وحين يغضب الجبّار تكونُ الجريمةُ شنعاءَ والذَّنب كبيرًا، أمّا المجازاةُ بالجنانِ؛ فثمرةُ رضوانِ الرَّبِّ الرحمن ﷻ؛ لذا فـ "قد أُبدع في تصوير حُسنِ حالهم بِحَصر الفوز فيه، حتّى كأنَّ كلَّ فوزٍ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 566.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 91.

بالنِّسبة إليه ليس بفوزٍ، فالحصرُ للمبالغة لعدم الاعتدادِ بِغيرِه، ثمَّ أُلْحِقَ ذلك الحصرُ بوصفهِ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾"[1].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾، ودلالة التَّعبيرِ به:

"الفوزُ: الظَّفَرُ مع حصول السَّلامةِ، أي: لهو السَّعادة والظَّفر بكلِّ المرادِ؛ إذِ الدُّنيا وما فيها تُحتَقَرُ دونَه، كما تُحتَقر القَطرةُ مِنَ البحرِ المحيط، والحبَّةُ من البَيْدرِ الكبير"[2].

الدُّنيا وما فيها بالنِّسبة إلى الفوز بالآخرةِ كالقَطرةِ مِن البحرِ المحيط

و(ال) في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ تعريفيَّةٌ عهديَّةٌ، تأخذ بالأذهان إلى ما وعَد اللّه تعالى به عبادَهُ الصّالحين من رضوانٍ وجنانٍ ونعيم مقيم في الآخرة، ممّا أفصحَتْ عنه الآياتُ السّابقات، وتستوعب (ال) هنا أرقى ما في صفات ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ الجدير بوصف الفوزيَّة من كمالات، وعبَّر به قصدًا دون (الفضل)، ممّا يجعلُهُ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ الكامل، الَّذي لا يُقاس به غيره مهما ظنَّه الظّانّون فوزًا.

سرُّ الوصف بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ بصيغة (فعيل):

لا فوزَ أعظمُ مِنَ الظَّفرِ بالنَّعيم الأبديِّ في دار السعادة

يَشترِط النَّظمُ الكريم في ذلك ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾؛ ليوفّي ذلك الرِّضوانَ وتلك الجنانَ بعد النَّجاة من النّيران حقَّه مِنَ البيان أنْ يكونَ موصوفًا بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ "الذي لا يُقادر قدرُهُ، ولا يمكنُ الإحاطةُ بوصفه"[3]؛ للدَّلالة على الصِّفات الثابتة والمستمرَّة، وللدَّلالة على المبالغة في الصِّفة، المعبِّرة عن الشَّيء الذي تناهى في العظمة.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾:

العمَلُ للآخرة سبيلُ الفوز العظيم، والعمل للدُّنيا سبيل الحسرة والنَّدامة

"هذا تذييلٌ لحكاية حالِ عبادِ اللّه المخلصين؛ فهو كلامٌ من جانب اللّه تعالى للتَّنويه بما فيه عبادُ اللّه المخلصون، وللتَّحريض على العمل بمثل ما عملوه ممّا أوجبَ لهم إخلاصَ اللّهِ إيّاهم"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 120.
(2) حقي، روح البيان: 7/ 463.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 456.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 120.

وهو كلامٌ "لأهل الدُّنيا، أي: قد سمعتم ما في الجنَّة مِن الخيرات والجزاء، فـ ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾"[1].

و(اللام) في قوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾ لامُ الأجْليَّة والعلَّة الغائيَّة، أي: فليكن عمَلُ العاملين مبتغيًا تلك الغايةَ الجديرة طامحًا إليها باذلًا الوسع لأجلها، متَّخذًا من رجائها وقودًا يُلْهبه، وأملًا يحتذوهُ، ورجاء يغذوه في سُبُل الوصول.

أمّا العملُ للدُّنيا، والحرص عليها؛ فقِصَرُ نظَرٍ وضَعْف همَّة؛ لا ينشغل به، ولا يحرص عليه إلّا الخائبون المخذولون، و"كلُّ سعيٍ إلى غير هذا المقام هو سعيٌ باطل، وكلُّ عملٍ لِغير هذا المنزِل هو عملٌ لا يُعقِب إلّا الحسرة والنَّدامة"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمثليَّة في قوله: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾:

العـمـلُ لمثل مكـافأةِ هـؤلاء جديرٌ، فالعمل له مباشرةً أولى

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمثليَّةِ في قوله تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾، أي: لـ "نظيره من نعيمٍ لمُخلِصين آخرين"[3]، وكان يكفي أن يقالَ في غير القرآن الكريم: (لِهذا فليعمل..)، غير أنَّ زيادةَ لفظ (مثل) توحي بِرِفْعَة شأنِ المشار إليه درجةً أخرى، وكأنَّ كلمةَ ﴿لِمِثۡلِ﴾ تقول: لا لِهذا فقط يعمل العاملون، بل لمثله فليعملوا، وكأنَّ ما كان على حَذوِهِ جديرٌ بالعملِ لَهُ، فهو المثال الأعلى الذي يجب أن يسعى إليه المؤمنون، ممّا يزيد التَّشويق والتَّحفيز، ويزيد من رغبتهم في العملِ الصّالحِ، فما الظَّنُّ بالعمل لـ (مثله)؟.

وجهُ مرجعِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، ودلالته:

تَكرارُ الإشارة إلحاحٌ على استحضار المشار إليه في الذِّهن للعناية به

سبقَ ذِكرُ الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ "يعني ما ذكره من قوله: ﴿لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١﴾ [الصافات: 41]، إلى قوله: ﴿بَيۡضٞ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 420.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 986.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 120.

﴿مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾ [الصافات: 49]، فليعملِ العاملون، وهذا ترغيبٌ في طلب ثوابِ اللّه بطاعته"[1]، وكان يمكنُ إعادتُها هنا بالإضمار، فيقال: (لمثله فليعمل العاملون)، غير أنَّ النَّظمَ الكريمَ آثر تَكرار الإشارة للمشار إليه نفسِه، فقال: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾؛ وذلك لزيادةِ تمييزِ المشارِ إليه، وهو التَّوفيقُ إلى الإيمان، والعصمة من الكفر وإنكار البعث، وفي هذه الإشارةِ إلحاحٌ على استحضارِ المشارِ إليه في الذِّهن، والعناية به والأخذ بأسبابه؛ ولذلك يكونُ البونُ شاسعًا بين النَّظم الكريم ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾، وبين قولنا: وله فليعمل العاملون.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَلۡيَعۡمَلِ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ تفريعيَّةٌ؛ إذ فرَّعت الأمر في جملة ﴿فَلۡيَعۡمَلِ﴾ على تقرير الفوزِ العظيمِ، والإخبار به عن نعمةِ اللّهِ تعالى، وتوفيقهِ للإيمان، وعصمته من الكفر والضَّلال.

دلالةُ (اللام) في ﴿فَلۡيَعۡمَلِ﴾:

اللّـه تعالى يُرشِدُ عبادَهُ إلى سبيل السَّعادة الأبديَّة، وينصحهم بالعمل له

(اللامُ) في: ﴿فَلۡيَعۡمَلِ﴾ لامُ الأمرِ النّاصح المرشد إلى سبيل السَّعادة؛ لأنَّ الأمرَ مبنيٌّ ومفرَّع على تأكيد أنَّ نعمةَ اللّه تعالى والفوز بها يتحقَّق بالعمل الرامي إلى الآخرة، والنّاظر إلى الرضوان والفوز بالجنان، والنَّجاة من جحيم النّيرانِ؛ لذلك كان غرضُ الأمر أوسعَ مِن مجرَّدِ التَّكليف بالعمل والإلزام به، وأنَّه "للإرشاد الصادق بالواجبات والمندوبات"[2]، والمقصودُ بالعمل في الأمر ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ أشملُ وأعمُّ، فيشمل العبادةَ القوليَّة والفعليَّة، البدنيَّة والماليَّة، وربط كلِّ عملٍ مهما كان دنيويًّا بنيَّة التَّقرُّب إلى اللّه تعالى، كما قال ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام: 162].

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 526.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 120.

الإسلامُ دين عالميٌّ، لا يُحابي أحدًا على أحد

معنى (ال) في ﴿ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾:

(ال) في الفاعل ﴿ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ لاستغراق الجنسِ، يفيد التَّوجُّه بهذا الأمر النّاصح إلى النّاس كلِّهم بالتَّكاليف الشَّرعيَّة، وتوجُّههم جميعًا إلى الإيمان باللّه تعالى، وأن يجتهدوا في أعمالِ الآخرة، وأن يجعلوا أعمالَهم كلَّها أخرويَّة، بإخلاص النّيَّة وتوجيه القصد إلى إرضاءِ اللّه تعالى، والمعنى: "لِمِثل هذا فليجتهدِ المجتهدون، مادام يمكنُهم الاجتهادُ، فإنَّ الدُّنيا دارُ عملٍ، والآخرةُ دارُ جزاء، فبِقَدْرِ ما يُزرَع هنا يُحصَد ثَمَّ، وسيندَم المفرِّط؛ إذا حان وقت الحصاد"[1].

الدّينُ الخاتم يخاطبُ الناس مسديًا النُّصح لهم جميعًا

نكتةُ التَّعبيرِ بالجناس الاشتقاقي في الآية:

في اشتقاق الفاعل ﴿ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ من لفظ الفعل ﴿فَلۡيَعۡمَلِ﴾ جناسٌ ناتجٌ عن تجانس لفظ مع آخر؛ لتشابههما أو ترابطهما في عنصر واحدٍ أو أكثرَ من عناصرها اللَّفظيَّة، مع اشتقاقهما من أصل لغويٍّ واحد، دون اشتقاق الفاعل هنا مِن لفظ الإسلام أو الإيمان، فيقال: (فليعمل المسلمون أو المؤمنون)؛ وذلك لِما سَبقَ مِن عدم اختصاصِ هذا النَّصِّ وتوجيهِهِ إلى المسلمين والمؤمنين فقط، بل توجيهه إلى كلِّ النّاس، فمِن خصائصِ الدّين الخاتم العموم، ومخاطبة كلِّ الناس، وإسداء النُّصح لهم، فمَن أخذَ به؛ فاز، ونَجا، وإلّا فإثمُهُ عليه.

عمومُ العملِ يحقِّق الفوز

الغرضُ من حذفِ مفعولِ (يعمل):

حُذِفَ مفعولُ الفعلِ ﴿فَلۡيَعۡمَلِ﴾، والتَّقديرُ: "يعملون الخيرَ، ويسيرون على ما خَطَّتْ لهم شريعةُ الإسلام، فحُذِف مفعول (يعمل) اختصارًا لِظهورِه من المقام"[2]، ولطيفةُ حذفِهِ إفادةُ العموم، أي: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ كلَّ أعمالهم، وليخلصوها للّه تعالى، فإنَّهم إن فعلوا ذلك؛ فازوا بذلك الفوزِ العظيم.

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 600.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 120.

علّةُ التَّقديمِ في ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾:

لِنَيْلِ الرِّضوان والجنان يجب أن يَعمل العاملون لها لا لغيرها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾ على الفعل والفاعل: ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾؛ لإفادةِ دلالةِ القصرِ، "أي: لنيل مثلِ هذا يجب أن يَعمل العاملون، لا للحظوظِ الدُّنيويَّةِ المشوبة بالآلام السَّريعة الانصرام"[(1)] "وهو قصْرُ قلبٍ للرَّدِّ على المشركين الذين يحسبون أنَّهم يعملون أعمالًا صالحة يتفاخرون بها من المَيْسر، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104]، والمعنى: لِنَوال مثل هذا، فحُذِفَ المضافُ لِدلالة اللّام على معناه"[(2)].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفوز والظفر:

الفَوزُ الظَّفر بالخير مع السَّلامة ونيل الحظِّ من الخير، والظَّفَرُ العُلوُّ على المنازِع

الفَوزُ: الظَّفرُ بالخير مع حصول السَّلامة، والظَّفَرُ هو: العُلوُّ على المُناوِئ المنازِع، قال اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24]، وقد يُستعملُ في موضع الفوزِ، يقال: ظَفَر ببُغيته، ولا يُستعمل الفوزُ في موضع الظَّفر، فلا يقال: فاز بِعدوِّه، كما يقال: ظفر بعدوِّه بِعينه، وأصله نيلُ الحظِّ من الخير[(3)].

العمل والفعل:

العمل أخصُّ من الفِعل وفيه الدَّأب، والفعل ما وُجد في حالٍ كان قبلها مقدورًا

عَمِلَ عَمَلًا: فَعَلَهُ، أو فعَلَهُ بنوعٍ من المشقَّة، أو فعَلَه بجوارحه، والعمل: المِهنةُ والفعلُ، أو هو أخصُّ من الفعل، والعمل: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ، يقال: فلانٌ يعمل الطّين خَزَفًا، ويعمل الخوصَ زَنبيلًا، والأديم سِقاء، ولا يقال: يَفعل ذلك، فالفعلُ عبارةٌ عمّا وُجد في حال

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 11.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 120.
(3) بيت الله بيات، الفروق اللغوية بترتيب وزيادة، ص: 340.

كان قبلها مقدورًا، سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: 96]، أي: خلقكم وخلق ما تؤثِّرون فيه بِنَحْتِكُم إيّاه أو صَوْغِكم له، وأصلُ العمل في اللُّغة الدَّؤوب، ومنه سُمّيتِ الراحلة يَعْمَلَة[1].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 377.

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨﴾ [الصافات: 62 - 68]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا انقضَتْ قصَّةُ المؤمنِ وقرينِهِ، وكان ذلك على سبيلِ الاستطرادِ مِن شيءٍ إلى شيءٍ؛ عاد إلى ذكرِ الجنَّةِ والرِّزق، الَّذي أعدَّه اللّه تعالى فيها لأهلها، فقال: (أذلك الرزق خير نزلا أم شجرة الزقّوم)؟[1].

القرآنُ الكريمُ يتابع بين قصص أهلِ النَّعيم وأهلِ الجحيم فتتجلَّى المفارقةُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّزُلًا﴾: (نزل) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ عَلَى هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه، ونَزَلَ عَن دابَّتِه نُزولًا، ونَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ نُزولًا[2]، والنُّزُل والنُّزْل: ما هُيِّئَ للضَّيفِ؛ إذا نَزَلَ عَلَيْه، ويُقالُ: إنَّ فُلانًا لَحَسَنُ النُّزْلِ والنُّزُلِ، أي: حَسَنُ الضِّيافَةِ، وقالَ الزَّجّاجُ في قَولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، أذلك خَيْرٌ في بابِ الأنزالِ الَّتي يُتَقَوَّت بها، وتُمكِن مَعَها الإقامة، أم نُزُل أهلِ النّارِ؟ وفي الحَديث: "اللَّهُمَّ إنّي أسألك نُزلَ الشُّهَداءِ"[3]، يُريدُ ما لِلشُّهَداءِ عِندَ اللّهِ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ، والمَنزِلُ والمَنزِلَة: مَوضِعُ النُّزول[4].

2) ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾: (زقم) يَدُلُّ عَلَى جِنسٍ مِنَ الأكلِ[5]، والزَّقّومُ: اسمُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 106.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).

(3) البزار، مسند البزار، مُسْنَدُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: 11/ 386، برقم: (5234)، وأخرجه الترمذي، السنن، برقم: (3419)، وابن خزيمة، الصحيح، برقم: (1119) باختلاف يسير.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زقم).

طعام للعرب قديمًا، فيه تمرٌ وزُبْدٌ، والزَّقْمُ: أكْلُه، فعَن ابن عبّاس رضي الله عنهما: لمّا نزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝﴾ [الدخان: 43 - 44]؛ قال أبو جهل: التَّمر بالزُّبْدِ نتزقَّمُهُ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

وأَزْقَمْتُهُ الشَّيءَ، أي: أبلعتُه إيّاه، فازدقمَهُ، أي: ابتلَعَهُ، والتَّزَقُّمُ: التَّلَقُّم[1]، فالزَّقّوم في الآية الكريمة: "أطعمةٌ كريهةٌ في النّار، ومنه استُعير: زَقَمَ فلانٌ، وتَزَقَّمَ؛ إذا ابتلع شيئًا كريهًا"[2].

3) ﴿فِتْنَةً﴾: (فتن) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى ابتلاءٍ واختبارٍ، مِن ذلكَ الفِتْنةُ، يُقالُ: فَتَنْتُ أَفْتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذَّهَبَ بالنّارِ؛ إذا امتَحَنْتُهُ، وهو مَفْتونٌ وفَتينٌ، والفَتّانُ: الشَّيطانُ[3]، والفتنةُ: ما يَفتِن، وأصلها: الاختبارُ، وهو المقصود هنا، ثمَّ استُعْمِلت فيما أخرجَهُ الاختبارُ إلى المكروهِ، ثمَّ استُعمِلَت في المكروه، وجاءت بمعنى: الكفرِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217]، وبمعنى: الإثْم، كقولِه تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: 49]، وبمعنى: الإحراقِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: 10]، وبمعنى: الإزالةِ، والصَّرف، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: 73]، وبمعنى: وقوعِ الشَّرِّ كسؤال عمرَ لحذيفةَ عن الفتنةِ، وبمعنى: المُشْغِلِ، لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، وبمعنى: المُعْجِب، كقولهم: فلانةٌ فتنَتْ فلانًا، وبمعنى: الآيةِ، كقولهِ عليه السلام: "أقبَلَتِ الفِتَنُ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِم"[4].

4) ﴿شَجَرَةٌ﴾: (شجر) أصلانِ مُتَداخِلانِ، يَقْرُبُ بَعْضُهُما مِن بَعضٍ، ولا يَخْلو مَعناهُما مِن تَداخُلِ الشَّيءِ بَعضِهِ في بَعضٍ، ومِن عُلوٍّ في شَيءٍ وارتفاعٍ[5]، والشَّجَرُ جمع الشَّجرة، وهو من النَّبات: ما له ساقٌ، يقال: شَجَرَةٌ وشَجَرٌ، نحو: ثَمَرَةٍ وثَمَرٍ، قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وقال: ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝﴾ [الواقعة: 52]، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝﴾ [الدخان: 43]، ووادٍ شَجيرٌ: كثيرُ الشَّجَرِ[6].

---

(1) الجوهري، الصحاح: (زقم).
(2) الراغب، المفردات: (نزل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(4) ابن المبرِّد، الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي: 2/ 218، والحديث في ابن حنبل، مسند أحمد: مُسْنَدُ المَكِّيِّينَ، حَدِيثُ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: 25/ 376، برقم: (15997).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(6) الراغب، المفردات، ص: 446.

5) ﴿أَصۡلِ﴾: (أصل) ثَلاثَةُ أُصولٍ مُتَباعِدٍ بَعضُها مِن بَعضٍ، أحدُها: أساسُ الشَّيءِ، والثّاني: الحَيَّةُ، والثّالِثُ: ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعدَ العَشيِّ(1)، والأصل: امتدادٌ في العمق يقوم عليه الشَّيء، ويمتدُّ منه إلى الأعلى، كقاعدَتي الجبلِ والحائطِ لهما، وجذرِ الشَّجرة لها، وتلك الأصلة لها قائمة تقوم عليها، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]، ومن ذاك: أَصْلُ كلِّ شيءٍ، أي: أسفلُهُ الَّذي يقوم عليه(2)، وقد ثَبت عَن العَرَبِ تَسْميَةُ النَّخْلِ شَجرًا، ومِنهُ حَديثُ الصَّحيحَيْن: "إنَّ مِن الشَّجر شَجَرَةً لا يَسقط ورَقُها، وإنَّها لمثلُ المُؤمن، أخبروني ما هيَ"، فَوَقع النّاس في أشجار البوادي، فَقالَ: "ألا وهي النَّخلَةُ"(3).

6) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: (جحم) عُظْمُها بِهِ الحَرارَةُ وشِدَّتُها، فالجاحِمُ: المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ(4)، والجحيمُ: اسْمٌ مِن أسماءِ النّارِ، وكلُّ نارٍ عَظيمَةٍ في مَهْواةٍ؛ فَهيَ جَحيمٌ، مِنهُ قولُهُ تَعالَى: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: 97]، وهي النّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّج، كَما أجَّجوا نارَ إبراهيمَ النَّبيِّ، عَلى نَبيِّنا وعليه السلام، فَهيَ تَجْحَمُ جُحومًا، أيْ: توقَّد توقُّدًا، وقالَ بَعْضُهُم: هوَ يَتجاحَمُ، أي: يتحرَّق حِرْصًا وبُخْلًا، وهوَ مِنَ الجحيم، وقَد تَكرَّرَ ذِكْرُ الجَحيم في غَيْرِ مَوْضِعٍ في الحَديث، وهوَ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، وأصلُهُ ما اشتَدَّ لَهَبُهُ مِنَ النّارِ، والجاحِمُ: المَكانُ الشَّديدُ الحَرِّ، وجحَمَ النّارَ: أوقَدها، وجَحُمَت نارُكم تَجْحُم جُحومًا: عَظُمت، وتأجَّجَتْ(5)، وليس في القرآن من التَّركيب إلّا (الجحيم)(6).

7) ﴿طَلۡعُهَا﴾: (طلع) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوضِعُ طُلوعِها(7)، والطَّلع: شَيءٌ يَخْرُجُ من النَّخْلِ كأنَّه نَعْلانِ مُطْبَقانِ، والحَمْلُ بينهما مَنْضودٌ، والطَّرَفُ مُحدَّدٌ، أو ما يَبْدو من ثَمَرَتِهِ في أوَّلِ ظُهورِها، وقِشْرُهُ يُسَمَّى: الكُفُرَّى، وما في داخِلِهِ: الإغْريضُ لبياضِهِ(8).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أصل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: 1/ 104، والحديث في البخاري، صحيح البخاري، كِتَابُ العِلْمِ، بَابُ الحَيَاءِ فِي العِلْمِ: 1/ 38 برقم: (131).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جحم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جحم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).
(8) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (طلع).

والطَّلْعُ يَطْلُعُ مِنَ النَّخْلَةِ، ثُمَّ يَصيرُ ثَمَرًا؛ إن كانَت أُنْثى، وإنْ كانتِ النَّخلةُ ذَكَرًا؛ لَمْ يَصِرْ ثَمَرًا، بَلْ يُؤْكَلُ طَرِيًّا، ويُتْرَكُ عَلَى النَّخْلَةِ أيّامًا مَعْلومَةً حَتَّى يَصيرَ فيهِ شَيْءٌ أبْيَضُ مِثْلُ الدَّقيقِ، ولَهُ رائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ، فَيُلْقَحُ بِهِ الأُنْثَى[1].

8) ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾: (ملأ) يدُلُّ على المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ، ومَلَأْتُ الشَّيءَ أمْلَؤُهُ مَلْئًا[2]، والمِلْءُ بالكسر: اسم ما يأخذهُ الإناءُ؛ إذا امْتَلأَ...، ومُلِئَ الرَّجلُ، وأمْلَأَهُ اللّه، أي: أزْكَمَهُ، فهو مملوءٌ على غير قياسٍ يحمل على مليءٍ[3]، فقوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾، أي: مُعَبِّئون منها البطونَ، وكذا فمُفسِدون منها البطون.

9) ﴿لَشَوْبًا﴾: (شوب) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الخَلْطُ، يقالُ: شُبْتُ الشَّيءَ أشوبُهُ شَوبًا[4]، فالشَّوبُ: الخَلطُ، قال اللّه تعالى: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وسُمّي العسلُ شَوْبًا إمّا لكونِه مزاجًا للأشربةِ، وإمّا لِما يختلطُ بِهِ مِنَ الشَّمعِ، وقيل: ما عنده شَوْبٌ ولا روبٌ، أي: عسلٌ ولبنٌ[5].

10) ﴿حَمِيمٍ﴾: (حمم) فيهِ تَفاوُتٌ؛ لأنَّهُ مُتَشَعِّبُ الأبواب جِدًّا، فَأحَدُ أُصولِهِ اسودادٌ، والآخَرُ الحَرارَةُ، والثّالِثُ الدُّنُوُّ والحُضورُ، والرّابِعُ جِنْسٌ مِنَ الصَّوْتِ، والخامِسُ: القَصْدُ[6]، حَمَمْتُ الماء، أي: سخَّنْتُه أحُمُّ بالضَّمِّ في جميع ذلك، وحَمَّ الماءُ، أي: صار حارًّا، وأحمَّه أمرٌ، أي: أهمَّه، واليحموم أيضًا: الدُّخان[7]، فالحميمُ: الماءُ الشَّديد الحرارة، قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: 15]، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وقيل للماء الحارِّ في خروجه من منبعِه: حَمَّةٌ، وروي: العالم كالحمَّة يأتيها البعداءُ، ويزهدُ فيها القرباءُ، وسمّي العَرَق حميمًا على التَّشبيه[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يسألُ اللّهُ تعالى كلَّ مَن له عقلٌ يتدبَّر: أيُّهما خير: ذلك النَّعيم المقيم في جَنَّة الخُلد

---

(1) الفيومي، المصباح المنير: (طلع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(3) الجوهري، الصحاح: (ملأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شوب).
(5) الراغب، المفردات: (شوب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمم).
(7) الجوهري، الصحاح: (حمم).
(8) الراغب، المفردات: (حمم).

مِن مآكل ومشارب، ممّا أُعِدَّ للمؤمنين من كرم الضّيافة وطيب المقامِ ومن صُحْبة صالح، أم معاناة العذابِ في سواء الجحيم، والأكل من شجرةِ الزَّقّوم، الَّتي جعلنا خبرَها في الدُّنيا امتحانًا للظّالمين، وجعلنا ثمرَها في الآخرة عقوبةً لهم، وما فيها من عذابٍ أليم، حيث تخرج في أصلِ الجحيم، ولها ثَمَرٌ يُشْبِهُ رُؤوسَ الشَّياطين قُبْحَ مَظهَرٍ ومرارةَ مَخبَر، فأهلُها يأكلونَ منها مجبَرين حتى تمتلِئَ بطونهم، ويُضاعفَ عليهم العذاب بالشُّرب مِنَ الماء المخلوطِ بالقيح والصَّديد، البالغ في الحرارةِ والغليان حدًّا لا يُطاق، وهم يدورون في العذابِ؛ إذ يتحوَّلون من سواءِ الجحيم إلى منازلِهم في النّار، ثم يعودون إليه مرَّةً ثانيةً، وثالثة، وهكذا إلى غير نهاية؟.

لا وجْهَ لِلمُقارنة بين نعيم جَنَّة الجنان، وجحيم النّيران

وترشدُ الآياتُ إلى التَّهكُّم بعقول هؤلاء الذين يفضِّلون عملَ الدُّنيا على عمل الآخرة، وإلى إقامة الدَّليل على ضلال الإنسانِ بالغاية الَّتي يؤول إليها أمرُهُ، بتفضيلهِ طريقَ أصحابِ الجحيمِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ جملة: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ "استئنافٌ بعد تمام قِصَّة المؤمنِ ورِفاقه؛ قُصِدَ منه التَّنبيهُ إلى البَوْن بين حالِ المؤمن والكافر، جرى على عادة القرآنِ في تعقيب القَصصِ والأمثال بالتَّنبيه إلى مغازيها ومواعظها"[2].

من عادة القرآنِ تعقيبُ القَصصِ والأمثال بالتَّنبيه إلى مقاصدِها

غرضُ الاستفهامِ بـ (الهمزة) في الآية:

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ استفهاميَّةٌ، مستعملةٌ في معنى التَّقرير، وذلك بوضع المخاطَبِ موضع المسؤولِ؛ ليجيبَ قاطعًا ومُقرًّا بخيريَّة (ذلك)، أي: ما سبق ذِكرُهُ من

المؤمنُ اختارَ ما أدّى إلى رزق الجنَّة، والكافر اختار ما أدّى إلى شجرة الزَّقّوم

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 143.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.

تفاصيل ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ والتَّعلُّق بها، ومَقْتِ شجرة الزَّقّوم والحذر منها، و"تقرير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين أحدُهما فاسدٌ، وقد جيءَ به "توبيخًا للكافرين، وتوقيفًا على سوء اختيارهم"،[1] وإلى ذلك فـ "الاستفهام مكنيٌّ به عن التَّنبيه على فضل حالِ المؤمن وفوزه، وخَسار الكافر، وهو خطابٌ لكلِّ سامع"[2].

مرجعُ الإشارةِ في (ذلك)، ودلالته:

الشَّيءُ النَّفيس الشَّريف يُتخيَّل عاليًا، والعالي يلازمُهُ البُعد عن المكان المعتاد

الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا﴾ راجعةٌ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١﴾ [الصافات: 41]، والقصَّةُ بينهما ذُكِرَتْ بطريق الاستطرادِ، فالإشارةُ إلى الرِّزق المعلوم[3]، ولطيفةُ ذِكر تفاصيل الرِّزق المعلوم بالإشارةِ؛ من أجل استحضارها مشاهَدةً أمام النّواظرِ متمايِزة جليَّة، في أيسر لفظٍ وأسرعِه؛ انتقالًا إلى ذِكر المعادِل المَقيت ليتجلّى بَوْن ما بينهما.

وآثرَ النَّظمُ الكريم إشارةَ البعيدِ في قوله تعالى ﴿أَذَٰلِكَ﴾؛ ليكشفَ عن عُلوِّ رُتبتها وسموِّ منزلتِها في الواقع، وفي نفوسِ الموفَّقين إليها بإيمانهم، ويَلفت إلى أنَّها غايةٌ لهم جليلةٌ، وأنَّ ظَفَرَهم بها هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّفضيلِ في الآية:

التَّوفيقُ إلى الإيمان، والظَّفَر بالجنانِ غايةٌ عليا ونعمة مِنَ الله تعالى جليلةٌ

مقصودُ المفاضَلَةِ بأفعل التَّفضيلِ ﴿خَيۡرٌ﴾ بين أمرين: أحدُهما لا خيرَ فيه ألبتَّة، والثاني: إظهارُ ما بينهما من شسوع، والتَّهكُّم بمَن يختار معدوم الخيريَّة، فأين شجرةُ الزَّقّوم ونُزُلُها من (ذلك) النَّعيم المقيم؟ فأفعل التَّفضيل ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "واردٌ على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء بِهم"[4]، وإنَّما

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 106.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.

(4) حقي، روح البيان: 7/ 464.

"جاء بلفظة التَّفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما مِن حيثُ كان الكلامُ تقريرًا"[1]؛ وذلك الأسلوبُ يُستعمل لِتنبيهِ الغافل إلى وجوب الاستمساكِ بخيارٍ واحد منهما؛ لِخُلوِّ الخيار الآخر مِن النَّفع بالمرَّة، بل وتمحُّضه للضُّرِّ والشَّرِّ، ومثالُه قولُ الوالد لولده: أنَجاحُك وتفوُّقك وفرْحةُ أهلك بك خيرٌ أم رسوبك وتخلُّفك عن زملائك وحزن أهلك؟ فالخيارُ الأوَّلُ هو الخيارُ قطعًا، والخيار الثاني هو البغيضُ الذي لا خيرَ فيه ألبتَّة.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿نُّزُلًا﴾:

لأهلِ الجنَّة نُزُلٌ حقيقةً، ولأهل النّار نُزُلٌ تهكُّمًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ مفردةَ ﴿نُّزُلًا﴾ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا﴾ دون (سَكَنًا)؛ لِما تَفْضُل به الأولى الآخرة؛ إذ السَّكَنُ لا يفيدُ أكثرَ مِن كونِه محلَّ السُّكْنى والإقامة، أمّا ﴿نُّزُلًا﴾؛ فتزيدُ على ذلك كرم الضّيافةِ الَّذي يُكرم، ويُحتفَى به؛ لذلك اصطفاها الذِّكرُ الحكيم على (السَّكن) لمقام التَّكريم حقيقةً وتهكُّمًا، حقيقة مثل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 198]، وتهكُّمًا مثل قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ [الكهف: 102].

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

مِن أساليب القرآنِ عَقْدُ معادلةٍ بين طرفَي الخير والشَّرِّ تهكُّمًا

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "حرفُ عطفٍ"[2] ومُعادَلَة، فهو يوازنُ بين طرفين في الخيريَّة: أحدهما: الإشارةُ ﴿أَذَٰلِكَ﴾، ومرجعها ﴿نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ بتَفاصيلها - كما سبق - والثاني: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، "ومعلوم أنَّه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيريَّة، إلّا أنَّه جاء هذا الكلامُ إمّا على سبيل السُّخريةِ بِهم، أو لأجلِ أنَّ المؤمنين لمّا اختاروا ما أوصلَهم إلى الرِّزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلَهم إلى العذابِ الأليمِ، فقيل لهم ذلك؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 475.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 276.

توبيخًا لهم على سوءِ اختيارِهم"[1]، وأين الثُّريّا مِنَ الثَّرى؟ كما يقول ابن عاشور[2].

فجاء "التَّفاضلُ بينَ النُّزُلَين للتَّوبيخ والتَّهكُّم، وهو أسلوبٌ كثيرُ الورود في القرآنِ، والحملُ على المشاركةِ جائزٌ"[3]، و"معنى معادِل الاستفهام إمّا أنْ يُقدَّر: أم منزل شجرة الزَّقّوم؟ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾ [مريم: 73]، فقد ذَكَر مكانين، وإمّا أنْ يُقدَّر: أَمْ نُزُلُ شجرة الزَّقّوم، وعلى هذا الوجه الثّاني تكون المعادلةُ مشاكَلةً تَهكُّمًا؛ لأنَّ طعام شجرةِ الزَّقّوم لا يَحقُّ له أن يُسمَّى نُزُلًا"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿شَجَرَةُ﴾:

ذِكـرُ البُـشـرى قـبـلَ الـحَـسـرةِ أكثرُ إيلامًا

إذا أُطلِقَ اسمُ ﴿شَجَرَةُ﴾؛ استبشرَتِ النُّفوس، وذهب الخيال إلى أجواء الظِّلال، والغناء بالثِّمار، والجمال، فإذا أُضيفت إلى ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾؛ حصلتِ المفاجأةُ الأليمةُ، وعادتِ البُشرى حسرةً، واستحالَت أجواءُ الخير كآبةً، وهذا من شأنِه غرسُ الكراهةِ لتلك الشَّجرة المفجعةِ، وألزمَتِ المسؤولَ بقولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ الإقرارَ بأنَّ ﴿أَذَٰلِكَ﴾ خيرٌ يا ربّي.

معنى (ال) في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، ودلالة الإضافة:

شجرة الزَّقّوم يقتاتُها أهلُ النّار، وهي مُرَّةُ الثَّمرِ، خشِنةُ اللَّمس، مُنتِنةُ الرّيح

(ال) في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ عَهْديَّةٌ؛ إذ "ذُكِرَتْ هنا ذِكْرَ ما هو معهودٌ مِن قَبْلُ؛ لِوُرودها مُعَرَّفةً بالإضافة، ولِوُقوعها في مقام التَّفاوُت بين حالَي خيرٍ وشرٍّ"[5]، فـ (ال) في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ تأخذ بالأذهان نحوَ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ المعهودة لديها، الغالبة عليها تلك الصِّفات الكريهة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 336.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 122.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 122.

المُخيفة، و"ظاهرُ لفظِ القرآنِ يدلُّ على أنَّها شجرةٌ كريهةُ الطَّعْم، مُنْتِنة الرّائحةِ، شديدةُ الخُشونةِ"[1]، والإضافةُ في ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "كأنَّها مشتقَّةٌ مِن الزُّقمة - بضم الزّاء وسكون القاف - وهو اسم الطّاعون، وقال ابنُ دريد: لم يكن الزَّقّوم اشتقاقًا من التَّزقُّم، وهو الإفراطُ في الأكلِ حتّى يكرهَهُ، وهو يريدُ الرَّدَّ على مَن قال: إنَّها مشتقَّة من التَّزقُّم، وهو البَلْعُ على جهد لكراهة الشَّيء"[2].

علَّةُ فصل جملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ﴾:

شجرةُ الزَّقّوم عذابٌ يلائم الظّالمين

فُصِلَتْ جملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ عن جملة: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؛ لِما بينهما مِن كمال الانقطاع، فالأولى منهما إنشائيَّةٌ، تخاطِب العقلاءَ خطابًا ظاهرُه الاستفهامُ، وباطنُه التَّقريرُ بخيريَّة أحدِ المُعادِلَيْن ونفيها عن الآخرِ، والجملة الثانيةُ خبريَّةٌ، تتضمَّن بيانَ مُهمَّة المعادِل منزوعَ الخير ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؛ لذلك فُصِلَ بينهما.

غرضُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ﴾:

قد يُؤكَّدُ الكلامُ لخطورة مضمونِه بغضِّ النَّظرِ عن وجود منكِر

أُكِّدَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لانتزاع إنكارِ المنكرين، أمثال القرين الكافرِ السّابقِ ذِكرُهُ في قول المؤمن في الجنَّة: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: 51 - 52]، فالخبرُ هنا إنكاريٌّ بهذا الاعتبار، وباعتبار آخرَ هو خبر يُنَزِّل عُصاةَ المسلمين مَنْزِلةَ المنكرين لمضمونه، فيؤكَّد لهم، وباعتبار ثالث هو خبرٌ خطيرٌ مرعبٌ، ومثله لا يُساق ساذَجًا غُفْلًا مِنَ التَّوكيد، وإنَّما يُلفَتُ إلى خطرِه بالتَّوكيد، ولا يُساق هكذا غُفْلًا، وقد قالوا في دواعي التَّوكيد: "وقد يَكونُ التَّأْكيدُ مِنْ جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهتَمُّ بِهِ، وإن لَمْ يَكُن هُناكَ مُنْكِرٌ"[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 336.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 123.
(3) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1/ 74.

الغرضُ مِن التَّقديمِ في: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا﴾:

جَعْلُ اللهِ العظيمِ (شجرة الزقوم) فتنةً للظّالمين دليل شناعةِ ظُلمهم

التَّعبيرُ بضميرِ العظمةِ في ﴿إِنَّآ﴾، ثمَّ تكرارُهُ فاعلًا في ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ ممّا يُضفي على فتنةِ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خطورةً، ويبثُّ في النُّفوس الشّاردة مِن جلالِ اللّهِ تعالى ما يكفُّهم عن الضَّلال، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الإيمانِ لو كانوا يعقلون.

فإسنادُ الجعلِ الصَّريح إلى ضميرِ العظمةِ يَحمل مزيدَ تهديدٍ، ويقرِّر أنَّه جعلَ صاحبَ الجبروتِ العظيم ﷻ النّاطق به ضمير العظمة: (نا) في جملة ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾، ممّا شأنُهُ جعْلُ المنكرين يَرْعَوون، ويتملَّكهم الفزعُ مِنَ العقوبةِ بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجعلِ ماضيًا:

كلُّ شيءٍ حصل إنَّما هو بإذنِ اللهِ تعالى وجَعْلِهِ، وما لم يأذن بهِ مِن شيءٍ لا يكون

سرُّ التَّعبيرِ بالجعل دون غيرِه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ في ملكوتِه تعالى، وكلَّ عملٍ يُعمَل في كونِه ﷻ إنَّما هو بإذنِ اللّهِ تعالى وتوفيقِه وجَعْلِه، وأنَّه تعالى ما لم يأذَنْ بشيءٍ مِن ذلك وغيره لا يكون، وفي صوغِ فعلِ الجَعْلِ ماضيًا في جملةِ: ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ إيحاءٌ بأنَّه قد تحقَّق، وتمَّ، وأنَّ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ تنتظرُ أصحابَها في جهنَّم منذ زمانٍ يعلم اللّه تعالى امتدادَهُ في الماضي البَعيد، كما قال ﷺ: "أوقِدَ عَلى النّارِ ألفَ سَنَةٍ حَتّى احمرَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى ابيَضَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى اسوَدَّت، فَهيَ سَوداءُ مُظلِمَةٌ"(1).

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فِتْنَةً﴾، ولطيفة تنكيرِها:

الفتنةُ تمحيصٌ في الدُّنيا، عذابٌ في الآخرة، وقدرةُ اللهِ تعالى مطلقةٌ

وجهُ الفتنةِ بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أنَّ كفّار قريش "قالوا: يخبركم محمَّدٌ أنَّ في النّار شجرةً، والنّار تحرق الشَّجرَ، و﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾ هو قولُ أبي جهل: إنَّما الزَّقّوم التَّمر والزُّبْدُ، فقال لجاريته: زقِّمينا،

(1) الترمذي، سنن الترمذي، أبواب صفة جهنم، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ نَارَكُم هَذِهِ جُزْءٌ مِن سَبعِينَ جُزءًا مِن نَارِ جَهَنَّمَ، باب منه: 25/ 91.

فزقَّمته"[1]، فـ "هذا شيءٌ بعيدٌ عن العرفِ والعادةِ مخالفٌ للمألوف والمعروف، فإذا وردَ على سمعِ المؤمنِ؛ فوَّضَ عِلْمَهُ إلى اللّهِ تعالى، وإذا وردَ على الزِّنديق؛ توسَّلَ بهِ إلى الطَّعنِ في القرآنِ والنُّبوَّة"[2]، "ولم يعلموا أنَّ مَن قَدَر على خلقِ حيوانٍ يعيش في النّار، ويتلذَّذ بها، أقدرُ على خلقِ الشَّجر في النّار، وحفظه مِنَ الإحراق، فالنّار لا تحرقُ إلّا بإذنِه، أو أنَّ الإحراقَ عندها لا بها"[3]، وأنَّ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ "لمّا كانَ أصلُ عنصرِها النّارَ؛ لم تُحرَق بها كسائر الأشجار، ألا ترى أنَّ السَّمكَ لمّا تَوَلَّد في الماءِ؛ لم يَغرقْ، بخلاف ما لم يتولَّد فيه"[4].

معنى (اللام) و(ال) في القيد ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ داعيةُ الفتنةِ في الدُّنيا، وسببُ العقوبة في الآخرة

(لام) الجرِّ في الظّالمين تفيد التَّخصيص؛ إذ إنَّ (الظالمين) هم مَن يُعاقَبون بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ في الآخرةِ، فهي ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهم ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وكذلك في الدُّنيا هم مَن يُهدَّدون بها؛ ولذلك يمكن تسميتُها لامَ الوعيد والعقوبة، أمّا المؤمنونَ؛ فمعصومونَ، موَفَّقون بتوفيق اللّهِ تعالى؛ لذلك فهُم يُبَشَّرون بالرِّضوان والجنان، ولا يُتَهَدَّدون، ويُتوَعَّدون بِظُلمِ فعلوه.

(ال) في (الظالمين) للاستغراقِ المحيط بكلِّ صنوفِهم، سواءٌ مَنْ كان ظالمًا لنفسِه بالكفر والمعاصي، أو ظالمًا لعبادِ اللّه تعالى بالاعتداء على حقوقِهم، أو ظالمًا للدّين بمحاربتِه، فكلُّهم ظالمٌ وإن كان أبشعُهم الكفّارَ والمشركين، إلا أنَّهم كلَّهم مهدَّدون في الدُّنيا؛ حتى يتوبوا، وكلُّهم معذَّبون بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ في الآخرة؛ إن لم يتوبوا؛ وذلك أنَّهم قالوا: كيف تكونُ في النّار شجرةٌ، وهي تُحرِقُ الشَّجرَ؟"[5].

---

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 142.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 337.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(4) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 86.

نكتةُ التَّعبيرِ بالظُّلم باسم الفاعل:

الكفرُ والشِّركُ أبشعُ الظُّلمِ

لتنوُّع صنوفِ الظُّلم آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ به هنا دون التَّعبيرِ بالكفرِ، وإلى ذلك ففي التَّعبيرِ بالظُّلم هنا تنبيهٌ إلى سببِ التَّهديدِ والوعيدِ في الدُّنيا، وسببُ التَّعذيبِ بـ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ في الآخرة، إلى ما في الظُّلم مِن بشاعةٍ في النُّفوس كلِّها.

وفي صوغ (الظالمين) اسمَ فاعلٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالةٌ على ترسُّخ الظُّلم في نفوسِهم، ودوامِهم عليه، وتطامنِهم إليه حتّى استمرؤوه، وما عادوا يستقبحونه، ولا يحاولون التَّخلُّص منه، وفي جَمْع (الظالمين) لَفْتٌ إلى كثرتهم، واتِّساقٌ مع نصوص الشَّرع الحنيفِ القاطعة بأنَّ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]، و﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

علَّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ﴾:

في استئنافاتِ القرآنِ وفاءٌ بمتطلَّبات ذهنِ المخاطَبِ وإن لم يسأل

فُصِلَت جملةُ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عن جملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّها وصف ﴿شَجَرَةٞ﴾ للاستئناف البيانيِّ، حيث يثيرُ الكلامُ السّابق سؤالًا عن تلك الشَّجرة الَّتي جعلها الله تعالى فتنةً للظّالمين ما هي؟ وأين منبتُها؟ فتأتي جملة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إلى آخرِه جوابًا عن هذا السُّؤال، وفي ذلك الجواب توجيهٌ ضمنيٌّ إلى ضرورة الوفاء بمتطلَّبات ذهن المخاطَب وإن لم يسألْهُ.

غرضُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ﴾:

الغرابةُ تقتضي التَّأكيد

أُكِّدَ الخبرُ في جملة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ لِغرابتِه؛ إذ لم تُعهَد شجرةٌ تنبُت في قاع النّار ووسطها، فإن كان المخاطَبُ مؤمنًا؛ حسُنَ توكيدُ الخبرِ له، وإن لم يكن مؤمنًا؛ وجب التَّوكيدُ.

سرُّ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ في الآية:

أظهَر النَّظمُ الكريم اسمَ ﴿شَجَرَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ

﴿تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، والقاعدةُ على إضمارِها بعد تقدُّم ذكرها صريحةٌ في قولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟ وبعد تقدُّم ضميرِها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، فأعاد النَّظمُ الكريم ذِكرها صريحةً دون ضميرِها لتجديدِ ذِكرها؛ فلا يبعُد العهدُ بها من جهةٍ، وللتَّنويه بغرابةِ مَخرَجها من جهة أخرى، وغرابةُ الشَّيء تقتضي الإلحاحَ على تَكرار ذكرِه، كما تقرَّر أنَّ بُعدَ العهدِ عن ذكرِ الشَّيء يقتضي إعادةَ ذكرِه.

غـرابـةُ الـشَّيءِ تقتضي الإلحاحَ على تَكرارِ ذِكرِه

سرُّ التعبيرِ بالخروج مضارعًا:

في إيثار التَّعبيرِ بالخروج دونَ الإنباتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ لشجرةِ الزَّقّوم إرادةً في الخروج للانتقام منهم، وأنَّها حانقةٌ على هؤلاءِ الظّالمين، وإن كان من معنى الخروج الإنباتُ، "كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58]"(1)، فمِن معاني الخروجِ في الذِّكر الحكيم أيضًا البروزُ والظُّهورُ، كقولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: 61]، فليسَ المنظورُ عندَهم الإنباتَ، بل الإظهار السَّريع والعطاء المباشر، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ [البقرة: 74]، وقوله: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾ [النساء: 100] وقوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95]، وقوله: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ [طه: 22]، كذا من معانيهِ التَّحويل مثل قولِه تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1]، وصيغةُ المضارعة في الفعل ﴿تَخۡرُجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تَلفت إلى تَجدُّد خَنَقِ شجرة الزَّقّوم، وأنَّها تُجدِّدُ طَلَعَها كريهَ المظهر والمخبر والشَّكلِ والطَّعم، وأنَّها لا تَبْلَى، ولا تتوقَّف عن الخروج، بل تتجدَّد، ويتجدَّد قُبحها، ويتفاقم على أهل الكفر ضرُّها.

وسائلُ تعذيبِ الـظّـالـمـين فـي الآخـرة تَـحـنـق عليهم وتُبغضهم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 123.

معنى ﴿فِيٓ﴾ ودلالتها في ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

الجحيمُ يُحيطُ بالكفّار إحاطةَ الظَّرفِ بمظروفِهِ

﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ حرف للظَّرفيَّة، يُقرِّر أنَّ مبدأ شجرةِ الزَّقّوم من داخل الجحيم، وأنَّها منبثقةٌ من أصلِ جهنَّم، وأنَّ الجحيم يُحيط بها إحاطة الظَّرف بمظروفه، وأنَّ العذابَ يشتمل على الكافرِ اشتمالَهُ على ذلك القرين الكائنِ في ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وأكلُهُ مِن تلكَ الشَّجرةِ الَّتي منبتُها ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وليس ذلك إلّا معاناةً، ولا منه مهربٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصۡلِ﴾، ونكتة إضافته:

المؤمنُ يفوِّض عِلْمَ ما لا يفهمُهُ مِنَ الدّين إلى اللهِ تعالى

يدلُّ التَّعبيرُ هنا بـ ﴿أَصۡلِ﴾ على رُسوخِ تلك الشَّجرةِ، وتلك الأصلةُ لها قائمةٌ تقوم عليها[1]، فـ"منبتُها في قعرِ النار، وأغصانُها ترتفع إلى دركاتها"[2]، والمقصودُ بذكرِ أصلِها "وصفُها لهم؛ لاختلافهم فيها، وليُعلِمَهم جوازَ بقائِها في النّار؛ لأنَّها تنبت من النّار"[3]، و"تَحْيا بلَهَبِ النّار، كما تحيا الشَّجرة ببَرْدِ الماءِ، فلا بُدَّ لأهلِ النّارِ من أنْ ينحدرَ إليها منهم مَن كانَ فوقَها، فيأكلونَ منها، وكذلك يَصعد إليها مَن كان أسفل"[4]، "ومِن عجيبِ قدرةِ اللّٰهِ تعالى أنْ جعلَ مِنَ النّار شجرةً، وهي ناريَّةٌ لا محالةَ... وتقريبُ ذلكَ ما يُصَوَّرُ في الشَّماريخ الناريَّة مِن صوَرٍ ذات ألوانٍ كالنَّخيلِ ونحوه، وجعل لها طلعًا، أي: ثمرًا"[5]، و"لا حرج على قدرةِ اللّٰهِ تعالى أن ينبتَ هذا النَّوع من الشَّجر في أصلِ الجَحيم، بأن يجعلَ في تركيبِهِ كيمياء خاصَّة تمنع احتراقَهُ بالنّار، وتجعل النّارَ غذاءً لَهُ، وكم للّٰه مِن عجائبَ، منها: أنَّ اللّٰه تعالى جعلَ النّار على إبراهيمَ بردًا وسلامًا"[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أصل).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 51.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 85.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 123.
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 422.

سِرُّ إيثارِ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ هنا:

(الجحيم) هو المناسبُ لـ (أصل) الَّذي تخرجُ منه (شجرة الزقّوم)

وردَ في القرآنِ الكريمِ مِن أسماءِ النّار: جَهَنَّم، الجحيم، لَظَى، السَّعير، الحُطَمة، الهاوية، سقر[1]، والَّذي يلائم الـ ﴿أَصْلِ﴾ منها هو ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾؛ لأنَّ الجحيمَ نارٌ على نارٍ، وجمرٌ على جمرٍ[2]، وكلُّ نارٍ عَظيمَةٍ في مَهْواةٍ؛ فهي جَحيمٌ، والنّارُ الشَّديدة التَّأجُّج وما اشتَدَّ لَهَبُه مِنَ النّارِ جحيمٌ، وما عَظُمَ، وتأجَّجَ جحيمٌ[3]؛ فلذلك كان المناسب للـ ﴿أَصْلِ﴾ الذي تخرجُ منهُ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

موقعُ جملةِ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ﴾ ودلالتُه:

جملة: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ صفةٌ لشجرة في قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وفي الصِّفة جملةُ تشنيعٍ وتبشيعٍ لهذه الشَّجرةِ.

علّةُ التَّعبيرِ بـ(طلع):

في تَسْمِيَةِ ثَمَرِ (شجرة الزقوم) طلعًا تهكُّمٌ بالكفار

حين يُطلَقُ اسمُ (الطَّلْع) يَنْبعثُ على البُشرى في النَّفس؛ لأنَّه نَوْرُ النَّخلة الَّذي يصير تمرًا ورطبًا بعد ذلك؛ فإذا أُضيف إلى ضمير شجرةِ الزَّقّوم في ﴿طَلْعُهَا﴾؛ كان وقْعُ المفارقةِ فاجعًا، وصارت الدَّلالةُ إلى التَّهكُّم بالكفّار؛ إذ إنَّه طعامُهم في سواء الجحيم، وأصلُهُ: طلعُ النَّخل، وهو أوَّل ما يبدو، وقبل أن تَخرج شماريخُهُ، أبيضُ غضٌّ، مستطيلٌ كاللَّوز، سُمّي به حَمل هذه الشَّجرةِ؛ لأنَّه يشابهه في الشَّكل أو الطُّلوع، ولعلَّه الأولى لِمكان التَّشبيه بعدُ، فيكون استعارةً تصريحيَّةً، أو لاستعمالهِ بمعنى ما يطلع مطلقًا، فيكون مجازًا مرسلًا[4].

(1) اللّبَابيدي، معجم أسماء الأشياء، ص: 63.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 278.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جحم).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.

براعةُ التَّعبيرِ بـ ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ﴾:

بناءُ التَّشبيهِ المعقودِ بـ (كأنَّ) على صريح اسم المشبَّهِ يُكثِّف لطائفَهُ

آثرَ النَّظمُ الكريم بناءَ جملةِ: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ على تقديم الاسم الظّاهر (طلع) مضافًا إلى ضمير: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ دونَ تصديرِ أداة التَّشبيه، فيقال: (كأنَّ طلعها...)؛ وذلك لِما يحقِّقه التَّركيبُ القرآنيُّ مِن جملة دلالاتٍ بارعةٍ هي مِن آيات إعجازِه، منها: تصديرُ وصْفِ التَّهكُّم (طلع)، ومنها: إعادة ذِكر (الطَّلع) مرَّتين: مرَّةً بالإظهارِ في ﴿طَلۡعُهَا﴾، ومرَّةً بالإضمار بعد (كأن)، فيتحقَّق للتَّشبيه بـ (كأنّ) شرطُهُ مِن دخولِها على المشبَّهِ به، ومنها: التَّنبيهُ إلى خطورةِ ﴿طَلۡعُهَا﴾ بِتَكرارِه، ومنها: تقريبُ الشَّبه بالرَّبْطِ بين المشبَّهِ ضميرِ الطَّلع المتَّصل بـ (كأنّ)، والمشبه به: ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ دون إبطاءٍ بإدخالِ (كأنّ) على ضميرِ (طَلْع).

نكتةُ إضافةِ (طلع) إلى الضَّمير:

الإضافةُ تضفي مِن صفاتِ المضافِ إليه على المضافِ

في إضافةِ (طلع) إلى ضمير شجرةِ الزَّقّوم في قوله: ﴿طَلۡعُهَا﴾ إيحاءٌ بأنَّه (طلع) من نَوْعٍ كريهٍ، يختصُّ بتلك الشَّجرة البغيضة، فلا يمكن تصوُّرُ قبحِهِ ولا شدَّة ضررِه، ممّا يغرس له في النُّفوس حَذَرًا ورعبًا، ويُسهم في استبشاع النفوس إياه، وتلافي اقتراف أسباب العقوبة به.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رُءُوسُ﴾:

الرَّأسُ مَجْمَعُ الحواسِّ وموضِعُ الأفكارِ ومنه يبتدر الخيرُ والشَّرُّ

لَمّا كان الرَّأس مَجْمَعَ الحواسِّ، وفي ظاهرِه تجتمعُ الأعضاء البادي عليها أماراتُ الحُسن أو القُبح، وفيه يستقرُّ الذِّهن، الذي يبدع الخيرَ والشَّرَّ، والذي هو موضعُ الفكرِ؛ كان الرَّأس مِن الشَّيطان أخبثَهُ، وكان منه أخطرَهُ، فناسب في مقام التَّرهيب والتَّحذير مِن خطورةِ ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ إلحاقُها بِرُؤوسِ الشَّياطين؛ تنبيهًا إلى تكاثُفِ الشَّرِّ فيه حسًّا وعقلًا، وذلك يعكس مُفاقَمَةَ العقوبةِ على الكافرين المنكرين للبعثِ والحسابِ بإطعامِهم ثَمَرًا يشبهُهُ.

و"فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن كان هاهنا معلوماتُه في قُبْحِ صفاتِ الشَّياطين تكونُ هناك مكافأتُه في قُبح صورة الشَّياطين... وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا لها في مزرعةِ الدُّنيا زارعين، فما حصدوا إلّا ما زرعوا"[1].

وفي جمع ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في المشبَّه بِهِ مِنَ التَّشبيه ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تكثيفٌ لظلال الصّورةِ المستبشَعَةِ، وتكثيرٌ للشَّرِّ في ثمار شجرةِ الزَّقّوم الخارجةِ مِن ﴿أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لذا آثرَ النَّظمُ الكريم جمع ﴿رُءُوسُ﴾، و﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ دون الإفرادِ، ولو قال: طلعها كأنَّهُ رأسُ الشَّيطان؛ لَمَا كان للصّورة مِنَ الرهبةِ والحَذَرِ ما لِقولِهِ: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

معنى (ال) في ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، ونكتة الإضافة:

في ثَمَرِ شجرةِ الزَّقّوم الشَّرُّ والضُّرُّ ما في رأس الجنس الأخطر من الشّياطين

(ال) في ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ عهديَّةٌ، على أنَّ الشجرة المذكورة في الآية السابقة من شجر يقال له الصَّوَمُ، فعلى هذا قد خوطب العربُ بما تعرفه، وهذه الشجرةُ موجودة، فالكلام حقيقي[2]، أو هي لتعريف ماهية الجنس[3]، فتأخذُ بالأذهانِ نحو الأخطرِ من ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، الذين حذَّرَتْ منهم نصوصُ الدّين الحنيفِ، وأبانَتْ عن شدَّة عداوتِهم للإنسانِ، وخُبْثِ محاولاتِهم الإيقاع به، ومنعه مِن الإيمانِ باللّهِ تعالى واليوم الآخرِ، وذلك في المشبَّه بِهِ ممّا يكشف في المشبَّه مزيدًا من التَّرهيب والتَّهديد.

بلاغةُ التَّشبيهِ في جملة: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾:

التَّمثيلُ بما يُسْتَقْبَحُ أبلغُ في باب المُذكَّرِ يُمَثَّلُ بالشَّيطان

شَبَّه البيانُ القرآنيُّ الكريم ثمرَ شجرةِ الزَّقّوم برؤوس الشَّياطين، وفي ذلك "دلالةٌ على تَناهيهِ في الكراهةِ وقبحِ المنظرِ؛ لأنَّ الشيطانَ مكروهٌ مستقبَحٌ في طباعِ النّاس؛ لاعتقادِهم أنَّه شرٌّ

(1) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 315، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 282.
(3) قباوة، المفصل، ص: 1600.

مَحْضٌ لا يخلطُهُ خيرٌ، فيقولون في القبيحِ الصّورة: كأنَّه وجهُ شيطانٍ، كأنَّه رأسُ شيطانٍ، وإذا صوَّرَهُ المصوِّرون؛ جاؤوا بصورتِهِ على أقبحِ ما يُقَدَّرُ وأهوَلِه"(1).

و"التَّمثيلُ بما يُسْتَقْبَحُ أبلغُ في باب المذكَّرِ يُمَثَّلُ بالشَّيطان، وفي باب ما يُسْتَقْبَحُ في المؤنَّث يشبه بالغولِ"(2)، فـ"شُبِّهَ طَلْعُ تلك الشَّجرة بِرُؤوسِ الشَّياطين لِفضل إنكارهم وبغضِهم إيّاها حقيقةً، وفي ذلك آيةٌ عظيمةٌ لرسالتِهِ ﷺ؛ لأنَّهم لم يرَوا الشَّياطين ببَصرِهِم، ولا عرفوهم معاينةً، وإنَّما عرفوهم بأخبارِ الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وبها استنكروها، واستقبحوها، وهم قومٌ لا يؤمنون بالرُّسل عليهم السلام، فإذا قبلوا أخبار رُسُل اللّه تعالى فيهم؛ لزمهم أن يقبلوا قولَهم في الرِّسالة، وفي جميع ما أخبروا، واللّه أعلم"(3).

ولأنَّ "هذه الصِّفات التي وُصِفَتْ بها ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ بالغةٌ حدًّا عظيمًا من الذَّمِّ... عُبِّر عنه بالملعونةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 60]، وكذلك في آية ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: 43 - 46]"(4).

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَإِنَّهُمْ﴾:

تصويرُ النَّهَمِ وشراهةِ الأكلِ بفعلِ الألمِ والحرِّ الشَّديد

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ تفريعيَّةٌ؛ إذ تُفَرِّعُ أكلَهم من شجرةِ الزَّقّوم "على جعلها فتنةً، أي: محنةً وعذابًا للظّالمين"(5)، وتُقرِّر توفُّرَ أسبابِ النَّهَم عند هؤلاءِ بفعل الألم والحرِّ الشَّديد، فلا تَكفُّهم مرارةُ شجرةِ الزَّقّوم ولا معاناة تجرُّعها؛ حتى يملؤوا منها بطونَهم، كمَن يستغيثُ مِنَ الرَّمضاء بالنّار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 46.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 306.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 567.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 124.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 93.

غرضُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ﴾:

في تأكيداتِ الأخبارِ القرآنيَّةِ مِن الإنذارِ لمن يعقلُ ما يكفي للفرارِ إلى الإيمانِ

توكيدُ أكلِ الكفّارِ في الجحيمِ مِن طَلْعِ شجرةِ الزَّقّومِ في جملة: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ مِن مقتضيات الخبرِ؛ إذ يُستبعَدُ في الطَّبعِ السَّليمِ الأكلُ مِن ثمرةِ تلك الشَّجرةِ الملعونةِ الخبيثةِ، فأكَّدت (إنَّ) أكْلَهم منها إلى درجة مِلْءِ البطون، وذلك التَّأكيد من باب الإنذارِ الكافي لمن لديه قدْرٌ من عَقْلٍ لأنْ يَفِرَّ مِنَ الكفرِ إلى الإيمانِ، ولكن سبحان مَن له في خَلقِه شؤونٌ!

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ ودلالته:

في طيِّ ذِكرِ الأشرارِ في ضميرِ الغَيبةِ إهمالٌ لشأنِهم

ضميرُ الغائبينَ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ﴾ يرجعُ إلى (الظالمين) المذكورين في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾، وقد طويَ ذِكرُهم بضميرِ الغائبينَ إبعادًا لهم، وإهمالًا لشأنِهم؛ لأنَّهم ليسوا جديرين بإظهارِ اسمِهم مرَّةً أخرى.

معنى (اللام) في الخبرِ ﴿لَأٓكِلُونَ﴾:

(اللام) في قولِه: ﴿لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ هي المزحلقة مفيدة التَّوكيد، والمعنى: فإنَّهم لآكلونَ منها، وداعي توكيدِ الأكل مِن تلك الشَّجرةِ - إضافةً إلى خُبْثِها - أنَّها تَخرجُ في أصل الجحيم.

سرُّ التَّعبيرِ بالأكل باسمِ الفاعلِ:

في التَّعبيرِ بالأكلِ وملْءِ البطونِ تصويرٌ للدَّناءَةِ المُزريةِ بأصحابِها

التَّعبيرُ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ يدلُّ على تفاقُم الضَّرورة الداعيةِ لَهم إلى ذلك الأكلِ الاضطراريِّ المَقيتِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالأكلِ يَستلزم اطِّرادَ العادةِ ورَتابَةَ الحَدَث، وكأنَّهم صاروا في سواء الجحيم إلى هذا الحالِ الأليم، الدّائم عليهم إلى غير نهايةٍ، وصوغُ الأكلِ اسمَ فاعلٍ يَدعم تلك الدَّلالةِ، فـ ﴿لَأٓكِلُونَ﴾ يَدلُّ على دوام هذا الحالِ، واعتيادِهم إيّاه، حتى صارَ (أكلًا)، إلى ما في الأكلِ وملءِ البطونِ مِن تصويرٍ للدَّناءَةِ المزريةِ بأصحابِه.

معنى (مِنْ) في القيد ﴿مِنۡهَا﴾:

الكفّار يبتدِئون الأكـلَ مِـن ثمرِ الزَّقّوم المؤذي، وبعضه كافٍ في مَلءِ بطونِهم

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ "ابتدائيَّةٌ، أو تبعيضيَّةٌ"[1]، تدلُّ على وفرة طلعها المُرِّ وثمرِها الكريهِ، حتى إنَّ بعضَها لكافٍ في ملءِ بطونِهم، وفيها إشارةُ الابتدائيَّة؛ إذ يبتدَئون الأكل ﴿مِنۡهَا﴾، ثم يشربون على ما أكلوهُ من الحَميم المخلوطِ بالأقذارِ، كما تُفيدُهُ كلمةُ (شوب)، فيما سيأتي قريبًا إن شاء اللّه تعالى.

نكتةُ التَّقييدِ بـ﴿مِنۡهَا﴾، ولطيفة التَّكرار:

شجرةُ الزَّقّوم طعامُ الكفّار الوحيد أو الأغلب في الآخرة

في تقييدِ أكْلِ الكفّارِ مِن ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ بالجار والمجرور ﴿مِنۡهَا﴾، وتكرارِهما في قولِه تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ إلحاحٌ على أنَّها طعامُهم الوحيدُ، ويدعَمُ ذلك تقديمُ القيد ﴿مِنۡهَا﴾ على المفعول في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾، أي: مالئون منها لا من غيرها البطون، وفي الحديث الشَّريف يقول رسولُ اللّه ﷺ: "أيُّها النّاسُ اتَّقوا اللّه، ولا تموتُنَّ إلّا وأنتُم مُسلِمونَ؛ فَلو أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقّوم قَطَرَتْ في الأرضِ؛ لأمَرَّتْ عَلى أهلِ الدُّنيا مَعيشَتَهُم، فَكيفَ بِمَن هو طَعامُهُ وشرابُهُ مِنهُ لَيسَ لَهُ طَعامٌ غَيرُهُ"[2].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

الجوعُ يَستبدُّ بالكفّار في النّار مهما أكلوا من الزَّقّوم؛ فلا تكُفُّهم مرارته، ولا حرارته

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾: "فاءُ التَّفريع، وفيها معنى التَّعقيب، أي: لا يلبثون أن تمتلِئَ بطونُهم مِن سرعةِ الالتقام، وذلك تصويرٌ لكراهتها فإنَّ الطَّعام الكريهَ كالدَّواء إذا تناوله آكِلُهُ؛ أسرع ببلْعِه، وأعظَمَ لَقْمَهُ؛ لئلّا يستقرَّ طعمُهُ على آلةِ الذَّوق"[3]، كما تفيد (الفاء) أنَّ الجوعَ يَستبدُّ بهم، وأن النَّهَمَ يَتملَّكُهم؛ إذ إنَّ إيذاء بعضِ الزَّقّوم لا يكفُّهم، ولا توقفهم مرارة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 92.

(2) أحمد، المسند، برقم: (2735)، والترمذي، السنن، برقم: (2585)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (11070)، وابن ماجه، السنن، برقم: (4325)، باختلاف يسير.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 125.

الأكل منه، ولا حرارته، ولا غُصَّتُه، ولا غيره من خصائصِ ثمار تلك الشَّجرة الملعونة، وإنَّما يتمادَوْنَ فيه وبِنَهَمٍ وسُرعة إلى أنْ تُملئَ منهم البطونُ.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

أكْلُ الكفّارِ من الزَّقّوم بابُ عذابٍ، وهو مفسدٌ بطونَهم

يدلُّ التَّعبيرُ بِالمَلْءِ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ على دلالتَين متوازيتَين: الأولى: بلوغُهم في الأكل حدَّ تعبئةِ البطونِ، حتّى لا يجدوا متَّسَعًا للتَّنفُّس، والثانية: إفساد هذا الأكلِ بطونَهم، وذلك أنَّ مِن معاني المادَّة اللُّغويَّة لـ (مالئون) التَّزكُّم، ففي مفردة (مالئون) معنى (مفسدون)، ولا شكَّ أنَّ فسادَ البطونِ واردٌ، بل حتميٌّ لمثل هذا الطَّعام الضارِّ.

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعل في: ﴿فَمَالِـُٔونَ﴾:

ملءُ الكفّار من الزَّقّوم لا شكَّ فيه، وهو ثابتٌ دائمٌ لا ينقطع

التَّعبيرُ بالخبرِ الاسم (مالئون) دونَ الفعلِ (فيملَؤون)، يقطع بثُبوت ملئِهم بطونَهم مِن شجرةِ الزَّقّوم، وأنَّ وقوعَهُ منهم حتمٌ، كأنَّه قائمٌ الآنَ مع أنَّه يكون في المستقبل، أمّا الفعلُ (يملؤون)؛ فيخلو من القطعِ بالوقوع، ولا يعطي دلالةَ الثُّبوت والدَّوام.

نكتةُ تأنيث ﴿مِنۡهَا﴾، و﴿طَلۡعُهَا﴾ مذكَّرٌ:

تنوُّعُ المأكولِ الخبيث زيادةٌ في العذاب

جاء الضَّميرُ في القيد ﴿مِنۡهَا﴾ مؤنَّثًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ بعد سبق ﴿طَلۡعُهَا﴾ مذكّرًا في قولِه تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ وذلك لِعَوْدِ "ضمير المؤنَّث للشَّجرة، أو لإضافتِه إلى المؤنَّث في ﴿طَلۡعُهَا﴾، أو لتأويله بالثَّمرةِ، أو للشَّجرة على التَّجوُّز"[1]، وفي ذلك لطيفةٌ هي إفادةُ التَّنوُّعِ في المأكول، فيكون أكلُهم مِنَ الطَّلع ومن الشَّجرة معًا، واللّٰه تعالى أعلمُ.

بلاغةُ الكنايةِ ونكتة التعريف في ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾:

ذِكْرُ البطونِ هنا يطوي دلالة الذَّمِّ، ويُزْري بهم، ويَنشُر عليهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 93.

البطونُ الدَّنيئةُ في الدُّنيا تُعاقَب بالزَّقّوم في الآخرة

الإهانةَ، ويُلمَحُ إلى أنَّها ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ التي اعتادَت على الامتلاء مِن كلِّ ما يَلقاها حتى مِن ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

و(ال) في ﴿ٱلۡبُطُونَ﴾ تعريفيَّة للعهد الذِّهني؛ إذ يضطرون إلى ملء بطونهم من هذا الثمر - مع نهاية خُشونته ونَتَنَه ومرارة طعمه - فإذا جوَّعهم الله الجوعَ الشديد فزعوا إلى إزالة ذلك الجوع بتناول هذا الطَّلع[1]، فيملؤون منه تلك البطون المعهودة المعروفة بالدَّناءة، وعدم تورُّعها عن أكل الحرام في الدُّنيا؛ فتُعاقَب بأكل ثِمار الزَّقّوم في الآخرة، وكما كانت تُتْرَعُ مِن أكلِ الحرام في الدُّنيا؛ فإنَّها تُتْرَع في العذاب الحالِّ بها مِن أكل طعام الأثيم في الآخرة، وتُعاقَب بأنْ يُفسِدها، ويؤذيها؛ فتَعْتَلَّ منه، وتتَمَزَّق.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ إِنَّ﴾، وسرُّ إيثارِها:

التَّدرُّج في سُلَّم المعاناةِ، فشوبُ الحميم أبلغُ في الإيلامِ مِن ثَمَرِ الزَّقّوم

تنوُّعُ أسلوبِ النَّظم الكريم في استعمال حروفِ العطفِ هنا؛ إذ آثر هنا ﴿ثُمَّ﴾ بعد استعمال (الفاء) في قوله تعالى قبله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾، وذلك لمراعاةِ فَوارق الدَّلالات المقصودة، فكان مَلْءُ البطونِ فوريًّا مباشرًا للأكلِ، أمّا الشُّربُ؛ فمُتَراخٍ تراخيًا زمنيًّا؛ لذلك عطف هناك بـ (الفاء)، وهنا بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ مراعاةً لتلك الدَّلالات.

كما تفيدُ ﴿ثُمَّ﴾ معنى التراخي الرُّتَبيِّ، أي: إنَّ شوب الحميم أبلغُ في الإيلام من ثمر الزَّقّوم، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّدرُّج في سلَّم المعاناة، فـ "لمّا امتلأت بطونهم مِن ثمرةِ الشَّجرة، وهو حارٌّ؛ أحرقَ بطونهم، وعطَّشَهم، فأُخِّر سَقْيُهم زمانًا؛ ليزدادوا بالعطش عذابًا إلى عذابِهم، ﴿ثُمَّ﴾ سُقوا ما هو أحرُّ، وآلمُ، وأكرَهُ"[2]، فتضاعف عليهم العذابُ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 337، وابن عادل، اللباب: 16/ 315.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 107.

بلاغةُ توكيدِ الخبرِ في جملةِ ﴿إِنَّ لَهُمْ﴾:

المعاني المهمّةُ لا يلائمها أنْ تُسْدَى إلى المخاطَب غفلًا مِن التَّوكيد

لا زالت تلك الأخبارُ بوصف عذابِ الكفار في الآخرة تتوالى مؤكَّدَةً؛ وذلك لأنَّها من الخطورة؛ إذ لا يلائمها أنْ تُسْدَى إلى المخاطَب غفلًا مِن التَّوكيد، إلى ما في ذلك التَّوكيد المتتابِع من تنبيهٍ للغافل، وتحذيرٍ للجاحد، كما أنَّ فيها قطعًا بِحصول مضمون الخبر؛ فلا شكَّ في أنَّهم شاربون - على أكلِهم من شجرةِ الزَّقّوم - أخلاطًا مِنَ الصَّديد الحميم، ومن غيره ممّا تواتر ذكرُهُ في الوحيين الشَّريفين.

معنى (اللام) في المتعلّق ﴿لَهُمْ﴾، ونكتة تقديمه:

اختصاصُهم بذلك الشَّوب الملتهب عقوبة لهم؛ على وجه القَصْر الإضافي

(اللام) في المتعلِّق ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لام الاختصاص، فهم يُختصّون بذلك الشَّوب الملتهِب عقوبة لهم وجزاء وِفاقًا، وقد ناسَب دلالةَ الاختصاص هنا تقديمُ القيد ﴿لَهُمْ﴾ على المسندِ إليه ﴿لَشَوْبًا﴾؛ لإفادةِ معنى القصر الإضافي، فهم فقط دونَ المؤمنين الصادقين ﴿ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ - السّابق ذكرُهم في قصَّة القرين - مَن يُختصّون بشربِ ذلك الشَّوبِ الأليم، وهم بخاصَّة مَن يُهانون به.

معنى (على)، ونكتة التَّقييد به:

في شربِ الكفّار الحميمَ - زيادةً على الأكل من الزَّقّوم - تناسُبٌ لكفرهم

(على) في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ تفيدُ معنى المصاحبةِ، أي: إنَّ لهم - إضافةً إلى معاناة الأكلِ مِن شجرة الزَّقّوم - شرابًا مغليًّا قَذِرًا يقطِّع الأمعاء، وفي اللام كذلك معنى الزّيادة، أي: ينالهم من العذابِ - زيادةً على الأكل من شجرة الزَّقّوم - شرابٌ أليمٌ بَلَغَ درجة الحميم، و"يُمْزَج لَهُم الزَّقّوم بالحميم؛ ليجمعَ لهم بين مرارة الزَّقّوم وحرارة الحميم؛ تغليظًا لعذابِهم وتشديدًا لبلائهم"[1].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 52.

وبذلك "يكونون جامعين بين أكل الطَّعام الكريهِ البَشِع وشربِ الشَّراب الأكره الأبشع"[1]، وفي ذلك مزيدُ إيلامٍ وإهانةٍ؛ إذ يلائم كفرَهم بالخالق العظيم، وما أخبرهم به من بعثٍ وحسابٍ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهَا﴾، ونكتة التقديم:

في ذِكرِ المحذور ضميرًا إقصاءٌ لِخطرِه، وتقديمه قيدًا يَلفِت إلى شرِّه

الضَّميرُ في القيد ﴿عَلَيۡهَا﴾ يعود إلى ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، ويُلمَحُ في إعادة ذكرها بالإضمارِ إبعادٌ لها، وتنفيرٌ من خطرِها؛ فقد أُعيد ذكرُها بالإضمارِ في هذا السّياق ستَّ مرّات تقريبًا، وطال السّياقُ بلا إظهارٍ لها بعد أوَّل مرَّةٍ؛ دعمًا لتلك الدَّلالة، وفي تقديم القيد بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾ على المسندِ إليه ﴿لَشَوۡبٗا﴾ تنبيهٌ إلى مضاعفة العذابِ، ومُفاقَمَة أنواعِه على (الظالمين) خارجيًّا وداخليًّا، طعامًا وشرابًا، ومضاعفة أسباب إيلامهِ وإهانته عليهم.

معنى (اللام) في المسندِ إليهِ ﴿لَشَوۡبٗا﴾:

تأكيدُ خبثِ العذابِ زيادةُ تحذيرٍ منهُ

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ لامُ التوكيد، وبذكرها تترجمُ عناصرَ التَّوكيد المتزاحمة في هذا السّياق تزاحُم أنواع الشَّرِّ والضُّرِّ على الظّالمين - ومنهم ذلك القرينُ الكافر - في سواء الجحيم.

براعةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَشَوۡبٗا﴾، ولطيفة تنكيره:

تصويرُ شرابِ أهلِ الجحيم وبشاعته

للتَّعبيرِ بمفردة ﴿لَشَوۡبٗا﴾ في هذا الموضعِ براعةٌ لا تتأتّى بغيرِه؛ لأنَّ ﴿لَشَوۡبٗا﴾ يصوِّر شرابًا "ممزوجًا بماءٍ شديد الحرارة، وهذا الشَّراب هو الغَسّاق، أي: ما يَقْطر من جِراحِ أهلِ النّار وجلودِهم..."[2].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ في القيد بـ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾:

بيانُ شرابِ أهلِ الجحيم المخلوط بأخلاطٍ قذرةٍ سامَّةٍ

﴿مِّنۡ﴾ في القيد ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ بيانيَّة، تبين عن نوعٍ بعض الأخلاطِ التي يشربُها الظّالمون على أكلِهم ومَلْئِهم بطونَهم من شجرة الزَّقّوم،

---

(1) حقي، روح البيان: 7/ 465.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 93.

وأنَّها مِن ماءٍ ملتهِبٍ، مشوبٍ بأخلاط مِن القاذوراتِ، "يُمزَج لهم الحميمُ بصديدٍ وغسّاق ممّا يسيلُ من فروجِهم وعيونِهم"[1]، فاجتمع فيه السّوءُ من كلِّ الجهاتِ وبجميع الاعتبارات.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَمِيمٖ﴾، ونكتة التَّنكير فيه:

حـمـيـمُ أهـلِ النّـارِ أُعِـدَّ لهم إعـدادًا؛ ليكونَ على أبلغِ وجوهِ الإيلامِ والإيذاء

"الحميم الماء الحارُّ الذي قد انتهى حرُّهُ، أي: شرابًا من دمٍ أو قيحٍ أسودَ أو صديدٍ ممزوجًا مشوبًا بماء حارٍّ غايةَ الحرارةِ يقطع أمعاءهم"[2]، فالتَّعبيرُ بهِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ يدلُّ على بلوغ تلك الأخلاطِ نهايةَ الإيلامِ والمضرَّة، وصوغُ ﴿حَمِيمٖ﴾ على صيغةِ (فعيل) يُبَيِّنُ شدَّة خطورتِه، و(فعيل) فيه بمعنى (مفعول)، أي: إنَّه أُعِدَّ لهم على أبلغ وجوهِ الإيلام والإيذاء، و"عن رسول اللّهِ ﷺ أنَّه كان يقول: "يُقَرَّبُ - يعني: إلى أهل النّار - ماءٌ، فيتكرَّهه، فإذا أُدني منه شَوى وجهه، ووقعت فرْوَةُ رأسِه فيه، فإذا شربَهُ؛ قطَّع أمعاءَهُ حتّى تخرجَ من دبرِه"، ويقولُ ﷻ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: 15]، ويقول: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: 29]"[3].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ إِنَّ﴾، ولطيفة تَكرارِها:

التَّراخي الزَّمنيُّ والرُّتْبيُّ المؤذنانِ بتطاول أزمانِ التَّعذيب وتكاثُر أسبابِهِ على الكفّارِ

تدلُّ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ على التَّراخي الزَّمنيِّ والرُّتبيِّ المؤذِنَين بتطاول أزمانِ التَّعذيب وتكاثُر أسبابِهِ على الكفّار في الآخرةِ، وأنَّهم يُعانون ثِقَلَ الوقتِ، قَصُرَ أم طالَ، ويُعانون كثرةَ أسبابِ العذاب وأنواعه، فـ"إنَّهم يُخرَجون من مقارِّهم في الجحيم - وهو الدَّركات التي أُسكِنوها - إلى شجرة الزَّقّوم، فيأكلون منها إلى أن يَتَملَّوا، ويشربون بعد ذلك، ثم يُرجعون

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 21.

(2) حقي، روح البيان: 7/ 465.

(3) أحمد، المسند، برقم: (22285)، والترمذي، السنن، برقم: (2583)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (11263)، وينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 21.

إلى دركاتِهم، كما تورَدُ الإبلُ، ثمّ تُرَدُّ إلى وطنِها، ومعنى التَّراخي في ذلك ظاهرٌ"(1).

دلالةُ تكرارِ ﴿إِنَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾:

من الأخبار ما هو جديرٌ بالتَّنبيه إليه والتَّأكيد عليه بغضِّ النَّظر عن المنكِر

يدلُّ تكرارُ أداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ على شدَّة الجَزْمِ بحصول تلك المعاناة كلِّها للظّالمين في النّار، وتعمل ﴿إِنَّ﴾ على انتزاع كلِّ شكٍّ في حصول ذلك، إلى ما فيه مِن إضفاءِ الخطورة على الخَبَرِ؛ إذ إنَّه خبرٌ جديرٌ بالتَّنبيه إليه وتأكيده لخطورته، كما يقول ابن حجر: "وقد يكون التَّأكيدُ من جهةِ أنَّ القضيَّةَ في نفسِها ممّا يهتمُّ به، وإن لم يكن هناك منكرٌ"(2).

غرضُ التَّعبيرِ بالمرجعِ في الآية:

أحوالُ تعذيبِ الكفّار تتوالى عليهم، ولا إرادة لهم في التَّحوُّل عنها

عبَّر السياقُ الكريم بالمرجعِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ مِن الرَّجوع، وهو يعني مكانَ العودِ إلى ما كانوا عليه من قبل الوضعِ الحالي، مع أنَّهم لا يُغادِرون الجحيمَ أصلًا؛ ليُرجَعوا إليه، وعلى ذلك يحمل الرُّجوع على الاستعارة "للانتقال مِن حالةٍ طارئةٍ إلى حالة أصليَّة تشبيهًا بمغادرة المكان ثمَّ العودُ إليه"(3)، ويحتمل أن يكون لهم انتقالُ أجسادٍ في وقت الأكل والشُّرب، ثم يرجعون إلى معظمِ الجحيمِ وكثرتِه، وشُبِّه بقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: 44]، ويحتمل أن يكونَ الرُّجوع إنَّما هو من حال ذلك الأكلِ المعذِّب إلى حال الاحتراقِ دون أكلٍ، وبكلٍّ احتمالٍ قيل(4).

والكفّار "لا يَرجعون بأنفسِهم، ولكن يُردّون فيها، كقوله: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 603.
(2) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 121.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 476.

﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: 76]، هم لا يَدخلون فيها، ولكن يُدْفعون فيها"(1)، فـ "يُذهَب بهم عن مقارِّهم ومنازلهم في الجحيم - وهي الدركات الَّتي أسكنوها - إلى شجرةِ الزَّقّوم ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، فيأكلونَ إلى أن يمتلِئوا، ويسقون بعد ذلك، ثم يُرْجَعون إلى دركاتِهم"(2).

سرُّ الإضافةِ في ﴿مَرۡجِعَهُمۡ﴾:

مرجعُ الكفّارِ إلى الجحيمِ مختصٌّ بـهـم، وهـم به جديرون

إضافةُ مرجعٍ إلى ضمير الظّالمين (هم)، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ يبيِّن أنَّ مرجعًا كهذا لا يليقُ إلّا بهم، وإنَّهم لا يليقون إلّا بِهِ، فالإضافةُ في ﴿مَرۡجِعَهُمۡ﴾ إضافةُ تخصيصٍ، وبيان أنَّه مرجع خاصٌّ بهم، مُعَدٌّ خصّيصًا لهم.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تأكيدُ أنَّ مصيرَ الـكـفّـار إلى الجحيم

(اللام) في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ لامُ التَّوكيد الَّتي تحرَّكت، وزُحلقت من المبتدأ إلى الخبر، وهكذا تتوالى أدوات التَّوكيد على تحقيق ذلك الوعيدِ المخيف للظّالمين من الكافرين باللّه تعالى، المنكرين اليوم الآخر والحساب، ولا يزال النَّظمُ الكريم يدعم تلك الأخبارَ المرعبةَ وفاء بهول مضامينها، وحُقَّ لها ذلك، فما أعجبَ من حال ناسٍ يسمعون هذا، ولا يتأثّرون به على ما فيه من وعيد شديد!

معنى (إلى) في قوله: ﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾:

الـكـفّـارُ لا يغادرون النّار؛ بل يُـرَدَّدون بين أوديتـهـا لا إلى نهايته

(إلى) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ تفيد انتهاءَ الغايةِ - غاية كلِّ رحلة تعذيبٍ - وأنَّهم منها يبدؤون دورةَ عذابٍ جديدة، وإليها يُرجَعون، وإن لم يغادروها، فيُرَدَّدون بين أوديتها، ويُنَزَّلون في منازلها وهكذا لا إلى نهاية، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّار.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 568.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 126.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّزل والسَّكن:

النُّزل الضيافة، والسَّكن محلُّ الإقامة

النُّزُل: ما هُيِّئَ لِلضَّيفِ؛ إذا نَزَلَ عَليهِ، ويقالُ: إنَّ فُلانًا لَحَسَنُ النُّزْل والنُّزُل، أي: حَسَنُ الضّيافَةِ، وقَولِه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، أي: أذلك خَيْرٌ في بابِ الأنزال الَّتي يُتَقَوَّت بها وتُمكِن مَعَها الإقامةُ، أم نُزُل أهلِ النّارِ؟ وفي الحَديث: "اللَّهُمَّ إنّي أسألك نُزَلَ الشُّهَداءِ"[1]، يُريدُ ما لِلشُّهَداءِ عِندَ اللَّهِ مِنَ الأجر والثَّوابِ؛ والمَنزِل والمَنزِلَة: مَوضِعُ النُّزول[2].

وَسكن بِالمَكانِ يسكن سُكْنًى وسكونًا: أقامَ، فَهوَ ساكنٌ، من قوم سكّان، والسَّكن أيضًا: سُكْنى الرَّجل في الدّار، يُقال: لَك فيها سكنٌ، أي: سُكْنى، والسَّكن، والمسكن: المنزل، الأخيرَة نادرة، والسَّكن: أهل الدّار، اسم لجمع ساكن، كشارب وشرب[3].

الفتنة والابتلاء والامتحان:

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ، والابتلاء بتحميل المكاره، والاختبار بالمكروه والمحبوبِ

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وتكون في الخيرِ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]، وقال تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ۝١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجعل النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّه قصد بها المبالغةَ في اختبار المنعَم عليه بها، كالذَّهب إذا أُريدَ المبالغة في تعرُّف حالِه؛ أُدخِل النار[4].

والابتلاءُ يكون بتحميلِ المكارهِ والمشاق، والاختبار بذلك وبفِعل المحبوب، يقال: اختبرَهُ بالإنعام عليه، ولا يقال: ابتلاهُ بذلك، ولا هو مبتلًى بالنِّعمة، وقد يقال: اختبرَهُ بالإنعام عليه، ولا يقال:

(1) البزار، مسند البزار، مسند ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: 11/ 386، برقم: (5234).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(3) ابن سيده، المُحكم: (سكن).
(4) بإشراف الشيخ صالح بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 1/ 8.

ابتلاهُ بذلك، والابتلاء يقتضي استخراجَ ما عند المبتلَى من الطّاعة والمعصية[1].

الأصْل والقعر:

الأصْل الأساسُ، والقعر أقصى العمق

الأَصْلُ جمعه أُصول، وهو الأساس الَّذي يُقام عليه أوَّل الشَّيء ومادَّته التي يتكوَّن منها، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ [الحشر: 5]، والأَصْلُ، أي: الجِذْر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24][2].

وقَعْرُ كلِّ شَيء: أقصاه، وجمعه: قُعور، ونهر قَعير: بعيد القَعْرِ، وقَعَر البِئْرَ يَقعَرُها قَعرًا: انتهى إلَى قَعْرِها، وكذلكَ الإناءُ؛ إذا شربت جَميع ما فيهِ، حَتَّى تَنتَهي إلى قَعرِهِ، وقَعَرَ الثَّريدة: أكلَها مِن قَعْرِها، وقَعَّر في كَلامه، وتَقَعَّر: تشدَّقَ، وتكلَّم بأقصى قعْرِ فَمِهِ، وقيل: تكلَّم بأقصى حلقه[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 10.

(2) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أصل).

(3) ابن سيده، المحكم: (قعر).

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾

[الصافات: 69 - 70]

مُناسَبَةُ الآيتَيْنِ لِما قبلَهُما:

يجبُ تحكيمُ العقلِ، وعدمُ تقليد الضّالين في دينهم

لمّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ فيما سبق وصفَ عذابِ الكفّار بالأكل من شجرة الزَّقّوم، ثمَّ الشُّرب عليها مِنَ الحميم؛ ذكر هنا السَّبب الَّذي آل بهم إلى ذلك المأوى الأليم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلْفَوْاْ﴾: (ألف) أصلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلى انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، والأشياءُ الكَثيرَةُ أيضًا[1]، والألفُ: العدد المخصوص، سُمّيَ به لائتلاف الأعدادِ فيه، فإنَّها آحادٌ وعشراتٌ ومئاتٌ وأُلوفٌ، فإذا بلغتِ الألْفَ؛ فقد ائتَلَف، وما بعده يكون مكرَّرًا، قال بعضهم: ومنه الإلْفُ بالكسر؛ لأنَّه مبدأُ النِّظام، والإلْفَةُ بكسرِ الهمزةِ: اتِّفاق الآراءِ في المعاوَنَةِ على تدبير المعاشِ، والإلفاء: وُجدانُ الأمرِ على ما أَلِفَهُ المتبصِّر فيه أو النّاظر إليه[2]، والمعنى: أنَّهم وجَدوا.

2) ﴿ءَاثَٰرِهِمْ﴾: (أثر) لهُ ثَلاثَةُ أُصولٍ: تَقديمُ الشَّيءِ، وذِكْرُ الشَّيءِ، ورَسمُ الشَّيءِ الباقي[3]، وأَثَرُ الشَّيءِ: حصول ما يدلُّ على وجوده، يقال: أثر وأثَّر، والجمع: آثار، قال اللّٰه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27]، ومن هذا يقال للطَّريق المستدلِّ به على مَن تقدَّم: آثارٌ، نحو قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾، وقوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [طه: 84][4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألف).

(2) المناوي، التوقيف، ص: 60.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).

(4) الراغب، المفردات: (أثر).

3) ﴿يُهْرَعُونَ﴾: (هرع) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى حَرَكَةٍ واضطِرابٍ،[1] و"هرِعَ يَهرَع ويُهرَع هَرَعًا: أسرع في رِعدةٍ مِن حُمّى أو غضَب، أو في حِرص على أمرٍ يُدركُه، أو في عجلةٍ كأنَّما يستحثُّه حاثٌّ، أو يَسوقه سائقٌ، وقد جاء هذا المعنى الأخير في الكتابِ العزيزِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، واللَّفظ في الصافات[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

عواقبُ التَّقليد الأعمى في الدّين وخيمةٌ

إنَّ سببَ ورودِ الكفّار في الآخرة ذلك المورد الوخيم، مِن أكل الزَّقّوم وشُرْبِ الحميم والرُّجوع إلى الجحيم، هو إلغاؤهم عقولَهُم، وتقليدُهم الأعمى لآبائِهم الضّالّين عن سبيل الرَّشاد، وأنَّهم أسرعوا على خُطا آبائهم، واتَّبَعوا نَهْجَهُم في أمور عقيدتِهم وتفاصيل شريعتِهم بدون دليلٍ يصدِّق ذلك، رافضين دعوةَ الرَّسول ﷺ إلى عقيدةِ التَّوحيدِ، والإيمان باللّه تعالى، واليوم الآخر، والحساب، والجنَّة والنّار، قال الرازي: "ولو لم يوجَد في القرآن آيةٌ غير هذه الآية في ذمِّ التَّقليدِ؛ لكفى"[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾:

تقليدُ الكافرين في الدّين يورثُ الضَّلال

وقعت جملةُ: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ من جملة: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ موقعَ التَّعليلِ، فهي بمنزلة العِلَّة التي أدَّتْ بهم إلى الجحيم؛ إذ كانوا من الَّذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]، مهملين عقولَهم، مستسلِمين لموروث الجاهليَّة بطريق التَّقليد الأعمى، والتَّقليدُ الأعمى للكافرين في الدّين يورثُ الضَّلال كما هنا، فالمعنى: "إنَّما جازيناهم بذلك؛

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هرع).
(2) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (هرع).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 338.

لأنَّهم وجدوا آباءهم على الضَّلالة، فاتَّبَعوهم فيها بمجرَّد ذلك، من غير دليل ولا برهان"[1]، فقد وقعت "(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾: موقعَ فاءِ السَّببيَّة، ومعناها معنى لام التَّعليل، أي: لأنَّهم وجدوا آباءهم على ضلال في العقيدة والدين، فهرولوا على دربِهم دربِ الضَّلال، ورفضوا دينَ الحقِّ والهُدى، وهي أي: إنَّ لذلك مفيدةٌ ربْطَ الجملةِ بالتي قبلَها، كما تربطها الفاءُ ولام التَّعليل"[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ (الإلفاء) دون غيره:

آثرَ النَّظمُ الكريم في هذا الموضع التَّعبيرَ بالإلفاء في جملة: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾؛ وذلك لِما في الإلفاء من معنى الوجدان وزيادة معنى الإلفِ والائتلافِ مع ما وجدوا عليه آباءَهُم مِنَ الكفر والضَّلال والفساد.

إِلْفُ الأمرِ سلطانٌ، فتحكيمُ الشَّرع المجيد والعقل الرشيد حتميٌّ للنَّجاة

أمّا إيثارُ النَّظم الكريم فعل الوجدان في موضع آخرَ؛ إذ يحكي عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]؛ فهذا مِن حكاية معنى كلامِهم، وهم يريدون التَّبرُّؤ ممّا وجدوهم عليه، وأنَّهم لم يألفوه، ولم يأتلفوا معه - وهم كاذبون - وأنَّهم فقط مضوا على الدَّرب دربِ آبائِهم، وأنَّ سلطانَ الإلف هو الَّذي أمضاهم عليه بِغَضِّ النَّظر عن رضاهم بِهِ وائتلافِهم معَهُ، وفي قولِه تعالى: ﴿أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾: "إيماءٌ إلى أنَّ ضلالَهم لا يَخفى عن النّاظر فيه لو تُرِكوا على الفطرةِ العقليَّةِ، ولم يغشَوها بِغِشاوة العِناد"[3].

مرجعُ ضميرِ الجماعةِ في ﴿أَلْفَوْا﴾ ودلالته:

ضميرُ الجماعةِ الفاعل في جملة ﴿أَلْفَوْا﴾ يعود إلى كفّار قريش[4]، الذين أصرّوا على الكفرِ والعنادِ، وأنكروا البعثَ والحساب، فهُم

الكُفرُ كلُّه ملَّةٌ واحدةٌ، والكفّار يتوارثونه جيلًا بعد جيلٍ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 127.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 127.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 107.

على دربِ مَن سبقهم من كفّار الأممِ السّابقة، وهم جميعًا على مِلَّةٍ واحدةٍ، توارثوها جيلًا بعد جيل.

نكتةُ التَّعبيرِ بالآباء دونَ السَّلف والأجداد:

الأبناءُ أحرصُ على إحياء آثار آبائِهم المباشرين دونَ أسلافِهم الأقدمين

في إيثارِ النَّظمِ الكريمِ التَّعبيرَ بـ ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾ دون (أسلافهم) و(أجدادهم)؛ لِما للآباءِ المباشِرين من مكانةٍ عزيزةٍ في نفوس أبنائِهم، وشدَّة تعلُّقهم بهِم، وحرصهم على إحياءِ آثارِهم، وتجديد ذكرِهم بتقليدِهم في القول والعمل والاعتقاد، وثقتهم التّامَّة في استقامة طريقتِهم مهما كان فيها من العِوَج.

علَّةُ الإضافةِ والجمعِ في ﴿ءَابَآءَهُمۡ﴾:

التَّعريفُ بالإضافة أدلُّ على شدَّة ارتباط المضاف بالمضافِ إليه

لِما للآباءِ من قوَّة الأثرِ في سلوك الأبناءِ، ولِقوَّة تعلُّق نفوس الأبناء بآثار الآباءِ جاء تعريفُ الآباء بإضافتهم إلى ضمير الأبناء، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ دون (إنَّهم ألفوا الآباء)، فالإضافةُ هنا تحكي شدَّة الارتباطِ الرّوحي بين الأبناء وآبائهم.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل ﴿ضَآلِّينَ﴾:

الضَّلالُ أشملُ من الكفر دلالةٌ على اختلال الضّالِّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالضَّلال في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ دون (كافرين)؛ لأنَّ الضَّلالَ يشمل الكفرَ وزيادة، فالكفر يختصُّ بضلال الاعتقاد، أمّا الضَّلال المطلق؛ فيستوعب ضلالَ العقيدة، وضلالَ الفكرِ، وضلالَ السَّعي، وضلالَ السُّلوك، وغير ذلك من متعلِّقات حياة الإنسان، فآثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبير بـ ﴿ضَآلِّينَ﴾، وفي صوغِ القيدِ بالحال ﴿ضَآلِّينَ﴾ اسم فاعل دلالةٌ على تغلغُلِ الآباء في الضَّلال، ورسوخهم فيه، ودوامهم عليه، حتى لفَّهم لفًّا، وأعماهم عن سبيل الهُدى والحقِّ إعماءً، وذلك أدعى إلى التَّطويح بأبنائِهم المقلِّدين بعيدًا عن سبيل الرَّشاد؛ فكانت عاقبتهم جميعًا الصَّيرورةَ إلى سواءِ الجحيم.

التَّقليدُ المُطْلَق في الدّين مذمومٌ

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَهُمۡ﴾:

(الفاء) في جملةِ: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ "فاءُ العطفِ؛ للتَّفريع والتَّسبُّب، أي: متفرِّع على إلفائِهم آباءَهُم ضالّين أن اقتفَوا آثارَهم تقليدًا بلا تأمُّل، وهذا ذمٌّ لهم"[1]، تأخذُ بالأذهان نحو بيانِ داعي هَرَعِهم على آثارِ آبائِهم، وتُفَرِّعُه على وجدانِهم آباءَهُم ضالّين.

مَن يُقلِّد غيرَهُ تقليدًا أعمى يَحرِم نفسَهُ نعمةَ العقلِ الَّتي حباه الله تعالى بها

الغرضُ من تقديمِ المبتدأِ على خبرِهِ الفِعليِّ:

بُنِيَتْ جملةُ: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ على تقديم الضَّمير (هم)، ويفيد توكيدَ نسبةِ هَرَعِهم وعَجَلَتِهم إلى اعتناق أفكار آبائِهم إليهم، وأنَّهم التزموا عقيدةَ الكفرِ، واطَّردَتْ حياتهم على ما ورثوه منهم في كافَّة المناحي العقليَّة والعقديَّة والفكريَّة، مهملين نعمةَ العقلِ الَّتي وهبهم اللّهُ تعالى، مصرّين على العناد ومضادَّة الرَّسول ﷺ.

ما أشدَّ التصاقَهم بآثارِ آبائِهم!

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالتها في: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾:

﴿عَلَىٰٓ﴾ في جملة: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ معناها "الاستعلاء التقريبي، وهو معنى المعيَّة؛ لأنَّهم يسيرون معها، ولا يلزم أن يكونوا مُعْتَلين عليها"[2]، وفيها إلماحٌ إلى شدَّة التصاقِهم بآثار آبائهم، وارتباطِهم بها، كأنَّهم معتلين عليها، متمكِّنون منها.

وارثو الكفرِ عن آبائِهم يَقِظون لاختيارهم، ولا يتخلَّون عنه إلى غيره

الغرضُ من تقديم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾:

في تقديم القيدِ: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ على الفعلِ: ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ، أي: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ لا على غيرِها يُهرعون، ويُسرِعون، ومنها فقط يشتقّون لحياتهم مهيعًا عقديًّا ودينيًّا، يقظين لاختيارهم الكفرَ على الإيمانِ، ولا يرضون بهِ بديلًا، ولا يتخلَّون عنه إلى غيره قطُّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 127.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 127.

دلالةُ التَّعبيرِ بالآثار، ولطيفةُ جمعها:

الكفّارُ لا يواربونَ في التّصريح بكفرِهم واتّباع دين آبائِهم

يُعبِّر النَّظم الكريم عن موروث الأوَّلين المعنويِّ - مِن دينٍ وأخلاقٍ وغيرهما - بالآثار، كما قال تعالى هنا: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾، وفي ذلك تمثيلٌ لتلك الأمورِ بما تتركها خُطَى الماشين من مَوْطئَ الأقدام، فيَعلم السّائرُ بعدَهم أنَّ مواقعَها مسلوكةٌ موصلةٌ إلى معمورٍ[1]، فيتتبَّعها، ومن بلاغةِ هذه الصّورة إضفاءُ صفةِ الوضوح المقصودةِ في الآثار على دين آباءِ الكفّار المقصودين في الآية الكريمةِ، فالآثارُ لِوضوحِها لا تُخْطَأ، ولا يَنحرِفُ عنها متَّبِعوها لتميُّزِها؛ ولذلك جاء في الحديث الشَّريف: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُم شِبرًا بِشِبرٍ، وذِراعًا بِذِراعٍ، حَتّى لَو سَلَكوا جُحرَ ضَبٍّ؛ لَسَلَكْتُموهُ"، قُلنا: يا رَسولَ اللَّهِ اليَهودَ والنَّصارَى، قالَ: "فَمَن"[2]، والكفّار لا يواربونَ في التَّصريحِ بتتبُّعهم دينَ آبائِهم، وقد حكَى القرآن الكريم ذلك عنهم في أكثر من موضعٍ، مثل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: 170][3].

سرُّ إضافةِ الآثار إلى ضميرِهم:

آثارُ الآباءِ عند الأبناءِ المقلِّدين غاليةٌ عزيزةٌ، لا يرون فيها عيبًا يقتضيهم مراجعتها

في إضافةِ (آثار) إلى ضمير الآباءِ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ دلالةٌ على شدَّةِ ارتباطِ الأبناء المقلِّدين بموروث آبائِهم الدّينيِّ إلى درجة التَّقديس، عاليًا كان أو منحطًّا، غاليًا كان أو تافهَ القيمةِ، على أنَّ آثارَ الآباءِ عند الأبناءِ المقلِّدين ثمينةٌ غاليةٌ عزيزةٌ، لا يرون فيها عيبًا يقتضيهم إعمال العقل فيها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالهَرَعِ في الفعل ﴿يُهۡرَعُونَ﴾:

مفردةُ (الهَرَع) مصوِّرة بطبعها اللُّغوي المجرَّد؛ إذ لا تُفيد الإسراعَ في السَّير والجري فحسب، بل تفيدُهُ على صورة معيَّنة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 127.

(2) البخاري، صحيح البخاري: كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: 4/ 169 برقم: (3456).

(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 316.

التَّسرُّعُ مذمومٌ، وفي التُّؤدة السَّلامة

مِنَ الرِّعْدَة والهَرْوَلة، التي تُترجم عن حالةٍ نفسيَّة مستفَزَّة، كأنْ تكون الهرولة مِن أثرِ الخوف مِن شيءٍ، أو الرَّغبة في إدراكِ شيءٍ؛ لِذلك آثرها النَّظم الكريم دونَ الإسراع؛ ليصوِّر مدى حرص الأبناء الكافرين على اعتناقِ موروث الآباءِ الدّيني، فـ "عُبِّرَ به عن المتابعةِ دون تأمُّل، فشُبِّهَ قَبولُ الاعتقاد بدون تأمُّل بِمُتابعة السّائر متابعةً سريعة لِقَصْدِ الالتحاقِ بِهِ"[1]، "وفيه إشعارٌ بأنَّهم بادروا إلى ذلك من غير توقُّفٍ على نظرٍ وبحثٍ"[2]، و"فيه أنَّ ما ذُكِر مِنَ العذاب للأَتْباعِ منهم لا للمتبوعين، ولم يُذكَر عذابُ المتبوعين في الآية؛ حيث قال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾"[3]، وصيغةُ المضارعةِ في الفعل ﴿يُهْرَعُونَ﴾ تترجم نشاطَهم، وشدَّة حرصهم على إحياء آثارِ آبائِهم من عبادةِ الأوثانِ والذَّبح لها، والتَّعلُّق بها، وتقليدهم فيها، واستمرارهم على ذلك بنشاط وهمَّة وعزم لا يَفتُر... وشدَّة السُّرعة تَعني: فَواتَ التَّدبُّر، وكأنَّهم "لم يكن لهم عقولٌ يرجعون إليها، ويعرضون ما يَعرِض لهم مِن أمور عليها"[4].

بلاغةُ بناءِ ﴿يُهْرَعُونَ﴾:

بناءُ المبنيِّ للمعلوم على صورة المبنيِّ للمجهولِ يضفي عليه خيالًا جديدًا

في بناء الفعلِ ﴿يُهْرَعُونَ﴾ على صورةِ المَبنيِّ للمجهولِ براعةٌ وافيةٌ بحقِّ المقامِ؛ إذ يُصوِّر أنَّ هَرَعَهم واطِّرادَ حياتِهم على موروثِ آبائِهم كأنَّه يحصلُ بفعل فاعلٍ من خارجِهم، أو أنَّ خوفًا سُلِّط عليهم، فهُم يُهرعون منه مُرتعدين، ويندفعون خائفين، وفي ذلك بيانٌ جَليٌّ لِقوَّة نشاطِهم، وتَجدُّد هِمَّتهم في الباطل مدابرين الحقَّ، تَغشاهم غشاوةَ التَّقليد الأعمى، وفيهِ "دلالةٌ على أنَّ ذلك ناشِئٌ عن تلقين زعمائِهم وتعاليم المضلِّين، فكأنَّهم مدفوعون إلى الهَرَعِ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 126.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 12.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 569.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 990.

آثارِ آبائِهم، فيحصل من قولِه: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ تشبيهُ حال الكَفَرة بِحال مَن يُزَجَّى، ويُدَفَع إلى السَّير، وهو لا يعلمُ إلى أين يُسار بِه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلفاء والوجدان:

الإلفـاءُ اللُّقْيا والاتِّـفـاقُ، والوجدان مطلقُ اللُّقْيا

"الإلفةُ بكسرِ الهمزةِ: اتِّفاقُ الآراءِ في المعاونةِ على تدبيرِ المعاشِ، والإلفاءُ: وجدانُ الأمرِ على ما ألفَهُ المتبصِّرُ فيه أو النّاظر إليه"[2]، و"وَجَدَ مطلوبَهُ: أصابَهُ، وأدركَهُ، وظفِر بِه، وعَثَر عليه، ووجَد الشَّخصُ: استغنى، وصار ذا مال، وجَدَ صاحبَهُ في الحفل: لَقيه، صادفه"[3].

الهَرَع والسُّرعة:

الهرعُ إسراعٌ في رِعدةٍ، والسُّرعة مطلقُ الإسراعِ

الهرعُ: إسراعٌ في رِعدةٍ مِن حُمَّى أو غضب، أو في حِرص على أمرٍ يدركُهُ، أو في عجلةٍ كأنَّما يستحثُّه حاثٌّ، أو يسوقُهُ سائقٌ، وقد جاء هذا المعنى الأخيرُ في الكتاب العزيز: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: 78]، واللَّفظ في الصافات[4]، والسُّرعة: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف البطءِ، فالسَّريع: خلافُ البطيءِ، وسَرَعان الناس: أوائلُهم الذين يتقدَّمون سِراعًا، وتقول العربُ: لسَرْعان ما صنعتَ كذا، أي: ما أسرعَ ما صنعتَهُ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 127.
(2) المناوي، التوقيف، ص: 60.
(3) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وجد).
(4) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (هرع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرع).

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧١ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ٧٢ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾ [الصافات: 71 - 74]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

محبَّةِ النَّبيِّ ﷺ هُدى قريش وحُزنه على ضلالِهم سلّاه الله تعالى

بعد أن ذَكَر اللّهُ تعالى صنوفَ عذابِ الكافرين في الآخرة، وأتْبَعه سببَ ضلالِ المشركين - مِن أنَّهم وجدوا آباءَهم ضالّين، فمضوا على طريقِهم - "ولمّا كان النَّبيُّ ﷺ شديد المحبَّة لِهُداهم والحزن على ضلالهم، والأسف على غيِّهم ومحالهم، وكان الضَّلال مع العقل أوَّلًا، ثمَّ مع وجودِ الرُّسل الَّذين هم من الصِّدق والمعجزات والأمور الملجِئة إلى الهدى ثانيًا كالمُحال؛ سلّاه سبحانه بقولِه على سبيل التَّأكيد لزيادة التَّحقيق: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾"(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنذِرِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾: (نذر) كلمةٌ تَدُلُّ عَلى تَخويفٍ أو تَخوُّفٍ، مِنهُ الإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يكونُ إلّا في التَّخويف، وتناذروا: خَوَّفَ بَعضُهُم بَعضًا، ومِنهُ النَّذرُ، وهو أنَّهُ يَخافُ؛ إذا أخلفَ(2)، وأنذَرْتُ الرَّجُلَ كذا إنذارًا: أبلَغْتُه، يَتَعَدَّى إلى مَفعولَين(3)، فالـ﴿مُّنذِرِينَ﴾ اسمُ فاعلٍ من الإنذار، وهم الرُّسل الكرام، الَّذين أرسلَهم اللّهُ تعالى إلى عبادِهِ؛ ليُحذِّروهم مِنَ الكفر وعواقبه الأليمة، و﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ اسمُ مفعولٍ مِنَ الإنذار، وهم عبادُ اللّهِ تعالى، الذين حذَّرهم الرُّسلُ الكرام، وخوَّفوهم مِنَ الكفرِ وعواقبه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 243.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (نذر).

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلانِ صَحيحانِ: أحدُهُما يَدُلُّ عَلى تَأخيرِ شَيءٍ وإتيانِهِ بَعدَ غَيرِه، والأصلُ الآخَرُ يدُلُّ عَلى ارتفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ[1]، والـ "عاقِبة مفرد، جمعها: عواقِبُ: آخِرُ كلِّ شيءٍ وخاتمتُه، والجزاءُ بالخير أو الشَّرِّ... مثل: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 22]، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]"[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

سُنَّةُ اللهِ تعالى في إهلاكِ الكافرين وإنجاءِ المؤمنين ماضية في خلقِهِ

تأكَّدْ - أيُّها الرَّسولُ - أنَّ أكثرَ الأمم السّابقة على أمَّتك في الوجود رفضوا قبولَ دينِ التَّوحيد، وضلّوا عن سواء السَّبيل، مع كثرة الرُّسل الَّذين أرسلناهم للأخْذِ بأيديهم إلى سواءِ السَّبيل، فعاقبناهم بالهلاكِ في الدُّنيا وعذابِ الحريقِ في الآخرة، ونجّينا القِلَّة المؤمنةَ المخلَصةَ مِنَ اللّه تعالى المخلِصةَ له ﷻ، فهوِّن عليك، ولا تحزن عليهم، واعتبِروا يا كفّار قريش، واحذروا أن تَردّوا على رسولِكم ﷺ دعوتَهُ، فينالكم مثلُ ما أصابَ الكفّارَ من قبلكم مِنَ الهلاك في الدُّنيا والعذاب في الآخرة.

وترشدُ الآياتُ الكريمة إلى أنَّ الأممَ السّابقة قد ضلَّ أكثرهم، وإلى تسليةِ النَّبيِّ ﷺ بذكر المُماثِل للَّذين كذَّبوه؛ لأنَّ الإنسانَ يتسلَّى، ويتأسّى بغيره، وإلى عنايةِ اللّه تعالى برسولهِ ﷺ؛ حيث كان يضرب له مِنَ الأمثلةِ ما يسلّيه بها؛ لأنَّ سِلْوَ الإنسانِ بغيرِه يكون عليهِ الأمر وفي يده قوَّةٌ واندفاعًا فيما يدعو إليه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ﴾:

(الواو) في جملة: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئنافيَّة؛

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

(2) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).

(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الصافات، ص: 162.

منهجُ الأممِ كلِّها مع أنبيائِها واحدٌ القلَّة يؤمنون بهم والكثرة يكذِّبونهم

إذ انتقلت الآياتُ السّابقة مِن ذِكر الظّالمين مِن قريش إلى ذكر عقوبتِهم، وأبانَت عن تقليدِهم الأعمى لآبائِهم، وتستأنف الآيات هنا خبرَ مَن ضلَّ مِنَ الأمم السّابقة، وتبيِّن أنَّ منهجَ الكفرِ واحدٌ في جميعِ الأمم، فأكثرُهم ضالٌّ عن سواء السَّبيل.

ويمكن اعتبارُ الواو حاليَّة، أي: إنَّ هؤلاءِ على خُطا آبائِهم، والحال أنَّ هذا منهجُ الأمم كلِّها مع أنبيائها، يَكفرُ بهِ، ويكذِّبُه أغلبُهم، كما يكذِّب هؤلاءِ محمَّدًا ﷺ، وفي ذلك تسليةٌ للرَّسول ﷺ، إلى ما فيه مِن وعيدٍ للمكذِّبين.

معنى (اللام) ودلالة (قد) في: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾:

تـآزرُ الأساليبِ في البيـان عن صدق الخبرِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ جوابُ قسم، أي: وباللّه لقد ضَلَّ قَبلَهُم[1]، و(اللام) في (لقد) ابتدائيَّة توكيديَّة، و(قد) تحقيقيَّة داعمةٌ لـ (اللام)؛ فتتآزران على القطعِ بصدق الخبرِ؛ حتى يتسلَّى الرَّسول ﷺ ويأنس إلى هذا الواقعِ الَّذي سبقه إليه إخوانه من الأنبياءِ والمرسلين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّلال ماضيًا:

الضَّلالُ يستوعبُ الكفرَ وزيادة

ذُكِرَ الضَّلالُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والمقصودُ: ولقد كفرَ قبلَهُم أكثرُ الأوَّلين، لكن التَّعبيرَ بالضَّلالِ أعمُّ دلالةً مِنَ الكفرِ؛ إذ يتَّسِعُ الضَّلال لِكلِّ أنواع الاختلال المعنويِّ والحسّي، ومن ذلك الكفرُ طبعًا، فالكفر ضلالٌ في العقيدة، وتنكُّبُ منهاج الشَّريعة فقط، بينما كان ضلالُهم عامًّا، حتى إنَّهم ضلّوا طريقَ الجنَّة إلى طريق جهنَّم، وكان سببُ ضلالِهم "التَّقليد وترك النَّظر والتَّأمُّل"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمجاز العقليِّ:

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ الضَّلال إلى الكفّار في قوله تعالى: ﴿ضَلَّ﴾... ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وإنَّما أضلَّ إبليس، ولم يذكر إبليس؛

(1) حقي، روح البيان: 7/ 466.

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 126.

لأنَّ في الكلام دليلًا عليه، فاكتفى بالإشارةِ، ومثل هذا كثيرٌ في القرآنِ[1]، ومِن بلاغةِ هذا الإيجازِ توجيهُ اللَّومِ إليهم، وبيان دورهم في هذا الضَّلال؛ إذ الشَّيطانُ لا يجرؤُ على الوسوسَةِ للعبد والتَّحكُّم فيه إلّا بعد أن يأذنَ له، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175]، فلمّا انسلخَ هو منها أوَّلًا؛ أتبعه الشَّيطان، فأغواهُ.

الشَّيطانُ لا يجرؤُ على الوسوسةِ للعبدِ والتَّحكُّم فيه إلّا برضاهُ

سرُّ التَّقييدِ بالقَبْليَّة في القيد ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ القيدِ بالقبليَّةِ، فقال: ﴿ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ وذلك لتطييبِ خاطرِه صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم بأنَّ الأشرارَ يتوالدونَ عقيدةً وفكرًا وسلوكًا، ويتتابعون على المنهج ذاتِه، وكأنَّه يقول: إنَّ هؤلاء - أيُّها الرَّسول - خَلَفٌ لأولئك السَّلف الأشرارِ، فماذا يُنتظَرُ منهم غيرُ التَّكذيب والكُفر؟ ففي تقييدِ الفعلِ ﴿ضَلَّ﴾ بالظَّرف ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ دعمٌ وتأكيدٌ لتسليَةِ الرَّسول ﷺ وكأنَّ القيدَ ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ يأخذ بالأذهانِ إلى الوراءِ، وكأنَّه ﷺ سيُعاين في ظرفِ القبليَّة السَّوادَ العظم منَ الأمم الماضيَةِ مجافين لدعوة الأنبياءِ والمرسلين، فيستمدُّ من ذلك القوَّة على مواصلة الدَّعوة، ولا يحزن لِضلال هؤلاءِ الضّالّين المكذِّبين.

القيدُ بالظَّرفِ يأخذُ بالأذهانِ لتُبصِرَ ما وقع فيه

الغرضُ مِن تقديمِ القيدِ ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

لأهميَّة القيدِ بالقبليَّة في تسلية الرَّسول ﷺ والدُّعاة من بعده؛ قدَّم النَّظم الكريم ذلك القيدَ على الفاعلِ، فقال: ﴿ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وفي ذلك استثارةُ تركيزِ الداعية، وشدُّ أزرِه في تبليغِ رسالتِه بأنَّ "الضّالّين من قومِه ليسوا أوَّلَ الضّالين، ولا آخرهم، فلقد ضلَّ قبلَهم أكثرُ النّاس، وقليل هم المؤمنون: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]"[2].

الداعيةُ يتأسَّى بصبرِ الدُّعاة السّابقين في تبليغ رسالتِه

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 144.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 990.

التَّعبيرُ بالضَّمير رسائلُ لِمن طوي اسمُهُ فيه يفهمها العربي الفصيح

مرجعُ الضَّميرِ ولطيفة الإضافة في ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ﴾، أي: "قبل قومِكَ"[1]، فالضَّمير المضافُ إلى الظَّرف في القيد ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ يعودُ إلى مشركي مكَّة وكفّار قريش، الَّذين يعالجُ الرَّسول ﷺ جحودَهم وعنادَهم؛ لأنَّهم أمَّتُهُ الذين بُعِثَ فيهم ولهم ﷺ أوَّلًا، وفي ذِكرهم بضميرِ الغائبين مضافًا إليه الظَّرف (قبل) رسالةٌ مبطَّنةٌ لكفّار قريش، مفادها: أنَّ ذِكر أسمائِكم وذِكرَ صفتِكم إلى طيٍّ وإهمال، مثل مَن (قبلكم) إنْ أصرَرْتم على العنادِ، واشتريتم الكفرَ بالإيمانِ، مع هذا الدّين ذِكرٌ لكم وشرفٌ.

المأمولُ أن يهتديَ النّاس جميعًا، والواقعُ أنَّ أكثرَ النّاس على ضلال

دلالةُ التَّعبيرِ بالكثرةِ في: ﴿أَكۡثَرُ﴾:

التَّعبيرُ بالكثرةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يتَّسق مع نصوص الشَّرع الحنيف، القاضية بأنَّ الضَّلال دائمًا مع الكثرةِ، وأنَّ الهدى مع القِلَّة، ومن هذا ينبثق قولُهُ ﷺ: "فواللّهِ لأن يَهديَ اللّهُ بِكَ رَجُلًا خَيرٌ لكَ مِن أن يَكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم"[2]، فيدلُّ على أنَّ المأمولَ في النّاس غيرُ الواقع فيهم، فالمأمولُ أن يهتديَ النّاس جميعًا، والواقعُ أنَّ أكثر النّاس على ضلال.

كثرةُ العددِ لا تُسوِّغُ الضَّلال، والهدى والضَّلال ليسا من آثار العددِ كثرةً وقلَّةً

نكتةُ صوغِ ﴿أَكۡثَرُ﴾ على (أفعل):

صوغُ الفاعلِ ﴿أَكۡثَرُ﴾ على (أفعل) يدلُّ على الكثرة المعنويَّة بِطريق التَّفضيل إلى الكثرة اللَّفظيَّة في المادَّة اللُّغويَّة.

"وُصِف الذين ضلّوا قبلهم بأنَّهم ﴿أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لِئَلّا يَغترَّ ضعفاءُ العقولِ بكثرة المشركين، وليعلموا أنَّ كثرةَ العَدَدِ لا تُبرِّر ضلالَ الضّالّين ولا خطأ المخطئين، وأنَّ الهُدى والضَّلال لَيْسا من

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 12.

(2) البخاري، صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ: 4/ 60 برقم: (3009).

آثارِ العَدَدِ كثرةً وقِلَّةً، ولكنَّهما حقيقتان ثابتتان مستقِلَّتان، فإذا عَرَضَتْ لإحداهما كثرة أو قلَّة، فلا تكونان فتنةً لِقِصار الأنظار وضعفاء التَّفكير، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100]"[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وصوغه على (أفعل):

كثرةُ الضّالّين عن المهتدين منهج مطَّرِدٌ في النّاس جميعًا

عبَّر الذِّكرُ الحكيم عن الأمم السّابقة على أمَّة العربِ بـ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دون السّابقين، وذلك أنَّ في السّابقين معنى السَّبْق، وهو مدحٌ، كما يوهم وصف (السابقين) أنَّ المقصودَ: "السّابقين على قريش مباشرة"، وهم أُمَّة عيسى ﷺ، وربَّما تضربُ إلى الماضي بجيلٍ أو جيلينَ أو أمَّة أو أمَّتين فقط.

أمّا وصْفُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ فيضربُ في جذورِ التّاريخ البشري حتى أُمَّة نوح ومن تلاهم مِنَ الأمم، وفي ذلك دعمُ الكنايةِ عن اطِّراد ذلك المنهج في النّاس جميعًا، و"الأوَّلين جمعُ الأوَّل، وهو هنا مستعملٌ في معنى الماضين السّابقين عمومًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فإنَّ الذين أُهلِكوا قد انقرضوا بِقَطْعِ النَّظر عمَّن عسى أن يكونَ خلفَهم مِنَ الأمم"[2].

معنى (الواو) في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ﴾:

الدّلالاتُ القرآنيَّةُ تتلاقى، وتتَّسقُ، ممّا يقرِّر أنَّه كلامُ الله

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فإنَّهم لمّا ضلّوا، وأبعدوا في الضَّلال؛ أرسلَ اللّهُ تعالى فيهم منذِرين يُحذِّرونهم عاقبةَ الضَّلال، ويُبَيِّنون لهم سبيلَ الرَّشاد.

ومن إشاراتِ (الواو) هنا الرَّبطُ بين وجود كلِّ أمَّة ببعث رسول أو أكثر إليها، وأنَّه لم توجد أُمَّة لم يُرسَل فيها نذيرٌ، وذلك ما جاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 165.

مصرَّحًا في آية أخرى؛ إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]، وهكذا تتناغم الدَّلالاتُ القرآنيَّةُ، ويؤكِّد بعضُها بعضًا، وما جاءَ إشارةً مطويَّةً في موضع، جاء صريحًا في موضع آخرَ، ممّا يقرِّر أنَّه كلامُ اللّهِ تعالى، وأنَّه إنّما يخلو من الاختلافِ لذلك.

معنى (اللام) ودلالة (قد) في: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

يقتضي إرسالُ الرُّسلِ إيمانَ أكثرِ الأممِ؛ فدلَّ ضلالُ أكثرِهم على ضعف آدميَّتهم

(اللام) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾، موطِّئة للقسم، و(قد) تحقيقيَّةٌ داعمةٌ لهما في تَثْويرِ العَجَب في نفوس المتلقّين، وفي قرعِ آذانِ كفّارِ قريش؛ إذ كان يقتضي إرسالُ الرُّسلِ المنذرين إلى الأمم أنْ يصيرَ أكثرُهم مؤمنين، أما وقد ضلَّ أكثرُهم؛ فإنَّه دليلٌ على ضعفِ آدميَّتهم أمام إبليسَ الَّذي أضلَّهم، وأعمى أبصارَهم، برغم عدم سلطانِه عليهم، وإنَّما إغواؤُهُ وسوسةٌ لا جبْرَ فيها، وفي تصدير الجملةِ بـ (اللام)، والقسَم، و(قد)، إبرازٌ لكمال العنايةِ بمضمون الخبرِ، وتلك العناصرُ المتكاثفة المتكاتفة تتآزرُ على انتزاعِ كلِّ شكٍّ قد يخالج النُّفوس في واقعيَّة ذلك الخبر العجيب.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستعارة في فعل الإرسال:

سيدفعُ اللهُ عن رسولِه كيدَ الضّالين، كما فعل بالمرسلين مِن قبلِه

كَلَّفَ اللّهُ تعالى المنذِرين بتبليغِ أقوامِهم، ولِما لِهذا التَّكليف مِن عظمةٍ وخطورة صوِّر في صورة إرسالِ رسولٍ من مكانٍ إلى مكانٍ برسالةٍ مهمَّة، يحملُها الرَّسول؛ ليؤدّيها إلى المرسلِ إليه، والرَّسول يتكبَّد مشاقَّ حَمْلها، ويعالج بُعدَ السَّفر مِنَ المرسِل إلى المرسَل إليه، فوجبَ احترامُ كلِّ رسولٍ يَقدُم على المرسلِ إليهِ برسالةٍ، وأن يُحتفَى بهِ، ويُحسنَ استقبالُه.

وتكونُ حفاوةُ استقبالِ السَّفيرِ أو الرَّسول بحسب قدْرِ مَن أرسلَهُ، وبقدرِ قيمةِ الرِّسالة الَّتي يحملُها، وبهذا الإيحاءاتِ في جملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، كان ينبغي على الأمم تكريمُ رُسلِها وإكرام وفادتهم؛

لأنَّهم مكلَّفون من قِبَلِ أعظم مرسِلٍ هو اللّهُ ﷻ ويحملون أعظم رسالة، فما بالهُم يُعادون الرُّسل؟ وما بالهم يُجالِدونهم إلى حدِّ المقاتلة، بل ربَّما قتلوا بعضهم قتلًا، كما فعلت بنو إسرائيلَ؟ فيا لَهذهِ الجراءةِ على رُسلِ اللّهِ تعالى ﷺ، وعلى رسالةِ مرسلِهم جلَّ في علاه!

كما أنَّ ذلك التَّصويرَ "تطمينٌ لقلب النَّبيِّ ﷺ وأنَّ اللّهَ تعالى سيدفع عنه كيدَ هؤلاءِ الضّالين، كما فعل بالمرسلين مِن قبلِهِ؛ إذ نجّاهم والمؤمنين معهم من كيدِ الكافرين، الَّذين أخَذَهُم اللّه أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ"[1].

سرُّ إسنادِ الإرسالِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

تعظيمُ اللهِ ﷻ واجبٌ على المؤمن، وكذلك الإيمان بأنَّ رُسُلَهُ حقٌّ

ضميرُ العظمةِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ يدلُّ على عظمةِ الرِّسالة الَّتي جاء المنذِرون ﷺ مِن عندِ اللّهِ تعالى لتبليغها للنّاس، وأنَّه لذلك وجبَ الإيمانُ بها، بل وإكرامها وإكرامُ من جاء بها؛ تعظيمًا وإكرامًا لمن أرسلَهم ﷻ.

معنى (في) وبراعة التَّقييد في ﴿فِيهِم﴾:

تمكُّن الكفّارُ من وعي الرّسالة، فلم ينتفعوا بها بل حاربوها

(في) في جملة: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ حرفٌ للظرفيَّة المجازيَّة؛ إذ كان الإرسالُ إليهم لا فيهم، وأنَّهم غايةُ الإرسال، وأنَّ هدايتهم مطلوبُ الإرسالِ أصلًا، فعبَّرَ النَّظم الكريم بـ (في) دون (إليهم)، وكأنَّ المنذِرين ﷺ إنَّما أُرسِلوا في وسطِهم، وكأنَّ الأمَّة ظرفٌ وُضِعت فيهِ الرِّسالة؛ كناية عن تمكُّنهم مِن وعي الرِّسالات، وتمكُّن بصرِهم بمزاياها المنيرةِ المباركةِ، ومع ذلك لم ينتفعوا بها، بل أصرّوا على الجحودِ، وذلك أوقعُ في باب التَّسليةِ للرَّسول ﷺ، كما هو أوقع في صبِّ الإنكار والذَّمِّ عليهم.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 991.

الضّالّون مبعدونَ عن رحمةِ الله

وجهُ مرجعِ الضَّميرِ في القيدِ ﴿فِيهِم﴾:

"ضميرُ ﴿فِيهِم﴾ راجعٌ إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: أرسلنا في الأوَّل منذِرين، فاهتدى قليلٌ، وضلَّ أكثرُهم"(1)، والذِّكْرُ بضميرِ الغائب يُلمَحُ في مقامِ اللَّومِ والذَّمِّ إلى إبعادِهِ؛ نتيجةً لبُغض سلوكه.

التّصرُّفُ في التّراكيب القرآنيَّة يترجم دلالاتٍ جليلةً

الغرضُ من تقديمِ ﴿فِيهِم﴾ على ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

قدَّمَ النَّظم الكريمُ القيدَ ﴿فِيهِم﴾ على المفعول ﴿مُّنذِرِينَ﴾ في جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾؛ إمعانًا في بيان تأصُّل الضَّلال في ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وتمكُّنه منهم، وفي ذلك مزيدُ اعتناءٍ بهدايتهم، ممّا يعكس مزيدَ عنادٍ لَفَّهم، وخطورة ضلال استحكمَ منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُّنذِرِينَ﴾، ولطيفة تنكيره:

خَصَّ المرسلين بوصف المنذرين لِمناسبةِ حال المتحدَّث عنهم وأمثالِهم

في التَّعبيرِ بـ (الإنذار) دون (الإرسال) في المفعول ﴿مُّنذِرِينَ﴾ تركيزٌ على جانب الإنذارِ والتَّخويف من عواقب الضَّلال والكفر، فالإنسان بطبعهِ وجِبِلَّتِهِ يَرهب العذابَ أكثر ممّا يرغبُ النَّعيم، فذُكِر المرسلونَ بوصفِ الـ ﴿مُّنذِرِينَ﴾ لعلَّه يُجْدي معهم، أو يؤثِّر فيهم، ومع ذلك لم يتأثَّروا، ولم يؤمنوا؛ فيا لقسوة قلوبهم!

والعدولُ عن (مرسلين) إلى ﴿مُّنذِرِينَ﴾ - برغم عدم ملاءمتِه لفعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ - يحقِّق الجناس الفاعل مع ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ في فاصلةِ الآيةِ التّالية: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، قال ابنُ عاشورٍ: "وخَصَّ المرسلين بوصف المنذرينَ لِمناسبةِ حال المتحدَّثِ عنهم وأمثالِهم"(2).

وفي تنكيرِ ﴿مُّنذِرِينَ﴾ دلالةٌ على عظيم قدرِهم عند ربِّهم ، كما فيه إشارةٌ إلى كونِهم "أنبياءَ أولي عَدَدٍ كثيرٍ، ذوي شأن خطير، بيَّنوا لهم بطلان ما هم عليه وأنذروهم عاقبتَهُ الوخيمة"(3).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.

(3) حقي، روح البيان: 7/ 466.

إشارةُ الجمعِ باسم الفاعل في ﴿مُّنذِرِينَ﴾:

الجمع في ﴿مُّنذِرِينَ﴾ يدلُّ على كثرةِ المبعوثين منهم عليهم السلام في الأمم السّابقة، وتتابُعهم إلى هؤلاءِ الكفّارِ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ومع ذلك لم يسمعوا لهم، ولم ينتفعوا بإنذارِهم؛ وذلك داعمٌ لِقضيَّة التَّسلية المقصودةِ لِرسول اللّه ﷺ، وممّا يدعم مواساةَ الرَّسول ﷺ أيضًا بناءُ ﴿مُّنذِرِينَ﴾ اسمَ فاعل، فإنَّه يوحي بأنَّ الإنذار امتدَّ، ودامَ على هؤلاء الكفار بدوام بقائِهم، ومع ذلك لم يُجْدِ معهم، فلا تحزن - أيُّها الرَّسولُ - لِجهودك مع كفّار قريشٍ، فما عليك إلّا البلاغُ.

لا يبتَئِسِ الدُّعاةُ لطول دعوتِهم الَّتي لم تُجدِ في العُصاة، فالله تعالى يهدي من يشاء

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ تفريعيَّةٌ؛ إذ "فُرِّع على هذا التَّوجيه الخطابُ إلى الرَّسول ﷺ؛ ترشيحًا لِما في الكلام السّابق مِن جانب التَّسلية والتَّثبيت، مع التَّعريض بالكلام؛ لتهديد المشركين بذلك"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (النظر) في الأمرِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

عُبِّرَ بالنَّظر عن تدبُّر العقل والقلب؛ لقوَّة النَّظر في الحسِّ المباشر في نقل المنظور إليهما، فحُمِل المسموعُ على المبصَر في التَّوصيل إلى العقل والقلب ليتدبَّرا.

النَّظَرُ في الذِّكر الحكيم نوعان نـظَـرُ إبْـصـارٍ، ونظرُ اعتبارٍ

و"إنْ أُريدَ بالعاقبة عاقبتُهم في الدُّنيا؛ فالنَّظَرُ بَصَريٌّ، وإن أريد عاقبتُهم في الآخرة - كما يقتضيه السّياقُ - فالنَّظر قلبيٌّ، ولا مانع مِن إرادة الأمرين، واستعمال المشترَكِ في المعنيين"[2].

غرضُ الأمرِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

الأمرُ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾ خارجٌ عن قصد الإلزام إلى معنى التَّسليَةِ بالنِّسبة للرَّسول ﷺ، ومَن يقوم مقامَهُ في الدَّعوة إلى دين الله

عاقبةُ الكافرين وخيمةٌ في الدُّنيا وفي الآخرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.

تعالى من علماءِ الأمَّة ودعاتها، وإلى معنى الاعتبار بالنِّسبة للظّالمين الجاحدين وجودَ اللّهِ تعالى، المكذِّبين بالبعث والحساب، بل ومعنى المؤمنين بالنِّسبة للمؤمنين؛ فيحمدون اللّه تعالى، ويدومون على إيمانِهم واعتصامِهم بدينه الحنيفِ، وإلى ذلك فـ "الأمرُ بالنَّظر مستعمَلٌ في التَّعْجيب والتَّهويل"[1]، من هول مصائرِ الكافرين؛ إذ "يقتضي إهلاكَهم وسوءَ عاقبتهم"[2].

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

على العقلاءِ تدبُّرُ مصيرِ الكافرين، والسَّعيدُ مَن وُعِظَ بغيرِه

يصحُّ أن يكونَ المخاطَبُ بالفعل ﴿فَٱنظُرۡ﴾ رسولَ اللّهِ ﷺ؛ ليتسلَّى عن تكذيبهم إيّاه في دعوتِه بجهاد الأنبياء والمرسلين قبله، وانتصارِ اللّه تعالى لهم من الكفّار، وأن يكون خطابًا لكلِّ مَن يتأتّى منه النَّظر والاعتبار مِنَ النّاس - والسَّعيد من وُعِظ بغيره - وبخاصَّة "الكفار؛ لأنَّهم سمعوا بالأخبار جميعَ ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم، فإن لم يعلَموا ذلك؛ فلا أقلَّ مِن ظنٍّ وخوف يَصلح أن يكونَ زاجرًا لهم عن كفرِهم"[3].

غرضُ الاستفهامِ في: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾:

كلُّ تعريضٍ بالعذاب تحذيرٌ لكلِّ إنسانٍ يَبلُغه القرآن

الاستفهامُ في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ "تعجيبيٌّ للتَّفظيع"[4]، وللتَّهويل ممّا حلَّ بأكثرِ المنذَرين مِنَ الأوَّلين، مِن خيبةِ سعي في الدُّنيا، ومن عذابٍ أليمٍ في الآخرة، فهذا الجحيمُ السّابقُ ذِكْرُهُ، وسواءُ الجحيم، وطعامُ شجرة الزَّقّوم المنصوص عليه، بعضُ ما ينتظرُهم هنالك في أودية العقاب.

كذلك وراء الاستفهامِ هنا تعريضٌ لكفّار مكَّة، بل ولكلِّ إنسان يبلغه القرآنُ، وتخويفٌ وتحذيرٌ من أنْ يَحُلَّ بهم مثل ما حَلَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 128.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 107.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 338.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 129.

بهؤلاء من العذابِ، "قال مقاتلٌ: يقول: كان عاقبتُهم العذابَ، يحذِّر كفّار مكَّةَ"(1).

كذلك في هذا الاستفهام "تهديدٌ لهؤلاءِ المشركين، وجَمْعٌ بينهم وبين مَن أهلكَهم اللّه تعالى من المكذِّبين بِرُسُلِ اللّهِ ﷻ على مورد الهلاك، وسَوْقٌ لهم جميعًا إلى عذاب الجحيم"(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي:

سوءُ عاقبةِ الكافرين وشيكٌ - إن لم يتوبوا - وحتميٌّ؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ

عبَّر الذِّكر الحكيمُ بالكون الماضي في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، والإيجاز يتحقَّق بدونه، فيقالُ في غير القرآنِ الكريمِ: (فانظر كيف تكون عاقبة المنذرين)؟ أي: في الدُّنيا هنا، وفي الآخرة الَّتي لم تَحِنْ بعدُ.

لكن النَّظم الكريم عبَّرَ بالكون الماضي لإفادة تَحقُّق الوقوع، فكلُّ آتٍ هو في عداد ما مضى بالنِّسبة للّه تعالى، وفي ذلك مزيدُ تهديدٍ للكفار، كما فيه مزيدُ تثبيتٍ ومواساةٍ لرسولِ اللّه ﷺ، والدُّعاة إلى اللّه تعالى مِن بَعدِه.

كذلك في التَّعبير بالكون الماضي ملاءمةٌ لما حلَّ في الأمم الماضية مِن هلاك في الدُّنيا، وكانت العاقبةُ للمتَّقين، كما في ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21]، وكما أنَّ حسن خواتيم المؤمنين في الدُّنيا مبشِّرٌ بحسن مصيرهم في الأخرى، كذلك سوءُ خواتيمِ الكافرين في الدُّنيا كاشفٌ عن سوءِ مصيرِهم في الأخرى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ مضافةً:

العِبرةُ في الجهاد الظَّفَرُ بثمرة الثَّمرةِ، فالنَّتائج بمقدِّماتها

في التَّعبير بمفردةِ الـ ﴿عَٰقِبَةُ﴾، دونَ ألفاظ (آخرة وخاتمة ونهاية) لَفْتٌ إلى ثمرةِ الثَّمرةِ ونهاية النِّهاية، وتنبيهٌ إلى أنَّ نهاية المنذَرين المكذِّبين إلى الجحيم نتيجةٌ لما قدَّموه من أسباب، وكذلك

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/ 551، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 527.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 991.

ستكون نهايةُ كفّارِ قريشٍ؛ إن لم يتوبوا، ويؤمنوا؛ إذ الـ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ "آخرُ أمرِ الَّذين أُنذِروا مِن الهول والفظاعة والهلاك؛ لمّا لَمْ يَلتفتوا إلى الإنذار، ولم يرفعوا لهم رأسًا"[1]، والـ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ "ما يؤدّي إليها السَّببُ المقدَّم، وليس كذلك الآخرة؛ لأنَّه قد كان يمكن أن تجعل هي الأولى في العِدَّة"[2]، والخاتمة والختام من كلِّ شيءٍ: آخره[3]، والنِّهاية: منقطَع الشَّيء، فقيل: هو نهايته، أي: منتهاه[4].

لطيفةُ تذكيرِ الفعل ﴿كَانَ﴾ مع تأنيث ﴿عَٰقِبَةُ﴾:

قد يُذكَّرُ المؤنَّث لفظًا مبالغةً في الوصف

في تذكيرِ الفعل ﴿كَانَ﴾ مع ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ المؤنَّثة مبالغةٌ في تهويل أمرها؛ إذ يوجِّهُ تذكيرُ الفعل معناها نحو معنى العذابِ ومحلِّ العقابِ، وهو الجحيمُ المذكور قبل آياتٍ: ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

معنى (ال) في ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، ولطيفة جمعه:

تَحقُّقُ اشتراكِ اللّاحِقين مع السّابِقين في الضَّلال يَجعل عاقبَتَهم كعاقبتهم

(ال) في ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تعريفيَّة عهديَّة؛ إذ هم المفهومون من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾، المضمَرون في القيد ﴿فِيهِم﴾، فهؤلاءِ هم (المنذَرون) المقصودون، على أنَّ منهم ناجون موفَّقون، لكنَّ المقصودين هم الواقعون تحت الوعيد بقولهِ تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، وفي ذلك كنايةٌ عن سوءِ العاقبة، فـ "كما فعل هؤلاءِ الذين ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾، فاتَّبعوهم، فقد تحقَّق اشتراكُ هؤلاءِ وأولئك في الضَّلال، فلا جرمَ أن تكونَ عاقبةُ هؤلاءِ كعاقبة أولئك"[5].

(1) حقي، روح البيان: 7/ 466.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 551.
(3) رضا، معجم متن اللغة: (ختم).
(4) العسكري، معجم الفروق اللغوية: 5.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 129.

فائدةُ إيقاعِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ على عاقبة ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

أغلبُ النّاسِ إلى الجحيم، والقلّةُ منهم المخلصونَ النّاجون

وقعَ الفعلُ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ على عاقبةِ (الْمُنْذَرِينَ) جميعًا، ومنهم المستثنون ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ لتغليب الضّالّين منهم - الذين أهلكهم اللّه تعالى - على ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ الذين هم قِلّةٌ قليلةٌ مستثناة من هذا الطّوفان الكبير[1] مِنَ البشر الضّالّين.

بلاغةُ الجناسِ بين الـ﴿مُّنذِرِينَ﴾ و﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

بديعُ الجناس في القرآنِ الكريم؛ لِما فيهِ من وفرةِ الفائدةِ في خدمة المعاني

بين الـ﴿مُّنذِرِينَ﴾، و﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ جناسٌ محرَّفٌ؛ إذ تتَّفق الكلمتان في نوعِ الحروف، وترتيبها، وعددها، وتختلفانِ فقط في بعض الحركاتِ، وذلك ممّا يحقِّق الإثارةَ والانتباهَ، بما فيه من عنصرِ المخادَعةِ الَّتي عناها عبد القاهر؛ إذ يقول في ضابط حسن الجناس في كلام بعضهم: "قد أعادَ عليك اللَّفظةَ كأنَّه يخدعُك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمك كأنَّه لم يَزِدْك، وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فبهذهِ السَّريرة صار التَّجنيس وخصوصًا المستوفَى منه المُتَّفَقَ في الصّورة مذكورًا في أقسام البديع[2]، ولا أبدع من تجنيس القرآن الكريم؛ لِما فيه من وفرةِ الفائدةِ في خدمة معانيه.

معنى الاستثناءِ في قولهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾:

عبادُ اللهِ المخلَصون موفَّقون، فليسوا داخلين في جنس المتوعَّدين بسوء العاقبةِ

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثنائيَّةٌ منقطعةٌ، والمعنى: لكنَّ عبادَ اللّه المخلَصين موفَّقون، منعَّمون بِرضوان اللّه تعالى وجنانه، وليسوا داخلين في جنس ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ المتوعَّدين بسوء العاقبةِ، المفهوم من قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، فـ "استثنى ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ من عباده، فهُم الأقلُّ المقابل لقوله: ﴿أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والمعنى: إلّا عبادَ اللّه، فإنَّهم نجَوا"[3].

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 991.

(2) الجرجاني، أسرار البلاغة: 7.

(3) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 9/ 108.

سرُّ الإضافةِ في ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾:

التَّنويهُ بعظيمِ ما قدَّم المُكلَّف مِن إيمانٍ وعملٍ صالحٍ

في إيثار إضافةِ ﴿عِبَادَ﴾ إلى الاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ إضافتِهم عنوانَ الرُّبوبيَّة إشارةٌ إلى عظمة الرِّضوان الإلهيِّ عليهم؛ لأنَّ الرَّبَّ يعطي كلَّ النّاس، أمّا الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فمُكَلِّفٌ، فإذا أعطَى المكلَّفَ؛ دلَّ على عظيم ما قدَّم المَرْضيُّ عليهم من الإيمان.

معنى (اللام) في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

المخلَصون الذين آمنوا، وأخلصوا دينَهم لله، وأخلصَهم اللهُ لدينِه

(اللام) في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ جنسيَّةٌ، تستغرق كلَّ مخلَص أخلصه اللّه تعالى له، واصطفاه لخدمةِ دينِه، وإقامة حدودِه وشرائعه، وتستغرق كلَّ مخلِص أخلصَ نفسَهُ ودينَهُ للّه تعالى، فـ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ هم "الذين آمنوا، وأخلصوا دينَهم للّهِ، أو أخلصَهم اللّهُ لدينِهِ، على القراءتين"[1]، "فإنَّهم لم يعذَّبوا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإخلاص، وصوغه اسم مفعول:

الإخلاصُ روحُ الدّين وآيةُ العبوديَّة وأمارةُ القبولِ وأخصُّ ما يتحلَّى به العباد

التَّعبيرُ بوصف الإخلاصِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ دونَ غيرِه مِنَ الأوصاف الطَّيِّبة دليلٌ على أنَّ الإخلاصَ روحُ الدّين، وأمارةُ القَبولِ، وآيةُ العبوديَّةِ للّهِ ﷻ، ففيه تنبيهٌ إلى أخصِّ ما يجب أن يتحلَّى به الـ ﴿عِبَادَ﴾ في علاقتِهم باللّهِ تعالى كي يرتقوا إلى درجةِ الـ ﴿عِبَادَ﴾، فـ "المُخلَص هو مَن اختاره اللّه تعالى للهُدى مِن بين هذا الرُّكام، وصفّاه مِن شوائب الضَّلال الضارِب بجِرانِه على القوم"[3].

وفي صوغه اسمَ فاعلٍ دليلٌ على ثبات الـ ﴿عِبَادَ﴾ عليه، ورسوخه فيهم، لا يذبذبهُ شكٌّ، ولا يزلزله حدَثٌ، فاللّهمَّ اجعلنا منهم.

(1) بفتح اللام وكسرها، الزمخشري، الكشاف: 4/ 47.

(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 144.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 991.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنذار والتَّخويف:

الإنـذارُ تخويفٌ مـع إعــلام، والـتَّـخـويـف مطلقٌ

الإنذار: تخويفٌ مع إعلام موضعِ المخافةِ، من قولك: نذرتُ بالشَّيء؛ إذا عُلِّمْتَهُ، فاستعدَدْتَ له، فإذا خَوَّف الإنسانُ غيرَهُ، وأعلمَهُ حالَ ما يُخوِّفه به؛ فقد أنذرَهُ، وإن لم يُعْلِمْهُ ذلك؛ لم يقل: أنْذَرَهُ، والنَّذْرُ ما يجعلُهُ الإنسانُ على نفسِهِ؛ إذا سَلِم ممّا يَخافُهُ، والإنذارُ إحسانٌ مِنَ المنذِرِ، وكلَّما كانتِ المخافةُ أشدَّ؛ كانت النِّعمةُ بالإنذار أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلى اللّه عليه وآله وسلَّم أعظمَ الناسِ مِنَّةً بإنذارهِ لهم عقابَ اللّه تعالى[1].

---

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 78.

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الصافات: 75 - 76]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُا:

من دعائم المواساةِ ذِكرُ القَصصِ المشابِهة لأخذ العِبرة

لمّا أعلمَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في الآيات الَّتي مضَتْ بأنَّ أكثرَ الأممِ السّابقة ضلّوا عن سواءِ السَّبيل، ولم يستجيبوا لدعوة رُسلِهم عليهم السلام إلى التَّوحيد، وأنَّه تعالى أهلكَ الضّالّين منهم، ونجّى عباده المخلصين؛ أعقبَ ذَلك بِذِكْرِ قصَّة أوَّلِ نبيٍّ هو نوحٌ عليه السلام، وما عوقِبَتْ بِهِ أمَّته مِن كَرْبِ الغَرَقِ، الَّذي نجّاه اللّه تعالى وأهله المؤمنين منهُ؛ إجابةً لِندائِه ودعائه ربَّهُ جل جلاله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾: (جوب) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ خَرْقُ الشَّيءِ، يُقالُ: جُبْتُ الأرضَ جَوبًا، فأنا جائِبٌ وجَوّابٌ[1]، ومِن أسماءِ اللّهِ تعالى (المُجيبُ)، وهوَ الَّذي يُقابِلُ الدُّعاءَ والسُّؤال بالعَطاءِ والقَبول سبحانه وتعالى، وهوَ اسمُ فاعِلٍ مِن أجابَ يُجيبُ، والجَوابُ، معروفٌ: تَرديدُ الكَلامِ، والفِعلُ: أجابَ يُجيبُ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة: 186]، أي: فَلْيُجيبوني[2].

والاستجابةُ قيل: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عبَّر بِهِ عن الإجابة لقلَّة انفكاكِها منها، قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24]،[3] ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾، أي: فنعم مَن يقابلون السُّؤال بالقبولِ والعطاء نحنُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(3) الراغب، المفردات: (جوب).

2) ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾: (كرب) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى شِدَّةٍ وقوَّةٍ، يُقالُ: مَفاصِلُ مُكْرَبَةٌ، أي: شَديدَةٌ قَويَّةٌ، وأصلُهُ الكَرَبُ، وهوَ عَقدٌ غَليظٌ في رِشاءِ الدَّلوِ يُجعَلُ طَرَفُهُ في عَرقوَةِ الدَّلوِ، ثُمَّ يَشُدُّ ثِنايَتُهُ رِباطًا وثيقًا، يُقالُ مِنهُ: أكرَبْتُ الدَّلوَ[1]، والكَرْبُ: الغمُّ الشَّديد، قال تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]، والكُرْبَةُ كالغُمَّة، وأصلُ ذلك مِن: كَرْبِ الأرضِ، وهو قَلْبُها بالحفرِ، فالغمُّ يثير النَّفس إثارة ذلك، وقيل في مَثَلٍ: الكِرابُ على البقر، ويصحُّ أن يكون الكَرْبُ من: كَرَبَتِ الشَّمس؛ إذا دَنَتْ للمغيب[2]، والمقصودُ بالكربِ العظيمِ في الآية الكريمة: الغَرَقُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـن كـانَ اللـه تعـالى رجـاءَهُ؛ أجابَ اللهُ تعالى له دعاءَهُ

شرعَ اللّهُ يبيِّن كيف بدأ الضَّلال؛ إذ كان من أوَّل رسولٍ أرسله اللّه إلى أهل الأرض، وهو نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاعتبر أيُّها الرَّسولُ بأنَّ رسولَنا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نادانا، وسألَنا أن نُنَجّيَهُ مِن شرِّ قومه، ومن الغَرَقِ الَّذي عمَّ الأرضَ، فأغرق الكافرين، فحاقَتْ بسفينته أسبابُ الكرب، فأجبناهُ، وحقَّقْنا له رجاءه، ومن خصائصنا أنَّنا نحن نِعْمَ مَن يُجيب المضطرَّ؛ إذا دعاه، ويكشف عنه سوء ما حاق به، وقد نجَّينا معه أهلَ دينه دينِ التَّوحيد الخالص والملَّة الحنيفيَّة من هول ما حلَّ بمناوئيهم، وأنقذناهم من كُربة الغرق الَّذي أهلك الكفّار.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

الأمـمُ الكـافرةُ كلُّها متشابهةٌ

(الواو) في جملة: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ عاطفةٌ على جملةِ: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وما بينهما استطرادٌ يَستقصي الحديث

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرب).
(2) الراغب، المفردات: (كرب).

عن ﴿أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فهذهِ الواوُ تعطفُ قصَّةً على قصَّة والمناسبة بينهما جلية، فهذا نوحٌ عليه السلام والمخاطَب محمَّد ﷺ، وهذه قريشٌ الَّتي تُحذَّر من الكفر وأولئك ﴿أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: الكافرين، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14] دون جدوى.

معنى (اللام) ودلالة (قد) في: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا﴾:

تحذيرُ المشركين لإنكارهم استجابةَ دعوةِ نوح عليه السلام

(اللام) في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ "هي الموطِّئة للقسم"[1]، والتقدير: "وتأكيدُ الخبر وتأكيد ما فُرِّع عليه بِلام القَسَم لِتحقيق الأمرين؛ تحذيرًا للمشركين بَعد تنزيلهم منزلةَ مَن يُنكرُ أنَّ نوحًا دعا، فاستُجيبَ له"[2]، وفي ذلك إشعارٌ لهم بخطورةِ ما هم فيه من إنكارِ الحقائق المستقرَّة، والَّتي منها إنكارُ نبوَّةِ الرَّسول محمَّد ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي (نادى):

نداءُ الأنبياءِ عليهم السلام ربَّهم ﷻ في قوَّة الدُّعاء

النِّداءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ يتضمَّن معنى (الدُّعاء) بقرينه قوله تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾، ويتضمَّن "سؤالهُ النَّجاة، وطلب النُّصرة"[3]، وكان "دعاؤهُ على قومِهِ عند إياسِهِ من إيمانِهم، وإنَّما دعا عليهم بالهلاك بعد طول الاستدعاءِ لأمرين: أحدهما: ليطهِّرَ اللّهُ الأرضَ من العصاة، الثاني: ليكونوا عِبرةً يتَّعظ بها مَن بَعْدهم مِنَ الأمم"[4].

والتَّعبيرُ بالنِّداء ماضيًا يُلمِح إلى طول معاناة نوحٍ عليه السلام، واستنفاذِهِ وسائلَهُ في دعوة قومِهِ إلى اللّهِ تعالى دون جدوى، فاستغاث بربِّهِ تعالى أن ينجّيه من شرِّ الكفّار، فاستجابَ اللّهُ تعالى حيث قال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 459.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 108.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 53.

الغرضُ مِن الإسناد في ﴿نَادَىٰنَا﴾:

كلُّ فِعلٍ يُضاف إلى اللّه تعالى يُشاركه فيه غيرَهُ يُـزاد فيه شيء يَكون فاصلًا

في إسنادِ الفعل ﴿نَادَىٰنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ مزيدُ تطمينٍ ومواساة للدُّعاة عمومًا، ولرسولِ اللّهِ ﷺ الذي نزلَ عليهِ هذا الوحي خصوصًا؛ إذ العظيمُ ﷻ يُنزل النَّصر العظيم، ويُفيض الخير العميم، فلا كربَ والعظيمُ ﷻ هو الرَّبُّ.

و"كلُّ فِعلٍ يضاف إلى اللّهِ تعالى يُشاركُهُ فيه غيرُهُ، أو يُنسب يُزاد فيه شيء يَكون فاصلًا، وذلك بينه وبين فعلِ غيرِه، نحو ما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45] لأنَّه قادرٌ على وفاء ما وعدَ، وأخبرَ، وإنجاز ذلك لا يعجزُهُ شيءٌ، وغيره من الخلائقِ لَعلَّهم لا يَقدرون على وفاءِ ذلك والقيام بإنجازِ ما وعدوا؛ لذلك كان ما ذكر، واللّه أعلم"[1].

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَلَنِعۡمَ﴾:

دعاءُ الصّالحين مظنَّة الاستجابة

(الفاء) في قولهِ تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ "فصيحةٌ، أي: وتاللّه لقد دعانا نوح حين أيسَ مِن إيمان قومِهِ، بعد أن دعاهم أحقابًا ودُهورًا، فلم يزدْهم دعاؤُهُ إلّا فرارًا ونفورًا"[2]، وإلى ذلك ففي (الفاء) لَمْحُ التَّعقيبِ، أي: فاستجبْنا له فورًا؛ لأنَّنا نِعمَ المجيبونَ، وذلك يدلُّ على أنَّه ما دعا على قومِهِ إلّا بعد طولِ معاناة معهم، وتطاوُل دعوتِهِ لهم إلى ألفِ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًا، وفي هذا تعريضٌ لقريش بأنَّ النَّبيَّ ﷺ إن دعا على قومِهِ؛ استجاب اللّه تعالى له، ودعاءُ الأنبياء مستجابٌ، ففيه تخويفٌ لكفّار قريش.

و(الفاء) أيضًا "تفريعٌ على ﴿نَادَىٰنَا﴾، أي: نادانا، فأجبناهُ، فحُذِفَ المفرَّعُ؛ لدلالةِ ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ عليهِ؛ لتضمُّنه معنى: فأجبناهُ جوابَ مَن يقال فيه: نِعم المجيبُ"[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 570.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 95.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.

معيَّةُ اللهِ تعالى تـرعـى الـدُّعـاة المخلصين

معنى (اللام) في قولهِ: ﴿فَلَنِعۡمَ﴾:

(اللام) في قولهِ تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ توكيديَّةٌ، "موطِّئة للقسمِ"[1] المحذوف، أي: "أجبناهُ أحسنَ الإجابةِ، فواللّهِ لنعمَ المُجيبون نحنُ"[2]، وفي ذلك أيضًا تطمينٌ لكلِّ داعيةٍ بأنَّ معيَّةَ اللّه تعالى ترعاهُ، وتتداركهُ بخاصَّة إذا استنفذَ أسبابَهُ في الدَّعوة، فتستنفذهُ مِن شرِّ الكفّار وكيدِ المناوئين.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (نِعم):

إجابةُ اللهِ تعالى أولـيـاءَهُ تـكـونُ أحسنَ إجابة، وعلى أكملِ ما يرجون

في التَّعبيرِ بفعل المدح (نِعم) في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ "يقتضي أنَّ الإجابةَ كانت على أكملِ ما أرادَ نوحٌ عليه السلام"[3]، و"المعنى: إنّا أجبناهُ أحسنَ الإجابةِ، ونصرناهُ على أعدائِه، وانتقمنا منهم بأبلغِ ما يكون"[4].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾، ونكتة جمعه:

التَّمدُّح بعموم الإجـابـة أبـلـغُ، والـلّـهُ نِـعـمَ المجيبُ لِمن دعاهُ

(ال) في ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ للاستغراقِ والإحاطة؛ فلا إجابةَ ولا مكافأة في عظمةِ إجابةِ اللّه تعالى ومكافأتِه أولياءَهُ المضطرين، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [النمل: 62].

وإطلاقُ الإجابةِ هنا "يحتمل وجهين: أحدُهما: فلنعمَ المجيبونَ لنوحٍ في دعائِه، الثّاني: فلنِعمَ المجيبونَ لِمن دعا؛ لأنَّ التَّمدُّح بعموم الإجابة أبلغُ"[5].

"والجمع في ﴿ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ دليلُ العظمةِ والكبرياءِ، والمعنى: إنّا أجبناهُ أحسنَ الإجابة، وأوصلَها إلى مرادِه وبغيته مِن نُصرتِه على

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 459.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 195.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 476.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 127.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 53.

أعدائِهِ، والانتقام منهم بأبلغِ ما يكون"[1]، وفي إعادة جمعِهِ بعد سبْقِ ضمير العظمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿نَادَىٰنَا﴾ دليلٌ على "تعظيم تلك النِّعمة، لا سيَّما وقد وصف تلك الإجابةَ بأنَّها نعمتِ الإجابةُ"[2].

معنى (الواو) في جملة: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

كونُهُ تعالى نِعْمَ المجيبُ يَقتضي كثرةَ الإنعام النّازل على داعيه

(الواو) في جملة: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ عاطفةٌ؛ إذ عطَفت جملة: (نجينا) على جملة: (استجبنا) المقدَّرة بعد (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾، فضمَّت مكافأةً أخرى، وضاعفتِ الخيرَ، وأفادتْ تتابُعَ المَدَدِ النّازل عليه من الكريمِ النَّصير ﷻ، و"لمّا بيَّن أنَّه سبحانه نِعْمَ المجيبُ على سبيل الإجمال؛ بيَّن أنَّ الإنعامَ حصلَ في تلك الإجابة من وجوهٍ: **الأوَّلُ**: قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وهو على القولِ الأوَّل الكربُ الحاصلُ بسبب الخوفِ من الغرق، وعلى الثّاني الكربُ الحاصل مِن أذى قومِهِ، **والثاني**: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات: 77] يفيد الحصرَ"[3].

دلالةُ التَّعبير بالتَّنجية، وإشارة المُضِيّ فيه:

إيثارُ بعضِ اشتقاقاتِ المفردةِ دونَ بعضٍ براعةٌ تُمثِّلُ أحدَ مظاهر إعجاز القرآن

في التَّعبيرِ هنا بالتَّنجيةِ في جملة: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ بما فيها من (شَدَّةٍ) تحكي الشِّدَّة - دون الإنجاء بما فيه من خفَّةٍ ويُسرٍ، تحكي يُسرَه على اللّه تعالى - ترجمةٌ لِشِدَّة معاناةِ نوحٍ عليه السلام حتى لكأنَّ إنجاءَ اللّهِ تعالى إيّاه (تنجيةٌ) دليلًا على استنفاذهِ عليه السلام كلَّ وسائلِ الدَّعوةِ، واحتماله من قومه كلَّ صنوفِ الإيذاءِ، وهكذا تترجم بعضُ مصادرِ المفردة اللُّغويَّة دون بعضٍ كثيرًا مِنَ المعاني، والبراعة في ذلك مِن مظاهرِ إعجازِ القرآنِ الكريم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 48.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 339.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 339.

لطيفةُ الإسنادِ في فعل التَّنجية:

كما عبَّر النَّظمُ الكريم في مفعول (نادى) في جملة: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ﴾ بضمير العظمةِ، كذلك أسندَ فِعل التَّنجية إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ إشارةً إلى عظمةِ رحمتِهِ تعالى في استنقاذِهِ أولياءَهُ الصّالحين، فيكونُ النَّصر لعباده سبحانه، كما يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: 171 - 173].

نصرُ الله تعالى عبادَهُ عظيمٌ، وعظمتهُ مستمدَّةٌ مِن عظمتِهِ ﷻ

معنى (الواو) في قولِه: ﴿وَأَهۡلَهُۥ﴾:

(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَأَهۡلَهُۥ﴾ واوُ العطف، حيث تَجمع (أهلَه) معه ﷺ في تنجيتِهِ اللّه تعالى مِنَ الكربِ العظيم، وذلك يبعثُ الطُّمأنينةَ في قلوب الدُّعاة بأنَّهم وأهليهم محلُّ رعايةِ اللّه ﷻ، وتنجيتِهِ مِن الكروب والهموم والغموم، حتى وإن بدا الأمرُ على غير ذلك.

الدُّعاةُ وأهلوهم محلُّ رعايةِ الله تعالى وتنجيته مِنَ الكروب

فائدةُ التَّعبيرِ بالأهل:

التَّعبيرُ بالأهل في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يتَّسع لأهله الأقربين مِن ذوي رحمِهِ، ولأهلِهِ الأقربين من ذوي دينِهِ، فكلُّهم أهلُه باعتبار ما، ومعتَبَرُ الأهليَّة بالنِّسبة للأنبياءِ والدُّعاة مِن بعدِهِم أهليَّة الدّين لا النَّسَب؛ فهذا ابنُ نوحٍ ليس مِن أهلِهِ بنصِّ القرآنِ الكريمِ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 46].

المعتبَرُ في الوصف بالأهل أهليَّةُ الدّين، سواءٌ كانوا مِن نسب الدَّم، أم مِن غيرِهم

ومِن لطائفِ ذِكرِ (أهله) هنا الإشارةُ إلى "قلَّة مَن آمنَ بهِ مِن غيرِهم"(1)، وفي ذكرِ الأهلِ هنا أيضًا تطمينُ رسولِ اللّهِ ﷺ بأنَّ تنجيةَ اللّه تعالى وحفظَهُ وكرمه سيكون له ولأهل دينِهِ وأهل نَسَبِهِ المؤمنين، وهي سُنَّةُ اللّه تعالى في أوليائِهِ، ولن تَجِدَ لسنَّةِ اللّه تبديلًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 130.

دلالةُ تنجيتِهِ وأهلِهِ على إهلاك قومِهِ:

لم تصرِّح الآياتُ بإهلاك قومِ نوح عليه السلام، وإنَّما فُهِم استلزامًا بمفهوم المخالفة من خلال التَّصريحِ بتنجيتِهِ عليه السلام وأهله استجابة لدعائِهِ، قال ابن عاشور: "وأشعَرَ قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ﴾ أنَّ استجابةَ دعاءِ نوحٍ كانت بأن أهلَكَ قومه"[1].

ولطيفةُ طَيِّ إهلاكِ قومِهِ توفيرُ العنايةِ على تنجيتِهِ وأهله، والإيحاء بهوان المهلَكين على اللّه تعالى، وكأنَّهم ما كانوا؛ فما أغناهُ عز وجل عن الخلقِ جميعًا.

ما أهونَ إهلاكَ الكفّار ومَحْوَهم! وما أهونَهم هم أنفسهم على الله تعالى!

معنى ﴿مِنَ﴾ في القيد ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تفيدُ المجاوزةَ، وأنَّ تنجيةَ اللّه تعالى نوحًا عليه السلام وأهلَهُ بأن جاوزه اللّه تعالى تلك المحنةَ وذلك الغمَّ والكروب بلطفِهِ اللَّطيف دون أن يَمسَّه أذًى.

ينجّي الله تعالى أولياءَهُ الصّالحين بلُطفٍ لطيفٍ دونَ أن يمسَّهم أذًى

معنى (ال) في ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾، ودلالة التَّعبير به:

(ال) في ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ للعهدِ، فهو كَرْبُ غَمْرِ الأرض بالماء وإغراق الكفّار، وإحاطة السَّفينة بأسباب الرُّعب والفزع، وهو الأحقُّ بهذا الوصفِ في هذه الدُّنيا، وتوحي (ال) بأنَّه الكرب البالغ في الكَرْبيَّة مبلغًا لا يُتَصوَّر هوْلُه.

تصويرُ الكربِ البالغِ في الكرْبيّة مبلغًا لا يُدرَكُ هوْلُهُ

نكتةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

في وصفِ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تقريرٌ لفداحة ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾، وشدَّة هولِه، ممّا يعكسُ عظمةَ التَّنجيةِ الَّتي يوليها اللّهُ تعالى الدُّعاة إليه عز وجل، وعلى رأسِهم خاتمُ المرسلين صلى الله عليه وسلم وبارك عليهم أجمعين.

ما أعظمَ التَّنجيةَ الَّتي يوليها الله تعالى الدُّعاةَ إلى دينِهِ!

ومفردةُ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ مفردةٌ مستفظعة في حدِّ ذاتها، ومع ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 131.

وُصِف ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ دعمًا لمعنى المواساةِ التي يَبُثُّها ربُّنا تعالى نفسَ حبيبِه محمَّد ﷺ ونفوسَ الصّابرين من الدُّعاة إلى سبيلِه القويم؛ وذلك لِما في وصفِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ من تعظيم خطرِه، فهو كربٌ "عظيمٌ في نوعِه، وهو كربٌ عظيمٌ على الَّذين وقعوا فيه، فإنجاءُ نوحٍ منه هو سلامته مِنَ الوقوع فيه أصلًا؛ لأنَّه هولٌ في المنظر، وخوف في العاقبة"[1].

وصوغُ وصفِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ على (فعيل)؛ لبيان أنَّه كربٌ بلغَ مبلغًا مهولًا، لا يكاد يُحتمل، بل لا يكاد يُتصوَّر؛ كنايةً عن عظمة تنجية اللّٰه تعالى عبده نوحًا وأهله، وعِظم المِنَّة الرَّحمانيَّة على أوليائه الصّالحين وأولاهم بذلك خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين ﷺ، جعلنا اللّٰه تعالى منهم والمؤمنين أجمعين.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإجابة والاستجابة والقَبول:

الإجابةُ للأدعية، والاستجابةُ طلبُ الإجابة، والقَبولُ للأعمال

القَبولُ يكون للأعمال: قَبِل اللّٰهُ تعالى عِلْمَهُ، والإجابةُ تكون للأدعية، يُقالُ: أجاب دعاءَهُ، وأجابَ معناه: فَعَلَ الإجابةَ، واستجاب: طلبَ أن يَفعلَ الإجابةَ؛ لأنَّ أصلَ الاستفعال لِطلب الفعل، وصلح استجابَ بمعنى: أجابَ؛ لأنَّ المعنى فيه يؤول إلى شيءٍ واحدٍ؛ وذلك أنَّ استجاب: طَلَبَ الإجابةَ بِقَصدِهِ إليها، وأجاب: أوقَعَ الإجابةَ بِفِعلها[2].

الكرب والحزن:

الحزنُ تَكاثُفُ الغَمِّ وغِلَظُه، مأخوذٌ مِنَ الأرضِ الحَزْنِ، وهو الغليظُ الصُّلب، والكَرْب: تكاثفُ الغَمِّ مع ضيق الصَّدرِ؛ ولهذا يقال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 131.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 419.

الحُزن تَكاثُف الغَمِّ مطلقًا، والكَرْبُ تكاثفُهُ مع ضيق الصَّدر، والكآبة أثَرُهما

لليوم الحارِّ يوم كرْبٍ، أي: كرْبٌ مَن فيه، وقد كربَ الرَّجلُ، وهو مكروبٌ، وقد كَرَبَهُ؛ إذا غمَّهُ، وضيَّق صدرَه[1]، والكآبةُ أثَرُ الحُزنِ البادي على الوجه، ومِن ثَمَّ يُقال: عليه كآبةٌ، ولا يقال: علاهُ حزنٌ أو كربٌ؛ لأنَّ الحُزنَ لا يُرى، ولكنَّ دلالتَهُ على الوجْهِ، وتلك الدَّلالات تُسمّى كآبةً[2].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 185.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 443.

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾ [الصافات: 77 - 82]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قبلَها:

الانتقالُ من بيانِ ذِكْرِ إنجاءِ نوحٍ عليه السلام إلى ذِكْرِ النّتيجةِ

لمّا ذَكَرَ في الآياتِ السّابِقةِ نِعمةَ إنجائِه عليه السلام وإنْجاءِ أهلِه، ونعمَةَ إلحاقِ الكَرْبِ العَظيمِ بالظّالمين؛ استَتمّ - هنا - في هذه الآياتِ سائرَ المناقبِ المُتسلسِلَةِ؛ وهي إبقاءُ ذُرّيّتِهِ مُعَمَّرةً للأرضِ إلى يوم يُبعثون، وإبقاءُ ذِكْرِه حَسَنًا في كلّ مَن جاءَ بعدَه إلى يوم الدّين، مشفوعًا ذلك كلُّه بالسّلامِ الخالدِ عليهِ من اللّهِ في العالَمين إلى خِتامِ قصَّتِهِ عليه السلام[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾: أصلُ (بقي): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوَامُ، قالَ الخليلُ: يُقالُ: بَقِيَ الشَّيءُ يَبْقَى بَقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ[2]، واسْتَبْقَيتُ مِنَ الشَّيْءِ، أَي: تَرَكْتُ بَعْضَهُ، والبَقِيَّة أيضًا: مَا بَقِيَ مِنَ الشَّيْءِ[3]، والمقصود بـ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ هنا: ولد نوح[4].

2) ﴿وَتَرَكۡنَا﴾: (ترك) أَصْلُ التَّرك: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: تركْتُ الشَّيءَ: إذا كَفَفْتُ وأَعرَضْتُ عنه، ويأْتي بمعنَى التَّخلِّي عن الشيءِ[5]، ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أي: أَسقَطَهُ، وهو أيضًا:

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 247، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بقي).
(4) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 610.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ترك).

الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا، أي: جَعَلَهُ يَفْعَلُهُ[1]، ومن معانيه: المفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْضُ. والمقصودُ بـ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ هنا: ألقينا على نوح بعد موته ثناء حسناء، يقال له من بعده في الآخرين خير[2].

3) ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: جمع آخَرَ: الذي يُقابَلُ به الواحد، وأمّا آخِرُ فيُقابَلُ به الأوَّل، وكلاهما من أصل (أخر) الدالّ على تخلّف الشيء عن قرينه. فالآخَرُ: أَحَدُ الشَّيئَيْن، وهو اسْمٌ على أَفْعَل من التأخّر، والأُنْثَى أُخْرَى، وهو بمعنى (غير)، كقولك: رجلٌ آخَر، وثوبٌ آخَر[3]. ومعنى ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هنا: مَن جاء بعد نوح عليه السلام.

4) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العالَم: هو ما يُعلَمُ به الشَّيءُ. ويأتي بمعنى الأنام، والأنامُ: ما على ظَهرِ الأرضِ مِن جميعِ الخَلْقِ، والجَمع: العَوالِم، والعالَمون: أصنافُ الخَلْقِ، سُمِّي بذلك؛ لاجتماعِهم، وقيل: العالَم هو ما احتَواهُ الفَلَك، وقيل: هو مُختَصٌّ بمَن يَعقِل مِنَ الإنسِ، والجِنِّ، والمَلائِكةِ، والشَّياطِين[4]، "وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِهِ مَعْلَمٌ وعَلَمٌ، وقال قومٌ: العالَمُ سُمِّيَ لاجتِماعِهِ، فـ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هم الخَلائِقُ أجمَعونَ. وأنشَدوا:

ما إنْ رَأَيتُ ولا سَمِعْـــ *** ـتُ بِمِثلِهِمْ في العالَمِينا"[5]

المَعْنى الإجْماليُّ:

أصلُ البَشريّةِ المحفوظُ مباركٌ بأمرِ اللهِ تعالى، وما دونَهُ فغريقٌ وإنْ طالَ زمانُهُ

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ أنَّه بعد إنجاءِ نوحٍ عليه السلام والمؤمنين من الكَرْبِ العظيم؛ استبقى اللّهُ سبحانَه ذريّةَ نوحٍ لعمارةِ الأرضِ؛ فلم يُعقِب أحدٌ ممَّن كان في السَّفينةِ عقِبًا باقيًا سوى أبناء نوحٍ الثَّلاثة: سام

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ترك).
(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 610.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (أخر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

وحام ويافث، فسام أبو العربِ وفارس والرّوم، وحام أبو السّودانِ من المَشرقِ إلى المَغربِ، ويافث أبو التُّركِ، وهذا هو المشهورُ على ألسنةِ المُؤرِّخين، وليس في القرآنِ ولا في السُّنّةِ نصٌّ قاطعٌ على شيءٍ من هذا، كما أنّه ليس في القرآنِ ما يُشير إلى عموم دعوتِهِ لأهلِ الأرضِ قاطبةً، ولا أنّ الغرَقَ عمّ الأرضَ جميعًا، وأنّ ما تُفيدُه الآيةُ من جعلِ ذُرّيَّتِهِ هم الباقين، إنّما هو بالنّسبةِ لذريّةِ مَنْ معه في السَّفينةِ، وذلك لا يستلزمُ عدمَ بقاءِ ذُرِّيَّةِ مَنْ لم يكُنْ مَعَهُ، وقد كان في بعضِ الأقطارِ الشّاسعةِ مَنْ لم تبلُغْهُم الدّعوةُ، فلَمْ يستوجبوا الغَرَقَ؛ كأهلِ الصّينِ وغيرِهِم من البلادِ النّائيةِ. ثمّ تستوفي الآياتُ سائرَ مناقِبِهِ عليه السلام، فتُخبِرُنا عن أفضالِ اللّهِ سبحانه على نوحٍ؛ فيقولُ اللّهُ سبحانَه: أبقينا عليهِ في الأُمَمِ التي ستأتي من بعدِهِ إلى يوم القيامةِ الذّكرَ الحسَنَ، والكلمةَ الطيّبةَ، ألا وهي قولُهُم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أيْ: (تحيّةٌ وأمانٌ وثناءٌ جميلٌ على نوحٍ في العالمين)، فأمانٌ وسلامةٌ له من أن يُذْكَر بسوءٍ في الآخِرين؛ بل تُثْني عليه الأجيالُ من بعدِهِ. ومثلَ ذلك الجزاءِ لِنوحٍ نَجزي كلَّ مَن أحسنَ من العبادِ في طاعةِ اللّهِ. ثم علّل كونَهُ مُحسِنًا بأنّه كان من عبادِنا المُصدِّقين المُخلَصين العاملين بأوامرِ اللّهِ. ثمّ خُتِمَتْ قصَّتُهُ عليه السلام بختامِ النِّعمِ عليه وعلى المؤمنين بأنَّ اللّهَ أغرقَ أعداءَه الذين آذَوه وأعرضوا عن دَعْوَتِهِ. وتلك سُنّةُ اللّهِ لا تتخلَّف؛ أنّه يُنْجي المؤمنين ويُهلِكُ الكافرين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

في الإنـجـاءِ إبـقـاءٌ، وفي الإبـقـاءِ إرخـاءٌ لأسبابِ الحياةِ

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ معطوفةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 340، والمَراغيّ، تفسير القرآن: 23/ 67، وطَنطاويّ، الوَسِيط: 12/ 93، ونخبةٌ من العلماءِ، التَّفسيرُ المُيسّر.

على جملةِ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الصافات: 76]؛ أيْ: (جَمَعْنا لَهُ النّجاةَ بأهلِه، والبقاءَ لذُرّيَّتِه)، ويصِحُّ أن تكونَ الواوُ استئنافًا نحويًّا إذا جعلْنا هذه الجملةَ شُروعًا في معنًى جديدٍ، والحَمْلُ على العطف هو الأَوْلَى بالمقامِ؛ للسَّردِ التَّسلسُليِّ المَلْحوظِ فيه التَّرتيبُ الزَّمانيُّ.

معنى الجَعْلِ ودِقّةُ الاستعمالِ:

تصييرُ الذُّرّيّةِ من الهلاكِ إلى البقاءِ امتنانٌ واعتبارٌ

الجعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ بمعنى الحُكمِ والقَضاءِ على الشَّيءِ بالشَّيءِ[1]؛ أيْ: حَكَمْنا على ذرّيّته بالبقاءِ بامتداد النّسل واستمراره قضاءً منه سبحانه بذلك، ويصِحّ أن يكونَ الجَعْلُ هنا تصييرًا من النَّجاةِ على معنى: صَيَّرْناهم باقينَ بسببِ إنجائِنا لهم، فانتَقَلوا بالإنجاءِ إلى البقاءِ، وهو الأَوْلَى بالسّياقِ، والأدقُّ في معنى الجَعْلِ، كما أنَّ التَّصييرَ المُسنَدَ إلى اللّٰهِ تعالى (جَعلْنا) يتضمَّنُ الحُكْمَ عليهم بأنَّهم الباقون، وهو الأنسبُ بسياقِ الامتنانِ؛ إذ يُلحَظُ فيه الانتقالُ من هاويةِ الهلاكِ إلى بَرِّ النَّجاةِ؛ بلِ البقاءُ بعدَ ذلك استمرارًا وتناسُلًا، وهذا كلُّهُ تصييرٌ.

دلالةُ إضافةِ الذُّرّيّةِ إلى الضَّميرِ:

الإيماءُ إلى أنَّ التَّعقيبَ انحصَرَ في أولادِ نوحٍ عليه السلام

أُضيفَ لفظُ الذُّرّيَّةِ إلى الضَّميرِ العائِدِ على نوحٍ عليه السلام في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ للتَّقييدِ والتَّعريفِ؛ أيْ: تقييدِ البقاءِ بذُرّيَّتِه من صُلبِه؛ ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّه ماتَ كلُّ مَنْ كان معه في السَّفينةِ غيرَ بنيهِ وأزواجِهم، وهي إشارةٌ مُحتمَلَةٌ غيرُ قاطعةٍ، وفي الإضافةِ تخصيصُ الباقين من النّاجين[2].

فائدةُ ذِكْرِ ضميرِ الفَصْلِ:

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ ذِكْرَ ضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ على حذفِهِ؛ فلم

---

(1) السَّمِين، عُمدةُ الحُفّاظ: (جعل).

(2) البَيضاويّ، أنوارُ التَّنزيل: 5/ 13.

يَقُلْ: (وَجَعَلْنا ذُرّيَّتَهُ الباقينَ)، وفائدتُهُ توكيدُ النِّسبَةِ في الإسنادِ، والحَصْرُ، والفَصْلُ بين الخَبَرِ والصِّفَةِ، فلفظُ ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ خبرٌ في المعنى، وفي أصلِ التَّركيبِ الَّذي هو: (ذُرّيَّتُهُ هُمُ الباقونَ)، لا في إعرابِ نَظْمِ الآيةِ؛ لكونِهِ مفعولَ الجَعْلِ لفظًا، لكنّه خبرٌ عن الذُّرّيَّةِ في المعنى. وضميرُ الفَصْلِ لا مَحَلَّ له من الإعرابِ، ومعنى الحَصْرِ الذي أفاده ضميرُ الفَصْلِ هو انحصارُ البَشَريَّةِ في ذُرّيَّةِ نوحٍ عليه السلام؛ لذا كان عليه السلام هو الأبَ الثّانيَ للبشريَّةِ، فكأنّه قيل: وجعَلْنا ذُرّيَّتَه هم الباقينَ لا ذُرّيَّةَ مَنْ معه في السَّفينةِ، ولا ذرّيَّةَ أحدٍ غيرِه من المُغرَقين[1]، وهذا على المشهورِ من كلامِ المُفسِّرين، وسيأتي تفصيلُ ذلكَ في الفائدةِ اللّاحِقَةِ.

نــوحٌ عليه السلام هو الأبُ الـثّـاني للبشريّةِ حَصْرًا

نوعُ الحَصْرِ ودلالتُهُ:

تنوُّع الاحتمالِ يُـبـقـي بـابَ التّاريخ مفتوحًا للأفهامِ

الحَصْرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إمّا أن يكونَ حقيقيًّا على ظاهرِهِ؛ والمَعنى أنّ البشريَّةَ انحصرتْ في ذَراري نوحٍ عليه السلام فأفادَ الاستغراقَ الحقيقيَّ؛ أيْ: كلّ فردٍ بعد نوحٍ هو من نسلِ نوحٍ، وإمّا أن يكونَ الاستغراقُ عُرفيًّا، والقَصْرُ إضافيًّا، فإنّ جَعْلَ ذرّيَّتِه هم الباقين دونَ ذُرّيَّة مَنْ كانوا معه في السَّفينةِ، ودونَ ذُرّيَّة المُغرَقين، لا ينفي بقاءَ ذرّيَّةِ مَنْ لم يكنْ معه، وكانوا في بعضِ الأقطارِ الشّاسعةِ الَّتي لم تصلْ إليها الدَّعوةُ ولم يستوجبْ أهلُها الغَرَقَ؛ فالمقصودُ من القَصْرِ حينئذٍ: قَصْرُ البقاءِ على ذُرّيَّةِ نوحٍ بالنّسبةِ لغيرٍ مَخصوصٍ، لا لكلِّ النّاسِ؛ بل بالإضافةِ إلى المُغرَقين فقط ومَنْ كانوا معه في السَّفينةِ، وأمّا غيرُ أولئك ممّن لم تبلُغْهُم دعوةُ نوحٍ، ولم يشملْهُمُ الغَرَقُ، ولم يكونوا من أهلِ السَّفينةِ فغيرُ داخلينَ في القَصْرِ[2].

(1) الآلوسيّ، روحُ المعاني: 12/ 96، وابنُ عُثَيمين، تفسيرُ سورةِ الصَّافَّاتِ، ص: 179.

(2) ابنُ عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 477، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 12/ 95، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.

معنى تَعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾:

كَمُلَ البَقاءُ في ذُرّيّةِ نوحٍ عليه السلام

(ال) الدّاخِلَةُ على الوَصْفِ المُشْتَقِّ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ موصولةٌ على تقديرِ: (الَّذين بَقوا)، وعليه فـ(ال) مفعول به لفعل (جعلْنا)، ونُقِل إعرابُها إلى ما بعدَها لِتعذُّرِ ظهورِهِ عليها، أو إعرابُها منقولٌ رأسًا إلى اسم الفاعلِ؛ لِتَعَذُّرِ حصولِهِ في (ال) فضلًا عن ظهورِهِ؛ فمفعولُ الجَعْلِ: ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾[1]. و(ال) هذه تدلُّ على الكمالِ، وقرينةُ الكَمالِ الحَصْرُ بضَميرِ الفَصْلِ، ومعنى الكَمالِ هنا: تحقُّقُ البقاءِ باستمرارِ النّسل وعدَمِ انقطاعِه، كأنّه قيلَ: هم الباقون وحْدَهم في أنسالِ البَشَريَّةِ وسلاسلِ أنسابِها. ومعنى الموصوليَّةِ في (ال) حقيقةٌ، ومعنى الكمالِ فيها مَجازٌ[2]. ولم يَقُلْ: (الَّذينَ بَقوا) مراعاةً للفاصِلَةِ ألّا تَنْخَرِمَ، ولاتّساعِ اسمِ الفاعِلِ في دلالتِه على الذَّواتِ والزَّمنِ المُستَمِرِّ الدّالِّ على تجدُّدِ التَّناسُلِ وتَكرارِهِ وعدمِ انقطاعِهِ في الأُمَمِ والأجيالِ.

بَلاغَةُ الكِنايةِ في استِعمالِ مُفرَدَةِ البقاءِ:

الفَناءُ حاصلٌ بموتِ الأُصولِ وعُقْمِ الفُروعِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدَةِ البقاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾؛ لأنّه كنايةٌ عن لازِمِه، وهو استمرارُ أسبابِ البقاءِ، وهو التّناسلُ والتّكاثُرُ والتَّوالُدُ، فلا يَفنى الجِنْسُ، ولا تنقطعُ سِلسلةُ النَّسَبِ؛ لأنَّ الفَناءَ حاصلٌ بأحدِ أمرَيْنِ: هلاكِ الأُصولِ بالموت، وانعدام الفروعِ بعدمِ النَّسلِ. والمقصودُ هنا بالبقاءِ: ثباتُ حالةِ التّناسُلِ الَّذي يستمرّ بها النّوعُ البشريُّ في الوجودِ، وهذا يستلزِمُ حياةَ الأصلِ؛ لكونِ إلقاءِ البذورِ منوطًا به؛ فكانَ البقاءُ في قولِه تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ معناه: هو الحيواتُ المُستمرَّةُ بالتَّوالُدِ من أصولِها المُنتِجَةِ، فخرجَ بذلكَ المُغرقون؛ لفنائِهِم بالغَرَقِ،

(1) ابن عُثَيمين، شرح ألفيّة ابن مالك: 13/ 13.
(2) التّميميّ، (ال) التَّعريفِ الدّالّةُ على الكمالِ، ص: 23.

والنّاجون معه في السَّفينة؛ لفنائِهم بانقطاعِ نسلِهم، وللتّعريضِ بالمقابلِ الفاني وهو مُقابلُه ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾.

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ:

إطلاقُ البقاءِ أعمُّ من ذِكْرِ التَّناسُلِ

استعمالُ مُفرَدَةِ البقاءِ في حياةِ الأصلِ حقيقةٌ، وفي استمرارِ التَّناسلِ في الفروعِ مجازٌ؛ لأنّ استمرارَ التّناسلِ هو سببُ البقاءِ، لا نفْسَ البقاءِ؛ فذِكْرُ المُسبَّبِ وإرادةُ السَّبَبَ من بابِ المَجازِ المُرْسَلِ الذي علاقتُهُ المُسبّبيّةُ، واستعمالُ اللّفظِ في هذيْن المَعنييْن عمومٌ في المَجازِ أو جمْعٌ بين الحقيقةِ والمَجازِ، وإطلاقُ المُسبَّبِ وهو البقاءُ أعمُّ من ذِكْرِ السَّببِ وهو التَّناسلُ، وذلك أنّه ذَكَرَ الدَّعوى مع دليلِها؛ فالبقاءُ هو دليلُ التَّناسلِ وهو من لوازمِه، وهو لا يتعارضُ مع توجيهِ الكنايةِ السّابقِ.

نُكتَةُ حذفِ مُتعلِّقِ اسمِ الفاعِلِ:

حُذِف مُتعلّقِ الوصفِ ﴿ٱلۡبَاقِينَ﴾ في الفاصلة، فلَم يقُلْ: الباقين في أيِّ وقتٍ أو بأيِّ حالٍ لوضوحِ ذلك؛ أيْ: جعلنا ذرّيّةَ نوحٍ هم الباقين بعدَهَ، فمِنْ نسْلِه استمرَّ وجودُ الإنسانِ[1].

دلالةُ العَطفِ في الجُملةِ:

المَنْقَبَةُ الواحدةُ قيَمٌ مُركّبةٌ

جملةُ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها من النِّعَمِ الّتي اختصَّ اللّهُ بها نوحًا ، وتلك هي النِّعمة الخامسةُ، وهذه النِّعَمُ موصولةٌ بالعاطِفِ؛ ليدلَّ على اجتماعِها له نظْمًا، كما اجتمعتْ له واقِعًا[2].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ التَّرْك:

إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ خيرًا تَرَكَ عليه خيرًا

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدَةِ التَّرْكِ دون رديفاتِها، فلم يأتِ بمُفرَدةِ الإبقاءِ مثلًا؛ لأنّها توهِمُ الذّاتَ، فلم يَقُلْ: (وأبقيْنا عليهِ في

(1) الرّاغب، المُفرَدَات: (بقي)، والماورديّ، النُّكَتُ والعيون: 5/ 53.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.

الآخِرين)؛ كما يُقالُ: أبقيتُ على فلانٍ في زُمرَةِ الجالسين، إذا كان قد ألحقَه بهم بذاتِهِ وشخصِه، وأمّا (تركنا) فلا يُتوهّم معه إرادةُ الذّاتِ؛ بل يُرادُ معهُ الصِّفاتُ فقط؛ لأنّه لا يُقال: (تركْنا على فلانٍ في الآخِرين)، إلّا على قصدِ الصِّفاتِ لا الذّات؛ أيْ: تركنا عليه الذِّكْرى الحَسَنَةَ، وذلك متأكِّدٌ بقرينةِ التّعدّي بحرفِ الاستعلاءِ، فالتَّعدّي بحرفِ الاستعلاءِ يمتنعُ معهُ إرادةُ العيْنِ والشَّخصِ؛ لأنَّ إرادةَ العيْنِ مع التَّركِ يُقالُ فيها: (تركْناه)، ولا يُقال: (تركنا عليه).

بلاغَةُ المَجازِ في مُفرَدَةِ التَّركِ:

احتمالُ اللّفظِ المَجازَ المُرسَلَ والاستعارةَ

يُحتَمَلُ أن يكونَ لفظُ التَّركِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ مجازًا مُرسَلًا في الدَّوام؛ أيْ: أدَمْنا له المناقِبَ وأثْبَتْناها، فلمّا كان التَّركُ المذكورُ سببًا في ذلك؛ أطلقَ السَّببَ وأرادَ المُسبَّبَ وهو الدّوامُ والاستقرارُ. أو أنّ التَّركَ استعارةٌ في عدمِ الفناءِ والزَّوالِ، فشبَّه تلك المناقِبَ والثَّناءاتِ من النِّعَمِ في ثُبوتِها لنوحٍ وعدمِ تحوُّلِها عنه، بالآثارِ الدّائمةِ الَّتي لا تَبْلَى ولا تَبيدُ بتقادُمِ الزَّمنِ عليها، وفي تلك الاستعارةِ المَكنيَّةِ إلماحٌ إلى أنّ هذا الإنعامَ على نوحٍ عليه السلام ليس من متاعِ الدُّنيا الزّائلِ ولا أعراضِها الفانيةِ[1].

بلاغةُ الكِنايةِ في استعمالِ مُفرَدَةِ التَّركِ:

لُزومُ الذِّكْرِ الحَسَنِ في الآخِرين من إكرامِ ربِّ العالمين

ذُكِرَتْ مُفرَدَةُ التَّركِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لإفادةِ انحصارِ المتروكِ له في بابِ الخيرِ والثَّناءِ، فلم يُتْرَك له إلّا مناقبُ الجلالِ في النّاسِ، واصطفاءُ التَّرْكِ يُشعِرُ بذلك؛ بحيث صارَ الثَّناءُ والبهاءُ تَرِكَةً له فيمن بعدَهُ إلى يومِ يُبعثون، فإنَّ التَّركَ يومئُ إلى إلقاءِ الخالدِ، فهو متروكٌ مُرسَلٌ دلالَةً على عدمِ انفكاكِ ذلك عنه أبدًا، فذلك شيءٌ متروكٌ خُلّيَ له من بين سائرِ الأشياءِ، فلا يَسقُطُ عنه أبدًا، وفي المُحصَّلِ فالمُفرَدَة كنايةٌ عن بقاءِ الخيرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.

عليه في الآخِرين، وأنّه من لوازِمِ ذِكْرِه استحقاقًا وثناءً، كما أنّ فيه تعريضًا بقومِهِ الذين فَنَوا واندثروا.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

المِنَحُ العُلويَّةُ تستعلي وتتمكَّن وتثبتُ وتدومُ

استُعمِل حرفُ الاستعلاءِ لإفادةِ تمكُّنِ ذلك منه تمكُّنَ الحقِّ من المُستحِقّ، ولتصويرِ أنّ تَركَتَه (المتروكَ له) في بابِ الفَضْلِ والاجتباءِ هو مِنْحةٌ عُلويَّةٌ، والمِنَحُ العُلويَّةُ تستعلي وتتمكَّنُ وتثبتُ وتدومُ، فلا أحدَ يدفعها، ولا عارضَ يمنعُها.

بلاغةُ التّضْمينِ ونُكتَتُهُ:

حروفُ المعاني قرائنُ مُحقِّقَةٌ للمعاني

تَعدَّى فِعْلُ التَّركِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ دونَ اللّامِ، مع أنّ ظاهرَ التَّعديةِ أن يكون باللّامِ؛ وذلك لتضمينِ هذا الفعلِ معنى (أنعَمْنا)، وحقُّ (أنعَمْنا) أن يتعدَّى بحرف (على)، فلمّا ضُمِّن معنى (أنعمْنا) أفادَ بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له؛ أيْ (إعطاءِ شيءٍ من الفضائلِ المُدَّخَرَةِ الَّتي يُشبهُ إعطاؤها تركَ أحدٍ متاعًا نفيسًا لِمَنْ يُخلّيه هو له ويُخلِفه فيه، كالتَّركاتِ والوصايا)، وأفادَ بتعليقِ حرفِ (على) به أنَّ هذا التّركَ من قبيلِ الإنعامِ والتَّفضيلِ، وكذلك شأنُ التَّضمينِ أن يُفيدَ المُضمَّنُ مَفادَ كلمتيْنِ فهو من ألطفِ الإيجازِ[1].

نكتةُ حذفِ معمولِ فعلِ التَّرْكِ:

فضلُ اللهِ أوسعُ من أن يُحاطَ به

حُذِفَ مَعمولُ التَّرك في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (تركنا عليه ثناءً حسَنًا في الآخِرين)؛ لإعظامِ الظَّنِّ في حُسْنِ فِعلِ اللّهِ به، فذِكْرُ المعمولِ تقييدٌ، وفضلُ اللّهِ عليه أوسعُ من ذلك ومن كلِّ ظنٍّ، وقد أفاضَ اللِّحاقُ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالإشارةِ إلى المفعولِ المحذوفِ، ليكونَ اللَّفظُ دالًّا على سَعَةِ المعاني التي يحتملُها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 133.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

المُقدِّماتُ تجتلِبُ ما يوافِقُها من النّهاياتِ

تعليقُ التَّركِ في قولِه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بلفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دونَ غيرِهم؛ لأنّه إنعامٌ باقٍ ودائمٌ كالتّرِكَةِ التي تُنالُ في الآخِر، وللإشارةِ بذلك إلى صلاحِ العاقبةِ؛ فإنَّ حُسْنَ العاقبةِ هو المقصودُ بعد كلِّ سعيٍ، وبعد كلِّ رِحلَةٍ وأمَد، ولإنّ النّهايةَ الحميدةَ دليلٌ على صلاحِ البدايةِ وليس العكس، ففي التَّقييدِ بـ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ تنبيهٌ على أنّ العِبرَةَ بالخواتيمِ، وكنايةٌ عن صلاحِ المُقدِّماتِ.

عِلّةُ الابتداءِ بالنَّكِرَةِ:

على اعتبارِ جملةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ ابتدائيّةً؛ فقد ساغَ الابتداءُ بالنَّكِرةِ لكونِها جملةً دُعائيّةً، فهي خبريَّةٌ لفظًا إنشائيّةٌ في المعنى؛ لإفادتِها الدّعاءَ بالخيرِ والسّلامِ.

نكتةُ رفعِ لفظِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

الإيماءُ إلى دوامِ السَّلامِ وثُبوتِه

على القولِ بأنَّ لفظَ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مفعولٌ به في المعنى لفِعْلِ (تَركْنا)، والمعنى: (يُسلِّمونَ - أي: الآخرينَ من الأُمَمِ - على نوحٍ سلامًا)، فلفظُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ منصوبٌ محَلًّا مرفوعٌ لفظًا، فحَذفَ الفِعلَ (يُسلّمونَ)، وعَدَلَ عن النّصبِ إلى الرّفعِ؛ ليدلّ على ثبوت السّلام ودوامِه[1].

دَلالةُ حَرفِ الاستِعلاءِ:

السّماء هي قِبْلةُ الدّعاءِ وهي مَصدَرُ الرّحَماتِ

استُعمل حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾، للدّلالةِ على أنّهُ دُعاءٌ، والدّعاء يُستَنْزَل به مِنْ عَلٍ، فلا دعاءَ إلّا وجهةُ العُلُوِّ قِبلَتُه؛ لأنّ العطايا رحماتٌ ومواهبُ عُلويّة، لا تحصلُ إلّا بقدرة العليّ المُهيمِن. وفي حرف الاستعلاء إشارةٌ بديعة إلى أنّ السّلامَ قد تمّ له من جِهةِ العُلوِّ وحَصَل، وإنْ لم يُسلِّم عليه أحدٌ من أهلِ الأرضِ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 276.

فلا ضيرَ عليه إذًا؛ فالسّلام واردٌ عليه من الملأ الأعلى مَبثوثًا في العالَمين، فهو قدِ استَقَرّ فيهم وإنْ لم يَحصُل منهم، وهذهِ دَلالةُ حَرفِ الظرفيّةِ بعدَ حَرفِ الاستِعلاءِ في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

عِلَّةُ فَصلِ الجُملةِ عمّا قَبلَها:

الاستئنافُ البيانيُّ حوارٌ دافئٌ مُستَتِرٌ

يصِحّ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّر: (لِمَ اختُصّ نوحٌ بتلك العطايا؟ أو لِمَ استحَقّها؟) فأُجيبَ بالجملة، ولذا كانتِ الجملةُ التَّعليليّةُ صالحةً لموقعِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لكونه جوابًا بالعِلّةِ أيضًا[1].

بَلاغةُ التَّذْييلِ في الآيةِ:

الإحسانُ للمُحسِنِ إقناعٌ للعَقْلِ وإرخاءٌ للطُّمأنينة

جاءتْ جُملةُ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تذييلًا لِما قَبلَها من ذِكرِ مَناقِبِ نوحٍ عليه السلام، والجملةُ تعليلٌ لتلكَ المَناقِبِ، وقد جاءتْ مُؤكَّدةً بأداةِ (إنّ) في صَدْرِ الجُملةِ معَ التَّعليلِ، فنابتْ مَنابَ حَرْفِ التّعليلِ، كأنّه قيلَ: (وهَبْناهُ تلكَ المَناقِبَ؛ لإنّه كان مُحسِنًا؛ أيْ: مُتخلِّقًا بالإحسانِ وهو أعلى دَرَجاتِ الإيمانِ في الإخلاصِ والإتقانِ)[2]، وهو ما يتَّسِقُ معَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّ التَّعليلَ في حقيقتِهِ بيانٌ للمَسْؤولِ عنه.

دلالةُ تَصْديرِ الجُملةِ بالتَّوكيدِ:

لا تبديلَ لسُنّةِ اللهِ ولا إخلافَ لوَعدِهِ

سيقَت جُملةُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مُؤكَّدةً، ومُستَهَلّةً بنونِ الجَلالةِ المُعظِّمةِ: (نا) للدَّلالة على أنَّ مضمونَ تلك الجملة - وهو جزاءُ المُحسِنينَ بالجزاءِ الكاملِ - هو عادَةٌ رَبّانيّة، ولازِمَةٌ لا تَتَخلّف ولا تَفوتُ، ولذا أكّدَها ونَسَبَها إلى نفسِهِ سبحانَهُ؛ لتَجريَ مَجرَى الوَعْدِ المُحَتَّمِ والسُّنّةِ الثّابتة، واللّهُ لا يُخلِف الميعاد.

(1) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد على البيضاويِّ بهامش القونويِّ: 16/ 278.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

بَلاغَةُ الاخْتِزالِ في تَرْكيبِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

اجتماعُ التَّشبيهِ والإشارةِ والخِطابِ والإيماءِ للبُعدِ في لفظٍ واحدٍ

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تركيبٌ من ثلاثِ كلماتٍ[1]: كافُ التَّشبيهِ بمعنى (مِثْل)، و(ذا) للإشارة، واللّامُ للبُعد، والكافُ خِطابٌ لكلِّ سامعٍ، وزيادةُ لامِ البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ الجزاءِ وبُعدِ مَنزلَتِه في الفَضْلِ والشَّرَفِ[2].

ومعنى التَّركيبِ في السّياقِ: (إنّا نجزي المُحسِنينَ جَزاءً مِثْلَ ذلك الجَزاءِ الأوفى الَّذي استحقَّهُ نوحٌ)، فالكافُ الَّتي بمَعْنى (مِثل) نعتٌ لمَصْدرٍ محذوفٍ؛ أيْ: (جزاءً مثلَ ذلك الجزاءِ) أو (إنّا نجزي المُحسِنينَ جَزاءً حالَ كونِهِ مِثلَ ذلكَ الجزاءِ الحاصِلِ لنوحٍ ﷺ). فالكافُ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ حالٍ مِن ضَميرِ المَصْدَرِ المُقدَّرِ[3].

معنى تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الجَزاءُ الكامِلُ حقيقٌ بالكُمَّلِ مِنَ المُؤمنِينَ

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لِاستِغراقِ الجنسِ؛ أيْ: (نَجزي كلَّ مَنْ بالإحسانِ اتّصفَ)، و(ال) هنا دخلَتْ على الوصفِ المُشتَقِّ (اسمِ الفاعلِ - مُحسِن)، فتُفيدُ المَوصوليّة، على معنى: (الَّذين أحسَنوا)، وتُفيدُ الكمالَ في الصّفةِ؛ أيْ: (الكامِلي الإحسانِ)، ومعنى الكَمالِ: استيفاءُ خَصائصِ جِنْسِ الإحسانِ، وهو التَّحقُّقُ بالإخلاصِ واليَقينِ[4].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

الإيمانُ علّةُ الإحسانِ، والجَزاءُ ثَمرَتُهُما

جاءتْ جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَفْصولةً عن قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا قد سألَ لماذا الجَزاءُ الأكمَلُ للمُحسِنينَ؛ فجاءَ قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لبيانِ شرطِ الإحسانِ المَقبولِ، المَتبوعِ بالجزاءِ

(1) السّامرّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 90، 106، والإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل: 1/ 344.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196.

(3) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 144.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196.

الأحسَنِ؛ أيْ: (جازَيناهُ على إحسانِهِ بتلكَ المَواهِبِ والكراماتِ والمَناقِبِ السّابقة، وقد استَحقَّ الجزاءَ على الإحسانِ؛ لأنّه كانَ مِن عبادِنا المُؤمِنينَ)؛ فهي شاملةٌ للتَّعليلِ، وهذا التَّعليلُ بالإيمانِ نَلحَظُ أنّه بيانٌ لكيفيّةِ ذلك الإحْسانِ، وتخصيصٌ له بأنَّه الإحسانُ الشَّرْعيُّ الدّينيُّ؛ وهو إحسانُ الإيمانِ والإذعان للواحِدِ الدَّيّانِ. ولذلكَ لَم يقُلْ في السّياقِ الكَريمِ: (إنّه كان مِن عبادِنا المُحسِنينَ) ويكونُ في ذلك غُنْيَةٌ عن قولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وغُنْيَةٌ عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، لا ليُفيدَ بقولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلحاقَ المُقْتَدينَ بِهَديِه في الجزاءِ، وأنّه ليس هذهِ المَناقِبُ مُتيسِّرةً لكلِّ مَنِ انتَهجَ سبيلَ الإحسان.

نَوْعُ ﴿مِنْ﴾ ودَلالتُها:

الإيمانُ وصفٌ جامعٌ لجميعِ المؤمنينَ وشامِلٌ لكُلِّ المُحسِنينَ

إنْ سألَ سائلٌ: وما نوعُ الإحسانِ الَّذي يُرجَى في ذلكَ وكانَ عليهِ نوحٌ واستحَقَّ به الجَزاءَ؟ فأُجيبَ: بأنّه إحسانُ عبوديّةِ الإيمانِ، فقد كان ضِمنَ العِبادِ المُؤمنينَ، ولذلكَ لَم يَقُل: (إنّهُ كان مُؤمِنًا)، أو (إنّهُ كانَ عبدًا مُؤمِنًا)؛ ليستَطرِدَ النَّظْمُ على عُموميّةِ الجَزاءِ الَّذي لا يختص بنوح وحدَه؛ بل ينالُه كلُّ مَن قامَ بشَرطِه فقال: ﴿عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال: ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (مُحسِنًا)، كأنّهُ قيلَ: كلُّ عَبْدٍ مُحسِنٍ مُؤمِنٍ هو مِنْ نوحٍ ونوحٌ منه؛ فجَمْعُ العبادِ وجَعْلُ نوحٍ مُنتظِمًا في فريقِ العبادِ المُؤمنينَ، بدَلالةِ ﴿مِنْ﴾ الدّالَّةِ على التَّبعيضِ؛ هو تَشْريفٌ للمُؤمنينَ أيَّما تَشْريف؛ لِأنّه ألحَقَ نوحًا بهم، بِجَعلِه ضِمْنَهم ومُنتظِمًا في صُفوفِهم وجَماعتِهم[1].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 48، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 196، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

دَلالةُ الوَصْفِ بالعُبوديَّةِ:

العُبوديّة شَرَفٌ موصِلٌ للعَلياءِ ووصفٌ رافعٌ للأنبياءِ

الإخبارُ عن نوحٍ ﵇ بقولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾؛ للدّلالةِ على استحقاقِهِ ما تَبوَّأَ إيّاهُ مِنَ المَكارِمِ والمَناقِبِ؛ فقد نالَهُ بِرُتْبَةِ العُبوديّة، وفيه إشارةٌ إلى أنّ العبوديّةَ خيرُ وصفٍ ومَرْتبةٍ يحوزُها المخلوقُ، بدليل أنّ اللّهَ خصَّها ليَشهدَ بها لأكابِرِ أنبيائه[1]، وفيها إيماءٌ إلى أنّ معرفةَ عبوديّتِه للّه تعالى هي الَّتي قادتْه إلى هذه المنزِلَةِ العَليَّة والرُّتبةِ النَّبويّة، ودلّتْه على رَبِّ البَريَّة، فكان نبيًّا مُرسَلًا.

نُكتةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ:

عُنوانُ العُبوديّةِ تابِعٌ لكمالِ البشريّةِ بالنُّبوّةِ

أُضيفَ لفظُ (عباد) إلى ضَميرِ الجَلالةِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ لتعريفِ نوحٍ ﵇ بالتّقريبِ ورَفْعِ الدَّرجةِ، فالإضافةُ تشريفٌ له وللعِبادِ الَّذي هو واحدٌ منهم، وكونُهُ مِنهُم تشريفٌ ثانٍ[2].

تَوجيهُ تَخْصيصِ وصْفِ العِبادِ بالمؤْمنينَ بالذِّكْرِ:

التّنْويهُ بشأنِ الإيمانِ والحَضُّ عليهِ استجابةً لإرشادِ القرآنِ

اقتصَرَ النَّظمُ الكريمُ على وصفِ العِبادِ بالمؤمنينَ في قولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ومُقتضَى إضافةِ العِبادِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ أنّهم مؤمنون، وذلكَ تنويهًا بشأنِ الإيمان؛ ليَزداد الَّذين آمنوا إيمانًا؛ ويُقلِعَ المشركون عن الشِّرك، وهذه نعمةٌ تاسعةٌ في جُملة المَذْكورات[3]، ولِحَضِّ النّاسِ على طلَبِ كَمالِ الإيمانِ اقتداءً بأولئك الكُمَّل، واتِّباعًا لأمر اللّه تعالى.

مَوقِعُ الجُملةِ مِن السّابقِ في العَطفِ:

المُقابَلةُ بينَ غَرقِ الكافِرينَ ونجاةِ المُؤمنينَ نَقشٌ سَرمَديٌّ

جاءتْ جُملةُ: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ عطفًا على جُملةِ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾، وهو عطفٌ لقصّةٍ على قصّة؛ أيْ: (كانوا على فَريقَينِ؛ فريقٌ ناجٍ مِن قصّتِه كَيْتَ وكَيْتَ، وفريقٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134، 135.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 135.

هالك مِن قصّته الغَرَقُ والإبعاد). وهذا أَوْلَى مِن العطفِ على جُملةِ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾؛ لأنّ النّاجين أعمُّ مِن ذُرّيّته، فإذا عطفنا المُغرَقينَ عليهِم، لَمْ تَتِمَّ مُقابلتُهم بجميع النّاجين؛ بل بصِنفٍ فيهم[1].

دلالةُ العَطفِ بحَرْفِ التّراخي:

تقديمُ بُشرَى إنجاءِ الباقي الذّاكِرِ على إغراقِ الفاني الغابِرِ

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ العطفَ بحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ دونَ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ لإفادةِ التَّرتيبِ والتّراخي الرُّتْبيِّ بينَ فريقِ النّاجينَ وفريقِ المُغرَقين، ومعنى أنّها للتَّرتيب[2]؛ أي: التَّرتيبِ الذِّكريِّ، لا الزّمَنيِّ، والمُرادُ بأنّها للتّراخي؛ أي: التّراخي في الحالِ والبُعد، لا الوقتِ، ذلكَ أنّ نجاةَ هؤلاءِ مُتزامِنةٌ مع إغراق أولئك، فالمُرادُ من دُخولِ ﴿ثُمَّ﴾ هنا: الدّلالةُ على التّبايُنِ بينَ المَنزلتَينِ: مَنزلةِ النّاجينَ، ومنزلةِ المُغرَقينَ، وأخّرَ ذِكْرَ المُغرَقينَ في النّظْم تأخيرًا لهم عن مناقبِ نوحٍ والنّاجينَ معَه، لمّا كانوا متأخِّري الرُّتبة والمنزلةِ في الواقعِ أخّرَهُم في النّظْم؛ تنبيهًا على أنّهم أَوْلَى بالتّأخير معنًى ولفظًا، فحقُّهم الدَّرَك، ومكانُهم الذَّيْل؛ فقدَّم البُشرى في إنجاءِ نوحٍ عليه السلام ومَن معَه، على بُشرى إغراقِ الظّالمين، وذلك لمُراعاةِ الاعتبارِ، والتّنبيهِ على الباقي الذّاكِر دونَ الفاني الغابِر، ففيهِ دَلالةٌ على أنّ القرآنَ يُراعي المَقاصِدَ في ترتيبِ المَشاهِدِ.

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾:

المُعارِضُ للحَقِّ مُتأخِّرٌ عنهُ غارِقٌ في الظُّلُماتِ

استَعمَلَ النّظْمُ الكريمُ مُفرَدةَ الآخَرينَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ وهُم الكفّارُ الّذين أغرقَهم اللّهُ تعالى بعدَ طولِ دعوةٍ وإنذارٍ تنبيهًا على تخلُّفِهم وتأخُّرهم في المكانةِ والمكانِ عن

(1) صافي، الجدْول: 12/ 67.
(2) السَّامرَّائيّ، معاني النَّحو: 3/ 239.

أقرانهم من المُؤمنين، و﴿ٱلۡأَخَرِينَ﴾ جمعُ (آخَر)، وهو أحدُ الشّيئَيْنِ، وهو اسمٌ على (أفعَل)، وهو بمعنى (غير) كقولِك: رجُل آخَرُ، وثَوب آخَرُ، إلّا أنَّ فيه معنى الصّفةِ، فأصلُهُ (أفْعَلُ) مِن التأخّر[1]، فمقصودُ اللفظِ الإشعارُ بحقارةِ الآخَرينَ في كلِّ زمانٍ، وأنّ مَن عارَضَ دعوةَ الحقِّ فهو مُتأخِّر عن رُكوبِ الحَقِّ، غارِقٌ في بحرِ الظُّلُمات.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 135، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخر).

﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤ إِذۡ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦
فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي
سَقِيمٞ ٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ٩٠﴾ [الصافات: 83 - 90]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ الأبِ الثّاني للبشَريّةِ إلى أبي الأنبيّاءِ

لَمّا بَيَّنَتِ الآياتُ السّابقةُ قصّةَ نوحٍ عليه السلام على سَبيلِ الإجمالِ لتقريرِ غَرَضِ الاعتبارِ، ناسَبَ الانتقالُ إلى ذِكْرِ خَبَرِ إبراهيمَ عليه السلام مع قومِهِ، فمِن حُسْنِ الإرْدافِ موالاةُ قِصَّتِهِ بخَبَرِ إبراهيمَ عليه السلام، لِأنَّ إبراهيمَ كآدَمَ، فهو الثّالثُ بالنّسبةِ إلى الأنبياءِ والمُرسَلين بعدَه؛ كما كان نوحٌ الأبَ الثّانيَ للبشريّة، وهو آدمُ الثّاني، ويَزيدُ حُسْنَ الإرْدافِ والتَّشابُهِ أنَّ نوحًا نَجّاهُ اللّهُ تَعالى مِن الغَرَقِ، وإبراهيمَ نجّاه اللّه تعالى من الحَرْقِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِيعَتِهِۦ﴾: (شيع) أصلٌ يدلُّ على مُعاضدة ومُساعفة، ومنه قولهم: شَيَّع فلانٌ فلانًا عند شخوصه[2]، والمشايعةُ المتابعةُ على أمر مُعيَّن، ومِن معانيه الظُّهور والتَّفرُّق[3]، والشِّيَعُ: الفِرَقُ الَّتي يتابع بعضُها بعضًا[4]، وليس شرطًا أن يكون تجمُّعهم على خير أو صواب، والشِّيعة: من يتقوّى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، والشِّيعَة: أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها: شِيَعٌ وأشْياع[5]،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شيع).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شيع).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شيع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (شيع)، والزّجاج، معاني القرآن: 03/ 174، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 205.

فالمراد بـ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ في الآية: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: إبراهيم على ملة نوح عليهما السلام[1].

2) ﴿سَلِيمٍ﴾: أصلُ (سلم) يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[2]، فالسِّلْمُ والسَّلَامَةُ: التَّعرِّي من الآفات الظَّاهرة والباطنة، وقوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، أي: مُتعرٍّ من الدَّغل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، فهذا في الظَّاهر، وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سَلَامَةً، وسَلَامًا، وسَلَّمَهُ اللّه[3]، والمُرادُ بالسَّليمِ في الآية: الموصوفُ بقوَّةِ السَّلامةِ، أي: الخُلوصُ من عقائدِ الشِّركِ[4].

3) ﴿أَئِفْكًا﴾: أصلُ (أفك) يدلُّ على قَلْبِ الشّيْءِ وَصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ، وَالإِفْكُ: الكَذِبُ[5]، وأَفَكْتُه عن الأمر: صرفته عنه بالكذبِ والباطل[6]، والإِفكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أَنْ يكونَ عليه[7]، كالصّرفِ عن الحقّ في الاعتقادِ إلى الباطل، ومِن الصدقِ في المقالِ إلى الكذب، ومن الجميلِ في الفعل إلى القبيح[8]، والمقصودُ بـ ﴿أَئِفْكًا﴾ هنا: أكذبًا آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ؟[9].

4) ﴿ظَنُّكُم﴾: الظَّنُّ: "اسمٌ لِما يحصلُ عن أمارةٍ، ومتى قويتْ أدَّت إلى العِلْم، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التَّوهُّم"[10]، فهو يأتي بمعنى اليقين وبمعنى الشكِّ كذلك[11]، ومعناه المِحوريُّ: "توقُّعُ وجودِ شيءٍ مهمٍّ في باطنٍ لأمارةٍ قويَّةٍ على ذلك"[12]، ومنه قولُه تعالى حاكيًا قولَ الملأ من قوم نوح: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. أي: نتيقَّنُكم كاذِبين[13]، وجاءت ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ هنا بمعنى: ما تقولون؟[14].

---

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 611.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سلم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 150.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(6) الخليل، العين: (أفك).
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(8) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(9) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 611.
(10) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ظنن).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظنن).
(13) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/ 369.
(14) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 235.

5) ﴿سَقِيمٌ﴾: الجذر (سقم)، ومنه السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرض المختصُّ بالبدن، والمرض قد يكون في البدن وفي النَّفس[1]، ويدلّ الجذر (سقم) في أصله على "جفاف جِرْم الشيء على غير المعتاد لوجود غليظ أو حادّ في باطنه ... ومنه جفاف بَدَنِ السَّقيم؛ فطولُ المَرَض يكون من عِلَّة شديدة مُعْضِلَةٍ ... تَسْكُنُ الجسمَ وتجفّفُهُ، أي: تُذهب شَحْمَه ولَحْمه"[2]، و﴿سَقِيمٌ﴾ هنا يعني: وجيع[3]، أو هو سُقْمٌ معنوي تَقَزُّزًا ممّا فيه قومه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأخبارُ تَتَنادى أخبـارُهـم كما تتلاءمُ طبائِعُهم

شَرَعتِ الآياتُ الكريمةُ بِذِكرِ أوَّلِ أشياعِ نوحٍ عليه السلام الَّذينَ هُم على مِنهاجِه ومِلَّته وهو نبيُّ اللّهِ إبراهيمُ، حينَ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سالمٍ مِن كلِّ اعتقادٍ باطلٍ وخُلُق ذميم، حينَ قالَ لأبيه وقومِه مُنكِرًا عليهم: (ما الَّذي تعبدونه من دونِ اللّه؟ أتُريدونَ آلهةً مُختلقَة تعبدونها، وتتركونَ عبادةَ اللّهِ المُستحِقِّ للعبادة وحدَه؟ فما ظنُّكم بربِّ العالَمينَ أنّه فاعِلٌ بكم إذا أشركتُم بِهِ وعبدتُّم معَه غيرَه؟)[5]. فبعدَ إنكارِه عليهم ذلك نظَرَ في النُّجوم راميًا ببصرِه إلى السّماءِ، مُتفكِّرًا في نفسِه كيفَ يَحتالُ، أو أراهُم أنّه يَنظُرُ في النُّجوم، لاعتقادِهم عِلمَ النّجوم، فأوهمَهُم أنّهُ استدلّ بأمارةٍ على أنهُ يُسْقَمُ[6]. وإنّما فعلَ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام ذلك مع قومِه، ليُقيمَ في البلَدِ إذا ذَهَبوا إلى عيدِهم، فإنّه كان قد أزِفَ خُروجُهُم إلى عيدٍ لهم، فأحَبَّ أن يختليَ بآلهتِهم ليُكسِّرَها، فقالَ لهم كلامًا هو حقٌّ في الأمرِ نفسِه، فَهِموا مِنه أنَّه سقيمٌ على مُقتضَى ما يَعتقِدونَه، فترَكوه وراءَ ظُهورِهم وولَّوا عنه مُعرِضين[7].

(1) الراغب، المفردات، ص: 415.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سقم).
(3) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 611.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سقم).
(5) نخبةٌ من العلماء، التَّفسير الميسَّر.
(6) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 128.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 24.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نَوعُ الواوِ في ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ودَلالتُها:

الرّابطُ بين نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام التّجرُّدُ للهِ وحدَهُ

جملةُ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ مَعطوفةٌ على ما قبلَها من قصّةِ نوحٍ، وهي مِن عطفِ القصّةِ على القِصّة. أو استئنافيّةٌ جرَتْ على أسلوبِ حُسنِ التَّخلّصِ، بالانتقالِ من قصَّةِ نوحٍ إلى قصَّةِ إبراهيمَ، باستلالِ إبراهيمَ مِنه في النَّظْمِ عن طريقِ الإخبارِ بأنّ الخليلَ عليه السلام كان من شيعَةِ نوحٍ عليه السلام، فاسْتَلّه مِنه بربطِ الضّميرِ نَظْمًا، كما اسْتَلّه مِنه بِرابطِ الأنْسابِ نسْلًا[1].

تعيينُ مَرجعِ الضَّميرِ:

إبراهيمُ من شيعَةِ نوحٍ في التَّوحيدِ ودَعْوةِ العَبيدِ

الضَّميرُ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ الظّاهرُ أنَّه يعودُ على نوحٍ عليه السلام؛ أيْ: (إبراهيمُ من شيعةِ نوحٍ وأتباعِهِ في أصلِ الدّينِ)، وقيلَ: يعودُ على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم، بجَعْلِ المُتقدِّمِ شيعةً للمُتأخِّرِ - على خِلافِ الأصلِ - تعظيمًا لمَقامِ سيِّدِ المُرسَلين، وفي ذلك نَظَرٌ؛ لِكونِ عَوْدِ الضّميرِ على مذكورٍ قريبٍ أوْلَى مِن عَودِه على غيرِ مذكورٍ، ولكونِه جَرْيًا على خلافِ الأصلِ[2].

عِلَّةُ التَّصديرِ بالتّوكيدِ:

إدماجُ ثَناءَيْنِ في حَيِّزٍ واحدٍ من النَّظْمِ

صُدِّرت جملةُ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ بحرفِ التّوكيدِ (إنّ)؛ لتحقيقِ مضمونِ الجملة، بتأكيدِ الثّناءِ على نوحٍ عليه السلام وابتداءِ الثّناءِ على إبراهيمَ، تأسيسًا لمَنقَبةٍ إضافيّةٍ لنوحٍ عليه السلام، وهي أنْ كان إبراهيمُ - الرَّسولُ العظيمُ - من شيعتِه، وهو في ذاتِه استهلالٌ بمَناقِبِ إبراهيمَ عليه السلام بأنّه مُنَسَّبٌ إلى نوحٍ عليه السلام مُشايِعٌ له في الاعْتِقادِ والدّيانةِ، فجَعَلَ إبراهيمَ مَنْقَبةً لنوحٍ، وجَعلَ نوحًا مَنْقَبةً لإبراهيمَ، كما يفخَرُ الوَلَدُ بوالدِه، ويفخَرُ الوالدُ بولدِه، وأدخَلَ ذلكَ كلَّه في حيِّزِ توكيدٍ واحدٍ على أحسنِ وجْهٍ وأبدعِ أسلوبٍ[3].

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 146، وابن عاشور التَّحرير والتَّنوير: 23/ 136.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/ 109.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 136.

احتمالُ التَّبعيضِ والبيانِ باعتبارَيْنِ مُختلِفَيْنِ

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ للتَّبعيضِ؛ أيْ: (إبراهيمُ بعضُ شيعةِ نوحٍ ﵇)، ويصِحُّ أن تكون ﴿مِن﴾ بيانيّةً على إرادةِ التَّعظيمِ والمُبالَغة في كَونِ إبراهيمَ ﵇ أُمَّةً وحدَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]؛ أيْ: (مُستوفيًا لخصائصِ الأُمَّةِ الكاملة)؛ فكانت شيعتُه بكلِّ الأشياعِ الَّذين اتّبعوا سبيلَ نوحٍ، فبَيّنَ الشّيعةَ بإبراهيمَ، كأنّه قيلَ: (إبراهيمُ هو شيعةُ نوحٍ)، فلمّا أضافَ اللَّفظَ المُفرَدَ إلى الضّمير في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ أفاد الاستغراقَ، كأنّ كلّ مُشايَعةٍ لنوحٍ لا تصِحّ ولا تصلُحُ إلّا من بابِ إبراهيمَ ﵇، وعلى كونِها بيانيّةً يكون البيانُ مُتقدِّمًا على المُبيَّن؛ لغرضِ الاهتمام بمَبدَأِ التشيُّعِ وأساسه[1]، والمعنيان مُحتمَلان، فالتّبعيضُ ظاهرٌ في كونِ إبراهيمَ ﵇ بعضَ شيعةِ نوحٍ ﵇، والبيانُ باعتبارِه أقربَ الأنبياءِ إليه، فقد شايَعَه ومَن بعدَه على نهجِه؛ فيكونُ كلُّ نبيٍّ مُشايِعًا ومُناصِرًا لغيرِه، فَهُم كالدّائرةِ المُغلَقةِ لا يُعرَفُ طَرَفاها.

مُشايَعةُ إبراهيمَ لنوحٍ ﵉ مَنقبةٌ مُتبادَلةٌ للسّابِقِ واللّاحِقِ

بلاغةُ التّوكيدِ ودلالتُه البيانيّةُ:

اجتمعَ في جملة ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ ثلاثةُ مؤكِّدات، اثنانِ لفظيّان وهما (إنَّ) وحرف اللّام، والثّالث في أسلوب النّظم تقديمًا وتأخيرًا، ولم يقل: (وإنّ من شيعتِه إبراهيمَ)، اهتمامًا بإبراهيم ﵇ واحتفاءً به وإلفاتًا إلى أنّه ليس كآحادِ الأشياع لنوحٍ، بل في شيعتِه لنوحٍ ثَناءٌ على نوحٍ، فإذا كان التّابعُ لنوحٍ هو إبراهيمَ بجلالِه ومَقامِه، فكيف بنوحٍ نفسِه في الجلال والشّأن! واللّام لامُ التَّوكيد المُزحلَقة[2]، لحِقت اسمَ إنّ المؤخَّر؛ وتزحلقَتْ عنِ الصّدارة لتأخُّر مَدخولِها، ولِصدارةِ التّوكيد بأداةِ (إنّ)، فلا يتزاحم مؤكِّدان في الصّدر.

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 278.

(2) صافي، الجدول: 12/ 68.

كما أنّه لم يقُل: (وإنّ إبراهيمَ من شيعتِهِ) بتقديمِ الاسمِ وتأخيرِ الخبرِ على الأصل؛ صيانةً للفاصِلةِ ألّا تَنخرِمَ، ولإفادةِ الاختصاصِ والعنايةِ بشيعةِ نوحٍ، فأكرِمْ بهم من أشياعٍ لأكرَمِ إمامٍ، فهو جِذْرُ الأنبياءِ والمُرسَلين، وأبو البَشَرِ الثاني، فقولُه: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ - مقدَّمًا - ثناءٌ على إبراهيمَ بنوحٍ، وقولُه: ﴿لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ - تأكيدًا - ثناءٌ على نوحٍ بإبراهيمَ عليهما السلام.

بلاغةُ الكنايةِ:

ما ثَبتَ للتابِعِ فثُبوتُه للمَتبوعِ أولَى

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ كنايةٌ باللّازمِ عن وصفِ نوحٍ بسلامةِ القلبِ أيضًا، فلمّا أثبتَ سبحانَه لإبراهيمَ عليه السلام أنّه سليمُ القلب، وأنّه من شيعةِ نوحٍ فأثبتَ لنوحٍ ما ثَبتَ لإبراهيمَ عليهما السلام، إلّا أنّ ذلك أثبتُ لإبراهيمَ بالطّريقِ الصّريحِ، ويَثبُتُ لِنوحٍ باللُّزومِ، فيكونُ أضعفَ فيه من إبراهيمَ عليهما السلام[1].

توجيهُ تعلُّقِ ﴿إِذۡ﴾ بالعاملِ:

سلامةُ قلبِ إبراهيمَ أشهَرُ مِن عَلَمٍ على رأسِهِ نار

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ ظرفٌ للزّمن الماضي، وهو إمّا أن يكون متعلّقًا بمحذوف دلّ عليه لفظُ ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ أي: شايَعَ نوحًا حينَ جاء ربّه بقلبٍ سليم[2]، وقد أثار هذا التّعلُّقُ إشكاليّةً وهي تقييدُ المُشايَعة بمَجيئِه بقلبٍ سليم، وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام هو من شيعته في كلِّ وقتٍ، فلَم يكُنْ عليه السلام في وقتٍ من الأوقاتِ إلّا سليمَ القلب، فثبَتَ بذلك أنّ كلّ أوقاته جاريةٌ في مُشايَعة نوحٍ عليه السلام، لم تَنفَكّ عن اتّصافِه بسلامةِ القلبِ. وإمّا أن يكونَ الكلامُ متعلِّقًا بمحذوفٍ على تقدير: (واذكُرْ إذ) وهذا التّقديرُ هو الأشهَرُ والأسلَمُ من المُعارَضة النّحويّة والدّلاليّة[3]، مع ما فيه من الأمرِ باستحضارِ أمرٍ معلومٍ لا يَخفَى على ذي لُبٍّ ونظَر.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 138.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 48.
(3) الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 9/ 318، والقونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 278، وصافي، الجدول: 12/ 68، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 192.

نكتةُ التّعليلِ مِن استعمالِ الظّرف:

القلبُ السّليمُ هو عِلّةُ الاصطفاءِ الإلهيِّ للعبدِ

أخَذَ الظّرفُ ﴿إِذْ﴾ معنى التَّعليل لكونِهِ مِن شيعتِهِ؛ فإنّ معنى التّعليل كثيرُ العُروضِ لإذ، كقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزخرف: 39][1]، كأنّه قيل: (اصطفَينا لِنوحٍ إبراهيمَ مُشايِعًا له؛ لأنّه ذو القلب السّليم)، ومعنى التّعليل منتزَعٌ من السّياق، غيرُ مُستقِلّ بالظّرف وحدَه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمَجيءِ:

جاء التّعبير بالمَجيءِ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾، ولم يقُلْ: (أتى) لتحقيقِ معنى القَصدِ في الحُضورِ؛ أيْ: (حضَر إلى ربّه بقلبٍ سليمٍ وهو قاصدٌ عازِم).

بلاغةُ تنوّعِ الاستعارةِ في لفظِ المَجيءِ:

تجرُّدُ إقبالِ الخليلِ على اللهِ تعالَى بقلبٍ خالصٍ مِن كلِّ شيءٍ

في استعمالِ لفظِ المَجيءِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ استعارةٌ، وهي إمّا من بابِ التّمثيليّةِ؛ إذ شبَّه حالَه في دوامِه على استحضارِ الإخلاصِ للّهِ تعالى، بحالِ الآتي إلى شخصٍ حينَ يَحضُرُ إليهِ فلا يكونُ شيءٌ من بدَنِه عندَ شخصٍ غيرِه. وإمّا من بابِ تشبيهِ إخلاصِهِ قلبَه للّهِ بِمَجيئِه ربَّه بقلبِه، بجامعِ الحُلولِ والحضورِ في كلٍّ، فالإخلاصُ حالٌّ في القلبِ حاضرٌ فيه؛ فجعلَهُ كأنَّه مأتيٌّ به حالًّا عندَ اللّهِ حاضرًا كشيءٍ محسوسٍ يُجتلَبُ ويُؤتَى به إلى مُستَحِقِّه، واللّهُ سبحانه صاحبُ الإخلاصِ والمستحِقّ له وحدَه، وذلكَ على سَبيلِ الاستعارةِ التَّبعيّةِ التصريحيّةِ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيّةِ:

مَن ذاقَ إحسانَ ربِّه إليهِ زادَ قُربُهُ ومَيلُه إليه

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾؛ للدّلالةِ على أنّه مجيءٌ بسببِ الإحسانِ، وطمعًا في الإحسانِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 137.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 97.

فاللّهُ حقيقٌ بتسليم القلبِ له بسببِ إحسانِه إلى خَلقِه بأصنافِ النِّعَم الَّتي لا تتناهَى ولا تَنقَطِع، والعبدُ يُسلّم قلبَه ويُخلِص العبوديّة استنزالًا لصنوفِ عطاياه، كأنّه يُرغّب كلَّ سامعٍ في سلامةِ القلبِ بمُقتضَى إحسانِ اللّهِ السّابقِ، وإحسانِه اللّاحقِ، فمَن يُسلّم قلبَه يَزدَدْ خيرًا وإكرامًا.

نوعُ الباءِ ودَلالتُها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ للمُصاحَبة والمُلابَسةِ؛ أيْ: معَه قلبٌ سليمٌ؛ أيْ: مُلتبِّسًا ومُتَّصِفًا بسلامةِ القَلب(1).

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ القَلب:

القلبُ هو الاسمُ العَلَمُ وهو الأنسَبُ بصِفةِ السّلامةِ

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة القلبِ دونَ الفُؤادِ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾، وذلك لِأنّ المقصودَ أنّه أتَى الخليلُ عليه السلام ربَّه بالقلب المُتَّصِفِ بالسَّلامة باعتبارِ اسمِ العَلَم، دونَ الفؤاد؛ لأنّ مواضِعَ استعمالِ الفؤاد تكونُ في سياقِ ذِكرِ الانفعال والتَّفاعُل؛ لدلالةِ الفؤاد على التَّفَؤُّدِ والتَّوقُّد، وهذا السّياق قد ذُكِر فيه القَلب وهو خالٍ من كلِّ اعتبارٍ، مُتَمَحِّضٌ لاعتبارِ السّلامةِ، المُستجمِعُ لِكُلِّ أسبابِ الخيرِ والنّجاةِ والفوز.

فائدةُ الابتداءِ بالمَوصوفِ قَبلَ الصِّفةِ:

مُراعاةُ الأصلِ أمتَنُ في بِناءِ المعاني وتَجليَةِ الحقائقِ

الابتِداءُ بالقلب في قولِه: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾؛ لأحقّيَّته بالتَّقديم، فالبَدءُ بالموصوفِ قبلَ صفتِه هو الأصلُ، ولا يَجري تقديمُ الوصفِ هنا إلّا بالعُدول إلى أسلوبِ الإضافة، كأنْ يُقال: (جاء ربَّه بسلامةِ القلب)، لكنّه ترَكَ ذلكَ الأُسلوبَ، وابتدَأ بذِكرِ القلْب ثُم وصفَه بـ ﴿سَلِيمٍ﴾ لِما في ذِكْرِ القلْب من إحضارِ حقيقةِ ذلك القلبِ النّزيه، ولذلك أوثِر تنكير (قَلْب) دونَ تعريفِه، وهذا التَّنكيرُ أحَدُ دواعي جَرَيانِ التّركيب على صورتِهِ في النّظْم أيضًا(2).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 137.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 137.

لسلامةِ قلبِ إبراهيمَ معيارٌ خاصٌّ لا يُحصِّلُهُ كلُّ مُريدٍ

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ (قلبٍ):

نُكِّر لفظُ القلبِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾؛ لتكثيرِ أحوالِ القلبِ في وُجوه السّلامة، فالقلبُ لَمّا كان مُتنوِّعًا بحسَبِ وارداتِ الأحوالِ عليه نكّره، وسلامةُ قلبِ إبراهيمَ عليه السلام أعظمُ من أن يُدرِكَ حقيقتَها عامّةُ المُخاطَبين، فلو قال: (بالقلب السَّليم)؛ لكان معيارًا للقلب المَقبول، والمَقصودُ مَدحُه بِما يُميِّزُه عن غيرِه مِمّا لا يُحاطُ بكُنهِه على التّحقيق.

سلامةُ قلبِ الخليلِ جَرَتْ مَجرَى الطّبعِ الثّابتِ والخُلُقِ الرّاسِخِ

دَلالةُ صيغةِ فَعيل في: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾:

صفةُ ﴿سَلِيمٍ﴾ الموصوفُ بها القلبُ في قوله تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾، إمّا صفةُ مُبالَغةٍ؛ أيْ: (كثيرُ السّلامة، بمعنى بالغِ السّلامةِ)، وإمّا صفةٌ مُشبّهةٌ تدُلّ على ثُبوتِ الوصفِ؛ أيْ: (دائمُ السّلامة). وبِناءُ المُبالَغةِ يُصوِّرُ كثرةَ المُعالَجةِ للصّفةِ وتَكرارَها حتّى تصيرَ كالعادةِ المُطّرِدة، والصّفةُ المشبّهةُ تصوّر كيف أنّ الوصف جرَى من الموصوفِ مَجرَى الجِبِلّةِ والطّبْعِ من كثرةِ ما يعتادُه ويُلازِمُه[1].

كلُّ ما يُتخيَّل من أوصافِ المَرَضِ القلبيّ فالخليلُ عنه خَليّ

نُكتةُ حَذفِ مُتعلِّقِ السّلامةِ:

جاءت صفةُ ﴿سَلِيمٍ﴾ مُطلَقة غيرَ مقيّدة، فلم يقُل: (سليمٌ من الآفات، أو الأحقاد، أو الشبُهات) ونحوَ ذلك؛ وذلك للتّعميم في أحوالِ الآفاتِ والعلائق؛ أيْ: سالمٌ من جميع الآفات، وأوّلاها الشِّرك، وسالمٌ من جميع العلائِق، فلا يَنشَغِلُ عن اللّه بمتعلّقٍ من أسبابِ الدُّنيا، بل يرى اللّهَ سبحانَه قَبلَ كلِّ فِعلٍ وقبلَ كلّ فاعل، فلا يتوزّعُ هَمُّه في غير سبيل اللّهِ وقصدِه[2]، وهذا الإطلاقُ ألطَفُ في بابِ المدحِ من التّقييد، فإنّه محمولٌ على عموم المتعلّقاتِ المحذوفةِ مما يُضادُّ وصفَ السّلامة، فكلُّ ما يتخيّله الذّهنُ من أوصافِ المَرَضِ القلبيّ فهو عنه خليّ.

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 84، 102.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 279.

وجْهُ إجراءِ ﴿سَلِيمٖ﴾ على المَجَازِ:

من حيثُ صَنعة البلاغة يَصِحُّ إجراءُ وصف ﴿سَلِيمٖ﴾ على المجازِ المُرسَلِ لعَلاقةِ اللُّزوم، إذا حمَلْناه على مَعنى حَزينٍ من إشراكِ قومه وضلالِهم، وذلك بتسميةِ الشيءِ باسمِ لازمِه، إذِ الحزنُ بسببِ شِركِهم هو عيْن سلامةِ القلبِ من الآفاتِ، كما يَصِحُّ إجراؤُه على الاستعارة، بتسميةِ المَهموم الحزينِ بصفةِ ﴿سَلِيمٖ﴾ بغَرَض التّفاؤل؛ كتسميةِ اللَّديغ سليمًا تفاؤلًا بسلامته، فاستعارَ ﴿سَلِيمٖ﴾ بمعنى (حزين) في الآيةِ، منْ (سليم بمعنى اللَّديغ)، ووجْهُ الشّبَه: التَّأثُّر والانفعالُ للإصابةِ الحاصلةِ في كلٍّ. ولا يَخفَى أنّ أصلَ تسميةِ السّليم باللّديغ قد يقَعُ على سبيل المَجازِ المُرسَلِ لعَلاقةِ المآلِ المَرجوّ[1]، وهذان الإجراءان لهذا اللَّفظِ الكريم إغرابٌ عن الظّاهر، وابتعادٌ عن المقصود، وإنّما أغرَى بهما الحَملُ الشّائعُ في الاستعمال العربيّ للفظ (سليم) على معنى (لديغ)، وهو خروجٌ عن سلامة الاستعمالِ، فالأصلُ إجراءُ الاستعاراتِ والمَجازات بدون تكلُّفٍ أو إغراب، والمعنى المُرادُ من الإجراءِ المَجازيّ متحقِّقٌ، إذ سليمُ القلبِ سَيَحزَنُ على قَومِه لِما أصابَهم من الضّلال المُبين.

إجـــراءُ لـفـظِ (سـلـيـم) على حـقـيـقـتِـهِ هـو الأولَـــى وهـو يَستلزِمُ المَعنَى المَجازيّ

توجيهُ تخصيصِ القلبِ بالذِّكرِ:

اختصَّ النّظمُ بوصفِ القلب بالسّلامةِ دون بقيّة الأعضاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾؛ لتوقُّف مَناطِ الإيمان والتَّكليف عليه قَبولًا وانقيادًا وإذعانًا، وسائرُ الأعضاء تَبَعٌ للقلْب في ذلك، فالقلب سيّد الأعضاء، ومَصدرُ إمدادِها بالعمَلِ والسّلوك، فالتّعويلُ عليه، والعزيمةُ منه، وانعقادُ النّيّات - التي يَصِحّ بها كلُّ اعتقادٍ وتكليفٍ - فيه. والمُرادُ بالقلبِ وِعاءُ الإدراكِ والأخلاق، وليس العُضوَ المادّيّ المعروف[2].

القـلـبُ مَـركـزُ تـغـذيـةِ الـرّوحِ ومَجمَعُ انعقادِ النّيّات

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 279.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 137.

مَوقعُ جُملةِ الظَّرفِ مِن جُملةِ الظّرفِ السّابق:

إنكارُ المُنكَرِ مِن مُقتضَيات سلامةِ القلوبِ وطهارتِها

جُملةُ: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ بدلُ اشتمالٍ من قولِه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ فإنّ قولَه - إنكارًا على قومِه ما يَعبُدون - ناشِئٌ عن امتلاءِ قلبِه بالتّوحيد والغضبِ للّهِ على المشركين، فكان قولُه ذلك مَشمولًا في قلبِه السّليم صادرًا عنه[1].

وتَحتمِلُ جُملةُ الظَّرف أن تكونَ ظرفًا لسليم؛ أيّ: (سَلِمَ عليه في وقتِ قولِه كَيْتَ وكَيْتَ)، أو ظرفًا لفعل ﴿جَآءَ﴾[2]، كأنّه قيلَ: (جاء بسلامةِ قلبِه حينَ قالَ لقومِهِ كذا، أو قلبُه سليمٌ في الوقتِ الَّذي أنكَرَ فيه على قومِهِ شِركَهم)، وعلى هذا التعلُّق للظّرفِ بـ ﴿جَآءَ﴾ أو ﴿سَلِيمٍ﴾ يصِحُّ أن تكون ﴿إِذۡ﴾ في: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ تعليلًا للمَجيءِ أو السّلامة؛ أيّ: (جاء بذلك؛ لأنّه قال لقومه)، أو (اتّصف بقلبٍ سليم؛ لأنّه قال لقومه)، فهو من تعليلِ القضيّة بالدّليل عليها، والقولُ بالبدَلِ أولَى بالقَبول، وأوضَحُ في السّياق، وتَحتَمِلُ الجُملةُ أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا نشَأ عن سؤالٍ مُفْتَرَضٍ بعدَ قولِه: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾، كأنّه سُئِلَ: (وما أمارة مجيئه ربَّه؟! وما أمارةُ سلامةِ قلبِه، ودليلُه؟)، فأُجيبَ بحالِه في الدّعوة[3].

بلاغةُ الكناية في جُملةِ الظّرف:

الاستغراقُ في حالِ الصّلاحِ يستأهِلُ العبدَ للإصلاحِ

في توالي الظّرف بعدَ الظَّرف تنبيهٌ على أنّ حالَ القلب يَستوجِبُ آثارَه مِن الأقوالِ والأعمال، فأقوالُ اللِّسانِ وأعمالُ الجوارح تَستتبِعُ أحوالَ القُلوبِ في الاعتقادِ والتّصديقِ والقَصدِ، فكان قولُه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ كالدّليلِ والأمارةِ على سَلامةِ قلبِه، ولذلك تأخّرَ بعدَه، وهو كنايةٌ عن صَلاحِهِ في نفسِه بالقلبِ السَّليم،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 138.

(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 319.

(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 148.

وإصلاحِهِ لغيرِه، فقلبُه السّليمُ يَلزَمُ عَنهُ صلاحُه في نفْسِه، ودعوتُهُ لأبيهِ وقومِه يَلزَمُ عنها إصلاحُهُ لغَيرِه، فهوَ صالحٌ ومُصلِحٌ[1].

نوعُ الواوِ ودَلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ للعطفِ، وهي مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، فأبوهُ من قومِه، ولفظُ القومِ عامٌّ يشتَمِلُ أباه.

نُكتةُ تقديمِ ذِكرِ الأبِ على القَومِ:

كـلّـمـا ازدادَ القُـربُ ازدادتْ عِـنـايـةُ الـدّاعـي بمَدعوِّه

جاء تقديمُ ذِكرِ الأبِ على القومِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾؛ تقديمًا للأخصّ في الصِّلة على ما هو دونَه في ذلك، فبدأ بأبيه؛ لأنّه أعظمُ النّاسِ عندَه؛ وأجلُّهم في عينِه؛ وأعزُّهم لدَيه[2]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ المرءَ يبدأُ بأهلِه حتّى لا يُعيَّر بهم، ولا يُنتقَدَ بتجاوُزِهِ لهم إلى غيرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، وليكونَ له من عُصبَتِه الخاصّةِ عَونٌ له على إقناعِ قومِه، وكفِّ شرِّهم عنه، فإنّ الحَقّ يَكونُ أجْلَى وأهيَبَ في نفوسِ المدعوّين إذا كان للدّاعي عِزوةٌ من خاصّتِه يؤمنون به.

دَلالةُ إضافةِ لفظِ القَومِ إلى الضّميرِ:

أُضيفَ لفظُ القومِ إلى ضميرِه ﵇، في قولِه تعالى: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ لبيانِ الاختصاصِ، فالإضافةُ بمعنى اللّامِ، وشأنُ الاختصاصِ بَذْلُ مَزيدِ العنايةِ.

معنى ﴿مَاذَا﴾ وغرضُ الاستفهامِ:

الإنـكـارُ يُـعـرَفُ بـالـقـرائـنِ والسّياقِ

﴿مَاذَا﴾ في قولِه: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ تركيبٌ من (ما) الاستفهاميّة، و(ذا) المَوصولة؛ أيِ: (ما الّذي تَعبدونه؟)، على أنّ (ما) مبتدأٌ و(ذا) خبرُه، والعائدُ محذوفٌ. ويَصِحّ أنْ تكونَ (ذا) مُلغاةً، و﴿مَاذَا﴾ كلُّها اسمُ استفهامٍ مفعولٌ مُقدَّم لـ﴿تَعۡبُدُونَ﴾، أو يُقال: (ما) اسمُ

(1) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 193.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 252.

استِفهامٍ مقدَّم، و(ذا) حرفٌ أو بمَنزِلةِ الحرفِ، ليسَ لها محَلٌ مِن الإعرابِ[1]، والاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ جاءَ للإنكارِ، ويوضِّحُه اللَّحاقُ وأنّه محمولٌ على الإنكارِ لا مُجرّدُ الاستفهام.

علّةُ فَصْلِ الجُملةِ عمّا قبلَها:

تعيينُ موضعِ الإنكارِ تفصيلًا بعدَ إجمالٍ وبيانٌ بعدَ إبهامٍ

جملة ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بيانٌ لجملة ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بيّنتْ مَنْشأ الإنكار في قَولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أيْ: (كيفَ تُريدونَ آلهةً إفكًا)، والاستفهامُ في: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ بدلٌ مِنَ الاستِفهامِ في: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، والبَدَليّة مِن دَواعي الفَصْل، فبَيْنَ هذا الاستِفهام وما قَبلَهُ كمالُ اتِّصالٍ، كأنّه قيل: (إذْ قالَ لأبيه وقومِه أئفكًا آلهةً دونَ اللّهِ تُريدون) على نيّةِ طَرحِ المُبدَل، ويَصِحّ أن تكونَ جُملةُ ﴿أَئِفْكًا﴾ من تَتِمّة مَقولِ القَولِ في: ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾[2]، وعلى جَعْلِ الجُملةِ بَيانًا للسّابقة هو بيانٌ لإبهامِ السُّؤال، فإنَّ السُّؤال قد يَبدو على ظاهِره، لكنْ جاءت هذهِ الجُملةُ بيانًا في كَونِ الأولى إنكارًا لا استِفهامًا مُجرّدًا.

دَلالةُ الاستفهامِ وغرَضُه:

الإنكارُ على القومِ وتوبيخُهم يَلزَمُ الإنكارَ على الأبِ دونَ توبيخِهِ

الاستِفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ لغرَضِ الإنكارِ، فهو تقريرٌ بِبُطلانِ آلهتِهم، ببيانِ موقِعِها في الإفْك والزّور، وغرَضُ ذلكَ الإنكارُ عليهم في عبادتِهم ما لا يَستحِقّ، وفيه مع الإنكار توبيخُ قومِه والنّعيُ على عقولِهم، والتّسجيلُ عليهم[3]، وهذا الخِطابُ موجَّه لقومِه عمومًا، وأمّا خِطابُ والدِه فلا يكونُ معَه توبيخٌ وما شابَهَه.

---

(1) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 194.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 138، وصافي، الجدول: 12/ 69، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 149/ 13.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 280.

توجيهُ الأعاريبِ في ﴿أَئِفْكًا﴾ وبلاغةُ التّقديم:

اختلافُ أوجُهِ الإعرابِ يُثيرُ المَعانيَ ويُفتّشُ عن الخَفايا

وتقديمُ المفعول له ﴿أَئِفْكًا﴾، على المفعول به ﴿ءَالِهَةً﴾؛ لأنّه كان الأهمُّ عندَه أن يُقرِّرَ عندَهم بأنّهم على إفكٍ وباطلٍ في شِركِهم، وهو أولَى مِن مُجرَّدِ إثباتِ كونِهم اتّخذوا آلهة؛ لأنّ ذلك غيرُ منكور[1].

ويصِحّ أن يكون ﴿أَئِفْكًا﴾ في موقعِ الحالِ من فاعلِ: ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ أيّ: (تُريدونَ آلهةً من دونِ اللّهِ آفِكين)، وهذا الوجْهُ حسَنٌ في كشْفِ حالِ ذواتِهم، وأنّهم في أنفسِهم - كاذبين - يعلَمون ذلك، والفرقُ بينَ ذلِكَ الوجْهِ والَّذي قبلَه، أنّ الحاليّة تَنفي عنهم أنْ يكونوا في لَبْسٍ أو خفاءٍ من مَعرفة الحقّ، فقد يوقِع الإنسانُ غيرَه في الباطلِ، ولا يدري أنّه هو نفسَه مُبْطِل، فجاء وجهُ الحاليّةِ يُسجِّل عليهم ذلك ويُثْبِته. وأمّا وجهُ المَفعولِ لَه، فهو يقرِّر قصدَهم الَّذي يتعدّى لغيرِهم، فلا يلزَم عنه أنّهم كذلك في أنفسِهم. ويجوزُ أن يكونَ حالًا من آلهة، أيّ (آلهةٌ مكذوبةٌ)؛ أيّ: (مكذوبٌ تأليهُها)[2].

دلالةُ استعمالِ الظّرفِ ﴿دُونَ﴾:

مَن دانَ لغَيرِ اللهِ وقَعَ في الدّون

لفظُ ﴿دُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ظرفٌ متعلِّق بمحذوفِ نعتٍ للآلهة؛ أيّ: (آلهة أعظمُ أوصافِها أنّها دونَ اللّهِ)، على تقدير: (كائنةً دون اللّه)، أو متعلِّقٌ بفعل الإرادةِ في: ﴿تُرِيدُونَ﴾. و﴿دُونَ ٱللَّهِ﴾ هنا ظرفٌ يدلّ على تقصير الغاية، وتفاوُتِ الحال، وتحقيرِ الرّتبةِ وازدراءِ المَقام، والتّقريبِ بينَ ما أُضيف إليه الظّرفُ، وما تعلّقَ به، بحسَبِ اعتقادِ المُبطِل؛ لأنّهم يعتَقِدون أنّ رتبةَ آلهتهم قريبةٌ دانيةٌ من رُتبة اللّه سبحانه، كما تدلّ على معنى المُغايَرة والخِلاف، كأنّه قيل: (أتريدون آلهةً غيرَ اللّه خِلافًا له في الذّاتِ والصّفات) فعبّر بـ ﴿دُونَ﴾ ليدلّ على أنّ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 280.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 139.

هذهِ المُغايَرة مُسترذَلة ومَحقورة، في جانبِ مَعبوداتِهم الباطِلةِ الّتي اتَّخذوها، فحقّر آلهتَهم وأقلَّ منها تنفيرًا من حقيقتِها حينَ قال: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾. أي: (إرادتُكم مُتوجِّهة لِلدّونِ الحقير)[1].

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ مُفردةِ الإرادةِ:

جَمَعَ فِعلُ الإرادةِ القصدَ والإدراكَ والعَمدَ في عبادةِ الباطلِ وتأليهِهِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدةِ الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ لبيانِ توفّر العزم والقصدِ في تَلَبُّسِهِم بالشِّرك، فهي إرادةٌ خالصةٌ مَحضةٌ، وهذا كنايةٌ عن نفي العُذر عنهم مِنَ السّهوِ أو الجَهلِ أو سائرِ العَوارِضِ المانِعةِ من المؤاخَذة. وذلك مبنيٌّ على أنّ إرادةَ الشيءِ: ابتغاؤه والعزمُ على حصوله، ولذلك لم يقل: (آلهةً دونَ اللّهِ تَعبُدون)؛ لأنّ التَّعبير بالإرادة أوسَعُ، فهو يُفيدُ العِبادةَ والعَمدَ معًا؛ لأنّ الأصلَ في فعل الإرادة أن يتعدّى إلى المَعاني الَّتي يَستلزِمُها الانفعالُ بالقصدِ، والَّذي هو جوهرُ الإرادة، فهذهِ المعاني هي نواتِجُ الإرادة، أو متعلِّقاتُ الإرادةِ، ولذلك مَعنى ﴿تُرِيدُونَ﴾: تُريدون عبادتَها وتأليهَها، وهذا هو المعنى المرادُ الذي تعدّتْ إليه الإرادة، فكان قوله: ﴿تُرِيدُونَ﴾ يُفيدُ القصدَ، ويفيد متعلَّقَ ذلك القَصدِ وهو العبادة، وتعليقُ الإرادةِ بمعنى التأليهِ أو العبادةِ مَشهودٌ له بقرينةِ قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾؛ أيْ: معبودات تُقْصَدُ وتُرادُ بالتّألّه[2]، وعليه مَدارُ الإنكار، أنّ الإرادة أُنيطت بتأليهِ الإفكِ الَّذي افترَوه، وعبادتِه من دونِ اللّهِ تعالى عن قصدٍ وعَمْدٍ وإدراك.

الفاءُ في جُملة: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

إفادةُ الفاءِ للتعقيبِ الذِّكريِّ

الفاءُ في جُملة: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تفريعيّةٌ لِمَدخولِها من الاستفهام على ما قبلَه من الاستفهام الإنكاريّ قبلَه، في قوله: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، فالجملةُ هنا مُسبَّبةٌ عن الجملة

(1) البقاعيّ، نَظمُ الدُّرر: 16/ 253، والسّامرّائيّ: 2/ 211.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 139.

قبلَها، والربطُ بالفاء لإفادة التّسبيب[1]؛ أي تفرَّعَ عن الإنكار عليهم بإرادةِ تأليهِ ما هو دونَ اللّهِ تعالى، بالسُّؤالِ عن ظنّهم بالإلهِ المستحِقِّ للعبادةِ الحَقّة.

غرضُ الاستفهامِ وفائدتُه:

تنوُّعُ المعاني يُعينُ على مَعرفتِه قرائنُ الألفاظِ حَذفًا وذِكرًا

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يجوز أن يَجري على معنى التّعظيم لله، على معنى: (أيُّ شيءٍ تَظنّون أنّهُ هو حتّى عبدتُّم غيرَه)، كما تقول: (ما ظنُّك بفُلان؟) إذا قصدتَّ تعظيمَه. ويصِحُّ أن يكون على معنى التّهديد لهم، على معنى: (أيُّ شيءٍ تظنّون بربّ العالَمين أن يعاقبَكم به، وقد عبدتُّم غيرَه؟)[2]. وهذا التّنويع في إجراءِ المَعنى هو نُكتةُ حَذفِ مُتعلّق الظَّنّ، مع صيانةِ الفاصِلةِ ألّا تنخَرِم، فاتّجهَ السؤالُ إلى المعاني المُتنوِّعةِ، وتوجيهُ حَذفِ المُتعلّقاتِ للأفعالِ المَذكورَة.

نُكتةُ التّعبيرِ بالظَّنّ دونَ العِلْم:

ما أهلَكَ الأقوامَ المتقدّمينَ هو سوءُ ظنِّهم وبُطلانُ اعتقادِهم

جاء التّعبيرُ عنِ اعتقادِ قوم إبراهيمَ بمُفردةِ الظَّنّ في قوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّه اعتقادٌ غيرُ مُطابقٍ للواقع، ولَم يُسمِّه عِلْمًا؛ لِأنّ العِلْم لا يُطلَق إلّا على الاعتقادِ المُطابِقِ للواقع؛ ولذلك عرّفوه بأنّه: (صفةٌ توجِبُ تمييزًا لا يَحتَمِلُ النقيضَ)، ولا ينتفي احتمالُ النّقيض إلّا متى كان موافِقًا للواقع.

وقد كثُرَ إطلاقُ الظَّنّ على التّصديق المُخطِئِ والجَهلِ المُركّبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: 116]، وقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النّجم: 28][3]. ولم يقُل: (فما اعتقادُكم)؛ لأنّ الاعتقادَ جِنس، والمرادُ تبيينُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 139.

(2) ابن جزيّ، التَّسهيل: 2/ 194.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 140.

نوعِه هل هو الظنّ أو العِلم؛ فأفاد استعمالُ هذهِ المفردةِ أنَّ ما يقَعُ في قلوبِهم وعُقولِهم في ربِّ العالَمِينَ ما هو إلّا ظنونٌ لم تبلُغْ مبلَغَ الاعتقاداتِ الصّحيحة، سواءٌ أكانتِ الظُّنونُ فيما يتعلّقُ بصفاتِ اللّه تعالى، أو ما يتعلَّق بمآلِهم عندَه إذا انقلَبوا إليه، أو ما يتعلَّقُ بالعذابِ والحِساب، فإنَّ تلك الظُّنونَ هي الَّتي أوردَتْهُمُ المَهالكَ المستوجبةُ للإنكارِ.

نوعُ الباءِ وفائدتُها:

مَن تَفكّرَ باللهِ تعالى وآلائِه وصفاتِه انقادَ إليهِ وتَوكّلَ عليهِ

عُدّي الظَّنُّ المُتضمِّنُ معنى الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالباءِ، فكأنَّه قيلَ: فما تظنّونَ بِرَبِّ العالَمِينَ؛ للإشعارِ بأنّ ظنَّهم غيرُ صادِقٍ، كقولِه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ [فُصّلت: 23]. وذلك أنّه إذا عُدّي بالباءِ، فالأكثرُ حذفُ مفعولِه، وتكونُ الباءُ للإلصاقِ المَجازيِّ؛ أيَ: ظَنَّ ظنًّا مُلصَقًا باللّه؛ أيْ: مدَّعٍ تعلُّقَه باللّه، وإنّما يناسِبُ ذلك ما ليس لائقًا باللّهِ. والمعنى: (فما ظنُّكم السَّيّئُ باللّه)[1]، وجيءَ بهذه الباءِ لزيادةِ الإنكارِ عليهم، فإنَّ مَن يتفكّر باللّهِ تعالى فإنّه ينقادُ للخَيرِ، على عكسِ ما كان عليه قَومُ الخَليل.

نُكتةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الإيماءُ إلى دليلِ استحقاقِ الألوهيّةِ وهو عمومُ الرُّبوبيّة

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إضافةَ لفظِ الرَّبّ للعالَمِينَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، دونَ الضَّمير، فلَم يَقُل: (فما ظنُّكم بربّكم)، لكَونِ ذلك أدَقَّ على المقصودِ مِن المَعنى؛ فقد أضافَ الرُّبوبيّةَ إلى العُموم؛ للإشارةِ إلى أنّهم وما يعبُدونَ، جميعًا مَربوبونَ مَقهورونَ للمالِك الخالِقِ سُبحانَه، فكيفَ ينصَرِفونَ عنه إلى أشياءَ يعبدونها تَشترِكُ معَهم ويشتركون معها في إمدادِ الرُّبوبيّة لهم جميعًا بالإيجادِ والإبقاء، فلولا اللّهُ سبحانه بربوبيّتِه - الَّتي هي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 140.

عُنوانٌ على ذاتِه - ما وُجِدوا أصلًا، لا هُم ولا معبوداتُهم، ولولا إمدادُ ربوبيّة اللّه ما بَقوا هم ولا آلهتُهم المُتوهَّمةُ، فكانت الإضافةُ للعالَمينَ أشمَلَ وأوسعَ وأتمَّ في تسجيلِ التّعريضِ بهِم وبمَعبوداتِهم؛ ليُسجِّلَ عليهم بضلالِ المَسْلَك، وسَفاهةِ العقولِ في مُخالفتِهم بدَهيّات المنطِق، وافتقارِهم لسلطانِ الحُجّة والبرهانِ، ففي هذه الإضافةِ جمعُ الدّليلِ عليهِم، بأنَّهم مَخلوقون لربِّ العالَمين، فهُم خَلْقٌ من خَلقه، وأثَرٌ من آثارِ قُدرتِه واقتدارِه.

ذِكرُ الرَّبوبيّة كنايةٌ عن التَّرغيبِ في مغفرةِ الذُّنوبِ والعَفوِ عنِ العِبادِ

إضافةُ الرُّبوبيّةِ للعالَمينَ في قولِه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه نوعُ ترغيبٍ لهم بالاستفاقةِ مِن الغفلةِ، وعدمِ التَّمادي في ستائِرِ الجَهْلِ والضّلالِ، فإضافةُ الرَّبِّ للعالَمين كنايةٌ عن كَونِ الرُّبوبيّة جامعةً لكلّ شيءٍ، وإذا كان ذلك كذلك، (فما ظنّكم بربّ العالمين وقد حصَرتُم أنفسَكُم في حَيِّزٍ أضيقَ مِن سَمِّ الخياط، وهو التّعلُّق بالأصنام الَّتي لا تنفَع ولا تضُرّ نفسَها فضلًا عن غيرِها، فظُنّوا باللّهِ خيرًا وتَحوّلوا من ضيِّقِ عجْزِ تلك الآلهةِ، إلى سَعةِ قُدرةِ وربوبيّة اللّهِ سبحانَه الَّتي عمّتْ كلَّ العالَمين، فلا يأسِرنَّكُم ذلكَ الضّيّقَ؛ لتَيأسوا مِن رحمةِ اللّهِ وواسعِ فضلِه، ففي جميعِ الأحوالِ فِرّوا إليه، ولا تَفِرّوا عنه، فلستُم بِدْعًا من العالَمين، ولستُم بمُستبْعَدينَ من ساحةِ رُبوبيّته؛ لِأنّها استغرَقتْ كُلَّ العالَمين، وما أنتم إلّا نَفَرٌ منهم). فالإضافةُ إلى العالَمين تؤسِّس لترغيبٍ عظيمٍ في الفِرارِ إلى اللّهِ وعدَمِ اليأسِ مِنه، وهذا موافِقٌ لعاداتِ القرآن مع إفساحِ الأمَل للمُذنِبينَ.

براعةُ ذِكرِ الرُّبوبيّةِ بعدَ الألوهيّةِ:

الأسلوبُ الإقناعيُّ يَجمَعُ الدّعوى بدليلِها والدّعوةَ بِبُرهانِها

ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ في الآيةِ السّابقةِ الاسمَ الجليلَ وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ فقال سبحانَه: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، وذَكَر هُنا عُنوانَ الرُّبوبيّة ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فجَمعَ السّياقُ بينَ الوَصفَين، ونُكتةُ ذلكَ أنّه في الآيةِ الأولى ذَكَر الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهِ﴾ لذِكر

﴿ءَالِهَةً﴾، فالألوهيّةُ استحقَّها اللّهُ ﷻ، الَّذي تبارك اسمُه الجليلُ ذو النَّعتِ الجميل، وفي الآية اللّاحقةِ ذَكرَ عُنوانَ الرُّبوبيّةِ لأنّه جاءَ كالدّليل على الألوهيَّةِ، فكأنّه قيل: (اعبُدوا اللّهَ تَعالَى وحدَه؛ لأنّه المُستحِقُّ لذلكَ فهو ربُّ العالَمِينَ)، وهو أسلوبٌ إقناعيٌّ في إتّباعِ الدّعوَى بدليلِها.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها الرابطةُ:

احتمالُ التّفريعِ والفصيحةِ لتَرتُّبِ السّابقِ على اللّاحِقِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ عاطفةٌ مَدخولَها على ما قبلَه، إلحاقًا به على معنى التّفريع والترتُّب؛ أيْ: (ترتّبَ على إنكارِه لهُم بقَولِه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنْ نظرَ نظرةً في النّجوم)، ويصِحّ أن تكونَ الفصيحةَ الَّتي تَعطِفُ مدخولَها على محذوفٍ مقدّر؛ أيْ: (دَعَوْه لأعيادِهم، الَّتي فيها طقوسُ مُعتقداتِهم في النّجوم - وكانوا قومًا لهُم باعٌ وديانةٌ في عِلمِ النّجوم - فنظَر في النّجوم إيهامًا لهم بتعليلِ امتناعِه عن حُضورِ عيدِهم؛ ليَظهَر امتناعُهُ حُكمًا مُترتِّبًا على استهدائِه بالنّجوم)، وهو تعلُّلٌ بما يوافِقُ معتقَدَ الخَصمِ اتّقاءَ شرِّه[1].

نُكتةُ تقييدِ المَفعولِ المُطلَقِ بصيغةِ المَرَّةِ:

صاحِبُ الحَقِّ مُلهَمٌ مُعلَّمٌ، سَريعُ النّظَرِ، صيّادٌ للفِكَرِ

يدُلّ المفعولُ المطلَق في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةً﴾ على تأكيدِ مصدرِ العامل، وهو الحدَث الَّذي أخرجَه العاملُ أو الفِعلُ لَحيّزِ الوُجود، وفائدةُ التَّنصيصِ على المصدرِ ﴿نَظۡرَةً﴾ بعدَ ذِكرِ العامِل ﴿فَنَظَرَ﴾ المُبالَغةُ في تعيينِ المَطلوب وتحقيقِ النّظَر، كأنّ الفاعلَ (النّاظِر) يُريدُ أن يستغرِقَ في الحدَثِ نفسِه وهو النّظرة، بما يدُلّ على إتقانِه وإحسانِه في التّفكيرِ والتّدبير، وجاءَ المفعولُ المُطلَقُ على (مصدرِ المَرّة)؛ ليدُلّ على سُرعةِ انقضاءِ النّظَر عندَ الخليلِ ﵇، فهو لم

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 128، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 142.

يتجَلجَلَ أو يستغرِقَ طويلًا في النّظَر؛ لاقتضاءِ المَقام أن يُعيرَهُم جوابًا مِن غَيرِ تمهُّلٍ أو تردّد، وفيه إيماءٌ إلى سرعةِ البديهة النبويّة الَّتي كان عليها ﷺ، مع تمام انكشافِ الحَقّ له، فصاحِبُ الحقِّ تكفيهِ نَظرةٌ وفِكْرة؛ لأنّه مُلْهَمٌ مُعلَّم، فكان في ذلك إيماءٌ إلى أنّ اللّهَ ألهَمَهُ المَكيدةَ وأرشدَهُ إلى الحُجةِ، بسبَبِ أنّ اللّهَ آتاهُ رُشدَه، كما قال: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: 51]، ومَنْ يكُ راشِدًا فسُرعانَ ما يلتقِطُ الحِكمةَ مِن مَرّة[1].

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّةِ دونَ (إلى):

نظَرُ الخَليلِ كانَ في النُّجومِ تفكُّرًا لا إليها غايةً

آثَرَ النّظمُ الكريم استِعمالَ حرفِ الظّرفيّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ على معنى نظَرَ في شأنِ النّجوم، بمعنى تفكَّرَ في شأنِها وإعجازِ خَلْقِها؛ فيكونُ السّببُ في تعدية النّظَرِ بحَرف ﴿فِى﴾؛ لِجَريانِ النّظَر على معنى التّفكّر، والتفكُّرُ يتعدّى بحرف (في)، والمقصودُ بالتّفكُّر هو التَّفكُّرُ التَّعبّديُّ؛ أيْ (في شأنِها إعجازًا وخَلْقًا)، وإنْ قُصِدَ بِه الاحتيالُ عليهِم؛ لأنّ الاحتيالَ على الكافرينَ لَمصلَحةِ التَّوحيدِ لا يتعارَضُ مع التَّفكُّرِ التَّعبّديِّ، بل هو جزءٌ من التعبُّد، ولا يَخفَى ما في التّوجيه مِن إجراء أفعالِ الأنبياءِ على أحسَنِ الوُجوهِ والمَقاصِدِ، وإقصائِها عن معاني العبثِ واللَّغو.

ولم يَستعمِلْ حرفَ (إلى)، فلَم يقُل: (فنظر نظرةً إلى النّجوم)؛ ليدلَّ بذلك على أنّ النّجوم لم تكن غايةً له ﷺ، فهو لم يكن يعتقِدُ فيها حتّى يجعلَها غايةَ نظرِه، بل كان نظرُه حيلةً عليهم وإيهامًا لهم. والتَّعدية بحرف ﴿فِى﴾ تدلّ على أنّه لم يكن ينظُر في ذاتِ النّجوم، بل في معنًى يتعلّقُ بها، وهو أحوالُ النّجومِ أو عِلمُ النّجومِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 142.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

المُشاهَدةُ البصَريّةُ يَتبَعُها إبصارٌ للحَقِّ قلبيٌّ وإقصاءٌ للباطِلِ عقليّ

لفظُ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ إمّا على حذفِ مُضاف؛ أيْ: (نظَرَ في مَواقِعِ النّجوم - مَطالعِها ومغارِبِها واتّصالاتِها وغيرِ ذلك)[1]؛ لأنّ النّظر في النّجوم نفسِها مُتعذّرٌ على الحقيقة، فالتعديةُ بحرفِ الوعاءِ تدُلّ على مُضافٍ محذوف[2]، فهو من المَجازِ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه، ونُكتةُ الحذفِ الإيجازُ في العبارةِ، وتنبيهُ المُخاطَب على أنّ نظرَهُ كان عامًّا فيما يراه بالمُشاهَدةِ البصَريَّةِ، وما يَتبَعُه مِن الإبصارِ القَلبيِّ الدّالِّ على العُبوديّةِ الحَقّة.

ويصِحُّ أن يكونَ قد أطلَقَ النّجومَ وأرادَ السّماء[3]، على طريقةِ المَجازِ المُرسَل، لعَلاقةِ الحالّيّة، فأطلقَ الحالَّ وأرادَ المَحَلَّ؛ لأنّ السَّماء هي محَلّ أجرامِ النّجومِ وسائرِ النّيِّرات.

بلاغةُ الكنايةِ:

الأنظارُ الصّاعِدةُ مُحتَجِبَةٌ عن فوضَى الأفكارِ

يَصِحُّ إجراءُ قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ على أنَّه كنايةٌ عنِ التفكُّرِ للاحتيالِ والتَّدبير؛ فإنّ المُتفكِّرَ في تقديرِ جوابٍ أو أمرٍ، يُصعِّدُ نظرَهُ إلى جِهةِ النّجوم؛ ليتحيّزَ عن الشّواغِلِ والمَرئيّات، فيصفوَ عنِ العَلائِقِ الحاجِبةِ عن كمالِ الفِكْرِ والنّظر[4].

توجيهُ تخصيصِ النُّجومِ بالذِّكرِ:

ابتدارُ الخَصمِ مِن جِهةِ مُعطَياتِهِ أقصَرُ إلى قلبِهِ بالإقناعِ والإفحامِ

خَصَّ النّظمُ النُّجومَ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ وهو جارٍ على حذفِ مُضاف[5]، والمُرادُ السّماء ومَطالِعُها كما سبَقَ بيانُهُ، وذلك لكَونِ النُّجومِ مِن شُؤونِهِمُ الاعتقاديّة، فيُلمِحُ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 282.
(2) الخطيب، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 23/ 150.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 141.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 141.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 13.

بذِكْرِها إلى إقناعِه لَهُم إقناعًا كإقناعِ الحُجَجِ الاعتقاديّة؛ أيْ: ليس إقناعًا عاديًّا، بل إقناعٌ تامٌّ وكاملٌ، كما لو استدَلّ لهم بحُجّةٍ دينيّةٍ مُسلَّمةٍ عندَهم، فيكونُ ذِكرُ النّجوم دونَ السّماءِ إيماءً إلى التّمهيد لكمالِ إقناعِه لهُم، وكَمالِ تصديقِهم له.

توجيهُ إقامةِ المصدَرِ مَقامَ المفعولِ والفاعلِ في اللَّفظِ الواحد:

أنظارُ الأنبياءِ مَعصومةٌ عن مُجانَبةِ الصّواب

يَحتَمِلُ لفظُ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾، أن يكونَ مَصدرًا من الفعل (نَجَمَ)، وعليه فلا يُرادُ به الاسمُ، إذ يُقال: (نجَمَ الأمرُ نجْمًا ونُجُمًا إذا ظهَرَ وبزَغ)، وعلى اعتبارِ المَصدريّة، فهو مِنَ المَصدَرِ الَّذي أُريدَ بِه المفعولُ؛ أيْ: نظَرَ في النُّجوم؛ أيْ: (في الشأنِ المَنظورِ)؛ لأنّ النّظَر يقعُ في الشُّؤون والمعاني؛ أيْ: (نظر نظرةً فيما نجَمَ من كلامِهم لَمّا سَألوه أن يخرُجَ معَهم إلى عيدِهم ليُدبِّرَ حُجّةً، فقال ما قال)، فأطلَقَ المصدرَ، وأرادَ المَفعولَ، وهو مَجازٌ مُرسَل لِعَلاقةِ التَّعلّقِ الاشتقاقيِّ، والتَّعبيرُ بالمَصدرِ للمبالَغةِ في تحقيقِ نَظرِه عليه السلام، ويكأنّ الشأنَ الَّذي انعَقَدَ نظرُه وفِكْرُه عليهِ بلغَ فيه إلى خُلاصةِ النّظَر ومعدِنِه وجنسِه، فما نجَمَ له وظهَر بعدَما أجالَ وحكَم وقرّر ودبّر هو عيْنُ النّظَرِ الكامِلِ المُتجرِّدِ في معناهُ وحقيقتِهِ مِن غيرِ حَيْدةٍ ولا مَثْنَويّة، ولا يَخفَى ما في لازمِ ذلك العُدولِ مِن المفعولِ إلى المَصدرِ مِن الإشارة إلى عصمتِه ونزاهتِه عليه السلام بشأن ما يَنظُرُ فيه ويَظهَرُ له من الأحكام والآراء، كأنّما يأخُذُ رأيَه مِن جنسِ النّظَرِ الخالصِ[1].

النّظرُ في نجومِ القرآنِ أوسَعُ دَلالةً مِنَ النّظرِ في نُجومِ الأكوان

ويصِحّ أن يقَعَ العُدولُ مِن المَصدرِ إلى اسمِ الفاعلِ، فأطلَقَ ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ (المَصدَرَ)، وأرادَ النّاجِمَ وهو اسمُ الفاعِلِ على معنى أنّه (نظَرَ فيما نجَمَ له من الرّأي)، وهَذا فيهِ زيادةُ مدحٍ عن العُدولِ الأوّل؛ أيْ إنّ إبراهيمَ عليه السلام حينَ يَظهَرُ له أمرٌ وقرارٌ أخيرٌ في المسألة،

(1) عصام عبد المنصف، الأسلوب العدوليّ بينَ المصدَرِ والمُشتقّات، ص: 1141.

بعد نظرٍ وتفكّر في الشّأن المنظور، فإنّه يتناوَل ما ظَهَر له وخلَص إليه بالنّظر أيضًا قبل إمضائِه، فهو يبحثُ أولًا في الشّأن المَنظور (المفعول)، ثمّ يَظهَرُ له الرَّأيُ النّاجِمُ عن ذلك (اسمُ الفاعل)، ثمّ يَتناوَلُ ذلك النّاجِمَ بالنّظَرِ تَقييمًا له قبلَ إنجازِه وإمضائِه، فهذا معنى ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ على تَسمِيةِ اسمِ الفاعِلِ بالمَصدَر[1].

والأولَى حَملُ اللَّفظِ على ظاهِرِه، وهو النّجوم المعهودةُ المَعروفةُ، وما جاءَ من احتِمالاتٍ فهي لا تتعارَضُ معَ أصلِ المَسْألَةِ في شَأنِ نظَرِ إبراهيمَ عليه السلام من جِهةِ المَعنى لا مِن جِهةِ اللَّفظِ والمَبنَى، وهي احتمالاتٌ تُعطي سَعةَ النّظَر في نُجومِ القُرآنِ، أكثرَ من سَعةِ النّظرِ في نُجومِ السّماء.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

الأقوالُ السّليمةُ نِتاجُ النّظَرِ السّليمِ المَبنيِّ على القَلبِ السّليمِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ عطفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾؛ أيْ: (تفرَّعَ عن نظرِه في شأنِ النّجوم قولُه المذكورُ)، فالعطفُ بالفاءِ للتّفريعِ وسُرعةِ التّعقيبِ، والمُرادُ بسُرعةِ التَّعقيبِ: نُشوءُ ذلك المَقولِ في نفسِه بمُجرّدِ فراغِه من نظَرِ النّجومِ، وأمّا توقيتُ مواجهَتِهم بذلك القَولِ، هل هو حاصلٌ على التَّعقيبِ الفوريِّ، أو التَّعقيبِ النّسَبيِّ؟ احتمالانِ واردانِ. فقولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ مُسبَّبٌ عن فِعلِه المذكورِ في قولِه: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾[2]، والظّاهر أنّه قالَه بمُجرّد الانتهاءِ مِن النّظر.

نُكتةُ تَوكيدِ جُملةِ مَقولِ القَولِ:

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ بأداةِ التَّوكيدِ، مُبالَغةً في الاعتذارِ منهُم، إظهارًا للاهتمام بشأنِهم، فإنّ تأكيدَ الاعتذارِ يدُلّ على الحِرصِ بشأنِ المُخاطَب، اتّقاءَ شرِّه، أو كسْبًا لمودّته[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 141.
(2) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 150.
(3) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 151.

بديعُ فنّ التَّوريةِ:

مُداراةُ الخُصوم أسلَمُ في بُلوغ الـغـرَضِ مِـن مواجهَتِهِم

في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ رمْزٌ وإيماءٌ وتعريضٌ، على سبيلِ التَّوريةِ، وهذا الفنّ هو أن يُريدَ المُتكلِّمُ إخفاءَ أمرٍ ما في كلامه، فيَرمُزَ في ضِمنِه رمزًا، إمّا تعميةً للْمُخاطَبِ، وتبرِئةً لنفسِه، وتنصُّلًا من التّبِعة؛ لأنّه أراد أن يتخلّف عنهم في اللُّحوق بهم في عيدِهم. وإمّا ليُهتدَى بواسطةِ ذلك إلى طريقِ استِخراج ما أخفاهُ في كلامِه منَ التّعريضِ بهم، والتّسجيلِ عليهم، كأنّه يَقولُ لَهُم: (إنّي سَقيمٌ مِن شِركِكم، أو سأسْقَم منه).

نوعُ الفاءِ وفائدتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾، وعطَفَ بالفاءِ لتصوير سُرعة استجابتِهم على إظهارِهِ السّقَمَ لهُم[1]؛ أي بمجرّد أن قال تَولَّوا.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ التَّولّي مادَّةً وصيغةً:

أصحابُ الأوهامِ لا يُمعِنونَ في مَرامي الكلامِ

استعملَ النّظمُ الكريمُ مُفردةَ التّولّي في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ وهو شدّةُ الإعراضِ والمُفارَقة، بقرينةِ مَجيئه على صيغةِ: (تفعّل) الّتي تُفيدُ القوّة في الفعل، فإنّ النّاس تُعرِضُ عن المُعتَذِرِ بالمَرَض وتُرخِّصُ له بالإعفاءِ عن أيّ إلزام. والتّعبيرُ بالتَّولّي بصيغةِ (تفعَّلَ) المُقترنةِ بدُخولِ الفاءِ عليها يدُلّ على سُرعةِ تَصديقِهم لَهُ في اعتِذارِه بالمَرَضِ، وذلك يَقتَضي تمحُّضَهم في الإعراضِ عَنْه من غيرِ تردّدٍ في شأنِه، بدَليل أنّهم لم يتَحرَّوا قَولَه أو لم يتفحّصوه أو يتكلّفوا النّظر في اعتذارِه، بل تجاوَبوا معه سَريعًا بالتولّي، فصيغةُ (تفعَّل) على هذا لقوّة تصديقِهم له وصِدقِهم في الإعراضِ عنه؛ لتَمامِ اقتِناعِهم بعُذرِه، وهذا يدلُّ على أنّهم قومٌ أصحابُ أوهام، يُسارِعون في التّصديقِ، ويُسابِقون في التّطبيقِ، فلم يُمعِنوا مَراميَ القَولِ، ولا مَقاصِدَ الكلام.

---

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 152.

قــومُ الخـلـيـلِ أدبَـــــــروا في عُمومِ أحوالِهم وخُـــصـــوصِ مَوقِفِ السَّقَمِ

بلاغةُ الحالِ ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ وفائدتُها:

لفظُ ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ حالٌ من الضَّمير في (تولّوا)، وهي تَحتمِلُ أن تكونَ حالًا لازمةً لصاحبِها، فيكونَ قولُه تعالى: ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ وصفًا لهم في عُموم أحوالِهم، لا بالنّظر إلى خُصوصِ ذلكَ المَوقِفِ، كأنّه قيل: فانصَرَفوا عنه إلى عيدِهم، والحالُ أنّهم قومٌ مُدبِرون في كلِّ حال. وتَحتَمِل أن تكونَ حالًا مؤكِّدةً لعامِلِها، وهو قولُه: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ﴾؛ أيْ: هي حالٌ مَخصوصةٌ بموقفِ إعراضِهم عنه بسببِ اعتذارِه منهُم بالمَرَضِ، فالحالُ موجودةٌ ما دامَ العامِلُ موجودًا، ولا يَمنعُ من اجتماعِ دَلالةِ الحالِ في الصاحبِ والعامِلِ، أي في عموم حالِهم وهو الإدبار، أو في خُصوصِ تلكَ الحالةِ وهو الإدبارُ عنهُ حينَ أخبرَهُم بسَقَمِه.

وهذِه الحالُ المؤكِّدة ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ يُحتَرَزُ بها مِن تَوهُّم أنّ المقصودَ بإدبارِهم، الإدبارُ النّفسانيُّ العقائديُّ، وهو الإدبارُ المُلازِمُ لهُم بالكُفرِ والمُخالَفةِ بالشّرك، بل المرادُ من كَونِ ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ حالًا مُؤكِّدة: أنّها حالٌ مُنتقِلةٌ ومُتحوِّلةٌ عنهم بمجرّدِ أن ينتهيَ زمَنُ الفعلِ، فمتَى انتهَى تولّيهِم عنه بسبَبِ مرضِه انتهى إدبارُهم، ولذلكَ فالمَعنَى المرادُ على ذلك هو الإدبارُ الحِسّيُّ المُتعلِّقُ بمُغادَرة محَلِّ إبراهيمَ ومُتارَكَتِه إلى موضعِ عيدِهم ومكانِه[1].

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 281، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 256، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 142.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ
﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾
قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا
فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: 91 - 98]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ مِـنَ المَـوقِـفِ الـقَـوليِّ مِنَ الباطِلِ إلى المَوقِفِ الفِعليِّ

لمّا ذَكَرتِ الآياتُ السّابقةُ حِوارَ إبراهيمَ عليه السلام في إنكارِه على أبيهِ وقومِه أنْ يعبُدوا إلهًا سِواهُ سبحانَه، ونَظَرَه في النّجوم وما تبِعه مِن ذِكرِه بأنّه سَقيم، وأنّ ذلك كان لِحيلةٍ في نفسِه، أنْ ينصَرِفوا عنه إلى مُعَيَّدِهم، ويتركوهُ وحدَه؛ لينفرِدَ بإحرازِ غرضِه الَّذي كتَمَه، فلمّا ذَكَر في السّابقِ تمهيدَه للغرَضِ، ذَكَر هنا شُروعَه في الغرضِ نفسِه وهو قولُه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾، ومُستَتْبَعاتِ تلكَ الحادِثةِ، والمُحاكَمَةَ الَّتي جرَتْ عليه بسببِها، فهو انتقالٌ من بيانِ موقفِ إبراهيمَ عليه السلام من آلهةِ قَومِه القَوليّ، إلى بَيانِ مَوقفِه الفِعليّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَاغَ﴾: الرَّوْغُ: الميل على سبيل الاحتيال، ومنه: رَاغَ الثَّعلب يَرُوغُ رَوَغَانًا، وطريق رَائِغٌ: إذا لم يكن مستقيمًا، كأنه يُرَاوِغُ، ورَاوَغَ فلان فلانًا، ورَاغَ فلان إلى فلان: مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال، وهنا ﴿فَرَاغَ﴾ بمعنى: مال[1].

2) ﴿تَنطِقُونَ﴾: (نطق) يُقال: يَنْطِقُ نُطْقًا ومنطِقًا، ويكون هذا لما لا نفهمُه نحن، قال تعالى: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النَّمل: 16][2]،

(1) الراغب، المفردات، ص: 373.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطق).

والنُّطقُ في التَّعارف: الأصواتُ المُقطَّعة الَّتي يُظهرُها اللِّسانُ، وتَعيها الآذان، ولا يَكادُ يُقال إلَّا للإنسان، ولا يُقالُ لغيرِه إلَّا على سبيلِ التَّبَع[1].

3) ﴿يَزِفُّونَ﴾: (زفف)، يقال: زَفَّ الإبل يَزِفُّ زَفًّا وزَفِيفًا، وأَزَفَّهَا سائقها، ويَزِفُّونَ، أي: يحملون أصحابهم على الزَّفِيفِ، وأصل الزَّفِيفِ في هبوب الرّيح، وسرعة النّعام التي تخلط الطيران بالمشي، وزَفْزَفَ النّعام: أسرع، ومنه استعير: زَفَّ العروس، واستعارة ما يقتضي السّرعة لا لأجل مشيتها، ولكن للذَّهاب بها على خفَّة من السّرور، و﴿يَزِفُّونَ﴾ هنا، أي: يسرعون[2].

4) ﴿تَنْحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَجْرِ شَيءٍ وَتَسْوِيَتِه بِحَدِيدَةٍ[3]، والنَّحت: الأَخْذُ مِنَ الشَّيءِ؛ لتجعلَه على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحتِ النَّحيتِ والصَّنم والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأجسام الصُّلبة المُحتملة لذلك، وقد يُتجوَّز به في غيرها[4]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[5]، والنُّحَاتَةُ: ما يسقُطُ من المَنْحُوتِ، والنَّحِيتَة: الطّبيعةُ الَّتي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنَّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[6]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِن وَسَطه أو من جوانبه.

5) ﴿كَيْدًا﴾: أصلُ (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ، ثم يُسمّون المكرَ كيدًا[7]، والكيدُ مِنَ المكيدة: وهو الاحتيالُ والاجتهادُ فيما يقصدهُ الإنسانُ، وغلبَ في المكر[8]، وهو أيضًا: الخبثُ، والمَضرّةُ، والتّدبيرُ المُحكمُ الشّديدُ وتنفيذُه[9]، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ، وهنا ﴿كَيْدًا﴾ بمعنى: السوء[10].

6) ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: الجذر (سفل) من السُّفْل: ضدُّ العلو، وسَفُلَ فهو سَافِلٌ، قال تعالى:

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 373.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نحت).
(4) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (نحت).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (نحت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كيد).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (كيد).
(10) الرّاغب، المفردات، ص: 728.

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: 74]، وأَسْفَل ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 42] وسُفَالَةُ الرّيح: حيث تمرُّ الرّيح، والعلاوة ضدّه، والسِّفْلَةُ من الناس: النّذل، نحو الدّون، وأمرهم في سَفَالٍ، ومعنى ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ في الآية، أي: الأذلّين حجَّة[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المـؤمـنُ أشـدُّ انـتـصـارًا لـلـهِ الـحــقِّ مِـن انتصارِ الضّالّينَ لباطِلِهم

تُبيِّن الآيةُ الكريمة ما قام به إبراهيمُ ﷺ من رَوَغانِه إلى أصنام قومِه مُسرِعًا مُتخفّيًا، وقد عَرضَ عليها الطّعامَ الَّذي وضعوه أمامَها؛ ليُصيبوا من بَركَتِها في زعمِهم، فبدأ في خِطابِ مَعبوداتِهم، سُخريةً منه واستهزاءً، وتقريرًا وإنكارًا، وغيظًا من عابديها وتوبيخًا: (ألا تأكُلون هذا الطَّعامَ الَّذي يُقدّمُه لكُم سَدَنَتُكم؟! ما لكُم لا تَنطِقون ولا تُجيبون مَن يسألُكم؟!) فأقبَل على آلهتِهم يَضرِبُها ويُكسِّرها بيدِه اليُمنَى؛ ليُثبِتَ لقومِه خطَأَ عِبادتِهم لها، فأقبَلَ إليهِ قَومُه - راجعين من مُعيَّدِهم لَمّا عَلِموا بالخَبرِ - يَعْدونَ مُسرِعين غاضبين، جاهزين للفتْكِ به، فلقيَهم إبراهيمُ بثباتٍ قائلًا: (كيفَ تَعبُدونَ أصنامًا تنحِتونها أنتم، وتصنَعونَها بأيديكُم، وتترُكونَ عِبادةَ ربِّكم الَّذي خَلقَكُم، وخَلقَ عملَكُم؟!) فلمّا قامتِ عليهِمُ الحُجّة، ونكَسوا رؤوسَهم، لجَؤوا إلى القوّة والاعتداء، وقالوا: (ابنوا له بُنيانًا، وامْلَؤوه حَطبًا، وأضرِموا فيهِ النّار حتَّى إذا التهبَ كالفُرْنِ العظيم، فألقوهُ في جَحيمه المُشتعِلِ دركاتٍ بحَجم ذلك البُنيانِ)، فأرادَ قومُ إبراهيمَ به كيدًا بشُروعِهم في إهلاكِه حرْقًا، فجعلَهم اللّهُ المَقهورينَ المَغلوبينَ، ورَدَّ اللّهُ كيدَهم في نُحورِهم، وجعَلَ النّار على إبراهيمَ بردًا وسلامًا[2].

(1) الطبري، جامع البيان: 19/ 576.

(2) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في التَّفسير، المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميّة، ونخبة من العلماء، التَّفسير الميسّر مجمع الملك فهد، وأبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 416.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتُها الرّابطةُ:

صاحِبُ الحقِّ يدفعُ الباطلَ بعملِه ما لم يجِدْ للقَولِ نَفاذًا

قولُه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ مَعطوفٌ على قوله: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾، والفاءُ تدلّ على سُرعة الإتيانِ بالفِعلِ بمُجرّد حُصولِ سببِه؛ أيْ: (بمجرّد أن ولَّوا مُدبِرين وذهبوا عنه راغ إلى آلهتِهم على الفور). ويصِحّ أن تكونَ الفاءُ للتَّعقيبِ النِّسبيِّ لا الفَوريِّ[1].

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ (راغ):

الرَّوَغان انتقالٌ من مكانٍ لآخَرَ بحيلةٍ وفِطنةٍ

جاء استعمالُ مُفرَدةِ (راغ) في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾، ولم يقُل: (فذهَب إلى آلهتهم)؛ ليدُلّ على أنّه ذَهابٌ مَخصوصٌ بارتِكابِ حيْلَةٍ على سَبيل الخُفْيَة. فراغ من الرَّوْغ والرَّوَغان؛ بمعنى: (المَيْل إلى جانبٍ أو جهةٍ خُفْيَةً)؛ لإنفاذِ المقصودِ من غَيرِ انكشافٍ وظُهورٍ[2]، واختيارُ هذه المُفرَدةِ لبَيانِ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قدِ احتالَ فيما يُريدُه من ضَرْب الأصنام الآلهة، وأنَّ القومَ كانوا مُحتاطين منه، فلمّا أوهمَهم السُّقْمَ المُقعِدَ - وسُقْمُهُ معنويٌّ من حال قومِه، أو أنّه سُقمٌ مستقبليٌّ باعتِبار ما يَعتَري آحادَ البشَرِ - تَركوهُ وذهَبوا إلى شأنِهم، فذهَبَ حينَئذٍ إلى الأصنام، فناسَبَ هذا المعنى هذه المُفردةُ دونَ رديفاتِها.

بلاغةُ التَّضمين:

بُلوغُ الغاياتِ يحتاجُ إلى بذلِ الأسبابِ والإعانةِ مِن ربِّ الأربابِ

عُدّي فِعلُ (راغ) بحَرف الانتهاء ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾؛ لتضمينه معنى الذّهاب[3] والوصول؛ أيْ: (ذَهب إليها)، ونُكتةُ التَّضمين بيانُ أنَّه أراد الوصولَ إلى مكانِ معبوداتِهم، وأنَّه أمرٌ يحتاجُ إلى حيلةٍ وتدبيرٍ، ففيهِ إشارةٌ إلى نجاحِ خُطّتِه، وإنفاذِ حيْلَتِه.

---

(1) صافي، الجدول: 12/ 70.

(2) الرّاغب، المُفرَدَات: (روغ)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 342.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 143.

علَّةُ إطلاقِ اسمِ الآلهةِ على الأصنامِ:

استعمالُ الألفاظِ بحسَبِ اعتقادِ الآخَرِ ليسَ ممنوعًا

إطلاقُ وصفِ الآلهةِ على مَعبوداتِهم الباطِلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾، هو بحسَبِ اعتقادِهم[1]، ولذلك أضافَه إلى ضميرِهم، وهي إضافةُ تسجيلٍ عليهم، تثبيتًا لجناياتِهم، وامتهانًا لهم، فهي الأصنامُ الَّتي يتَّخِذونَها من دونِ اللّهِ تعالى، وهذا حالُها الَّذي ستَعرِفُه أيُّها المُخاطَب.

نكتةُ المَجازِ بالحَذفِ:

لأجلِ بيانِ المَقاصِدِ تُحذَفُ الوسائلُ

في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ جرَى المَعنى على حَذفِ مُضافٍ؛ أيْ: فراغَ إلى مكانِ آلهتِهم، أو إلى مَعبَدِ آلهتِهم، أو مَجْمَعِ آلهتِهم؛ لِأنَّ الذّهابَ إلى الآلهةِ هو انتهاءٌ إلى مَقرّها الَّذي جَمعوها فيه، فهو مَجازٌ بالحذفِ، ونكتتُه بيانُ المَقصودِ بالوصولِ، وهي الأصنامُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه كان على تفكيرٍ وتدبيرٍ لِما يَقومُ به، ولَم يأتِ الأمرُ اعتباطًا.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

أعمالُ الأولياءِ مُيسّرةٌ بإعانةِ ذي الجلالِ والكبرياءِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ مَعطوفةٌ على ما قَبلَها ﴿فَرَاغَ﴾، والفاءُ تفريعيّة؛ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، ويَصِحّ أن تكونَ فصيحةً، على تقديرِ مَحذوفٍ؛ أيْ: فراغَ إلى آلهتِهم، فوجَدَ حَولَ أصنامِهم طعامًا فقال مُخاطِبًا لها: ألا تأكُلون، ومَجيءُ الفاءِ لبيانِ تيسيرِ اللّهِ تعالى له فِعلَه، فهي أحداثٌ مُتواليةٌ مُتسارِعةٌ يَسّرَها العَليمُ القديرُ.

معنى الاستفهامِ وغرضُه المَجازيّ:

الاستهزاءُ بالغائبِ مُتوقِّفٌ على مقصودِ المُتكلِّمِ لا على حُضورِ الغائبِ

الاستفهامُ بـ ﴿أَلَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ لِعرضِ القيامِ بالفعلِ، فهو عليه السلام يَعرِض على تلك الأصنامِ أن تأكُلَ الطَّعامَ الَّذي كدّسَه عبَدَتُها حولَها. و﴿أَلَا﴾ تدخُلُ على فِعلٍ مُقدَّرٍ حُصولُه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 143.

فالاستفهامُ بها عن فِعلِ ما يُستَقبَل[1]، فغرضُ الاستفهام طلَبُ القيام بفعلٍ غيرِ مُتحَقِّقٍ.

وغَرضُ الاستفهام الاستهزاءُ بالآلهةِ العاجزة الجامِدةِ، فهوَ استِعمالُ الاستفهام في غَيرِ مَعناهُ الحَقيقيِّ، فهو مجازٌ مرسلٌ لعَلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييد، فأطلَقَ الاستفهامَ وقيّدَه بمعنى الاستهزاءِ والتَّندُّرِ بالآلهةِ، أو بعابديها - غيرِ الحاضرين أمامَه - توبيخًا واحتقارًا، فقد يَحتقِرُ المرءُ الغائبَ كما يَحتقِرُ الحاضرَ[2]، وإنّما يُنتزع هذا المعنى من السّياق.

بلاغةُ التّعريضِ في استعمالِ مُفرَدةِ الأكلِ:

إطلاقُ الأكلِ وإرادةُ الأكلِ الحقيقيِّ تعريضًا بِهِ

لَمّا قال عليه السلام مُخاطِبًا الأصنامَ بالأكلِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ دلَّ ذلك على أنّ عرضَ الأكلِ عليها كنايةٌ على أنّ الأكلَ كان موجودًا إلى جانبِها[3]، وهذه إشارةٌ قرآنيّة إلى صنيعِ القومِ معَ الأصنام، وأنّهم اعتقَدوا فيها الاعتقادَ الباطلَ، أو أنّ سدَنةَ الأصنام هم الَّذين ابتدَعوا هذهِ الحيلةَ كي يُقدِّمَ العَوامُّ الطّعامَ للأصنام فيأكلَها خدمُ الآلهة، وعليهِ ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّه يُعرِّض بسادةِ الكُفرِ الَّذين هُم مَن سيأكُل تلك المَطعوماتِ، وأنّه لا آكِلَ ولا مأكولَ إلّا ما يقومُ به المُجرمون؛ كأنّه قال: (ألا تأكلون أو أنّ غيرَكم سيأكُلُ!).

توجيهُ الاستعارةِ في الخِطابِ:

لو قُدِّرَ للأصنامِ عقلٌ لكانت أعقلَ مِن عابديها

لَمّا وجّه إبراهيمُ عليه السلام الخِطابَ إلى غيرِ العاقل وهُم الأصنامُ، وقَع تشبيهُهم بالعاقِل؛ إذِ غيرُ العاقِلِ لا يُخاطَب، وذلكَ بتَنزيلِ غَيرِ العاقِلِ مَنزِلةَ العاقِلِ في صلاحيَّةِ الخطابِ، وهذهِ استعارةٌ تصريحيّةٌ بقرينةِ الخطابِ، وهو لا يكونُ إلّا لعاقل، ولاستِعمالِ ضميرِ العُقَلاءِ في ﴿تَأۡكُلُونَ﴾، ونكتته الاستعارة قد تقدَّمت في

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 285، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 210.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 285.
(3) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 200.

الاستهزاءِ بالأصنام، المرادُ به بيانُ ضعفِ عُقولِ عابديها، وذَهابِ إدراكِهم ويقظتِهم.

بلاغةُ الكنايةِ في خِطابِ الأصنامِ:

الغضبُ توطِئةٌ للعملِ وتهيئةٌ لإنجازِ المطلوبِ

مُخاطَبةُ إبراهيمَ عليه السلام تلكَ الأصنامَ بقولِه: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ وهو في حالِ خَلوةٍ بها وعلى غيرِ مَسمعٍ من عبَدتِها، فيه كنايةٌ عن ثَوَرانِ نفسِه غضبًا عليها - إذ زعَموا لها الإلهيّة - فكأنّ في خِطابِه لها قوّةً وعَزمًا على تحطيمِها[1]؛ فالإنسانُ لا يُخاطِبُ غيرَ العاقِلِ، وهو إنّما خاطَب بها عابديها، وقد جعَل الخِطابَ توطئةً للتّحطيمِ والهدم، لأنّ الانفِعالَ قَبلَ الفِعلِ أحرَى بالأداءِ والقيامِ بالمَطلوبِ.

بلاغةُ التَّوريةِ في الخِطابِ:

وراءَ كلِّ خِطابٍ مَنطوقٍ خِطابٌ مُرادٌ مَفهومٌ

في جَعلِ إبراهيمَ عليه السلام الخطابَ متوجِّهًا إلى الأصنامِ توريةٌ بديعةٌ في المُخاطَبِ المقصودِ، فإنّه ما قصَد خِطابَ الجماداتِ؛ لعدمِ صلاحيّتِها أصلًا للخِطابِ، فلَم يقصِد المَعنَى الحقيقيَّ للخِطابِ، بل قصدَ المَعنَى اللّازمَ عن الخِطاب، وهو تذكُّر كَذِبِ الَّذين ألّهوها والَّذين سَدَنوا لها بالخِدمةِ، وزعَموا أنّها تأكُل الطّعامَ الَّذي يضعونه بين يدَيها ويزعُمون أنّها تكلِّمُهم وتُخبرُهم[2]. فهناك معنًى قريبٌ غيرُ مقصودٍ وهو خِطابُه لتلكَ الآلهة، ومعنًى بعيدٌ هو المقصودُ، وهو لازمُ ذلك الخِطابِ، وذلك هو حاصلُ التَّورية.

بلاغةُ فَصلِ الجملةِ عن السّابقة:

نفيُ مَطاعِنِ المُبطِلين وأوهامِ العَوامِّ مِن مقاصِدِ النّظمِ

قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ من تمامِ مَقولِ القَولِ في قولِه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ أيْ: (قال ذلك)، وقال: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾. أو هي مَقولٌ لقَولٍ مقدَّر؛ أيْ: فقال ألا تأكُلون، فلم يُجيبوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 143.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 144.

بِشَيءٍ، فقالَ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾، فعلى ذلك ليسَتْ داخِلةً في حيّزِ القَولِ في قولِه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾[1]، فصَحَّ أن تكونَ استِئنافًا بيانيًّا، أي لَمّا أمرَهم بالأكلِ، فكأنَّ سائلًا قد سَألَ عن مآلِ الأمرِ؟ فجاء الجوابُ قال لهم: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾، دفعًا لتوَهُّم أنّها تَنطِقُ عندَ السُّؤال، فإنَّ للنّاس أوهامًا في هذا البابِ، ما بَينَ وهْم الباطِلِ كما قد يَزعُمُهُ المُبطِلون الطّاعنون، وبينَ وهم أهلِ الحقِّ بأنَّه مِن المُحتَمَل أن يَخلُقَ اللّهُ فيهِمُ القُدرةَ على الإجابةِ مُعجزةً لإبراهيمَ عليه السلام؛ فدُفِع ذلكَ كلُّه بهذِهِ الجُملةِ، فتكونُ من بابِ شِبهِ كمالِ الاتِّصال، أو تكونُ من كمالِ الاتِّصال بيانًا للجُملة المتقدِّمة، وذلك أنّه لمّا أمرَهم بالأكلِ، جاء قولُه: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ بيانًا أنّهم لَم يأكُلوا بنفيِ ما دونَ الأكلِ وهو النُّطق.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

عبـادةُ مـا لا وزنَ لهُ ولا رُتبةَ دليلٌ على حقارةِ العابِدِ والمعبودِ معًا

غَرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ للتّحقير؛ يَعني أنّه يُحقِّرها بكونِها لا تنطِقُ، والتّحقيرُ هنا وإن كان مُتوجِّها إلى الأصنامِ ذاتِها، إلّا أنّه يستلزِمُ تحقيرُها تحقيرَ عابديها؛ لأنّه إذا كان المَعبودُ المُؤَلَّهُ حقيرًا، فأَوْلَى بالحقارةِ منه مَن يعبُدُه ويعتقِدُ فيهِ استحقاقَ الألوهيّة؛ لأنّه رَضي بعبادةِ ما لا وزنَ له ولا رُتبةَ، هو ضربٌ من الحقارةِ والسّفَه في العابِدِ، وهذا في غايةِ التّحقير لكلِّ عابدٍ للأصنام.

نكتةُ مُخاطَبةِ الجَمادِ مُخاطَبةَ العُقلاءِ:

التّـعـريـضُ بـكُـفّـارِ قريشٍ الّذينَ يُعامِلونَ الأصنامَ مُعامَلةَ العُقَلاءِ

خاطَبَ إبراهيمُ عليه السلام بقولِه: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ الأصنامَ مُخاطَبَةَ العقلاءِ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ ولم يقُل: (ما لَكُنَّ) تنزُّلًا مع أصحابِها الّذين يَجعَلونَها مِن ذَواتِ العِلم، وذواتِ القَبول

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 153.

والدَّفعِ عنهم، وتَنزيلُه الأصنامَ منزلةَ من يَعقِلُ في الخِطابِ تسجيلٌ عليها بالعَجْز، وعلى عابديها بالسّفَهِ والبلادةِ، فمعنى ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾: أيْ: (أيُّ شيءٍ يمنعُكم من النُّطق إن كُنتُم آلِهةً؟!)(1) والمقصودُ بذلك قُرَيش الَّتي تَسمَع هذا الخطابَ؛ فهو تعريضٌ بهِم، وهذا من مُضاعَفاتِ مَقاصِدِ النّظم القرآنيّ.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

التَّـدرّجُ في تجليَةِ الحَقِّ مِن الخِطابِ إلى الفِعالِ

الفاءُ في قولِه تَعالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ لعطفِ الجملةِ على قولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾، والفاءُ تفريعيّة؛ لتَرتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، ولإفادةِ التَّعقيبِ الفَوريّ والإسراعِ في إنجازِ مَدخولِها والتَّلبُّسِ به بعدَ انقطاعِ جَوابِهم عنه، ويَصِحُّ أن تكونَ فصيحةً عاطفةً مَدخولَها على محذوفٍ مُقدَّرٍ؛ أيْ: سألَهُم فلَم يُجيبوا شيئًا فانهالَ عليهم ضَربًا(2).

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ (راغ):

بعضُ المَصالِحِ لا تَنفُذُ إلّا بحيلةٍ وتخَفٍّ

آثَر النّظمُ الكريمُ استِعمالَ مُفردةِ (راغ) دونَ رديفاتِها - كأقبَلَ - في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾، فلَم يقُل: (فأقبل عليهم ضربًا)؛ لأنّه أراد التَّنبيه على حالٍ مخصوصةٍ في ذلك الإقبالِ، وهو أنّه إقبالٌ مقترِنٌ بالاحتياط والاحتيال والتَّستُّر؛ فإنّه وإن كان وحدَه مع الآلهة، فإنَّه أراد ضربَها وهدمَها دون أن يُلاحِظَه أحدٌ، فكان إقبالًا صادرًا عن تفكيرٍ مُسبّق؛ فجاء التّعبيرُ بمُفردةِ (راغ)؛ لأنّه ما كان يتأتّى له ﷺ أن يُجاهِرَ بتحطيمِه الأصنامَ عيانًا بَيانًا، اتّقاءً لِما يقتَضيه ذلك من المَفاسِدِ والأضْرار، فكان إقبالُهُ على ذلك حَيطَةً وحَذَرًا.

---

(1) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 201.

(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 257، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 153.

نُكتةُ تَكرارِ مُفرَدةِ (راغ) في السّياقِ:

لا تتحقّقُ المَقاصِدُ إلّا بوسائِلِها الَّتي من جِنسِها

تَكرَّرَ استعمالُ مُفرَدةِ (راغ) مرَّتَين؛ الأولى في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ والأخرى في قولِه تَعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ في هذا السّياق، وذلكَ أنّ هذهِ المُفرَدةَ اشتمَلَتْ على معنَى الخِفّةِ والتّفكيرِ المُسبَّقِ بالفعلِ واستعمالِ الحيلةِ للوُصولِ إلى الهَدفِ، وجِماعُ ذلك الانتقالُ من مكانٍ لآخر، أو مِن حالٍ لأخرى بحيلة وخِفّة، فقد راغ عليه السلام مرّتَين، الأولى وسيلةُ الثّانية، فالأولى هي الوصولُ إلى أماكنِ الآلهةِ الَّتي كانتْ مَحفوظةً، والثّانيةُ هدْمُ الأصنام وكَسرُها، ولا تتحقّق الثّانية إلّا بالأولى، مع اجتماعِ الاحتيالِ والخِفّة في المرَّتين؛ ففيه بيانُ أنّ إبراهيمَ عليه السلام كان مُحتاطًا أشدَّ الاحتياط لإنفاذِ ما يُريد، وبلوغِ مَقصِدِه، وقد تحقَّق له ذلك بسُلوك الأسباب، مع الاستعانةِ بالعزيزِ الوهّاب.

بلاغةُ التّضمينِ بتعديةِ الفِعلِ بحرفِ الاستعلاءِ:

عجزُ الأصنامِ المُطلَقُ ظاهرٌ وعجزُ عابديها العقليُّ أظهَر

عُدّي فعل (راغ) بحرف الاستعلاءِ؛ لتضمينِ (راغ) معنى (أقبَل)؛ أيْ: أقبَلَ عليهِم بالضَّرب والتَّحطيم. ولا يَخفَى اقتضاءُ المعنى لذلك؛ لأنّ التَّحطيمَ والكسْرَ والضَّربَ هو استعلاءٌ من الضّارِبِ على المَضروبِ، وفيه إشارةٌ إلى عجْزِ الأصنام التّامِّ بقرينةِ حرفِ الاستعلاءِ الَّذي يدُلّ على تمكّنِ إبراهيمَ عليه السلام منهم تمكّنًا تامًّا[1]، وبالتّضمينِ يقَعُ الإيجازُ، إذ جَمَعَ معانيَ (راغ) وما دلّ عليه الاستعلاءُ من معنى الإقبالِ والإقدامِ المُشرَبِ بمعنى الغضَب.

مَوقعُ ﴿ضَرۡبَۢا﴾ في البيانِ:

اختلافُ الأعاريبِ فُسْحةٌ في المعنَى عجيبٌ

تَحتمِلُ كلمةُ ﴿ضَرۡبَۢا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ ثلاثةَ أعاريبَ: فهي تحتمِلُ أن تكونَ نائبًا عن المَفعولِ المُطلَقِ من الفعلِ (راغ) من غيرِ لفظِه، كجلسْتُ قُعودًا، وتحتَمِلُ

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 257.

أن تكونَ مفعولًا مُطلَقًا لفعلٍ محذوفٍ؛ أيْ: (راغ عليهم يضرِبُهم ضربًا)، وحُذِفَ الفعلُ؛ لدلالةِ المصدرِ عليه، وتَحتمِلُ الحالَ مِن ضميرِ (راغ)؛ أيْ: (راغ عليهم ضاربًا لهم)[1]، وهذه الأعاريبُ وإن بدت صِناعيّةً في نحوِها، إلّا أنّها تَحمِلُ في طيّاتها دلالاتٍ فرعيّةً بيانيّةً، فالأوّلُ توجيهٌ لمَعنَى (راغ)، والثّاني تصويرٌ لحَدَثِ الضّربِ، والثّالثُ بيانٌ لهيئةِ الضّربِ.

نُكتةُ مَجيءِ الحالِ مَصدرًا:

مَجيءُ الحالِ مَصدرًا لِلمُبالَغةِ في هَيئةِ صاحبِ الحالِ

على إعرابِ ﴿ضَرۡبَۢا﴾ حالًا ومَجيءِ الحالِ مَصدرًا على التّأويلِ بالوصفِ المُشتَقّ؛ أيْ: (ضاربًا)؛ للدّلالة على الحَدَث المُجرّد عن الزمن الَّذي يكونُ في الفِعل، وعن الذّات الَّتي تكونُ في الوصفِ، فعَبّر بالمَصدَرِ مُبالَغةً، فحينَ يقولُ: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا﴾ فكأنّ إبراهيمَ عليه السلام تحوّلَ ساعةَ قيامِه بضربِهم إلى الضَّربِ نفسِه، كأنّه لم يَبقَ فيه شيءٌ من عُنصرِ الذّاتِ ولا عُنصرِ المادّة، فصارتْ نفسُه ضربًا آخَر على الضّرب الحاصِل، ففيه تصويرٌ لشدّةِ ضربِه، مبالغةً في هيئتِه وهو مُتلبِّسٌ بالفعل، ويكأنّه من شدّةِ اندماجِه في إحداثِ الضَّربِ صار هو الضّربَ نفسَه[2].

نوعُ الباءِ ودَلالتُها البيانيّة:

الباءُ تَحتمِلُ الاستعانةَ والسّببيّةَ بحسَبِ تفسيرِ (اليَمينِ)

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ باءُ الآلةِ، ومعناها الاستعانةُ؛ أيْ: (ضربَهم مُستعينًا باليدِ اليَمينِ)، وهي كالباءِ في قولِهم: (كتبتُ بالقلَم)، وسُمّيت باءَ الآلةِ أو الاستعانة؛ لدُخولِها على آلةِ الفعلِ، وهو مَعنًى لها قريبٌ من معنى المُلابَسةِ، لأنّ الملابَسةَ لازمٌ عن الاستعانة، كأنّه قيلَ: ضربًا مُلتبِسًا بقوّةِ اليَمينِ[3]، فيَلزَمُ عن استعانتِه بها أن يُلابِسَها، فالاستعانةُ تبدأُ من القَصدِ، والمَلابسةُ تحصُلُ مَعَ الفعل،

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 153.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 288.
(3) الجَمَل، حاشية الجمل: 3/ 544.

فالاستعانةُ أسبقُ، فاليمينُ بمعنى اليدِ والقوّة، وإذا جعلْنا (اليمينَ) بمعنى القسَمِ فالباءُ سببَيّة.

براعةُ استعمالِ مُفرَدةِ (اليَمين) بمَعنَيينِ مُرادَين:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدةِ (اليَمين) دونَ ألفاظٍ أخرى في قولِه تعالى: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾؛ وذلك أنّ هذا اللّفظَ يَحتَملُ معنَيَينِ اثنَين، وكلاهُما عندَ التّأمُّلِ مُرادٌ، أمّا الأولُ فهو الجارحةُ الّتي فيها قوّة الضّرب، ونُكتةُ التّعبيرِ باليمينِ دونَ اليدِ أمرانِ؛ الأوَّلُ هو الجَمعُ بينَ هذا المَعنى والمَعنى الآخَرِ الَّذي سيأتي الكلامُ عليه، والأمرُ الثّاني الإشارةُ إلى مُناسَبةٍ بديعةٍ في السّياق، وهو أنّ مَصالِحَ الدّينِ وحَرَمَ العقيدةِ حريٌّ أن يُصانَ بالأيمانِ ويُدافَع عنه بآلاتِ القوّةِ والغلَبةِ والّتي كان (اليَمينُ) شِعارًا لها وعبارةً عنها.

اليمينُ بمعنى القَسَمِ تُمثّلُ القوّةَ النّظريّةَ وبمعنى الجارحةِ تُمثّلُ القوة التَّنفيذيَّة

والمعنى الآخَر هو أن تكونَ مُفرَدةُ (اليَمين) بمعنى القسَم كما يُبيِّنُه قولُه تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾ [الأنبياء: 57]؛ أيْ: إنَّه أقسَمَ أن يَكيدَ الأصنامَ؛ فبِسَبَبِ ذلك القَسَمِ راغَ على الأصنامِ ضربًا فكسَرَها، فيكونُ الضربُ تفسيرًا للكَيدِ، والمَعنيانِ مُرادانِ، إذ لمّا أقسَمَ أن يَكيدَ الأصنامَ نفّذَ ذلكَ وحقّقه واقعًا بيمينِه وقوّته، فاليمينُ الّتي بمعنى القسَمِ هي القوّةُ العَقَديّةُ والنّظريَّة، واليمينُ الَّتي بمعنى الجارِحةِ هي القوةُ التّنفيذيَّةُ.

بلاغةُ الكِنايةِ:

اجتماعُ قوّةِ العقيدةِ والبدَنِ مِن دواعي إتقانِ العملِ

في تأويلِ مَعنى الضَّربِ في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ بأنّه ضرْبٌ كائنٌ باليمينِ القَسَميّة أو الجارِحة، فهو في الحقيقة إسنادُ الضَّربِ لليَمينِ من حيثُ الدّلالة، إذِ الضاربُ قوّةُ اليمينِ النّظريّةُ السببيَّةُ والفِعليّةُ الآليّةُ، ففيه كنايةٌ عن الشدّةِ في التَّحطيمِ والقوّةِ في الكسْرِ والهدْمِ، لأنّ الإنسانَ إذا استَجمَعَ قوّتَهُ العقَديّةَ والبدَنيّةَ أثناءَ العَمَلِ فإنّه يقومُ بعمَلٍ عظيمٍ شديدٍ، لا يَقوَى عليه ضعيفُ العقيدةِ والبَدَنِ.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ:

المؤمنُ أحقُّ بالانتصارِ للهِ تعالى مِن انتصارِ عبَدَةِ الأوثانِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ فصيحةٌ، عاطفةٌ مَدخولَها على كلامٍ مقدَّرٍ يقتضيه السّياقُ؛ أيْ: (فرَجَعوا من عيدِهم فوَجَدوا الأصنامَ حُطامًا فأقبَلوا)، معَ ما فيها مِن تصويرِ المَشهدِ، بسُرعةِ مَعرفتِهم بما حدَثَ وانتِشارِ الأمرِ سريعًا بينَ النّاسِ، فإنَّ تهديدَ الحقِّ للباطِلِ يُرهِبُ الأعداءَ، فكيفَ بتنفيذِ ما خافوه؟! وفيها إيماءٌ إلى أنّ المُسلِمَ أحَقُّ بالمُبادَرةِ في الانتصارِ للّه تعالى من أولئكَ الَّذين بادَروا في الانتصارِ لآلِهتِهم.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ الإقبالِ:

مَن طُعِنَ في اعتقادِهِ فقدِ استُعدي

جاءَ استعمالُ مُفرَدةِ الإقبالِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، ولم يقُل: (أتوه أو جاؤوه)؛ ليدُلَّ على إتيانٍ قُصِدَتْ فيه المواجَهةُ والمُقابَلَةُ الصَّريحةُ، فأصلُ الإقبالِ يدُلُّ على مواجَهةِ شيءٍ بشَيءٍ[1]؛ فلِلتَّنبيهِ على معنى المواجَهةِ عَبّر بالإقبالِ دونَ غيرِه، ولا يَخفَى ما في التّعبيرِ بالإقبالِ مِن جاهزيّتِهم لعِقابِه، وتحضيرِهم لزجْرِه، فتركيبُ: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ مُشْعِرٌ بانفعالِهم بالغضَبِ والسُّخطِ عليه؛ لأنّ الانفعالَ بالغضبِ والتَّحدّي من مُحرِّضاتِ الإقبالِ والمواجَهةِ، ودلَّ استعمالُ هذهِ المُفرَدةِ على أنّه واجهَهم حينَ أقبَلوا ولَم يهرُبْ أو يَفِرَّ مِنهم، ففيه بيانٌ لشجاعتِه وقوّةِ قلبِه في طلَبِ إظهارِ الحقِّ وعدمِ الخوفِ من الباطلِ.

توجيهُ تعلُّقِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ بالسّابقِ واللّاحِقِ:

لفظُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قولِه: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ إمّا أن يتعلّقَ بما قبلَه، أو بما بعدَه؛ أيْ: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أو ﴿إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾[2]، فإذا تعلّقَ بما قبلَه فظاهِر، وإذا تَعلَّقَ بما بعدَه فعلى الاختِصاصِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قبل).

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 5/ 508، والجمل، حاشية الجمل: 3/ 544.

براعةُ الاستعارةِ في مُفرَدةِ ﴿يَزِفُّونَ﴾:

المُستعجِلُ على غيرِ بصيرةٍ يُسارِعُ في هلاكِه لا في فِكاكِه

مُفردةُ ﴿يَزِفُّونَ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّة، حيثُ شبّه إسراعَهم في مَجيئِهم إليه، بزَفيفِ النَّعامِ وهو اقترانُ عَدْوِها بطَيرانِها[1]، فتنطلقُ مُسرعةً من وجهِ خَطرٍ يتهدّدُها، فتزِفُّ بجَناحَيها، ونُكتةُ الاستعارةِ بتشبيهِ القومِ بالنَّعامِ الّذي يُقبِلُ دونَ وعيٍ أو فَهمٍ، ويُشكِّلُ على نفسِه خَطرَ الإقدامِ، ويأتي بالحماقاتِ غيرِ المُتوقَّعة.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ ﴿يَزِفُّونَ﴾:

تصويرُ طَيشِ القَومِ ورَجاحةِ عَقلِ الخليلِ

جاء الفعلُ ﴿يَزِفُّونَ﴾ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لتصويرِ القومِ كأنّهم يُريدونَ أن يَطيروا إلى إبراهيمَ ﷺ، وهو كنايةٌ عن طَيشِهم وخِفّةِ عَقلِهم، وفي المُقابلِ فإنّ هُدوءَ إبراهيمَ ﷺ يُمثِّلُ حالَ العقلِ الرّاجِحِ والقَلبِ المُطمئِنِّ، وهذا مِن شديدِ التّهكُّمِ بالقَومِ، والمَدحِ للخليلِ.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيّةِ:

النّوازِلُ تَضغطُ النّفوسَ المريضةَ حتّى تُسارِعَ إلى غَيرِ قِبْلَةٍ

اختلفَ القُرّاءُ في قولِه تعالى: ﴿يَزِفُّونَ﴾، فقرأ حمزة: ﴿يُزِفُّونَ﴾ بضَمّ الياءِ وكَسرِ الزّاي، وهي مِنْ (أزفَّ يُزِفُّ)، وهل الهَمزةُ للتّعديةِ أو للدُّخولِ في الفِعلِ؟ قولانِ. فعلى كونِها للتّعديةِ يكونُ المَفعولُ مَحذوفًا، والمعنى: (يُزِفّون دوابَّهم الّتي تَحمِلُهم؛ للإسراعِ في المَشْيِ)، وعلى كونِها للدُّخولِ في الفِعلِ، فالمَعنَى: شُروعُهم في حالِ الزّفيفِ؛ أيْ: صَيرورتُهم إلى تلكَ الحالِ، كأنّه قيل: (يُزِفّون أنفسَهم بوازِعٍ من الوجْدِ وإلحاحٍ من العِزّةِ لآلهتِهم)، فيدُلّ ذلك على شِدّة الإسراعِ، كأنّهم محمولون على ذلك بسبَبِ ضَغطِ المَوقِفِ وقَهْرِ النّازلةِ الّتي حاقَتْ بهم. وقرأ الباقون بتسميةِ الفاعِلِ: ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفَتحِ الياءِ وكَسرِ الزّاي، مِن (زفّ يَزِفّ)، وهي من الزّفيفِ، وهو الإسراعُ في العَدْوِ، وأصلُه في النّعامِ[2].

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (زفّ).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 342، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 257، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357.

مُجابَهةُ الباطلِ المُعادي خيرٌ من التّواري

براعةُ الاستئنافِ البيانيّ في الكشفِ عن عظيمِ المَواقِفِ:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ لِأنّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّ إقبالَ القومِ إلى إبراهيمَ بحالةٍ ساخطةٍ وعزْمٍ على البطْشِ به، يُثيرُ في نفسِ السّامعِ تَساؤُلًا عن حالِ إبراهيمَ معَهم وهو فاقدٌ للنّصيرِ مُعرَّضٌ للنّكال، فيكونُ قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ جوابًا وبيانًا لِمَنْ سألَ عن رَدّةِ فِعلِه عليه السلام، وذلكَ مُنبِئٌ عن رباطةِ جأشِ إبراهيمَ؛ إذْ لَم يتلَقّ القَومَ بالاعتذارِ، ولا بالاختفاءِ، ولكنّه لَقيَهم بالتَّهكّمِ بهِم، إذ قال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: 63][1]، وهذا الاستئنافُ يدلُّ على أنَّه عليه السلام هو الَّذي بادَرَ بالإنكارِ عليهِم، بِما فيهِ أدلّةٌ على الحقِّ الَّذي معَه، وهو صَريحٌ في شجاعتِهِ وإقدامِهِ واعتزازِه باللّه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ:

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارعِ: ﴿أَتَعۡبُدُونَ﴾؛ لِكَونِ عبادتِهم جاريةً مستمِرّةً ساعةَ خِطابِهم، فالإنكارُ عليهِم لِما هو كائنٌ منهم وسيكونُ، لا لِما كان فيما مضَى.

غَرضُ الاستفهامِ ودَلالتُه:

تقريرُ الوثَنيّينَ بالمُغالَطةِ في عِبادةِ مَنحوتاتِهم

جَرى الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ على تقريرِهم بالمُغالَطةِ، والإنكارِ عليهِم، معَ تَوبيخِهم، والتّسجيلِ عليهِم بالجِنايَةِ، والنّعيِ على عُقولِهم، وتسفيهِهِم، وأومَأ الاستفهامُ في هذا المَوضِعِ إلى الاستِعجابِ والاستِغرابِ والاستهجانِ، من عبادةِ ما يَنحِتون، وهو استعجابٌ للواقِعِ البائِسِ لا استفهامٌ عن أمرٍ غيرِ واضِحٍ.

نُكتةُ اختيارِ ﴿مَا﴾:

اختيارُ الأدواتِ خادِمٌ لتَجليةِ معاني الحقائقِ

جاء التّعبيرُ بأداةِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا تَنۡحِتُونَ﴾؛ لِصِدقِها على ذَواتِ ما لا يَعقِلُ، وهي الأصنامُ، فاستِعمالُها هُنا هو الأصلُ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 144.

وفيهِ تصريحٌ مِنه ﷺ لهم ببُطلانِ آلهتِهم؛ إذ هيَ لا تَعقِلُ ولا تَعلَمُ، فكيفَ تُعبَدُ؟![1].

نوعُ ﴿مَا﴾ وتقديرُها:

(ما) تَحتَمِلُ الموصولَ الاسميَّ والمصدريّةَ والنّكرةَ الموصوفةَ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: (الَّذي تَنحِتونَه)، وجَوّزَ أن تكونَ مصدريّة، تُؤوَّلُ مع مدخولِها بمصدرٍ؛ أيْ: (أتعبدون نحتَكُم). ويصِحّ أن تكونَ نكرةً موصوفةً بقولِه: ﴿تَنْحِتُونَ﴾، والتَّقديرُ: (أتعبُدونَ شيئًا تَنحِتونَه، أو أصنامًا تَنحِتونَها)[2].

نكتةُ التعريفِ بالصِّلةِ:

صلةُ الموصولِ تَحشِدُ أدلّةَ العَقلِ وبراهينَ الفِطرةِ

على القَولِ بأنّ ﴿مَا﴾ موصوليّةٌ، فإنّ إيثارَ استعمالِ الاسم المَوصولِ معَ صِلتِه دونَ الاسمِ الظّاهِرِ في قولِه تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، فلَم يقُل: (أتعبُدونَ المَنحوتاتِ)؛ لِتَمييزِ تلكَ المَعبوداتِ أكمَلَ تمييزٍ، فتعريفُها بالصّلةِ تعريضٌ بها وتهوينٌ، وتحقيرٌ من شأنِها[3]، ووجْهُ ذلكَ التّهوينِ لها وامتهانِها: اشتمالُ مضمونِ الصِّلةِ على تَسلُّطِ فِعلِهم على مَعبوداتِهم؛ أيْ: (إنّ شَأنَ المَعبودِ أن يكونَ فاعلًا لا مُنفعِلًا، فمِنَ المُنكَرِ أن تَعبُدوا أصنامًا أنتُم نَحتُّموها والشّأنُ أنَّها أقلُّ مِنكُم)[4].

بَلاغةُ المَجازِ العَقليِّ في إسنادِ الفِعلِ إلى عُمومِهم:

التّسبُّبُ في شيءٍ صانعٌ له

الخِطابُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، مَحمولٌ على العُمومِ لِجَميعِ مُشركي قَومِه، معَ أنّه ليسَ كلُّ مُشرِكٍ في قَومِه ناحِتًا، فالنّاحِتون فئةٌ خاصّة، وهُم بعضُ القومِ لا كلُّ القومِ! فإسنادُ النّحتِ إلى جميعِ المُخاطَبينَ - كما أسنَدَ العِبادةَ - من قَبيلِ إسنادِ الفِعلِ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 258.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 118.
(3) السّامرّائيّ: 1/ 120.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 145.

إلى الكُلّ، والبعضُ هو الفاعِلُ؛ لأنّه لمّا كانَ النّحتُ الحاصِلُ مُنْتَفِعًا به الكلّ أُسنِدَ إلى جميعِهم، ولمّا كان البعضُ إنّما يَنحِتون لأجْلِ الجميع، ولمّا كان البعضُ الّذي لا يَقومُ بالنّحتِ هُم مِن الأسبابِ المُعينةِ لِفئةِ النّحّاتينَ، بِطَريقِ التّمويلِ والإمدادِ بالمالِ، فلِكُلٍّ صَنعةٍ رُعاتُها بالمالِ وبغيره - أُسنِدَ إلى الجَميع، والإسنادُ من المَجازِ العقليِّ. وعليه: فيَكونُ إسنادُ العبادةِ إلى جَميعِهم حقيقةً، وإسنادُ النّحتِ إلى جَميعِهم مَجازًا، إلّا أنْ يَكونَ جَميعُ القوم كانوا نحّاتينَ، أو تجارتُهُم ومَعايِشُهم مِن النّحتِ، وهذا بَعيدٌ مِن واقِعِ النّاسِ.

تَوجيهُ تَخصيصِ النّحتِ بالذِّكرِ:

خَصّ النّظمُ الكريمُ ذِكرَ مَعبوداتِهم بكَونِها مَنحوتةً في قولِه تعالى: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾، دونَ سائِرِ الإطلاقات، ذلكَ أنّه بِتَعيينِ تلكَ الصّفةِ لها، أرادَ إظهارَ حيثيّةِ المُغالَطةِ في عبادتِها، فكَونُها مَنحوتةً، عِبارةٌ عن كونِها مَصنوعةً لهُم، والمصنوعُ لا يُعبَد؛ لكونِه مَقدورًا عليه مِن صانِعِه، فالّذي صنَعَه أولَى منه بالعبادةِ، إذ كيفَ يُعبَدُ المَصنوعُ ولا يُعبَدُ الصّانِعُ، فإن كانتِ العِبادةُ تَحِقّ لأحدٍ غيرِ اللّهِ فهُم أحقُّ أنْ يَعبدوكم؛ لأنَّكم صنَعتُموهُم؛ ولَم يَصنَعوكُم[1]. وأيضًا وجْهٌ آخَرُ لِتَلكَ المُغالَطةِ: وهو أنّهم يَعبُدونَ المَنحوتاتِ الّتي شَكّلوها بأيديهم، وقَبلَ إحداثِ صَنْعَتِهم فيها كانت حِجارةً خامًا لا يَعبُدونَها، فكأنّهم بذلكَ لا يَعبُدونَ الشيءَ ذاتَه، بل يَعبُدونَ آثارَ صِناعَتِهم فيهِ وهو النّحتُ، فحَصَل بذلكَ أنّهم لا يرتَضون عبادةَ المَخلوقِ - مع بُطلانِ ذلك - وهو على أصلِ صورتِه، حتّى يُحدِثوا فيه خَلْقًا آخَرَ بالنّحتِ والتّشكيلِ، ولا يَخفَى ما في ذلكَ مِن فضائِحِ العقلِ المُركّبةِ بعضُها فوقَ بعضٍ[2].

الصّانِعُ الّذي يَعبُدُ مَصنوعَه خالَفَ مُقتَضَى العَقلِ الصّريحِ لاتِّباعِ الهَوَى

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 258.

(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 403.

بلاغةُ جُملةِ الحالِ:

مَن قَدَرَ على خَلقِ الذّواتِ قَدرَ على خَلْقِ أفعالِها مِن بابِ أولَى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واوُ الحالِ؛ أيْ: (أتيتُم مُنكَرًا إذْ عَبدتُّم ما تصنَعونَه بأيديكُم، والحالُ أنّ اللّهَ خَلقَكُم وما تعمَلون وأنتُم مُعرِضونَ عَن عِبادتِه، أو وأنتُم مُشرِكون معَهُ في العبادةِ مَخلوقاتٍ دونَكُم). والحالُ مُستَعمَلةٌ في التّعجيبِ؛ لأنّ في الكلامِ حَذفًا بعدَ واوِ الحالِ، إذِ التّقديرُ: (ولا تَعبدونَ اللّهَ وهو خَلقَكُم وخَلَقَ ما نَحتُّموهُ)[1].

نوعُ (ما) وتَقديراتُها:

(ما) موصولةٌ لأنّ مناطَ الإنكارِ عليهِم بِما في حَيّزِها

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الظّاهِرُ أنّها موصولةٌ؛ أيْ: (خَلَقَكُم والّذي تَعمَلونَه مِن الأعمالِ على العُمومِ ويَدخُل فيها الأصنامُ الّتي تَنحِتونها دُخولًا أوّليًّا)، ويكونُ معنى العملِ هنا: التّصويرَ والنّحتَ ونَحوَهُما، ويُرجِّحُه ما قبلَه؛ أيْ: (أتعبُدونَ الّذي تَنحِتون، واللّهُ خَلقَكُم وخلَقَ عَملَكُم في النّحتِ والتّصويرِ، وهو إقدارُكُم عليه، وتَعليمُكُم إيّاهُ بعدَ إيجادِه لَكُم)[2]، وجَوّزَ بَعضُهم أنّها مَصدريَّةٌ؛ أيْ: (خَلقكُم وعَمَلَكُم)، وهذا باطلٌ وبعيدٌ لِما يَنْبَني عليهِ مِنَ القَولِ بالجَبْرِ، وأنّ اللّهَ تعالى خلَقَ أعمالَهم الّتي بها كانتِ الأصنامُ؛ أيْ: (كَما خَلقَكُم خَلَقَ أعمالَكُم)، وهذا باطِلٌ؛ لِأنّ الإنسانَ مُخيّرٌ في أعمالِه، أو نَكِرةٌ موصوفةٌ؛ أيْ: (خَلقَكُم ومَنحوتاتٍ تعمَلونها)[3].

تَوجيهُ مُفرَدةِ العَملِ على الحقيقةِ والمَجازِ:

العَملُ لفظٌ عامٌّ يُرادُ بِهِ العُمومُ، والخُصوصُ لَهُ حُكمُ الأولَويّةِ

على القَولِ بأنَّ معنى العَمَلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو نحتُ الأصنامِ، بقَرينةِ الخُصوصِ قَبلَه في قولِه تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾. يكونُ في تَسميَةِ النَّحتِ بِعُمومِ العَملِ مَجازٌ مُرسَلٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 145.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 404.
(3) جلال الدِّين المَحلِّيّ، تفسير الجلالين، ص: 593، والقنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 404، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 204.

لِعَلاقةِ العُموم، فأطلَقَ العامَّ وأرادَ بِه الخاصَّ، وإذا جَعلْنا العَملَ على عُمومِه فالكلامُ على ظاهِرِه الحقيقيِّ ولا مَجازَ فيه، وهذا هو الأولَى؛ لِدُخولِ النّحتِ دُخولًا أوَّليًّا في المُراد.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جاءَ بعدَ مَحذوفاتٍ مُقدّرة؛ أيْ: (لمّا أنكَرَ عليهِم بقولِه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فرَجَعوا إلى أنفُسِهم، ونُكِسوا على رُؤوسِهم، فلَم يُعيروهُ جوابًا ولَم يأبَهوا بحُجّتِه، فتَشاوَروا بينَهم، وعَزَموا على عُقوبَتِه). فذلكَ يُثيرُ في نفْسٍ أنْ تَسألَ: (فماذا كانَ حُكمُهُم به بعدَ ذلكَ؟ أو إلامَ انتهى إليهِ أمرُهم معه؟)، فأُجيبَ: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾، وفي هذا الاستئنافِ البَيانيِّ دَلالةٌ على طَيِّ جُمَلٍ وألفاظٍ وأحداثٍ فُهِمَتْ مِنَ السّياقِ، فهو مَبنيٌّ على الإيجازِ وطَيِّ الأحداثِ.

المُتغطرِسُ يُجابِهُ أهلَ الحقِّ بالعِقاب، والحُجّةِ بالعذابِ

دَلالةُ فِعلِ الأمرِ:

دَلَّ الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ على أنّ القائلينَ هُم أكابِرُ السّدَنَة ورُؤساءُ الدّينِ والمَعبَدِ، أو القُضاةُ أعوانُ الأكابِرِ مِن قومِه، وذلكَ لأنَّ الأمرَ في مِثلِ هذا يَصدُرُ عنهُم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قولِه تعالى: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ فلَم يَقُل: (ابنوا بنيانًا له)؛ للقَصْر؛ أيْ: (ابنوا بُنيانًا لَهُ وحدَه، لا لِغَيرِه)، وأفادَ الاختصاصُ طلبَ بُنيانٍ خاصٍّ غيرِ مَعهودٍ.

دَلالةُ استِعمالِ صيغةِ ﴿بُنْيَٰنًا﴾، دونَ (بناء):

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدةِ البُنيانِ دونَ البِناءِ؛ فلَم يَقُل: (ابنوا له بِناءً)، بل قال: ﴿بُنْيَٰنًا﴾؛ وذلك للدّلالةِ على أنّه بِناءٌ مُشيّدٌ كالجَبَلِ العظيم، وليسَ كأيِّ بِناءٍ، ففي التَّعبيرِ بالبُنيانِ دَلالةٌ على شِدّة الإحكامِ والمَنَعَةِ في موضِعِ النّارِ الّذي بَنَوْه، فلا تُنافِسُه سائرُ

البُنيانُ دالٌّ على الجَمعِ والمَنعِ والامتلاءِ الّذي يَعكِسُ طبيعةَ غَطرسَتِهم

الأبنيَةِ في هندستِه ومِعمارِه وإعدادِه، والبُنيانُ مَصدرٌ كغُفرانٍ وكُفرانٍ، وهو هُنا بمَعنى المَفعولِ؛ أي: (المبنيّ) أو اسمُ جِنسٍ جَمعيّ واحِدُه بُنْيانَة، وهذا الوَجهُ على معنى أنّ البناءَ كان ذا أجزاءٍ، فمَجموعُها البُنيانُ، وأمّا (بِناءٌ) فهو مَصدرٌ على وزنِ (فِعال) يدُلّ على امتِناعٍ، فالبِناءُ يَمنَعُ ويحجُزُ ما بداخِله عمّا بخارِجه. والبُنيانُ أمْنَعُ وأجمَع كما سَبقَ[1]، وهو ما يَعكِسُ غَطرسَتَهُم وكِبْرَهم، وما امتلأتْ بِه قُلوبُهم مِن الحِقدِ؛ فأرادوا إفراغَهُ في هذا البُنيانِ.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَلۡقُوهُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱبۡنُواْ﴾ وفِعلا الأمرِ: ﴿ٱبۡنُواْ﴾، و(ألقوا)، مِن مَقولِ القَول في: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ﴾[2]؛ أي: (ابنوا بُنيانًا لِتُلقوهُ فيه)، وفيه إلماحٌ إلى سُرعةِ الإلقاءِ.

معنى تَعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ ونُكتَةُ تَخصيصِه بالذِّكرِ:

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه؛ أيْ: (جَحيمُ هذا البُنيانِ). أو (ال) للعهدِ على ذلكَ المَعنى أيضًا[3]، فسَواءٌ سمّيناها عهديَّةً أو عِوضًا فالمآلُ واحدٌ، وخَصّ ذِكرَ الجحيم دونَ سائرِ أوصافِ النّار، ودونَ النّار نفسِها؛ لِمُناسَبةِ ﴿بُنۡيَٰنٗا﴾، فالجَحيمُ هو النّارُ الشّديدةُ الوَقودِ، ذاتُ الطّبَقاتِ، فكلّ نارٍ على نارٍ، وجَمْرٍ فَوقَ جَمْرٍ فهو جَحيم[4].

الجحيمُ هو النّارُ ذاتُ الطّبَقاتِ والحُجُراتِ والدّركاتِ المُتراكِبةِ

دَلالةُ فاءِ التّعقيبِ في الخَبرِ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ للعَطفِ والتَّعقيبِ الإخباريِّ على ما قبلَها، فالتَّعقيبُ في التَّرتيبِ السَّرديِّ فقطْ للكلامِ، وأمّا في الواقِعِ، فلا تَعقيبَ؛ لأنّ إرادةَ الكيدِ بِه مُتزامِنةٌ ومُندَمِجةٌ في معنى قولِهم: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾[5].

مَنْ غُلِبَ بالحُجّةِ استَعانَ بالكَيْدِ

(1) الرّاغب، المُفرَدَات: (بنى)، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 258، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 26.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 158.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 120.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 146.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿بِهِۦ﴾، على المَعمولِ: ﴿كَيۡدٗا﴾؛ للاختصاصِ والحَصرِ، إذْ لَم يكُن مُكادٌ بِه حينَئذٍ إلّا هو، ففيهِ افتراضُ وجودِ غَيرِه، وحَصرُ الأمرِ فيهِ، وهذا مِن المُبالَغة.

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَيۡدٗا﴾:

اختِلافُ النّوازِعِ يَؤولُ إلى التَّفاوُتِ في الأخلاقِ

نُكِّر لفظُ ﴿كَيۡدٗا﴾ للتَّعظيمِ والتَّكثير؛ أيْ: (كيدًا عظيمًا ذا كثْرةٍ في أنواعِه وحيَلِه)، فيَصِحُّ على هذا المَعنَى أن يكونَ للتَّنويعِ أيضًا؛ لأنّ هذا الكيدَ مُتنوِّعٌ بحسَبِ تَفاوُتِهم في الإرادة، فكُلُّ واحدٍ مِن الَّذينَ أرادوا بِه كيدًا له في الكَيْدِ باعٌ وخيَرةٌ غيرَ الآخَر، وذلكَ ناشئٌ عنِ اختلافِ النّوازِعِ بينَ النّاسِ، وهو ما يُنشِئُ التَّفاوُتَ والاختِلافَ في الخُلُقِ الواحِد.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها البيانيّة:

اللهُ أسرعُ في إنجازِ وعدِه مِن سُرعةِ الكائدينَ

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ الجزاءُ؛ أيْ: (جازيناهُم على وجْهِ السُّرعةِ بما أرادوهُ مِنَ الكَيْد)، فعَطَفَ مُجازاتَهُم في جُملةِ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ على جُملة: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾، فجاءَ بالفاءِ؛ ليَدُلّ على سُرعةِ إنجازِ اللهِ وعدَه لأنبيائِه وأوليائِه بالنّصرِ والدِّفاعِ، وعدَمِ إمهالِه لِمَن أرادوا بهِم سوءًا وكَيدًا، وعدَمِ تسليمِهِم لسُلطانِ الكُفرِ، وعدَمِ خذلانِهِم، كما قال تَعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحجّ: 38]، وكما ورَدَ في الحديث: "مَن عادَى لي وليًّا فقَد آذَنْتُه بالحَرب"[1]، فهذِه الفاءُ في: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ هي فاءُ السُّرعةِ في المُعاقَبةِ والتّفريع.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالأسفلينَ، دونَ الأخسَرينَ:

رَدُّ الكَيْدِ في النّحرِ هو عِقابُ الكافِرِ بجِنسِ ما أرادَهُ بأولياءِ اللهِ

جاءَ استِعمالُ مُفرَدةِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ لمُناسَبةِ (البُنيان) و﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾، فلمّا كانَ البُنيانُ الَّذي بنَوْه صاعِدًا عميقًا، وكان ذلكَ مُناسِبًا

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ: (6502).

للجَحيم الَّذي هوَ دَرَكاتٌ وطبَقات، ناسَبَ أنْ يُعبِّر عنهُم بجَزاءٍ مِن جِنْس عمَلِهم وكَيدِهم، وهو جَعلُهم في مَقام سافِلِ الدّرَكات، ووَضيعِ الطّبَقاتِ، جزاءً وِفاقًا، فكأنّ ما أرادوه لإبراهيمَ عليه السلام من المَوضِعِ والمَقام قَد حاقَ بهِم وثبَتَ عليهِم. وأمّا في سورةِ الأنبياء، فوصفَهُم بوَصفِ ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء: 70]؛ لِانعقادِ المُناظَرةِ هُنالكَ في السّياقِ، والمُناظراتُ خاسِرٌ ورابِح.

بلاغةُ الكِنايةِ في الوَصفِ:

في وصفِ الكائدينَ بنَعتِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ إيماءٌ إلى عُلوّ إبراهيمَ عليه السلام، وخَلاصِه منهم، وإظهارِه عليهم[1]؛ أيْ: فجعلناهُم الأسفلِينَ، وجعلناهُ الأعلَى عليهِم.

بلاغةُ القَصرِ ودَلالتُه:

مُضاعَفةُ الجَزاءِ لِلمُعتدي بحسَبِ عَراقتِهِ في العُدوانِ

تُعريف جُزْأي الجُملةِ في مَفعولَي الجَعْلِ، في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ يُفيدُ القَصرَ، وهو قَصرٌ للمُبالَغةِ كأنّ سُفلَهم لا يُدانيهِ سُفلٌ، وكأنّهمُ انفرَدوا بوَصفِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ فلا يَصدُقُ إلّا عليهِم[2].

دَلالةُ صيغةِ (أفعَل) التّفضيلِ:

تَعكيسُ إرادةِ المُبطِلينَ تَنكيسٌ لقوّةِ المُعانِدينَ

جاءت صيغةُ المُفاضَلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾، والأسفَلُ مُبالَغةُ (سافِل)، فهو اسمُ تفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلة؛ فهو لمُجرّدِ الدّلالةِ على قوّةِ الوصفِ وتأكيدِه، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: 27]، فهُم أرادوا أن يَجعَلوا إبراهيمَ عليه السلام في أسفلِ النّار، فردَّ اللّه عليهم ما أرادوا جزاءً وِفاقًا، وقد يكونُ التَّفضيلُ على بابِه، فتَثبُتُ المُفاضَلةُ بينَهُم وبينَ سائرِ السّافِلينَ، فهُم أسفلُ من كُلّ سافِلٍ، ولا مُفاضَلةَ بينَهم وبينَ الخَليلِ - حاشاهُ عليه السلام أنْ يَشتَرِكَ معَهُم في شيءٍ من ذلكَ الوصفِ تَنزّهًا وتبرّأ[3]!

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 107.
(3) الهمذانيُّ، الفريد في الإعراب: 4/ 137، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 159.

تَوجيهُ المَجازِ المُرسَلِ:

مَن غُلِبَ سَفُلَ ومَن هانَ تذلّلَ

لفظُ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ هو جَمعٌ لِلَفظِ (الأسفَل)، وهو الذّليلُ المَغلوبُ، فعَبّرَ عن إذلالِهِم ومَغلوبيّتِهم بلَفظِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ لِكَونِ ذلكَ الوصفِ لازِمًا عن الذِّلّة والغَلبة، فمَن كانَ مَغلوبًا كان لا بدّ أن يكونَ في المَحَلّ الأسفَلِ، فأطلَقَ اللّازِمَ وأرادَ المَلزومَ، على طريقةِ المَجازِ المُرسَل[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ في لَفظِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾:

تصويرُ المَشهَدِ الغَيبيّ بإيجازٍ بديعٍ

في قولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ شَبَّهَ حالَهُم في انغلابِهِم وانقلابِهم مَذلولينَ، بِحالِ مَن قَهرَهُ غيرُه، فاعتَلاه، وجَعَله أسفلَ مِنه؛ ففي التَّركيبِ استعارةٌ تمثيليّةٌ، وفي الكلمةِ استعارةٌ تصريحيّةٌ[2]، ونُكتَتُها تَصويرُ المَشهَدِ والمُناداةُ على عُلوِّ الخليلِ عليه السلام بإنجائِه من النّارِ، ومآلُ الحدَثِ بِما اشتَمَلَ عليهِ مِن نَصرِ اللهِ تعالى له.

---

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 146.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ
قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ
يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾

[الصافات: 99 - 102]

الانـتـقـالُ مِـن مَشاهِدِ الابتِلاءِ مَـعَ الـقَـومِ إلى مَشاهِدِ الابتِلاءِ مَعَ الوَلَدِ

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا بَيّنتِ الآياتُ السّابقةُ صنيعَ إبراهيمَ عليه السلام بالأصنامِ، وكيفَ أنّه أرادَ الانتصارَ بذلكَ للّهِ تعالى، وكيفَ جازاهُ اللّهُ بإنجائِه من النّار، وجعَلَهم الأسفَلينَ، فاكتَملَ فَضلُ اللّهِ لإبراهيمَ بالإنجاءِ مِنَ النّار، ناسَبَ بيانُ ما بعدَ ذلكَ الحدَثِ العظيمِ من أحداثِ دَعوةِ التّوحيدِ، حيثُ أمرَهُ اللّهُ باعتزالِ قومِه والهِجرةِ عنهم، فذَكَر في هذهِ الآياتِ امتِثالَه لذلِكَ، وهِبةَ اللّهِ لَهُ الوَلَدَ، ثُمّ دُخولَه في امتحانٍ آخَرَ في ولدِه، بعدَ امتِحانِه معَ قومِه وكِفاحِه مَعَهُم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَلِيمٍ﴾: أَصْلُ الحِلْمِ - بِكَسْرِ الحاءِ -: التَّأَنّي والصَّبْرُ، يُقال: حَلُمَ، يَحْلُمُ، حِلْمًا، فهو حَليمٌ، أيْ: تَأَنّى وصَبَرَ ولَمْ يَتَعَجَّلْ. ويَأْتي الحِلْمُ بِمَعنى السُّكونِ وضَبْطِ النَّفْسِ[1]، فيُقال: تَحَلَّمَ فُلانٌ، أيْ: تَكَلَّفَ ضَبْطَ النَّفْسِ. والحَليمُ: الَّذي لا يسْتَخِفُّهُ عِصْيانُ العُصاةِ، ولا يَستفِزُّهُ الغَضَبُ عَلَيْهِم، ولكنَّهُ جَعَلَ لكلِّ شَيْءٍ مِقْدارًا[2]، ومن مَعانيهِ أيضًا: العَقْلُ، والعِلْمُ[3]، وضِدُّهُ: العَجَلَةُ، والجَهْلُ، والسَّفَهُ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(3) ابن سيده، المخصّص: 1/ 251، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).

2) ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾: الجذر (سعي) وهو المشي السّريع، وهو دون العدوّ، ويُستَعمل للجدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثر ما يُستَعمل السَّعْيُ في الأفعال المحمودة، وخُصَّ المشي فيما بين الصَّفا والمروة بالسَّعي، وخُصَّت السّعاية بالنميمة، وبأخذ الصَّدقة، وبكسب المكاتب لعتق رقبته، والمساعاة بالفجور، والمسعاة بطلب المكرمة والمقصود بـ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ هنا: أدرك ما سعى في طلبه[1].

3) ﴿ٱلۡمَنَامِ﴾: الجذر (نوم)، وهو استرخاء أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل: هو أن يتوفّى اللّه النّفس من غير موت، وقيل: النّوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل، ورجل نؤوم ونُوَمَة: كثير النّوم، والمَنَام: النّوم، وهو المقصود هنا[2].

4) ﴿أَذۡبَحُكَ﴾: (ذبح) أصلٌ يدلُّ على الشَّقِّ[3]، فالذَّبْحُ: شَقُّ حَلْقِ الحيواناتِ[4]، ويُقالُ: ذَبَحْتُ فأرةَ المِسْكِ، أيْ: شقَقْتُها، تشبيهًا بذلكَ، وتُسمَّى الأخاديدُ مِنَ السَّيلِ مَذابحَ[5]، والمقصود بـ ﴿أَذۡبَحُكَ﴾: أُمِرْتُ بذبحك[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المِنَـحُ في خَبايا المِحَنِ والعَطايا في خَفايا البَلايا

يُبيِّن هذا المَقطعُ القرآنيُّ من قِصّةِ إبراهيمَ الخليلِ، ما آلَ إليهِ ﵇ بعدَ ذلكَ الابتلاءِ الَّذي وقَعَ فيه معَ قَومِه فنجَحَ، إذ أمرَه تعالى بهَجْرِ قَومِه، فذهَبَ حيثُ أُمِر، فذَهبَ إلى بلادِ الشّامِ، ثُمّ دعا ربّه في الأرضِ الجديدةِ، وقال: يا ربّ، ارزُقْني ولدًا صالحًا يكونُ لي عَونًا وعِوَضًا عن قَومي في الغُربة. فاستَجبْنا لَهُ دعوتَهُ فأخبرْناه

(1) الراغب، المفردات، ص: 411.
(2) الراغب، المفردات، ص: 830.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذبح)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (ذبح).
(4) الراغب، المُفرَدات: (ذبح).
(5) السمين، عُمدة الحُفّاظ: (ذبح).
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 407.

بما يَسُرُّه، حيثُ بشّرناهُ بولدٍ يَكبَرُ، ويَصيرُ حَليمًا، وهذا الولدُ هو إسماعيلُ عليه السلام. فلمّا شَبّ إسماعيلُ، وأدرَكَ سعيَه سعيَ أبيهِ، رأى أبوهُ إبراهيمُ رُؤيا، ورُؤيا الأنبياءِ وحيٌ، قال إبراهيمُ مُخبِرًا ابنَه عن فَحوَى هذه الرُّؤيا: يا بُنَيَّ، إنّي رأيتُ في النَّومِ أنّي أذبحُك، فانظُرْ ما تَرى في ذلكَ، فأجابَ إسماعيلُ أباهُ قائلًا: يا أبي، افعَلْ ما أمرَكَ اللّهُ به مِن ذَبحي، ستَجِدُني بمَشيئةِ اللّهِ من الصّابرينَ الراضينَ بِحُكم اللّه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودَلالتُها:

بَعدَ المُكابَدةِ يأتي الإيواءُ إلى الرُّكنِ الشَّديدِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ عطفٌ على جملةٍ مقدّرةٍ مستأنَفة؛ أيْ: (فخَرجَ مِن النّار سالمًا، وقال إنّي ذاهبٌ إلى ربّي)(2)، والعطفُ يَظهَرُ أنّه من عطفِ الحدَثِ على الحدَثِ في القصّة الواحِدة، فلمّا ذَكرَ الحدَثَ المُتعَلِّقَ بتكسيرِ الأصنام، عَطفَ حدَثًا آخَرَ وهو الذَّهابُ والهِجرةُ لِعبادةِ اللّهِ وحدَه، والحدَثانِ المُتعاطِفانِ متعَلِّقانِ بقصّةٍ واحدةٍ وهي قِصّةُ إبراهيمَ عليه السلام.

بلاغةُ التّوكيد:

توكيدُ القائِلِ لنَفسِه لحَثِّها على العَملِ وتَركِ الكسَلِ

تصديرُ الجُملة بتأكيدِ (إنّ)، مع التَّعبير بالاسميّة دونَ الفِعلية؛ وذلكَ لتحقيقِ مضمونِ الجُملة، والعنايةِ بمعناها؛ إذْ معناها أن يَعتَنيَ العبدُ بتصحيحِ قصدِه إلى اللّهِ، وتحقيقِ نيّتِه إليه سُبحانَه على أكملِ وجهٍ في ثِقَةِ القَلبِ، وأوفى ذِكْرٍ في مَنطوقِ اللِّسانِ، فالتّأكيدُ هو تأكيدُ القائِلِ مَضمونَ القَولِ لنفسِه، لحثِّها على العملِ، وتنشيطِها على الاستِمرار.

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 419، ومركز تفسير، المختصر في التّفسير، ص: 489.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 160.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ذَاهِبٌ﴾:

الذَّهابُ مُتاركةٌ تامّةٌ ومُفارَقةٌ كامِلةٌ

جاءَ التّعبيرُ بلَفظِ الذَّهابِ في قولِه تعالى: ﴿ذَاهِبٌ﴾؛ للدّلالةِ على الانتقالِ بالحالِ والبدَنِ إلى مَوضِعٍ غيرِ مَوضِعِ قومِه، فالذّهابُ: (انتقالٌ وزوالٌ وإزالةٌ)[1]، انتقالٌ وتحوّلٌ في القصدِ والنّيّةِ والبدَنِ، وزوالٌ عن المكانِ بالهِجرةِ مِنه، وإزالةُ الأبدانِ مِن مَواقِعِ الأعداءِ وإزاحتُها عن أوطانِ السّوءِ، وهذا كلُّه حصَل لإبراهيمَ ﷺ، بذَهابِه مُهاجِرًا من أرضِ العِراقِ إلى أرضِ الشّامِ.

دَلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

مَن وُفِّقَ لتحقيقِ القَصدِ، فقدْ أوشَكَ أن يَصِلَ

عُدّيَ اسمُ الفاعِلِ بحَرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ لِدُخولِه على مُنتهَى الغايةِ، وهو اللّهُ سُبحانَه، ولو أدخلَه على الوسيلةِ، لعَدّاه بالباءِ؛ أيْ: (ذاهبٌ بعِبادتي وديني)، ولكنّه حَذَف الزّادَ الموصِّلَ إلى الغايةِ؛ للدّلالةِ على شِدّةِ قربِه ﷺ وضمانِ الوصولِ. ولِلإشارةِ إلى أنّ العبدَ بمجرّدِ انعقادِ القصْدِ يبلُغُ، فالقَصدُ هو أصلُ الوسائِلِ إليه، والقصدُ مشمولٌ ومتحقِّقٌ ومؤكَّدٌ في معنى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾.

نكتةُ تقديمِ الغايةِ على الوسيلةِ:

مَن قَصدَ اللهَ في النّيّةِ ألهَمَهُ الهِدايةَ في الأعمالِ

قُدِّم ذِكرُ الغايةِ وهو الذّهابُ إلى اللّهِ تعالى، على الوَسيلةِ وهي الهدايةُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ لِلإشارةِ إلى نُكتةٍ بديعةٍ، وهيَ أنّ العَبدَ يذهَبُ إلى اللّهِ أوّلًا بقَصدِه، ثُمَّ يُلهِمُه اللّهُ الزّادَ والوسيلةَ مِنَ العِباداتِ والهِداياتِ، ولذلكَ قال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فجَعَلَ الهِدايةَ للعِبادةِ والإحسانِ وإلى غيرِ ذلكَ مِن الوسائلِ مُؤخَّرا عن الغايةِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ ليَدُلّ على أنّ الوسائِلَ إليه، إنّما هي مِنه.

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذهب).

بَلاغةُ المَجازِ بينَ الإرسالِ والحَذفِ:

اللهُ مِنْ وراءِ كلِّ قِبْلةٍ وقَصْدٍ

في قولِه تعالى: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ جَعَلَ الذّهابَ إلى الأرضِ والمَكانِ ذَهابًا إليهِ سُبحانَه؛ مُبالَغةً في الامتِثالِ وتعظيمًا لشأنِ المأمورِ، حيثُ أطلَقَ الآمِرَ، وأرادَ المأمورَ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا لعَلاقةِ الأيلولةِ، فذكَرَ المَآلَ وأرادَ المَكانَ، ولمّا كانَ الذّهابُ إلى العِبادةِ ومَوضعِ الهِجرةِ والاعتِصامُ بالدّينِ أعمالًا تؤولُ إلى غايتِها عندَ اللهِ، جَعَلَ الذّهابَ والتوجُّهَ إلى مَآلِ سَعيِه وهو اللهُ سُبحانَهُ[1]، فذَكَرَ المَقصِدَ الخِتاميّ، لأنّ جَميعَ الأعمالِ مَنوطةٌ به.

ويصِحّ أن يكونَ التَّركيبُ على تقديرِ مُضافٍ؛ أيْ: (ذاهبٌ إلى مأمورِ ربّي) أيْ: (إلى حيثُ أمرَني أن أذهَبَ). لكنّ تقديرَ المُضافِ يُفَوّتُ وجْهَ المُبالَغةِ[2]، فيكونُ مَجازًا بالحَذفِ.

بلاغةُ إيثارِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ علَى الألوهيّةِ:

لا خــذلانَ ولا حِرمانَ في وُجودِ الرَّبِّ الرَّحمنِ

جاءَ ذِكرُ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، ولَم يَقُل: (إلى اللهِ)؛ لتطمئنَ نفْسه عليه السلام بسابِقِ الإحسانِ عليه، وعادةِ ربّه معَه، ولإظهارِ مَعنَى الطّمَعِ، كأنّه حينَ يقولُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، يقولُ: (ذاهبٌ إليه طامِعٌ في تحقيقِ قَصدي منه)، ويكأنّ التَّعبيرَ بالرُّبوبيّةِ تَمهيدٌ للجَزْمِ والتَّوكيدِ في قولِه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فهو يُمهِّدُ للقَطعِ في حُصولِ الهِدايةِ، بِذِكرِ الرُّبوبيّةِ، وإضافتِها إلى ضميرِه، ﴿رَبِّي﴾؛ أيْ: (ربّي الَّذي أحاطَني بألطافِ رُبوبيّتِه فَلا أخافُ معَ تلكَ الإضافةِ خِذلانًا أو ضَياعًا). ولذلكَ قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: 81]، وأيضًا: الرُّبوبيّةُ مُقتضاها التَّدبيرُ، وهو الآنَ مُحتاجٌ إلى مُدَبِّرٍ يُدَبِّره إلى ما فيه مَصلحتُه، فقالَ: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[3].

---

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(3) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 222.

نُكتةُ إضافةِ لَفظِ الرُّبوبيّةِ إلى الضّميرِ:

كلٌّ يَأوي إلى مَن يَنتَسِبُ إليهِ ويَتوكَّلُ عليه

أُضيفَ لَفظُ الرُّبوبيّةِ إلى ضميرِ المُتكلِّمِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، للتّعطُّفِ والتّحنُّنِ؛ لأنَّ الرُّبوبيّةَ المُضافةَ إلى ضميرِه هي الرُّبوبيّةُ الخاصّة؛ يَعني: (إنّي ذاهبٌ إلى الرَّبِّ الَّذي أرجو منه أن يَهديَني ويَدُلّني على الخَيرِ)(1)، وفيه بيانُ الانتِسابِ الحقيقيِّ للمُؤمِنِ، فإذا ذَهَبَ قومُه إلى أصنامِهم، فهو ذاهبٌ إلى ربِّه، وشتّانَ بينَ الذّهابَين، والمَقصودَين.

بلاغةُ الجُملةِ الفِعليّةِ ومَوقِعُها:

ربطُ الأفعالِ بِعِلَلِها خِطابٌ مُقنِعٌ للباطِلِ مُقشِعٌ

الجُملةُ الفِعليّةُ ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ هي استئنافٌ بَيانيٌّ، كأنّ حالَهُ أثارَ في ذِهنِ سامِعِه سُؤالًا: (كيفَ تَضمَنُ لنَفسِكَ تَحقيقَ قَصدِكَ؛ وأنّى لكَ بذلكَ في أرضٍ جديدةٍ لم تَعهدْها؟) فأُجيبَ: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾. والجُملةُ على هذا تَعليليَّةٌ لقولِه تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ كأنّه قيل: (إنّي متوجّهٌ إلى ربّي؛ لأنّه سيهدين)(2)، فهو ربطٌ للأفعالِ الظّاهرةِ بالعِلَلِ الباطِنة.

نُكتةُ دُخولِ السّينِ على الفِعلِ:

السّينُ في قولِه تعالى: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ تدُلّ على تأكيدِ الحُدوثِ في المُستقبَل، معَ القُربِ في الاستقبال(3)، وهي تدلُّ على شدّةِ ثِقتِه باللّهِ تعالى وأنّها قريبةٌ مِنه لا بعيدةٌ.

مَوقِعُ جُملةِ النّداءِ بعدَ جُملةِ الإخبارِ:

الهداياتُ بَريدُ الهِباتِ والهِباتُ بِدايةُ رَفعِ الدّرجاتِ

جُملةُ ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن تَمامِ قولِه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، فإنّه بَعدَ أن أخبرَ أنّه مُهاجِر، استَشعَرَ قلّةَ أهلِه وعُقمَ امرأتِه، وثارَ ذلك الخاطِرُ في نفسِه عندَ إزماعِ الرّحيلِ؛

---

(1) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصّافّات، ص: 222.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 260.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 292.

لأنّ الشُّعورَ بقِلّةِ الأهلِ عِندَ مُفارَقةِ الأوطانِ يَكونُ أقوَى؛ لِأنّ المَرءَ إذا كانَ بَينَ قَومِه كانَ له بعضُ السُّلْوانِ بِوُجودِ قَرابتِه وأصدقائِه. فكأنّ المَعنى: (وقال إنّي ذاهبٌ إلى ربّي، وقال ربِّ هَبْ لي مِن الصّالِحينَ)، وقَولُه: ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ - على وجْهٍ - بينَ مَقولِ القَولِ الأوّلِ ومَقولِ القَولِ الثّاني المُقدَّر بِجُملةِ النّداءِ وجوابِه؛ أيْ: (قالَ يا ربِّ هَبْ لي)[1].

نوعُ اللّامِ ودَلالتُها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿هَبۡ لِي﴾ للاختِصاص؛ أيْ: (خُصَّني يا ربِّ على سبيلِ الهِبةِ مِنكَ بِوَلدٍ صالحٍ)، والاختِصاصُ مُشعِرٌ بشَديدِ الحاجةِ، والطّمَعِ بالكَرَم.

علّةُ حَذفِ مَفعولِ فِعلِ الهِبةِ:

دُعاءُ الأصفياءِ يَخلو مِنَ الإطنابِ والتّفصيلِ

حُذِفَ مفعولُ فِعلِ الهِبةِ في قولِه تعالى: ﴿هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والمَعنى: (هب لي غلامًا)، فحُذِف المَعمولُ؛ لتمحيضِ الدُّعاءِ في كونِه مِن الصّالحين، ولِدَلالةِ الهِبةِ عليه؛ فإنّها في القرآنِ وكلامِ العَرب يغلِبُ استعمالُها مع العُقَلاءِ في الأولادِ، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم: 53] فمِن غَيرِ الغالبِ، لِأنَّ المُرادَ بها هِبةُ نُبوّتِه، ويدُلّ على المَعمولِ المَحذوفِ قولُه تعالى بعدَه في اللَّحاقِ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾؛ فإنّه ظاهرٌ في أنّ ما بُشِّر به إبراهيمُ هو عيْنُ ما استَوهَبَهُ مِنَ اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كأنّ المعنى: (رَبِّ هب لي غلامًا من الصالِحين، فبشَّرناه بذلكَ الغُلامِ الّذي طلَبَه من اللّه هِبةً له)[2]؛ فالحذفُ لِدَلالةِ مَعهودِ الاستِعمالِ القُرآنيِّ عليه، ولِأنّه مُشارٌ إليهِ في السّياقِ، ولِأنّ الطَّلَبَ بعدَ الهِجرةِ مُشعِرٌ بذلك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 148، وصافي، الجدول: 12/ 74.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 122.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ الهِبَة:

جاءَ استِعمالُ مُفرَدةِ الهِبةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ ليَدُلّ على أنّه يرجو مطلوبًا لا سَبيلَ له إليهِ مِن طريقِ الأسبابِ الاعتياديّة، فابتَغى مِن ربِّه إيصالَ ما لا طاقةَ له به، إلّا بتيسيرٍ مُعجِزٍ مِن لَدُنْهُ سُبحانَه[1]، وقد شاعَ استعمالُ مُفرَدةِ الهِبةِ في طلَبِ الأولادِ في القرآنِ الكريمِ، فهَبٌ مَحضُ هبةٍ من اللّه تعالى، لا قُدرةَ للعَبدِ عليها إلّا بتوفيقٍ منه ورَحمةٍ وإرادةٍ.

التّعلُّقُ باللّه مِن طريقِ الوَهّابِ لا مِن طريقِ الأسبابِ

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيانيّةٌ للحالِ المُبهَمَةِ للنّوعِ؛ أيْ: (ولدًا شأنُه الصّلاحُ، وأنْ يكونَ في قابلِ أيّامِهِ مَعدودًا في الصّالحين).

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

(ال) في لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مَوصولةٌ، فهيَ في معنى: (الَّذين صلَحوا)، وهذهِ إذا دخلَتْ على الوَصفِ المُشتَقِّ كاسمِ الفاعلِ، أفادتِ الكمالَ في الوَصفِ؛ أيِ: (المتحقّقينَ بالصّلاحِ)[2]، ولذلكَ لَم يكُن طلَبُه للوَلدِ فحسْبُ، بل للوَلدِ المتّصِفِ بالصّلاحِ، وهذا فقهٌ في الدُّعاءِ عَجيبٌ، أن يطلُبَ العبدُ مِن اللّهِ تعالى الصّالحَ مِن الذُّرّيّة دونَ أن يَذكُرَ الذُّرّيّة.

الولدُ الصّالحُ خيرُ عطاءٍ ولذلكَ كانَ مَسؤولَ الأنبياءِ

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها الرّابِطةُ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ عطفٌ على مُقدّرٍ لازمٍ عن الجُملةِ الدّعائيّةِ في قولِه: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أيْ: (فتسبَّبَ عن دعائِه وترتّبَ عليه استجابتُنا له، فسُرعانَ ما بشّرناه بغُلامٍ صالحٍ حليمٍ)، فدُخولُ الفاءِ للتَّفريعِ على الدّعاءِ[3].

التّعقيبُ بالبُشرَى بعدَ الاستجابةِ فوريّ، والتّعقيبُ بالبُشرَى بَعدَ الدّعاءِ نِسبيّ

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وهب).

(2) حاتم جلال التّميميّ، (ال) التّعريف الدّالّة على الكمال، ص: 23.

(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 261، والجَمل، حاشية الجمل: 3/ 546، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 161.

وفي العطفِ بها دونَ غيرِها إشارةٌ إلى سُرعةِ استِجابةِ المَولَى الكريم لِدُعاءِ الخليل ﷺ، فتُفيدُ التَّعقيبَ الفَوريَّ على الدّعاءِ بالاستجابةِ والتّحقيقِ، والتعقيب هنا ليس نِسبيًّا؛ لأنّ الفاءَ في: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ فَصيحةٌ معطوفةٌ على مُقدَّرٍ مَحذوفٍ، على مَعنى: (فاستَجَبْنا له، فبشَّرناه)، ولا ريبَ أنّه بِمُجرّدِ الاستجابةِ حصَلَ التَّبشيرُ، فالتَّعقيبُ بالبُشرى بعدَ الاستجابةِ فَوريّ، والتَّعقيبُ بالبُشرَى بعدَ الدّعاءِ نِسبيّ؛ لأنّ الاستِجابةَ تَتخلّلُهما.

نوعُ الباءِ ومَعناها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ﴾ على بابِها مِنَ التَّعديةِ، ولا يَنفَكّ معنى الإلصاق عنها؛ أيْ: (بشّرناهُ بُشرى مُلتصِقةً بخَبرِ الغُلام).

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ المَولودِ بالغُلامِ:

الإيماءُ إلى شأنِ الـغُـلامِ عِـنـدَ بُلوغِه

جاءَ التَّعبير عن المَولودِ بالغُلام في قولِه تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ﴾؛ ليدلّ على أنّه ذكَر، وأنّه في غايةِ القوّة الّتي ينشَأ عنها الغِلْمَة، وهي الشدّة والحدّة، والنّضج الّذي تنشأ عنه الفُحولة، ففي التَّعبير عن الوليدِ بالغُلام إشارةٌ إلى كمالِه في جِنسِه[1]، وإلى أنَّ له شأنًا حينَ يُصبِحُ غُلامًا معَه، وهي ما ستُبيِّنُه الآياتُ اللّاحِقة، وفي التّعبير بلفظِ الغُلام إدماجٌ لبُشرَيَيْن في بُشرى واحِدةٍ؛ فالبُشرَى الأولَى أنّه سَيولَدُ، والبُشرَى الثّانيةُ أنّه سيَكبَرُ حتّى يَصيرَ غُلامًا بالِغًا[2].

بلاغةُ الكِنايةِ في الوَصفِ بالحِلْمِ:

الحِلمُ مَطلَب عَزيزٌ جامِعٌ بينَ أعالي الأخلاقِ وأرفَعِ الصِّفاتِ

وَصفُ الغُلامِ بأنّه ﴿حَلِيمٍ﴾ كِنايةٌ عن سَوائِه الخُلُقي، بعدَ الدّلالةِ على سَوائِه الخَلْقيّ بقولِه: (غُلام)؛ فَوصفُهُ بالحِلْم عبارةٌ عن سائِرِ مَناقِبِه وكرائِمِه الأخلاقيّةِ؛ لأنّ الحِلمَ يَستلزِمُها، أو

(1) السَّمِين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (غلم)، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 261.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلم).

لأنّ الحِلْمَ أجمَعُها. وفي وصفِه بالحِلْم إشارةٌ إلى أنّه سيُبْتَلَى، ثُمّ يكونُ حَمولًا في بلائِه، فَلا يَظهَرُ الحِلمُ إلّا في المَواقِفِ العَصيبةِ، والمَشاهِدِ الكَبيرةِ.

تَوجيهُ تخصيصِ صِفةِ الحِلْمِ بالذِّكْر:

مُجازاةُ الخَليلِ بالابنِ الحَليمِ عِندَ الذّبحِ على مُعامَلَةِ والِدِه بالحِلمِ عِندَ الدّعوةِ

جاءَ وصفُ الغُلامِ بأنّه ﴿حَلِيمٍ﴾ دونَ بقيّة الأوصافِ كالإيمانِ والصَّبرِ والعِلمِ والانقيادِ والخُضوعِ، وذلكَ لِتَبشيرِ الخليلِ عليه السلام بأنَّه ابنُه يُشابهُه في حِلمِه، فإنّ الخَليلَ وُصِفَ بالحِلم في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ١١٤﴾ [التوبة: 114]، ولَم يُشبِهْه فقطْ في صِفةِ الحِلْم، بل أشبهَهُ في مُلابَساتِ تلكَ الصّفةِ، فإنّ اللّهَ وصَفَ إبراهيمَ بالحِلْم عَقِبَ مُجاراتِه لأبيه وصَبرِه مَعَه رَجاءَ أنْ يَهتديَ، ووصَفَ إسماعيلَ بالحِلم في مُجاراتِه لأبيه وصَبرِه معَه على أمرِ اللّه بالذّبح، فما ظَهَر حالُ الحِلم لإبراهيمَ بينَه وبينَ أبيه، فكذلكَ كان حِلْمُ إسماعيلَ بينَه وبينَ أبيه إبراهيمَ عليه السلام، ويكأنّ اللّهَ جَزَى إبراهيمَ بِحلمِه مع أبيه، ولدًا صالحًا يَحلُمُ عليه ويُهوِّنُ عليه العزائمَ، كما كان إبراهيمُ تمامًا مَعَ أبيه هيّنًا ليّنًا غيرَ حادٍّ ولا شديدٍ، فنِعْمَ الشَّبَهُ، ونِعْمَ الجَزاءُ، ونِعمتِ العِبْرَةُ!

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فَعيل):

كانَ إسماعيلُ عليه السلام كثيرَ الحِلمِ ودائمَ الحِلمِ

جاء بناءُ صفةِ ﴿حَلِيمٍ﴾ على زِنَةِ (فعيل)، وهي صيغةُ مُبالَغة، بمعنى (كَثير الحِلْم)، أو صِفةٌ مُشبَّهة، بمعنى: (دائم الحِلم) و(فَعيل) في المُبالَغةِ تدُلّ على تَكرارِ الفِعلِ واعتيادِه وإلْفه، وفي الصِّفةِ المُشبّهةِ تَجري مَجرى الخُلُقِ الثّابتِ ثُبوتَ الطّبْعِ والجِبلّةِ والعادةِ[1]، والآيةُ صريحةٌ في أنّ حِلْمَ هذا الغُلامِ قد خُلِقَ معَهُ، فقَد وُلِدَ جَميلَ الأخلاقِ، ولا مانِعَ مِن إرادةِ دَلالةِ المُبالَغةِ والصِّفةِ المُشبَّهةِ، فإنّ النّكاتِ لا تتزاحَمُ.

---

(1) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 83، ص: 102.

بُلوغُ السّعي يَستَلزِمُ صَلاحًا في الخِلْقةِ والخُلُق

نَوعُ الفاءِ ودَلالتُها الرّابِطةُ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ﴾ هي الفَصيحةُ، عاطفةٌ مَدخولَها على مَحذوفٍ مُقدّر؛ أيِ: (فوُلِدَ له غلامٌ كما هو وعدُ البُشرَى، فكبِرَ وترعرَع في حِجْرِ أبيه، فلَمّا بلَغَ معَهُ السَّعيَ)[1]، والنّظْمُ يَطوي الأحداثَ لتَمحيضِ الكَلامِ بالمَقصودِ.

مَعنى (لمّا) ودَلالتُها السّياقيّة:

البُلوغُ الجُسمانيُّ يُنادي على البُلوغِ النّفسانيّ

(لمّا) في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ﴾ هي الحينيّةُ الشَّرطيّةُ غيرُ الجازمةِ، وهي تَستدعي فِعلَين ماضيَين؛ الأوّلُ فِعلُ الشَّرطِ والثّاني جوابُ الشَّرطِ، وتُفيدُ الظّرفيّةَ الزّمانيّةَ، ومعنى شَرطيّتِها موجَب: فهي أداةُ وجودٍ لوُجودٍ؛ أيِ: (وجود الجَوابِ لوُجود الشَّرطِ)، فهي تفيد تَحقُّقَ الجوابِ بتحقيقِ الشَّرطِ، ومعنى التّحقّق ظاهرٌ في مَجيءِ فَعلَي الشَّرطِ وجَوابِه ماضيَين، وهي ظَرفيّةٌ بمَعنَى (حين)، فحينَ وقعَ الشَّرطُ حصَلَ الجَوابُ، فحينُهُما واحِد، ولِذا جاءا ماضيَين، وليسَ معنى اتّحادِهما في الحين هُنا في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ أنّ الجوابَ حصَلَ بمُجرّدِ حُصولِ الشَّرطِ، فإبراهيمُ عليه السلام لَم يَقصُص مَنامَهُ على إسماعيلَ بمُجرّدِ أنْ بلَغَ معَهُ السّعي، بلِ المُرادُ أنّه لمّا قصّ ذلكَ عليه، وافَقَ ذلك زمنَ بُلوغِه، فزَمانُ بُلوغِه السّعيَ زمانٌ مُمتَدٌّ، ومَنامُ إبراهيمَ عليه السلام حصَلَ في فترةٍ منه، فيكونُ الجَوابُ واقعًا في زمانِ الشّرطِ؛ لِأنّ الجَوابَ حصَلَ في قِطعةٍ منه[2].

البلاءُ يُجاذِبُ أهلَه، فإمّا يُعالِجونَه بالصّبر، أو يُساكِنونَه بالضّجَر

نُكتةُ استِعمالِ أُسلوبِ الشَّرطِ:

جاء التّركيبُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ﴾ على أُسلوبِ الشَّرطِ، ولَم يجِئْ بالخَبرِ المَحضِ، كأنْ يقولَ: (وبلَغَ معَهُ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 199.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 627.

السّعيَ وقال له رأيتُ في مَنامي كذا)؛ لِأنّه تعيينٌ لتوقيتِ إعلامِ إبراهيمَ ولَدَه إسماعيلَ برُؤياهُ، بتعليقِه على حينِ بُلوغِه السّعيَ معه، فبالشّرطِ بان حرجُ ذلك التّوقيت، فتجلّتْ به خطورةُ ذلكَ المَوقفِ بينَ الابنِ وأبيه، كأنّه بأُسلوبِ الشّرط أفادَنا بأنّ ذلكَ الإنباءَ بالمَنامِ حصَلَ في لحظةٍ فارقةٍ في عُمرِ الابنِ، وفارقةٍ في حياةِ الوالِدِ، وهي بُلوغُ سَعيه، وهي اللّحظةُ الّتي يَزدادُ فيها تَمسُّكُ الوالِدِ بوَلَدِه، ويَتبادَلُ فيها كلٌّ منهُما الحِرصَ على الآخَرِ، ولولا تَجليةُ ذلكَ بأُسلوبِ الشّرطِ، ما اتّضَحَ مَكمَنُ الابتلاءِ وشِدّتُه وعُمقُه في تلك الحادثة.

بَراعةُ ذِكرِ ظَرفِ المَعيّة:

عِنـدَ شِـدّةِ الاقـترابِ تَـزدادُ لَوعةُ الفِراقِ

آثَرَ النّظمُ الكَريمُ ذِكرَ ظَرْفِ المَعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ﴾ فلَم يقل: (فلمّا بلَغَ السّعيَ قال)، بل قَيّدَ بُلوغَ إسماعيلَ السعيَ بكونِه معَ إبراهيمَ، وعِلّةُ ذلك بيانُ أنّ إسماعيلَ كان بحَضرةِ أبيهِ في حِجْرِه وحِضْنه، لمّا بلغَ السّعيَ، وأنّه إذْ بَلَغَ تلك السِّنّ، فقد بلَغَها على عيْنِ إبراهيمَ ورعايته، وذلكَ أدعَى للشّفَقةِ على تضحيَتِه بوَلدِه، وأعسَرُ على إبراهيمَ أن يُفرّطَ فيه وقد شَبّ على يدَيه وفي كنَفِه، فإنّه بقَدْرِ شدّةِ القُربِ تكونُ الفاجعةُ مِنَ الفِراق، وتعظُمُ الفاجعة إذا كانت بيَدِ أحدِ القَريبينَ مُضطرًّا، فالمَعيّةُ المَذكورةُ شاهدةٌ على عظيمِ المُصابِ، وهَوْلِ الاختِبارِ بذلكَ، والمَعيّةُ تُفيدُ شِدّةَ التعلُّقِ والانضمامِ من جهةِ الولدِ بأبيه، فاستِشارةُ أبيه له في أن يذبَحَهُ من المُحطِّماتِ القاصِمة للوَلَدِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بفِعلِ ﴿بَلَغَ﴾:

أصعَبُ البَلاءِ ما حَضَرَ ساعةَ الحَصادِ

استِعمالُ لفظِ ﴿بَلَغَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ يدُلُّ على الانتهاءِ التّامِّ إلى الغاية، كأنّه قيلَ: انتَهى معَهُ إلى أن صارَ يسعَى، فلَفظُ: ﴿بَلَغَ﴾ يدُلّ على كمالِ إسماعيلَ في تلكَ السِّنّ، فيَجوزُ تقريرُ المَعنى على تقديرِ مُضافٍ؛ أيْ: (بلَغَ معَه كمالَ السّعي)، أو التّعبيرُ

بالمَصدرِ نفسِه يدلُّ على الكمالِ وقوّةِ التحقّق؛ أيّ: (بلغَ معَه السّعيَ الكاملَ الّذي يرضاهُ الأبُ لابنِه، فيَرفَعُ يدَه عنْه بعدَ بُلوغِه إيّاه اطمِئنانًا عليه أنْ بلغَ سِنًّا يكونُ فيها الولَدُ ظَهيرًا لأبيهِ، ويكونُ بها الوالِدُ غيرَ مَضْنيٍّ على ابنِه).

نُكتةُ حَذفِ مُتعلَّقِ الظّرفِ:

الحذفُ يَكونُ للمَعلومِ من السّياقِ والمؤيَّدِ مِن النّظْمِ

ظَرفُ المَعيّةِ في قولِه تعالى: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفِ حالٍ من فاعِلِ ﴿بَلَغَ﴾، وهو إسماعيلُ عليه السلام؛ أيّ: (بلَغ السعيَ كائنًا معه)، وهو حالٌ على سبيلِ البَيانِ، كأنّ قائلًا قال: (معَ مَن بَلَغ السعيَ؟ فقيل: معَ أبيه). ولا يصِحُّ أن يتعلَّق بفعِلِ ﴿بَلَغَ﴾؛ لاقتضائِه بُلوغَهُما معًا حدَّ السّعيِ؛ ولا معنى لذلِكَ في حقّ إبراهيمَ عليه السلام، ولا يتعلّق بـ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾؛ لأنّ متعلِّقَ المَصدرِ لا يتقدّمُ عليه. ومَن يَرى التوسّعَ في الظّروفِ، يَجعَلِ المَعيّةَ مُتعلِّقةً بـ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾[1].

نُكتةُ تقديمِ الظّرفِ:

قُدِّم الظرفُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ ولَم يقُل: (بلغَ السَّعيَ معَه)، وذلكَ للاختِصاصِ والعِنايةِ؛ أيّ: (بلغَ السّعيَ معَ أبيهِ خاصّةً، حالَ كونِه مُصاحِبًا له)[2].

نُكتةُ تخصيصِ إسماعيلَ بمَعيّةِ أبيهِ:

مَن وجدَ الخليلَ استغنَى بصُحبَتِه عن صُحبةِ مَن سِواه

خَصّ السّياقُ ذِكرَ مَعيّةِ إسماعيلَ لأبيهِ دونَ غَيرِه في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾؛ وذلك لأنّ الأبَ أكمَلُ في الرّفقِ والاستِصلاحِ له، فلا يَطلُبُ مِنه السّعيَ قبلَ أوانِه، أو لأنّه استَوهَبَه مِن اللّهِ؛ لأجْلِ أنْ يتَقوّى به، ويكونَ سببًا في استبقائِه، لا في زوالِه، ولا يكونُ ذلكَ إلّا ببُلوغِه السّعيَ معَه، فحتّى يرَى إبراهيمُ ولدَه ساعيًا، لا بُدّ

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 7/ 279، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 162.
(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263.

أن يكونَ معَه مُصاحِبًا له قبلَ ذلك[1]. وللدّلالةِ على تَبَعيّته لأبيه؛ لأنّه ليس صغيرًا، قد مكَثَ في مكانِه، وليسَ كبيرًا انفرَدَ بنفسِه، فالصّغيرُ الّذي في المَهدِ لا يَبلُغُ السَّعيَ معَ أبيه، والكبيرُ الّذي انفرَدَ يبلُغُ السَّعيَ لا معَ أبيه؛ لأنّه مُنفرِد، أمّا هذا فقد بَلَغَ مع أبيهِ السّعيَ، وكان مُلازِمًا له، وهذا أشدُّ ما يكونُ الأبُ تعلُّقًا بابنِه إذا كان في مِثْلِ هذهِ السِّنّ؛ لأنّ الصّغيرَ الّذي في المَهدِ لا تتعلّقُ به النّفسُ، والكبيرَ الّذي انفرَدَ - كذلك - لا تتعلّقُ به النّفْسُ، إنّما تَتعلّقُ بمَن كانَ في مِثْلِ هذه السِّنّ، وهذهِ مِن حِكمةِ النّظمِ في أسلوبِه؛ ليَتبيّن كيفَ أنِ ابتُلي إبراهيمُ عليه السلام عليهِ بهذا البلاءِ المُبين[2].

معنى(ال) في لفظِ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ لِحَقيقةِ الجِنسِ وماهيَّتِه، فهيَ تستَوعِبُ خصائصَ تلكَ المَرحلةِ في الجاهزيّةِ على الكَسْبِ، وانتِفاءِ الاعتِماديّةِ على الغَير.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾:

السّعيُ هو سِنّ الجاهزيّةِ والحَركةُ الحثيثةُ لتحقيقِ الغايةِ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ كنايةً عن الجِدّ في الأمرِ؛ لأنَّ السّعيَ هو الحَركةُ الحَثيثةُ إلى الغاية، والمَشيُ السَّريعُ إلى الهدَفِ، وغلَبَ استعمالُه في المَحمودِ مِن الأفعالِ؛ فعَبّر بالسّعيِ هُنا؛ ليدُلّ بهِ معَ لفظةِ ﴿بَلَغَ﴾ إلى إدراكِه ما سَعَى في طلَبه، فكأنّه يقولُ: (أتاهُ في سِنِّ الظَّفَرِ والتمكّن وزهرةِ العُمُر، فجاءَه بخَبرِ الموتِ وانتزاعِ الحَياةِ)، فلا يَخفَى ما في اللَّفظِ بمَضمونِه الدّالِّ على الحَركةِ والحَيويّةِ، مِن التّهويل لشأنِ الرُّؤيا الّتي رآها الخَليلُ لوَلدِه، والّتي تتضادّ تمامَ التَّضادِّ معَ تلكَ المَرحلةِ المُفْعَمَةِ المُزدَهِرةِ، فتُقابَل بالاجتثاثِ والتّعطيلِ والخُمودِ والإماتةِ[3].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 295.
(2) ابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 225.
(3) الرّاغب، المُفرَدَات، والسَّمِين، عُمدَةُ الحُفَّاظ: (سعى، سعي).

مَوقِعُ جُملةِ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، جوابُ الشَّرطِ غيرِ الجازِم في قولِه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾، والجُملةُ النّدائيّةُ: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ مقولُ القَولِ، وجُملةُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ جوابُ النّداءِ(1).

دلالةُ النّداءِ:

النّداءُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ واردٌ على جِهةِ الحقيقةِ، لِقَصدِ طلَب الإقبالِ عليه بخُصوصِ أمْرِ المَنامِ.

دَلالةُ تصغيرِ لَفظِ ابن:

التّحبُّبُ والتّلطُّفُ للوُصولِ إلى الأمرِ العَظيمِ يَحتاجُ إلى الصّبرِ العظيمِ

إنّما نادَى الخليلُ عليه السلام ابنَه بلفظِ التّصغيرِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تحنُّنًا إليه، وإقبالًا بالشّفَقةِ عليه، وتلطّفًا به، واستدعاءً لإقبالِه على مُرادِ أبيهِ منه، بوازِعٍ من الرّضا، فأبوه حينَ يقولُ له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بالتَّصغيرِ، فكأنّه يقولُ له: (يا صغيري) فيَسترضيهِ ويَتَودّدُ إليه بذلك النّداءِ؛ ليَستخرِجَ منه الرّضا وعدمَ الجزَعِ وعدَمَ النُّفورِ لما سيُلْقيه عليهِ من أمْرِ الرُّؤيا، وهي تَوطِئةٌ للأمرِ العَظيمِ الّذي سيُذكَرُ بعدَ ذلكَ، فهو تحنُّنٌ وتلطُّفٌ لِما سَيَقولُه مِن الرُّؤيا الّتي تأمُرُه بالذّبحِ.

بلاغةُ التّوكيدِ في جُملةِ جَوابِ النّداءِ:

صُدِّرت جُملةُ جَوابِ النّداءِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾؛ ليدُلّ بهِ على أنّ مَضمونَه يقينٌ وحقٌّ لا التِباسَ فيه، لا لإنكارِه بل لتوطينِ النّفس بِما رأى، وتحقيقِ الحَقّ بتنفيذِ المَطلوبِ.

نوعُ ﴿أَرَىٰ﴾ ومعناها:

فِعلُ ﴿أَرَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ﴾ من (رأى) المَناميّة، وهي (الرُّؤيا)، وهي تتعدَّى لَمفعولَين، وجُملةُ ﴿أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ مِن (أنّ واسمِها وخَبرِها) سدّت مَسَدّ مفعولَين(2).

(1) صافي، الجدول: 12/ 75.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 12، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 294.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرور:

الامتثالُ لرُؤيا المَنامِ امتِثالٌ لأمرِ ذي الجلالِ

قُدِّمَ شِبهُ الجُملةِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ﴾ ولَم يقُل: (إنّي أرى أنّي أذبحُكَ في المَنام)؛ لإفادةِ الاختِصاصِ والقَصرِ، فقَدَّم ﴿فِي ٱلْمَنَامِ﴾ عنايةً بِه، وقَطعًا لاحتِمالِ الرُّؤيةِ في اليقَظة؛ أيْ: (ذلك الّذي رأيتُه هو حاصِلٌ في المنامِ فقط، لا في غَيرِه)، ولتَعيين أنّها وحيٌ من اللّهِ تعالى، ولا بدّ مِنَ الامتِثالِ.

نُكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلْمَنَامِ﴾:

لَم يأتِ لفظُ (الرُّؤيا) معَ فِعلِ (أرى) في القرآنِ

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ استِعمالَ مُفرَدةِ ﴿ٱلْمَنَامِ﴾؛ للتَّصريحِ بفِعلِ الرُّؤيا في النَّظْم، وهو قولُه تعالى: ﴿أَرَىٰ﴾، فكأنّه قيل: (أرى رُؤيا في المَنام)، ولذلك لم تأتِ في القرآنِ (الرُّؤيا) مع الفعلِ (أرى)؛ لأنّ (الرؤيا) اسمٌ لِما يَراهُ النّائم، فلفظُ (الرُّؤيا) يدُلّ على الحُدوثِ الفِعليِّ وهو (أرى)، والفِعلُ (أرى) يدُلّ على المَرئيّ وهو (الرُّؤيا)، فيكونُ اقترانُهما تَكرارًا لا معنى له. وأمّا ذِكْر ﴿ٱلْمَنَامِ﴾ هُنا، فلا بدّ منه؛ لأنّ المنامَ هو مَوضِعُ الرُّؤيا، وزمانُها، فهو بَيانٌ لمَحَلّ وُقوعِ الفِعلِ ﴿أَرَىٰ﴾، واحترازٌ عن أنْ يكونَ من رُؤيةِ اليقَظة، فلا بدّ من ذِكْر ﴿ٱلْمَنَامِ﴾؛ لبَيانِ أنّ الرُّؤيةَ هي رُؤيةُ النّوم، لا رُؤيةُ الصّحوة، وبهِ يتَعيّن أنّها وحيٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارِع في: ﴿أَرَىٰ﴾، و﴿أَذْبَحُكَ﴾:

مِن أدَبِ العَبدِ اعتِبارُ الأمرِ التّكليفيِّ مُضارِعًا جاريًا حتّى يَقضيَهُ ويؤدّيَه

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَىٰ﴾، وقولِه: ﴿أَذْبَحُكَ﴾؛ ليدُلّ على استمرارِ حُكمِ هذهِ الرُّؤية، فالمُضارِعُ ﴿أَرَىٰ﴾ أبلَغُ مِن (رأيتُ)؛ لأنّ (رأيتُ) شيءٌ مَضَى، أمّا هذا فهو شيءٌ حاضِرٌ يدلُّ على الاستمرارِ، وأنّه سيُنفِّذ حُكمَ ما رأى؛ ليُبيّن أنّه مُستمِرٌّ على تنفيذِ حُكْمِ هذهِ الرّؤيا، وأنّ الرؤيا تُراوِدُه ليُنفِّذَها، أو قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، استحضارًا للصّورةِ الماضيةِ وهي تَحدُثُ، وتنزيلًا لها مَنزِلةَ الحالِ، كأنّه الآنَ يَرى أنّه يتلبّسُ بفِعل الذّبحِ وهو يُباشِرُه[1].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 263، وابن عُثَيمين، تفسير سورة الصَّافَّات، ص: 227.

توكيدُ المُستَبْعَدِ لِيَسوغَ في الأذهانِ ويقوى في الأركانِ

نُكتةُ التّوكيد:

صُدّرتْ جُملةُ ﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ بتوكيدِ مضمونِها؛ لأنّه مضمونٌ مستبْعَدٌ في العادةِ، فأكّدَه؛ ليَسوغَ في الأذهانِ أن تتوقّعَهُ وتَستجيزَه، فتَنتَقِل بذلكَ التّوكيدِ إلى حَدّ التّصديقِ والقَبولِ التّامِّ الّذي يَصونُ الإيمانَ، ويُثبِّتُ القُلوبَ[1]، والمقصودُ بالتّوكيدِ هوّ وابنُه، وذلكَ لتثبيتِ الأمرِ وتَقويَتِه في النّفْسِ، لا لِدَفعِ إنكارِه، فإنّ الإنسانَ يُؤكِّد لنَفسِه بغَرضِ تقويةِ الإقدامِ.

اعتمادُ مَبدأِ التّخييرِ للمُخاطَبِ للوُقوفِ على مَحاسِنِ الاختيارِ

نَوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فَصيحةٌ؛ أيْ: (ففكِّر في الأمرِ، فانظُرْ ماذا تَرى)، أو (إذا عَلِمتَ هذا فانظُرْ ماذا تَرى)، أو لِتفريعِ النّظَرِ على حِكايتِه الرُّؤيا له، كأنّه قيلَ: (ذلك ما رأيتُه، فانظُر ماذا تَرى)[2].

تَنزيلُ نظَرِ العَقلِ مَنزِلةَ نَظَرِ العَينِ استِعارةً تَصريحيّةً

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ النّظَر:

النّظَرُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ نظرُ العقلِ والاختيارِ، لا نظَرُ العَينِ والإبصارِ، فحَقُّه أن يتعَدّى إلى مَفعولَينِ، ولكنْ علَّقَه الاستِفهامُ عنِ العَملِ[3]. ويصِحُّ أن يُرادَ نظَرُ العَينِ على الاستِعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ بغَرضِ المُبالَغةِ، بتَنزيلِ نظَرِ العَقلِ مَنزِلةَ نظَرِ العَينِ مُبالَغةً في خَطرِ الأمرِ الّذي طُلِبَ منه التفكّرُ فيه، كأنّما صار عقلُه عيْنًا تُحدِّقُ فيما يواجِهُها من المُشاهَداتِ المَحسوسةِ؛ لِتَستبينَ بُؤرةَ جَوهرِه وحقيقتَه. ولا يَخفَى ما في ذلكَ مِن شِدّةِ امتزاجِ الحِرصِ المَسؤولِ الشّاقِّ مَعَ الإشفاقِ الوجِلِ الأسيفِ.

نوعُ الرُّؤيةِ ومعناها:

فِعلُ الرُّؤيةِ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ هي رُؤيةُ الاعتِقادِ والجَزمِ؛

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 151، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 163.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 151.

أيْ: (ما الّذي تَعتَقِدُه وتَجزِمُ به، فهي من (الرّأي)، كأنّه قالَ له: (ما الرّأيِ الّذي تَرْتَئيه). فليسَ ذلك من رُؤيةِ العَينِ المُتعَدّيةِ إلى مفعولٍ واحِد، ولا رُؤيةِ القَلبِ المُتعدّيةِ إلى مفعولَين، بل هذا رأيُ الفِكْرةِ المُعتَنَقةِ اعتِناقَ الدّينِ والعقيدةِ، وهذا المَعنى في الرُّؤيةِ بديعُ المُناسَبةِ في سياقِه؛ لِأنّ إبراهيمَ عليه السلام يستَخرجُ منه رأيًا في شأنٍ عقيديٍّ وامتحانٍ إلهيّ، فهو من تكاليفِ الدّينِ والاعتقادِ، وليسَ أدلّ على ذلك من صَيرورةِ تلكَ المِحنةِ إلى شَعيرةٍ ونُسُك[1]، وهو ما يُشيرُ إلى أنّ التّكليفَ والابتلاءَ كان لإبراهيمَ عليه السلام، كما سيأتي مَزيدُ بيانٍ لهذا الأمْرِ.

رُؤيةُ الاعتِقادِ والاعتِناقِ تَتعدّى إلى مَفعولٍ واحِدٍ

تَوجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

اختلفَ القرّاءُ في قولِه تعالى: ﴿تَرَىٰۚ﴾؛ فقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ بضَمِّ التّاءِ وكَسرِ الرّاءِ فيَصيرُ بعدَها ياءٌ: ﴿تُرِى﴾، على حذفِ المَفعولَين؛ أيْ: (تُريني مِن صَبرِكَ أو جَزَعِك، أو تُريني إيّاهُ مِن صَبرِكَ واحتمالِكَ)، فيَصِحّ على هذا المَعنى أنْ تكونَ رُؤيةً بصَريّةً؛ لأنّ الصَّبرَ والجَزَعَ تَظهَرُ آثارُه، فيُطَّلَعُ على هذهِ الآثارِ بالأنظارِ والأبصارِ[2]، ويصِحُّ تقديرُ المَعنى: (فانظُر ماذا تُري نفْسَك مِن الخَيرِ بالامتِثالِ، أو الشّرّ بالرّدّ) وعلى ذلك: يكونُ الفِعلُ ﴿تُرِى﴾ مِن الإراءةِ القَلبيّةِ، وقراءةُ الجُمهورِ ﴿تَرَىٰۚ﴾ من رُؤيةِ الاعتِقادِ، والقِراءتانِ مُتكامِلتانِ، فالرُّؤيا بجَميعِ مَعانيها مُتحقّقةٌ في السّياقِ.

رُؤيةُ الاعتِقادِ والعِلمِ والبَصرِ تَجتَمِعُ في سياقٍ واحِدٍ

غَرَضُ الاستفهامِ ودَلالتُه:

الاستِفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ تَقريريٌّ استِنطاقيٌّ، فالقَصدُ منهُ استِنطاقُ إسماعيلَ عليه السلام، ليَظهَرَ مَوقِفُه، بالامتِثالِ، فيُحَيَّى ويَكونَ مَثَلًا يُحتذَى، أو بالتّردُّدِ والجَزَعِ، فيُعانَ ويُؤازَرَ تَعليمًا له وربْطًا على قلبِه، أو بالقَبولِ والرّضا[3].

الاستِجهازُ للعَظائِمِ يُخفِّفُ الاستيحاشَ مِنها عِندَ مُلاقاتِها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 481.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357، والفرّاء، معاني القرآن: 2/ 390، والسّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 322.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 15.

حِلمُ الوَلدِ معَ أبيهِ مُكافأةٌ مُنجَزةٌ وجائزةٌ مُخلَفةٌ

بلاغةُ الاستِئنافِ البيانيّ:

جُملةُ: ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ ناشئٍ عن الجُملةِ السّابقةِ: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، كأنّ قائلًا قال: (فبماذا أجابَه؟) فقيلَ: (أجابَ أباه بضَربٍ مِن التَّوقيرِ والتَّفويضِ، فقالَ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾)[1].

التّخفُّفُ والتّلطُّفُ في خِطابِ الوالِدِ تأسٍّ بخِطابِ الوالِدِ

مَعنى التّاءِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾:

التّاءُ في لَفظِ المُنادَى (أبتِ) عِوَضٌ عن ياءِ الإضافةِ، والتَّعويضُ يُفيدُ التوقيرَ والتَّفويضَ، وهو هُنا كَرَدّ التَّحيّة بمثلِها، فإنّه لمّا قال له ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بالتَّصغيرِ الدّالِّ على الإشفاقِ والمَرحَمةِ، أجابَه بمِثْلِ ذلكَ فقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ إظهارًا للحِلْمِ، وإفراحًا لنفْسِ أبيهِ، تَرويحًا عنه وتَخفيفًا، كأنّه يقولُ له: (لا تَحزَن ولا تَكترِثْ يا أبتِ فلنْ تَجِدَ مَنّي إلّا خيرًا)، كأنّ تلك التّاء المُؤنّثَةَ الّتي استُعيضَ بها عن ياءِ الإضافةِ في (يا أبي) تُساقُ لقَصدِ التّخفيفِ على المُخاطَب فيما تُستَثقَل تَبِعاتُه، والتّخفُّفُ يُناسِبُه مَعنَى التّأنيثِ في التّاء، أو لِقَصدِ توقيرِ المُخاطَبِ توقيرًا يُخالِطُه السّكينةُ والترفُّقُ، ولا يَخفَى أنّ ابتِداءَ المُخاطَبِ بما يُفيدُ التَّوقيرَ والإجلالَ مِن المَعاني الّتي تَفترِح نفسُه بها، فتَكتسِبُ نفسُه من ذلك سرورًا وتَهيُّؤًا وانشراحًا يؤذِنُ بالخِفّةِ والتَّخلّص من العَنَت، فيؤدّي معنى تلكَ التّاءِ إلى التَّخفيفِ لفظًا ومعنًى[2].

الأمرُ ليسَ للأمْرِ الصّريحِ بلْ لِلإذنِ الفَصيحِ

غَرَضُ فِعلِ الأمرِ ﴿ٱفۡعَلۡ﴾:

الأمرُ بالفعلِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ كنايةٌ عن الإذْنِ في إمضاءِ العَزم، وعَبّر بمادّة الفعل؛ ليدُلّ به على أصْلِ الإحداثِ الَّذي يَستَلزِم الأداءَ أو التَّنفيذَ الجادَّ الّذي لا فُتورَ ولا تَساهُلَ فيه[3].

---

(1) صافي، الجدول: 12/ 75.

(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 6/ 432، وجلال المحلّيّ، الجلالين، ص: 593.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فعل).

كأنّه يقولُ له: (أنجز مِن غيرِ توانٍ)، وهو ليسَ للأمرِ الصَّريحِ بل للإذنِ الفَصيحِ.

نوعُ ﴿مَا﴾ وأثرُه في بلاغةِ الصِّلةِ:

الإيجازُ في التّعبيرِ مُناسِبٌ للمَشهَدِ وسُرعةِ الاختيارِ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا تُؤْمَرُۖ﴾ موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ؛ أي: (الّذي تُؤمَرُه، أو الّذي تُؤمَرُ به)، وتَحتَمِلُ أن تكونَ مَصدريّةً؛ أي: (افعَل أمْرَك)، والمُرادُ بالمَصدرِ (أمْرك) المأمورُ به، تَجَوُّزًا في إسنادِ المصدرِ المُؤوَّلِ إلى ضَميرِ المَأمورِ وهو إبراهيمُ عليه السلام، والمُرادُ: المَأمورُ بِهِ وهو الذّبحُ، فأسنَدَ الفِعلَ المَبنيَّ للمَفعولِ وهو ﴿تُؤْمَرُۖ﴾ إلى ضميرِ إبراهيمَ مَجازًا، إذْ أصلُ إسنادِه إلى الجارّ والمَجرورِ؛ أيْ: (ما تُؤمَرُ به)؛ إذِ الفِعلُ في قولِه ﴿ٱفْعَلْ﴾ يُرادُ به المأمورُ به، لا المأمورُ، لكِنْ توسِّعَ فيه وأُسنِدَ إلى المأمورِ مَعَ الحَذفِ والإيصالِ، كما في وجْه الموصوليّة[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ:

الأمرُ التّكليفيّ استقباليٌّ في معناهُ والوَحيُ مُستمِرٌّ في نُزولِه

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ﴾؛ لاستمرارِ جَرَيانِ ذلك الأمْرِ في ذِمّتِه، فما زالَ مُستقرًّا في ذِمّتِه، لَم تَبرَأ مِنه بَعدُ، فيُرتقَبُ إنفاذُه، وما كانَ كذلكَ، فإنّه ما يَزالُ مطلوبًا مِنه مأمورًا به، حتّى يعمَلَه، ولذلكَ عَبّر بالمُضارِعِ إشارةً إلى ثُبوته في الذِّمّةِ واستمرارِه في تعلُّقِه بها. وفي المُضارَعةِ إلفاتٌ إلى تجدّدِ التّلقّي عنِ اللّه، فما دامَ إبراهيمُ حيًّا، فإنّه ما يَزالُ يُؤمَر في هذا وفي غيرِه؛ لأنّ الوحيَ لا يُفارِقُه، وما دامَ كذلكَ فإنّه سَيستَمِرّ على أنْ يأمُرَه ويُكلّفَه.

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ الفِعلِ دونَ الذَّبحِ:

عِلّةُ الاستجابةِ لأمرِ الذّبحِ في كَونِه عنِ اللهِ صَدَر

عدَلَ النَّظمُ القرآنيّ عن استعمالِ الفِعلِ الواضِحِ المَذكورِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فلَمْ يَقُل: (اِذبَحْني) ليُطابِقَ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 298.

ما قالَه الخَليلُ، بل عدَل إلى العُمومِ في الجَوابِ، فقال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾؛ لتَبيينِ عِلَّةِ استجابتِه لأبيه، وهو كونُ ذلكَ أمرًا من اللّهِ، ولولا أنّه أمْرُ اللّهِ، ما وافَقَ ولا أذِنَ؛ أيَ: (فافْعَلْ هذا وغيرَه مِمّا جاءَ بِه الأمْرُ دونَ تَوانٍ أو تردُّدٍ).

بلاغةُ أُسلوبِ الحَكيمِ:

جَوابُ إسماعيلَ جـاءَ عامًّا ليَشمَلَ الذّبحَ وغيرَه

قَولُ إسماعيلَ عليه السلام: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، هوَ من أُسلوبِ الحَكيمِ في التَّوسُّعِ في الجَوابِ، فيُجيبُ بأكثَرَ مِمّا أرادَ السّائِلُ؛ لإضافةِ فائدةٍ، أو لتأكيدِ مُرادِ السّائِلِ بضَربٍ من المُبالَغة، بإجابةِ الحَكيمِ الّذي يَجعَلُ الجَوابَ مبنيًّا على الحِكمةِ، الّتي تكونُ أوسَعَ من مَنطوقِ السُّؤالِ، فإنّ قولَه: (اذبَحْني) هذا تفويضٌ خاصٌّ، وأمّا قولُه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، فهذا تفويضٌ عامٌّ، يتضَمّن الذَّبحَ وما زادَ عليه، كأنّه يَقولُ له: (افعَلِ الذّبحَ وما هو أكثَرُ من الذَّبحِ ما دامَ اللّهُ يأمُرُك به). ولا يَخفَى ما فيه من الإشارةِ إلى حُسنِ تربيَتِه، وكَمالِ عَقيدتِه، وتمامِ إذعانِه للّهِ في كلِّ شأنٍ. وفيه إضافةُ معنًى جليلٍ: وهو أنّه حينَ يَستجيبُ إنّما يَستجيبُ للّهِ تعالى، لا لأبيه، أو لمُجرّدِ ذلك[1].

مَوقِعُ جُملةِ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾:

جُملةُ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليليّةٌ للطَّلَبِ في قولِه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، أو استئنافٌ بيانيٌّ نشَأ عنه[2]، كأنَّ سائِلًا قد سأَلَ: وماذا قالَ بعدَ الإذنِ؟.

مَعنَى السّينِ في: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾:

استجابةُ المؤمنِ سـريـعـةٌ غـيرُ مُتراخيةٍ

السّينُ في قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ لتأكيدِ وُقوعِ الفِعلِ في المُستقبَلِ. معَ إفادةِ قَصدِ القُربِ في إتيانِ الفِعلِ، ولذلكَ لَم يقُل: (سوفَ تَجِدُني)؛ أيْ: (تلقَى وعدي لكَ بالصَّبرِ قريبًا جدًّا من

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 124، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 152.

(2) صافي، الجدول: 12/ 75.

بِدارك إليّ بأمْر اللّهِ تعالى، بل ستَجِدُني الآنَ وفي أيِّ وقتٍ صابِرًا خاضِعًا لأمرِ اللّهِ تعالى).

نُكتةُ تقديمِ المَشيئةِ:

الأمْرُ في اعتِقادِ الكُمَّلِ كلُّه للهِ تعالَى

قُدِّم ذِكرُ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فلَمْ يَقُل: (ستَجِدُني صابرًا إنْ شاءَ اللّه)، فوسَّطَ المَشيئةَ بينَ وعدِه بالوِجدانِ، وعَمَلِه بالصّبرِ؛ تقديمًا للنيّة، فإنّ النّيّةَ مضمونةٌ، وتعليقُ النّيّةِ على المَشيئةِ فيه نَوعُ ارتيابٍ في القَصدِ، ولذلكَ أخَّرَ المَشيئةَ بعدَ فِعلِ ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾؛ لأنّهُ من أفعالِ اليَقين، واليَقينُ عِبارةٌ عن تَحقُّقِ النّيّةِ، فلا بُدّ أن تأتيَ على الجَزْم، بلا احتِمالِ أيِّ تردُّدٍ، وقدَّمَ المَشيئةَ على العَملِ، وهو كونُه صابرًا؛ لعدَمِ ضمانِ العَملِ إلّا بالمَشيئة، فقد تَطرَأُ الحَوائِلُ، فلا تُنَفَّذ النّيّة، ولا يَحدُثُ العَملُ، فأرادَ عليه السلام ألّا يقطَعَ في المستقبَلاتِ؛ لِما يعلَمُه من قُدرةِ اللّهِ على نقْضِ العزائِم؛ بالحَيلولةِ بينَ المَرءِ وقَلبِه، وهذا دَأْبُ الكُمّلِ المُصلِحينَ، مع ما في تقديمِ المَشيئةِ مِن المُحافَظةِ على الفاصِلة[1].

نُكتةُ الجَمعِ دونَ الإفرادِ:

الانضمامُ إلى جَماعةِ الصّابِرينَ أمكَنُ في الثُّبوتِ وأرسَخُ في التّواضُع

آثَر النّظمُ الكريمُ استِعمالَ الجَمعِ دونَ الإفرادِ في قولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولَم يَقُل: (سَتَجِدُني إن شاءَ اللّهُ صابرًا)؛ وذلكَ لأنّ ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أمْكَنُ في الفاصِلة. و(صابرًا) أقلُّ رُتبةً في تحقيقِ الصّبرِ من قولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأنّ الانتِظامَ في فريقِ الصّابرينَ، يدُلّ على أنّه مُتحقّقٌ بالصَّبرِ، فـ(ال) في ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تُفيدُ الكمالَ في الوصفِ؛ أي: (العريقينَ في الصّبرِ؛ البالِغين فيه حَدَّ النِّهايةِ)[2]، وأنّه منتظِمٌ في مجموعِ الصّابِرينَ، ومَن كانتْ نِسبتُه إلى الجماعةِ، كانَ عَزْمُه أشَدّ، وهو

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 265.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 265.

في مَقامِ الوَعدِ، فعَبّر بِما هو إلى الضّمانِ أقربُ، وهو أن يكونَ ضِمنَ الجَماعةِ، لا يكونُ فردًا، فالفَردُ لا يُؤمَنُ تَغيُّره إنْ كانَ وحدَه، وفيهِ إشارةٌ إلى أنّ أخلاقَ هذا البَيتِ أخلاقُ أمّةٍ وجماعةٍ، فإبراهيمُ عليه السلام كانَ أمّة، وكذلك هو؛ أيْ: إسماعيلُ عليه السلام، كان أمّةً في الصّبر، فكان صبْرُه صبْرَ جماعةٍ. فلَعلّ جَعْلَهُ نفْسَهُ مِن الصّابِرينَ، يُشيرُ إلى اجتِماعِ أخلاقِ أمّةِ الصَّبرِ فيه، وإلى اعتِصامِه بمَنهَجِ الجَماعةِ، لا الفَرْدانيّةِ.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصّافّات: 103 - 107]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

استسلامُ إبراهيمَ وابنِهِ لربِّ العالَمين بتنفيذ ما أمرهما به

لَمّا علمَ إبراهيمُ عليه السلام طاعةَ ابنِهِ إسماعيلَ عليه السلام، ووَعَدَه بوعدٍ جازمٍ صادقٍ لا خُلْفَ فيه[1]؛ بادرا بالتَّنفيذ وإنفاذ أمرِ اللّه تعالى، مستسلِمَين خاضِعَين، فاستحقّا السَّلامةَ في الدّارَين، وتلك سنَّة اللّه في جزاء المحسنين المُطيعين؛ إذ يصرفُ عنهم المكائدَ والشَّدائد، ويجعل لهم مِن أمرِهم فرجًا ومخرجًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡلَمَا﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّة والعافية والتِئام الشَّيء، ومنه أسلمَ بمعنَى: انقادَ وخضَعَ[3]؛ لأنَّ فيه السَّلامةَ من الإباءِ والامتناع، ومنه الإسلامُ، أي: الانقياد، وفُرِّق في حديث جبريل بَينه وبَين الإيمان، فجُعِل الإيمان باطِنًا بما تعلَّق بعَمَل القلب، والإسلام ظاهِرًا بما تعلَّق بعَمَل الجَوارِح[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿أَسۡلَمَا﴾ أي: استسلَما لأمرِ اللّهِ، وأذْعَنا، وسَلَّما[5]، أو: فوَّضا، وأطاعا[6]، أو: استَسْلَمَ إسماعيلُ للذَّبح، واستسلمَ إبراهيمُ لذبحِه[7]، وجميع هذه المعاني لا تَعارُض بينها، بل هي تَصُبُّ في معنى حقيقةِ تصديقِ الرُّؤيا، وإطاعةِ اللّهِ في تنفيذِها.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 265، 266.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3772.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(4) القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: (سلم).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 373.
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 390.
(7) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 311.

2) ﴿وَتَلَّهُۥ﴾: (تلل) أصلٌ يدلُّ على تكديسٍ بالضَّغط إلى أسفل حتّى يصيرَ الشَّيءُ جُثًّا رابيًا متماسكًا، ومنه التَّلُّ: الكَومةُ المرتفعة من التُّراب والرَّمل، والتَّليلُ والمتلولُ: المصروع[1]، والمِتَلُّ: الرُّمحُ الَّذي يُتَلُّ به، أي: يُصرَعُ به[2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، أي: أسقطَه على التَّلِّ، كقولك: ترَّبَهُ: أسقطَه على التُّراب[3]، أو: صرعَهُ على الأرضِ على أحدِ جَنْبَيه[4].

3) ﴿ٱلرُّءۡيَآۚ﴾: (رأي) أصلٌ يدُلُّ على نَظَرٍ وإبْصارٍ بعينٍ أو بصيرة، والرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيِّ، والرُّؤيا: ما يُرَى في المنام، على وزن (فُعْلَى)، وهي صورةٌ تظهر للقلب منامًا، وأصلها صورٌ لطيفةٌ تنفذ إلى القلب، أو تتكوَّن فيه، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾[5].

4) ﴿ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ﴾: (بلو) أصلان: أحدهما إخلاقُ الشَّيء، والثّاني نوعٌ من الاختبار[6]، ومنه يقال: بلوتُهُ، أي: امتحنتُهُ، كأنَّه اختبارٌ للصَّبر وتحمُّلِ الاحتباسِ والبقاءِ على وضعٍ شديد، ومنه البلاءُ والاختبار والغمُّ، وبَلَوْتُه: اخْتبرتُه كأنّي أخْلقتُه من كثرةِ اخْتباري له، وسُمّيَ الغَمُّ بلاءً من حيثُ إنَّه يَبلي الجسم، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49][7]، والبَلاءُ: الاسمُ من أبْلَى، يُبْلي، ومن بَلا، يَبْلو، والبَلاءُ: لغةٌ في البِلَى؛ وبلوتُ الرَّجل بَلوًا وبلاءً وابتليته: اختبرتُه، وبلاه يبلوه بَلوًا؛ إذا جرَّبه واختبره، وابتلاه اللّهُ: امتحنه، والبلاء يكون في الخير والشَّرِّ، يقال: ابتليتُه بلاءً حسنًا وبلاءً سيِّئًا، والبَليَّةُ والبَلاءُ واحدٌ، والجمع البَلايا[8]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: الاخْتبارُ الظّاهر[9].

5) ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾: (فدي) أصلٌ يدلُّ على تبيُّنِ قَدْرِ الشَّيء، يقال: فَدَى يَفْدي فِداءً وفِدًى، وفَدَيْتُه بمالٍ، وفَدَيْتُه بنفسي، وفادَيْتُه بكذا، أي: قدَّمتُ قَدْرَ الأسير، أي: قيمَتَهُ، أي: ما يعادل حَجْمَهُ الحِسّيَّ أو المعنويَّ من مالٍ أو أسيرٍ آخر، قال تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان: (تلل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (تل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (تله).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 373.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (رأى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي).
(7) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (بلا).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 80، والماورديّ، النُّكت والعيون: 5/ 62.

﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾ [البقرة: 85]، وتفادَى فُلانٌ من فُلان، أي: تحامَى من شيءٍ بذلَهُ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾، أي: جعلنا الذِّبحَ فداءً له، وخلَّصناه من الذَّبح بكَبشٍ أرسلناه إليه[2].

6) ﴿بِذِبۡحٍ﴾: (ذبح) أصلٌ يدُلُّ على الشَّقِّ، والذُّبّاحُ: شُقوق في أصول الأصابع[3]، وذَبحُ الحيوان شَقُّ حَلْقِه، والذَّبح مصدر: ذَبَحتُه أذبَحُه ذَبْحًا، والذِّبحُ: المذبوح[4]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: 67]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ابتلاءٌ عظيمٌ، يُظهر قوّةَ اليقين وصِدقَ الإيمان

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّ الَّذي حدثَ مع إبراهيمَ وابنِه إسماعيلَ عليهما السلام هو الاختبارُ الواضحُ الجَليُّ، حيثُ أُمِرَ إبراهيمُ بذَبْحِ ولدِه، فلمّا استسلم الأبُ والابن، وانقادا لأمر اللّه تعالى، وصرع الأبُ ابنَه على أحد جنبيه، وجعل جبينَهُ على الأرض؛ ليذبحَه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه؛ ليكون أهونَ عليه؛ نادينا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا، أي: قد فعلت ما أمرناك به، ونفذت ما رأيته في رؤياك تنفيذًا كاملًا، يدلُّ على صِدقك في إيمانك، وعلى قوَّة إخلاصك، وهكذا نصرف عمَّن أطاعنا المكارِهَ والشَّدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، وإنَّ هذا الذي ابتلينا به هَذَين النَّبيَّين الكريمَين، لهو البلاء الواضح، والاختبار الظّاهر، الذي به يتميَّز قويُّ الإيمان من ضعيفه، والذي لا يحتمله إلّا أصحاب العزائم العالية، والقلوب السَّليمة، والنُّفوس المخلصة للّه ربِّ العالَمين، وفدينا إسماعيل عليه السلام بمذبوح عظيم في هيئته، وفي قَدْره؛ لأنَّه مِن عندنا، وليس مِن عند غيرنا[6].

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (فدى).
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 5/ 62، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/ 35.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذبح).
(4) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (ذبح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ذبح).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 30، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 101، 102.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾:

المبادرةُ إلى ما أمر الله تعالى به

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ﴾ عاطفة تعقيبيَّة دالَّةٌ على قُربِ زمنِ المبادرةِ إلى ما أمرَ اللّٰهُ به من زمنِ قول: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: 102][1]، وهذا يدلُّ على كمال امتثالهما لأمر اللّٰه تعالى لهما دون أدنى تردُّدٍ أو تفكير.

دلالةُ الأداة (لَمّا) في السّياق:

بيانُ أنَّ الاستسلامَ لأمرِ الدّيّان لحظة فارقة بين الكفر والإيمان

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ اسم شرطٍ غير جازم تفيدُ الظَّرفيَّةَ الزَّمانيَّة، بمعنَى (إذْ)، أي: (حين أسْلَما)؛ وذلك لدخولها على الفعل الماضي لفظًا ومعنًى[2]، وهي تربط جواب الشَّرط بفعله.

الاخْتلافُ في تعيين جوابِ (لَمّا):

كونُ الجواب محذوفًا مقدَّرًا، أو ظاهرًا مُعلَنًا، مفيدٌ في الإبانة

فعل الشَّرط هنا هو قوله: ﴿أَسۡلَمَا﴾، ولكنَّهم اختلفوا في تعيينِ جوابِ (لمّا) على أقوال: الأوَّل وهو الأظهر: أنَّه محذوف، وتقديرُه: ظهرَ صبرُهما، أو أجْزَلْنا لهما أجرَهما، أو فَديْناه بكَبْش[3]، أو كان ما كان ممّا تنطقُ به الحال، ولا يُحيطُ به الوصفُ من اسْتبشارِهما واغْتباطِهما وحمدِهما للّٰه، وشكرِهما على ما أنعمَ به عليهما من دفعِ البلاءِ العظيم بعد حُلوله، وما اكتسبا في تضاعيفهِ بتوطينِ الأنْفُس عليه مِنَ الثَّوابِ والإعْواضِ ورضوانِ اللّٰهِ الَّذي ليس وراءه مطلوب[4]، أو فلمّا فعل ذلك سَعِدَ، وآتاه اللّٰهُ نُبوَّةَ ولَدِه، وأجْزلَ له الثَّوابَ في الآخرة[5]. والثّاني: أنَّ الجواب ﴿وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ﴾، والواوُ زائدةٌ مُقحمَة، وهو قول الكوفيين والأخفش. والثّالث: أنَّ الجواب ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، والواو زائدة[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 265.
(2) المراديّ، الجنَى الدَّاني، ص: 594.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/ 118، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 533.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 348.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 311.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/ 118، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 533، وذكر فيه الاعتراض على القولين: الثَّاني والثَّالث بأنَّ الواو من حروف المعاني ولا يجوز أن تُزاد.

نُكْتَةُ مجيءِ جوابِ (لَمّا) معطوفًا:

لَمّا كان جواب (لَمّا) محذوفًا، وقولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ لا يصلح أن يكون جوابًا للشَّرط؛ لوجود الواو الدالَّة على جواب الشَّرط المحذوف، وكان في مجيئه في صورةِ العطف إيثارٌ؛ لما في ذلك من معنَى القصَّة، على أن يكون جوابًا؛ لأنَّ الدَّلالةَ على الجوابِ تحصُلُ بعطفِ بعضِ القصَّةِ، دون العكس، وحَذْفُ الجوابِ في مثلِ هذا كثيرٌ في القرآن، وهو من أساليبه، ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف: 15 - 16][1].

الـدَّلالـةُ على الجوابِ تُستفاد من عطفِ بعضِ القصَّة

نُكْتَةُ ذكرِ ضميرِ التَّثنية في ﴿أَسۡلَمَا﴾:

ذكر النَّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿أَسۡلَمَا﴾ ضميرَ التَّثنيةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ كُلًّا من الأبِ والابنِ اسْتسلما لأمرِ اللّه، وكان ذلك الاستسلامُ تضحيَةً من إبراهيم؛ لكونه جازمًا بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالًا لأمر ربِّه، وخوفًا من عقابه، وطاعةً مِن الابن الَّذي وطَّن نفسه على الصَّبر، وهانت عليه المبادرة للهلاك، في طاعة ربِّه، ورضا والده الَّذي عرض عليه رؤياه الصّادقة[2].

استسلامُ الأبِ والابـنِ لأمـرِ اللّـه، نتاجُ الإيمان والتَّربيَةِ الصّالحة

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿أَسۡلَمَا﴾:

جاء الفعلُ الماضي ﴿أَسۡلَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّق هذا الاسْتسلامِ لأمرِ اللّهِ، من قِبَلِ إبراهيمَ وابْنِه عليهما السلام، والمعنى: فلمّا استسلما، وانقادا لأمر اللّه، وفوَّضا إليه سبحانه الأمر في قضائهِ وقدره بمجرَّد أن تبلَّغا بالأمر؛ كان فرجُ اللّه أسرعَ، وكان لطفُه أظهرَ وأبهر[3].

تـحـقُّـقُ الاسْتسلامِ لأمرِ اللّـهِ، ملمحٌ مفصليٌّ في القصَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 155.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 706.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 74 (بتصرّف).

مباشرةُ أمرِ اللهِ مع الصَّبرِ وإرضاءِ الرَّحمن، مقصدٌ في البيان

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَتَلَّهُۥ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ عاطفةٌ، عطفَتْ جملتَها على قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾؛ للدَّلالةِ على مباشرةِ الأمرِ بصبرٍ وجَلَدٍ؛ ليُرضيَ مع ابْنِهِ الرَّحمنَ، ويُخْزيا الشَّيطان[1]، فالعطف هو من باب عطف بعض أجزاء القصَّة على بعضها.

وقيل: الواو هنا زائدةٌ، والفعل (تلَّه) جواب الشَّرط لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾[2]، وهو قولٌ مرجوحٌ كما تقدَّم.

تحقُّق فعلِ إبراهيمَ، بإسقاطِ ابنِه على هيئةِ مباشرةِ الذَّبح

بلاغةُ استعمالِ الفعل (تَلَّهُ):

(تلَّه): صرَعَهُ على الأرض، وهو فعلٌ مشتقٌّ من اسم التَّلِّ، وأصلُ التَّلِّ: المكانُ المرتفع، وتلَّه: أسقطَه على التَّلِّ، أي: على العُنُق، والتَّليلُ والمتلولُ: المصروع، فدلَّ الفعلُ في مادَّتِه أنَّه صرَعهُ على الأرض[3]، يُقال: تللتُ الرَّجلَ؛ إذا ألقيته، والتَّلُّ الصَّرعُ والدَّفع، والمراد: أنَّه أضجعه على جبينه على الأرض، والجبينُ ما انكشف من الجبهة قاله السَّمين[4]، ومجيئُه بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذا الفعل، وهو الإسقاطُ على العُنُقِ على الأرض.

كمالُ الخضوع في التصاق الجبهة بالتُّراب

نُكْتَةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾:

أفاد هذا التَّعبير معنى الكناية عن كمال الاستسلام للّٰه تعالى، فقد بلغ الاستسلام بالابن وأبيه مبلغًا جعل الأب يصرع ابنه على التُّراب وهو راضٍ، حتّى بلغ بهما هذا الخضوع لأمر اللّٰه تعالى إلى أن أصبح أعلى جزءٍ في رأس الابن - وهو الجبين - مُلتصقًا بالتُّراب استعدادًا للتَّنفيذ.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 348.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/ 118، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 464.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 171، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تل)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 153.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 411.

دلالة (ال) في لفظ (الجَبين):

التَّعريف للعهد الذِّهنيّ

تعريف لفظ الجبين هنا للعهد الذِّهنيِّ، على معنى الجبين المعروف، وهو أحد جانبي مقدَّمة الرَّأس، وفي ذكر الجبين مُعرَّفًا ما يؤكِّد كمال الخضوع والاستسلام من إبراهيم عليه السلام ومن ابنه أيضًا، ويمكن أن يكون تعريفه دالًّا على الاستغراق على معنى أنَّ التُّراب قد وصل إلى شقّي جبهته، وفي هذا المعنى دلالة أخرى على كمال استسلامهما.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾:

مناداةُ الله لإبراهيم عند الامتثال، مُفْصِحٌ عن المآل إلى خير حال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ عاطفةٌ لجملتِها على الجملةِ السّابقة عليها؛ وذلك أنَّه لَمّا كان من الواضحِ أنَّ التَّقديرَ جاء جوابًا لما حدث فعلًا، أي: لَمّا عالجَ إبراهيمُ عليه السلام ذَبْحَ ابْنِهِ عليه السلام بعزمٍ أَمْضَى مِنَ السِّنان، وجَنانٍ في ثباتِه أيَّما جَنان، فمنَعه اللّه تعالى بقدرته وعَظَمته، وردّ شَفْرَتَه الماضيةَ عن عُنُقِه اللَّيِّنةِ بقوّته: عطفَ عليه قولَه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾[1].

وتحتمل أن تكون الواوُ هنا زائدةً، والفعل بعدها (نادَيْناهُ) جواب ﴿فَلَمَّآ﴾، كما تقدَّم.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ المُناداة إلى الله:

بيانُ أنَّ أمرَ اللهِ منسوبٌ إليه، وإن كان بواسطة جبريل

مناداةُ اللّهِ تعالى إبراهيمَ عليه السلام مجازٌ عقليٌّ علاقته السَّببيَّة، ومعناها الوحيُ بإرسالِ المَلَك جبريلَ عليه السلام، وأُسنِدَتِ المناداةُ إلى اللّه تعالى؛ لأنَّه الآمرُ بها[2].

وفي هذا المجاز تفخيمٌ لشأن النِّداء، وتعظيمٌ لشأن البشرى الَّتي بُشِّرَ بها نبيُّ اللّه إبراهيمُ عليه السلام.

نُكْتَةُ المناداةِ بالحَرْف (يا):

(يا) التي هي عند أكثر اللُّغويّين مستعملة في نداء البعيد، فإذا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 266.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 153.

نودي بها القريب؛ فإنّما هو لإنزال البُعد المعنويِّ منزلة البُعد الحِسّيّ تفخيمًا لشأنه، وللدَّلالة على علوِّ رتبة المُنادَى أو المُنادي، أو تنبيهًا له من غفلته، وحرف النِّداء هذا هو الأوحد من بين كلِّ حروف النِّداء الذي استعمله القرآن الكريم، وفي استعماله هنا في حقِّ نبيِّ اللّهِ إبراهيمَ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾، وفي ذِكرِ اسمِه عليه السلام دلالةٌ واضحةٌ على عُلوِّ منزلتِه، ورفيعِ شأنِه عند اللّه، وخاصَّةً أنَّ المنادي هو اللّهُ جل جلاله[1].

تفخيمُ النِّداءِ لإبراهيم، دليلٌ على مقامه العظيم

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿صَدَّقۡتَ﴾:

التَّصديقُ: نسبةُ المخبِرِ خبرًا بصدقِه فيما أخبرَ به، يقال: صدَّقتُ فلانًا، أي: نسبتُه إلى الصِّدق، ولذلك يُستعمَلُ التَّصديقُ في كلِّ ما فيه تحقيقٌ[2]، وبهذا جاء الفعلُ ﴿صَدَّقۡتَ﴾ بصيغةِ الماضي؛ ليُفيدَ تحقُّقَ فعلِ إبراهيمَ عليه السلام بما رآه في المنام، وبصيغةِ المبالغة؛ ليُفيدَ أنَّ إبراهيمَ صدَّقَ الرُّؤيا تصديقًا عظيمًا[3]، والخبر هنا قد يكون مُستعمَلًا في معنى الإنشاء، دالًّا على الاستفهام التَّعجُّبي على معنى: هلْ صدَّقت فعلًا هذه الرُّؤيا؟.

تحقُّقُ ما في الرُّؤيا من وقائع، بتصديق إبراهيمَ لها في الواقعِ

نُكْتَةُ استعمال فعل التَّصديقِ وتأكيده بحرف التَّحقيق:

تصديقُ الرُّؤيا: تحقيقُها في الخارج، بأن يعملَ صورةَ العملِ الَّذي رآه، يقال: رؤيا صادقة؛ إذا حصلَ بعدَها في الواقع ما يُماثلُ صورةَ ما رآهُ الرّائي، قال اللّهُ تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: 27]، وبضدِّ ذلك يقال: كَذبَتِ الرُّؤيا؛ إذا حصلَ خلافُ ما رأى، فمعنى ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾: قد فعلتَ مِثلَ صورةِ ما رأيتَ في النَّوم أنَّكَ تفعلُه، ولذلك جاء الفعلُ ﴿صَدَّقۡتَ﴾ بصيغةِ الماضي، مع تقدُّمِ ﴿قَدۡ﴾ عليه الَّتي تفيدُ التَّحقيق؛ وذلك بقصدِ التَّأكيدِ على

تحقيقُ الرُّؤيا في الواقعِ بفعل إبراهيم، مبينةٌ عن المُراد الحكيم

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 266.
(2) الرَّاغب، المفردات: (صدق).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 266.

تحقُّق فعلِ إبراهيمَ بمبادرته لامْتثالِ أمرِ اللّهِ، وعدم تأخُّرِه في تنفيذه، ودونَ أن يسألَ اللّهَ نَسْخَ ذلك، وفي هذا ثناءٌ من اللّهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السلام، والمُرادُ: أنَّه صدَّقَ ما رآه إلى حدِّ إمرارِ السِّكّين على رقبةِ ابْنِه، فلمّا ناداه جبريلُ بألّا يذبحَه، كان ذلك الخطابُ نسخًا لما في الرُّؤيا من إيقاعِ الذَّبح، وذلك جاءَ من قِبَلِ اللّهِ، لا من تقصيرِ إبراهيم، فإبراهيمُ صدَّقَ الرُّؤيا إلى أن نهاهُ اللّهُ عن إكمال مِثالِها، فأُطلِقَ على تصديقِه أكثرَها أنَّه صدَّقها، وجُعِلَ ذَبْحُ الكبْشِ تأويلًا لذبحِ الولدِ الواقعِ في الرُّؤيا[1].

نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

تعليلُ عِظَمِ ما منَّ اللهُ به على إبراهيمَ وابنِه

جاء الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ تعليلًا لتخويلِ ما خوَّله اللّهُ لإبراهيمَ وابنِه إسماعيلَ عليهما السلام، من الفَرَجِ بعد الشِّدَّة، والظَّفَرِ بالبُغيةِ بعد اليأس[2]، فهي تعليلٌ لجملةِ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّ نداءَ اللّهِ إيّاهُ ترفيعٌ لشأنِه، فكان ذلك النِّداءُ جزاءً على إحسانِه[3]، فعلى هذا يكون تركُ العطف إمّا لكمال الاتِّصال؛ لكونها جملة تعليليَّة للجملة السّابقة لها، وقد يكون تركُ العطف للاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا جازاه ربُّه بأن أوقف تنفيذ المهمَّة ونزع عن السِّكّين خاصّيَّة القطع؟ فكان الجواب: أنَّ هذا هو شأنه تعالى في جزاء المحسنين.

دلالةُ عَوْدِ الإشارةِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

عَظَمةُ التَّصديقِ، تقتضي عظمةَ الإحسانِ المُشارِ إليه

الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى المصدرِ المأخوذِ من فعلِ ﴿صَدَّقۡتَ﴾ من المصدر، وهو التَّصديقُ، مِثلَ عَوْدِ الضَّمير على المصدرِ المأخوذِ من قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8]؛ أيِ: إنّا نجزي المحسنينَ كذلك التَّصديق؛ أيْ: مِثلَ عظمةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 153، 154.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 348.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 154.

ذلك التَّصديقِ نجزي جزاءً عظيمًا للمحسنين؛ أي: الكاملين في الإحسان؛ أيْ: وأنتَ منهم[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

إحسانُ اللهِ في كلِّ حال، والإحسانُ مُفضٍ إلى حُسن المآل

لمّا كان لفظُ الجزاءِ لِما يتضمَّنُه من معنَى المكافأةِ ومُماثلةِ المجَزيِّ عليه؛ عَظُمَ شأنُ الجزاءِ بتشبيهه بمُشَبَّهٍ مُشارٍ إليه بإشارةِ البعيدِ المفيدِ بُعدًا اعْتباريًّا، وهو الرِّفعةُ وعِظَمُ القَدْرِ في الشَّرَف، فالتَّقدير: إنّا نَجْزي المحسنينَ جزاءً كذلك الإحسانَ الَّذي أحسنتَ به بتصديقِكَ الرُّؤيا؛ مكافأةً على مقدارِ الإحسان، فإنَّه بذلَ أعَزَّ الأشياءِ عليه في طاعةِ ربِّه، فبذَلَ اللّهُ إليه من أحسنِ الخيراتِ الَّتي بيدِه تعالى، فالمشَبَّهُ والمشَبَّهُ به معقولان؛ إذْ ليس واحدٌ منهما بمُشاهَد، ولكنَّهما مُتخَيَّلانِ بما يتَّسعُ له التَّخيُّلُ المعهودُ عند المحسنين، ممّا يقتضيهِ اعْتقادُهم في وعْدِ الصّادقِ من جزاءِ القادرِ العظيم، قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرَّحمن: 60][2].

دلالة ﴿إِنَّا﴾ ومُفاد ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

إحسانُ اللهِ لا يُدرَكُ كُنهُهُ

جاء التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ (ذلك)؛ للدَّلالةِ على عظَمةِ الجزاء، وقد أُكِّدَ الخبرُ بـ (إنَّ)؛ لدَفعِ توهُّمِ المبالغةِ، أي: هو فوق ما تَعْهَدُه في العظَمةِ، وما تُقدِّرُه العقول[3]، ودخلت (إنَّ) على ضميرِ العظمة (نا) في قوله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لتأكيد عظيم الجزاء؛ إذ هو جزاء العظيم ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَجۡزِي﴾:

اسْتمرارُ جزاءِ اللهِ للمحسنين، من فيوضات الكرم على عباده الصّالحين

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَجۡزِي﴾ يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، أي: نجزي باسْتمرارِ جزائنا للمحسنين بالخلاصِ مِنَ الشَّدائد، والسَّلامةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 154.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 154، 155.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 155.

من المِحَنِ بإحسانِهما، مِثلَ جزائِنا لإبراهيمَ وابنِه ﷺ، في تفريجِ ما أصابَهما من كُربةِ ذَبحِ الوالدِ لابْنِه، تصديقًا لرؤيا إبراهيم[1].

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

مَـنْ صَـدَقـوا وصـبروا والـتـزمـوا، هـمُ المحسنون حقًّا

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جنسيّة للاستغراق الحقيقيّ[2]، فهم الكاملون في صفة الإحسان، وقد استحقّوا بصدقِهم وصبرِهم وثباتِهم أن يكونوا من المحسنين، وكان إبراهيمُ ﷺ أُنموذجًا في ذلك كلِّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النَّحل: 120].

نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ﴾:

الاختبارُ الصّعبُ أمارةٌ على مَرْتبة المُبْتلَى العظيمة

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ جاء مفصولًا عن الجملة السّابقة إمّا لكمال اتِّصاله بها تأكيدًا لمضمونِ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: هذا التَّكليفُ الَّذي كلَّفناكَ هو الاخْتبارُ البيِّن، أي: الظّاهرُ دَلالةً على مرتبةٍ عظيمةٍ من امْتثالِ أمرِ اللّه[3]؛ إشارةً إلى أنَّ هذا الأمر كان ابتلاءً وامتحانًا لإبراهيم في صدق الخُلَّة للّه، وتضحيَة أعزِّ عزيزٍ لديه، وأحبِّ محبوبٍ عنده، لأمر ربِّه تعالى[4]، وإمّا أنَّه جاء مفصولًا للاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لماذا اختصَّ إبراهيم وولده بهذا الجزاء العظيم؟ فكان الجواب: لأنَّ البلاء كان عظيمًا جدًّا.

نُكْتَة التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ القريب:

القيامُ بأمر اللهِ الشّاقِّ على النَّفس، دَأْبُ الصِّدّيقين المُخْلِصين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باسْمِ الإشارةِ القريب ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ للدَّلالةِ على ما تقدَّمه في تصديق إبراهيمَ للرُّؤيا، بقيامِه بأمرِ اللهِ في ذَبْحِ ابْنِه، أي: إنَّ هذا الأمرَ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 545، 546، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 534.

(2) قباوة، المُفصَّل، ص: 1602.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 126.

(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 219.

الإلهيَّ والطّاعةَ فيه هو عينُ البلاءِ وأشدُّه على النَّفْس[1]، ويمكنُ أن يعودَ اسْمُ الإشارةِ إلى الجزاء، فيكون قد أفادَ عظَمةَ الجزاءِ في قوله: ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وفي كلا الحالين فإنَّ التَّعبير باسم الإشارة القريب يفيد التَّعظيم للبلاء والجزاء.

غرضُ تتابعِ المؤكِّداتِ في السّياق:

تبوُّؤُ مرتبةِ الإحسان لا يكونُ إلّا بعد الفوز في الامتحان

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ مؤكَّدًا بـ ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميَّة، واللّام في ﴿لَهُوَ﴾، مع ما اكتنفَ السّياقَ من ذكرِ المعارفِ، وهي اسْمُ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، وهو تأكيدٌ لما تقدَّمه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: هذا التَّكليفُ الَّذي كلَّفناكَ، والَّذي بموجبه نِلْتَ مرتبةَ الإحسان، وتبوَّأتَ درجةَ المحسنين، هو الاخْتبارُ الحقيقيُّ البيِّن، أي: الظّاهرُ الَّذي ما هو إلّا دَلالةٌ على مرتبةٍ عظيمة من امتثالِ أمرِ اللّه[3].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لَهُوَ﴾:

تأكيدُ الخبر يُبين عن الدَّلالة المقصودة

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَهُوَ﴾ مزَحْلَقة تفيدُ التَّوكيد لمضمون الجملة، وهي في أصلها كانت لام الابتداء التي تدخل على المبتدأ، ولكن مع دخول ﴿إِنَّ﴾ - والتي تفيد التَّأكيد أيضًا - فإنَّ اللّام تزحلقها العرب لتدخل على الخبر بدلًا من المبتدأ حتّى لا يجتمع مؤكِّدان متجاوران[4]، أي: إنَّ هذا الَّذي ابتَلينا به إبراهيمَ ونجلَهُ الكريم، لَهو البلاءُ الأكبر، والاختبارُ الأظهر، الَّذي به يتميَّز قويُّ الإيمان من ضعيفه، والَّذي لا يطيق حملَه إلّا أصحابُ العزائم العالية، والقلوبِ السّامية، والنُّفوسِ الرّاقية، والنّيّاتِ المُخْلِصة للّه ربِّ العالمين[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 267.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 155.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 155.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 296.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 12/ 102(بتصرّف).

بلاغةُ القَصْرِ، وتعريف طرفَيِ الإسناد:

محنة إبراهيم عليه السلام مع ابنه عظيمة جدًّا

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ حُفَّت الجملة بعددٍ من المُؤكِّدات وبتنوُّعِ أساليب القصر فيها، ففيها قصرٌ بتعريف طرفَيِ الإسناد، وكذلك قصرٌ بضمير الفصل، وقد اجتمعا معًا لقصر الموصوف، وهو محنة إبراهيم عليه السلام مع وليده على صفة أنَّه بلاءٌ مبينٌ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، والمراد بهذا القصر بيان عِظَم المحنة التي مرَّ بها إبراهيم عليه السلام مع ابنه.

بلاغةُ المجازِ في ذِكرِ لفظ ﴿ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ﴾:

لازمُ البلاءِ الشَّهادةُ بوصولِ صاحبه لدرجةٍ عاليةٍ في الصَّبرِ واليقين

لم يأتِ لفظُ ﴿ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ على حقيقتِه وظاهره، بل هو مستعملٌ مجازًا في لازِمِه، وهو الشَّهادةُ بمرتبةِ مَنْ لو اخْتُبِرَ بمثلِ ذلك التَّكليفِ؛ لَعُلِمَتْ مرتبتُه في الطّاعةِ والصَّبرِ وقوَّةِ اليقين[1]، فوصْفُ البلاءِ بكونه مبينًا إنَّما هو وصفٌ في حقيقة الأمر للصَّبر العظيم الذي تحلّى به إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل، وهو في الوقت نفسه وصفٌ لعظم الجزاء الذي نالهما على هذا الصَّبر.

نُكْتَةُ وصفِ البلاءِ بأنَّه (مُبينٌ):

شدَّةُ البلاءِ دلالةٌ ظاهرةٌ على عُلوِّ مرتبةِ المُبْتَلَى

وصفَ النَّظمُ الكريمُ البلاءَ بأنَّه (مبينٌ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ للدَّلالةِ على ظهورِه وشدَّةِ بيانه، أي: هذا التَّكليفُ الَّذي كلَّفناكَ هو الاخْتبارُ البيِّن، أي: الظّاهرُ؛ دلالةً على مرتبةٍ عظيمةٍ من امْتثالِ أمرِ الله[2]، مع كونِه ظاهرًا للعَيانِ أنَّه بلاء[3]، وبهذه المِحْنةِ البيِّنةِ الظّاهرةِ، يتميَّزُ المُخْلِصُ من غيره، وما وقع صعبٌ، ولا شيءَ أصعبُ منه، ولا تكادُ تَخْفَى صعوبتُه على أحد[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 155.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 155.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 267.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 126.

معنَى الواو في قوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾:

فِداءُ إبراهيمَ تشريفٌ له مكين، وإبقاءٌ لعَقِبِه إلى يوم الدّين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ لفِعْلِها وجُملتِه على ما تقدَّمها؛ وذلك أنَّ النَّظمَ الكريمَ لمّا قدَّمَ ما هو الأهمُّ من نَهْيِه عن علاجِه، ومن البِشارةِ بالجزاءِ؛ ذكرَ فداءَه بما جعلَه سُنَّةً باقيةً يُذكَرُ بها الذِّكرَ الجميلَ على مرِّ الأيّامِ وتعاقُبِ السِّنين، ولمّا كان المُفتدَى منه مَنْ كانَ الأسيرُ في يدِه، وكان إسماعيلُ في يدِ إبراهيمَ عليهما السلام، وهو يعالِجُ ابنَهُ لتنفيذِ أمرِ اللّهِ في رُؤياه؛ جعلَ تعالى نفسَه المُقدَّسَ فاديًا؛ لأنَّ الفادي مَن أعطَى الفِداءَ، وهو ما يُدْفَعُ لفكاكِ الأسيرِ، وجَعلَ إبراهيمَ عليه السلام مُفْتَدًى منه تشريفًا له، واللّهُ تعالى هو المُفتدَى منه حقيقةً، ولذلك قال تعالى عاطفًا هذا الفداءَ على ما تقدَّمه: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ وإسناد الفعل لضمير العظمة:

تحقُّقُ وقوعِ الفداءِ، وارتباطُ عِظَمِه بعِظَمِ المُفَدَى

الفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ عنِ النّائبةِ بما يَبْذُلُه عنه، وقد يكونُ الفداءُ بالمالِ أو بالنَّفس[2]، وجاء هنا قولُه: ﴿بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ فِداءً لإسماعيل، أي: جعلنا الذِّبْحَ فداءً له، وخلَّصناه من الذَّبحِ بِكَبْشٍ أرسلْناهُ إلى أبيه إبراهيمَ، ولتحقُّقِ ذلك الفداءِ جاءت صيغةُ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ بصيغةِ الماضي[3].

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾:

صاحبُ الفداءِ والآمرُ به هو اللهُ المحيط بكلِّ شيء

أَسْنَدَ النَّظمُ الكريمُ الفداءَ إلى اللّه تعالى في قوله جلّ جلاله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّه هو المُعطي له، والآمرُ والآذِنُ به على التَّجوُّزِ في الفداءِ؛ تكريمًا من اللّه سبحانه وتعالى لإسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فهو مجازٌ عقليٌّ علاقته السَّببيَّة، فإنَّ اللّهَ أَوْحَى إلى إبراهيمَ أن يذبحَ الكَبْشَ فِداءً عن ذَبْحِ ابْنِه، وإبراهيمُ الفادي بإذن اللّه، وابنُ إبراهيمَ مُفَدًّى[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.

(2) الرّاغب، المفردات: (فدى).

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 62، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 35.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 546، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 156.

معنَى الباء في قوله: ﴿بِذِبۡحٍ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِذِبۡحٍ﴾ باء البدليَّة أو ما تُسمّى المقابلة والمعاوضة، أي: بما ينبغي أن يُذبحَ ويكون موضعًا للذَّبح، وهو كَبْشٌ؛ فداءً لإسماعيلَ عليه السلام[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ (ذِبْح):

الذِّبْحُ مناسبٌ للمقامِ على وجهِ عمومه

جاء تنكيرُ (ذِبح) في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم والتَّعظيم دونَ تعيينِ نَوعِه وتفصيلِ هيئته، فهو ذِبحٌ بما ينبغي أن يُذبَح، إلّا أنَّه عظيمٌ في قَدْرِه ورُتبتِه؛ لأنَّه مقبولٌ ومُستَنٌّ به إلى يومِ الدّين، وهو عِوَضٌ عن نبيٍّ كريم، ابنِ نبيٍّ كريم[2]، وقد يكون التَّنكير للنوعيَّة على معنى أنَّ الذَّبيح من نوعٍ آخر غير الذي تعرفونه في الدُّنيا.

نكتةُ وصفِ الذِّبحِ بـ ﴿عَظِيمٖ﴾:

عَظَمةُ الفداءِ بعَظَمةِ الفادي، ثمَّ بعَظَمةِ المُفدي به

وصفَ النَّظمُ الكريمُ الذِّبحَ بأنَّه عظيم، في قوله تعالى: ﴿بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾؛ لبيانِ أنَّه عظيمٌ في الجُثَّةِ سمين، وعظيمٌ في القَدْرِ والرُّتبة؛ لأنَّه يَفدي به اللّهُ نبيًّا ابنَ نبيٍّ، من نَسْلِه سَيِّدُ المرسَلين محمَّدٌ ﷺ[3]، وكذلك فإنَّ عَظَمتَهُ في قَدْرِه؛ لأنَّه مقبولٌ ومُستَنٌّ به، ومجعولٌ دينًا إلى آخرِ الدَّهر[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(تَلَّهُ) و(صَرَعَه):

(صَرَعه) أعمُّ من (تَلَّهُ) في سياق الاستعمال القرآنيّ

أصلُ التَّلِّ: المكانُ المرتفعُ، والتَّليلُ: العُنُق، وتلَّه بمعنى: أسْقطَه على العُنُق[5]، والتَّليلُ والمتْلولُ: المَصْروع[6]، وبهذا يكونُ تَلَّهُ بمعنَى صَرَعَه[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 546.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (تلَّه).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان: (تلل).
(7) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 171.

وأمّا الصَّرْعُ؛ فهو سقوطُ الشَّيء إلى الأرض، يقال: صَرَعْتُ الرَّجلَ صَرْعًا، وصارَعْتُه مصارَعةً؛ إذا صَرَعتُه، أي: أسقطتُه إلى الأرض، ويقال: رجلٌ صريعٌ، والصَّريعُ من الأغصان: ما تهدَّلَ، وسقطَ إلى الأرض، والجمعُ صُرُعٌ، ومَصارِعُ النّاسِ: مُساقِطُهم، وفي غريب الحديث: "ما تعدّون الصُّرَعَة فيكم؟ قالوا: الَّذي لا يَصْرَعُه الرِّجالُ، قال: لا، ولكنَّه الَّذي يملك نفسَه عند الغضب"[1]، قال ابن الأثير: "وهذا من الألفاظ التي نقلها النَّبيُّ ﷺ عن وضعها اللُّغويِّ، لضَرْبٍ من التَّوسُّع والمجاز، وهو من فصيح الكلام؛ لأنَّه لمّا كان الغضبان بحالة شديدةٍ من الغَيظ، وقد ثارت عليه شهوةُ الغضب، فَقَهرَها بحِلْمه، وصَرَعها بثباتِه؛ كان كالصُّرَعةِ الَّذي يَصْرَع الرِّجالَ، ولا يصرعونَه"[2].

الرُّؤيا والحُلُم:

كلاهما في المنام، والرُّؤيا في الخير، والحُلُمُ في الشَّرِّ

الرُّؤيا: ما يُرَى في المنام، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: 27]، وقد قيل لعابِر الرُّؤيا: عابِر؛ لأنَّه يتأمَّل ناحيَتي الرُّؤيا، فيتفكَّر في أطرافها، ويتدبَّر كلَّ شيء منها، ويمضي بفكره فيها، من أوَّل ما رأى النّائم إلى آخر ما رأى[3]، وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: 64]، جاء في تفسيرها: في الدُّنيا الرُّؤيا الصّالحة يراها المؤمنُ في منامه، أو تُرَى له، وفي الآخرة الجنَّة[4].

وأمّا الحُلُمُ؛ فهو كذلك ما يَراهُ الإنسانُ في المنام، لكن غلبَت الرُّؤيا على ما يراه من الخير والشَّيءِ الحَسَن، والحُلُم: على ما يراه

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (4779)، وإسناده صحيح.
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/ 24.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/ 229.
(4) ابن سيده، المُحكَم: (بشر).

من الشَّرِّ والشَّيءِ القَبيح[1]، ويؤيِّدُه قولُ رسولِ اللّه ﷺ: "الرُّؤيا الصّالحةُ من اللّهِ، والحُلُمُ من الشَّيطان"[2].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 198، والكفويّ الحسينيّ، الكلِّيَّات، ص: 185، 304.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3292)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2261)، وتتمَّةُ الحديث: «فإذا رأى أحدُكم ما يكره، فلينفُث عن يساره ثلاثًا، وليتعوَّذ بالله من شرِّ ما رأى ومن الشَّيطان، ثمَّ ينقلب على جَنْبه الآخر، فإنَّها لا تضرُّه».

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ [الصّافّات: 108 - 113]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

صِدقُ إبراهيمَ بلَّغه مرتبةَ المحسنين، وبشَّرَهُ بإسحاقَ وبقاء الذِّكر في الصّالحين

لمّا فدى اللّه تعالى إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم؛ استأنفَ تعظيمَ والدِه إبراهيم، بما يدُلُّ على تشريفِه وتكريمه في الدّارين، وهو جزاءٌ يجزي به اللّهُ المحسنينَ، الَّذين يمتثلون أوامرَ اللّه المنزلةَ، ولا يتَّبعون أهواءهم، وقد شهد أهلُ الدّيانات جميعًا لإبراهيم بأنَّه كان مِنَ الأنبياء الحنفاء الصّالحين، وشهد له اللّهُ بأنَّه من عباده المؤمنين، وأردف سياقُ الآيات الكلامَ عن هِبَة اللّهِ لإبراهيم، بعد كِبَره وعُقْمِ زوجته، حين بشَّره بإسحاق وجودًا، وبحاله نبوَّةً وصلاحًا، وأفاض على إبراهيمَ وإسحاق من بركات الدُّنيا مقامًا ورزقًا، ومن بركات الآخرة فوزًا ورفعةً، فَكَثُر نسلُهما الصّالح، وجعلَ من عَقبِهما أنبياءَ ورسلًا، محفوفين بالخيرات والبركات، وجعل منهم محسنين في أعمالهم، مؤمنين بربِّهم، ولم يمنع ذلك وجودُ ظالمين لأنفسهم ممَّن بدَّلوا المنهج، وعَصَوا اللّهَ فيما أمر، وزَجَر، فكان ظُلمُهم مبينًا.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَتَرَكۡنَا﴾: تَرَكَ الشَّيءَ يترُكُه تَرْكًا، وترك الشَّيء: خلّاه، وترْكُ الشَّيءِ: رفْضُهُ قصدًا واختيارًا، أو قَهْرًا واضطرارًا، فمن الأوَّل: قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ [الدُّخان: 24]. ومن الثّاني: قولُه

تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ﴾ [الدُّخان: 25]، ومنه: تَرِكةُ فلانٍ، لما يَخلُفُه بعد موتِه، وقد يقالُ في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مَجْرى جعلتُه كذا، نحو: تركتُ فلانًا وحيدًا[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾، أي: تَركْنا عليه الذِّكرَ الجميلَ، لا يَذْكُرُه أحدٌ إلّا بخيرٍ إلى يومِ القيامة، ويُصلَّى عليه إلى يومِ القيامة[2].

2) ﴿وَبَٰرَكۡنَا﴾: باركَ يُبارِكُ بَرَكةً وتَبْريكًا، والبَرَكةُ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسُمّيَ بذلك لثبوتِ الخيرِ فيه ثبوتَ الماءِ في البِرْكةِ، والمباركُ: ما فيه ذلك الخير، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: 50]، يقالُ: باركَ اللّهُ لكَ وفيكَ وعليكَ وباركَكَ، وتباركَ اللّهُ، أي: باركَ، مثلُ قاتلَ وتقاتلَ، إلّا أنَّ (فاعَلَ) يتعدَّى، و(تفاعَلَ) لا يتعدَّى، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [الفرقان: 1][3]، وقولُه تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾، أي: أفَضْنا عليهما خيراتِ الدّينِ والدُّنيا، وبارَكْنا على إبراهيمَ في أولادِه، وعلى إسْحاقَ بأن أخرجْنا أنبياءَ بني إسرائيلَ من صُلْبِه[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الصِّدقُ مع اللهِ يُبلِّغُ صاحبَه مرتبَةَ المُحسنين، ويُزَفُّ له البِشاراتِ بيقين

يَذْكر اللّهُ تعالى أنَّه أعطى إبراهيمَ ثناءً صادقًا في الآخِرين، كما كان في الأوَّلين، فكلُّ مَن بعدَه أحبَّهُ، وعَظَّمَهُ، وأثْنى عليه؛ لأنَّه من عبادِه المؤمنين بما أُمِروا به من الإيمان، الَّذي به بلغوا درجةَ اليقين[5]، وجاءت البِشارةُ بإسحاق، على أنَّه سيصيرُ نبيًّا من

(1) الرَّاغب، المفردات، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (ترك).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 308، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 23/ 68.
(3) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (برك).
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 351، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 534.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 648.

الصّالحين[1]، وأخبر أنَّه أحاط إبراهيمَ وإسحاقَ بالبَرَكة، الَّتي توحي بالنُّموِّ والزّيادة باستمرار الخير في ذُرّيَّتهما، حيثُ نشرَ اللهُ من ذُرّيَّتهما ثلاثَ أُمَم عظيمة: أُمَّةَ العربِ من ذُرّيَّةِ إسماعيل، وأُمَّةَ بني إسرائيل، وأُمَّةَ الرّوم من ذُرّيَّة إسْحاقَ، ومن هؤلاء الصّالحُ والطّالح، والعادلُ والظّالمُ، حيثُ كان منهم أناسٌ محسنون في أعمالهم، مؤمنون بربِّهم، وكان منهم ظالمون لأنفسِهم، بالكفر والفُسوق والعِصيان[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا﴾:

زيادةُ التَّنويهِ بإبراهيمَ عليه السلام، وما له من خصوصيَّة وإعظام

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ عاطفةٌ لجُملتها على ما تقدَّمها في قولِه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾، وهي بمعنَى أنَّ اللّهَ زادَ في عِدادِ كرامةِ إبراهيمَ عليه السلام، وتُؤكِّدُ منزلتَه الرَّفيعةَ عند اللّه، خاصَّةً مع ظهورِ صِدقِه ومصابرتِه وثباتِه.

نكتة إسنادِ فعل التَّرك إلى ضميرِ العَظَمة:

بيانُ أنَّ عظيم شأنِ إبراهيمَ عند الله، باقٍ مِن بَعْدِه على الدَّوام

أُسنِد فعلُ التَّرك في الآية الكريمة إلى ضمير العظمة (نا)، وفي إسناد الأفعال إلى الذّات العليَّة ما فيه من الدَّلالة على أهمّيَّة هذه الأفعال وقيمتها بحيث تُسند إلى اللّه سبحانه وتعالى دون سواه، وأنَّه يتولّاها بنفسه، وفي هذا المقام كانت العناية بنبيِّنا إبراهيم فوق كلِّ عناية؛ نظرًا لصبره على بلائه العظيم.

بلاغةُ المجازِ في التَّرْك:

إبقاءُ الذِّكرِ الحَسَنِ لإبراهيمَ وابنِه

حقيقةُ التَّركِ: تخليفُ شيءٍ والتَّخلّي عنه، وهو هنا مُرادٌ به الدَّوامُ على وجْهِ المجازِ المُرسَلِ أو الاسْتعارة؛ لأنَّ شأنَ النِّعَم في الدُّنيا أنَّها متاعٌ زائلٌ بَعْدُ، سواءٌ أطالَ مكثُها أم قَصُر، فكأنَّ زوالَها

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 17.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 468.

اسْترجاعٌ من مُعْطيها، فَشَرَّفَ اللهُ إبراهيمَ بأن أبقى ذِكْرَه وابْنَه في الأمم، وحادثةُ البلاءِ الَّذي وقعَ بهما مع صبرِهما وثباتِهما، شاهدٌ على شرفِهما، وعظيمِ منزلتِهما عند الله[1].

بلاغةُ التَّضمينِ في تعديةِ التَّركِ بـ (على):

غايةُ الإنعامِ على إبراهيمَ إعطاؤُه بعضَ الفضائلِ المدَّخَرة

حرفُ (على) يتعلَّقُ بفعلِ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ أي: (وتَركْنا على إبراهيمَ)، وذلك بتضمينِ هذا الفعلِ معنَى (أنْعَمْنا)، فكان مُقتضَى الظّاهرِ أن يُعدَّى هذا الفعلُ باللّام، فلمّا ضُمِّنَ معنَى (أنْعَمْنا)؛ أفادَ بمادَّته معنى الإبقاء له؛ أيْ: "إعطاء شيءٍ من الفضائلِ المُدَّخرةِ الَّتي يُشبهُ إعطاؤها ترْكَ أحدٍ متاعًا نفيسًا لِمَن يُخلّيه هو له، ويَخلُفُه فيه"[2].

ودلَّ الفعلُ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ بتعليقِ حرفِ (على) به، أنَّ هذا التَّركَ من قَبيلِ الإنعامِ والتَّفضيلِ من اللهِ على إبراهيمَ وعلى ابنه إسماعيل عليهما السلام، بإبقاءِ الذِّكرِ الحَسَنِ له في الأُمم بعدَه[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ المفعول في ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾:

التَّنويهُ بمنزلةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ الخالدةِ

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ ذُكِرَ الفعلُ، وتُرِكَ المفعول؛ للدَّلالة على فخامة المتروك وعِظَمه، أي: تركْنا على الذَّبيحِ شيئًا هو في الحُسْنِ بحيثُ يطولُ وصفُه[4].

هذا لأن الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾ يجوز أن يعود على الذبيح، ويمكن أن يُرادَ في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على إبراهيم، فإنَّ السّياقَ في الحديثِ أوّلًا عليه، ويتبعُه ابْنُه عليهما السلام، وفي إعادةِ ذِكره هنا تأكيدٌ لما سَبَقَ؛ لزيادةِ التَّنويه بإبراهيمَ عليه السلام، وإظهارِ منزلته عند بارئه سبحانه وتعالى[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 133.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 133.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 160.

بلاغةُ الإيجازِ في تقديرِ المحذوفاتِ:

بيانُ المتروك لإبراهيمَ من الذِّكر الحَسَن

شأنُ التَّضمينِ أن يُفيدَ المُضَمَّنُ مفادَ كلمتَيْن، فهو من ألْطَفِ الإيجاز، ثمَّ إنَّ مفعولَ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ لَمّا كان محذوفًا، وكان مُضمَّنًا الفعل (أنْعَمْنا) وهو ممّا يحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ معنَى المفعول؛ كان محذوفًا أيضًا مع عامله، فكان التَّقديرُ: وتَركْنا له ثناءً، وأنْعَمْنا عليه، فحصلَ في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ حَذْفُ خمسِ كلماتٍ، وهو إيجازٌ بديعٌ جليلٌ جميل[1]، ولذلك قَدَّرَ جمهورُ المتقدِّمين من المفسِّرين: (وتَرَكْنا على إبراهيم ذِكْرًا جميلًا وثناءً حَسَنًا)[2].

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

ذِكْرُ إبراهيمَ بالثَّناءِ الحسَنِ دائمٌ لا يُنسَى، ومُقَرٌّ لا يُنسَخ

في التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دلالةٌ واضحةٌ في إبقاءِ ذِكرِ إبراهيمَ ﷺ، والثَّناءِ الحَسَنِ عليه جيلًا بعد جيلٍ، وأُمَّةً بعد أُمَّةٍ إلى يوم القيامة[3]؛ إذ إنَّ الظَّرفيَّةَ المجازيَّةَ هنا تقتضي أن يبقى ذِكره ﷺ مُتغلغلًا بين الآخرين الذين يأتون بعده، وفي ذلك دلالةٌ على عدمِ نسيانِه البتَّة، فهو ذِكرٌ مستمرٌّ له ﷺ[4].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

أفاد تعريف ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هنا معنى الجنسيَّة الاستغراقيَّة، وذلك ليعمَّ جميع من جاء بعده من أمَّته ومن أمم الأنبياء السّابقين، وفي ذلك تشريفٌ له وتكريمٌ لذِكره.

نُكْتَةُ فصلِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

غرضُ الكلام المستأنَف مُطلقُ الاقتداءِ بأبي الأنبياء

قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مستأنَفٌ، أي: سلَّمَ اللهُ تعالى إبراهيمَ ﷺ؛ ليَقتديَ بذلك البشر، فلا يَذكرُه أحدٌ من العالَمين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 133.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 59، 60 عن ابن عبّاس، ومجاهد وقتادة، والسُّدِّي، والماورديّ، النُّكت والعيون: 5/ 63، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 23/ 68.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 96.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.

بسوء، وسلَّم اللّهُ تعالى عليه جزاءً على ما صبرَ طويلًا، من أقوالِ الكَفرةِ وإذايتِهم له[1]، ويمكن أن يكون سبب الفصل كمال الاتِّصال؛ لكونها مؤكِّدة لمضمون بقاء ذِكره في الآخرين بالسَّلام عليه، ويمكن أن تكون مستانفة بيانيًّا إجابة عن سؤالٍ مقدَّرٍ: وكيف كان ذِكره في الآخرين، فكانت الإجابة أنَّ ذِكرَه قائمٌ بالسَّلام عليه.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

عمومُ النَّكرةِ في معنى السَّلام، يستغرق كلَّ مناحي الحياة

قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ نكرةٌ أفادت التَّعميم والتَّعظيم؛ ليَعُمَّ كلَّ سلام، فهو سلامٌ من السّوءِ في النّيّاتِ والأقوالِ والأعمال، وسلامٌ من أقوالِ الكَفَرةِ وأعمالِهم السَّيِّئة، وسلامُ محبَّةٍ له من جميعِ الأُمَم[2]، وسلامةٌ له ولوَلَدِه، وتسليمُ تحيَّةٍ وتكريمٍ في الدّارَيْن[3].

نُكْتَةُ فَصْلِ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

استئنافُ لبيانِ إحسانِ إبراهيمَ، مع سَبْقِ صِدقِهِ وصَبرِه

جملةُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تذييلٌ مستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ بعد ما سبقَ من كرامةِ اللّهِ إبراهيمَ عليه السلام بما وردَ من بيانِ صِدقِه مع اللّهِ وصَبرِه على البلاء، وثباتِه على الحقِّ في مواقفِه مع أبيه والنَّمرودِ وقومِه، وصلابتِه بقوَّةِ الإيمان في تبكيتِهم وما هم عليه من عبادةِ الأصنام[4].

نُكْتَةُ تَرْكِ (إنّا) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾:

الاكْتفاءُ بتقريرِ العناية، بجزاءِ إبراهيمَ على إحسانه

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ولم يقل: (إنّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ)، حيثُ إنَّه لَمّا كان إبراهيمُ عليه السلام هو المَجزيَّ؛ اكْتُفيَ بتأكيدِ نظيرِه عن تأكيدِه؛ لأنَّه بالتَّأكيدِ الأوَّلِ حصلَ الاهتمام، فلم يَبْقَ داعٍ لإعادته[5]، واقْتُصِرَ كذلك على تأكيدِ معنَى الجملةِ تأكيدًا

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/ 108.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/ 108.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134، 160.
(5) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 351.

لفظيًّا؛ لأنَّه تقريرٌ للعنايةِ بجزائه على إحسانِه[1]، قال القنّوجيُّ: "ولم يَقُلْ: إنا كذلك هنا، كما في غيره؛ لأنَّه قد سبق في هذه القصَّة، فاستُخِفَّ بتركه اكتفاءً بذِكْره مرَّةً عن ذِكْره ثانيةً"[2].

معنَى الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وغرضُ التَّشبيه:

بيانُ أنَّ جزاءَ إبراهيمَ نموذجٌ لجزاءِ المحسنين

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، بمعنَى مِثْل، أي: مِثْلُ ذلك الجزاء نجزي المحسنين، وغرَضُ التَّشبيهِ التَّنويهُ بإبراهيمَ ﷺ، بأنَّ جزاءَه كان هو المِثالَ والإمامَ لجزاءِ المحسنينَ على مراتبِ إحسانِهم، وتفاوتِ تقارُبِها من إحسانِ إبراهيمَ ﷺ، وقوَّتِه في تبليغِ الدَّعوة، فهو منذُ فُتوَّتِه أوذيَ في اللّه، فسُنَّ الجزاءُ لِمَن أوذيَ في اللّه، فلعلَّه أن يكون له كِفْلٌ من كلِّ جزاءٍ يُجزاه أحدٌ على صبرِه؛ إذا أوذيَ في اللّه، فثبتَ لإبراهيمَ بهذا الوصف الإحسانُ، وثبتَ له أنَّه مَثَلٌ للمُحسنين في جزائهم على إحسانهم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة (ذَلِكَ):

إنزالُ البُعد في الدَّرجة منزلة البُعد في المكان

التَّعبير باسم الإشارة البعيد في موضع القريب هو من إنزال البُعد المعنويِّ منزلة البُعد الحسّيِّ، خروجًا عن مُقتضى الظّاهر دون مُقتضى الحال، وذلك للإشارة إلى عَظَمَة المُشارِ إليه ممَّن أنعم اللّه عليهم من المُحسنين بالجزاءِ العظيم.

نُكْتَةُ إسنادِ الجزاءِ إلى ضميرِ العَظَمَة:

عِظَمُ الجَزاءِ من عِظَمِ المُجازي

أُسْنِدَ الجزاءُ إلى ضميرِ العَظَمَة في قوله تعالى: ﴿نَجۡزِي﴾؛ لبيانِ عِظَم هذا الجزاء، فهو جزاءٌ عظيمٌ؛ لِعِظَم من يَجْزي به، وهو اللّهُ ﷻ، ولِعِظَم مَنْ يستحقُّه - بفضل اللّه - وهو إبراهيمُ ﷺ[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 160.

(2) القنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 415.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 546، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 268.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿نَجۡزِى﴾:

اســتــمــرارُ الجزاءِ الحَسَنِ للمُحسِنين، من كَرم رَبِّ العالَمين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ الجزاءِ بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿نَجۡزِى﴾؛ للدَّلالةِ عن تجدُّدِ استمرارِ الجزاءِ من اللهِ للمحسنين، والمعنى: "نَجزي المُحسِنينَ: في عبادة الله، ومعاملة خَلْقِه، أن نفرِّجَ عنهم الشَّدائدَ، ونجعلَ لهم العاقبةَ، والثَّناءَ الحَسَن"[1].

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

اســتــحــقــاقُ المحسنينَ لدرجةِ الإحسان، هبةٌ من الكريم المنّان

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جنسيّة للاستغراق الحقيقيّ[2]، فهم الكاملون في صفة الإحسان، وكلُّ مَنِ اسْتحقَّ هذه المرتبةَ، فإنَّ الله تعالى يجزيه خيرَ الجزاء.

نُكْتَةُ فَصْلِ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾:

تحفيزُ أهلِ المِلَلِ لاتِّباعِ إبراهيمَ في الإيمانِ والإحسان

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعليلٌ لجزائه عليه السلام بهذا المَدحِ في سياقِ التَّأكيدِ؛ اسْتعطافًا لهم إلى اتِّباعه في الإيمان، وتكذيبًا لِمَن يُنكرُ أن يكونَ الإيمانُ موجبًا للإحسان[3]، فالفصلُ لكمال الاتِّصال؛ لأنَّ الجملة في موضع التَّعليل.

أو إنَّه ابتداءُ إخبارٍ من الله تعالى، لا يتَّصلُ بما تَقدَّمه من الكلام، فهو استئنافٌ لما وردَ في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ وذلك لِما توارَدَ معرفتُه من أنَّ أهلَ المِلَلِ كلَّها متَّفقةٌ على حُبِّها لإبراهيمَ عليه السلام، وكان كلُّهم يدَّعي اتِّباعَه ورُتبةَ قُربِه[4].

نُكْتَةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في الآيةِ الكريمة:

تـعـلـيـلُ جـزاءِ إبراهيمَ؛ لإقناعِ الأُممِ باتِّباعه

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، حظيت الآية بمؤكِّدَيْن: (إنَّ)، والجملة الاسميَّة، والتَّأكيد هنا خرج عن الظَّاهر؛

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 706.
(2) قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم، ص: 1602.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 269.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.

إذ إنَّه جاء لِمَن لا يحتاج إلى توكيد، وذلك لوروده في خطاب النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين معه، ولكنَّ الخطاب موجَّهٌ للتَّعريض بالمشركين من قريشٍ الذين انحرفوا عن ملَّة إبراهيم ﵇، وأدخلوا في الحنفيَّة السَّمحاء التي تركهم عليها بدعًا من الشِّرك والكفر.

نُكْتَةُ العُدولِ عن الإظهارِ إلى الإضمار:

الإضمارُ بعد الإظهار يأتي أحيانًا للإيجاز

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، عَدلتِ الآية الكريمة عن إظهار اسم إبراهيم والإشارة إليه بضمير الغائب، وهذا يُسمّى في علم البلاغة إضمارًا بعد الإظهار، ويأتي من باب الإيجاز؛ تفاديًا لتكرار ذِكره.

دلالةُ الحرفِ ﴿مِنۡ﴾ في السّياق:

بعضُ العِبادِ متحقِّق بالعبوديَّة الحقَّة، ومُؤدّيًا لله حَقَّه

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ تبعيضيَّة، أي: من بعض عبادنا الَّذين تحقَّقوا بمعنَى العبوديَّة، وكانت حياتُهم ترجمةً عمليَّة لها[1]، وقولُه: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: بما أمر اللهُ مَن تَحقَّق بالعُبوديَّة الصِّرفة، المُمَحَّضَةِ للّه وحدَه دونَ سواه، والمُتجلّيةِ في الإيمان به، بحيثُ يبلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين والإحسان.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عِبَادِنَا﴾:

في لفظ العبوديَّة مُضافًا إلى ضمير العَظَمَة تشريفٌ لصاحبه

في الإشارة إلى إبراهيم ﵇ بلفظ العبوديَّة رفْعٌ لقدره وتكريمٌ لشأنه، فلفظ العبوديَّة لا يُمنَحُ إلّا لِمَن ارتضاه اللّه ﷻ أن يكون عبدًا له، ولذا فإنَّ اللّه تعالى أثنى به على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ في القرآن في أكثر من موضع: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: 1]، وقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ [النجم: 10].

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 534.

نُكْتَةُ إضافةِ العبادِ إلى ضميرِ العَظَمة:

في إضافةِ العبادِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿عِبَادِنَا﴾، تشريفٌ لِمَن أُسْنِدوا إلى اللهِ في عبوديَّتِهم إليه، وهمُ الَّذين أَعْطَوا العبوديَّةَ حقَّها[1]، فكانت حياتُهم قائمةً على التَّحقُّقِ بها، كما قال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: 138].

تشريفُ العبادِ بإضافتهم إلى الله، رَفْعٌ لشأنهم، وعُلوٌّ لمقامهم

دلالةُ (ال) والوصف بلفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عهديَّة ذهنيَّة يُراد بها أولئك المُتَّصفون بالإيمان الخالص للّٰه تعالى، ويمكن أن تكون استغراقيَّة على معنى: أولئك الذين تحقَّقت فيهم كلُّ خصال الإيمان، وقد وُصفوا بهذا الوصف؛ لأنَّهم من الرّاسخينَ في الإيمانِ على وجْهةِ الإيْقانِ والاطْمئنان[2]. كما أنّ في وصفِ العبادِ بكونِهم مؤمنينَ تنبيهٌ على عِظَم قدرِ الإيمانِ، وأنَّه من صفاتِ المَدْحِ والتَّعظيم[3]، فلا يَطمَع أحدٌ عَريٌّ عنِ الإيمانِ في رُتبةِ اتِّباعِه[4].

بيانُ أنَّ المؤمنين همُ الرّاسخونَ في الإيمانِ بإيقان

دلالةُ موقعِ ﴿مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

هذه الجملة في محلِّ رفع خبر (إنَّ)، وفي الإخبار عنه بأنَّه واحدٌ من المؤمنين دون أن يكون أوحَدَهم ما يشعر بأنَّ الإيمان لا بدَّ أن يكون شعارًا لجميع العباد، وليس حكرًا على بعضهم، وهذا يدلُّ على أنَّ كمال العبوديَّة لا يتحقَّق إلّا بهذا الإيمان.

العبوديَّة تتحقَّق بكمال الإيمان

دلالةُ اسْمِ الفاعلِ بالجَمْع:

التَّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ بصيغة الجمع في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه كان ﵇ مُتلبِّسًا بالإحسانِ والإيمان، متمكِّنًا منهما، حتَّى أصبحتا صفةً له وصِبغةً اصْطبغَ بهما لا تنفكّان

تحقُّقُ إبراهيمَ بصِفَتي الإحسانِ والإيمان، مَسْلَكٌ لاكتمال نُبوَّته

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 534.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 546.
(3) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 127.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.

عنه، أي: إنَّما خَصَصْنا إبراهيمَ عليه السلام بالذِّكرِ الحَسَنِ، والثَّناءِ الجميلِ، في ألسنةِ الأُمَمِ بعدَه؛ لأجلِ أنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ علَّل كونَه مُحسنًا، بأنَّه كان عبدًا للهِ مؤمنًا، فهو بهذا نالَ أعظمَ الدَّرجاتِ، وأشرفَ المقاماتِ، فهو من المُحسنينَ والمؤمنين(1)، فكما جَزَينا إبراهيمَ كونَه مُحسنًا مؤمنًا، فكذلك نَجزي كلَّ المُحسنين والمؤمنين(2).

معنى الواو في قوله: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾:

بشارةُ إبراهيمَ تأكيدٌ على عُلوِّ منزلته، وجزائِه على مصابرته

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ حرفُ عطفٍ على ما تقدَّمه؛ ذلك أنَّه لَمّا أتمَّ قِصَّتَه في أمرِ الذَّبيح، وشرعَ في ذِكرِ ما جازاه به على ذلك، جعل منه أمرَ إسحاقَ عليه السلام، فكان تأكيدًا لمنزلةِ إبراهيمَ في إحسانِه وإيمانِه، وجزاءً على صبرِه في المبادرةِ إلى امْتثالِ أمرِ اللّهِ في ذَبْحِ ابْنِه إسماعيلَ عليهما السلام(3).

غرضُ إسناد ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ إلى ضميرِ العظَمة:

صاحبُ البِشارة هو اللهُ المجازي للمُحسنين

لَمّا كان الجزاءُ الحَسَنُ من اللّهِ لا من غيرِه، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ جاءَ إسنادُ البُشرَى إلى ضميرِ العظمةِ مُتَّسقًا مع المُجازي، فقال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ أي: جزاءً من لدُنّا نحن الإلهُ، بعظمتِنا وقدرتِنا(4).

معنَى الباء في قوله: ﴿بِإِسۡحَٰقَ﴾:

الباء في أصل معانيها تدلُّ على المُلابسة والمُصاحبة، فالبُشرى هنا مُلتبسة به، ولا تنفكُّ عنه، ويمكن أن تكون هنا باء التَّعدية والنَّقل.

معنَى البِشارةِ في قوله: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾:

البشارة تتعلَّق بالمعاني لا بالذَّوات

معنى البِشارةِ بإسحاقَ عليه السلام، البِشارةُ بولادتِه له؛ لأنَّ البِشارةَ لا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 340.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 350.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.

تتعلّق بالذّوات؛ بل تتعلّقُ بالمعاني[1]، "وفي ذكر الصَّلاح بعد النُّبوَّة تعظيمٌ لشأنه، ولا حاجة إلى وجود المُبشَّر به وقتَ البِشارة، فإنَّ وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنَّما الشَّرط المقارنة للفعل"[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿نَبِيًّا﴾:

دلَّ تنكيرُ قولِه تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ على تعظيمِ إسحاقَ ﵇، حيثُ جاءتِ البِشارةُ بأعظمَ مهمَّةٍ تُسنَدُ إلى رجُلٍ في المستقبل، وهذا الأمرُ في قضاءِ اللّهِ بوجودِ نبيٍّ مُقدَّرَة نبوَّتُه[3].

دلالةُ موقع لفظ ﴿نَبِيًّا﴾:

البِشارةُ بولادةِ إسحاقَ مقرِّرَةٌ كونَه نبيًّا منتظرًا

جاء لفظُ ﴿نَبِيًّا﴾ منتصِبًا على الحالِ من إسْحاقَ[4]، فيجوزُ أن يكون حكايةً للبِشارة، فيكونَ الحالُ حالًا مُقدَّرًا؛ لأنَّ اتِّصافَ إسْحاقَ بالنُّبوَّة بعد زمنِ البشارةِ بمدَّةٍ طويلة، بل هو لم يكن موجودًا، فالمعنَى: وبشَّرناهُ بولادةِ ولدٍ اسْمُهُ إسحاقُ، مُقَدَّرًا حالُه أنَّه نبيٌّ[5].

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حرف جَرّ للتّبعيض[6]، أي: إنَّ إسْحاقَ ﵇ صالحٌ من الصّالحين، وحالُه من حالِهم[7].

معنى (ال) في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

(ال) في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لتعريف ماهيّة الجنس، أي: أنّ إسْحاقَ ﵇ من العريقين في رُتبةِ الصَّلاح؛ ليصْلُحَ لأكثرِ الأوصافِ الصّالحة[8].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 161.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 415.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.
(4) العكبريّ، إملاء ما مَنَّ به الرَّحمن: 2/ 207، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 324.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 351، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 161.
(6) قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم، ص: 1606.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.

دلالةُ موقع: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الثَّناءُ على إسحاقَ في صفتِه وحالِه بتأكيد صلاحه

قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يجوز أن يكون صفةً لـ ﴿نَبِيًّا﴾، وأن يكون حالًا من الضَّمير في ﴿نَبِيًّا﴾، فتكون حالًا مُتداخِلة، ويجوز أن تكون حالًا ثانية[1]، وورود ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هنا على سبيلِ الثَّناءِ والتَّقريظِ؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ لا بدَّ أن يكونَ من الصّالحين[2].

معنى الواو في قوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾:

أثرُ العطفِ في تأكيد بركة جزاءِ إبراهيمَ في نَفْسه وذُرّيّته

الواوُ عاطفةٌ لجملتِها، في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ على ما تقدَّمها، وقد أفادَتْ تأكيدَ ثناءِ اللّه، وعظيمَ عطائِه لإبراهيمَ في نفسِه وولَدِه عليهما السلام، فالَّذي حصلَ لإبراهيمَ عليه السلام، لم يحصل لغيرِه مثلُه، وكان من أعظمِ جزاءِ الإنسانِ البَرَكةُ في ذُرّيَّته[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَبَٰرَكۡنَا﴾:

بيانُ أنَّ البَرَكة خيرٌ في الدّين والدُّنيا على إبراهيمَ وإسْحاقَ وذُرّيّتِهما

(بارك) في قوله: ﴿وَبَٰرَكۡنَا﴾، أي: جعلَهُ ذا بَرَكة، والبَرَكةُ زيادةُ الخيرِ في مختلفِ وُجوهِه[4]، ومجيئُه في صيغةِ الماضي لتحقُّقِ البَرَكةِ في إبراهيمَ وإسحاقَ عليهما السلام، ببركةٍ من اللّهِ تعالى، ومعناها: أفَضْنا عليهما بركاتِ الدّين والدُّنيا، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]، ويجوزُ أن يكون المعنى: باركْنا على إبراهيمَ في أولادِه، وعلى إسْحاقَ بأنْ أخْرَجْنا أنبياءَ بني إسرائيلَ من صُلبه[5]، وأبقيْنا الثَّناءَ الحَسَنَ على إبراهيمَ وإسحاقَ إلى يومِ القيامة؛ لأنَّ البَرَكةَ عبارةٌ عن الدَّوامِ والثَّباتِ والنَّماء[6].

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 325، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 534.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 351.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 269.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 162.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 351.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 351.

نُكْتَةُ تعديةِ البَرَكة بالحرف (على):

تمكُّنُ البَرَكةِ من الإحاطةِ بإبراهيمَ وولدِه وذرّيّتهما

جاءَ تعديةُ البرَكةِ بـ (على) في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ للدَّلالة على الاسْتعلاءِ المجازيِّ، أي: تمكُّنِ البَرَكةِ من الإحاطةِ بهما إحاطةَ الإسْورةِ من المِعْصَم[1]، ومعنى ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾، أي: كَثَّرنا الخيرَ والبَرَكةَ على إبراهيم، وكذا على ابنه إسْحاقَ، وكثَّرنا نسلَهما[2]، وعلى ذلك: فاستعمالُ حرفِ العُلوِّ (على) مستوعِبٌ لمعنى الشُّمول، الَّذي تكون فيه البركة مستغرقةً للسَّلَف والخَلَف، ومتجدِّدةً بتلاحق الأجيال، ومُنبئَةً عن شرف الأصل، وطيبِ المَحتَد، وورودِ الصَّلاح في الجُدود الأنبياء، والأحفادِ الأتقياء، ويمكن أن يكون قد ضمَّن فعل البركة الفعل ﴿أَنۡعَمۡنَا﴾ الذي يتعدّى بالباء، والمعنى: "أنعمنا عليه بالبركة"؛ إذ يجتمع في التَّضمين قوَّة الفعلَيْن.

نُكْتَةُ عطفِ البَرَكةِ على الابْنِ بعد الأب:

بيانُ أنَّ أنبياءَ بني إسرائيل من صُلْبِ إسحاقَ عليه السلام

عطفَ النَّظمُ الكريمُ البَرَكةَ على الابْنِ بعد الأبِ، في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ البَرَكةَ كانت في إبراهيمَ عليه السلام وفي أولادِه، و﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ خاصَّةً، بأنْ أخرجَ اللّٰهُ أنبياءَ بني إسرائيل من صُلْبه، وقيل: إنَّه خرجَ من صُلْبِه ألفُ نبيٍّ، أوَّلُهم يعقوبُ وآخرُهم عيسى بنُ مريمَ عليهما السلام، وهذا تابعٌ لمعنى إفاضةِ بركاتِ الدّينِ والدُّنيا عليهما[3].

نُكْتَةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

تعيينُ البِشارةِ بإسحاقَ بعد إسماعيلَ مِن لُطفِ الله بالخليل

أظهرَ النَّظمُ الكريمُ اسْمَ ﴿إِسۡحَٰقَۚ﴾ عليه السلام؛ للدَّلالة على أنَّه بعد البِشارة بالغلامِ الحليمِ إسماعيلَ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافّات: 101]، جاءتِ البشارةُ الأخرى لإبراهيم مَكْرُمةً له،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 162.
(2) علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 220.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 351، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547.

وهذه البِشارةُ هي الَّتي ذُكِرتْ في القرآنِ في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71][1]، والمعنى هنا: "أي: وبشَّرناه بوجود إسحاق نبيًّا، أي: بأن يوجد مُقَدَّرةً نُبوَّتُهُ"[2].

نُكْتَةُ تعيينِ أنَّ المُبَشَّرَ باسْمِهِ ﴿إِسۡحَٰقَ﴾:

جُلّ الأنبياء كانوا من صُلب إسحق عليه السلام

في ذِكْر ﴿إِسۡحَٰقَ﴾ دون غيره إشارةٌ لما سيأتي في الحديث عن موسى وهارون وهما من ذرّيَّته، وجُلُّ الأنبياء كانوا من ذرّيَّته، وفي ذِكرِه إيضًا إشارةٌ إلى أنَّ المُفتدى من أولاد إبراهيم عليه السلام هو إسماعيل عليه السلام.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

تتنوَّع معاني الواو بحسب المعاني المحتملة

الواو هنا قد تكون استئنافيَّة؛ لأنَّ ما بعدها كان حديثًا مُنفصلًا عن الحديث عن البركة، ويمكن أن تكون عاطفة؛ إذ عطفت بعض الأخبار على بعضها، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنَّه من عباده المؤمنين، وأنَّه بشَّره بإسحق نبيًّا، وأنَّه قد بارك فيه وفي أبيه، وأنَّ ذرّيَّته سيكون منهم الصّالح والطّالح، ويمكن أن تكون الواو للحال على معنى: باركنا على إبراهيم وابنه إسحق؛ إذ كان الحال أنَّ مِن أبناء إسحق مَن سيكون على نهج أبيه وجدِّه، ومنهم مَن سيخرج عن نهجهم ودينهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الذُّرّيَّة):

قد لا يكون صلاحُ الأبناءِ أو فسادُهم منوطًا ضرورةً بآبائهم

لّما ذكرَ سبحانه وتعالى البَرَكة في الذُّرّيَّة في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾؛ جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ الذُّرّيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ لبيانِ أنَّ كَوْنَ الذُّرّيَّةِ من هذا العنصرِ الشَّريفِ المباركِ ليس بنافعٍ لهم، بل إنَّما ينتفعون بأعمالِهم لا بآبائهم، فإنَّ اليهودَ والنَّصارَى، وإن كانوا من وَلَدِ إسْحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضَّلالِ البيِّن، والعربُ وإن كانوا من ولدِ إسماعيل، فقد ماتوا على الشِّرك إلّا مَنْ أنقذَه اللّهُ بالإسلام[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 161.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 614.

(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 535.

نُكْتَةُ إضافةِ ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ إلى ضميرِ المثنّى:

ذُرّيّـةُ إبراهيمَ وإسْحاقَ، مختلفون في الإيمانِ والكفران

إضافةُ الذُّرّيَّةِ إلى ضميرِ إبراهيمَ وإسْحاقَ عليهما السلام؛ للدَّلالةِ على الاخْتلافِ الواقعِ في ذُرّيَّتِهما، فمِن ذُرّيَّةِ إبراهيمَ عليه السلام أنبياءُ وصالحونَ ومؤمنون، ومِن ذُرّيَّةِ إسحاقَ مِثلهم، ومِن ذُرّيَّةِ إبراهيمَ مَنْ حادوا عن سَنَنِ أبيهم، مِثل مشركي العرب، ومن ذُرّيَّةِ إسْحاقَ كذلك مِثل مَنْ كفرَ مِن اليهود بالمسيح عليه السلام وبمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

بيانُ أنَّ فسادَ الخَلَفِ لا يُؤاخَذُ به السَّلف

تقديمُ شِبهِ الجملة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذُرّيَّتَهما ليس جميعُها كحالِهما، بل هم مختلفون في الإيمانِ والصَّلاحِ والكفرِ والطَّلاح، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الخبيثَ والطَّيِّبَ لا يجري أمرُهما على العِرْقِ والعُنْصر، فقد يلدُ البَرُّ الفاجرَ والفاجرُ البَرَّ، وأنَّ فسادَ الأعقابِ لا يُعَدُّ غَضاضةً على الآباء، وأنَّ مناطَ الفضلِ هو خِصالُ الذّات، وما اكْتسبَ المرءُ من الصّالحات، وأمّا كرامةُ الآباءِ؛ فتكملةٌ للكمالِ، وباعثٌ على الاتِّسام بفضائلِ الخِلال، فكان في هذه التَّكملةِ إبْطالُ غرورِ المشركين، بأنَّهم من ذُرّيَّةِ إبراهيم؛ لأنَّها مَزِيَّةٌ، ولكنْ لا يُعادِلُها الدُّخولُ في الإسلام، وأنَّهم الأَوْلى بالمسجدِ الحرام[1].

سرُّ تنكيرِ لَفْظَي ﴿مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ﴾:

بيانُ أنَّ عمومَ المحسنينَ والظّالمينَ مِن ذُرّيّـةِ النَّبيّين المُرسلَيْن

تنكيرُ قولِه تعالى: ﴿مُحۡسِنٞ﴾ لإفادةِ العموم، أي: كلُّ مُحْسِنٍ مِنَ الأنبياء والمرسلين والمؤمنين من ذُرّيَّةِ إبراهيمَ وإسحاق، وتنكيرُ قولِه تعالى: ﴿وَظَالِمٞ﴾ لإفادةِ العموم، أي: كلُّ كافرٍ وفاسقٍ من ذُرّيَّةِ إبراهيمَ وإسحاقَ[2]، ويمكن أن يكون غرض التُّنكير مع المحسن مفيدًا للتَّفخيم والتَّعظيم والتَّكثير، وأمّا مع الظّالم؛ فمفيدٌ للتَّحقير والتَّقليل.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 351، 352، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 162.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 351.

مناطُ الفضلِ في خِصالِ الذّات، ومناطُ السّوءِ في مثالبِها

نُكْتَةُ إفرادِ ﴿مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ﴾:

إفرادُ ﴿مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ﴾؛ للدَّلالةِ على مَن كان مُحسنًا في ذاتِه، وهو مُحاسَبٌ عليها دونَ غيرِه، ومن كان ظالمًا في ذاته، وهو محاسَبٌ عليها دون غيرِه، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدَّثر: 38]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ [فاطر: 18]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ فسادَ الأعقابِ لا يُعَدُّ غَضاضةً على الآباء، وأنَّ مَناطَ الفَضلِ هو خِصالُ الذّات، وما اكْتسبَ المرءُ من الصّالحات، وأنَّ مَناطَ السّوءِ هو مَثالبُ الذّات، وما اكْتسبَ المَرءُ من المنكرات(1).

تجاوزُ حدودِ اللهِ غايةُ ظُلمِ النَّفْس، وخَرْقِ قوانينِ الفضيلة

نُكْتَةُ وصفِ الظّالم بلفظ ﴿مُبِينٞ﴾:

لَمّا كان الإنسان - وإنِ اجْتهدَ في الإحسان - لا بُدَّ أن يحتاجَ إلى الغُفران، لما له من النُّقصان؛ لأنَّ رُتبةَ الإلَهيَّةِ لا تَصِلُ إلى القيام بحقِّها العوائقُ البشريَّة؛ بيَّن ﷻ أنَّ الظُّلمَ المرادَ هنا إنَّما هو التَّجاوزُ في الحدودِ بغايةِ الشَّهوة، فقال تعالى: ﴿مُبِينٞ﴾ غايةَ الإبانة(2)، والمعنى: أنَّه ظالمٌ لِنَفْسِهِ بالكفر، مُبينٌ ظاهرٌ كفرُهُ، أو ظالمٌ لنفسِهِ بتعدّيه على حدود الشَّرع(3)، والإبانة: مجاهرةٌ بالفُسوق، ومباشرةٌ للعقوق.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

تفيدُ الذُّرِّيَّةُ والنَّسْلُ والخلَفُ العمومَ، ويُفيدُ الأبناءُ والأولادُ الخصوصَ

الذُّرّيَّةُ والنَّسْلُ والأبناءُ والأولادُ والخَلَف:

ذُرّيَّةُ الرَّجُلِ: ولدُه، قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، والذُّرّيَّةُ تنتظمُ الأولادَ والذُّكورَ والإناث، كما في قوله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 162.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 270.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 615.

تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84]، ثمَّ أدخلَ عيسى عليه السلام في ذُرّيَّته، فقال: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: 85][1].

والأبناءُ: يختصُّ به أولادُ الرَّجُلِ وأولادُ بناته؛ لأنَّ أولادَ البناتِ منسوبون إلى آبائهم، والابْنُ يفيدُ الاختصاصَ ومداومةَ الصُّحبة، وتقول: تبنَّيتُ ابْنًا؛ إذا جعلتَه خاصًّا بك، ويجوز أن يقالَ: إنَّ قولَنا: هو ابْنُ فلان، يقتضي أنَّه منسوبٌ إليه، ولهذا يقال: النّاسُ بنو آدم؛ لأنَّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيلَ؛ لأنَّهم منسوبون إلى يعقوبَ عليه السلام، وهو إسرائيل.

وأمّا الولدُ؛ فيقتضي الولادة، ولا يقتضيها الابْنُ، والابْنُ يقتضي أبًا، والولدُ يقتضي والدًا، ولا يُسمَّى الإنسانُ والدًا إلّا إذا صارَ له ولدٌ، وليس هو مثلَ الأب؛ لأنَّهم يقولون في التَّكْنية: أبو فلان، وإن لم يلدْ فلانًا، ولا يقولون في هذا والدُ فلان.

والابْنُ للذَّكَر، والولدُ للذَّكرِ والأُنْثى، والنَّسْلُ والذُّرّيَّةُ يقعُ على الجميع[2].

وأمّا الخَلْفُ؛ فيقالُ لِمَن جاء بعد الأوَّل: خَلْفُ شرٍّ كان أو خير، والخَلْفُ أيضًا: القَرْنُ بعدَ القَرْن، يقال: هؤلاء خَلَفٌ - بالتَّحريكِ - لما جاء مِن بعدُ، يقالُ: هو خَلَفُ سوءٍ من أبيه، وخَلَفُ صِدقٍ من أبيهِ؛ إذا قامَ مقامَهُ، ومنهم مَن يُحرِّك اللّامَ، ومنهم من يُسَكِّنُ فيهما جميعًا؛ إذا أضاف، ومنهم من يقول: خَلَفُ صدقٍ بالتَّحريك، ويُسكِّنُ الآخَرَ للفرقِ بينهما، والخَلَفُ أيضًا بالتَّحريك، ما اسْتخلفتَه من شيء، والولدُ مستخلَفٌ من أبيه[3].

والنَّسْلُ: الوَلَدُ، لكونِه ناسلًا عن أبيه، قال تعالى: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205]، وتناسلوا: توالدوا[4].

---

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 12، والرَّاغب، المفردات: (ذر، ذرأ، ذرو).

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 12، 13، والكفويّ الحسينيّ، الكلِّيّات: 5/ 50.

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 223، 224، وابن منظور، اللِّسان: (خلف).

(4) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (نسل).

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا
ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصّافّات: 114 - 122]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لَمّا تجرَّد الأنبياءُ والرُّسلُ لله؛ نصرَهم، وأبقى ذِكرَهم الخالد الحسنَ

لَمّا ذكر النَّظمُ القرآنيُّ الكريمُ إبراهيمَ وولديه إسماعيلَ وإسحاقَ، وما لهما من الفضل والبَرَكة والهُدى، وما يتميَّز به نسلُهما مِن إيمان وكفران؛ ذكر بعدَهما مباشرةً نبيَّي اللّهِ موسى هارون، اللَّذين أنعم اللّهُ عليهما بالنُّبوَّة والنَّصر الأثير، وبسط عليهما مِن خيرِه الكثير، ونجّاهما مِن فرعون وكَرْبه، وحماهما من طغيان آلتهِ وجُنده، ومكَّنهما مع المؤمنين مِنَ الغَلبة والنَّصر، وآتاهما مع المؤمنين الهدايةَ والكتاب، وهداهما الصِّراط القويم، وأبقى لهما الذِّكر الحميد في الآخِرين، مع التَّنويه بما يتميَّز به موسى وهارون من الإحسان، مُعبِّرًا لهما بالسَّلام والاحترام، ذلك أنَّ اللّه يجزي المحسنين، ويعطي جزاءَهُ الأرقى لعباده المؤمنين، وقد كان موسى وهارون نموذَجَين للإحسان الأصفى، والإيمان الأوفى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكَرْبِ﴾: (كرب) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّة، والكَربُ هو الغَمُّ الشَّديد، والكُرَيبَةُ: الشَّديدةُ من الشَّدائد، قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: 76]، "والكُربَةُ كالغُمَّة، وأصلُ ذلك من كَرْبِ الأرض، وهو قلبُها بالحَفْر، فالغَمُّ يُثيرُ

النَّفْسَ إثارة ذلك"[1]، كأنَّهم أرادوا كَرْبَ الأرضِ للحَرْث[2]، فالكَرْبُ له أصلان كلٌّ منهما بَريدٌ إلى صاحبه، الأوَّلُ: يدلُّ على الشِّدَّة، والثّاني: يدلُّ على الغَمِّ، وما يثيرُه في النَّفْسِ من شدَّة، وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، أي: ممّا كانوا فيه مِن استعبادِ فرعونَ إيّاهم، وما كان يصيبُهم منه من البلاء[3].

2) ﴿ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾: (بين) أصلٌ واحِدٌ، وهو بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ[4]. و"بان الشيء: اتّضح فهو بَيِّنٌ (كسَيِّد). والبَيان: ما بُيِّن به الشيءُ من الدَلالة وغيرها"[5]: يُقال: بانَ واسْتبانَ وتبيَّن، وقد بيَّنتُه، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 38]، وقال تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام: 55]، وقال سبحانه: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ [آل عمران: 118]، ويقال: آيةٌ مُبيَّنَةٌ اعْتبارًا بمَن بيَّنها، وآيةٌ مُبيِّنَةٌ اعْتبارًا بنفْسِها، وبانَ الشَّيءُ، واسْتبانَ، اتَّضحَ، وظهَرَ، والمبينُ والمستَبين: بيِّنُ الدَّلالةِ واضحٌ ظاهر[6]، وهو المعنى المُراد في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنعامُ اللهِ على موسى وهارون بالنُّبوَّةِ والنَّجاة وحُسْنِ المآل

يَذْكرُ تعالى ما أنعمَ به على موسى وهارون، من النُّبوَّةِ والنَّجاةِ بمَن آمنَ معهما من قومِ فرعونَ وقومِه، وما كان يعتمدُ في حقِّهم مِن الإساءةِ العظيمةِ من قتلِ الأبناءِ واسْتحياءِ النِّساءِ، واسْتعمالِهم في أخَسِّ الأشياء، ثمَّ بعد هذا كلِّه نصرَهم عليهم، وأقرَّ أعْيُنَهم منهم، فغلبوهم، وأخذوا أرضَهم وأموالَهم، وما كانوا جمعوه طولَ حياتِهم، ثمَّ أنزلَ اللّهُ ﷻ على موسى الكتابَ العظيمَ الواضحَ الجليَّ

(1) العسكريّ، جمهرة الأمثال: 2/ 169، وأبو عُبيد، الأمثال، ص: 284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (كرب).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 538.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بون، بين).
(6) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (بين).

المُستبين، وهو التَّوراة، وهدى موسى وهارون الطَّريقَ المستقيمَ في الأقوالِ والأفعال، وأبْقى لهما من بعدِهما ذِكْرًا جميلًا وثناءً حَسَنًا، ثمَّ فسَّره بقولِهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، أي: بالسَّلامِ والمحبَّةِ من اللّهِ لهما؛ جزاءً لإحسانِهما وإيمانِهما[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾:

بيانُ مَلْمحِ العطفِ على ما تقدَّم، أوِ استئنافُ قصَّةٍ جديدة

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ عاطفةٌ على ما تقديرُه: (فلقد أنْشأنا منهم من الأُمم ما يُعجِزُ الوصفَ، ويفوتُ الحصر، ومَنَنّا على كثيرٍ منهم بالإحسانِ من ولَدِ إسماعيل عليه السلام)[2]، وهو من باب عطف القصة على القصة، ويمكن أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، أي: جاءت وما بعدها كلامٌ مستأنَفٌ للشُّروعِ في القصَّةِ الثّالثةِ، بعد قصَّتَي نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام[3].

معنى اللّامِ و(قد) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

تأكيدُ مِنَن اللهِ على موسى وهارون عليهما السلام

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ جوابٌ للقَسَمِ المحذوف، و(قد) حرفُ تحقيق، وكلاهما يُفيدُ تأكيدَ تحقُّقِ ما صُدِّرا به في قوله: ﴿مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[4]، والمِنَّةُ كانت "بنعمة النُّبوَّة، وبغيرها منَ النِّعمِ الأُخرى، الَّتي من بينها: أنَّنا نجَّيناهما وقومَهما المؤمنين، مِن استعباد فرعون إيّاهم، ومن ظُلْمِهِ لهم"[5].

دلالةُ توالي المؤكِّدات في صدر الآية:

نصْرُ اللهِ لعبادِه المحسنين مقطوعٌ به لا يتخلَّف باليقين

توالتِ المُؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ جل جلاله أنعمَ على نبيِّهِ موسى وهارونَ عليهما السلام إنعامًا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 18.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 279.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 302.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 279، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 302.
(5) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 12/ 107.

مقطوعًا به - بما للّهِ ﷻ من العَظَمةِ والقَهرِ والكبرياء - على أوَّل مَنْ أظْهرَ لسانَ الصِّدقِ لإبراهيمَ عليه السلام وذُرّيَّتِه إظهارًا تامًّا، وفي هذه التَّأكيداتِ كذلك تنبيهٌ لمَن يَعُدُّ نصرَ المؤمنين مُحالًا، فإحسانُ اللّهِ لا ينقطعُ عمَّن يُحسِنُ بعملِه؛ إرضاءً للّهِ بإقامةِ دينِه وتحقيقِ شرعِه، والدَّعوةِ إليهما بإخلاصٍ تامٍّ للّهِ وحدَه سبحانه وتعالى[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (المَنِّ):

النِّعَمُ مِنَ الله في عطاءه، والمِنَّةُ بها له دونَ سواه

المَنُّ: الإنعام، وأصلُ المَنِّ ما يوزَن به، فيقال: مَنٌّ، ومنّانٌ، وأمْنان، ولذلك يقال لما يُقدَّر: مَمْنونٌ، كما يقال: مَوزون، وبهذا كانتِ المِنَّةُ بمعنى النِّعمةِ الثَّقيلة، ولمّا أُسْنِدت إلى اللّهِ دونَ سواه في قوله: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2]؛ جاءت بصيغةِ الماضي؛ لتَحقُّق ما أنعمَ اللّهُ به عليهما من نِعَم جليلة، أوَّلُها وأهمُّها: نعمةُ النُّبوَّة[3].

نُكْتَةُ إسنادِ المَنِّ إلى ضميرِ العظَمة:

بيانُ أنَّ عظمةَ النِّعَمِ من عَظَمةِ المُنعِم

أسْندَ النَّظْمُ الكريمُ المَنَّ إلى ضميرِ العَظَمةِ الإلَهيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على عَظَمةِ المُنْعِم، وتأكيدِ هذا الإنعام، أي: أنعمْنا إنعامًا مقطوعًا به، بما لنا من العَظَمةِ على أوَّلِ مَنْ أظهرَ لسانَ الصِّدقِ لإبراهيمَ عليه السلام وذرّيَّتِه إظهارًا تامًّا، وهما موسى وهارون عليهما السلام[4].

نُكْتَةُ حذْفِ متعلِّقِ المَنِّ:

حَمْلُ فِعْلِ المَنِّ على أكملِ معناه وأسْماه

حذَفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّقَ المَنِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، والمقصود هنا النُّبوَّة، وهي أعظمُ درجةٍ يُرفَعُ إليها الإنسان، ولذلك اكْتُفيَ عن تعيينِ المَمْنونِ به لحَمْلِ الفعلِ على أكملِ معناه، وجُعِلَتْ مِنَّةً من اللّهِ عليهما؛ لأنَّ موسى لم يسألِ النُّبوَّةَ؛ إذْ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 279.
(2) الرَّاغب، المفردات: (منن).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 538.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 279.

ليستِ النُّبوَّةُ بمكتَسَبة، وكانت مِنَّةً على هارون أيضًا؛ لأنَّه إنَّما سأل له موسى ذلك، ولم يسأله هارونُ، فهي مِنَّةٌ عليه، وإرضاءٌ لموسى، والمِنَّةُ عليهما من قبيلِ إيصالِ المنافع، فإنَّ اللّهَ أرسلَ موسى لإنقاذِ بني إسرائيلَ مِنِ استعبادِ القِبْطِ لهم(1).

نُكْتَةُ ذكرِ موسى وهارون بعد إبراهيمَ وإسْحاقَ:

موسى وهارون أوَّلُ من أظهر لسانَ صدقِ إبراهيمَ الخليل

جاءَ ذكرُ موسى وهارونَ عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، بعد إبراهيمَ وإسْحاقَ عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾؛ لأنَّهما عليهما السلام أوَّلُ مَنْ أظْهرَ لسانَ الصِّدقِ لإبراهيمَ وإسحاقَ وذُرِّيَّتِهما إظهارًا تامًّا(2)، وهما عليهما السلام مَن أنقذَ اللّهُ على أيديهما بني إسرائيلَ، مِنِ اسْتعبادِ القِبْطِ لهم(3).

فائدةُ عطفِ الإنجاءِ على المِنَّةِ:

من أعظمِ النِّعمِ جَلْبُ المنافعِ ودَفْعُ المضارِّ

عطفِ الإنجاءِ على المِنَّةِ في قوله تعالى ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ لبيان كرامة أُخرى مِن اللّهِ تعالى لهما، وهي نعمةُ إزالةِ الضُّرِّ، فعُطِفتْ على نعمةِ إيصالِ المنفعة؛ لتحقُّقِ النِّعمتين لهما، أي: قد حصلَ لهما نَوْعا الإنعام، وهما إعطاءُ المنافع، ودفعُ المضارِّ(4).

سرُّ عطفِ إنجاءِ قومِهما على إنجائِهما:

كرامةُ المؤمنين من كرامةِ أنبيائهم، وإليهم يُنسبون وبهم يُعرفون

عطفَ النَّظمُ الكريمُ إنجاءَ قومِهما على إنجاءِ موسى وهارونَ عليهما السلام مع دخوله فيه؛ للدَّلالةِ على أنَّ كرامةَ قومِهما كانت بسببِهما، حيثُ حصلَ لقومِهما دفعُ المضارِّ بالإنجاء تبعًا لنبيِّهما عليهما السلام، وهي كذلك رحمةٌ من اللّه، ومِنَّةٌ منه تعالى على عبادِه المستضعَفين(5).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 163.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 279.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 163.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 163.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 163.

نُكْتَةُ إضافةِ القومِ إلى ضميرَي موسى وهارون:

المؤمنون من بني إسرائيلَ هم مَنْ عمَّهمُ اللهُ بالنَّجاة واللُّطف

أضافَ النَّظمُ الكريمُ القومَ إلى ضميري موسى وهارونَ ﵉، في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ بالقوم هنا المؤمنون من بني إسرائيل، وهمُ الَّذين سألَ موسى فرعونَ أن يُرسِلَهُ معه تخليصًا لهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ [طه: 47][1].

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾:

المبالغةُ في وصف معاناةِ بني إسرائيلَ مبين عن المراد

(ال) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ عهديّة ذهنيّة[2]؛ للدّلالة على ما كان فيه بنو إسرائيل من المَذلَّةِ تحت سُلْطةِ الفراعنة، ومِن اتِّباعِ فرعونَ إيّاهم في خروجِهم حين تراءى الجمعانِ، حتَّى قال أصحابُ موسى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشُّعراء: 61]، وقد كانوا من قبل يُؤذَون، ممّا حكاه القرآنُ في مَعرِضِ المِنَّةِ عليهم: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49][3].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الكَربُ أشدُّ الغَمِّ، ودلالتُه أبينُ على المبالغة في المعاناة

الكَرْبُ أصلٌ يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ وغِلْظةٍ، ومنه الغمُّ الشَّديدُ الَّذي يصيبُ القلب، ولذلك يوصَفُ بأنَّه عقدةٌ على القلب[4]، وجاءَ التَّعبيرُ بالمصدرِ في ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ ما كان يعانيه بنو إسرائيل، مِن فرعون ومَلَئِه مِنَ الاستعباد، وما يتبعُه من عظائمِ الأنكاد، وتسلُّطِهم عليهم بألوانِ الغَشْمِ والعذاب[5].

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 538.
(2) قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم، ص: 1606.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 164.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (كرب).
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547، والبقاعيّ نظم الدُّرر: 16/ 280.

نُكْتَةُ وصفِ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ بأنَّه عظيمٌ:

معاناةُ بني إسرائيل من الذُّلِّ الكبير، تحت حُكم الفراعنة الخطير

وُصِفَ الكَرْبُ بأنَّه عظيمٌ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لبيانِ ما كانوا فيه من المَذَلَّةِ تحتَ سُلْطةِ الفراعنةِ، ومِن اتِّباعِ فرعونَ إيّاهم في خروجِهم حين تراءى الجمعان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشُّعراء: 61][1].

فائدةُ عطفِ ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ على سابق النِّعم:

لا التذاذَ بنعمة النَّصرِ، إلّا بالفِكاكِ مِنَ الأسْرِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ النَّصرَ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ على نعمةِ النَّجاةِ من الأسر؛ لتذوُّقِ نعمةِ النَّصرِ والالتذاذِ به، أي: نجّيناهم ونصرناهم على كلِّ مَنْ نازعَهم في ذلك الزَّمانِ من فرعونَ وغيرِه[2].

نُكْتَةُ إسنادِ ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ضميرِ العَظَمة:

لا ناصرَ إلّا الله، ولا مجيرَ للمؤمنين سواه

في إسنادِ النَّصرِ إلى ضميرِ العظَمة (نا) في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ دلالةٌ جليَّةٌ على أنَّ النَّصرَ لا يكون إلّا مِن اللّهِ تعالى وحدَه، فهو نعمةٌ ومنَّةٌ لا يملكها، ولا يمنحُها إلّا اللّه، ولا تكون إلّا لمن يستحقُّها من عبادِه الأخيارِ الأبرار[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجمع في ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾:

ضميرُ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ يعودُ على موسى وهارونَ عليهما السلام وقومِهما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾[4].

نُكْتَةُ حذفِ متعلِّقِ النَّصر:

بيانُ أنَّ نصر اللهِ لصالح بني إسرائيل على فرعونَ ومَلَئِهِ

لم يذكرْ سياقُ الآيةِ متعلِّقَ النَّصرِ، في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 164.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 280.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 280.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 352.

﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، فلم يقل: (ونَصرناهُم عَلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ)؛ لدلالةِ سياقِ الآياتِ على المقصود، حيثُ إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ الآية، مفيدةٌ المعنى، ومعلومٌ أنَّ موسى وهارونَ نبيّا بني إسرائيل الَّذين كانوا يُستعبَدونَ، ويُعذَّبونَ في ذاك الزَّمانِ من فرعونَ ومَلَئِه، فكان النَّصرُ عليهم هم[1].

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَكَانُواْ﴾:

النَّصرُ سببُ الغَلبةِ والتَّمكين في الأرض

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَكَانُواْ﴾ للسَّببيَّة، أي: فكانوا بسببِ نَصرِنا لهم همُ الغالبين[2]، والغَلَبةُ المَذكورةُ منسوبة إلى عباد اللّٰه المستضعفين؛ لتأكيد أنَّهم كانوا هم الغالبين، فكان مِنَ المقاصد ذِكرُ المِنَّة على مَنِ اتَّصف بمثل صفاتِهم بالقرب والنُّصرة؛ تسليةً وترجيَةً للنَّبي ﷺ، ولِمَن اتَّبعه من المؤمنين، ممَّن قارب - من شدَّة البلاء والقهر - اليأسَ مِنَ النَّصر[3]، والشَّيء بالشَّيء يذكر.

دلالةُ (كان) في السّياق المُحكم:

تحقُّقُ الغَلَبةِ على فرعونَ ومَلئِه بكينونةٍ حاصلةٍ يقينًا

أفادَ دخولُ (كان) في قولِه تعالى: ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، تحقُّقَ كونِهم منصورينَ غالبينَ على عدوِّهم في ذلك الزَّمانِ، الَّذي حادَّهم فيه فرعونُ ومَلؤُه، وأذاقوهم أقْسى أنواعِ الذُّلِّ والعذاب[4]، "فكانوا بسببِ نصرِنا وتأييدنا هم الغالبين، على عدوِّهم من القبط، بعد أن كانوا تحتَ أسْرِهم وقهرهم"[5].

بلاغةُ القَصْرِ وتعريفِ طرفَيِ الإسناد:

بيانُ حَصْرِ الغَلَبةِ في موسى وهارونَ ومَن آمن

تعريفُ طرفَيِ الإسنادِ والتأكيدُ بضميرِ الفصلِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، يفيد القَصْر، أي: كانوا هُمُ الغالبين لغيرِهم،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 280.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 278.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 280.
(5) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 416.

وغيرُهم لم يغلبوهم، أي: لم يُغلَبوا ولو مرَّةً واحدةً، فإنَّ المنتصِرَ قد ينتصرُ بعد أن يُغلَبَ في مواقع[1]، وهو من قَصْرِ الموصوف على الصِّفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ تدلُّ على كمالِ صفة الغلبة فيهم، وكمالُ غلبتِهم إنّما هو بنصرِ اللّهِ لهم، وإلّا فلا غلَبةَ إلّا باللّهِ ومعونتِه وتأييدِه[2].

نُكْتَةُ عطفِ جملة: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾:

غـايـةُ التَّنجيةِ والنُّصرةِ إقامةُ الدِّينِ بالكتابِ

لَمّا كانتِ التَّنجيةُ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ عبارةً عن التَّخليصِ من المكروهِ بُدِئَ بها، ثمَّ بالنَّصرِ الَّذي يتحقَّقُ مدلولُه بمَحْضِ تنجيةِ المنصورِ من عدوِّه من غيرِ تغليبِه عليه، ثمَّ بالغَلَبةِ لتوفيةِ مقامِ الامتنانِ حقَّه، بإظْهارِ أنَّ كلَّ مرتبةٍ من هذه المراتبِ الثَّلاثِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِها، ولَمّا كان آخرُها النَّصر، وكانت فائدتُه التَّمكُّنَ من إقامةِ الدِّين، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾، أي: بعظمتِنا بعد إهلاكِ عدوِّهم: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾، أي: الجامعَ البليغَ في البيانِ والتَّفصيلِ في الهدايةِ والإرشاد[3].

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الإيتاءِ إلى ضميرِ العظَمة:

بـيـانُ أنَّ المُـؤْتي الـحـقـيـقـيَّ هو اللّهُ وحدَه دونَ سواه

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾ أُسنِدَ فعلُ الإيتاءِ إلى (نا) الدّالَّةِ على الفاعلين، والفاعلُ للإيتاءِ هو اللّهُ تعالى، أي: بعظمتِنا بعد إهلاكِ عدوِّهم آتيناهما الكتابَ المستبين، وعلَّةُ ذلك: أنَّ التَّمكُّنَ من إقامةِ الدِّينِ من أهمِّ فوائدِ النَّصر، وهو بيدِ اللّهِ تعالى وحدَهُ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 164.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 280.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 281، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 281.

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَهْد، أي: الكتابَ المعهودَ الَّذي أُنزِلَ على موسى عليه السلام، وهو التَّوراة، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المؤمنون: 49][1].

نُكْتَةُ تسميةِ التَّوراةِ بالكتاب:

شريعةُ التَّوراةِ مكتوبةٌ مبيَّنةٌ، وقــد أُنـزِلـت ألواحًا مسطورة

سُمّيت التَّوراة بالكتاب؛ لكونِ وصاياها وشريعتِها مبيَّنةً مفصَّلةً مكتوبةً في أوامرِها ونواهيها وتعاليمِها[2]، وقد مُيِّزَ موسى وهارون بأن أنزل اللّهُ عليهما الكتاب المستبين، وهو التَّوراة الَّتي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيلُ كلِّ شيء، وأنَّ اللّه هداهما الصِّراط المستقيم، بأن شرع لهما دينًا ذا أحكامٍ وشرائع مستقيمة، موصلةٍ إلى اللّه، ومَنَّ عليهما بسلوكه[3].

غرضُ وصفِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بـ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾:

الـتَّـوراةُ كتاب بـلـيغ الـبـيـانِ، واضح الأحكام

﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾: هو القويُّ الوضوحِ، البليغُ في بيانِه، فالتَّوراةُ كانت كتابًا سَهلًا واضحًا[4]، فإنَّه ليس شيءٌ من الكُتُبِ مثلَ التَّوراةِ في سهولةِ مأْخذِها[5]، وفي وصف ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بهذا الوصف مع أنَّ المستبين هو مَن يقرؤه، ويعمل به، فهنا مجازٌ عقليٌّ علاقته سببيَّة؛ لأنَّ الكتاب هو سببٌ في استبانة مَن يقرَؤُه.

نُكْتَةُ وقوعِ فِعلِ الإيتاءِ على ضميرِ التَّثنيةِ:

اشـتراكُ هـارونَ ومـــــوسى في الرِّسالة والبلاغ

جُمِعَ هارونُ مع موسى عليهما السلام في الضَّمير، في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾، مع أنَّ الكتاب - وهو التَّوراةُ - أُنزِلتْ على موسى عليه السلام؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547، وسعود الخلف، دراسات في الأديان اليهوديَّة والنَّصرانيّة، ص: 74.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 706.

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 352.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 281.

لأنَّ هارونَ عليه السلام مِثْلُه في تقبُّلِ الكتاب والعملِ بجميعِ ما فيه، والثَّباتِ على ما يدعو إليه[1]، وبهذا يكونُ له حظٌّ من إيتاءِ التَّوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾ [الأنبياء: 48]، وهذا من استعمالِ الإيتاءِ في مَعْنَيَيْهِ الحقيقيِّ والمجازيِّ[2].

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في لفظ ﴿ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾:

زيدتِ السّينُ والتّاءُ في وصفِ الكتابِ بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾؛ للمبالغةِ في شدَّةِ بيانِه، ووضوحِ رقائقِه وأحكامِه، يقال: استبانَ الشَّيءُ؛ إذا ظهرَ ظهورًا شديدًا[3].

نُكْتَةُ عطفِ نعمةِ الهدايةِ على النِّعمِ قبلها:

الهدايةُ مُناطَةٌ بالنُّبوَّةِ والتَّنجيَةِ والنَّصر

ذكرَ النَّظمُ الكريمُ نعمةَ الهدايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، بعد نِعَمِ النُّبوَّةِ والتَّنجيةِ والنَّصرِ؛ لأنَّ تلك النِّعَم بابٌ موصِلٌ إلى الصِّراطِ المستقيمِ الموصلِ إلى الحقِّ والصَّواب، بما فيه من تفاصيلِ الشَّرائعِ، وتفاريعِ الأحكام[4].

بيان مفعولَي (الهداية):

مفعولا الهداية في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ الأوَّل: هاءُ الضَّميرِ، والثّاني: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، أي: هدى اللهُ موسى وهارونَ عليهما السلام الصِّراطَ[5].

نُكْتَةُ تعديَةِ فعلِ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا﴾ بنَفْسِهِ:

الصِّراطُ يحملُ في نَفْسِهِ الهدايةَ للحقِّ والدَّلالةَ المباشرةَ

عدَّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ الهدايةِ بنَفْسِه في قولِه تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ﴾، ولم يقل: (وهَدَيْناهما للصِّراط) أو إلى (الصِّراط)؛ لشدَّةِ وضوحِ هذا الصِّراطِ، في الإيصالِ إلى المقصود، فلا يحتاجُ في هذه الحالةِ لوساطةٍ، تدخلُ بين الهدايةِ وبينَه[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 281.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 164.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 164.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 132.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 302.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 281.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في قوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ محلًّى بـ (ال) التَّعريفِ الَّتي للعهد، أي: الصِّراطَ المعهودَ بما هو عليه في نَفْسِه من الوضوحِ الموصلِ إلى الحقِّ والصَّواب[1]، وهو صراطُ أهلِ الإسلام، صراطُ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضّالّين[2]، والصِّراط المستقيم المَهديُّ إليه: هو الصِّراط "القيِّم الَّذي لا اعوجاجَ فيه، وهو دينُ الإسلام، فإنَّه الطَّريق الموصلة إلى الحقِّ والصَّواب، عقلًا وسمعًا، أو إلى المطلوب وهو الجنَّة"[3].

الصِّراطُ معبرٌ موسوم بالاستقامة المُنجيَة يومَ القيامة

بلاغةُ الاسْتعارةِ في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

الصِّراطُ كنايةٌ عن الإسلام، وأصولِ شرائعه العِظام

في قوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ إيماءٌ إلى الدّين الَّذي اخْتارَه اللهُ لعبادِهِ، وأرسلَ به رُسلَهُ، وأنزلَ عليهم به كتُبَهُ، وهو الإسلام، فهو بعقيدتِه واضحُ الحُجَّةِ، قويمُ المحجَّة، لا يَهوي أهلُه إلى هوَّةِ الضَّلالة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161][4]، فالتَّعبير بالصِّراط فيه استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، والجامع فيها أنَّ الدّين والطَّريق كلاهما يوصلان إلى الغاية المرجوَّة، وقد كانت شريعةُ التَّوراةِ يومَ أوتيَها موسى عليه السلام، هي الصِّراطَ المستقيم، فلمّا نُسِخَتْ بالقرآنِ؛ صارَ القرآنُ هو الصِّراطَ المستقيمَ للأبد، وتعطَّلَ صراطُ التَّوراة، ويمكنُ أن يكونَ الصِّراطُ المستقيمُ كنايةً عن أصولِ الدّيانةِ الَّتي تختلفُ فيها الشَّرائع، وهي التَّوحيدُ وكُلّيّاتُ الشَّرائع الَّتي أشارَ إليها قولُه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547.
(2) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 134.
(3) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 11/ 417.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 200.

تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشّورى: 13][1].

المبالغةُ في استقامةِ صراطِ اللهِ تعالى، مُبيِّنَة عن المراد

نُكْتَةُ وصفِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ بالاسْتقامةِ:

وصفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ بالاسْتقامةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، مع أنَّه لا يكونُ إلّا كذلك؛ للمبالغةِ في بيانِ ما عليه الصِّراطُ من الاسْتقامة، فهو عَيْنُها، ولأنَّه في غايةِ المحافظةِ على القوم، فلا يزيغُ أصلًا، فهو لعظيم تقوُّمِه كأنَّه طالبٌ لأن يكونَ قويمًا، ولذلك ضمَّ شرائعَ الدّينِ القويم[2].

تأكيدُ مِنَنِ اللهِ على موسى وهارونَ عليهما السلام

معنى الواو في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا﴾:

الواوُ في ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ عاطفةٌ[3]، عطفت نعمة الذِّكر الجميل والثَّناء الحسن على ما سبقَ من مِنَّةِ اللهِ عليهما بإيتائِهما الكتابَ المستبينَ، وهدايتِهما الصِّراطَ المستقيمَ، بعد المِنَّةِ عليهما عليهما السلام بنعمةِ النُّبوَّة، وإنجائهما وقومَهما من الكربِ العظيمِ، ونصرِهم على عدوِّهم وجعلِهمُ الغالبين[4].

غرضُ إسنادِ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمة:

في إسنادِ التَّركِ إلى ضميرِ العظَمَةِ في قوله: ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ إظهارٌ لعظَمةِ من أبقى لهما الذِّكرَ الحسنَ الجميل، وهو اللّهُ تعالى، وفي ذلك إظهارٌ بأنَّ لهما من الشَّرفِ أمرًا عظيمًا[5].

تشريفُ موسى وهارونَ بإبقاءِ ذكرِهما على مرِّ القرون

بلاغةُ المجازِ في التَّرك:

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ مجازٌ في معنَى الثَّبات والدَّوام، ذلك أنَّ حقيقةَ التَّركِ تخليفُ شيءٍ والتَّخلّي عنه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 165.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 281.
(3) درويش، إعراب القرآن: 8/ 285.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 160، 165.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.

وهو هنا مرادٌ به الدَّوامُ على وجهِ المجازِ المُرسَلِ أو الاستعارة بأن يكون شبَّه البقاء بالتَّرك بجامع الاستمرار والبقاء؛ لأنَّ شأنَ النِّعم في الدُّنيا أنَّها متاعٌ زائلٌ بعدُ، طالَ مَكْثُها، أو قَصُر، فكأنَّ زوالَها استرجاعٌ من مُعطيها، فشرَّفَ اللّهُ موسى وهارونَ ﵉، بأن أبقَى نِعَمَهُ عليهما في أُمَمٍ بعدَهما بالذِّكرِ الجميلِ والثَّناءِ الجزيل[1]، وجاءت قرينةُ المجازِ في تعليقِ ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ بـ (ترَكْنا)؛ لأنَّه يناسِبُ معنى الإبقاء ويؤكِّده، يقال: أبقَى على كذا، أي: حافظَ عليه؛ ليبقى، ولا يندثر[2].

بلاغةُ التَّضمينِ في تعديةِ التَّركِ بـ (على):

تمكُّنُ ظهورِ شرفِ منزلةِ موسى وهارونَ وعُلوِّها

لَمّا كان الذِّكرُ الجميلُ عند ذوي الهِمَمِ العاليةِ والعزائمِ الوافيةِ هو الشَّرف الرَّفيع والمقام العالي؛ تعدَّى التَّركُ بـ (على) في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَآ﴾؛ لتضمُّن فعل التِّرك فعل (أبقينا) مثلًا الذي يتعدّى بحرف الاستعلاء، فيكمن في التَّضمين اجتماع قوَّة الفعلَيْن: الإبقاء والتَّرك، فيدلُّ بذلك على تمكُّنِ إبقاءِ ذلك كلِّه من سيرتِهما العَطِرةِ، وأعمالِهما الباهرة، وظهورِ الشَّرفِ والسُّؤدُدِ لهما، وعُلوِّ مكانتِهما ومنزلتِهما عند الأُممِ المترادفة[3].

دلالةُ الفعلِ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ على المحذوف:

بقاءُ الذِّكر الجميل لموسى وهارونَ خلودُ ذِكرٍ، ورفعةُ مقام

مفعولُ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ محذوفٌ، أي: تركْنا عليهما الثَّناءَ الحسنَ وأبقَيْناه لهما فيمن بعدَهما إلى آخرِ الدَّهر، ويجوزُ أن يكونَ المحذوفُ مقدَّرًا، أي: وتركْنا عليهما في الآخِرين قولَهم: سلامٌ على موسى وهارون، والمرادُ أبقَيْنا لهما دعاءَ النّاس وتسليمَهم عليهما أُمَّةً بعد أُمَّة[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 547، 548، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 132.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/ 282.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 96.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في السّياق:

ظهورُ الشَّأنِ العظيمِ لموسى وأخيه، وحُسْنِ ذِكْرِهما، والثَّناء عليهما

في التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، دلالةٌ جليَّةٌ على أنَّ لموسى وهارونَ ﷺ شأنًا عظيمًا في ظهورِ مالهما من الشَّرف والسُّؤدُدِ، بذِكرِهما أحسَن الذِّكر والثَّناء عليهما أجزَلَ الثَّناءِ، زمانًا إثْرَ زمانٍ، على مرِّ الدُّهورِ، وكَرِّ العصور[1]؛ وذلك لأنَّ الظَّرفيَّة المجازيَّة مُشعِرةٌ بتغلغل ذِكرهم في حديث كلِّ مَن يأتي بعدهم حتَّى قيام السّاعة.

نُكْتَةُ فَصْلِ قولِه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

السَّلامُ لموسى وهارون ﷺ نتيجةٌ لكونهما صاحبَي شريعةٍ عريقة عظيمة

فصل قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عمّا قبلَهُ، باعتبارِه نتيجةً لما سلَفَ من كونِهما ﷺ صاحبَي شريعةٍ عريقةٍ عظيمةٍ، آتاهما اللّهُ لهما منَّةً منه تعالى، وهدايةً منه ﷻ، وبذلك اسْتحقّا من اللّهِ تعالى سلامًا ثابتًا مستقرًّا لهما في الدُّنيا والآخرة[2]، فالفصل إمّا لكمال الاتِّصال، أو للاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ حول طبيعة هذا الذِّكر في الآخرين.

نُكْتَةُ إظهار ﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

في الإظهارِ زيادةُ تعظيمٍ وإجلال

أظْهرَ النَّظمُ الكريمُ اسْمَي موسى وهارونَ ﷺ بعد إضمارِهما في الآياتِ السّابقة؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تعظيم لهما، وإظهارِ جميلِ ذِكرِهما، وعُلوِّ شرفِهما، باسْتحقاقِ السَّلامِ لهما وعليهما مِن اللّهِ ﷻ[3].

دلالةُ موقع ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

تنوُّعُ التَّأويل الإعرابيِّ مُبينٌ عن المراد في السّياق

قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ مبتدأٌ وخبر، أي: سلامٌ كائنٌ أو دائمٌ على موسى وهارون، وجازَ الابتداءُ بالنَّكرةِ لما فيه من الدُّعاء، والكلامُ واردٌ على الحكاية، ويجوزُ أن يكونَ مَحكيًّا بقولٍ مُقدَّر، أي: ترَكْنا عليهما في الآخِرينَ قولهم: سلامٌ على موسى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 16/ 282.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.

وهارون، والمرادُ أبقيْنا لهم دعاءَ النّاسِ، وتسليمَهم عليهما أمَّةً بعد أمَّةٍ، ويجوزُ أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، تقديره: هذا سلامٌ منه ﷻ، لا من الآخرين، ويجوزُ أن تكون جملة ﴿سَلَٰمٌ﴾ معمولةً لقولٍ مقدَّر، أي: (وقلنا: سلامٌ)[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

بيانُ المبالغةِ في عظَمةِ السَّلام علـى مـوسى وهارون

ساقَ النَّظمُ الكريمُ قولَه: ﴿سَلَٰمٌ﴾ نكرةً للدَّلالةِ على عظمةِ هذا السَّلام، أي: سلامٌ عظيمٌ وذلك أنَّه لّمّا كان الذِّكرُ الجميلُ عند ذوي الهِمَمِ العاليةِ والعزائمِ الوافيةِ هو الشَّرف، وظهرَ بهذا أنَّ لهما من الشَّرفِ والسُّؤدُدِ أمرًا عظيمًا؛ كانت نتيجتُه سلامًا عظيمًا على موسى وهارون[2].

نُكْتَةُ فصلِ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى﴾:

تعليلُ مجازاةِ المُحسنين بالنِّعَم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، تذييلٌ لما سبقَ من كرامةِ اللّهِ موسى وهارونَ عليهما السلام، وهذه الجملةُ تعليلٌ لمجازاةِ اللّهِ موسى وهارون عليهما السلام، بما عدَّه من النِّعَمِ؛ وذلك لأنَّهما كانا مُحْسِنَيْنِ عليهما السلام[3]، فالفصل بينهما إمّا لكمال اتِّصال هذه الجملة بسابقتها؛ لكونها جاءت في موضع التَّعليل لها، وإمّا أن يكون ترك العطف لشبه كمال اتِّصالها بها جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّر: لماذا أكرم اللّه تعالى هذَيْن النَّبيَّيْن بهذه النِّعم؟ فكانت هذه الجملة جوابًا لهذا السُّؤال.

دلالةُ حرفِ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

جـزاءُ المحسنين يُكافِئُ جزاءَ ما وصلوا إليه مِن مراتبِ الإحسان

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّشبيه، أي: إنّا مِثل ذلك الجزاءِ نجزي المحسنين، وفي هذا التَّشبيهِ تنويهٌ بموسى وهارونَ عليهما السلام، بأنَّ جزاءَهما كان هو المثالَ والإمامَ لجزاءِ المحسنين على مراتبِ

(1) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 127، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 96.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

إحسانِهم، وتفاوُتِ تقارُبِها من إحسانِهما عليهما السلام، في قوَّتِهما في تبليغِ الدَّعوة، ومجابهَتِهما لأطغى حاكمٍ في ذاك الوقت[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة (ذَلِكَ):

بيانُ عُلوِّ جزاءِ موسى وهارون، إيعازٌ لمحمَّد ﷺ بنصرِه على قريش

جاء التَّعبيرُ باسمِ الإشارة (ذلك) من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لبُعدِ جزائهما وعُلوِّه في المرتبة، أي: في مراتبِ الإحسانِ في صِنْفِ المحسنين[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى حالِ رسولِ اللّه ﷺ ومَنْ مَعَهُ من الضُّعفاء، أي: لَمّا كانَ نَصْرُ النَّبيِّ ﷺ بمَن معه من الضُّعفاءِ، على قريشٍ وسائرِ العربِ، عند قريشٍ في غاية البُعد، وكان التَّقدير: فَعَلْنا مع موسى وهارونَ ذلك لإحسانِهما؛ علَّله بما يقطعُ قلوبَ قريشٍ في مظهرِ التَّأكيدِ، في أنَّ ما يظنّونه بعيدًا سيتحقَّقُ، بجزاءِ نبيِّه وأتباعِه جزاءَ المحسنين، فينصرُه عليهم نصرًا مُبينًا[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿نَجۡزِي﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارع ﴿نَجۡزِي﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ مثلِ هذا الجزاءِ ودَيْمومتِهِ في كلِّ عَصْرٍ إلى يومِ الحسابِ والجزاء[4].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

(ال) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جنسيّة للاستغراق الحقيقيّ[5]، فهم الكاملون في صفة الإحسان، أي: إنّا كذلك نجزي مَنْ كان من زُمرَةِ المعروفين بالإحسانِ المعهودين به الرّاسخين فيه[6].

نُكْتَةُ العدولِ إلى جزاءِ المحسنين عمومًا:

جـزاءُ موسى وهارونَ إمامٌ لجزاءِ المحسنين؛ لأنَّهما قدوةٌ لهم

ذكر البيانُ القرآنيُّ عمومَ جزاءِ المحسنين دونَ تخصيصِه

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.
(5) قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم، ص: 1602.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 96.

بموسى وهارون عليهما السلام؛ لبيانِ أنَّ جزاءهما كان هو المثالَ والإمامَ لجزاءِ المحسنينَ على مراتبِ إحسانِهم وتفاوتِ تقارُبِهما من إحسانِهما عليهما السلام، فهما بلَغا قوَّةً كبيرةً في تبليغِ دعوةِ ربِّهما، ومجابهةِ أعدائه، على فداحةِ ظلمِهم وبَطشِهم، فثبت لهما بهذا وصفُ الإحسان، وأنَّهما مَثَلٌ للمحسنين في جزائهم على إحسانهم[1].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا﴾:

إيمانُ العَبْدِ علَّةٌ للإحسانِ إليه، في دنياه وأخراه

فصل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه تعليلٌ لاسْتحقاقِ موسى وهارونَ عليهما السلام المجازاةَ الموصوفةَ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فالفصل إمّا لكمال اتِّصالها بما سبق؛ لأنَّها مُؤكِّدة لمضمون ما تقدَّمها، أو لكونها جاءت استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لماذا كان لهما هذا الإكرام؟.

نُكْتَةُ العدولِ عن الإظهارِ إلى الإضمار:

بيانُ العِلَّةِ المرادة، وتقدُّمُ ذِكْرِ المُظْهَرِ يُغني عن إعادةِ إظهاره

عدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن الإظهارِ إلى الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فلم يقل: (إنَّ موسى وهارونَ مِنْ عِبادِنا)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِهما بالإظهارِ من قبلُ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

دلالةُ الحرفِ ﴿مِنْ﴾ في السّياق:

أهمّيّةُ وصفِ موسى وهارونَ بالإيمان

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تبعيضيَّة، أي: من بعض عبادنا الَّذين تحقَّقوا بمعنَى العبوديَّة، وكانت حياتُهم ترجمةً عمليَّةً لها[2]، أي: إنَّ صفةَ موسى وهارونَ عليهما السلام أنَّهما عبدانِ للّٰهِ مؤمنان به[3]، وفي هذا "تعليلٌ لإحسانِهما بالإيمان، وإظهارٌ لجلالة قَدْرِهِ وأصالةِ أمْرِه"[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 534.
(3) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 127.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 417.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ العباد:

لفظُ العبادِ تشريفٌ وتمجيدٌ

ساقَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ العبادِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لبيانِ اسْتحقاقِهما هذا الوصف، فهو وصفُ تشريفٍ ورفعِ منزلةٍ[1]، ويمكن أن يكونَ المقصودُ من التَّعبيرِ بصفةِ العُبوديَّة في لفظِ العباد مَدْحَ الصِّفةِ نَفْسِها لا مَدْحَ موصوفِها[2].

نُكْتَةُ إضافةِ العبادِ إلى ضميرِ العظَمة:

تقريبُ منزلةِ موسى وهارونَ عليهما السلام ورفعُها

أضافَ النَّظمُ الكريمُ العبادَ إلى ضميرِ العظَمة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾: إشعارًا بالتَّقريبِ ورفعِ الدَّرجة، وتشريفًا لموسى وهارونَ عليهما السلام، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١﴾ [الصّافّات: 40 - 41][3]، وفيه دلالةٌ على أنَّ مَنْ أُضيفوا بهذا الوصفِ إلى ضميرِ العظَمة، همُ الَّذين مَحَّضوا العبوديَّةَ، وخَضَعوا للّهِ تمامَ الخضوع[4]، وفيه كذلك من الدَّلالةِ على جلالةِ قَدْرِهما ما لا يَخْفَى[5].

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاسْتحقاقُ لصفةِ الإيمانِ والثَّبات فيه

(ال) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حرفيّةٌ موصولة للعاقل[6]، وقد يكون التَّعريف للعهد الذِّهنيِّ؛ أيِ: المؤمنين الكاملين في الإيمان والمعروفين لديكم، أو يكون من تعريف الاستغراق؛ للدَّلالة على كثرة أولئك المؤمنين، وقد وُصفوا بهذا الوصف؛ لأنَّهم من الرّاسخينَ في الإيمانِ على وجهةِ الإيقانِ والاطمئنان[7].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 96.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 134.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 96.

(6) قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم، ص: 1602.

(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 546.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَرْبُ والحُزنُ والبلاءُ والمصيبةُ والفِتْنة:

تـشـتـركُ هـذه المـفـردات في معنى الاختبارِ وحدوثِ الغَمِّ، وكونِها في الخيرِ والشَّرِّ

الكَرْبُ: تكاثفُ الغَمِّ مع ضيقِ الصَّدْر، ولهذا يقالُ لليومِ الحارِّ: يومُ كَرْبٍ، أي: كرُبَ مَن فيه، وقد كَرُبَ الرَّجلُ، وهو مكروب، وقد كَرَبَه؛ إذا غمَّه، وضيَّق صَدْرَه.

والحُزْنُ والحَزَنُ: ضِدُّ السُّرور، وهو تكاثفُ الغَمِّ وغِلَظُه، وهو مأخوذٌ من الأرضِ الحَزْن، وهو الغليظُ الصُّلب[1]، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34].

والبلاءُ: يكون ضَررًا ونفعًا، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ [الأنفال: 17]، ومن الضُّرِّ: بَلَوْتُه، وأصلُه أن تختبرَه بالمكروه، وتستخرجَ ما عندَه من الصَّبرِ به، ويكون ذلك ابْتداءً، والبلاءُ أيضًا اسْمٌ للنِّعمة، وأمّا النِّقمةُ؛ فلا تكونُ إلّا جزاءً وعقوبةً، وأصلُها شِدَّةُ الإنكار، تقولُ: نقمتُ عيه الأمرَ؛ إذا أنكرْتَه عليه، وقد تُسمَّى النِّقمةُ بَلاءً، والبلاءُ لا يُسمَّى نِقمةً؛ إذا كان ابتداء[2].

والمصيبةُ: أصلُها في الرَّمية، ثمَّ اختصَّت بالنّائبة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران: 165]، وأصابَ: جاء بالخير والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ [التّوبة: 50][3].

والفتنةُ: أشدُّ الاخْتبارِ وأبْلَغُه، وأصلُه عَرْضُ الذَّهبِ على النّار؛ لِتَبيُّنِ صلاحِهِ من فسادِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: 15]، وقال تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 185، والرّاغب، المفردات: (كرب)، (حزن).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 105، والرّاغب، المفردات: (بلى)، (نقم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (صوب).

﴿غَدَقًا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16 - 17]، فجعلَ النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّه قصدَ بها المبالغةَ في اخْتبارِ المُنعَم عليه، كالذَّهبِ إذا أُريدَ المبالغةُ في تَعرُّفِ حالِه؛ أُدْخِلَ النّار(1)، وجُعلتِ الفِتنةُ كالبلاء في أنَّهما يُستعملان فيما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من شدَّةٍ ورخاء، وهما في الشِّدَّةِ أظهرُ معنًى، وأكثرُ استعمالًا، قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35](2).

النَّصرُ والغَلَبَةُ:

النَّصرُ والنُّصرةُ: العَوْنُ، قال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصَّف: 13]، والنَّصرُ: يختصُّ بالمعونةِ على الأعداء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51]، وقال سبحانه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح: 3]، والنُّصرةُ لا تكونُ إلّا على المُنازِعِ المغالِبِ، والخَصمِ المناوِئِ المُشاغِبِ(3).

النَّصرُ على الأعداء، والغَلَبةُ عامَّةٌ على الأعداءِ وغيرِهم

والغَلَبَةُ: القَهْرُ، يقال: غَلَبْتُهُ غَلْبًا وغَلَبَةً، فأنا غالبٌ، قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾ [الرّوم: 2 - 3]، والغَلَبَةُ تكونُ بفعلِ القدرةِ وبفضلِ العِلم، يقال: قاتلَهُ فَغَلَبَهُ، وصارَعَه فغلَبه، وذلك لفضلِ قدرتِه، وتقولُ: حاجَّه، فغلبَه، ولاعبَه، فَغَلَبه بفضلِ علمِه وفِطْنتِه(4).

الإيتاءُ والإعطاء:

الإيتاءُ: الإعطاءُ، وخُصَّ دَفعُ الصَّدقةِ في القرآنِ بالإيتاء، قال تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ [الأنبياء: 73]، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في وصفِ الكتاب بـــ(آتَيْنا)؛ فهو أبلغُ من كلِّ موضعٍ ذُكِرَ فيه (أوتوا)؛ لأنَّ (أوتوا) قد يقالُ إذا أوتيَ مَن لم يكن فيه قَبول، و(آتيناهم) يقالُ فيمَن كان منه قَبول(5).

الإعطاءُ دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ الَّذي خُصَّ بالصَّدقة

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 396، 397، والرَّاغب، المفردات: (فتن).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فتن).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات: (نصر)، والكفويّ الحسينيّ، الكلِّيَّات: 4/ 369.
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 389، 390، والرَّاغب، المفردات: (غلب).
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 61، والرَّاغب، المفردات: (أتى).

والإعطاءُ: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، واختصَّ العطيَّة والعطاء بالصِّلة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التَّوبة: 58]. والإعطاءُ: دليلُ التَّملُّك دون الإيتاء، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّه كان له منعُ مَن شاء منه كالمالك للملك، وأمّا القرآنُ؛ فحيثُ إنَّ أمَّتَه مشاركون له في فوائده، ولم يكن له منعُهم منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87][1].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 87، والرَّاغب، المفردات: (عطا).

﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦﴾ [الصّافّات: 123 - 126]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لَمّا دَرَسَتْ بعضُ أحكامِ التَّوراةِ؛ أرسلَ اللهُ إلياسَ مُجدِّدًا لها

لَمّا كان إلياسُ عليه السلام أعْظمَ المتجرِّدين مِن أتْباعِ موسى وهارون عليهما السلام، المُجدِّدينَ لما دَرَسَ من أحكامِ التَّوراة، وكان ترْكُ أحكامِها - مع ما وُصِفتْ به من البيان، وما دعتْ إليه مِنَ الاسْتقامةِ - في غايةٍ من الضَّلالِ تكادُ ألّا يُصدَّق مثلُها، أشارَ إلى الزَّيْغِ عنه بيانًا منه تعالى؛ لأنَّ القلوبَ بيدِه سبحانه وتعالى، فقال مُؤكِّدًا: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ذاكرًا قصَّتَهُ مع قومِه في دعوتِهم إلى اللّهِ وحدَه لا شريكَ له(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِلۡيَاسَ﴾: ألِسَ، وإلياس، وألياس، عَلَمٌ أعجميٌّ، تفنَّنت به العربُ، فقطعتْ همزتَه تارةً، ووصَلَتْها أخرى، وقالوا فيه: إلياسين كجِبرائين، وقيل: اسْمُه ياسين، ثمَّ دخلت عليه (ال) المعرفة، وهو على وزنِ (إفعال)، الفاء والعين تقابلُ اللّامَ والياءَ والسّين، من قولهم: رجلٌ ألِسٌّ، وهو الشُّجاع الَّذي لا يفرُّ(2)، وقيل: هو من أيَسَ، والدّاعي إلى تسميتِه بهذا الاسْمِ ما سبقَ في عِلمِ اللّهِ أنَّه ييأسُ ممَّن يدعوهم إلى اللّه، فيكون ممَّن يأتي يومَ القيامةِ وما معه إلّا الواحدُ والاثْنانِ(3)، وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ﴾، أي: نبيٌّ مِن أنبياءِ بني إسرائيل، وهو إلياسُ بن إلياسين

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 282، 283.
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (ألس).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 283.

من سبط هارون أخي موسى عليه السلام، وقيل: هو إدريس، نحو إسرائيل ويعقوب[1]، والأوّل أوْلى[2].

2) ﴿بَعۡلٗا﴾: (بعل) أصولٌ ثلاثةٌ، فالأوّلُ: الصّاحبُ، يقال للزَّوج بَعْلٌ، وكانوا يُسمّون بعضَ الأصنام بَعلًا، ومن ذلك البِعالُ: وهو ملاعبةُ الرَّجلِ أهلَه، والبَعْلُ بمعنَى المالكِ والسَّيِّدِ، والأصلُ الثّاني: جِنْسٌ من الحَيْرَة والدَّهَش، يقالُ: بَعِلَ الرَّجلُ؛ إذا دَهِش، والأصلُ الثّالثُ: البَعْلُ من الأرض: المرتفعةُ الَّتي لا يصيبُها المطرُ في السَّنَة إلّا مرَّةً واحدة، وممّا يُحمَلُ على هذا الباب الثّالث: البَعْلُ، وهو ما شرِبَ بعروقِه من الأرض من غيرِ سَقْيِ سماء[3]، وقولُه تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾، أي: صنَمًا كانوا يعبدونه[4]، ويجوزُ أن يُراد بالبَعْل: الرَّبُّ، أي: ربًّا[5]، ويمكنُ أنَّهم سَمَّوا أصنامَهم بَعْلًا لهذا المعنى، فيكون في هذا جمعٌ بين القولَيْنِ في البَعْلِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

رسالةُ إلياسَ عليه السلام دعوةُ بني إسرائيلَ إلى عبادةِ اللهِ وحدَه

يخبِرُ اللّهُ تعالى عن رسولِه إلياس عليه السلام، وقد بعثَهُ في بني إسرائيل، وكانوا قد عبَدوا صنَمًا، يقال له: بَعْل، فدعاهم إلى اللّهِ تعالى، ونهاهم عن عبادةِ ما سواه، وأمرَهم بتقوى اللّهِ والخوفِ منه، فقال لهم: ألا تخافونَ اللّهَ عز وجل في عبادتِكم غيرَه، وتتركونَ عبادةَ اللّه الَّذي خلقَ كلَّ شيءٍ على أحْسنِ جهةِ التَّمام، وهو المُستحِقُّ للعبادةِ وحدَهُ لا شريكَ له، وهو ربُّكم الَّذي خلقَكم وخَلقَ آباءكمُ السّابقين[6].

---

(1) الماورديّ، لباب التَّأويل: 5/ 64، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/ 36، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 7/ 79.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 326، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 538.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (بعل).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 117.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 91، والماورديّ، النُّكت والعيون: 5/ 64.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 18.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ عَطْفِ ذِكرِ إلياسَ على سابقيه:

تسليةُ الرَّسول ﷺ وإنذارُ الكافرين مُبيَّنةٌ في المراد المستفاد

لَمّا ذكر النَّظمُ الكريمُ نوحًا وإبراهيمَ وموسى ﵈، وما لَقوه من قومِهم؛ أَتْبَعَهم بذِكر قصَّةِ إلياسَ بصفةِ الرَّسول؛ لأنَّهم ﵈ سواءٌ في مرتبةِ الدَّعوةِ إلى دين الله؛ ليكونَ في ذلك شواهدُ لتسليةِ رسولِ الله ﷺ، وقوارعُ من الموعظةِ لكفّارِ قريشٍ؛ ليرعَووا عمّا هم عليه مِنَ الكفرِ والعنادِ، وليكفّوا أيديَهم عن إيذاءِ الرَّسولِ والمؤمنين به[1].

نُكْتَةُ تأكيد الجملة بـ(إنَّ):

إثـارةُ الاهتمامِ بـكـونِ إلـيـاسَ رسولًا مُبلِّغًا عن الله، مفيدٌ لبيان مقامِه

أتبع الكلام على رسل ثلاثة أصحاب الشرائع: نوح وإبراهيم وموسى بالخبر عن ثلاثة أنبياء وما لقوه من قومهم وذلك كله شواهد لتسلية الرسول محمد ﷺ وقوارع من الموعظة لكفار قريش. وابتدئ ذكر هؤلاء الثلاثة بجملة ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّهم سواء في مرتبة الدعوة إلى دين الله، وفي أنَّهم لا شرائع لهم. وتأكيدُ إرسالهم بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر؛ لأنَّه قد يُغفل عنه إذْ لم تكن لهؤلاء الثلاثة شريعةٌ خاصَّةٌ[2].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَمِنَ﴾ هي المزَحْلَقةُ[3]، ووظيفتُها تأكيدُ الخبرِ في ذهنِ المخاطَب، والاهتمامُ بمضمونِه، وإزالةُ الزَّيغِ عن القلوبِ في شأنِه[4].

دلالةُ الحرف (مِنْ) في السّياق:

بـيـانُ صـفـةِ الرَّسولِ لإلياسَ ﵇

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تبعيضيّة، أي: أنّه من جملة الذين أُرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالات الله وأوامره وأحكامه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 165.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 166.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 306.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 283.

فإلياس عليه السلام رسولٌ كمَن تقدَّمَهُ مِنَ الرُّسُلِ، وصاحبُ رسالةٍ من ربِّهِ ودعوةٍ إلى عبادةِ اللّهِ وحدَه لا شريك له[1].

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

استحقاقُ صفةِ الرّسالة لمَن دعا إلى عبادةِ اللهِ واجْتناب الطّاغوت

(ال) في ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جنسيّةٌ للاستغراق، تُفيد اتّصافه بكمال صفة الرّسالة، لأنّه أُمِرَ من جانبِ اللّهِ تعالى بتبليغِ مُلوكِ إسرائيلَ أنَّ اللّهَ غضبَ عليهم من أجلِ عبادةِ الأصنام، فإطلاقُ وصفِ الرَّسولِ عليه مثلُ إطلاقِهِ على الرُّسل إلى أهلِ أنطاكيَّةَ المَذكورين في سورة يس[2]، وإلياس "مِن أنبياء بني إسرائيلَ مِن بعد زمن سليمان، أرسله اللّهُ لمّا انتشرت الوثنيَّةُ في الإسرائيليّين، وساعد على انتشارها بينهم ملوكُهم، وبَنَوا لها المذابحَ، وعبدوها مِن دونِ اللّه تعالى، ونبذوا أحكام التَّوراة ظِهريًّا، فقام إلياسُ عليه السلام يوبِّخُهم على ضلالهم، ويدعوهم إلى التَّوحيد، ويُسمَّى في التَّوراة (إيليا) وله نبأٌ فيها كبيرٌ"[3].

دلالةُ الأداة ﴿إِذۡ﴾ في السّياق:

﴿إِذۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ ظرفٌ بمعنى (حين) متعلِّقٌ بـ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، أي: إنَّهُ من حين ذلك القولِ كان مبلِّغًا رسالةً عنِ اللّهِ تعالى إلى قومِه[4].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾:

بيانُ دعوةِ إلياسَ عليه السلام قومَهُ لتوحيدِ الله

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ للتّبليغ أو التّعليل[5]؛ أي: قام إلياسُ عليه السلام، داعيًا قومَه إلى نَبْذِ عبادةِ بَعْلِ الصَّنم، وإفرادِ اللّهِ بالعبادة، وهو تعالى يمدحُه بالنُّبوَّة والرِّسالة، والدَّعوة إلى اللّه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 166.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 166.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 225.
(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 327، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 166.
(5) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 5/ 47.

وأنّه أمرَ قومَهُ بالتَّقوى، وعبادةِ اللّه وحدَه، ونهاهم عن عبادتهم صَنَمًا لهم يقال له: (بعل)، وتَرْكِهم عبادةَ اللّه الَّذي خلق الخَلْقَ، وأحسنَ خَلْقَهم، وربّاهم، فأحسنَ تربيتَهم، وأدرَّ عليهمُ النِّعمَ الظّاهرةَ والباطنة"[1].

نُكتةُ إضافةِ القومِ إلى ضميرِه عليه السلام:

إضافةُ القومِ إلى ضميرِ إلياسَ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾؛ لبيانِ أنَّ قومَه هم بنو إسرائيل، وأنَّه رسولٌ من بني إسرائيل، مِن سلالةِ يعقوبَ عليه السلام.

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

إنكارُ عدمِ تقواهم تشنيعٌ لعبادتِهم الصَّنمَ لعلَّهم يتَّقون

قولُه تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: قال إلياسُ عليه السلام لبني إسرائيل مُنكِرًا عليهم ما مِن حقِّه الإنكار: ألا يوجَدُ منكم تقوًى وخوفٌ، فإنَّ ما أنتم عليه يقتضي شرًّا طويلًا، وعذابًا وبيلًا، وما أنتم عليه من السُّكونِ والدَّعَةِ يقتضي أنَّه لا خوفَ عندَكم أصلًا، وذلك غايةُ الجهلِ والاغترارِ بمَن تعلمون أنَّه لا خالقَ لكم، ولا رازقَ غيرُه[2]، ولا يملك أحدٌ لنَفْسِه ولا لكم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، وهذا إنكارٌ عليهم وتقبيحٌ وتوبيخٌ، بغرضِ الكفِّ عن عبادةِ غيرِ اللّهِ تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾ منفيًّا:

(لا) في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ نافيةٌ، بيَّنَتْ عدمَ تقواهم، أي: لا تتَّقونَ اللّهَ بعبادتِكمْ لبَعْلِ الصَّنَم[3].

ضرورةُ الاستمرارِ في وقايةِ النَّفْسِ ممّا يخالفُ عبادةَ اللهِ وحدَهُ

والتَّقوى: حِفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه، ويَضُرُّه، فهي جَعْلُ النَّفْسِ في وقايةٍ ممّا يُخاف، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11][4]،

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 707.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 284.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 166.
(4) الرّاغب، المفردات: (وقى).

وجاء الفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بصيغةِ المضارع منفيًا بعد الاسْتفهامِ الإنكاريِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّ قومَ إلياسَ عليه السلام، كان عدمُ التَّقْوى منهم متجدِّدًا مستمرًّا، ولذلك نهاهم عليه السلام عن الاسْتمرارِ في بُعدِهم عنِ التَّقْوى، وأمرهم بديمومةِ الالتزامِ بالتَّقوى، وعدمِ عبادةِ الصَّنم (بَعْل).

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَتَّقُونَ﴾:

مَنْ يَعبُد صنمًا، لا يكون من المتّقين

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لدلالةِ ما بعدَه عليه، وهو قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾، أي: أتتركون اللّٰه الخالق العظيم وتعبدون صَنمًا[1]؟ والمعنى: "إذْ قالَ لِقَوْمِهِ حين انحرفوا عن سُبُلِ السَّلامة وطُرقِ الاستقامة، بالظُّلم على عباد اللّٰه، والخروجِ عن مقتضيات حدوده: ألا تَتَّقونَ اللّٰه، وتحذرون من بطشِه أيُّها المفسدون المُفْرِطون في الإشراك باللّٰه، والدَّعوة إلى غير اللّٰه؟"[2].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾:

عـدمُ التَّقْوى مدعاةٌ لعبادةِ غيرِ الله

لَمّا كان الإنكارُ في قولِه تعالى على لسان إلياس عليه السلام: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ سببًا للإصْغاء من جهة قومه؛ فقد كرَّره مستأنِفًا موضّحًا بسببه، فقال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾، أيْ: إلهًا وربًّا، فَمَنْ لم يتّقِ، ويتّبِعِ الحقَّ؛ يعبُدْ صنَمًا جمادًا لا يضرُّ، ولا ينفع[3]، فالفصل لكمال الاتِّصال؛ لأنَّ الاستفهام مؤكِّدٌ لمضمون ما قبله.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغَرَضُهُ:

إنكارُ عبادةِ الصَّنَمِ لِرَدْعِ عُبّادِه، كي يعبدوا اللهَ وحدَه

قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ اسْتفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ، جاء تعقيبًا على إنكارِه عليهم عدمِ تقواهم؛ ليُبيِّنَ أنَّ عدمَ التَّقوى سببٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 166.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 221.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 284.

للضَّلالِ في اتِّخاذِ معبودٍ مُزيَّفٍ، غيرِ المعبودِ بحقٍّ، وهو اللّهُ وحدَه لا شريكَ له، فلا بدَّ مِنَ التَّقْوى للعَوْدِ للحقِّ والتزامِه[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ (تَدْعونَ):

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ (تَدْعونَ) في قوله: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ عبادتِهم لذاكَ الصَّنمِ واسْتمرارِها، ولذلك جاء بعد الاسْتفهامِ الإنكاريِّ بهذه الصّيغة؛ مبالغةً في بيانِ إصرارِهم على عبادته.

استمرارُ بني إسرائيل في عبادةِ الصَّنم تعبيرٌ عن المآل المُحتَّم

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿بَعۡلٗا﴾:

جاء تنكيرُ ﴿بَعۡلٗا﴾ في قوله: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾؛ للدَّلالة على ازْدراءِ فِعلِهم وتقبيحِه؛ إذْ يعبدون صنمًا لا يخرجُ عن كونه جمادًا من الجماداتِ المصنوعةِ بأيديهم لا قيمةَ لها ولا منزلة، فهي مصنوعةٌ لا صانِعة، محكومةٌ لا حاكِمة، جامدةٌ لا حياةَ فيها.

ازْدراءُ عبادةِ صنمٍ لا روحَ فيه، تحكيمٌ للمنطق النَّزيه

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَتَذَرُونَ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ عاطفةٌ لجملتِها على ما قبلَها، أي: أتعبدونَ صنمًا، وتتركون الَّذي من شأنِه أن يُعبَدَ، وهو أحقُّ بالعبادة؟ فجمعَ بين عبادتِهم الصَّنمَ وترْكِهم لعبادةِ اللّهِ الحقِّ، وفي هذا تأكيدٌ لقُبحِ ما هم عليه من الضَّلال[2].

استمرارُ بني إسرائيل في تركِ عبادةِ اللّه، دَيدَنٌ لهم وطبيعةٌ فيهم

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَتَذَرُونَ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ في قوله: ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على اسْتمرارِ قومِ إلياسَ عليه السلام في تركِ عبادةِ اللّهِ وحدَه، وإيْغالِهم في الضَّلالِ، واسْتمرائِهمُ الكفرَ، وتهافتِهم في ما هم فيه من عبادةِ ذاك الصَّنم؛ لذلك قال لهم: "أتَدْعونَ أيُّها الجاهلون بَعْلًا، أي: صنمًا مُسمًّى به، وترجعون نحوَه

التَّعبيرُ عن استمرار القوم في تركِ عبادةِ اللّه جل جلاله

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 284.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 285.

في المُهمّات والملمّات، وتَذَرونَ أَحْسَنَ الخالِقينَ؟ أي: تتركون الدَّعوة والرُّجوعَ إلى الحقِّ الحقيق، بالإطاعة والانقياد المستحقِّ للعبوديَّة والرُّجوع إليه، في الخطوب والملمّات"[1].

بلاغةُ الطباق بين (تَدْعونَ) و(تَذَرونَ):

فعلُ المُنكرِ وتركُ المعروفِ انحرافٌ جَليٌّ عنِ الحَقِّ المألوف

لَمّا كان قولُه تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ﴾ بمعنى: تعبدون، وقولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ بمعنَى: تتركون؛ فُهِمَ من السّياقِ أنَّ عبادتَهم كانت لصَنم، وتَرْكَهم كان لعبادةِ اللّهِ الحقِّ، فَهُم يعبدون ما يجبُ عليهم تَرْكُهُ، ويتركونَ ما يجبُ عليهم عبادتُه، فالأوَّلُ: دليلُ الاهتمام، والثّاني: دليلُ الإهمال، فكان الطباق بين ذِكرِ النَّقيضَيْن دليلًا على انقلابِ المراد، في فِعْلِ القَبيح وتَرْكِ الحَسَن، وفي هذا الطباق تأكيدُ ضلالِهم، ومبالغةٌ في شدَّةِ انْحرافِهم عنِ الحقِّ[2].

غرضُ وصْفِ اللهِ تعالى بـ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾:

تسفيهُ عقولِ الَّذين عبدوا مَنْ له أقبحُ الصِّفاتِ وأنقصُها

جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ ذِكْرُ صفةِ اللّهِ تعالى دونَ اسْمِهِ العَلَم؛ تعريضًا بتَسْفيهِ عقولِ الّذين عَبَدوا بَعْلًا، بأنَّهم تركوا عبادةَ الرَّبِّ المتَّصفِ بأحسنِ الصِّفاتِ وأكملِها، وعبدوا صنَمًا ذاتُهُ وحْشٌ، فكأنَّه قال: أتَدْعونَ صَنمًا بَشِعًا، جمعَ عُنصري الضَّعف، وهما: المخلوقيَّةُ وقُبحُ الصّورة، وتتركونَ مَنْ له صفةُ الخالقيَّةِ والصِّفاتُ الحُسْنَى[3].

صيغةُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ بين المفاضلةِ وسَلْبِها:

لا مفاضلةَ بين الخالقِ والمخلوق

اللّهُ ﷻ هو المنعم على عباده، والعبادُ المحسنون على غيرِهم هم محسنون بإحسانِ اللّهِ إليهم أوَّلًا، ولأنَّ الإحسانَ أعمُّ من الإنعام، فيكون اللّهُ تعالى أحسنَ المحسنين، فهذه المفاضلةُ على وجهِها

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 221.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 285.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 167.

الصَّحيح، وأمّا سلبُ المفاضلةِ؛ فهو معنًى مقبولٌ ومُتبادرٌ إلى الذِّهن على المبالغة في أنَّ اللّه تعالى أحسن الخالقين، لا على معنى أنَّ هنالك خالقًا غيره، وإنَّما المُراد بالمفاضلةِ المبالغةُ في إثبات حُسْنِ خَلْقِه، والتَّقدير: (فاللّهُ خالقُ كلِّ شيء، ولا خالقَ سواه)، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النّحل: 17].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾:

جميعُ مَن يُعتقَدُ خالقيَّتُهم ليسوا كذلك بيقين

(ال) في قولِه تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ جنسيّة للاستغراق الحقيقيّ[1]؛ وذلك للتّأكيد والمبالغةِ في إنكارِ وجودِ خالِقين غيرِ اللّه تعالى، فمَن يحتاجُ في الإيجادِ والإعدام إلى أسبابٍ في إعدام ما يشاء وإيجادِ ما يريد، فلا يستحقُّ العبادة؛ لأنَّه ليس خالقًا على الحقيقة، إنَّما العبادةُ تكونُ لِمَن لا يحتاجُ إلى أسبابٍ في الإيجادِ والإعدام، وفي هذا تنبيهٌ على عظيمِ غلطِهم في الفعلِ والتَّرك[2].

نُكْتَةُ وصفِ غيرِ اللهِ تعالى بالخَلْق:

بيانُ أنَّ إسناد صفةِ الخلْقِ لغيرِ اللهِ، على سبيلِ المجازِ والتَّقدير

جاء وصفُ غيرِ اللّهِ تعالى بالخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، مع أنَّه لا خالقَ إلّا اللّهُ ﷻ على معنَى التَّقدير، أي: أحسنَ المُقدِّرين[3]، ويمكن أن يكون هذا الوصف على تقدير ما كانوا يعتقدونَ، أو يزعمونَ أنَّ غيرَ اللّهِ يُبدع، أي: أحسنَ المُبدعين[4]، ويمكن أن يكونَ على تقدير: مَن يقالُ له خالق[5].

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

تذكيرُ القومِ بأنَّ من أصولِ الدّينِ، أنَّه لا ربَّ لهم إلّا ربُّ العالَمين

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ قراءتان متواترتان، الأولى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بنصبِ الهاءِ والباء، وهي قراءة حفص وحمزة والكسّائي

---

(1) قباوة، المفصل، ص: 1607.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 285.
(3) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 135.
(4) الرَّاغب، المفردات: (خلق).
(5) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 539.

ويعقوب وخلف العاشر، والثّانية: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ برفعِ الهاءِ والباء، وهي قراءة الباقين[1]. والقراءةُ الأولى: على عطفِ البيانِ أو البَدَلِ أو الصِّفة لـ ﴿أَحۡسَنَ﴾، والمقصودُ من البيانِ زيادةُ التَّصريح؛ لأنَّ المقام مَقامُ إيضاحٍ لأصلِ الدّيانة، وأنَّ اللّهَ خالقُكم ورازقُكم. والقراءةُ الثّانية: على الابْتداء، والخبرُ مُستعمَلٌ في التَّنبيه على الخطأ بأن عَبَدوا بَعْلًا، وعلى كِلتا القراءتَيْن فالكلامُ مَسوقٌ لتذكيرِهم بأنَّ من أُصولِ دينِهم أنَّهم لا ربَّ لهم إلّا اللّه، وهذا أوَّلُ أصولِ الدّين، فإنَّه ربُّ آبائهمُ الَّذين لم يعبدوا إلّا اللّهَ من عهدِ إبراهيمَ ويعقوبَ عليهما السلام[2]، "قال النَّحّاس: وأولى ما قيل: إنَّه مبتدأٌ وخبر، بغير إضمار ولا حذف، وحُكيَ عن الأخفش: أنَّ الرَّفع أولى وأحسن، قال ابن الأنباريِّ: مَن رفع أو نصب؛ لم يقف على ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ على جهة التَّمام؛ لأنَّ لفظ الجلالة اللّهَ مُترجِم - أي بدل[3] - عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعًا، والمعنى: أنَّه خالقُكم وخالقُ مَن قبلَكم، فهو الَّذي تحقُّ له العبادة"[4].

نُكْتَةُ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ﴾:

تأكيدُ ربوبيَّةِ اللهِ لهم ولآبائهم، مبينٌ لأصل العقيدة الحقَّة

لَمّا كان الموصوفون بالفعلِ والتَّركِ في غيرِ وجههما الصَّحيح، ربَّما أسندوا إيجادَهم إلى مَنْ قبلَهم غباوةً منهم أو عِنادًا، جاء العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لتأكيدِ حقيقةِ ربوبيَّةِ اللّهِ لهم ولمَن سبقَهم، بالخَلقِ والإيجادِ والتَّربية[5].

وفي هذا العطف تأكيدٌ لإنكارِ تركِهم عبادتَه تعالى، والإشعارِ ببُطلانِ آراءِ آبائهم أيضًا[6].

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 360، والعكبريّ، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 207، والقاضي، الوافي، ص: 351.
(2) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 304، ومكِّي، الكشف: 2/ 228، 229، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 485.
(3) هذا في اصطلاح الكوفيين، يُنظر: ابن السرَّاج، الأصول في النحو: 2/ 189.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 11/ 419.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 285.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 548.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

(ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للاستغراق، أي: مَنْ هم أوَّلُ لكم، فشَمَلَ ذلك آباءَهُمُ الأقربين، ومَن قبلَهم إلى آدمَ عليه السلام(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاء والعِبادة:

بين الدُّعاءِ والعبادةِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ

الدُّعاءُ: الرَّغبةُ إلى اللّهِ تعالى، وهو على وجهِ العموم، طلبٌ ممَّن هو فوقَ الدّاعي، والدُّعاءُ كالنِّداء، إلّا أنَّ النِّداءَ قد يقال بـ (يا) أو (أيا) ونحوِ ذلك، من غيرِ أن يُضَمَّ إليه الاسْم، والدُّعاءُ لا يكادُ يقالُ إلّا إذا كان معه الاسم، قال اللّه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: 110]، والدُّعاءُ عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، وأصلُ الدُّعاءِ طلبُ الفعل، مِن: دعا يدعو، ويكون هنا يدعو، أي: يعبُد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ [المؤمنون: 117]، والدُّعاءُ إذا كان للّه تعالى؛ فهو مثلُ المسألةِ معه اسْتكانةٌ وخضوع، وإذا كان لغيرِ اللّه؛ جازَ أن يكونَ معه خضوع، وجاز ألّا يكون معه ذلك، ويُعدَّى هذا الضَّرْبُ من الدُّعاء بـ (إلى)، فيقال: دعاه إليه، وفي الضَّرب الأوَّل بالباء، فيقال: دعاهُ به، تقول: دعوتُ اللّهَ بكذا، ولا تقول: دعوتُه إليه؛ لأنَّ فيه معنى مطالبتِه به وقَوْدِه إليه، والدُّعاءُ يكونُ برفعِ الصَّوْتِ وخَفْضِه، يقال: دَعَوْتُ من بعيد، ودَعَوْت اللّهَ في نَفْسي(2).

وأمّا العبادةُ؛ فهي غايةُ الخضوع، ولا تُستَحقُّ إلّا بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يجوزُ أن يُعبَدَ غيرُ اللّهِ تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلّا مع المعرفة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 16/ 286.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 231، 495، 534، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (دعا).

بالمعبود، ولا تكونُ إلّا للخالق، والعُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعبادةُ أبلَغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، وهي لا تكون إلّا لله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: 40][1].

يذرون ويتركون:

يشتركان في الانصراف عن الشَّيء، والأوَّلُ في الشَّيء الَّذي لا يُعتدُّ به

وذَرَ الشَّيءَ: تَركَهُ، ويَذَرُهُ: يَدَعُهُ، وذَرْهُ: دَعْهُ، ويقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقْذِفُه لقلَّةِ اعْتدادِه به، ولذلك سُمّيتِ الوَذَرَةُ - وهي قطعةٌ من اللَّحم - بذلك الاسمِ لقلَّة الاعتدادِ بها، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127][2].

وأمّا التَّرك؛ فهو تخليفُ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيه، والانْصرافُ عنه، ولهذا يُسمّون بيضةَ النَّعامةِ - إذا خرجَ فرخُها - تَريكة؛ لأنَّ النَّعامةَ تنصرفُ عنها، وترْكُ الشَّيءِ: رفْضُه قصدًا واخْتيارًا، أو قَهْرًا واضطرارًا، فمن الأوَّل قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ [الدُّخان: 24]، ومن الثّاني: قولُه تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥﴾ [الدُّخان: 25]، ومنه يقالُ: تَرِكَةُ فلانٍ، لما يُخَلِّفُه بعد موتِه، وقد يقالُ في كلِّ فعلٍ يُنْتَهى به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مجرَى جعلتُه كذا، نحو: تركتُ فلانًا وحيدًا[3].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 349، 543، والرَّاغب، المفردات: (عبد).
(2) الرَّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (وَذَرَ).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 123، والرَّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (ترَكَ).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾

[الصافات: 127 - 132]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذِكرُ تكذيبِ الأقوامِ الرَّسولَ تسليةٌ، وذِكرُ إقحامِهم في العذابِ استبعادٌ للتَّرجية

مِن أعظمِ المقاصد الرَّبّانيَّة مع رُسلِهِ التَّسليةُ والتَّرجية، فكان أن تسبَّب عن دعائِهِ قومَهُ أن قابلوه بالتَّكذيب، ففي طيّاتها إدانةٌ شديدةٌ لتلك الأمَّةِ الكافرة، ولمّا كان هذا حالهم؛ كانت التَّرجية أبعدَ منالًا منهم، فتسبَّب عن عاقبة تكذيبهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ تعبيرًا عن حتميَّة العقاب، وحلول القهرِ والهلاك بأن أقحموا في عذابِنا الأصغر والأكبر؛ ليبقى أثرُهم السيِّئَ خالدًا على مرِّ العصور، وتتابعِ الآباد والدُّهور إلّا عبادًا لنا علموا عظمته تعالى، فعملوا بما عَلِموا، فصدَّقوا الرُّسل، وآمنوا بهم، ولم يكذِّبوهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾: جمعُ سلامةٍ لمذكَّر، مفردُهُ (محضر)، وجذره اللُّغويُّ (حضر)، وهو خلافُ البدو، ومنه الحاضرةُ خلاف البادية، والحضور قربُ الشَّيء، ومِن معاني الحضورِ ما كان خلاف الغيبة، ومنه حضورُ القوم؛ إذا شهدتهم، ويُطلق على المقيمِ حاضرًا خلاف المسافر، وإذا كلَّمتَ أحدًا بحضرتِه؛ فمعناهُ بمشهد منه، و"الحاء والضّاد والرّاء إيرادُ الشَّيء، ووروده ومشاهدته"، وقد يردُ الحضورُ بمعنى المجيءِ؛ لأنَّ معناه المحوريَّ مشتملٌ على الانتقال[2]، ومعنى

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 286.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حضر).

﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾، "أريدَ بهم المحضرون في النّار... وقد كثرَ إطلاقُ المحضر ونحوه على الَّذي يحضر لأجل العقاب"[1].

2) ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: جمع سلامةٍ لمذكَّر مفرده (مخلَص)، وجذره اللُّغويُّ (خلص)، ومعناه النَّجاة، فإذا نشب الشَّيء، ثمَّ نجا، وسَلِمَ؛ فقد خلَصَ خلوصًا، ويرد بمعنى الصَّفاء من الكدرِ والدَّرن، ويكون الخلوصُ بمعنى التَّخصيص والاختيار، والخاء واللّام والصّاد أصلٌ مطَّرد دالٌّ على تنقية الشَّيء وتصفيتهِ وتهذيبِه[2]، ومعنى ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في الآية، وهو وصفٌ للعباد أنَّهم الَّذين اختارهم الحقُّ سبحانه، فأنجاهم مِنَ العذاب بأن وفَّقهم لعبادته وطاعته وتوحيده[3].

3) ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾: فعلٌ ماضٍ ومعنى التَّرك وداعك الشَّيءَ، ومِن معانيه الجعلُ أن تجعل شيئًا، كقولهم: تركت الحبلَ شديدًا، أي: جعلتهُ، ومِن معانيه الإبقاءُ على الشَّيء، وتركت الشَّيء بمعنى: خلَّيته، ومِن معاني تركك الشَّيء: أن ترفضَهُ على جهة القصدِ والاختيار، أو القهر والاضطرار، والمعنى المحوريُّ للتَّرك: مفارقةُ شيء شيئًا كان يعلقُ به[4]، ومعنى ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾: أنَّنا أبقينا له مِن الذِّكر الحسن[5] والثَّناء الجميل فيمن جاء بعده مِن الأمم.

4) ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: الآخِرُ ما كان ترتيبه بعد الأوَّل، ويأتي صفةً، والآخَر بمعنى الأخير، ومِن معانيه أنَّه ما يُقابل به الأوَّل، كتعبيرِهم عن الدُّنيا بالنَّشأة الأولى مقابل الآخرة، وهي النَّشأة الثّانية، ويأتي بمعنى تخلُّف الشَّيء مكانًا أو زمانًا عن مقارنه وملابسه[6]، ومعنى ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير، أي: الأمم الَّتي تأتي بعد إلياس عليه السلام في الزَّمن[7].

5) ﴿سَلَٰمٌ﴾: السِّلم نقيضُ الحرب، وفي تعبيرات النّاس قولُهم: السَّلام عليكم، فهو دعاءٌ على معنى السَّلامة من الله عليكم، واشتُقَّ منه السَّلامة، والسَّلامُ مِن أسماء الحقِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 118.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(3) مكي القيسي، الهداية: 9/ 6155.
(4) الجوهري، الصحاح، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).
(5) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 1/ 254.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخر).
(7) مجموعة مؤلفين، التّفسير الوسيط: 8/ 448.

ﷻ والسّين واللّام والميم أصلٌ يرد أكثرُهُ على معنى الصِّحَّةِ والعافية، وكون السَّلام مِن أسمائِهِ تعالى، فلسلامتِهِ ممّا يلحق المخلوقين مِن الآفات والعاهات والعيوب، فالسَّلامة "التَّعرّي مِنَ الآفات الظّاهرة والباطنة"، ويأتي السَّلام بمعنى الانقيادِ والاستسلام، ويرد أيضًا بمعنى الدُّعاء للإنسان بأن يكونَ سالمًا مِنَ العيوبِ والآفات في دينهِ ومالهِ[1]، ومعنى ﴿سَلَٰمٌ﴾ في الآية محلُّ التَّفسير الثَّناء الحسن، والخير العميم الَّذي ترك عليه في الآخرين[2].

6) ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾: اسم عَلَم دالٌّ على نبيِّ اللّه إلياس عليه السلام بزيادة الياء والنّون في آخره، كما يقال: ميكال وميكائيل وميكائين، ويجوز أن يكونَ إلياس وإلياسين بمعنى واحدٍ[3]، ويقال: إنَّه اسم عبرانيٌّ، وإنَّ المعنيَّ به نبيُّ اللّه إدريس عليه السلام[4]، وجعله مِن لفظين مِن الآلِ مضافًا إلى ثانيه، وهو إلياسُ بزيادة الياء والنّون، والآلُ هم أهلُ الرَّجل وأعوانُه ومناصروهُ[5]، واختلافُ المعنيين واردٌ بموجب اختلافِ قراءةِ الاسم بين العلَميَّة، وإضافة الآل إلى الاسم الثّاني[6]، وهذا ما دأب عليه كثيرٌ مِن المفسِّرين، فإنَّ لفظ ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ متردِّدٌ عندهم بين كونهِ علمًا على نبيِّ اللّه إلياس عليه السلام وكونه دالًّا على آل النَّبيِّ[7].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

نهايةُ الكافرين وبقاء أثرِ المؤمنين

إنَّ إلياس – وقيل: إنَّه إدريس – لمرسلٌ مِنَ المرسلين قد قال لقومِهِ مِن بني إسرائيلَ: ألا تتَّقون اللّهَ أيُّها القوم، فكذَّبه قومه، فكان عاقبةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (سلم).
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 618.
(3) السّجستاني، غريب القرآن، ص: 110.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ليس).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 170.
(6) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 322.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 118.

أمرهم أن يُحضروا إلى عذابِ اللّه تعالى، فيشهدوهُ إلّا عباد اللّه الَّذين آمنوا به، فأخلصهم مِن عذابه، ثمَّ جعل أثرَهُ ثناء حسنًا باقيًا فيمن كانَ بعدَهُ من الأمم، ثم قال: سلامٌ على هذا النَّبيِّ وحده أو مع قومِهِ، فإنَّه تعالى يجزي أهلَ طاعتهِ، ومَن أحسنُ عملًا مِن عباده، فإنَّ إلياسَ عبدٌ مِن عبادِنا المؤمنين الموحِّدين غير المشركين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

مقابلةُ الدَّعوة إلـى التَّوحيد بالتَّكذيب

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دالَّة على السَّببيَّة؛ فإنَّه لَمّا دعاهم إلى تقوى اللّه، وألّا يدعوا غيره كونه أحسنَ الخالقين، وأنَّه ربُّهم وربُّ آبائهم الأوَّلين؛ تسبَّب عن دعائهِ إيّاهم تكذيبَهم هذا[2]، وهو تكذيبٌ لم يكن حدثًا عارضًا، بل هو إيذانٌ بتمسُّكهم بشرك الآباء والأجداد، ورفضهم قبول الحقِّ، فإنَّ دعوة إلياس كانت سببًا لتكذيب قومه، وكشفت عن عنادهم وكفرهم.

وتحتمل الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أن تكون دالَّةً على العطف[3]، بأن عطفت فعل التَّكذيب على ما مضى مِن دعوة إلياس عليه السلام قومه بأن يتَّقوا اللّه، وأن يدعوا ما كانوا يعبدونَ مِن دونِ اللّه، فهو أحسنُ الخالقين، وهو ربُّهم المحسن إليهم، وربُّ آبائهم الأوَّلين.

ويجوز أن تكونَ الفاء الدّاخلة على فعل التَّكذيب لإفادة الاستئناف[4]؛ إشارةً إلى البدءِ بمعنًى جديدٍ ومستقلٍّ عمّا سبقَهُ، وهدفُهُ إبرازُ الفعل الذي يليه، وهو فكرةُ تكذيب القوم للنَّبيِّ المرسل إليهم، وهو إلياس عليه السلام ومن ثمَّ فإنَّ الفاء هنا تعمل على بيان أهمّيَّة هذا التَّكذيب، وتوجيه الانتباه إليه كخطأٍ جسيم، وكفرٍ عظيم.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 99 - 104.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 286.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 306.
(4) بهجت، الإعراب المفصل: 10/ 59.

ويجوز أن تكونَ الفاء الدّاخلة على فعل التَّكذيب لإفادة التَّعقيب والفور والمباشرة[1] إشارةً إلى أنَّهم كذَّبوا رسالته، وما دعا إليه من التَّوحيد غِبَّ دعوته مباشرة من غير إمهال أو تفكُّر فيما يدعوهم إليه، وفي ذلك دلالةٌ على نقصِ مداركهم واختلال عقولهم.

مقابلةُ الإصرار والعناد باستحقاق العذابِ العادل

بلاغةُ الإيجازِ في التَّعبير بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

التَّكذيبُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ واردٌ بصيغة المبالغة، فإنَّ (فعَّل) المضعَّف يردُ للمبالغة والتَّكثير غالبًا[2]، وغرضُهُ تأكيدُ الإصرار عليه؛ إذ يظهر أنَّ التَّكذيب ليس مجرَّد فعلٍ عابرٍ، بل هو موقفٌ مستمرٌّ وثابت يعكس عنادهم وإصرارهم على رفْضِ الحقيقة، كما تُستعمل هذه المبالغةُ لزيادة حدَّة التَّوبيخ والتَّقريع للمكذِّبين، موضِّحة أنَّ إصرارهم على التَّكذيب لن يمرَّ دونَ عقابٍ، بل هو جريمةٌ عظيمةٌ تستدعي العقوبة الإلهيَّة العادلة.

الإحالةُ بالواو على مَن كَذَّب وبالهاء على مَن كُذِّب

عودُ الضَّمائر في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ودلالته:

يشتمل قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ على ضمير دالٍّ على الجمع، وهو الواو، وهو يعود على مَن صدر منهم التَّكذيب، وهم قوم نبيِّ الله إلياس عليه السلام[3]، ويشتمل على ضميرِ الغيبةِ الهاء العائد على نبيِّهم الَّذي كذَّبوه، وهو إلياس عليه السلام.

تعليقُ إحضار الكافرين للعذاب بسببيَّة التَّكذيب

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ سببيَّة، فإنَّهم لَمّا كذَّبوا نبيَّهم إلياس عليه السلام كان إحضارهم للعذاب، وقهرهم، وإقحامهم في ما نريد من العذاب الأدنى والأكبر؛ ليبقى ذكرُهم بالسّوء على مدار الأعصر والدُّهور[4].

(1) بهجت، الإعراب المفصل: 10/ 59.
(2) الجرجاني، المفتاح في الصّرف، ص: 49.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 183.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 286.

وتحتمل الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ أن تكونَ عاطفةً؛ إذ عطفت هذه الجملة، وهي الإحضارُ للعذاب على جملة التَّكذيب[1] ممّا يعزِّز من قوَّة التَّهديد الإلهيِّ، ويحثُّ على الإيمان والطّاعة.

فإذا لم يمكن عطفُ هذه الجملة على ما تقدَّمها، واقتضى التَّركيب كلامًا مقدَّرًا يستدعيه المقام، فهي الفاءُ الفصيحةُ[2] المؤذنةُ بسرعة إحضارهم للعذاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾، فالمقامُ لا يحتمل كلامًا آخر لسرعة إحضارِهم بمدعاة تكذيبهم نبيَّ اللّه.

وشأنُ الفاء الفصيحة في الجملة أن يكونَ ثمَّ كلامٌ شرطيٌّ مقدَّر؛ لأنَّها تفصح عن جواب شرط مقدَّر، أي: إنَّك إذا علمت أنَّه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان، فكان منهم الصَّدُّ والتَّكذيب، وأردت بيانَ عاقبة أمرهم، فأمرُهم أنَّهم محضرون إلى عذابِ اللّه وعقابه[3].

غرضُ توالي المؤكِّدات في الآية:

المراوحةُ بين تعظيم عدلِهِ سبحانه، وبين تهويل خوفه وعذابه

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ أكثرُ مِن مؤكِّدٍ: إنَّ المؤكِّدة، واللّام الدّاخلة على الخبر واسميَّة الجملة[4]، والغرضُ مِن توالي المؤكِّدات في الجملة أنَّه يعطيها قوَّةً إقناعيَّة لا مثيل لها، فإنَّهم سيحضرون إلى اللّه تعالى؛ ليحاسبَهم على أفعالهم، وهذا التَّوكيد يعظِّم في نفوس المؤمنين الشُّعور بعدله تعالى، ويفيد التَّهويلَ الَّذي يزيد من الشُّعور بالخوف والرَّهبة مِن العقاب في نفوس الكافرين.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَمُحۡضَرُونَ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَمُحۡضَرُونَ﴾ لامُ الابتداءِ المؤذنة

(1) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 1047.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 307.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 268.
(4) بهجت، الإعراب المفصّل: 10/ 59.

بالتَّوكيد[1]، وتُسمّى اللّام المزحلقة، وحقُّها الدُّخول على المبتدأ، إلّا أنَّه لَمّا كان المبتدأ مؤكّدًا بـ(إنَّ)؛ كرهوا اجتماع مؤكّدين على اسم واحدٍ، فزُحلِقَت للخبر[2]، وفي دخولِها على الخبرِ تأكيدُ قدرةِ اللّٰه تعالى على جمعِ الخلائقِ يوم القيامة للحساب والعقاب، وإنذار صريح لردع المكذِّبين.

التَّأكيدُ على قدرةِ اللّه في الحساب وإنذار صريح لردع المكذِّبين

نكتةُ التَّعبيرِ باسم المفعول في قوله: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾:

استعمل صيغةَ اسم المفعول في التَّعبير عن إحضارِهم للعذاب والحساب بقوله تعالى: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾، ولم يقل: نحضرُهم بإضافةِ الفعل إلى نفسِهِ إهانةً لهم ولأمثالهم بوقوع الفعل عليهم مباشرة[3].

تعليقُ العقوبةِ بفعل الإحضارِ دون الفاعل لإهانة الكافرين

الغرضُ مِن حذف متعلّق ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾:

المعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، أي: إنَّهم سيُحضرون في العذاب، فأُطلق الحضور، وحُذِفَ متعلِّقُه، "وإنَّما أطلقَهُ اكتفاءً منه بالقرينة، أو لأنَّ الإحضار المطلق مخصوصٌ بالشَّرِّ عرفًا"[4]، وهو مِن باب الإيجازِ الَّذي يُعطي الآيةَ قوَّةَ تأثير أكبر؛ إذ يترك في ذِهن السّامع صورةً واضحة عن العذاب القادم، ويترك له مجالًا للتَّأمُّل والتَّفكير.

إيجازٌ يحيل على تأمُّل طبيعةِ العذاب الَّذي سيحلُّ بالكافرين

وقد يكون وراء حذف المتعلِّق إحضارٌ لمعنى القسرِ والقهرِ والإكراه، وإنَّما القسرُ والإكراهُ يكون فيما هو مكروهٌ عند المقسورِ المحضر[5].

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازي في قوله: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ دالٌّ في حقيقتِهِ اللَّفظيَّة على الحضور والشُّهود إلّا أنَّ معناه دالٌّ على المجاز بمعنى الإهلاكِ[6]،

العدولُ إلى المعنى المقتضي حسابًا مفضيًا إلى الهلاك

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 183.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 304.
(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 284.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 17.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 312.
(6) معمر بن المثنّى، مجاز القرآن: 2/ 172.

فالمعنى يتعدّى الحضور الحرفيَّ إلى معنى أعمق وأشمل، وهو معنى الإحضارِ للحساب والعقاب المفضي إلى الهلاك.

نوعُ الاستثناءِ وغرضُه في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

نفيُ الكذبِ والعذاب عن المخلَصين مِن عبادِ الله

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ منقطعٌ، فإنَّ عباد اللّه المخلَصين ليسوا ممَّن كذَّب الرُّسل، فتكون عاقبتهم أن يحضروا للعذاب فهؤلاءِ العباد مستثنونَ من الضَّمير الكائن في ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾[1]، ولن تكونَ عاقبتُهم السّوء، فإنَّها عاقبةُ المكذِّبين، وينجّي اللّهُ المخلصين بما كان من إيمانِهم وتصديقِهم.

ويجوز أن يكونَ الاستثناءُ في الجملة متَّصلًا، فإنَّ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنون من ضمير الجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾[2]، فقد كان تكذيبُهم لنبيِّ اللّه نتيجةً طبيعيَّةً لتعلُّقهم بالباطل، وتمسُّكهم بعادات آبائهم، وفي وسط تلك الظُّلمات لمعت أنوارُ الإيمان، بوجود طائفة مؤمنة مخلصةٍ، آمنت برسول اللّه، واتَّبعته، فاستجابت لدعوتِه، وهؤلاء المؤمنون هم الاستثناءُ المشرق في تلك الأمَّة الكافرة.

الغرضُ مِن إضافة العباد إلى لفظ الجلالة:

إضافةُ العباد إلى لفظ الجلالةِ إيذانٌ بعظمة المعبود

أضاف لفظ العباد إلى الاسم الجليل بقولِه تعالى: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، فهُم "الَّذين علموا ما لهم مِن مجامعِ العظمة، فعملوا بما عَلِموا، فلم يدعوا غيره، فإنَّهم لم يكذِّبوا"[3]، فإنَّ إضافةَ العبادِ إلى لفظ الجلالةِ إيذانٌ بعظمة اللّهِ تعالى وجلاله، وتعزيز لإحساس المؤمن بعظمةِ ربِّه وقربه منه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 204.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/ 338.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 286.

معنى (اللام) ودلالتها في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

المـوصـوفـون بـالإخـلاص هم الـنّـاجـون مِـن الــعــذاب من قومه

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ دالَّةٌ على العهد، فإنَّ الموصوفين هنا بالإخلاص هم الذين نجوا مِن العذاب من قوم نبيِّ اللّه إلياس عليه السلام(1).

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

الإخـلاصُ ودفع الـشِّرك الخفيِّ والجليِّ ينجيان مِن العذاب

استثنى اللّهُ تعالى عباده ممَّن وصمَهم بتكذيبِ نبيِّ اللّهِ إلياس عليه السلام، فوصفَهم بـ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ الَّذين لا سلطانَ عليهم للشَّيطان اللَّعين، و﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللّام اسم مفعول؛ لأنَّه استخلصَهم لعبادتِهِ، فلم يشركوا به شيئًا؛ فكان أن أنجاهم مِن العذاب الأليم(2).

معنى الواوِ ودلالتها في الآية:

دلالـةُ العطفِ عــلـى جـمـلـة الإحضار مجازاة عـلى الاجـتـهـاد والجهاد في الله

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دالَّةٌ على العطف، فإنَّ نبيَّ اللّه إلياس عليه السلام لَمّا جاهد في اللّه تعالى حقَّ جهادِهِ، وقام بما يجب عليه ممّا كلَّف به من أعباء النُّبوَّة؛ جازاه سبحانه، فعطف جملة التَّرك هذه على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾(3).

غرضُ إسنادِ التَّرك إلى ضمير العظمة:

تشريفٌ للنَّبيِّ إلياس عليه السلام بأن أبقى ذِكرَهُ حيًّا

أسند فعل التَّرك إلى ضمير العظمة الدّالِّ عليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وهو يحمل في طيّاته إشارةً عظيمةً إلى منزلة نبيِّه إلياس عليه السلام عند اللّه تعالى وتشريفه له، وفيه تأكيدٌ على بقاء ذكره الصّالح في القلوب والأذهانِ عبرَ الأجيال، وأنَّ ذِكره الطَّيِّب سيبقى متداولًا بين الأممِ والأجيال المتعاقبة.

بلاغةُ المجازِ في التَّرك:

حقيقةُ التَّرك في اللُّغة تخليف شيء، والتَّخلّي عنه، أمّا التَّعبيرُ

---

(1) الثّعلبي، الكشف والبيان: 22/ 423.

(2) ملا حويش، بيان المعاني: 3/ 464.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 286.

به في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ فهو هنا من باب المجازِ المرسل، ويرادُ منه الدَّوام، فإنَّ النِّعم في الدُّنيا طال مكثُها، أو قَصُرَ، فهي متاعٌ زائلٌ لا يدوم، فكأنَّها في ذلك عائدةٌ إلى مَن أعطاها، وهو الحقُّ تباركه وتعالى[1]، وفي هذا التَّرك رفعٌ لمقام نبيِّ اللّٰه إلياس عليه السلام بأن أبقى نعمَهُ تعالى على ما بعده من الأمم.

رفْعُ مقامِ نبيِّ الله إلياس بأن أبقى نعمَهُ عليه في أممٍ بعدَهُ

بلاغةُ التَّضمين في تعدية التَّرك بـ(على):

الإبقاءُ على الذِّكر الحسن لإلياس عليه السلام

فعل التَّرك في حقيقته يتعدّى بنفسه، إلّا أنَّه هنا جعله متعدّيًا بحرف الجرِّ (على) في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾؛ لمناسبتِه الإبقاءَ والدَّوام مِن قولهم: أبقى على كذا بمعنى المحافظةِ عليه؛ ليبقى، ويدوم، ويستمرَّ، ولا يصيبه الاندثار، فلا يكون لفعل التَّرك مفعولًا[2]، والمعنى: تركنا عليه ذِكرًا وثناء حسنًا باقيًا لا يزول، ولا يندثر.

الغرضُ مِن حذف المفعول في: ﴿وَتَرَكۡنَا﴾:

الفعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ دالٌّ على محذوف مقدَّر، أي: ثناء حسنًا[3] وذكرًا طيبًا في كلِّ أمَّة ممَّن جاء بعده مكافأة من الحقِّ سبحانه لعبادِهِ الصّالحين.

بلاغةُ الإيجازِ البديع في تقدير المحذوفات على القول بالتَّضمين:

الإيجازُ في سوق الثَّناء بتقدير المحذوفات

فعلُ التَّركِ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ مضمَّنٌ فعلًا دالًّا على الإنعام، تقديرُهُ: (أنعمنا)، وهذا الفعلُ به حاجة إلى متعلِّق معنى المفعول، فيكون التَّقديرُ: وتركنا له ثناء، وأنعمَنا عليه مِن نِعمنا، وفي ذلك إيجازٌ بديع بأن حذفَ منه نحو خمسِ كلمات، فقدَّرَه جمهورُ المتقدِّمين مِنَ المفسِّرين، وتركنا ثناء حسنًا عليه[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 132.
(3) الخراط، المجتبى: 3/ 1047.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 133.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

دوامُ الثّناء الجميل بما يدخل السُّرور على عباد الله الصّالحين

تدلُّ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ على استغراقِ الجنسِ، والمعنى: أنَّ الحقَّ ﷻ خلع على نبيِّه مِن المدح والثَّناء الجميل، وغير ذلك ممّا يسرُّه، ويفرحُهُ جميعًا في كلِّ مَن كان بعده إلى يوم يُبعثون[1].

دلالةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾:

سوقُ الاستئنافِ الدّالِّ على عظم السَّلام الصّادر من الحقِّ سبحانه

لَمّا كان قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ كلامَ مستأنِفٍ؛ فصلَهُ عمّا سبقه من كلام، وفيه دلالةٌ واضحةٌ على علوِّ شأن النَّبيِّ إلياس عليه السلام فالاستئنافُ هنا بمنزلةِ فصل جديد في كتاب الله، والمقام هنا فيه دلالةٌ على عظم هذا السَّلام الصّادر مِنَ الحقِّ سبحانه، والمقامُ ينبئ بهذا التَّعظيمِ، ويشيرُ إليه[2].

بلاغةُ وضعِ المظهر موضعَ المضمر:

اقتضاءُ المقام تفخيمَ قدرِ النَّبيِّ آل ياسين عليه السلام

كان السّياق يقتضي أن يكونَ التَّعبيرُ (سلام عليه)؛ لسبق ذِكرهِ في: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ [الصافات: 123] غير أنَّ النَّظم الكريم عبَّر بالإظهار لتسليط السَّلام منكرًا عليه تعظيمًا لقدره، وتفخيمًا لمكانته.

موقعُ جملة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ ودلالته:

الدُّعاء مؤذنٌ بالأمن والأمان والاستقرار والطُّمأنينة

تقع جملة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ موقعَ الجملة الاسميَّة الاعتراضيَّة الدُّعائيَّة من المبتدأِ والخبر[3]، فهي جملة إنشائية لإرادة الثَّناء والتَّحيَّة، ومعناها لازم التَّحيَّة، وهو رضاه سبحانه عن نبيِّه إلياس عليه السلام، وتقريبه، وساغ الابتداء بالنَّكرة المحضة؛ لاشتمالها على معنى الدُّعاء، فهو أحدُ المسوِّغات في الابتداء بالنَّكرة عند

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 286.
(2) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 104.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1985 - 1986.

النَّحويين[1]، والدُّعاء مؤذنٌ بالأمن والأمان والاستقرار والطُّمأنينة، وهو مِن أعظم النِّعم الَّتي يمنُّ اللّٰه بها على عبادِه.

الغرضُ مِن تنكير ﴿سَلَٰمٌ﴾:

ثناءُ اللّٰهِ على نبيِّه وتعظيمه له ولذويه من آل أبيهِ

التَّنكيرُ في ﴿سَلَٰمٌ﴾ تعبيرٌ عن تعظيم اللّٰه تعالى لإلياس وأتباعه وذويه مِن آل أبيهِ، ويؤكِّد مكانتهم العالية لديه[2]، ويجوز أن يكونَ تنكيرُ السَّلام على نبيِّ اللّٰهِ إلياس عليه السلام دالًّا على العموم والكثرة، فإنَّه استحقَّ أن يبقي عليه اللّٰه تعالى ثناء حسنًا، وسلامًا مباركًا كثيرًا مِن الملائكة والإنس والجنِّ بما كان من سلامة إيمانِه[3].

تنوُّع القراءاتِ القرآنيَّة في قوله: ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ وثراء المعنى:

تكثيرُ المعاني بتكثيرِ القراءات الجامعة بين العَلَميَّة والأنصار

في قوله تعالى: ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ قراءتان:، فقرأ نافع وابن عامر ويعقوب: ﴿ءَالِ يَاسِينَ﴾ بمد الهمزة، وكسر اللّام، وقرأ الباقون: ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ بكسر الهمزةِ، وسكون اللّام[4]، فالحجَّة لمن قرأ ﴿ءَالِ يَاسِينَ﴾ - بإضافة أحد الاسمين إلى الآخر - أنَّه أرادَ الآل، وهم من يتَّصلون به بنسبٍ أو قرابة، والحجَّة لمن قرأ ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ أنَّه أراد اسم النَّبيِّ إلياس عليه السلام، ثمَّ زاد الياء والنّون في نهايته مناسبةً لرؤوسِ الآي[5].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

تعليلُ غرضِهِ التَّنبيه على وجوب إعلاءِ شأنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فصل عمّا قبله؛ لأنَّه تعليل لِما كان من فعلِ المولى سبحانه مع نبيِّه إلياس عليه السلام من إظهارٍ لشرف نبيِّه تنبيهًا على أنَّه لا بدَّ من إعلاء شأن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه على أعدائه، ومَن يناوِئُه، وإن حصل التَّكذيب مِن قومه[6].

---

(1) الشاطبي، المقاصد الشافية: 2/ 47.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 133، 170.

(3) الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/ 2185.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 360، قال ابن الجزري: "عَلَى قِرَاءَةِ هَؤُلَاءِ لَا يَجوزُ قَطْعُهَا فيوقفُ عَلَى اللَّامِ لِكَوْنِهَا مِنْ نَفْسِ الْكَلِمَةِ اتِّفَاقًا، وَذَلِكَ مِمَّا لَا نَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، يُنظر: النشر: 2/ 360.

(5) ابن خالويه، الحجة، ص: 303.

(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 288.

معنى الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وغرض التَّشبيه:

مَن استكمل أوصاف الإحسان وجدَ عنده الجزاء الأوفى

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّشبيه بمعنى مثل، أي: إنَّنا نجزي مَن استكمل أوصافَ الإحسان مثل ذلك الجزاء الكامل[1]، فالكاف تدلُّ دلالةً بالغةً على عظمة الجزاء الذي يعدُّه اللّٰه تعالى للمحسنين، يضاهي تمامًا أعمالَهم الصّالحة، وكأنَّما هو صورةٌ طبقَ الأصلِ لأفعالهم الحسنة.

الغرضُ مِنَ التَّعبير باسم الإشارة (ذلك):

الإشارةُ إلى نِعَم اللّٰه على نبيِّه والبُعد بالمشار إليه إعلاء لمنزلته

التَّعبيرُ باسم الإشارة (ذلك) مِن قولهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ للإشارة إلى ما أنعمَ الحقُّ ﷻ على نبيِّه إلياس ﵇ من الكراماتِ السَّنية، والفيوضات الرَّبّانيَّة التي وقعت جزاء له، واللّام دالَّةٌ على البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه إيذانًا بعلوِّ رتبتِه، وبُعد منزلته في الفضل والشَّرف[2].

الغرضُ مِن إسناد الجزاءِ إلى ضمير العظمة:

إظهارُ قدرتهِ تعالى وبيان مصدر طُمأنينة المؤمن وزيادة في خشوعهِ وتقرُّبه

فعلُ الجزاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مسندٌ إلى ضمير العظمةِ الدّالِّ على الحقِّ ﷻ ونكتةُ ذلك بيانُ قدرةِ اللّٰه تعالى على أنَّه هو وحده القادر على الجزاء والثَّواب، وأنَّه هو الحاكم العادلُ الَّذي يجزي كلَّ نفسٍ بما كسبت إحسانًا، وفيه طُمأنينة للمؤمنين بأنَّه تعالى لا يضيع أجر المحسنين، فيزيد مِن خشوعِ المؤمنين وتقرُّبِهم إلى اللّٰه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿نَجۡزِي﴾:

مجازاتُهُ تعالى متجدِّدة مستمرَّةٌ، فمتى وُجِدَ الإحسان وُجِدَ الجزاءُ

في التَّعبيرِ بفعل المجازاة مضارعًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مجازاته ﷻ واقعةٌ على وجه الدَّوام والاستمرار، وأنَّ هذا الحكم جارٍ في كلِّ زمانٍ، فبالذِّكر المتجدِّد

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 288.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 196.

بالثَّناء تكون مجازاتُنا لعبادنا المحسنين[1]، فمتى وُجِدَ الإحسان مِنَ العباد؛ وُجِدَ الجزاء الحسن والثَّواب العميم من ربِّ العباد.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

دلالـةُ مجازاةِ النَّبيِّ إلياس على سريانها على جميع المحسنين

(ال) في قوله تعالى: ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دالَّةٌ على استغراق الجنس، فمثلما جرى إحسانُنا على نبيِّنا إلياس عليه السلام فكذلك نجزي جميع المحسنين أعمالَهم الخالصة له تعالى[2]: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104].

نكتةُ العدولِ عن جزاءِ آل ياسين عليه السلام باسمه:

تعميمُ جزاءِ الإحسان لإظهار سنَّة إلهيَّة دائمة في مجازاة العباد

عدل عن ذكرِ جزاء إلياس عليه السلام باسمه إلى جزاء المحسنين عمومًا في قوله تعالى: ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يكمن في تعميم القاعدةِ العامَّة لجزاء الإحسانِ الَّتي تشمل الجميعَ دون استثناء؛ إذ يظهر أنَّ جزاء الإحسانِ ليس مقصورًا على النَّبيِّ إلياس عليه السلام فقط، بل هو سنَّة إلهيَّة دائمة تشمل كلَّ من يحسن في عبادتِهِ وعمله، وهو يشجِّع المؤمنين على السَّعي للإحسان.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تعليلُ الإحسانِ بخلوص العبوديَّةِ وكمال الإيمان

قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفصولٌ عمّا سبقه؛ لأنَّه تعليلٌ لكونه مِن المحسنين بما كان من عبوديَّة خالصة، وإيمان كامل[3]، وهو تتويج لأعمالِهِ الصّالحة، فالإيمانُ الصّادق هو أساس كلِّ عملٍ صالح، والعبدُ المؤمن هو مَن يخلص العبادةَ للّه تعالى، ومِن ثَمَّ يكون مِن المحسنين الَّذين يستحقّون الثَّواب الجزيل.

الغرضُ مِن تتابع المؤكِّدات في الآية الكريمة:

حشدُ المؤكِّدات للتَّنبيه على رسوخ الإيمان

تتابعتِ المؤكِّدات في الآيةِ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإشارة إلى ما مضى في مثله ممَّن أنعم اللّه عليهم من أنبيائه، "ويُستفاد

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1008.

(2) الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/ 2185.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 196.

من التَّأكيد أيضًا التَّنبيه على رسوخ قدمه في الإيمان، وأنَّه بحيث تشتدُّ الرَّغبة، ويقوى النَّشاط في الإخبار به على ذلك الوجهِ"[1].

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾:

في الانتماء إلى المؤمنين تنبيهٌ على الخصوصيَّة والاختيار الإلهيّ

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لإفادة التَّبعيض[2]، فكونه ﷺ مِنَ المؤمنين ليس وصفًا مجرَّدًا، بل هو تأكيدٌ على انتماءِ إلياس إلى صفوةِ اللّه تعالى مِن عبادِه، فهو مِن المختارين والمقرَّبين إليه الذين حظوا بشرف العبادةِ الخالصة، وقد وصفه اللّهُ تعالى في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: 57] بأنَّه قد رفعه إلى منزلةٍ عالية، ورتبةٍ سامية[3]، وفي ذلك تنبيهٌ على الخصوصيَّة والاختيار الإلهيِّ.

الغرضُ من إضافة العباد إلى ضمير العظمةِ:

التَّعبُّدُ دليلُ استحقاقِ الإضافةِ إلى الضَّمير الدّالِّ عليه ﷻ

أضاف العبادَ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾؛ للإشارة إلى جدارتِهم بهذه الإضافة إلى هذا الرَّبِّ العظيم[4]، فهُم الذين يستحقّون جزاءنا الحسن، وثوابنا الجزيل، وهم الذين سيجدون عندنا ما يشبع نفوسَهم، وما يرضي أمانيهم، وهم الذين سنكرمُهم في دار كراماتِنا، وننعمُهم في جنّات نعيمنا.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تخصيصُ نبيِّ اللّه بصفة الإيمان وتعميمٌ لانتمائه إلى طائفةِ المؤمنين

(ال) في لفظة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تحمل الدَّلالةَ على العموم والتَّخصيص في آنٍ واحدٍ، فهي تشير إلى أنَّ إلياس ﷺ ينتمي إلى طائفة المؤمنين بشكل عامٍّ، أي: إنَّه واحدٌ من عبادِ اللّه المؤمنين، وفي الوقت نفسه، فإنَّها تدلُّ على تخصيصه بصفة الإيمان، ممّا يميِّزه من غيره من العباد.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 288.

(2) العكبري، اللباب: 1/ 354.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4662.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 288.

الغرضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة في الآية:

سوقُ ما يدلُّ على الرُّسوخ في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان

لَمّا أرادَ وصفَ إيمانِهم؛ عبَّر عن ذلك بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مِن عبادِنا الرّاسخين إيمانًا ويقينًا واطمئنانًا[1] الذين تجذَّر الإيمانُ في قلوبِهم، فلم يتزعزع مهما حاقت به الفتنُ إيمانًا يقينيًّا ثابتًا كالطّود الشّامخ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 202.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: 133 - 138]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التَّسليةُ بذِكرِ سلسلةِ النُّبوَّة والإيمان والتَّرغيب على النَّصر الإلهيِّ

بعد أن ذكرَ الحقُّ سبحانه مِن قِصص المحسنين مِن أنبيائه من ذريَّة إبراهيم عليه السلام وكان المقصدُ من ذلك التَّسلية والتَّرجية، وإظهار المنَّة عليهم وعليه؛ عقَّب بذكر قصَّة لوط عليه السلام، فإنَّ المرءَ بابنه أسرٌ منه بقريبه؛ ليؤكِّد أنَّ النَّصر الإلهيَّ يأتي في أحيان كثيرة بطُرقٍ غير متوقَّعة، وأنَّ المؤمنين مهما قلَّ عددهم، وضعفت قوَّتهم حتّى يظنَّ أنَّه لا انجبارَ لضعفهم؛ أتاهم نصرنا، وفي ذلك تكذيبٌ لليهود الذين صدّوا عن دعوتِه، وشكَّكوا برسالته[1]، فقال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ تأكيدًا على رسالة لوط عليه السلام، ورفْعِه إلى منزلة الأنبياء، على ما لاقاه من كفر قومِه وتكذيبهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾: فعل مضعَّفٌ، الجذرُ اللُّغوي منه (نجو)، والأصل في النّون والجيم والحرف المعتلِّ دلالتُهُ على الكشط والكشف، فقولهم: نجا الإنسانُ على معنى الذَّهاب والانكشاف من المكان، والأصل في التَّنجية الانفصال من الشَّيء، ومنه نجا فلانٌ من فلان، والنَّجاة الخلاص ممّا فيه المخافة، ونظيرها السَّلامة، والتَّنجية معناها الإنجاء، وهو أن تجعلَ غيرك ناجيًا[2]، ومعنى ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾ في الآية، أي: خلَّصناه مِنَ العذاب هو، ومَن كان معه مِن أهله وأولاده.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 288.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (نجو).

2) ﴿عَجُوزًا﴾: اسمٌ على صيغة (فَعول)، وهو ممّا يستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّث، والجذر اللُّغويُّ منه (عجز)، والعجز ما كان مخالفًا للحزم ونقيضه، والعاجز هو الضَّعيف، والعجوزُ المرأة الشَّيخة، والمرأة المعجزة هي الطّاعنة في السِّنِّ الكبيرة، ويقال لامرأة الرَّجل: عجوزهُ، وإن كانت شابَّةً، و"العين والجيم والزّاء أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدهما على الضَّعف، والآخر على مؤخَّر الشَّيء"، ومن هذا الأصل الثّاني صار المتعارفُ في العجزِ القصورَ عن فعل الشَّيء، وسُمّيت العجوزُ عجوزًا لعجزها وتقصيرها في كثيرٍ من الأمورِ[1]، والعجوزُ المشار إليها في الآية هي امرأةُ لوط ﷺ التي بقيت في مكانها، ولم تغادرِ القرية، ولم تخرج معهم حينما أُمِروا بالخروج؛ فلم تنجح معهم[2].

3) ﴿دَمَّرْنَا﴾: فعل ماضٍ، والدَّمار بأن يستأصلَهم هلاكًا، فالتَّدمير قريب من معنى الإهلاك، والدّامر الهالك، ويرد بمعنى إدخال الهلاك على الشَّيء، ومِن معاني الدَّمار الهجوم والدُّخول بغير إذنٍ، ولَمّا كان هجومًا بما هو مكروه؛ فهو من الدَّمار بمعنى الهلاك، ومعناه المحوريُّ أن يكونَ ثمَّة غشيان بفساد يحيط بالأرجاء، كغشيان السّيلِ المكانَ، فيهلك ما فيه، وجميعُ ما في الكتاب الكريم من التَّدميرِ هو بمعنى الإهلاكِ[3]، ومعنى ﴿دَمَّرْنَا﴾ في الآية: أهلكنا الآخرينَ بأنواعٍ مِنَ العذاب الَّتي يستحقّونها كالخسف والحجارة ونحوها[4].

4) ﴿لَتَمُرُّونَ﴾: فعلٌ مضارع، والمرورُ بمعنى الذَّهاب، ومِن معاني المرور الاجتيازُ بالشَّيء، ومن المرور الاستمرار، وهو الدَّوام على الشَّيء، والثَّبات عليه، "والمرورُ استرسال اجتيازي، وفيه امتدادُ الوجودِ إلى مكان آخر كالاطِّرادي"[5]، ومعنى ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ في الآية، أي: "تمرّون في ذهابِكم ومجيئكم إلى الشّام على قراهم ومنازلهم وآثارهم"[6].

5) ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: اسم فاعل مجموعٌ جمعَ المذكَّر السالم، والصُّبح دالٌّ على أوَّلِ النَّهار ومبتدئِه، ويردُ بمعنى الفجر، وعلى أنَّه نقيض المساء، وهو النّور الَّذي يظهر في النَّهار،

---

(1) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عجز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 3/ 1552.
(3) الرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دمر).
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 226.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، والمعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرر).
(6) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 532.

وأصله راجعٌ إلى لون مِنَ الألوان وهو الحمرةُ، فسُمّي الصَّباح صباحًا لحمرتِهِ عند طلوع الشَّمس، أو قبيل الطُّلوع، وكذا المصباح لحمرته[1]، وهو الوقت الَّذي يحمرُّ فيه الأفقُ بحاجب الشّمس، ويدلُّ معناه المحوريُّ على الضّياء والبياض المنتشرِ بقوَّةٍ، فيغلبُ ما كان من ظلام وسوادٍ، فيتغيَّر ظلامُ اللَّيل إلى ضوءِ النَّهار[2]، ومعنى ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ في الآية مأخوذٌ مِن المعنى اللُّغوي الدّالِّ على الوقت، أي: إنَّكم تمرّون على آثارهِم وأنتم داخلون في الصَّباح[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إظـهـارُ عظـمـةِ اللهِ وقدرته على العقاب والجزاء

إنَّ لوطًا عليه السلام كان مِنَ المرسلين الَّذين اصطفاهم اللّه تعالى، فبعثَهُ إلى قوم أغرقهم في الطُّغيان والفساد، ولمّا كذَّبوه؛ نجّاه اللّه تعالى وأهله مِن بينهم، إلّا امرأتَهُ الَّتي كانت من الكافرين، فاستحقَّتِ العذابَ مع قومها، ثمَّ دمَّر اللّه أولئك القومَ بأنواع من العقوبات جزاءً لهم على كُفرِهم، وجعل مكانهم أرضًا قبيحة المنظر نتنةَ الجوهرِ، يعاينها المسافرون في اللَّيل والنَّهار، تذكرةً لمن جاء مِن بعدهم، واعتبارًا بأنَّ عذابَ اللّه أليمٌ لمن كذَّب برسلهِ المرسلين[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

التَّنبيهُ على نصرِ المؤمنين في حال القـلَّـة والـذِّلَّـة تكذيبًا لليهود المـشـكّـكـين في الرِّسالة

يشتمل قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على غير مؤكِّدٍ واحد، وهي (إنَّ) المؤكِّدة النّاصبة، واللّام التي تفيد التَّوكيد أيضًا[5]، وهو توكيد ينبِّه على وقوع نصر المؤمنين، ويذكِّرهم بأنَّ اللّه معهم دائمًا وأبدًا، وإن كانوا على ظرفٍ من القلَّة والذِّلَّة حتّى يظنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صبح).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صبح).

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 136.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 38.

(5) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 114.

أنَّه لا انجبارَ لحالهم، وفيه تبصيرُ الكافرين والمكذِّبين مِن اليهود وأضرابِهم بباطل أقوالِهم، وزائفِ شكوكِهم برسالتهِ ﷺ[1].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَّمِنَ﴾:

لّمّا ذكرَ نبيَّ اللّه لوطًا عليه السلام وصفَهُ بأنَّه ﴿لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فاللّام الدّاخلة على حرف التَّبعيض هي اللّام المزحلقةُ[2] الَّتي تفيد توكيدَ نبوَّة لوط عليه السلام في مواجهة قومهِ الفاسدين، وتأتي هذه الجملةُ في سياق قصص الأنبياء، لتبرزَ أهمّيَّة دور الرُّسل في هداية الأممِ.

توكيدُ نبوَّةِ لوط عليه السلام في مواجهةِ قومهِ الفاسدين

معنى (مِنْ) ودلالتها في قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

يرد حرفُ الجرِّ (مِنْ) للتَّبعيض كثيرًا في كلام العرب[3]، وهو المعنى المرادُ هنا في قوله تعالى: ﴿لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهو وصفٌ لنبيِّ اللّه لوط عليه السلام فهو "ثاني الأنبياءِ الَّذين جمعَهم التَّنظير في هذهِ الآية"[4].

لوطٌ مِن جملة الأنبياء الَّذين ذَكَرَهُم في هذه الآية

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عهديَّةٌ؛ لأنَّ نبيَّ اللّه لوطًا عليه السلام كان من الرُّسل الَّذين أُرسلوا إلى القرى الَّتي كان يسكن إحداها؛ إذ إنَّه رسولٌ مِن غير شريعةٍ سوى أنَّه جاء ينهى عنِ الفاحشة الَّتي كانت شائعةً في الأقوام الَّذين نزل عندهم، ولم يكن النَّهي عنها في شريعة إبراهيم عليه السلام[5].

سوقُ الدَّلالة العهديَّة للتَّنبيه على بعثةِ لوطٍ من أجل دفع الفساد

نكتةُ إيرادِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جمعًا:

ذُكِرَ وصفُ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع مع أنَّ لوطًا عليه السلام كان أحد المرسلين، والنُّكتة في ذلك تتعلَّق بما جرى له من كُفرٍ وتكذيب من قومهِ، ففي التَّعبير بالجمع إيذانٌ بأنَّ من يكذِّب رسولًا؛ فقد كذَّب

تكذيبُ الواحد في مظنَّة تكذيب الجميع

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 288.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 308.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 309.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 171.

المرسلين جميعًا، فرسالتُهم تخرجُ مِن مشكاة واحدةٍ إلى أقوامهم رسالة مِن الحقِّ سبحانه إلى البشرِ[1].

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾:

الفصلُ لتعليق الكلام بمحذوف مقدَّرٍ بعده

فصل قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه كلامٌ "لا يتعلَّق بما قبله، بل يتعلَّق بمحذوف تقديره: واذكر لهم يا محمَّد؛ إذ نجّيناه، أو أنعمنا عليه؛ إذ نجَّيناه"[2]، وغرضُ الفصل التَّأكيد على النِّعمة الإلهيَّة، وإظهار الامتنان، وبداية سياق قصصيٍّ جديد.

ولَمّا كانت جملة التَّنجية مِن قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ لا تتعلَّق بما قبلها من جملة الإرسالِ مِن قولِه تعالى: ﴿لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فصلها عن سابقتها؛ لأنَّ الحقَّ سبحانه لم يرسل رسولَهُ وقت تنجيتِه بل قبل ذلك[3].

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها:

ملازمةُ الإنجاءِ لقيد الرِّسالة بجعلِ الله تعالى

الأصلُ في ﴿إِذۡ﴾ في لسان العربِ أن يكونَ ظرفًا لما مضى مِنَ الزَّمان[4]، والواردُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ من هذا الباب، فهو ظرفٌ متعلِّق بلفظ المرسلين، فإنَّه في الوقت الذي أنجى الحقُّ سبحانه لوطًا عليه السلام، وأهلك قومه المكذِّبين؛ كان قائمًا بأعباء الرِّسالة، ناطقًا بما أمره اللّه تعالى[5]، والظَّرف ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ قيدٌ لما حصلَ مع لوط عليه السلام من تنجيتِه وأهله؛ لكونه مِنَ المرسلين المختارين مِن اللّه تعالى لحمل الرِّسالة إلى عباده، فيكون داخلًا في حكمه تعالى مِن قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51][6].

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 189.
(2) الرازي، أنموذج جليل، ص: 440.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 470.
(4) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 182.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 171.
(6) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1026.

الغرضُ مِن إسنادِ فعل الإنجاء إلى ضمير العظمة:

التّشوُّف إلى قصد تبشير المؤمنين وتحذير الكافرين

في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ﴾ أسندَ فعلَ التَّنجية إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ عليه سبحانه المؤذِنِ بصفةِ العظمةِ والقدرة؛ لأنَّ جل المقصودِ مِن هذه القولة بشارةُ المؤمنين المصدِّقين، وتحذيرُ الكافرين المكذِّبين، وكان لوطٌ غريبًا بينهم[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغة التَّضعيف ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾:

لا تضرُّ كثرة المخالفين ولا قوّتهم من نجّاه الله تعالى

أورد فعلَ التَّنجيةِ في قوله تعالى: ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾ بصيغة التَّفعيل (فَعَّلَ)، وهي مِنَ الصّيغ الدّالَّة على المبالغة والتَّكثير في عامَّة أحوالهِ في كلام العرب[2]، ولمّا كان مخالفو نبيِّ اللّه لوط عليه السلام مِنَ القوَّة والمنعة والكثرة والغلبة[3]؛ أوردَ فعلَ الإنجاء بهذه الصّيغة إيذانًا بأنَّ الحقَّ سبحانه ناصرُ أنبياءَهُ وأولياءَهُ، وإن كثر مخالفوهم، وقوي معارضوهم.

نكتةُ حذف قوم لوطٍ من السّياق:

التّلويح بأكثر النّاس انغماسًا في العلائق البشريَّة والقاذورات البهيميَّة

فعلُ التَّنجية في قوله تعالى: ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾ يقتضي ذكر القوم الذين كذَّبوا نبيَّ اللّه لوطًا عليه السلام، وأرادوا به الشَّرَّ؛ فنجّاه اللّه منهم، والمعنى فنجَّيناه من القومِ الكافرين إلّا أنَّه استعمل فعل الإنجاء مطلقًا من غير ذكرهم وتعيينهم؛ لأنَّ مبنى السّورة قائمٌ على الصِّفات الملكيَّة، وهم غارقون في أهواء الدُّنيا، وملذّاتها البهيميَّة منغمسون في العلائق البشريَّة[4]، فلم يرفعوا أبصارهم ليروا آيات اللّه في الكون، ولا إلى ما وعد به المؤمنين من ثواب عظيم في الآخرة.

دلالةُ عطفِ أهله عليه في ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ معطوفٌ على الضَّمير الواقع مفعولًا من

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 64.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.

الجمعُ بين إنجاءِ أهل لوط أسوة به عليه السلام

قولِه تعالى: ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾[1]، فإنَّه تعالى أنجى نبيَّهُ لوطًا عليه السلام وزاد على ذلك أن أنجى أهله معه، وقد ذكر أنَّهما ابنتاه، واستثنى من أهلهِ امرأتَهُ الَّتي حلَّ بها ما تستحقُّهُ مِنَ العذاب المقيم.

الغرضُ مِنَ التَّوكيدِ بقوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

شموليَّة نعمةِ اللّه ورحمته بعباده المؤمنين ومزيد حسرة امرأتِهِ مع الكافرين

ختم جملةَ التَّنجية بقولهِ تعالى: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، وهي لفظةٌ تفيد التَّوكيد[2] توكيد شموليَّة النَّجاة التي منَّ اللّه بها على لوط وأهله، فإنَّ النَّجاة شملت جميعَ أهله دون استثناءٍ إلّا امرأته؛ تأكيدًا لعظمة نعمةِ اللّه ورحمته بعبادهِ المؤمنين، وهو توكيدٌ يفيد مزيدَ حسرةِ امرأته الكافرة الَّتي بقيت مع قومِها في العذاب الأليم.

نوعُ الاستثناءِ وغرضه في قوله: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا﴾:

علَّةُ القرابةِ لا تدفع العقوبة مطلقًا

قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ استثناءٌ متَّصل من قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾، فقد استثنى الحقُّ سبحانه امرأة لوط عليه السلام من أهلِه الذين تتَّصل بهم بسببٍ، فلحقها العذابُ مِن دون أهله[3]، فبقيت غابرةً مع قومها الكافرين.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَجُوزٗا﴾:

لَمّا كان الكفرُ قاطعًا للسَّبب القريب؛ فإنَّ الكفر قاطع عن الدُّخول في حكم أهله

معنى العجوز المرأة المسنَّة، وهي زوجُ لوط عليه السلام في الآية[4] إلّا أنَّه ذكرها بهذه الصِّفة؛ لأنَّ الكفرَ يقطع العبدَ عن رحمة اللّه، ويحرمُهُ من النَّجاة، فإنَّ كفرَها الذي تمثَّل في رضاها بما فعلَهُ قومها مِنَ الفاحشة، وعدم إيمانها برسالة زوجها، قطعها عن الدُّخول في حكم أهلِهِ المؤمنين، فجرَّدت عنها رحمة اللّه، وأصبحت مِنَ الغابرين في العذاب[5].

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 269.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 309.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 181.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 104.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.

وفي التَّعبير بلفظ العجوز سببان؛ الأوّل أنَّها على حالة ممّا لا يشقُّ أمر هلاكها على نبيِّ اللّه لوط ﵇، وبقيَّة أهله بموجب الطَّبيعة البشريَّة، والسَّبب الثّاني: أنَّها داومت على الكفرِ، وعسيت فيه، حتّى وصلت إلى ما وصلت إليه مِن وصْفِها بالعجوز(1).

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿عَجُوزًا﴾ ودلالته:

دلالـةُ استثناءِ الـقـريـب مـن الرَّحمة لرضاه بفعل المفسدين

يقع قولُه تعالى: ﴿عَجُوزًا﴾ من التَّركيب موقعَ المستثنى المنصوب(2)، والعجوزُ وصفٌ لامرأة لوطٍ ﵇، وقد استثناها الخطابُ القرآنيُّ من النّاجين، وجعلها في زمرةِ الهالكين بأن أمطر عليها الحجارةَ؛ لأنَّها رضيت بفعل قومها الكافرين(3).

الغرضُ مِن تنكير ﴿عَجُوزًا﴾:

سوقُ التَّنكير في الإحالة على مَن لا يؤبه له

استعمل لفظة ﴿عَجُوزًا﴾ نكرةً، والنُّكتة في ذلك التَّقليل مِن شأنها، ويُظهرها كأنَّها شخصيَّةٌ غير مهمَّة بين قومها، ممّا يزيد من الاستنكار والتَّوبيخِ لِمَن كانت جزءًا من الأهل الذين لم ينجوا، كذلك يُضفي استعمال النَّكرة بُعدًا عامًّا وشاملًا على النَّص، فيمكن أن يُفهم منه أنَّها أيُّ عجوز كانت تستحقُّ هذا المصير، وفي تنكيرها إظهارُ حالةِ الانقطاع والانفصال عن المجموعة النّاجية.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ في قوله: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

إحـالـةُ المفسدِ على العذاب مع الغابرين

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ معناهُ كائنة في مَن استقرَّ مع الباقين في غبرة العذاب ومساءة الانقلاب(4) واستحقاقِ العقابِ، وهو حالُ مَن بقي على الكفر والعصيان، وهذا يدلُّ على أنَّ العاقبة وخيمةٌ لمن عصى اللّه ورسله.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 115.
(2) النّحاس، إعراب القرآن: 3/ 129.
(3) السّخاوي، تفسير القرآن العظيم: 1/ 667.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.

معنى(ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

دلالةُ (ال) العهديَّة على البقاء في زمرة الهالكين

(ال) في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ عهديَّةٌ، والمعنى: أنَّ امرأةَ لوط عليه السلام "كانت مِن هؤلاء القوم الَّذين هلكوا، ومضوا... وقد أصبح هؤلاء القومُ في حكم الغابرين؛ إذ قضى اللّه بإهلاكِهم"[1]، وهم قومُ لوطٍ الذين كذَّبوه، ولم ينتهوا عن فعل الفاحشة الَّتي ما سبقهم بها مِن أحد مِن العالمين.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ودلالته:

بقاءُ المفسدِ في العذاب بعد نجاة الأهل

يقع قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ موقعَ الوصفِ للعجوز المتقدِّم، والمعنى: إلّا عجوزًا غابرة[2]، واتِّصافها بالغبور هنا معناهُ البقاءُ في العذاب بعد أن نجا زوجها وأهلها، كمَن يبقى وحيدًا بعد رحيلِ الجميع مِن الأصحاب والخلّان[3].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

غبارُ الذُّنوب وسوادها كنايةٌ عن هلاك امرأة لوط

التَّعبيرُ عن زوج لوط عليه السلام بكونها من ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، أي: الهالكين من باب الكناية، فإنَّ هذا الوصفَ مشتقٌّ مِن الغبار، وهو ما يتبقّى من التُّراب الذي يُثار، فينزل رويدًا رويدًا على البشر، فيترك عليهم صفةَ السّواد، وفي هذا الوصف تخييلٌ لتغيُّر تلك الوجوه واسودادها[4].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها في ﴿دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

إهلاكُ المكذِّبين أجدرُ بأن يذكرَ في مقام الموعظة مِن ذِكر الإنجاء

﴿ثُمَّ﴾ حرف دالٌّ على العطف والتَّرتيب والتَّراخي[5]، وقد أوردها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾؛ لإفادة التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لجدارة أن يذكر إهلاكَ الكافرين المكذِّبين في موضع الموعظةِ مِن ذِكر إنجاء لوط المؤمنين المصدِّقين برسالتهِ[6].

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 4/ 425.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 181.
(4) السّمين الحلبي، الدرّ المصون: 5/ 374.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب: 158 - 160.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 181.

الغرضُ مِن إسناد الدَّمار إلى ضمير العظمة:

أسند فعلَ التَّدمير إلى الضَّمير (نا) العائد عليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾، فبعد أن أنقذنا لوطًا وأهله، دمَّرنا مَن تبقّى مِن قومه الكافرين؛ ليعلمَ العبادُ عظمةَ الحقِّ سبحانه وقدرته تجريدًا للبلاد من قاذورات أفعالهم، وتنزيهًا لها من أرجاس أعمالهم[1]، وأنَّه لا يترك ظالمًا ولا طاغيًا إلّا وأخذه فلن يفلتَهُ، فمَن كذَّب، وكفر برسلنا، فليعلم أنَّه سيلقى مصيرًا مشابهًا، ولن ينجو من عذابنا مهما طال الزَّمان.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾:

(ال) في قوله تعالى: ﴿دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ دالَّةٌ على العهد؛ لأنَّ ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ هم قومُ لوطٍ ﷺ الذين أصابهم هلاك اللّه تعالى بما كان منهم من تكذيبٍ وكفرٍ وإتيان الفاحشة، فأهلكهم اللّه تعالى، ونجّى لوطًا وأهله إلّا امرأتَهُ، كانت مع الهالكين[2].

الغرضُ مِن تقديم الإنجاء ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾ على التَّدمير ﴿دَمَّرۡنَا﴾:

قدَّم تنجيةَ عبدِهِ ونبيِّه لوطًا ﷺ بقوله تعالى: ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾ على تدمير مَن كذَّبوه، وأرادوا به الشَّرَّ بقولهِ تعالى: ﴿دَمَّرۡنَا﴾، وفائدةُ التَّقديم الاهتمام بالتَّرجية[3]، فنجاته هي الغايةُ الَّتي قصدها اللّه تعالى، وتدميرُ قومه كان وسيلةً لتحقيق هذه الغاية، وهذا التَّقديم يبرز عنايةَ اللّه تعالى بعباده المؤمنين وحفظه لهم.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ﴾:

يجوز أن تكونَ الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ﴾ استئنافيةً[4]، فالجملة مستقلَّةٌ عمّا قبلها في إشارة إلى أهمّيَّتها،

التَّهديدُ والوعيد لتحذير الكافرين بما له تعالى من عظيمِ القدرة

عهديَّةُ (ال) المشار بها إلى قوم لوط الَّذين أهلكهم اللّه بموجب كفرهم

الاهتمامُ بالتَّرجية والإنجاء قبل التَّدمير

تردُّدُ دلالةِ الواو على استقلاليَّة الجمل أو بيان حال المرور على الآثار أو العطف على تنجية لوط وتدمير قومِهِ

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1026.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289.
(4) الشيخلي، بلاغة القرآن الكريم: 8/ 440.

ويجوز أن تكونَ حاليَّة[1]، أي: وأنتم يا معشرَ قريشٍ على تلك الحال من المرور على مواضع ديارِهم في رحلاتِكم التِّجارية إلى الشّام[2]، ويجوز أن تكونَ عاطفةً[3] بعطف جملة المرور على ما كانَ مِن أمرِ لوط عليه السلام في تنجيتِه، وتدمير قومِه المكذِّبين.

الغرضُ من تتابعِ المؤكّدات في قوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ﴾:

تحذيرُ المخالفين الّذين كانوا يمرّون مِن مكان قومِ لوطٍ، ولا يعتبرونَ بما جرى لهم

يشتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ﴾ على غير مؤكِّد واحد مثل (إنَّ)، واللّام الدّاخلة على فعلِ المرورِ[4]، والغرضُ من تتابع هذه المؤكِّدات تحذيرُ المخالفين، فإنَّ تجّار قريش كانوا يشاهدون مكان قوم لوطٍ مرورًا بها، وهي البحيرةُ المنتة الرّائحة غير أنَّهم لا يتَّعظون بما جرى لتلك الأقوامِ، فكأنَّهم لم يروها، أو أنَّهم أنكروا ذلك المرورَ، فأوردَ لهم الكلامَ في سياق من التَّأكيد[5].

وفي تتابع المؤكِّدات من (إنَّ) واللّام فائدةٌ، وهي أنَّ الجملةَ مسوقةٌ لغرض غير غرض الخبرِ، والإعلام بمرورهم بديار قوم لوطٍ في أثناء رحلة الصّيف إلى الشّام، إنَّما الغرضُ إيقاظُهم من غفلتهم، وتحريرهم من جهالتِهم؛ ليتَّعظوا، ويعتبروا، فتكون هذه المؤكِّدات تحقيقًا لهذا المعنى المستعملِ لا للخبر المحضِ[6].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَتَمُرُّونَ﴾:

توكيدُ المرورِ بأطلال قوم لوط الدّالّة على عاقبة المكذِّبين

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ تفيد التوكيد[7]، فهي تؤكِّد حقيقةَ مرور تجّار قريشٍ على أطلالِ قوم لوط بشكلٍ قاطع لا يدعُ مجالًا للشَّكِّ، لتؤكِّد أنَّ هذا الحدثَ ليس مجرَّدَ احتمال أو تخيُّل، بل

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 79.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1985.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 309.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 289 - 290.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 23/ 172.
(7) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 12/ 83.

هو واقع ملموسٌ يشاهده كلُّ من يمرُّ به، فتجعل المشهد أكثر وضوحًا وحضورًا في أذهان السّامعين، كأنَّهم يرون بأعينهِم تلك الأطلالَ المهجورة الدّالَّة على عاقبة المكذِّبين.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿لَتَمُرُّونَ﴾:

التَّعبيرُ بصيغة المضارع فيه إيماءٌ إلى ذمِّهم؛ فإنَّهم على تجدُّد مرورهم واستمرارهم، ورؤية آثار العذاب الذي أصاب غيرهم ما كان ذلك دافعًا لهم للعظة والاعتبار.

نكتةُ تعدية فعل المرِّ بـ(على):

بلوغُ المرورِ بديار قومِ لوطٍ على أشدِّ ما يكون من التَّمكُّن

يجوز في فعل المرور أن يكون متعدّيًا بحرف الجرِّ (الباء) بأن يقالَ: مرَّ به، فتكون بمعنى الاجتياز[1] إلّا أنَّه تعدّى بحرف الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء في أصل وضعه في قوله تعالى: ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم﴾، وفيه تقديرٌ محذوفٌ على معنى لتمرّون على أرضهم، وتعديةُ الفعل بـ(على)؛ لإفادة التَّمكُّن من المرور أشدَّ التَّمكُّن، وقد كانوا يمرّون بجانب ديارِ قوم لوطٍ الَّتي غمرها البحر الميِّت[2].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

التَّذكيرُ بأزمنةِ المفسدين وأمكنتِهم

التَّعبيرُ بقولهِ تعالى: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾، أي: داخلين متلبِّسين في الصَّباح أوَّلَ وقت اليوم، وهو الوقتُ الَّذي جاء قوم لوط العذاب، وهم في غفلةٍ مِن أمرهِم، فاذكروا وأنتم تدخلونَ في الصَّباح، فإنَّه يشبهُ الوقت الَّذي قلبْنا فيه عَليهم مدائنَهم، وطمسناها[3]، فاذكروا وأنتم تخطّون عتباتِ الصَّباح، تلك اللَّحظة التي قلبْنا فيها الدُّنيا على قوم لوط، وجعلناهم عِبرةً للعالمين.

سرُّ تقييدِ الفعل بقوله: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾:

يقع قوله تعالى: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ موقعَ الحالِ من المارّين مِن قوم

(1) الزبيدي، تاج العروس: (مرر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 171.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.

دلالةُ الصَّباح على الوقت الَّذي قُلبَت فيه المدائنُ على أصحابها

قريشٍ(1)، وفيه الإشارةُ إلى تلك اللَّحظة الدَّقيقة التي وقع فيها العذابُ على قوم لوطٍ، وهي لحظةُ الفجرِ والصُّبح بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود: 81]، وهو تحديدٌ زمنيٌّ يصوِّر وقعَ الصَّدمة والهول الذي أصابَ القوم، وقد يكون الخبرُ "مستعملًا في الإيقاظ والاعتبار لا في حقيقة الإخبار"(2).

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾:

عطفُ حالِ الإصباح على إرادة التَّلبُّس باللَّيل

الواوُ من قولهِ تعالى: ﴿مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ عاطفةٌ؛ إذ عطفت تلبُّسهم باللَّيل على ما كانَ من حالهم وقتَ الإصباحِ(3)، وفي العطف تحقيقُ مرورِهم المنبئِ عن مشاهدتهِم آثارَ الأمم الهالكة في الأوقات جميعًا.

دلالةُ ذِكر اللَّيل بعد الإصباح:

تشبيهُ مَن لم يتَّعظ بحال قوم لم يمرّوا على أطلال قوم لوط أصلًا

في ذِكرِ الإصباح عِبرةٌ وعظة كافية، فما بالُهُ ثنّى بوقتِ اللَّيل الموصوف بالظَّلام، وانتفاء الرُّؤية؟ والجوابُ عن ذلك: لإرادة التَّأكيد على استمرار الغفلة في تشبيه حالهم بحال قوم لم يمرّوا على أطلالِ قومِ لوط أصلًا، ولم يشاهدوا مصيرَهُم المشؤومَ، ولا نظروا إلى مساكنِهم، ومواقع مصارعهم(4).

معنى الباءِ ودلالتها في ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾:

معافسةُ بقاع المفسدين تلازمُهُ العظةُ والانزجارُ

الأصل في معنى (الباء) في كلامِ العربِ أن تكون للإلصاق والاختلاط(5) إلّا أنَّه يتوسَّع فيها، فتخرج إلى معانٍ أخرى منها الظَّرفيَّة، وهو الواردُ هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾، أي: إنَّ مرورَكم كائنٌ في الأوقات جميعًا في

(1) الشيخلي، بلاغة القرآن الكريم: 8/ 444.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 172.
(3) السّمين الحلبي، الدرّ المصون: 9/ 330.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 367.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 217.

النَّهار، وفي اللَّيل، ولا تكن منكم عظةٌ ولا انزجار ولا خوف من أن يصيبَكم مثلُ ما أصابَهم[1].

ومن معاني الباء في لسان العرب أنَّها تردُ للملابسة[2]، والوارد من هذا القبيل في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾، فإنَّ الباء هنا للملابسة[3]، والمعنى دعوته إلى أن يتَّعظوا، ويعتبروا بما جرى للأمم الهالكة في حال تلبُّسهم باللَّيل[4].

بلاغةُ التَّعبير المجازي في ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾ من باب المجازِ المرسل، فإنَّه تعبيرٌ بالكلِّ على إرادة البعضيَّة؛ لأنَّ مرورَهم على آثارِ العذاب، وهم غافلون عنه لا يحدث في جميع وقتَ اللَّيل، بل في بعض أجزائِه[5].

معنى (ال) ودلالتها في ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾ دالَّةٌ على استغراق الجنس، فإنَّ اللَّيل كان به ممشاهم، ووقت سفرهم في تجارتهم إلى الشّام، فهم يسافرون في أكثر الأحوال ليلًا[6].

بلاغةُ التَّرتيب بين الإصباح واللَّيل:

الأصلُ تقديم اللَّيل وقدَّم الصَّباح موعظةً للمتأمِّلين

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾ رتَّب وقتَ مرورِهم على أطلالِ الأمم البائدةِ، فقدَّم الإصباحَ على تلبُّسهم باللَّيل، والأصل أن يقدِّم اللَّيل؛ لأنَّ العربَ تجعل التّاريخ باللَّيل إلّا أنَّه لَمّا كان المقامُ مقامَ عبرةٍ وعظة؛ قدَّم الصَّباح، ففيه نظرُهم وتأمُّلهم[7].

---

(1) مكي القيسي، الهداية: 9/ 6159.
(2) الخوارزمي، التّخمير: 4/ 17.
(3) القنوجي، فتح البيان: 11/ 421.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 254.
(5) ابن سيده، المخصّص: 2/ 392.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 355.
(7) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 367.

في مروركم بقرى الأمـم الهالكة اعتبارٌ وموعظةٌ بما صُنع بهم

نكتةُ فصل قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

لَمّا تمَّ الكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾[1] بما كان من مرورِهم على قراهم ومدائِنِهم ومنازلهم في تجارتِكم إلى الشّام نهارًا وليلًا[2]؛ استأنفَ كلامًا جديدًا، وقطعه عن سابقه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وهو كلامٌ مسوقٌ للاعتبار بما صنع الحقُّ ﷻ بأولئك الأقوام.

استفهامٌ إنكاريٌّ لعدم فطنتهم بـما حـلَّ بهم مـن سـخـط اللّه وتكذيبهم رسوله

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهام ونوعه وغرضه:

استفهم عليهم تعقُّلهم لما جرى مِن أمرِ قوم لوطٍ بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ منكرًا عليهم انتفاءَ فطنتِهم واعتبارهم لتلك الآثارِ الدّالَّة على ما حلَّ بتلك الأقوام من عذابِ اللّه وسخطهِ بما كان من تكذيبِهم نبيَّهم ورسولهم[3]، وفي هذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ توبيخٌ لمن لم يعقل عن الحقِّ ﷻ وقائعَهُ في الأمم الماضية التي أهلكها؛ ليتَّعظ، ويعتبرَ[4] أولئك الذين أعمتهم الأهواءُ عن رؤية الحقِّ، فلم يستوعبوا دلائلَ قدرته، وعجائب صنعهِ في الكون، ولم يتعلَّموا من قصصِ الأمم السّابقة.

الـعـاقـلُ من دانَ نفسه عند مقامات الاعتبار والموعظة

معنى الفاءِ ودلالتها على المحذوف قبلها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ عاطفة، ومدخولها محذوفٌ، تقديره: أفتشاهدونَ ذلك فلا تعقلون؟ فيحصل الاعتبار به، والخوف من أن يصيبَكم ما أصابَهُم، فإنَّه قادرٌ على إهلاكِكم واستئصالِكم بسببِ كفركم وتكذيبكم كما أهلكَ مَن كان قبلَكم بسببِ كفرِهم؛ لاتِّحاد السَّبب ورجحانه[5].

(1) ابن الأحنف اليمني، البستان: 2/ 280.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 23/ 172.
(4) الشّنقيطي، العذب النّمير: 1/ 484.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 254.

معنى (لا) ودلالتها:

(لا) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ واقعةٌ في حيِّز الاستفهامِ الإنكاريِّ، فهي دالَّةٌ على نفي أن يكونَ لهؤلاء عقولٌ أو قلوب، "فلو أنَّه كان لهؤلاء المشركين عقولٌ؛ لكان لهم في مصارع الظّالمين عِبرةٌ ومزدجر"[1]، ولو كانت لهم قلوبٌ تعقل، لكانوا قد استيقظوا مِن غفلتهم، وتأمَّلوا في مصائر مَن سبقوهم.

لا عقلَ لمن لا يعتبر بما يرى من مصارع من سبقوه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَعْقِلُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، وجذرها اللُّغوي مِن العقل فيه إشارة إلى أنَّه "ينبغي لمَن له عقل إذا مرَّ بآثار مَن سلف قبله أن يعتبر، وينظر كيف كان حالهم، وإلى ما صار إليه مآلهم، وأنَّه عن قريب لاحقٌ بهم"[2]، وقد عبَّر بالمضارع دلالةً على التَّجدُّد والحدوث، وحذَفَ المفعولَ؛ دلالةً على التَّعميم وإعلانًا عن كثرة غبائهم.

ينبغي لمن له عقلٌ أن ينظرَ، ويعتبرَ؛ إذا مرَّ بآثار الأمم الماضية

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1027.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 618.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ
١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ
١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات: 139 - 144]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من عذابِ اللهِ إلى رحمته وشهادة قصّة يونس على تغيُّر الأحوال وتوبة القوم

لَمّا أكملَ الحقَّ سبحانه ما كان من قصص الأمم السّابقة التي هلكت بما كان مِنها مِن كفرٍ وعصيانٍ؛ ختم سلسلةَ القصصِ بقصَّةٍ تدلُّ على رحمة اللّه وفضله في هدايته تعالى قومَ يونس وتوبتهم، وبما أسبغَ عليهم مِن نِعَمِه، وأحسن إليهم بتغليب الأمل والرَّجاءِ في نفوس المؤمنين، وطمأنةِ قلوبهم بأنَّه تعالى قادرٌ على أن يغفرَ الذُّنوب، وأن يهديَ الضّالّين؛ لتكونَ قصَّة يونس عِبرةً لمن يعتبر، مؤكِّدًا على أنَّه كان مِن الأنبياء، وإزالة الشَّكِّ الَّذي قد يراود بعض النّاس حول قصَّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبَقَ﴾: فعل ماضٍ، جذره اللُّغويُّ (أبق)، والإباقُ أن يذهب العبدُ من غير خوف، وأن يخرجَ من غير كدِّ عملٍ، ومن معانيه الهروبُ، هروبُ العبدِ من سيِّده ومولاه، والهمزةُ والباء والقاف بمعنى الإباقِ، وبمعنى التَّشدُّد في الأمر، وتأبُّقُ العبد استتارُهُ واختفاؤه، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ من معانٍ، و"الاستخفاء يكون بالدُّخول في حيّز ما يستره، أي: الاحتباس فيه، وتأبّق: استتر، واحتبس[2]، ومعنى ﴿أَبَقَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير: إخبارٌ عن نبيِّ اللّه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذي هرب إلى السَّفينة[3]، ثمّ ما كان من شأن إلقائه في البحر، والقصَّة معروفة.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أبق).
(3) السّجستاني، غريب القرآن، ص: 75.

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: اسم مجرَّد يقع على المفرد وغيره، والجذر اللُّغويُّ منه (فلك)، ومعناه السَّفينة، ويجوز أن يكون جمعًا بمعنى السُّفن، ويجوز فيه التَّذكير، ويجوز فيه التَّأنيث، كأنَّ التَّذكير إشارةٌ إلى المركب، والتَّأنيث إشارةٌ إلى السَّفينة، والفاء واللّام والكاف أصلٌ في كلام العربِ يدلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، والسَّفينة تدارُ في الماء، ومن معاني ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: موجُ البحرِ وهياجه واضطرابه، ولمّا كان الفلكُ بمعنى الاستدارةِ، وهي العودُ بعد الذَّهاب؛ فإنَّ تسميةَ السَّفينة بالفلك من هذا المعنى؛ لأنَّها تعود بعد ما تذهب في البحر[1]، ومعنى ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ في الآية: السَّفينة المجهَّزة[2].

3) ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: اسم مفعولٍ من الفعل (شَحَنَ)، جذره اللُّغويُّ (شحن)، والشَّحنُ بمعنى الامتلاء، يقال: شحنت السَّفينة، أي: ملأتها، وأتممتُ جهازها، وشحنتُ البيتَ ملأتُه، وللشّين والحاء والنّون أصلٌ يدلُّ على الامتلاء، ومنه الشَّحناء المرادفة للبغضاء، ومعناها "عداوةٌ امتلأت منها النَّفس، يقال: عدوٌّ مُشاحن، وأشحن للبكاء: امتلأت نفسُه لتهيُّئه له"[3]، ومعنى ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ في الآية موضع التَّفسيرِ: السَّفينة الَّتي مُلِئَت بالنّاس والحيوان والأثاث والمتاع ونحوه[4].

4) ﴿فَسَاهَمَ﴾: فعل ماضٍ دالٌّ على المفاعلة، زنة (فاعَل)، الجذر اللُّغويُّ منه (سهم)، ومنه الاستهامُ والمساهمة بمعنى الاقتراعِ، والسَّهم هو ما يضرب به، وهو القدحُ الَّذي يقترعونَ بِهِ، ويرد بمعنى النَّصيب، كان يقال: هذا سهمُك من المال، أي: نصيبُك، وللسّين والهاء والميم أصلٌ في لغة العرب يدلُّ على الحظِّ والنَّصيب، وعلى شيء معيَّن مِنَ الأشياء، والسَّهم في أصل وضعه عودٌ خشبيٌّ يُرمى به عن القوسِ، لكنَّهم استعملوه في المقارعة والميسر، فأصبحَ ينصرف الذِّهن إلى هذا المعنى عند إطلاقه[5]، ومعنى ﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: إنَّ نبيَّ اللّٰه يونس ﵇ قد قارعهم، فأجروا القرعةَ، واستهموا، فوقعت القرعةُ عليه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فلك).
(2) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 378.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شحن).
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 256.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سهم).
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 519.

5) ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾: اسمُ مفعولٍ مجموع جمع مذكر سالمًا، الجذر اللُّغويُّ منه (دحض)، ومعنى الدَّحض هو الزَّلق، وهو الماءُ الذي تحصل منه المزلقة، وكلُّ موضعٍ لا تثبت فيه قدم الإنسان؛ فهو مدحضٌ، ويجوز استعمالُهُ في إبطال الحُجَّة بقولهم: دحضت حجَّته، ويُعبَّر به عن زوال الشَّمس عن كبد السَّماء بقولهم: دحضتُ الشَّمس، والدّال والحاء والضّاد يدلُّ أصلُهُ على زوالٍ، وزلقٍ، فهو يعمُّ المعاني جميعها، والدَّحض ما كان يزيل معه الأقدام، والدَّحض انزلاقُ كتلةِ الجسم كلِّها لزلق مقرِّها وانحدارها، والدَّحض يكون مادّيًّا ومعنويًّا، والوارد مِن قولهِ تعالى: ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾، "الأنسب تفسيرها بالإدحاضِ المادّيِّ، أي: إزلاقه في البحرِ"[1]، غير أنَّ عامَّة المفسِّرين كان رأيهم أنَّ يونس عليه السلام لَمّا قارعَ أهل السَّفينة، وساهمهم، ووقعت القرعةُ عليه؛ كان مِن المغلوبين المقروعين بذهاب حُجَّتهم[2]، فكان مصيرُهُ الإلقاءَ في البحر.

6) ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾: فعلٌ مزيدٌ على زنةِ (افتعلَ)، والجذرُ اللُّغويُّ منه (لقم)، ومنه اللُّقمة، وهي أكلُ الشَّيء بمرَّةٍ واحدة، ومن معانيه ما يهيِّئه المرء؛ كي يلتقمَهُ، ومنه لقم الرَّجل؛ إذا أكل، وألقمتهُ؛ إذا سدَّدت فمه، والتقام اللُّقمة بلعُها[3]، و"اللّام والقاف والميم أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على تناول طعام باليد للفم، ثمَّ يُقاس عليه"، واللُّقم أن يبادرَ إلى الأكل، ويسرعَ إليه، ومنه لقمتُ البعيرَ؛ إذا ناولته بيدك الطَّعام؛ إذا لم يأكل[4]، ومعنى ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾ في الآية، أي: ابتلعَهُ الحوتُ[5].

7) ﴿ٱلۡحُوتُ﴾: اسم ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، جذره اللُّغويُّ من (حوت)، وهو معروفٌ، ومعناه السَّمك، أو هو ما كان عظيمًا من السَّمك، والحاء والواو والتّاء أصلٌ عربيٌّ صحيح ينقاس يدلُّ على الاضطراب والرَّوغان، وهذا شأنُ السَّمك العظيم في الماء، ومنه قولهم: حاوتَني فلانٌ؛ إذا كان منه مراوغةٌ شديدة تشبهُ مراوغةَ الحوتِ، والحوتُ ما كان ذا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دحض).

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 19/ 106، والجرجاني، درج الدّرر: 3/ 957، والنّيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 704.

(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح: (لقم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لقم).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 626.

جرم عظيم مستديرٍ مشهور باللّقم[1]، ومعنى ﴿ٱلۡحُوتُ﴾ في الآية هو عينُ ما ورد عند اللُّغويّين، وهو السَّمكة[2].

8) ﴿مُلِيمٌ﴾: اسم فاعل، وهو وصفٌ لنبيِّ اللّه يونس عليه السلام جذره اللُّغويُّ (لوم)، ومنه الملامةُ، وهي معروفةٌ، ورجل مُليمٌ؛ إذا كان مستحقًّا للَّوم، ومن معاني اللّوم العذلُ، وللام والواو والميم دلالتان: إحداهُما بمعنى العتبِ والعذل، ومن كان مُليمًا؛ فهو في عداد المذنبين، و"اللَّومُ: عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لومٌ"، ومَن أتى بذنبٍ يُلام عليه؛ سُمّي مليمًا، ويُعبَّر عن معنى اللَّوم بأنّه تعنيفٌ مستعملٌ في الرَّدع عن التَّجاوز، وكلُّ ما في القرآن من اللَّوم واشتقاقاته؛ فهو مِنَ العذل[3]، ومعنى ﴿مُلِيمٌ﴾ في الآية: "الَّذي قد اكتسب اللَّوم، وإن لَمْ يُلم، والملوم الَّذي قد ليم باللِّسان"[4].

9) ﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ مِنَ الفعل المضعَّف (سبَّحَ)، مجموعٌ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا، والجذرُ اللُّغوي منه (سبح)، ومعنى التَّسبيح تنزيهُ الحقِّ تبارك وتعالى عن كلِّ ما لا يليقُ بهِ مِنَ الأوصاف، ومِنَ السّين والباء والحاء يكون التَّسبيح، "وهو تنزيهُ اللّه جلَّ ثناؤه من كلِّ سوء، والتَّنزيه: التَّبعيد، والعرب تقول: سبحان مِن كذا، أي: ما أبعدَه!"[5]، ويرد أيضًا بمعنى التَّعظيم والتَّمجيد بالصَّلاة، والذِّكر للّه تعالى[6]، وقد جعل التَّسبيح أمرًا عامًّا شاملًا في جميع العبادات مِن باب القول أو الفعل أو النِّيَّة[7]، ووصف ﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ في الآية دالٌّ على معنى "الذّاكرين اللّه بالتَّسبيح والإنابة والتَّوبة، في بطن الحوتِ"[8].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

إنَّ يونسَ بنَ متّى ذلك النَّبي الصّابر المخلص، قد أُرسل إلى قوم نينوى العصاة، فحمل رسالة ربِّه إليهم صابرًا محتسبًا، وأثناء هذه المهمَّة الشّاقَّة غلبه اليأسُ، ففرَّ هاربًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حوت).
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 313.
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لوم).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 393.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبح).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سبح).
(8) القاسمي، محاسن التّأويل: 8/ 227.

من نينوى إلى بطنِ الحوتِ ورحلة يونس بين اليأس والأمل والاعتبار

محتميًا بظلمات البحر في سفينةٍ، ليكتشفَ حينها أنَّ الهروبَ من قدر اللّه أمرٌ مستحيل؛ فقد ألقته القرعةُ في البحر؛ ليبتلعَهُ الحوت، ليعيشَ في ظلمات بطنه تجربة فريدة مِن العذاب والنَّدم، ليكون عبرةً لكلِّ من يفكِّر في التَّخلّي عن رسالتِه، فكان مأمورًا بالصَّبر على ما كان من قومِه مِن أذًى أسوة بأولي العزم، فلولا أنَّه كان من الذّاكرين والمسبِّحين بحمده للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ عطفِ ذِكر يونس عليه السلام على من تقدَّمه من الأنبياء:

تغليبُ التَّرجية في قوم يونس على التَّأسية والتَّعزية فيما كان من الأقوام الَّذين سبقوه

في عطف قصَّة نبيِّ اللّه يونس عليه السلام على مَن تقدَّمه مِن قصص الأنبياء السّابقين مع أقوامِهم تغليبٌ للتَّرجية على التَّأسية والتَّعزية لما كان من شأن من سبق من أمور مَن كان على أيديهم الهلاكُ الدُّنيويُّ، أو الأخرويُّ مع الأنبياء السّابقين، فيما آل أمرُ قوم يونس إلى السَّلامة والإيمان والنِّعمة والإحسان[2].

وفي عطف هذه القصَّة على ما سبقها، وجعلها خاتمةً لقصص الأنبياء؛ لتكونَ عظةً وعِبرةً لمن بعده، لا سيَّما نبيُّه المصطفى صلى الله عليه وسلم ليعلم أنَّ الصَّبر على أذى القومِ هو السَّبيل إلى النَّجاة، وأنَّ العجلة والهروب قد يقودان إلى مصائبَ أكبر، ففي قصَّة يونس عليه السلام عبرةٌ لكلِّ مَن يواجه بلاءً أو امتحانًا، يدعوه إلى الصَّبر والتَّسليم لقضاء اللّه[3].

ومن الأغراضِ المهمَّة في ذكر قصَّة يونس عليه السلام، وعطفها على ما سبقها التَّحذيرُ مِن أن يقعَ الرَّسول فيما وقع فيه يونس مِن غضبِ اللّهِ تعالى، وفيه إعلامٌ بأنَّ الحقَّ تعالى إذا اصطفى أحدًا مِن خَلْقِهِ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 258.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 356.

للرِّسالة؛ فإنَّه لا يرخِّص له في الفتور عنها، فإنَّه تعالى أعلمُ حيث يجعل رسالته(1).

نكتةُ تتابُعِ المؤكِّدات في الآية:

الإقرارُ برسالته على الرَّغم ممّا كان مِن إباقهِ مِن قومهِ بغيرِ إذنِ ربِّه ومولاه

أورد أكثر من مؤكِّدٍ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ دفعًا لما سيأتي مِن ذِكر إباقِهِ، وبما أوهم شيئًا في أمره(2)، فلعلَّ ظانًّا يظنُّ غير ما ينبغي أن يكونَ مِن أمرِ رسالتِهِ بموجب ما بدر منه مِن هروب وترك الدَّعوة من دون إذنِ ربِّه.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَمِنَ﴾:

توكيدُ نبوَّة يونس عليه السلام في مَن ظنَّ غير ذلك بمدعاة إباقه

اللّامُ الدّاخلة على حرف الجرِّ هي اللّام المزحلقة(3) الَّتي تفيد توكيد نبوَّة يونس عليه السلام في مواجهة مَن ظنَّ انتفاء الرِّسالة عنه بما صدر منه من أبَقِه وهروبه بما لم يؤمر من ربِّ العزَّة تبارك وتعالى.

معنى (مِنْ) ودلالتها:

من معاني حرفِ الجرِّ (مِنْ) التَّبعيض(4)، وهو المعنى المرادُ في قولهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وهو وصفٌ لنبيِّ اللّه يونس عليه السلام فهو داخلٌ في زمرة الأنبياء المرسلين إلى أقوامِهم(5).

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

إيثارُ (ال) العهديَّة للدَّلالة على إرسال يونس لقصد الإنذار والإعذار

(ال) في قولهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ دالَّةٌ على العهدِ، لتؤكِّد انتماء النَّبيِّ يونس عليه السلام إلى صفوةِ الأنبياءِ والمرسلين إلى أقوامِهم بالإنذار والإعذار(6)، الذين كُلِّفوا بمهمَّة سامية، وهي تبليغُ رسالة اللّه تعالى إلى قومهم، ودعوتهم إلى الإيمانِ والهدايةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 178.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 290.
(3) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 115.
(4) المرادي، الجنى الدانيّ، ص: 309.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 106.
(6) مكّي القيسي، الهداية: 9/ 6160.

موقعُ قوله: ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ ودلالته:

يونس عليه السلام من المرسلين حتّى في حالة كونِه آبقًا

قولهُ تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ ظرفٌ لقولهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، والمعنى: أنَّ نبيَّ اللّه يونس عليه السلام من المرسلين حتّى وهو على هذهِ الحالةِ من الإباق[1]، فالنُّبوَّة صفةٌ ملازمة له لا تفارقه، وفي ذلك عِبرةٌ لكلِّ نبيٍّ ورسول، فمهما واجهوا مِن مصاعبَ وتحدّيات، فإنَّهم يظلّون ثابتين على دعوتهم.

واذكـرْ لهم يا محمَّد يونس حين أبق إلى الفلك المشحون

ويجوزُ أن يكونَ فصل قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه لا يتعلَّق به، بل هو متعلّق بمحذوفٍ، تقديره: واذكرْ لهم يا محمَّد إذ أبق نبيُّ اللّه يونس عليه السلام إلى الفلك المشحون، وما كان مِن شأنه وقصَّته[2].

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها:

ظرفٌ وقّت فيه رسالته بالزَّمن الّذي أبقَ فيه إلى الفلك المشحون

معنى ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ الظَّرفيَّة المتعلِّقة بإرساله من ربِّ العزَّة إلى قومه، ففيه توقيتُ رسالتِهِ بما كان منهُ مِن هروبٍ إلى الفُلك المشحون، فإنَّ فِعلَهُ ذاك كان حاصلًا عندما أمره الحقُّ سبحانه بدعوةِ قومهِ مِن أهل نينوى لإبلاغ بني إسرائيلَ بما كان مِن غضبِ اللّه عليهم لانحرافِهم عن شريعتِهِ[3].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَبَقَ﴾ مادَّة وصيغة:

لَمّا كان هروبُهُ من قومِهِ بغير إذنِ ربِّه؛ حسُنَ التَّعبير بمن هرب من سيِّده

عبَّر عن فرارِهِ مِن قومِهِ بالإباق بقولِهِ تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ بمعنى هربَ، والأصلُ في الإباق أن يدلَّ على هروبِ العبدِ من سيِّده[4] غير أنَّه لَمّا كان خروجه من القوم الذين أرسل إليهم قبل أن يأتيه إذنٌ من ربِّه الذي أرسله؛ فجاءه العتابُ، وحسنَ التَّعبيرُ بفعل الإباق[5].

(1) ابن عادل، اللّباب: 16/ 344.
(2) الرّازي، أنموذج جليل، ص: 440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 172.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أبق).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 587، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 485.

وزاد على ذلك أن استعملَ صيغة الماضي الدّالَّة على التَّوكيد المؤذنة بتحقُّق الذَّنب والمؤاخذة بمدعاة ترك طاعة ربِّه.

والتَّعبيرُ بفعل الإباقِ وصفًا لما كان مِن أمرِ نبيِّ اللّه يونس عليه السلام فيه إشارةٌ إلى صعوبة أمر الرِّسالة، وشدَّة خَطْبِها، وثقلِ أمرِها حتّى يجعل النَّبيَّ يفرُّ من قومِهِ على شدَّة عنايته سبحانه في اختيار الرُّسل عن علم، ففي ذِكر أبق يونس وما جرى معه تسليةٌ للرَّسول ﷺ على ما كان من قومِهِ في استكبارِهِم عن كلمة التَّوحيد، ورميه بأنَّه شاعرٌ مجنون[1].

نكتةُ تعدية الفعل ﴿أَبَقَ﴾ بـ﴿إِلَى﴾:

الـهــروبُ من السَّيِّد إلى الفُلك إذ يـظـنُّ أنَّـه يخفى عليه

لَمّا كان الأبقُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ دالًّا على هروبِ يونس عليه السلام من سيِّدِه الَّذي شرَّفه بحمل الرِّسالة بعد أن ضعفَ عن حمل لأوائِها؛ جعل تعديتَهُ بالحرف ﴿إِلَى﴾؛ لأنَّ الأبقَ هروبٌ مِنَ السَّيِّد إلى المكان الَّذي يظنُّ أنّه يخفى عليه[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَبَقَ﴾:

تشبيهُ التّولّي عن بلد التَّكليف بأبق العبد من سيِّده الَّذي كلَّفه عملًا

التَّعبيرُ بالأبق في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ مِن باب المجاز[3]؛ إذ شبَّه حالة نبي اللّه يونس عليه السلام في خروجهِ مِن البلد الَّذي كُلِّف فيه بدعوة قومِهِ، فهو استعارة تمثيليَّة؛ شبَّه ذلك بخروج العبدِ من سيِّده الذي كلَّفه بعمل ما، وكأنَّه قد تخلَّف عن طاعة ربِّه، وتنصَّل من مهمَّته[4]، وهذا التَّشبيه البليغُ يبرز معاناة النَّبيِّ يونس عليه السلام ووحشته من قومِهِ، وكيف كان وحيدًا في دعوته، حتّى خرجَ منهم، وهربَ من البلد الَّذي أوحي إليه فيه.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 291.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 291.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 61.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 173، والقونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 316.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾:

عندما غضبَ يونس، وركب البحر هربًا اصطفتْهُ سفينةٌ معيَّنة مع مجموعة من النّاس

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ عهديَّةٌ، فإنَّه لَمّا عوقبَ قومُ يونس بالعذاب حتّى أيقنوا بقدرة اللّه، ثمَّ رُفع عنهم العقاب، عندها غضب يونسُ، وركب البحرَ هربًا؛ فاصطفتْهُ سفينةٌ معيَّنة مع مجموعة من النّاس[1]، وكان مِن أمره ما كان في استهامِهم وإلقائه في اليمِّ.

سرُّ وصفِ الفلك بأنَّه ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾:

قيدُ المشحون يناسبُ ما كان من يونس مع قومِهِ؛ إذ كان صدرُهُ مليئًا بالحنق عليهم

وُصِفَ الفُلك بالمشحون في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، ومعنى المشحون، أي: السَّفينة المملوءة بالرّاكبين[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تقدير اللّه تعالى، ففي حين كان الفُلك مزدحمًا بالكثير من النُّفوس، إلّا أنَّ القدرةَ الإلهيَّة على التَّدبير والتَّقدير وقع السَّهم على يونس ﵇ من دون غيرِهِ ممَّن امتلأ بهم الفُلك ليُلقى في اليمِّ، فيلتقمَهُ الحوت، ثمَّ ما كان من بقيَّة أمره.

وفي اختيار لفظ ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ نكتةٌ بليغةٌ متعلِّقة بما كان مِن أمرِ يونس ﵇ في إباقِهِ مِن قومه، فإنَّه لَمّا خرج منهم؛ "كان فعلُهُ على صورة فعلِ المشاحن، وكان قصدُهُ الإيغالَ في البُعد، والإسراع في النَّقلة... فلا سَعة فيه لشيءٍ آخر يكون فيه، فليس لأهلهِ حاجةٌ في الإقامة لحظة واحدة لانتظار شيءٍ مِنَ الأشياء"[3]، فاختيرَ لفظ ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، أي: المملوءُ تناسبًا مع ما كان مِن فعل يونس مع قومِهِ، فكان صدرُهُ مليئًا بالحنق عليهم، مشحونًا بالغضب منهم، لا يسعه شيءٌ غير ذلك.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ تفريعيَّة؛ لإفادةِ تعليل ما

(1) بكر بن العلاء، أحكام القرآن: 2/ 342.
(2) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 3/ 977.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 292.

سبقها مِن كلام، وهذا الكلامُ مؤذنٌ بجمل محذوفة على تقدير: فهاجَ البحرُ، وخاف الرّاكبون الغرق، فكان نتيجة ذلك أن استهموا في قُرعةٍ لمعرفة سبب تلك البليَّة بحسب اعتقادهم، فكانوا كلَّما اقترعوا؛ وقعت على يونس عليه السلام، وكان الاقتراع سُنَّةً في الأقدمين في أسفارهم في البحر عند ثقل السَّفينة براكبيها، أو ثقل متاعها[1].

الفاءُ تفريعيَّةٌ مؤذنةٌ بجمل محذوفةٍ، على تقدير فهاج البحر، وخاف الرّاكبون الغرق، فساهم

دلالةُ التَّعبيرِ بِ(ساهم) مادَّة وصيغة:

لَمّا كان مِن أعرافِهم وتقاليدهم في أسفارهم البحريَّة الاقتراعُ؛ إذا ألجأهم البحرُ، واضطرب بهم، وأنَّ السَّفينة لا يستقرُّ حالها، ولا يستقيم أمرها، وتكاد تغرق؛ إذا كان قد ركب فيها عبدٌ مذنب ذنبًا عظيمًا[2]؛ لذلك قال عنهم الحقُّ سبحانه: ﴿فَسَاهَمَ﴾، ومعناه قارع، وهو مشتقٌّ أصلًا مِن لفظ السَّهم، فإنَّهم كانوا يقترعون بأعواد النِّبال المسمّاة سهامًا، وقد ذكرها القرآنُ بلفظ الأزلام في موضع آخر[3]، وقد أخبرَ هنا بصيغة (فاعَلَ) الَّتي تقتضي المشاركةَ والمفاعلة بأن يكونَ الفعلُ بين اثنين فأكثر[4]، فإنَّ الاقتراعَ كائنٌ بين ركّاب السَّفينة جميعهم، ثمَّ ما كان من تدبيرِه تعالى بأن وقعَ الاختيارُ على يونس مِن بينهم.

دلالةُ الفعلِ على عادة الاقتراع بالسِّهام بين ركّاب السَّفينة كلِّهم

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَكَانَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ مؤذنةٌ بالسَّببيَّة عن المساهمة[5]، فإنَّه لَمّا اضطرب البحر بهم، وأوشكتِ السَّفينة على الغرق؛ كان مِن عاداتِهم المساهمة لتخفيف حملها، فكونُه من المدحضين نتيجةٌ لما كان مِنَ الاقتراع والمساهمة الجارية وفق عاداتهم.

دلالةُ الفاءِ مؤذنةٌ بالسَّببيَّة عن المساهمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 173.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 587.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 173.
(4) الرضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/ 101.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 292.

ويجوزُ أن يكونَ حرف الفاء من ﴿فَكَانَ﴾ دالًّا على العطف؛ لتكونَ جملة كونه من المدحضين معطوفةً على جملةِ كونِه مِن المساهمين في قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾[1]، أي: ربط جملة الدَّحض بجملةِ الاستهام والاقتراع، فبعد أن ساهم يونس في القرعة، جاءت النَّتيجة الحتميَّة، فكان مِنَ المدحضين؛ لتُبين لنا تسلسل الأحداث وترابطها، ففي التَّعبير ترتيبٌ ومباشرة[2]، ترتيبُ كونِه مِنَ المدحضين على استهامِهم واقتراعِهم، ووقوع القُرعة عليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل: (كان):

تعبيرُ الفعل يؤكِّد حتميَّة النَّتيجة وهو اندحاضه في البحر والتقام الحوت إيّاه

فعلُ الكونِ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ لم يأتِ بدعًا، بل هو تعبير يؤكِّد حتميَّة وقوع النَّتيجة، وكأنَّ الكون قد انقلب على يونس، فبعد أن ساهم لم يعد أمامَهُ سوى أن يكونَ من المدحضين، وأن يلتقمَهُ الحوت إظهارًا لقدرة اللّٰه تعالى على تدبيرِ الأمور، وحتميَّة وقوع الأقدار.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾:

يونس عليه السلام كان مِن هؤلاء المدحضين المغلوبين في القرعة

معنى حرف الجرِّ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ لإفادة البعضيَّة، أي: إنَّ يونس عليه السلام كان من جملةِ هؤلاء المدحضين، أي: المغلوبين في القرعة[3]، ولكنَّه كان المنتصر حقًّا؛ إذ خرجَ من هذه المحنة منتصرًا، ففي تلك اللَّحظات العصيبة تجلّى صبرُ النَّبيِّ وتسليمه لقضاء اللّٰه وقدره.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾:

إفادةُ العهدِ الذِّهني دالَّةٌ على أهل السَّفينة حينما اقترعوا

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ تعريفٌ لإفادة العهد الذِّهني، فإنَّه وصفٌ لمن كان في السَّفينة عندما طفقوا يقترعون، فمَن أصابتْهُ

(1) الخرّاط، المجتبى: 3/ 1049.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 197.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 205.

القرعة؛ كان مدحضًا، فرموهُ في البحر، وهو ما كان مِن أمر يونس ﷺ الذي وقعت القُرعة عليه غير مرَّةٍ واحدة في لحظة حاسمة حيث تقاطعت إرادة السَّماء بإرادة البشر، فكان مِنَ المقروعين أو المسهومين[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ مادّة وصيغة:

زلقةُ يونس وسقوطُهُ مِن مكان عالٍ في السَّفينة إلى مكان سافل في سحيق البحر

دلالةُ التَّعبير بالمدحضين في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ أنَّه "لَمّا آل وقوعُ القرعة عليه إلى رميه من السَّفينة من محلِّ علو إلى أسفل؛ عبَّر عن ذلك بما يدلُّ على الزَّلق الذي يكون من علوٍّ إلى سفل"[2]، فما أبدع هذا الاختيارَ! فلفظُ الدَّحض يدلُّ على الزَّلقة والسُّقوط من مكان عالٍ إلى مكان سافل، تمامًا كما وقع النَّبيُّ يونس ﷺ من علوِّ السَّفينة إلى سحيق البحر، واستعملَ صيغةَ المفعول الواقع عليه الفعل، وهو المدحضُ[3].

بلاغةُ التَّعبير بالاستعارة في ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾:

دلالةُ الاستعارة على أنَّ يونس كان مغلوبًا على أمره

استُعمِلَ لفظُ الإدحاض في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ وصفًا لما كان مِن أمرِ نبيِّ اللّه يونس ﷺ، "والإدحاضُ: جعلُ المرء داحضًا، أي: زالقًا غيرَ ثابت الرِّجلين، وهو هنا استعارةٌ للخسران والمغلوبيَّة"[4]، فهذا كان حال يونس ﷺ بعد أن عصى أمرَ ربِّه، فأُلقي في البحر، فوُصِفَ بأنَّه مِنَ المدحضين، أي: مِنَ الخاسرين والمغلوبين، وهذا الوصف يدلُّ على أنَّ العصيان والبُعد عن طاعة اللّه يؤدّي إلى الخسارة والفشل، وإن كان العاصي نبيًّا.

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ﴾:

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾، الفاء هنا عاطفةٌ؛ إذ عطفت فِعلَ الالتقام على كلام محذوفٍ تقديرهُ ما مرَّ مِن فعل الإلقاءِ في البحر[5].

---

(1) ابن سلام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 843.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 292.

(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 317.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 176.

(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 311.

دلالةُ التَّعبير بـ(التقمه) مادَّة وصيغةً:

دلالـةُ الالتقام علـى عظمـة الحوت

الالتقامُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾ واردٌ بمعنى البلعِ، فإنَّ الحوتَ الَّذي التقم نبيَّ اللّه يونسَ حوتٌ عظيم كبير يبتلع فرائسَهُ من غير أن يعضَّ بأسنانِهِ(1)، فقد ابتلعَ الحوتُ نبيَّ اللّه ﵇ من غير أن يؤذيَهُ إشارة إلى تدبيره تعالى، والتَّعبيرُ بصيغة الافتعال (التقمه) (افتعله) دالٌّ على المبالغة(2)؛ للإشارة إلى قدرةِ اللّهِ تعالى وعظمته؛ ولتكونَ قصَّته ﵇ درسًا لما بعده مِنَ الأجيال في وجوب الصَّبر على أعباء الدَّعوة ومشاقِّها.

دلالـةُ الالتقامِ علـى الابـتـلاع دفعة واحدة

وقد ورد في الآثار التَّفسيريَّة أنَّ الحقَّ ﷻ لمّا قدَّر على نبيِّه يونس ﵇ الإلقاءَ في البحر؛ أوحى إلى الحوت ألّا تخدش له لحمًا، ولا تكسر له عظمًا، وألّا تصيبَهُ بأيِّ سوء حتمًا(3)، فمِن هذا يُفهم سرُّ التَّعبير بالالتقام، فهو مشتقٌّ من اللُّقمة في الابتلاع، أي: التقمه دفعة واحدة(4)، ولا يخفى أنَّ الابتلاع على هذه الطَّريقة يتناسب مع وحيه تعالى للحوت بألّا يمسَّه بسوء عند ابتلاعه.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡحُوتُ﴾:

دلالـةُ (ال) على حـوت معـروف مـرصـود لـهـذا الغرض عظيم

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُوتُ﴾ عهديَّةٌ، فإنَّ الحوت المعنيَّ هو حوت معروف من ناحية أنَّه لا حوت أعظم منه حجمًا، وكأنَّه لا حوت غيره(5)، وهو رمزٌ للقوَّة والعمق والظُّلمات التي ابتلع فيها يونس ﵇، وكأنَّه يقول: إنَّ هذا الحوتَ ليس كأيِّ حوت، بل هو "حوتٌ مرصود لهذه الغاية، وأنَّه مسوق بقدرة اللّه إلى تلك المهمة، وهي ابتلاعُ يونس"(6)؛ لتبرزَ بذلك عظمةُ البلاء الذي وقع على نبيِّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 176.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 4/ 538.
(3) الجرجاني، درج الدّرر: 3/ 958.
(4) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 317.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 292.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1028.

موقعُ جملة: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ودلالته:

دلالـةُ صيغة اللَّوم على حال مـن التقمَهُ الحوتُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ دالَّةٌ على الحال[1]، وما بعد الواوِ جملة اسميَّة من المبتدأ والخبر واقعة موقع الحال في محلِّ نصب[2]، والمعنى أنَّ الحوتَ قد التقمَهُ حالةَ كونِهِ مليمًا نفسَهُ، أو ملامًا مِن غيرِهِ تأسيسًا على ما في معنى المليمِ من كونِهِ لومَ المرء نفسَهُ، أو أن يلامَ مِن غيرِه، استحقَّ اللَّوم، أم لم يستحقَّ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مُلِيمٌ﴾ مادَّة وصيغة:

تـوصِـفُ من اكتسب اللَّوم وإن لم يحصل له لومٌ مِن غيره

قوله: ﴿مُلِيمٌ﴾ صيغةٌ صرفيَّة دالَّة على اسم الفاعل، والفعل منه ألأم مِنَ اللَّوم إذا كان منه فعلٌ يلومه النّاس عليه، فلمّا جعلَهم لائمين له؛ صار ألأمَهم على نفسه[3].

ويجوز أن يكونَ معنى قولِهِ تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وصفًا لمن اكتسب اللَّوم، وإن لم يحصلْ له لومٌ مِن غيرِهِ، واللَّوم يحصل باللِّسان عادة[4]، ولعلَّه كان يلوم نفسَهُ على ما كان منهُ مِن خروج من غيرِ إذنٍ من ربِّه ومولاه[5].

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَوۡلَآ﴾:

تعليقُ النَّجاة بالتَّسبيح والتَّوبة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ عاطفة تفيد السببيَّة؛ لأنَّ نبيَّ اللّهِ يونسَ عليه السلام لَمّا كان مِنَ المسبِّحين التّائبين بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]؛ كان ذلك التَّسبيح، وتلك التَّوبة سببًا في نجاته ممّا كان فيه من شدَّة وضيق وكرب[6].

(1) السّمين، الدرّ المصون: 9/ 330.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 312.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 176.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 393.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 588.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 177.

ويجوز أن تكونَ الفاءُ من قولهِ تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ﴾ استئنافيَّةً لإفادة التَّعليل[1]، أي: تعليلُ سببِ انتفاء بقاءِ يونسَ في بطن الحوتِ إلى يوم القيامة، فإنَّ التَّسبيحَ هو السَّببُ في نجاته، وكأنَّ الحقَّ تعالى يذكِّرنا بأنَّ التَّسبيح هو مفتاح النَّجاة في كلِّ شدَّة.

معنى (لولا) ودلالتها:

الأصلُ في (لولا) في كلام العرب أنَّها حرفُ امتناعٍ لوجود، والممتنعُ معها هو الثّاني[2]، وهي الواردةُ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾، فامتنع اللَّبثُ لوجود التَّسبيح.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

وجودُ الشَّرط (التَّسبيح)؛ مَنَعَ الجواب، وهو لبثُهُ في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ تقتضي جوابًا ممتنعًا، وجوابها قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، وقد صدَّرها بحرف الشَّرط غير الجازم (لولا)[3]، ومن خصائصه أنَّه إذا وجد الشَّرط؛ امتنع الجواب، والشَّرط كونه ﷺ قائمًا على التَّسبيح والصَّلاة مداومًا عليهما، فلمّا كان ذلك كذلك؛ امتنع الثّاني، وهو جوابها، وهو، أي: لمكث في بطن الحوتِ إلى اليوم الموعودِ، أو لصار بطنُ الحوت له قبرًا حتّى يوم البعث الأكبر[4]، وهو ما امتنع حصولُهُ، فأنجاه اللّٰه تعالى بما كان مِن كَثرة صلاته وتسبيحه[5].

دلالةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾:

سوقُ التَّسبيح طمعًا في رحمة اللهِ والنَّجاة من الكربة

فعلُ الكون في قولهِ تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ دالٌّ على الصَّيرورة، أي: صار من المسبِّحين[6]، فهنا وصفٌ لعمليَّة تحوُّلٍ وتطوُّرٍ حدثَت ليونسَ عليه السلام، فالتَّسبيح هنا ليس مجرَّد فعلٍ عابرٍ، بل

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 10/ 63.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 346.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 10/ 63.
(4) الثّعلبي، الكشف والبيان: 22/ 427.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 553.
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 588.

هو حالةٌ روحيَّة وصل إليها يونس نتيجةً لما كان مِن أمرهِ في بطن الحوت، وطمعًا في رحمة ربِّه، ونجاته من كربه.

ويجوز أن يكونَ معنى فعل الكونِ في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ دالًّا على المضيِّ حقيقةً، كما هو شأنُه في لسان العرب[1]، أي: إنَّه كان مِن المصلّين قبل البلاءِ والعقوبةِ، ولولا ذلك؛ لظلَّ سجينًا في ظلمات البحرِ إلى يوم البعث الأكبرِ[2]، يئِنُّ وحيدًا، ولا ذاق طعم الحرّيَّة قط، فالصَّلاة كانت نورًا وهدًى أخرجَتْهُ مِن ظلمات الضَّلال إلى نور اليقين.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

سـوقُ مـا يـدلُّ عــلى فـطـرة التَّسبيح ابتداءً، وليس التَّسبيحُ أمرًا طارئًا عليه

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ ابتدائيَّةٌ[3]، أي: إنَّ يونس عليه السلام من المسبِّحين المداومين على التَّسبيح من أوَّل أمره، وليس التَّسبيح طارئًا عليه، يؤيِّد ذلك أنَّ الحقَّ سبحانه أنجاه من محنته، وأنَّه لَمّا كان وافرَ الذِّكر في حال رخائِهِ؛ ذكره المولى سبحانه في وقت شدَّتِه، فأنجاه مِن محنته، وأخرجه سالمًا مِن أزمته[4].

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

كـلُّ مَـن كـان التَّسبيح ديدنَهُ وخـصـلـتـه أنجيناه من كربه ومحنته

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ لاستغراق الجنس، فليس التَّسبيح مقصورًا على وقتٍ أو مكان أو شخص معيَّن، بل هو حالةٌ قلبيَّةٌ مستمرَّةٌ، ومِن هنا جاءت الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ مَن لجأ إلى التَّسبيح في محنتِهِ؛ وجد فيه النَّجاة والخلاص، وكأنَّ الحقَّ تعالى يقول لنا: إنَّ التَّسبيح هو المفتاحُ الذي يفتح أبوابَ رحمتِهِ، وينجي العبدَ مِن محنتِهِ.

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 3/ 1184.
(2) مكيّ القيسيّ، الهداية: 9/ 6161.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 199.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 294.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ مادَّة وصيغة:

تعليلُ الإنجاءِ بالتَّسبيح والدَّوام عليه

عبَّر عن حالة نبيِّ اللّه يونس ﷺ والَّتي أنجته ممّا هو فيه من الكربِ داخلِ بطنِ الحوتِ بقولهِ تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾، أي: إنَّهُ كان من الَّذين يذكرون اللّه كثيرًا تسبيحًا وتقديسًا مدَّة عمره[1]، والتَّعبيرُ بالصّيغة الاسميَّة دالٌّ على الدَّوام والاستمرار والثُّبوت، فلا يُنعت شخص بهذه الصِّفة ما لم يكن دائمَ التَّسبيح للّه تعالى؛ فإنَّها صفةٌ دالَّة على كثرة الممارسة[2]، فقد كان لا ينقطع عن ذكرِ اللّه وتسبيحه، وكان ذِكرُه للّه كالنَّهر المتدفّق، وكان قلبُه روضةً مزدانةً بذكرِ اللّهِ.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَلَبِثَ﴾:

لولا التَّسبيحُ الدّائم؛ لصارَ بطنُ الحوتِ قبرًا ليونس ﷺ إلى يوم القيامة

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ واقعةٌ في جواب (لولا)[3]، فلولا أنَّ لسانَ نبيِّ اللّه يونس لم ينفكَّ عن ذكرِ اللّه وتسبيحِه في أعماق الظُّلمات؛ لصارَ بطنُ الحوت مهجرَهُ الأبديَّ، وقبرَهُ السَّرمديَّ إلى يوم القيامة[4]، ففي تلكَ المحنةِ العظيمةِ كان الذِّكرُ نبراسَهُ الَّذي هداه إلى بَرِّ الأمان، وليكون عِبرةً لكلِّ مؤمنٍ، فإنَّ الصَّبر والذِّكر هما السِّلاحان الأقوى في مواجهة الشَّدائد.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (لبث):

القصدُ إلى تحقيق معنى الإقامةِ مع الحياة

معنى اللَّبث الوارد في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ هو البقاءُ حيًّا في بطن الحوت إلى يوم القيامةِ، أو أن يكونَ بطنُ الحوت له قبرًا حتّى يوم البعث الأكبر[5]، والأوَّل أنسبُ لما في معنى اللَّبث مِنَ الإقامة مع الحياة[6]، فإنَّ الموت لا يُسمّى لبثًا.

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 515.
(2) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 318.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 82.
(4) ابن علّان، الفتوحات الربّانية: 1/ 175.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 62.
(6) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 319.

واللَّبث في معناه اللُّغويِّ عند العرب ما يكون مع الإقامة والبطء والتَّأخُّر كقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ: 23]، أي: آمادًا طويلة، فاستعمالُهُ في قصَّة يونس عليه السلام دالٌّ على بقائه مددًا طويلة في بطن الحوت ليس على سبيل الحقيقة إنَّما على سبيل الفرضِ، فإنَّه لولا تسبيحُهُ الَّذي أنجاه؛ لمكث طويلًا في بطن الحوتِ إلى يوم القيامة[1].

نكتةُ تعديةِ الفعل (لبث) بـ﴿إِلَىٰ﴾:

تحقيقُ مقصدِ المبالغةِ في طول مدة المكث

استُعمِل فعل اللَّبثِ متعدّيًا بـ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لإفادة المبالغة في تطاول المدَّة التي يكون فيها يونس عليه السلام في ظلمات بطنِ الحوتِ إلى يوم البعثِ[2]، متأمِّلًا في قدرة خالقه، متضرِّعًا إلى رحمته، حتّى أخرجَهُ منه آية للنّاس، وطال به الأمدُ في ذلك الظَّلام حتّى كاد اليأسُ أن يغشاه، لولا أنَّ اللّه تعالى أظهرَ له رحمته الواسعة.

سرُّ ذِكرِ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾:

تخصيصُ بطنِ الحوت وعاء ليونس عليه السلام

التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ سبحانه أوحى إلى الحوتِ بعد أن التقمَ يونس: أنّي لم أجعل يونس عليه السلام رزقًا لك، وإنَّما قد جعلتُ بطنَك له وعاءً[3].

علَّةُ تسميةِ يوم القيامة بـ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

تمثيلُ الغائبِ بالحاضر

تسميةُ يوم القيامة بيوم البعثِ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بقصَّة نبيِّ اللّه يونس عليه السلام، ففعلُ البعثِ يحمل في طيّاته معنى الخروج من الضّيق إلى السَّعة، ومن الظُّلمات إلى النّور، تمامًا كما خرج يونس من بطن الحوتِ إلى الحياة من جديدٍ، فإنَّ يوم القيامةِ هو اليوم الَّذي يُبعَثُ فيه جميعُ الخلق مِن قبورِهم،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 627.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 139.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 125.

ليُحاسَبوا على أعمالِهم، وينتقلوا إلى دار الخلود، فهو تناسبٌ بديع، وتلاؤمٌ بليغ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

يومُ البعث ليس بعيدًا والدُّنيا استعداد له

التَّعبيرُ بفعل البعثِ في قوله تعالى: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ يقرب من كونِه نفحةَ حياةٍ تهبُّ على العبدِ، فمِن خلالها يتصوَّر عظمةَ اللّه وقدرته على إحياء الموتى، وتجديد الخلقِ كما كان مِن شأنِ يونس ﷺ فصيغةُ المضارع هنا تجعلُ القارئَ يشعر بأنَّ يوم البعثِ ليس حدثًا بعيدًا، بل هو واقعٌ قريب، وأنَّ الحياةَ الدُّنيا ما هي إلّا استعدادٌ لذلك اليوم العظيم، وتحثُّه على الاستعداد للموت والحساب، والتَّطلُّع إلى الحياة الآخرة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير المجموع في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

إيثارُ الجمعِ ليستغرقَ بالخطاب كلَّ دابّةٍ

مع أنَّ الحقَّ ﷻ حكى لنا حال نبيِّه يونس ﷺ مع الحوتِ إلّا أنَّه ذكرَ فعلَ البعثِ مسندًا إلى الضَّمير الدّالِّ على الجمع بقوله تعالى: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾، فلم يفرد؛ درءًا لتوهُّم انتفاء بعْثِ الحيوانات العجم، ولو ثنّى؛ لظنَّ أنَّ البعثَ خاصٌّ بيونس وحوته، وأنَّ البعث لهما خاصَّة[1].

موقعُ جملة: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ ودلالته:

حَمْلُ اللَّبثِ في بطنِ الحوت على حالٍ من الظَّلام والضّيق والوحشة

يقع قوله تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾ موقعَ الجوابِ للحرفِ (لولا) بدلالةِ اللّامِ المتَّصلة بفعل اللَّبث العائدِ ضميرُهُ على يونسَ ﷺ، أمّا ﴿فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾؛ فهو جارٌّ ومجرور متعلّق بفعل اللَّبث، ويجوز أن يكون متعلِّقًا بمحذوفٍ على تقدير الحاليَّة من ضمير الفاعل المستترِ، أي: لبث مستقرًّا في بطنِه[2]، في ظلماتِ بطنِ الحوت يعاني من الظَّلام والضّيق والوحشة؛ ليتذوَّق طعمَ البلاء، ويتوب إلى ربِّه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 293.

(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 82.

دلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

تأبيدُ البقاء بموت الحوت أو احتجازه في قاع البحر حتّى البعث

معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ التَّأبيد، وذلك بأن يميتَ الله تعالى الحوتَ الذي التقمَهُ، فيبقيا في قاع البحرِ إلى يوم القيامة، أو أن يحتجزَ الحوت بأمرِ اللّه في مكانٍ ما مِنَ البحر، فلا يطفو، ويبقى يونس هكذا لابثًا في بطنه إلى حين مبعثِهِ يوم القيامةِ من قعر البحرِ[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 177.

المحتويات

